كتاب الشهر

# جودي

ملخص من كتاب بقلم ادوين فـــارلي



Photo: Imperial War Museum.

# جودي

**كانت تلك الكلبة نسيج وحدها.**
**وهي من حيث نسبها تنتمي الى كلاب الصيد،**
**تلك الفصيلة المشهورة بذكائها. لكن جودي تمتعت بذكاء**
**يتجاوز ما هو معهود لدى الحيوان ليداني البشر.**
**وعلى متن سفينة حربية بريطانية في نهر يانغتسي،**
**اكتسبت مكانها كفرد لا غنى عنه من الطاقم.**
**وبعد ذلك عرفت الأسر في سجون اليابانيين،**
**ومعه عانت الجوع والعذاب، الا انها ابتكرت**
**طرائق عدّة لشنّ حربها الخاصة ضد مضطهديها.**
**والى جودي يعود الفضل في إنقاذ حياة كثيرين**
**من "زملائها" ومنحهم المرح والصبر**

وقفت جودي تهزّ ذيلها وهي تحيّي كل لاجىء مع صعوده الى السفينة المدفعية البريطانية "غراسهوبر." ولا شك أن كلبة الصيد الانكليزية ذات السنوات الست وجدت في ذلك العمل جزءاً من واجبها بعدما اتخذها طاقم السفينة كجالب للحظ. ويبدو كذلك انها أحسّت رهبة الموقف.

كانت سنغافورة آنذاك على وشك السقوط في أيدي اليابانيّين. وجلجلت النار في أرجاء المدينة بعدما غادرت البواخر الكبيرة الميناء. وبين السفن القليلة التي ظلّت راسية "غراسهوبر"، وهي من أصغر سفن الاسطول البريطاني، وتبلغ حمولتها ٥٨٥ طناً. وكانت السفينة أمل اللاجئينَ الوحيد، وجلّهم من ممرّضات

# قصّة كلبة في حرب ٧



الجيش وزوجات العسكريين وأولادهم. وقد أتى الذعر عليهم جميعاً، ولاسيّما الاطفال الاصغر سنّاً.

وعندما أصدر قائد السفينة الكوماندر ج.س. هوفمان أمره بالانطلاق في التاسعة من مساء تلك الجمعة المشؤومة الواقع فيها الثالث عشر من فبراير (شباط) ١٩٤٢، كانت سفينته تعجّ بما يزيد على ٢٤٠ مسافراً وملّاحاً. وراحت الكلبة جودي ذات الوبر الحريري تنساب بين الركّاب وتحيّيهم وتلعب مع الاولاد.

ومع الفجر كانت السفينة في عرض بحر الصين الجنوبي، ترافقها السفينة الشقيقة "دراغونفلاي" مع سفينة قطْر ويختين سياحيَّيْن. وكانت تلك المراكب جميعاً تقلّ الركّاب. وتحرّك الاسطول

All illustrations: Pat Owen

الصغير جنوباً نحو جاوا، وسفنُه تشقّ المياه الصافية تحت شمس زرقاء حارّة. وفي العصر اتّجه الكوماندر هوفمان بالاسطول كله نحو مجموعة جزر تغطّيها الغابات، على أمل وجود مأوى لتلك الليلة. وكانت غراسهوبر على بعد مئة متر من إحدى الجزر عندما برزت جودي على منصّة الربّان.

وإذْ كان هوفمان قلِقاً في تلك الاثناء، قال للكلبة: "اذهبي الى أسفل." لكنها رفضت أن تتزحزح وأشارت بخطمها نحو سنغافورة وأخذت تعوي بشدّة وهي تتحدّى أمر سيّدها. وأدرك طاقم السفينة على الفور مغزى أفعال جودي التي اشتهرت بين جميع ملّاحي الاسطول بأنها تعمل عمل الرادار إذ تستشعر الطائرات عن بعد قبل أن يراها المراقب بمنظاره. وللحال أُنذر طاقم دراغونفلاي بالامر.

ومع بروز أوّل مقاتلة يابانية، كانت مدفعية السفينتين على استعداد لردّ الهجوم. لكن القنابل سقطت على غراسهوبر وأُصيب هوفمان بجرح كبير في ساقه.

وكانت جودي نزلت الى تحت وجلست مع النساءِ والاطفال مع اشتداد الهجوم الجوّي. وأُصيبت سفينة الجَرّ بقنبلة وغرقت. وشبّت النار في اليختين. وسقطت قنابل ثلاث على دراغونفلاي أنزلتها الى القاع رأساً على عقب. وبعد إصابة غراسهوبر في مؤخرها ووسطها، أمر هوفمان الركاب بمغادرتها.

وعلى رغم ضرب الطائرات المستمرّ، استطاع نحو ستين ناجياً من الاسطول بلوغ الجزيرة في أحد مراكب غراسهوبر المخصصة للنجاة وعلى الاطواف الصغيرة. وكان بينهم ستة ملّاحين من سفينتين غارقتين كُتبت لهم الحياة.

وكان الكثير من الناجين مصاباً بالجروح وبعضهم في حال النزاع. ولم يتنبّه أحد من غراسهوبر الى غياب جودي. وحين هوت القنبلة الثانية على السفينة، سقط عدد من الخزائن عن الجدران وعلقت الكلبة تحت إحداها من غير أن يشعر بها أحد.

وأُعِدّ مكان للتخييم عند طرف الجزيرة. وبعدما دفن اللاجئون موتاهم وجدوا أنفسهم تائهين وسط منطقة غريبة وهم محرومون من الطعام وليس لديهم سوى القليل من المقتنيات الشخصية. وفي الصباح التالي نظّم الكوماندر هوفمان رجال البحريّة في فرقٍ كشفيّة أوكل إليها مهمة الاتصال بالاهالي المحليين والعثور على ماء للشرب. وهذا أهمّ ما يحتاج إليه المرء في الحرّ الاستوائي. لكن رجال البحرية عادوا ليقولوا ان جزيرة بوزيك تلك غير آهلة. ولا هم وجدوا أثراً للماء في أيّ مكان.

وكان هيكل غراسهوبر فوق سطح الماء. وكان القارب الطويل أبحر حول الجزيرة لاستكشافها، وبين رجاله معاون الربّان جورج وايت الذي تطوّع بالسباحة الى السفينة لرؤية ما بقي عليها. وقال له هوفمان: "انظر ما يمكن إنقاذه. وليكن الماء في رأس أولويّاتك، ثم المعدات الطبية وبعدها الملابس وأدوات النوم."

وتسلّق وايت حطام السفينة. وبنى طوفاً من ركن القيادة وبعض الأجزاء الاخرى. وعثر في ركن الملّاحين على

الكثير من الادوات الثمينة، وبينما أمتعة النوم والملابس والسكاكين والملاعق والاشواك والطعام المعلّب. وبينما هو ينزل بتؤدة على السلم الحديدية، سمع صوتاً اخترق نياط قلبه. وهو صوت يجمع بين العواء والأنين. وأدرك وايت على الفور انه صوت جودي.

ومدّ يديه نحو مصدر الصوت حتى سقطتا على فرو دافىء ثم على أنفٍ بارد. وتمتم بعض عبارات التشجيع، ثم رفع الخزانة من فوق الكلبة وحملها الى الدفّة. ووضعها على مهل ليرى ما إذا كانت جريحة. الا انها قفزت ووقفت على قوائمها ومدّت لسانها.

وقال وايت: "لماذا لم تنبحي ونحن نغادر؟" اما هي فأجابته بلحسها يده وقد التمعت عيناها البنيتان الكبيرتان سروراً باللقاء. ووضعها على الطوف مع ما جمعه من الاشياء الثمينة واتجه نحو الشاطىء.

وهناك وجد ان الحاجة تزداد الى ماء الشرب. ولاحظ معاون الربان الأوّل ان جودي لم تنفكّ تقفز الى الشاطىء وتندفع نحو الماء لتلفت الانظار إليها. وكانت تئنّ ثم تعود من حيث أتت وتنبح.

وعلى الشاطىء كان أحد رجال البحرية الستة يجهّز موضعاً للطبخ. ولما شاهد الكلبة تتصرّف على ذاك النحو، سأل وايت: "ما الذي تحاوله كلبتك؟" وارتأى وايت أن يتبعها في رحلتها التالية الى الشاطىء وجثا بالقرب منها وراح يربّت رأسها وكتفيها. وأخذت جودي تئنّ وتحفر الرمل. وبعد قليل تجمع الماء في الحفرة. وغرف معاون الربّان بعض الماء بيديه، فاذا به ماء ينبوع صالح للشرب. وصرخ نحو زملائه:"لقد عثرت جودي على الماء!"

وخلال العشاء ذلك المساء، رفع الجميع كؤوس الماء وشربوا نخب جودي. ولم تكن تلك المرة الاولى التي ينقذ فيها كلب حياة البَشر، ولا هي الاخيرة.

## كلبة ذات مزايا

وُلدت جودي في شنغهاي في فبراير (شباط) ١٩٣٦. وكانت جرواً في وجار محلّي عندما قرّرت اللجنة الغذائيّة للسفينة الحربية البريطانية "نات" شراء كلب لمرافقة البحّارة خلال توقف السفينة في شنغهاي لاجراء بعض التصليحات. وهي، بقعرها المسطح ومدخنتها المزدوجة، صغيرة الحجم بحيث لا تستطيع عبور نهر يانغتسي بأمان عند ضفافه الرملية الخادعة. لكنها مؤهلة للابحار في عرض الماء وتشغيل مدافعها بجدارة.

وعلى رغم ان الصين لم تعلن الحرب رسمياً ضد اليابان قبل معركة بيرل هاربور عام ١٩٤١ يوم وقفت الى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا، الا ان الامتين الشرقيتين تعاركتا بمرارة طوال السنوات الأخيرة. وبعدما احتلّ اليابانيون منشوريا، أرسلوا طائراتهم وسفنهم المدفعية لقصف بعض الاهداف على نهر يانغتسي.

وبعد إجراء الاصلاحات المطلوبة واستعداد "نات" للانطلاق، تجمع طاقمها على الدفّة العليا. وقال رئيس اللجنة الغذائية ان على الحيوان الاليف المنشود أن يتمتع بثلاث مزايا، "اولاها ان يكون انثى، إذ لا نستطيع العيش طويلا من دون

الرفقة الانثويّة. وثانيتها أن تكون جذّابة، والثالثة أن تكسب عيشها بعملها." والمقصود بالمزيّة الاخيرة ان تؤدّي الكلبة قسطها في رحلات صيد البطّ لدى الرسو على الشاطىء.

واستدعى رئيس اللجنة امين التموين الذي برز ومعه جودي مربوطة برسن. وأقعت ومدّت لسانها وبرزت على وجهها ابتسامة كأنها تحيّة للرجال. وقال رئيس اللجنة: "هذه هي الكلبة... انها سيّدة البحرية الاولى جودي."

وهكذا انضمّت جودي الى البحرية الملكيّة. ودوّن معاون الربّان الاول تشارلز جفري في مفكرته: "انها كائن محبَّب جداً. وفي رأي الربّان ألاّ ندلّلها كثيراً خوفاً من أن تتجاهل واجباتها في الصيد. وسرعان ما وجدنا ان تنفيذ رغبة المدير أمر مستحيل. فالرجال دلّلوا جودي أيّما تدليل حتى غدا تدريبها على الصيد أمراً شاقّاً."

ووقع الاختيار على البحّار القدير جان كوبر لتسلم مسؤولية جودي. وفضلا عن مسؤوليته في حراسة مخازن السفينة كلها، فهو كان اللحّام المختصّ، الامر الذي جعل جودي تتعلق به أكثر فأكثر.

وتفحّصت جودي بيتها الجديد بدقّة. ومن الامور التي أحبتها كثيراً مراقبة المؤن الغذائية الاضافية مع كوبر، وهي محفوظة ضمن سلال قنّب كبيرة في الدفّة العليا. لكنها، في يوم من نوفمبر (تشرين الثاني)، زحفت من غير قصد عن ميمنة السفينة وانزلقت الى الماء.

في تلك الاثناء كان جفري، معاون الربان، بالقرب من مؤخر السفينة. ولما شاهد جودي تسقط في الماء، نادى الربّان الذي أمر بوقف السفينة فوراً وإنزال قارب نجاة الى الماء. والمعروف ان معظم عمليات الانقاذ في نهر يانغتسي لا يكتب لها النجاح. وكانت سرعة التيار عشر عقد في الساعة. ومع إنزال الزورق الى الماء، لم يبقَ من جودي فوق سطح النهر سوى نقطة ضئيلة.

وأسرع الزورق نحوها ورفعها أحد الرجال من طوقها. وأعطى طبيب نات أمراً بغسل جودي في محلول مطهّر. ونفّذ جفري الامر وجففها بمنشفته. ويتذكر مدير الدفّة فيك اوليفر الذي كان على زورق النجاة: "وقفت جودي ترتجف بخوف، لكني تحدثت اليها وطفتُ معها حول السفينة. ونامت بالقرب من سريري تلك الليلة." وتعلّمت جودي درساً لن تنساه، وهو أن تحفظ مسافة كافية عند حافة السفينة.

ووجدت جودي ظرفاً مناسباً لشكر "الزملاء" على إنقاذها خلال الجولة التفقدية التالية. والعادة أن يتولّى أحد كبار ضبّاط البحريّة المراقبة الدقيقة مرة على الأقل في السنة، وأن تشمل هذه المراقبة كل بحار بمفرده فضلا عن السفينة ككلّ.

ولما جاء دور نات، اصطفّ الرجال على الدفّة وأمام كل منهم فراش نومه وعدّته. وطفق المفتّش يدقّق في كل شاردة وواردة. ولما وصل الى جودي وجدها واقفة بالقرب من غطاء نظيف ومطوي باتقان وقد طُوّق عنقها وكُتب اسمها على السوار. وبرصانة تامة نظر الضابط إليها وتابع جولته.

عندما أنزلت نات مراسيها لتلك الليلة كما تفعل السفن في نهر يانغتسي. وبعيد الثالثة فجراً قفزت من الصندوق الذي تنام فيه ضمن غرفة القيادة وهي تنبح مذعورة في اتجاه جسم يتقدم عبر النهر.

ولم يتردّد الحارس في تصويب النور الكشاف عن مقدّم السفينة. وظهر قاربا قرصنة كبيران يتجهان نحو نات. وللحال أطلق الحارس نار مسدّسه لايقاظ الملاّحين من نومهم. ووقف الكل على سلاحه بسرعة

وكانت عادة القراصنة الدهريّة ربط قاربين والقفز منهما الى السفينة التي يريدون سلبها.

والفضل يعود الى جودي وحدها في اكتشاف القراصنة تلك الليلة وما ان تسلّقوا مقدّم السفينة من قاربيهما حتى روّعتهم طلقة بندقيّة رشّاشة وجعلتهم يعودون أدراجهم مذعورين وسط هتاف طاقم نات بحياة جودي.

في تلك الاثناء كانت الكلبة الامينة غدت جزءاً لا يتجزّأ من طاقم نات. وكتب جفري: "يبدو ان ذكاءها يتطور كلما كبرت سناً حتى يغدو كالذكاء البشري وهي تمقت التعنيف وتسعى الى العطف."



وبعد طلبه الى المسؤولين عن محرك السفينة الرئيسي تفكيك أجزائه ثم جمعها، توجه الى حجرة القيادة. وكان الضغط يزداد على رجال البحرية لاشتداد الطلبات عليهم. وفي تلك اللحظة ارتأت جودي، ترطيب الاجواء، فأخذت تنبح بشدّة وقد وجّهت خطمها الى فوق. وظن الكل ان تصرفها سيجرّ غضب الضابط. ولكن في تلك اللحظة بالذات مرّت طائرة حربية يابانية فوق السفينة.

وقال الضابط: "أكلبةٌ هذه أم جهاز رادار؟ يبدو لي ان جميع سفننا الحربية تحتاج الى كلبة مثل جودي في غرفة القيادة."

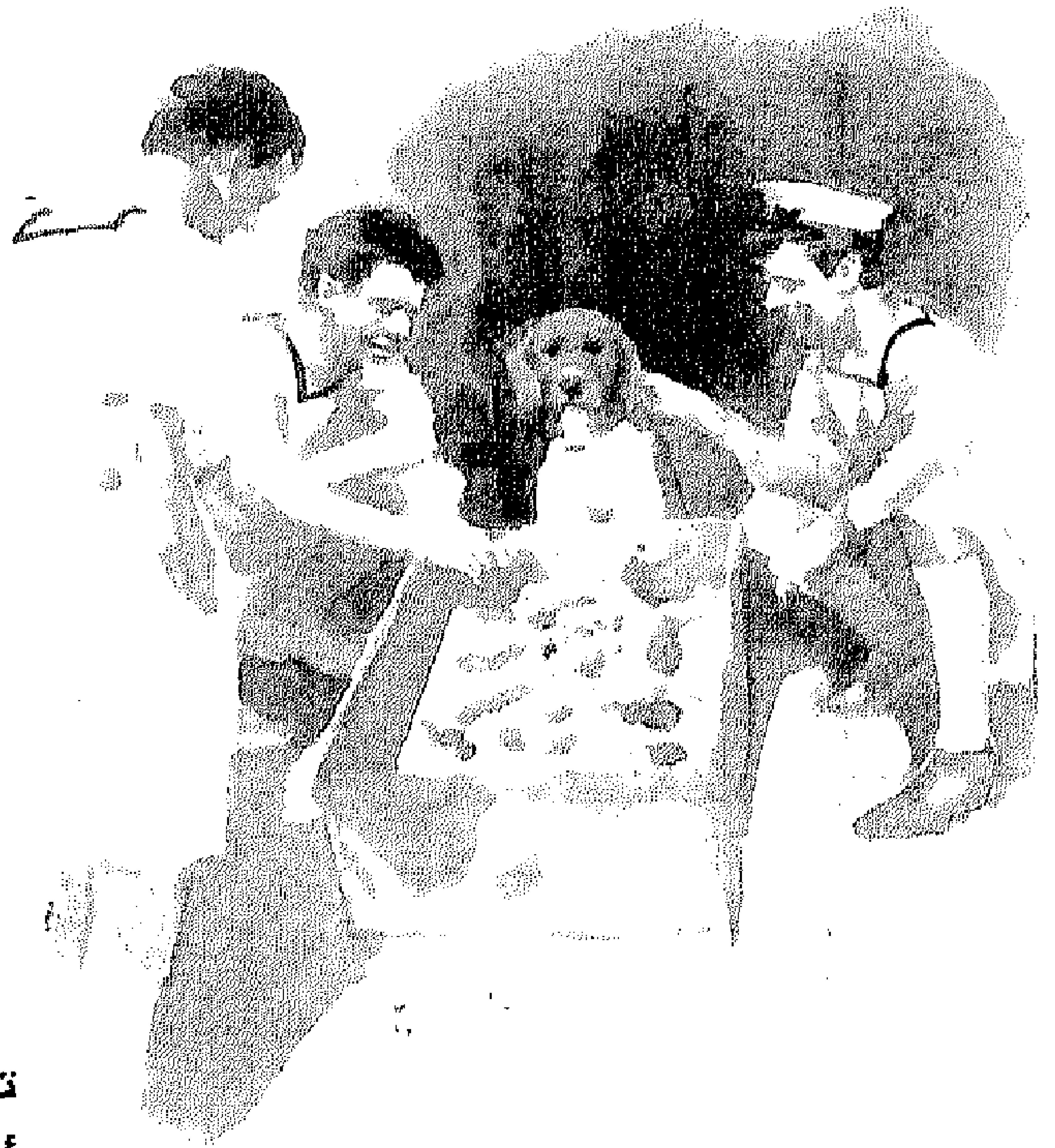
وأقعت جودي عند قدمي الضابط البحري الكبير بعدما أبلت ذلك البلاء الرائع. وكان السرور كبيراً عندما راح الضابط يعبّر عن إعجابه الشديد بتلك السفينة وطاقمها ويقول انه أمضى يوماً عظيماً.

وكشفت جودي عن مواهبها مرةً اخرى

## "أُعلنكما زوجين"

عند رسوّ السفينة على شاطىء هانكو، كانت جودي ترافق الملاحين في نزهاتهم الكثيرة الى البلدة وهي تشاركهم في جميع نشاطاتهم. وعلى رغم عدم ضلوعها في كرة القدم، فهي كانت متمرّسة في لعبة الهوكي.

وعلى مرّ الاسابيع، اكتمل نموّها وصارت كلبة بالغة ملساء الشعر. الا انها



لم تجد بين البحّارة من تعدّه سيّدها. لذلك نظرت إليهم جميعاً على نحوٍ سواء. وفي العام ١٩٨٣ فقدت اثنين من خيرة أصدقائها حين عاد تشارلز جفري وجان كوبر الى انكلترا بعد انتهاء خدمتهما. ولكن سرعان ما اتخذت بديلا لهما في شخصي وافدين جديدين، أحدهما بحّار عُرف باسم "بوني."

وذات يوم، فيما رست الباخرة الفرنسية "فرنسيس غارينيه" قبالة نات في ميناء هانكو، جلس بوني الى مائدة الطعام يكتب رسالة. ولاحظ ان جودي غدت قلقة على نحو غير معهود. ولم تنفكّ تذهب نحو السلم المؤدية الى الدفة العليا وتنظر الى بوني نظرةً متفحّصة. وأخيراً وضع القلم من يده وسألها: "أتريدين أن نخرج في نزهة؟"

لكنها لم ترِد الا التنقل برزانة بين أرجاء السفينة. وسرعان ما أدرك بوني السرّ حين رأى على منصّة القيادة في الباخرة الحربية الفرنسية كلب صيد يراقب حركات جودي جميعاً. وعرف اذذاك انه الحبّ من النظرة الأولى.

الا ان مصير ذلك الغرام مرتبط بالمسؤولين عن كلا الكلبين. وارتأى رجال نات مراعاة التقاليد. وجلس خمسة منهم حول المائدة التي تربّعت اليها جودي.

وقال لها بوني: "لقد حان الوقت لكي نجد لكِ عريساً لائقاً. وأنتِ تعرفين اننا مسؤولون عنكِ، أي أولياء أمرك، ولذلك نريد أن نفعل ما في وسعنا من أجل سعادتكِ." وحرفت جودي رأسها كما لو كانت تصغي وتفهم، فيما تابع بوني: "ان بول كلب ظريف جداً. ويمكن أن نخطبه لكِ اليوم. ونجري مراسم الزواج غداً." ورفع كهربائي السفينة قائمة جودي الامامية اليسرى وأدخل فيها خلخالا صغيراً صُنع للمناسبة وقال: "هذا خاتم خطبتكِ."

وأُحضر بول الى نات وأجرى بوني المراسم على مرأى من بحّارة السفينتين. وقال "اني اعلنكما زوجين." وبعد ذلك بقي بول ثلاثة ايامٍ على متن نات، بمثابة شهر العسل. وأُعيد الى سفينته وهو يحتجّ بشدّة لفصله عن زوجته.

وزاد حجم جودي واكتسبت عيناها مزيداً من الحيوية. وكان اليابانيون يقصفون هانكو عندما انحدر بوني الى غرفة الطعام حيث البحّارة وقال لهم بحماسة: "انها هنا، وعددها ١٣." وعرفوا كلهم انه لا يقصد الطائرات اليابانية. وللحال صعدوا ووقفوا واحداً وراء الآخر لالقاء نظرة على الجراء في صندوق نوم جودي.

وماتت الثلاثة الضعيفة. ولكن بقيت عشرة جراء قوية. أُعطيت صفوتها لطاقم السفينة الفرنسية في حين وُزّعت البقية الباقية على عائلات صديقة في هانكو.

وفي يونيو (حزيران) ١٩٣٩، تغيّر عالم جودي مرة اخرى إذ انتقلت الى سفينة جديدة اسمها "غراسهوبر"، ومعها بعض من طاقم نات. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، سُحبت جميع السفن الحربية من نهر يانغتسي. وتوجهت غراسهوبر مع دراغونفلاي الى سنغافورة. وبعد الهجوم الياباني على المدينة هربت السفينتان. وفي هربهما قُصفتا في بحر الصين الغربي وفرّ الناجون منهما ومن السفن الاخرى معهما الى جزيرة بوزيك.

وهناك عثرت جودي على الماء الصالح للشرب. وذلك حلّ الكثير من المشاكل التي واجهها اللاجئون. ولكن بقي عليهم خوض حرب لا تنتهي ضد النمل وذباب الرمل والعناكب والزحّافات. وكانت تلك الجزيرة تعج بالافاعي من جميع الاجناس. وكلما تجرأت أفعى على الاقتراب من المخيم كانت تتخيّر جودي اللحظة المناسبة للانقضاض عليها وإنشاب مخالبها وأسنانها فيها. وبعد ذلك كانت تلقي الأفعى الميتة أمام الشخص الذي تختاره.

وبعد خمسة ايام عبرت سفينة شراعية هندية من هناك ونقلت الناجين الى بلدة دابو في جزيرة سينكب حيث تُرك الجرحى في عهدة الحاكم الهولندي. وبقي الضابط وايت الذي أنقذ جودي من حطام غراسهوبر في دابو. وسرت بين الباقين هناك اشاعة مؤدّاها ان السفن التابعة للبحرية البريطانية والاوسترالية تنتظر في بادانغ، على بعد ٥٠٠ كيلومتر، لحمل اللاجئين الى كولومبو. غير ان وايت ارتأى الهرب بمفرده. وهكذا بلغ الهند في قارب آلي مفتوح. وكان وداع جودي أليماً. وهو يقول: "لقد لحست يدي قبل أن أفارقها."

ومع سبعة من بحّارة دراغونفلاي العتاة، انطلقت جودي الى بادانغ في سومطرة. ووصلت الجماعة بحراً حتى بلدة رنغات الواقعة على نهر انديرا غيري على ساحل سومطرة الشرقي، وأفرادها غير عارفين ان اليابانيين احتلّوا الجزء الجنوبي من البلد. وفي رنغات قيل لهم ان الطريقة الوحيدة للوصول الى بادانغ هي قطع الكيلومترات المئتين والسبعين على الاقدام.

وباشر البحّارة سيرهم وراء جودي وهي على قناعة بأنهم في عهدتها. ولم تترنح قط في مشيتها، بل كانت تمد أنفها لتحسس الاخطار الكامنة. وجرحها تمساح في كتفها جرحاً بليغاً وكاد أن يسحق رأسها. وعندما انحرفت الى مكان مليء بالمستنقعات، تبعها السبعة جميعاً من غير تردد.

واستغرقت الرحلة خمسة أسابيع. ونسي البحّارة الارهاق عندما ظهر البحر لهم. لكن حلمهم بالحرية والأمان ما لبث أن تبخّر. وكانت السفينة الأخيرة أقلعت قبل ٢٤ ساعة من وصولهم، ولم يبقَ أمامهم سوى التوجه الى المدرسة المحلية الصغيرة، كما أشار عليهم مسؤولو الميناء، انتظاراً لمجيء الجنود اليابانيين وأخذهم أسرى.

وجلست جودي وسط احدى القاعات وقد دلّت رأسها بكآبة وركزت عينيها على الباب المفتوح.

## الليلة الطويلة

لدى سماعها صوت الدراجات النارية، نهضت جودي على قوائمها ووقفت تنتظر وقد رفعت شفتها الى فوق بغضب. لقد وصل اليابانيون.

وأخذ لس سيرل، وهو أحد السبعة، قطعة قماش ووضعها في طوق جودي وجعل منها رسناً، ثم جرّ الكلبة نحوه كي يحميها لدى دخول كولونيل ياباني الغرفة ووراءه ثلاثة من رجاله. وتفوّه بكلمات يابانية مقتضبة ثم غادر الغرفة على عجل. وأُخذ الاسرى على الاقدام الى البلدة حيث انضمّوا الى عدد آخر من أسرى الحرب في ثكنة هولندية. ووُضع الضبّاط من جميع الجنسيات معاً، في حين صُنّف الجنود العاديّون بالنسبة الى جنسيّاتهم. وكان لكل فئة مطبخها الخاص.

وكان معظم الطعام من الرزّ، لكنه أُعطي بمقادير ضئيلة. وعبثاً حاول لس سيرل الحصول على طعام لكلبته بحجّة انها "عضو رسمي في البحرية الملكية." وبات على جودي أن تؤمّن قوتها بما تصطاده من فئران وأفاعٍ وسحليات.

وصارت تكثر التردد على الضباط الأوفر حظاً للحصول على فضلات الطعام لديهم. وسمحت السلطات للتجار المحليين ببيع المنتجات الغذائية مرة واحدة في الاسبوع داخل الثكنة. وكانت جودي تبتهج في ذلك اليوم إذ تستطيع الحصول على طعام كثير بفضل سيرل الذي كان، خلال مفاصلته الباعة ومساومتهم، يُسقِط بعض قطع اللحم والسمك أرضاً من غير أن يلاحظه أحد، فتسرع جودي الى التهامها.

ونُقلت جودي ومعظم "زملائها" من دراغونفلاي الى سجن مماثل في بلدة ميدان شمال سومطرة. وكان الطعام هناك نادراً، ولكن كما قال سيرل: "اليأس كان معناه الموت المحتم. ولم تفقد جودي حسّ المرح لديها. وعرفت على الدوام ما يجب فعله وفي اي حين."

وجاء برهان ذلك في "ليلة طويلة" أُجريت خلالها جولة تفقدية. وكان أحد الجنود، واسمه كازينز، يعمل اسكافياً لليابانيين. وفجأةً راودته فكرة استغلال احدى زياراته الدورية لجناح الضباط من أجل غزو مخزن الطعام. وأقنع لس سيرل

كي يساعده في حمل كيس ثقيل من الاحذية والعودة بحمل مماثل من الرزّ. ولم يتوقع اي منهما أن يقوم اليابانيون بجولة تفقدية الى غرفتهما في اليوم التالي.

وراح سيرل يتضرّع الى الله لئلاّ يكشف الجنود مكان الرزّ، وإلاّ أعدموه حالا هو وجميع الزملاء في الغرفة. ولا بد من أن تكون جودي أدركت الخطر المحيق بالغرفة.

ويتذكر سيرل ما حدث آنذاك: "ليس من قبيل المصادفة انها اقتحمت الغرفة في اللحظة الحرجة وهي تحمل بين فكّيها جمجمة بشرية حفرتها من الارض. ووقف الجنود اليابانيون ينظر أحدهم الى الآخر والى جودي. وتوقعتُ أن أسمع طلقة رصاص في اي لحظة. لكن جودي لم تكن



مغفَّلة، بل اختفت من الغرفة فوراً كما دخلتها. وهي فعلت ذلك بعدما أنجزت ما أرادت إنجازه حسب ظنّي. وفي تلك اللحظة غادر اليابانيون الغرفة بعد إنهاء جولتهم."

وكان الجندي كازينز فخوراً بالكلبة وهي به. وعند جلوسه في فيء شجرة لترقيع الاحذية، كان يرمي اليها بعض قِطع الجلد لتمضغها وتسدّ رمقها. وحين نُقل الى مستوصف الثكنة حيث لقي حتفه، شوهدت جودي مراراً وهي تجلس بلا حراك حيث كان يصلح الأحذية، وقد طأطأت رأسها حزناً.

ثم تعرّفت جودي الى التقني فرانك وليمز التابع لسلاح الجو البريطاني، الذي لعب دوراً حاسماً في حياتها. وكمثل جودي، تمّ إنقاذه من حطام سفينة خلال هربه من سنغافورة. وهو أيضاً ذهب الى جزيرة سينكب وبلغ بادانغ بعيد إقلاع السفينة الأخيرة. اما الآن فقد نقله اليابانيون الى ميدان.

وكان وليمز يجلس القرفصاء في زاوية من كوخه وهو يحمل طاسا معدنيا يحوي حصته اليومية الضئيلة من الرز. وعرف ان عليه ان يأكل اي شيء يقدّم اليه اذا هو شاء البقاء حيّا. ولاحظ شيئاً فشيئاً ان أحداً يراقبه. ونظر فرأى جودي التي لم ترفع بصرها عنه وهو يتقدم نحوها.

ولما وصل اليها تناول بعض الرز من طاسه ووضعه أمامها. ولم تتحرك، بل أصدرت صوتاً خفيفاً. والواقع انها كانت تسعى الى اكثر من الطعام... لقد كانت تنشد الصداقة.

وفهم وليمز قصدها. ووضع الطاس أرضاً ولمس رأسها بيده وراح يربّت اذنيها. وقال: "أجل، هذا بيتكِ يا جميلة."

وفي تلك اللحظة استرخت وأكلت الطعام الذي وضعه لها وجلست بأمان على قدميه.

وهكذا عثرت جودي على سيّدها بعد طول انتظار.

وكان في تبنّي واحدهما للآخر خير لهما معاً، ليس من الناحية النفسية فحسب بل من الناحية المادية أيضاً. وتعلمت جودي سريعاً مغزى كل اشارة أو همسة من سيّدها، سواء أجاءت في أوقات اللهو أم في أوقات الجدّ. وطالما صادرت الفواكه التي اعتاد اليابانيون وضعها على قبور موتاهم عوضاً عن أكاليل الزهر.

وساء وضع المخيم الغذائي على مر الشهور. ومنع الحرّاس التجارَ المحليين من الدخول، الأمر الذي حَرَم الأسرى ما كانوا يحصلون عليه من بيض ودجاج وسوى ذلك من المآكل وجعل معظم وجباتهم يقتصر على الرز.

وساهمت جودي في تحسين الاجواء بحملها الطعام من الخارج. الا ان رحلاتها حول المخيم كانت تنطوي على أخطار كبيرة لكثرة النمور هناك. فضلا عن ان الاهالي يحبون صيد الكلاب لاكل لحمها. وكانت جودي تعود الى المخيم بعد كل غزوة وهي تتفادى أعيُن الحرّاس الغاضبة، ولا تدع السنّور أو الأفعى من فمها الا بعد طرح الجيفة أمام فرانك وليمز.

ثم جاء يوم عادت فيه من الغابة وقد أدهشت الكل ببطنها المنتفخ، خصوصاً أن الكلاب شبه منقطعة في تلك الديار. وحرص وليمز على تأمين المزيد من الطعام لها كي تتمكن من اجتياز فترة الحمل بأمان. وخشي أن يكون في زيادة حجمها فرصة للاهالي المحليين كي يقضوا عليها ويأكلوها.

الا ان جودي اجتازت ذلك الخطر ووضعت الجراء للمرة الثانية. لكن عددها هذه المرة اقتصر على التسعة. وعاش منها خمسة جراء جميلة، ولاسيما ذاك الذي أطلق عليه اسم "كيش."

وكان وليمز لاحظ ان جودي، على رغم مقتها الحرّاس، أظهرت عطفاً خاصاً نحو آمر المخيم الكولونيل بانو. وكان يتكلم الانكليزية ويلوّح بسيفه نحوها لحملها على النباح. ولاحظ وليمز أيضاً ان صديقة الآمر المحلية أحبّت جودي هي الاخرى، وكانت كلما رأتها دعتها باسمها وراحت تمرّر يديها على شعرها الناعم.

وذات مساء عندما كان الكولونيل وحيداً في خيمته، حمل فرانك الجرو المحبّب كيش تحت ابطه وطرق الباب. ولا يجرؤ أسير حرب لدى اليابانيين أن يطرق باب ضابط بهذه الوقاحة خوفاً من مواجهة الاعدام الفوري. لكن الجرو كان جواز المـرور بالنسبـة الى وليمز. وأطلق الكولونيل بانو ضحكة عارمة عندما قفز كيش على الطاولة ولحسَ يده.

وعندئذٍ بادره فرانك بقوله ان كيش هدية الى صديقته. وبعدما قبل الضابط الهدية، استجمع فرانك جرأته كلها ليسأله: "أيمكن أن تعطي جودي رقماً رسميا؟" وهذا يعني منحها حقوقا في

المخيم، كحق الحصول على حصة من الطعام، كما يرفع عنها غيظ الحرّاس واضطهادهم.

وأجاب بانو: "يؤسفني أن أرفض طلبك، إذ ليس من السهل تبرير الرقم الاضافي أمام رؤسائي."

وطرأت فكرة رائعة على ذهن فرانك. وقال للضابط: "ان رقمي الخاص هو ٨١. فلماذا لا تعطى جودي الرقم ٨١ - أ؟ وليس ضروريا في هذه الحال أن يظهر الرقم في السجلات الرسمية."

ووافق بانو على الامر وهو يقلّب الجرو بحبور بين يديه. ثم دوّن المعلومات الضرورية على ورقة وصرفَ وليمز الذي أسرع الى كوخه والورقة الثمينة في يده.

وفي الصباح التالي كانت جودي تلبس طوقاً كُتب عليه الرقم ٨١ - أ.

وهكذا غدت الحيوان الوحيد الذي يعترف به اليابانيون أسيراً حربياً.

## سرقة ودهاء

أُعطيت ثلاثة جراء اخرى لعائلات خارج المخيم بعدما تمّ تهريبها عبر الجناح النسائي. وبقي جرو واحد اسمه بلاكي. لكن حارساً ضربه حتى الموت وهو في حال السكر ويتذكر لس سيرل: "كان الحراس حفنة من الفتيان المحبين للعنف. ولغير سبب ظاهر كان عنفهم يبرز على نحو مفاجيء."

ومنذ الصباح الذي تسلّم الكابتن نيسي امرة المعسكر من الكولونيل بانو، سرى بين الاسرى خبر مفاده ان اليابانيين سيحاكمونهم من جديد. والواقع ان الكابتن نيسي أمر السجناء أن يحتشدوا صفوفاً في ساحة السجن، ووقف يراقبهم وهو يطرق عصاه على حذائه الطويل. وعندما شاهد فرانك وليمز مع جودي الى جانبه، لم يصدّق نيسي عينيه. وسار نحو وليمز متوعّداً. اما وليمز فاصطنع الكآبة في حين أخذت جودي تهزّ جسدها الناحل.

وبخوف شديد تلمس وليمز الورقة في جيبه، وهي الامر الذي يحمل توقيع الكولونيل بانو. وقدّمها الى الآمر الجديد الذي نظر اليها مشدوهاً. لكنها فعلت فعل السحر. وهكذا تُركت جودي وشأنها.

وفي اليوم الثالث لتسلمه الوظيفة، جمع الكابتن نيسي الاسرى من جديد ليقرأ عليهم أوامر القيادة العليا الأخيرة:

"سيتم نقل جميع السجناء فورا الى سنغافورة." وفي المساء تلقى وليمز زيارة خاصة من نيسي الذي قال له انه يودّ إيضاح نقطة مهمّة: "اعلم ان كلبتك لن تذهب الى سنغافورة، بل ستبقى هنا في ميدان."

وصُعق وليمز. ولما غادر الآمر جلس القرفصاء وجودي عند قدميه كالعادة، وهو يفكّر في ما يمكن فعله، علماً انه لم يفكّر لحظة واحدة في ترك جودي هناك. وعرف ان زملاءه الاسرى لن يتوانوا عن تقديم اي مساعدة ممكنة، الا ان أحداً منهم لن يضحّي بحياته من أجل حيوان. ونظر الى جودي وأضاف: "خصوصاً من أجل كلبة هزيلة مثلِك."

ونهض وليمز وجودي في وقت باكر جداً من الصباح التالي. وكان قد وجد ان الطريقة الوحيدة لأخذها معه هي تهريبها في كيس العدّة المحمول على ظهره، بشرط أن يدرّبها على الاختباء داخل الكيس بعيداً عن أنظار الحرّاس. والتدريب الناجح وَقْفٌ على طاعة جودي التامّة وفهمها أدنى اشارة من سيّدها.

وكان عليها أن تتعلم دخول الكيس والخروج منه بسرعة البرق. وظلت ساعة وأكثر تتدرَّب على تلك الحيلة. ثم لقّنها وليمز القفز الى الكيس بنقرة من إصبعه.

وعندما استُدعي الاسرى قبل طلوع الضوء، تولّى وليمز ربط جودي الى عمود في كوخه، وجعل الانشوطة قابلة للحَلّ عند أدنى حركة. وأمرها بالبقاء مكانها، فأطاعت وجلست على الارض وقد تبعت سيدها بنظراتها وهو ينضمّ الى الصفوف.

وزاد الاضطراب في صفوف الاسرى عندما أخذ الحرّاس يكرّرون عَدَّهم ويدقّقون في مقتنياتهم التافهة. ولم يكن لدى وليمز الشيء الكثير. ولكن بما انه من الضروري أن يحمل كيس العدّة على الدوام، فقد وضع فيه ملاءةً كبيرةً ليبدو مليئاً.

وأصدر الكابتن نيسي أمره باطلاق الاسرى خارج المخيم. وحرص وليمز على البقاء في آخر الصف ليدعو جودي في اللحظة المناسبة. ولما أصبح خارج البوّابة صفَرَ لها. لكنه لم يرَها الا تحت احدى عربات القطار.

وانحنى أرضاً فيما شكّل الرجال حوله وقاءً لئلّا يرى الحرّاس ما يجري. وأخذ الملاءة من كيس العدّة ونقر باصبعه، فقفزت جودي للحال الى الكيس. وعند وصول القطار الى المرفأ في بلدة بيلاوان، أنزل وليمز الكلبة عن ظهره فاختفت بعيداً عن الرقباء.

وأوقف الاسرى في صفوف على الشاطئ حيث جرى عَدُّهم ومراقبة مقتنياتهم مراراً. وراح الحراس يزرعون المكان. ورأى وليمز كلبته الامينة بطرف عينه وهي تزحف على الارض بين صفوف الرجال. ورآها الاسرى من غير أن يخفض أحد منهم عينيه لئلّا يلفت أنظار اليابانيين الى ما يجري، وبحركة خفيفة أخرج وليمز الملاءة من الكيس، فقفزت جودي اليه من غير أن يستدير رأسٌ واحد. لكن الكل رآها، باستثناء الحرّاس.

واستغرق صف الرجال على الجسر الخشبي المؤدي الى السفينة القديمة الصدئة ساعات. ووقف فرانك وليمز بجسده الضعيف تحت الشمس، لكنه كان

سعيداً بحمل جودي على ظهره. وأخذ الأسير الاوسترالي الواقف بجانبه قبعته ذات الاطار العريض عن رأسه ووضعها على رأس وليمز العاري، وقال: "إذا خارت قواي، فلا بدّ من أن يعينني أحدهم. ولكن اذا حدث هذا لك أنت، فلن يجرؤ أحد على الدنوّ منك ومن كلبتك."



وفي تلك اللحظة وصل الكابتن نيسي لاجراء جولة تفقدية أخيرة. ووقف أمام وليمز، وكان رأى جودي مربوطةً في كوخه في ميدان وفتّش حقيبته في باحة المعسكر. وقال نيسي: "الكلبة ليست هنا؟"

وهزّ وليمز رأسه بحزن مفتعَل ونظر الى الارض، ولم تحرّك جودي ساكناً.

وابتسم الكابتن نيسي وابتعد، فيما قفز فرانك وليمز الى الجسر وقد سرّه أنّه تجاوز الخطر.

وكانت السفينة في مضيق مالكا وهي متجهة نحو سنغافورة على بعد ٦٥٠ كيلومتراً عندما أصابتها قذيفتان. وقُتل عدد من الرجال في المكان الذي كان يؤوي وليمز وجودي. وتسرب الماء الى الداخل وأخذت السفينة تجنح الى جانب واحد.

وفتح وليمز مصراع باب فوق رأسه ورفع جودي وهو يقول: "اخرجي يا فتاتي وابحثي عن أمانِك."

واستطاع وليمز الخروج من الباب الارضي الى البحر، وكان بين أقلّ من مئتي شخص كتبت لهم النجاة. وبعد ساعتين من العوم في الماء رفعته سفينة شحن يابانية بدّلت وجهتها لأخذ الاسرى الى سنغافورة. ووسّخه الزيت وأتى عليه الارهاق. لكنه راح ينظر عن حافة السفينة بحثاً عن جودي.

ومع وصوله الى معسكر الاسرى في سنغافورة شعر بمرارة الهزيمة لأن جودي لم تكن الى جانبه، وانضمّ الى جماعة من الهياكل العظمية، علماً انه هو أيضاً فقد نصف وزنه بعد سنوات الاسر المضنية. وجاءته ضربة من الوراء طرحته أرضاً. وظن ان أحد الحرّاس ينخسه. لكن الروح عادت إليه عندما رأى جودي تطفر حوله بمرح وغبطة.

وكانت، بعد خروجها من السفينة، أعانت خمسة ناجين على الاقل في البقاء فوق سطح الماء. ومع بلوغها المعسكر

الجديد برفقة لس سيرل، أبت الذهاب معه الى الغرفة التي تؤويه، وفتّشت المخيم كله بحثاً عن وليمز. وإذ لم تجده جلست عند البوّابة وراحت تنظر الى كل وافد حتى حصلت على ما أرادته.

وحملها وليمز وقد استلقى على ظهره وهو يظن ان قلبه سينكسر فرحاً. وبدا لزملائه الاسرى انه يبكي بجنون. لكنه ما لبث أن وقف وسار نحو المكان المهيّأ له ومعه جودي.



## سكّة الجحيم

بعد مضيّ أربعة أسابيع على غرق السفينة، أخبر الناجون انهم سيُرسَلون الى سومطرة في "مهمة خاصة جداً."

وعلى أثر مسيرة قسرية تحت الامطار الغزيرة، وجد وليمز بعض قوّته المفقودة لحمل جودي وقطع المواضع الصعبة بها، كتلك الاجزاء من النهر حيث تصب الشلالات الهادرة والمستنقعات الخطرة والجسور المتصدّعة. وأخيراً وصلت الجماعة الى سومطرة. وتبيّن ان تلك "المهمة الخاصة جداً" هي المساعدة في إقامة سكّة حديد تمتدّ ٣٠٠ كيلومتر عبر الجبال من بيكانبراو الى بادانغ. وكان المهندسون الهولنديون الذين عملوا على ذلك المشروع قبل الحرب هجروه لصعوبة تنفيذه وارتفاع كلفته. ووجد اليابانيون في أسرى الحرب خير وسيلة.

ويقول لس سيرل: "بتنا مرغمين على العمل الشاق وحسبنا أن كل آمالنا في العودة الى أوطاننا تبخّرت. وأسوأ ما في الامر ان العالم كله، بما فيه خاصّتنا، جعلنا في عداد الموتى. ولم نتسلم بالتالي اي رسالة أو خبر."

وراح الاسرى يقطعون الاشجار ويجرفون التراب ويمهّدونه قبل وضع قضبان الحديد في أمكنتها. ولم تكن هناك إمدادات طبية. وظهرت لدى الاسرى جميعاً القروح الجلدية وقضى العديد منهم بفعل أمراض مثل البري‌بري والملاريا أو بفعل القرّ والجوع. وقضى آخرون من الحزن واليأس.

وقال أحد الاسرى واسمه توم سكوت: "كانت جودي تحب أن تمرح بالقرب منا أو أمامنا. كما كانت تقفز وتتشمّم الشجيرات. وإليها يعود الفضل في تعريفنا الى الاهالي الذين كانوا يتحيّنون الفرص لبيعنا منتجاتهم أو ما يمكنهم الحصول عليه للاتّجار به. واذا

وقفت جودي بلا حراك وأقحمت خطمها داخل دغل كثيف ثم بدأت تهزّ ذيلها بتؤدة، فهذا علامة على ان أحد الاهالي ينتظر وراء الاجمة ليقصده أحدنا ويشتري منه." وبتلك الطريقة تمكّن سكوت من مقايضة خاتم ذهب – وهو من أحَبّ مقتنياته إليه – بكمية من التبغ والقهوة جعلته رجلا غنياً حسب مقاييس الأسرى.

وكان دور جودي ايجابياً كذلك من حيث تأمين المزيد من الطعام للاسرى. واذا ما اندفعت الى الأجمة وأخذت تقفز وتنشب مخالبها، عرف الجماعة انها قبضت على فأر أو أفعى. والحرّاس اليابانيون أنفسهم قدّروها حق القدر. وكانوا، حين يسمعون نباحاً شديداً صادراً عنها، يهرعون الى مصدر الصوت وبندقياتهم على أستعداد لقتل وحش الغابة الذي عثرت عليه جودي وهي لا تستطيع الاطباق عليه. وكانت الغابة تعج بالنمور والافيال والدببة، وهي كلها مصدر غذاء في تلك الظروف الصعبة.

ويتذكر سكوت ان جودي لم تعد صالحة كحيوان أليف، بل وجّهت جلّ اهتمامها الى السلب والقتل، ولم تبش الا لسيّدها فرانك وليمز.

وإن هي نبحت في وجه أحد الحرّاس وهدّدها بأخذ الثأر، كان وليمز ينقر اصبعه بخفّة فتختفي جودي وسط الأجمة من غير أن يسمعها أو يراها أحد. وكانت صفرة ضئيلة من سيدها تكفي لاعادتها إليه. ويقول سكوت: "كنت على الدوام معجباً بالتفاهم التام بين فرانك وجودي. والواقع ان كلا منهما عاش للآخر. وخشيت أن افكر في ما عساه يحصل لأحدهما اذا أَصاب الآخر داءٌ عَياء. ولا شك عندي ان غياب فرانك من شأنه أن يقضي على جودي حزناً."

وفي بداية صيف ١٩٤٥، أحسّ الاسرى ان ثمّة حَلّا في الأُفق. وظهرت دلائل جعلت سكوت يستنتج ان اليابانيين على وشك الاستسلام: "غدا تقريع الحرّاس لنا أقلّ من ذي قبل، وأعطينا حريةً أكبر للخروج الى الغابة طلباً للمزيد من الطعام."

أجل، كانت الحرية على مسافة أسابيع الا ان جودي كادت تفقد حياتها مرة اخرى في تلك الأثناء. وكان أن اغتاظ حارسٌ ياباني من أحد السجناء العاملين على بناء السكّة، فأخذ يضربه على رأسه بجذع قصبة. ولم يكن ذلك الحادث الأوّل من نوعه. لكن جودي ارتأت التدخل. وفيما تراجَعَ الاسير متأثراً بجروحه البالغة، قفزت جودي الى مكانه وأخذت تعوي وقد احمرّت عيناها.

واشتاط الحارس لجرأة الكلبة. ووضع القضيب أرضاً وتناول بندقيته.

وعرفت جودي عندئذٍ انها تجاوزت حدّها، وان الوقت حان للانسحاب. وقفزت الى دغل قريب قبل أن يطلق الحارس النار. ولم يسمع أحد صوتها. ولكن حين دعاها وليمز لاحقاً، وجد ان الرصاصة أحدثت خدشاً بسيطاً في جلدها.

ولم يكن للسجين الذي أنقذته من الموت ضرباً اي طريقة يكافئها بها. الا ان جودي وجدت المكافأة بنفسها في اليوم التالي.

وسمع وليمز صوتها وهي على طرف الغابة وذهب ليرى ما حدث. وكانت تحاول طمر عظمة هي أكبر قطعة من نوعها

شاهدها اي منهما. ولا بد من انها عظمة فيل. وتركها وليمز تكمل عملها وقد سُرَّ لأنّها جرمت اللحم عن تلك العظمة.

## "اقتلوا جودي!"

خلال جولة تفقدية على الأسرى، تبيّن ان القمل غزا أجسادهم. وخاف اليابانيّون كثيراً لأنّ وجود القمل يروّعهم، وربما انتقل من الأسرى إليهم. والطريقة الوحيدة لتنظيف المخيم من "تلك الاهانة للجنس البشري" هي حلق رؤوس السجناء وحواجبهم والتخلص من جودي.

وفي اللحظة الحاسمة، أصدر فرانك وليمز صوتاً خفياً اختفت على أثره جودي. وظلّ يومين يأمرها كي تختبىء في الأدغال كلما سأل حارس عنها. وأخيراً خرجت بظفَر، وكانت طائرات الحلفاء تحلّق فوق رؤوس الأسرى. إذاً انتهت الحرب وولّت معها سنوات الأسر والقهر.

وسار فرانك وليمز وأمامه جودي نحو السفينة التي أقلّت الاسرى الى سنغافورة. وعندما سُلّم أوراق الابحار الى انكلترا، قرأ عليها الملاحظة الآتية: "يُمنَع منعاً باتاً نقل الكلاب وجميع الحيوانات الأليفة على هذه السفينة."

وتمتم في اذن جودي: "النقل غير مسموح للكلاب، وهو مقصور على أسرى الحرب وأنتِ، بلا ريب، في عداد هؤلاء الأسرى."

وهرّبها وليمز من غير أن يدري به أحد وقد انتظر حتى قلّ عدد الناس على الجسر المؤدي الى السفينة، ثم شقّ طريقه فيما راح أربعة من زملائه يتجادلون مع البحّارة كما هو مقرّر. وقفزت جودي



Photo: PDSA

الى الكيس على ظهر سيّدها كما فعلت سابقاً. وبعد ثلاثة أيّام أعطى وليمز علماً بوجودها على الباخرة موضحاً انها تحمل رقماً عسكرياً. وتلقّى طاقم السفينة رسالة بالراديو تسمح بادخال جودي الى الاراضي البريطانية.

وخلال تلك الرحلة البحرية التي استغرقت ستة أسابيع، اكتسبت جودي وزناً لائقاً واستعادت صحتها ونشاطها. وقفزت الى الشاطىء في ليفربول بخطى واثقة. وفي ٢٩ إبريل (نيسان) ١٩٤٦، قصد وليمز المحجر الصحّي حيث أبقيت جودي ستة أشهر، وأخرجها وهو يرتدي بزته العسكرية الخاصة بسلاح الطيران وقد بدا في أتمّ العافية والنشاط.

واستقبلت لندن الاثنين استقبالا حافلا بعدما شاعت قصة جودي على الملأ. وأعَدّت الاذاعة البريطانية برنامجا خاصاً للمناسبة، ونجحت جودي بقوّة أمام المذياع. وأدرج اسمها في اتحاد أسرى الحرب البريطانيين العائدين، وهي الحيوان الوحيد في ذلك الاتحاد. وصُنع لها معطف خاص حمل شارة سلاح الطيران. وأُخذت لها صور متحركة كثيرة وظهرت في غير مناسبة.

وكانت أشدّ تلك المناسبات إثارةً يوم عُلّق وسام المستوصف الشعبي للحيوانات لمريضة على سترة وليمز. وصُوّبت عدسات التصوير كلها نحو جودي حين جاء الدور لتعليق أرفع وسام حربي وبحري على بزتها هي. وجاء في رسالة التقدير المرفقة بالوسام: "يُمنح هذا الوسام مكافأة للجهود التي بذلتها هذه المخلوقة في سجون الحرب اليابانية من أجل انقاذ حياة الاسرى ورفع معنوياتهم."

وبعد إعتاقه من سلاح الجو البريطاني، حصل فرانك وليمز على وظيفة في تنجانيقا (تنزانيا اليوم)، وأخذ جودي معه الى هناك. واعتادت بسرعة حياة البريّة الافريقية. وعرضت جميع الحركات والالاعيب التي لقّنها اياها البحّار جان كوبر على متن السفينة في نهر يانفتسي. وقال لها وليمز: "كفّي الآن عن هذه الحركات، فأنا أعرف مواهبكِ كلّها."

وقبيل عيد ميلادها الرابع عشر عام ١٩٥٠، ماتت جودي. ولفّها وليمز بسترتها التي تحمل شعار سلاح الجو البريطاني ودفنها وسط خلاء مقطوع الشجر بالقرب من منزله في بلدة ناتشينغوي. وجعل فوق ضريحها بلاطة رخام كرّسها "لكلبة شجاعة نادرة، منحت الآخرين من عطفها ومحبتها أكثر كثيراً مما تلقّته هي منهم."

لقد كانت جودي اسطورةً في حياتها. وسوف تعيش قصّتها في صدور الناس.

**ادوين فارلي** ■



## الموهبة والحظ

الكل يظن أن الموهبة ضربة حظّ. لكن أحدا لم يفكر في أن الحظ قد يكون وليد الموهبة.

ح.ب.

# سباق الحياة

بقلم لورنس إليوت



كتاب الشهر



# سباق الحياة

**كانت كارول فينيال**
**في ريعان الشباب والحيوية**
**عندما أصيبت بمرض خطِر.**
**لكنها رفضت الاستسلام وجعلت من نفسها**
**طبيبها الأوّل الى جانب الأطبّاء المختصّين.**
**وكان خطها في العلاج غير تقليدي، لكنه برهن عن**
**جدواه وسط دهشة الأطبّاء وإعجاب**
**الأصدقاء وتشجيع الجميع**

الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرون من صباح اليوم المقرَّر لسباق ماراثون نيويورك. وعلى ناحية جزيرة ستاتن من جسر فيرازانو ناروز يقف المشاركون استعداداً لبدء السباق، وعددهم ١٤،٣٠٠ شخص جاؤوا من خمسين ولاية أمريكية و٦٩ بلداً أجنبياً.

انه صَباحٌ مشرق من الخريف يمكن إدراجه ضمن "ربيع الخريف" الذي يعتزّ به سكان نيويورك، وقد هرع مليونان منهم الى الشوارع لتحيّة المتبارين.

والواقع ان هؤلاء يحتاجون الى كل تشجيع ممكن. فسباق الماراثون هو اختبار للتحمل. ومئات المشاركين سيتغيبون عن سباق نيويورك هذا فيما ستنسحب مئات أخرى خلاله. وليس من السهل في أي حال قطع الكيلومترات الاثنين والأربعين التي يشملها هذا السباق.

والمتبارون ذلك الأحد الواقع فيه الرابع والعشرون من أكتوبر (تشرين الأوّل) ١٩٨٣ كانوا ينتمون الى قطاعات عدّة. فهناك سماسرة الأسهم الماليّة ومصفّفو



Illustration of Carol in the New York Marathon: Arthur Shilstone
Photographs: Lawrence Elliott

الشعر، وهناك الجدود والأحفاد، وهناك الطلاب الذين أخفقـوا في دروسهم وأساتذة الفلسفة. ولكل من هؤلاء دوافعه الخاصة للاشتراك. الا أن دافع كارول فينيال لم يكن كدوافع الآخرين. وهي أمريكية تعيش في جنوب فرنسا، ضئيلة الجسم في الحادية والثلاثين وقد علا رأسَها شعرٌ جعد قصير. كما أنها تحمل في جسدها مرضاً اسمه السرطان، وهي خضعت لجراحتين رئيسيتين خلال الأشهر الأربعة عشر الماضية.

وبذل الأطبّاء أقصى طاقتهم من أجلها. لكن كارول تعتقد أن الأطباء غير قادرين وحدهم على شفائها، وأن عودة السرطان الى جسدها هي في آخر المطاف وَقْفٌ عليها، أي على ما تفعل. وهكذا وجدت كارول، وهي تركض في سباق نيويورك، أنها تركض من أجل حياتها.

نشأت كارول في ضاحية بالقرب من العاصمة الأمريكية واشنطن. وهي الولد البكر في عائلة من ثلاثة أولاد. ولم تشكّ يوماً في أن السعد سيبقى مبتسماً لجميع أفراد عائلتها. لكن أبويها انفصلا وهي طالبة في جامعة ماريلاند، وأخذ العالم الذي وضعت فيه ثقتها يتهافت أمامها. ونادراً ما شاهدت والدها بعد ذلك الحين، وبدت والدتها ناقدةً لكل ما تقوله الصبية وما تفعله. وبعيد تخرجها في الجامعة انضمّت كارول الى فرقة "فيالق السلام" وأرسلت الى ساحل العاج، المستعمرة الفرنسية السابقة في افريقيا الغربية، لتعليم الانكليزية في مدارس الريف.

ومكثت كارول ثلاث سنوات في ذلك البلد. وهناك عرفت سيرج فينيال الشاب الفرنسي الذي كان يعلّم اللغة الاسبانية. ونمت المودّة بين الاثنين، ولدى انتهاء خدمة كارول ذهبا الى فرنسا وتزوّجا. وفي خريف ١٩٧٧ انتقلا الى بيت صغير في اكس - ان - بروفانس وهي مدينة في جوار مرسيليا. وعاشا فترةً مضطربة لحاجتهما الى العمل والمال على نقيض حياتهما في افريقيا التي ميّزتها الراحة والانتظام.

ولكن بدا في خريف ١٩٧٩ أنّ زمن الشدائد وَلّى، إذ حصلت كارول على وظيفة تعليم اللغـة الانكليزيـة للمهندسين والتقنيين في مركز فرنسي للطاقة النووية في بلدة كاداراش، فيما انتسب سيرج الى كلية الطب في مرسيليا.

وانقضت سنتان مليئتان بـالعمل والنشاط. وجاء العـام (١٩٨١)، وكان الزوجان رسما خطّة للذهاب الى جزيرة كورسيكا ذلـك الصيف وقطع بعض أجزائها سيراً على الأقدام، قبل أن تسافر كارول الى الولايات المتحدة في شهر سبتمبر (أيلول). وهناك كانت ستحضر دورة دراسية في فيرمونت للتدرب على الخدمات الانسانية في مؤسسات دولية كالصليب الأحمر. واذا سارت دراسات سيرج الطبية كما يُرام، فهو سينضمّ اليها في الربيع المقبل. وبدا المستقبل مفعماً بالرجاء.

وفي صبيحة يوم من ابريل (نيسان) اكتشفت كارول وَرَماً في ناحية ثديها الأيمن وهي تستحمّ. وكان ردّ فعلها الأوّل أن تتجاهله على انه غدّة حليب. ولكن سرعان ما سمعت نفسها تقول: "سيرج! تعال وانظر: ما هذا الشيء؟"

وتحسّس سيرج الورم وحاول أن يخفي قلقه خلف ستارٍ من عدم الاكتراث وهو يقول: "انه ليسٍ بالأمر المخيف. ولكن يستحسَن أن تستشيري طبيباً."

الا أن كارول كانت قرأت أن معظم أورام الصدر ليست خبيثة، وارتأت عدم التفكير في الموضوع. ومرّت أسابيع كان سيرج يذكّرها خلالها بوجوب استشارة أحد الأطبّاء وهي تَعِدُه بأن تفعل. لكنها لم تفعل الا صباح اليوم الذي حَدّداه للذهاب الى كورسيكا. ولمَا وصلت الى العيادة ووجدتها مكتظّة بالناس، عادت أدراجها وجهّزت عدّة الرحلة.

## الحكم

أمضى الزوجان شهراً رائعاً في الجزيرة المتوسّطيّة الجميلة وهما يتنقّلان بين الهضاب والخلجان والشطآن ويركبان القوارب في نزهات بحريّة. ولدى عودتهما الى اكس راحت كارول تستعدّ لدورتها الدراسية في فيرمونت. وكان من شروط ملء قسيمة الانتساب الخضوع لفحص طبّي. وفي أواخر أغسطس (آب) قصدت طبيباً، وسألته خلال المعاينة عن ذلك الورم في صدرها.

وقدّر الطبيب بادىء الأمر أن المسألة لا تتعدّى كونها كييساً. لكنه أحالها على قسم التصوير بالأشعّة. ودرس الطبيب المختَصّ الدكتور دومينيك آمي مجموعة الصور وشخّص المرض على أنه كييس لا ينطوي على أذى. غير أنه آثر ارسالها الى اختصاصي آخر للتأكد من صحّة تشخيصه.

وأُجري فحص مجهري لعينة صغيرة اقتُطعت من الورم. وقال الطبيب المختص لاحقاً ان النتيجة جاءت مريعة إذ بيّنت ورماً في أقصى درجات الخبث.

وأطلعت كارول على تلك النتيجة لدى ذهابها الى عيادة الدكتور آمي لايداع قسيمة ضمان صحّي. وقالت لها الممرضة ان الطبيب يريد أن يراها فوراً. لكن كارول أجابت انها جاءت لحمل القسيمة فقط وان زوجها ينتظرها في الطبقة الأرضية. وللحال ثار الخوف من ذلك الورم الذي كانت أحالته على ظلمات اللاوعي، وأدركت أن في الأمر خطراً جسيماً.

وأفضى اليها الدكتور آمي بالنبأ من غير أن يذكر عبارة "السرطان". قال ان ذلك الانتفاخ في ثديها الأيمن ليس كييساً، بل ينتمي الى الأورام، وان عليها زيارة طبيب اختصاصي لوصف العلاج اللازم.

وأجابت على الفور: "هذا غير ممكن لأنّي ذاهبة الى الولايات المتحدة الاسبوع المقبل."

وقال الدكتور آمي: "اسمعي جيّداً ما أقول، انك لا تستطيعين الذهاب الآن الى الولايات المتحدة. وعليكِ أوّلا أن تخضعي لعلاج فوري ملحّ."

وغادرت كارول العيادة والخدر يسري في أوصالها، هي التي لم تعرف المرض قبل الآن فمنيت بورم خبيث على حين غفلة. ولم تكن لديها وظيفة بعدما استعفت من عملها استعداداً للسفر. كما لم يكن لها ولزوجها مكان يعيشان فيه، إذ تخلّيا عن بيتهما لتوفير ايجار شهر وأقاما لدى أصدقاء ريثما تسافر ويجد سيرج غرفةً له. فالى أين يذهبان الآن؟

وكان سيرج ينتظرها في الخارج بقامته الطويلة الناحلة وهو واقف يحدّق إليها برزانة وبعينين نصف مغمضتين من فعل الشمس. وارتسمت الأسئلة على وجهه من غير كلام: لماذا تأخّرت في العيادة هذا الوقت كلّه؟ ما الأمر؟

ومدّت يدها نحو ثديها الأيمن وأشارت الى مكان الورم، ثم أجهشت بالبكاء.

وصلت كارول الى نيويورك مع مجموعة من الأصدقاء. ولم يستطع سيرج مرافقتها لأنه بدأ لتوّه عملا جديداً. لذلك اشترك هو أيضاً في سباق للمسافات الطويلة نُظّم بالقرب من مرسيليا في اليوم نفسه ليعيش معها خلال سباقها. وقال لها وهو يودّعها: "سنركض معاً في ذلك اليوم."

ووصل أبوها وأخوها وأختها الى نيويورك لرؤيتها وهي تركض. وكانت كارول دليلة سياحية لوفد مرسيليا في الأيام التي سبقت المباراة. وبدا أن نيويورك كلها مهتمّة بذلك الحَدَث. فالملصقات في كل مكان والغرباء في الشوارع يحيّون المتبارين ويتمنّون لهم التوفيق في قطع المسافة كلّها.

وفي يوم السبت الذي سبق المباراة أخذ الصحافي جان موغي جماعة مرسيليا الى الطبقة العليا في ناطحة السحاب الشهيرة "امباير ستيت". وموغي عدّاء شهير نجح في عشر جولات سابقة للمسافات الطويلة. وظهرت مدينة نيويورك كلها من قمّة البرج، ودلّ موغي جماعته على طريق السباق وعلى النقطة الأخيرة في سنترال بارك.

وفي صباح اليوم المنشود استطاعت كارول أن تعثر على سوزان كوسوفسكي وسط حشود المتبارين، وهي حصلت على اسمها من صديقة في اكس. وسوزان في الرابعة والأربعين وأمٌّ لطفلين، وهي تشترك للمرة الثالثة في ماراثون نيويورك وتأمل أن تقطع الكيلومترات الاثنين والأربعين في أقلّ من أربع ساعات، الأمر الذي يعني قطع ١٦٠٠ متر كل تسع دقائق. وهذا أسرع كثيراً مما تدرّب عليه أي شخص في مجموعة مرسيليا، باستثناء جان موغي الذي ارتأى الركض بصفته الشخصية وليس ضمن الوفد. ومن غير إطالة تفكير قرّرت كارول الركض الى جانب سوزان.

وخاف أصدقاؤها وقالوا لها: "سيأتي عليكِ الارهاق وأنتِ في نصف المسافة. ولن تستطيعي إكمال الطريق أبداً."

الا أن كارول لم تجد وقتاً للنقاش، بل توجهت مع سوزان الى نقطة الانطلاق عند جسر فيرازانو، وشقّتا طريقهما وسط الريح القوية نحو ميناء نيويورك. ولدى بلوغهما بروكلين وَجَدَتا السرعة التي تلائمهما.

## طرد الخوف

عند فراغها من نوبة البكاء خارج عيادة الطبيب عصر ذلك اليوم الصيفي، جفّفت كارول دمعها ومسحت أنفها وقالت لزوجها: "أجل، هذه هي الحقيقة وعليَّ مواجهتها."

وفي مطلع سبتمبر (أيلول) كان عليها مقابلة الاستاذ جان موريس سبيتالييه اختصاصي أورام الصدر في معهد

السرطان في مرسيليا. وكان هذا الطبيب معروفاً بين المرضى وموظفي المستشفى لعناده في فرض ما يراه مناسباً. وبعد دراسته تقرير كارول الطبي وصور الأشعّة قال لها أخيراً: "ان ما في صدركِ ليس بالكييس ولا هو بالورم البسيط، لكنه ورم من النوع الذي يتكاثر بانقسام الخلايا." وأدركت كارول على الفور ما يعنيه، وهو أن مرضها السرطان بالذات.

وأضاف الدكتور سبيتالييه ان عليه إجراء جراحة تقليدية. وهذا يعني أنه لن يستأصل الثدي، بل سيكتفي بقَصّ خَزعة منه. وبعد ذلك ستحتاج كارول الى علاج بالأشعّة كل يوم لمدّة شهرين، على أن تستمرّ مراقبتها لاحقاً. وعبّر الطبيب عن أمله في شفائها.

وللمرة الاولى دخلت فكرة السرطان ذهن كارول. وكانت حتى ذلك الحين تنتظر أن تسمع خبراً أقَلّ إزعاجاً. أمّا الآن فلم يبقَ في الامكان تمويه الحقيقة. وكان سيرج واقفاً في ردهة المستشفى. وحين عرف بالأمر أخفى مشاعره، وكانت أمه توفيت بالسرطان قبل عقد من الزمن. وأخذ يد كارول وأكّد لها أن كل الامور ستجري على خير وجه.

وبدأت كارول تجمع قواها وتنظّمها منذ تلك الساعة. ولدى إدخالها المستشفى في نهاية ذلك الاسبوع، بدا أن الحقيقة الوحيدة في عالمها هي السرطان، وأنها حشدت كل ما تملك لمحاربته. وحين طرق سيرج باب غرفتها صباح الاثنين، قبل ساعة من موعد الجراحة، كانت تحاول تركيز طاقتها على طرد الخوف من نفسها. وابتسمت بكآبة وطلبت من سيرج الانصراف. فتركها ليلتحق بعمله الوقتي في أحد المطاعم الجامعيّة.

وتمّت الجراحة حَسَناً. وانتزع الدكتور سبيتالييه كتلة ورم في حجم حبّة بندق، مع بعض الأنسجة المجاورة في الصدر. وأعمل مبضعه مرة أخرى لانتزاع بعض العقد اللمفاوية من إبط كارول. وبعد تفحصها وجد أن إحداها خبيثة. لكن الجراحة لم تخلّف أي أثر ظاهر في الثدي.

وعندما عاد سيرج الى معهد السرطان مساءً وجد كارول نائمة في غرفتها. وغرق في مقعد الى جانب سريرها حتى غفا. وحين رأته في الصباح يمدّ ذراعيه بكسل أنّبته على البقاء وقالت: "ربما كان منظري أفضل من منظرك في هذه اللحظة."

## "هذه هي الأمريكية!"

الحق ان شفاء كارول حصل بسرعة. ومع حلول الثلثاء نهضت من سريرها وباتت تذرع الممرّات. ويوماً بعد يوم صارت تنزل الى ردهة المستشفى وتخرج الى الهواء الطلق. وظلّت أنابيب المطاط معلقة بجسدها أياماً لفحص الدم المتسرّب اليها من الجرح. وكانت كلما غادرت غرفتها تضع الأنابيب في كيس تحمله معها، الأمر الذي جعل سيرج يطلق عليها لقب "المختبر المتجوّل."

وسرعان ما لاحظها الموظفون والمرضى على تلك الحال. وكانت تتفقد بعضهم للتحية والكلام. ومع الوقت اكتسبت شهرة واسعة في ذلك المكان حتى بات يُشار إليها بالبنان. وكان المرضى

ينظرون بعضهم الى بعض كلما مرّت ويتهامسون: «Voilà l'Américaine» ("هذه هي الأمريكية.")

ولم يقل إعجاب الموظفين عن إعجاب المرضى. وقالت لها إحداهنّ: "اني لا أصدّق ما يحصل. فبعد ثلاثة أيام في هذا المكان بات الكل يناديكِ باسمكِ الأوّل. أما أنا فلا أحد يعرف اسمي حتى بعد خمس عشرة سنة على وجودي في قسم العلاج الفيزيائي هنا."

وتقول ماري كريستين موغي التقنيّة في قسم العلاج بالأشعّة في ذلك المستشفى، ان كارول غدت بمثابة نسمة جديدة هبّت على حياتها، وانها "كانت من الحيوية والنشاط بحيث شخصت اليها جميع الأبصار كلما دخلت غرفة الانتظار استعداداً للعلاج بالكوبالت والالكترون."

وكان كل مريض في ذلك القسم يواجه خطراً ظاهراً أو كامناً، الأمر الذي جعله يخشى المستقبل ويحس أن القدر خانه. الا أن تلك الأمريكية الشابة التي ضربها المرض في ريعان حياتها لم تستسلم للأقدار ولم تدع الابتسامة تفارقها. وحرصت دائماً على الحديث مع المرضى والترويح عنهم.

وقد قام جناح العلاج بالأشعة تحت الطبقة الأرضية، في آخر ممر طويل يبدأ بغرفة الانتظار وينتهي بأربع غرف صفيقة الجدران وخالية من النوافذ وليس فيها أي فتحة سوى الأبواب الزجاجية المؤطّرَة بالرصاص. ومن خلال هذه الأبواب يستطيع التقنيّون مراقبة المرضى بعيداً عن الأشعّة المباشرة. وفي احدى تلك الغرف آلة كوبالت ضخمة تتسلّط أشعّتها على الخلايا الحيّة، خصوصاً تلك التي تحمل السرطان، فتقتلها. وحين رأى سيرج تلك الآلة بدت له كارول طفلة صغيرة إزاءها. وكانت تضطجع في وضع جنينيّ لتَلقّي العلاج خلال عشر دقائق، خمس مرّات أسبوعياً، على أن يدوم الأمر ثمانية أسابيع.

## أجمل اللحظات

خلال الايام العشرة الاولى احترق جانب كارول الأيمن من الابط حتى الخصر. وكانت كل جلسة تجعله أسوأ حالا من سابقتها. ولم تتحمّل من الشاش في ذلك الموضع سوى أَرَقِّه. وحتى ذلك كان يلتصق بالجلد أحياناً ولا يمكن انتزاعه الا وقد اقتلع معه بعض الجلد. وقال لها سيرج وقلبه مفعم بالعطف عليها: "اسمعي يا كارول: لا تفعلي شيئاً سوى تَلَقّي العلاج، واتركي كل شيء آخر عليّ."

الا أن كارول لم تتساهل مع نفسها على رغم ألمها المستمرّ. وما ان أُعتقت من المستشفى حتى أشرفت على انتقالها الى بيت جديد في مرسيليا. وظلت تتردّد على المستشفى يومياً لتلقي العلاج بالأشعّة.

وكانت تذهب الى هناك في سيارة كبيرة فخمة من نوع "سيتروين"، على نفقة الضمان الصحّي. وسائق تلك السيارة مرسيلي اسمه روبير فيفيير. وهو يعرف أزقة البلدة وسكانها جيّداً، وطالما حاول إخفاء طيبة قلبه بالكلام عن جرأته وإقدامه. ومع الايام نشأت ألفة بينه وبين كارول. وصار الجيران يقفون وراء نوافذهم صباحاً لالقاء نظرة فضوليّة على ذلك

الرجل الوسيم الذي لم يكن زوج كارول والذي كان ينتظرها بجانب سيارته السوداء الأنيقة، ثم يحيي أحدهما الآخر مبتسماً وضاحكاً.

لكن كارول كانت تعود من العلاج وقد تبدّل مزاجها، فيحاول روبير التخفيف عنها فيما تروي عليه هي محنة المرضى الآخرين. ونصحها روبير بعدم الاصغاء الى قصصهم لئلاّ تؤثّر سلباً عليها. لكن كارول لم تستطع أن تصمّ أذنيها عن سماع تلك الأخبار.

أحست كارول وهي تركض وسط بروكلين أنها تعيش أجمل لحظات حياتها. والواقع ان الحماسة التي استمدّتها من المتفرّجين غدت بمثابة جناحين لها.

وفي تلك الأثناء كانت سوزان تدلّ كارول على أهم الأماكن في مدينتها. وبعد قطعها عشرة كيلومترات تذكّرت كارول تحذير أصدقائها المرسيليّين وخُيّل إليها انها لن تستطيع البقاء مع سوزان جنباً الى جنب.

## المسؤوليّة

ذات يوم قال السائق روبير فيغيير ان لديه مريضة أخرى مصابة بسرطان الثدي، وانها تعاني كآبةً عميقة، وطلب من كارول مساعدتها لرفع معنويّاتها. وهكذا باتت صولانج، وهي ربة منزل في الأربعينات من عمرها، ترافق كارول في السيارة، فتبذل هذه كل ما في وسعها لتنشيطها. ومنذ البداية قالت لها: "يكفي أن تشعري انكِ تتحسّنين لكي تتحسّني. أجل، ان أشعّة الكوبالت تنفذ الى صميمكِ وتفعل فعلها. فثقي بها."

الا ان كارول لم تستطع اختراق جدار الكآبة لدى المرأة التي تكبرها والتي استسلمت لليأس بعدما حاولت كل علاج ممكن وعرفت الانتكاس مراراً. ونصحتها كارول لاحقاً بادخال عنصر جديد على حياتها، إذ ان هذا المرض الذي يقلب كل شيء لا تمكن مكافحته الا بعنصر جديد. لكن صولانج لم تبقَ لديها القوة كي تقاوم. وسمعت كارول لاحقاً أن ذراعها بُترت. ولم تعمّر طويلا بعد ذلك الحين.

ومع انقضاء الخريف وحلول الشتاء أخذ الوهن يشق طريقه الى كارول. ولن ينتهي العلاج بالأشعّة حتى يبدأ العلاج الكيميائي الذي ينطوي على أخطار وأهوالٍ هو أيضاً. وقلقت كارول لبقائها طويلا من غير عمل. ولم تستطع إقناع المسؤولين في المركز النووي بتوظيفها من جديد بعد إطلاعهم على طبيعة مرضها.

أما سيرج الذي أقلقه وضع كارول الصحّي فلم يستطع إنجاز واجباته في كلية الطب بعدما أخذ على عاتقه مهمات المنزل فضلا عن متطلبات العمل الذي يعيش منه. وبات لا يقرأ في الكتب الطبية الا ما هو متعلّق بسرطان الصدر وأحدث وسائل علاجه.

ومن جهتها، أدركت كارول أن ثمة علاقة محتملة بين الشفاء من مرض كالسرطان والوضع النفسي لحامله. وقرّرت أنه لا يكفي وضع مسؤولية شفائها في أيدي الآخرين، وأن عليها أن تتسلّم هي مسؤولية نفسها. وأخذت تبحث عما

يخلّصها من قنوطها. وفي تلك الأثناء باشرت الركض فكانت تقطع ثلاثة كيلومترات الى خمسة بضع مرّات في الاسبوع. وطالما مارست تلك الرياضة أيام خدمتها في فيالق السلام. ولم تعرف كارول لدى استئنافها الركض أنه سيغدو تلك القوة التي تسعى إليها.

وأحسّت ألماً في عضلات جسدها بادىء الأمر، وأخبرت ماري كريستين بما تفعل، وهي التقنية المسؤولة عنها في قسم العلاج بالأشعّة، ورجتها أن تضعها على طاولة العلاج في وضع لا يزيد ألم عضلاتها. وقالت لها المسؤولة: "اذا غدا الركض أمراً جدياً بالنسبة إليك، فأنصحكِ بالتعرف الى اخي الذي قطع سباق الماراثون تسع مرات حتى اليوم."

## محظوظة حقاً!

الواقع ان كارول كانت جدية في كل ما تفعل. وما ان كلمتها ماري كريستين على شقيقها حتى طلبت رقم هاتفه. وهكذا تعرّفت الى جان موغي الذي حرّر زاوية الرياضة في احدى صحف مرسيليا طوال السنوات العشرين الماضية. وباشر الاثنان الركض معاً في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١.

وفي البدء كانا يركضان وسط حديقة عمومية في مرسيليا تشرف على البحر المتوسط، ويزيدان المسافة يوماً بعد يوم. ثم انتقلا الى الريف المحيط بالمدينة حيث كان موغي يمارس رياضته المفضلة، وغدت مسافة الركض عشرة كيلومترات. ومع ان جان كان يعدو باتئاد فان كارول لم تستطع اللحاق به في الايام الاولى بفعل العياء الآتي من العلاج الكيميائي. ولكن سرعان ما أصبح المستحيل مستطاعاً لديها. وكان جان يزيد المسافة كل مرة.

باتت كارول ترى نفسها بمنظار جديد. فهي لم تعد في عيني ذاتها تلك المريضة التي أخضعت لجراحة رئيسية، بل غدت امرأة صحيحة سبق لها اختبار المرض. وأقنعت نفسها أن كل يوم جديد يحمل إليها المزيد من الصحة والسعادة. ولم يقلّ الركض في نظرها أهميةً عن العلاج الكيميائي أو العلاج بالأشعّة من حيث قوّته الشافية.

وذات يوم وهي تركض مع جان في عتم الشتاء بادرته: "أتعرف أني محظوظة حقاً؟"

وأجابها جان مندهشاً: "أنتِ؟"

– أجل، اني أعني ما أقول. فقد كان ممكناً أن يكون مرضي من النوع غير القابل للشفاء.

ولم يقل جان شيئاً، إذ لم يدرك كيف يمكن أن يكون مريض السرطان محظوظاً. وكان آنذاك في وضع نفسي عسير بسبب انفصاله عن زوجته وابنته ذات السنوات السبع. وطالما عانى الجزع واستسلم لأفكاره القاتمة. الا أن كارول قطعت عليه تلك السكينة الكئيبة وحملته على التفكير في حياته من زاوية جديدة.

وذات يوم بادرتها ماري كريستين: "يبدو أن أثرك كبير على أخي، وانكِ تعيدينه الى أصالته."

وهزّت كارول رأسها قائلة: "لا أحد يمكنه أن يفعل هذا الأمر لسواه يا

عزيزتي. وربما اهتدى أخوكِ جان بكلمة من هنا وفكرة من هناك. أمّا اذا تحسّن حقاً، فالفضل يعود اليه هو لأنّه قرّر أن يساعد نفسه."

في تلك الأثناء كانت كارول أنهت العلاج بالأشعّة، ولكن بقي عليها الخضوع خمسة أيام متعاقبة للعلاج الكيميائي مرة كل خمسة أسابيع. وانضمّت الى مجموعة جديدة من المرضى كان أفرادها يتبادلون أخبارهم التعيسة. أما هي فكانت تدخل عليهم بابتسام وتحدّثهم بلا انقطاع حتى ينسى الواحد منهم همومه الى حين. لكن ذلك الجو البهيج كان يظل مخيماً عليهم حيناً بعد دعوة كارول الى غرفة العلاج.

## حلم المسافة الطويلة

في تلك الغرفة الصغيرة التي تحوي سريراً آخر أو اثنين، كانت كارول تتمدّد باسترخاء لدى غرز الابرة التي ينتقل عبرها الدواء في أحد الشرايين على ظاهر يدها. واذا أُرهقت شرايين اليد كلها من فرط الاستعمال، بحثت الممرضة عن سواها في الذراع أو في الساق. وكانت الأنابيب تحمل مواد كيميائية تفعل فعل الأشعّة، فتقتل الخلايا التي تصيبها، خصوصاً الخلايا السرطانيّة.

وكانت الجلسة تستغرق ساعة أو تسعين دقيقة ولا يصاحبها ألم في العادة، وإن أسفرت عن الكثير من الغثيان والانحطاط الجسدي. ومع اليوم الخامس والأخير كانت كارول تفقد كل قوة وتعتمد على سيرج كلياً. وبعد ذلك كانت تجمع قواها خلال الأسابيع الأربعة المعترضة لمواجهة الاسبوع الخامس.

وأخذ شعرها الطويل يتساقط نتيجةً للعلاج. لكن شيئاً لم يثنها عن الركض: "كان الركض مصدر قوّتي ورجائي،" تقول كارول، "وهو كان يزيل كل هَمّ من رأسي ويردّني الى أصالتي." وبعد احدى المعاينات الدوريّة أسَرَّت الى الدكتور سبيتالييه انها تمارس الركض الطويل نحو أربع مرات في الاسبوع.

وتنهّد المسؤولون الذين تحلقوا حول سبيتالييه بعد انتهاء الفحوص ليأخذوا منه التعليمات والأوامر. ولم يصدّق أحد منهم أن مريضاً بالسرطان يجوز له أن يمارس رياضة من هذا النوع. لكن سبيتالييه حدّق الى كارول من خلال نظّارتيه وسألها: "ما هي المسافة التي تقطعينها؟"

– لقد بتّ أقطع ١٦ كيلومتراً كل مرة. لكني أطمح الى قطع مسافة الماراثون، وهي ٤٢ كيلومتراً.

وابتسم الطبيب ونظر الى سكرتيرته وهو يملي عليها ما يأتي: "المريضة تمارس رياضة الركض. وهي تقول انها تسعى الى قطع مسافة الماراثون... هذا عظيمٌ حَقّاً!"

وكان الأمر لا يزال حلماً استمدّته كارول من كلامها مع جان موغي خلال عبورهما الطرق الريفية الخالية. وكان جان اجتاز لتوه سباق الماراثون في اليونان. وطرحت عليه كارول أسئلة محدّدة ودقيقة حول الركض طوال أربع ساعات أو خمس. وتساءلت عما اذا كانت ستستطيع هي ذلك. وأجابها جان ان البداية الحسنة أهمّ ما في الأمر. واذا باشر المرء الركض

جدياً، فلن يثنيه عنه شيء. وأضاف: "أجل، سيكون قطع الماراثون ممكناً لكِ."

وقالت على الفور ومن دون أدنى تفكير: "إذاً لنضع خطّةً لذلك."

وقرّ رأيهما على الاشتراك في ماراثون نيويورك لأنه يأتي بعد سنة، الأمر الذي يتيح الاستعداد الكافي بالنسبة الى كارول. وهكذا غدا الرابع والعشرون من اكتوبر (تشرين الأوّل) ١٩٨٤ اليوم المنشود في حياتها. فهي ستشارك حقاً في ماراثون نيويورك. وأقنعت نفسها بأنها اذا استطاعت الصمود حتى ذلك الحين وقطع المسافة كلها، فهي ستقهر السرطان بلا ريب.

وفي وقت سابق من ذلك العام اعطى والد سيرج ابنه وكنّته هدية عيد الميلاد قبل أوانها، وهي عبارة عن بطاقتي سفر بالطائرة الى الولايات المتحدة. وهو كان يحب كارول حباً جَمّاً، وعرف أنها على أحَرّ من الجمر كي تبرهن لوالديها أنها بلغت مرحلة الشفاء.

ولم يعترض الدكتور سبيتالييه على اشتراك كارول في السباق. وسمح لها بالتغيب عن احدى جلسات العلاج الكيميائي، على أن تعوّض ذلك بعد عودتها. ثم صرفَ معاونيه جميعاً وأخبر كارول بتؤدة ورفق أن سرطان الصدر يمكن أن تعزّزه مادّة الاستروجين، أي الهورمونات الانثوية التي يفرزها المبيضان. لذلك كان من المستحسَن استئصال مبيضيها.

وقالت كارول: "كنت أظنّ أن الأشعّة والموادّ الكيميائية كفيلة بقتل جميع الخلايا السرطانيّة."

وأجاب الطبيب: "وحدهم الأطبّاء الضعفاء والصحافيّون الأغبياء يتكلمون عن قتل السرطان. والواقع ان قتل السرطان لا يحصل من غير قتل المريض. وما نحاوله هو خَصي هذا الداء. فالسرطان الذي لا يتوالد ولا يتناسل يصير خالياً من الأذى."

وحدّق إليها من خلال نظارتيه ليرى ان كانت تبكي. وإذ رأى عينيها جافتين تابَعَ الكلام: "عليكِ القبول بهذا الواقع. ان قدرَكِ هو ألّا يكون لكِ أولاد. ولقد وُجدتِ لتنجزي أمراً آخر. وسوف تنجزينه."

وصمتت قليلا قبل أن تسأل: "متى ستجرى هذه الجراحة؟"

- في فبراير (شباط).

"سأكون هنا ذلك الحين."

## جوزة الهند

بقاء اثنين أو ثلاثة من رفقاء الركض جنباً الى جنب طوال السباق أمرٌ شاقّ. وها هي الشوارع تعجّ بالناس من راكضين ومتفرّجين ورجال شرطة. وكانت كارول وسوزان تنادي احداهما الاخرى أحياناً أو تلوّح بيديها للبقاء معاً.

انهما تعبران وليمسبورغ حيث النظّارة واقفون بصمت وإعجاب، وقد حمل معظمهم الماء والفواكه للمتبارين.

وتقول سوزان لزميلتها ان منطقة كوينز ستأتي قريباً، وبعدها جسر كوينزبورو الذي يصل بين النهر الشرقي ومنهاتن. وتسمع كارول كلام زميلتها، لكنها تخشى في الوقت نفسه ألّا تقدر على متابعة السباق.

انهما تقتربان من تقاطع طرق رئيسي

يعجّ بالناس الذين يفسحون في الدرب للراكضين. وتنادي سوزان زميلتها، لكن كارول تبطىء في عَدْوها وتحاول ألّا تضيع بين النظّارة. وتنظر أمامها فلا ترى أثراً لصديقتها.

في أواسط ديسمبر (كانون الأول) ذهبت كارول وزوجها سيرج الى الولايات المتحدة وأقاما مع امها وأخيها بالقرب من واشنطن. واجتمعت بوالدها مراراً وبدأت تبني علاقة طيبة معه ومع والدتها. وأدركت أن مشاعرها السابقة تجاه والديها كانت آتية من رفضها الطلاق الذي حصل بينهما. لكنها تصالحت مع الواقع وبنت علاقتها مع أفراد عائلتها على أساس جديد.

وكان أن فقدت كارول شعرها خلال زيارتها تلك. وذات مساء شدّت خصلة بيدها فسقطت. ولم تكفّ عن ذلك الأمر حتى غدا شعرها الطويل كله على قدميها ولم يبقَ في رأسها سوى خصَل معدودة.

وأتى عليها حزن عميق، لكن سيرج كان بجانبها ومنحها عزاءً كبيراً. وصارت تضع شالا على رأسها. وخلعته ذات ليلة قبل النوم، فقال لها سيرج ان رأسها أشبه بجوزة الهند. وضحك الاثنان كثيراً. ومرةً كانت تزور أختها ديان في لوس انجلس، فأشارت عليها بوضع شعر مستعار على رأسها. لكن كارول وجدت نفسها غريبة وهي تقف أمام المرآة بذلك الشعر، فارتأت أن تعود فوراً الى ارتداء الشال.

وبرّت بالوعد الذي قطعته للدكتور سبيناليبه، فعادت الى مرسيليا في الشتاء. وفي الأوّل من فبراير (شباط) أُجريت لها جراحة لاستئصال الرحم كلّه. وكانت تلك الجراحة أقسى من سابقتها. الا ان كارول لم تتردّد في الاذعان لاقتراح الممرضة بعد يومين أن تقوم وتمشي. وبذلت جهدها للنزول الى الطبقة الأرضية. وفي اليوم التالي ارتدت سروالاً وكنزة وجلست على سريرها، الأمر الذي أدّى الى فتق القطَب الجراحية. وبعد رتق الجرح اضطرّت الى الاستراحة يوماً واحداً.

وكانت ماري كريستين تزورها كل يوم تقريباً. وهي دعت كارول وسيرج الى حفلة عيد ميلادها في الثاني عشر من ذلك الشهر. وطلبت كارول من الادارة السماح لها بتمضية نهاية الاسبوع في المنزل. ومنحتها رئيسة الممرضات ما تريد، ولكن على مضض. وقالت لها: "احرصي على البقاء داخل المنزل لأنك تحتاجين الى الكثير من الراحة."

وأجابت كارول: "وهل تظنّين اني سأحضر حفلة؟"

وصلت كارول وسيرج الى الحفلة ومعهما هديّتان لصديقتهما، وهما أربطة حذاء ملوّنة وقبعة واقية من الشمس اشترتها كارول في كاليفورنيا. وقدّمت الهديّتين الى كريستين وهي تقول: "خذي، هذا كل ما تحتاجين اليه للاشتراك في ماراثون نيويورك. وما عليكِ الآن إلّا مباشرة الركض."

وضحك كل من في المنزل لأنّ ماري كريستين، التي كانت تحتفل بعيد ميلادها الخامس والثلاثين، لم تكترث البتّة للرياضة. ولكن سرعان ما انضمّت

الى جماعة تحلّقت حول أخيها جان وراح أفرادها يتحدّثون عن سباق المسافات الطويلة. وكان بينهم صديقها اتيان موت وهو شاب طويل في السابعة والعشرين واختصاصي بالعلاج الفيزيائي. وفي اليوم التالي باشرَ الاثنان الركض معاً.

هناك ساعة كبيرة عند كل نقطة لتسجيل المسافة التي قطعها الراكضون. وعرفت كارول أنها تقطع ١٦٠٠ متر كل عشر دقائق. وأحسّت بعض تعب لكنها لم تشعر بأيّ أذى ولم تفكّر في التوقف قبل قطع المسافة كلها. وكان الناس يحيّونها كما يحيّون سواها من المشتركين.

والحق ان قطع المسافة كلها يحمل مغزىً كبيراً بالنسبة إليها. وهي لا يمكن أن تتصور نفسها إلاّ وقد قطعت تلك المسافة ليس بالمشي المرهق ولا على الركبتين كما سمعت أن بعضهم يفعلون، بل ركضاً. وعليها أن تركض المسافة الأخيرة بأقصى سرعة ممكنة وقد رفعت رأسها عالياً.

وشعرت فجأةً بجوع شديد. وكانت تعرف أن والدها وأختها ينتظران في الجادة الأولى في منهاتن وقد حملا لها الطعام. لكنها خشيت كثيراً ألاّ تعرف مكانهما أو ألاّ يَرَياها. وأتت عليها الوحشة وهي بعيدة عن زملائها من جماعة مرسيليا. وحرّقها الشوق إليهم والى التشجيع الذي طالما استمدّته منهم.

وقطعت كارول الجادة الأولى من غير أن ترى أيّ وجه أليف. واتجهت من جسر ويليس الى غرب برونكس، وما زال أمامها الكثير.

صار المستعدّون لسباق نيويورك أربعة: كارول وجان وماري كريستين واتيان موت. وكانوا يركضون على التلال والأجراف المشرفة على البحر الأبيض المتوسّط وينحدرون الى الشاطىء حيث يتابعون الركض. وظلّت كارول تخضع للعلاج الكيميائي، لكنها لم تشأ أَن يقعدها عن رياضتها واستعدادها. وبعد ساعة أو نحوها من التمرين كانت تقصد معهد السرطان لأخذ العلاج.

وغالباً ما كان زملاء الركض يقفون خارج غرفتها خلال العلاج لمرافقتها بعد انتهائه. وذات يوم من شهر يوليو (تموز)، فيما هم يتكئون على الجدار ويأكلون المثلجات ويمزحون، راحت ممرضة صغيرة السن وقليلة الخبرة تحاول مراراً وتكراراً إقحام ابرة تحت الجلد في ظاهر يد كارول. وابيضّت شفتاها من الألم وتصبّب العَرَق من جبين الممرضة. وحين أدرك زملاء كارول ما يحدث توقفوا عن المزاح وتوجّهوا فوراً الى غرفة الانتظار. وبعد ساعة أتت إليهم وهي تبتسم وتقول: "إذا كنتم تحبّون المستشفيات فابقوا هنا. أمّا أنا فذاهبة لتوّي كي أسبح."

## ذابحا على شفتيها

كانت كارول أحياناً تتصرّف على نحو متهوّر. ومرّةً فقدت وعيها بعد السباحة. وفي مرة أخرى سبحت فور خروجها من جلسة العلاج الكيميائي. واضطرّ اتيان الى حملها الى السيارة إذ تشنّجت أطرافها. الا أنها ظلت على قناعة بأنّ الحركة الدائمة والهادفة من شأنها

القضاء على السرطان وعلى أسوأ آثار المواد الكيميائية. ولم تخذلها عزيمتها البتة، بل ظلّت تمدّها بالقوّة للانتقال من يوم الى آخر.

اشتركت كارول في بضعة سباقات أوّلية مع سيرج ثم مع ماري كريستين واتيان استعداداً لسباق الماراثون. وغالباً ما كانت تقطع نصف المسافة. وفي حين ان بعض المسؤولين في المستشفى نظروا إليها كشخص فقد صوابه، إلّا ان جميع المرضى عاملوها باجلال. وكلما دخلت غرفة الانتظار في قسم العلاج الكيميائي كانوا يتهامسون: "الأمريكية هنا، وهي ستشترك في ماراثون، نيويورك."

وذلك الجَوّ حفزَ الجميع على الكلام معها والكلام بعضهم مع بعض. ولم يَدُر حديثهم بالضرورة على المرض أو الألم أو الموت الوشيك، بل كان الواحد منهم يسألها: "كم كيلومتراً قطعتِ المرّة الأخيرة؟" أو يقول لها: "احرصي على عدم إرهاق جسدكِ."

وعرفت كارول أسماء قلة منهم، ولم تعرف سوى القليل عن حياتهم الشخصية أو عمّا يفعلون خارج غرفة الانتظار في جناح العلاج الكيميائي. ولكن كانت لديها موهبة كبيرة لمساعدتهم على التفاؤل واطّراح القنوط. وكلما تكلّمت كانت تحمل قلبها على شفتيها. ويقول الدكتور سبيتالييه: "كان وجودها في غرفة الانتظار نعمةً للمرضى الآخرين."

ولم يستطع المسؤولون في المستشفى تجاهُل أثرها الايجابي طويلا. وقد عقدت ممرّضة وسكرتيرة طبية العزم على الذهاب الى نيويورك لتحيّة المتبارين بعدما سمعتا كارول وماري كريستين تتكلّمان عن ذلك السباق بحماسة منقطعة النظير. واتّسعت دائرة المشجّعين لتضمّ ممرّضتين أخريين وبعض الأصدقاء حتى غدا عدد المرافقين أحد عشر شخصاً، ناهيك بالذين شجّعوا المتبارين من بُعد لاضطرارهم الى البقاء في مرسيليا.

## المكافأة العادلة

ذات يوم كانت كارول تنتظر روبير كي يأخذها في السيارة بعد جلسة علاج. وجلس رجل بجانبها وراح يدخّن سيجارة وينفث دخانها نحو السقف. وبعد هنيهة أشار الى المرضى وهم يقطعون الأروقة وبعضهم في ثياب النوم، وقال: "أنظري الى هؤلاء التعساء واشكري الله لأنّنا أَصَحّ منهم."

ونفخ المزيد من الدخان وأضاف: "انني أنتظر خروج زوجتي من غرفة العلاج. وهي تعاني سرطاناً في الصدر وتتلقّى أشعّة الكوبالت التي يُقال انها فعّالة. لكني أظن أن السرطان هو السرطان، ليس إلّا."

ولم يدع الرجل أي مجال للتعليق أو الكلام، إذ تابعَ الحديث عن زوجته قائلا انها مريضة على الدوام في حين انه يأكل ويشرب ويدخّن كما يشاء من غير أن يعرف المرض. ولاحظَ الشال على رأس كارول فسألها: "لماذا تعصبين رأسكِ؟ اننا في فصل الصيف."

وأجابت: "ليس من شَعرٍ في رأسي."

وتململ الرجل في جلستّه وقال: "لا تمزحي! انكِ حديثة السن. فما الأمر؟"

– انه سرطان الصدر بالذات. وقد تلقيت العلاج بأشعّة الكوبالت كما تفعل زوجتك وانتقلت بعده الى العلاج الكيميائي.

واتّسعت عينا الرجل وقال: "علاج كيميائي؟ ان زوجتي خضعت لجراحة صغيرة، وهي تتلقّى العلاج بالأشعّة فقط. ولا بدّ من أن مرضكِ أشدّ خطراً."

وشاهدت كارول سيارة السيتروين السوداء خارجاً. وقالت للرجل قبل أن تنصرف: "الواقع اني كنت مريضة، لكنني الآن شفيت. وستشفى زوجتك أيضاً. أما أنت الذي تشرب وتدخّن على غير هدى، فسيأتي يوم تحمَل الى مستشفى السرطان بعد فوات الأوان."

في تلك الأثناء كان سيرج أخفق في دروسه الطبية ورضخ للأمر. وحصل على وظيفة اقتضت منه ارشاد المراهقين غير المتكيّفين اجتماعياً، ومنهم الجانح والسارق ومتعاطي المخدّرات. وقد أمضى بعضهم وقتاً في السجن. وكان على سيرج أن يعلّمهم دروس المرحلة الابتدائية ويلقّنهم مبادىء الانسجام مع عالم لم يكترث لهم قبل سقوطهم في الصعاب. ومن تلك المبادىء طريقة الحصول على عمل وفتح حساب مصرفي والتعامل مع الدوائر الرسمية. وحاول أحد أصدقاء سيرج تثبيط عزيمته بقوله ان أحداثاً كهؤلاء، لا مجال لاصلاحهم أبداً. لكنه رفض حجّة الصديق بقوله انه يعلّق آمالاً كبيرة على كل فرد في مجموعته.

وفي مطلع أغسطس (آب) وافق الدكتور سبيتاليبه على قطع العلاج الكيميائي عن كارول كي تتمكن من الاستعداد للسباق طوال الأسابيع التي تفصلها عنه. وارتفعت معنوياتها أيّما ارتفاع لتحررها، وإنْ الى حين، من الآثار السلبية للعلاج. وأخذ شعرها ينمو على نحو أوفر مما كان وعلى هيئة غدائر. وطالما أحبّت كارول الغدائر التي لم تكن من طبيعة شعرها. ونظرت الى ظهورها الآن، مع نمو شعرها من جديد، بمثابة مكافأة لها لاحتمالها العلاج الكيميائي طوال هذه المدّة.

وفي سبتمبر (أيلول) وجدت عملاً في مرسيليا مع المركز الاوروبي للتربية المهنيّة. وكان عليها تعليم اللغة الانكليزية للكبار. وسألتها المديرة السيدة جانين أوجيه عن الموعد الذي تستطيع فيه مباشرة العمل. وأجابت كارول انها تستعد للاشتراك في ماراثون نيويورك في الرابع والعشرين من اكتوبر (تشرين الأوّل)، وانها ترغب في بدء عملها بعد أسبوع من ذلك التاريخ.

وبدت الدهشة واضحةً على وجه السيدة أوجيه وقالت: "هذا يعني ستة أسابيع من الآن. ولكن ما أهمية سباقات الركض في أي حال؟"

ولما كانت كارول لا تستطيع تزوير الحقائق، فقد روت على السيدة اوجيه كل ما حدث لها وحملها على الركض. وأضافت: "أعتقد أن الاشتراك في الماراثون هو خير علاج لي، خصوصاً إذا استطعت قطع المسافة كلها. وهو لا يقلّ أهميةً عما يفعله الأطبّاء." ووعدت المديرة بأنها لن تتخلّف يوماً واحداً عن واجباتها بعد مباشرتها العمل.

وقالت السيدة اوجيه التي جلست

تصغي الى كارول وتراقبها طوال الوقت: "أتمنى لكِ التوفيق في الماراثون. وستباشرين العمل معنا صباح الاثنين في الأوّل من نوفمبر (تشرين الثاني)."

## النصر

قطعت كارول جسر ماديسون نحو منهاتن، وفيها ينتهي السباق. وكلما أعطاها أحد النظّارة تفاحةً كانت تأخذها شاكرةً وتأكلها من غير أن تتوقف عن الركض. وراحت تفكّر في سيرج: لقد حلّ المساء في مرسيليا الآن، وانتهى الماراثون الذي نُظّم هناك. أتراه قطع الكيلومترات الاثنين والأربعين كلّها؟


كارول وسيرج فينيال.

ها هي كارول تركض تحت الظلال أكثر من ركضها في الشمس. وهي تشعر بالوخز الآتي من هواء الخريف البارد. وقد منعها ألمها عن الاستمتاع بمناظر الطبيعة، لكنها رفضت التوقف. وأحسّت قوّةً في داخلها تدفعها حتى النهاية. وهي لن تتوانى عن الزحف اذا أخفقت رجلاها عن حملها الى النقطة الأخيرة.

وتسمع صوتاً يناديها من مكان قريب. انه صوت امرأة يليه صوت رجل، والاثنان يلفظان اسمها بالطريقة الفرنسية. وتنظر وراءها فترى اتيان موت والى جانبه ماري كريستين موغي.

لقد اجتمع الشمل أخيراً. وهي لحظة لن تنساها كارول قط. ويتعانق الثلاثة من غير أن يكفّوا عن الركض.

والارهاق الذي تعانيه كارول يعانيه زميلاها أيضاً وسائر الراكضين. لكن الثلاثة يستمدّون القوّة أحدهم من الآخر. ولا تشكّ كارول لحظة في أنها على طريق النصر.

لقد دخلوا حديقة سنترال بارك. ورأت كارول أخاها وأختها يلوّحان. وردّت لهما التحية وتابعت الركض والمناظر الجميلة تتلاحق في مخيلتها. ثم شاهدت بعض المرافقين من مرسيليا يحيّونها بحماسة. وأحسّت وحدة حال مع زميليها. ووصل الثلاثة الى النقطة الأخيرة معاً وقد توسّطَ اتيان الحلقة. وكان ذلك بعد أربع ساعات و٣٦ دقيقة و١٩ ثانية من بدء الركض.

وتسلّق والد كارول أحد الحواجز للاقتراب من ابنته. وعانقها مهنئاً ثم رمى أحدهم نحوها حراماً لتتلفّع به. والتقطته وهي تلهث ولا تقوى على الكلام. ودارت على نفسها بجذل كمن

حقق نصراً عظيماً. وهي حقّقت هذا النصر فعلاً.

وفي ذلك المساء اتصلت هاتفياً بزوجها في مرسيليا وقالت: "لقد أدّيت مهمّتي بنجاح."

وأجابها سيرج: "كنت متأكّداً من الأمر. وأنا كذلك أدّيت المهمّة."

بعد أسبوع تحلّق المرضى في معهد السرطان في مرسيليا حول ماري كريستين لدى عودتها الى العمل وهم يطرحون عليها أسئلةً حول ماراثون نيويورك. وأخبرتهم أنه تمّ على خير وجه.

- والأمريكيّة... هل استطاعت قطع المسافة؟

"أجل، لقد قطعتها في أقصر وقت ممكن."

وفي جلسة العلاج الكيميائي سألوا عن موعد عودة كارول فقيل لهم: "انها لن تأتي الى هنا بعد اليوم، إذ سمح لها الدكتور سبيتالييه بأخذ العلاج في المنزل."

وران صمت مطبق على المكان قبل أن تقطعه امرأة بقولها: "آه، لقد عرفنا جميعاً أنها ستتمكّن من الفوز في مباراة الركض... أليس هذا صحيحاً؟"

ونظرت حولها لترى الصمت على الوجوه. لكنها أضافت: "لماذا لا تقولون شيئاً؟ لماذا أنتم كالحو الوجوه هكذا؟ نحن أيضاً سنفعل شيئاً مماثلاً."

وقال بعضهم: "نعم،" فيما هزّ الآخرون رؤوسهم.

وبعد أشهر ساءت حال بعضهم. ولكن ظلّ آخرون، كلّما أُدخل مريض جديد، يبادرونه: "أتعرف؟ لقد كان بيننا فتاة مصابة بمرض كمرضنا. لكنها عقدت العزم على الشفاء وحقّقته!"

في تلك الأثناء كانت كارول تتلقى العلاج الكيميائي في المنزل. لكنها اتخذت قراراً بينها وبين نفسها بالتوقف عنه. وهكذا، سحبت الابرة من يدها يوم الخميس الواقع فيه الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، ونهضت من سريرها وأعلنت نهاية العلاج.

وفوجىء الدكتور سبيتالييه بالقرار، لكنه رضخ لمشيئة كارول، على رغم أنه يحبّذ المضيّ في الأمر حتى النهاية لأنّ الاحصاءات تشير الى نسبة شفاء أعلى بين اولئك الذين يتابعون العلاج. لكن سبيتالييه يوضح: "المهمّ أن كارول تتمتع بثقة لا مثيل لها، وتظنّ أنها تعرف تماماً ما يلائمها. وهي كانت خير طبيب لنفسها منذ مباشرة العلاج. ويكفي أنها قطعت سباق الماراثون كله."

وفي ربيع ١٩٨٣ اشتركت كارول مع جماعة مرسيليا في ماراثون باريس. وهي تقول بإصرار: "اني لم أكن مصابة البتة بسرطان الثدي. والذي أصابني هو سرطان الشخصية. الا أن الشخص الذي هو أنا تعافى اليوم."

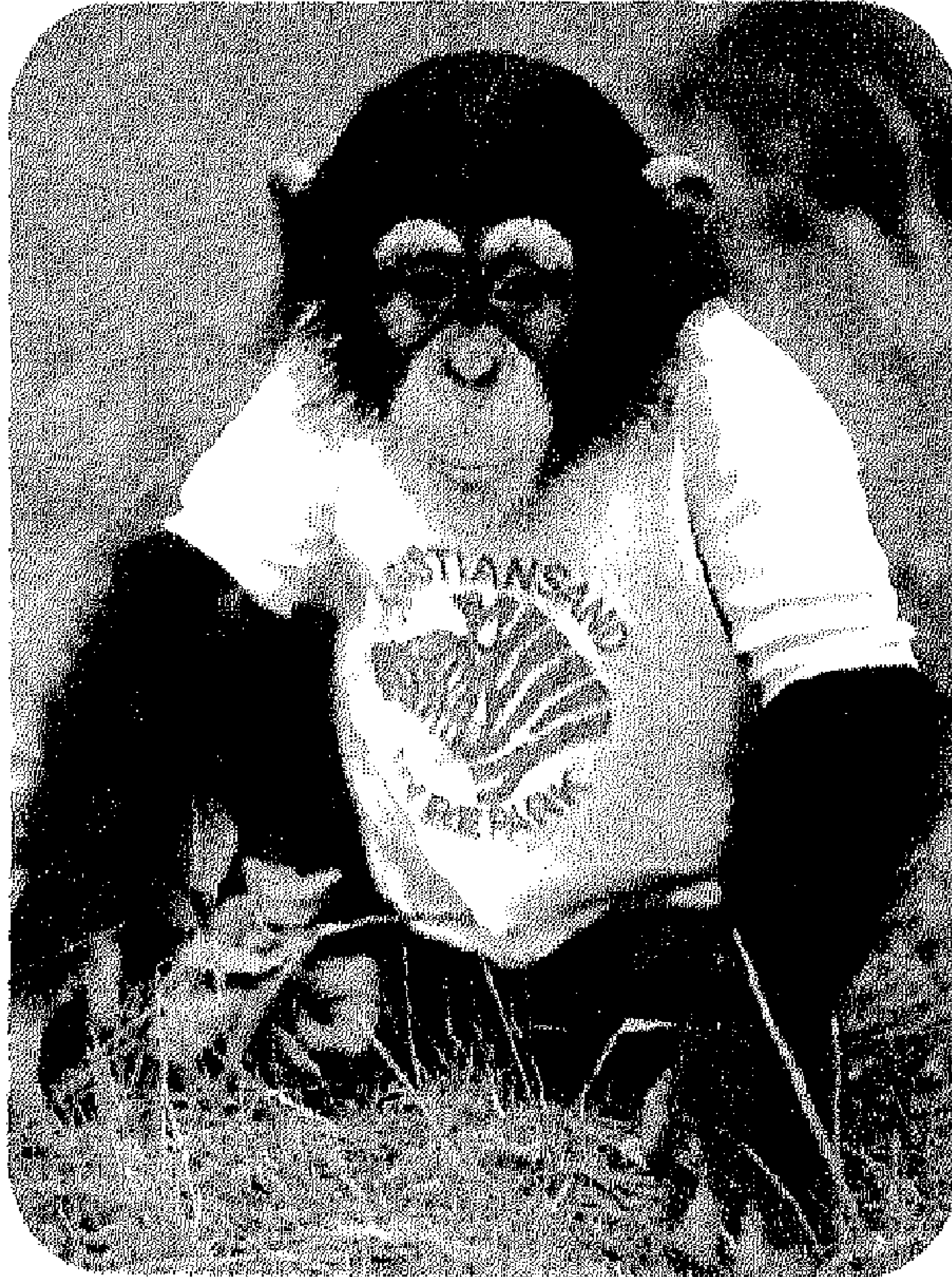
وبعد سنوات ثلاث من فوزها الباهر في ماراثون نيويورك، لا تزال كارول تتمتع بصحة جيدة وحيوية بالغة. وهي اليوم تمارس التزلج المائي والتزلج على الثلوج عبر الأرياف. كما انها باشرت دراسة الطب، فيما استهلّ سيرج عملا جديداً في مرسيليا حيث يعيشان.

لورنس إليوت ■

## خاص - ١

# يوليوس الشمبانزي المحبوب

### قصة حقيقية للأطفال... ولسواهم



كانت الأم دون النضج المتوخى وأصغر من أن تُعنى بالمولود. ولو ترك هذا في حديقة الحيوان لمات بلا ريب. لكنه اذا أبعد عن بني جنسه ليترعرع بين آدميين، فقد ينتهي مسخاً يدعو الى الرثاء. وقبلت عائلتان نروجيتان التحدّي وتعهدتا الوليد الصغير فلاعبتاه وأحبّتاه. وبالنسبة الى الأولاد الذين عايشوه كان يوليوس عضواً حقيقياً في العائلة. ثم وقع ما لا مناص منه: عملية الانفصال القسري. فقد حان الوقت ليعود يوليوس شمبانزياً سوياً.

ولد في اليوم الثاني لعيد الميلاد عام ١٩٧٩ في حديقة الحيوان في كريستيانساند بالنروج، وأطلق عليه اسم "يوليوس" لأن عيد الميلاد في اللغة النروجية يسمى "يُوْ".

وكان دنيس والد يوليوس شمبانزياً ضخماً عمره ١٢ عاماً، وهو رأس العائلة الذي اعتاد أن يتخذ قرارات تسري على الجميع. وحين ولد يوليوس كانت أمه سان في الثامنة من عمرها أي في مطلع سن المراهقة بالنسبة الى فصيلة الشمبانزي. ونظراً الى صغر سنها أخذ الجميع يتساءلون هل في وسعها أن تكون أماً صالحة. ترى هل هي بالغة كفاية لتعنى بالمولود الصغير الذي يزن كيلوغراماً ونصف كيلوغرام؟ هل ستدر له ما يكفيه من الحليب؟ هل ستكون قادرة على تربيته وفقاً للقواعد الصارمة التي تطبّق في عائلة الشمبانزي؟

بدا لفترة من الزمن أن الأمور تجري على ما يرام. فبعد ساعتين تماماً من ولادته كان يوليوس على صدر أمه يرضع للمرة الاولى. بعد ذلك تكوّم بين ذراعيها الكثيفتي الشعر واستغرق في النوم. ولكن بعد مضي ستة أسابيع رآه القيّم على حديقة الحيوان ممدداً وحيداً على الأرض خارج غرفة أمه وهو يبكي بكاء يثير الشفقة. وكانت احدى يديه تنزف، غير ان أمه لم تعره أي اهتمام.

هرع القيّم الى الهاتف واستدعى ادفارد موسايد مدير الحديقة، ثم اتصل بالدكتور بيلي غلاد الطبيب العمومي الذي كان يتعاون مع الطبيب البيطري في الحديقة لمعالجة أي اضطرابات صحية بين قرود الشمبانزي. وعندما وصلا الى المكان أدركا أنهما لن يقفا مكتوفين ويدعا يوليوس يموت، وكان هذا مصيره المحتوم بعدما تخلّت عنه أمه. غير أنهما كانا يدركان أيضاً أنهما اذا أبعداه عن رفاقه للعناية به فسيغدو من العسير جداً في ما بعد أن يحملوا هذه الحيوانات على قبوله بينها.

قال الدكتور غلاد: "يجب ألا يكبر ليصبح مهرجاً بين آدميين. غير أن إعداده لاستئناف العيش بين بني جنسه حيث ينبغي أن يكون سيستغرق وقتاً طويلا: سنتين وربما أكثر. كما يحتمل ألا تنجح هذه العملية أبداً."

قال ادفارد بتصميم: "اذا كانت العملية لن تنجح، فيتحتم عليه أن يموت الآن. نحن لا نريده أن يتحول مسخاً."

## "لماذا تبكين يا أمي؟"

عندما فحصه الطبيب اكتشف أن أنملة سبابة يده اليسرى قضمت، وربما كان ذلك من فعل أمه. لف غلاد وادفارد الشمبانزي الصغير بحرام ونقلاه بالسيارة الى منزل الطبيب بأسرع ما أمكن. وهناك أعطياه مخدراً لينام وعكفا على تضميد اصبعه.

انقضى وقت طويل قبل أن يندمل الجرح. وفي تلك الأثناء كان يوليوس يعامل كأنه طفل في عائلة من بني البشر. وغدت رايدون أماً جديدة له وكارل كريستيان (١٣ عاماً) وأوستاين (١٠ أعوام) أخوين جديدين. وكان يوليوس يرضع الحليب من زجاجة ارضاع ويشعث شعر رايدون مداعباً، كما ألبس حفاضات

Condensed from «Julius,» © 1983 by Trygve Bj. Klingsheim and Arild Jakobsen and published by J.W. Cappelens Forlag A.S. Oslo. Pictures by Arild Jakobsen



يوليوس مع مربييه الدكتور بيلي غلاد وزوجته رايدون.

كي لا يوسخ ما حوله. وبدا أنه نسي من أين جاء.

قال الدكتور غلاد لابنيه: "سيعيش يوليوس معنا فترة من الزمن. وبعد ذلك سيذهب ليعيش مع ادفارد. نرجو أن تسير الأمور على ما يرام، ويجدر بنا ألا



رايدون تغيّر حفاضات الشمبانزي الصغير.

ننسى أنه في يوم من الأيام سيتعيّن علينا أن نتخلى عنه." وكان كارل كريستيان وأوستاين في سن تتيح لهما أن يشعرا أن في ما يقوله أبوهما نبرة من الأسى. غير أن يوليوس كان في حاجة الى الكثير من الحب والدلال، وكان أسعد ما يكون حين يضمه ادفارد بين ذراعيه.

بعد بضعة أسابيع قال الدكتور غلاد لابنيه: "من الأفضل أن ينتقل يوليوس الآن الى بيت ادفارد لبعض الوقت. يجب ألا يغدو شديد التعلق بنا، كما يجب أن يخالط أناساً كثيرين. وذات يوم سيتعين عليه أن يبارحنا جميعاً." وضم أوستاين يوليوس الى صدره بشدة ثم ذهب الى غرفته وأغلق بابها كي لا يرى أحد دموعه.

انتقل يوليوس الى بيت آخر ليعيش مع ادفارد وماريت وابنتيهما آني (خمسة أعوام) وسيف (ثلاثة أعوام). وسرعان ما أصبح أحد أفراد العائلة هنا أيضاً. كان يتجوّل كما يحلو له ويمضي فترة من

الوقت مع ادفارد وماريت وفترة اخرى مع الدكتور غلاد ورايدون.

كبر يوليوس بسرعة، بل أسرع كثيراً مما تكبر قرود الشمبانزي في الأدغال، وحتى أسرع مما تكبر في حدائق الحيوان. كان يلهو ويضحك ويثور حين لا يسمح له بأن يفعل ما يشاء. كان مرحاً ويريد أن يحظى بالانتباه والرقة والعطف. وظل دائماً قطب الاهتمام، وبدا كأنه يدرك حقيقة الموقف ويفيد منها.

وفي أحد الأيام قال الدكتور غلاد: "لا يمكنني أن أجزم الأمر، ولكن يبدو لي أن يوليوس يحسب نفسه بشرياً سوياً."

وكان يوليوس حينئذ قاعداً في حضن رايدون. فقالت رايدون: "أعرف أنه في يوم من الأيام سيعود ليعيش بين القرود. أعرف أن تلك هي الحقيقة التي لا مفر منها، غير أني لا أريد أن أفكر في ذلك."



يستكشف العالم مع كارل كريستيان وأوستاين.

وذات يوم طوّق يوليوس ماريت بذراعيه وراح يمطرها بالقبلات، فأخذت الدموع تتدحرج على وجنتيها. عندئذ سألت آني وسيف أمهما: "لماذا تبكين يا أمي؟ أنت ترين أن يوليوس يحبك."

قالت ماريت وهي تمسح دموعها وتبتسم للصغيرتين: "أجل، هذا حقاً ما أراه."

لم يفهم يوليوس شيئاً مما كان يقال، فقفز عن حضن ماريت وتسلق الستائر حتى بلغ السقف. وهو كان يعتبر الترجّح متعة عظيمة. لكن رأسه اصطدم بالجدار فانكسرت احدى أسنانه الأمامية. في ذلك اليوم تعيّن على يوليوس أن يذهب الى عيادة طبيب الأسنان. وهكذا غدا ينقصه ليس أنملة فحسب، بل سن أيضاً.



ينظّف أسنانه بالفرشاة مع آني وسيف.

مرّ الزمن وجاء فصل الربيع وعالم يوليوس يتسع يوماً بعد يوم. أخذ يتسلّق الأشجار في الحديقة ويذهب في نزهات الى الغابة مع كارل كريستيان وأوستاين. وكانت الأشجار في الغابة كثيفة فكان يقفز من شجرة الى أخرى، وفي كل مكان يكتشف شيئاً جديداً فينظر اليه ويضعه في فمه. وكان يستطيب بعض ما يجد ويبصق البعض الآخر.

وأخذ الى الشاطىء حيث الرمل ناعم ودافىء، وكانت خطواته تترك أثراً عميقاً حين يسير. ركض فوق المنحدرات الصخرية ونزل الى البحر فاكتشف أن مياهه مالحة.

## صاحب الصيد

في بيت ادفارد كان يوليوس يلهو معظم الوقت مع آني وسيف وينظف أسنانه بالفرشاة مثلهما ويجذب الحرام فوقه ويضع رأسه على الوسادة ويتظاهر أنه نائم.

وكان يرافق ادفارد كل يوم، اذ هو يهوى ركوب السيارة. فيذهب معه في جولة على المكاتب والمخازن حتى ينتهيا الى مكتب ادفارد. وكان يذهب معه الى حديقة الحيوان حيث يشاهد أشياء كثيرة مثيرة: السلحفاة التي تزحف ببطء وتخبىء رأسها داخل درعها العظمية عندما يحاول يوليوس أن يلمسها بيده، والأرنب الذي حاول أن يمسكه ليلعب معه، والحمر الوحشية والجمال والزرافات. ولكن حين رأى يوليوس قرود الشمبانزي على جزيرة القرود سارع الى وضع يديه فوق عيني ادفارد وضمه الى صدره بشدة.



في ضمّة بين ذراعي ادفارد موسايد مدير حديقة الحيوان.

تُرى هل أدرك يوليوس من هو حقا؟ هل خاف من كونه قرداً؟ أم تراه شعر انه مجرد كائن صغير فاعتبر القرود الكبيرة الجاثمة على الجزيرة مخلوقات خطرة.

قال ادفارد: "علينا أن نفعل شيئا الآن لنفهم يوليوس ما هو في الحقيقة والى أي فصيلة ينتمي."

طوال فصل الصيف ظل يوليوس يوضع في حديقة الحيوان بضع ساعات يومياً. وأتاح له ذلك أن يرى أبويه دنيس وسان واخاه ليل - بيلي وشمبانزيين بالغين يدعيان لوتا وبولا. وبدا كأن يوليوس يحسب هذه الحيوانات مخلوقات غريبة. ونقله أحد القيمين على الحديقة في قارب الى جزيرة القرود حيث ظهر جلياً أن يوليوس كان يشعر بالأمان فقط حين تطوّقه ذراعا القيم هناك.

مضى الخريف وجاء الشتاء وعيد الميلاد والذكرى الأولى لمولد يوليوس. وأقيمت لهذه المناسبة حفلة قدمت فيها

مع ادفارد في ملاقاة الحيوانات الأخرى.



مرطبات وكعكة عيد. وكان ضيوفه كارل كريستيان وأوستاين وآني وسيف. ووضعت على المائدة كعكة كبيرة متوجة بالكريما مع شمعة واحدة وقد خطت عليها عبارة "يوليوس - سنة واحدة". وأطفأ صاحب العيد الشمعة وكان أول من تذوق الكعكة.

في ذلك اليوم لم يفه أحد من البالغين بكلمة عن المكان الذي سيحتفل فيه يوليوس بعيد مولده الثاني. ولكن في قرار نفوسهم كان الأولاد يعرفون أن هذا هو أول عيد ميلاد يحتفلون به مع يوليوس،





يحاول أن يتخذ الأرنب رفيقاً في لهوه.

عند اكتشافه القرود الأخرى يغطي عيني ادفارد بيديه.



في رحلة التزلج يتذوّق طعم الشتاء.

وربما كان الأخير. وهذا ما لا يريدون أن يفكروا فيه، أو على الأقل أن يفصحوا عنه جهاراً.

## قرد كالقرود

الشتاء قارس البرد في جنوب النروج. واضطر يوليوس الى ملازمة البيت حتى وجدت له ماريت بعضاً من ثياب بنتيها التي ضاقت عليهما. وألبست يوليوس سترة صوفية سميكة وقبعة وأدخلته كيساً واقياً للأطفال مصنوعاً من جلد الغنم وخرجا معاً الى الثلج. وغرز يوليوس يده في تلك المادة البيضاء ثم وضع بعض الثلج في فمه، وهكذا تذوّق طعم الشتاء.

تبع ذلك الفصل ربيع جديد وصيف جديد كان يوليوس خلالهما ملازماً لادفارد في حديقة الحيوان والمكتب والمطاعم وأنحاء الحديقة العامة. كان يسرح في كل مكان بحرية تامة ويحيّي القادمين الى الحديقة والخارجين منها. غير أنه لم يكن يدع ادفارد يغيب عن نظره لحظة. وما ان يناديه حتى يأتيه راكضاً. وكان يلوذ به كلما أخافه شيء ويشعر بالأمان حين يتعلّق بساقه أو يمسك بيده، وهذا ما كان يفضّله على كل شيء.



حفلة عيد مولد يوليوس.
من اليمين الى اليسار:
سيف، آني،
كارل كريستيان، أوستاين.

كان يوليوس يكسب أصدقاء جدداً من الناس طوال الوقت. وأضحى الحيوان المحبب في الحديقة. وصوّر عنه شريط تلفزيوني فغدا الحيوان المفضل الذي يحبّه الاطفال في أنحاء النروج.

الا أن الدكتور غلاد وادفارد فكرا في ما سيحدث ليوليوس في المستقبل، وفي ما قرراه ذات يوم من شهر فبراير (شباط) حين كان مخلوقاً صغيراً عاجزاً على شفير الموت. وفي فصل الخريف أقاما له غرفة مستقلة في حديقة الحيوان بجانب الغرفة التي تشغلها قرود الشمبانزي، ولكن يفصل بينهما حاجز متين. وهما اتخذا هذه الحيطة كي لا يتعرّض يوليوس لأي سوء. فقرود الشمبانزي تنفر عادة من قرد هجر عائلته.

أخذ يوليوس يقضي ساعات كل يوم في هذه الغرفة، لكن الدكتور غلاد ورايدون وماريت والأولاد كانوا يزورونه. وذات يوم في أواخر الخريف قرر ادفارد أن يقضي يوليوس الليل بمفرده في غرفته في حديقة الحيوان. ونام يوليوس مستريحاً



كعكة العيد وقد كتب عليها "يوليوس - سنة واحدة".

تلك الليلة، غير أن آني وسيف أرقتا في فراشيهما.

تغطي حديقة الحيوان في كريستيانساند مساحة كبيرة بحيث يسير المرء ساعات قبل أن يرى كل شيء فيها. وتقطن قرود الشمبانزي في الوسط تماماً. وهي تقضي كل فصل الصيف ونهارات بقية السنة على جزيرة القرود التي تنتصب فيها شجرة ضخمة تتسلقها. أما غرف النوم التي تأوي اليها ليلا فانها داخل تروباري، وهي بناية كبيرة تقطنها أفراس النهر أيضاً. وحين قضى يوليوس ليلته في الحديقة لازم غرفته في بناية تروباري.

وذات يوم من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) قال ادفارد: "لم نعد نستطيع الانتظار. علينا أن ندع يوليوس ينضم الى الشمبانزيات الاخرى على الجزيرة."

أول الأمر أخذ ادفارد يوليوس بمفرده ليتعرّف الى أفراس النهر. وكان في البداية خائفاً قليلا، لكنه سرعان ما أدرك أن أفراس النهر مخلوقات ودودة.

ثم حان موعد التحدي الثاني وأطلق ادفارد الشمبانزيين لوتا وليل - بيلي من غرفتيهما. وكان ليل - بيلي شقيق يوليوس الأكبر من أبيه، لكنه أصغر منه حجماً بكثير. ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يوليوس وليل - بيلي يتعانقان بمحبة. عندئذ أطلق ادفارد لوتا، وبدا أنها هي أيضاً رحبت بالقادم الجديد.

قال ادفارد: "كل شيء يجري على ما يرام. سندعه يلتقي أمه الآن أيضاً." وأطلقوا سان، فلم تكترث ليوليوس غير أنها لم تزعجه.

وكانت آني وسيف وكارل كريستيان وأوستاين والدكتور غلاد ورايدون وادفارد وماريت واقفين يراقبون المشهد. وشعر الأولاد أن يوليوس أصبح بعيداً عنهم.

قال ادفارد: "نجحنا! نجحنا حقاً!" ثم صافح الدكتور غلاد وهنأ كل منهما الآخر.

قال الدكتور غلاد: "لا تنسَ، بقيت أمامنا التجربة الأصعب. نحن لم نطلق دنيس بعد، وهو السيّد هنا."

ورد ادفارد: "يمكننا أن ننتظر قليلا قبل أن نفعل ذلك."

يلتقي أخاه الصغير كبال.



وسألت آني: "ولكن هل سيبقى يوليوس هنا؟ ألن يزورنا بعد الآن؟"

قال ادفارد: "بل سيخرج من حين الى آخر. ولكن ألا ترين أنه أصبح قرداً كسائر القرود هنا؟ هذا يعني أننا نجحنا في ما فعلناه."

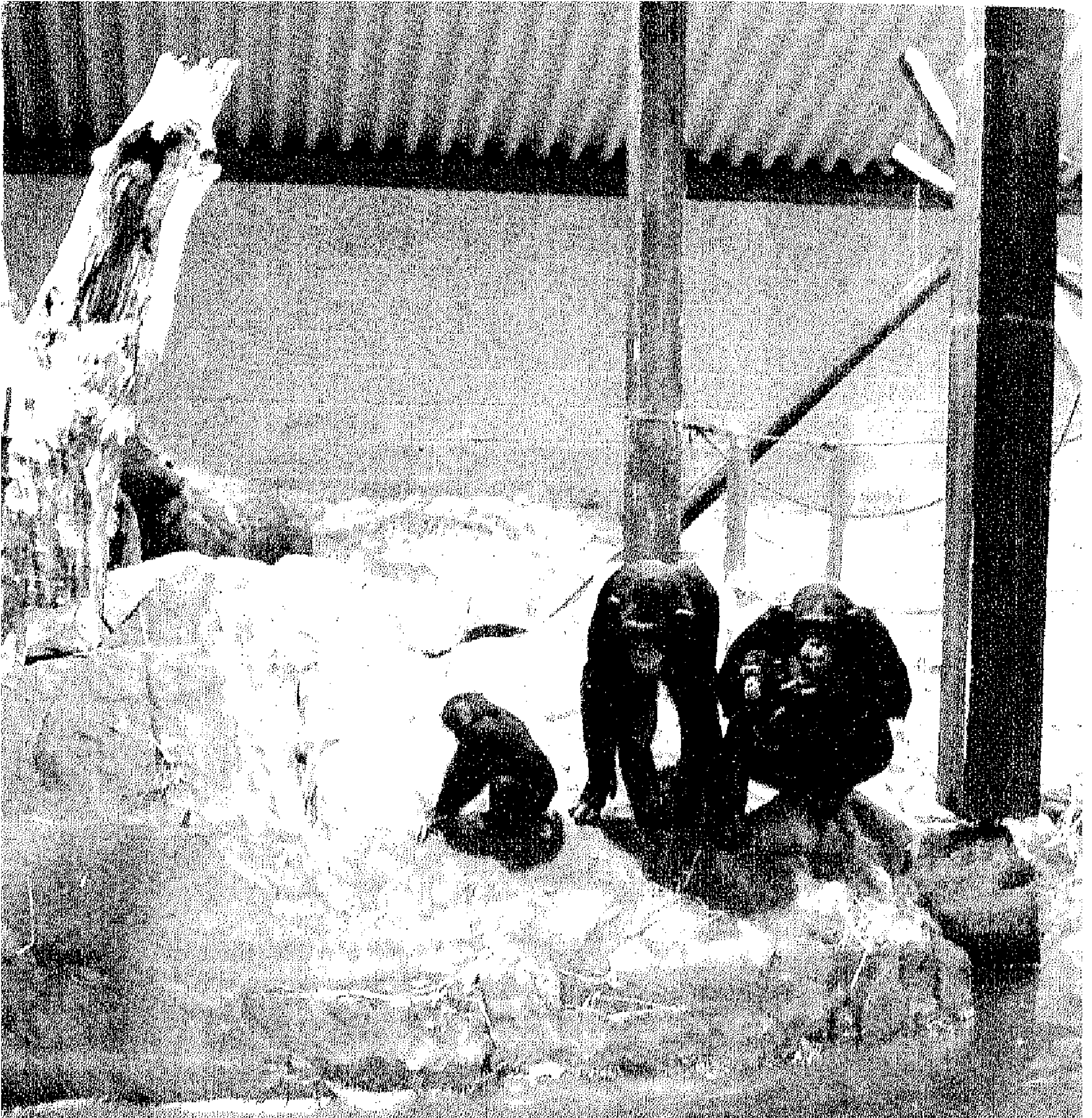
ولم يعجب الأولاد كثيراً بهذا النجاح، وكان يومهم حزيناً.

## ساعة الوداع

حان عيد الميلاد التالي. وفي ١٢ ديسمبر (كانون الاول) وضعت سان مولوداً آخر، اي أن يوليوس رزق أخاً جديداً. وأطلق على هذا اسم كيال تيمناً بالقيّم الذي كان في الخدمة حين تمت الولادة. وحينئذ أدرك الدكتور غلاد وادفارد لماذا لم تكترث سان ليوليوس حين أخذ الى جزيرة القرود. فقد كان يشغل بالها مولود جديد في طريقه الى الحياة.

سألت سيف والديها ذات يوم بينما كانا واقفين في المطبخ يعدّان كعكة الميلاد: "سيأتي يوليوس الينا في عيد

في تروباري حيث تقطن القرود مع أفراس النهر.





يحتضن كيال.

الميلاد لكي نحتفل بذكرى مولده معاً، أليس كذلك؟"

قال ادفارد: "كلا، هذه السنة سيحتفل بالذكرى في بيته الجديد. لكننا سنزوره".

وهذا ما حصل. ففي اليوم الثاني من أيام الميلاد زار الجميع يوليوس: كارل كريستيان وأوستاين والدكتور غلاد ورايدون وآني وسيف وادفارد وماريت. ومد غطاء مائدة على أرض غرفة يوليوس وأكل الجميع من كعكة العيد. ولم يجد يوليوس ستائر يتسلقها في ذلك الحين، ولكن كانت لديه حبال يترجح بها. انه لم يتبدل قط. ولكن بالنسبة الى الاولاد ووالديهم كان كل شيء تغيّر. حتى ان ادفارد وجد نفسه مضطراً الى تذكيرهم بأن الامور أصبحت في نصابها الصحيح.

كان الشتاء مظلماً والسماء غائمة ولم ينقطع ادفارد عن التفكير في ما لا مناص منه: يجب اطلاق دنيس مع يوليوس والقرود الأخرى. ولكن ذات يوم قضى دنيس فجأة بسكتة قلبية.

وفكر ادفارد في نفسه: لعل هذا أفضل ما يكون بالنسبة الى يوليوس. وبعد سنوات قليلة ربما تسلم هو مهمات رأس العائلة.

جاء الربيع وتبعه الصيف وزار ألوف الناس حديقة الحيوان، وكان الجميع يرغبون في مشاهدة يوليوس ومصافحته. وكان يسمح له بمغادرة بناية تروباري وجزيرة القرود أحياناً، فيركض بمطلق حريته في أرجاء الحديقة ويعمد بين حين وآخر الى خطف قطعة حلوى من يد أحد



يوليوس وماريت لحظة الوداع.

الزوار. وكان كارل كريستيان وأوستاين وسيف وآني يذهبون دائماً لزيارته.

وذات يوم رآه الدكتور غلاد وادفارد جالساً وقد وضع أخاه كيال في حضنه بينما كان ليل - بيلي يترجح على الاشجار. كان يوليوس يلاعب كيال ويربّت رأسه ويضمه الى صدره بحنان. فقال ادفارد: "هذه علامة جيدة. لقد سمحت له القرود أن يتسلم بعض المسؤولية."

أصفرّت أوراق الشجر ولاحت طلائع الخريف. وكانت آني وسيف وماريت يتنزهن في الحديقة العامة مع يوليوس. أمسكت ماريت يده وجلسا معاً مدة طويلة، وتعانقا وقال كل منهما للآخر، بطريقته الخاصة: وداعاً.

قالت سيف: "أماه، أتظنين أن يوليوس سوف ينسانا أبداً؟"

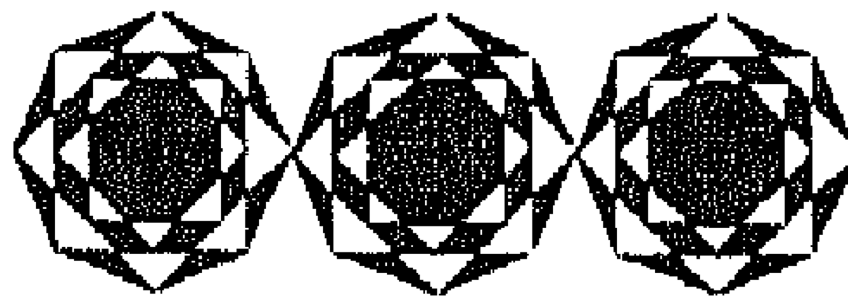
فردت ماريت: "كلا، لا أظن ذلك. هل تنسين أنت يوليوس؟"

قالت سيف: "لا، انه عاش وكبر بيننا، وأحب أن أفكر في أن له حقاً في أن نلتقي جميعاً لنحتفل بعيد الميلاد معاً وتعم الفرحة كل مكان."

وهنا علينا نحن كذلك أن نقول ليوليوس: وداعاً.

واذا زرت أيها القارىء العزيز مدينة كريستيانساند في بلاد النروج، فيمكنك أن تلتقي يوليوس الشمبانزي الذي نشأ بين الآدميين وعاد الى بني جنسه فقبلوه.

**تريغفي كليغشام** ■



## عهد الأمانة

استدعى وكيل بناية نجّاراً وطلب منه تصليح بوابة في منزل سيده. وطلب النجار ٥٠٠ دولار أتعاباً. فأجابه الوكيل: "أفكر في الأمر وأعطيك الجواب." واستدعى بعد ذلك عاملا كهربائياً وعرض عليه الأمر نفسه، فطلب ٥٠٠٠ دولار. وجاءه الجواب: "هذا ثمن مرتفع. ولكن انتظر جوابي." ثم قصد الوكيل متعهداً، فطلب ٢٠،٥٠٠ دولار. وصرخ فيه: "أتقصد حقاً ما تقول؟"

– أجل، اني أعني تماماً ما أقول. وقد وزّعتُ المال كالآتي: عشرة آلاف دولار لك وعشرة آلاف لي وخمسمئة للنجّار لكي ينجز العمل المطلوب.

و.ب.

---

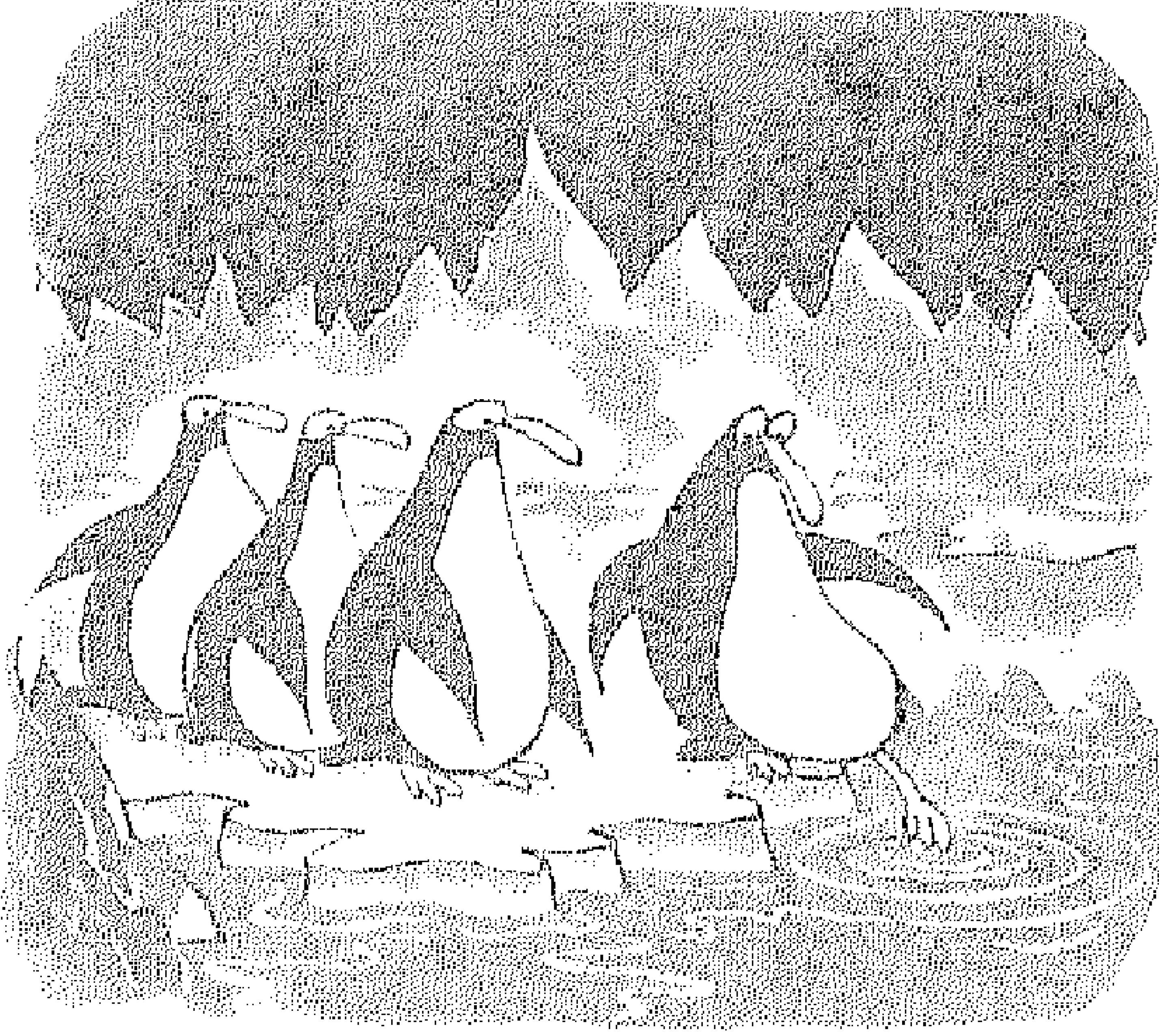
## ادارة جديدة

قال نزيل الفندق لأحد الموظفين: "جاء في إعلانكم أن الفندق يعمل بأدارة جديدة. الا اني لم ألاحظ اي تبدل في الادارة، والمدير القديم لا يزال يحتل وظيفته ومكتبه."

– هذا صحيح. لكنه تزوج قبل أيام.

صحيفة "سلكتا"، المانيا

# الضحك خير دواء



## لولا الاسد

نالت مروّضة الأسود في سيرك اعجاب النظارة بجمالها وجرأتها معاً. فهي كانت تسيطر على الاسد وتغريه لكي يضع مخالبه حول عنقها ويحك انفه بأنفها. وكانت عاصفة من الهتاف ترتفع عند كل مشهد من هذا النوع. لكن رجلا لم يرُقه ذلك، فقال: "ما العظيم في هذا الامر؟ الا يستطيع كل واحد ان يؤدي الدور نفسه؟"

واستدعاه مدير الحلبة وقال: "تفضل وحاول ما تقول."

- سمعاً وطاعة يا مولاي! ولكن ابعد الأسد من هنا اولا.

أ.و.ب.

## تلفون بيتهوفن

ذهب شاب ذو اطّلاع موسيقي واسع الى حفلة موسيقية مع صديقته. وكان عازف البيانو يقدم قطعة لبيتهوفن حين ارتفع الصوت فجأة. فقال الشاب لصديقته: "انه يحاول تغطية الخطأ بالنغم المرتفع." وفي تلك اللحظة سُمع رنين الهاتف في القاعة الخارجية. فأضاف: "أسمعتِ؟ هذا بيتهوفن يحتج على تشويه موسيقاه."

م.ل.

## نزيل المصحّ

سأل مدير مصح عقلي وافداً جديداً عن سبب دخوله المستشفى، فقال:

"حسناً يا سيدي! لقد تزوجت أرملة لها ابنة بالغة. وتزوج أبي المترمّل تلك الفتاة. وهكذا غدت زوجتي حماة حميها، وغدت ابنتها ابنتي بالتبني وأمي بالتبني في آن. ورزق أبي ابناً صار أخي وحفيد زوجتي. ورزقت انا ابناً صار ابن حماة جده وخال عمه. ومن ناحية أخرى، بات ابي يتكلم عن ابن حماته عندما يعني حفيده، وصار ابني يدعو اخته "جدتي". أما أنا فبتّ مقتنعاً بأني والد أمي وأخو حفيدي، وأن زوجتي ابنة صهرها وأخت حفيدها. ولست أدري، والحال هذه، ما اذا كنت جداً لذاتي أو أباً لأخي. ولهذا السبب تجدني هنا يا سيدي، حيث أجد سلاماً لا أعرفه في بيتي."

ا.م.



# سيرة أمٍّ هنديّة

في احدى ليالي فبراير (شباط) القارسة من العام ١٩٧٥ جلست متكوّمة على نفسها في الملجأ المفضّل لديها بين بناءين في أحد أحياء البؤس في مدينة ادمونتون. وألقى بعض المارة نظرة لامبالية الى تلك المرأة الناحلة القصيرة القامة بوجهها القاتم وراء نظارتيها وشعرها الجعد الموخط بالشيب. انها مجرد هندية سكرى.

وتجاهلت ارنستين جيبو أولئك المارة وهي غارقة في بؤسها وشقائها. وقالت في نفسها: "هذه ليست حياة." فبعد شهرين ستبلغ الخمسين من العمر، فماذا تراها حقّقت في كل هذه السنوات؟ انها عاطلة عن العمل ومطلقة وأولادها بعيدون عنها في فورت تشيبويان في شمال البلاد. لقد أصبحت على الحضيض.

وفي أوهام ثملها تراءى لها رجل هندي يتقدم نحوها. قالت في نفسها: "انه قادم لينتزع مني الزجاجة." وانطلقت تركض عبر الشارع المزدحم بالسيارات وأفلتت فردة حذائها من احدى قدميها.

أمسك بها شرطي وأنبها قائلا: "أنت تسعين الى حتفك يا امرأة."

وقضت ارنستين ليلتها في مركز

Illustrations: Greg Ruhl

**ازدراها المارة في مدينة ادمونتون الكندية على انها "هندية أخرى تعتعها السكر." انها بعيدة عن موطنها الاصلي في غابات الشمال حيث وقعت في حبائل زواج قاس ونأت عن أولادها. وفي الخمسين من عمرها أصبحت ارنستين جيبو امرأة يائسة. كانت في ظاهرها نموذجاً للمرأة الهندية التي تعيش في أحياء البؤس في المدن. لكن احدى صديقاتها من البيض تقول وفي صوتها شيء من الرهبة: "ان ارنستين امرأة مميزة." ففي السن التي يتوقع الكثيرون أن يركنوا الى حياة تقاعد هادئة، انطلقت ارنستين في محاولة تحقيق قفزة هائلة تنشلها من هوة القنوط وترفعها الى حياة منتجة جديدة**

الشرطة. وفي الصباح وقفت أمام القاضي وسمعت منه أنها متهمة بمخالفة القانون وبالسير في الطريق على غير هدى. وسئلت هل تقر بأنها مذنبة؟

أجابت: "نعم، لقد ارتكبت خطأ. واذا كنت استحق العقاب، فذلك عائد اليك يا سيدي."

خلى القاضي ارنستين بعد تحذيرها. وخارج قاعة المحكمة التقتها ابنتها ساندرا (١٥ عاماً) التي كانت تنتظرها والدموع تنهمر من عينيها، وقد أوشكت هي أيضاً على الضياع وقدمت الى ادمونتون لتبحث عن أمها.

تعانقت الام والبنت وهما تنشجان، وأحست ارنستين قلبها يتفطّر وتساءلت: "أين تلك الأم التي كنتها؟ ها أنذا في هذه الحال. لا بد من عمل ما لكي أنقذ نفسي."

وهكذا بدأت طريقها الشاقة الطويلة لتخرج من الهوة التي سقطت فيها.

## العالم الجديد

ولدت ارنستين جيبو عام ١٩٢٥ في فورت تشيبويان، وهي قرية يسكنها نحو ٩٥٠ نسمة وتقع على الطرف الغربي من بحيرة آثاباسكا في رحاب واسعة من

السماء والاشجار والماء على بعد ٦٠٠ كيلومتر الى الشمال من مدينة ادمونتون. وترعرعت هناك على غرار سواها من بنات تشيبويان، منطلقة حرة وسعيدة في غابات تلك الارض.

وكان والدها جوزف فورتين رجلا ناحل الجسم مفتول العضلات يمتهن قنص الحيوانات البرية وصيدها بالاشراك. وهو تحدّر من أم هندية وأب كندي فرنسي. وكانت أم ارنستين كذلك هندية تدعى آنجيل.

وزخر عالم ارنستين الصغيرة بالاشياء اللطيفة البهيجة: أرانب وطيور برّية مطهوّة على نار الحطب، وعمود متلوّ من الدخان الازرق تنتشر رائحته مع النسيم، وجلود حيوانات ممطوطة ومنشورة لتجف في الشمس تباع ليشرى بثمنها الشاي والسكر والدقيق وربما بعض الاطايب كالحلوى، ولحوم الحيوانات البرية ملفوفة بالقماش ومعلّقة على شجرة لابعادها عن الطيور والحيوانات.

وطوال أشهر الربيع والصيف والخريف كان أفراد العائلة يلاحقون حيوانات الصيد من الثعالب والقنادس والمنك ذي الفرو الفضي وجرذان المسك والسنانير والسناجيب. وكانوا يعيشون في خيمة يأوون اليها حتى نهاية شهر ديسمبر (كانون الاول). وكان البرد قارساً، وحين يدهمهم الشتاء كانوا يحشرون أنفسهم في كوخ خشبي صغير صنعت أرضه من





أغصان الشجر المنشورة فوق التراب المرصوص. هذا الكوخ الذي كسي سقفه وجدرانه بالطين كان في العادة دافئاً، الا ان آنجيل ظلّت مريضة في غالب الاحيان.

وكانت ارنستين تتدبر شؤونها مع أن معطفها الشتوي كان مجرد سترة طويلة من الصوف ترتديها فوق قميص صفيق، وحذاءها من جلود الارانب الملفوفة حول حذاء صيفي. وهكذا ترعرعت معتادة التقشف وشظف العيش كما يجدر بكل فتاة هندية أن تكون.

وأدرك جوزف وآنجيل أن على ارنستين أن تتعلّم علوم البيض اذا شاءا أن يكون لها مستقبل في الحياة. ولذا سجلا اسمها وهي في الخامسة لتسكن وتتعلم في مدرسة خاصة في فورت تشيب (★).

وكان يوماً مفعماً بالأسى حين أخذها والدها الى المدرسة. وهو منظر يتكرر كلما جيء بفتاة هندية من القبائل الرحل لتلتحق بالمدرسة في تلك الايام. وبكت الصغيرة كأن حياتها انصرمت. فوضعها جوزف على ركبتيه وضمّها اليه فتشبثت به.

أخذ يؤاسيها ويداعبها ويقول لها: "أنا أحبك يا صغيرتي، ولكن عليك الآن أن تعيشي هنا لتكملي تعليمك." وحين تركها انطرحت أرضاً فأقبلت المسؤولة ورفعتها بقوة قائلة لها: "هذا هو بيتك الآن." ولم تفهم ارنستين الكلمات التي لفظتها المسؤولة، لكن القبضة الشديدة واللهجة الصارمة وفتا بالغرض. وهكذا خطت أولى خطواتها في عالمها الجديد.

---

(★) هكذا يسمي المحليون قرية فورت تشيبويان.

وطوال أربع سنوات ظلّت ارنستين تشعر كأنها في سجن. ولم تكن تزور بيت أهلها في الصيف، ففي أي حال كان هذا البيت؟ وأين؟ انه خيمة في مكان ما من تلك البراري، دائماً في ترحال. ولم يتح لأمها ان تزورها سوى مرة واحدة، وزارها والدها ثلاث مرات أو أربعاً وهو يحمل اليها البرتقال والتفاح والحلوى.

## اتصال غريب

في تلك الايام كان التعليم مقصوراً على الاساسيات. وتعلّمت ارنستين الانكليزية والفرنسية والطاعة المطلقة. وكانت المدرّسات قاسيات، والتلميذات اللاتي يخطئن يجلدن بالسوط. ولكن تخلل تلك الحياة بعض الاوقات السعيدة كأوقات الصلاة والغناء.

وبعدما انهت الصف الابتدائي الرابع جاء والدها وأخذها الى البيت. وكان هذا من علائم تلك الايام: فالعائلات الهندية التي تتوق الى أولادها وتحتاج الى خدمتهم كانت تخرجهم من المدرسة قبل أن يكملوا تعليمهم بوقت طويل. وفي ذلك الوقت كانت آنجيل معظم الاحيان رهينة الفراش. وفي التاسعة من عمرها تحمّلت ارنستين مسؤولية البيت، فكانت تساعد أباها في طهو الطعام وتعنى بشقيقها جوزف (٤ أعوام) وبشقيقتها الصغيرة لويز، وهذان لم يعرفاها من قبل.

وفي اللقاء الاول كادت ارنستين ألا تعرف أمها، كما نسيت لغة تشيبويان كلياً. أما آنجيل فلم تكن تتكلم الانكليزية وكانت تعرف القليل من الفرنسية. وهكذا أخذت الأم والابنة تتخاطبان بلغة الاشارة الى أن استعادت ارنستين لغتها الأم.

وتدريجاً عاودت ارنستين سيرتها الاولى كفتاة من قبيلة تشيبويان. فتعلّمت كيف تقطع رقاقات من الاشجار اليابسة وتنزع صفائح من لحائها وتضعها في كيس صغير لتستعين بها في أشعال النار. ولم تكن عائلة فورتين تأكل الخضر قطعاً، ولكن طوال الصيف كانت ارنستين تجوب الغابة بحثاً عن الثمار البرّية. وكان ذلك عهداً موحشاً لم تجد فيه رفقاء تلهو معهم. وتاقت نفسها الى اللعب بدمية. وأخيراً اهتدت الى صنع واحدة من الخرق وجعلت يديها ورأسها ورجليها عقَداً. لكن الامسيات كانت أوقاتاً سعيدة اذ تتحلق عائلة فورتين بكل أعضائها في شكل دائرة فيغنون ويضحكون ويروون قصصاً عن القنص. والاساطير الهندية.

ونادراً ما كان تجوالهم يحملهم الى دار عبادة، ولكن في كل ليلة كانت العائلة تصلّي بخشوع.

في هذا الوقت بدأت ارنستين تكتشف من جديد، وتفهم للمرة الاولى، الاحترام الذي يكنّه الهندي للطبيعة. فالبحيرة لم تكن مجرد تجمع من الماء، بل كانت شيئاً حياً. كذلك الريح والشمس والسماء والارض وألوف الاشياء الاخرى. وفي ساعات فراغها كانت تطوف في الغابة وحيدة فتناجي هذه الاشياء كلها لأن تلك هي الطريقة الهندية في الحياة. فالشجرة التي تعطي من أوراقها دواء ومن جذوعها خشباً لصنع القوارب يجب أن تعامل باحترام. ولم يحاول أفراد عائلة فورتين أن يقطعوا غصناً أخضر لاشعاله، بل كانوا يختارون الاغصان اليابسة أو التي

على وشك اليباس. وقبل أن يقتلع أحدهم جذراً يؤكل كان يخاطب النبتة فيوضح لها لماذا عليه أن يأكلها. وكانوا يؤمنون أن النبتة تفهم ما يقولون.

حتى الحيوانات التي كانوا يقتنصونها كانوا يعاملونها باحترام. وكان جوزف يقول لأولاده ان دورة الحياة مستمرة أبداً.

وكان نوع من الاتصال الغريب قائماً بين جوزف وآنجيل، وهي صفة يشاطرهما اياها كثيرون من الهنود وقد تكون متصلة بحسهم العميق للعالم الطبيعي. فعندما يكون جوزف بعيداً عن البيت في رحلة قنص كانت آنجيل تعرف حين يصاب بأذى. واذا دهم المرض آنجيل كان جوزف يستشعر ذلك من مسافة بعيدة.

كذلك كانت لهما قدرة على توقع المستقبل، وكانت ارنستين تؤمن بذلك.

قالا لها: "ذات يوم سيأتي اليك أناس بيض ليعرفوا منك شيئاً عن الاساليب الهندية. من أجل ذلك نخبرك الآن عن الارض والشمس والحيوانات. ولكن لا تقولي كل شيء لرجل أبيض الا اذا كنت تثقين به حقاً."

## الام الثكلى

كانت ارنستين في السادسة عشرة من عمرها ومفعمة بالحيوية حين التقت فرنسوا جيبو، وهو شاب أسمر البشرة مقدام من قبيلة كري يعمل صياد أشراك في المنطقة. واشترى لارنستين هدايا لم تحصل على مثلها من قبل. وهكذا هامت به.

ولم يكن أحد أطلع ارنستين على حقائق الحياة. وسرعان ما ارتابت في انها حبلى، وكانت واهمة. وأصر أهلها على تزويجها فرنسوا للحال. وفي يناير (كانون الثاني) من العام ١٩٤٢، وقبل أن تبلغ السابعة عشرة من العمر، عقد قرانهما في كوخ خشبي في الغابات.

وكانت ارنستين تقدّس الزواج، لكن فترة الغرام كانت قصيرة. وصارحها زوجها بأنه ناقم على زواجه القسري بها. وكان هو المهيمن عليها، وذلك عائد من جهة الى كونه أكبر منها سناً، ومن جهة أخرى الى أن الرجل الهندي في تلك الايام كان هو السيد المطاع. وكان دور المرأة مقتصراً على انجاب الاولاد وطهو الطعام والطاعة المطلقة لزوجها.

وفي بداية حملها الاول أسقطت جنينها، ومرت سنتان من دون أن ترزق طفلا. وكانت سمعت أن المرأة التي تسقط تصبح عاجزة عن الانجاب، فتملكها القنوط. وأخذت تصلّي ضارعة: "يا الهي، ارزقني اطفالا. أريد أن يكون لي من أحبه."

وأخيراً استجيبت صلاتها. وكانت الولادة عسيرة، خمسة أيام بلياليها في مخاض أليم. وولد طفلها الاول وكان صبياً، فأغدقت عليه كل ما لديها من حب. وكان اسمه توماس. كذلك كان فرنسوا سعيداً اذ رزق ابناً. وبدا لفترة أن زواجهما قد يصطلح. ولكن بعد وقت قصير أصيب الطفل بداء الشهقة (السعال الديكي) وكان قاتلا للاطفال في تلك الاصقاع النائية. ونقله والداه على مزلجة فوق الارض المكسوة بالثلج الى ممرضة في فورت تشيب، لكن توماس مات وله من العمر شهر وستة أيام.

قال فرنسوا لزوجته الثكلى: "سننجب ولداً آخر." وبعد وقت قصير ولدت ابنتهما نورما فأولعت ارنستين بها. وبلغت الفتاة السادسة من العمر قبل أن يدهمها المرض. وعندما ارسلتهما الممرضة في فورت تشيب الى مستشفى ماكموري على بعد ٣٣٠ كيلومتراً جنوباً أدركت ارنستين أن طفلتها مائتة.

ومكثت في ماكموري الى أن جاءتها رسالة ذات ليلة من يناير (كانون الثاني): انها مطلوبة حالا الى المستشفى.

وحين وصلت قالت لها احدى الممرضات بأسى: "انها تلفظ أنفاسها ولن تعرفك." وجثت ارنستين على ركبتيها وأخذت تضرع: "يا الهي، اجعلها تعرفني قبل أن تأخذها اليك." وفجأة فتحت الطفلة عينيها وابتسمت ثم قالت بلغة قبيلة كري: "أماه، أنت هنا؟" وفاضت روحها. وحمدت ارنستين ربها من خلال العبرات المنهمرة.

## علامة الذئب

مرت السنوات مسرعة وارنستين تعيش في دوامة من العمل الشاق وانجاب الاطفال: فرانك وفينا وجوني ودوروثي وارنست وجيرالد وروبي وساندرا وماري وجيرالدين وجين.

ولم تكن حياتها كلها تعاسة، فقد أحبت انجاب الاولاد. وكانت تقول: "انها دمى حقيقية خاصة بي." وكان فرنسوا لا يزال صياداً مبرزاً وقناصاً، وغالباً ما كانا يذهبان معاً الى الغابات. وكان يجلب فراء القنادس الى المخيم فتتولى ارنستين تنظيف نحو ١٠٠ فرو وتجفيفها يومياً. وفي احدى السنوات اصطاد ألفاً من جرذان المسك التي يبلغ ثمن فرو الواحد منها خمسة دولارات. غير ان المال كان ينفد بأسرع مما يأتي.

وكانت ارنستين تبتهج بتلك الرحلات الى الغابات. ومع أنها كانت دائماً حبلى فقد كانت قادرة على السير أو الركض بضعة كيلومترات دفعة واحدة، تستهدي الى طريقها واتجاهاتها بقراءة أوضاع الشمس والرياح. وفي الليل كانا يوقدان ناراً هادرة. فيقطع فرنسوا أغصان الصفصاف ليصنع منها حصيراً وينامان في دفء حتى بعد سقوط الثلج، فتكتسي الارض حلة بيضاء ويرين السكون الشامل لا يقطعه سوى عواء الذئاب والثعالب.

لكن الاوقات التي عاشاها معاً كعائلة ملتئمة كانت نادرة. فارنستين وفرنسوا عادا يتجافيان. وكانا أحياناً يذهبان في القارب الى فورت تشيب، فتمكث ارنستين والاولاد في جزيرة قرب الشاطىء ويذهب فرنسوا وحده الى القرية. وكانت كلمته لا تزال هي المطاعة.

وفي العام ١٩٥١ دهم المرض والديها للمرة الاخيرة. وعرفت ارنستين أن ذلك صحيح لأنها كانت تؤمن أنهما يحدسان في المستقبل وقد قالا لها ان حياتهما انتهت.

وكانت آنجيل تردد أن أرنستين سيفيض لها ذات يوم "أن تساعد الناس" وحتى البيض منهم. وقالت لابنتها: "قبل أن أموت يجب أن أخبرك. سيقترب منك حيوان. لا تخافي منه وان بدا لك مخيفاً. وعندئذ تذكّريني."

وكان فرنسوا وارنستين ذات يوم في الغابة يصطادان جرذان المسك حين اقترب منهما حيوان. انه ذئب. وصاح فرنسوا بزوجته وهو يلقي اليها حربة وينطلق ليحضر بندقيته.

ألقت ارنستين جيفة جرذ مسك الى الذئب فيما الكلب الصغير بجانبها ينبح. وجثت على ركبتيها وأغمضت عينيها. ولم تشعر بشيء. ولما فتحت عينيها رأت الذئب والكلب يلهوان معاً.

عندئذ صاحت برقة: "آه، الآن عرفت لماذا جئت الي." لا ريب في أن تلك كانت رسالة من أمها. وجاء فرنسوا راكضاً وهو يصوّب بندقيته الى الذئب، فصاحت به ارنستين: "لا، لا تقتله!" وفر الذئب هاربا.

وفي وقت لاحق من ذلك الصيف، بعد ٤٣ سنة من الحياة الزوجية، توفي جوزف وآنجيل في مستشفى فورت سميث بفارق ١٨ يوماً.

## تجربة مرعبة

في بيت ارنستين، كما في بيوت كثيرة حولها، كانت معاقرة الخمر مصدر أسى لا يوصف للجميع. وحملت ارنستين في نفسها مقتاً شديداً لهذا الشراب طوال سنوات. وكان الهنود الآخرون يلحون عليها كي تتذوقه، وحين ترفض يسكبونه مازحين فوق رأسها.

وأخيراً انصاعت لهم ارنستين وتذوقته. ثم تناولت المزيد منه. ومع مرور الزمن أخذت تشرب بافراط. وهنا بدأت المشاجرات تنشب باستمرار وأخذت هي تتصدّى لزوجها كلاماً وتضارباً. وأصبح تبادل الصفعات واللكمات أمراً عادياً. وكثيراً ما فكرت في طلب النجدة، لكن زوجها نبّهها الى أن البيض سيزدرونها ويعتبرونها "مجرد امرأة هندية مخبولة."

وفي العام ١٩٧٠ بعد عقود من العمل الشاق والكفاح ومعاقرة الخمر، بدأت تظهر عليها علائم الانهيار. ففي فترة ٢٥ سنة حملت ١٩ مرة، فأسقطت في خمس وأنجبت ١٤ طفلا حياً. وفي السابعة والاربعين من عمرها بدت هزيلة ومعتلة وظهرت عظامها من تحت جلدها.

وأخيراً عام ١٩٧٤ وقد غدت ناحلة وضعيفة ويائسة قالت في نفسها كما فعلت غير مرة من قبل: "هذه ليست حياة." فأولادها الكبار بدأوا يتدبرون شؤونهم والتحق الصغار ببيوت ترعاهم. ثم أحضرها أحد المرشدين الاجتماعيين في فورت ماكموري الى أحد مراكز الرعاية والتأهيل التي تعالج مدمني الخمر والمخدرات.

وفي الخمسين من عمرها، في السن التي يتوقع الكثيرون أن يركنوا الى حياة تقاعد هادئة ومستقرة، غدت ارنستين على وشك تحقيق قفزة هائلة تنقلها الى حضارة مختلفة، قفزة عجزت عن تحقيقها ألوف مؤلفة من الهنود طوال أجيال.

أمضت ارنستين في مركز التأهيل شهراً كاملاً. وعندما قيل لها انها مدمنة الخمر لم تفهم معنى هذه العبارة. بعد ذلك انتقلت الى بيت في شمال غرب مدينة ادمونتون حيث يقطن كثيرون من أبناء جلدتها. لقد أصبحت الآن حرة تماماً، غير انها لم تعرف كيف يجدر أن تتصرف بهذه الحرية. فعادت تعاقر الخمر

وتنحدر أعمق وأعمق في حمأة الادمان. وبين فترات الثمل أخذت تستكشف المدينة وجلة مما ترى. كانت التجربة مرعبة. ولم تعرف كيف تركب الحافلات في الشوارع. وبعد سكون الغابات بدا لها ضجيج ادمونتون يصم الآذان.

ذهبت مرة الى متجر في وسط المدينة. وقفزت الى الوراء مذعورة عندما انفتح الباب أمامها آلياً. ما هذا السحر؟ وفيما هي تسير في أحد الاقسام اقتربت منها امرأة بدا وجهها مألوفاً الى حد الغرابة. وحيتها ارنستين: "هالو !" ثم اكتشفت أنها ترى نفسها في مرآة بطولها للمرة الاولى. واستدارت مرتبكة فرأت بجوارها امرأة أنيقة الملبس. فصاحت ثانية: "هالو!" وأمسكت بيد المرأة لتصافحها فاذا هي تمثال لعرض الازياء.

وفي أحد أيام شهر فبراير (شباط) من العام ١٩٧٥ قبض عليها ثملة وسيقت الى السجن. وكانت تلك الصدمة اللازمة لتحويل مجرى حياتها.

## مذيعة هندية

حصلت ارنستين على عمل كخادمة تنظيف في دار للعجزة. الا ان مشقة العمل والآلات الكهربائية الحديثة كانت أقصى من طاقة احتمالها. فهي لم تر من قبل آلة لغسل الاطباق. وحتى بعدما لقنت كيف تشغل الآلة ظلّت وجلة من لمس الازرار لئلا ينكسر شيء فيها. وبعد شهر صرفت من العمل.

وكانت تلك صدمة عنيفة. كانت في حاجة ماسة الى المال لكنها صمّمت على الاستمرار في المحاولة وقالت في نفسها: "سأعود كما كنت من قبل، أماً صالحة."

وأحضرت بناتها الصغيرات من فورت تشيب، وهن جين وجيرالدين وماري وساندرا اللواتي راوحت أعمارهن بين ١٠ أعوام و١٦ عاماً، وانتقلت بهن الى بيت مؤلف من غرفتي نوم. وبعد وقت قصير كانت ارنستين تتناول طعام الغداء مع امرأة هندية أخرى في مركز الصداقة الهندي عندما سمع حديثهما رجل من جمعية الاتصال بين المواطنين الاصليين في آلبرتا، وكانتا تتكلمان باللغة الانكليزية ولغتي قبيلتي كري وتشيبويان.

وتقدم الرجل من ارنستين وقال لها: "قد تكونين الشخص الذي نبحث عنه."

وبعد أيام قليلة استقبلها جيف هاورد المسؤول عن مشروع جديد لبث برامج اذاعية وتلفزيونية موجهة الى المجتمعات الشمالية بلغات القبائل الوطنية. ورأى هاورد وراء خفر ارنستين ذكاء حاداً وروحاً مرحة وولعاً طفولياً بمنسرات الدنيا. وفي اليوم التالي حضرت اجتماعاً ضم بيضاً وهنوداً وهجناء. ومضّها شعور بأنها في غير مكانها الطبيعي. وراح هاورد الذي كان ينتج شريطا مصوراً، يطرح الاسئلة على الحاضرين: كيف هي الحياة في الغابات؟ كيف تحصلون على ما يقوم بأودكم؟ كيف توقدون النار؟ وكانت ارنستين تصغي من دون أن تجرؤ على الكلام. وجاءت الاجوبة، على رغم تمويهها بالعبارات الفخمة التي يستخدمها البيض، تكشف أن معظم الحاضرين لا يعرفون سوى القليل عن الحياة في الغابات الموحشة.

عندئذ تحوّل هاورد الى ارنستين وقال: "قد نجد الأجوبة الوافية لدى ارنستين. ماذا تفعلين حينَ ينهمر المطر فيبلّل كل شيء ويتعيّن عليك أن توقدي ناراً؟"

أجابت ارنستين: "اننا نحمل معنا دائماً علبة ثقاب جافة نخبئها تحت ملابسنا. ونذهب الى جنبة في الغابة ونحفر حيث نجد مكاناً ملائماً جافاً نعثر على ما يكفي لايقاد النار."

وواصل هاورد طرح الاسئلة وبقيت ارنستين تجيب عنها. وفي نهاية ذلك الاجتماع المرهق الطويل قال هاورد: "أظن أن مشروعنا سينجح اذا انضمت ارنستين الينا." وقال لها: "انك موظفة لدينا منذ الآن." وحينئذ التفّ الآخرون حولها يصافحونها ويعانقونها.

## عودة الى الحياة

في اليوم التالي وجدت ارنستين نفسها داخل الاستوديو تترجم نصاً انكليزياً الى لغة قبيلة كري ليبث على التلفزيون والى لغة قبيلة تشيبويان ليذاع بالراديو. وأخيراً، بعد سنتين من تجربة حظها في المدينة، أصبحت تكسب ٧٠٠ دولار كندي شهرياً من العمل الذي تستمتع به وتستطيع تأديته. وبعد حياة طويلة في الخيام وبين أشراك الصيد وبثقافة لا تتجاوز الصف الابتدائي الرابع أضحت ارنستين مذيعة.

غير ان حقبة العمل في الاذاعة انتهت بعد ستة أشهر، وسرعان ما نفد المال لديها.

في هذا الوقت كانت صديقة لارنستين تشرف على تنفيذ مشروع لتدريب النساء الهنديات على العمل. وضم المشروع برامج مدتها سبعة أسابيع تهدف الى تعزيز الجرأة في نفوس الهنديات وتحسين نظرتهن الى أنفسهن وشحذ مهارتهن في البحث عن أعمال.

وحثتها الصديقة: "تابعي أحد هذه البرامج، وستتعلّمين الكثير."

وبعدما أكملت ارنستين البرنامج التقت جينيفا انساين وهي شابة بيضاء كلفتها الحكومة تقويم البرنامج. ولاحظت جينيفا أعماقاً خفيّة في نفس تلك المرأة الهندية، وقالت بعطف واجلال: "ان ارنستين امرأة مميزة."

من مثل هذه الاجتماعات الصغيرة تتحقق المعجزات أحياناً. وفي أواخر ١٩٧٨ اتصلت جينيفا بارنستين هاتفياً لتحمل اليها عرضاً مثيراً. كان بريستون مانغ مستشاراً يتولى دراسة تأثيرات مشروع نفطي ضخم، وكان يحتاج الى من يفيده بعادات الهنود ومعتقداتهم في مقابل أجر محدد. فمن يا ترى يصلح لمثل هذا العمل أكثر من ارنستين؟

وتبيّن في ما بعد أن هذه الفرصة كانت أعظم تحوّل في حياة ارنستين.

كان مانغ يستقبلها ساعة كل أسبوع، فيسألها عن عادات قبيلتي كري وتشيبويان، وهي أمور يحب زبائنه أن يعرفوها لكي يتمكنوا من التصرف على النحو الصحيح في المناطق الشمالية التي يقطنها الهنود.

وكان مانغ يدفع لها ٣٠ دولاراً عن كل ساعة طوال ٣٥ أسبوعاً. وأخيراً تحقّق ما توقعه والداها، وبدأت أرنستين تساعد البيض على فهم أسلوب حياة الهنود.

وحين بدا أن كل شيء يسير على ما يرام نزلت على ارنستين ضربة صاعقة. ففي شهر فبراير (شباط) ١٩٨٠ اتصل بها أحد أبنائها لينقل اليها خبراً مفجعاً: "ان دوروثي مريضة جداً، وقد نقلت الى المستشفى."

ودوروثي في أواخر العقد الثالث من عمرها، وهي رابعة بنات ارنستين الباقيات على قيد الحياة. وكانت تصاب بالاغماء والرعاف. وأخيراً انهارت في الشارع نتيجة انتفاخ دموي في أحد شرايين دماغها. وبقيت حية الى تلك الساعة بمعونة أنابيب الادوية والآلات المنعشة. غير أنها لفظت أنفاسها الاخيرة في تلك الليلة من دون أن تستعيد وعيها.

ظلّت ارنستين تغوص في أعماق حزنها أسبوعاً بعد أسبوع الى أن عزمت على نسيان كل شيء. وبعد وقت طويل من امتناعها عن الشراب دخلت مقصفاً وطلبت كأسين.

ورآها صديق قديم من فورت تشيب فقال لها: "ارنستين، انك تتقدمين على طريق النجاح ونحن نفاخر بك. اصغي الي، وقبل أن تشربي انظري الي. لقد هجرتني زوجتي وتركني أولادي. وأنا وحيد الآن وهكذا سأموت. لن أفعل شيئاً سوى الشرب طوال ما بقي لي من هذه الحياة. وهكذا سينتهي بك الأمر اذا احتسيت رشفة أخرى من هذه الكأس."

وحدّقت اليه ارنستين صامتة ثم أعادت الكأسين الى الساقية وخرجت. وفي تلك اللحظة أحست أن روح دوروثي بجانبها. وبعد بضع ليال رأت ابنتها في حلم تقول لها: "أماه، ستستريحين الآن لأني سأصلّي من أجلك." وفي اليوم التالي عادت ارنستين الى عالم الحياة.

## أبواب مفتوحة

ذات يوم قال مانِنغ مازحاً "نحن البيض حين نجد أنفسنا أحياناً بلا عمل نزعم أننا مستشارون." أنت تعرفين الكثير يا ارنستين مما يود كثيرون من الناس أن يحصلوا عليه ويدفعون له ثمناً. سوف نجعلك مستشارة."

وسرت ارنستين لذلك. فها هي تدخل مجتمع "الكبار". وطبعت لها بطاقات تحمل العبارة الآتية: "مكتب ارنستين جيبو للاستشارات." ودأبت على توزيع هذه البطاقات كلما أتيحت لها الفرصة، فاجتذبت بعض الاستفسارات لكنها لم تحصل على عروض عمل.

وأخيراً حققت احدى بطاقاتها الغرض. فقد تلقت المدارس الرسمية تمويلا جديداً لتوظيف الهنود كمساعدين. وكان الانطباع عن "المستشارة" جيبو جيداً في المقابلة الاولى. وكانت الخطوة الاخيرة اجتماعا مع مدير التوظيف للحصول على مركز "موظفة ارتباط" بدوام جزئي. ومع نهاية أغسطس (آب) لم تجر أي مقابلة. واستعانماننغ بأصدقاء ارنستين في حملة اتصالات هاتفية قائلا لهم: "ان ارنستين الآن على وشك الحصول على أول وظيفة لائقة. واذا كنتم تريدون حضها على العمل فهذا هو الوقت المناسب."

وجرت المقابلة. وفي الثاني عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩٨٠ وضعت سكرتيرة ماننغ رسالة على مكتبه تحمل بخط

عريض أحمر الكلمات الآتية: "لقد حصلت ارنستين على وظيفة."

لم تنل ارنستين شيئاً بيسر في حياتها. ولم تكن وظيفتها الجديدة خارجة على هذه القاعدة. وبصفتها موظفة ارتباط لدى مدرسة ابتدائية كان عليها أن تقرع أبواب العائلات الهندية والهجينة لتسأل لماذا لا يذهب أولادها الى المدارس بانتظام. وكان الآباء الذين حسبوها احدى المرشدات الاجتماعيات اللاتي يزعجنهم يمتنعون عن الاجابة الى أن تصيح بهم بلغة كري أو تشيبويان. وحينئذ كانوا يفتحون لها أبوابهم وقلوبهم.

ولاحظ مدير المدرسة هارفي سميث الامكانات المتوافرة في ارنستين فأوصى بأن يوكل اليها عمل مساعدة مدرّسة.

وكان على ارنستين أن تعلّم التلاميذ كل ما خبرته في الحياة. والى ذلك كان عليها أن تغدو مثالا للاطفال الهنود والبيض على حد سواء، من أجل تبديل الصورة المرتسمة في أذهانهم عن المتشردين والبؤساء في الشوارع.

## الظفر الأخير

في هذه الايام تعلّم ارنستين الصغار كلمات وأغاني وأرقاماً بلغة قبيلة كري، وتضحك معهم لأنها لم تفقد أبداً اعجابها الطفولي بصغائر الاشياء. وتقف أمام اللوح الاسود في مواجهة الصف منتصبة بكبرياء وعيناها متوقدتان خلف نظارتيها وبسمة تنتظر وراء قسمات وجهها القاتمة.

وتكتب على اللوح بلغة كري: "ني يا ارنستين." وتردد ما كتبت بصوت عال وتفسره: "أنا ارنستين." "تانسي؟" (كيف حالك؟) "مويا نانتاو" (أنا بخير.)

ومرة في الاسبوع بعد استئذان المدرّسة تقول للتلاميذ: "دعونا نشكل دائرة. هذه هي الطريقة الهندية." وتخبرهم أن للدائرة أهمية قصوى في المعتقدات الهندية. فالفصول الاربعة تتحرك في دائرة، والاتجاهات الاربعة في البوصلة تشكل دائرة، وكل شكل في الحياة يعتمد على الاشكال الاخرى على نحو دائري، ودورة الحياة شيء مقدس.

وتشعل ضمّة من الاعشاب العطرة التي تحترق ببطء فيتحلّق الاولاد حولها وكل منهم يمسك بيد الآخر فيما هي تقول لهم: "هكذا يصلّي الهنود." ثم تحدّثهم قليلا عن احترام الهندي للطبيعة.

وبعد ذلك يتقدّم عدد من الاولاد لمعانقتها. ويأتي اليها بعض الآباء من البيض ليشاهدوا ممارسة هذا الطقس الدائري ويشكروها لأنها عرّفت أولادهم الى حضارة جديدة.

وذات يوم في أغسطس (آب) ١٩٨٣ ذهبت في رحلة عاطفية الى فورت تشيبويان. وكانت ترتدي سترة وتنورة فضفاضة زهرية اللون وقميصاً مطرّزاً، وتنتعل حذاء أنيقاً لا يناسب طرق القرية الموحلة وغير المعبدة. وبدا منظرها مدهشاً وكانت معتزة بنفسها.

ستظل حياة ارنستين دائماً متباينة بين نور وظل. فبالنسبة اليها، كما الى أي هندي آخر رجلا كان أم امرأة، لا يصلح معيار المجتمع الابيض لقياس الانتقال من خيمة صيد الى حياة المدينة.

وفي خريف ١٩٨٣ اتصلت بها ابنتها ساندرا (٢٤ عاماً) من الولايات المتحدة، وكانت حياتها مفعمة بالاضطراب. قالت: "أماه اني سأموت. وهذا هو الحديث الاخير بيننا."

وصرخت ارنستين مذعورة: "لا، لا يمكن أن تموتي. انك في صحة جيّدة."

قالت البنت: "لدي شعور بأني سأموت. لكني أريد أن أراك. سأكون عندك في الثالث أو الرابع من اكتوبر/ تشرين الاول." وفي الرابع من ذلك الشهر قتلت ساندرا في ولاية مونتانا.

وغرقت ارنستين لفترة في لجة من الأسى. ووصفت حالها تلك بعد أشهر: "كانت المصيبة مؤلمة وشعرت أن قلبي ينزف. وتمنّيت أن أموت وألحق بابنتي." وقد تولى صديقها الوفي بريستونماننغ تسديد نفقات نقل رفات ساندرا الى كندا.

وكانت ارنستين عانت اعتلالاً في صحتها ذلك الخريف، وقضت بضعة أشهر قبل أن تستعيد عافيتها. كانت تتقلّب في فراشها كالمحمومة ليلة بعد ليلة. وفي شبه اغفاءة ذات ليلة أحست كأن شخصاً يقترب من فراشها. أهي ابنتها جيرالدين التي كانت تعيش معها؟ لا، فهذه نائمة في فراشها.

وهتفت ارنستين فجأة: "انها ساندرا. لقد تلمّستها. مددت يدي اليها وتلمّستها. كانت تقول لي: أنا هنا يا أماه، أنا هنا."

واذ اطمأنت الى أن ساندرا في سلام عادت الى نفسها لتلملم أجزاء حياتها.

روبرت كولينز ■



## تواضع العظماء

بلغ تواضع كليمنت أتلي، الذي كان يوماً رئيساً للوزراء في بريطانيا، حداً غريباً. ومن أخبارِ هذا التواضع ما رواه السير جون رصل الذي أصبح سفيراً لبريطانيا لدى الحكومة الاسبانية. ففي العام ١٩٤٨ كان رصل موظفاً ناشئاً في وزارة الخارجية. ودُعي يوماً الى مقر رئاسة الحكومة في الرقم ١٠ من داونينغ ستريت. وإذ همّ المسؤولون بالانصراف بعد الاجتماع سمع رصل اسمه ووجد أن رئيس الوزراء يدعوه. وبادره أتلي: "أأنت ابن تومي رصل الباشا الذي زاملته في المدرسة في هيلبري؟"

– أجل يا سيدي.

"لقد كان أبوك متفوقاً عليّ، كما كان لطيفاً جداً معي. وأرجوك أن تبلّغه سلامي."

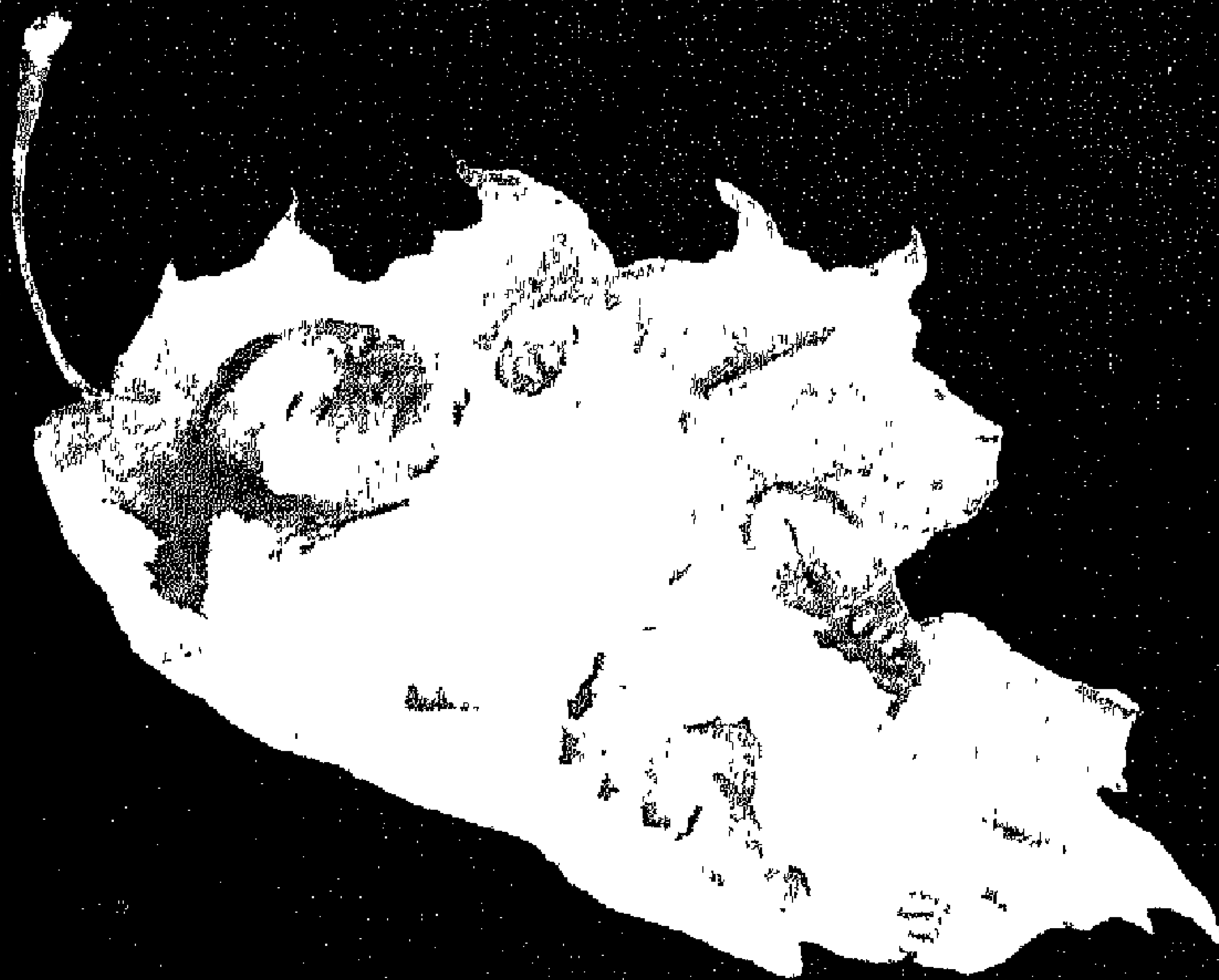
وفيما استعدّ رصل للذهاب أضاف رئيس الوزراء: "لا تنسَ ان اسمي أتلي."

مجلة "المستمع"، بريطانيا

---

الحياة تتقلص أو تتمدد تبعاً لشجاعة المرء. — أنايس نين

كتاب الشهر



# أطفال الخريف

ملخص من كتاب

بقلم آلن دولب



# أطفال الخريف

علم التوليد أو القبالة عبارة مشتقة في اللغات الاوروبية من اللاتينية ويعني "الترقب". وقد ظلّت هذه الكلمة قروناً عدة تصف مهمة المولدين. وجاء ابتكار ملاقط سحب الجنين في القرن السابع عشر وتطوير أساليب التعقيم والتخدير في أواسط القرن التاسع عشر ليدخلا أولى التغييرات الحقيقية على هذا العلم. ثم أعقب ذلك اكتشاف المضادات الحيوية في القرن العشرين. غير ان عوامل تنطوي على خطورة كبيرة ظلّت ماثلة. فالتغييرات الاجتماعية الحديثة أدت الى تعاظم احدى الفئات المعرضة للخطر الكبير، وهي فئة النساء اللواتي يؤخرن حملهن الى أواخر العقد الرابع من العمر. وهنا يقدّم آلان دولب الكاتب الطبي الخبير تصويراً مثيراً لحال امرأة من هذه الفئة، ويبيّن أن المولّدين العصريين لم تعد مهمتهم مقتصرة على "الترقب"، بل انهم من طريق المهارة والتكنولوجيا والتفهم أخذوا يسخرون علمهم لمساعدة "أطفال الخريف"

Condensed from «Autumn's Children,» copyright © 1985 by Alan Doelp, Published by MacMillan Publishing Co., New York, N.Y. Illustrations: Stan Hunter

بعد المضاجعة استلقى بيل ادواردز وزوجته لوري(١) في سريرهما هادئين. انه وقت النشوة لا وقت المحادثة. لكن بيل سيفاجأ حين تخبره زوجته انها توقفت عن استخدام وسائل منع الحمل. وكان القرار الفصل في هذا الأمر اتخذ قبل أشهر، بل ربما قبل زمن طويل، حين أقرت لوري بأنها لم تعد قانعة بعملها وأنها تحتاج الى طفل يملأ حياتها.

بدا الأمر بالنسبة الى لوري قراراً فردياً، اذ كان بيل منذ زواجهما مستعداً لانشاء عائلة. ومع مرور الزمن تضاءلت آماله في تحقيق رغبته. وكانت لوري دائماً هي التي تحجم عن ذلك.

بعد تخرجه في الجامعة أعلن بيل عزمه على نيل شهادة ماجستير في ادارة الاعمال، كما اعلنت لوري استعدادها للعمل الى أن يحقق رغبته. ولكن في العام ١٩٦٧ كانت الوظائف المتاحة للنساء اللاتي يحملن شهادات عالية في التاريخ نادرة، وأخيراً عثرت لوري على وظيفة كتابية في مكتب محاماة وكان راتبها ٦٠ دولاراً في الاسبوع.

في شهر مايو (أيار) من السنة التالية منح بيل شهادته في ادارة الاعمال وحصل للحال على وظيفة كمتمرن اداري في شركة تأمين كبرى. وعندئذ اخذ الزوجان يبحثان في انشاء عائلة. وعبّر بيل عن أمله في أن يكون له ابن ليأخذه معه الى مباريات الكرة وقالت لوري انها تفضل أن تكون لها ابنة. وأخيراً اتفقا على أن يكون لهما ابن وابنة... انما ليس الآن، بل حين يصبح في امكانهما شراء بيت.

أحضرت لوري الى البيت أول كتاب قانون تقتنيه بعدما طلب منها رئيسها في العمل أن تبحث عن تفاصيل دعوى معينة وتصوّر صفحاتها. وقبل أن تتم لوري هذه المهمة أثارت الدعوى فضولها فانصرفت الى قراءتها. وجاء رئيسها يبحث عنها فوجدها قرب آلة التصوير غارقة في قراءة المجلّد. واحمرّ وجهها خجلا وأخذت تعتذر، الا أن المحامي حدّق اليها مفكراً ثم عاد في وقت لاحق وأعطاها كتاباً مليئاً بقضايا مماثلة لتأخذه الى البيت وتقرأه. وهكذا علقت لوري في دراسة القانون.

وأثارت الموضوع مع بيل وحسم الأمر حين قال لها: "نظراً الى كل الاسباب التي أبديتها لي لتدفعيني الى التخرج في الجامعة، سأجعلك تتخرّجين في كلية الحقوق." وقدّمت لوري طلبات دخول الى خمسة معاهد فقبلت فيها جميعاً. لكن عمل بيل كان في مدينة بالتيمور بولاية ماريلاند. لذا اضطرت الى التخلّي عن عملها ذلك الخريف والتحقت بكلية الحقوق في جامعة ماريلاند. وبعد التخرج عملت سنتين كمتدرجة في السلك القضائي ثم عادت الى الشركة التي عملت فيها سابقاً كسكرتيرة، ولكن هذه المرة بصفة شريكة. وكانت بلغت التاسعة والعشرين من العمر.

## "أهنئك!"

طوال ما يقرب من عشر سنين واظبت لوري وزوجها على عملهما. وخلال ذلك

---

(١) القصص الواردة في هذا الكتاب مبنية على تجارب حقيقية لأزواج حقيقيين. وأسماء الاطباء ومساعديهم حقيقية أيضاً. أما اسما الزوجين فمستعاران.

الوقت أعادا البحث في ما اذا كانا يرغبان في انجاب أولاد. ان انشاء عائلة ينطوي على محاذير كثيرة. فهما لن يتمكنا حينئذ من قضاء صباحات السبت في تكاسل وراحة ولا من الذهاب في رحلات مرتجلة الى نيويورك كلما عنّ لهما ذلك، بل سيجدان أمامهما حفاضات الاطفال وزجاجات الحليب وفواتير الاطباء. وفوق ذلك فانهما سيبلغان الستين قبل أن يشب الطفل الذي سينجبانه.

واتفقا على أن ثمة أسباباً وجيهة ومنطقية ليبقيا من دون اولاد. اذاً لماذا يتحدثان في هذا الموضوع؟ وأجاب بيل عن هذا السؤال: "لأننا نرغب في ذلك حقاً. لأننا نشعر بافتقارنا الى شيء ما."

وتمطّت لوري وتنهدت ثم انقلبت على جنبها وهي تنفض الوسادة وتضعها تحت رأسها. وفكّرت في نفسها: اذاً سيتعين علي أن أنجب طفلا. أريد بنتاً."

في اليوم التالي اتصلت لوري بالطبيب النسائي لاجراء فحص شامل بعد اسبوعين. وعندما أظهر الفحص أنها غير حامل طلبت أن تعرف السبب. ونظر اليها الطبيب مستنكراً وأجاب: "لو كنت حاملا لأدهشني أكثر، اذ يتعيّن على معظم النساء أن يحاولن الحمل على مدى فترة من الزمن. فمن كل مئة امرأة يحاولن بجد أن يحملن تنجح ٨٠ في المئة في تحقيق رغبتهن خلال سنة."

وتساءلت لوري: "ولكن هل يمكنني أن انتظر سنة؟"

قال الطبيب: "دعيني أوضح لك الأمر. ثمة أخطار في الحمل والولادة تواجه الأم والطفل. وتزداد هذه الاخطار كلما تقدمت المرأة في السن. ولكن في الوقت الحاضر وخلال السنتين المقبلتين ستبقى الاخطار ضئيلة نسبياً لديك."

وسألته لوري: "أي نوع من الاخطار تعني؟"

قال الطبيب: "خطر اصابتك بداء السكري أو ارتفاع ضغط الدم. والأقل احتمالا خطر المخاض قبل الأوان. ومن الواضح ان هذه الاخطار تهدد الجنين كذلك. ثم هنالك خطر التشوّه الكروموزومي(٢) الذي يؤدي الى علة داون التي كانت تعرف بالمغولية (Mongolism) والتي تسفر عن ولادة طفل مشوّه الخلقة ومتخلف عقلياً. أنت تعرفين معنى ذلك. ولكن لا تدعي هذا يدفعك الى سوء التقدير، فلديك حظ وافر في أن يمضي كل شيء على ما يرام."

واضاف: "ولكن هناك مسألة التدخين. اذا تابعت التدخين في فترة الحمل فربما جاء طفلك أصغر حجماً وأقل صحة مما ينبغي."

بدأ الطمث لدى لوري في موعده تماماً في الشهر التالي والذي بعده. وبعد ذلك تأخر ثلاثة ايام وشعرت بالخيبة عندما جاءها بعد هذا التأخير.

واستمرت مواعيد الطمث منتظمة، ولكن بعدئذ تأخر طمثها بضعة أيام حدست على نحو ما أن ذلك لم يكن عرضاً. فاتصلت بعيادة الطبيب وطلبت اجراء فحص دم لها. وبعد ثلاثة أيام اتصل بها الطبيب وقال: "أهنئك."

(٢) الصبغي أو الكروموزوم خيط في نواة الخلية يحمل الجينات أو الخصائص الوراثية.

جهدت لوري لكبت مشاعرها والتصرف بواقعية فقالت: "انني الآن في الثامنة والثلاثين، وسأكون في التاسعة والثلاثين عندما أضع المولود. دعنا نتحدث عن الاخطار مرة ثانية." وفيما كان الطبيب يتكلم أطفأت هي سيجارة لم يحترق سوى نصفها ومدت يدها الى حقيبة يدها فأخرجت علبة السجائر وألقتها في سلة المهملات.

ولفتها الطبيب الى "ان الاخطار الآن لا تزال على المستوى الذي كانته قبل سنة. من الناحية الفنية تصنفك سنك حاملا على مستوى عال من التعرض للخطر. لكن ما يعنيه ذلك حقاً هو ان حظك في حمل ناجح يقف عند نسبة ٩٤ أو ٩٥ في المئة بدلا من ٩٧ في المئة، وتستطيعين تحسين هذه النسبة اذا عالجك اختصاصي بطب الأم والجنين."

وسألته لوري: "لو كنت زوجتك، الى أي اختصاصي كنت ترسلني."

فاجاب من دون تردد: "الى الشخص عينه الذي كنت على وشك أن أوصيك بالذهاب اليه للحال، الى الدكتور كرينشو في مستشفى جامعة ماريلاند."

## معلومات مطمئنة

ان الفحص الحوضي هو حجر الزاوية في علم التوليد والطب النسائي. وليس ثمة فحص مخبري أو جهاز تصوير الكتروني يمكن أن يغني عنه. فالاجهزة والفحوص قد تضيف بعض الاجزاء من المعلومات الى الأحجية الكاملة، الا أن ما يراه الطبيب بعينيه ويتلمسه بيديه يبقى الاساس الذي يعمل غالباً بموجبه. فالاطباء يتعلمون ذلك بالممارسة وهم طلاب أو أطباء متمرنون. وبعد اجراء مئة فحص أو نحوها، اذا كانوا يقظين، يصبحون قادرين على كشف امور ذات أهمية في فحصهم.

ولدى بلوغه الثانية والخمسين من العمر كان كارليل كرينشو قضى ٢٥ سنة أو أكثر في ممارسة الفحوص الحوضية، أي منذ كان طالب طب في جامعة ديوك. انه يعرف كيف ينبغي أن يبدو كل شيء وأين يجب أن يكون ومتى يجدر به أن يقلق من شيء ما، والأهم من كل هذا يعرف متى ينبغي ألا يقلق.

ان علم التوليد، ومنه التوليد المحفوف بالاخطار العالية، ينطوي غالباً على الكثير من التحدّيات العسيرة. لكنه يبقى طباً عميم الفائدة، والاحتمالات ترجّح كفة النتائج الحسنة.

ويكمن السر في اكتشاف المرأة المعرّضة للخطر. ولهذا السبب مشى الدكتور كرينشو الى طاولة الفحص بعد لحظات من دخول لوري عيادته. وحتى وهو يعدّل وضع كرسيه كانت عيناه تستكشفان منطقة الحوض في جسد لوري وتلاحظان عدم وجود ندوب من أثر جراحة وتقدران محيط الوركين. وفحص الطبيب الجلد بحثاً عن طفح أو خدوش أو التهاب. وكان خليقاً بلوري أن تغضب لو درت أنه كان يبحث عن دلائل مرض زهري. غير أنها لكانت تصاب بالهلع لو علمت كم مرة عثر الطبيب فعلا على آثار مرض زهري بين النساء اللاتي فحصهن.

لم يعثر الدكتور كرينشو على أي أثر لعدوى أو التهاب أو دم أو قيح حول عنق

الرحم ولا على أي نتوءات غير عادية توحي وجود سرطان. لم يكن في عنق الرحم أي نتوءات، وهذه علامات مميزة في النساء اللواتي تعاطت أمهاتهن العقار Diethylstilbestrol الذي كان يظن انه يمنع الاسقاط وأضحى الآن مرذولا.

وبعدما أخذ الطبيب مسحة مهبلية (Pap Smear) للفحص، وضع قليلا من المرهم المعقم على القفاز الطبي الذي يغلّف يده اليمنى وأخذ يفحص عنق الرحم بأنامله: هل العنق طويل أو قصير، صلب أو رخو؟ هل هو في مكانه الصحيح؟ هل هناك نتوءات أو تورمات محتملة في أي جزء منه؟

في هذه الاثناء كانت يده اليسرى تضغط بطن لوري في محاولة لتحسس أسفله. ولم يفلح في ذلك. لا بأس، هذا أيضاً دليل على أنه في حال طبيعية. ولكن هل ثمة تكتلات توحي بوجود دمامل؟ لا. وهذا حسن.

قال الطبيب للوري وهو يبحث عن قناتي فالوب حول الرحم: "أخبريني اذا شعرت بألم." وهو لو عثر على احدى هاتين القناتين لكان ذلك دليلا سيئاً جداً. ولو شهقت لوري ألما لدى عثوره على احداهما لكان الأمر أخطر، فهذا دليل على حمل انبوبي، أي انزراع الجنين داخل احدى قناتي فالوب بدلا من الرحم، أو على وجود دمل في المبيض. لكن لوري ظلت هادئة ولم يشعر الطبيب بأي تورم في قناتي فالوب. كذلك المبيضان كانا في المكان الصحيح. وكان احدهما متضخماً قليلا، تماما كما يجب أن يكون لدى امرأة حملت قبل فترة قصيرة. وتوالت المعلومات الاخرى، كلها سلبية وكلها مطمئنة.

وتجمّعت الدلائل التي كشفتها أنامل الدكتور كرينشو في رأسه صورة مجسّمة لحوض المرأة. وكان الحوض مثالياً في سلامته: فشكله مناسب تماماً وهو على اتساع يكفي لخروج مولود في حجم عادي. ليس ثمة شيء ينذر بمخاض عسير.

ودفع الدكتور كرسيّه الى الوراء ونهض ثم قال للوري: "يبدو أن كل شيء على أحسن حال." ثم عاد الى مكتبه مضيفاً: "اتبعيني الى الغرفة المجاورة وسنتحدث."

## قرارات

عندما دخلت لوري مكتب كرينشو وجدته منهمكاً في تعبئة استمارة. ونظر اليها من فوق نظارتيه وابتسم: "ليت جميع مرضاي في صحة مثل صحتك."

سرّت لوري بهذا الاطراء، لكن روح المحامي فيها تناولت الموضوع فقالت: "جئنا لنتحدث عن الاخطار."

استوى كرينشو في مقعده وقال: "ان احتمال وضع الأم، في أي سن كانت، طفلا مصاباً بعاهة خلقية رئيسية يراوح بين ٢ و٣ في المئة. ولكن في السن الثامنة والثلاثين..." وهنا نظر الى جدول أمامه موضحاً: "... التاسعة والثلاثين عندما تلدين طفلك، يراوح خطر الاصابة بعلة داون بين ٦ و١٠ في الألف، ويبلغ خطر الاصابة بأي نوع من التشوّه الكروموزومي نحو ١٢ في الالف.

"ان هذا في علم التوليد يعتبر نسبة

عالية من الخطورة. ولذا أوصيك بأن تحضري لاجراء استشارة خاصة بالوضع الكروموزومي، كذلك بأن يجرى لك فحص ماء النخط الذي يسبح فيه الجنين وفحص السلى (Amniocentesis) لنتأكد من خلوهما من أي شيء غير طبيعي.

"واذا وجدنا خللا وراثياً خطيراً يتعين عليك أن تتخذي قراراً حول اسقاط هذا الحمل. ونرجو ألا تضطري الى اتخاذ مثل هذا القرار ابدا، لكن هذا شأن يجب أن تبحثي فيه مع زوجك، لأنك اذا قررت ألا تسقطي، مهما تكن الظروف، فلن يبقى داع لفحص ماء النخط."

وتابع الدكتور كرينشو: "أود أن أتأكد من أنك تضعين قضية هذا الخطر ضمن نطاقها الحقيقي. فحين نقول: مستوى عال من الخطورة، فاننا نتكلم عن نسبة خطر تبلغ نحو ٥ في المئة. انظري الى الأمر من الناحية المعاكسة، ان أمامك أملا يبلغ ٩٥ في المئة بأن يكون حملك طبيعياً وينتهي بولادة طفل في صحة تامة."

ثم تحدث عن الحمية والوزن والتمرين ضمن حدود معقولة وعن الادوية التي يجب أن تتجنبها لوري. وأشار عليها بالاتصال به هاتفياً اذا ساورها أي قلق على صحتها وقال: "اذا احسست بألم في المعدة، اتصلي بي حالا. اذا تبدّل مزاجكِ فجأة أو شعرت أنك متوترة الاعصاب ومضطربة، اتصلي بي. اذا وقع لك حادث سيارة، فقد يتطلّب الامر فحصاً فورياً بالذبذبة الصوتية العالية (Ultrasound exam) لنتأكد من أن الجنين بخير.

"هذا يوصلنا الى الحديث في مسألة مهمة: أحزمة السلامة في السيارات. هناك كثير من سوء الفهم في صدد هذه الاحزمة وفي ما اذا كان ينبغي أن تستعمليها أم لا. أجل، استعمليها."

عادت لوري الى المستشفى بعد انقضاء أربعة أسابيع. وهذه المرة التقت الدكتور ديفيد ناجي، وهو أحد اعضاء فريق الاختصاصيين بشؤون الحمل ذي الخطورة العالية الذين استدعاهم الدكتور كرينشو. وقرأ الطبيب لائحة المعلومات عن صحة لوري ثم تناول آلة بدت كأنها مسماع الكتروني.

أوضح الطبيب للوري أن الآلة هي مسماع دوبلر الذي يعمل من طريق بث اشارات "فوق صوتية" داخل جسمها وقياس موجات الصدى.

ألصق الطبيب الآلة بجسمها ثم رفع اليها السماعتين وهو يقول: "هل تريدين ان تسمعي؟"

سألت: "ما هذا؟"

قال: "اسمعي نبضات قلب طفلك."

وضعت لوري السماعتين على أذنيها فسمعت نبضاً سريعاً حاداً. فغمرتها فورة مفاجئة من المشاعر وترقرقت الدموع في عينيها ثم أعادت السماعتين الى الطبيب.

وأثار الطبيب مسألة فحص ماء النخط فقالت لوري: "فكرت في هذا الأمر كثيراً وبحثت فيه مع زوجي. الفكرة ترعبني، لكني أدرك أنها العمل المعقول."

قال الدكتور ناجي: "لن يكونَ الأمر بمقدار نصف ما تتوهمين. دعيني أعرّفك الى تريش باين."

تريش باين ممرضة يسميها الدكتور ناجي "مكتشفة أخطار الولادة." وهي أوضحت للوري لماذا تعتبر السن الخامسة والثلاثون الحد الذي تبدأ عنده مشاكل الكروموزومات.

قالت الممرضة: "اذا تيّسر لك أن تدرسي احوال عدد من النساء، أصبح في مقدورك قياس مدى الخطورة على نحو متلازم مع السن. نحن نعرف أن السن دون الثامنة عشرة تتسم بخطورة عالية جداً، كما نعرف أن السن بين الـ١٨ والـ٣٥ تمثل الفئة المتسمة بأقل مقدار من الخطورة. لكن الخطر في الواقع يبدأ في التزايد قبل الخامسة والثلاثين بزمن طويل.

"وفي أي حال ثمة خطورة ضئيلة تتصل بفحص ماء النخط كذلك. وهي تزيد الخطورة العادية بنسبة واحد في المئتين. فقط في السن الخامسة والثلاثين يتجاوز خطر الاصابة بعاهة وراثية هذه النسبة."

وسألت لوري: "تعنين أني لا أستطيع اجراء فحص ماء النخط الا اذا تجاوزت الخامسة والثلاثين؟"

اجابت الممرضة: "لا، اي امرأة يمكنها أن تجري هذا الفحص. لكننا نوصي بعدم اجرائه."

ثم قالت الممرضة ان الخطوة التالية تقضي بجمع معلومات عن تاريخ العائلة بحيث تستطيع آن جويل، مستشارة الشؤون الوراثية في المستشفى، تحديد مدى احتمال اصابة الطفل بأي عاهة وراثية.

وفي الليالي التالية أجرى بيل ولوري مشاورات منفردة مع أقاربهما عبر الهاتف للحصول على المعلومات المطلوبة. وحين استقبلتهما جويل بعد ثلاثة أسابيع بادرتهما بالقول: "انه تاريخ عائلي واف جداً. ليس ثمة ما يوحي بخطر غير عادي."

## صور على الشاشة

التصوير بالذبذبة الصوتية العالية تمهيد ضروري لفحص ماء النخط. ومع انه ليس أدق الوسائل لفحص الجنين النامي فانه الأسلم. وآلة التصوير الصوتي تشبه جهاز الاستشفاف الصوتي العالي الذبذبة (Sonar transducer) الذي يبث موجات صوتية ويقيس ما يرتد منها. وفي الجسم البشري يبعث اتصال نسيجين مختلفين أصداء. والنبضات الآتية من هذه الاصداء تلقم دماغاً الكترونياً عالي السرعة فيظهرها صوراً على شاشة متوهجة.

في الاسبوع السادس عشر وصل الزوجان لوري وبيل الى المستشفى لاجراء هذا الفحص الحاسم. وأبدلت لوري بألبستها العادية ثوباً خاصاً وعرّفتها آن جويل الى الاختصاصية بالتصوير الصوتي.

وبعد محادثة وجيزة طلت الاختصاصية ظاهر بطن لوري بمادة لزجة وادارت جهاز التصوير ثم تناولت آلة تشبه "المشط الحامي" الذي تستعمله النساء لتجفيف الشعر. وانبعث من الآلة أزيز خافت حاد النغمة. عندئذ أدخل بيل الغرفة وخففت الاضواء. وألصقت الاختصاصية الجهاز ببطن لوري وباشرت العمل. كانت الصور الاولى التي التمعت على الشاشة مشوشة وغير واضحة، فيما الاختصاصية تحرك

الجهاز ببطء جيئة وذهاباً على بطن لوري وهي تحرفه من جهة الى أخرى.

أخيراً عثرت على النقطة التي تبحث عنها، فأوقفت الجهاز فوقها تماماً وضغطت زراً. وتجمدت الصورة على الشاشة وصدرت قرقعة وخرير فيما الصور تسجل على فيلم. ونقلت الاختصاصية الجهاز الى موقع آخر فاستمرت القرقعة.

وحين ظهرت الصورة التالية انحنت جويل الى الامام وأشارت الى نقطة على الشاشة وقالت: "هذا قلب الجنين."

وأضافت: "انه يبدو طبيعيا." ثم ضغطت زراً فتجمدت الصورة وأعقبت ذلك قرقعة وخرير. وشعر بيل ولوري بالخيبة حين أضيئت الانوار ثانية.

فحص ماء النخط في علم التوليد الحديث ليس بدعة. فالاطباء والعلماء كان يسحرهم دائماً ذلك السائل المتكوّن في السلّى، أي الغشاء الداخلي الذي يحوط الجنين ويحتوي على خلايا جنينية.

وفي وسع العلماء اليوم أن يتكهنوا بالعاهات الوراثية والأيضية من طريق تحليل ماء النخط. ولما كان هذا الماء يحوي عدداً قليلا جداً من الخلايا الجنينية لا يكفي لكشف أي خلل في الكروموزومات، فمن الواجب زرع هذه الخلايا في المختبر على مدى بضعة أسابيع ثم تصوّر بمجهر قوي. وبما أن لكل كروموزوم مواصفات خاصة فمن الممكن تمييز الكروموزومات وترتيبها في ٢٣ زوجاً تمهيداً لدرسها.

وسيتولى الدكتور ماركوس بابكن تحليل ماء النخط لدى لوري.

وحين وصل الدكتور بابكن الى جناح التصوير الصوتي وقف بضع لحظات متأملا الصور التي أخذت للوري والتي كانت معلقة على ألواح مشعة. وأخذ يتكلم مع الاختصاصية بالتصوير.

كانت لوري ممددة على الطاولة وساقاها مستورتان بغطاء. ووقفت آن جويل الى الناحية الاخرى من الطاولة ووقف بيل عند رأس لوري. وفيما أخذ بابكن يحادث مريضته صححت جويل وضع الغطاء ورفعت ثوب لوري لتكشف وسط جسمها. وأدارت الاختصاصية الجهاز الصوتي، ومرة ثانية أضاءت الغرفة أنوار زرقاء خافتة. وألصق جهاز التصوير ببطن لوري، وهذه المرة لاح لها ما بدا بوضوح وجه طفل.

## هذا هو الهدف

كانت المهمة الاولى العثور على جيب من ماء النخط أبعد ما يكون عن الجنين. اما المهمة الثانية فكانت تحاشي المشيمة وحبل السرة، اذ ان دم الأم والجنين يمر عبر الاثنين ويفصل بينهما غشاء لا تتجاوز كثافته حجم خلية واحدة. كما كانت المشيمة (الخلاص) في مكانها الطبيعي على الجانب الايمن من الرحم. والجيب من ماء النخط الذي ظهر في الصورة كان في أعلى بطن لوري قرب الية الجنين.

رفعت الاختصاصية الجهاز وضغطت بأصبعها بطن لوري. ثم مع عودة الانوار الى الغرفة رفعت الاختصاصية اصبعها وألصقت في المكان نفسه قطعة من البلاستيك مخروطية الشكل. وحركت

القطعة بين أصابعها برهة وجيزة قبل أن ترفعها وقد تركت على الجلد دائرة حمراء صغيرة.

قال الدكتور بابكن: "هذا هو الهدف. لقد وجدنا جيباً كبيراً مناسباً من ماء النخط تحت هذه البقعة تماماً وقطره حوالى أربعة سنتيمترات."

وبعد تطهير ظاهر بطن لوري ثلاث مراتٍ بمحلول معقّم رفع بابكن أنبوباً زجاجياً يحوي مادة ليدوكايين وهو مخدّر موضعي. وقال للوري: "الجميع يقولون ان هذا أسوأ جزء من العملية. ستشعرين لهنيهة بوخزة كلسعة نحلة."

أمسك الطبيب بالأبرة في وضع أفقي تقريباً ثم غرزها تحت الجلد. وارتجفت لوري قليلا وشهقت من دون أن تنبس بكلمة.

استدار بابكن نحو طبق أبيض من البلاستيك وتناول أنبوباً دقيقاً وطويلا من البلاستيك فلوى طرفه ثم سحب من داخله ابرة طولها ١٣ سنتيمتراً. وحرك الابرة فوق الدائرة الحمراء التي ارتسمت على بطن لوري وقد بهت لونها قليلا. وبعد ذلك وضع سبابته على قمة الحقنة ثم قبض بابهامه واصبعه الوسطى على قصبتها واخذ يضغطها نزولا حتى بلغ نقطة على عمق أربعة سنتيمترات من رأس الابرة. عندئذ وبحركة بطيئة وهادئة ضغط قمة الحقنة فيما هو يغرز رأس الابرة في لحم لوري.

لم تشعر لوري بالوخزة لكنها أحست الضغط. وفجأة اندفعت الابرة نزولا حتى لامست ابهام بابكن واصبعه الوسطى جلد لوري. وهكذا انغرزت الابرة الى عمق أربعة سنتيمترات تماماً في الجسم.

ومن دون أن يرخي بابكن قبضته نقل سبابته عن قمة الابرة وأخذ باليد الاخرى يسحب من داخل الابرة سلكاً صلباً من الفولاذ الذي لا يصدأ يسمى المرود (Stylet) . وهذا السلك يملأ تجويف الابرة



تماماً ومهمته منع انسداد مجرى الابرة بخلايا الانسجة فيما هي تنغرز في لحم الأم.

وناولت جويل الدكتور بابكن حقنة صغيرة. وبحركة سريعة وصل بابكن الحقنة بالابرة ثم جذب مكبسها فامتلأت بسائل نقي مصفر قليلا. وبهذه الطريقة ملأ حقنتين أكبر من الاولى ثم ثالثة أصغر منهما.

بعد ذلك استوى قائلا: "حسناً، انتهى الامر." ثم أمسك قصبة الابرة بيده اليمنى وضغط الجلد بأصبعين من يده



اليسرى حول الابرة المغروزة في اللحم وجذبها بخفة. وظهرت نقطة صغيرة من الدم حيث كانت الابرة، فوضع بابكن على المكان قطعة من القطن مبللة بالكحول.

أفلتت لوري يد بيل وأحست أن يدها تنضح عرقاً. ثم أغمضت عينيها.

وكانت اختصاصية التصوير غادرت الغرفة، فتناول الدكتور بابكن جهاز التصوير الصوتي لاجراء فحص اخير.

ومرة ثانية خفضت الاضواء، ومرة ثانية رأت لوري صوراً شبحية لطفلها الذي لم ير النور بعد. وفيما هي تراقب نقل بابكن الجهاز أمكنها أن ترى قلب طفلها ينبض. وتمتم الطبيب: "حسناً، حسناً. يبدو أن الطفل في أحسن حال."

## أيام القلق

كان انتظار نتائج فحص ماء النخط بالنسبة الى لوري أشق مراحل هذه العملية كلها.

ونهار الاربعاء من الاسبوع الثامن عشر من الحمل حضرت لوري لاجراء الفحص الدوري وهي تحمل زجاجة مليئة بالبول المأخوذ في الصباح الباكر. وأقرت بأن شيئاً من القلق يساورها حول نتائج الفحص المنتظر. وتساءلت: هل ثمة طريقة لتقدير الوقت الذي سيستغرقه ذلك الفحص؟ فأجاب كرينشو: "لا بد من أن تبلغي خبراً خلال الاسبوع المقبل أو في غضون عشرة أيام."

وبعد ثلاثة أسابيع ويومين من أخذ عينة ماء النخط فتحت آن جويل ملفاً باسم "ادواردز" وألقت نظرة على التقرير داخله ثم مدت يدها الى الهاتف.

في لحظات التوتر الشديد يبدو الوقت كأنه الأبد. انها معاناة الهلع. وأدركت آن ذلك وهيأت نفسها لتكون عباراتها الافتتاحية مناسبة. وعندما ردت لوري سمعت صوت آن جويل: "مرحباً، أنا آن. أخبار سارة. كل شيء على ما يرام."

في الناحية الاخرى من المدينة وعلى الطرف الآخر من الخط مسحت لوري دمعة ثم قهقهت. فهي كانت اعدت نفسها لكل الاخبار السيئة. لكن الفرحة عقدت لسانها الآن.

وأخذ بطن لوري يتضخم بسرعة. وكان وزنها يزداد بمقدار كيلوغرام واحد كل شهر. ولكن الآن أخذ معدل الزيادة يتسارع ليصل الى كيلوغرام ونصف كيلوغرام شهرياً. وأخبرت الدكتور كرينشو بذلك عندما حضرت للفحص الدوري في أسبوعها الثاني والعشرين، فاوضح لها ان هذه الزيادة طبيعية.

ولم يكن فحص الاسبوع السادس والعشرين مختلفاً جوهرياً عن سابقاته في سوى أن لوري امتنعت عن تناول الفطور ذلك الصباح بناء على تعليمات الطبيب. وكان الدكتور بابكن يقوم مقام كرينشو في ذلك اليوم وطلب أن يجرى لها فحص للسكري. فمرض السكري يظهر فجأة في اثناء الحمل حتى بين النساء اللواتي لم يسبق لهن أن أصبن به واللواتي بقي مستوى السكر في دمهن طبيعياً نسبياً في مراحل الحمل الاولى. وتعرف هذه الحالة باسم "سكري الحمل" وتزول بعد الولادة.

الا ان داء السكري يسبب مضاعفات عدة. وأسوأ هذه المضاعفات والتي من

أجلها يجري الفحص الآن، انه خلال الاسابيع أو الايام الاخيرة من الحمل تموت أجنة الامهات المصابات بالسكري فجأة داخل الرحم ومن دون انذار.

وتكثر النظريات حول سبب هذا الطارىء، وقد تناهى الى بابكن الكثير منها. لكن الحقيقة هي أن لا أحد يعرف تماماً لماذا تموت هذه الاجنة. ويعرف أطباء التوليد أن أسلم طريقة في هذه الحالات هي احداث المخاض عمداً أو اجراء جراحة قيصرية حالما تثبت الفحوص اكتمال نمو رئتي الجنين.

في هذه الاثناء تكون الخطوة الاولى تحديد الحوامل المعرضات للخطر. وقد تخطت لوري هذه المرحلة بسلام.

## حال طارئة

استمرت حياة بيل ولوري طبيعية. وبعد المضاجعة كان بيل يحب أن يستلقي في عرض السرير واضعاً رأسه على بطن لوري كما لو كان وسادة وثيرة. وفيما هو مستلق هكذا في اليوم الخامس من الاسبوع الحادي والثلاثين من حمل زوجته لاحظ أن شيئاً ما ليس على ما يرام.

فقال لزوجته وهو يحف أذنه على أحد جانبي بطنها: "عجيب. هذا الجانب صلب كالحجر. هل أنت تشدين عضلاتك عمداً؟"

فردت لوري مستغربة وهي تتحسس بطنها حول السرة: "أفعل ماذا؟" ثم هتفت: "انك على حق. لم ألاحظ ذلك من قبل. لكني لا أشعر بأي ألم. عجيب. ربما بدأ طلق الولادة."

قال بيل: "توهمت أنك مصابة بتسمم في الدم وبداء السكري وبسرطان عنق الرحم و..." كان يتكلم ويعد هذه الادواء على أصابع يده.

واشارت لوري الى ان التصلّب بدأ يرتخي. وسألت زوجها: "هل تود أن تتحسس الفرق؟ كان صلباً جداً من قبل".

وكانا على وشك الاغفاء حين عاد التقلّص.

وكانت يد بيل لا تزال ملقاة على بطن لوري حين شعر أن العضلات تحت كفه تتقلص من جديد فصاح: "آه... آه..."

ومدت لوري يدها لتتناول الهاتف.

اتجهت الممرضة الى مركزها وجلست بعياء في مقعد خشبي عال. كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة والنصف مساء حين رن جرس الهاتف فمدت الممرضة يدها اليه وقالت: "هنا غرفة التوليد."

كان المتكلم الدكتور كرينشو الذي ابلغ اليها بهدوء ان لديه مريضة خاصة اسمها لورا ادواردز شعرت بطلق الولادة وأصابها تقلّصان فصلت بينهما عشرون دقيقة. انها في الاسبوع الحادي والثلاثين من الحمل وهي في طريقها الى المستشفى. وطلب من الممرضة أن تحضر ملف ادواردز وتخبر الاطباء المداومين في المستشفى ليتأكدوا من وجود سرير خال في قسم "العناية الفائقة" في جناح التوليد.

وصل الزوجان بيل ولوري في الساعة ١١،٥ مساء. وبعد أقل من دقيقتين كانت لوري ممددة على ظهرها على طاولة الفحص. وبينما الممرضة تقيس ضغط الدم أخذ الطبيب المقيم في المستشفى يمطر لوري بالاسئلة. نعم، انها لا تزال تحس التقلّصات التي تتعاقب على نحو

أسرع الآن. لا، لم يخرج أي ماء من الرحم. نعم، وجدت بقعة دم حين خلعت ملابسها.

قال الطبيب للممرضة: "جهزي حقنة وريدية للحال." ثم تحول الى لوري: "دعيني أفحص عنق الرحم لأرى ما اذا كان بدأ يتمدد."

وبعد الفحص أخذت الممرضة عيّنة معقمة من البول الذي استخرجته من المثانة بأنبوبة طبية، ثم عادت وعلّقت الابرة الوريدية في ذراع لوري اليسرى. وأبلغ الطبيب المقيم الى الدكتور كرينشو ان عنق الرحم متمدد قليلا لكنه متضائل ومسترقّ بمقدار ٥٠ في المئة. وكان الطلق يتوالى مرة كل ست دقائق. وباشر الطبيب اعطاء لوري السوائل وأرسل عيّنات من الدم والبول الى المختبر. وتمتم كرينشو معبرا عن رضاه ثم قال: "اذا لم يستجب الطلق للسوائل في وقت قصير باشر اعطاءها عقار ريتودرين وأبلغني للحال. واذا لم يجدِ هذا فسأنزل الى المستشفى لأولّدها. هل استفسرت عما اذا كان هناك سرير خال في جناح التوليد؟"

أجاب الطبيب المقيم: "أجل يا سيدي. جميع الاسرة مشغولة وقالوا لي انه ليس لديهم متسع للمزيد."

ران صمت طويل على الطرف الآخر من الخط. كان كرينشو والطبيب المقيم يعرفان معنى ذلك. ففي الاسبوع الحادي والثلاثين يواجه المولود احتمالا يفوق ٩٠ في المئة بالعيش بالعناية الفائقة في جناح التوليد. لكن حظه في الحياة ضئيل من دون هذه العناية.

وأخيراً تنهد كرينشو وقال: "سأتحدث اليهم. أما أنت فحاول أن توقف الطلق."

ان عقار الريتودرين بالنسبة الى حامل في المخاض المبكر قد يكون العقار المعجزة لايقاف تقلصات الرحم، غير أن له في الوقت عينه اعراضاً جانبية خطيرة. ويتيسر عادة تجنب هذه المضاعفات بتعيير الجرعة بعناية، لكن هذه المعالجة لا تخلو من الخطر، ولذا أحجم الاطباء عن اللجوء اليها قبل افهام بيل ولوري حجم الخطر والحصول على موافقتهما.

ووافق بيل ولوري على استخدام العقار.

## خبر سار!

خلال دقائق نصب عمود ثانٍ بجانب سرير لوري في غرفة التوليد علق عليه جهاز الكتروني صغير أزرق للتعيير. وفي الدقائق العشر الاولى أعطيت لوري جرعة من الريتودرين بمعدل ١٠٠ ميكروغرام في الدقيقة (الميكروغرام يساوي جزءاً من مليون من الغرام) وهي أدنى جرعة فاعلة. وأعلى جرعة يوصى بها تكون بمعدل ٣٥٠ ميكروغراماً في الدقيقة، وعند هذا المستوى قد تكون للعقار أعراض جانبية حادة، لذا فثمة اعتبار آخر حاسم: انه معدّل نبض لوري. فاذا فاق المعدل ١٤٠ نبضة في الدقيقة وجب خفض الجرعة، وحينئذ قد تضع لوري مولودها.

كان الطبيب المقيم والممرضة في حركة دائمة. وكان أحدهما ملازماً لوري لفحص نبضها باستمرار والتدقيق في شريط من الورق يخرج من جهاز مراقبة الجنين بحثاً عن أي دلائل تشير الى أن

الجنين يعاني ضيقاً ولاحتساب الفواصل الزمنية بين التقلصات الرحمية.

وأحست لوري بطلق بعيد اعطائها العقار أعقبه طلق آخر بعد ست دقائق واستقر نبضها على معدل ١٠٠ في الدقيقة. وبعد اربع دقائق زادت الممرضة الجرعة الى ١٥٠ ميكروغراماً وبعد أربع دقائق أحست لوري تقلّصاً جديداً. النبض ١٠٥. وبعد ست دقائق دهمتها آلام طلق آخر. وزادت الممرضة الجرعة الى ٢٠٠ ميكروغرام وارتفع النبض الى ١١٥. وبعد ست دقائق أخرى أحست لوري طلقاً جديداً. وانتظرت الممرضة أربع دقائق ثم رفعت الجرعة الى ٢٥٠ ميكروغراماً.

مرت دقيقتان والممرضة تراقب الجهاز ويدها على بطن لوري. انها تراقب النبض: ١٢٠ نبضة في الدقيقة والسرعة منتظمة. انتظار. ست دقائق ونصف دقيقة. النبض ١٢٠ ومنتظم. سبع دقائق. انتظار. سبع دقائق...

عاد الطلق بعد ثماني دقائق فهتفت الممرضة جذلا. الاصول الطبية الصحيحة كانت تقضي بأن الوقت مبكر جداً لطمأنة لوري وبيل، لكن الممرضة لم تقو على اخفاء فرحتها فقالت: "لا يمكنني أن أعدكما بشيء، لكني أظن اننا نجحنا."

وتركت جريان العقار عند حد ٢٥٠ ميكروغراماً وجلست تنتظر. وبعد تسع دقائق ونصف دقيقة عاد الطلق. وبقي النبض مستقراً على ١٢٠.

دخل الطبيب المقيم وبدا مسروراً. واتصل بالمختبر ثم ابلغ الى لوري وبيل النبأ السار الآتي: "انها مصابة بالتهاب في البول."

وسألت لوري متعجبة: "وهل هذا خبر سار؟"

فأجاب الطبيب: "بكل تأكيد. قد يكون الالتهاب هو الذي سبب الطلق."

وبعد دقائق أضافت الممرضة كيساً ثالثاً من السوائل الى شبكة الاجهزة والحقن الوريدية المعلقة بسرير لوري، وكان يحوي المضاد الحيوي أمبيسيلين وهو نوع اصطناعي من البنيسلين.

وعاد الطلق بعد ١٢ دقيقة ثم بعد ١٧ ثم ٢١ وأخيراً توقف.

## فحص "الجرَس"

لزمت لوري الفراش في بيتها طوال الاسبوع. وكانت تتناول الريتودرين من طريق الفم جرعة كل أربع ساعات. وفي الاسبوع التالي فحصها الدكتور كرينشو ووجد أنها تعافت، لكنه اشار عليها بالبقاء في الفراش كلما أتيح لها ذلك لاسبوع آخر ومواصلة تناول الريتودرين.

في تلك الليلة حضر الزوجان أول صف تثقيفي عن الولادة قدمته تريش باين في جناح المكاتب في المستشفى. وكانت الغاية من هذا الصف تعريف المتزوجين – وكان هناك ثمانية ازواج – الى عملية الولادة وجعلها تجربة ايجابية الى أقصى حد ممكن. وعرضت تريش في البداية شريطاً مصوراً تخللته مناظر وافية في غرفة التوليد. وفي نهاية العرض لم يبق جزء من تجربة الولادة لم يعرض مرة واحدة على الأقل. وأبرزت تريش أسلوب الاسترخاء، وفي جلسات تالية درّبت المشاهدات على تمارين التنفس التي تساعد في المخاض.

واستقرت زيارات المستشفى على وتيرة أسبوعية منتظمة للفحص أولا ومن ثم لحضور الصف التثقيفي. وبعد ذلك أبلغ كرينشو الى لوري أنها تستطيع العودة الى العمل نصف نهار فقط. وفي الصف تحدث الحاضرون عن المشيمة وتمرنوا على التنفس.

وألفت لوري عادات جنينها في هذا الوقت، حتى انها تعلقت بها على نحو ما. وبدا أن الجنين يستطيب الحركة من أي نوع كانت. فكلما سارت لوري أو جلست تترجح في كرسي هزاز لزم الجنين الهدوء التام. ولكن اذا جلست هادئة في كرسي أو استلقت على السرير، أصبح قلقاً وغير مستقر. وفي بداية الامر كانت لوري تحس داخلها ملامسات خفيفة كما لو كان الطفل يتمطى، ثم يعقب ذلك عدد من الضربات المتقطعة، بعضها على درجة من القوة تبهر الانفاس.

ودأبت لوري على الذهاب الى عملها كل يوم وحضور الاجتماعات وهي جالسة في كرسي هزاز. أما بعد الظهر فكانت تقرأ بنهم خلال ما أصبحت تعتبره فترات هدوئها. وذات يوم غلبها الوسن وهي تقرأ خطة مضجرة لتنظيم شركة. ونامت نحو ساعة. ثم أفاقت متعجبة لانها استطاعت أن تغفو، فالجنين لم يكن يدعها تنام.

والواقع ان الجنين كان هادئاً بعد ظهر ذلك اليوم. وانتظرت لوري مترقبة بانتباه. الطفل لا يتحرك. ولما لم تصدر منه أي حركة حتى الثالثة والنصف عصراً تناولت الهاتف. وأشار عليها الدكتور بابكن بأن توافيه الى عيادته: "من واجبك أن تكوني دائماً يقظة." وكان ينوي أن يتأكد من أن المشيمة ما زالت تؤدي وظيفتها على النحو الصحيح.

المشيمة (Placenta) فريدة في طبيعتها ضمن فيزيولوجيا الكائنات الثديية. انها العضو الوحيد في الدنيا الذي يطرح بعد أن يؤدي وظيفته. انها آلة بيولوجية تستخدم مرة واحدة ثم تطرح.

انها، بمعنى أيضاً، طفيلية، لأنها تمتص الاوكسيجين والمغذيات من مجرى دم الأم ثم تضخ فيه النفايات الجنينية. لكنها تنتج أيضاً الهرمونات التي تتفاعل مع هرمونات الأم لتأمين حمل مستقر. والأهم من كل شيء أن المشيمة، مع الغشاء الجنيني، يشكلان حاضنة صغيرة، أي بيئة محمية، تتكوّن فيها حياة جديدة.

والمشيمة، انسجاما مع حقيقتها كعضو يطرح من الجسم، ليست مكوّنة لتدوم. فالقلب والكلية عضوان وجدا ليصمدا مدى الحياة، أما المشيمة فالحاجة اليها تقتصر على دوامها لمدة ٤٠ أسبوعاً في المتوسط.

وتكوين المشيمة يجعلها تنتهي عند هذا الحد. فبعد ٤٠ أسبوعا تظهر على معظم المشيمات دلائل الضمور. وفي الاسبوع الثاني والاربعين يبدأ القلق يساور المولّدين، اذ ان المشيمة التي ينقضي عليها ٤٢ أسبوعاً لا يمكن الوثوق بها. ويعمد كثيرون الى احداث المخاض اصطناعياً في الاسبوع الثاني والاربعين مفضلين ذلك على الوثوق بصمود المشيمة.

وثمة ثلاثة أنواع من الفحوص التي

يستطيع الدكتور بابكن اجراءها. واثنان منها موثوق بهما جداً لكنهما يستغرقان وقتاً طويلا وهما مزعجان ومكلفان ومحفوفان بالخطر. أما البديل الثالث فيعرف طبياً باسم "فحص الايقاظ بواسطة الصوت" (٣) وهو فحص غير مرهق للجنين لكن موظفي المستشفى يدعونه ببساطة "فحص الجرس" (Gong Test).

## جنون الارتياب

أدخلت لوري غرفة التوليد الخالية حيث ساعدتها ممرضة لتصعد الى السرير وطلبت منها أن تكشف عن بطنها. وبعد ذلك حزمت الممرضة حول البطن جهازاً حساساً لمراقبة قلب الجنين وأدارت زراً فتصاعد من الجهاز أزيز وأخذ يرسم خطاً متعرّجاً يمثل نبضات قلب الجنين على شريط متحرك من الورق.

ورفع بابكن أسطوانة من المعدن سوداء اللون داخلها مكبر للصوت، وقربها من أذنه ثم ضغط زراً مرة واحدة ليتأكد من أنه يعمل على نحو صحيح. وبعد ذلك وضع الاسطوانة على بطن لوري على مسافة قصيرة من رأس الجنين.

في الاسبوع الثلاثين من الحمل يكون الجهاز السمعي لدى الجنين تطوّر الى حد التمام، لكن كل ما يسمعه الجنين عادة في هذه الفترة يقتصر على نبض قلب أمه وقرقرة امعائها ورنة صوتها حين تتكلم. وعندما ضغط بابكن الزر ملأ الرحم رنين حاد. هذا الرنين ليس عالياً لكنه غير عادي بالنسبة الى الجنين.

انتفض الجنين داخل الرحم وركل.

وفوجئت لوري فشهقت عندما سدد طفلها اصابة مباشرة الى الحجاب الحاجز. وقالت: "أنا أعرف اني مصابة بجنون الارتياب."

فعلّق بابكن: "يمكنك أن ترتابي كما تشائين." ثم ضغط الزر ثانية فركل الطفل مرة اخرى داخل الرحم وقال: "في ما يختص بطفلك لا يسعك أبداً أن تكوني يقظة أكثر مما ينبغي."

وقام بابكن وأعاد مكبر الصوت الى مكانه ثم قطع شريط الورق الذي كان بارزاً من جهاز المراقبة وابتسم.

وخاطب لوري وهو يشير بيده: "أنظري هنا. انها رائعة. كل واحدة منها رائعة." ففي كل مرة تحرك الجنين كان الخط الذي يرسم نبضات قلبه على الورق يقفز ثم يستقر. وأضاف: "ان الطفل على خير ما يرام."

من العسير تحديد لحظة بدء المخاض. لكن كل كتب الطب تقول ان المرحلة الاولى تبدأ بتضاؤل وتوسع مطردين في عنق الرحم تجاوباً مع تقلّصات الطلق.

وتعلّمت لوري في الصف التثقيفي شيئاً واحداً: ان المخاض هو تماماً ما تعنيه هذه الكلمة، أي الجهد الشاق. وكانت تريش باين تقول: "نعم، انه مؤلم. وكلّ ما في العالم من تنفس عميق واسترخاء لا يمكن أن يجعله غير مؤلم. وكل ما نرجوه هو أن تدركوا أن الألم جزء طبيعي من الولادة، ويجب أن تتفهمه الام وتقبله، لأن توتر عضلاتها لا يؤدي الا الى تفاقم الألم."

---

(٣) Acoustic Stimulation Non — Stress Test

بدأ الطلق لدى لوري بعد تناول الفطور صباح يوم الأحد من الاسبوع التاسع والثلاثين من حملها. فنادت بيل.

قاس بيل بساعته تواتر التقلّصات، فوجد أنها تتوالى بفاصل زمني يراوح بين ١٥ و١٢ دقيقة. وجلسا ليلعبا الشطرنج، ثم قامت لوري للتمشي مع بيل. وفي الثانية بعد الظهر أخذ الطلق يتوالى بفاصل سبع دقائق ويزداد حدة. وحين تسارع الى تواتر من خمس دقائق اتصلت لوري بالدكتور كرينشو.

## الرصانة والحبور

في طريقها الى المستشفى أخذت تفكر في أنها لم تمر بمثل هذه التجربة من قبل. فالطلق كان مزعجا، بل مؤلماً، انما لم يكن خاليا من شعور بالسرور. وما لفتها كان ذلك الشعور الغريب بالرصانة والحبور في آن. كانت متنبهة جداً لأخف الاصوات ولما يعتريها من أحاسيس، الا ان تنبهها العالي لم يكن مترافقا مع أي شعور بالذعر. كانت واثقة بأن كل شيء سيجري حسبما ينبغي.

ومن جهة اخرى كان بيل على وشك الانهيار. كان الوقت أصيل الأحد والسير خفيفاً على الطرق، لكن بيل كان يقود سيارته بتوتر فينحرف يمنة ويسرة ليتحاشى السيارات الاخرى ويطلق النفير ويشتم في حال من الهياج. وتأكدت لوري من سلامة حزام الأمان حولها وهي تهيب بزوجها ان يتمالك أعصابه. فامامهما متسع من الوقت.

قالت الممرضة وهي تسير أمام لوري الى غرفة الفحص: "تعالي يا حبيبتي. يجب أن نتمم الاجراءات الأولية ونلبسك ثوب المستشفى."

وفيما ذهب بيل ليوقف سيارته في المرأب أخذت الممرضة عيّنة من بول لوري وأخرى من دمها. وقاست حرارتها وضغط دمها. وبعد ذلك دخل الدكتور ناجي غرفة الفحص، وفيما هو يتكلم أخذ يضغط بطن لوري بيديه باحثا عن مكان الجنين.

قال الطبيب: "يجب أن افحص عنق الرحم في أثناء الطلق. آسف لأن هذا أشد الاوقات ازعاجاً لك."

انه على حق. فالفحص كان مزعجاً. وحين كانت أصابع الدكتور ناجي تضغط من جهة كان رأس الجنين يضغط من الجهة المعاكسة. وبلغ الألم الدرجة السادسة وفق مقياسها الوهمي المؤلف من عشر درجات. ولكن حين سحب الطبيب أصابعه هبط الألم الى الدرجة الثالثة أو الرابعة التي كان عندها قبل الفحص. وتنفست لوري الصعداء.

وفي ما بعد شدت الممرضة والطبيب المقيم جهاز مراقبة على بطن لوري لتسجيل نبضات قلب الجنين. وتواتر الطلق متلاحقاً. وبعد فترة عاد الدكتور ناجي وفحص شريط الورق البارز من جهاز المراقبة باحثاً عن اشارات "التباطؤ المتقدم" أي الانخفاضات في الخط المرسوم على الشريط التي تنذر بأن الجنين يعاني نقصاً في الاوكسيجين. ولم يجد أياً من هذه الاشارات. ولكن هل الامر كذلك حقاً؟ كانت ثمة اضطرابات أعقبت آخر طلق اعتراها، في مرتين متعاقبتين.

قال الطبيب: "أشعر ببعض القلق بسبب هذه الاشارات. واذا لم يكن لديك

مانع فسأتحول الى جهاز مراقبة داخلي واستعين بقطب كهربائي على فروة الرأس. فهذه توفر لي اشارات أضمن."

وخرج لدقائق وعاد حاملا أنبوباً من البلاستيك برزت من أحد طرفيه أسلاك دقيقة حمراء وخضراء. ولبس قفازين وأخذ يدخل الانبوب في جوف لوري حتى شعر أن الانبوب لامس قمة رأس الجنين. وعندئذ أدار مقبضاً بيده اليسرى فاخترق ملقط دقيق الطبقة الخارجية من فروة رأس الجنين ليثبت جهاز المراقبة في مكانه.

## متعة الولادة

في هذا الوقت أصبح الطلق يتواتر بفاصل ثلاث دقائق، وصدرت عن لوري أنّة ألم حين دهمها تقلّص قوي جداً. ولم يفه بيل بكلمة لكنه مد يده يلامس بلطف بطن زوجته ويدغدغه بأصابعه. واسترخت لوري وأطلقت تنهدة عميقة ثم قالت برقة: "آه، هذا حسن."

وحين عاد الدكتور ناجي ليفحص اشارات الجهاز وجدها أكثر استقراراً من ذي قبل، لكنها أظهرت انخفاضات طفيفة بعد كل طلق. فقال للزوجين وهو يشير الى الخط المتعرج: "هذا ليس مقلقاً جداً لكنه كاف ليجعلني حذراً. أود أن آخذ عينة دم صغيرة من فروة رأس الطفل. ومن المؤسف أن هذا أيضاً سيكون مزعجاً لك."

واعترفت لوري: "اني منزعجة في أي حال. ولا أظن أن زيادة قليلة من الازعاج ستضر بي."

وفيما الممرضة تغسل فخذي لوري بمطهر بني فتح الدكتور ناجي حقيبة معدات طبية وأخرج أنبوباً مخروطياً أبيض من البلاستيك. وأدخله بيده اليمنى الى جوف لوري وأخذ يضغط بلطف واطراد حتى شعر أن رأسه لامس فروة الجنين.

وناول الطبيب المقيم الدكتور ناجي زجاجة رش فزرق منها على رأس الجنين بضع قطرات من سائل سريع التبخر. وانتفخت المجاري الدموية في فروة رأس الجنين تجاوباً مع البرودة المفاجئة من التبخر. عندئذ أدخل الدكتور ناجي مبضعاً في المخروط وفتح بعناية شقاً صغيراً في أحد شرايين فروة الرأس فبرزت للحال قطرة دم. وأبدل بالمبضع أنبوباً طويلا من الزجاج وسحب عينة صغيرة جداً من دم الجنين. وسرعان ما تقلصت مجاري الدم في فروة الرأس مع عودة الدفء اليها وتقلصت قطرات الدم. لكن الطبيب كان حصل على كل ما يريد. ودفع الانبوب الزجاجي الى الطبيب المقيم وأخرج المخروط البلاستيكي. وتنهدت لوري عميقاً من دون ان تقول شيئا.

قال الدكتور ناجي: "انتهى كل شيء، وسنرى النتائج في دقائق."

في مختبر صغير في الناحية الاخرى من القاعة وضع الطبيب المقيم الانبوب الزجاجي في جهاز الكتروني يقيس مستوى الحموضة والقلوية (PH) في الدم، اذ ان هذه هي أضمن طريقة للتأكد من أن الجنين يحصل على ما يكفيه من الاوكسيجين. واذا حرم الجنين الاوكسيجين فان خلايا جسمه تأخذ في افراز الحامض اللبني (Lactic acid) في مجرى الدم فينخفض المستوى عن الحد العادي.

وافاد الدكتور ناجي: "كل شيء يبدو انه سيجري على ما يرام." وما ان انهى كلامه حتى رأى عضلات وجه لوري تتقلص وقد دهمها الطلق من جديد. فقال لها: "اذا كان الطلق أشد مما تحتملين فيمكننا أن نوقفه بحقنة تخدير في النخاع الشوكي (٤) . واذا شئت أن نلجأ الى هذا الاجراء فعليك أن تقرري الآن، فبعد أن يكتمل التمدد يصبح الامر متعذراً."

وفكرت لوري لحظة. فالعرض مغرٍ، وكان الألم اشتد في الساعة الاخيرة حتى بلغ الدرجة السادسة أو السابعة في مقياسها الوهمي، وربما زاد. واعتراها عياء ووهن لكنها قالت بعد تفكير: "لا، لا أريد أن تفوتني متعة الولادة الطبيعية."

## اللحظة الحاسمة

أصبح المخاض متواصلا وراوحت شدته بين الوجع والحريق بين طلق وآخر، وكلما بدأ طلق جديد كانت التقلصات المبرحة تصل في شدتها الى ما اعتبرته الحد الأقصى، أي الدرجة العاشرة في مقياسها. واستبد بها الذعر.

أخذ الطلق يتوالى بسرعة الآن حتى كاد أن يصبح مستمراً. وشعرت لوري بضيق تنفس. وكان بيل واقفاً بجانبها متوتر الاعصاب وهو يلامس بطنها ووركيها وكتفيها مهدئاً، كما كان يهمس لها أقوالا لم تفقه منها شيئاً.

وعندما دهمها الطلق التالي صرّت أسنانها وبذلت كل ما فيها من قوة لشد عضلات بطنها. وأخذ الألم يزداد باطراد حتى لم تعد تشعر بسواه. وأخيراً أصبح الألم غامراً فاسترخت لاهثة. وخف الألم حينئذ وكاد أن يزول تماماً.

فقال الدكتور ناجي: "حسناً، هذا مدهش حقاً. كرري ما فعلت وسيغدو لك طفل." وبددت هذه الكلمات ضبابية تفكيرها فرفعت نظرها الى وجه زوجها ثم أغمضت عينيها عندما مسح هذا وجهها بخرقة مبللة بالماء.

وبدأت موجة جديدة من الطلق فشدت عضلاتها بكل قوتها فيما الدكتور ناجي يحضها قائلا: "حسنا... شدي... شدي."

وبلغ الألم ذروته واستقر ثم انحسر مع زوال الطلق. وتفصد جسم لوري عرقاً غزيراً وأخذت ترتجف عياء.

واوضح الدكتور ناجي: "ان الطفل كاد أن يخرج، ويجب أن يخرج مع الطلق التالي." وحض لوري على ان توفر كل ذرة من قوتها "شدي عضلاتك الى أقصى ما تستطيعين."

قالت لوري لزوجها: "تمسك بي." ثم تنهدت عميقاً وصرت أسنانها. وخرجت زمجرة من بين أسنانها المطبقة تحولت أنيناً، لكنها واصلت شد عضلاتها. وبدا أن الألم يتفجر في دماغها.

وفجأة، في شهقة طويلة راجفة، انخفض الألم الى الصفر.

وانتهى الأمر. استرخت لوري وهي ترتجف وكادت أن يغمى عليها. وشعرت بزوجها يحتضنها بذراعيه.

سمعت لوري الدكتور ناجي يهتف من جانب السرير: "عظيم! مدهش! هذا

---

(٤) Epidural block وهو ادخال المخدر بواسطة إبرة رفيعة بين فقرات العمود الفقري في ظهر المرأة فيتخدر نصفها السفلي.

افضل ما رأيت منذ زمن طويل. والآن، من فضلك، توقفي عن الشد لدقيقة فقط. اعطني دقيقة لأسوي الاوضاع هنا."

وجاءت كلماته هادئة فرحة مشجعة. ولم تشعر لوري أن في كلامه ما يوحي بخطب حين قال: "أوقفوا الدم."

شكر الدكتور ناجي في سره القدر الذي لم يجعل لوري تطلب أن توضع بجوارها مرآة. فلو كانت المرآة مرفوعة لاتيح لها أن ترى رأس الطفل كما رآه هو: مواجهاً الأرض والعينان مطبقتان والوجه أرجواني بالدم المحبوس فيه بعدما التف حبل السرة حول العنق يخنقه.

حين انزلق الرأس خارجاً مد الطبيب يده اليسرى تحته ليدعمه. كان على وشك أن يتكلم ليثني على لوري حين برز الرأس كله ورأى حبل السرة ملتفاً حول العنق. وشد عليه ملقطين ثم أمسك بمقص صغير وقطعه.

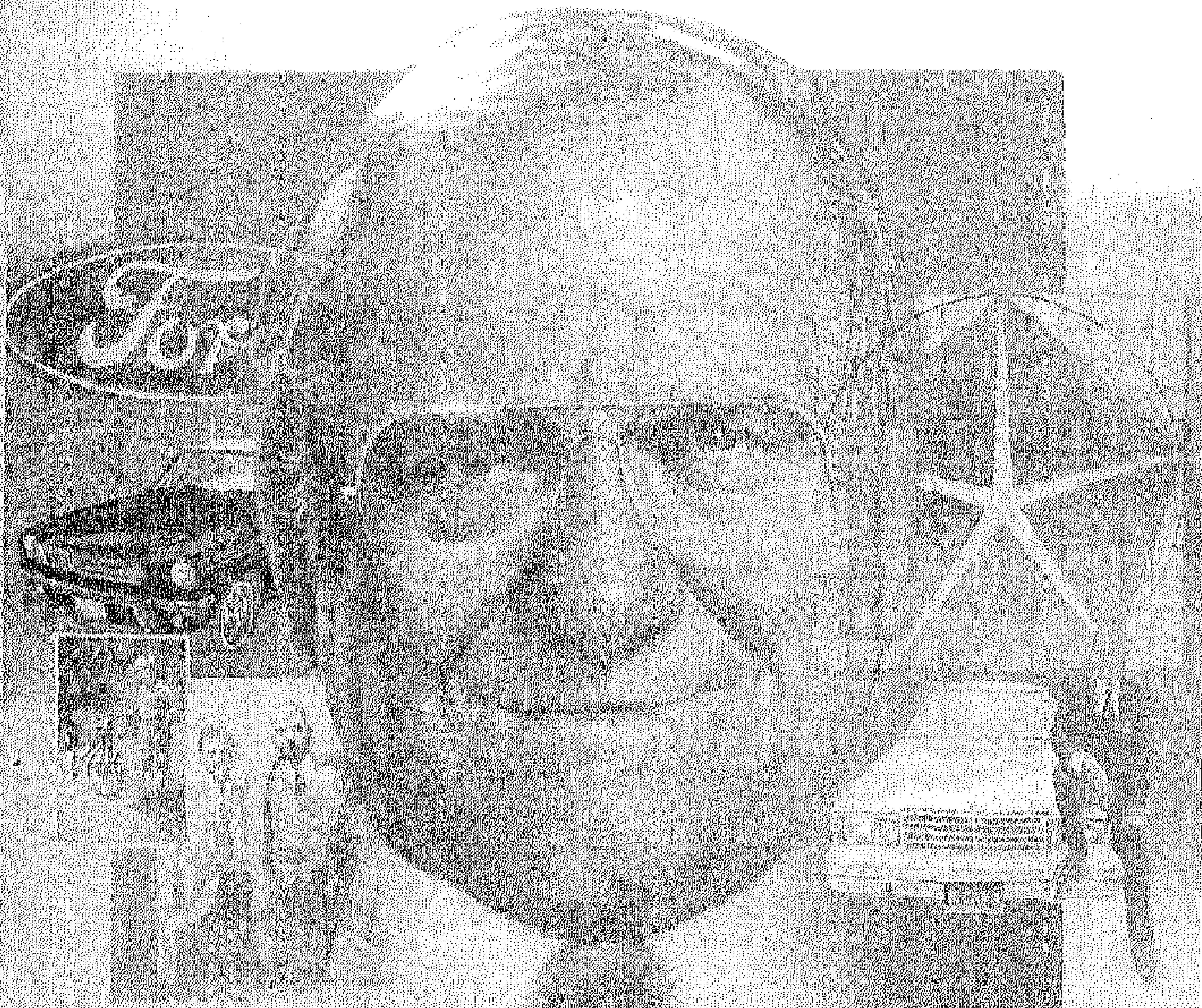
كان واضحاً أن الدكتور ناجي شعر عندئذ بالارتياح وقال للممرضة: "حسناً، أعدي المحقنة الآن." والمحقنة عبارة عن طابة من المطاط لامتصاص السوائل. واخذ الطبيب يعمل بسرعة. فضغط الطابة ووضع فوهتها في فم الطفل للامتصاص. وكرر العملية لتنظيف المنخرين.

وحالما رفع الدكتور ناجي طابة المطاط سعل الطفل ثم صرخ بصوت خفيض. وشعر الطبيب بفورة من البهجة تغمر كيانه فتنهد عميقاً ليهدىء اعصابه ثم قال مخاطباً لوري: "اسمعي هذا الصوت، انه صوت طفلك."

ورفع الدكتور ناجي الطفل في يديه كما يرفع اللاعب الفائز كأس الظفر وقال للوري: "الآن اصبحت لك ابنة."

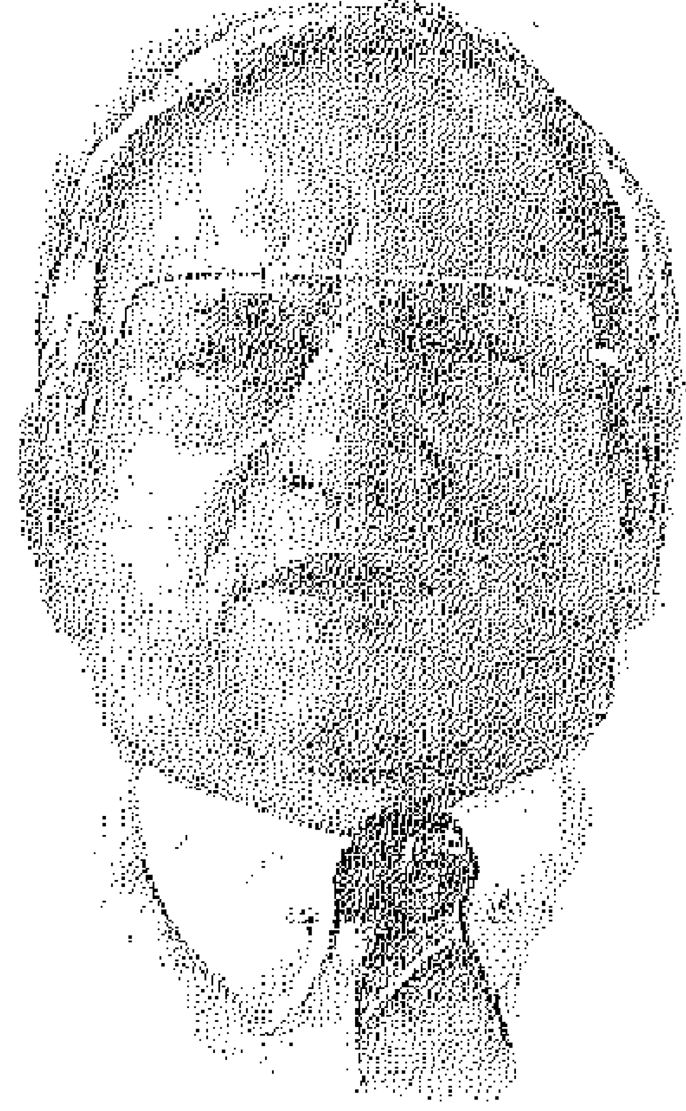
**آلن دولب** ■

كتاب الشهر



# ياكوكا الإيطالي الآخر

# ياكوكا



# الايطالي الآخر

**رجل الأعمال لي ياكوكا، الايطالي الاصل، هو أسطورة، فقد تمكن هذا الرجل الذي يتسم بالصراحة وشدة المراس من إنقاذ شركة كرايزلر الامريكية من كارثة محققة. وها هو الآن يكشف في سيرته الذاتية أسراراً عن حياة حافلة بالكفاح والنجاح يتضح من خلالها أنه لم يكن فقط واحداً من أصلب الرؤساء الاداريين وأكثرهم فلاحاً بل كان أيضاً تجسيداً لحلم**

لم أكن في صغري أختلف كثيراً عن سواي من أبناء المهاجرين، غير أني لم ألبث أن تدرّجت في حياتي لأصبح رئيس شركة فورد للسيارات. وعندما وصلت أخيراً إلى هذا المنصب أحسست أني بتّ في قمة هذا العالم. إلا أن القدر كان لي

Condensed from «Iacocca: An Autobiography,» copyright © 1984 by Lee Iacocca, Published by Bantam Books, Inc., New York. Illustrations: George Angelini

بالمرصاد فخاطبني قائلا: "تريّث أيها الرجل، فقد آن الأوان كي تنزل من عليائك التي أنت فيها!"

في ١٣ يوليو (تموز) ١٩٧٨ طردت من شركة فورد بعدما امضيت في رئاستها ثماني سنوات وبقيت موظفاً فيها مدة ٣٢ سنة. والواقع أني لم اعمل قبلا في أي مكان آخر، وفجأة ألفيت نفسي عاطلا عن العمل فانتابني كرب شديد.

في ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) الذي كان آخر يوم عمل لي في الشركة، أوصلني سائقي إلى "مركز فورد للعالم" في مدينة ديربورن (ولاية ميشغان). وقبل أن أغادر منزلي ذلك اليوم قبّلت زوجتي ماري وابنتيّ كاثي وليا اللواتي برّح بهنّ الألم في الأشهر الأخيرة التي أمضيتها لدى فورد. ثم خرجت وقد استبد بي الغضب فقلت في نفسي: إذا كنت أنا مسؤولاً عن مصيري فما ذنب ماري والفتاتين؟ ولا ريب في أن الألم الذي أصابهن لا يزال يرافقني الى اليوم.

والواقع أن "الاستقالتي" قضت بإعطائي حق استعمال أحد مكاتب الشركة إلى أن أحظى بعمل جديد. ولم يعدُ هذا المكتب أن يكون مستودعاً للبضائع يشبه المهجع ويحوي طاولة صغيرة وهاتفاً. وقد سبقتني اليه سكرتيرتي دوروثي كار التي كانت الدموع تترقرق في عينيها. ولم تنبس دوروثي بأي كلمة، لكنها أشارت الى أرض الغرفة المغطاة بمشمّع مهترىء وإلى فنجانَي القهوة الموضوعين على الطاولة. وبدا لي أنني أعيش في المنفى.

لقد كنا نعمل أنا ودوروثي قبل يوم واحد فقط في مكان بادي الفخامة إذ كان مكتب الرئيس يضاهي في حجمه جناحاً في فندق ضخم. وكان لي فيه حمام خاص وموضع أخلد فيه الى الراحة. وكان في المكتب أيضاً خدم بيض الثياب متأهبون لتنفيذ أوامري طوال النهار.

لا شك في أن المرء يواجه في حياته ألوفاً من الصعوبات الطفيفة، الا أنه يواجه أيضاً صعوبات كبيرة حقاً هي في الواقع لحظات حساب أو ساعات مواجهة الحقيقة، وعلمت أنه مرّت عليّ آنذاك لحظات مماثلة. فهل أتخلى عن مهنتي وأتقاعد؟ الحق أني كنت في الرابعة والخمسين وتمكنت من تحقيق إنجازات كبيرة. ولم تكن لدي أي مشكلة من الناحية المالية إذ كان في وسعي أن أترك العمل وأنصرف إلى لعب "الغولف" بقية حياتي. غير أني أحسست أن هذا الخيار لم يكن صحيحاً وعلمت أنّ عليّ ان استجمع قواي وأتابع طريقي.

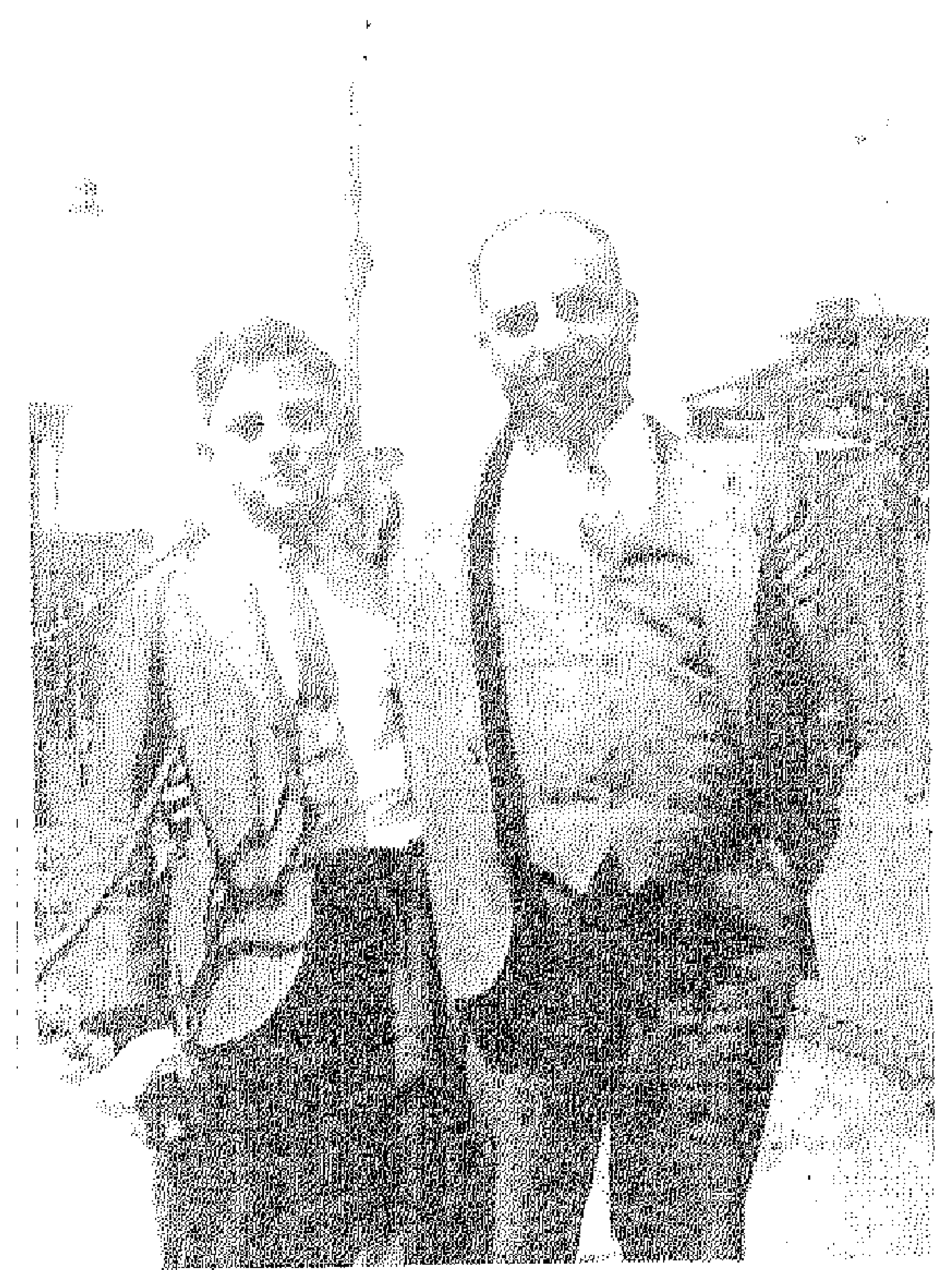
لقد كان في مقدوري أن أتحمل الألم الشخصي، إلا أني كنت عاجزاً عن تحمل الاهانة التي وجهت إليّ عمداً أمام الملأ. فحنقت أشد الحنق ووجدت أنّ عليّ اختيار أحد أمرين، أولهما أن أنتقم من نفسي وأصل إلى ما لا تحمد عقباه، وثانيهما أن أزوّد نفسي جزءاً من تلك الحيوية وأحاول إنجاز عمل بنّاء.

والواقع ان ذلك الصباح الذي أمضيته في المستودع حداني على قبول منصب رئاسة شركة كرايزلر بعد أسابيع معدودة. وبدا أني كنت كمن يستجير من الرمضاء بالنار، لكني غدوت اليوم بطلاً بعدما تمكنت من التغلب على محنتي بقوة

عزيمتي وحسن حظي ومساعدة طائفة من ذوي النفوس الطيبة. وسأشرع الآن في رواية قصتي.

## سوف تشرق الشمس

عندما وصل والدي نيكولا ياكوكا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٢ كان لا يزال فتى في الثانية عشرة تبدو عليه أمارات الفقر والوحدة والخوف. وكثيراً ما كان يقول إن الأمر الوحيد الذي كان يعلمه يقينا لدى وصوله هو أن الأرض كروية. ولم



مع أبي عام ١٩٣٤

يكن من سبب في ذلك سوى أن فتى إيطالياً آخر يدعى كريستوفر كولمبوس كان سبقه الى أمريكا بنحو اربعمئة وعشرة أعوام. وفيما كانت السفينة تدخل ميناء نيويورك وقع نظره على تمثال الحرية الذي يعتبره ملايين من المهاجرين رمزاً للأمل عظيماً. وكان نيكولا يرى أنّ أمريكا هي بلد الحرية وأنّ المرء يمكنه أن يحقق فيها ما يشاء إذا عقد العزم على تحقيقه وعمل جاداً في هذا السبيل.

كان هذا هو الدرس الوحيد الذي علّمنا إياه والدي. وأرجو أن أكون وفقت إلى الاقتداء به.

لقد ترعرعت في ألنتاون (ولاية بنسيلفانيا) وتبين لي أن العلاقة بين أفراد أسرتي وثيقة جداً حتى إنني كنت أحسّ أحياناً أننا شخص واحد مكوّن من أربعة أجزاء. وكان والداي يدأبان على أن يجعلاني ويجعلا أختي دلما نحس بأهميتنا وبمكانتنا الخاصة لديهما. ولم يكن انهماك والدي في شؤون أخرى كثيرة يحول البتة دون أن يمنحنا جزءاً من وقته. أما والدتي أنطوانيت فلم تكن تدّخر أي جهد كي تطبخ لنا الطعام الذي نشتهيه. وكان والداي، على غرار سواهما من الايطاليين، يبديان عاطفتهما أمام الناس ولا يقتصران على إظهارها في المنزل. وكنت أَلْحَظ أن معظم أصدقائي لا يعانقون آباءهم. وأظن أنهم كانوا يخشون أن يُعدّ ذلك لوناً من ألوان الضعف وعدم الاستقلال. أما أنا فلم أكن أدع فرصة تفوتني كي أهبّ إلى معانقة والدي، وكنت أشعر أن هذا أمر طبيعي جداً.

وربما كان والدي مسؤولاً عن نزوعي إلى التجارة. وأذكر أنه كان يملك في إحدى الفترات دارين للسينما. وقد أخبرني بعض سكان ألنتاون القدامى أن والدي

كان ماهراً جداً في الترويج لأفلامه بحيث كان الاولاد الذين يحضرون لمشاهدتها بعد ظهر السبت يتمتعون بعروضه الخاصة أكثر مما يتمتعون بالأفلام التي يشاهدونها. ولا يزال الناس يتحدثون بأنه أعلن مرة أن الاولاد العشرة الذين يبزّون أترابهم في اتساخ وجوههم سيشاهدون الفيلم مجاناً.

وفي ما يتصل بوضعنا الاقتصادي فقد مرّت على أسرتي أوقات فرج وأوقات شدة. ففي العشرينات كنا في حال حسنة نحن وكثيرون من الأمريكيين، بل إنه مرت علينا سنوات كنا نعدّ فيها من الموسرين. إلا أن مرحلة الانهيار الاقتصادي لم تلبث أن أطلّت وتركت في نفوس الذين عايشوها آثاراً لا تمحى. وفي تلك الفترة خسر والدي ماله جميعاً وكدنا نفقد منزلنا. وأذكر أني سألت مرة أختي التي تكبرني ببضع سنوات إذا كان علينا أن نتخلى عن ذلك المنزل وكيف يمكننا العثور على منزل آخر. وعلى رغم أني كنت في السادسة أو السابعة آنذاك فإن الخوف من المستقبل لم يفارقني إلى الآن.

وفي تلك السنوات العسيرة بدت والدتي واسعة الحيلة وأظهرت أنها أم مهاجرة حقاً وأنها عمود الأسرة الفقري. وكثيراً ما كان طعامنا يقتصر على حساء العظام الرخيص، لكننا كنا نجد دائماً كفايتنا من الطعام. وحين أخذ الانهيار الاقتصادي في الازدياد بدأت والدتي تخيط القمصان في مصنع للحرير. واللافت أنها كانت تؤدي عملها هذا وسواه من الأعمال التي تضطر إلى تأديتها برضا.

ومن الواضح أن إيماننا بالله كان خير معين لنا في تلك المرحلة.

وكانت فكرة والدي المأثورة هي أنّ في الحياة يسراً وعسراً وأنّ على كل امرىء أن ينال نصيبه من البؤس والشقاء. وكثيراً ما كان يقول لي حين يجدني مضطرباً في أثر إحساسي بالخيبة: "عليك أن ترضى بمقدار من الحزن في هذه الحياة لأنك لن تعرف حقاً معنى السعادة إذا لم يكن لديك ما تقارنه بها." وفي الوقت نفسه كان يكره أن يرانا متكدرين فيقول لي عندما تبدو الأشياء قاتمة: "كل ما عليك أن تفعله هو الانتظار، فالشمس ستشرق لأن هذا دأبها."

وعندما علمت أننا من أصل إيطالي كنت جاوزت الحادية عشرة من عمري. وكل ما كنت أعلمه قبل ذلك هو أننا ننتمي إلى بلد حقيقي من دون أن أعرف اسمه أو حتى موقعه.

والواقع أن الايطاليين كانوا يحاولون في تلك الحقبة إخفاء حقيقة أصلهم إذ كان معظم سكان ألنتاون من أصل ألماني. وقد عانيت في طفولتي الظلم وسوء المعاملة من هؤلاء السكان لأنني كنت مختلفاً عنهم.

وأذكر أنني لم أكن في صفي الضحية الوحيدة لهذا التعصب الأعمى بل شاركني في تحمل الجور تلميذان آخران.

والصحيح أن ما كابدته في صغري من جراء هذا التعصب ترك في نفسي أثراً لا يزول. ومن سوء الحظ أني شهدت ألواناً منه حتى بعد مغادرتي ألنتاون. وهو لم يبدر هذه المرة من تلاميذ في المدرسة بل بدر من رجال ذوي مناصب كبيرة وسلطة

عالية ومكانة مرموقة في ميدان صناعة السيارات.

على أن حياتي في المدرسة كانت في ما عدا ذلك سعيدة جداً. وكان أهم ما تعلمته فيها أن أحسن التعبير عن نفسي وأجيد الاتصال بالآخرين. وقد كانت الآنسة رابر، أي معلمتنا في الصف الأول التكميلي، تطلب منا أن نقدم اليها صباح كل اثنين موضوعاً من خمسمئة كلمة. وفي الصف كانت تمتحن مقدرتنا اللغوية من خلال مجلة "ريدرز دايجست" فتعمد إلى الصفحة الخاصة بالمفردات(*) وتنزعها من المجلة وتطلب منا الاجابة عن الأسئلة المطروحة فيها من دون إنذار سابق.

## في طريق الصعود

في شهر أغسطس (آب) ١٩٤٦ بدأت أعمل في شركة فورد كمهندس متمرن بعدما حزت شهادات في الهندسة من جامعتي لهاي (ولاية بنسيلفانيا) وبرنستون (ولاية نيو جرزي). وكان برنامجنا في الشركة يكوّن حلقة كاملة إذ كان على المتمرنين أن يمضوا وقتاً كافياً في التدرب على كل مرحلة من مراحل صناعة السيارة. وأذكر أني أنفقت أربعة أسابيع في الطور النهائي الذي تجمع فيه أجزاء السيارة. واتفق أن حضر والداي يوماً لزيارتي، وعندما شاهدني أبي في ثوب العمل ابتسم قائلا: "لقد أمضيت سبعة عشر عاماً في الدراسة، فانظر كيف يكون مصير الأغبياء الذين لا يتفوقون على أقرانهم في الصف."

بعد تسعة أشهر على التحاقي بهذا البرنامج قررت التوقف عن متابعة الهندسة وبتّ أتشوق إلى العمل في ميدان أشد إثارة أي في التسويق والمبيعات. وعرفت أني أفضل العمل مع الناس على العمل مع الآلات الصماء. ولم ألبث أن تركت البرنامج والتحقت بوظيفة في قسم المبيعات في شستر (ولاية بنسيلفانيا). وقد كنت خجولاً تعوزني اللباقة آنذاك وكان يبدو عليّ الاضطراب كلما أمسكت سماعة الهاتف.

ويرى بعض الناس أن البائعين الناجحين يولدون كذلك لأن البراعة في البيع موهبة وليست علماً. غير أني كنت أفتقر إلى تلك الموهبة الفطرية وكان معظم زملائي يبدون أكثر راحة وانفتاحاً مني. وفي السنتين الاوليين اللتين صرفتهما في عملي الجديد كان يغلب عليّ التفكير النظريّ والتكلف. والواقع أن تعلم مهارات البيع يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير، وهذا أمر يفوت ادراكه عدداً من الشباب. فهم يتطلعون بإعجاب مثلا إلى رجل أعمال ناجح من دون أن يفكروا في الأخطاء التي ربما كان ارتكبها في شبابه. فالأخطاء جزء من الحياة وتحاشيها ليس ممكناً. وكل ما نستطيعه في هذا المقام هو أن نأمل في أن تكون كلفة هذه الأخطاء غير باهظة وألا نكرّر الخطأ الذي نرتكبه.

لقد تعرفت أثناء عملي في شستر إلى رجل فذّ يدعى شارلي بيشام ترك في حياتي أثراً عميقاً لا يفوقه سوى الأثر الذي تركه والدي. وكان هذا الرجل أولاً بارزاً يرجع أصله إلى الجنوب ويشغل في

(*) ما يوازي "دائرة المعارف" في "المختار".

شركة فورد منصب مدير عام لمنطقة الساحل الشرقي. وقد بدأ شارلي حياته المهنية مهندساً متمرناً مثلي ثم انتقل إلى مجال المبيعات والتسويق. ولم أعرف في حياتي المهنية رئيساً يضاهيه إخلاصاً في إسداء النصائح إلى الموظفين. فهو كان يرضى بأن يرتكب الموظف أخطاء بشرط أن يتحمل مسؤوليتها. وكان يقول في هذا الصدد: "تذكروا دائماً أن كل إنسان يرتكب أخطاء، لكن المشكلة هي أن معظم الناس لا يتحملون مسؤولية أخطائهم. فعندما يرتكب شخص ما خطأ يحاول أن يلقي اللوم على زوجته أو خليلته أو أولاده أو كلبه أو الطقس لكنه لا يلقيه أبداً على نفسه. فإذا ارتكب أحدكم خطأ فأرجو ألّا يقدم إليّ أعذاراً وآمل في أن ينظر إلى نفسه في المرآة أولا قبل أن يأتي إليّ."

عام ١٩٥٣ أصبحت مساعداً لمدير المبيعات في منطقة فيلادلفيا. وفي ١٩٥٦ قررت شركة فورد التركيز على ضمان السلامة في صناعة السيارات بدلا من التركيز على السّرعة وقوة المحرك.

إلا أن الحملة الاعلامية التي تبعت هذا القرار أخفقت في الترويج للسيارات المصنوعة على أساسه وتدنت نسبة البيع على نحو واضح وعرفت منطقتنا أدنى نسبة في البلد كله، فقررت أن أتيح للزبون فرصة الحصول على سيارة فورد جديدة من صنع عام ١٩٥٦ في مقابل أن يدفع عشرين في المئة من ثمنها على أن يدفع ٥٦ دولاراً شهرياً في السنوات الثلاث التالية. وكان تقسيط ثمن السيارة على هذا النحو في متناول كل شخص تقريباً فأملت في أن يحقق هذا العرض في منطقتنا زيادة في المبيعات ودعوت فكرتي "٥٦ في مقابل ٥٦."

في ذلك الوقت باتت فكرة التمويل لشراء سيارات جديدة أكثر انتشاراً وراجت سيارات فورد في منطقتي رواجاً كبيراً. وفي خلال ثلاثة أشهر فقط غدت نسبة المبيع في منطقتي أعلى منها في أي منطقة أخرى. وفي ديربورن (ولاية ميشغان) ابدى روبرت س. ماكنمارا (الذي كان نائباً لرئيس شركة فورد بالوكالة وأصبح وزيراً للدفاع في عهد الرئيس جون كينيدي) اعجابه بالخطة التي اعتمدتها وجعلها جزءاً من استراتيجية التسويق القومية في الشركة. وتبين له في ما بعد أنها كانت صاحبة الفضل في بيع ٧٥ ألف سيارة إضافية.

وهكذا حققت النجاح ما بين غمضة عين والتفاتتها بعدما أنفقت عشر سنين في الاستعداد لهذه اللحظة. وفجأة شاع ذكري في الشركة وباتوا يتحدثون عني في المراكز القومية. ولم ألبث أن أصبحت مدير منطقة واشنطن العاصمة.

ولم يمض وقت طويل حتى تزوجت ماري ماك كليري التي كانت موظفة لاستقبال الزبائن في مركز تجميع سيارات فورد في شستر. وكان مضى على لقائنا الأول ثماني سنوات كنا نتلاقى في أثنائها بين فترة وأخرى. غير أن سفري المستمر جعل علاقتنا تطول قبل الزواج. وأخيراً تم زواجنا في ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٦.

وقد امضيت أنا وماري أشهراً عدة

ونحن نبحث عن منزل في واشنطن. إلا أننا لم نكد نشتري واحداً حتى اتصل بي شارلي بيشام وقال لي: "سوف تنقل من مكانك هذا." فقد بات شارلي الرئيس المسؤول عن بيع السيارات والشاحنات في شركة فورد ونقلني الى ديربورن كي أكون مديره المحلي لتسويق الشاحنات. وفي خلال عام أصبحت رئيس قسم تسويق السيارات، وفي شهر مارس (آذار) ١٩٦٠ بت أشغل كلا الوظيفتين.

والحق ان رئيسي الجديد روبرت ماكنمارا كان رجل أعمال ناجحاً لكن زوجته كانت أقرب إلى عقلية المستهلك. فهو كان من دعاة الفكرة القائلة بأن السيارة النافعة التي تلبي حاجات الناس الضرورية هي خير السيارات. ولم يكن يرى أي جدوى في صنع معظم السيارات الفخمة ذات الاشكال المتنوعة. غير أنه كان يوافق على صنع هذه السيارات لأنها تزيد في أرباح الشركة. وعلى رغم ان ماكنمارا كان ذا رأي مستقل فقد استمر يعمل وفاقاً لنظام الشركة لكونه مديراً فذاً وذا قيمة كبيرة جداً في هذه الشركة.

ومع أن الرجل كان يتطلع إلى رئاسة فورد فهو لم يكن يتوقع أن يصل اليها. وقد قال لي مرة: "لن أصل إلى هناك لأني لا اتفق اتفاقاً تاماً مع هنري." واتضح أن توقعه لم يصحّ، إلا أنني أظن أنه لم يكن مخطئاً في المدى البعيد. فقد كان روبرت رجلا قوياً يناضل بشدة في سبيل ما يؤمن به. أما هنري فورد الثاني فكان ذا عادة قبيحة هي التخلص من الرؤساء الأقوياء. وفي التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٠ بات ماكنمارا رئيساً للشركة وعينت أنا في منصبه أي نائباً ومديراً عاماً.

في ١٩٥٩ ظهرت سيارة "الفالكون" التي كان ماكنمارا يدعو الى صنعها. وكانت هذه السيارة الأمريكية الصغيرة الاولى. وهي في الوقت نفسه لم تكن غالية الثمن. وقد راجت هذه السيارة رواجاً عظيماً فبيع منها في السنة الاولى التي تلت ظهورها ٤١٧ ألفاً. وبدا واضحاً أن هذا الانجاز لم يسبق له مثيل في تاريخ صناعة السيارات.

ولكن على رغم هذا الرواج فان "الفالكون" لم تحقق الأرباح التي كنا ننشدها. فكونها سيارة اقتصادية صغيرة جعل هامش أرباحها محدوداً. وإلى ذلك فإنه لم نُصنع منها نماذج كثيرة مختلفة تمكن الشاري من الاختيار بينها وتزيد مدخولنا بمقدار كبير. من هنا عمدت، بعد تعييني في منصبي الجديد، إلى تطوير أفكاري القائلة بضرورة صنع سيارة تكون في آن مرغوبة وتحقق لنا الأرباح الطائلة.

## "ياكوكا صنع هذه السيارة"

كانت السنوات التي أنفقتها وأنا مدير عامّ لشركة فورد أسعد سني حياتي. ففي عام ١٩٦١ كان التفاؤل يشع في الولايات المتحدة كلها. وبعث وجود كينيدي في البيت الأبيض نفحة جديدة راحت تهب على البلد برمته. ولا شك في أن كلمة "الشباب" تختصر هذا الواقع الجديد.

في تلك الفترة جمعت حولي فريقاً من الشباب اللامعين المبدعين وبتنا نتلاقى أسبوعياً في ديربورن في فندق "فيرلين

إن" الذي يبعد بضعة كيلومترات عن مكان عملنا كي نتناول العشاء ونتبادل الحديث. وكنا نجتمع في الفندق لأن كثيرين من موظفي الشركة الاداريين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن نمنى بإخفاق ذريع. فقد كنت نائباً للرئيس ليس له أي رصيد في إنتاج السيارات. ولم تكن هناك أي سيارة يشير اليها الناس ويقولون: "ياكوكا صنع تلك السيارة."

وتبين من الابحاث التي أجريناها على السوق أن الصورة الفتية التي تميزت بها الحقبة الجديدة كانت لها جذور راسخة في الواقع السكاني. فقد كان هناك ملايين من المراهقين الذين باتوا مستعدين لاستهلاك السلع التي يُدفع بها إلى الأسواق المحلية. وبدا واضحاً أن السوق كانت تبحث عن سيارة مناسبة.

ولا ريب في أن السيارة التي يمكن أن يعجب بها هؤلاء الزبائن الشباب ينبغي أن تتحقق فيها خصائص ثلاث هي: جمال الشكل والسرعة ورخص الثمن. ومن نافل القول ان تصميم سيارة كهذه ليس بالأمر السهل. ولكن إذا نحن تمكنا من صنعها فستتاح لنا الفرصة كي نصيب نجاحاً عظيماً.

في السبعة الاشهر الاولى من العام ١٩٦٢ أنتجت الشركة ما لا يقل عن ١٨ نموذجاً من الصلصال للسيارة المرجوّة. وكان عدد من هذه النماذج ذا شكل مثير إلا أن أياً منها لم يفِ بالغرض المطلوب.

وراح الوقت يمضي من دون أن نصل إلى مبتغانا فقررت إجراء مباراة بين المعنيين بهذا الشأن. وكان الفوز من نصيب ديف آش مساعد جو أوروس رئيس محترَف فورد. وعندما أنهى جو نصف العمل دعاني الى القاء نظرة على ما أنجزه. ولم أكد أرى النموذج حتى أدهشني. فعلى رغم أنه كان مجرد شكل مصنوع من الصلصال فقد خيّل إليّ أنه يتحرك. وحين رأى جو وديف سيارتهما أشبه بالحيوانات السنورية أطلقا عليها اسم "كوجر" (أي الأسد الأمريكي).

وكثيراً ما يكون اختيار اسم ملائم للسيارة أمراً بالغ الصعوبة. ومما يذكر في هذا الشأن أن جون كونلي الذي كان موظفاً في وكالة إعلانات ج. والتر تومبسون التابعة لنا، كان متخصصاً في تسمية السيارات وهو الذي تولى في الماضي تسمية سيارتَي "الثندربيرد" و"الفالكون" بعدما أنفق وقتاً في دراسة أسماء الطيور. وقد أرسلناه هذه المرة إلى مكتبة ديترويت العامة كي يبحث عن أسماء الحيوانات فجاء يحمل ألوف الأسماء التي استقرّ رأينا أخيراً على ستة منها. ولم نلبث أن اخترنا من بينها اسم "موستنغ" الذي يطلق في الوقت نفسه على ضرب من الخيل البرية وعلى لون من الطائرات المقاتلة في الحرب العالمية الثانية. والواقع أننا أحببنا جميعاً هذا الاسم "الذي ينطوي على الإثارة الماثلة في طبقات الفضاء المشرعة والذي هو جزء حيوي من التراث."

وفي ٩ مارس (آذار) ١٩٦٤، أي بعد مضي ٥٧١ يوماً على اختيار النموذج الذي أنجزه أوروس وآش، انطلقت سيارة "موستنغ" الاولى من المركز الذي تجمع فيه أجزاء السيارات. وقد تمكنا من انتاج

ما لا يقل عن ٨١٦٠ سيارة من هذا النوع قبل ١٧ نيسان وهو اليوم الذي عرضت فيه السيارة في الأسواق. وبات في وسع جميع تجار فورد أن يعرضوها في صالاتهم.

وفي السابع عشر من نيسان احتشد الناس أمام تلك الصالات. وفي شيكاغو اضطر أحد التجار إلى إغلاق صالته لأن عدد الناس في الخارج كان كبيراً جداً. وفي غارلاند (ولاية تكساس) كان على أحد التجار الاختيار بين خمسة عشر من الزبائن أراد كل منهم الحصول على "الموستنغ" الوحيدة القائمة في صالة العرض فعمد إلى إجراء مزاد علني وباع السيارة لمن دفع الثمن الأغلى. وكان الذي اشتراها رجلا أصر على تمضية ليلته في السيارة بحيث لا يشتريها أحد سواه في انتظار مصادقة المصرف على شيكه المدفوع. وفي سيتل (ولاية واشنطن) أخذ سائق إحدى شاحنات الاسمنت بمشهد "الموستنغ" المعروضة فبات عاجزاً عن التحكم بشاحنته ولم تلبث الشاحنة أن جنحت إلى صالة العرض.

وكنت أصبو إلى أن يكون رواج "الموستنغ" في السنة الاولى أكثر من رواج "الفالكون". وفي وقت متقدم من مساء ١٦ ابريل (نيسان) ١٩٦٥ اشترى شاب من كاليفورنيا سيارة "موستنغ" حمراء ذات غطاء قابل للطي فبلغ عدد السيارات المبيعة في السنة الاولى ٤١٨٨١٢ سيارة وسجلنا بذلك رقماً قياسياً جديداً.

ولم يكن هذا مفاجئاً بالنسبة إليّ إذ قرأت مرة ملصقاً على نافذة أحد الأفران جاء فيه: "إن شطائرنا الساخنة تضاهي في رواجها سيارات الموستنغ."

## الزمن السعيد

عام ١٩٦٨ بتّ على قاب قوسين أو أدنى من رئاسة شركة فورد غير أن مشيئة القدر حالت دون فوزي بهذا المنصب.

والواقع أنه كان في شركة جنرال موتورز آنذاك نائب للرئيس يدعى سيمون كنودسن ويلقب "بنكي" ويحتل مكانة مرموقة جداً في الشركة. وعلى رغم هذه المكانة اختارت شركة جنرال موتورز اد كول رئيساً مقبلا لها ففهم بنكي أن حياته المهنية توقفت عند هذا الحد.

وكانت شركة فورد تدأب على مراقبة شركة جنرال موتورز عن كثب، وكان هنري خصوصاً من أبرز مراقبيها والمعجبين بها فرأى أن ما حدث هو هبة من السماء لأن في حوزة بنكي معلومات قيمة جداً عن النظام القائم في شركة جنرال موتورز. وقد ذكّرني فورد بأن كنودسن يكبرني باثنتي عشرة سنة وطلب مني أن أتحلى بالصبر. والحق أني لم أكن واثقاً من قدرتي على الصبر إذ كنت آنذاك أسعى لاهثاً إلى بلوغ القمة. وكان مجيء بنكي صدمة لي كبيرة على رغم تطمينات هنري وتأكيداته. فقد كنت أبغي الرئاسة أياً تكن الظروف ولم أكن أوافق هنري في أنه بقي عليّ أن أتعلم الكثير قبل بلوغها. وظللت أسابيع عدة أفكر جدياً في الاستقالة لكني قررت في النهاية البقاء لدى فورد. فقد كنت اهوى العمل المتعلق بالسيارات وأحب شركة فورد نفسها، ولم أتخيل أني سأنتقل الى أي مكان آخر.

ولم يكد كنودسن يصل الى الشركة حتى شرع في إدخال تعديلات على "الموستنغ" بحيث تغدو أثقل وزناً وأكبر حجماً. كذلك أخذ على عاتقه اعادة تصميم سيارة "الثندربيرد" بحيث تصبح شبيهة بسيارة "البونتياك". إلا أن عمله هذا كان كارثة تامة.

وكم كنت أود القول إن بنكي طرد من الشركة لأنه هدم "الموستنغ" أو لأن افكاره كان خاطئة كلها. غير أن السبب الحقيقي في طرده لم يكن يمتّ بصلة إلى هذا كله. فهو طرد لأنه كان يدخل مكتب هنري من دون أن يقرع الباب.

وفي هذا يقول اد اوليري أحد معاوني هنري: "عندما كان الباب يفتح وينظر هنري إلى بنكي ماثلا أمامه كان يجن."

لقد كان هنري شخصاً لا يحتمل أن يكون أحد صنواً له. ويبدو أن بنكي لم يستوعب قطّ هذا الأمر. فقد كان يحاول أن يقيم مع هنري علاقة حميمة، لكن ذلك كان خطأ كبيراً إذ لم يكن مباحاً في شركة فورد أن يتجاوز أي شخص حداً معيناً في اقترابه من هنري.

في السنة التالية حصلت أخيراً على ما كنت ابتغيه وبتّ رئيساً لشركة فورد في العاشر من شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٠. ولم يكد الخبر يبلغني حتى اتصلت بزوجتي ماري ثم بوالدي في ألنتاون كي أنقل اليهما الخبر السار. ولست أشكّ في أن والدي عرف في حياته الطويلة المفعمة بالنشاط أوقاتاً كثيرة سعيدة غير أني على يقين أن تلك اللحظة كانت من أكثرها إسعادا له.

ولئن يكن هنري فورد هو الملك المتوج فقد كنت أنا ولي العهد. وليس من شك في أن الملك كان يحبني. وذات مرة تناول هو وزوجته العشاء في بيتنا والتقيا والديَّ. وامضى هنري نصف سهرته وهو يخبرهما عن عظمتي ويروي لهما أن وجود شركة فورد للسيارات وقف على بقائي فيها. وفي مناسبة أخرى اصطحبني للقاء صديقه القريب ليندون جونسون (أحد رؤساء الولايات المتحدة السابقين). فقد كان هنري يرى حقاً أني في حمايته وكان يعاملني على هذا الأساس.

## العكَر في النعيم

مما لا شك فيه أن تلك الأيام كانت حافلة بالسعادة. فجميع الذين يشغلون مناصب إدارية بارزة في "البيت الزجاجي"، وهو الاسم الذي كان يطلق على المركز الرئيسي للشركة، كانوا يعيشون في نعيم. فقد كنا جزءاً من طبقة عليا وكان في وسعنا الحصول على ما نشتهيه. وعلى رغم أنه كان في امكاننا أن نطلب الطعام الى مكاتبنا في جميع فترات النهار فقد كنا نتناول الغداء في غرفة الطعام الخاصة بكبار الموظفين.

ولم تكن هذه الغرفة "كافتيريا" عادية بل كانت تضاهي أفضل مطاعم البلد. فكان السمك يصل إلينا من بريطانيا يومياً وكنا نتمتع بمذاق أطيب الفاكهة في جميع فصول السنة. وإلى ذلك كنا نحصل على ألذ أنواع الشوكولا وعلى الأزهار الغريبة النادرة.

لم أكن أعرف هنري فورد معرفة وثيقة قبل أن أصبح رئيساً للشركة. أما الآن فقد

بات مكتبي إلى يمين مكتبه في البيت الزجاجي وكلما ازدادت معرفتي به ازداد قلقي على مستقبل الشركة ومستقبلي الشخصي.

كان هنري ذا سلطة مطلقة. وحين كان يدخل مبنى الشركة كانت الأصوات تردد قائلة: "لقد وصل... لقد وصل." أما كبار الموظفين فكانوا يتباطأون في مشيتهم عند دخوله لعلهم يلتقونه وهو في طريقه الى مكتبه. وإذا اتفق ان حالفهم الحظ في ذلك فلم يكن غريباً أن ينتبه اليهم فورد ويرد لهم التحية.

وعندما كان هنري يدخل لحضور اجتماع ما كان الجو يتغير على نحو مفاجىء إذ كان مصيرنا جميعاً بين يديه. فقد كان في وسعه أن يقول فجأة: "اقطعوا رأسه،" وكثيراً ما كان يفعل هذا. فمن المألوف في شركة فورد أن يطرد موظف ناجح من دون أن يعطى فرصة كافية للدفاع عن نفسه.

والواقع ان هنري كان يولي الامور السطحية اهتماماً كبيراً. وكان إلى ذلك مولعاً بالمظاهر. فلا غرو أن يحوز موظف ما إعجابه لمجرد كونه يرتدي الثياب اللائقة مثلا. أما إذا غاب هذا المظهر الخادع فلا مجال أبداً لذلك الاعجاب.

وقد طلب هنري مني مرة أن أطرد أحد المديرين لأنه كان يظنه لوطياً. فقلت له: "لا تكن سخيفاً. فالرجل صديق لي حميم وهو متزوج ولديه طفل. وسألتقيه لتناول العشاء." فكرر هنري طلبه قائلا: "اطرده فهو لوطي." فأجبته: "عمّ تتحدث أيها الرئيس؟" فقال: "انظر اليه. فسرواله ضيق جداً."

واللافت ان هذا الاستعمال الجائر للسلطة لم يكن مجرد خلل في شخصية هنري لأن هذا الرجل كان "يؤمن" حقاً بما يفعله.

ولم يمض عليّ وقت طويل في رئاسة الشركة حتى أخبرني هنري عن فلسفته في الادارة فقال: "إذا استخدمت شخصاً ما فلا تدعه يفرط في الشعور بالارتياح ولا تبالغ في تقريبه اليك وادأب على فعل ما ليس يتوقعه. فعليك أن تبقي موظفيك في قلق واضطراب دائمين."

والحق أن ١٩٧٤ شكل نقطة تحول في نظرتي إلى هنري. ففي ذلك العام عُقد اجتماع حضره كبار الموظفين ونوقشت فيه مسألة تكافؤ الفرص. وطلب من كل دائرة في الشركة أن تقدم تقريراً عن التقدم الذي أحرزته في مجال توظيف السود وترقيتهم. وبعدما أصغى هنري إلى التقارير بدا عليه الغضب وقال لنا: "إنكم لا تولون هذه المسألة سوى اهتمام كلامي كاذب."

ومن ثم ألح في دعوتنا إلى إيلاء السود مزيداً من اهتمامنا وقال إن مكافآتنا السنوية قد تربط قريباً بالتقدم الذي نحرزه في هذا النطاق.

وكانت الملاحظات التي أبداها في الاجتماع مؤثّرة إلى حد جعل الدموع تنهمر من عينيّ فقلت في نفسي: لعله مصيب في ما يقول وقد يكون في وسعنا أن نفعل المزيد في هذا الشأن. وإذا كان هذا هو شعور الرئيس فأظن أن علينا بذل جهد أكبر لتحقيق ما يصبو اليه.

وعندما انتهى الاجتماع ذهبنا إلى غرفة الطعام لتناول الغداء وجلست إلى

جنبه كعادتي. ولم نكد نجلس حتى راح يسهب في ذمّ السود قائلا: "إنهم يدأبون على المرور بسياراتهم من أمام منزلي وأنا أكرههم وأخافهم وأظن أني سأرحل الى سويسرا حيث لا وجود لهم."

ولا ريب في أنه لن يكون في وسعي نسيان تلك اللحظات. فقد جعلني الرجل أذرف الدمع ثم شرع بعد ساعة يشن على السود هجومه العنيف. وقد تعلمت في ألنتاون أن التعصب أمر سيىء جداً. وأذكر ان زملائي في المدرسة لم يحاولوا قط نفي هذه الصفة عن أنفسهم. أما هنري فكان يجمع بين التعصب والنفاق. وكان الايطاليون الوحيدين الذين نجوا من شتائم هنري حتى عام ١٩٧٥، إلا أنه تمكن في ما بعد من تعويض ما فاته في هذا الشأن.

كذلك كان هنري يحاول ان يكون متميزاً عن سواه وأن ينسج في عاداته على منوال الاوروبيين.

## مطاردة الساحرات

عام ١٩٧٥ شرع هنري فورد في تنفيذ خطة تقضي بتحطيمي تدريجاً. وفي العام نفسه أخذ يحس آلاماً في صدره وظهرت عليه أمارات التعب وبدأ يدرك أن نهايته قد دنت.

وبات هنري شبيهاً بالحيوان. ويخيل إليّ أن أول ما خطر له هو: "ماذا يحلّ بأعمال العائلة اذا أصبت بنوبة قلبية وقضيت نحبي؟ إنني لا أريد أن يتولى هذه الأعمال متطفل إيطالي."

ألقى هنري قنبلته الاولى حين كنت خارج البلاد في جولة في الشرق الاوسط دامت بضعة أسابيع. وعندما رجعت إلى الولايات المتحدة علمت انه دعا فجأة كبار الموظفين الى اجتماع خاص بعدما أقلقه وضع منظمة "اوبيك." وكان هنري على اقتناع راسخ بأن هناك انهياراً اقتصادياً كبيراً لا مفرّ منه فأمر باقتطاع ملياري دولار من الموازنة الخاصة ببرامج الانتاج المقبلة أي أنه ألغى كثيراً من المنتجات التي تمكننا من منافسة الشركات الأخرى وتتضمن على سبيل المثال السيارات الصغيرة وتلك التي تعتمد في إقلاعها العجلتين الاماميتين.

وقد جن جنوني بعد اتخاذه هذا القرار لأن شركتَي جنرال موتورز وكرايزلر كانتا تعملان بجدّ محموم لصنع نماذج جديدة من السيارات الصغيرة. غير أن صاحب شركة فورد كان دفن رأسه في الرمال وتجاهل هذه الحقيقة.

في تلك الفترة كانت لديّ سكرتيرة رائعة تدعى بتي مارتن. ولولا نظام الشركة الذي يستبعد المرأة من المناصب العالية لكانت بتي أصبحت نائبة للرئيس إذ كانت خيراً من معظم الموظفين الذين كانوا يساعدونني في العمل.

وكانت بتي دائماً على علم بما يحدث في الشركة من أمور فأتت إليّ يوماً وقالت: "لقد علمت الآن أن الاتصالات الهاتفية التي تجريها على حساب الشركة تسجّل وترسل إلى مكتب السيد فورد."

وقالت لي بعد بضعة أسابيع: "كثيراً ما أجد الأغراض التي على طاولتك مبعثرة فأحاول أحياناً أن أرتبها لك قبل ذهابي إلى المنزل. وأنا أذكر دائماً اين أضع هذه

الاغراض، الا اني أجد مواضعها قد تغيرت صباح اليوم التالي. وهذا الأمر يتكرر كثيراً وأظن أنّ عليك أن تعلم به. ولست أرى أن السيدات اللواتي يتولين تنظيف المكتب يفعلن شيئاً مماثلا."

بعد ذلك أخذت الأمور تبدو أكثر غرابة. فقد عمد هنري إلى إجراء تحقيق شامل عن أعمالي وحياتي الشخصية متستراً بأنه يريد التدقيق في نفقات كبار الموظفين التي تدفعها الشركة. واستدعت عملية "التدقيق" هذه إجراء ٥٥ مقابلة مع كبار موظفي الشركة ومع كثيرين من وكلائنا وعدد كبير من وكالات إعلاننا.

بدأت الحملة بالتركيز على اجتماع لوكلاء فورد عُقد في لاس فيغاس (ولاية نيفادا) وتولى الاشراف على نفقاته وندل كولمان رئيس مكتب مبيعاتنا في سان دييغو (ولاية كاليفورنيا). وقد استدعي كولمان للاستجواب فغضب غضباً شديداً وأرسل إليّ تقريراً شاملا عن الأمر.

وفي ٣ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٥ استدعي كولمان الى "مركز فورد للعالم" حيث أجرى معه "مقابلة" موظفان في الدائرة المالية. وبدأت "المقابلة" بذكر حقوقه ثم تناول الحديث عدداً من مآدب العشاء التي أقيمت للوكلاء في لاس فيغاس. وسئل كولمان هل كانت هناك نساء في إحدى الحفلات التي اقيمت لكبار الموظفين في أحد المطاعم الفخمة وسئل بالتحديد إذا كانت في صحبتي أنا امرأة ما. ومن ثم سألاه لماذا أعطى النادل قطعة نقدية قيّمة وهل شاهد بعض الموظفين الكبار يقامرون وهل زوّدهم المال لهذا الغرض. وعندما اعترض كولمان على هذه الأسئلة طُلب منه ان يجيب فوراً عن السؤال الآتي: "هل اتفق ان أعطيت ياكوكا مالا يقامر به؟" فقال: "لا."

وأخبرني كولمان أن الأمر بدا أشبه "بمطاردة الساحرات إذ كانوا يبحثون عن أمر يدينونك به كالقمار أو النساء أو أي شأن آخر."

غير أن ذلك التحقيق أخفق في إلحاق أي أذى بي أو بأصدقائي على رغم ما بذلت فيه من جهود خارقة.

ولا ريب في أن أثر هذا كله في الادارة العليا كان كبيراً جداً إذ بتنا نسدل الستائر ونتكلم همساً كلما خطر لنا الكلام، وسرى في الموظفين خوف عظيم من أن تصدر عليهم أحكام بالاعدام.

## المكاشفة

بعد إخفاق التحقيق في بلوغ هدفه حاول هنري الوصول إلى غايته بوسيلة أخرى. وسرت في الشركة اشاعات تقول ان لديه لائحة بأصدقاء ياكوكا وانه عازم على طردهم. ولم يطل الوقت لأعرف أن في الأمر ما يتعدى الاشاعات.

ولم يلبث هنري ان اتصل يوماً بالسيد ليو - أرثر كلمنسن رئيس وكالة إعلان كنيون واكهرت، وهي الوكالة التي تتولى حسابات لنكولن - مركوري، وقال له مزمجراً: "يا ليو عليك ان تطرد بل ون." ولم يكن لقراره ذاك أي سبب ظاهر.

والصحيح أن بل ون كان واحداً من أقرب أصدقائي فلم أفهم آنذاك لماذا عمد هنري الى طرده. ولا يمكن أن يكون وقع

بين الرجلين أي نزاع إذ لم يكن بينهما لقاء قطّ. وإلى ذلك فقد كان بل يؤدي ما نطلبه منه على نحو رائع.

غير أني علمت في ما بعد ان قرار هنري الاعتباطي بطرد بل لم يكن سوى هجوم أخرق وغير مباشر على لي ياكوكا.

ثم أتى دور هال سبرلش الذي كان احدى شخصيات ديترويت الاسطورية والذي كان الناس يقولون "إن عروقه مليئة بالبنزين." وعندما طلب مني هنري أن أطرده قلت له: "لا شك في انك تمزح، فهو أفضل موظف لدينا." فقال هنري: "اطرده الآن."

لقد كان الوقت عصراً وكان علي أن أذهب من فوري إلى نيويورك فسألت هنري إذا كان يمكننا الانتظار الى ما بعد رجوعي فأجاب: "إذا لم تطرده الآن فسأطردكما معاً." وعرفت أنني عاجز عن ان اثنيه عن عزمه لكني حاولت مع ذلك اللجوء الى المنطق في مخاطبته فقلت له: "لقد صنع سبرلش سيارة "الموستنغ" وحقق لنا أرباحاً تقدّر بملايين الدولارات." فكان رده: "إنني لا أحبه وليس لك أن تسأل عن السبب، فهذا مجرد إحساس لديّ."

لقد بدأ هنري منذ ذلك الحين يقطع لحمي فيجعلني أفقد كل يوم جزءاً من جسدي. وكثيراً ما سألت نفسي لماذا لم أعمد الى تقديم استقالتي. الحق أنه كان لذلك سببان، الأول أني أنفقت كهولتي كلها في شركة فورد ولم أكن أود أن أعمل في أي مكان آخر. ولم أكن أتوقع أن يقوم بيني وبين فورد نزاع حاسم، غير أني كنت على استعداد لخوض المعركة إذا لم يُجْدِ في تحاشيها دواء. وكنت أعلم جيداً أن لوجودي في الشركة قيمة كبيرة. وحدتني سذاجتي على الظن أن أفضلنا سيكون هو الفائز لأن شركتنا كانت شركة مساهمة.

والسبب الثاني في إحجامي عن الاستقالة هو أنني كنت جشعاً أيضاً. فقد أغرتني سعة العيش ووجدت من المستحيل أن أرضى التخلي عن مدخول سنوي يبلغ ٩٧٠ ألف دولار. وأنا الآن على يقين أن الجشع هو شرّ الآثام المميتة.

أخيراً اتصل بي كايث كرين ناشر صحيفة "اوتوموتيف نيوز" الاسبوعية التي تقتصر موضوعاتها على صناعة السيارات وقال لي: "قل لي إن الخبر غير صحيح."

لقد كان ما يعنيه واضحاً. وفي وقت لاحق دعتني سكرتيرة هنري إلى دخول مكتبه حيث مكثت ٤٥ دقيقة. ولم يعطني خلال هذه المدة أي سبب للقرار الذي اتخذه وقال لي: "إنه أمر شخصي وليس لديّ ما أضيفه."

وشرعت في سرد إنجازاتي في شركة فورد للسيارات منبهاً إياه الى أن طردي يضر بمصلحته. ثم ذكّرته بان السنتين اللتين لم يمض على انصرامهما سوى زمن قليل كانتا خير سنتين في تاريخنا. وأردته أن يعلم بدقة حقيقة ما يفعله. وعندما أنهيت كلامي قلت له: "انظر إليّ." والحق انه كان عاجزاً حتى تلك اللحظة عن أن ينظر إليّ. وأخذ صوتي يرتفع بعدما عرفت أن حديثنا هذا سيكون الأخير فقلت له: "إن توقيت طردي هو عمل منافٍ للأخلاق. لقد بلغت

أرباحنا هذه السنة ملياراً وثمانمئة مليون دولار وبلغت في السنتين المنصرمتين ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار. ولكن تذكر كلماتي هذه يا هنري. فقد لا يكون في وسعك تحقيق أرباح مماثلة في المستقبل. وهل تعلم لماذا؟ لأنك في المقام الأول لا تعرف كيف حققنا هذه الأرباح!"

## عثرات خفية

عندما رجعت الى البيت بعد الظهر اتصلت بي ابنتي ليا التي كانت في ملعب لكرة المضرب. فقد سمعت خبر طردي في الاذاعة وأجهشت في البكاء. وحين تعود بي الذاكرة الى ذلك الاسبوع المروّع فان أول ما أتذكره على نحو واضح هو ليا التي كانت تذرف الدمع وهي تكالمني.

وإذا قدّر لي الرجوع إلى الماضي فهل يسعني أن أحمي أسرتي على نحو أفضل؟ والواقع أن ما حدث ترك في الأسرة أثراً سيئاً جداً إذ أصيبت زوجتي ماري بنوبتها القلبية الاولى بعد طردي بأقلّ من ثلاثة أشهر وراحت حالها تزداد سوءاً.

ولم يمض على طردي قليل من الوقت حتى تناقلت الصحف الصادرة في ديترويت خبراً ورد على لسان "ناطق باسم عائلة فورد" يذهب إلى أني طردت لأنه كانت تعوزني الكياسة ولأني كنت عجولا ولأن هناك بوناً شاسعاً بين سليل مهاجر إيطالي مولود في ألنتاون (ولاية بنسيلفانيا) والطبقة العليا."

بعدما طردت من شركة فورد سرت في المدينة اشاعات تقول إني قد أتولى رئاسة شركة كرايزلر. فأنا لم أكن مربوطاً بأي عمل، وشركة كرايزلر كانت تواجه صعوبات جمّة، فهل يعقل ألاّ يقيم الناس صلة بين الأمرين؟ والواقع أني تلقيت عدداً من العروض للعمل في شركات لا علاقة لها بصناعة السيارات فلم يكن في وسعي أن أفكر في قبولها على نحو جدّيّ لأن حب السيارات كان سارياً في عروقي.

أخيراً اتصل بي جون ريكاردو رئيس مجلس إدارة شركة كرايزلر وقال لي: "إننا نفكر في إجراء تغيير في الشركة لأن رياحنا تجري بما لا تشتهيه السفن." وبدا كلامه شديد الوضوح إذ كان يحاول ان يعرض عليّ وظيفة من دون أن يذكر هذا على نحو صريح. واتضح لي أنه يود معرفة رأيي في الأمر فسألته على نحو مباشر: "ما الذي تريد أن تقوله حقاً؟" فأجاب: "إني أعرض عليك وظيفة فهل تروقك العودة إلى ميدان صناعة السيارات؟" فقلت له إنّ لديّ أسئلة عن وضع شركة كرايزلر قبل أن نخوض في تفصيلات أخرى.

في اللقاءين التاليين رسم ريكاردو صورة قاتمة لوضع الشركة. إلا أني رأيت أنه يمكن تغيير هذه الصورة في خلال سنة. ولست أظن أن جون أو سواه من موظفي كرايزلر كانوا يحاولون خداعي. وتبين لي أن الشركة كانت تعاني مشكلات كثيرة من أبرزها أن موظفيها، وحتى كبارهم، لم يكونوا يعلمون جيداً ما كان يحصل في الشركة. فقد كانوا على علم بأن كرايزلر تنزف إلا أنهم لم يتنبهوا إلى خطورة ذلك النزف.

كان ذلك في فصل الخريف وبدا الأمر بالنسبة إليّ ضربا من التحدي الكبير. وبعدما فرغت من تلك الاجتماعات وعدت الى المنزل بحثت المسألة مع ماري فقالت: "إنك لن تعرف السعادة إلا إذا عملت في ميدان صناعة السيارات. وأنت لا تزال أصغر من أن تتقاعد وتمضي وقتك في البيت. والى ذلك فلماذا لا نكيل الصاع صاعين لفريمك هنري ونلقنه درساً لا ينسى؟" وهكذا باتت ماري منشرحة الصدر. ولم ألبث أن بحثت الأمر مع ابنتيّ فقالتا لي: "إذا كان هذا يسرّك فحاول أن تفعله."

في ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٨ أبرزت صحيفة "الصحافة الحرة" في صفحتها الاولى عنوانين اثنين.أولهما ان "شركة كرايزلر لم تعرف مثيلا لخسائرها الحالية" وثانيهما ان "لي ياكوكا التحق بشركة كـرايزلـر". وفي اليوم الاول لمباشرتي عملي الجديد أعلنت شركة كرايزلر ان خسارتها بين شهري يوليو (تموز) وسبتمبر (أيلول) بلغت نحو ١٦٠ مليون دولار، وهذه خسارة لم يسبق لها نظير في تاريخ الشركة. فقلت في نفسي: "حسناً، فعندما يبلغ وضع الشركة هذا الحدّ من السوء فهذا يعني أنه لا محالة صائر إلى التحسن."

غير أن توقعي خاب سريعاً إذ كانت كرايزلر عام ١٩٧٨ أشبه بدولة إيطاليا في ستينات القرن التاسع عشر. والواقع ان الشركة كانت عبارة عن طائفة من الامارات الصغيرة يحكم كلا منها امير ذو سلطة مطلقة. فهي كانت تضم ٣١ نائباً للرئيس لكل منهم منطقة نفوذ خاصة به.

ولم يكن هناك لجان بالمعنى الصحيح كما لم يكن هنـاك نظام يقضي بعقد اجتماعات محددة للموظفين. ولم يسعني أن أصدق أنّ المسؤول عن قسم الهندسة لم يكن على اتصال مستمر بزميله في دائرة الانتاج. والمعروف أن على العاملين في قسمي الهندسة والانتاج الا يتفارقا في أثناء العمل.

والحق أنه كان عليّ إنجاز الكثير في وقت ضيق جداً. وكان من بين ما ينبغي عمله إلغاء الإمارات الصغيرة الإحدى والثلاثين وتحقيق لون من الانسجام والوحدة في الشركة والتخلص من موظفين كثيرين لا يحسنون تأدية وظائفهم وابـدالهم بـآخـرين يملكـون الخبـرة ويستطيعون التحرك على نحو سريع. كذلك كانت الحاجة ملحة إلى إنشاء نظام للمراقبة المالية.

وعمـدت الى اختيـار فـريق من الموظفين لمعاونتي وبتّ واثقاً أن شفاء كرايزلر لم يعد مستعصياً. غير أنه لم يكن في حسباني آنذاك التدهور الاقتصادي وتغيّر الحال السياسية في إيران.

ولم يمض على وجودي في الشركة ثلاثة أشهر حتى اضطر شاه إيران إلى مغادرة عاصمته في ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩. وكانت أسعار النفط تضاعفت تقريباً قبل ذلك بوقت طويل. وفيما كان مصانعنا التي تنتج السيارات الكبيرة تعمل أوقاتاً إضافية كان على أرصفة الموانىء الامريكية نحو سبعمئة ألف سيارة يابانية صغيرة. على أن تلك السيارات الصغيرة بيعت كلها قبل نهاية شهر نيسان لأن الامريكيين كانوا يبتغون

التوفير في استهلاك البنزين. وقبل أن نتعافى من هذه الضربة طرأ تراجع واضح على الاقتصاد الامريكي كاد يقضي علينا قضاء مبرماً. فقد تدنت النسبة السنوية في مبيع السيارات الامريكية على نحو مروّع. والمعلوم أنه ليس في العالم صناعة يمكنها الاستمرار عندما تغدو الدعوة الى مضاعفة الاستثمار من الخصائص البارزة في الحياة الاقتصادية في حال يتدنى المدخول الى نصف ما كان. وبتنا نرى أن نجاحنا في إنقاذ الشركة هو ضرب من المستحيل. والحق أن ذلك كله لم يكن في الحسبان.

وتبين لنا منذ بداية صيف عام ١٩٧٩ أن إنقاذ كرايزلر بات يحتاج الى إجراءات خارجة عن المألوف. لذلك فإننا لم نألُ جهداً في عصر نفقاتنا. إلا أن الوهن الاقتصادي كان آخذاً في الازدياد ونحت خسائرنا نحواً مماثلا ولم يعد في مقدورنا الاستمرار من دون مساعدة.

ولست أغالي إذا قلت إن طلب المساعدة من حكومة الولايات المتحدة هو آخر ما يمكن أن يمرّ بخاطري. غير أني عندما عقدت العزم على هذا الأمر قررت أن أنفذه من دون أي تردد.

لقد كنت أرفض دائماً أن تضع الحكومة أي قيد على المبادرة الفردية وأقول بضرورة بقاء الأنسب. وعندما كنت رئيساً لشركة فورد أنفقت في واشنطن وقتاً يكاد يوازي الوقت الذي أنفقته في ديربورن. وكنت أذهب إلى العاصمة لسبب واحد فقط هو محاولة إقناع الحكومة بأن تكفّ عن مضايقتنا. وحين رجعت إلى واشنطن رئيساً لشركة كرايزلر كي أطلب مساعدة الحكومة قال لي الجميع: "كيف يمكنك طلب هذه المساعدة؟ وكيف تجرؤ على ذلك؟" فأجبتهم: "وهل لديّ أي خيار آخر؟ إنه ليس في الامكان أبدع مما كان."

لم يخامرني أي شك في أني أدّيت واجبي على النحو الملائم. ولم ألبث ان علمت أنّ الحصول على قرض بكفالة حكومية ليس بدعة في أمريكا. فقد حصل على مثل هذا القرض شركات تعهدات كهربائية وعدد من صغار رجال الأعمال وطلاب جامعات وشركات طيران.

## طور الكفاح

الواقع أن مجموع القروض والكفالات الحكومية كان بلغ ٤٠٩ مليارات دولار عندما طلبنا اقتراض مبلغ مليار دولار. إلا أن المسؤولين الذين عرضنا عليهم هذا الأمر كانوا جميعاً يجهلون هذه الحقيقة فقالوا إن منح شركة كرايزلر كفالة مالية يشكل سابقة خطرة.

وكان عليّ أن أؤكد لهؤلاء أن كرايزلر ليست فريدة في هذا المقام. فنحن كنا نشكل جزءاً طفيفاً من الخطل الذي كان قائماً في أمريكا ولوناً من الاختبار يمكن إجراؤه على الآخرين. والمعروف أن الأذى الذي أصاب صناعة السيارات في العالم لم يكن يضاهيه أي أذى آخر في المجال الصناعي. وكانت القوانين الحكومية وأزمة الطاقة والتدهور الاقتصادي تكاد تكون كافية لتدميرنا.

والحق أنّ ما قلته لم يكن موافقاً لما كان الناس يريدون سماعه. وكان متوقعاً أن يكون رجال الأعمال أكثر هؤلاء تذمراً. فمعظمهم رأوا أن مساعدة حكومة

الولايات المتحدة شركة كرايزلر تشكل انتهاكاً للحرمات وبدعة في النظام الامريكي. وراحوا ينفضون الغبار عن مفهوماتهم القديمة المبتذلة ويقولون: إن تصفية أعمال شركة ما وإغلاقها عندما تدعو الحاجة إلى ذلك هما دليلان على أن العافية لا تزال تدب في السوق التجارية. ومن أقوالهم في هذا الشأن أيضاً ان تقديم الحكومة ضمانات مالية هو انتهاك لجوهر المبادرة الفردية الحرة وجزاء حسن للإخفاق. وهو الى ذلك يوهن روح النظام السائدة في السوق التجارية. كذلك فإن المجتمع الخالي من ركوب المخاطر هو مجتمع خال من الثواب.

ولا ريب في أن النظام الرأسمالي الذي يشجع على المبادرة الفردية الحرة هو خير نظام عرفه العالم. ولكن أين تكمن قوة هذا النظام؟ إنها تكمن في قدرته على التكيف مع الحقائق المتغيرة وليس في بقائه جامداً وغارقاً في الماضي. والصحيح هو أن معنى المبادرة الفردية الحرة بات الآن مختلفاً عما كان في السابق.

إن النظام الاقتصادي القائم على تشجيع المبادرة الفردية الحرة تكيّف مثلا مع الثورة الصناعية. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تكيّف مع الحركة العمالية. وقد عمد ارباب العمل وكبار المديرين في الشركات إلى محاربة تلك الحركة، إلا أنهم كانوا هم المسؤولين الحقيقيين عن قيامها إذ أفرطوا في استغلال العمال من الرجال والأولاد وارتكبوا مظالم كثيرة لم يكن بدّ من التكفير عنها.

وكان رجال الأعمال في تلك الحقبة على اقتناع تام بأن نشأة النقابات العمالية الجديدة ستؤدي الى نهاية المبادرة الفردية الحرة ورأوا أن أمريكا باتت على شفير الاشتراكية. غير أنهم أخطأوا في تقديرهم وتمكنت المبادرة الفردية الحرة من التكيف مع الحركة العمالية.

ومن الواضح أن ركيزة المبادرة الفردية هي مبدأ المنافسة. وليس في تقديم الحكومة ضمانات مالية إخلال بهذا المبدأ بل إن فيه تشجيعاً عليه. فاستمرار شركة كرايزلر مثلا في العمل يضمن تحقيق منافسة بينها وبين شركتي جنرال موتورز وفورد.

كذلك فإن إنقاذ كرايزلر يضمن المحافظة على عدد كبير جداً من الوظائف يبلغ نحو ستمئة ألف.

وكان بعض الناس يرون أن في وسع عمالنا الانضمام إلى شركتي فورد وجنرال موتورز إذا توقفت شركتنا عن الانتاج. غير أن هذا لم يكن مطابقاً للواقع. فإذا صحّ أن هاتين الشركتين كانتا قادرتين على بيع ما تنتجانه من السيارات الصغيرة فهذا لا يعني أنه كان في مقدورهما استيعاب مزيد من العمال. لذلك كان معظم موظفينا سيعانون البطالة في حال توقفنا عن العمل.

والحق ان الاستيراد وحده هو الذي كان يمكن أن يلبي إقبال أمريكا المفاجىء والملحّ على السيارات الصغيرة. وهذا يعني أن توقف كرايزلر عن العمل كان سيؤدي الى زيادة الاستيراد وإلى تصدير الوظائف.

لذلك كان لموضوعَي المنافسة

والتوظيف نصيب في جدلنا، لكننا أولينا الناحية الاقتصادية اهتمامنا الأكبر. فقد جاء في تقديرات الخزينة أن انهيار شركة كرايزلر سيكلف البلاد في السنة الاولى وحدها مليارين وسبعمئة وخمسين مليون دولار يدفعها صندوقا البطالة والضمان الاجتماعي. فقلت لأعضاء الكونغرس: "عليكم الاختيار بين أن تدفعوا هذا المبلغ الآن او أن تضمنوا لشركة كرايزلر قروضاً بنصف هذا المبلغ، وهي قروض هناك امل كبير في استرجاعها في ما بعد. فهل تؤثرون أن تدفعوا الآن أم تؤثرون أن تدفعوا في وقت لاحق؟"

وكان شائعاً آنذاك ان كرايزلر هي شركة كبيرة تنتظمها وحدة تامة، لذلك فهي لا تستحق المساعدة. فعمدنا إلى شرح حقيقة الأمر وقلنا إن الشركة في الواقع لا تعدو كونها خليطاً من الناس يضم ١٩ ألف موزّع و٤٤٠٠ وكيل. إلا أن هؤلاء هم من صغار رجال الأعمال وليسوا من الصناعيين الأثرياء.

ومن الراجح أن أعضاء الكونغرس لم يكونوا يوافقون على مساعدتنا. غير أنهم سرعان ما غيروا موقفهم بعدما عملنا على تزويدهم معلومات مفصلة عن الانهيار الذي يصيب ولاياتهم في كل ما له علاقة بأعمال كرايزلر وموظفيها. وبات علينا الان أن نكافح كي نبقى قادرين على الاستمرار بعد موافقة الكونغرس على ضمان القروض المطلوبة.

بدأت بخفض راتبي إلى دولار واحد سنوياً ثم عمدت إلى خفض رواتب كبار الموظفين بنسبة بلغت أحياناً عشرة في المئة، وهذا أمر لم يسبق له مثيل في ميدان صناعة السيارات. كذلك عمدنا إلى خفض رواتب الموظفين الآخرين واستثنينا ذوي الرواتب الزهيدة والسكرتيرات.

ومن ثم توجهت إلى العمال وصارحتهم قائلا: "أيها الشباب، أنا الآن مكره على إخباركم أنّ في وسعي تأمين ألوف الوظائف لكم على أن يكون أجركم ١٧ دولاراً في الساعة ولا يسعني تأمين أي وظيفة لكم بعشرين دولاراً في الساعة."

وبعد سنة بات وضع الشركة أشد سوءاً فكان عليّ أن أعود ثانية إلى هؤلاء العمال وأطلب منهم تنازلات جديدة تقضي بخفض أجورهم ١،١٥ دولار في الساعة. وفي خلال سنة ونصف سنة بلغ هذا الخفض دولارين في الساعة. وفي مدة ١٩ شهراً بلغ متوسط ما تخلى عنه العامل الواحد عشرة آلاف دولار.

## النهج القديم

الواقع ان ما تعلمته في الثلاث السنوات التي امضيتها في شركة كرايزلر فاق ما تعلمته في السنوات الاثنتين والثلاثين التي أنفقتها لدى فورد. واكتشفت ان لدى الناس استعداداً لقبول الضيم إذا شاركهم الآخرون في تلقيه. وهذا ما أدعوه المساواة في التضحية وبه تمكنت كرايزلر من التغلب على مشكلاتها. فالذي أنقذنا لم يكن القروض التي حصلنا عليها، على رغم حاجتنا الملحة اليها، بل كان تخلي العاملين في الشركة عن مئات الملايين من الدولارات.

كان هذا خير مثال على التعاون والديموقراطية. ومن الجلي أني لا أتحدث

في هذا المقام عن عبرة مستقاة من الكتب بل أتحدث عن واقع الحياة. فقد خضنا التجربة بنجاح تام وأتت نتائجها مدهشة.

لقد كان الأمل بصنع "سيارة ك" هو النور الذي ظل يضيء النفق المظلم في أحلك أيامنا. وهذه هي السيارة التي ثابر هال سبرلسش على صنعها منذ التحاقه بشركة كرايزلر عام ١٩٧٧ بعدما طرد من شركة فورد. والواقع أن "سيارة ك" كانت من وجوه كثيرة السيارة التي كنا أنا وهال نود أن نصنعها لو لم يكن هنري فورد شديد المعارضة لصنع السيارات الصغيرة.

والمعروف أن "سيارة ك" كانت دائماً مريحة، تشتمل على اربع اسطوانات وتقلع بواسطة عجلتيها الأماميتين. وهي يمكنها ان تقطع بليتر واحد من البنزين ١١ كيلومتراً داخل المدن و١٧ كيلومتراً خارجها. ويكمن نجاح سبرلش الكبير في ان هذه السيارة قوية، ثابتة وصلبة. والى ذلك فهي ليست قبيحة الشكل كبعض السيارات الصغيرة الأخرى المعروضة في الأسواق.

وقد أعلنا في حملتنا الدعائية أن "سيارة ك" هي بديل أمريكي من السيارات الاجنبية الصغيرة. وعمدنا إلى كتابة عدد كبير من الملصقات الدعائية بالأحمر والأزرق والأبيض (وهي الالوان التي يتألف منها العلم الامريكي) كي يكون لها أثر عميق في نفوس الامريكيين. كذلك أشرنا إلى أن "سيارة ك" تتسع "لستة أمريكيين." وكان هذا ضربة خفيفة لمنافسينا اليابانيين.

وعندما توقف دخان المعركة عام ١٩٨٢ بدأ وضع شركتنا يتحسن. وفيما راح الاقتصاد الامريكي يستردّ عافيته كانت مبيعاتنا آخذة في الازدياد. وفي نهاية السنة حققنا قليلا من الأرباح. وفي السنة التالية بلغت الأرباح حداً لم يسبق له مثيل في تاريخ كرايزلر.

لقد مضى وقت طويل على نيلنا الضمانات الحكومية. واذكر أننا حين كنا نحاول إقناع الكونغرس بالموافقة عليها قطعنا على نفوسنا عهوداً كثيرة من بينها جعل مصانعنا أكثر حداثة واللجوء الى أحدث الوسائل التقنية لتطويرها. كذلك وعدنا الكونغرس باخضاع جميع سياراتنا "لتكنولوجيا العجلات الأمامية" وبالتفوق على سوانا في مجال التوفير في استهلاك البنزين وبإبقاء نصف مليون موظف في أعمالهم وبصنع منتجات رائعة.

وفي خلال ثلاث سنوات وفينا بجميع وعودنا وفاء حسناً ورددنا ثلث قروضنا. وبعد بضعة أسابيع اتخذنا قراراً خطيراً بردّ الثلثين الباقيين على نحو فوري أي قبل استحقاق المبلغ بسبع سنوات على رغم اعتراض عدد من موظفي كرايزلر على ذلك القرار. فالذي يتخلى عن مبلغ طائل من المال على غير اضطرار ينبغي أن يكون واثقاً من النجاح في السنوات التالية.

إلا أني كنت آنذاك على ثقة بمستقبلنا إضافة إلى أني كنت أود التخلص من تدخل الحكومة في شؤوننا في أقرب وقت ممكن.

وفي ١٣ يوليو (تموز) ١٩٨٣ أعلنت

سدّ القرض في نادي الصحافة الوطني بواشنطن. ومن غريب الاتفاق أن هذا التاريخ كان هو نفسه تاريخ طردي من شركة فورد قبل خمس سنوات.

ومما قلته في هذا الصدد: "هذا هو اليوم الذي يجعل سنوات البؤس الثلاث الماضية خليقة بما حملته. فنحن في شركة كرايزلر نقترض المال على النحو القديم أي أننا نرده إلى أصحابه في ما بعد." ثم أضفت وقد بدت عليّ أمارات السرور: إن للمسؤولين في واشنطن معرفة واسعة بالقروض التي تسفح، لكن إرجاع تلك القروض هو أمر يبعث الدهشة في نفوسهم. لذلك ربما كان ينبغي أن يكون بيننا الآن كبير المستشارين الطبيين في الولايات المتحدة كي يهبّ إلى إسعاف من يغمى عليه عندما يرانا نعيد مالنا المقترض."

لقد بتنا الآن في منأى عن الخطر وبات علينا أن نفكر ثانية في إدخال المتعة الى نفوسنا. والواقع ان ديترويت كانت توقفت منذ عشر سنين عن صنع سيارات ذات سقف من القماش فوجدت نفسي أحنّ حقاً إلى هذا اللون من السيارات.

وفي ١٩٨٢ طلبت، على سبيل التجربة، أن تصنع لي سيارة ذات سقف من القماش من طراز "كرايزلر لو بارون"، فكنت أقودها أثناء الصيف وأنا أشعر بزهو كبير. وكثيراً ما كان سائقو سيارات "المرسيدس" و"الكاديلاك" يتبعونني ويسألونني: "ما هذه السيارة التي تقودها؟ ومن صنعها؟ وكيف يمكننا الحصول على نظير لها؟" فقد كانوا جميعاً يريدون معرفة ذلك.

وعندما رجعت إلى المكتب اتخذنا قراراً بتجاوز الدراسات التي كنا نجريها في هذا الشأن والشروع في صنع تلك السيارة. وكان موقفنا هو الآتي: "إننا لن نحقق أي ربح من صنعها لكنها ستكون خير دعاية للشركة. وإذا حالفنا الحظ فاننا لن نمنى بأي خسارة."

على أنه لم يكد يشيع اننا نعمل على صنع سيارة "لوبارون" ذات غطاء من القماش حتى بدأ الناس في جميع أنحاء البلاد يدفعون العرابين للحصول عليها قبل أن تعمد شركتا فورد وجنرال موتورز إلى صنع مثيل لها. وهكذا باتت سيارة "كرايزلر" الصغيرة القديمة رائدة بين السيارات.

وعام ١٩٨٤ أنزلنا إلى الأسواق سيارة جديدة تجمع بين المنفعة والمتعة هي سيارة "المينيفان" إذ كان الناس يتطلعون إلى سيارة أضخم من السيارة الكبيرة العادية وأصغر من الشاحنة.

والواقع ان فكرة صنع هذه السيارة ولدت في شركة فورد. فبعد أزمة "اوبيك" الاولى عام ١٩٧٣ عمدت أنا وسبرلش إلى وضع مشروع "الميني ماكس" وانفقنا خمسمئة الف دولار على الدراسات الضرورية المتصلة به. وفي أثناء ذلك تعلمنا أموراً ثلاثة. الاول هو أن العتبة التي يستعان بها لركوب هذه السيارة يجب أن تكون منخفضة بحيث تروق النساء اللواتي كن في الغالب يرتدين "التنورة" آنذاك. والثاني هو الا يزيد علوها على حدّ معين كي تتمكن من الدخول الى المرأب. والثالث هو أن يكون بين محركها ومقدّمها مسافة كافية تحول

دون إعطاب المحرك عند اصطدامها بسيارة أخرى.

وكانت الدراسات تشير إلى أن أخذَنا هذه الامور في الاعتبار يعني ان في الامكان بيع ثمانمئة ألف سيارة من هذا الطراز سنوياً. وكان هذا في عام ١٩٧٤.

وتوجهت من فوري للقاء هنري الذي رفض إجراء التجربة. وهكذا تأخر صنع "المينيفان" الى عام ١٩٨٤ بعدما كان يمكن أن يتمّ عام ١٩٧٨.

## تحسس القيم

إلا ان نجاحنا كان له في الوقت نفسه جانب مظلم. فعندما عرضنا انتصاراتنا أخيراً كان غاب عنا كثيرون من جنودنا. لقد ربحنا الحرب حقاً، غير ان إصاباتنا كانت بالغة إذ خسرنا عدداً كبيراً من العمال والموظفين الاداريين والوكلاء الذين كانوا معنا عام ١٩٧٩ وفارقونا قبل أن يقطفوا ثمرات الانتصار.

على أن السبب الرئيسي الذي جعل سروري بالنصر الذي حققته شركة كرايزلر مشوباً بالألم هو الحزن العميق الذي اعترى حياتي الخاصة. فقد كانت زوجتي ماري أقرب الناس إليّ وخير حافز لي وأحسن مسدّد لخطاي إبان عملي في شركتي فورد وكرايزلر.

غير أن ماري كانت تشكو داء السكري الذي يؤدي الى تعقيدات أخرى كثيرة. مثال ذلك أن ولادة كل من ابنتينا كانت على النحو القيصري. كذلك اضطرت ماري إلى الإجهاض مرات ثلاثاً. وأهم من هذا كله أنّ على المصاب بداء السكري تحاشي الإجهاد. الا ان النهج الذي اخترته جعل تحقيق ذلك أمراً متعذراً. وقد أصيبت ماري بنوبتها القلبية الاولى عام ١٩٧٨ في أثر طردي من شركة فورد. والحق أنه كان مضى عليها فترة أحست في أثنائها ببعض الآلام، لكن ذلك الحدث زاد حالها سوءاً.

وفي شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ أصيبت بنوبة قلبية ثانية. وبعد نحو سنتين أي في ربيع عام ١٩٨٢ أصيبت بجلطة دماغية. وكان يعقب كلا من هذه الإصابات فترة ضغط شديد في كرايزلر.

ولم يكن جسم ماري يقاوم داء السكري مقاومة فاعلة. فالبنكرياس لم يكن يعمل الا على نحو جزئي. والواقع انها كانت تلتزم نظام حمية خاصاً، الا انها كانت تحقن نفسها بالانسولين مرتين يومياً. والمعلوم ان استعمال الانسولين كثيراً ما يولّد اضطرابات جسدية تحصل عادة في منتصف الليل وتستدعي أحياناً نقل المريض الى المستشفى.

وكثيراً ما كنت اضطر الى السفر فأتصل بها هاتفياً مرتين أو ثلاثاً يومياً. وبت قادراً على معرفة درجة الانسولين عندها من خلال نبرتها. وحين كنت اضطر إلى الغياب عن المنزل في الليل لم أكن أتركها وحدها خشية ان تصاب بصدمة أو أن تدخل في غيبوبة.

وفي ربيع عام ١٩٨٣ اشتد المرض على ماري وتوقف قلبها المتعب عن الخفقان ففارقت الحياة في الخامس عشر من مايو (أيار) وهي في الثالثة والخمسين. وكانت لا تزال جميلة جداً.

وفي الملمات كانت ماري تؤدي ما عليها وهي في أحسن حال. وإذا اتفق ان

تحدثتَ الآن إلى بعض أصدقائنا عن ماري فسيقولون لك: "إن أبرز ما نذكره عنها هو صلابتها في أوقات الشدة."

وكانت ماري تولي الابحاث المتعلقة بداء السكري اهتماماً كبيراً وتتطوع لتجرى عليها بعض التجارب المتصلة بهذا الداء. وكانت تواجه وضعها بشجاعة فائقة وتترقّب انتهاء أجلها برباطة جأش. وكثيراً ما كانت تقول لي: "أتظن أن حالي سيئة؟ كان عليك إذاً أن تشاهد الناس الذين كانوا معي في المستشفى."

وكانت تقول بضرورة تزويد الناس معلومات عن داء السكري. وقد انشأنا معاً "منحة ماري ياكوكا للبحث العلمي" في مركز جوسلين لأمراض السكري في بوسطن (ولاية ماساشوستس). ووهبت الكثير مما أجنيه للأبحاث المتعلقة بداء السكري. وتقول ماري إن مرض السكري يأتي في المرتبة الثالثة بين الأمراض المميتة في حين يحتل مرضا القلب والسرطان المرتبتين الأوليين. غير أن كلمة "السكري" يندر ظهورها على شهادات الوفاة فيظن الناس أن داء السكري لا ينطوي على خطر كبير. وبعد وفاتها عمدت إلى التأكد من أن شهادة وفاتها تنمّ عن الحقيقة. وقد جاء في تلك الشهادة ما يأتي: مضاعفات ناجمة عن داء السكري.

والحق أننا أنفقنا معاً أوقاتاً كثيرة طيبة لكن ماري لم تجد لذة قطّ في الحياة الاجتماعية. وكانت الحياة العائلية هي مبتغانا. إلا أن هذا لم يحل دون تأديتها واجباتها الاجتماعية الضرورية وهي تبتسم. والصحيح أننا لم نكن نؤثر على المنزل أي مكان آخر.

وقبل وفاتها بأسبوعين اتصلت بي مساء الى تورنتو لتقول لي إنها جد فخورة بي. وكان ذلك في أثر إعلاننا عن أرباح الربع الأولّ من ١٩٨٣. أما أنا فلم أخبرها قطّ في تلك السنوات الأخيرة الصعبة كم كنت فخوراً "بها."

لقد أعطتني ماري القدرة على الاستمرار ومنحت ابنتينا كاثي وليا كل ما لديها. ولئن يكن صحيحا

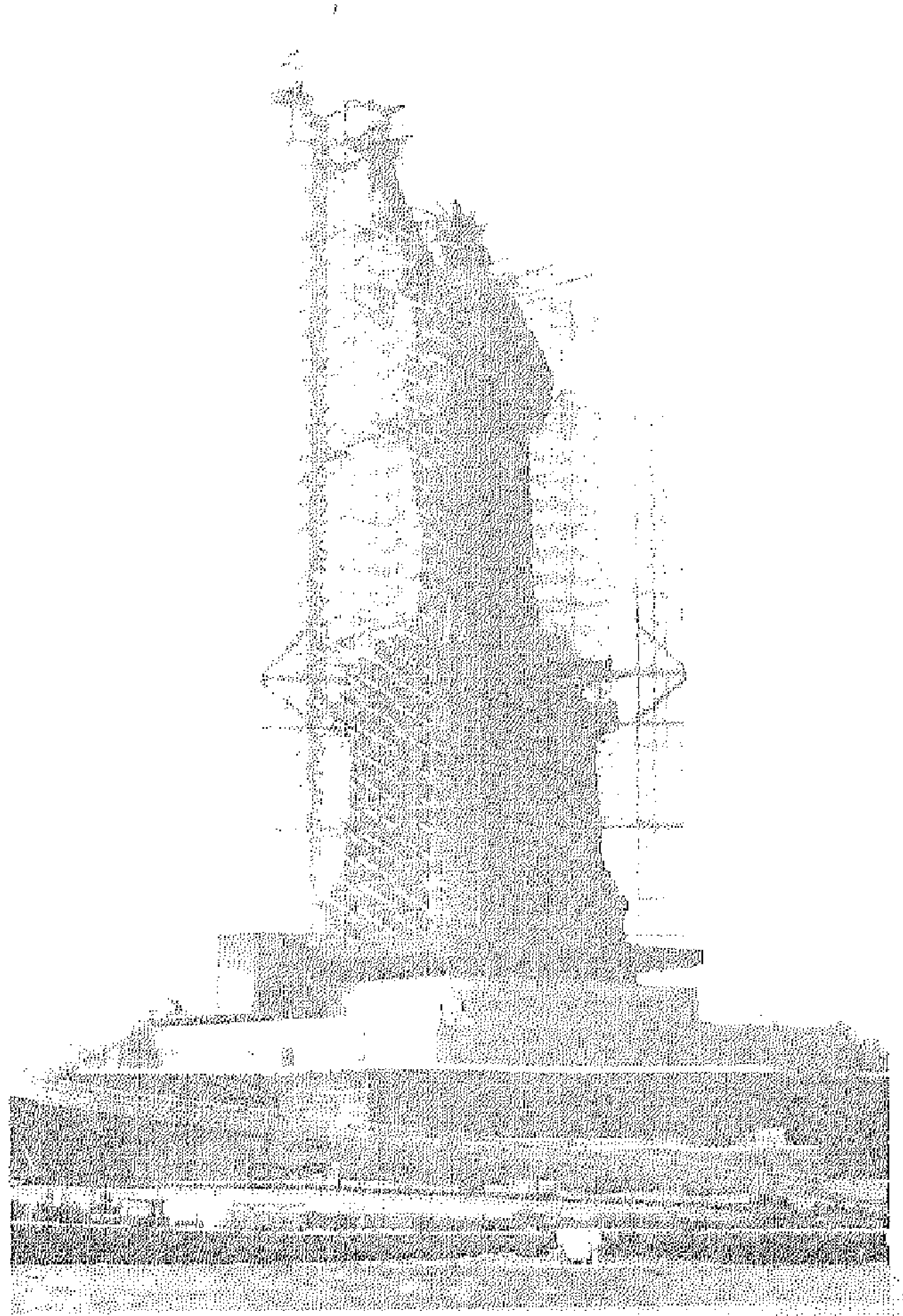


Photo: Fred R. Tannary

أن حياتي المهنية كانت ولا تزال رائعة مكللة بالنجاح فالصحيح أيضاً أن أسرتي تبقى همي الأول.

## افعل شيئاً ما

عندما طلب مني الرئيس رونالد ريغان أن أرئس الجمعية المئوية لتمثال الحرية في اليس ايلاند كنت شديد الانهماك في عملي في شركة كرايزلر لكني لم أرفض طلبه. فبادر الناس إلى سؤالي: "لماذا قبلت تحمل هذه المسؤولية؟ أليس لديك ما يكفيك من العمل؟"

غير أن قبولي ذلك العمل الجديد كان إعراباً عن حبي لأمي وأبي اللذين كانا يحدثانني عن اليس ايلاند. وكان والداي من المهاجرين البسطاء الذين يجهلون اللغة الانكليزية ويجهلون ما ينبغي عمله بعد وصولهم الى أمريكا. وكانا فقيرين لا يملكان شيئاً. وكانت الجزيرة جزءاً مني بسبب الرمز الذي تمثله وليس لكونها موضعاً أؤثره على سواه. وقد اتضح لي الآن أن معظم الامريكيين الذين التقيهم لديهم الشعور نفسه.

وبدهي أن ملايين الناس الذين كانوا يمرون من أبواب اليس ايلاند أنجبوا عدداً كبيراً من الاولاد، وقد بلغ نسلهم نحو مئة مليون نسمة. وهذا يعني أن قرابة نصف عدد سكان الولايات المتحدة تمتد جذورهم إلى ذلك المكان.

ولا ريب في أن بلدي يحن الآن إلى تلك الجذور وفي أن الناس يتحرّقون للعودة إلى القيم الأساسية. وليس من شك في أن تمثال الحرية واليس ايلاند هما رمز للعمل الشاق والكرامة والكفاح في سبيل الحق.

إن تمثال الحرية لا يعدو أن يكون رمزاً جميلا لمعنى الحرية. أما اليس ايلاند فهي تجسد الحقيقة. فالحرية ليست سوى بطاقة دخول. فإذا أردت البقاء على قيد الحياة وصبوت الى النجاح فعليك ان تدفع الثمن الملائم.

وكثيراً ما أسمع الناس يقولون لي: "إنك نجاح مُدَوٍّ، فكيف تيسّر لك ذلك؟" فأجيبهم: إني أعود دائماً إلى ما علمني إياه والداي. فقد كانا يقولان لي: عليك أن تجتهد وتحصّل من العلم ما استطعت ومن ثم "افعل" شيئاً ما! فلا تكتفِ بأن تقف مكتوفاً بل كن مقداماً. إن هذا ليس بالأمر السهل. غير أن العمل المضني والمثابرة يكفلان لك في المجتمع الحرّ أن تتقدم على النحو الذي تريد. وينبغي بالطبع أن تشكر النعم التي يُحلّها الله عليك.

**لي ياكوكا ووليم نوفاك** ■



## وجبة على الحساب

الرجل لنادل المطعم: "أسرع، فالبطاقة التي تخولني تناول الطعام على الحساب ينتهي مفعولها عند منتصف الليل."

م.ب.

كتاب الشهر

# أنكليزي في الصين





# إنكليزي في الصين

ملخص من كتاب

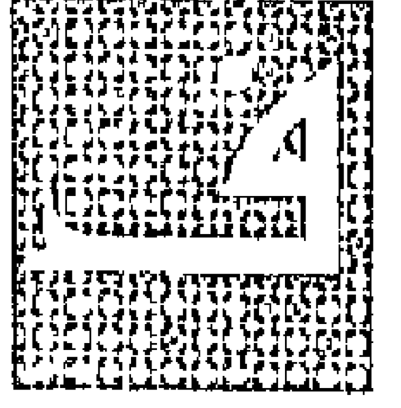
بقلم أوستن كوتس

عام ١٩٤٤ ساقت الأقدار أوستن كوتس إلى آسيا لتأدية خدمته العسكرية إبان الحرب، فاتخذ هذه القارة مكاناً يعيش فيه ولم يبرحها إلا قبل زمن قريب.

وبقي أوستن في هونغ كونغ سبع سنوات عيّن في أثنائها مساعداً لأمين سر المستعمرة وقاضياً أعلى ثم أصبح مسؤولا عن الشؤون الصينية وأمين سر لحاكم مقاطعة سراواك.

ولا ريب في أن علاقة كوتس بالصين الازلية كما تتجلى في ريف هونغ كونغ هي قصة حب طويلة الأمد تجمع بين القبول والرفض والثقة والشك واللهو والغضب وتقرن الصلة الوثيقة بالاحترام المتبادل. واليكم هذه القصة

Condensed from «Myself a Mandarin,» © 1968 by Austin Coates
and published by Heinemann Publishers Asia Ltd., Hong Kong, Singapore and Kuala Lumpur



فُتح الباب ودخل السيد لوه، وهو موظف صيني ممتلىء الجسم طيب القلب يتسم بـالـوعي والحـذر ويتـولى الترجمة بيني وبين زائريّ الذين لا يتكلمون الا الصينية. وكانت مضت عليه عشرون سنة وهو يعمل في مقاطعة هونغ كونغ الريفية حيث عُيِّنت حديثاً محافظاً وقاضياً أعلى (١).

ولم يلبث لوه أن بادرني: "هل يسعك الاستماع إلى إحدى القضايا؟" فأجبته: "طبعاً يا سيد لوه." فأشار بالدخول إلى ثلاثة رجال وامرأتين من الفلاحين يلبسون جميعاً ثياباً سوداء. فجلس هؤلاء في مكان مقابل لي وقد أطبق عليهم صمت مقيت فقلت للسيد لوه: "حسناً، ما الخطب؟"

فأجاب الفلاح الذي يجلس في الوسط من دون أن ينظر إليّ، علىٰ غرار ما يفعل الفلاحون الصينيون عندما يواجهـون أجنبياً غريباً: "القضية تتعلق بهذه البقرة التي تأكل العشب في قريتنا."

فسألته من خلال السيد لوه: "وما الضرر في ذلك؟"

فقال: "إنها لا تأكل العشب اينما اتفق، بل تدأب على أكله في قريتنا."

وأضاف الرجل الثاني الذي بدا واضحاً أنه كبير القوم في القرية: "إنها تمرّ من أمام بابي يومياً."

فسألته مستطلعاً: "هل تعني أنها بقرة من قرية أخرى؟"

فتنفس الفلاح الصعداء لكوني أدركت المسألة. ولم ألبث أن سألته: "من أي قرية تأتي هذه البقرة؟"

فأخبرني السيد لوه أنها تأتي من قرية بعيدة تفصل بينها وبين قرية اولئك الفلاحين مسافة كيلومتر تقريباً. فسألت الرجل: "ومن يأتي بها إلى قريتكم في الصباح؟"

– لا أحد.

وأخذت أمارات الغضب تظهر علي وعلى السيد لوه فقلت: "إذاً كيف تأتي هذه البقرة إلى هناك؟"

فردّد الرجل بصوت مرتبك: "إلى هناك؟"

قلت: "نعم. كيف تأتي من قريتها إلى قريتك؟"

– إنها لا تأتي.

فقال له السيد لوه بصوت أقرب الى الصراخ: "لكنك ذكرت قبل قليل أنها تأتي! "

- لا، ليس يومياً.

قلت: "أصغ إليّ جيداً. هناك احتمالان، الاول أن هذه البقرة تأتي من القرية الأخرى يومياً وتأكل عشبك والثاني أنها لا تأتي. فإذا كانت تأتي من القرية الأخرى فلا بدّ من أن يأتي بها شخص ما."

– لا، لا أحد يأتي بها.

ولم تلبث علامات الغضب أن ظهرت على القـروي. فسألتـه: "من يحلب البقرة؟" وكرر السيد لوه سؤالي غاضباً قبل أن يثوب إلى رشده. واعترت الفلاحين الخمسة رعشة استياء لسؤالي الذي أتى في غير موضعه، فالبقر في الصين تقتنى لجر الاثقال وليس للحليب الذي تدره، ومعظم الصينيين لم يكونوا

(١) District Officer and Special Magistrate

يشربون حليب البقر. فسألته وقد بدا عليّ الذهول التام: "كيف ترجع البقرة إلى حظيرتها ليلا؟"

- إنها لا ترجع.

"حسناً. وأين تنام البقرة إذاً؟ هل تنام في الجبل؟"

- لا، بل تنام في قريتنا.

أسندت ظهري الى مقعدي وأخرجت سيجاراً وهمست للسيد لوه: "هل يليق بالقاضي أن يدخن وهو يصغي إلى الدعاوى؟"

فأجاب: "إن معظم الموظفين المسؤولين في المقاطعة يجدون في ذلك عوناً لهم يا سيدي."

قلت: "حسناً." وارتفع في الغرفة ضباب من الدخان الأزرق فتابعت: "والآن، من هو الذي يبدي تذمره من هذا كله؟"

فرد الرجل: "صاحب البقرة."

تشبثت بطاولتي وسألت: "ومن هو صاحب البقرة؟"

فأجاب الرجل بفظاظة: "هي،" وأشار الى المرأة الجالسة الى يمينه. فبادرتها: "لقد أحرزنا تقدماً، هل أنت صاحبة البقرة؟"

- نعم يا حضرة القاضي.

"هل أنت من القرية الأخرى؟"

- نعم يا حضرة القاضي.

"وهل تريدين أن تستعيدي بقرتك؟"

- نعم.

"كي تستخدميها في حقولك أنت؟"

- ليس لدي حقول يا حضرة القاضي.

"إذاً لماذا تريدين استرجاع بقرتك؟"

تجهم وجهها الصغير وقالت: "إنني أريد استرجاعها."

فاقترحت عليها الآتي: "أنت لا تملكين حقولا، فلماذا لا تسمحين لهذا الرجل باستخدام بقرتك على أن يدفع لك أجراً معيناً في المقابل؟"

فصاح الرجل بحدة: "لن أدفع لها شيئاً." وبدا من لهجته أنه يكتم أمراً ما.

وعنّت للقاضي الذي استعاد هدوءه فكرة بارعة: "يا سيد لوه، إن بين هذين الشخصين علاقة ما، فهل يمكنك معرفتها؟" وألقى المترجم سؤالا سريعاً أعقبه صمت مطبق ثم لم يلبث الرجل أن نطق كلمة واحدة. واتضح أن المتخاصمين زوجان. فقلت للزوجة: "آه! إنك تريدين العودة الى قريتك وتودين أن تأخذي بقرتك معك. أليس الأمر كذلك؟"

وتبين أن هذا هو الواقع وأن القضية هي قضية طلاق.

## ■ أعزل في هونغ كونغ ■

كان ذلك عام ١٩٥٢ وكنت في التاسعة والعشرين. وقبل ثلاث سنوات عُيّنت في لندن موظفاً مدنياً لدى حكومة هونغ كونغ، وأبلغت في الوقت نفسه أنني سأحتاج إلى سيف في وظيفتي الجديدة فأزعجني هذا الأمر كثيراً. فقد شهدت الصين آنذاك انتصار جيوش ماو تسي تونغ الشيوعية على قوات تشانغ كاي شيك الوطنية. وكان هذا يعني أن هونغ كونغ ربما تعرضت للخطر خلال بضعة أشهر. وبدا واضحاً أن على الحكومة البريطانية أن تقدم إليّ وسيلة أدافع بها عن نفسي. ولكن ما جدوى السيف في مقام كهذا؟

ولم أكد أقرأ المزيد في المذكرة المطبوعة التي تلقيتها حتى عرفت أن لا

علاقة بين السيف والحرب الاهلية الصينية، فالسيف مجرد رمز ملائم للباس الانيق الابيض الذي تعلوه خوذة قوية من العهد الفيكتوري. وظهر لي لون من التشابك بين قرنين من الزمن. ففي حين احتدمت الحرب الاهلية الصينية في القرن العشرين بدت هونغ كونغ كأنها تعيش في العصر الفيكتوري.

في هذه الاثناء اكتشفت في مذكرتي المطبوعة مصدراً آخر للازعاج، اذ تعين عليّ الخضوع لامتحان في القانون قبل انتهاء السنوات التجريبية الثلاث في وظيفتي الجديدة وقبل تثبيتي في هذه الوظيفة. والحق أني لم أكن أفقه شيئاً في القانون وعرفت أن لا أمل لي في اجتياز الامتحان المطلوب. وعلى رغم ذلك أبحرت إلى هونغ كونغ وقد انتابني شعور بالصغارة والتفه ولم يكن في حوزتي أي سيف.

كان مشهد هونغ كونغ في العام ١٩٤٩ يبعث الدهشة في النفوس. فمدينة فيكتوريا الواقعة في جزيرة هونغ كونغ وشقيقتها مدينة كولون الواقعة في البر الصيني إلى جهة الميناء واجهتا اكتظاظاً سكانياً ضخماً. ففي العام ١٩٤٥ كان عدد سكان المستعمرة قبل الانتفاضة الشيوعية نحو ستمئة الف. وبعد تلك الانتفاضة تدفق عليها أكثر من مليون لاجئ. وفي نهاية العام ١٩٤٩ بلغ عدد سكانها مليوناً و٨٦٠ ألفاً. وازدادت المجمّعات السكنية والمتاجر والبيوت بسرعة مذهلة. وشيد كثير من هذه الابنية على نحو مخالف للقانون ولقواعد البناء هناك. وإلى ذلك بنيت عشرات ألوف الأكواخ المتداعية خارج المدن بسرعة مماثلة. وكان من المشاهد المألوفة آنذاك رؤية الجنود المشوهين القادمين من الصين وهم يعرجون في الشوارع أو يستجدون المارّة.

كانت الحال أقرب الى الكارثة. غير أن الأزمة بدت نعمة عليّ إذ لم يبق هناك مجال لحمل السيوف أو لاعتمار الخوذ. وفي حين أصدرت الي تعليمات بأن أجدّ في دراسة القانون في أوقات فراغي كنت أرى أمامي أكداساً من الملفات في أمانة سر المستعمرة توجب عليّ الاطلاع على محتواها.

## ■ "لي مان فو" ■

كتب لي أن أجلس إلى تلك الطاولة في أمانة السر مدة ثلاث سنوات. وفي هذه الأثناء تحولت كومة الملفات جداراً حجب عني الرؤية. ولم يبق لتثبيتي في وظيفتي الجديدة سوى وقت قليل.

ولم تلبث أن وقعت الواقعة فتلقيت أمراً بالذهاب الى مكتب النيابة العامة صباح الاثنين التالي لتقديم امتحان القانون. وكنت لا أزال أجهل مادة الامتحان جهلا تاماً، بل إني لم أكلف نفسي عناء النظر في كتب القانون التي وجبت عليّ دراستها. إلا أنه كان في هونغ كونغ قرار يسمح للموظف بالتغيب عن عمله لأسباب صحية مدة يومين من دون أن يقدم تقريراً طبياً. واتفق أني أصبت بنوبة عنيفة من التقلصات المعوية في اليوم المقرر لذهابي الى النيابة العامة. وحضرت يوم الأربعاء الى أمانة السر حيث اتصل أحد الموظفين بالنائب العام الذي

أسهب في الكلام معه. وبعد انتهاء المكالمة الهاتفية أخبرني الموظف أن الأمر يدعو الى الأسف الشديد. فهو لم يقصّر في الاعتذار عما حصل، غير أن النائب العام كان منهمكاً في العمل بحيث تعذر عليه أن يحدد لي موعداً آخر.

كان ما حدث مؤسفاً حقاً، إلا أنه لم يمكن تلافيه وبات تثبيتي أمراً واقعاً. وبعد ستة أشهر عينت محافظاً وقاضياً أعلى في المقاطعة الجنوبية من الأراضي الجديدة (٢).

والواقع أن شهرة مدينة هونغ كونغ تقوم على كونها ميناء بحيث ينسى المرء أن لها مقاطعة. غير أننا لا نكاد نبعد عن المدينة مسافة ساعة حتى نشاهد الريف الصيني أشبه بما كان قبل ألف سنة.

والمعلوم أن الصين تخلت لبريطانيا عام ١٨٤٢، والى اجل غير محدود، عن جزيرة هونغ كونغ وعن جزر صغيرة متاخمة لها، وفي العام ١٨٦٠ حصلت بريطانيا على شبه جزيرة كولون التي تبلغ مساحتها ٦،٧ كيلومترات مربعة وتتألف من تلال صخرية ناتئة من البرّ الصيني إلى ميناء هونغ كونغ. (زادت مساحة كولون منذ ذلك التاريخ من طريق طمر جزء من البحر. وبلغت ١٠،٥٦ كيلومترات مربعة فباتت مدينة متألقة من أكثر مناطق العالم السكنية كثافة.)

وفي العام ١٨٩٨ عقدت بريطانيا اتفاقاً يقضي باستثمار المنطقة الواقعة خلف كولون والتي تبلغ مساحتها ٧١٤ كيلومتراً مربعاً مدة ٩٩ سنة. وتضم هذه المنطقة أرضا جبلية وعرة مكسوّة بالأعشاب وأودية مثلّمة ونحو ٢٣٠ جزيرة بعضها صغير جداً وبعضها تبلغ مساحته ضعفي مساحة هونغ كونغ نفسها.

وقسمت هذه "الأراضي الجديدة" ثلاث مقاطعات، اثنتان منها برّيتان تقعان وراء الجبال التي تمكن مشاهدتها من ميناء هونغ كونغ. أما مقاطعتي الجنوبية فكانت تضمّ كل البر الذي يُرى من الميناء كما تضم الجزر التي يقع معظمها في جنوب هونغ كونغ وغربها.

وتبين لي أن أجزاء كثيرة من مقاطعتي أخذت بأسباب التمدن. إلا أني عرفت ما ينتظرني في وظيفتي الجديدة منذ اليوم الأول لدخولي مكتبي في كولون. فعلى رغم موقعه في قلب المدينة فإنه تميز عن المكاتب الأخرى بعدد القرويين الذين يدخلون اليه أو يخرجون منه أو يحتشدون أمامه. وعلمت منذ لحظة عبوري باب ذلك المكتب أنني لن أكون منتمياً إلى المدينة، بل الى التلال والجزر التي لم يغيرها الزمان، حتى ان لقبي الجديد "لي مان فو" بدا أشبه بالألقاب التي عرفت في العهود الامبراطورية القديمة.

ولم ألبث أن دخلت المكتب بعدما ودّعت في ذهني العالم الحديث. وكان المكتب يقع في نهاية رواق طويل. وقبل أن يصل المرء إلى مكتبي الذي هو أعلى مكاتب الرواق شأناً، عليه المرور أولا بالحمام ثم بغرفة إعداد الشاي وبمكاتب المسؤولين عن التراخيص والمراسلة والشؤون المالية وشؤون الأراضي وبغرفتي السكرتيرات والمترجمين. ولم أكد أخطو إلى المكان حتى خفتت الأصوات واتزنت

(٢) New Territories Southern District

الحركات وارتفعت العيون مترقّبة. فبعدما كنت في أمانة السر مجرد رقم بتّ هنا شخصية بارزة قدّر لها أن تباشر عملها بمواجهة قضية طلاق بين زوجين ريفيين.

## عظة على الطراز القديم

رحت أحدق إلى الفلاحين المتجهمي الوجوه الماثلين أمامي. وقررت أن الوقت حان كي يبدأ الموظفون العاملون معي باجهاد أنفسهم بدلا مني فقلت: "يا سيد لوه، أرجو أن تخرج هؤلاء القوم من هنا، وحين تنتهي من توضيح وقائع قضيتهم أرجعهم إليّ."

وبدأت معالم القضية تتضح. فالمرأة الصامتة في الجماعة كانت الزوجة الثانية. أما الزوجة الأولى فأبدت تذمرها من إهمال زوجها اياها وأظهرت رغبتها في الطلاق منه والعودة ببقرتها إلى قريتها الأصلية. وبدا لي أن من واجب القاضي الحؤول دون الطلاق. ولكن كيف يتيسر ذلك؟

عمدت الى سؤال الزوجة الاولى: "هل أنت الزوجة ذات الحظوة عند زوجك؟" والمعروف أن "الزوجة ذات الحظوة" تتقدم على أي زوجة أخرى قد يتخذها زوجها بعدها.

أجابت: "نعم." قلت: "يا سيد لوه، هل يحق للزوج أن يطلّق الزوجة ذات الحظوة؟

فأجاب: "لقد بات ذلك مقبولا في أيامنا."

وتبين لي أن محاولتي الاولى أخفقت فسألتها: "هل لديك أولاد؟"

- لديّ بنتان.

والمعلوم في القانون والتقليد الصينيين أن الصبيان يبقون مع الأب عند حصول الطلاق فيما تبقى البنات مع الأم. فسألتها: "كيف يمكنك أن تؤمّني لهما القوت؟"

- سأبذل جهدي.

"لماذا لا تفكرين في الأمر أسبوعاً ثم تعودين الي. فأنا لا أريد أن أجدك هنا بعد شهر تطلبين مالا من الانعاش الاجتماعي تستعينين به على تربية طفلتيك، لأن الحكومة ستنحي باللوم عليّ أنا."

أخذت الزوجة تنظر الى عينيّ وتتأملني للمرة الاولى، إذ لم يكن خطر لها قطّ أنها يمكن أن تسبّب لي المشاكل.

وبعد أسبوع رجع الزوجان. ورأى الموظفون أنني احتاج الى مساعدة. ولم يفت السيد لوه في هذا المقام أن يزوّدني بعض المعلومات اذ أخبرني أن للزوجة الثانية طفلا ذكراً. فأسندت ظهري الى الكرسي وقد سُرِّي عني. وهكذا ظهرت الحقيقة جلية. فالزوجة الثانية رزقت الصبي الذي يحفظ نسل العائلة. وعجبت كيف فاتني أن أسأل عن هذا الأمر. بل فكرت في ان الزوجة الاولى ربما كان لها عشيق، إذ حجبت عني تلك البقرة الرؤية الواضحة.* ولم ألبث أن قلت للسيد لوه: "أطلب من الزوجة الاولى أن تدخل وحدها."

وتوضحت لي المسألة. فتلك المرأة أحسّت أنها فقدت اعتبارها بعد ولادة ابن الزوجة الثانية. وآليت على نفسي أن أقنعها بالبقاء مع زوجها. غير أنها كانت تزداد حدة كلما أبديت مزيداً من اللين والتفهم. وكلما اقترحت عليها أمراً كانت

تشرط على زوجها شرطاً جديداً في مقابل رضاها بالبقاء معه. ومما زاد الحال سوءاً أني تسببت في إزعاج السيد لوه الذي أخذ غضبه في الازدياد. فصرخت بالمرأة وقد استشطت غضباً: "لم يعد في وسعي أن أتحمل المزيد من هذا الهراء! فلا مناص لك من البقاء مع زوجك أيتها اللعينة!"

وهدأت من فورها ولم تنبس ببنت شفة. فأحسست تأنيباً في ضميري وقلت لها: "لا تجزعي، قد يرزقك الله صبياً في المرة المقبلة."

وارتسمت على وجهها ابتسامة وهممت كأنها تقول إن هذا ليس بالأمر المستحيل. ولم يعد في وسع القاضي الأعلى أن يفعل المزيد.

قلت: "ما الذي علينا أن نفعله يا سيد لوه؟"

– قد يحسن أن توبخهما يا سيدي.

"وهل ألقي عليهما عظة من الطراز القديم؟"

– أظن أن هذا يفي بالغرض.

فأمرت بادخال الزوجين مكتبي وألقيت عليهما العظة. والحق أني لم أتكيف البتة مع هذه الطريقة الصينية في تسوية الأمور، اذ ألفيت مواعظي تلك سطحية ومحرجة. على أني علمت في ما بعد أن كثيرين من الذين يحضرهم شيوخ القرى إليّ إنما يأتون لهدف واضح هو الاصغاء إليّ ما ينبغي عمله. وبعد ذلك يسود الوئام لأن كلام القاضي هو القانون. وكل كلمة يتفوه بها القاضي هي القانون في هذا العالم الصيني القديم الذي لا تزال تخيم عليه ظلال السلالات المنقرضة.

لذلك أحجمت عن الحكم بطلاق الزوجين وقلت للزوج إن اتخاذه زوجة ثانية كان ضرباً من الحمق. فقد كان ممكناً أن ينجب صبياً من زوجته الاولى، إلا أنه كان عجولاً. وعليه الآن أن يتحمل تقريع الزوجتين معاً وأن يعدل بينهما.

وقلت للزوجة الاولى إن عليها أن تطيع زوجها دائماً وإنها أحسنت صنيعاً بعرض قضيتها عليّ وإنها ينبغي أن تأتي إليّ إذا ألمّت بها المحنة ثانية. ولم يكن هناك الكثير مما يحملها على التذمر. فهي الزوجة ذات الحظوة، وعلى الصبي الذي أنجبته الزوجة الثانية أن يناديها "يا أمي." والى ذلك فليس هناك ما يدعوها الى القلق إذ إن لها بقرتها الخاصة وهي زوجة فلاح نشط ذي مكانة حسنة في القرية.

وقلت للزوجة الثانية إنني سررت لكونها أنجبت صبياً. فهي امرأة محظوظة تزوجت رجلا طيباً. وبما أنها هي الزوجة الثانية فعليها أن تطيع الزوجة الاولى. وأضفت أن سلوكها في المحكمة جعلني واثقاً بأن هذا أمر يروقها. وأنهيت كلامي قائلا: "أرجو أن يرزقكما الله مزيداً من الذكور."

## أمر قضائي

من القوانين المتبعة في محكمة المقاطعة أن للمتقاضين حق الاختيار بين القوانين البريطانية والاعراف والعادات الصينية. ووجدت منذ البداية أن التقيد الصارم بالاعراف والعادات الصينية له ميزات ظاهرة. ومن الصعب أن نتخيل شخصاً يعمل في الشؤون القانونية من

دون أن يكون على معرفة واسعة بالقوانين البريطانية، باستثناء هذا القاضي الأعلى العجيب. ولئن يكن كُتب الكثير في القوانين البريطانية، فإن ما كتب في الاعراف والعادات الصينية لا يعدو كتباً قليلة.

وعلى رغم ذلك تمكنت من الحصول على بعض ما كتب في هذا الموضوع. ولم يمض وقت طويل حتى ترسخت خبرتي في هذا المجال وصار من عادتي أن أسرع الى مخاطبة السيد لوه كلما بدأت في معالجة قضية ما فأقول: "أظنك تؤثر أن نحكم في هذه القضية وفاقاً للاعراف والعادات الصينية، أليس كذلك؟"

وتمكنت مدة سنتين من تحاشي اللجوء الى القوانين البريطانية في جميع القضايا التي حكمت فيها. وكلما طلب أحد المدّعين أن يُحكم في قضيته وفاقاً لتلك القوانين ظناً منه أن ذلك يؤمن مصلحته، كان يكفي أن يصدر عن القاضي الأعلى تلميح بسيط كي يصر المدّعى عليه على الاحتكام إلى الاعراف والعادات الصينية. ولما كان من حق القاضي الأعلى وحده الاختيار بين الأمرين، فلم يكن ريب في أنه سيأخذ برأي المدعى عليه. وأثبتت هذه الوسيلة جدواها فترة تزيد على سنتين.

غير أني تلقيت في أثناء سنتي الثالثة في القضاء مكالمة هاتفية من محام أوروبي بارز. واتفق أن كانت بيني وبينه صداقة شخصية، فبادرني: "إن لديكم دعوى تتعلق برجل يدعى لو."

فأجبته من دون اكتراث: "هل لدينا مثل هذه الدعوى حقاً؟"

– وهو يبدي احتجاجه لأنكم أبقيتم دعواه معلقة أكثر من خمسة أشهر.

"أحقاً ما تقول؟ ما فحوى هذه الدعوى؟"

– أنه يحاول أن يطرد من أحد حقوله رجلا يزرع الارض من دون حق قانوني.

"آه، أنا على علم بتلك الدعوى. لكن مثل هذه الدعاوى مضيعة للوقت."

وبدا واضحاً أن كلامي أزعجه كثيراً فقال بتهذيب متكلف: "أعذرني، إلا أنه ليس من شأنك القول إن قضية ما هي مضيعة للوقت."

فوافقته: "هذا صحيح، لكن هذه القضية هي حقاً كذلك."

والواقع أني تعمدت تأجيل النظر في هذه الدعوى التي عرفت لها من قبل دعاوى مشابهة. فعندما غزا اليابانيون هونغ كونغ عام ١٩٤١ انتقلت عائلة لو، كسواها من العائلات الصينية الموسرة، إلى قرية الأجداد في الصين ولزمت السكون. وقبل أن تغادر هونغ كونغ التمس أحد الخدم، وهو شاب في نحو الثانية والعشرين، أن يُسمح له بالبقاء في هونغ كونغ ويزرع حقلين كبيرين تملكهما العائلة في منحدرات قمة كولون، فيكون بذلك ساعد العائلة وانتفع في آن.

وحين رجعت العائلة الى هونغ كونغ وجدت أن الرجل لم يعد خادماً بسيطاً، بل أصبح مزارعاً يعتمد على نفسه ويملك أفكاراً خاصة به. ولم يكن بالشخص الذي تود العائلة استخدامه، فتخلصت منه السيدة لو بقولها إن في إمكانه المضي في زراعة الحقلين.

ولم تلبث أسعار الأراضي وقيمة

تأجيرها أن ارتفعت باطراد. وتلقى السيد لو عرضاً حسناً لتأجير الحقلين لشركة كانت استأجرت مساحة كبيرة من الأرض المحيطة بأرضه. غير أن المزارع رفض إخلاء الحقلين، ولم يكن بينه وبين العائلة أي اتفاق مكتوب. لذلك قلت إن القضية هي مضيعة للوقت. ففي المحكمة لن يتمكن أي من الفريقين من إثبات ادعائه. فإذا أرادت عائلة لو أن يخلي خادمها السابق الأرض فعليها أن تؤمن له في المقابل عملا حراً بسيطاً أو أن تقدم إليه هدية مماثلة. بيد أنها رفعت عليه هذه الدعوى كي تضيع وقتنا في المكتب.

على أن صديقي المحامي لم يكن ليتركني أتملص من هذه القضية فقال بهدوء: "ولكن إذا لم تحدّد موعداً الآن فسأطلب من المحكمة العليا أن تصدر اليك أمراً قضائياً."

سألته متعجباً: "وماذا يعني ذلك؟"

فسعل وقال: "أنه يعني أنّ في وسعنا أن نطلب منك سماع الدعوى."

قلت: "إنه لأمر رهيب. حسناً، أظن أن عليّ الاستماع اليها. لكن موكلك يرتكب خطأً كبيراً. فلا نفع في أن يأتي أهل المدن هؤلاء إلى هنا ويصرّوا مثله على أن نحكم في دعاواهم على أساس القوانين البريطانية لأنها غير مجدية في خلاف من هذا النوع..."

فردّ صديقي: "إعلم يا أوستن أنه إذا طلب المدّعي أن تنظر في شكواه وفاقاً القوانين البريطانية فعليك أن تنظر فيها وفاقاً للاعراف البريطانية!"

وبدا لي أن الوقت حان كي أكيل له الصاع صاعين فقلت: "حسناً، ولكن ما العمل إذا رفض المزارع أن ينحو هذا النحو؟"

أجاب: "أنا أعلم أنه سيوافق."

أحسست ألماً شديداً في معدتي وقلت لاهثاً: "آه!" ثم أنهيت المكالمة.

وخاطبت السيد لوه: "حاول أن تقنع المزارع بأنه يرتكب خطأً كبيراً برفضه الاحتكام إلى الاعراف والعادات الصينية، مع علمي أن محاولتك هذه لا تراعي المعايير الاخلاقية تماماً."

## العدالة البريطانية

الحق أن السيد لوه كان يعرف ضيق اطلاعي على القانون. وهو يشاركني في الرأي أن تطبيق الاعراف الصينية أكثر عدلا من تطبيق القوانين البريطانية في ما يتعلق بقضايا الصينيين. لذلك بذل جهداً كبيراً كي يجعل المزارع يغيّر موقفه، لكنه مُني بالخيبة.

وهكذا لم يعد في وسعي تحاشي اللحظة التي أواجه فيها فريقين متخاصمين يطلبان الاحتكام الى القوانين البريطانية. وبدا لي الأمر مروّعاً حقاً.

في اليوم المحدد نظف زجاج طاولتي ووضع ورق نشاف جديد عليها وأمنت حزمة من الورق، إذ كان ينبغي تدوين كل ما يقال في الجلسة. والمعلوم أن المحاكمة على أساس القانون البريطاني تقضي بالطلب من المتخاصمين أو الشهود أن يقسموا بأنهم سيقولون الحقيقة. ولم يكن هذا الأمر سارياً في المحاكم الصينية حيث يُتوقع أن يعمد الجميع الى الكذب وأن يمحّص القاضي أكاذيبهم كي يتمكن من اتخاذ القرار الصحيح. ولا ريب في أنه

كان يُستحسن في هذه الدعوى النموذجية أن يباح الكذب على الطريقة الصينية.

ولم يلبث الخصمان أن دخلا الغرفة وبدأ السيد لو كلامه بعدما أقسم أنه سيقول الحقيقة. ولمّا كان عليّ أن أدوّن أقواله جميعاً فقد فعلت ذلك ببطء شديد فيما اشمئزازي آخذ في الازدياد. والواقع أن السيد لو الذي كان يرتدي بذلة أوروبية أنيقة، بدا لي شخصاً متّزناً. وربما كان إصراره على الاحتكام الى القانون البريطاني يعود إلى احترامه العدالة البريطانية وظنه أن سلوكه هذا السبيل هو السلوك الصحيح. وعلى رغم اقتناعي بأن قراره لم يكن سليماً فإن الأمر القضائي المسلط على رأسي جعلني عاجزاً عن أي حركة.

أما المزارع فكان رجلا قاسياً، صلباً ذا جبهة منخفضة وعينين حسوبتين. وظهر جلياً من دخلته المتعالية أنه لم يكن على استعداد لأن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة.

وكان في حيازة المزارع رخصة قانونية تبيح له زرع الحقلين، إلّا أنه يمكن إلغاؤها متى شاء صاحب الارض ذلك. غير أن العرف الصيني لا يسمح لصاحب الحقل بأن يطلب إخلاءه قبل نضج الزرع الذي فيه. وزعم المزارع أن الحقلين كانا مزروعين كرنباً صينياً لم ينمُ بعد. فسألت السيد لو هل لديه تعليق على هذا الكلام، فذكّرني بأنه أرسل إلى المدعى عليه مذكرة خطية قبل ستة أشهر. وعندما رفض المزارع تسلمها رفع عليه السيد لو هذه الدعوى.

ولم يكن السيد لو يحتاج الى مزيد من الكلام لأن نمو الكرنب لا يستغرق تلك المدة كلها. وبات واضحاً أن المزارع باع محصولا وزرع آخر بعد تلقيه المذكرة باخلاء الأرض. وأضاف السيد لو أن المزارع بنى إلى جنب كوخه حظيرة للبقر وجعل فيها ثماني بقرات. فسألت المزارع: "ثماني بقرات؟ هل تعني أنك اشتريت بقرة وضعَتْ سبع بقرات؟"

فأجاب متجهماً: "لا."

وتبين أنه اشترى البقرات الثماني. فقلت له: "لقد دفعت فيها ثمناً باهظاً، أليس كذلك؟"

أثاره كلامي وارتكب الخطأ الذي أحبط قضيته إذ قال: "ليس في وسعهم طردي من الأرض اذ مضت علي عشر سنين وأنا أدفع أجرتها."

فأسرعت الى سؤاله: "تدفع أجرتها؟ هل لديك إيصالات؟"

– لا، لقد رميتها كلها.

"ومتى دفعت الايجار الاخير؟"

– قبل ستة أشهر.

وبدا واضحاً أنه يكذب فقلت له: "هل أنت واثق بأنك كنت تدفع أجرة الأرض؟" فأجاب أنْ نعم. فقلت: "وقد مضى عليك ستة أشهر من دون أن تدفع الأجرة؟"

– هذا صحيح.

"وتوقفك عن الدفع يعني أنك وافقت على مذكرة المدعي بوجوب ترك الأرض، ولذلك ينبغي أن تتركها."

وأمرته بمغادرة الحقلين خلال عشرة أيام وأنذرته بمصادرة كوخه وبقراته وممتلكاته الأخرى إذا هو لم يفعل.

بعد خمس دقائق دخل مساعدي المختص بالأراضي، وهو شاب برتغالي

مرح مولع باستشفاف الأخبار، وقال لي بلطف: "تناهى إليّ أن ذلك المزارع الذي كان عندك يتمتع بدعم جماعة نافذة."

فهممت: "حسناً." وفجأة اتضحت لي الأمور الغريبة التي لحظتها في أثناء المحاكمة. فالمزارع لم يكن ليستطيع شراء البقرات بماله الخاص. وعرفت أن القسوة التي ارتسمت على ملامحه كانت متعمدة وأن كذبه في ما يتعلق بأجرة الأرض كان مقصوداً. فقد أراد النافذون أن يكون حكمي في الدعوى على النحو الذي حصل. ولذلك طلبوا من المزارع الاصرار على الاحتكام الى القانون البريطاني. وتبين أن كل ما جرى كان مقصودا وأنه يهدف إلى التسبب في نشوء حدث ما.

## عملية السيجار

في اليوم التالي أبرزت صحيفتان مهمتان في هونغ كونغ قصة المحاكمة ووصفتا بؤس الفلاح الذي يحرث الارض ويتعرض لاضطهاد المالك الثري.

ومضت عشرة أيام من دون أن يتحرك المزارع من الأرض. فتعين عليّ أن أطلب من مأمور التنفيذ إزاحة ممتلكاته، وحددنا لذلك وقتاً معيناً. وأخبرني السيد لوه أن عدداً كبيراً من المزارعين قد يقاومون مساعدي المأمور، فأجريت اتصالا هاتفياً بالشرطة. ولم نكن نتصل بالشرطة الا في ما ندر، لأن لجوءنا إلى الأعراف الصينية قلّما أحوجنا اليها. فلما كالمت مدير الشرطة الذي كان يجيد اللغة الصينية ويملك حسّاً سياسياً ممتازاً أتى إليّ بنفسه وسألني: "كم تتوقع أن يبلغ عدد المزارعين؟"

فأجبته: "قيل لي إنه يبلغ نحو ثمانين، ولكن قد تكون في هذا الكلام مبالغة."

قال: "لست أرى رأيك. فهل نظرت ملياً في الصحف الصينية؟"

والواقع أن الصحف راحت تنشر يومياً مقالات جديدة حول الاقطاع، وقد رأى مدير الشرطة في هذه المقالات تلميحاً إلى قضيتنا التي تحمل في أضعافها بذور حادث بشع. وليس أدلّ على ذلك من توقع قيام حشد من المأمورين الاوروبيين بانتزاع الكرنب الصيني وسط جمع من المزارعين الثائرين ورجال الشرطة. ولا ريب في أن أخبار الحادث ستصل الى الصحافة وإلى راديو بكين بعيد وقوعه.

على أن الموظف المسؤول عن منح الرخص أجاز لنفسه أن يأتيني ببعض معلومات رأى أنها يمكن أن تستأثر باهتمامي. والواقع أنه كان مصيباً في ظنه، إلا أني لم أفشِ شيئاً من هذه المعلومات الى مدير الشرطة وقلت له: "أظن أنه لا تزال لدي فرصة لتسوية هذه القضية على نحو مرضٍ. ولكن إذا تعذر عليّ ذلك فسنحتاج إلى مساعدة الشرطة على نحو سريع. فهل من الممكن أن يختبىء رجالك في مكان قريب من الحقلين كي لا نعطي انطباعاً أننا نتوقع حصول مشاكل؟"

– هذا سهل جداً. وسنُعدّ أربعمئة شرطي كي يكونوا في إمرتك.

"حسناً. أطلب من الضابط المسؤول أن يراقبني بانتباه. فإذا أخفقت خطتي واضطررنا إلى الاستعانة بالشرطة فإني سأشعل سيجاراً."

ثم أرسلت في طلب السيد لوه وقلت

له: "أرجو أن تتصل بالسيد لو وتقول له أن يوافيني إلى الموضع المحدد عندما يأتي المأمورون. فهو الذي تسبب في جميع هذه المشاكل وأنا أريده أن يشهد النتائج. وأخبره أنه إذا لم يأتِ فسيقبض عليه ويؤتى به قسراً."

وكم كان أسفي شديداً لاضطراري إلى لزوم مكتبي في اليوم المحدد لمعالجة شؤون طارئة، فبعثت في طلب هنري، الموظف البرتغالي المختص بالأراضي. وكان هنري يحب المغامرة. وعندما حضر قلت له: "عليك أن تقوم مقامي في قضية المزارع. فهل معك سيجار؟"

أجاب وهو يتكلف الابتسام: "إني لا أدخن يا سيدي."

قلت: "قد تضطر الى ذلك بعد ظهر اليوم. خذ سيجاراً مما لديّ وأصغ إليّ. ستجد عند وصولك عدداً من الناس كبيراً. قف حيث تمكن مشاهدتك من جميع الجهات. وحين يصل المأمورون لا تدع الشك يخامر أحداً في أنك على قابي قوس من إعطاء أمرك ببدء التنفيذ. وبدهي أن يبدي الحاضرون استياءهم. ودع السيد لو يرى هذا الاستياء ويشعر به. ثم قل له انه إذا أثار الحادث صباح غد هياجاً دولياً فسيكون هو السبب."

ابتسم هنري ابتسامة عريضة. فتابعت: "اسأل السيد لو هل يوافق على الاحتكام الى الأعراف الصينية إذا أنا ألغيت جميع الاجراءات التي اتخذت في هذه القضية وفاقاً للقانون البريطاني. وامنحه وقتاً كافياً كي يفكر في الأمر وقل له إن قراره سيكون خطيراً. فإذا رفض، ابتعد عن المكان وأشعل السيجار. ثم اطلب من السيد لو أن يركب سيارته وينطلق بها بأقصى سرعة ممكنة."

- ولكن ماذا نفعل إذا رضي السيد لو باقتراحك؟

"تقول للجميع، بمن فيهم المأمورون، إن في إمكانهم الذهاب الى بيوتهم."

- الذهاب الى بيوتهم؟

"نعم، وأنت أيضاً. ولكن تعال لرؤيتي أولا."

## انتصار العرف الصيني

رجع هنري قبيل الوقت المحدد لانصراف الموظفين وقال وهو يمسح العرق المتصبب من جبينه: "أفٍّ! كان ذلك حدثاً ذا شأن!"

وأخبرني أنه عندما وصل الى المكان المحدد رأى ما يزيد على تسعمئة رجل قد أحكموا الاحاطة بالحقلين. ووجد الصحافيين والمصورين على أهبة الاستعداد. أما المأمورون فوصلوا (كما كنت أتوقع) في سيارة بريطانية صغيرة مثيرة للسخرية وهم يرتدون ثيابهم الريفية. وبدأ صبري ينفد فقلت: "حسناً، وماذا حدث يا هنري؟"

فوضع السيجار على مكتبي وكان لا يزال غير مشعل. فهممت: "ماذا قال السيد لو؟"

فجعل هنري يصفق في الهواء مقلداً السيد لو وأجاب: "قال إنه يفعل كل ما يريده حضرة القاضي."

قلت وأنا أحاول إخفاء شعوري بالراحة: "وهكذا ذهبتم جميعاً إلى البيت؟"

- نعم يا سيدي.

"وتركتم الرجال التسعمئة هناك؟"

– بالطبع يا سيدي!

"ليباركك الله يا هنري! هذا تماماً ما كنت أبغيه. والآن أرجوك أن تطلب من الموظف المسؤول عن الرخَص أن يأتي إليّ."

فغادر هنري المكتب وبعد برهة دخل لاو، الموظف المسؤول عن الرخص، فقلت له: "أنت تذكر أنك أخبرتني يوماً أن زوجة ذلك المزارع تملك دكاناً للخضرة في مكان آخر من المقاطعة، فهل هذا المكان هو تسوين وان؟"

فهز رأسه موافقاً وهو يترقب ما سأضيفه فقلت: "ابعث اليها من فورك رسالة بالبريد المضمون وأبلغها أنك ستلغي رخصة الدكان بعد سبعة أيام."

فهز رأسه ثانية وتوجه الى الباب ثم توقف لحظة فأضفت: "شكراً لك يا لاو."

وبعد أربعة أيام بات حقلا السيد لو خاليين من الكوخ والحظيرة والبقر والمُزارع وانتزع منهما عدد رمزي من الكرنب وترك الباقي ليفسد.

والحق أني لم أكن أتوقع أن يتمّ ذلك بهذه السرعة. وكثيراً ما تساءلت لماذا تعيش زوجة المزارع بعيداً عنه. وقد اتفق أننا اهتدينا الى مصدر رزقه الأساسي.

وبعد بضعة أشهر التقيت السيد لو في حفلة استقبال بارزة في المدينة فسألني: "كيف تمكنت من فعل ذلك؟"

فأجبته بصفاء: "بالاحتكام الى الأعراف الصينية. وأرجو أن تتفضل عليّ بإعلام ممثليك القانونيين بالأمر."

ولم يكن من اليسير أن أخبره أن تسوية ذلك الشأن وسواه من الشؤون لا تكون إلا بالخداع.

وبدهي أننا أحجمنا عن إلغاء رخصة زوجة المزارع بعدما وافق على مغادرة أرض السيد لو.

## سبع سنوات في مركب

اليكم الآن قصة زوجين من صيادي السمك مضى على زواجهما سبع سنوات من دون أن ينجبا أولاداً. وكان الرجل ينتمي الى قبيلة من الصيادين الرحل القادمين من فوجيان. وكان أهل كانتون يطلقون على أبناء هذه القبيلة اسم هوكلو. ولم يكن الرجل يتكلم الكانتونية ولا الهكّه اللتين كانتا اللغتين الرئيسيتين في المقاطعة، ولم يكن في مقدور أحد في المحكمة أن يفهم لهجته. واستطاع السيد لوه بعد لأي أن يجد شخصاً من قبيلة الهوكلو يمكنه ترجمة كلامه الى الكانتونية.

أما الزوجة فكانت من مقاطعة غوانغكسي الريفية التي تبعد مئات الكيلومترات عن هونغ كونغ. وكانت هي أيضاً تحتاج الى مترجم لأنها لم تتكلم بلهجات المقاطعة. ووجدنا صعوبة جمة في إيجاد شخص يفهم لهجتها، لكننا وفقنا الى ذلك في نهاية المطاف. وبدأت المحاكمة في حضور عدد كبير من الاشخاص لمساعدتنا.

وكان منظر الزوجين يبعث السرور في النفس. فقد ظهرت عليهما أمارات العافية والاستقامة ولوّحت بشرتهما أشعة الشمس. وبدا الرجل في الخامسة والثلاثين وقد فعلت فيه عناصر الطبيعة. وكانت الزوجة امرأة ريفية جميلة حقاً ذات قوام رائع وعينين صافيتين

جميلتين تنمّان عن صدق بيّن وأمانة واضحة.

وجلس الزوجان أمامي متحليين بصبر ظاهر على رغم طول الوقت الذي استغرقه تخاطبنا. فقد كنت أطرح سؤالي بالانكليزية فيعمد السيد لوه الى ترجمته الى الكانتونية ومن ثم ينقله مترجم آخر الى الهوكلو. وعندما كان الزوج يجيب كنا نمرّ بالمراحل ذاتها على نحو معكوس. ولم يكن الامر مختلفاً عن ذلك عندما كنت أوجه أسئلتي الى الزوجة وتجيبني بلهجتها الخاصة.

واتضح أن الزوجين عاشا معاً سعيدين في مركب صغير مكشوف مدة سبع سنوات. ثمّ عنّ للزوجة أن تطلق زوجها وترجع الى قومها. وبدا واضحاً أنهما كانا متحابّين ولم يكن الزوج يريدها أن تتركه، لكنها رأت أنها خذلته لأنها لم تنجب له طفلا، ورغبت في أن تحرّره كي يتخذ زوجة ثانية وتعود هي إلى مقاطعة غونغكسي حيث يمكن أن تجد لها زوجاً قبل فوات الأوان. والحق أن كلا منهما كان يفكر في مصلحة الآخر فقط، ووجدت ذلك مفطّراً للقلب فسألت الزوج: "لماذا لا تطلب من زوجتك أن تغيّر رأيها؟"

وتلقيت منه عبر المترجمين جواباً غريباً هو: "لا أستطيع ذلك."

قلت له بلطف: "ماذا تعني بقولك هذا؟ أطلب منها ذلك الآن أمامي ولا تكن خجولا!"

فقال بهدوء: "لا أستطيع."

وجعل المترجمون الحاضرون يتبادلون التساؤلات في ما بينهم ومع الزوجين. ولم يمض وقت طويل حتى لاحظت المترجمين يحاولون إخفاء ابتساماتهم. فقد عاش الزوجان سبع سنوات في مركب صغير من دون أن تربط بينهما لغة مشتركة. وهززت رأسي مستغرباً فيما ارتسمت على وجه السيد لوه ابتسامة بريئة لم أشاهدها من قبل. ثم لم يلبث أن تنهد وقال بلهجة ودودة تنم عن خبرته في الحياة: "آه! إنها لغة الحب!"

ورحت أنظر إلى الزوجين فخطر لي أننا وان بلغنا من العمر مئة عام لما أمكننا أن نتبادل الحديث. وعلى رغم ذلك جرى بيننا في تلك اللحظة لون من الكلام. وعرفت أننا لن ننسى أبداً تلك اللحظة. ولم ألبث أن قلت للسيد لوه: "هل تظن أنهما كانا متزوجين حقاً؟" وسرعان ما أمسكت عن الكلام. فقد كانا يرغبان في إنجاز جميع الاجراءات على النحو الصحيح كي يحافظ كل منهما على مستقبل الآخر، غير أني وجدت الحكم عليهما بالطلاق أمراً مزعجاً جداً. فهممت مخاطباً السيد لوه: "سبع سنوات في مركب! إنه لإنجاز عظيم، ومما يؤسف له أنهما لا يستطيعان متابعته."

فتنهد قائلا: "إني أوافقك في الرأي، ولكن كيف يمكن إبلاغهما ذلك من خلال هذا العدد الكبير من المترجمين؟"

فعمدت إلى المجلد الضخم وألغيت الزواج على مضض.

## ▪ انقلوا الرابية ▪

إن واجب المسؤول المحلي هو تسوية الأمور بين المدينة والريف وتحقيق الانسجام بين المصالح المتضاربة ومراقبة عملية بناء البيوت والتدريب على تربية

المواشي والاشراف على زراعة الاشجار والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتشجيع إقامة علاقات بنوية وأخوية طيبة وحث الناس على إطاعة الحكومة والعيش في سكينة وبسر.

والحق ان تحديد واجباتي على هذا النحو أخذ من تعاليم الفيلسوف الصيني هسون تسو الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وكان ذا خبرة في الادارة. ومما يدعو الى الدهشة أن هذا التحديد لا يزال دقيقاً جداً بعد مرور ٢٢٠٠ سنة على وضعه. فقد صرفت معظم وقتي في المقاطعة في "تسوية الأمور بين المدينة والريف." فمدينة هونغ كونغ كانت آخذة في الامتداد السريع، ووجبت عليّ محاربة هذا الامتداد الذي يشكل اعتداء على الريف، وحماية القرويين والحياة القروية جهد المستطاع كي أجنب الريفيين مكابدة آثار التغير السريع.

كذلك كان من واجباتي اظهار حدود الأراضي للتوفيق بين المصالح المتضاربة. أما "التدريب على تربية المواشي" فكان لحسن الحظ من شأن دائرة الزراعة. إلا أنه بقي عليّ تحديد القرى التي ينبغي تزويدها البقر والدجاج وضروب الحيوان الأخرى. وأما "الاشراف على زراعة الاشجار" فكان لا يزال أمراً حيوياً كما في زمن هسون تسو.

وفي ما يتعلق بـ"الحث على مكارم الاخلاق وتشجيع إقامة علاقات بنوية وأخوية طيبة" فقد كثر الكلام جداً على هذا الأمر. فالحث على مكارم الأخلاق كان هو مفتاح العمل، إذ لم يكن من واجب القاضي إطلاق الاحكام الأخلاقية على الناس، بل واجبه إرشادهم الى الافعال الصحيحة المستحسنة.

وكانت "تسوية الأمور بين المدينة والريف" تهمّ تسوين وان خصوصاً انها كبرى مدن المقاطعة. وكانت هذه المدينة في الأصل مكونة من ثماني قرى ذات بيوت من حجر بنيت في القرن الثامن عشر في منطقة خصبة يزرع فيها الرز وتواجه خليجاً يكثر فيه صيد القريدس (الجمبري). وتعد تسوين وان اليوم المركز الصناعي الثاني بعد كولون.

على أن القرى الثماني الاصلية التي غرقت الآن في خضم التشوش الصناعي، لا تزال محتفظة بطابعها الريفي. وكان من شأن ارتفاع أسعار الاراضي ان يدفع القرويين الى بيع أراضيهم الزراعية. غير أن هذا يعني انتهاء معظم السكان الاصليين إلى البطالة لأنهم لا يصلحون للأعمال الصناعية. لذلك لزم علينا أن نحتفظ بأراضي تسوين وان المستعملة لأغراض زراعية أطول مدة ممكنة كي يتاح للسكان الأصليين وقت كاف للتكيف مع محيطهم الجديد.

أما تضارب مطالب الصناعيين ومستثمري الاملاك مع المصالح الحكومية والمنافع العامة فبلغ حداً من التعقيد جعلني أركب السيارة مع الموظفين المسؤولين عن الأراضي أملا في تكوين انطباع عام عن منطقة تسوين وان. وأوقفنا السيارة على مسافة ثمانمئة متر من المدينة وجعلنا نراقب المنظر من منحدر قريب.

وشاهدنا المدينة والخليج. ورأينا الى جهة اليابسة تلة وحيدة اقترحت دائرة

التربية بناء مدرسة كبيرة عليها. وحول المدينة والتلة بدت لنا حقول الرز الأخضر والأراضي المنسقة المزروعة خضراً.

وكانت مشكلة تسوين وان المباشرة حاجتها الملحة إلى مزيد من بيوت العمال والدكاكين والمحلات التجارية. وكان وسط المدينة (أي القرى الثماني الاصلية والأبنية التي شيدت فيها خلافاً للقانون) بلغ من القذارة والازدحام حداً لم يبق معه مفر من هدم معظم الابنية القائمة فيه. إلا أن ذلك لم يكن ممكناً من دون تأمين مساكن للاهالي. واقتضى تأمين هذه المساكن إنشاء شوارع جديدة في الأماكن الموازية لوسط المدينة، ولم يكن ذلك ممكناً إلا باللجوء الى مزيد من الحقول الزراعية.

وبدا كل ذلك صعباً بحيث انصرفت موقتاً عن التفكير في الموضوع. وشرعت أفكر في التلة والمدرسة التي ستقوم عليها. ثم رحت أتخيل المدرسة نفسها. وتذكرت أني كنت أكره الذهاب إلى المدرسة عندما كنت صبياً. وخلتني صبياً صغيراً يجرّ كتبه صاعداً التلة في حرّ الصيف متوجهاً الى المدرسة فيصل الى صفه والعرق يتصبب من جسده، ثم يضطرّ إلى الاصغاء الى أحد الدروس المملة. وعلمت أني سأكره تلك المدرسة فقلت: "أظن أني عرفت ما ينبغي عمله."

فأخذ المسؤول الأول عن شؤون الاراضي، وهو رجل أوروبي ضخم الجسم، يقلّب فيّ بصره كأنما ينظر إليّ من علٍ. فأحسست أني ارتكبت حماقة ما، وحاولت أن أبدو ذا سلطة فتابعت وأنا أشير الى التلة: "نعم، اهدموا تلك التلة واردموا بها البحر من الجهة الأمامية للمدينة فيؤمّن لنا ذلك الشوارع التي نحتاج اليها لتشييد الابنية السكنية والمحلات التجارية، ونبني المدرسة في موضع التلة المسطح."

ورحت أنتظر ردّه خائفاً أن يكون مجرد قهقهة. غير أنه خلافاً لما توقعت أخذ يقدر مساحة التلة ثم قال: "نعم، هذا يحل المشكلة."

وبعد أقلّ من سنتين امّحت التلة بكاملها وعبدت شوارع جديدة في ناحية تسوين وان المواجهة للبحر. أما في طرف المدينة فكان أكثر من خمسمئة صبي يذهبون الى المدرسة يومياً من دون أن تتصبب على جباههم قطرة عرق واحدة.

والواقع ان موظفي دائرة شؤون الاراضي في هونغ كونغ كانوا أكثر مني الفة لفكرة نقل التلال. فمنطقة كولون هي في الحقيقة مجموعة من التلال المسطحة. ولا ريب في أن "تسوية الأمور بين المدينة والريف" تبعث السرور في نفس المرء أحياناً، ومعظم الناس لا يسعهم الانكار أن قدرة المرء على نقل التلال هي مبعث سرور في النفس.

## ■ عصائب القاضي ■

كان قرب مكتبنا في هونغ كونغ واحد من أشهر محلات العصائب (٣). وكان في المحل صبي يحضر لي للغداء أحياناً طبقاً من العصائب الساخنة مغطى بورق معدني وموضوعاً على صينية فيها وعاء من مرق

(٣) العصائب (noodles) ضرب من المعكرونة المسطحة الشائعة في الصين.

الصويا وآخر من الخردل ومرق الحر الاحمر وعودان للاكل (chopsticks) مغلفان بمنديل من ورق. وكان كثير من الموظفين يفيدون من هذه الخدمة خصوصاً عندما تشتدّ وطأة العمل.

وذات يوم بعد انقضاء فترة الظهيرة، ألفيت أمامي زوجاً وضرّتين متخاصمتين أتى بهم إليّ أحد شيوخ القرى. وكانت إحدى الضرتين هي الزوجة ذات الحظوة عند زوجها فيما كانت الثانية مجرد جارية. غير أن الجارية كانت هي التي تزوجها الرجل أولا وأنجبت له صبياً. ومن ثم عمد إلى تزوج الثانية التي باتت هي الزوجة ذات الحظوة، الا أنها لم تنجب له صبياً. وهكذا بدت الزوجتان متساويتين على نحو ما في مقامهما الزوجي.

ومضت سنوات لم يعرف الزوج فيها طعم السعادة. فقد ناصرت كلا من الزوجتين المتخاصمتين بعضُ نساء القرية ونشأ في القرية فريقان متصارعان. ورأى الشيخ أن تذهب إحدى الزوجتين لتعيش في بيت أصغر يملكه الزوج في إحدى التلال المشرفة على القرية بحيث يزورها على نحو منتظم.

وكان السؤال المطروح هو أي الزوجتين تذهب. فالزوج لم يكن قادراً على اتخاذ القرار لأنه لم يرغب في أن تغدو حياته أكثر مرارة. كذلك عجز الشيخ عن اتخاذ القرار لأن أي قرار يتخذه سيؤلب عليه نصف القرية. فلو كان الأمر خالياً من العقد لقضى القرار ببقاء الزوجة ذات الحظوة في البيت الأساسي وانتقال الجارية إلى البيت الآخر. غير أن المشكلة كانت أكثر تعقيدا وذلك لوجود الزوجتين في وضعين متكافئين، ففي وسع الزوجة ذات الحظوة أن تطلب بقاء الصبي معها على رغم أنها ليست أمه الحقيقية. وربما أيد الزوج هذا الطلب رغبة منه في البقاء مع ابنه مما يتسبب في افتراق الأم الحقيقية عن ابنها.

وكانت الزوجتان متكدرتين جداً. ولئن أمكن أن تكون كل منهما على حدة زوجة صالحة فإنهما لم تكونا تطاقان مجتمعتين.

ويمكن اختصار حجة كل من الزوجتين بما يأتي: لماذا أترك هذا الرجل مع تلك المرأة التي تسيء معاملته؟

وبدا لي أن مسألة "العطف" على الزوج هي النقطة الأساسية في الأمر. فالشيخ كان يعلم أي الزوجتين أكثر عطفاً، لكنه في ما يظهر لم يستطع إخباري بذلك. وهكذا تعين عليّ أن أكتشف الحقيقة بنفسي. إلا أن الزوجتين راحتا تمطران احداهما الاخرى بوابل من الشتائم لم أكن بمنأى عنه أحياناً، فأخفتا عني بذلك حقيقة عطفهما.

وفي الاولى بعد الظهر أخذ اليأس يطبق عليّ. وفجأة فتح الباب ودخل صبي العصائب وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يرفع غدائي عالياً. ولم يكن الصبي على علم بانعقاد الجلسة، فوضع الصينية أمامي ورفع الغطاء عن طبق العصائب ثم خرج من الغرفة. وانبعثت من الطبق سحابة من البخار وعمّت المحكمة رائحة مسيلة للعاب.

ولم ألبث أن خاطبت الحاضرين: "انتبهوا أيها الناس. هذا يوم حافل بالعمل بالنسبة إليّ، لكني لا أريد

مقاطعتكم. فسأستمرّ في الاصغاء اليكم، ولكن هل لكم أن تتفضلوا بمعذرتي إذا أنا تناولت غدائي الآن؟"

ونظرت الى أعلى لمعرفة ردّ المرأتين. فألفيت الزوجة ذات الحظوة تحدق إليّ بازدراء. أما الجارية فظهرت على شفتيها ابتسامة ساحرة وقالت: "بالطبع يا سيدي القاضي، يجب أن تأكل طبق العصائب."

وتبين لنا أي الزوجتين ألطف في معاملة الرجل، غير أني تركت القضية تطول قليلا كي أخفي عنهما القرار الذي لم اتخذه أنا، بل اتخذته العصائب. ومن ثمّ أمرت الزوجة ذات الحظوة بالانتقال الى البيت القائم في الرابية حيث يزورها الزوج على نحو منتظم، وطلبت من الجارية البقاء في القرية.

ووقف الحاضرون استعداداً للذهاب. والحق أنهم كانوا جميعاً يعلمون الحقيقة لكنهم احتاجوا الى شخص ذي سلطة يخبرهم بها.

ولست أشكّ في أن ذلك المحل الذي يبيع العصائب هو محل ممتاز!

## ثلاث بقرات وامرأتان

كانت مظاهر كثيرة من حياة الاراضي الجديدة تزعجني كأوروبي اكثر مما تزعج موظفيّ الصينيين. لذلك سرّني دائماً ان أرى أحد هؤلاء الموظفين عاجزاً عن ملك نفسه أمام بعض القادمين الى المحكمة، فهذا يدل على أن العجز لم يكن وقفاً عليّ. وكم تمنيت أن أجد الموظفين جميعاً في حال مماثلة.

وتحققت امنيتي مرة واحدة من خلال قضية استدعى الحكم فيها بضع جلسات في المحكمة، وكان غضب الموظفين في كل من هذه الجلسات يزداد عنه في الجلسة السابقة.

والسبب في هذا الازعاج الذي دام ثلاثة أشهر امرأتان ربطت بينهما صلة قربى وعاشتا في قريتين نائيتين على الروابي. وهما ركبتا الحافلة نفسها في المرة الاولى، وعندما وصلتا الى المكتب جلستا بهدوء الى أن حان موعد البحث في قضيتهما. وهكذا كانت البداية. فقد جعلت كل منهما تشتم الأخرى بأعلى صوتها وأتت شتائمهما مصحوبة بهزات للاكتاف معبرة عن الاستياء وبنظرات ازدراء. وتعالى صراخهما معظم الوقت على نحو متزامن وانبعثت منه ضجة رهيبة.

وكان موضوع خلافهما ثلاث بقرات تدعي كل منهما أن لها نصف الحصة فيها. ولما كانتا تعيشان في قريتين مختلفتين فقد تسبب ذلك في نشوء مشكلة بينهما. وكان بدهياً أن يصير في المقام الاول تقدير ثمن البقرات. ولكن كانت بين هذه البقرات عجلة. واذ تعذر على أي منا أن يقنع المرأتين بالاتفاق على أمر من الامور فقد كنا نطلب منهما كل مرة الذهاب الى منزليهما للتفكير في ما اقترحناه. وفي أثناء ذلك كانت العجلة تكبر وثمنها يزيد فاضطررنا الى بدء كل جلسة جديدة باعادة تقدير ثمن البقرات، فتعمد المرأتان الى صب جام غضبهما علينا. لذلك كان كل من يتعامل معهما يستشيط غضباً ويرد على صراخهما بصراخ مشابه.

وعلى رغم ذلك خطر لي بعيد مجيئهما للمرة السادسة أن ألجأ الى أسلوب مختلف. فعندما انبعث الضجيج في المرة التالية من المكتب الخارجي علمت بقدومهما ثم جلست أصغي اليهما بهدوء.

وكم كان سروري عظيماً حين رأيت أن أحداً من الموظفين لم ينج من آثار هذه القضية وأن الغضب الشديد انتقل من مكتب الى آخر فاستبد بهم جميعاً. وأخيراً جيء بالمرأتين الي بعدما أخذتا تطلقان أصواتاً كالشخير غير آبهتين بالموظفين. ووقفتا أمامي وقد بدت عليهما أمارات الحنق المستعر. وكنت في مناسبة سابقة ذكرت لهما أني سآمر بذبح العجلة وقسمتها بينهما بالتساوي إذا هما لم تلزما الهدوء.

ولم ألبث أن قلت للسيد لوه: "اسألهما من فضلك هل لهما أقرباء في أمريكا فقد اتفق أن مررت في قريتهما في اليوم السابق وعلمت أن معظم أهلهما من الرجال يعيشون في نيويورك".

وتبين أن للمرأتين قريباً يعيش في نيويورك هو زوج إحداهما وأخو الأخرى وقد مضى على وجوده في الخارج إحدى عشرة سنة. فقلت لهما: "أرجو أن تعطيا السيد لوه اسم قريبكما وعنوانه قبل ذهابكما، وليس لديّ ما أضيفه اليوم وشكراً."

وبدا عليهما الارتباك للمرة الاولى فراحتا تحملقان فيّ مغضبتين ثم غادرتا الغرفة وعاد الصخب خارج المكتب.

واتضح أن العنوان هو عنوان أحد المطاعم الصينية الفخمة في نيويورك.

وعمدت الى إملاء رسالة جاء فيها ما يأتي:

سيدي،

إننا لا نزال منذ بضعة أشهر نعاني إزعاج امرأتين من عائلتك أبدتا رغبتهما في أن ننظر في قسمة ثلاث بقرات بينهما بالعدل. ونحن لا نود مناقشة حقك في الهجرة الى أمريكا والبقاء هناك إحدى عشرة سنة من دون أن تزور عائلتك. لكننا نود ببساطة أن نلفتك الى أننا نرى أن تكليفنا حل مسائل رياضية مستعصية أمر يتعدى نطاق عملنا. فإذا كنت تزمع الاستمرار في نمط حياتك الحالي، فنرجو أن تتدبّر شؤونك العائلية على النحو الذي يروقك بحيث تغدو حيازة البقرات الثلاث امراً ممتعاً لزوجتك وشقيقتك وبحيث تكفّان عن إزعاجنا.

ولئن تكن هذه الرسالة في الانكليزية لا تخلو من الحدة فانها بدت في الصينية رسالة عاصفة. وفيما كنت أضع عليها ختمي الاحمر أحسست أني امبراطور حقاً.

## الاحساس بالعظمة

لم يكن مناص من أن تنتهي يوماً خدمتي في المقاطعة، وبات عليّ أن أغادرها في وقت معين.

ولست أشك في أنكم اكتشفتم من خلال هذه الصفحات نقائص كثيرة في القاضي الأعلى، غير أنه كان يندر أن تعوزه الثقة بالنفس. وعلى رغم ذلك فكثيراً ما تساءلت عن حقيقة نظرة الموظفين إليّ. والواقع أني عودت نفسي على اعتبار معرفة هذه الحقيقة ضرباً من المستحيل. على أن السيد لوه المحافظ والصموت فاجأني مرة قبيل مغادرتي المقاطعة قائلا، بعد تأمل طويل: "حسناً.

في المختار الشهر المقبل

## لماذا يضرب الرجال نساءهم؟

إن ضرب الزوجات قصة قديمة. فهناك امرأة تضرب كل ١٨ ثانية، وأكثر من مليون يحتجن الى معالجة طبية سنوياً، وتموت أربع يومياً.

## دليل الـ"ريدرز دايجست" الى اللياقة البدنية

برنامج رياضي منزلي وضعته مجموعة من خبراء اللياقة البدنية في تصرف قراء الـ"ريدرز دايجست".

## وحده ضد القراصنة

طوال أسابيع روّع القراصنة اللاجئين الفيتناميين الذين جنحت قواربهم الى جزيرة نائية. وعلقت الآمال على شاب واحد قادر على وقف هذه الاعتداءات.

## نهب كنوز الفن

تتعرض المواقع الأثرية والمتاحف والمعارض لسرقات فردية أو منظمة. وهذه مأساة حرمتنا أعمالا فنية لا تقدر بثمن.

## السكري لم يعد مميتاً

لم يكتشف الطب بعد علاجاً شافياً من هذا المرض، لكن السيطرة عليه ممكنة بالمعالجة والمتابعة.

## أمل للمحرومين من الاولاد

بات في وسع الاطباء مساعدة نصف الازواج المصابين بعقم على... الانجاب!

## كتاب الشهر: رحلة الجبل الأحمر

عرض للعوامل الطبيعية في القطب الشمالي وأثرها في الجبل الجليدي الذي جاس البحار شاقاً طريقه جنوباً في موعد مع الموت.

إضافة إلى مَقالات أخرى شائقة وقصص مُسلّية

لم تمرّ بحياتي كلها سنوات بذلت فيها جهداً مماثلا، غير أني لم أعرف من قبل متعة تضاهي تلك التي عرفتها في هذه السنوات."

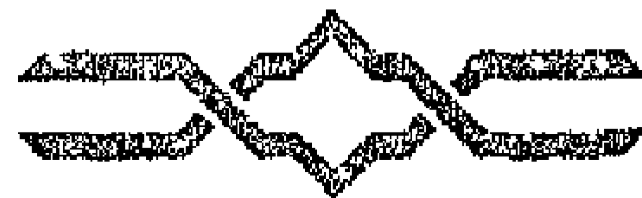
والحق أني لن أنسى أبداً هذا الثناء.

أقلعت الطائرة من مطار كاي تاك في اتجاه البحر، وأمكنني أن أشاهد تحتي لبضع دقائق الجزء الشرقي من المقاطعة. فجعلت أنعم النظر في واحد من أبعد الاودية وأكثرها خصباً، فاكتشفت بقعة بيضاء صغيرة هي جسر قوي ثابت بني بالاسمنت فوق أرض صخرية عبر نهر يطوف موسمياً. وكان الى جانب ذلك الجسر حجر ضخم من الصوّان الأبيض نُقش عليه تاريخ بناء الجسر وأسماء الذين ساعدوا في بنائه. وكان الحجر سجلا تاريخياً لم يرغب القرويون في فقده. فاذا اتفق أن أبدل الجسر يوماً ببناء آخر فإن الحجر يبقى محفوظاً (يمكن إدخاله جدار أحد الهياكل).

وكان اسمي أول الاسماء المنقوشة على ذلك الحجر، وذُكر قرب الاسم لقبي الرسمي. والاسم المنقوش كان اسمي الصيني "كاو تسي" وليس فيه ما يدل على أني غير صيني. إلا أن لقبي أشعرني بعظمتي الكبيرة.

ولم ألبث أن جلست مرتاحاً في مقعدي. والحق أن تفكير الغرب أو الانسان الغربي في إمكان حدوث تغيير في الصين ضرب من الوهم. فكل ما يستطيع الغربي إنجازه هناك هو أن يضيف حبة ملح الى ماء البحر لأن الصين هي كالبحر من مادة لا تتغير. غير أن الحجر المنقوش الى جانب الجسر سيؤكد على مدى سنين طويلة أني كنت أنا من ذوي الشأن العظيم.

أوستن كوتس ■



## مستشفى المباحث

بصفتي كاتباً ليلياً في مكتب التحقيق الاتحادي (FBI) كنت في أحيان كثيرة أتلقى مكالمات هاتفية يقصد بها مستشفى يشبه رقم هاتفه رقم مكتبنا. وحين رفعت السماعة ذات ليلة وأجبت: "مكتب التحقيق الاتحادي" تناهت الي شهقة دهشة من الجانب الآخر. وأدركت أن المتكلم أخطأ الرقم وحاولت مساعدته فقلت: "لا بأس، أنت تريد مستشفى نورث كانساس، أليس كذلك؟" وقبل أن أتمكن من اعطائه الرقم الصحيح للمستشفى سمعت شهقة أخرى وصوتا متلعثماً: "عجباً، انكم معشر رجال المباحث تعرفون كل شيء حقاً."

ش.س.

---

الحقيقة لا تترك أثراً الا في المستعد لتلقيها. ك.م.

كتاب الشهر

# رحلة الجبل الأحمر

بقلم فرنكلين رصل



# رحلة الجبل الأحمر

**لم تعرف غرينلاند في السنوات الألف الأخيرة جبلا جليدياً يضاهيه ضخامة. فهو في الواقع كتلة مخيفة غريبة الشكل تزن ٤٦ مليون طن وتشبه فأساً من العصر الحجري. وعندما ترسل شمس القطب الشمالي المنخفضة أشعتها عليه تراه متوهجاً بلون قرمزي كأنما النار مشتعلة فيه. ولقد اذهل جماله الرهيب كل من رآه وروّعت ضخامته كل من نظر اليه.**

**وفي هذه الرواية المثيرة التي تتناول سيرة كتلة جليدية هائلة يصف المؤلف فرنكلين رصل، العالِم بالتاريخ الطبيعي، العوامل الطبيعية في القطب الشمالي وأثرها في الجبل الأحمر الذي جاس البحار الشمالية ثم شق طريقه جنوباً الى مجاز جبل الجليد في موعد مع الموت**

اتكأ سائق الزورق على مجذافه الى جانب أحد جبال الجليد، وبدا البحر حوله ضارباً الى الصفرة وقد انعكست عليه شمس منتصف الليل. وشاهد أمامه جداراً من جليد ينتهي اليه نهر الرينك الجليدي(١) الضخم. وظهرت تحت زورقه "حفرة الولادة" التي يبلغ عمقها أربعمئة متر ستسقط فيها يوماً كتلة الجليد التي يتكون منها الجدار.

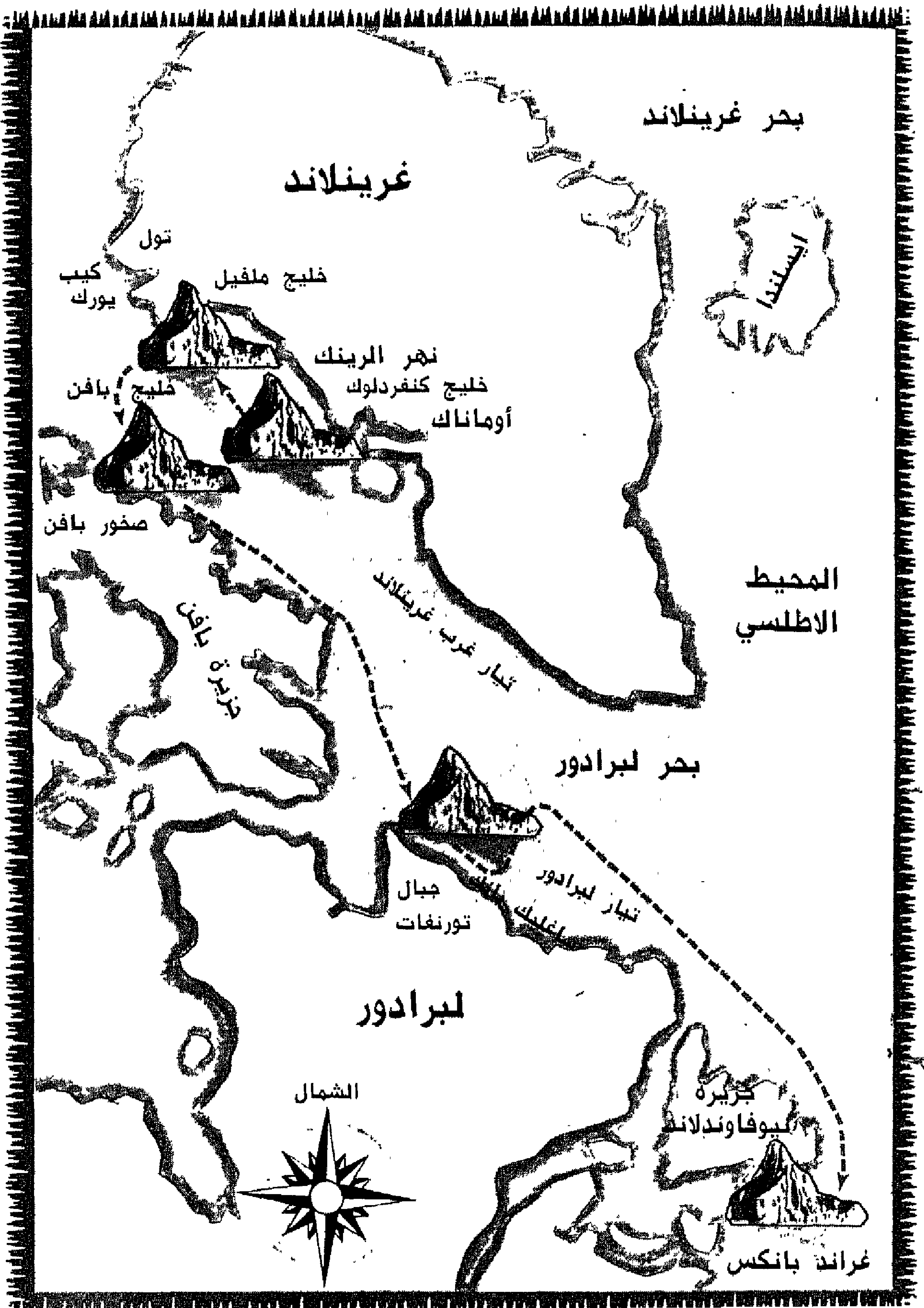
وكان الرينك يدفع جليده الى البحر بمعدل ٣٥ متراً يومياً. وكان ذلك النهر واحداً من أشد الأنهار استعصاء على الملاحة في غرينلاند، تحجبه عن النظر جدران الخليج العميق الضيق الذي يجري اليه، تلك الجدران التي يبلغ علوها ثلاثمئة متر. وبدا الخليج مملوءاً بما تناثر من الجبال الجليدية التي انفصلت عن النهر. وكانت انشقاقات جديدة تدفع هذه الجبال الى الحقل الجليدي فالى مدخل الخليج، ومن ثم تتباعد لتصبح جبالا جليدية محيطية تظل مبحرة حتى تذوب كتلتها أو تتوقف التيارات المائية عن دفعها.

والواقع أن سائق الزورق، وهو منتج

---

(١) Rink Glacier

Illustration: David Willardson



بحر غرينلاند
غرينلاند
ايسلندا
تول
كيب
يورك
خليج ملفيل
نهر الرينك
خليج بافن
خليج كنفردلوك
أوماناك
صخور بافن
المحيط
الاطلسي
تيار غرب غرينلاند
جزيرة بافن
بحر لبرادور
تيار لبرادور
جبال
تورنغات
لبرادور
الشمال
جزيرة
نيوفاوندلاند
غراند بانكس

سينمائي تشيكي طاف في العالم بحثاً عن المناظر الطبيعية، كان يزمع أن يكون أول من يشهد انهيار جبل جليدي ضخم في هذا المكان النائي. وكان غادر قرية أوماناك، وهي جزيرة تقع في جنوب شرق منطقة الرينك وتبعد عنها مسافة ١١٣ كيلومتراً، وأخذ يجذّف عبر جبال الجليد المتعددة الألوان المندفعة ببطء نزولا الى المياه الواسعة في خليج أوماناك. ووجد نفسه إنساناً حراً في عالم ليس له نظير. ورأى الجليد يجاوزه عائماً وقد اتخذ شكل الأهرام أو الابنية الحديثة العملاقة. وبدت جبال الجليد زرقاء، بيضاء، رمادية. وكان بعضها المنفصل عن أسفل أنهار الجليد قد صبغ بلون أصفر استمده من وحول المنطقة الداخلية.

وكان أهل أوماناك حذّروا التشيكي من مقاربة الرينك فقال له شيخ القرية: "إن اقترابك منه ضرب من الانتحار لأنك ستقع في الشرك وتتحطم وتغرق ولن يكون في وسعنا إنقاذك." غير أن التشيكي كان قرأ أن أحد الرجال تمكن في الثلاثينات من الوصول وحده الى الرينك ثم رجع بعد مغامرات مثيرة في خضم من المد والجزر والزلازل والعواصف.

وعندما دخل التشيكي خليج كنغردلوك الذي يبلغ طوله خمسين كيلومتراً ويقع فيه الرينك، أخذ يتقدم متلوياً في الكهوف الزرقاء التي يتردد فيها الصدى عبر أهوار الشظايا الجليدية المنبعثة من أروقة جبال الجليد ذات الجدران المنحدرة والتي تبدو السماء من خلالها أشبه بكوة مستطيلة تعلو مئات الأمتار. وكان عليه أن يتسلق الكتل ويجر زورقه وينزلق في الأنفاق. وفي أثناء الليل كان الماء يتجمد حول زورقه والرعد يدوي فوق قمم الجليد العالية. وكان الحقل الجليدي يتقدم الى البحر على نحو مطّرد وهو يتمايل باضطراب أحياناً فيما تنسحق جبال الجليد وتتحول شظايا جليدية أو ترتفع بجملتها فوق المياه. ولا تلبث الانفجارات أن تملأ الفضاء ويتصاعد رذاذ الجليد كأنه ثلج خفيف أكمد.

وتذكر الرجل ما قيل له في أوماناك: "اذا وقعت في الشَرَك فلن يكون في وسعنا أن نجد جثتك."

ووصل التشيكي الى مياه "حفرة الولادة" بعدما أمضى أربعة أيام مضنية في الخلجان العميقة المتجمدة. وبدا جدار الرينك الضخم أكثر قتامة من خلال شمس منتصف الليل الباهتة التي انعكس نورها عبر الغيوم الفضية المنخفضة. وحين أنعم التشيكي نظره في ما حوله رأى لوناً ضارباً الى الحمرة منعكساً على المياه الصفراء المخضبة بالطين. وانحبست أنفاسه عندما أدرك أن الجدار العالي المحيط بجانبي الجليد المحمرّ بدأ يترجح متمايلا بحركة بطيئة مهيبة. ولم يلبث أن رأى كتلة ضخمة تضاهي في علوها "برج ايفل" الباريسي (٣٠٠ متر) تهوي ببطء الى الجهة الشمالية للخليج. ثم شاهد دفقاً من المياه البيضاء يندفع خلفها نحو النهر الجليدي.

وارتفعت أعمدة من البخار الأبيض خلف مقدم النهر المترجح وتوجهت نحو سحابة كثيفة منخفضة. وراح المطر ينهمر وحُجبت الرؤية. وخيّل إلى الرجل أنه يشاهد ومضات من البرق. وشرعت كتل

الجدار تتكسر منفصلة عن الكتلة الرئيسية القرمزية القاتمة. وأخذ الجليد الساقط في "حفرة الولادة" يرتفع ويتحرك ببطء فيما اندفعت الأبراج البيضاء الى عل يحرّكها نزوعها الطبيعي الى الطفو في الماء.

والحق أن روعة المنظر أعمت الرجل عن الخطر المحدق به. فهو ابتعد نحو ثمانمئة متر عن "برج إيفل" ومضى في اتجاه جدار النهر الجليدي. وراحت الأمواج المرتفعة تندفع نحوه، لكنه قدّر ان في وسعه ان يعوم عليها كالفلّين.

فجأة تحطمت الكتلة الحمراء كلها وتوارت في غيوم من الزبد. وفي الوقت نفسه ارتفعت موجة عظيمة صفراء لتحجب المنظر كما يرتفع الظل من أسفل النافذة. فجثم التشيكي من دون حراك ويده على فمه. وطفق الزورق يدور وألفى الرجل نفسه يرتفع على المنحدر الأمامي للموجة ويندفع مباشرة الى "برج إيفل".

على أن هول الصدمة خففه الماء المتفجر الذي انبثق من الموجة المتراجعة في أثر اصطدامها بالجبل الجليدي. وبقي التشيكي في زورقه حياً، بل إنه لم يصب بأي أذى. إلا أنه أحسّ كأنه قُذف في الفضاء. وفيما هو يرتفع متمايلا وقد أحاطت به ستائر الزبد تمكن من رؤية الكتلة الحمراء وهي تطلع من صفرة "حفرة الولادة".

والمعروف أن الجليد الذي يكوّن النهر يمكن أن يرجع وجوده ألوف السنين. فانضغاط الغازات القديمة داخل مادته ينتظر الانعتاق. وبدا أن ضربة الموجة أعادت الحيوية الى الجبل الجليدي. وفي عملية تفكك بطيء تلاشى "برج إيفل" في البحر.

ولم يكد التشيكي يبدأ السقوط حتى وجد أنه بات في ورطة أشد. فقد تحطم زورقه وتمزقت ثيابه وجعل يطفو على مياه الخليج مدفوعاً الى الكتلة الحمراء المنبثقة من الرينك، تلك الكتلة التي لم يُعرف لها مثيل خلال ألف سنة.

## عين في الفضاء

كانت عدسة التصوير الدقيقة التابعة للقمر الاصطناعي "تيروس ١٢" تحوّم فوق ساحل غرينلاند. وراح القمر يرصد ألوف الكيلومترات المربعة من الجليد المتراص والانهار الجليدية والجبال والخلجان والصحارى الصخرية وبحار القطب الشمالي المتلألئة. وكشفت العدسة كل التفصيلات المتعلقة بالسفن والطائرات العابرة والجليد المتراص والعواصف المندفعة كالأكفان الملتفة عبر كون تهيمن عليه قصور جليدية عائمة.

كان ذلك في أوائل شهر سبتمبر (أيلول)، والساحل الغربي في غرينلاند والساحل الشمالي الشرقي في جزيرة بافن في حركتهما النموذجية. وكان الغطاء الجليدي يغلف ٨٥ في المئة من جزيرة غرينلاند التي تبلغ مساحتها مليونين و١٧٦ ألف كيلومتر مربع. وبلغت سماكته ١٦٠٠ متر. وكان دائم الحركة ويشعّ الى الخارج في جميع الاتجاهات.

وبدا الجليد الآخذ في الامتداد من خلال عدسة تيروس أنهاراً جارية ذات ألوان مختلفة، وأنسجة وظلالا ذات أشكال وأثلام لا حصر لها. وبلغ عرض بعض هذه الأثلام

كيلومترات. والواقع ان هذه الأثلام تغدو أنهاراً جليدية عندما تدفع الى السواحل وتضيق لتصبح أشبه بأشرطة ترسب في الشقوق الصخرية العميقة الضيقة. وفي الساحل الغربي من غرينلاند نراها تنطلق نحو مئات الخلجان. أما في جزيرة بافن فكانت الحركة في معظمها من صنع الانسان. فمراكب التموين تبحر شمالا وتنزل أحمالها من الطعام والوقود في القرى التي سيعزلها الجليد عما قريب. أما المراكب المحملة بالمعادن والغاز الطبيعي السائل فكانت تبحر جنوباً بعيداً عن الجليد.

وكان في وسع تيروس تحديد تعاقب الفصول من خلال رحلات جبال الجليد. ففي الربيع تنطلق هذه الجبال من خلجان غرينلاند الضيقة. وفي الصيف تدخل الخلجان العمياء وتقع في أشراكها. وفي الخريف تدفع الى المياه الضحلة حيث تبقى محرومة من التيارات المحرِّرة. وفي الفترة التي يغيب خلالها الجليد يعمد تيروس الى مراقبة الجبال الجليدية التي يوجهها تيار غرينلاند شمالا فتنطلق نحو خليج ملفيل حيث تنهار ألوف منها.

وفي سنوات ماضية عبر بعض جبال الجليد من غرينلاند الى كندا. وفي سنوات أخرى حذت جبال كثيرة حذوها فيما أكملت جبال أخرى رحلتها جنوباً منطلقة من جزيرة بافن. وكانت تلك الرحلة طويلة وخطرة تقتضي النزول الى مجاز جبال الجليد(٢) وراء منحدرات لبرادور الصخرية القاتمة، ودخول مياه نيوفاوندلاند ومن ثم ممرات السفن.

كان تيروس يراقب هذا كله بهدوء وينقل الاشارات اللاسلكية من سفينة الى أخرى ومن الشاطىء الى الطائرة ومن الطائرة الى القاعدة. وهو، الى ذلك، كان ينقل الصور. وكان دماغه الالكتروني ينظّم كل ما يراه.

## شيء غريب

من بين ما شاهده تيروس سفينة لشحن المعادن تغادر منجم بلاك انجل في مرموريليك على ساحل غرينلاند الغربي. وفي الوقت نفسه جعل تيروس يتفحص مدخل خليج كنغردلوك الذي يقع على مسافة ٦٥ كيلومتراً في الشمال الغربي، فلحظ جبلا جليدياً كبيراً يجثم هناك وضباباً يتقدم من الجنوب. ونقل تيروس المعلومات الى تولوز (جنوب فرنسا) حيث الدماغ الالكتروني الرئيسي. ولم تلبث هذه المعلومات أن نُقلت الى أصحاب السفينة في فانكوفر (كندا) فاتصل هؤلاء هاتفياً بالمتعهدين الهولنديين في أمستردام الذين استأجروا السفينة. فعمد هؤلاء بدورهم الى الاتصال لاسلكياً بربان السفينة وأخبروه بالخطر الذي ينتظره.

والواقع أن بعض المعلومات التي كانت تتدفق على تيروس من خلال الدماغ الالكتروني كان مصدرها ثلاث سفن غير راسية وغير متحركة في البحار تحته. وكانت هذه السفن "بن اوشن لانسر" و"هدسونيان الرابعة" و"تكسلو" التي تعمل في استخراج النفط وتستخدم تيروس وأقماراً اصطناعية أخرى مراكز

(٢) Iceberg Alley

ثابتة للمراقبة. وعندما كان تيروس "يرى" أن إحدى هذه السفن تحركت أكثر من ثلاثة أمتار كان يعمد الى إعادتها الكترونياً الى موضعها الأصلي فوق بئر النفط.

وكان هناك كثير من الزبائن الذين يحتاجون الى "ذكاء" تيروس. ومن هؤلاء المجموعة الدولية لمراقبة تحركات الجليد التي يقع مركزها في غروتون بولاية كونتيكت ويديرها قسم خفر السواحل في الولايات المتحدة. وقد نجحت هذه المجموعة مدة سبعين سنة في تلافي أي تكرار لكارثة الباخرة تيتانيك وتمكنت من مراقبة المناطق الجنوبية.

في أواخر شهر سبتمبر (أيلول) اعلم تيروس الدماغ الالكتروني الرئيسي أن هناك شيئاً غريباً في مدخل خليج ضيق شمال أوماناك. وكان ذلك جبلا جليدياً هائلا يبلغ طوله نحو ٦١٠ أمتار وعرضه نحو ١٥٠ متراً. أما شكله فأشبه برأس الفأس. وكان مسنّناً في أحد طرفيه وكليلا في طرفه الآخر. وفي مركز لرصد الجليد في أوتاوا قدّر أحد الادمغة الالكترونية وزنه بستة وأربعين مليون طن، وهذا يعني أنه أكبر جبل جليدي عرفته مياه غرينلاند. وفي إحدى جامعات نيوفاوندلاند قدّر دماغ الكتروني مدة بقائه بست سنوات. واذا أخذت ضخامة كتلته في الاعتبار، فمن الممكن أن يبلغ ساحل شمال افريقيا في حال وجود التيارات المائية الملائمة.

وتقرر المضيّ في البحث بوسائل أقل غرابة، فاستعين بطائرة مروحية تابعة للخطوط الجوية في غرينلاند راحت تحوّم فوق الجبل الجليدي. وسرعان ما صدر إنذار بأنه كبير الى حد يشكل خطراً على الطائرات التي تحلق فوقه على علو منخفض. ولم تلبث إحدى الطائرات الدانمركية أن صورته بواسطة الرادار. وتلقى مركز رصد الجليد المعلومات المتوافرة.

ولقد أذهل هذا الجبل الجليدي كل من رآه. وذكر مشاهدوه أنه لم يكن أزرق أو أبيض أو رمادياً بل كان مخضوباً باللون الأحمر. وعندما اخترقت أشعة الشمس زاويته اليمنى بدا كأنه يشتعل وبدت كتلته المخيفة ملتهبة. ودعاه أحد خبراء جبال الجليد "جبلا أحمر عظيماً عائماً."

## صياد الايائل

بعد قرابة سنة بُعيد مغيب الشمس في كيب يورك الواقعة في شمال غرينلاند، انطلق أحد صيادي الأيائل بزورقه البخاري في مياه خليج ملفيل الرمادية. وغمرت المياه جانبي الزورق. وكان في الزورق ٥٥٠ كيلوغراماً من لحم الأيائل ينبغي نقلها الى قرية سفيفسيفيك في الجهة الجنوبية الشرقية على بعد خمسين كيلومتراً تقريباً. ورأى الصياد أن عليه أن يكون يقظاً كي يتمكن من معرفة طريقه في جليد خليج ملفيل الذي يغلفه الضباب الكثيف. وقد أخبره الرجال البيض أن كثافة الضباب هي نتيجة اختلاف درجات الحرارة في الخليج. وكانت جبال الجليد تعمل كما تعمل الثلاجات فتبرّد الهواء والماء على نحو مماثل. كذلك كان كل جبل جليدي أقرب الى مضخة ترفع الماء الحلو

الذائب البارد من قعرها المغمور. وكان هذا الماء أقل برودة من الماء الذي حوله، وكان أحياناً يصدم الهواء البارد المتدفق من منحدرات الجبال الجليدية فيرتفع الضباب كالبخار من الإبريق.

جعل الصياد ينظر من الجانب الأيمن للزورق فوجد أن كيب يورك اختفت عن الأنظار وأن المنحدرات الصخرية الشاهقة على الشاطىء استحالت ظلالا، فعمد الى متابعة طريقه في الخليج. وكان مظهره بدائياً، بل يكاد يكون متوحشاً بوجهه الآسيوي الناحل ذي العظام البارزة وشاربيه الطويلين الرقيقين وشعره الأسود الطويل المنسدل على كتفيه اللتين غطتهما سترة من جلد الفقمة. وكانت رجلاه ملفوفتين بهذا الجلد وكان ينتعل حذاء من جلد الأيل.

وأخذت كثافة الضباب في الازدياد واندفعت أمامه سلسلة من الجبال الجليدية المتعاقبة في دائرة بطيئة بلغ قطرها حوالى خمسين كيلومتراً. وفي هذه الدائرة كان الوهن يصيب تيار غرينلاند. وكان الصياد يعرف أن فيها تنتهي رحلات كثير من جبال الجليد. وهو رأى في الصيف السابق جبلي جليد مميزين يندفعان في الدائرة، وهذه السنة لاحظ انهما مستقران فيها من دون حراك.

وكان احترام الصياد لجبال الجليد مشوباً بالخوف، وكذا حال كثيرين من أهل غرينلاند. وكان أحد تلك الجبال تسبب في مقتل عمه الذي صاد فقمة ثم خاطر بالاقتراب من جبل الجليد غير مبال بالصخور القائمة تحت الماء قرب الشاطىء. على أن صيادي غرينلاند لم يتوقفوا عن الصيد بين جبال الجليد لأن دمهم اختلط بدم أهل الشمال. فقد كان صياد الأيائل يجمع بين لين الاسكيمو ووحشية الفايكنغ(٣).

وأخذت ميمنة الزورق تترجح بين أبراج الجليد الخافية محدثة صوتاً له رجع مخيف. وشق الصياد طريقه بين هذه الابراج مستعيناً بضرب من "الرادار" السمعي. غير أن الأصداء باتت متشابكة منذرة بالخطر. وسرعان ما حل الظلام فجأة. ونظر الصياد الى ساعة يده فوجد أنها لا تزال العاشرة والنصف صباحاً. والواقع ان دثاراً من السحب الأرجوانية يزحف أحياناً على خليج ملفيل على نحو مفاجىء فيجعل المكان شديد الظلام. فما كان من الصياد إلا أن أوقف محرك زورقه وتابع طريقه بهدوء.

## صرخة مريعة

تذكر الصياد أنه كان ذات مرة ينحدر في خليج كنغردلوك الطويل الضيق وصاد بطة كانت تطير مسرعة فوق الأمواج، فشرع الجليد يسقط من ذرى المنحدرات الصخرية وبات الخليج مضطرباً بالزبد ومضت ساعة كاملة قبل أن يهدأ. وتذكر أن والده قال له مرة: "لا تحدث أصواتاً عالية عندما يكون الجليد الضخم على مقربة منك." وعلى رغم ذلك صرخ: "ها!" لأنه كان متحرقاً لسماع صدى.

إلا أنه لم يكن لصراخه أي رجع. وبدأ

(٣) الاسكيمو شعوب تقطن كندا الشمالية وغرينلاند وألاسكا وسيبيريا الشرقية، والفايكنغ محاربون اسكندينافيون غزوا سواحل اوروبا بين القرنين الثامن والعاشر.

خمسون ألف طن من الجليد السقوط من كهف عظيم داخل الجبل الجليدي الذي كان يتخبط فيه. ولم يلبث الزورق أن انقلب وسقط الصياد على رأسه وسط الظلام القارس. وبعد قليل نهض جارّاً قدميه وقد غمره الماء حتى وسطه.

ووجد الصياد فتحة في المكان فرفع جسمه من الماء وصعد اليها وهو يحفر بسكينه مواطىء لقدميه هارباً من صخب الكهف المظلم. وازداد خوفه عندما تخيل نفسه مدفوناً في الجليد الى الأبد. وأخذت أسنانه تصطك بمزيج من الرعب والغضب المستعر وساعدته خلاصة الادرينالين(٤) على الابتعاد جهد المستطاع عن المياه الباردة والجليد المتساقط.

وسمع فوقه رجع صدى لصوت مريع منطلق من أمامه. وسماعه هذا الصوت يعني أن هناك طريقاً يمكنه الهروب منها. وتغلبت إرادة الحياة على الخوف الذي انتابه فمضى صعداً.

ونظر الى أعلى فلمح ومضة من نور بدا له أنها مدخل أحد الشقوق. وصعد الى هناك فوجد نفسه في مكان مضاء بلون أحمر قان. واستبد به اليأس فكشر عن أسنانه وتابع صعوده حتى وصل الى الخارج حيث رأى بحيرة استلقى في مياهها الضحلة.

وبهر عينيه ضوء عكسه بياض قطبي ناصع لف الهواء وراء البحيرة. وعلا خلفه صراخ مريع لا يطاق، فالتفت فرأى أمامه صخرة حمراء انبعث ذلك الصراخ من ورائها. فأمسك سكينه باحكام وقفز من أعلى الصخرة كي يقتل الوحش.

كان قسم الشحن في الطائرة المروحية "جت رينجر" يحوي آلة تقف على أربع قوائم ذات زوايا وتمتد من جسم منتفخ لامع في أعلاه عدسة تلفزيونية متحركة. وقد اخترع هذا الجهاز الذي يدعى "ريكوردر - ١" كندي من خبراء جبال الجليد. وكان هذا جاثماً بين رباني الطائرة يحدق الى الخارج. وسأل مستعيناً بالمذياع في خوذته: "كم المسافة؟" فأجاب الطيار الاول: "انها ليست بعيدة." واشار الى شاشة الرادار وأضاف: "ها هي."

## "ردبرغ - ٦٦"

كان ريكوردر - ١ من صنع تكنولوجيا عصر الفضاء وهو يعمل بالطاقة الشمسية ويستطيع الاستمرار في العمل الى ما لا نهاية له. وكان فيه دماغ الكتروني صغير مبرمج على نحو يشغله في أوقات معينة ويوقفه في أخرى. ففي معظم أيام الشتاء القاتمة تغمض "عين" الجهاز التلفزيوني. غير أن هذه "العين" يمكن أن يعيدها الى العمل أحد الأصوات أو بعض الذبذبات، فتلتقط الصوت أو الرعشة قبل غيابهما وتصور مصدرهما ثم تعود الى الاغماض ثانية. كذلك في مقدور ريكوردر - ١ مراقبة جبال الجليد وملاحظة سلوك الفقم والدببة وطيور البحر.

وكان المطلوب وضع ريكوردر - ١ على قمة "ردبرغ - ٦٦"، ذلك الجبل العملاق الذي مضت سنتان على مراقبته وكان الجهاز محتاجاً الى منصة ثابتة تتيح نقله

---

(٤) الادرينالين هرمون منبه تفرزه الغدة الكظرية (فوق الكلية) خصوصاً وقت الخوف والغضب.

من غرينلاند الى كندا وربما نزولا حتى مجاز جبال الجليد. وقد وقع الاختيار على ردبرغ - ٦٦ بسبب ضخامة حجمه وعظم كتلته القائمة تحت الماء التي تدل على أنه يستطيع الابحار مسافة طويلة من دون أن ينقلب. وفي السنة الاولى من رحلته كان ينزلق مراوغاً إلى حافات الضباب ثم يخرج الى أن بلغ طائفة الجبال الجليدية المحيطة بالضباب في خليج ملفيل.

ولم يلبث الطيار الاول أن قال: "لقد وصلنا." ثم توجه الى وسط الضباب فبات في وسع ركاب الطائرة رؤية القمم الناتئة لجبال الجليد. وسأل أحدهم: "كيف يمكننا التعرف الى ذلك الجبل؟" فأجاب آخر: "إن في وسطه جسماً مائياً كبيراً وفي أحد طرفيه كتلة حمراء... انظروا، ها هو ذا!"

وبدأ الطيار يقترب بحذر من "مؤخر" ردبرغ - ٦٦ الملاصق للبحيرة، وعمد الى تخفيف سرعة المحرك استعداداً للهبوط. ثم سأل العالِم: "لماذا هو أحمر الى هذا الحد؟" فأجابه: "لعل السبب هو الغبار البركاني الذي سقط على جليد غرينلاند قبل ألوف السنين."

وهبطت الطائرة المروحية، عاكسة صورتها في مياه البحيرة المترجرجة، على حافة منحدر يؤدي صعوداً الى سلسلة تلال عند شاطىء البحيرة. فعمد العالِم الى تعليق عقيفة في حلقة على غطاء ريكوردر - ١. ثم فتح باب الطائرة وقفز الى مؤخر الجبل الأحمر. وراح يصلي كي يعطى ريكوردر - ١ القدرة على العمل ليخبره لماذا لا يصل الى خليج ملفيل سوى خمسة آلاف جبل جليد من ثمانية آلاف تغادر ساحل غرينلاند الغربي كل صيف ولماذا يتابع معظم هذه الجبال طريقه الى كندا أحياناً ويحجم عن ذلك أحياناً أخرى. كذلك كان يودّ أن يعرف ما هي آثار العواصف المنطلقة من كندا طارقة شواطىء غرينلاند.

نزل ريكوردر - ١ الى الجليد على سلكه الرفيع. وحفر العالم أربع حفر ضحلة كي يثبّت قوائم الجهاز الأربع، ثم أدار المفاتيح المحركة فبدأ ريكوردر - ١ يطن ويدير عينه الزجاجية.

وعرف العالِم من الأصوات المنبعثة من الآليات المؤازرة داخل الجهاز أن كل شيء على ما يرام. وباتت الجبال الجليدية المحيطة "راقصات" على الجليد في أداء أمام الكاميرا قد يطول بضع سنوات.

وبدا المشهد من قمة ردبرغ - ٦٦ يفوق الوصف ويحبس الأنفاس. وأدرك العالِم سبب الرهبة التي كانت تنتاب الانسان في العصور القديمة حين كان يعيش في قرب من الطبيعة مماثل.

وبعد قليل ظهر في أعلى سلسلة الجبال رجل متوحش الشكل يحمل في يده سكيناً. فانزلق العالِم وسقط وهو يحاول أن يتحاشى الرجل المندفع في المنحدر القريب. غير أنه تمكن من ركل رجليه المكسوتين بجلد الفقمة. وسقط المتوحش فخرج الطيّاران من المروحية وقبض الرجال الثلاثة على الغرينلاندي الذي كان يصرخ كمن أصيب بالهستيريا.

وتعين عليهم أن ينفقوا نصف ساعة لتهدئته وإقناعه بالصعود الى الطائرة المروحية. وكانت الشمس غدت كرة

حمراء وكادت أن تختفي في الضباب الذي لونته بلون زهري.

وما لبثت الطائرة المروحية أن أقلعت تاركة ريكوردر - ١ كي ينجز عمله.

## عبور عنيف

كان هروب جبال الجليد من خليج ملفيل ناجماً عن عاصفة عنيفة. انطلقت من كندا الوسطى واندفعت بقوة عبر خليج بافن. ولم تمضِ على وصولها الى ملفيل ساعتان حتى دُفعت الجبال الجليدية التي أحاطت بالخليج مدة سنتين، الى الشاطىء أو هي أعتقت لتندفع غرباً الى كندا.

ولوحظ من خلال ريكوردر - ١ ان العاصفة المقتربة ولّدت مشهداً من الصور الحية المتغيرة الالوان. فالبحر البارد أخذ يتلألأ بضوء قطبي صاف يكاد يعمي الأبصار. والأفق كان يغلي بلون أرجواني مضطرب غاضب. وجبال الجليد بدت واقفة كأنها أبنية بيضاء ملتهبة متروكة لليل المقترب.

وبعد مضي يومين على مغادرة الجبل الأحمر خليج ملفيل راح يتقدم جاهداً في بحر من الأمواج المتكسرة التي أخذت تضرب جوانبه فيما راحت الريح تضرب "شراع" الكتلة الحمراء في طرفه. وقد بلغ عدد الجبال الجليدية التي أخرجتها الريح من خليج ملفيل نحو ألف. وأتى مئة جبل آخر من النهر الجليدي كينغ أوسكار في جنوب ثول. وكان بعض هذه الجبال دُفع جنوباً في كتل جليدية مرصوصة ثم تمكن من الإفلات بمساعدة العاصفة.

وفي بداية اليوم السابع للعبور دخل الجبل الأحمر مياه تيار لبرادور ثم تحرك جنوباً نحو نيوفاوندلاند. وكان أمامه مياه بافن الضحلة الممتدة من الشاطىء الصخري والخلجان المثلّمة. والواقع أن جبالا جليدية كثيرة كانت استقرت هاهنا.

وفي فجر اليوم الثامن ساق الأسطول المتقدم جبال الجليد المتدافعة الى المياه الضحلة. وكان ريكوردر - ١ يحرك عدسته الى خلف والى أمام ويسجل مناظر مدهشة كتدافع جبال الجليد وتشابكها وتشكيلها مجموعات متحركة تستقرّ في تلك المياه.

وعندما بدأ الجبل الاحمر نفسه يغرز في المكان انبعث اولا صوت رعدة خفيفة تبعه صرير ناجم عن اصطدام مقدم الجبل، الذي يبلغ عرضه نحو ١٦٦ متراً، بالصخر.

وخيم على المكان صمت طويل أعقبه صوت كعواء الذئب. ثم سُمعت أصوات موج متكسر ومياه متدفقة وقعقعات ودويّ حاد.

وما ليث الليل أن جَنّ كأنه قناع. وعندما طلع القمر جعل ريكوردر - ١ يراقب كتل الجليد المتشابكة وهي تصطدم بعضها ببعض في حركة بطيئة. وسقط الجبل الأحمر على جبال خمسة أصغر منه حجماً. وراح أنين الجليد المتكسر يمزق سكينة الليل.

وعند الفجر بدا أن الجبل الأحمرَ استقرّ تحوطه جبال كثيرة أصغر منه. والواقع أن هذا الجبل كان لا يزال يتحرك بزخم وزنه العظيم. وكان ريكوردر - ١ لا يزال يصوّر وينقل المعلومات عندما اصطدم الجبل بطائفة أخرى من الصخور القريبة التي

سطح الماء. وبذا توقفت كتلة ردبرغ - ٦٦ برمتها عن الحراك. وطفق ماء البحيرة يجري قُدماً نحو الكتلة الحمراء ويدور حول الجبل ثم يستحيل سيولا من الزبد تحجب شمس الصباح.

وجعل ريكوردر - ١ يراقب عودة الموجة فلحظها تنحدر أولا نحو قعر البحيرة ثم ترتفع عبر المياه المترجرجة لتعود الى الظهور وقد غدت موجة أصغر تتحرك في خط مستقيم نحو آلة التصوير. وفيما كان الجهاز لا يزال منهمكاً في تسجيل دماره بذاته اندفعت الموجة نحوه فغمرته وجرفته نزولا عبر الجبل الأحمر. ثم قذفته الى المنحدرات الصخرية ليغرق في المياه الضحلة التي طفت على سطحها رقع الجليد.

## هبوط مشؤوم

في بداية فصل الربيع هبت على الشواطىء الجنوبية لجزيرة بافن عاصفة ثلجية تعمي الابصار كأنها عاصفة غبار وتتمتع في الوقت نفسه بخفة فراشة قطبية. وبعد دقائق صفا الجو وظهر وميض الجبال في ضوء القمر من خلال نوافذ الطائرة المروحية "توين أوتر".

وفي ضوء باهت قبل أن تطلع الشمس لتنزلق في الأفق كأنها عجلة برتقالية، عرّض الطيار نفسه لخطر التحليق على علو منخفض. وكانت المروحية تثب كلما اجتاز خليجاً كأنها حصان وحشي روّعه اصطدام هواء الخليج البارد الكثيف بالهواء الحار الذي فوقه. وكان الطيار ثبّت في قسم الشحن جهازاً بديلا من جهاز ريكوردر - ١. وهو في نيوفاوندلاند قال للذين أبدوا اهتمامهم بذلك الجبل الجليدي: "إذا ذهبت في هذه الرحلة فإنني لا أضمن النجاح في وضع الجهاز على جبل الجليد." فقيل له: "إن للجبل مؤخّراً مسطّحاً طويلا جداً، ونظن أنه يسعك الهبوط هناك. وإذا عجزت عن ذلك فسيتعين علينا إنزال طائرة مروحية وجعل إحدى السفن تقترب الى حدّ يمكن معه إنجاز هذا العمل."

وفجأة انطلق الطيار شرقاً بعدما أشارت شاشة الرادار الى وجود شيء ضخم قرب ميمنة الطائرة. وراح الجليد المتراص المظلم يتناثر مترجحاً تحت زجاجها الامامي. ولم يلبث ردبرغ - ٦٦ أن ظهر في ضوء الفجر متوهجاً بلون قرمزي باهت، فبادر الطيار الى تخفيف سرعة الطائرة.

وفي أروقة الجبل الأحمر ودهاليزه وكهوفه كان يُسمع صوت محركات توين أوتر. وكان جوف الجبل يرجّع ما تحدثه هذه المحركات من أصداء متناغمة. وأيقظت الجلبة دباً ظل في سبات مدة ثمانين يوماً فنهض وهو نعسان متذمر. والمعروف أنه بعد انقطاع العواصف الثلجية في بداية الشتاء تشق الدببة القطبية طريقها في الجليد المتراصّ نحو جزيرة بافن هرباً من المنافسة المرّة بين دببة غرينلاند للحصول على الطعام والمأوى. وقد غدا الجبل الأحمر الموتّد في مياه بافن الضحلة مَنارة لتلك الدببة. وفي داخله وجد هذا الدب مأوى له في فصل الشتاء.

وتمكن الطيار من رؤية النتوءات التي أحدثها الموج في جوانب جبل الجليد. غير

أن ظهر الجبل بقي سليماً ومسطحاً. وفيما الطائرة تتمايل مقتربة من مكان هبوطها وراء "مؤخر" الجبل الأحمر، شاهد الطيار بين الجبل الجليدي والشاطىء طائفة من الأشياء القاتمة اتضح أنها مزلجة وعدد من كلاب الاسكيمو. وكانت مجموعة من الصيادين الاسكيمو تركت مقرّها قبل أربعة أيام بحثاً عن الدببة في جليد الشتاء. وحين سمع الصيادون هدير الطائرة ضحكوا وقال أحدهم: "لعل الرجل الأبيض يعطب الطائرة عند الهبوط فيتسنى لنا الحصول على الوقود والدببة معاً."

وأولى الطيار لحظات الهبوط الأخيرة الصعبة انتباهه التام، فخفض الأجنحة الاضافية الصغيرة المتحركة وخفف قوة المحركات الخاصة بدرجة الانحدار الى أدنى حد ممكن وجعل يهبط بسرعة متوسطة. والمعلوم أن طائرة توين أوتر يمكنها الاقلاع والهبوط في مساحة تزيد قليلا على مساحة ملعب كرة المضرب. غير أن الطيار كان عمد، على سبيل الاحتراز، الى تزويد طائرته عجلات ضخمة.

وهبطت الطائرة في المكان المحدد لها لكنها ما لبثت أن فقدت توازنها، فاصطدم جناح مؤخرها بالجليد وتحطم محركها فراحت تنزلق على تلال الجليد الى أن استقرت في الناحية المتجمدة من بحيرة الجبل الأحمر.

ونزل الطيار بهدوء ثم رفع ريكوردر - ٢ من قسم الشحن المائل وجره الى مكان عال يبعد نحو ستين متراً عن الطائرة المحطمة. وهناك أقام قاعدة للجهاز مستعيناً بفأسه الخاصة بالجليد وعمل على تشغيله، فبدأت "عينه" تدور وبدأ تيروس - ١٢ يتلقى إشاراته.

ثم انحدر الطيار على الأطراف الشمالية لجبل الجليد مستعيناً بفأسه ثانية الى أن اقترب من رجال الاسكيمو. وهو صرف ساعة كاملة قبل أن يصل معهم الى أتفاق. وقضى الاتفاق بأن يأخذوا من توين أوتر بعض الأجهزة، وبينها الراديو، على أن يتولى أحدهم حراسة الطائرة حتى تأتي إحدى طائرات الانقاذ.

وفي مدينة تولوز عمد اثنان من اختصاصيي الأدمغة الالكترونية الى ضبط مرقابيهما كي ينقلا الصور التي بثها تيروس - ١٢. وقال أحدهما: "انظر الى رجال الاسكيمو." فقال الآخر: "إنهم حقاً يسترعون الانتباه."

## التيار القاتل

كانت المضايق الزرقاء المتلألئة المتشعبة من ساحل نيوفاوندلاند الجنوبي مفعمة بعدد لا يحصى من طيور البحر التي تقتات في دوامات المياه المزبدة الناجمة عن المد والجزر. وفي الجهة الشرقية لاح الجبل الأحمر في الأفق على بعد ثلاثين كيلومتراً. وفي جنوب الجبل بدا نجد ساغليك بانك المتاخم لشاطىء بحر لبرادور ومداخل ممرات السفن التجارية.

وراح تيار لبرادور يدفع الجبل الأحمر نحو مجاز جبال الجليد. وكان هذا الدفق الذي يعدّ الأعظم في القطب الشمالي كله ويساوي دفق ثلاثمئة نهر كالمسيسيبي، أزاح هذا الجبل وجمهرة من الصروح البيضاء الأخرى من مياه بافن الضحلة في

أوائل شهر يونيو (حزيران). وبات الجبل الآن منطلقاً بسرعة ١٨٥٠ متراً في الساعة الى تيار الخليج (٥) الذي يبعد بضع مئات من الكيلومترات ويقع في الجهة الجنوبية الشرقية.

وكان على الجبل الأحمر أن يواجه امتحاناً عسيراً في ساغليك بانك حيث تجبهه الظواهر الطبيعية القاسية. فالهواء الحار والموج يبدأان عملية الانهاك والتفكيك التي تدمر نصف جبال الجليد في هذا الجزء من المجاز. كذلك كان ساغليك هو المكان الذي ولدت فيه ظاهرة شائنة غامضة تدعى "التيار القاتل".

ولم يكن التيار القاتل ليعطي أي اشارة إلى السبيل الذي يسلكه. وكان يضرب كيفما اتفق فيتدفق في الأماكن العميقة والضحلة والمتوسطة العمق ويحرّك جبال الجليد كأنها حجار شطرنج. وحين كان الجبل الأحمر مسجوناً في الجليد الشمالي بدا كأنه مظهر فريد غريب من مظاهر التاريخ الطبيعي. غير أنه بات الآن رهينة التيار القاتل وأصبح يهدّد التجارة والملاّحين.

وتنبهت صناعة النفط الى خطر الجبل الأحمر من خلال المعلومات التي نقلها ريكوردر - ١ وريكوردر - ٢ والتي أوضحت جوانب خفية من سلوكه. وفي غروتون أصدرت المجموعة الدولية لمراقبة تحركات الجليد تحذيراً الى السفن تضمّن تحديداً لموقع الجبل الأحمر. كذلك تم تنبيه سفن الحفر الثلاث "بن أوشن لنسر" و"هدسونيان - ٤" و"تكسلو" إلى خطره المحتمل.

والحق ان مياه ساغليك بانك الشمالية عميقة نسبياً (يراوح عمقها بين ١٦٠ متراً و٣٣٠ متراً) وكانت تمرّ فيها جبال جليدية كثيرة من دون أن تضرب قعرها وتغرز فيه. وقد خف استدقاق طرف الجبل الأحمر في بداية السنة الثالثة لولادته نحو ثلاثين متراً بسبب احتكاكه بمياه بافن الضحلة. وعلى رغم ذلك زاد عمقه على مئتي متر في حين ارتفعت قمة الكتلة الحمراء ١٢٠ متراً فوق الأمواج.

وسرعان ما ضاق الشاطىء في الجهة الجنوبية حيث تحتجز مياه التيار القاتل في وهد ضيق. وهنا يسترجع التيار سرعته وينطلق بقوة نحو سطح الماء.

## مدينة من المستقبل

في ظهر ٢٦ يونيو (حزيران) الذي كان يوماً صافياً جداً اجتاز الجبل الأحمر مياه الوهد. ولم تلبث بقع بيضاء أن علت رؤوس الامواج وانعكست زرقة السماء في الماء وباتت السحب والبقع تزيّن الجبل الجليدي المتحرك. وبدت خلفه آثار طيور الفُلمار والنورس.

وبات التيار القاتل يطوق الجبل الأحمر الذي يزن ٤٢ مليون طن، وأخذ يدفع العارضة العميقة. واشتدّ الضغط على كتلة الجبل الجليدي. وفي الساعة الثالثة ازدادت سرعته الى ٢٧٠٠ متر في الساعة. ولا ريب في أن هناك خطراً واضحاً في مثل هذا الاندفاع.

وقد سلك التيار اتجاهاً جنوبياً في معظمه. غير أن الجبل الجليدي كان

---

(٥) Gulf Stream

يصطدم بقعر المياه الضحلة كلما تحول التيار عن سلوك خط مستقيم. واصطدمت العارضة الكليلة بجُرف من الصخر نتأ من بين الحصى والطمي، وتسببت الحركة البطيئة الخشنة في سقوط مئة ألف طن من الجليد.

وفي جوف الجبل الجليدي جعل الماء يتدفق الى المغارة التي هرب منها صياد الأيائل القادم من غرينلاند. وشرع الجبل الأحمر يميل قليلا الى الشرق.

وعند الغسق بلغ التيار القاتل أقصى سرعته وأعظم قوّته مع تغير المد والجزر. وشمل ضغطه مداخل الكهوف الغائصة تحت الماء والاروقة في جوف الجبل الأحمر، فأكره دفقات الماء على الصعود الى الشقوق الصخرية و"نزف" زبد الملح فوق الجليد العائم على المياه الباردة. وفي أثناء الليل راحت هذه المياه تجرف ما في طريقها محدثة صوتاً كالفحيح وآخذة في الاتساع والتموج والتمات.

وعند الفجر كانت سرعة الجبل الجليدي بلغت ٣٧٠٠ متر في الساعة. ورأى ريكوردر - ٣ الذي كان يتفحص ما حوله، ثلاثة أعمدة بيضاء ترتفع في مؤخر الجبل. وبدا أن ارتفاعها وهبوطها منوطان بحبال وبكرات خفية. وفجأة هبت ريح هوجاء جرفت مؤخر الجبل الجليدي العريض وحجبت الصورة موقتاً.

ولمّا كانت المعلومات المتوافرة عن القوى الحقيقية العاملة في التيار القاتل قليلة، فلم تتسنّ معرفة ما كان يحدث للجبل الأحمر على نحو دقيق. وورد في نشرة المعلومات العامة الخاصة بصناعة النفط ما يأتي: "إن الأوضاع المحلية المضطربة ينبغي ألا تغير الاتجاه الحالي لجبل ردبرغ - ٦٦. فمن المتوقع أن يتوقف اندفاعه خلال ١٢ ساعة على مسافة ٦٤ كيلومتراً الى شمال محطة بن أوشن لنسر. وليس هناك ما يشير الى تهديد لعمليات الحفر في هذا المقام."

وأكد هذه المعلومات مركز الأدمغة الالكترونية الراصد لأحوال الجليد. وتلقى ربان "بن أوشن لنسر" تقريراً إضافياً من المركز الرئيسي في كلغاري (كندا) يتعلق بالاحتمالات المستقبلية الخاصة بالجبل الجليدي ويذكر أن ردبرغ - ٦٦ سيستقر على بعد ٣٢ كيلومتراً شمال كيب وايت هنكرشيف.

وعلى مسافة ثمانين كيلومتراً الى جنوب الجبل الأحمر حجب الضباب "بن أوشن لنسر". وبدا برجها العالي من بعيد أشبه بالشراع. وإذا نحن اقتربنا قليلا لذكرتنا رافعاتها وطائراتها المروحية وأعمدة أنابيبها المخزونة بمدينة متطورة من مدن المستقبل. وفي برج القيادة حيث الادمغة الالكترونية وشاشات الرادار تنافس أجهزة الملاحة انحنى أحد الفنيين على ذراع آلية وطفق يرسم صورة لجبل جليدي بلغت من الدقة حداً مقبولا. ثم كتب تحتها ما يأتي: "ردبرغ - ٦٦. خطر لا يمكن التكهن بمداه. المعلومات الأساسية غير متوافرة." وما لبث أن قال للربان الذي كان قربه: "أظن أننا نواجه مشكلة." فأجابه الربان الهولندي: "إذا كان الأمر متعلقاً بذلك الجبل الجليدي الضخم، فليس هناك مشكلة لأنه سيتوقف قريباً."

انتاب القلق ربان السفينة القاطرة

الضخمة "أركتيك رانجر" وهو يجتاز مياه ساغليك بانك قرب "بن أوشن لنسر". فهو رأى أن مسألة اقتراب الجبل الأحمر لم تعالَج على نحو جدّي. وكان تلقى من غلفستون (ولاية تكساس) رسالة برقية بعثت فيه الدهشة جاء فيها: "راجع رئيس قسم الدماغ الالكتروني في السفينة الحافرة ايفنهو ساغا في ما يتعلق بجرّ الجبل الجليدي ردبرغ – ٦٦."

## ضرب من المستحيل

السفينة القاطرة التي يديرها هذا الربان كانت أكثر السفن خبرة بجرّ جبال الجليد في العالم كله. وكان محركاها التوأمان اللذان يعملان بالديزل يحويان ٢٤ أسطوانة ويتمتعان بقوة ١٤ ألف حصان. وقد أعطاها هذان المحركان القدرة على جرّ مليوني طن. وأرسل الربان الى غلفستون برقية جاء فيها: "إن هذا الجبل الجليدي يزن ٤٢ مليون طن ولا يمكن جرّه بالسفينة."

وكان الجواب: "لن يبقَ على هذا الوزن حين يصل اليك."

ورفع القبطان المذياع من حجره وقال: "من رانجر إلى سفينة الحفر، هل تسمعني؟"

فأتاه الجواب أن نعم، فقال: "عليّ أن اتصدى لهذا الجبل الجليدي وأغيّر اتجاهه يا صديقي. فأنت تضيع وقتي إذ تجعلني انتظر هنا من دون هدف. حوّل."

فجاءه الجواب: "إن في وسعنا السيطرة على المشكلة، وسنبقى على اتصال."

فردّ: "هذا ما تقوله، غير أني لست راضياً عمّا يجري وسأتوجه الى الشمال قليلا كي ألقي نظرة على هذا الجبل الجليدي. حوّل."

وسُمع من خلال المكبرات صوت خفيض منطلق من مركز على الشاطىء قال بلهجة كندية: "من هوبديل إلى بن أوشن لنسر. يبدو أن هناك أمراً طارئاً. فالمعلومات حول الجبل الجليدي ردبرغ – ٦٦ سلبية بالقياس على المعلومات السابقة. فهذا الجبل لن يتوقف. لذلك عليكم مغادرة مركزكم."

ثم سُمع الكلام الآتي بلهجة أهل تكساس: "أنا المشرف على عمليات الحفر. وإني سأطلق النار على كل نذل يحاول اخراجي من هذا المركز. فأنا أكاد أصل الى القبة. ألا تفهمون أيها الحمقى ماذا يعني ذلِك؟"

والواقع أن جميع الذين كانوا في المنطقة فهموا هذا الكلام. فقد يكون نجد ساغليك واحداً من أعظم الاكتشافات النفطية المفاجئة في التاريخ، إذ إن احتياطه النفطي يساوي مجموع ما في ستة بلدان في الشرق الأوسط.

ولم يلبث ربان أركتيك رانجر أن دخل الخط: "لا بأس في أن تتنابعا شجاركما إذا كان يحلو لكما ذلك. أما أنا فسأنعطف إلى ذلك الجبل الأحمر الغريب. هل تسمعني يا جيري؟ أتأتي معي؟ حوّل."

وقال ربان "أوشن راي"، وهي إحدى السفن القاطرة القريبة: "نعم. لنسرع."

والحق أن علم جرّ جبال الجليد هو مزيج من تكنولوجيا الادمغة الالكترونية ومهارات أشبه بترويض الخيل. وإذا كانت عملية الجر نفسها تبدو بسيطة فهي

ليست كذلك حقاً. وقد جرت العادة أن يطوَّق كل جبل جليدي بحبل مصنوع من البولياثلين يبلغ طوله مئات الامتار، ثم ألوف الامتار. وبعد انتهاء عملية التطويق يربط الحبل برافعة يبلغ علوها خمسة أمتار موضوعة وسط السفينة، ثم تبدأ عملية الجرّ بعد ارخاء الحبل المشدود الى السفينة بحيث تبقى هذه بعيدة عن جبل الجليد. وتقدّر قوة تحمّل الحبل قبل أن ينقطع بنحو ثلاثمئة طن.

ولا ريب في أن البراعة هنا تكمن في طريقة الانعطاف. فالجبال الجليدية تتحرك جميعاً وينبغي تغيير اتجاهها بتحويل بارع للقوة الدافعة في جوف الجليد.

ولئن يكن ربان "أركتيك رانجر" عاجزاً عن جر ٤٢ مليون طن من الجليد فإنه كان في وسعه تغيير اتجاه كتل ضخمة من هذا الجليد. ولم يكن هذا العمل خلواً من الخطر، غير أن النتيجة التي يمكن الوصول اليها من خلاله كانت تستحق المغامرة. فقد ينقلب الجبل الجليدي عند تطويقه أو بعد ذلك ويقلب السفينة معه. وقد ينقطع الحبل المشدود ويرتد الى الوراء فيضرب ظهر السفينة ويلحق الأذى بمن عليه. وقد تنفصل إحدى قطع الجليد عن الجبل وتسقط على الحبل فتغرق مؤخر السفينة ويهوي الملاحون في الماء. وكان ربان رانجر رأى مرة جبلًا جليدياً قد هوى طرفه المدبّب الى الوراء فظهرت "قدمه" المسنّنة على السطح وصدمت مؤخر السفينة ورفعته فوق الماء.

ولاح الجبل الأحمر على بعد ثلاث ساعات عن "بن أوشن لنسر" فقال ربان رانجر: "إن تطويق ذلك الجبل يبدو ضرباً من المستحيل."

على أن القاطرتين تابعتا عملهما. وكان لدى الربان نموذج الكتروني للجبل الأحمر فاتصل بالسفينة "راي" لاسلكياً وقال: "يا جيري، سأحاول أن أقذف بعقيفة معدنية إلى ميمنة مقدم الجبل ثم أبدأ الجرّ من تلك النقطة الى الجانب الأيسر كي تكسب الرافعة قوة وفاعلية. فهل يمكنك الآن أن تتولى العمل في مؤخره؟"

وكان كل من السفينتين القاطرتين مزودة جهازاً قاذفاً لم يكن أحد يركن اليه ولم يكن مجرّباً في العمل على نحو كامل. غير أن ربان رانجر أراد المغامرة ظناً منه أن الجهاز سيقذف بعقيفة من الفولاذ تتوتد في الجليد. وكان عليه الاقتراب بسفينته من الجبل الجليدي كي يتسنى للرجل القاذف تسديد قذيفته الى موضع مسطح. وراح يدعو ربه كي لا تسقط العقيفة كتلة من الجليد.

## شدّ الحبال

باتت سرعة الجبل الأحمر تزيد على ٣٧٠٠ متر في الساعة. وكان على السفينتين تطويق الجبل المتحرك من جانبيه الأيمن والأيسر. ولم يكن أي من الربانين يرى سفينة الآخر. وما لبثت القذيفتان أن انطلقتا فقال أحدهما: "لقد تمكنّا من تثبيت عقيفة في الجبل الجليدي."

فأجابه الآخر: "ونحن أيضاً نجحنا في تحقيق هذا الأمر."

وكان ينبغي أن يبقى الحبلان، اللذان جُعلت في طرف كل منهما عقيفة،

مشدودين بإحكام. وعمد ربان رانجر الى دواسات القابض فجعلها تنزلق فقط الى الحد الذي يتيح لسفينته أن تميل مع الموج. ثم سأل ربان راي: "هل أنت على استعداد؟"

فأجابه: "خفف الضغط، فأنا الآن فوق الحبل الذي تركته رخواً كي يتسنى لي العبور من دون عائق."

وفيما هو يرخي الحبل انبعث صوت كالصراخ من رافعته الكبيرة. وبدت الكوابح التي ديست بشدة مضطرمة بعض الشيء. وتعالى "نباح" الرافعات فوق السفينتين وسط حجاب كثيف من الدخان القاتم. وكانت تلك الرافعات صغيرة مملوءة بالهواء المضغوط تساعد في توجيه الحبل على النحو المراد. ثم ارتفع خوار المحرك الرئيسي الذي انطلق منه البخار وترامت أصداء الأصوات المنبعثة من الاسطوانات الثماني والأربعين في جوف الجبل الجليدي.

وخيم الهدوء لحظة فيما السفينة راي مندفعة وراء الحبل الجاري، وصمتت المحركات. ثم عادت السفينة الى الاندفاع بأقصى قوتها وراح الربان يدور بها حول مؤخر جبل الجليد وجانبه الأيمن وخاطب زميله: "أنا واثق من النجاح وإلّا فإني سأعود ثانية الى قيادة سُفن البضائع."

باتت الشمس كرة حمراء في الأفق وبدت جبال الجليد أشباحاً سوداء تهيم في وحشة قطبية حول الحافرة "بن أوشن لنسر". وكان جميع الملاحين والفنيين أصبحوا في برج القيادة. وعند الغسق جعل وسط السفينة المتلألىء يرجّع أصداء طقطقة المحركات وقعقعة أنابيب الحفر المعدنية في أيقاع سريع للتنقيب المستمر عن النفط. وقال أحد الملاحين: "الاتجاه ثابت وقد بلغ ٩١ درجة جنوباً والجبل يقترب منا الآن." فسأله الربان: "كم يستغرق وصوله الينا إذا حدث اصطدام؟"

فأجابه: "ساعة و١٥ دقيقة و٣٩ ثانية." فاستفهم الربان: "ألا يعيننا المسؤول عن أجهزة السفينة وتساعدنا المحركات؟"

والحق أن الربان كان نظرياً هو المسؤول عن السفينة، غير أن المشرف على أجهزتها كان هو الذي يتولى العمل في الواقع. ولم يلبث الرجل التكساسي أن قال: "أصغ إلي، إذا نحن غادرنا المكان الآن فلن نرجع إليه للحفر قبل بضعة أشهر. وهذا يعني أننا سنخسر ملايين الدولارات. فهل تريد أن تتحمل هذه المسؤولية؟ في هذه الحال ستكون البحّار الخامس في أحد قوارب النجاة."

قال الربان: "ألا نغادر مكاننا إذاً؟"

فأجابه بازدراء: "لا، ليس الآن. ولكن ينبغي أن نكون على استعداد."

في الحادية عشرة ليلا جعلت المحركات الرئيسية في السفينة تدمدم مؤذنة بالعودة الى العمل. ولاحت في الظلمة الدامسة ومضة باهتة ما لبثت أن انقشعت عن الأنوار الكشافة للسفينتين راي ورانجر الصغيرتين. وشرعت لنسر ترجّع أصداء هديرهما التي وصلت مضخمة من كتلة الجليد وراءها. ومالت القاطرتان كلتاهما في أثناء صراعهما لجرّ الجبل الجليدي.

وبعد عشر دقائق شاهد الملاحون في برج القيادة ربان رانجر واقفاً خارج برجه وهو ينظر الى الجبل الجليدي. وبدا المشهد جلياً من خلال الأنوار الكشافة المنبعثة من سفينة الحفر ومن ثلاث سفن أخرى كانت هناك. وقال ربان لنسر: "إنه لن يصطدم بنا." وظهرت أمارات الابتهاج على الملاحين حين رأوا أن الجبل الجليدي سينعطف عن السفينة الحافرة. وبلغت قوة الدفع في راي ورانجر تسعين درجة وحدث تغيّر واضح في حركة الجبل الأحمر.

وفيما كان الجبل آخذاً في الانزلاق انسدّت النوافذ اليمنى في برج قيادة لنسر بالجليد المتساقط. وبدت السفينة الحافرة تموج مع الهواء والماء وجميع ما حاق بها في ذلك المكان. ولم يسع أحداً أن يعرف أن الجبل الأحمر المتحرك على نحو مطرد كان في الوقت نفسه يشق خندقاً في ساغليك بانك بلغ عمقه عشرين متراً وزاد طوله على ثلاثة كيلومترات.

## "لقد توارى!"

أخيراً توقف الجبل الأحمر على بعد ٤٨ كيلومتراً عن الشاطىء تحوطه مياه ساغليك بانك الزرقاء اللامعة.

وفي أواخر يوليو (تموز) وصل الى المكان فريق من العلماء من شركة "آيس سيرتش" التي يقع مركزها في هاليفاكس (مقاطعة نوفاسكوشيا في كندا) لدراسة الجبل المطروق. وجاء في تقريرهم الذي وُزّع على نطاق واسع: "إن إمكان تحرك ردبرغ - ٦٦ يبقى ضئيلاً. فهو محاط بنحو خمسين أو ستين ألف طن من الطمي والحصى. وهذا يجعل المرور في تيار لبرادور متعذراً في الوقت الحالي. وخروج ما يسمى التيار القاتل عن المألوف لا يمكن ان يتكرر في هذا الموضع. وإلى ذلك فإن الجبل الجليدي استقر في حفرة من صنعه يبلغ عمقها عشرين متراً."

والواقع أن هؤلاء الخبراء كانوا بارعين في حقل عملهم غير ان استنتاجاتهم بُنيت على "صور كلية" مأخوذة من معلومات إحصائية ربما كانت ناقصة أو مغلوطة. والصحيح أن العلم لم يكن سبر أغوار هذه القفار.

وفي شهر أغسطس (آب) بدأ الشتاء يلقي رحله في أعلى القطب الشمالي. ولم يكن مضى عشرة أيام على اندفاع الجبل الأحمر الى الشاطىء حتى هبت ريح هوجاء وبات الماء المزبد جزءاً منها. واختلطت قتامة أحد خلجان تورنغات العميقة بزغب البط الأبيض وارتفع عواء الريح في مدخل الخليج.

وانطلقت الريح من الخليج ثائرة كأنها إعصار أو سهم منطلق من أحد الاودية الضيقة. وهيَ لم تجد ما يعترضها سوى الجبل الجليدي العملاق.

وكان الخبراء الذين تفحصوا الجبل الأحمر استعملوا جهاز سونار للمسح الجانبي (٦) لمراقبة كتلته الرابضة تحت الماء. وشاهدوا عدداً كبيراً من المجازات التي ثلمت السهل المليء بالحصى والرمل والطمي والذي استقر فيه الجبل

(٦) Side-scanning sonar. السونار جهاز يستكشف الاجسام تحت الماء بواسطة موجات صوتية تنعكس منها.

الجليدي. وكان بعض هذه الأثلام صغيراً ضحلا فيما كان بعضها الآخر يضاهي في عرضه قعر نهر. وكانت جبال الجليد التي تطوف في المكان تترك خلفها علامات أشبه بآثار الأقدام.

وكان أغرب ما اكتشف بواسطة السونار أن ألوفاً من آثار جبال الجليد كانت متوجهة الى الشمال. وطبيعي أنها كانت في الأصل متوجهة نحو الجنوب بقوة التيار. ولكن ما الذي حدا أعداداً كبيرة منها على الاندفاع الى غرينلاند؟

الحق ان عاصفة تورنغات كانت تهمّ بالاجابة عن هذا السؤال. فقد استحال عصف الريح صراخاً داخل كهف الجبل الجليدي واختفى الجبل الأحمر في العاصفة وانقذفت الطائرة المروحية توين أوتر في الجو، وهي كانت لا تزال في مؤخر جبل الجليد. واقتلع ريكوردر - ٢ من أساسه وراح يدور كالمروحة فيما تناثرت أدمغته الالكترونية قبل أن ينفجر هو عند اصطدامه بالبحر.

وبدأ الجبل الأحمر يتحرك عائداً الى غرينلاند. وبعد يومين أخذ بعض الفنيين في مكتب مراقبة الجليد في غروتون يتأملون الصور التي بثتها الاقمار الاصطناعية وينعمون النظر في المعلومات الأخرى المتعلقة بالجليد في شمال المحيط الأطلسي. وعمدوا الى فحص كتلة بيضية الشكل مكونة من الهواء العكِر ظهرت كما بين ليلة وضحاها على بعد نحو ١٥٠ كيلومتراً شرق شاطىء لبرادور. وتناول كبير العلماء مزيداً من الصور عن طاولة قريبة وقال مشيراً الى خط مستقيم قاتم امتد من الناحية الشرقية لساحل لبرادور: "لقد حصلنا على هذا في اليوم السابق."

فرد أحد الفنيين: "أكاد أجزم أنه ناتج من تشويش الريح." فقال: "هذا صحيح، ولكن ما سببه؟"

في المبنى الاتحادي في سانت جونز (نيوفاوندلاند) تناول رئيس الوزراء حزمة من الصور التي التقطتها الاقمار الاصطناعية لشمال المحيط الأطلسي ووضعها على مكتب مساعده الاداري وسأله: "أين هو ذلك الجبل الجليدي؟"

فعمد المساعد الى مجهر عظيم الفاعلية وطفق يتأمل منطقة ساغليك بانك وقال بعد قليل: "لا يمكنني أن أرى أي أثر له يا سيدي. وأنا أعلم أن كلامي هذا لا يعقل، غير أن الجبل الجليدي توارى عن الأنظار!".

## الرجل الطائر

كانت السفينة الحافرة "شمروك" راسية في مياه غراند بانكس على مسافة ١٦٠ كيلومتراً الى جنوب الموضع الذي ظُنّ أن الجبل الجليدي موجود فيه. وعلى ظهر السفينة شاهد الفنيون والملاحون المذيع التلفزيوني يقول بصوت جنائزي: "لقد توارى الجبل القاتل وسط الضباب وبات كالذئب بين الخراف. فإلى جنوبه يقع حقل نفطي لعله أكبر الحقول النفطية في السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية، وقد يكون البئرَ التي ستزوّد سياراتنا وبيوتنا الوقود في القرن الحادي والعشرين. ان هناك خوفاً كبيراً من أن يتوقف الجبل الأحمر في هذا الحقل ويوقع أسوأ كارثة في تاريخ النفط.

ولم تلبث أن وصلت الى سانت جونز فرقة عسكرية ركب أعضاؤها طائرة مروحية وتوجهوا الى الحافرة شمروك حيث استقبلهم المشرف على المنصة. وأكد لهم أنّ "هذا الجبل الجليدي لا يمكن أن يصل إلى محطة شمروك لأن عمقنا هنا يبلغ ٤٥ متراً بينما هو يحتاج إلى ما يزيد على ١٥٠ متراً. وإذا افترضنا أن في إمكانه الوصول الى هنا فإن لدينا ١٥ سفينة قاطرة تملك القدرة على تغيير اتجاهه. وإذا لم يُجْدِنا هذا ففي وسعنا اعتماد وسائل أخرى كفيلة بدرء الخطر."

وما لبث جرس الهاتف أن رن في مكتب المشرف الذي كان أرسل السفينتين القاطرتين "سكوتيش هيذر" و"بنيلوب" قبل أيام لتحديد موقع الجبل الأحمر ومراقبة تحركه وسلوكه. وبعد اثنتي عشرة ساعة اكتملت المعلومات المطلوبة على شاشات الرادار. غير أن ربان بنيلوب لم يلبث أن خاطب المشرف: "ان ردبرغ اختفى عن شاشة الرادار."

وكانت العاصفة التي هبت في شهر أغسطس (آب) وأزاحت ردبرغ من مكانه هدأت في الناحية الشمالية الشرقية من غراند بانكس حيث حجب الضباب الكثيف والأنواء الممطرة الجبل الأحمر فحصل تشويش على شاشة الرادار.

ومع حلول الظلام فجأة لم يرد أي خبر جديد عن موقع الجبل الأحمر. وجاء من بنيلوب: "لقد اجتزنا المنطقة ذهاباً وإياباً غير مرة من دون نتيجة. وأنا أقسم لك أنه اختفى!"

والواقع ان الجبل الاحمر استعاد قوته واندفع جنوباً عبر الضباب كأنه رجل طائر.

وأدى الهواء الحار المحيط به الى ازدياد سرعة ذوبانه مما جعله غير مستقر. وشرع الماء يتدفق من كتلته الآخذة في الاضمحلال فراحت سرعته تزداد على نحو مطرد كأن فيه محركاً يدفعه.

## الغضب الأخير

قبيل طلوع الفجر أطلقت صفارات الانذار في الحافرة شمروك وأسرع القيمون على السفينة في الاستعداد لما قد يطرأ. ووجد المشرف صعوبة كبيرة في الوصول الى نافذة المراقبة الشمالية. ولم يلبث أن تلقى تقريراً من سكوتيش هيذر جاء فيه: "لقد عاد الاتصال ثانية ويبدو أن هناك أمراً غريباً."

وظهرت في الافق مسحة من لون أصفر بدت قمة زهرية مذهبة من الجليد المشِعّ تلمع منتصبة بمفردها في الفضاء كأنها جذوة من لهب. وكان المنظر جميلا ومرعباً إلى حدّ جعل مراقبي شمروك يطلقون شهقة متناغمة. وسمع من خلال المكبرات صوت آت من بنيلوب: "أصغوا إلى هذا. انني ممسك بمكبر الصوت خارج برج القيادة."

وانبعث في شمروك صوت هو مزيج من الصرير والأنين والقرقعة أشبه بحشرجة الموت. وكان الجبل الأحمر الذي بات شكله الآن كخلية نحل أنفق ما بقي فيه من طاقة وهو يندفع جنوباً. ولم يعد يربط بين أجزائه سوى عرق أزرق يشدّ القمة المنحنية في مؤخره الطويل العريض الى الجهة الخلفية من الكتلة الحمراء في طرفه. وما لبث العرق الأزرق أن تكسّر فالتوت القمة وسقطت كتلتها.

وكان قعر الجبل انشطر قسمين. وأخذ طرفاه، الأمامي الذي يحمل الكتلة الحمراء والخلفي الذي يشتمل على مدرج هبوط طائرتي توين أوتر وجت رانجر المروحيتين، ينحدران في حركة بطيئة نحو المركز المنهار. فتولدت من ذلك سحابة من البلور الأبيض تشبه القطر. وبدا الطرفان كأنهما مطرقتان تضربان السندانين التوأمين في القعر المشطور. ولم تلبث المطرقتان أن تفككتا في أثناء نزولهما. أما السندانان اللذان كانا أثقل وزناً وأكبر حجماً وأقلّ ذوباناً فقد أخذا في الطلوع ببطء من ماء البحر كأنهما لوحان توأمان مكّنهما انزياح الثقل الرازح عليهما من الطفو في الماء.

على أنه لم يكن ممكناً لجم الطاقة المبذولة في عملية التفكك. فالكتل الجليدية الضخمة المتلاصقة كانت تستقر في البحر بعد سقوطها وسط غيوم الرذاذ المنتشرة في المكان. وما لبثت إحدى هذه الكتل أن ظهرت ثانية ثم هوت وهي تطلق هدير الحنق الاخير.

وبات ممكناً رؤية خط من الماء المتناثر ينطلق غرباً من الكتل الجليدية الهاوية.

وانطلق من شمروك صوت ملح: "بنيلوب، هل ترونه؟"

ولم يكن بقي للسفينتين بنيلوب وسكوتيش هيذر سوى قليل من الوقت لمواجهة الجدار المائي الرهيب الطالع من بقايا الجبل الجليدي المحطم. وأثار هذا المشهد في الربانين إحساساً بالرهبة شبيهاً بذاك الذي انتاب المنتج السينمائي التشيكي قبل ثلاث سنوات.

انطلق ربان بنيلوب الى أمام بأقصى سرعة ممكنة فيما انعطف ربان سكوتيش هيذر بأقصى سرعته. غير أن هذا لم يُجْدِ فتيلا إذ راحت السفينتان القاطرتان ترتفعان مع الموج وحجب الضباب الرؤية عن شاشاتهما في برجي القيادة وأخفى المناظر في الأفق. وانبعث من مكبرات شمروك صوت يصيح: "اثبتا!"

وشاهد المتفرجون الذين كانوا على منصة شمروك سفينتي القطر تندفعان مع الموج المتكسر المزبد وقد برز منهما جزء كبير خارج الماء ثم لا تلبثان أن تهبطا في حركة بطيئة، وبعد ذلك ترتفعان عائمتين ثانية كأنهما قطعتان من الفلّين.

وفي الصباح الذي تلا "موت" الجبل الاحمر استيقظ المشرف وصعد الى السطح ليراقب طلوع الشمس. وتساءل هل يمكن أن يعود الجبل العجيب الى الظهور.

ولاحظ من خلال الضوء المتزايد أن المنصة الضخمة كانت محاطة بخليط غريب من الأنقاض يشتمل على حطام جناح لعله للمروحية توين أوتر وعلى جيفة دب قطبي وعلى عوّامة زورق غرينلاندي.

وفيما الشمس تلقي أشعتها الساطعة على الماء لمح المشرف جثة المغامر التشيكي. وبدأ يدرك برهبة أنه عندما يعمد جبل جليدي كالجبل الأحمر إلى جوس البحار يغدو من السهل أن يقع الانسان ضحية على رغم التقدم التكنولوجي الذي يطبع عصرنا.

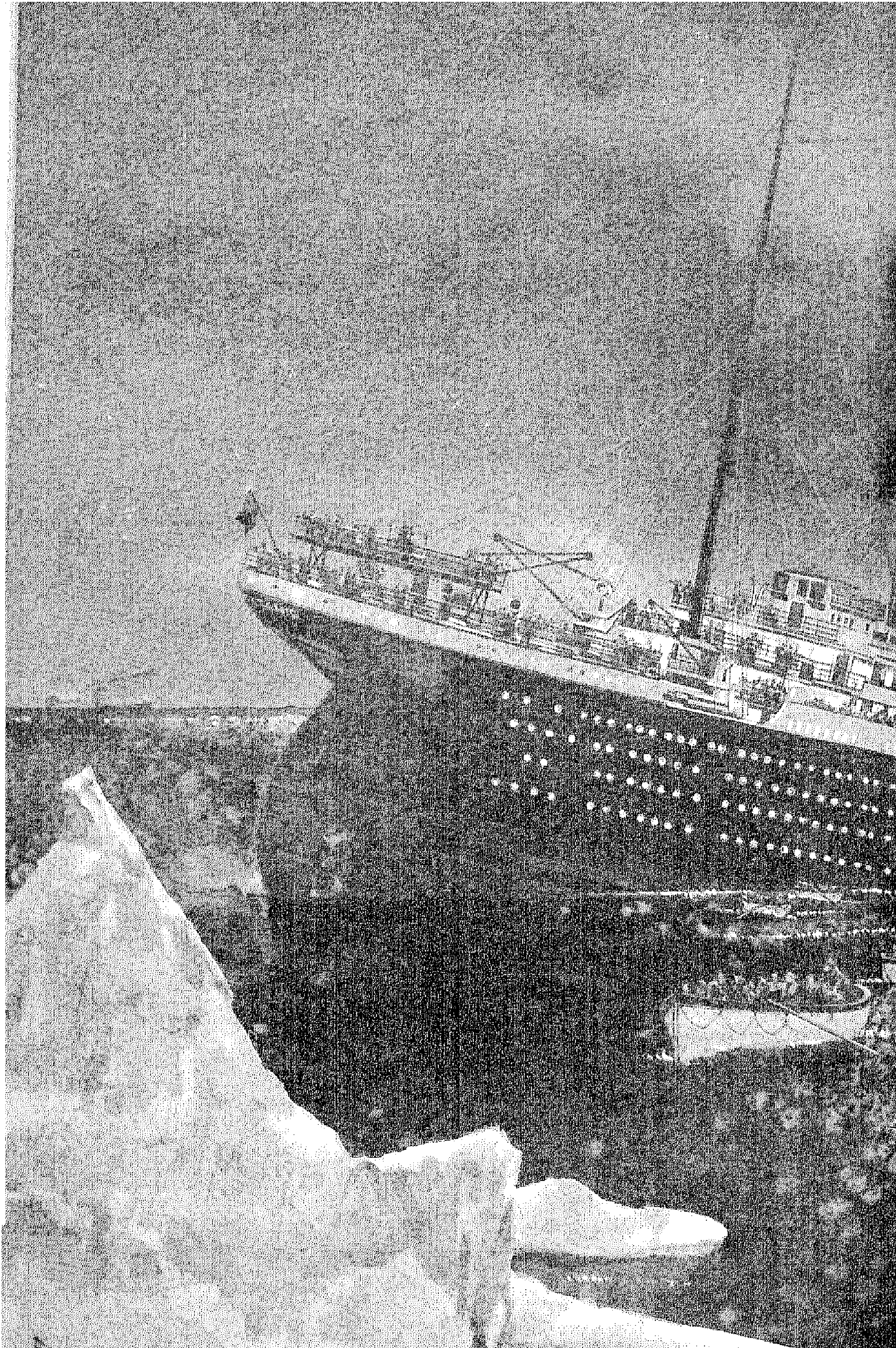
**فرنكلين رصل ■**

كتاب الشهر

# التيتانيك بعد ٧٤ سنة

(القسم الاول)

قصة الباخرة الاسطورة تعيد روايتها
مجموعة من محرري الـ"ريدرز دايجست"



# التيتانيك

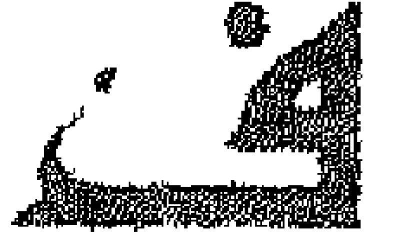
## بعد ٧٤ سنة

لقبت السفينة العظيمة "مدينة بابل العائمة" و"صرْح كاملوت البحري". وبدت متفردة بين السفن، مثيرة للهواجس، متسببة في المصادفات الغريبة. وهي كانت فندقاً فخماً يمخر عباب المحيط الأطلسي بسرعة تزيد على ٣٧ كيلومتراً في الساعة. غير أنها لم تلبث أن أصبحت في ١٥ ابريل (نيسان) ١٩١٢ ضحية "كارثة لم يعرف لها مثيل في تاريخ النقل البحري" على حد تعبير صحيفة "التايمس" البريطانية. وبقيت في مخبأها أكثر من ٧٣ سنة على عمق ٤٠٠٠ متر تحت سطح البحر واستحالت قبراً ضخماً دفن فيه معظم الضحايا التي قضت تلك الليلة وبلغ عددها ١٥٢٢ . وظل العثور على حطام السفينة بعيد المنال بسبب الظلمة التي ما فتئت تغشى ضريحها العميق.

إلا أن سلسلة الكوارث التي وقعت تحت البحر في الستينات حدت الاسطول الامريكي على تطوير وسيلة تكنولوجية تتيح البحث عن حطام السفن في أماكن عميقة جداً . على أن محاولات تحديد موقع التيتانيك منيت بالاخفاق خلال عقود متعاقبة الى أن تمكن فريق فرنسي - أمريكي مشترك من تحقيق حلم قديم بالعثور على هذه السفينة الأسطورية.

واليكم الآن الجزء الاول من قصتها كما اقتطفها وأوجزها محررو الـ"ريدرز دايجست" من ألوف الصفحات المقتبسة من التحقيقات والوثائق التاريخية وروايات الشهود العيان.

Illustrations: William Hosner



في العاشر من شهر أبريل (نيسان) ١٩١٢ أبحرت الـ"تيتانيك" للمرة الأولى من ميناء سوثمبتون في بريطانيا الى ميناء نيويورك. وكانت هذه السفينة التابعة للخط البحري "وايت ستار" أكبر سفينة في العالم وكان يُظنّ أنها آمن السفن بلا منازع. فقد كانت لها سافلتان وكان بدنها مقسماً ١٦ جزءاً لا يتسرب اليها الماء مما جعل الناس يذهبون الى أنها سفينة لا تغرق. وهي بنيت لتكون قارب نجاة هائلا كما وصفت.

وبعد توقفها في ميناء كوينزتاون في ايرلندا بات على متنها ٢٢٠٠ شخص. لكن تبديلات طواقم البحارة في اللحظة الاخيرة والخطأ في تعداد الركاب يجعل هذا الرقم غير مؤكد.

وفي حجرات الدرجة الاولى وأجنحتها الفخمة نزل عدد كبير من مشاهير الرجال والنساء من بينهم العقيد جون جاكوب استور وعروسه الشابة والرائد ارشيبالد بت المستشار القريب من رئيس الولايات المتحدة آنذاك وليم هوارد تافت ومدير متجر "ميسيز" (Macy's) الشهير العضو السابق في الكونفرس ايزودور شتراوس وج. بروس اسماي المدير المسؤول في خط وايت ستار. أما الحجرات الصغيرة المخصصة لركاب الدرجة الثالثة فعجّت بأكثر من ٧٠٠ مهاجر في طريقهم الى أرض الوعود.

يوم الأحد ١٤ أبريل (نيسان) بزغ الفجر جميلا صافياً. وراح ضابط المحاسبة في السفينة يؤدي خدماته في قاعة الجلوس. وفي التاسعة صباحاً تلقى المسؤول عن الجهاز اللاسلكي رسالة مضطربة من السفينة البخارية كارونيا جاء فيها: "الى ربان التيتانيك... السفن البخارية المتوجهة غرباً تفيد عن وجود جبال جليدية عائمة وحقول جليدية ضمن ٤٢ درجة شمالا وبين ٤٩ و٥١ درجة غرباً. تحياتي... بار."

ونقلت الرسالة الى منصة القيادة وسلمت الى القبطان إ.ج. سميث الذي قرأها وبث اشعاراً بتسلمها مع الشكر.

وقبيل الظهر بث الجهاز اللاسلكي رسالة مشوشة من الباخرة "بالتيك" تنذر التيتانيك بوجود جليد في ممرها. وتولى العامل اللاسلكي جاك فيليبس نقل الرسالة الى منصة القبطان. وقرأها سميث وهو يتنزه على متن السفينة ثم أعطاها الى بروس اسماي من دون تعليق. فقرأها اسماي ثم وضعها في جيبه وأخبر اثنتين من السيدات بوجود الجبال الجليدية وتابع نزهته.

وفي فترة ما بعد الظهر كان هارولد برايد العامل على جهاز مركوني يضع مسماعيه على رأسه. وفجأة سمع نداء الى التيتانيك من الباخرة "كاليفورنيان" القريبة يتعلق أيضاً بجبال جليدية. لكن برايد كان مشغولا بحساباته فلم يكلف نفسه عناء نقل الخبر للحال.

كان البرد قارساً على ظهر السفينة لكن الليل كان هادئاً والسماء صافية. وبعد العشاء اجتمع عدد من ركاب الدرجة الثانية في قاعة الجلوس وجعلوا يغنون. وقاربت الساعة العاشرة وهم ينشدون: "نرجوك أن تصغي الينا وتدفع الخطر عمّن في البحر."

وفي العاشرة حل الضابط الأول وليم مردوك محل الضابط الثاني تشارلز هـ. لايتولر في منصة القيادة. وتلقت السفينة ما لا يقل عن سبعة تحذيرات لاسلكية من وجود الجليد، وطلب من الرقباء أن يكونوا يقظين. وتوقع الضباط أن تبلغ السفينة الحقل الجليدي في أي وقت بعد التاسعة والنصف ليلا.

وفي حجرة الأجهزة اللاسلكية حيث حلّ جاك فيليبس مكان برايد عاد يُسمع طنين الاتصالات اللاسلكية الآتية من كاليفورنيان. وجاء في أحدها: "يا رجل، يبدو أننا حُبسنا هاهنا وسط الجليد."

فأجاب جاك: "صه، صه، أنا أكلم كيب ريس وأنت تشوش اشاراتي."[1]

وفي منصة المراقبة العالية كان الرقيب فردريك فليت يحدق الى الليل المتألق. ولم تكن السماء مقمرة، غير أنها كانت تتلألأ بالنجوم. وبدا المحيط الأطلسي أشبه بلوح زجاجي صقيل. وكان فليت أحد ستة مراقبين على ظهر التيتانيك هم "عيون السفينة". وفي تلك الليلة طلب من فليت مراقبة الجبال الجليدية.[2]

ولم يكن في منصة المراقبة أي منظار. ويبدو أن ما حدث هو الآتي: عندما غادرت السفينة ميناء بلفاست زوّد ديفيد بلير الرجال في منصة المراقبة منظارين، وهو كان الضابط الثاني آنذاك. إلا أنه حين حل لايتولر مكانه في ما بعد أعطى بلير قبل مغادرته السفينة تعليمات بنقلهما الى قمرته والاقفال عليهما.[3]

ولم يطرأ حتى الآن ما يعكر صفو فليت. فهو بدأ المراقبة في العاشرة وتحدث قليلا مع زميله الرقيب ريجينالد لي في مشكلة الجليد والصقيع. غير أن الصمت خيم معظم الوقت على الرجلين اللذين أخذا يحدقان إلى الظلام.

وفي الحادية عشرة والدقيقة الاربعين أشرفت نوبة فليت في المراقبة على نهايتها من دون أن يصادف أي أمر غريب. فهو لم يلاحظ سوى الظلام والنجوم والبرد القارس والريح الصافرة عبر حبال الأشرعة والصواري فيما التيتانيك تمخر البحر الحالك الهادىء بسرعة تزيد على ٤١ كيلومتراً في الساعة.

## "جبل جليدي أمامنا!"

فجأة شاهد فليت أمام السفينة مباشرة شيئاً أكثر إظلاماً من الظلام. بدا صغيراً للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما راح يكبر ويدنو. فأسرع فليت إلى جرس الانذار في منصة المراقبة وضربه بعنف ثلاث مرات متعاقبة. وفي الوقت نفسه رفع سماعة الهاتف واتصل بمنصة القيادة حيث سُئل بصوت هادىء: "ماذا شاهدت؟"

فأجاب: "جبلا جليدياً أمام السفينة مباشرة."

فردّ عليه الصوت بلطف لا أثر فيه للانفعال: "شكرا."[4]

وكان "الريّس" روبرت هيتشنز يدير دفة السفينة، فتلقى الأمر الآتي من الضابط الاول مردوك: "إلى أقصى

---

(١) لمعرفة المصادر التي أخذت منها المقاطع راجع اللائحة في نهاية هذا الكتاب. ورقم المصدر يشمل كامل المقطع الذي يسبقه.

اليمين." وفي العام ١٩١٢ كان هذا يعني إدارة مؤخر السفينة إلى الميمنة ومقدمها إلى الميسرة. وفيما مردوك يُبرق الى حجرة المحركات "الاستدارة التامة إلى خلف" عمد هيتشنز الى تنفيذ الأمر الشفهي وألقى بثقله كله على العجلة.

وقف فليت في منصة المراقبة من دون حراك فيما أخذ الشكل الذي رآه يكبر باطراد. وبعد وقت بدا غير متناه مال مقدم التيتانيك الى اليسار وشرعت السفينة تبتعد عن الجبل الجليدي. وأخذ فليت يستجمع قواه فيما كان الجزء الأعلى من مقدم السفينة يحتك بالجبل. وسقط الجليد على السطح الأمامي.

وفي أسفل السفينة كان الوقّـاد فردريك باريت منهمكاً في تجهيز أفران حجرة الوقود الرقم ٦ عندما "قرع جرس الانذار وبدا الضوء الأحمر، فصرخنا: أغلقوا الأبواب! وسُمع صوت اصطدام."

فجأة بدأ الزبد الأخضر يضرب جنب التيتانيك على علو نصف متر من الصفائح التي تغطي أرض الحجرة، ويضغط جدار ميمنة السفينة على طول الحجرة ٦ حتى يصل الى بعض أجزاء مخزن الفحم في الحجرة ٥. وأخذ جرس الانذار يصلصل فوق الباب المانع للماء والذي كان بدأ الغوص في الماء. وفيما كان الباب ينغلق تمكن باريت من الوثوب عبر فتحته الى حجرة الوقود الرقم ٥.

في قاعة الطعام الخاصة بركاب الدرجة الاولى جلس أربعة آخرون من ملاحي التيتانيك الى إحدى الموائد. وبينما هم يتبادلون الحديث سمعوا ارتجاجاً مفاجئاً



ذا صرير بدا منبعثاً من مكان عميق داخل السفينة. ولم يكن الارتجاج شديداً لكنه كان كافياً ليقطع الحديث ويتسبب في قعقعة الاواني الفضية التي أعدت لفطور الصباح التالي.

وأحس الركاب الـذين كانـوا في حجراتهم بهذا الاهتزاز أيضاً. أما الرائد آرثر ج. بويش الذي كان يخلع ثيابه استعداداً للنوم فظن أن موجة قوية ضربت السفينة. وأما الليدي داف غوردون التي أيقظتها الهزة المفاجئة فتهيأ لها "أن أحدهم كان يجر إصبعاً عملاقة على جنب السفينة." ولاحظت السيدة أ. د. ابلتون صوت تمزيق مزعج كأنما هناك أحد يشرط قطعة من القماش الخام.

وعندما سُمع ذلك الارتجاج كان سبنسر ف. سلفـرثورن، وهـو وكيل لشـركة "نوغنت"، مستلقياً في كرسي جلدي يتصفح كتاباً في غرفة المدخنين الخاصة بركاب الدرجة الاولى. ولم تمض لحظة حتى كان هو والمضيف في الغرفة في

طريقهما الى ظهر المركب. ووصلا في الوقت الملائم ليشاهدا مع عدد من الركاب الآخرين الجبل الجليدي وهو يكشط ميمنة السفينة في مكان أعلى قليلا من موضع قوارب النجاة. وفيما الجبل ينزلق شاهدوا قطعاً كبيرة من الجليد تتكسر وتهوي في الماء.

إلا أنه سرعان ما زال الاضطراب إذ بدت التيتانيك شديدة الصلابة. وما لبث الركاب أن عادوا أدراجهم لأن البرد في الخارج لم يكن محتملا. وخيّل الى الرجل الذي دخل أخيراً أن المحركات توقفت. وحين تلاشى صوت الصرير أسرع القبطان سميث من حجرته الى منصة القيادة. وهناك سأل الضابط الاول: "ماذا كان ذلك يا سيد مردوك؟"

فأجابه: "كان جبلا جليدياً. لذلك أسرعت في إدارة الدفة الى اليمين وحولت المحركات الى الاتجاه المعاكس. وكنت أزمع التوجه الى اليسار، لكن الجبل الجليدي كان اقترب كثيراً فلم أتمكن من فعل المزيد."[4]

## بداية الكارثة

صعد لورنس بيسلي، أحد ركاب الدرجة الثانية، الى مكان قوارب النجاة فرأى الناس ينظرون الى جنب السفينة ويتساءلون لماذا توقفت. وفي هذا قال بيسلي: "بقيت على ظهر السفينة بضع دقائق مثابراً على المشي كي يظل جسمي دافئاً، وكنت أحياناً أنظر الى البحر تحتي. وكانت السفينة استأنفت ابحارها متحركة ببطء عبر المياه وعلى كل من جانبيها خط من الزبد أبيض. وأظن أننا سررنا جميعاً بهذا الأمر لأنه بدا أفضل من البقاء حيث نحن."[5]

كان توماس أندروز كبير مصممي التيتانيك في غرفته الفاخرة وكاد لا يحس بما حدث. والحق أنه كان مولعاً بسفينته كما يولع النحات بتماثيله، الا ان حجمها الضخم جعله يغفل عن الأذى الذي لحق بتحفته. وعمد أندروز الى دراسة الخرائط والتصاميم والملاحظات التي كانت تغطي مكتبه وراح يقارن هذا كله بواقع السفينة مستعيناً بخبرة ٤٣ سنة أمضاها في بناء السفن.[6] فهو عمل على تصميم سفينة كاملة بصفته مصمماً رئيساً ومهندساً معمارياً متخصصاً بالانشاءات البحرية. وهو الى ذلك كان المدير المسؤول في شركة "هارلند أند وولف" لبناء السفن، فرأى سفينته تنمو بأجزائها جميعاً يوماً بعد يوم في مدة تزيد على سنتين. وراقب نموها كما يراقب الأب نمو طفله، وأحس نحوها بمزيج من الفخر والحب.[7]

على أن السفينة لم تكن كاملة كما أرادها. ففي الحجرة الفاخرة الخاصة بتعليق القبعات كان عدد اللوالب المعقوفة أكثر مما ينبغي. وفي غرفة القراءة والكتابة على منصة التنزه كثير من المساحة الضائعة. وكان يفضل أن يكون الأثاث المصنوع من خشب الصفصاف في أحد أطراف السفينة مطلياً باللون الأخضر. وهو قال مرة لأحد الركاب في غرفة المدخنين بعد العشاء معترفاً ببعض النقائص في سفينته: "أظن أنها بلغت من الكمال الحد الذي يمكن أن يدركه العقل الانساني."

واسترعى انتباهه طرق على باب غرفته ودخل بحار يدعوه بتهذيب وغرابة الى منصة القيادة. وعندما وصل الى هناك وجد القبطان في انتظاره،[٦] وهو رجل في التاسعة والخمسين كبير الجسم عريض الكتفين ذو لحية رمادية تنم شخصيته عن القوة والكياسة والبداهة والثقة بالنفس.[٣] وأخبر القبطان أندروز بما حدث ثم أسرع الرجلان في النزول الى أسفل السفينة.

## نتيجة حتمية

كانت التيتانيك مقسمة من مقدّمها الى مؤخرها ١٦ جزءاً مانعاً للماء. وبعد الاصطدام مباشرة أوصدت الأبواب الفاصلة بين هذه الأجزاء. وكانت صحيفة "شيب بلدر" الشهيرة المخصصة بصناعة السفن أصدرت عام ١٩١١ عدداً خاصاً جاء فيه "ان التيتانيك صنعت على نحو يجعل غرقها ضرباً من المستحيل."[٦] ولكن على رغم أن الحواجز الأخرى المانعة للماء كانت تصل صعوداً الى سطح الطبقة "د" فإن الحاجز المستعرض في مؤخر حجرة المراجل الرقم ٤ انتهى عند سطح الطبقة "هـ" على نحو لا يمكن تفسيره. ولولا هذا التقسيم غير الكافي لربما تمكنت التيتانيك من البقاء عائمة على سطح الماء.[٣]

نزل القبطان مع أندروز على السلم الخاصة بالملاحين كي لا ينتبه أحد إلى العمل الذي يؤديانه. ومشيا عبر حجرة المراجل الرقم ٥ على سطح الطبقة السفلى التي يفصل بينها وبين منصة القيادة ارتفاع يعادل ارتفاع مبنى من ١١ طبقة. ووجدا أن الماء كان يتسرب اليها بسرعة. فتوجها عبر مقدم السفينة الى غرفة البريد على السطح الادنى فوق سافلة السفينة. وكان في المكان المتاخم ملعب السكواش(٢) الذي لم تعرف السفن وجوداً له من قبل.[٦]

وفي مكان أعلى بكثير على سطح الطبقة "أ" نزل الراكب بيسلي السلم كي يتفقد حجرته فأحسّ أن درجات السلم "لم تكن على ما يرام." فعلى رغم أنها بدت منبسطة فإن قدميه لم تكونا تطأان المكان الملائم وكأن الدرجات كانت مائلة نحو مقدّم السفينة. واسترعى الأمر نفسه انتباه الرائد بويشن. ففيما كان واقفاً مع الثريّ الكندي قطب صناعة السكك الحديد تشارلز و. هايز عند الطرف الأمامي للسطح "أ" أحس انحرافاً طفيفاً جداً في السطح وهو ينظر الى ركاب الدرجة الثالثة يلعبون بالجليد كأنه كرة قدم. ولم يلبث أن قال لهايز: "إنها تنحرف إلى جانبها وهذا ينبغي الا يحدث! فالماء هادىء جداً والسفينة توقفت."

وأحس آخرون الأمر نفسه لكنهم رأوا أنه لا يليق بهم أن يذكروا ذلك. وفي حجرة المراجل الرقم ٥ قرر الوقّاد باريت ألّا يقول شيئاً للمهندسين المشتغلين بالمضخات. وفي منصة القيادة أشار جهاز للمراقبة الى أن التيتانيك انحدرت قليلا في مقدمها ومالت خمس درجات إلى الميمنة.

وفي مكان قريب عمد أندروز والقبطان سميث إلى أجراء تقويم سريع لما حدث.

---

(٢) لعبة شبيهة بكرة المضرب.

فقد بلغ الماء المخزن الأمامي الرقم ١ والمخزن الرقم ٢ وغرفة البريد وحجرة المراجل الرقم ٦ وحجرة المراجل الرقم ٥، وزاد علوه على أربعة أمتار فوق مستوى العارضة في الدقائق العشر الأولى في كل مكان ما عدا حجرة المراجل الرقم ٥. وأشارت هذه الوقائع مجتمعة الى وجود فجوة طولها ٩٠ متراً والى غرق الاجزاء الخمسة الاولى على نحو تام.[٣]

وبدت نتيجة ذلك حتمية وإن تعذر الافصاح عنها. فالتيتانيك كانت في طريقها الى قاع المحيط على عمق نحو ٤٠٠٠ متر. وقدر أندروز أن السفينة ستغرق بعد تسعين دقيقة.[٦]

## عقاب رهيب

كان العقيد ارشيبالد غراسي أحد هواة كتابة التاريخ العسكري من متخرجي الاكاديمية العسكرية في وست بوينت. وكان ذا دخل حسن مما أتاح له ممارسة هوايته. وهو لبس بعناية شديدة ثيابه الداخلية وجوربيه الطويلين وحذاءه وسرواله وسترته ثم صعد مختالا الى ظهر السفينة.[٣]

وفي ما بعد كتب غراسي ما يأتي: "إن اللذة والراحة اللتين تمتعنا بهما جميعاً في هذا القصر العائم بدتا نذير شؤم بالنسبة الى كثيرين أنا في عدادهم. فقد أحسسنا أنّ ما كنّا فيه بلغ حداً من الروعة لا يمكن أن يستمرّ من دون عقوبة رهيبة. وعبّر عن إحساسنا هذا أحد زملائنا الركاب وهو تشارلز م. هايز رئيس شركة غراند ترانك الكندية للسكك الحديد. وقال لنا هايز: ان الخطوط البحرية وايت ستار وكنارد وهمبورغ أميريكان تحصر اهتمامها الآن في التنافس للحصول على أفخم الأثاث لسفنها، غير أن نتيجة ذلك ستكون كارثة مروّعة لم يسبق لها مثيل."[٨]

في الثانية عشرة والدقيقة الخامسة بعيد منتصف الليل، أي بعد مضي ٤٥ دقيقة على الاصطدام والارتجاج الصارّ، أمر القبطان سميث كبير الضباط هـ.ف. وايلد بازاحة الغطاء عن قوارب النجاة وأمر الضابط الأول مردوك بجمع الركاب والضابط السادس جيمس مودي باحضار لائحة توزيع المهمات على السفينة والضابط الرابع جوزف بوكسهول بإيقاظ الضابط الثاني لايتولر والضابط الثالث هربرت ج. بتمان. أما القبطان نفسه فنزل من الجانب الأيسر لظهر السفينة الى حجرة الأجهزة اللاسلكية.[٣]

وفي وقت لاحق ذكر المسؤول الثاني عن جهاز مركوني اللاسلكي لصحيفة "نيويورك تايمس" ما يأتي: "كان في وسعنا سماع الضوضاء في الخارج، إلا أنه لم يكن هناك أي إشارة الى بروز مشكلة ما. ولم يكد القبطان يفتح الباب حتى قال: أرسلوا نداء النجدة! فسأله فيليبس: أيّ نداء أرسل؟ فأجابه القبطان: نداء القانون الدولي للمساعدة ولا شيء سواه.

"ولما ذهب القبطان بدأ فيليبس يرسل نداء "أسرعوا إلينا! كارثة!" وفيما هو يبث النداء أخذنا نمزح غير مبالين. وما لبث القبطان أن رجع وسأله: ماذا ترسل؟ فأجابه فيليبس: نداء "أسرعوا الينا! كارثة!" ووافقني ما في الموقف من فكاهة. فقال القبطان ابعث نداء "أنقذوا

أرواحنا!" فهذا هو النداء الجديد، وقد تكون هذه فرصتك الأخيرة لإرساله. فعمل فيليبس على تغيير النداء."[٩]

على بعد أقل من ١٨ كيلومتراً جلس تشارلز غروفز، الضابط الثالث في السفينة كاليفورنيان، على سرير عامل الجهاز اللاسلكي سيريل ف. ايفانز. وكان غروفز شاباً يولي اهتمامه ما يحدث في العالم. لذلك كان يروقه بعد انتهائه من العمل أن يذهب إلى حجرة إيفانز التي تحوي أجهزة لاسلكية كي يلتقط آخر الأنباء.

ولم يكن إيفانز عادة يتذمر من ذلك. غير أنه كان متعباً جداً تلك الليلة ولم يكن هناك من ينوب عنه في عمله. وإلى ذلك فهو سمع كلاماً جافياً عندما حاول الاتصال بالسفينة تيتانيك ليخبرها بوجود الجليد الذي يعترض كاليفورنيان. لذلك لم يضع الوقت هذه الليلة وعمد إلى إقفال جهازه في الحادية عشرة والنصف أي عند انتهاء عمله. ولمّا كان التعب أنهكه فانه لم يجد في نفسه رغبة في محادثة أحد. وحاول غروفز تشجيعه على الحديث فسأله: "ما السفن التي تلقيت منها برقيات اليوم؟" فأجابه باقتضاب وهو لا يكلف نفسه عناء رفع عينيه عن مجلته: "التيتانيك فقط. انها السفينة الجديدة في رحلتها الأولى." وكان ذلك بعيد الثانية عشرة والربع ليلاً.[٢]

وفي ما بعد كتب العقيد غراسي أحد ركاب التيتانيك يصف الحال على متنها: "على السطح "أ" تجمع رجال ونساء كثيرون بينهم السيد شتراوس وزوجته والعقيد أستور وزوجته وآخرون. وأردت أن أبعث الطمأنينة في نفوس السيدات فأشرت الى ضوء أبيض ساطع يبعد عن السفينة نحو تسعة كيلومترات، وكنت واثقاً أن سفينة كانت آتية لإنقاذنا. وطلب مني العقيد أستور أن أدله على الضوء. فكان علينا الانحناء فوق سور السفينة والنظر عن كِثب نحو مقدّمها وتحاشي قارب نجاة أُعدّ وأُنزلت حافته العليا الى مستوى سطح القوارب فوقنا بحيث حجبت عنا الرؤية. إلا أن الضوء جعل يخبو تدريجاً بدل أن يزداد سطوعاً وما لبث أن توارى. وعلمت في ما بعد أن الضوء كان منبعثاً من الكاليفورنيان وهي باخرة تابعة لخط ليلاند."[٨]

## انعم صباحاً يا رجل

في ليل قارس البرد تجمهر الركاب على ظهر السفينة وقد لزم كل منهم المكان الخاص بدرجته، فتوجه ركاب الدرجة الاولى الى وسط السفينة وركاب الدرجة الثانية الى مؤخرها وركاب الدرجة الثالثة الى مقدّمها ووقفوا في هدوء ينتظرون الأوامر المقبلة ويتسلّون في غير ارتياح بالنظر بعضهم الى بعض وقد تمنطقوا أحزمة النجاة.

وقرابة الثانية عشرة والنصف التقى العقيد غراسي فريد رايت لاعب السكواش المحترف. وتذكر غراسي أنه كان حجز الملعب للسابعة والنصف صباحاً فحاول أن يمازح رايت قائلا: "أليس من الأفضل إلغاء الموعد؟" فأجابه رايت بصوت فاتر: "بلى." والغريب أن رايت تقبّل منه هذا المزاح. فهو كان يعلم أن الماء بلغ سقف ملعبه.

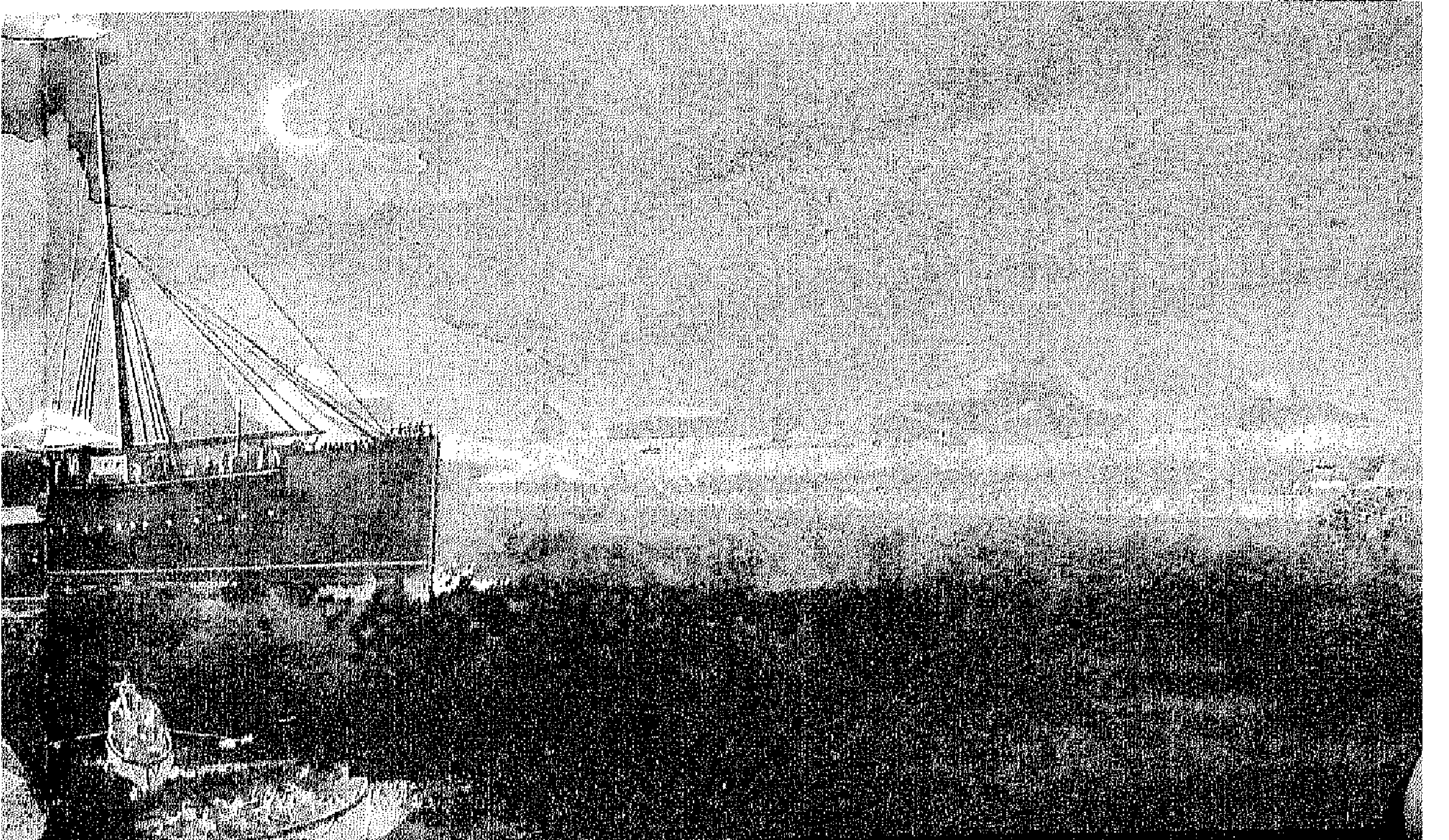
وفي حجرة الألعاب الرياضية التي كان يسطع فيها الضوء والتي تقع الى جانب مكان قوارب النجاة جلس أستور وزوجته جنباً إلى جنب على حصانين آليين توقفا عن الحركة. وكانا .متمنطقين حزامين للنجاة وكان أستور يضع في حضنه حزاماً إضافياً يعمل على فتحه بسكينه الصغيرة ويقتل الوقت بعرض ما فيه على زوجته.؟

يوم غادرت التيتانيك ميناء كوينز تاون أبحرت من نيويورك الباخرة كارباثيا التابعة لخط كونراد البحري بقيادة القبطان آرثر هـ. روسترون متوجهة الى مضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط. واتفق أن عدد ركاب تلك الباخرة لم يتجاوز نصف العدد الذي يمكنها استيعابه.

وقرابة منتصف ليل الأحد كان عامل الجهاز اللاسلكي هـ. ت. كوتام يستعد للنوم. وكان في نوبته سمع ردّ فيليبس الجاف على إيفانز في الكاليفورنيان فحوّل موجة الجهاز إلى كيب كود في ولاية ماساتشوستس لسماع الانباء.

وبدأ كوتام يخلع ثيابه ثم ركع ليحل رباط حذائه. ولما كان نزع مسماعيه لفترة قصيرة فقد فاته سماع نداء الاستغاثة الأول "أسرعوا الينا! كارثة!" الصادر عن التيتانيك. وعندما وضع مسماعيه ثانية عنّ له الاتصال بالتيتانيك وبادر الى القول: "انعم صباحاً يا رجل. هل تعلم أن لكم رسائل في كيب كود؟"

ولم يكد كوتام يتلقى الجواب حتى كاد قلبه يتوقف عن الخفقان، إذ سمع نداء الاستغاثة العالمي على النحو الآتي: "أسرعوا إلينا، كارثة! أسرعوا إلينا، كارثة! أنقذوا أرواحنا! أنقذوا أرواحنا! أسرعوا إلينا، كارثة! أنقذوا أرواحنا! لقد اصطدمنا بجبل جليدي! أسرعوا الينا، كارثة! موقعنا ٤١،٤٦ شمالا و٥٠،١٤ غرباً. أسرعوا إلينا، كارثة! أنقذوا أرواحنا!"



وأسرع كوتام الى منصة القيادة وأخبر ضابط المراقبة الأمر بأنفاس متقطعة، فتوجه هذا بدوره الى حجرة القبطان.[٣]

وكتب روسترون في ما بعد: "كنت أويت الى فراشي قبل قليل ولم أنم بعد فقلت في نفسي وقد غلبني النعاس: من هو هذا الوقح الذي يدخل حجرتي من دون أن يقرع الباب؟

"ثم راح الضابط الأول يذكر لي الوقائع باضطراب ففارقني النعاس. وعمدت من فوري إلى إصدار الأوامر بتغيير اتجاه السفينة. غير أن النبأ بدا لا يُصدَّق فذهبت إلى عامل جهاز مركوني اللاسلكي وسألته: هل أنت واثق أنها التيتانيك؟ فأجاب: نعم يا سيدي. فقلت: هل أنت على ثقة تامة؟ فقال: أجل. فقلت: حسناً، أخبره أننا قادمون.

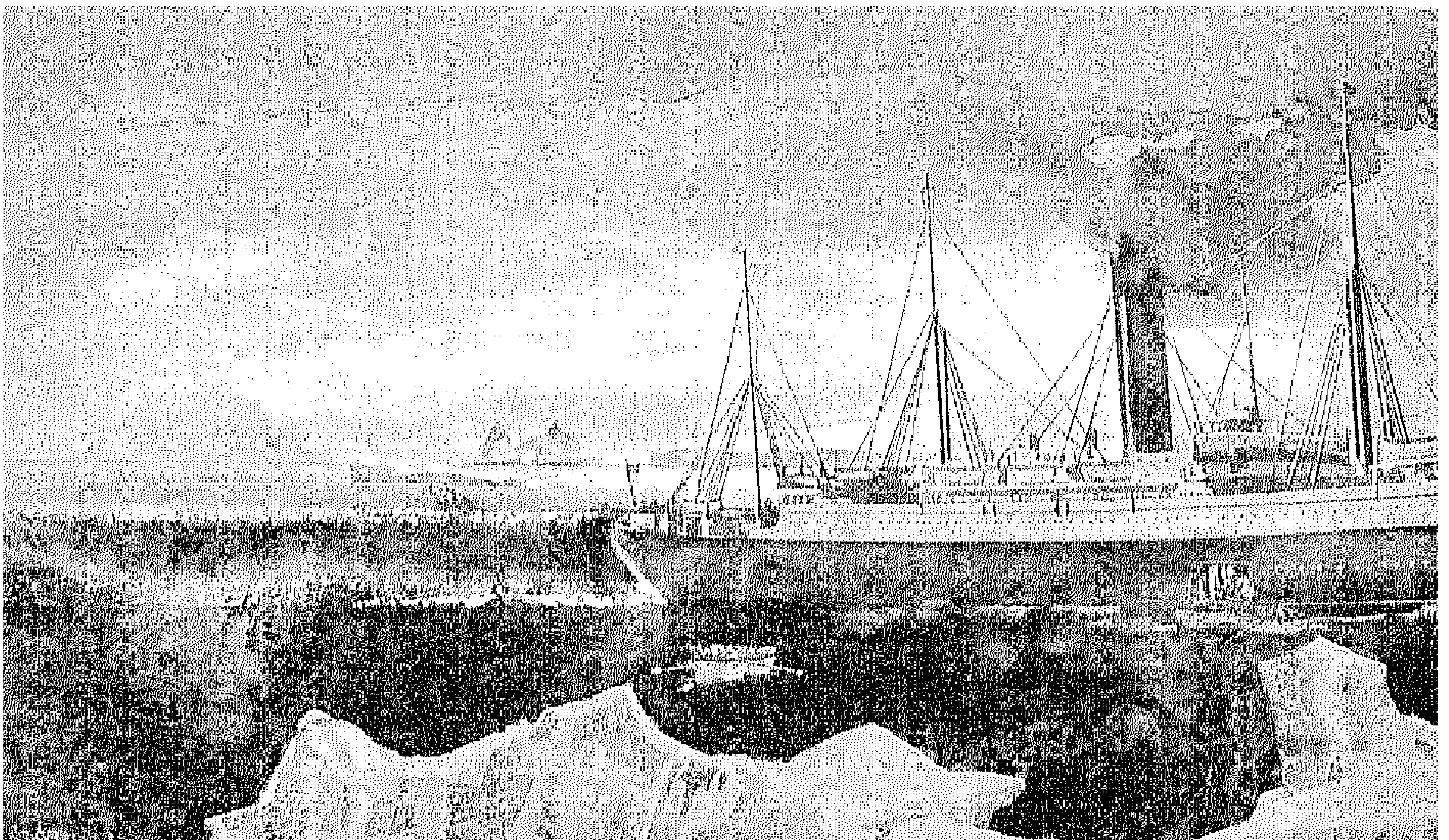
"وكانت سرعة الكارباثيا تبلغ ٢٦ كيلومتراً في الساعة، إلا أنها في تلك الليلة تعدّت هذه السرعة إلى ٣١،٥ كيلومتراً في الساعة مدة ثلاث ساعات ونصف ساعة. وعمدنا إلى إيقاف كل استهلاك ثانوي للطاقة، كالتدفئة، وادخرنا كل القوة الدافعة للمحركات.

"ومن حسن الحظ أن الوقت كان ليلاً وجميع ركابنا في أسرّتهم. والواقع أن كثيرين منهم لم يستيقظوا الا بعد انتهاء المأساة. فقد كان من أول تعليماتي لزوم الصمت جهد المستطاع والطلب من كل مسافر يشاهَد خارج حجرته أن يعود اليها."[١٠]

نادى روسترون كوتام: "أخبر التيتانيك أننا سنكون هناك بعد أربع ساعات (والواقع انهم تمكنوا من الوصول في ثلاث ساعات ونصف ساعة) وأن جميع قواربنا ستكون جاهزة."

فأبرق كوتام إلى التيتانيك ما يأتي: "إننا قادمون بأقصى سرعة ممكنة ونتوقع أن نصل اليكم خلال أربع ساعات." فتلقى الجواب الآتي: "شكراً لك يا رجل."

وبعد ذلك قطع كوتام التيار الكهربائي عن جهاز الإرسال خشية تشويش إشارات



التيتانيك. على أنه تمكن من سماع الاتصالات اللاسلكية المتبادلة بينها وبين السفينتين فرنكفورت وماونت تمبل وسفن أخرى. وقد بقيت الكاليفورنيان صامتة طوال هذا الوقت على رغم أنها كانت تبعد عن الباخرة الغارقة أقل من ١٨ كيلومتراً.٣

## آخر من علم

وقف الركاب بهدوء على ظهر التيتانيك مطمئنين ومرتبكين في آن. ولم يكن هؤلاء تدربوا على مواجهة وضع مماثل كما أنهم لم يكلفوا تأدية أعمال محددة. أما الملاحون فكانت لهم وظائف معينة، إلا أن أحداً منهم لم يكلف نفسه عناء النظر إلى لائحة توزيع العمل معتمدين على الأوامر الشفهية التي تصدر اليهم، إضافة الى ان خبرتهم الطويلة منحتهم القدرة على أن يعرفوا موضع الحاجة اليهم.

غير أن الحركة اتسمت بالبطء. فقد وقف الضابط الثاني لايتولر واضعاً إحدى قدميه على سطح السفينة والأخرى في قارب النجاة الرقم ٦ ودعا النساء والأطفال. إلا أن دعوته لم تقابل بأي حماسة. فمن يرضى بامضاء ساعات قاتمة في زورق تجذيف بدلا من إمضائها على متن التيتانيك؟ وقد سخر جون جاكوب استور نفسه من الفكرة فقال: "إننا هنا أكثر أماناً من أن نكون في ذلك القارب الصغير." وحين رفضت كونستانس ويلارد رفضاً قاطعاً دخول القارب هزّ أحد الضباط المغضبين كتفيه وقال من دون مبالاة: "لا تضيعوا الوقت ودّعوها تذهب اذا كانت غير راغبة في الركوب."

وصدحت الموسيقى للتسكين من روعهم. فقد جمع قائد الفرقة الموسيقية والاس هنري هارتلي أعضاء فرقته وراحوا يعزفون لوناً من الجاز. عزفوا أولا في قاعة الجلوس الخاصة بركاب الدرجة الأولى ثم انتقلوا الى ظهر السفينة قرب مدخل السلّم الرئيسية. وكان مظهرهم يعوزه بعض الأناقة إذ ارتدى بعضهم ثياباً زرقاء والآخرون سترات بيضاء، لكن الموسيقى كانت على ما يرام. فأصحاب التيتانيك لم يألوا جهداً كي يجعلوا هذه الفرقة الموسيقية أفضل الفرق في المحيط الأطلسي.

أما في ميمنة السفينة فكانت الامور تسير على نحو أسرع، الا ان هذه السرعة لم تكن كافية بالنسبة الى إسماي رئيس الخط البحري وايت ستار الذي كان يذرع المكان حاثاً الرجال على الإسراع. على أن الضابط الثالث بتمان لم يكترث له، فهو لم يكن يعرفه ولم يكن لديه متسع من الوقت لهذا الغريب المتأمّر الذي جاءه واضعاً خفّين في قدميه.

ولم يكد اسماي يسمع صرير قارب النجاة الرقم ٥ الذي بدأ ينزل حتى استشاط غضباً وصاح وهو يرفع إحدى ذراعيه في حركة دائرية ويمسك قارب النجاة بذراعه الأخرى: "أنزلوه! أنزلوه! أنزلوه! أنزلوه!" فاغتاظ الضابط الخامس لاو المسؤول عن قوارب النجاة وقال: "إذا تنحيت جانباً فسيمكنني عمل شيء ما! هل تريدني أن أنزل القارب بسرعة؟ انك تدفعني الى إغراقهم جميعاً!" فارتبك

اسماي ومضى الى القارب الرقم ٣. وأخذت الدهشة الملاحين القدامى إذ لا يعقل أن يهين ضابط من الفئة الخامسة رئيس الخط البحري ويبقى بلا عقاب.

في أقصى مؤخر التيتانيك كان "الريّس" جورج توماس راو ماضياً في المراقبة في مركزه الموحش، فهو لم يكن رأى أحداً ولا سمع شيئاً منذ اصطدام الجبل الجليدي بالسفينة قبل نحو ساعة. وفجأة اعترته الدهشة لرؤية قارب للنجاة يطفو قرب مؤخر السفينة. فاتصل بمنصة القيادة ليرى ما اذا كان القوم هناك على معرفة بالأمر فسمع صوتاً مرتاباً يسأله من هو. وعندما أجاب أدرك القوم أنهم أغفلوه وطلبوا منه الحضور فوراً الى منصة القيادة ومعه بعض الاسهم النارية. وكان راو آخر من علم بما حدث.

## صانع السفينة

أما الآخرون فكانوا على معرفة جيدة بالأمر. فقد التقت المضيفة آي روبنسون على سطح الطبقة "أ" توماس أندروز المدير المسؤول في شركة هارلند وولف لبناء السفن، فحياها تحية أب غاضب وقال لها: "ظننت أني طُلبت منك أن تربطي سترة النجاة! هيا افعلي ذلك وتمشي كي يشاهدك الركاب."

وكان أندروز رجلا جذاباً نشطاً يعرف الناس معرفة ممتازة ويمد يد المساعدة الى الجميع. فهو أخبر المضيف الثرثار جونسون أن كل شيء سيكون على ما يرام في حين قال للمضيفة القديرة ماري سلون: "ان المسألة خطيرة جداً، ولكن احتفظي بالأخبار السيئة لنفسك." وأخبر جون ب. ثاير أن السفينة ستغرق في فترة "قد لا تزيد على ساعة واحدة."

في الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين ليلا انبعث الوميض من وسط الظلام. فقد انطلق السهم الاول من الجهة اليمنى لمنصة القيادة. وفي الضوء الأبيض المشوب باللون الأزرق تذكر الضابط الخامس لاو أنه لمح وجه بروس اسماي وقد بدا عليه الذهول. وكان بيسلي، وهو من ركاب الدرجة الثانية، يفهم معنى إطلاق الاسهم. وفهم الآخرون على ظهر السفينة ما يعنيه هذا أيضاً. فلم يعد هناك مجال للمزاح أو للتلكؤ. والواقع أنه لم يعد أمام الركاب متسع من الوقت لوداع بعضهم بعضاً. وقال دان مارفن لعروسه: "حسناً يا فتاتي الصغيرة، ستذهبين وأبقى أنا قليلا." وأرسل اليها قبلة فيما كانت تدخل قارب النجاة. وقال الدكتور و.ت. ميناهان لزوجته عندما نزلت مع الآخرين: "تحلي بالشجاعة مهما حدث، تحلي بالشجاعة." أما توريل كفنديش فلم يقل شيئاً لزوجته، بل قبّلها ثم نظر اليها طويلا وتوارى بين الآخرين.

ورفضت ايزودور شتراوس الذهاب وقالت: "لقد بقيت دائماً مع زوجي، ولن أتركه الآن."

وبدا واضحاً أن الوقت كان إلى نفاد. وكان توماس اندروز ينتقل من قارب الى آخر ويحث النساء على الإسراع قائلا: "سيداتي، عليكن دخول القوارب الآن إذ لم يعد في الامكان إضاعة إي لحظة. ادخلن، ادخلن!"

وسرعان ما ارتفع الماء الى سطح

التيتانيك وبلغ الرافعات وأسفل الصارية والأبواب المؤدية الى أسفل السفينة. وكان إطلاق الاسهم النارية توقف وازداد انحدار ظهر السفينة، وبلغ الانحدار نحو مقدمها حداً مخيفاً.[٣]

وتبين أن ثمة صعوبة في انزال قارب النجاة القابل للطي "ج" بواسطة الداووديبين(٣) اللذين استخدما في إنزال قارب النجاة الرقم ١. ووقف بروس اسماي رئيس وايت ستار يساعد في إعداد القارب للنزول.

وفي اللحظة الأخيرة صعد فجأة الى القارب "ج". وأنزل القارب حاملا ٤٢ شخصاً بينهم بروس اسماي الذي لم يكن سوى واحد من الركاب.

## اللحظات الاخيرة

حين نظر أحد المضيفين الى غرفة المدخنين في الثانية والدقيقة العاشرة فوجىء بتوماس أندروز يقف وحيداً وقد وضع حزام النجاة من دون عناية على الغطاء الأخضر لاحدى الطاولات فسأله: "ألن تحاول النجاة يا سيد أندروز؟" فلم يتلق جواباً. وراح صانع التيتانيك يحدّق إلى مؤخر السفينة.[٣]

وعلى ظهر السفينة وقف فريق من الأثرياء بهدوء بعيداً عن الآخرين. وكان في جيب جون جاكوب استور ٤٢٥٠ دولاراً تكاد تساوي في ذلك المقام الملايين المئة والخمسين التي يملكها خارج السفينة. أما الصناعيّ بنجامين غوغنهايم وسكرتيره فكانا يرتديان ثياب السهرة. وعلل غوغنهايم ذلك بقوله: "لقد ارتدينا أفضل ثيابنا، ونحن على استعداد الآن للنزول كالأسياد."[٣] وأبلغ الى المضيف - في حال نجاته - رسالة الى زوجته: "أخبرها أني مضيت في الأمر حتى نهايته. ولن تبقى امرأة على متن السفينة بسبب جبانة غوغنهايم."

وبعدما غادر السفينة آخر قارب للنجاة رجع ميليت ومور وبات ورايرسون الى غرفة المدخنين وشرعوا يلعبون بورق الشدة (الكوتشينة) غير مبالين في الظاهر بكل ما يحدث خارج السفينة. أما الصبيان والبنات الايرلنديون من ركاب الدرجة الثالثة فجثوا على ركبهم يؤدون الصلاة فيما الماء الاسود يزداد اقتراباً.[٣]

وبينما الملاحون يجرون آخر اثنين من قوارب النجاة القابلة للطيّ غمر الماء منصة القيادة في الثانية والربع فجراً. وتوجه العقيد غراسي نحو مؤخر السفينة، فلم يكد يخطو بضع خطوات حتى اعترضه رجال ونساء تدافعوا من أسفل السفينة وبدوا جميعاً من ركاب الدرجة الثالثة.

وفي هذه اللحظة كان هارتلي، رئيس الفرقة الموسيقية، يعزف على كمانه.[٣]

وكتب الضابط الثاني لايتولر في ما بعد: "لم يكن في وسعي عمل أي شيء آخر، فقد توجهت الى الناحية الأمامية من منصة القيادة وغطست في الماء فأحسست أن ألف سكين اخترقت جسدي، ولا غرابة في ذلك اذ كانت حرارة الماء درجتين مئويتين تحت الصفر. وفجأة ألفيت نفسي مسوقاً الى مهوى هوائي بفعل تدفق الماء من السطح. وعلى رغم

---

(٣) الداوودِيّ أحد عمودين حديد أو ذراعين ملويين على جانب السفينة يستخدمان لرفع (أو خفض أو تعليق) مركب صغير او مرساة.

كفاحي المستميت فقد تعذّر علي الإفلات. فكلما تقدمت قليلا كنت أعود الى حيث انطلقت. والى ذلك فإني كنت أغرق ولم يكن ممكناً أن أبقى حياً في هذه الحال أكثر من دقائق معدودات. وما زلت أقاوم الى أن عصفت هبة من الهواء الساخن وألقتني على السطح."[11]

ووصف العقيد غراسي تجربته: "كنت أدور في دوامة من الماء عندما نزلت السفينة الى أعماق المحيط وبدا لي أني هويت في الماء مسافة كبيرة. غير أني بقيت محتفظاً بمعرفتي للاتجاه الصحيح فرحت أسبح مبتعداً عن ميمنة السفينة وأنا أعلم أن نجاتي تتوقف على النجاح في ذلك. وسبحت بكل ما أملك من قوة يحدوني على هذا تخيلي البخار الغالي المنطلق من الانفجار المتوقع لخزانات الوقود في السفينة، ذلك الانفجار الذي سيصيبني بحروق مميتة.

"وحبست أنفاسي وقتاً بدا غير منته. وفي اللحظة التي فكرت أن عليّ التسليم بالأمر خطر لي أن هذه هي لحظتي الأخيرة. وأردت أن يعرف أحبائي في الوطن كيف قضيت.

"وعندما ارتفع رأسي فوق سطح الماء اكتشفت قطعة من الحطام تشبه صندوقاً خشبياً ولم ألبث أن أمسكت بها. ولم أعد أرى أثراً للتيتانيك. فقد توارت تحت السطح الهادىء للمحيط ولم يكن ثمة ما يشير إلى أمواج."[8]

ووصف الراكب بيسلي اللحظات الأخيرة للسفينة العظيمة كما شاهدها من قارب النجاة الرقم ٧ على بعد ١٨٥٠ متراً: "أخذنا نحدق اليها بذهول فيما كانت تنحرف ببطء كأنها تدور حول مركز الثقل في مؤخر وسطها الى أن اتخذت وضعاً عمودياً ثم توقفت عن الحركة."[5]

وفي دوامة هائلة من الحبال والكراسي والألواح الخشبية التي غطت الماء كان من الممكن رؤية الناس متشبثين كجماعات النحل بالحافات والرافعات والمراوح. ولم يعرف أحد ما حصل لمعظم الناس. وهكذا اختلط المشاهير بالمغمورين فيما انخفض مقدّم السفينة وارتفع مؤخرها. ثم انبعثت من الماء قعقعة مطّردة اذ أفلت من السفينة كل ما يتحرك.[4] والحق أنه لم يشاهد من قبل خليط كهذا قوامه ٢٩ خزاناً للوقود و١٥ ألف زجاجة مرطبات وثلاثون صندوقاً لعصيّ الغولف ومضارب التنس وسلاسل المراسي الضخمة وأطنان من الفحم وثلاثون ألف بيضة طازجة وخمس آلات بيانو كبيرة.[2]

## الليل الصافي

تابعت التيتانيك نزولها البطيء. وتمكن جون ثاير الذي وثب الى البحر من سماع أصوات "خزانات الوقود والمحركات وهي تقتلع من أساسها وتتناثر." ولم تلبث ركيزة مدخنة السفينة أن انهارت وانطلقت المداخن الضخمة كأنها طائفة من الصواريخ ممزقة بأسلاكها الفولاذية سطوح طبقات السفينة قبل أن تسقط على الذين كانوا في الماء. وبدا لشارلوت كولاير التي كانت في قارب النجاة الرقم ١٤ "أن أمعاء التيتانيك انفجرت وانطلقت ملايين الشرارات كالاسهم في الفضاء ثم سقطت شلالا من نار."

وأخذت الحواجز الفاصلة بين أجزاء السفينة تنهار محدثة "دوياً كبيراً." وفي قارب النجاة الرقم ٥ سُمع هذا الدوي "كأنه صوت رصاص مسدس كبير أطلق من بعيد." وراح مؤخر التيتانيك يرتفع على نحو مطرد الى أن توارت الأضواء فجأة ثم ظهرت باهتة ولم تلبث أن انطفأت الى الأبد.٤

وبعد دقيقتين توقف الضجيج واستقرت التيتانيك قليلا على مؤخرها ثم بدأت تنحدر بشدة. وبدا أن سرعتها ازدادت كلما ازداد انحدارها. وعندما توارت سارية العلم في مؤخرها تحت ماء البحر كانت سرعتها بلغت حداً بات معه ابتلاعها ممكناً. وفي قارب النجاة الرقم ١٣ قال أحد الركاب للرقيب رجينالد لي متنهداً: "لقد ذهبت، وهذا آخر أثر لها."٢

وفي ضوء النجوم بدا مشهد بلغ من الارعاب حداً لا يوصف. فقد تدثر البحر بكتلة من الحطام المتشابك وبمئات الرجال والنساء والاطفال الذين راحوا يقاومون متجمدين ببطء الى أن يدركهم الموت. وعلى ارتفاع نحو متر عن سطح الماء برزت رقعة رقيقة من البخار الرمادي كأنها غطاء النعش الكبير.٣

وكتب ارشيبالد غراسي في هذا المقام: "وارتفعت في الفضاء أفظع الاصوات التي سمعها انسان: انطلقت الحشرجة من ألوف الحناجر وانبعث النحيب والأنين من الأفئدة المعذبة وتعالت صرخات الرعب وشهقات الرهبة معبرة عن الآلام الأخيرة التي سبقت الغرق. انها أصوات لن ينساها أي منا حتى يومه الاخير."٨

وقال بيسلي: "لم يلبث الصراخ أن هدأ تدريجاً، على أن الليل كان صافياً ساكناً والماء هادئاً مما يحمل على الظن أن الصوت ترامى الى مسافة كيلومترات. وأظن أن الصوت الأخير سُمع بعد غرق التيتانيك بأربعين دقيقة."٣

## عناوين متناقضة

في مكاتب صحيفة النيويورك تايمس كانت النشرات اللاسلكية تصل الى الطبقة الثامنة عشرة ثم ترسل في صندوق خشبيّ يُدلىّ بحبل الى الطبقات السفلى. ولدى وصول أخبار مهمة كان مرسلها في الطبقة الثامنة عشرة يشير اليها بجذبة قوية للحبل.

وفي الاولى والدقيقة العشرين ليلا جعل الحبل يتحرك بعنف. فأسرع الحاجب بقطعة الورق الصغيرة الى مدير التحرير كار فان أندا الذي تجهم وجهه بعدما قرأ ما يأتي: "كيب ريس نيوفاوندلاند. في العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من هذه الليلة أطلقت السفينة تيتانيك التابعة لخط وايت ستار نداء "أسرعوا، كارثة!" الى محطة مركوني هنا، وذكرت أنها اصطدمت بجبل جليدي."

وتجاهل معظم محرري الاخبار في مدينة نيويورك هذه النشرة. واتصل بعضهم بالمسؤولين في شركة وايت ستار فأكد لهم هؤلاء أن كل شيء على ما يرام. وغلب الظن أن ذلك النداء حُرّف أو انه مجرد خدعة. فقد كانت هذه الرسالة المقتضبة كل ما وصل في هذا الشأن.

الا أن فان أندا أتى بتصاميم للسفينة فوجد ان الارسال اللاسلكي فيها يستمد

طاقته من مصدرين، أولهما غرفة المحركات وثانيهما الذي يعدّ اضافياً حجرة الأجهزة اللاسلكية. وهذا يعني أن السفينة تستطيع بث الرسائل اللاسلكية ما دامت أعلى نقطة في الطبقات العليا فوق سطح الماء. لذلك رأى فان أندا أن عدم وصول رسائل لاحقة هو نذير شؤم وتأكد له أن كارثة حلّت بالسفينة العظيمة. وسأل عدداً من الرجال أن يأتوه بأوصاف للسفينة. وطلب من بعض ذوي الشأن في نيويورك ولندن ارسال معلومات عن الخط البحري والسفينة والركاب.

وفي صباح اليوم التالي صدرت النيويورك تايمس حافلة بأخبار التيتانيك بينما لم تذكر الصحف الاخرى المنافسة سوى القليل عنها. وسخرت إحدى الصحف من "الخدعة."[٣]

أما شركة وايت ستار فأبدت "ارتياحاً تاماً" إذ لم يكن هناك ما يدعو الى القلق. وقرابة الظهر وصلت رسالة من كيب ريس من طريق مونريال تقول ان الفرجينيان تقطر التيتانيك الى هليفاكس. وفي العنوان الرئيسي لصحيفة "صن" الصادرة في نيويورك جاء ما يأتي: "نجا جميع ركاب التيتانيك بعد الاصطدام." وورد في المقال الافتتاحي لصحيفة "وول ستريت جورنال" أن "الكارثة كادت تقع وأهم ما في الأمر أن السفينة لم تغرق." وفي الصباح ارتفعت نسبة التأمين المالي على حمولة السفينة الى خمسين في المئة ومن ثم الى ستين في المئة. وبعد وصول الأخبار المطمئنة انخفضت النسبة الى ٤٥ في المئة وأخيراً الى ٢٥ في المئة.[٤]

وفي عرض المحيط كانت الكارباثيا تشق طريقها نحو التيتانيك "فلاحت أمامها جبال جليدية وسقطت الى يمينها" على حد تعبير قبطانها روسترون الذي أضاف: "لم نخفف سرعتنا على رغم اضطرارنا أحياناً الى تغيير اتجاه السفينة. ولم نكد نصل الى حيث يمكن أن يرانا ركاب التيتانيك حتى رحنا نطلق الاسهم تاركين فترة ربع ساعة بين سهم وآخر. وعندما أصبحنا في مكان أقرب أضأنا الشموع الرومانية(٤) كي نعلمهم أن الكارباثيا تقترب. غير أنه لم تبد أي اشارة تدل على التيتانيك. وكانت الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين فجراً وكدنا أن نصل الى المكان المحدد. وفي الرابعة وصلنا وأوقفت المحركات. وعزز اقتناعي بوصولنا رؤية ضوء أخضر أمامنا علمت أنه منبعث من مركب. ولم ألبث أن سمعت نداء: "ليس في المركب سوى ملاح واحد ولا يسعنا أن نؤدي العمل جيداً." فقلت لهم: "حسناً" واقتربنا منهم فأخذوا يصعدون الى سفينتنا. وكان هؤلاء في عهدة أحد الضباط فطلبت أن يأتي اليّ ذلك الضابط عند صعوده."[١٠]

وسأل روسترون الضابط متأثراً من دون تمهيد: "أين التيتانيك؟" فقال الضابط الرابع جوزف ج. بوكسهول: "لقد غرقت في الثانية والدقيقة العشرين بعد منتصف الليل."

وفي لحظة الصمت المشوب بالذهول

---

(٤) ضرب من الالعاب النارية يتألف من أنبوب يطلق وابلا من الشرر وسلسلة متلاحقة من الكرات النارية.

التي تلت النبأ أخذ كل رجل في منصة القيادة يتصوّر الحقيقة المروعة، غير أن الواقع فاق تصورهم جميعاً. وكانت الساعة الآن الرابعة والدقيقة العشرين فجراً. وسئل بوكسهول: "هل بقي كثيرون على متن السفينة؟" فأجاب بصوت متهدج: "مئات، وربما ألف أو أكثر! يا إلهي، لقد غرقوا معها يا سيدي."[٣]

وكتب روسترون في مذكراته: "كان ضوء النهار آخذاً في الظهور، ويا له من مشهد حمله الصباح الجديد. انتشرت الجبال الجليدية في كل مكان. وكان خمسة وعشرون منها يزيد ارتفاعها على ٦٠ متراً وعشرات يراوح ارتفاعها بين ١٥ و٤٥ متراً. وفي وسطها كانت تعوم قوارب السفينة المفقودة تحت أشعة الشمس الطالعة."[١٠]

## صلوات للأموات

ظهر قرب الأفق هلال فصاح الوقّاد فريد باريت بالملاحين الذين كانوا يجذفون القارب ١٣ مبتهجاً: "قمر جديد. أعطوني المال الذي معكم يا شباب اذا كان بقي لديكم شيء منه!" وتعالت صيحات الراحة وهتافات الفرح من جميع قوارب النجاة فيما الرجال يتسابقون الى صعود الكارباثيا. وراح بعضهم يغني: "جذّفوا الى الشاطىء يا شباب!"

ولم تبد أمارات الفرح على ركاب القارب المنقلب القابل للطي "ب" إذ كان لايتولر وغراسي وبرايد وآخرون يحاولون إبقاءه عائماً. وكانت ريح الصباح تحرك الأمواج فترتفع الى هيكل القارب فتجعله يتمايل الى خلف والى أمام فيتسرب منه مزيد من الهواء ويغمر عارضته مزيد من الماء. وكان لايتولر يصدر أوامره فيرفع الرجال ثقلهم الى خلف والى أمام حتى كادوا بعد ساعة يهلكون من العياء.

وحين شاهد هؤلاء الرجال الكارباثيا تصل مع الفجر لم يكترثوا كثيراً إذ كانت تبعد عنهم نحو سبعة كيلومترات ونصف كيلومتر. ترى هل يبقون على قيد الحياة حتى يتم إنقاذهم. وفجأة شاهدوا ضوءاً يسطع في البحر فعاد اليهم الأمل. ورأوا على بعد ٨٠٠ متر تقريباً القوارب ٤ و١٠ و١٢ و"د" لا تزال في صف واحد. فأخرج لايتولر صفارة من جيبه وأطلق صفيراً عالياً بلغ أسماع الملاحين وعرفوا أن من يناديهم هو أحد الضباط. وكان على "الريّس" بركيز اللجوء الى مهارته كلها كي يصل بقاربه سالماً الى محاذاة القارب الآخر. وفي القارب "ب" حذّر لايتولر الرجال من التدافع. وعلى رغم ذلك كان القارب يترنح على نحو مزعج كلما انحنى أحدهم للوثوب الى القارب الآخر.

وكان لايتولر آخر من غادر القارب المنقلب. فبعدما ترك رفقاؤه القارب رفع جثة عامل اللاسلكي جاك فيليبس الى القارب ١٢ ثم قفز اليه وتولى قيادته. وعندما ابتعد عن العارضة الفارغة وبدأ يجذف نحو الكارباثيا كانت الساعة بلغت السادسة والنصف.

وفي الثامنة والربع وصلت جميع قوارب النجاة الى الكارباثيا ما عدا القارب ١٢ الذي احتشد فيه ٧٥ شخصاً. فجأة اشتدت العاصفة وعلا الموج. وراح الواقفون عند سور السفينة يراقبون

لايتولر يدنو بالقارب وقد انحبست أنفاسهم. ففيما كان لايتولر يكافح لعبور مقدم السفينة وبلوغ مكان بعيد عن الريح هبت عاصفة وارتفعت الى القارب موجة تلتها ثانية. أما الثالثة فلم تصل اليه. وفي اللحظة التالية وصل القارب سالماً الى مأوى السفينة الكبيرة.[٣]

وكانت الكاليفورنيان أبحرت في السادسة صباحاً متوجهة الى حيث أرسلت التيتانيك نداء الاستغاثة. وبعيد الثامنة جعلت تشق طريقها بحذر عبر الجليد مقتربة من الكارباثيا. وحين سألت الكاليفورنيان عن الأمر كان الجواب أن التيتانيك غرقت. وتلقت في ما بعد رسالة لاسلكية من الربان روسترون جاء فيها: "سآخذ الأحياء الى نيويورك. أرجو أن تبقى على مقربة من المكان لانتشال الجثث."[٣]

## اتهامات متبادلة

انطلقت الكارباثيا ببطء فوق ضريح التيتانيك. وكانت هناك بقايا قليلة من السفينة العظيمة. وفي الثامنة والدقيقة الخمسين تلاشى لدى روسترون كل أمل بوجود ناجين آخرين فانطلق "بأقصى سرعة" متوجهاً الى نيويورك.

وذكر قبطان الكاليفورنيان أنه لم يعثر على أي جثة. وتابعت السفينة سفرها بعد ساعة. وقد قيل ان البحث عن الجثث لم يجر على نحو فاعل لأن مئات منها شوهدت على سطح الماء منجرفة مع التيار إقبالا وإدباراً.

وقدم تفسير للغز الجثث المفقودة. فقيل انها لم تشاهد لانها علقت وسط كتلة جليدية كانت تتحرك في اتجاه شمالي شرقي، ولم تجرؤ السفينتان على المخاطرة بالاقتراب. وقد تفرقت هذه الجثث في ما بعد، ربما نتيجة تكسر الجليد في تيار الخليج.[٣]

في الثامنة صباحاً عجت مكاتب وايت ستار في نيويورك بالصحافيين. وعمد نائب رئيس الشركة ب.أ.س. فرنكلين الى التخفيف من وقع التقارير فقال إن التيتانيك يمكنها الطفو الى ما لانهاية حتى وان صحّ خبر اصطدامها بالجليد. غير أن الاشاعات بدأت تنتشر والتقط موظفو الاجهزة اللاسلكية رسائل مقلقة من المحيط الأطلسي. وفي السادسة والربع مساء اتضحت الحقيقة إذ وردت رسالة من السفينة أولمبيك جاء فيها أن التيتانيك غرقت في الثانية والدقيقة العشرين بعد منتصف الليل وان الكارباثيا حملت كل قوارب النجاة ورجعت الى نيويورك وعلى متنها ٧٠٥ من ركاب التيتانيك الناجين. وقد أخر نقل الرسالة ساعات عدة.

ولم يستطع أحد الحصول على معلومات عن الكارباثيا لأن روسترون خصص أجهزته اللاسلكية للرسائل الرسمية والرسائل الخاصة التي بعثها الركاب الأحياء. لذلك راحت الصحف تؤلف رواياتها في هذا المجال أو تنزل غائلة غضبها على سفينة الانقاذ الصامتة. فصحيفة "ايفننغ ميل" أرعدت: "المراقبون يغضبهم سكوت الكارباثيا." وكتبت صحيفة "وورد" معبرة عن استيائها: "الكارباثيا تمنع أجهزتها اللاسلكية من إفشاء أي سرّ عن فقدان التيتانيك."[٣]

وفي غياب الوقائع الثابتة أخذ المحررون يبحثون عن المعلومات حيث تيسر لهم ذلك. وتجدر الاشارة الى ان مصادفات مدهشة برزت في هذا المقام. فقد كتب مؤلف القصص الخرافية ماين كلو غارنت قصة رائعة عن تحطم التيتانيك. ثم ظهرت قصة أخرى أكثر غرابة من توجّس غارنت. ففي العام ١٨٩٨ كتب مورغان روبرتسون رواية "اللاجدوى" حول باخرة طولها ٢٥٠ متراً تدعى "تيتان"، ويشبه موضوعها الى حد مخيف كارثة التيتانيك.

## رواية مثيرة

يوم الخميس ١٨ أبريل (نيسان) صدر تقرير جاء فيه أن الكارباثيا لم تردّ على استعلام رسمي من رئيس الولايات المتحدة يتعلق بالرائد أرشيبالد بت. وازداد الارتياب العام في أثر تنصت الاسطول البحري على رسائل لاسلكية بعثها اسماي من الكارباثيا الى فرنكلين نائب رئيس شركة وايت ستار. وجاء في احدى هذه الرسائل: "ينبغي أن نعيد الى الوطن في أقرب وقت ممكن ملاحي التيتانيك الذين على متن الكارباثيا. وأنا أقترح أن تعد السفينة سدريك. وأرى أن أعود عليها أنا نفسي. يامسا."

وتبين أن ثلاثا من الرسائل اللاسلكية التي بعثها اسماي تحمل اسم يامسا، أي اسماي معكوساً. وسلمت هذه الرسائل الى عضو مجلس الشيوخ السناتور وليم الدن سميث ممثل الحزب الجمهوري في ولاية ميشيغن الذي اذن له مجلس الشيوخ باجراء تحقيق رسمي.[٤]

في أثناء ذلك كان رئيس الولايات المتحدة تافت منقبض النفس إذ كان أرشيبالد بت حلقة الوصل بينه وبين الرئيس السابق تيودور روزفلت الذي كان ينافس تافت في الفوز بترشيح الحزب الجمهوري. وفي ١٤ أبريل (نيسان) هزم روزفلت تافت في الانتخابات الأولية في ولاية بنسيلفانيا. وبعد أقل من ٢٤ ساعة غرق أرشيبالد في قعر شمال المحيط الاطلسي.

وكان حزن الرئيس تافت كبيراً ليس فقط لفقدان مساعده، بل أيضاً لانقطاع علاقته بالرئيس السابق روزفلت، تلك العلاقة التي ساعد أرشيبالد على قيامها وغدا في ما بعد رمزاً لها. وقال تافت والدموع في عينيه: "ليس في وسعي أن أذرع غرفتي أو أن أذهب الى أي مكان من دون أن أتوقع رؤية وجهه الباسم أو أسمع صوته البهيج."

وفيما كان الرئيس تافت يبدي حزنه وروزفلت يستغل الكارثة الى أقصى الحدود في حملته السياسية، كان هياج الشعب الامريكي آخذاً في الازدياد.

وليل الخميس انتهى الانتظار. فلدى مرور الكارباثيا بتمثال الحرية كان هناك عشرة آلاف شخص يراقبونها من متنزه المدفعية هناك. وحين اقتربت من الرصيف ٥٤ كان ثلاثون ألفاً آخرون ينتظرونها تحت المطر. وقد أبى روسترون مقابلة الصحافيين حتى النهاية ولم يدَعهم يدخلون السفينة وهي في الحجر الصحي. وبينما الكارباثيا تشق طريقها صعوداً الى نورث ريفر كانت مراكب القطر تتبعها ببطء وقد غصت

بالصحافيين الذين راحوا يلقون أسئلتهم عبر مكبرات الصوت.

وفي الثامنة والدقيقة السابعة والثلاثين وصلت الكارباثيا الى الرصيف وجعلت تفرغ حمولتها من قوارب التيتانيك. ثم نقلت هذه القوارب الى رصيف وايت ستار حيث عمد صيادو التذكارات الى "تنظيفها" أثناء الليل. وفي اليوم التالي مُحيَ اسم التيتانيك عن هذه القوارب.[٣]

لم تمض دقائق على بدء نزول ركاب التيتانيك حتى شوهد رجل يشق طريقه مسرعاً نحو السفينة يتبعه خمسة رجال آخرون. وكان هذا الرجل يرتدي معطفاً رمادياً طويلا ويعتمر قبعة سوداء مستديرة. وحاول رجال الشرطة منعه من الدخول، الا أنه أبرز لهم أوراقه فسمحوا له ولرفقائه بالصعود الى السفينة. وتبين أن هؤلاء هم عضو مجلس الشيوخ سميث واللجنة المسؤولة عن إجراء التحقيق وأنهم كانوا يبحثون عن اسماي.

وكان من بين الذين سمح لهم أيضاً بالصعود الى السفينة غوغليلمو مركوني الذي أتاح اختراعه إنقاذ عدد من الركاب وصديق له اتضح أنه جيم سبيرس أحد العاملين في صحيفة النيويورك تايمس. ووجدا برايد لا يزال منهمكاً في تفسير الرسائل الأخيرة التي تلقاها، وقد أسند قدميه الى كرسي بعدما قرّحهما الصقيع وكانتا ملفوفتين برباطات كثيرة. وبعدما راقب مركوني برايد فترة قصيرة وهو يبذل جهده لتوضيح تلك الرسائل قال له: "يا بني، إن إرسالها الآن ليس أمراً ملحاً." فالتفت برايد ولمعت عيناه اذ عرف المخترع الشهير الذي أسرع الى مصافحته بحرارة. فقال برايد: "لقد مات فيليب. لقد توارى."

أخرج سبيرس دفتره وقلمه فأملى عليه هارولد برايد ما ملأ خمسة أعمدة في الصفحة الاولى من النيويورك تايمس. وكانت تلك من أكثر الروايات إثارة في تاريخ أخبار البحر. واقتصرت حقوق الطبع على النيويورك تايمس، فحصل برايد على ألف دولار ولم يعد في وسع أي صحيفة أخرى نقل الرواية.[٤]

## الحصول على الوقائع

كان عضو مجلس الشيوخ سميث، أو وليم ألدن كما بات يدعى، رجلا قصير القامة يتحلى بثقة بالنفس لافتة كثيراً ما تبلغ حد الغرور. وكان يتمتع بذاكرة عجيبة مكنته من حفظ جميع التفاصيل التي حفلت بها الشهادات التي جمعتها اللجنة والتي ملأ مجموعها ١١٦٣ صفحة.

وفي مساء ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٢ كان عضو مجلس الشيوخ في غرفته منهمكاً في مسألة بناء السكك الحديد في ألاسكا. وفجأة سمع ضجة في الخارج وأخذت الأصوات تزداد ارتفاعاً فخرج لتبين حقيقة الأمر.

وكان وصل خبر من نيويورك يفيد ان حلم ج. ب. مورغان الأخير الذي تحقق ببناء السفينة تيتانيك الهائلة الفخمة تبدد بحصول كارثة ذهب ضحيتها عدد كبير من الأشخاص. وكان هذا إيذاناً ببداية أقسى محنة عرفها سميث في حياته المهنية.

بدأ تحقيق مجلس الشيوخ في ١٩

أبريل (نيسان) في الغرفة الشرقية من فندق "والدورف استوريا" الفخم في نيويورك، ثم انتقل بعد بضعة أيام الى واشنطن وانتهى بالخطاب التلخيصي الذي ألقاه السناتور سميث في مجلس الشيوخ في ٢٨ مايو (أيار).

وبعد ذلك توصلت هيئة بريطانية للتحقيقات التجارية الى النتائج ذاتها. فسرعة السفينة كانت تزيد على المفروض في ظروف مماثلة، كما أنه لم يكن فيها عدد كاف من قوارب النجاة ولم تتخذ فيها الاحتياطات اللازمة المتعلقة بتلك القوارب وبسلامة الركاب. وعلى رغم نفي شركة وايت ستار فقد أوضحت الاحصاءات أنه كان هناك تمييز بين ركاب الدرجات الثلاث في ملء قوارب النجاة:[١٣]

| | النساء والأطفال الناجون | الرجال الناجون | مجموع الناجين |
|---|---|---|---|
| الدرجة - ١ | ٩٤٪ | ٣١٪ | ٦٠٪ |
| الدرجة - ٢ | ٨١٪ | ١٠٪ | ٤٤٪ |
| الدرجة - ٣ | ٤٧٪ | ١٤٪ | ٢٥٪ |
| الملاحون | ٨٧٪ | ٢٢٪ | ٢٤٪ |

وهكذا بدا أن النتائج التي وصل اليها أيدت الملاحظة التي أبداها أحد الناجين، وهو الناشر الأمريكي هنري ستريتر هاربر، وجاء فيها: "إن هؤلاء الملاحين هم أقرب الى موظفي الفنادق منهم الى البحارة. فعندما سمعوا بوجود جبال جليدية أمامهم زادوا سرعة الباخرة بدلا من أن يغيروا اتجاهها. ثم لم يلبثوا أن اصطدموا بالجبل الجليدي."[١٤]

وفي أثناء تقصي السناتور سميث الحقائق ساد العلاقات الامريكية البريطانية توتر واضح. فبعدما أنهى سميث تحقيقاته في نيويورك في فترة وجيزة رجع الى واشنطن استعداداً للإصغاء الى مزيد من الشهادات. فأذهله عدد الرسائل التي تلقاها من مواطنين أمريكيين أعربوا عن تقديرهم لجهوده وكانوا حافزاً له على متابعة تحقيقاته.[١٣] غير أن سماحه لفحوى هذه الرسائل بالتأثير على مجرى التحقيق كان سيؤدي الى تعقيد الأزمة الانكلو - أمريكية والى إذكاء المعركة بين تافت وروزفلت والى إرهاق سميث بالانتقادات.[٤]

وفي بريطانيا نعتت صحيفة "الديلي اكسبرس"[١١] السناتور سميث بـ"البدائي القادم من ميشيغن الذي يحب ان تسلط عليه الأضواء."[٤] وقد جعلته ثرثرته وغروره وسذاجته موضوعاً خصباً للرسامين الكاريكاتوريين والصحافيين البريطانيين.

أما الصحافة الأمريكية فأثنت على جهود سميث. غير أن هذا الثناء لم يعد يلقى إجماع هذه الصحف عندما كشف عن حقائق أوقعت صحيفة "النيويورك تايمس" في حرج شديد. فقد كانت شركة مركوني اتفقت مع الصحيفة ان تبيعها هي وحدها حق نشر ما لم يسع عمال أجهزتها اللاسلكية نقله الى العالم.

ولقد تمكن الاسطول البحري في الولايات المتحدة من التقاط رسالتين بعثتهما شركة مركوني الى اثنين من عاملي الاجهزة اللاسلكية على متن سفينة الإنقاذ. وجاء في الرسالة الاولى: "يا رجل،

في المختار
الشهر المقبل

## السيجارة مصدر للاشعاع الذري!

يتعرض المدخن الذي يستهلك علبة ونصف علبة من لفائف التبغ يومياً لاشعاع ذري يوازي ما يتعرض له جلده في ٣٠٠ صورة بالاشعة السينية.

## حافظ على سيارتك تحافظ على جيبك

نصائح بسيطة في قيادة السيارة وصيانتها تساعدك على الاقتصاد في مصروف الوقود.

## حقائق مرة عن صحة المراهقين

أظهرت الدراسات الحديثة تحسناً عاماً في صحة الناس من جميع فئات العمر ما عدا فئة المراهقين. وتبين أن لذلك علاقة باسلوب العيش.

## ليت زوجتي تعلم...

خمسة أسرار جنسية يكشفها الرجال قد تعزز الزواج المبني على الحب.

## مدافن الأتروريين تخط تاريخهم

هذا الشعب الذي اعتبر الحياة على الأرض عرضا هامشياً، بنى مدنه من خشب ومدافنه من صخر. فمن هم هؤلاء الذين صمدوا الف سنة قبل الرضوخ لروما؟

## خرافات شائعة حول اللياقة البدنية

ما زالت المفاهيم الخاطئة شائعة لدى معظم الناس حول طريقة عمل الجسم وممارسة التمارين الرياضية.

## فن التصوير: الحدس والعفوية أولا

مع توافر الكاميرات الحديثة السهلة الاستعمال، بات تصوير العالم كله في متناولك. والصور الجيدة هي غالبا بسيطة وعفوية.

إضافة إلى مَقالاتٍ أخرى شائقة وقِصَصٍ مُسَلِّية

إن شركة مركوني توليك اهتمامها الكبير. الزم الصمت فلا تخبر أحداً بروايتك وستحصل على مبلغ كبير من المال." وجاء في الرسالة الثانية: "سيكون نصيبك مبلغاً من الدولارات من أربعة أرقام في مقابل روايتك. وقد وافق السيد مركوني على ذلك. الزم الصمت حتى تراني..." وكانت الرسالتان ممهورتين بتوقيع كبير مهندسي مركوني.

## مشهد مشؤوم

مثل غوغليلمو مركوني أمام اللجنة رجلا ناحلا متوسط الطول. وعلى رغم أنه بقي مواطناً ايطالياً فقد كانت أسباب عيشه في بريطانيا، ولم تكن لهجته الانكليزية تختلف عن لهجة البريطانيين الا قليلا. وقد وجده الصحافيون "أنيقاً رشيقاً باسم الثغر" وبدا أصغر سناً مما كان في الواقع (٣٧ عاماً).

وأكد مركوني للجنة أن هاتين الرسالتين بعثتا في الوقت الذي كانت الكارباثيا تدخل ميناء نيويورك. لذلك لم يكن ممكناً أن يحملا عامل الجهاز اللاسلكي على التزام الصمت في أثناء الطريق. غير أن هذا الكلام لم يقنع سميث الذي كان يعلم أن بين شركة مركوني والنيويورك تايمس علاقة وثيقة جداً. وكان يعلم أيضاً أن مدير تحرير الصحيفة كار فان أندا تمكن من إقناع مركوني بالذهاب مع مراسل صحيفته جيم سبيرس الى الكارباثيا قبل ست ساعات من مضي السفينة الى الرصيف. وكان مركوني طلب من كبير مهندسيه أن يبعث الرسالتين اللتين التقطهما الاسطول البحري الامريكي. لقد كانت الكارباثيا بعيدة عن متناول جميع الصحافيين ولم يكن من سبيل للوصول اليها الا بواسطة المخترع الشهير.

وأسرع سميث الى الاشارة الى أنه لا يحمل عاملي الأجهزة اللاسلكية وحتى صحيفة النيويورك تايمس مسؤولية ما حصل. فالخطأ يقع برمته على شركة مركوني.

وشنت الصحافة حملة عنيفة على التواطؤ بين مركوني والنيويورك تايمس. فذكرت وكالة الاسوشيتد برس التي كانت مسؤولة عن نقل التقارير الكاذبة عن جرّ الباخرة الى هاليفاكس، "أن قصة التيتانيك طمست في مقابل مبلغ من المال." وقالت مؤسسة هيرست بأسلوب مثير: "ان صحيفة النيويورك تايمس أبقت العالم في حال احتضار فيما كانت تساوم للحصول على أخبار الحطام."

والحق ان النيويورك تايمس كانت من مناصري سميث المتحمسين. ولما بات عليها الآن الاختيار بين التراجع عن موقفها السابق وتغيير لهجتها فقد آثرت الحل الثاني. وفي مقال افتتاحي بعنوان "سميث المنافي للمنطق" تساءلت: "هل كان انتخاب هيئة ميشيغن الاشتراعية له ضرباً من المزاح؟" على أن محاولة الصحيفة الانتقاص من قدر سميث منيت باخفاق ذريع.[٤] وعندما قدّم سميث تقريره أخيراً في ٢٨ مايو (أيار) جاء معتدلا في نتائجه على نحو غير متوقع فكتبت صحيفة "الايكونومست" البريطانية: "لا شك في انه ينبغي معرفة الحقيقة برمتها، وعلى كل عاقل أن يشكر

لمجلس الشيوخ الأمريكي تحقيقه السريع الدقيق."[3]

وفي المحيط الاطلسي بعد أسبوع من الكارثة عثرت سفينة الاتصالات اللاسلكية "ماكاي بنيت" على ٣٠٦ جثث. وهي بدت للوهلة الاولى أشبه بسرب كبير من طيور النورس عائم على سطح الماء ومتمايل برفق عبر الأمواج. وكانت الجثث جميعاً طافية على نحو مستقيم. وكان معظمها يكوّن مجموعة يحوط بها حطام صغير. وكان كثير منها شوّهه الرعب وبدا ممسكاً بثياب أو بأشياء أخرى تعلق بها أثناء الاحتضار. وظهر بعض الجثث والأطراف مشوهاً كأنما تعرّض لانفجار. وكانت أعمال المراقبة توقفت في الثانية والدقيقة العاشرة بعد منتصف الليل.[15] وبدا المحيط مغطى بأثاث الحجرات والكراسي وكتل الفلين. وظل الملاحون يعملون طوال النهار في انتشال الجثث الطافية.

والواقع أن الضحايا التي تعذر التعرف اليها دفنت في البحر. وجاء في يوميات فريد هاملتون مهندس السفينة ماكاي بنيت: "قرع الجرس داعياً جميع الأيدي الى السلوقية (اعلى مقدم السفينة) حيث أعدت ثلاثون جثة للنزول الى الأعماق بعد تثقيلها وتكفينها. كان ذلك مشهداً مشؤوماً حقاً. وأرسل الهلال نوره الباهت فيما السفينة تتحرك متعثرة عبر الأمواج الضخمة."

وفي وقت سابق عُثر على جثة جون جاكوب أستور التي تشوهت كثيراً. وكانت مكسوة بالسخام مما يحمل على الظن أن المدخنة الأمامية المنهارة أصابته. وتمّت معرفة صاحبها من خاتم من الالماس والبلاتين كان في يدها ومن خلال أوراق نقدية بقيمة ٤٢٥٠ دولاراً وجدت في جيبها. ونقلت جثة أستور الى مسقط رأسه كي تدفن هناك. وفي هذه الأثناء بات واضحاً أن ما حدث يشكل "كارثة لا مثيل لها في تاريخ الرحلات البحرية" كما جاء في صحيفة "التايمس" الصادرة في لندن.

## بعد الكارثة...

● نبذ كبار الضباط الناجون الرقيب فردريك فليت لكشفه عن غياب المناظير الثنائية من منصة المراقبة. وتوفي فليت في ١٠ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٥ في السادسة والسبعين من العمر.

● تنحى ج. بروس اسماي عن رئاسة الشركة الدولية للتجارة البحرية ورئاسة

---

Sources: 1. Hanson W. Baldwin, *Harper's Magazine,* © 1934 by Harper's Magazine Foundation. 2. *A Night to Remember,* © 1955 by Walter Lord, by permission of Henry Holt & Co. 3. *The Maiden Voyage,* © 1969 by Geoffrey Marcus, by permission of Viking Penguin Inc. 4. *The Titanic-End of a Dream,* © 1979 by Wyn Craig Wade, by permission of Rawson Assocs., Inc. 5. *The Loss of the Titanic,* © 1912 by Lawrence Beesley. 6. *Beyond Reach: The Search for the Titanic,* © 1982 by William Hoffman and Titanic 1981, Inc., by permission of Jack F. Grimm and William Hoffman. 7. *A Titanic Hero: Thomas Andrews, Shipbuilder,* by Shan F. Bullock, revised edition © 1973 by 7 C's Press, Inc. 8. *The Truth About the Titanic,* © 1913 by Archibald Gracie. 9. Harold Bride, New York *Times,* © 1912 by The New York Times. 10. *Home From the Sea,* © 1931 by Sir Arthur H. Rostron. 11. *Titanic and Other Ships,* © 1935 by Charles H. Lightoller, by permission of Ivor Nicholson and Watson, London. 12. J.D. Ratcliff, *Reader's Digest,* © 1944 by the Reader's Digest Assoc,. Inc. 13. Reader's Digest editorial summarization based on various sources. 14, William Inglis, *Harper's Weekly,* April 27, 1912, 15. *The Californian and the Titanic,* © 1965 by Peter Padfield, by permission of Lawrence Pollinger, Ltd.

خط وايت ستار واعتزل في أحد فنادق كوستلّو في كاونتي غالواي بايرلندا ولم تعد أخباره تسمع إلا نادراً. وتوفي عن ٧٤ عاماً في ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٧.

● لحقت قبطان الكاليفورنيان ستانلي لورد وصمة عار من جراء رفضه الهبوب الى نجدة سفينة كانت في محنة. وتوفي لورد في ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٢ وهو في الرابعة والثمانين من عمره.

● اعتذر القبطان آرثر روسترون لاغفاله الرسالة الرئاسية بكياسة مميزة حدت الرئيس تافت على منحه بعد أشهر وسام الشرف الصادر عن مجلس الشيوخ. وقد شغل روسترون منصب عميد بحري في اسطول كونارد بين ١٩٢٨ و١٩٣١. ثم تقاعد عام ١٩٣١ وتوفي في ٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٠.

● عاش كار فان أندا مدير تحرير النيويورك تايمس عمراً كافياً لرؤية صحيفته وقد اصبحت رائدة الصحف العالمية. ولا شك في أن نصيباً كبيراً من هذا الانجاز يرجع الى النحو الذي تناول به أندا قضية التيتانيك. وفي العام ١٩٢٥ ترك الصحيفة وتوفي في نيويورك في ٢٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٥.[٤]

● بعدما كتب العقيد ارشيبالد غراسي مذكراته ساءت صحته نتيجة معاناته القاسية وتوفي في شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٢.

● بقي تشارلز هـ. لايتولر الضابط الثاني في التيتانيك، من المدافعين المتحمسين عن خط وايت ستار البحري الى يوم تقاعده. وفي الحرب العالمية الثانية نقل لايتولر، وكان في السادسة والستين، ١٣٠ رجلا بعيداً عن شواطىء دنكرك شمال فرنسا في زورقه العائلي. وبفضل مهارته الفائقة تمكن الزورق الذي غص بالركاب من بلوغ رامسغيت في بريطانيا سالماً على رغم خلوه من السلاح وتعرضه طوال الطريق للقذائف ونيران الاسلحة. وتوفي لايتولر في ٨ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٢.

● استقرت التيتانيك في قعر شمال المحيط الأطلسي على عمق ١٢ ألف قدم (٣٦٦٠ متراً). ومنذ العام ١٩١٢ وضعت خطط كثيرة لانتشالها. وكانت أكثر تلك الخطط طموحاً تلك التي وضعتها "الشركة المحدودة لانقاذ التيتانيك." الا أن هذه الشركة لم تتمكن من جمع المبلغ الضروري للشروع في العمل وهو ثلاثمئة مليون دولار.

وفي ١٩٧٧ ذكرت مجلة "العلم" أن منظمة اتخذت كاليفورنيا مركزاً لها أجرت مشاورات مع معهد وودزهول لعلوم المحيطات في ولاية ماساتشوستس تتعلق بالعثور على الحطام. وصرّح روبرت بالارد رئيس بعثات الغطس في مؤسسة وودزهول أن الاقتراح لقي اهتماماً جاداً وأضاف: "إن ثمانين في المئة من التكنولوجيا الضرورية للعثور على التيتانيك متوافرة في أمكنة معينة، وما همنا نحن هو أن نجمع شتاتها."

محررو الـ"ريدرز دايجست" ■

**في الشهر المقبل: العثور على حطام التيتانيك**

# وجدوه

# في قاع ...يط

## التيتانيك بعد ٧٤ سنة

### (القسم الثاني)

قصة الباخرة الأسطورة تعيد روايتها مجموعة من محرري الـ"ريدرز دايجست"

في شهر أبريل (نيسان) ١٩١٢ كانت السفينة التيتانيك "التي لا تغرق" تشق طريقها مسرعة شمال المحيط الأطلسي المظلم فاصطدمت بجبل جليدي وعلى متنها عدد من المشاهير والأثرياء. وحين بدأت تغرق تبيّن أن قوارب النجاة على متنها تتسع لاقل من نصف مجموع الركاب والملاحين. على أن الذعر لم يدبّ في النفوس وبقيت الفرقة الموسيقية تعزف حتى النهاية. وعندما غيّبت المياه السوداء القارسة معالم السفينة العملاقة أدرك الموت ما يزيد على ألف وخمسمئة شخص. ومنذ تلك الليلة المرعبة لم تزل أسطورة التيتانيك تقضّ مضاجع ملايين البشر، كما يتضح من الافلام السينمائية والكتب التي احيت لحظاتها الأخيرة. وبعد مضي أكثر من سبعة عقود على فقدان السفينة العظيمة بدأ السباق لاكتشاف المكان الذي تهجع فيه. والمتنافسون عن غير عمد في هذا المضمار هم جاك غْريم أحد أثرياء النفط في تكساس وأنجح مغامر على قيد الحياة كما يقال، وأعضاء فريق دولي يضم علماء امريكيين وفرنسيين بينهم روبرت بالارد من مؤسسة وودز هول لعلوم المحيطات في ولاية مساتشوستس وجان لوي ميشال وجان جاري من مؤسسة «IFREMER» الفرنسية وهي وكالة حكومية خاصة بسبر أغوار البحار.

وفي هذا الجزء (وهو الثاني) الذي تختتم به قصة التيتانيك عمد محرّرو الـ"ريدرز دايجست" الى إيجاز مواد واقتطافها وتلخيصها من كتب ومجلات وجرائد متنوعة ومن مقابلات مع مكتشفي حطام التيتانيك.



في ١٠ أبريل (نيسان) ١٩١٢ في الثانية والدقيقة الثامنة عشرة بعد منتصف الليل انتصبت التيتانيك "كأنها إصبع سوداء ضخمة تشير إلى السماء." وظلت "في هذا الوضع المدهش" لحظات، وقبيل بضع دقائق، ثم غطست فجأة إلى أمام وأفلت كل ما فيها، بدءاً بمولدات الكهرباء وانتهاءً بالأثاث، وانزلق نحو مقدّمها. ومن ثمّ مالت قليلا الى الميسرة على نحو لولبي بينما أخذ أعلى مقدّمها المغمور بالماء يترنّح والموج يتدفق إلى سطحَي الطبقتين "أ" و"ب" غامراً أثاث الدرجة الأولى. وقبل أن تنطفىء أضواؤها نهائياً بدت "كأنها حاجب هائل" وظلت مصابيحها الغارقة منيرة تلقي على المياه المحيطة بمقدمها إشعاعات خضراء.

وبعد ذلك استقرت مائلة بزاوية تقارب سبعين درجة وبدأت تهوي إلى قعر البحر على نحو بطيء. ورأى أحد الركاب الذين بقوا أحياء أن ذلك كان "نهاية العالم". وجعل صوت كالرعد يتردد مخنوقاً تحت سطح الماء. و"هوت السفينة وهي تطلق قرقعة رهيبةً كأنما هي هاربة من شاطىء مليء بالحصى."

وفي الثانية والدقيقة العشرين توارت التيتانيك عن الانظار. وخلال ١٥ ثانية "باتت السفينة على عمق ١٥ متراً تحت سطح الماء وأخذت سرعتها في الازدياد. وتسببت الانفجارات الحاصلة في رفع حرارة الماء من درجتين مئويتين تحت الصفر إلى درجة تقارب الغليان، كما تسببت في إحراق عدد كبير من رجال الاطفاء السيئي الطالع. وبلغ عدد الذين ظلوا على متن السفينة نحو ألف شخص فقدوا جميعاً الأمل في النجاة. على أن القليلين الذين تمكنوا بطريقة ما من الوصول الى سطح الماء عاودهم الأمل. وكان بين هؤلاء المحظوظين العقيد



Illustrations: William Hosner

ارشيبالد غراسي والضابط الثاني تشارلز لايتولر. وبعد بضع ثوان أخرى تجاوزت التيتانيك عمق ثلاثين متراً تحت سطح الماء.

وعندما باتت السفينة في مكان أعمق بدأت الانفجارات داخل مؤخرها وانهارت الحواجز الفولاذية الثقيلة الفاصلة بين أجزائها كأنها ورق ألمنيوم بعدما قاومت المياه المتدفقة. وبدا واضحاً أن قدرة السفينة على الطفو اضمحلّت وازدادت سرعتها الى نحو ٣٧ كيلومتراً في الساعة.

أما الجيوب الهوائية الباقية فسرعان ما توارت وأطبق اليأس على مجموعة من المهاجرين الشباب عند أسفل السلّم الرئيسية الخاصة بركاب الدرجة الثالثة. فقد جرفهم الماء من المكان الذي طُلب منهم الانتظار فيه إلى أن يأتي من يرشدهم الى قوارب النجاة. غير أن هذا الارشاد لم يشمل شباناً أمثال دنيس أوبريان وفرنشيسكو تشيلوتي وجوفان ستانكوفيك، كما لم يشمل شابات يحملن أسماء هيلين روسبلوم وحنة سمعان ومرغريت رايس، ولا أطفالا أمثال جرجس يوسف وميبل سكوغ وألفرد بيكوك. هؤلاء كلهم، وغيرهم كثير، لم يتح لهم ركوب قوارب النجاة.

وفي مخزن البضائع الرقم ٢ في أدنى طبقات السفينة بدأت إطارات سيارة "رينو" تتقلص ببطء تحت وطأة الضغط المتزايد. وكان حول السيارة حمولة متنوعة تضمّ أمتعة سفر وآلات أفلتت من أمكنتها قبل غرق التيتانيك ببضع دقائق. واشتملت تلك الحمولة أيضاً على صناديق تحوي سلعاً قطنية وصندوق من الآنية الصينية وآخر من الآنية الفضية.

بعد دقائق خف انحراف التيتانيك الشديد الذي أنزلها تحت صفحة الماء غير المتموجة. أما المراجل الضخمة فسقطت عبر الحواجز المانعة لتسرب المياه محدثة ثغرات، وسبقت السفينة الى قعر المحيط كأنما هي فريق استكشاف. وحين أصبح مستوى السفينة العظيمة أقل انحناء أخذت "تحلق كطائرة ورق" وهي تشق طريقها عبر الأعماق المتجلدة مترجحة إلى خلف وإلى أمام مثل ورقة شجر ساقطة الى الارض.

وعلى عمق نحو ألف متر دخلت منطقة لم يبلغها نور الشمس قطّ. وفي ذلك العمق حيث يصل ضغط مياه المحيط الى ١١٤ كيلوغراماً في السنتيمتر المربع لا يمكن أن تبقى حياة بشرية. غير أن الكائنات الغريبة التي تختلف إلى أعماق المياه، كالاسماك ذات "المصابيح" المنيرة والأسماك الافعوانية السامة، أحسّت الضغط الناجم عن التيتانيك أثناء انحدارها المخيف إلى الأعماق.

واتضح أن مؤخر السفينة انفصل بعدما تعرّض لضغط يفوق التصور عند ارتفاعه إلى علٍ. وازداد تصدع الطبقات العليا وراحت الجثث في غرفة مدخني الدرجة الأولى وقاعة ركاب الدرجة الثانية ورواق الطبقة "هـ" تسقط في البحر المظلم لتغوص الى الاعماق أو لتبقى في هذا المكان العامر بحيوانات الحبّار والانقليس المزدرد والأخطبوط.

وبعد خمس دقائق كانت السفينة قطعت أكثر من نصف الطريق إلى قعر المحيط وباتت على عمق ألفي متر. وبلغت حرارة الماء خمس درجات مئوية وبلغ الضغط ٢٢٧ كيلوغراماً على السنتيمتر المربع. وخيمت الظلمة في كل مكان.

واذ تابعت السفينة العظيمة انحدارها والضغط يرتفع باطراد كان المزيد من حمولتها يفلت من مكانه. ومما أفلت عدد من الرافعات وتلغراف حجرة المحركات وكثير من القدور والأطباق والقوارير. وعلى عمق حوالى ٢٥٠٠ متر اندفع مقدّم التيتانيك في التيار القاعي، وهو نهر واسع يجري ببطء تحت سطح الماء.

### [illegible]

مضى على انحدار السفينة سبع دقائق، إلّا أنها ما زالت بعيدة عن قعر المحيط أكثر من ألف متر. ودخلت منطقة حافلة بالتلال والنتوءات الصخرية والاودية التي تجري فيها الانهار.

وأخذ مؤخرها يطفو مستقلا بعدما تفكك جزئياً مبدّداً الرافعات والمراوح والامتعة الشخصية فوق مساحة في قعر المحيط تمتد نحو ألف متر. وانفتحت الثلاجات وأفرغت محتوياتها من السمك والخضر والزبدة والحليب والجيلاتي (آيس كريم) ولحم البقر والدجاج والجبنة والفاكهة والزهر.

وأخيراً اندفعت التيتانيك مدوّية إلى القعر. ولن نعرف أبداً أي الجزئين، المقدّم أم المؤخّر، اصطدم بالقاع أولا. وقد أثارا لدى اصطدامهما سحابة هائلة من الرواسب اختلطت بهباب الفحم في خزان الوقود. وكان من أثر الاصطدام أن تفكك المؤخر واندفعت الرواسب الى أسفل كأنها ثلج متساقط.

وبات هيكل السفينة الممزّق ضريحاً دائماً لأناس من علية القوم وآخرين من الطبقات المتواضعة. وكان في عداد هؤلاء قبطان السفينة ومعظم ضباطه وأعضاء الفرقة الموسيقية والاثرياء والمعلمون والبناؤون والنجارون والممرضات والمزارعون والملاحون المتمرسون وربات المنازل ومنقذو الغرقى وغاسلو الصحون. فهناك، على عمق ٤٠٠٠ متر رقد أشخاص ينتمون الى عشرين بلداً مختلفاً في مياه بلغت حرارتها أربع درجات مئوية وقوة الضغط فيها ٤٤٨ كيلوغراماً في السنتيمتر المربع.

وعندما تفكك مؤخر السفينة سقط طبق الشيبندال الفضي الثقيل من صوان المقهى الباريسي فأحدث قعقعة وراح يطفو ببطء ليستقر في القعر الأملس. وكان ذلك في نحو الثانية والنصف بعد منتصف الليل من يوم الاثنين الواقع فيه ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٢.

وهكذا دامت الرحلة البكر للتيتانيك أربعة أيام و١٧ ساعة و٣٠ دقيقة.[1] (★).

### [illegible]

بعد وقوع كارثة التيتانيك عمد مجلس الشيوخ الامريكي إلى إجراء تحقيق في ما حدث. وأجرت وزارة التجارة البريطانية تحقيقاً موازياً. وأتت نتائج التحقيقين

(★) لتحديد المصادر راجع اللائحة في نهاية كتاب الشهر.

متفقة في جوهرها، وتبيّن أن السفينة العظيمة تجاهلت التحذيرات المتكررة وتابعت طريقها بأقصى سرعتها في بحر من الجليد القاتل. وكانت فلسفة "المهم هو الوصول بصرف النظر عن الاخطار" سائدة آنذاك في الخطوط البحرية. فقد كان همّها الأول تأدية خدمة كتلك التي يؤديها "القطار السريع" اليوم والتزام المواعيد المحددة وان أدّى ذلك إلى الانطلاق بالسرعة القصوى عبر الضباب وحقول الجليد وزوارق صيد السمك.

وهكذا دفعت التيتانيك الثمن الابهظ لهذه الحماقة.[٢] ونجمت عن التحقيقين قوانين للسلامة البحرية والارسال اللاسلكي. وفي الولايات المتحدة أنشئت المنظمة الدولية لمراقبة الجليد، ومؤسسة حفر الجليد، وهما لا تزالان قائمتين حتى اليوم.[٣] وفي غضون سنة غدا هذا المرفق العام رسمياً "دائرة خفر السواحل" في الولايات المتحدة. ولا تزال هذه الدائرة تضع في ١٥ أبريل (نيسان) من كل عام إكليلا من الزهر فوق المكان الذي غرقت فيه السفينة الأسطورية.[٤]

والواقع أنه بعد انتهاء التحقيقات لم يُضَف شيء ذو بال الى الروايات حول المأساة باستثناء ما ورد في بعض المذكرات. وعلى رغم ذلك فإن القصة لا تزال تضطرم في ضمير العالم. ويمكن القول إن إثارة هذا الموضوع لم تكن ضرورية لأنه لم يكن منسياً البتة. فاسم التيتانيك لا يزال الى اليوم ذا قيمة عاطفية تفوق قيمة معظم الأحداث التي مرّت بالتاريخ الانساني.

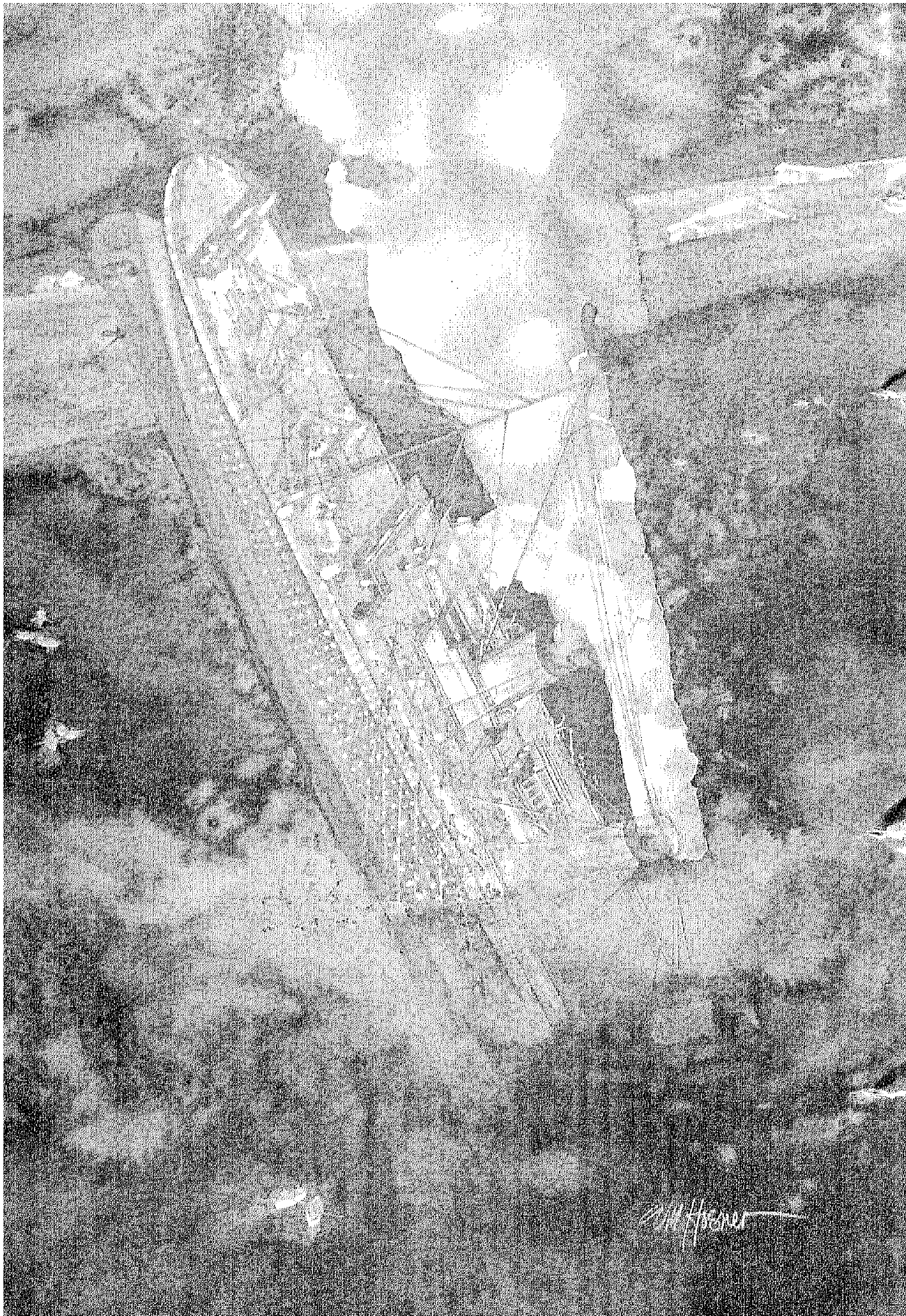
وعام ١٩٥٥ نشر الكاتب وولتر لوردز روايته القيمة "ليلة لا تنسى" التي أعادت الاهتمام بهذه الكارثة. ويرجع الى لوردز الفضل في تعريف أبناء جيل كامل بقصة لا يزال آباؤهم يحسّونها خيراً ممّا يجيدون التعبير عنها.

والحق أن جودة الكتابة في رواية "ليلة لا تنسى" بلغت حداً جعل إحياء الكارثة أمراً واقعاً. وفي العام ١٩٥٦ قدم "مسرح كرافت" الرواية على شاشات التلفزيون الأمريكي في عمل مسرحي نابض بالحياة مستعيناً بمئة وسبعة ممثلين و٣١ مشهداً. وبعد سنتين شوهدت التيتانيك مبحرة في دور السينما.

## شواهد غرق

لقد وقعت سلسلة من الكوارث المائية كانت حافزاً قوياً على تطوير أجهزة ووسائل يسّرت أخيراً تعيين موضع حطام التيتانيك. وكانت أولى هذه الكوارث فقدان الغواصة النووية الامريكية "ثريشر"[٣] صباح العاشر من أبريل (نيسان) ١٩٦٣ في منطقة تدعى ولكنسون ديب وتبعد عن كيب كود (ولاية مساتشوستس) نحو ٤٠٠ كيلومتر في مياه يراوح عمقها بين ٢٤٠٠ و٢٥٠٠ متر.

وبعدما مضت ساعة و٤٧ دقيقة على آخر اتصال لاسلكي راحت غواصة الانقاذ الامريكية "سكايلارك" تدور حول المنطقة وتطلق نداء الى ثريشر كلّ دقيقة عبر هاتف يعمل تحت الماء وتلقي قنابل يدوية عن جانبها كلّ عشر دقائق اشارة الى سطح الماء، إلا أن ثريشر ظلت صامتة.

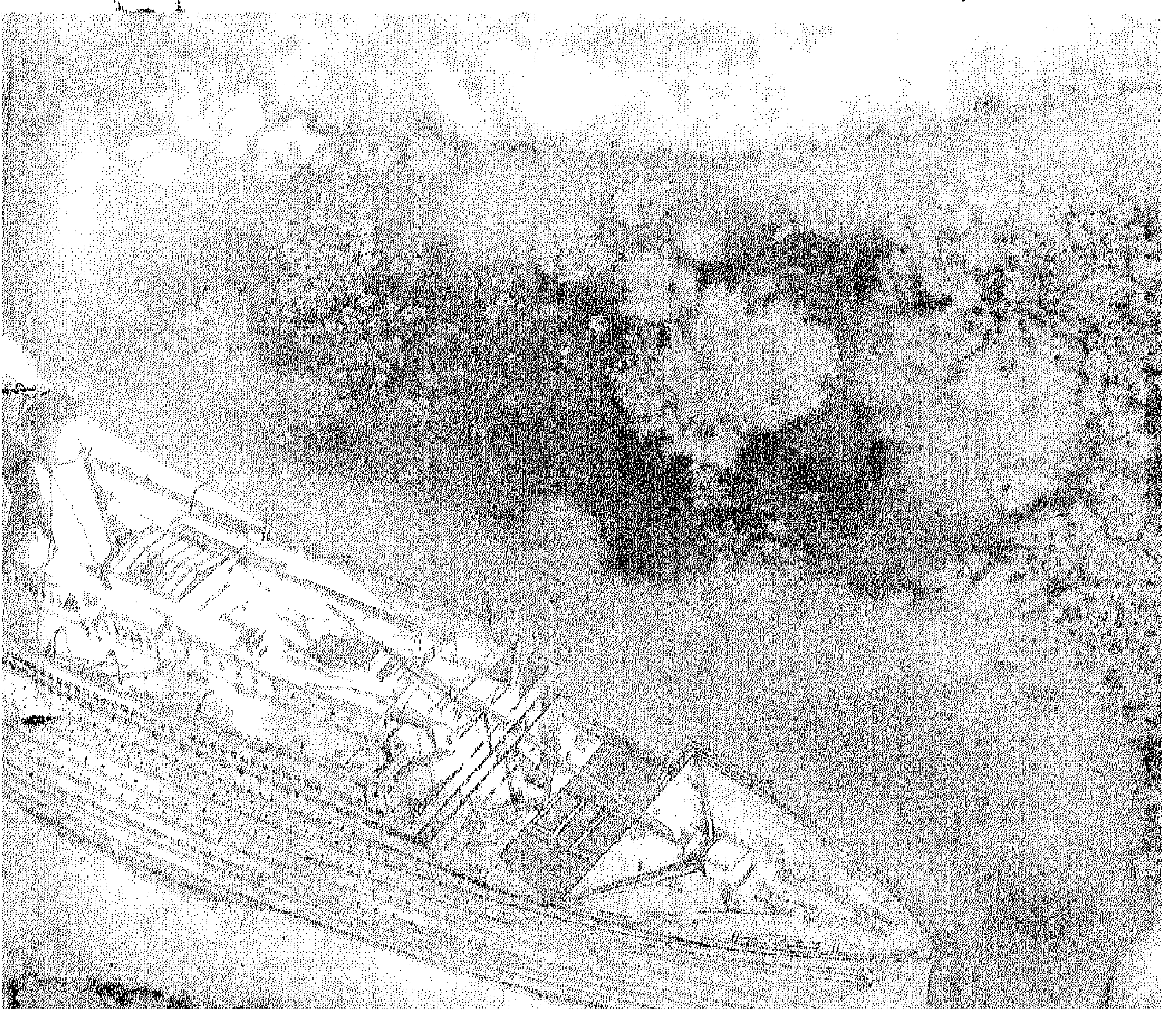


وقبيل الغسق اكتشف أحد الرقباء على متن "سكايلارك" رقعة من الماء هادئة على نحو غريب وشاهد على سطحها نفطاً وأجزاء صغيرة من الفلين وقطعاً بلاستيكية صفراء. وكان هذا دليلا على حصول الكارثة. فاتخذ الاسطول البحري قراراً بإعلام عائلات الضحايا بالأمر.

وفي اليوم التالي كان عدد من علماء مؤسسة علوم البحار في وودز هول بولاية مساتشوستس ومرصد لامونت - دويرتي الجيولوجي في جامعة كولومبيا في طريقهم الى المركب "أطلنتس - ٢" التابع لمؤسسة وودز هول والذي جعل يشق طريقه الى مكان الكارثة.

وكانت أولى المهمات العسيرة التي تنتظر هؤلاء العلماء سبر القاع بواسطة السونار(١). وفي هذه الأثناء وصلت غواصة الأعماق "تريستـه" التابعـة للأسطول من بوسطن الى سان دييغو حيث زُوّدت الأجهزة اللازمة وأخضعت لاختبارات

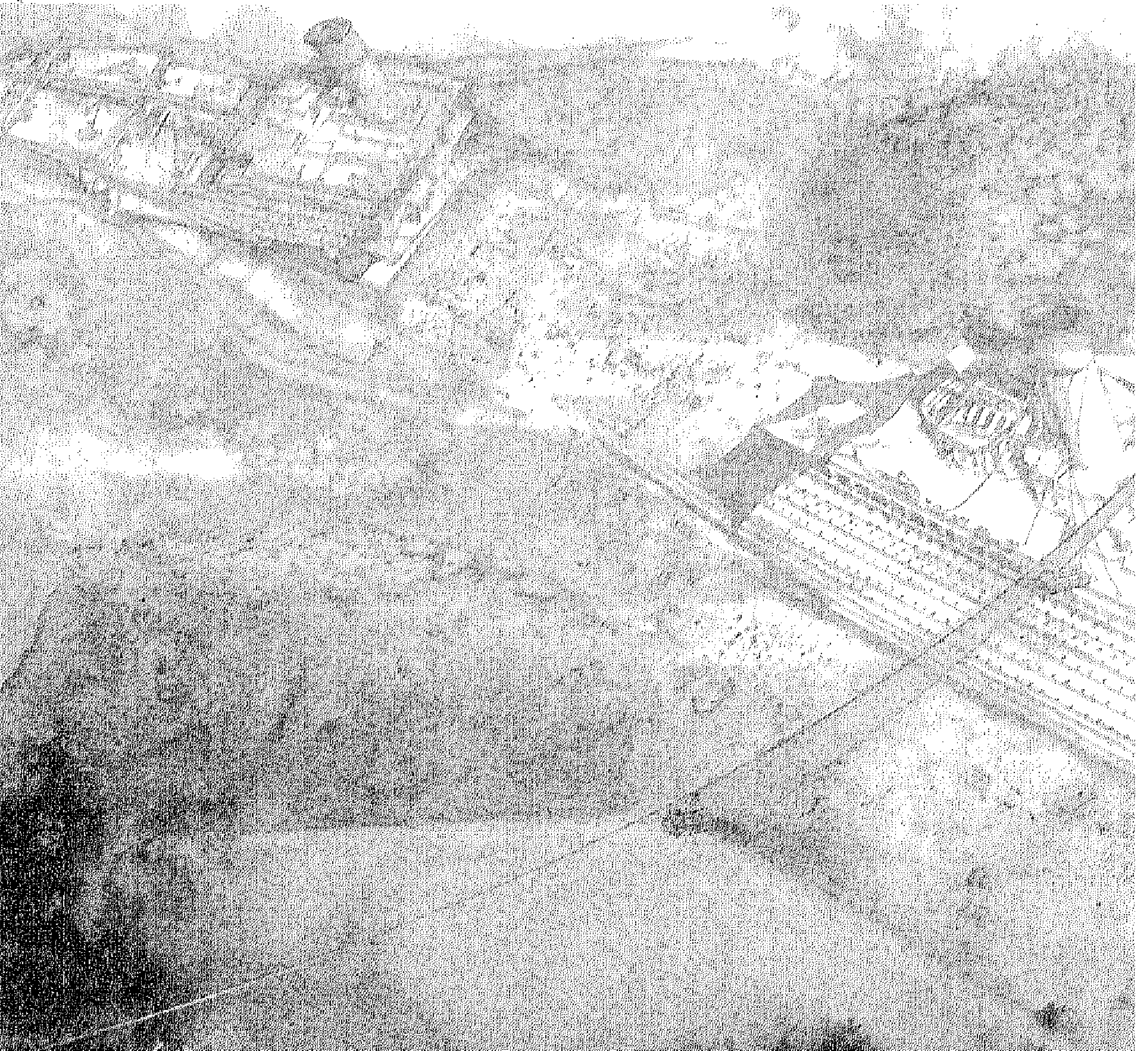
(١) جهاز لاكتشاف وجود الاشياء وموقعها تحت الماء بواسطة موجات صوتية تنعكس منها.



خاصة ثم مكثت تنتظر. وفي ٢٢ أبريل (نيسان) أعلن الاسطول اكتشاف ستة "نتوءات" في قعر المحيط. وغالب الظن أن المقصود باسم "بوينت دلتا" كما جاء في الشيفرة الرمزية كان تريشر نفسها. وفي ٢٦ أبريل (نيسان) حاول أطلنتس - ٢ تصوير بوينت دلتا بواسطة آلة تصوير «negative — 500» تزن ٢٢٥ كيلوغراماً.

واخيراً في ١٦ مايو (أيار) أظهرت مجموعة من ٥٠٠ صورة سلبية منطقة تمتد حوالى ١٥٠ متراً مكسوّة بالورق والألواح المعدنية المفضّضة والاسلاك الكهربائية المقطعة. وبدأ البحث المحموم وتركزت الجهود في هذا القطاع والتُقطت صور إضافية بينها صورة قارورة أوكسجين التقطتها السفينة "كونراد" التابعة لمرصد لامونت. ووجد اطلنتس - ٢ كتاباً مفتوحاً في القعر. وصوّرت كونراد حاجزاً مانعاً للماء طوله ثلاثة أمتار.

ولم تلبث الغواصة تريسته أن انبرت



للعمل. وبعد شهرين من الغوص كشف جهاز في شكل ذراع آلية قطعة من أنبوب نحاسي بدا واضحاً أنها تخصّ الغواصة المفقودة إذ كتب عليها رقم الانبوب ورقم أمر العمل والرقم "٥٩٣" الذي يميّز ثريشر. وقد وجدت تريسته الغواصة ثريشر ركاماً متناثراً في قعر المحيط. ولكن ما الذي جعلها تستقرّ هناك؟

يرى خبراء الأسطول أن وصلة في أحد أنابيب التبريد بماء البحر ربما انكسرت فجأة وتسببت في تعطيل مفاتيح بعض الاجهزة أو في تقصير دائرة كهربائية.

ثم انشقت الغواصة كالبيضة بثلم حول وسطها بدأ صغيراً جداً. وفي وقت يقلّ عن ذلك الذي يحتاج اليه المرء للصراخ اندفع نحو الغواصة جدار مائي صلب حطّم الحواجز المانعة لتسرب المياه كأنها مصنوعة من الخشب الخفيف. وجرف الماء المندفع كل ما اعترض سبيله في اتجاه طرفي الغواصة المنشقة. وأدى ذلك إلى انشطار بدنها قسمين ضخمين هويا الى قعر المحيط وتناثرا ألوفاً من الأجزاء.

## قنابل هيدروجينية

أما الكارثة الثانيـة فنجمت عن اصطدام في الفضاء على علوّ ٩٥٠٠ متر فوق قرية بالوماريس جنوب اسبانيا في ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٦. ونتج من ذلك سقوط عـدد من القنابـل الهيدروجينية على الأرض وواحدة في البحر الأبيض المتوسط. وسرعان ما استرجعت هذه القنابل باستثناء تلك التي سقطت في البحر.[٢] والواقع أن أياً من هذه القنابل لم تنفجر. فالاجراءات الوقائية في الاسلحة النووية الامريكية جعلت الانفجار متعذراً إذ يستحيل تفجير قنبلة هيدروجينية من صنع أمريكي عن غير عمد.

وفي ٢٢ يناير (كانون الثاني) أي بعد خمسة أيام من وقوع الاصطدام، لجأ الاسطول الامريكي الى مؤسسة علوم المحيطات في وودز هول وسأل هل في إمكان غواصة الاعماق "ألفن" التابعة للمؤسسة المساعدة في البحث عن القنبلة الهيدروجينية المفقودة.

ولم يلبث أن تدفق عدد ضخم من التجهيزات للمساهمة في عملية البحث. فأتت سفينة الابحاث "ميزر"(٢) من مَسْفن(٣) فيلادلفيا التابع للأسطول، وهي مجهزة بكاميرا صامتة تعمل تحت الماء ومزودة أنواراً كاشفة يمكنها التغلغل في الأعماق المظلمة مما أتاح لها التقاط صور واضحة لأنقاض الطائرة التي غرقت بعد الاصطدام.

ومن السفن التي جنّدها الاسطول الغواصة "ألومينو" التـابعة لشـركة "رينولدز انترناشونال" التي تزن ٧٥ طناً ويبلغ طولها ١٥،٥ متراً. وهي صممت كي تعمل على عمق يصل الى ٤٥٠٠ متر. وكانت مجهزة بهاتف يعمل تحت الماء وجهاز سونار وأنوار تكشف ما تحت الماء وآلتي تصوير تلفزيونيتين.

وصلت ألفن جواً ووصلت ألومينو بحراً الى قرية بالوماريس في ١٠ فبراير (شباط) وبدأتا العمل في ١٥ منه. وتوقف في الأفق مركب صيد سوفييتي

---

(٢) من كلمة "مئزر" العربية.
(٣) موضع تبنى فيه السفن أو ترمّم.

مزود جهاز إنصات. وحددت ألفن مكان المظلة (الباراشوت) في أعلى القنبلة الهيدروجينية على عمق ٧٧٥ متراً، إلا أنها لم تلبث أن ضيعته. ولم يكن هناك أي جهاز يمكنه انتشال شيء من عمق مماثل، فكان لا بدّ من تخيل وسيلة تفي بهذا الغرض. وتمّ ذلك في سلسلة مراحل مثيرة، بينها فقدان أثر القنبلة الهيدروجينية، الى أن وجدتها ألفن ثانية في ١٥ مارس (آذار). ودأبت ألفن على العمل مع ألومينو وغواصة أخرى كانت تستخدم لاستعادة قذائف الاسطول، وتمكنت من انتشال القنبلة من عمق ٨٥٠ متراً في ٧ أبريل (نيسان) أي بعد ٧٩ يوماً و٢٢ ساعة و٢٣ دقيقة من وقوع الحادث.[٦]

## تمشيط الكتروني

بعد سنتين وقعت كارثة أخرى في ١١ أبريل (نيسان) ١٩٦٨. فقد انفجرت غواصة سوفييتية من نوع "غولف - ٢" مزودة قذائف وصواريخ ذات رؤوس نووية، وغرقت وعلى متنها سبعون رجلا على بعد ١٤٠٠ كيلومتر شمال غرب هاواي في عمق يقارب الخمسة آلاف متر. واستقرت الغواصة هناك. وحاولت السفن السوفييتية تعيين مكانها من دون جدوى.

وفي مايو (أيار) بعد شهر من وقوع كارثة الغواصة السوفييتية غرقت الغواصة النووية "سكوربيون" على نحو غامض في المحيط الأطلسي قرب جزر الازور وعلى متنها ٩٩ ملّاحاً. وفي سان دييغو أَرسل "الفريق - ١" لتطوير الغواصات في الاسطول الأمريكي مجموعة من سفن استكشاف المحيطات في رحلة استمرت ٦٢ يوماً للبحث عن الغواصة المفقودة. وانضمت السفينة ميزر إلى عملية البحث بملاحيها الستين وقد جرّت وراءها "سمكة" تغوص في الاعماق وتشتمل على سونار وأنوار كاشفة وآلات تصوير متطورة ومقياس للمغنطيسية (magnetometer) إلى أن تمكنت الأجهزة من العثور على هيكل سكوربيون.[٧] والتقطت ميزر صوراً مدهشة تبدو فيها أجزاء من سكوربيون مستقرة على عمق ثلاثة آلاف متر تحت سطح المحيط الاطلسي، أي في موقع أقرب الى سطح الماء من موقع التيتانيك بنحو كيلومتر واحد.

وبعدما تخلى السوفييت عن محاولة البحث عن غواصتهم المفقودة أرسل الاسطول الأمريكي[٢] السفينة ميزر إلى المنطقة. فتمكنت من تحديد مكان الحطام بواسطة أدمغة الكترونية متطورة كانت على متنها وبمساعدة أقمار اصطناعية أمريكية. فقد بدأت ميزر تجرّ جيئة وذهوباً كتلة دعيت "سمكة" مختبر الابحاث في الاسطول وبلغ طولها مترين و٧٥ سنتيمتراً وعرضها حوالى متر ووزنها نحو طنّ واحد. ولم تتمكن ميزر من تحديد مكان الغواصة قبل مضي بضعة أسابيع على رغم توافر أجهزة الاستكشاف هذه التي تتضمن وسائل اتصال مائية حسّاسة وآلات تصوير وسونار ملاحة وسوناراً لمراقبة المياه الجانبية وسبر الارتفاع وأنابيب الكترونية (Strobe lights) ترسل ومضات ساطعة وقصيرة وجهازاً لقياس

المغنطيسية. واستدعى العثور على الغواصة المفقودة التمشيط الكترونياً في بقعة تزيد مساحتها على ٢٥ كيلومتراً مربعاً ويبلغ عمقها نحو خمسة آلاف متر.[٧]

### "خطة أزوريان"

أخيراً أشارت الآلات على ظهر السفينة إلى وجود جسم معدني ضخم في قعر المحيط. ونجحت ميزر في التقاط صور للهيكل الذي لم يصب بأذى على عمق ٥١٠٠ متر. وبعد نحو عقد من الزمن وصف روي فارنر ووابن كولير ما شاهداه من حطام الغواصة، فقال كولير إنه رأى[٢] "صورة طولها خمسون سنتيمتراً وعرضها أربعون لغواصة مستقرة على كثبان صغيرة في القاع وقد تحطم خطمها وتشوه ذيلها وفُقد بعض أجزائه، وبدا في جانب منها فجوة كبيرة وظهرت على طول الهيكل ثقوب متفرقة. وفي الناحية الأمامية قرب أسفل الصورة ظهر سرطان بحري ضخم يجر صيده عبر الرمال. وكان هذا الصيد حذاء رجل." وتساءل كولير كيف يمكن التقاط صورة واضحة في مياه يزيد عمقها على خمسة آلاف متر.[٧]

تلك كانت بداية احدى أبرز مهمات الاستخبارات وأكثرها كلفة في التاريخ. فقد أُعدّت "خطة أزوريان" التي أرصد لها ٥٥٠ مليون دولار، وهي كثيراً ما تدعى "خطة جنيفر" وسمّيت أخيراً "خطة ماتادور". وقد هدفت الى ابتكار وسائل تمكّن من انتشال الغواصة من قعر المحيط بحيث يتم كشف أسرارها النووية. وأوكلت هذه المهمة إلى السفينة "غلومار اكسبلورر" التي صُمّمت بالتعاون مع شركة "سوما" للثري الاسطوري الراحل هوارد هيوز. وأشيع طوال سبع سنوات أن السفينة كانت تعمل على استخراج معادن نفيسة من أرض المحيط.[٢]

وفي يوليو (تموز) ١٩٧٤ تدلّى إلى القاع جهاز ضخم يشبه المخلب ويدعى "كليمنتين" مربوط بسلك أنبوبي طوله خمسة آلاف متر، فقبض على الغواصة التي تزن خمسة آلاف طن ورفعها من القعر. ولم تكد غلومار اكسبلورر وكليمنتين ترفعان الغواصة نحو ١٥٠٠ متر حتى أفلت جزء من الغنيمة يساوي ثلثيها وهوى ثانية إلى قعر المحيط.

وكتب فارنر وكولير في ما بعد أن "إحدى السفن التابعة للأسطول أكدت أن الثلثين الآخرين سقطا في موضع قريب من الموضع الأصلي وأتت بصور واضحة للضريح الثاني العميق الذي استقرّا فيه."

وأخيراً ذاع الخبر وتناقلته وسائل الاعلام مما أنهى مهمة غلومار اكسبلورر الهادفة الى انتشال بقية الحطام. وكان من إنجازاتها البارزة التطور السريع لأعمال التنقيب البحري والتقنيات الأخرى الخاصة بالمحيطات.[٧]

كان للتقدّم التكنولوجي شأن خطير في رواية كلايف كسلر "ارفعوا التيتانيك!" التي كانت أكثر الروايات رواجاً عام ١٩٧٦. وفي هذا العمل الأدبي المثير وصف لاصلاح هيكل السفينة تحت الماء وضخ الهواء المضغوط فيه لرفعه الى سطح الماء.

وكان الدكتور روبرت بالارد الاختصاصي بعلم طبقات الأرض في وودز هول، من

العلماء الذين اهتموا بالعثور على التيتانيك. وعام ١٩٧١ اقترح بالارد استعمال مسبار البحار في "ألكوا"، وهو عبارة عن آلة تصوير تنزل على طول أنبوب حفر لتحديد موقع التيتانيك وتصويرها. وحينئذ ينزل بالارد إلى الحطام بالغواصة ألفن التي يمكنها الوصول الى عمق التيتانيك. غير أن هذا الاقتراح لم يلق الدعم المالي المطلوب، كذلك كان نصيب الاقتراح الذي قدّمه بالارد عام ١٩٧٨.

## بداية البحث

عام ١٩٨٠ أعلن جاك غريم أحد أثرياء النفط في تكساس أنه على استعداد لتمويل بعثة للعثور على التيتانيك.[٩]

وكان غريم دعم بعثات أخفقت في العثور على حيوان لوك نيس الغريب الشكل وعلى سفينة سيدنا نوح وعلى ذي القدم الكبيرة (Bigfoot) وهو كائن شبيه بالقرد يقال إنه شوهد في جبال حملايا وشمال غرب المحيط الهادىء.[١٠]

وكان غريم نفسه متخصصاً بعلم طبقات الأرض وعاش معوزاً في بداية الأمر.[٣] وهو أبرم بين العامين ١٩٥٢ و١٩٥٣ خمساً وعشرين صفقة تجارية تتعلق بحفر آبار نفطية ولم يوفق الى استخراج شيء البتة. وفي هذا يقول: "إن هذا مدعاة إلى الذل حقاً." وكان غريم معدماً إلى حدّ جعل شركة الهاتف مرة تقطع خطه مدة شهر.

على أن غريم شرع في حفر البئر ٣٦ بعد فترة قصيرة فوجدها غزيرة الدفق وبلغت قيمة إنتاجها اليومي ٣٥٧٠ دولاراً. فخلص غريم من العوز الذي كان فيه. وبات يملك في ما بعد آباراً منتجة راوح عددها بين ثلاثمئة وأربعمئة. وكان مدمناً العمل تدور حياته حول نادي ابيلين للنفط في ولاية تكساس والصفقات التي يأمل عقدها.

ولم تختلف طريقة غريم في أعماله التجارية عن تلك التي تعتمد عادة في تجارة النفط وتختصر بتحديد الامكانات المتوافرة ثم إعداد مشروع وجعل أحدٍ ما يتبناه ومن ثم تنفيذه. والملحوظ أن معظم المساهمين في مشروع إنقاذ حطام التيتانيك كانوا من رجال النفط المستقلين والمتخصصين بعلم طبقات الأرض والمهندسين. وعلى رغم أن بعض الناس اتهموا غريم بالمبالغة في توقعاته المتعلقة بإنجازات البعثة فهو لم يكن أصلا يقصد إنقاذ الحطام. وفي هذا يقول: "كنت أرى دائماً أن إنتاج فيلم سينمائي وتطوير الأجهزة الضرورية والعثور على السفينة تكفي لتعويض التكاليف."

وفي مرصد لامونت - دويرتي الجيولوجي التابع لجامعة كولومبيا قرأ عالم المحيطات الدكتور وليم ريان في الصحيفة أخباراً عن مشروع غريم وأعجب بنتائجه العلمية المحتملة.

وكتب ريان إلى غريم عارضاً مساعدته ومقترحاً استعمال سونار يُجر تحت الماء في مكان عميق ويستكشف جوانب المياه(٤). واقترح عليه أيضا الاستعانة

(٤) Side-Scan Sonar

بصديقه فريد سبيس العامل في مؤسسة سكربس لعلم المحيطات في لاهولا بولاية كاليفورنيا والذي كان رائداً لتطوير هذا السونار. وراقت غريم أفكارُ ريان ورأى أن ارتباطه بجامعة كولومبيا يضيف الى المشروع مقداراً من الصدقية. وفي مقابل مساعدة ريان له وهب غريم جامعة كولومبيا ٣٣٠ ألف دولار لصنع سونار يُجرّ تحت الماء ويستكشف جوانب المياه لمؤسسة لامونت - دويرتي، على أن يسع غريم استعماله خمس سنوات. وقد أمّن هذا المال أيضاً الدعم التكنولوجي اللازم لتشغيل السونار خلال بعثة غريم.

## كلمة "تيتانيك"

في الأشهر اللاحقة حضّر علماء لامونت - دويرتي ومؤسسة سكربس الاختبارات الضرورية لتحديد موقع الهيكل في منطقة تبلغ مساحتها ٧٧٥ كيلومتراً مربّعاً. وفي سبيل هذه الغاية استؤجر المركب "هـ. ج. و. فاي" الذي يبلغ طوله ٥٥ متراً من شركة ملاحة في بورت افرغليدز بولاية فلوريدا في مقابل سبعة آلاف دولار يومياً.[١١]

وبين ٣١ يوليو (تموز) و١٦ أغسطس (آب) ١٩٨٠ رُسمت خريطة مفصلة لمنطقة في شمال المحيط الأطلسي تبلغ مساحتها نحو ١٣٠٠ كيلومتر مربع. ووُجدت بواسطة الوسائل السمعية ثلاثة مواقع على الاقل تطابق حجم التيتانيك. إلا أن الحظ سدّد ضربة قاسية إلى البعثة إذ هبت عاصفة اقتلعت مقياس المغنطيسية الأساسي. فصنع سبيس جهازاً آخر من قارورة شامبو وسلك من مولد كهربائي. غير أن الطقس ساء وقلّ الوقود ونفدت المؤونة فتوجه المركب فاي الى بوسطن.[٩]

وعندما رجعت البعثة إلى الميناء بدا أن عدداً من أعضائها يظنون أنهم عثروا على الحطام، لكن ريان وسبيس كانا يشكّان في هذا الأمر.[٢] وكان بين المشكلات التي واجهت البعثة في عملية البحث الطبيعة المعقدة والمتغيرة لقعر المحيط في منطقة الحطام. وقال ريان ان المكان الذي استقرت فيه التيتانيك هو "احدى كبرى المناطق في شمال المحيط الأطلسي المعروفة بتشويشاتها المغنطيسية الطبيعية." فالتيتانيك غرقت قرب ما يعرف بالحافة الشاذة - ج (٥) وهي بقايا بركانية عمرها ١١٠ ملايين سنة ولها قوة مغنطيسية غير عادية.

وقال ريان ان التموجات المنبعثة من السونار أتاحت الحصول على عدد من أفضل الصور وأوضحها وأكثرها تفصيلا لقعر المحيط حيث تتداخل التراكيب الجيولوجية في الأرضيات العميقة.

ووصف علماء البعثة المنطقة المسماة "الهامش القاري" (٦) بأنها "مشهد بحريّ مثلّم يمثّل الكوارث الطبيعية التي يبدو جلياً أنها تحدث بسرعة تفوق التوقع."

وعلى عمق يراوح بين ٣٦٠٠ و٤٠٠٠ متر انبسط حوض لتصريف المياه أحدثته التيارات السريعة تحت الماء وأتى مشابهاً للأودية ولمصبات الدلتا التي

(٥) J-Anomaly ridge
(٦) Continental margin

حفرتها الأنهر. وكشف السونار أخاديد وأودية وحافات وشلالات وأتلاماً ولّدتها الانهيارات وكوماً من الأنقاض متناثرة.

وخلال النظرة الاستطلاعية إلى المكان ظُنّ أن بعض الحافات وأكوام الانقاض هي أجزاء من حطام السفينة. فصورة السونار الدقيقة التي التقطت لأحد الأجسام وظهر فيها الطول الصحيح والعرض الصحيح والعلو الصحيح لسفينة التيتانيك تبيّن أنها صورة حافة أحد الاودية البحرية.

وقال ريان آخذا في الاعتبار الطبيعة المعقدة لأرض المنطقة: "الاحتمال ضئيل أن تستقر التيتانيك في مساحة منبسطة لا يحجب الرؤية فيها شيء."

وقال بالارد: "كنت أرى دائماً أن تصوير التيتانيك على نحو مرضٍ، وليس العثور عليها، هو أصعب ما في اللغز. فالمطلوب رؤية كلمة "تيتانيك" مكتوبة على مقدمها."

أما غريم فوعد بثقة راسخة بأن تلتقط بعثة "التيتانيك ٨١" صوراً للسفينة لا تدع مجالا للريبة في أنها صور الحطام الغارق.

## قطعة واحدة!

أبرم غريم اتفاقاً مع المؤلف وليم هوفمان يقضي بأن يسجل هذا يومياته خلال بعثة ١٩٨١. واليك ما قاله هذا المؤلف في مركب الاستكشاف:

على رغم أن المركب "غاير" يبلغ طوله ٥٣ متراً وحمولته الاجمالية ٢٩٧ طناً فهو سُجّل في تكساس على أنه زورق آلي لأنه لا يمكنه شحن بضائع أو تلقي أجر من الركاب. والغاير زورق استثنائي. وهو مجهز بتكنولوجيا متطورة جداً كان لبرنامج الفضاء في الولايات المتحدة الفضل في تطوير ما يزيد على نصفها. وتتضمن هذه التكنولوجيا أجهزة ملاحة متقدمة جداً وأدمغة الكترونية. والى ذلك فان أجهزةِ جامعة كولومبيا التي طوّرها سكربس وأُنجزت بمال غريم اشتملت على سونارات تستكشف الماء في اتجاه علوي وسفلي وأمامي، وليس فقط في اتجاه جانبي. وفي امكان هذه السونارات التغلغل عبر ترسبات المحيط اذا تبين أن التيتانيك دفنت في قعره.

وفي حال العثور على التيتانيك على نحو اكيد فقد كان المليونير غريم يزمع الاستعانة بالغواصة ألومينو التي تملكها شركة "رينولدز انترناشونال" لانتشال الحطام. والمعروف أن هذه الغواصة هي كبرى الغواصات التي تملكها شركة خاصة، وتشتمل على أذرع خارجية يبلغ طول كل منها ٢٧٥ سنتيمتراً ويمكنها الوصول إلى داخل السفن الغارقة وانتشال بعض الأدوات. ويذهب بعض الروايات إلى أن ثروة من السبائك الذهبية والألماس اندثرت بغرق التيتانيك. ولا ريب في أنه كان على متنها عدد لا يحصى من النفائس، غير أنّ التمكن من استرجاع أي شيء يقتضي إنفاق ثروة كبيرة، إذ إن كلفة الغاير وحده بلغت ٧٥٠٠ دولار يومياً.

وكانت فلسفة فريد سبيس في البحث نتاج أكثر من أربعة عقود أمضاها في البحر وحقق خلالها نجاحات لا تحصى في العثور على حطام السفن الغارقة. فهو

درس تحقيق مجلس الشيوخ الأمريكي المتعلق بكارثة التيتانيك كما درس تحقيق هيئة التجارة البريطانية. وكان يعلم من خلال تقارير لشهود عاينوا الكارثة أن التيتانيك كانت لا تزال قطعة واحدة عندما هوت الى قعر المحيط. وكان وثيق الاطلاع على حوادث غرق أخرى هوت فيها السفن تحت سطح الماء من دون أن يتحطم أي جزء منها ومن دون أن تصاب بأذى عند اصطدامها بقعر المحيط. وفي هذا كتب سبيس: "بدا معقولا ألّا تكون التيتانيك مصابة بأذى كبير من خلال الصورة التي تتكون لدينا عبر موجات السونار العائدة الينا وعبر أجهزة السونار الخاصة بمراقبة الجوانب.

كان العلماء يعلمون جيداً أين ينبغي أن تكون التيتانيك، إلا إذا كان مستوى ملاحيها رديئا الى حدّ يجعل الخطأ في تحديد المكان الذي انطلق منه نداء الاستغاثة يتجاوز مسافة ١٨ كيلومتراً. وبدا ذلك مستحيلا لأنه يعني أخطاء مماثلة للسفن الأخرى التي وجدت في المنطقة.

والواقع أنه كلما تمّ تحديد الهدف على نحو أولي بواسطة التشويش المغنطيسي أو من خلال السونار، كان هذا يعني أن الغاير قطع المنطقة المثيرة للاهتمام قبل وقت طويل لأن العربة التي كان يجرّها ربما كانت تبعد عنه مسافة ثلاثة آلاف متر الى خلف. ولا شك في أن رجوع العربة الى المنطقة الموعودة مرة ثانية أو ثالثة، بدرجات انحراف ومسافات متفاوتة، يقتضي وقتاً يراوح بين أربع ساعات وست على الأقل لمعرفة المزيد عن خصائص الهدف. ولا ريب في أن الملاحة الحاذقة أساسية في هذا المقام.[٣]

## مروحة التيتانيك؟

من "الأهداف" الأربعة عشر التي حُدّدت عام ١٩٨٠ اعتبرت ثلاثة حَرية بالاهتمام، إلّا أن أياً منها لم يثبت في بعثة ١٩٨١.[٣] وعُقد اجتماع عالي المستوى اقتصر على غريم وسبيس وريان، واتخذ قرار بتوسيع رقعة البحث. فقد كان غريم دفع أجرة الغاير فترة طويلة وكان مهووساً بالعثور على التيتانيك فلم يكن التخلي عن البحث أمراً ممكناً.[٣] وتابع هوفمان وصف المشاعر المتضاربة على متن المركب:[٣]

هبت الريح عاصفةً ودافئة في مركز المراقبة على الرافعة ورحنا نبحث بضراوة في قعر المحيط. وربما كانت رداءة الطقس خير كفيل لاخفاقنا. ولم يكن الغاير كبيراً الى حد يجعله قادراً على العمل بفاعلية في المياه الهائجة. وأشار ريان إلى أن ما توصلنا اليه يمكن أن نجني منه فوائد جمة في المستقبل. ولكن بما أن الوقت كان آخذاً في الانقضاء فقد كان المستقبل آخر ما يهمّ غريم في هذا المقام.

ونظرنا الى صور فوتوغرافية التقطت في جولة طويلة عبر وادي التيتانيك. فشاهدنا شيئاً بدا كأنه أنبوب هوائي كما شاهدنا فوهة مدفع وقطعة من أنبوب وقطعة معدنية أخرى ذات حجم وشكل أشبه بسرير كبير مثقوب في الوسط. ورأى غريم أن هذه الأنقاض "ربما كانت من التيتانيك."

وكان علينا التخلي عن المركب بعد يوم واحد فقط لأنه كان مؤجّراً لدائرة المسح الجيولوجي في الولايات المتحدة وينبغي أن يعود إلى بوسطن. ولم يكن غريم ليرضى بذلك، فاستعر غضبه في اتصالات لاسلكية طوراً، ولجأ الى التملق والالتماس والتهديد والمنطق والعاطفة أطواراً. فوافقت دائرة المسح الجيولوجي على منحنا مهلة يوم آخر.

وحلّت "سمكة" لامونت - دويرتي المزوّدة جهازاً يمكنه تصوير أفلام سينمائية محلّ جهاز سكربس الخاص بالجرّ على أعماق كبيرة. وصورنا أفلاماً خلال مرورنا في الوادي، الى ان انتهت المهلة المحددة لنا.

وبدا غريم أشبه برجل اقتيد كي ينفّذ فيه حكم الاعدام. فأجرى اتصالا لاسلكياً التمس تمديد المهلة "يوماً واحداً فقط" ثم ساعة واحدة وأخيراً "نصف ساعة" فتمت الموافقة على منحه ثلاثين دقيقة إضافية.[٣]

وفي طريق العودة الى بوسطن احتشد عدد كبير من الركاب في ردهة الغاير لمشاهدة الأفلام التي تمكن تلفزيون ريان الملون من التقاطها في اليوم الأخير. وكتب هوفمان في هذا الصدد:[٢]

كان ذلك خلال الدقائق الثلاثين الأخيرة أي خلال نصف الساعة الذي التمسه غريم من دائرة المسح الجيولوجي. ولم يكن أحد منا مستعداً لما سيأتي. فقد كان ذلك هائلا وغير متوقع بحيث حبس أنفاسنا.

لقد وثب غريم من كرسيّه كأنه قُذف بمدفع. وقال من فوره إن تلك مروحة من التيتانيك. وأمر بعرض الشريط ثانية. وتكرر عرضه مرات كثيرة من دون أن يشبع نهم الرجل الثري الذي ظلّ يرى المنظر مثيراً. وكانت مذهلة مشاهدة ذلك الجسم في بحر لا حياة فيه ولا يعرف المياه المتدفقة. وبدا كأنه مروحة التيتانيك التي تزن ٢٦ طناً. وكان الشريط التلفزيوني لافتاً حقاً لأن ما التُقط ظهر فجأة أمام الأعين أعجوبة لم تلبث أن اختفت.

## هدف اختبار

أسرع المليونير الى غرفة الاتصالات اللاسلكية. والحق أنه جازف بمال كثير للعثور على السفينة الاسطورية وأحس أن هذا الأمر تحقق. فهل يمكن أن يبلغ امرؤ حداً من الجهل يمنعه من تمديد المهلة ؟

والواقع أن الحكومة بلغت مثل هذا الحد. فقد حصل غريم على مهلة يوم ولن يحصل على المزيد. وراح غريم يتوسل تارة ويلقي الخطب الرنانة طوراً. ولم ينقطع عن المحاولة حتى عندما بدا جلياً أن تحقيق طلبه أمر متعذر.[٣] وعاد مركب الغاير الى بوسطن وذاع خبر الاكتشاف الذي حققه غريم. على أن أياً من ريان الذي التقطت أجهزته الصور ومن العلماء الذين شاهدوا الصور لم يبدِ استعداداً للتسليم بأن ذلك كان مروحة التيتانيك.

وعام ١٩٨٣ أرسلت بعثة لمتابعة العمل، إلا أن الرياح الهوجاء التي استمرت في الهبوب جعلت متابعة البحث مستحيلة. وبدا أنه لم يكن هناك مفرّ من اعتبار النتيجة المؤلمة، إذ أضافت التيتانيك خيبة جديدة إلى خيبات جاك غريم السابقة.[٢]

كان روبرت بالارد يشبه رواد الفضاء في بعض صفاته.[١٣] وكان طويل القامة رياضياً اشتهر كغواص ماهر يستكشف أعماق البحار. وفيما كانت بعثة غريم تتابع عملها كان بالارد "يراقب من الخطوط الجانبية" مبدياً انفعالات متنوعة.[١٤] وفي هذا قال: "لقد أقنعتني جهودهم أن مفتاح اكتشاف التيتانيك يكمن في تأمين الوقت الكافي لانجاز بحث شامل في منطقة تراوح مساحتها بين ٣٥٠ و٤٠٠ كليومتر مربع."[١٣]

ولجأ بالارد إلى "صديق قديم في فرنسا" كي يربح وقتاً أطول في البحر للبحث عن الحطام المراوغ. ولم يلبث أن ضمّ جهوده إلى جهود جان جاري وجان لوي ميشال العاملين في المؤسسة الفرنسية لسبر البحار(٦).[١٤]

وكان مهندس الالكترون جان جاري سمع بسفينة التيتانيك للمرة الأولى من جدته التي "استرعى انتباهها ان أولئك الأغنياء والمشاهير ماتوا على نحو لائق. ولو أخبرني أحد أن الحطام سيعثر عليه يوماً في قعر البحر لوجدت ذلك طبيعياً جداً. فقد كنت مولعاً بقراءة المؤلفات العلمية الخرافية للكاتب الفرنسي جول فرن وكنت أصدق ما يقوله."

وساعد جاري في تطوير غواصة الأعماق "أرخميدس" التي صممت للنزول إلى عمق ٣٣٥٠ متراً. وأصبح في ما بعد رئيس قسم "العمليات الجارية تحت الماء" في مؤسسة «IFREMER».

أما جان لوي ميشال الذي كان هو أيضاً مهندساً فقد نشأ في الجزائر حيث كان البحر جزءاً من حياته اليومية. وبعد خدمته في الهيئة الفرنسية الخاصة بما تحت الماء التحق بمؤسسة «IFREMER» العريقة حيث ساعد منذ البداية في إعداد العربات والأجهزة اللازمة للبعثة الفرنسية - الأمريكية "فاموس" التي انخرط هو وبالارد أولا في فريقها.

## وحل أم عظام؟

يقول ميشال في البحث عن التيتانيك: "كان عليّ العثور على الحطام. وقد تعين عليّ ذلك بكل بساطة من أجل أولادي. فأنتم لا يمكنكم أن تتخيلوا السخرية التي تعرضوا لها في المدرسة لأن والدهم كان يبحث عن التيتانيك التي يعلم الجميع أنه لا يمكن العثور عليها."[١٥] وكان بالارد يشارك «IFREMER» ومكتب الأسطول الامريكي للأبحاث البحرية في الرأي أن التيتانيك كانت في الأساس هدفاً لاختبار النماذج الأصلية لمركبات تحت الماء تجعل المرء يشعر كأنه في قعر المحيط، وذلك باعتماد تكنولوجيا الفيديو لارسال "ذهننا" إلى قاع البحر من دون أن تضطر أجسادنا إلى النزول. وسيتيح ذلك للعلماء مشاهدة مناطق واسعة من قاع البحر تتضمن جباله وأوديته وصحاريه التي لم تسبر أغوارها من قبل.

بدأ ميشال الذي اكتسب خبرة واسعة في شؤون التيتانيك، دراسة شاملة لسجلات السفينة وللسجلات البحرية ذات العلاقة بغرقها. وفي هذا يقول ميشال:

(٦) Institut Français de Recherche pour l'Exploitation de la Mer «IFREMER».

"لقد حدّدنا على خرائطنا المنطقة التي يحتمل وجود التيتانيك فيها معتمدين على هذه المعلومات التاريخية. ورأينا أن موقعها ينبغي أن يكون ضمن مساحة عشرين كيلومتراً مربعاً. وفي يونيو (حزيران) ١٩٨٥ بتنا على استعداد للذهاب بعدما نلنا موافقة الحكومتين الفرنسية والامريكية على تمويل الرحلة."[١٤]

ولم يكن بالارد وميشال متأكدين من صفاء الماء في مكان الحطام، "ففي قعر المحيط تيارات مرعبة تقلب الأشياء" على حد تعبير بالارد، "وكنّا نخشى ألّا نتمكن من الانتفاع بآلات التصوير في منطقة ليست الرؤية فيها واضحة البتة."

وأجرى الرجلان بحثاً دقيقاً حول زلزال ١٩٢٩ الذي هزّ منطقة غراند بانكس القريبة من نيوفاوندلاند حيث غرقت التيتانيك. وفجأة انقطع عدد من خطوط الهاتف وأسلاك التلغراف تحت الماء. وانهارت كمية ضخمة من الصخر منحدرة بسرعة ٥٥ كيلومتراً في الساعة من الافريز القاري(٧) الى السهول العميقة على بعد مئات الامتار نزولا.[١٦]

ويقول بالارد في هذا الشأن: "كان أحد الأسئلة التي دارت في خلدنا هل أثر هذا الانهيار في الحطام فدفنه أو كسّره وأضعف قدرة السونار على تسجيل إشاراته؟" وتساءل وزميله: هل تكون الصور التي سيلتقطانها لأراضٍ من الوحل هي لعظام التيتانيك؟

وفي ١ يوليو (تموز) غادر ميشال وفريقه ميناء برست في فرنسا على متن مركب البحث الفرنسي "لوسوروا".

"ووصلنا الى منطقة التيتانيك بعد ثمانية أيام. وفي ١١ يوليو (تموز) بدأنا نحصد المرج." وهذه هي العبارة التي تستعمل للكنس الدقيق، إلى خلف وإلى أمام، مع الاستعانة بأجهزة تصوير وإنصات تغطي كل متر مربع في منطقة البحث.[١٤]

وفي نهاية سلك يبلغ طوله ألوف الأمتار كان المركب لوسوروا يجرّ "قطاراً" من الاجهزة الدقيقة. وبدت أولا مركبة الأجهزة الصوتية التي يبلغ طولها خمسة أمتار ويلقبها الفرنسيون "السمكة"، وهي تتضمن وحدات سونار للمراقبة الجانبية والمراقبة العمودية. ثم ظهر سلك طويل يجرّ مقياساً للمغنطيسية يكشف عن أشياء لا توجد عادة في أماكن مماثلة. ويشرح بالارد ذلك قائلا: "إن السونار المستعمل للمراقبة الجانبية يساعد في البحث عن الحطام الأساسي الذي يظهر كصورة رادارية كبيرة في السونار. وفي الوقت نفسه يخبرنا مقياس المغنطيسية إذا كان ما ننظر إليه جسماً معدنياً."[١٣]

وقال ميشال: "لقد صرفنا نحو ساعتين لوضع الأجهزة في المكان الملائم، على عمق نحو خمسين متراً فوق قعر المحيط. وكلما أردنا إخراجها من الماء استغرق ذلك وقتاً مماثلا. وكانت رداءة الطقس تضطرّنا إلى إخراج "السمكة" بعد كل "حصاد" لنعود الى نقطة البداية وننزلها من جديد."

ومما زاد المشكلة تعقيداً أن الطقس ازداد رداءة وهبّت ريح هوجاء استمرت ٣٦ ساعة.

(٧) Continental shelf

واستؤنف البحث في ما بعد. ويذكر ميشال "أنّ الطور الثاني من البحث انتهى من دون العثور على التيتانيك. فعلى رغم أننا فحصنا منطقة أكبر من باريس بثلاثة أضعاف ونجحنا في استعمال الجهاز الصوتي الذي يجره المركب للمرة الأولى، فقد منينا بالاخفاق."

وكان اليوم المحدد لانتهاء رحلة لوسوروا هو ٧ أغسطس (آب). وفيما كان المركب يستعد للابحار الى جزيرة سان بيار الفرنسية قرب ساحل نيوفاوندلاند شاهد ميشال وبالارد قوزح قزح قريباً من الجنوب. وبدا ذلك فألا حسناً.[١٤]

## مسباران جديدان

في ٣ أغسطس (آب) ذهب بالارد وميشال الى جزر الازور للقاء سفينة الابحاث "كنور" التابعة لمؤسسة وودز هول والتي تزن ٢١٠٠ طن ويبلغ طولها ٧٥ متراً. وبعد يومين أبحرا للبحث عن التيتانيك في منطقة تبعد ٤٥٠٠ كيلومتر.[١٤]

والسفينة كنور مجهزة بلاقط ملاحي يستقبل اشارات قمر اصطناعي ويمكنها تحديد موقعها في أي مكان على الكرة الأرضية بحيث لا تزيد نسبة الخطأ على مئة متر. وهي مزودة أيضاً مروحتين دائريتين، واحدة في المقدم وواحدة في المؤخر، وهما عبارة عن اسطوانتين مثبتتين في موازاة أسفل بدن المركب. وهناك ست شفرات شبيهة بالمجاذيف تنتأ عمودياً – الى أسفل – من كل أسطوانة. وتدور الاسطوانتان، وبتغير درجة انجدار كل شفرة تتحرك السفينة الى الامام أو ترتدّ الى الوراء أو تتحرك جانبياً أو تدور على نفسها دورة كاملة.[٩]

وتبادل العالمان الادوار، فرأس بالارد عملية البحث ورأس ميشال عملية المراقبة التي تتم بين الثانية عشرة ظهراً والرابعة بعد الظهر وبين منتصف الليل والرابعة فجراً. وفي هذا يقول بالارد: "هذه هي الفترة التي تتطلب أكبر جهد جسدي، لذلك نخصص لها دائماً أفضل رجالنا. وذلك هو البرنامج الذي حُدّد لميشال في "عربة المراقبة" الصغيرة التي أقيمت في ميمنة السفينة على السطح الخلفي.

وكانت منطقة البحث تشتمل على ثلاثة أنماط من الأرض. الأول يتضمن ودياً تجري فيه الأنهار، والثاني يتضمن كثباناً من الرمل لا تختلف عن كثبان الصحراء، والثالث يتضمن منحدراً وحلياً هو من آثار زلزال ١٩٢٩. أما الفوهات التي وجدها الفرنسيون فيمكن أن تكون وليدة انفجار خزانات الوقود في أثناء تفكك التيتانيك. واتضح أن هذه الفوهات هي نتوءات طبيعية أقدم كثيراً من التيتانيك.[١٣]

وقال بالارد: "استناداً إلى البيّنات التي لدينا افترضنا أن الحطام سيكون "ريشة" من الأنقاض يبلغ طولها حوالى ١٥٠٠ متر وأنه يغلب أن يكون موجهاً الى ناحيتي الشمال والجنوب."[١٤] لذلك اعتمدت في البحث شبكة متسامتة(٨) ذات خطوط شرقية – غربية بدلا من

---

(٨) الشبكة المتسامتة (grid) ذات خطوط افقية وعمودية متساوية الابعاد تستخدم في اعمال المساحة.

أسلوب "حصد المرج". ويمكن تحسين فرص الكشف عن الانقاض الصغيرة بانزال آلة تصوير فيديو الى القعر.[13]

واستخدم في عملية البحث مسباران جديدان للاعماق هما "أرغو" و"انغوس". وكان أبرزهما أرغو الذي يشبه المزلجة ويساوي حجمه حجم السيارة. وهو مجهز بسونار وأنابيب الكترونية وامضة وقوية وجهاز فيديو متطور صمّمه بالارد والفريق الخاص بأعماق البحار الذي يعمل معه في وودز هول. ويزن هذا المسبار طنين ويمكنه العمل على عمق ستة آلاف متر. وهو مثل الجهاز الصوتي الفرنسي يجرّه سلك متّحد المحور(٩)[14] مغلف بالفولاذ وتبلغ قدرته على التحمل ١٣ ألفاً و٥٠٠ كيلوغرام وينقل الطاقة الى المسبار ثم يعود بالمعلومات الى ظهر السفينة.

ولم يمض بعض الوقت حتى تضاءل الاهتمام بالبحث عن التيتانيك في المكان الذي كان يفترض ان تكون غرقت فيه. وفي المساء بات في وسع الملاحين مشاهدة أحد فيلمين سينمائيين. الأول هو "ارفعوا التيتانيك!" المقتبس من كتاب كلايف كسلر والثاني هو "ليلة لا تنسى" المقتبس من قصة والتر لوردز.

## اللحظة الحلم

في وقت لاحق كتب ر.ج. بوين قبطان كنور: "كانت مكتبة السفينة مزودة مرقاباً تلفزيونياً ينظر عبره الملاحون الذين أنهوا عملهم. وليلة بعد ليلة كنا نشاهد الوحل والرمل والسمك أحياناً. وكنا لا نزال نرى الصور التلفزيونية جذّابة، وأحياناً نشاهدها مدة ثلاث ساعات أو أربع متعاقبة أملا في ظهور بعض الأنقاض على الشاشة."

وتعاقبت الايام وتضاءل الأمل في العثور على التيتانيك. وبات مألوفاً أن تظل الاعين محدقة إلى مرقابات الفيديو والآذان مصغية الى موسيقى الروك اند رول والموسيقى الريفية والأفواه منتفخة بالفشار (بوب كورن).[13] وكان شهر أغسطس (آب) في طريق الانقضاء و"نافذة الطقس" في طور الانغلاق.

وفي ليل ٣١ أغسطس (آب) وأول سبتمبر (أيلول) وصل جان لوي ميشال وفريقه إلى عربة المراقبة للمناوبة من منتصف الليل الى الرابعة فجراً. واتخذ ميشال مركزه المعتاد في منصة القيادة. وكان معه ستة ملاحين آخرون تولّوا مراقبة "المقبرة" وبينهم الملاح وعامل الفيديو وخبير السونار.

وذهب بالارد الى حجرته كي يستحم ويرتاح ويقرأ صفحات في كتاب "ييغر" وهو سيرة ذاتية للطيار الذي قاد طائرة «X-1» في مرحلة التجربة.

وفيما السفينة كنور تشق طريقها بحذر راحت عين أرغو الساهرة تسجل ظهور قطع الأنقاض. فبدت على شاشة الفيديو صور رمادية للفحم ولقطع من الانابيب المعدنية. ورأى ميشال وقد أخذ انفعاله في الازدياد "أن هذا يمكن أن يكون هي. وتابعنا المراقبة نحو خمس دقائق إضافية ظهرت خلالها أجزاء أخرى من الحطام. وكلما شاهدت صورة جديدة أدركت أن هذه اللحظة ينبغي أن تكون

(٩) Coaxial cable

تلك التي حلمنا بها طوال هذه السنوات.

وفجأة ظهرت صورة جلية لأحد خزانات الوقود الضخمة!"

طغى شعور حاد بالدهشة والغرابة في عربة المراقبة فيما القوم يحدقون إلى الصورة. وقال ميشال: "يجب أن يذهب أحدنا ويوقظ بالارد. غير أن أحداً من الحاضرين لم يكن يريد الذهاب، إذ كانت تلك اللحظة مفعمة بالاثارة."

## "هذه هي!"

في نحو الاولى بعد منتصف الليل، أي بعد دقائق، طرق الطباخ جون برتولومي باب بالارد ثم أدخل رأسه في الحجرة وهتف: "الرجال في العربة يقولون بضرورة نزولك اليهم."

فأسرع بالارد الى مركز المراقبة. ولم يكد يخطو داخل الغرفة الكبيرة المضاءة بنور أحمر خافت حتى رأى على المرقاب أول صورة فيديو لخزانات الوقود، وقال من دون تفكير: "هذه هي!"[١٣]

وكان الطباخ أيقظ أيضاً جاري الذي كان على متن كنور بصفته مديراً لمشروع «IFREMER». ويتذكر جاري "أن الطباخ قال: لقد عثروا على السفينة! فظننت أنه يمزح، لكني كنت أسمع صيحات الدهشة فأسرعت في ارتداء ثيابي وبعد دقيقتين ذهبت الى المختبر حيث وجدت أناساً كثيرين وكانت تلك لحظة ابتهاج عظيم."

وبدا بالارد وميشال وجاري في حال من الفرح وهم مكبون على دراسة صور محرك البخار التي التقطوها بواسطة أشعة اللايزر. ولم يبق هناك أي شك في الأمر. لقد أنجزوا ما كانوا يزمعون إنجازه.[١٤]

ولم يكد خبر الاكتشاف ينتشر في السفينة حتى امتلأت عربة المراقبة بالملاحين والعلماء الذين أثارهم النبأ. ووسط السرور العارم أثيرت غريزة الملاحة الجوية لدى بالارد عندما أبلغ اختصاصي بالسونار عن وجود أجسام كبيرة يمكن أن يصطدم بها المسبار أرغو. وعندما رأى بالارد أن أرغو ينبغي أن "يطير" تحت مستوى سطح التيتانيك أمر برفع العربة. ووجب تعيين موقع السفينة واحاطتها بأجهزة الاشارة وتحديد الركام ومعرفة ما بقي من الصواري والحبال.[١٣]

وتتذكر بالارد في ما بعد أنه لم تكد الأجهزة ترفع من الماء حتى "هزّتنا الناحية الانسانية. فقد كنا قريبين جداً من الوقت الذي وقعت فيه المأساة، اذ غرقت التيتانيك في الثانية والدقيقة العشرين بعد منتصف الليل. وبدا مناسباً التعبير عن الشعور الذي انتابنا، فوقفنا لحظاتٍ صامتين وانضم الينا آخرون. ولست أذكر عدد هؤلاء لكني أذكر أن الصمت أطبق علينا. وعلمت أن الضحايا قضت في غير طائل وربما أمكن انقاذها لو كان عدد قوارب النجاة كافياً أو كان المسؤول عن جهاز الاتصالات اللاسلكية في السفينة كاليفورنيان مستيقظاً أو ردّ قبطانها على الصواريخ التي أطلقتها التيتانيك. لكن اراحة انفسها أخيراً بعثت فينا شعوراً بالرضا."[١٤]

أدّى قرار بالارد رفع ارغو إلى نشوء مشكلة إذ انقطع جهاز الرافعة الذي يمسك سلك أرغو بعد انتشال العربة. ولم يكن هناك قطعة غيار بديلة، فلجأ مهندسو كنور الى قطع غيار المروحة

الدائرية وأخذوا منها بطانة معدنية وظلوا يعملون نحو ١٤ ساعة في غرفة المحركات إلى أن صنعوا للرافعة قطعة بديلة.

والغريب أن المرشد الأول إلى مكان هيكل السفينة كان مقياساً عادياً للاعماق (fathometer) على متن كنور يشبه كاشف السمك أو مقياس العمق الصوتي. وكان ارغو يستعد للنزول ثانية، غير أن الظلام أخذ يلف المكان. وفي اليومين التاليين بلغت سرعة الرياح أربعين عقدة (٧٤ كيلومتراً في الساعة) وبلغ ارتفاع الموج أربعة أمتار. وأخذ الوقت المحدد للرحلة في النفاد فراح بالارد وميشال يعملان من دون راحة وأنزلا ارغو الذي جعل يدور حول الحطام بحذر شديد.[١٧]

## قبر فرعون!

قال بالارد في ما بعد: "لم أكن تناولت حبة دواء من قبل، إلا أنه خطر لي أن أتناول دواء مهدّئاً في هذه الفترة." فهو لم يكن يريد أن يرجع الى الاسطول ويعلن فقدان المسبار الثمين قائلا: "أنا آسف لذلك."

وكان القبطان بوين محقاً في ملاحظته أن "أكثر ما كنا نخشاه هو أن تتشابك مزلقة أرغو مع أجهزة التيتانيك ومداخنها. واذا حدث ذلك فإن كنور ستثبّت الى الحطام ونضطر الى الاختيار بين المجازفة بفقدان أرغو بجذب رافعتها الى خلف ممّا قد يؤدي الى انقطاع السلك، وارخاء السلك أملا في أن تنفك العربة من تلقائها."

وفي بحر متلاطم تولى بالارد وميشال وجاري توجيه قيادة أرغو بدقة على عمق نحو أربعة آلاف متر.[١٣] فقال أحدهم للربان: "ثبّت الارتفاع على مستوى خمسين متراً." وقال للمسؤول عن السونار: "أخبرنا ماذا ترى."

وبدت على شاشات المرقاب صور باهتة. ولم يُسمع سوى صوت تنفّس عشرين شخصاً ثم سُمع صوت يقول: "إني أرى على شاشة السونار جسماً ضخماً... إنها التيتانيك! وهي راقدة على جنبها الايسر... والسونار يُرينا أشكالا تشبه المداخن."

وظهرت صور أخرى على شاشة فيديو أرغو تتضمن منصة القيادة في التيتانيك وفجوة محلّ المدخنة الأمامية وداووديات(١٠) فارغة. وظهر في ما بعد مقدم السفينة وصاريتها الأمامية وسلاسل المرساة كأنها استحالت حجراً. وبدا إحساس بالارد وهو يشاهد هذه الصور أشبه باحساس عالم للآثار فتح قبر أحد الفراعنة.[١٧]

وأضاف بالارد: "بدا التحليق فوق هيكل السفينة أشبه بالسير على قشور البيض. وتبين ان الصارية الأمامية انقلبت، لكن ارغو اقترب في لحظة معينة من التيتانيك إلى حدّ جعله يصطدم باحدى كوم الركام مما أدى الى التصاق لطخة صغيرة من الدهان بهيكله الفولاذي.[١٤]

## انبعاث الذكرى

قرر بالارد مقاربة السفينة من مؤخرها، إلاّ أنه فوجىء بعدم العثور عليه. فهل

(١٠) الداوودي أحد عمودين معدنيين أو ذراعين ملويتين على جانب السفينة يستخدمان لرفع مركب صغير أو مرساة وخفضهما وتعليقهما.

تحطم في مكان ما وراء الكومة الرقم ٣؟ وعمد الى إنزال انغوس، وهي آلة تصوير صامتة تعمل تحت الماء، للحصول على صور ملونة قريبة ودقيقة. وبعد تظهير الصور في وقت لاحق بدا مقدّم السفينة مغطى "بقشرة رقيقة من الترسبات تشبه عاصفة ثلجية لطيفة." وانطبعت في الأذهان صور القوارير والنوافذ المكسورة الزجاج وأطر الاسرّة وتلغراف السفينة ومنصة القبطان. على أنه لم يكن هناك أثر لمؤخر السفينة.

وحان موعد رجوع كنور الى وودز هول بعدما مضى الشهر المحدد لانجاز الرحلة. واستقرّ أرغو وأنغوس على السطح الخلفي للسفينة. وفي طريق العودة اكتشف بالارد وميشال أنهما شاهدا مؤخر التيتانيك أجزاء متناثرة. فقد بينت مراجعة الصور أن مؤخر السفينة كان موجوداً في كومة من الأنقاض تمتدّ أكثر من ١٥٠٠ متر خلف الحطام.

وفي وقت لاحق كتب بوين قبطان كنور حول رحلة العودة: "خلال الأيام الأربعة هدأت الموجات الهوائية على نحو غير مألوف إذ قطعت السفن التجارية الاتصالات في ما بينها وراحت تصغي إلى تلك التي انطلقت من سفينتنا. ولا ريب في أن الضباط والملاحين على متن السفن المبحرة حول العالم قالوا إن أحداً ما عثر أخيراً على التيتانيك.

"والواقع أن أربعة أجيال من البحّارة ترعرعوا وهم يسمعون بسفينة التيتانيك، وها قد حُلّ لغزها أخيراً وظهرت صور مثيرة رائعة للحطام والأنقاض. ولكن عندي أن أجمل الصور كانت لابحار التيتانيك في رحلتها اليتيمة، لقد كانت أكبر السفن وأفخمها في زمانها."[١٣]

وخيّل إلى بالارد وميشال وجاري وبوين وجميع البحّارة الذين سمعوا النبأ أن السفينة العظيمة المستقرة تحتهم على عمق أربعة آلاف متر قد عادت اليها الحياة لحظةً كما كانت الحال قبل سبعة عقود حين كانت صقيلة تواقة إلى الاندفاع عبر المحيط الأطلسي والنور الذهبي ينبعث من كوّاتها ونوافذها. فهي كانت تمثل عصراً من الرغد والكياسة والفخر والثقة بقدرات الانسان.

ولم تكد إحدى وكالات الانباء تذيع الاخبار الواردة من كنور حتى بدا العالم كأنه يستغرق في الذكريات ويتفجع ويحس ألماً ولسعة لتذكر الضحايا النبيلة التي هلكت على متن تلك السفينة قبل زمن طويل.[١]

## متحف صغير

بعد رجوع كنور إلى وودز هول في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٥ انهمك بالارد في تلبية فضول وسائل الاعلام التي أبدت اهتماماً كبيراً بالحطام. وتلقى رسالة من أمه جاء فيها: "لقد أنجزت عملا علمياً عظيماً وأرجو أن تعيش طويلا لتشهد انتشال التيتانيك."[١٣]

على أن اهتمام بالارد الاساسي كان بحماية التيتانيك من "سارقي القبور."[١٢] فالسفينة ليست ملكاً خاصاً لأحد استناداً إلى القانون الدولي. ولحماية مكان الحطام من الفوضى التي قد تحدثها شركات الانقاذ الباحثة عن الغنائم يتعين على

المجتمع الدولي أن يعمد بسرعة وحزم الى إعلان المكان أثراً تذكارياً بحرياً.[١٣]

ويرى بالارد "ان انتشال التيتانيك يشبه محاولة انتشال الاريزونا في بيرل هاربور."[٩] فهو يحس أنّ مكان الحطام يجب ان يبقى تذكاراً لأكثر من ١٥٠٠ راكب وملّاح قضوا في هذه المأساة.[١٣] وبعد نحو شهر من اكتشاف الحطام ذهب بالارد الى الكونغرس (البرلمان) الامريكي وطالب باعلان ضريح التيتانيك صرحاً دولياً. كذلك طالب محكمة العدل الدولية في لاهاي باعلانه مكاناً يحظر انتهاكه.[١٨]

## صعوبات وأخطار

مع ذلك فإن بالارد يتحدث عن اعتزامه العودة الى موضع الحطام صيف ١٩٨٦ في الغواصة ألفن التي يمكنها العمل على عمق ٤٣٠٠ متر.[١٤] ويقول: "أنا أحبّذ إنشاء متحف صغير تعرض فيه القوارير والأواني الفضية والزجاج المبقع وما شابهها."[١٧] أما ميشال وجاري اللذان يعملان في المؤسسة الفرنسية لسبر أغوار البحار (IFREMER) فيزمعان النزول الى السفينة بعربة فرنسية تدعى "نوتيل". وهذه الغواصة التي تتسع لثلاثة أشخاص وتشتمل على "مخلبين" مزودة جهازاً كالسلة تجمع فيه أشياء صغيرة وترفع الى سطح الماء في حال الحصول على إذن رسمي.[١٤]

نذكر في هذا المقام رجل النفط جاك غريم الذي قدم المال اللازم لتجديد المركب ألومينو الذي استخدم في الكشف عن القنبلة الهيدروجينية قرب الساحل الاسباني عام ١٩٦٦. ويأمل غريم الذي يدّعي ان له الحق في تفقد الحطام لأنه كاد يعثر على السفينة خلال بعثاته، أن يكشف مصنوعات توضع في متاحف مثل سميثسونيان في واشنطن. ويتعهد غريم "النزول الى هناك هذا الصيف."[١٨]

وهناك أخيراً خبير انقاذ بريطاني اسمه جون بيرس يستعجل وضع خطط تقضي باستعمال أكياس هوائية ضخمة في محاولة لرفع التيتانيك. ويقول بيرس: "إن التيتانيك سترتفع من قعر المحيط."[١٩]

قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن على رغم التكنولوجيا الحديثة الخاصة بالغوص في أعماق البحر فإن الأمر سيكون صعباً جداً. ويذهب جون هوليس أحد أعضاء "الجمعية التاريخية للتيتانيك" إلى أن القاع هناك حافل بالأودية والكثبان وإلى أن حدوث الانهيارات الصخرية والزلازل البحرية ليس أمراً مستغرباً.

ثم ان الاسلاك والحبال مبعثرة على ظهر التيتانيك، "فاذا اتفق أن اشتبك المرء بأحدها فإنه سيهوي إلى القعر من دون أمل في النجاة،" هذا ما يقوله آرت ماركل قبطان ألومينو.

وقد تعيش في العمق الذي استقرت فيه التيتانيك حيوانات ضخمة من الحبّار. وعندما أبلغ ماركل الى غريم أنهم قد يصادفون وهم داخل الغواصة التي لا يتعدى طولها ١٥،٥ متراً واحداً من هذه الحيوانات يمكن أن يصل طوله الى ١٥ متراً، قال له رجل النفط بابتسامة عريضة: "إنه ليسعدني أن ألتقيه."

إلّا أنه إذا توافر الوقت والمال

الكافيان فقد يغدو ممكناً رفع ما تبقى من السفينة ووضعه في المياه الضحلة حيث يمكن إصلاح الهيكل ولأم الثقوب فيه وجعله قادراً على الطفو ثانية.

## رواية قد تتحقق

قد يتساءل المرء هل ينبغي بذل جهد كهذا، وهل بذل هذا الجهد حقاً. وأياً يكن الأمر فإن رؤية الباخرة الاوقيانوسية العظيمة ترتفع من الأعماق لهي رؤية تستأثر بالخيال. ويمكن القول على سبيل الرمز إن كلايف كسلر صوّر هذا الحدث في روايته "ارفعوا التيتانيك!" تصويراً حياً يصلح لأن يكتب على ضريحها.[٢٠]

نحن الآن في السنة ١٩٨٨. وفي ما يأتي وصف المشهد في عيني ديرك بيت بطل رواية كسلر:

"انتشرت على سطح البحر موجة هائلة من الفقاعات واندفع ذيل التيتانيك في شمس ما بعد الظهيرة كأنه حوت هائل. وبدا لبضع ثوانٍ أن تحليقها فوق الأعماق لا وقوف بعده، فقد بقي مؤخرها منطلقاً نحو السماء حتى تحرّر من ربقة الماء إلى حدّ غطاء خزان الوقود. وكان منظر مذهل حقاً... فقد حجبت سيول الرذاذ السفينة في سحب من البخار متلاطمة. وظلت التيتانيك محتفظة بتوازنها بضع لحظات وهي تمزق ببراثنها السماء الزرقاء الصافية. ثم بدأت تستقر إلى أن ضربت عارضتها البحر بدفق من الرذاذ.

"كان الجميع عاجزين عن الكلام ووقفوا هناك من دون حراك مذهولين لما شاهدوه لا يقوون إلا على التنفّس. وأحسّ ديرك بيت الدمع الساخن يجري على خدّيه. وكان ذلك للمرة الأولى في ما يذكر."[٢٠]

"وصعد ديرك بيت الى السفينة وأخذ يمشي وحيداً على منصة القيادة غارقاً في أسطورة التيتانيك.

"والله وحده يعلم كيف كان شعور القبطان ادوارد سميث حين وقف في المكان نفسه وأيقن أن إنجازه العظيم كان يغرق تحت قدميه وهو يعلم أن قوارب النجاة لا تتسع لأكثر من ١١٨٠ شخصاً في حين كان في السفينة ٢٢٠٠ راكب وملاح. وتساءل ما الذي يمكن أن يمرّ في خاطر القبطان المهيب لو علم أن سفينته سيمشي عليها رجال لم يكونوا وُلدوا بعد.

---

**Sources:** 1) Michael Blow and Edward Ziegler. 2) Reader's Digest editorial summarization based on various sources. 3) *Beyond Reach: The Search for the Titanic,* © 1982 by William Hoffman and Titanic 1981, Inc., by permission of Jack F. Grimm and William Hoffman. 4) *The Titanic — End of a Dream,* © 1979 by Wyn Craig Wade, by permission of Mary Yost Assocs., Inc. 5) Robert Gannon, *Popular Science Monthly,* © 1964 by Popular Science Publishing Co., Inc. 6) John G. Hubbell, *Reader's Digest,* © 1966 by the Reader's Digest Assoc., Inc. 7) *A Matter of Risk,* © 1978 by Roy D. Varner and Wayne R. Collier, by permission of Randon House, Inc. 8) *Newsweek,* © 1968 by Newsweek, Inc. 9) Rod Redman, *Sea Classics,* © 1985 by Challenge Publications, Inc. 10) Mark Potts, Chicago *Tribune,* © 1980 by Chicago Tribune Co. 11) Kathleen Maxa, Washington *Post,* © 1981 by Kathleen Maxa. 12) John Noble Wilford, New York *Times,* © 1980 by the New York Times Co. 13) Paul R. Ryan and Anne Rabushka, *Oceanus,* © 1985 by Woods-Hole Oceanographic Institution. 14) Reader's Digest interview with Robert D. Ballard and Jean-Louis Michel, November 1985. 15) Reader's Digest interview with Jean Jarry and Jean-Louis Michel, December 1985. 16) Stefi Weisburd, *Science News,* © 1985 by Science Service, Inc. 17) Robert Ballard, *GEO,* © 1985 by Robert Ballard. 18) Chris Davis, *Popular Mechanics,* © 1985 by The Hearst Corp. 19) Audrey C. Woods, AP release, © 1985 by The Associated Press. 20) *Raise the Titanic!* © 1976 by Clive Cussler, by permission of Viking Penguin, Inc.

"ولم يلبث بيت أن استيقظ من أحلامه ومشى الى خلف على ظهر السفينة عبر الباب المغلق لحجرة الاتصالات اللاسلكية حيث أرسل جون فيليبس، المسؤول عن الاجهزة اللاسلكية، أشهر نداء للاستغاثة في التاريخ. ومرّ أيضاً بالسلّم الرئيسية حيث بقيت الفرقة الموسيقية تعزف حتى النهاية، وبالمكان الذي وقف فيه بنجامين غوغنهايم مرتدياً ثياب السهرة وهو ينتظر الموت بهدوء.

"وفيما كان بيت نازلا الى المكان الخاص بالتنزه ألفى الصارية الخلفية ناتئة من الألواح الخشبية البالية كأنها جدعة يابسة وقد بدا طرفها مبتوراً على ارتفاع مترين ونصف متر. فأدخل يده في سترته وسحب منها حزمة راح يفكها برفق. لقد نسي أن يحمل سلكاً أو حبلا لكنه جدل واحداً من اللفافة. وعندما أنهى صنع الحبل ابتعد عن الجدعة التي كانت يوماً صارية طويلة وجعل يحدّق إلى الصارية البديلة التي صنعها.

"كانت قديمة وباهتة، لكن العلم الأحمر الذي هو شعار الخط البحري "وايت ستار" والذي طواه النسيان عاد يرفرف فوق التيتانيك التي لا تغرق."[٢٠]

**محررو الـ "ريدرز دايجست"** ■



## سهرة الولادة

عندما بلغ ابني السادسة عشرة لم يطر من عشه فحسب، بل حلّق عالياً وتلت ذلك سنة متوترة اتسمت بالعراك المستمر حول سهراته الاسبوعية التي لم أسمح بأن تتجاوز منتصف الليل. ولم أدرك حقيقة مشاعره تجاه هذا الموضوع إلاّ يوم عيد ميلاده السابع عشر.

فقد جلسنا الى المائدة نراجع مجلداً يحتوي على ذكريات عائلية. وفيما أنا غارق في ذكريات يوم مولده قطع هو حبل تفكيري بقراءة شهادة ميلاده.

"هم م م م... الطول ٥٣ سنتيمتراً. الوزن ٣،٢ كيلوغرامات. ساعة الولادة ١١:٥٢ مساء. لن أنسى تلك الليلة أبداً. ففيها خرجت الى العالم ونظرت الى الساعة، فوجدت أنه لم يتبقَّ لي سوى ثماني دقائق لأعود الى البيت."

ش.ك.

---

## ثقة العصافير

توقف زوجي أمام مطحنة في الريف لشراء طعام للعصافير. وبعدما نقل الاكياس الثقيلة الى سيارته اكتشف أنه نسي محفظة نقوده في البيت، فأخذ يعتذر متلعثماً.

وقاطعه المزارع قائلا: "لا بأس، ستدفع لي الثمن في ما بعد. فأنا أثق بكل من يشتري طعاماً للعصافير."

هـ.ب.

# حكيم البراري

ملخص من كتاب بقلم الدكتور روري فوستر



# حكيم البراري

**الدكتور روري فوستر طبيب بيطري يعمل في غابات شمال ولاية ويسكانسن، وكان يعتني بالحيوانات الاليفة حين أدرك ان الطيور والحيوانات البرية تحتاج الى رعاية كذلك. وبدأ يعالجها على نفقته الخاصة ثم يطلقها لتعود الى مواطنها الطبيعية. وسرعان ما وجد نفسه في صراع عنيف مع البيروقراطية، وحتى مع الموظفين في دوائر المحافظة على البيئة في الحكومة المحلية، من اجل اقامة اول مستشفى في الغرب الاوسط الامريكي لمعالجة الحيوانات البرّية المريضة والمصابة.**

**في هذا الكتاب العاطفي المؤثر يؤكد فوستر اقتناعه بأن لكل حيوان اهميته من دون استثناء. وهو هنا يتيح للقارىء أن يشاركه في أفراحه وأحزانه في تجاربه مع الكائنات كبيرها وصغيرها.**

ذات صباح من العام ١٩٧٧ اندفع داخل مستشفاي في مينوكا بولاية ويسكانسن سائق سيارة يرتدي سترة كاكية اللون ويحتذي جزمة طويلة من المطاط تصل الى أعلى الخصر من النوع الذي ينتعله صيادو الاسماك للخوض في مياه الانهر. وقال لزوجتي ليندا التي تقوم بمهمة موظفة استقبال: "هل تعالجون رشأة(١) صغيرة مصابة؟"

كانت زوجتي منذ نعومة أظفارها تهوى قصة "بامبي" لوالت ديزني، فأجابت دونما تردد: "بكل تأكيد، وكيف لا!"

ودخلت في تلك اللحظة بعدما سمعت تلك المحادثة القصيرة. كانت ليندا تملأ استبيان معلومات مخصصاً للحيوانات المريضة. وسألت الرجل: "ما اسم الرشأة وكم عمرها؟"

(١) الرشأ ولد الظبية.

وبدت الحيرة عليه ثم قال متردداً: "يبدو أنك لم تفهمي ما عنيت. الرشأة ليست ظبية اربيّها، بل اني وجدتها على الطريق. كنت ذاهباً في رحلة لصيد السمك فصدمت سيارة أمامي تلك الرشأة، لكن السائق الوغد لم يقف. اني أصطاد الظباء غير اني لم اقوَ على تركها حيث هي."

سار الرجل أمامنا الى الخارج حيث وجدت رشأة صغيرة واهنة في صندوق سيارته. وبدا أنها مصابة بضرر فادح. ورفعتها برفق بين يدي في حين صعد الرجل الى سيارته ومضى في سبيله وهو يناديني: "أرجو أن تتمكن من مساعدتها يا دكتور."

عدت وليندا الى المستشفى حيث وضعت الرشأة المرتعدة على طاولة الفحص، اذ ان قوائمها كانت أوهى من أن تحملها. وشعرت بقلبها يخفق سريعاً ورأيت أمارات الرعب في عينيها. وأخذت تتحسس بأنفها الأسود الرطب راحة يدي في لهفة وكأنها تبحث عن الاطمئنان.

كانت تلك المرة الاولى أرى خشفة وليدة من فصيلة الذيل الابيض. حبل السرة لديها لم يجف بعد وما زال معلقا بها. وربما كان عمرها ٤٨ ساعة، ولم يتجاوز وزنها الكيلوغرامين. ورأيت في رأسها جرحين غير عميقين يغطيهما الدم المتجمد، ولم يكن أي منهما خطيراً. الا أن خشخشة العظم حين لامست الورك الأيسر دلت على كسر في الفخذ. الرشأة الصغيرة لا تقوى على السير على ثلاث قوائم. ولو تركها ذلك الصياد في مكان سقوطها على الطريق العامة لنفقت.

قلت لليندا بعدما أخذت للرشأة صورة شعاعية أكدت وجود كسر في العظم: "أمّني لها الراحة وسأجري لها جراحة الليلة."

ظلت ليندا تعتني بالرشأة بقية ذلك النهار، فنظفت جروحها وطلتها بالمرهم المطهّر. وأطلقت عليها اسم "فالين".

ما ان اقفل المستشفى حتى أجريت الجراحة. وتولت ليندا التخدير فيما قمت أنا بجبر العظمة المكسورة وأثبتّ قضيبين من الفولاذ الذي لا يصدأ على طول عظمة الفخذ لتمسك بالجزءين المكسورين ملتصقين في استقامة صحيحة من أجل تأمين التحامهما. واتخذت كل الاحتياطات، ولم يبق أمامنا سوى أن نراقب وننتظر. وجلست ليندا بقرب الرشأة تربت فروها الذهبي المغطى ببقع بيضاء كأنها رقائق من الثلج المتساقط في اواخر الربيع. وظلت ليندا تردد: "لا أدري، لقد مضى وقت طويل ولم تستفق من التخدير بعد."

انقضت ساعتان قبل أن تتحرك فالين. وأخيراً جلست في مكانها وأخذت تنظر الينا بعينيها البنيتين الجميلتين.

قلت: "أظنها ستكون على خير ما يرام. الا ان شفاءها سيستغرق وقتاً طويلا."

فقالت زوجتي: "لا مكان لها هنا. هل يمكننا أن نأخذها الى بيتنا؟"

وأخذتني الشفقة بسرعة واجبت: "بكل تأكيد، فستكون مذعورة ومستوحشة هنا. لكن ذلك سيقتضي منك عملا كثيراً، وقد لا تشفى أبداً، فحاولي ألا تتعلقي بها."

وكنت مدركاً أن تربية الحيوانات المصابة

في سن مبكرة ليست مهمة سهلة."

منذ تلك الليلة أخذت ليندا الرشأة على عاتقها. في البداية كانت تنهض من نومها مرة كل ساعتين، ليلا ونهاراً لتدفع بالفيتامينات في بلعومها وتحقن مضادات الحيوية في جسمها وترضعها من زجاجة حليب وتبتدع لها معالجة جسدية فيزيائية لتقوية عضلاتها. وأثمر هذا الجهد اذ بدأت الرشأة تبرأ على نحو جيد.

## ولدَتْ حرة

بحلول شهر يوليو (تموز) التأم الكسر تماماً. ولم يبق لنا عذر في ابقاء فالين سجينة فأعطيناها الحرية في الذهاب والاياب كما تهوى. في الليل كانت تفضل أن تنام في الغابة قرب بيتنا، اما في النهار فكانت تقضي الوقت في رفقتنا. وكانت ليندا تلاعبها وتأخذها في نزهات الى الغاب. وكانتا أحيانا تجلسان جنباً الى جنب ساكنتين.

ومع اقتراب الخريف سمنت فالين وناهز وزنها ٣٠ كيلوغراماً واختفت البقع التي كانت ترقط اهابها. وبدأت غرائزها الطبيعية تبرز، واخذت تقضي وقتاً أطول في الغاب. وذات ليلة بعدما أوينا الى الفراش قالت ليندا: "ان نظرات فالين هائمة هذه الايام. أظنني على وشك أن افقد ربيبتي." وشعرت أن في صوتها رنة أسى.

فقلت لها: "لم يغب عنك قط أن هذا اليوم سيأتي. فالين تأكل لوحدها الآن، وساقها برئت تماماً. ينبغي أن نطلقها."

ووافقت ليندا متمتمة: "انها تستحق أن تعيش حرة."

وذات يوم في أواخر سبتمبر (أيلول) وضعنا فالين في سيارتنا وانطلقنا في الغاب على الارض المغطاة بأوراق الشجر المتساقطة تحت شؤبوب من المطر الخفيف. ولما كانت فالين تكره الاقفاص فقد حقنتها بمهدىء ذي مفعول قصير الأجل لأخفف عنها عناء الرحلة. هذا المفعول المنوّم سيدوم نحو ١٠ دقائق بعد وصولنا الى النقطة النائية التي نقصدها بعيداً عن الطريق العامة.

عندما وصلنا انزلت فالين من السيارة. ثم جلست وليندا متكئين على جذع شجرة ضامّين فالين الينا في انتظار زوال مفعول العقار المهدىء. ونظرت الى ليندا فرأيت الدموع تفيض من عينيها وتنحدر على خديها لتتساقط على رأس الظبية.

لقد اضحى على فالين أن تهتم بنفسها. لكن القلق كان يساورنا أنا وليندا، فكل ما اعطيناها اياه كان الرقة والمحبة. فكيف لنا أن نحذرها من الوثوق بالآخرين كما تعلمت أن تثق بنا؟ ترى هل يمكنها ان تميّز رائحة حيوان ضار؟ هل تقع في شرك مغطى بالثلج؟ كل ما كان في وسعنا ان نفعله هو أن نعطيها فرصة لكي تحيا الحياة التي خلقت لها.

فجأة استفاقت فالين من غيبوبتها وقفزت منتصبة على قوائمها. وقفت برهة أتاحت لليندا أن تضمها الى صدرها مودعة ثم انطلقت الى قمة مرتفع قريب تستنشم الريح. بعد ذلك ادارت رأسها لتنظر الينا وكأنها تودعنا الوداع الاخير. وعلى غير توقع برزت أشعة الشمس من خلال أغصان شجرة لتعكس لنا صورة فالين في روعة بهائها.

والتقت عيناها البنيتان الكبيرتان أعيننا للحظة عابرة ثم لوّحت بذيلها ومضت.

## النورس أورفيل

خلال الاشهر الاولى من دخول فالين حياتنا بدأت أعالج عدداً متزايداً من الكائنات البرية. وقرأت كل كتاب وقعت عليه حول العناية بالحيوانات البرية واعادة تأهيلها. واكتشفت أن نحو نصف الحيوانات التي تعالج يعاد اطلاقها، أما البقية فتنفق اما من اصابتها الناجمة في معظمها عن سيارات أو بنادق صيد، واما من تركها في حال كساح فتغدو عاجزة عن العيش في البرية. ومضتني هذه الوقائع وأحبطتني. وقصة النورس اورفيل حالة نموذجية.

دخلت فتاة شقراء زرقاء العينين من كلية نورثلاند. ووضعت صندوقاً من الكرتون على طاولة الاستقبال في المستشفى قائلة: "هوذا أورفيل. كنت أتمشى على شاطىء البحيرة الكبرى (سوبيريور) فوجدته قابعاً على صخرة. لم يحاول أن يطير، بل قبع هناك هادئاً. وبدا لي أنه مستوحش وجائع. لذلك حملته وجئت به. وقد أطلقت عليه اسم جدّي."

نظرت داخل الصندوق وتفرست في النورس. وقلت لمنقذته انه ينبغي أن نأخذ له صوراً شعاعية. والتمعت العينان الزرقاوان متحولتين عن عيني. وقالت الفتاة: "يجدر بي أن اصارحك بأني لا استطيع دفع كل التكاليف الآن. فابتسمت لها قائلا: "لن أطالبك بأي كلفة. ان مساعدة المخلوقات هوايتي."

قالت الفتاة برقة: "هذا حسن. ولكن اذا كان ثمة امر يمكنني ان أفعله فأرجو ان تعلمني. وبعد أن يبرأ أورفيل تماما سآخذه في سيارتي وأعيده الى البحيرة."

وضحكت لها: "عندما يشفى سيصبح قادراً على الطيران الى هناك."

حملت الصندوق الى غرفة المعالجة. كان أورفيل ينظر حوله باستغراب من دون أن يثير أي متاعب. ومددت يدي ورفعته من الصندوق ووضعته على طاولة الفحص. كان جناحاه الرماديان الموشيان بالاسود في رأسيهما منطويين حول جسمه. وكان يتحرك مهتزاً وهو يحاول أن يثبت قدميه على صفحة الطاولة الفولاذية.

تلمست جسم أورفيل برفق بحثاً عن اصابات قد تكون السبب في تصرفه الغريب. فالطيور المائية تصاب بجروح لدى اصطدامها بخيوط صيد السمك أو انغراز شص في جسمها. ولكن لم تظهر على أورفيل أعراض من هذا القبيل. عندئذ لاحظت نتوءا خفيفاً في الريش على الجانب الايسر من قاعدة الذنب. وأزحت ريش الذنب الطويل القاسي فبان لي تورم ناتىء من الجلد في حجم حبة عنب. انها آفة خبيثة لونها أحمر قاتم. واحسست بكتلة صلبة غائرة في العضلات تحت الجلد. وكان من المحتم استئصالها.

من أجل تهيئة أورفيل للجراحة أطعمته مقادير وافرة من السمك الصغير مع فيتامينات ومعادن. وبعد ثلاثة أيام أجريت الجراحة مع كارين مساعدتي الفنية المتخرجة حديثاً.

وكان البَضْع لاستئصال الورم دقيقاً ومتعباً. ورأيت عند قاعدة الورم جذوراً

متشعبة من الكتلة الصلبة وممتدة في العضلات تحتها. واقتضتني الجراحة ساعة لاستئصال أكبر جزء ممكن من الورم، اذ ان الغور الى مدى أعمق في جسم أورفيل كان يعني فقدانه السيطرة على عضلاته وأعصابه.

وحدّقت كارين الى الكتلة الدامية على الطاولة قرب اورفيل وسألتني: "ماذا تظن؟"

وتمتمت ساهماً: "سرطان."

قالت: "لم أكن أعرف ان الطيور يمكن أن تصاب بالسرطان."

وأخبرتها "ان الطيور تصاب بالسرطان كأي كائن آخر."

## الاستسلام للموت

استعاد اورفيل عافيته على نحو جيد. ولكن بعد ١١ يوماً تلقيت تقرير التحليل المخبري الذي كنت طلبته، وقرأته: "ورم ليفي سركومي، انذار لا يبشر بالخير." وفكرت: لا بأس، ربما لن ينمو ثانية.

طوال الاسابيع الثلاثة التالية نشأت علاقة خاصة بيني وبين أورفيل. وكنت أقضي معه وقتاً اضافياً لاجراء التمارين اليومية، وأطعمه بنفسي. ودأبت على فحص موضع الجراحة بحثاً عن اشارات تدل على عودة التورم السرطاني. وبعد ٣٣ يوماً من استئصال الورم أحسست تصلباً جديداً في الناحية التي كان فيها الورم الاصلي. إذاً، عاد السرطان الى النمو.

وأيقنت أن الطائر هالك حتماً، وفكرت في أن أدعه ينفق برحمة. ولكن لم تظهر على أورفيل علائم تدل على أنه يتألم. كان يقظاً ويأكل على خير ما يرام. فناديته جازماً: "يا اورفيل، سنبقى معاً الى النهاية."

ظل اورفيل طوال أربعة أسابيع تالية برّاق العينين نشطاً. وخلال هذه الفترة أحبه كثيرون من زائري المستشفى الذين رأوه وعلموا أنه من ضحايا السرطان، وباتوا يعون ذلك النسيج الشامل في الحياة الكلية الذي يربط بين كل مخلوقات الله. الحياة في ذاتها نهائية، وكلنا مقدر لنا ان نموت. اذاً، اهم ما في الحياة كيف نعيشها. وأورفيل يعيش أيامه الأخيرة على أتمها.

كنت أسمح له بأن يبقى في غرفة الفحص ليراقب نشاطي في العيادة. وكان في هذه الاثناء يصيح في الكلاب التي يحب أن يداعبها: "كيوا كيوا" وحين كنت أتأخر في العمل كان يجثم على مكتبي وينظر الى ما أكتب.

ووصلت الى المستشفى ذات صباح في شهر أغسطس (آب) فقالت لي كارين: "أظن أن حال أورفيل تسوء، فعيناه باهتتان وهو لا ينعق كالعادة."

وتملكني خوف وهرعت الى قفصه. كانت عيناه زائغتين تحدقان الى البعيد، وبدا كأنه ينظر الى شيء لا يمكنني أنا أن أراه. وأبى أن أطعمه بيدي. فجأة خامرني ريب في أن أورفيل يدرك أنه هالك، فاستسلم للموت.

بقيت طوال ذلك اليوم أطوف حول قفصه متفقداً. بدا أول الامر انه يتمالك نفسه، ولكن مع اقتراب المساء أخذ ينهار بسرعة. وعندما استعدت كارين للذهاب بعد اقفال المستشفى قلت لها اني مزمع على البقاء قليلا. وتحاشيت عينيها وأنا

اضيف الى زعمي كذبة بيضاء: "لدي كثير من الجداول التي ينبغي أن املأها. فاذهبي. والى اللقاء غداً صباحاً."

بعد مغادرة كارين حولت اهتمامي الى أورفيل. لن يتاح له بعد الآن أن يحلّق في الجو فوق البحيرة الكبرى. وجلست قرب قفصه اذ لم أرغب في تركه وحيداً.

وكنت في جوار أورفيل حين لفظ آخر انفاسه في وقت مبكر من تلك الليلة الحارة من أغسطس (آب).

## البومة والسيدة موزلي

جاءتني كارين وأنا منهمك في اجراء جراحة لكلب وقالت: "ثمة امرأة تحمل بومة صدمتها بسيارتها وتريد منك ان تفحصها حالا."

فقلت: "أخبريها اني سأحضر بعد خمس عشرة دقيقة." وغادرت كارين الغرفة وعاودتُ عملي. ومرت خمس دقائق.

وظهرت كارين في الباب ثانية وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة: "السيدة موزلي تكاد تنهار هلعاً على البومة يا دكتور فوستر، فهلا أسرعت!"

أنهيت الجراحة وأمنت راحة الكلب وخرجت لأرى السيدة موزلي تكاد تجهش بالبكاء. وأعجبت بتلك المرأة التي جاوزت الثمانين. كان شعرها أبيض وعيناها زرقاوين حادتين تلتمعان وراء نظارتيها. وكانت مرتدية قميصاً فضفاضاً أزرق اللون طبعت عليه كلمة "الجدة" وسروالا أزرق مقلماً وحذاء رياضياً. واستهوتني من النظرة الاولى.

قالت وهي تغالب البكاء: "آه يا دكتور فوستر. اني حزينة الى أقصى الحدود. هذا أول مخلوق أرهسه خلال ٥٠ سنة من القيادة." ثم بلعت ريقها بعصبية وتحكمت بمشاعرها وأضافت بصوت هادىء: "يجب أن تنقذ هذه البومة."

كان ذلك بمثابة أمر. فانصرفت الى العمل من فوري. مددت البومة المخططة على ظهرها فوق طاولة الفحص. وكانت بلا حراك. ورفعتها بيدي وتحسست صدرها، وذهلت حين شعرت بنبض قلبها السريع الخافت. ولمست احدى عينيها الكبيرتين الزرقاوين لافحص رد فعل قرنيتها، فأطبق الجفن على مهل. عندئذ قلت: "البومة حية، لكنها في غيبوبة وحالها غير مطمئنة."

لمست السيدة موزلي البومة بيدها معجبة بريشها الرمادي وبالخط الفريد على بطنها وقالت متنهدة: "ما أجملها. آه، أرجو الله أن تتمكن من انقاذها."

ووعدتها: "سأبذل قصارى جهدي."

وودعتني السيدة موزلي بهزة رأس جازمة ومضت.

## لمسات حب

باشرت اعطاء البومة مضادات للحيوية ومركب ستيرويد (Steroid) يستعمل لتخفيف تورم الدماغ. ثم وضعتها في قفص مظلم. وبعدما بذلت كل ما أستطيع خاطبت البومة: "تحسني كرمى للسيدة موزلي." لكنني شككت في أن تبقى تلك المريضة بين الاحياء في اليوم التالي.

لذلك فوجئت حين وجدتها حية في الصباح.

لم تكن قادرة بعد على الوقوف على

قائمتيها، لكن جفنيها رفّا وهي تحدق الي، وتحركت احدى قائمتيها. يا للفرحة!

بعد ساعة اقتحمت السيدة موزلي مدخل المستشفى وصاحت في كارين: "جئت لأعود ستانفيلد."

وسألتها كارين مدهوشة: "من هو ستانفيلد؟"

أجابت: " يا حبيبتي، انه الاسم الذي اطلقته على البومة." ثم أخرجت كيس ورق من حقيبة ينسجم لونها مع السروال الذي كانت ترتديه وقالت: "هاك بعض الزلابية الطازجة لك وللدكتور فوستر."

رافقت كارين السيدة موزلي الى غرفة المعالجة حيث أنزلنا البومة المكرمة. وجذبت العجوز كرسيا الى جوار القفص وجلست وأخذت تلتهم الزلابية. وبين مضغة وأخرى كانت تخاطب البومة مؤكدة أنها ستبقى قربها الى النهاية. ومن الغريب أن البومة بدت وكأنها تعي كل كلمة قالتها العجوز، اذ لم تتحول عيناها عنها.

واظبت السيدة موزلي على زيارة ستانفيلد كل يوم حاملة الزلابية ومرددة كلمات التشجيع ومربتة رأسها بلمسات حب جريئة. وبعد أسبوع أعلنَتْ أن صحة البومة في تحسن وأضافت: "أريد أن أكون حاضرة حين تطلقونها."

أومأت برأسي موافقاً ونبهتها: "ولكن ينبغي أن تدركي أن على البومة قضاء أسبوعين في التمرين لتستعيد قوة عضلاتها. لا تقلقي، فأخي رايس سيأتي غداً ليساعدني خلال فصل الصيف. انه طالب طب بيطري وبارع في تنشيط الطيور."

وضمتني السيدة موزلي الى صدرها بقوة وكأنها ظنتني أستقدم اختصاصياً من طريق الجو ليعتني بالبومة فحسب.

## ستانفيلد الثانية

سرعان ما وطّد أخي رايس علاقته بالسيدة موزلي فأخذت تحضر الزلابية له أيضاً وتردد: "أيها الشاب، اني أحب أسلوبك." وكان رايس يمازحها وكانت هي تسعد بذلك.

لكن الامور اختلّت قليلا. فذات يوم كنت أقطب تشرماً في بدن كلب أليف حين دخل علي رايس مقطب الجبين شاحباً وتمتم: "البومة..."

وسألته: "ما بالها؟ هل ساءت حالها؟"

قال: "بل تحسنت أكثر مما ينبغي. لقد أفلتت من يدي وطارت."

وصحت فيه: "آه، لا، ستنهار السيدة موزلي الآن. انها ارجأت سفرة الى كاليفورنيا لكي تشاهد اطلاق ستانفيلد."

قال وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا: "لا داعي الى ان تخبرني، فأنا أعرف ذلك."

في العاشرة تماماً صباح اليوم التالي وصلت السيدة موزلي متراقصة في مشيتها وهي تحمل كيسا من الزلابية تحت كل ابط. وسارت رأساً الى غرفة المعالجة لترى البومة. ووقفت أترقب انفجاراً. لكن شيئا لم يحدث. وتقدمت مسترقاً الخطو لاستقصي حقيقة ما يجري، فرأيت السيدة تتفرس في بومة مخططة أخرى هناك. وكان رايس أدخل المستشفى بومة أخرى ضربتها سيارة وظنتها السيدة موزلي بومتها ستانفيلد.

عندئذ اندفع رايس داخل الغرفة

وصاح: "مرحباً يا سيدة موزلي. ان ستانفيلد على خير ما يرام، لكنني لاحظت هذا الصباح وأنا أمرّنها انها في حاجة الى مزيد من المعالجة." ثم اشار الى البومة وأضاف: "ينبغي أن نقوّي هذين الجناحين ليصبحا أشد. انك لا تريدين أن نطلقها وعضلاتها ضعيفة، أليس كذلك؟"

وتفرست السيدة موزلي في البومة المزيفة. لم يكن ممكناً طبعاً أن ترى العضلات تحت الريش، ووقعت ضحية جاذبية رايس وقالت: "اني أدرك ما تعني يا رايس. من الافضل أن تبقي ستانفيلد هنا مدة أطول. أنا أود أن تصبح في خير حال." ثم قدمت اليه كيس الزلابية.

وبعد ثلاثة اسابيع أطلق رايس والسيدة موزلي البومة ستانفيلد الثانية وفقاً للبرنامج المقرر. وقبّلت العجوز خدّي رايس بحنان وضمته الى صدرها. كانت لحظة عاطفية رائعة.

## مشروع فريد

ذات مساء بعد يوم مرهق في العيادة رجعت الى البيت وقلت لليندا: "ينبغي أن نفعل شيئا ما. لدي سبعة عشر قفصاً في المستشفى، واليوم احتلت الحيوانات البرية أربعة عشر منها."

وسألتني زوجتي: "الا تستطيع ارسال بعضها الى سواك ليعنى بها؟"

فأجبت بمرارة: "الى من؟ ان أقرب مركز للمعالجة هو في جامعة مينيسوتا في سانت بول. ولا يقبل هناك سوى الطيور الجوارح، والمركز يقع على بعد ٢٩٠ كيلومتراً منا."

وجلسنا صامتين برهة. وأخيراً قالت ليندا: "ماذا يسعنا أن نفعل؟"

قلت: "كنت أفكر اليوم، أفكر فحسب، لماذا لا ننشىء مؤسسة لا تتوخى الربح وتعنى بالحيوانات البرية المتأذية؟"

وهتفت ليندا: "انها فكرة رائعة!"

أضفت: "اننا قادرون على جمع تبرعات وتطويع أعضاء. وفي النهاية نبني مستشفى حقيقياً للحيوانات البرية يلحق بالمستشفى البيطري الحالي بحيث لا يتعين علينا شراء معدات أخرى باهظة الكلفة."

واتسعت عينا ليندا من الاثارة وصاحت: "رائع!"

بقينا ساهرين حتى الثانية والنصف صباحاً نتحدث عن المشروع ونتخيل الامكانات الفريدة التي يوفرها مركز لمعالجة الحيوانات البرية. وبدا الأمر في نظرنا مشروعاً عظيماً.

في أواخر صيف ١٩٧٩ بوشر تنفيذ المشروع. وقدمنا طلباً لاعتبار المركز مؤسسة لا تتوخى الربح معفاة من الضرائب، وقبل طلبنا وتعهدت أن أقدم خدماتي مجاناً وأتبرع بكل المواد الطبية اللازمة. ونظمنا حملة لتطويع أعضاء انتهت بانضمام ٣٠٠ مناصر متحمس الينا. وباشرنا السعي الى الحصول على مساعدات مالية للبناء.

غير اني دهشت حين وجدت معارضة قوية كذلك، وان تكن أسبابها متباينة جداً. كان أحد الاسباب الذي ظل يبرز من حين الى آخر، هو الزعم أن جهودنا ستعود بفائدة ضئيلة على المخلوقات البرية. وتعيّن علي أن أكرر أننا ندرك أن انقاذ

حيوان او طائر واحد ليس مهماً في ذاته بالنسبة الى مجموع بنات جنسه، الا في حال معالجتنا حيواناً من فصيلة مهددة بالانقراض.

والى معارضة المواطنين العاديين، تلقيت انتقاداً من الموظفين في دائرة الموارد الطبيعية في ويسكانسن. فقد كتب الي الاختصاصي بالحياة البرية هناك يقول ان معالجتي للحيوانات الفردية تترك انطباعاً مضللا عما هو ذو أهمية. فالناس، في زعمه، يجب أن يهتموا بالمواطن الطبيعية للحيوانات وبأعدادها، وليس بطائر أو حيوان وحيد. ولما كانت القوانين في الولاية تحمي الحيوانات فقد اعتبرت ملاحظاته غير منطقية وصارحته بذلك. وكانت لي فترة عصيبة ومحبطة.

## الطائر الغواص

في الخريف وجهت الي كارين سؤالا: "يا دكتور فوستر، هل ندمت على انشاء مركز العناية بالحياة البرية؟ أعني هل ندمت بعد قيام كل هذه المعارضة ضدك؟ أليس الامر الآن بمثابة شوكة في الخاصرة ومصدر ازعاج؟"

نظرت الى كارين وأنا مستغرق في التفكير. وبدل أن أجيب سألتها: "ما رأيك في مرافقتي لاطلاق طائر غوّاص؟"

الغوّاص طائر مائي في حجم الاوزة، له جسم مديد وعنق ثخين ومنقار حاد. وهو اشتهر بضحكته المجلجلة ونعابه الحزين عند الغسق وخلال الليل. انه غواص بارع يستطيع النزول الى عمق ٩٠ متراً تحت سطح الماء بحثاً عن الطعام.

وكنا عالجنا هذا الطائر الذي سميناه "لونار" من جرح ناجم عن شص صيد. وذهبنا في السيارة، أنا وكارين، الى بحيرة تراوت وهي أكبر مجمع مائي في المنطقة. وأوقفت السيارة وخرجنا وأنا احمل الصندوق الذي يحوي لونار. وما كدت أرفع الغطاء حتى قفز الطائر الذي يبلغ وزنه أربعة كيلوغرامات منطلقاً الى الحرية، ثم غطس في المياه الصافية.

وقفنا فترة نراقب لونار وهو يسبح بقوة متجهاً نحو المياه العميقة. وهناك غاص ثم طفا على بعد مئات الامتار وأطلق زعقة مدوّية مزقت سكون البحيرة. وأحسست رعشة تدب في فقاري وأنا أراقبه يغوص ثانية. وحين خرج شاء أن يجرّب جناحيه. فاستعان بقائمتيه ليدرج على سطح الماء مسافة مئة متر تقريبا، وهي المسافة العادية التي يحتاج اليها ليرتفع في الهواء. وبعد ذلك حلق على مهل مرتفعاً وطار موغلا في جو البحيرة.

وحين أصبح لونار نقطة سوداء في الافق التفت الى كارين فبادرتني: "لا داعي الى الكلام، لقد فهمت الآن."

## مالك الحزين

التقيت مارتي سميث للمرة الاولى في جامعة آيوا الرسمية في آميس في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥. كان مارتي حينئذ طالب طب بيطري، وهو شاب طويل القامة ناحلها له شعر قصير مجعد ويضع نظارتين. ونشأت بيننا صداقة. كما توطدت صداقة اخرى بين ليندا وجودي زوجة مارتي التي كانت تعمل في كلية الطب البيطري.



وفي يونيو (حزيران) ١٩٨٠ تخلّى مارتي عن عمله في ماديسون (ويسكانسن) لينضم الي بصفة شريك في مينوكا. وذات يوم بعدما انقضى شهر على عملنا معا، رد مارتي على الهاتف وسمع صوت امرأة تسأل: "هل هذه مؤسسة العناية بالحيوانات البرية؟"

- نعم... موقتاً... ما الامر؟

"ثمة طائر من فصيلة مالك الحزين (البلشون) الازرق على ما أظن. اني أراقبه من نافذة بيتي منذ اسبوع يقف في البقعة عينها قرب جزيرة صغيرة في البحيرة ولا يتحرك ابداً... لا بد من أنه جريح."

- هل لاحظت أي جرح فيه؟

"لا يمكنني أن أرى شيئاً. انه بعيد عني داخل البحيرة. لقد اعتدت أن أرى طيوراً كثيرة هناك، لكنها لا تلزم مكاناً واحداً لا تفارقه."

- حسناً، سآتي الليلة بعد انتهاء المواعيد لالقي نظرة.

واذ لم تكن لدي ارتباطات ذلك المساء فقد ذهبت مع مارتي. ووصلنا قرابة الثامنة. وشاهدنا الطائر من حديقة المرأة، وكان كبيراً من نوع مالك الحزين الازرق، واقفاً بين النباتات المائية في جوار جزيرة صغيرة مغطاة بالشجر على بعد ٢٠٠ متر منا.

قالت المرأة: "اني على يقين من أنه لا يقوى على الطيران." ثم أشارت الى زورق خشبي مربوط الى رصيف أمام منزلها وأضافت: "لماذا لا تأخذان الزورق وتتحريان الأمر عن كثب؟"

وكنا نرتدي ملابس رسمية، ومع ذلك ركبنا الزورق. وجلس مارتي على مقدمه وهو يقول: "سأقبض أنا على الطائر، وما عليك سوى أن تقربني منه مسافة تتيح لي أن أمسكه."

واقترحتُ وأنا أرمق الزورق المثقل بالماء: "لماذا لا تجذف أنت؟ لا تنسَ انك انت المدعو."

وأصر: "لا يا فوستر، أنت تجذف. أنا لي خبرة واسعة بهذه الطيور. جذف بسرعة، الليل يدهمنا."

## الدكتور شميت

بدأت عضلات كتفي تؤلمني حين اقتربنا من الجزيرة. ثم ارتج الزورق وجمد في مكانه اذ اصطدم قعره بالارض على بعد عشرة أمتار من الطائر الواقف من دون حراك.

وأمرني مارتي وكأني كلب صيد مدرّب: "جئني به يا فوستر، هيا!"

قلت: "لا، أنت الخبير المدرّب. اذهب وامسكه."

خلع مارتي حذاءه وجوربيه متردداً ثم نزل من الزورق. وانزاح الوحل المتراكم في قعر البحيرة تحت ثقل جسمه البالغ ٩٠ كيلوغراماً. وأخذ يغوص أكثر فأكثر مع كل خطوة يخطوها حتى غمر الماء ركبتيه. عندئذ صاح: "فوستر، هذا سخف. ماذا ترانا نفعل هنا؟"

وذكّرته: "مالك الحزين الازرق."

قال: "آه، حقا." وتقدم من النباتات المائية. وما ان وصل الى مسافة متر من الطائر حتى أطلق هذا زعقة مدوّية وقفز في الهواء ثم طار الى الجانب القصي من البحيرة.

وقف مارتي في مكانه مشدوهاً وهو غائص في الماء الى أعلى فخذيه وقد لطخ الوحل قميصه الازرق وربطة عنقه المخططـة. وتقبض وجهـه سخطـا فابتسمت له من الزورق.

في تلك اللحظة ظهر قارب مقبل نحونا من وراء الجزيرة. في ذلك الموقف لم أكن أرغب في مصادفة أحد يعرفني، لذلك انبطحت في الزورق متواريا. لكن زميلي في موقفه الزري لم يجد مكاناً يختبىء فيه.

ودنا الزورق منا وفيه رجلان صاحا بنا: "هل هذا أنت يا دكتور سميث؟"

قلت في نفسي: رباه، اذا اكتشف أمرنا ونحن في هذه الحال وفي هذه الورطة، تأكد ما يساور السكان المحليين عن خبل الطبيبين اللذين يديران برنامج رعاية الحيوانات البرية. وفي تلك اللحظة تعالى صوت بلهجة ألمانية ثقيلة: "لست الشخص الذي تطلبان. لست شميت."

قال الرجل: "آسف، ظننتك الطبيب البيطري." وغاب الزورق في الظلمة والضباب.

ونهرت مارتي: "اصعد الى الزورق أيها الغبي."

فقال: "هذا تماماً ما كنت أنوي فعله."

في الاسبوع التالي عدت في سيارتي الى البحيرة. وهناك رأيت مالك الحزين عينه واقفاً في البقعة عينها. وتأكد لي أن زيارتنا المشؤومة للفجوة المفضلة التي يصطاد فيها السمك لم تزعجه بمقدار ما أزعجت الدكتور شميت الخبير البارز في فصيلة مالك الحزين الازرق.

## عينا الذئبة

كانت حظيرة الحيوانات الاليفة في المستشفى هادئة على غير عادتها. والى يساري ربضت ثلاث قطط ساكنة في أقفاصها المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ. وكان قرب الباب هرّ عمره ثماني سنوات اسمه بنيامين اشتهر بشراسته القتـالية. فعلى فتـرات تراوح بين أسبوعين وثلاثة كان يؤتى به لمعالجته من اصاباته في القتال. وفي ذلك اليوم بضعت دملا في عنقه وادخلت انبوباً في الجرح لينز منه السائل. وقد اعتاد بنيامين ان يثير ضجة مخيفة عندما يقفص، لكنه لم يفعل ذلك اليوم، بل تكوم في احدى زوايا القفص وهو يحدق الى وسط الغرفة.

أما ناغيت الكلبة الاليفة الوحيدة في المستشفى فقد جثمت بهلع في زاوية قفصها. انها كلبة صيد ممتازة وكانت تتعافى بعد جراحة في الركبة، لكن منظرها ربما أوحى أن أيامها في هذه الدنيا أضحت معدودة.

والسبب في كل ذلك قفص وسط الغرفة مصنوع من الخشب والحديد المشبك حبست فيه ذئبة قطبية بيضاء رائعة. وبدا لي أن الكلبة والهررة كانت تتخيل ما يمكن أن تفعله تلك الذئبة لو كانت طليقة في الغاب.

فهذه الذئبة التي يبلغ وزنها ٤٠ كيلوغراماً، لو كانت طليقة في مواطنها بغابات آلاسكا، لكانت تسترق الخطى في درب غير معلمة بحركات رشيقة متأنية وايقاعية وجسم عضلي قوي، حتى لتبدو وكأنها عائمة على الارض المتجلّدة.

وتعالى صوت ينادي: "روري!"
أيقظني الصوت من تخيلاتي فرأيت ليندا واقفة في الباب.

اتسعت حدقتاها وقالت: "آه يا روري، انها رائعة الجمال، انظر الى هاتين العينين."

أجل، العينان: صفراوان خارقتان ساحرتان. يستحيل أن تنظر الى عيني تلك الذئبة من دون أن يطغى عليك سحرهما. وكنت بالنظر الى أعين الحيوانات الأليفة أجزم في ما اذا كان الحيوان ودوداً أم عدوانياً. لكن عيني تلك الذئبة لم تخبراني بشيء.

وأوضحت لزوجتي: "انها من معرض بيربارك للحيوانات البرية. الاحوال هناك رهيبة. وليلة أمس علقت القائمة الامامية اليمنى لهذه الذئبة في شبكة الاسلاك في حظيرتها. وانقطع دوران الدم وتجلدت الساق. وكانت الحرارة ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر، ولم يسعني أن أفعل شيئاً سوى بتر الساق." وأضفت بأسى: "لو لم ابتر الساق لنفقت الذئبة."

## المعنى الغامض

كانت ممارستي الطب البيطري تتناول الحيوانات الاليفة والحيوانات البرية التي تعيش في الغاب. ولم تكن لدي رغبة في معالجة الحيوانات البرية الأسيرة، والسبب الرئيسي لذلك اعتقادي أن ذلك يجعلني شريكا في ذلك العمل الممض الذي يضع الحيوانات تحت أنظار المشاهدين من دون توفير المساحة أو العناية المناسبة. لكني بين حين وآخر كنت أشذ عن هذا النهج. وتلك الذئبة الرائعة كانت في حاجة ماسة الى المساعدة.

حقنت مخدراً في خاصرة الذئبة من خلال أسلاك القفص. وبعد انقضاء ٢٠ دقيقة هجعت في نوم عميق. ورفعتها برفق من القفص ونقلتها الى غرفة الجراحة. ومررت يدي باعجاب على فروها الفاخر. يا لها من حيوان جميل.

وكانت كارين أصبحت مساعدتي في غرفة العمليات، فأعدت ساق الذئبة للجراحة وفتحت شقاً في موقع متوسط بين الكتف والمرفق فوق المنطقة التي أخذت تسودّ. وتفجر الدم على قفازي حين قطعت شرياناً تحت الجلد. وأقفلت الشريان سريعاً بمشدّ وواصلت ربط كل ما وجدته من عروق نازفة. وكنت طوال الوقت ألعن الظروف التي اضطرتني الى البتر.

وحان وقت نشر العظم. وشردت أفكاري ولم أعد قادراً على كبتها فانفجرت صائحاً: "هذه العملية كلها تثيرني الى حد الجنون. انها خالية من أي معنى ولم تكن ضرورية قط." ثم رفعت عيني وسألت كارين: "هل تعرفين خطيئة مَنْ هذه؟"

ونظرت الي كارين سائلة بدورها: "هل هي خطيئة صاحب معرض الحيوانات البرية؟"

وأحدثت العظمة قرقعة عالية عندما انكسرت قطعتين.

وتمتمت: "اجل، لكن في الامر اكثر من ذلك. فبعض اللوم يقع على قانون ولاية ويسكانسن الذي يسمح بنصب الحَبائل لاسر مثل هذه الذئبة في آلاسكا وبيعها هنا."

انقضت تسعون دقيقة قبل أن أنجز القطبة الاخيرة في الجلد. وباستثناء الساق المبتورة بدت المريضة في حال جيدة. وستتعافى وتعود الى قفصها.

وفي صباح اليوم التالي جاء صاحبها ليستردها.

سألني: "هل تعتقد انها ستكون بخير؟"

وترددت في الجواب، اذ وجدت صعوبة في التحكم بمشاعري. ثم قلت: "الجراحة تمت على ما يرام." وجهدت كي أجعل صوتي طبيعياً. ثم رحت أراقبه من خلال نافذة مكتبي وهو ينقل القفص الذي حبست فيه الذئبة الى صندوق شاحنة صغيرة. بعد ذلك انطلق عبر موقف السيارات المتجلّد والذئبة ترتج بعنف صعوداً وهبوطاً. بدا أنها لا تعي ما يحدث لها. وفي تلك اللحظة فهمت ذلك المعنى الغامض الكامن في عينيها.

تلك الذئبة القطبية الجميلة لم تكن حيّة وسعيدة حقاً، لقد انتهت يوم وقعت في الشرك في آلاسكا.

## "الدم البارد"

ذات يوم دخل عيادتي صبي ذو وجه نمش عمره عشرة أعوام ومعه أمه. كان يحمل كيساً من الورق داخله ضفدع علق في أعلى فمه شص لصيد السمك.

دفعت الام بابنها نحوي وهي تقول: "أخبر الطبيب بما جرى يا بيلي."

لم يفتح بيلي فاه اذ كان على وشك أن يجهش بالبكاء. وخاطبته مهوناً عليه: "اسمع يا بيلي، دعني أحاول ان أحزر ما جرى. أراهن أنك كنت تسير على ضفة البحيرة حاملا قصبة الصيد. ربما كنت تسعى الى صيد سمك القاروس او القنبر. هل انا على حق حتى الآن؟"

هز الولد رأسه موافقاً.

وتابعت: "عندئذ لمحت الضفدع الكبير الهرم. انه العلجوم(٤) عينه الذي كنت تحاول أن تقبض عليه في الصيف الماضي، لكنه كان حذراً جداً فلم تفلح. أليس كذلك؟"

وهز الولد رأسه مرة أخرى.

وواصلت حديثي: "بقي العلجوم قابعاً على تلك النباتات العائمة فوق المياه العميقة بعيداً عن متناولك. أنت لم تكن تريد ايذاءه، كنت تحاول فقط أن تمسك به لتلقي عليه نظرة. وهكذا وضعت دودة على الشص وانحنيت وأدليت بالشص أمام العلجوم."

وقاطعتني الأم: "صحيح يا دكتور، ذلك ما حدث فعلا. ويمكنك أن تتخيل ما حدث بعد ذلك."

قلت: "قفز العلجوم الى الشص. ولم يصبه في المرتين الاولى والثانية، لكنه عضه أخيراً وعلق به."

ورجتني الام: "ارو لنا المزيد مما جرى."

فتابعت: "حسناً يا بيلي. استبد بك الهلع عندئذ فعدوت الى الكوخ والعلجوم مدلى في الهواء من رأس قصبة الصيد، وأنت لا تدري ما يجدر بك أن تفعل. وسمعت أمك صياحك فخرجت لتتحرى الأمر. وحين رأت العلجوم أظن انها أطلقت صرخة او اثنتين."

---

(٤) العلجوم ذكر الضفادع.

وتدخلت الام: "بل ست صرخات أو سبع."

وضحكت مواصلا روايتي: "كان والدك يصطاد السمك في مياه البحيرة. ولم تجرؤ أمك على الامساك بالعلجوم لتنزعه من الشص. لذلك جئتما اليّ. هل هذا صحيح؟"

في هذه الاثناء كان بيلي استرخى واستطاع الابتسام.

قلت: "حسنا يا بيلي، دعنا نلقي نظرة على هذا العلجوم."

## سجلّ الضفادع

ناولني بيلي الكيس فمددت يدي داخله وأخرجت المريض ذا الدم البارد. كان العلجوم يتلوّى، لكني أفلحت أخيراً في القبض عليه وجذبته خارج الكيس وفحصته ووجدت الشص وشوكته مغروزين في شفته العليا. وسألت الصبي: "ما اسم هذا الضفدع يا بيلي؟"

فأجاب متلعثماً: "أظن... أظن... ان اسمه بورت."

قلت: " يا له من مسكين. لا يسعنا أن نخدّره كي لا يتألم، كما نفعل بالكلاب والقطط. لذلك ينبغي أن يمسك به شخص ما بينما انزع أنا الشص من شفته. هل تريد أن تساعدني يا بيلي أم أستدعي شخصاً آخر ليثبت بورت في مكانه؟"

"لا!" قال بيلي مظهراً جرأته، "بل سأمسك به أنا."

قبض بيلي على العلجوم ودفعت أنا الشص الى آخره في شفة العلجوم، ثم قطعت الشوكة وسحبت الشص برفق قائلا: "قضي الامر يا بيلي. هذا يكفي. والآن دعنا نعيد العلجوم الى الكيس. وفي امكانك ان تطلقه حيث أمسكت به."

بدا أن بيلي ارتاح بعد التوتر الذي اعتراه. فأعاد العلجوم الى كيسه وربت جانب الكيس تحبباً وهو يبتسم مسروراً، ثم مضى هو وأمه. الا أن تلك القصة الطفولية ستبقى في ذاكرتي.

أتذكر عندما كنت في سن بيلي أنه انتابني هلع من الضفادع. وعلى غرار الكثيرين من أترابي لم أكن أقدّر المخلوقات الحية حق قدرها. والله وحده يعلم كم ضفدعاً قتلت. وربما من شأن برنامج رعاية الحيوانات البرية الذي بدأناه أن يعلم أبناء هذا الجيل ما لم يقيّض لي أن أعرفه في صغري.

قلت في نفسي ان بيلي ولد طيب القلب، وسرّني أن أساعده. وتحرير بورت من الشص الذي انغرز في شفته لم يبيض سجلي في عالم الضفادع، الا انه كان بداية.

## حياة صغيرة

مراقبو الطيور في الناحية التي نقطنها من ولاية ويسكانسن يعلنون قدوم الربيع عندما يشاهدون طائراً غواصاً أو عصفـور أبي الحناء، وكـلاهما يحب السباحة، عندما يتكسر الجليد على نهر توماهوكس فيصبح سالكاً أمام الزوارق. أما أنا فلا اعتبر أن الشتاء انقضى الا حين يحضر الي أول مولود جديد من الحيوانات البرية للمعالجة.

وفي العام ١٩٨٢ وقع هذا الحادث في يوم بارد كئيب من شهر مايو (ايار) في السادسة مساء.

كنت في المختبر أنجز بعض فحوص الدم حين دخلت كارين قائلة: "يا دكتور فوستر، ان جيم وبيفرلي كلاين ينتظران في غرفة الفحص الاولى ومعهما أرنب مصاب. أتتذكرهما؟ انهما يملكان كلبي الصيد الايرلنديين ماكس وسامبسون والهر كاليبسو."

وتذكرت تماماً. كانت بيفرلي طيبة، أما جيم فكان مشاكساً. وكانا دائماً يتجادلان.

لم تكد كارين تبلغ الي رسالتها حتى تعالى صوتا جيم وبيفرلي في مناقشة حادة.

وفيما أنا منصرف الى عملي رحت أسترق السمع.

كان جيم يتذمر: "ان هذا اهدار للوقت. أي معنى لمحاولة انقاذ أرنب واحد في حين تعيش المئات في البرية؟"

قالت بيفرلي: "هذا المخلوق التعس يستحق أن تتاح له فرصة للعيش. لم تكن خطيئته أنك مرّرت جزازة العشب فوق جحره."

وردّ جيم مدافعاً: "يا بيفرلي، انه قضاء الله أن يموت بعض المخلوقات. لقد شاهدتِ الكثير من أفلام والت ديزني، لذلك لا تستطيعين فهم الواقع. تلك هي الحياة البرية."

وتأوهت بيفرلي: "آه... فهمت... انك تعتبر الجزازة بين يديك من وسائل القدر... يا للسخف!"

وصاح جيم: "اسمعي يا بيفرلي. حتى اذا افترضنا أن هذا الارنب تعافى، فمن المحتمل أن يفترسه حيوان ضار في الغابات. اني أفهم أن تقدمي العون الى



نسر أو طائر غواص، اما الارانب... ان لدى الدكتور فوستر واجبات أولى."

## قرار حاسم

رن الجرس في جهاز فحص الدم معلنا نهاية الاختبار. فدوّنت النتائج وتوجهت الى غرفة الفحص وحييت الزوجين وكأنني لم أسمع شيئاً.

سألتهما: "ماذا معكما في ذلك الصندوق؟"

فوقفت بيفرلي وقالت بصوتها الرقيق الجميل: "في هذا الصندوق خرنق(٣) صغير." ووضعت الصندوق على طاولة الفحص وراحت تروي قصتها: "كان جيم

(٣) الخرنق ارنب صغير.

يجز الاعشاب في المرجة أمام بيتنا ، فمرّر الجزازة فوق جحر هذا الخرنق. أظن أن الشفرة جرحت جنبه، لكني أرجو أن يشفى."

ولم يفه جيم بكلمة، بل جلس يحدق الى زوجته وهي تتكلم، ثم تنهد باشمئزاز.

قلت: "لا بأس، يمكنك أن تعهدي به الي." وواكبت الزوجين الى خارج الغرفة.

بعدما تخلصت من آل كلاين فتحت الصندوق ومددت يدي ورفعت الخرنق المرتعد لافحص جرحه. كان طوله لا يتعدى تسعة سنتيمترات. وكان ظهره مغطى بوبر بني ناعم، أما بطنه فكان أبيض. وتحرك أنفه الزهري وشعرات شاربيه حين وضعته على الطاولة.

ووجدت في جنبه الايسر تحت الضلع الاخير جرحاً يبلغ طوله سنتيمترين ونصف سنتيمتر. وكان جلياً أن ذلك هو الموضع الذي اصابته شفرة الجزازة. ورأيت طيّات امعائه الحمراء من خلال الفتحة، وقد تسربت قطع من الشعر والعشب الاخضر والاقذار الى جوفه.

في غضون السنوات الخمس الاخيرة تعين علي أن أتخذ قرارات حاسمة في محاولات انقاذ الحيوانات. وكان اتخاذ هذه القرارات سهلا في غالب الاحيان. ولا ريب في أني لم اتردد في معالجة نسر أو عقاب، ولكن ربما كان جيم على حق في شأن هذا الارنب الصغير، فثمة ألوف، بل ربما ملايين، من أمثال هذا المريض في عالم البراري.

ولم يقتصر الامر على أن حياته ليست بذات أهمية بالنسبة الى عالم الارانب، بل ان معالجته كانت تعني تأخير كارين ٤٥ دقيقة أخرى على الاقل، وكانت الساعة قرابة السابعة. وتقضي المعالجة الصحيحة بالتخدير الموضعي الذي تعقبه قطب صغيرة متعبة.

وعلى افتراض أن الخرنق استطاع احتمال كل هذا العناء، فاني سأضطر الى أخذه معي الى البيت تلك الليلة لأضعه في حاضنة مدفأة. وسيتعيّن عليّ وعلى ليندا أن ننهض ليلا مرتين على الاقل لنتفقده ونجرعه الحليب بقطّارة ونحقنه بمضادات الحيوية. وبدا أن هذا الجهد أكبر من أن يبذل لخرنق صغير.

ثم ان التجربة علمتني ان الحظ في نجاح الجراحة لا يتجاوز الخمسين في المئة. وكان جيم على حق، فحتى لو أنقذت حياة هذا الخرنق، فمن المحتمل أن تقتله بومة أو يفترسه ثعلب أو ترهسه سيارة.

وهكذا، في ضوء كل هذه الحقائق، فعلت ما كان خليقاً بي أن أفعل.

ولم تعترض ليندا قط، بل انها تطوعت للنهوض ليلا لاطعام المريض الجديد.

## المرأة الجميلة

في ليلة جميلة من ليالي ربيع ١٩٨٢ جلست مع ليندا ونحن نسند ظهرينا الى شجرة صنوبر ضخمة عمرها مئة عام تحت السماء المخملية السوداء. وارتفع البدر تاماً وأرسل نوره الهادىء على الباحة. وكانت ليندا ترضع بالزجاجة رشأ كسرت سيارة ساقه. وكانت عيناه البنيتان تلتمعان خوفاً.

وطمأنتها: "سيكون على خير ما يرام."

وكان ينتصب أمامنا البناء الاصلي لمستشفى فوستر وسميث للحيوانات الذي سمي باسمي واسم مارتي. والى اليمين ممر طويل يصل المستشفى ببناية تم تشييدها قبل أسابيع قليلة. ذلك هو مستشفى نورث وود للحياة البرية الذي سيفتتح في الصباح كأول مرفق في الغرب الاوسط لمعالجة الحيوانات البرية واعادة تأهيلها.

وفيما أنا أراقب هذه المؤسسة الفخمة لم يسعني الا أن أعود بالذاكرة الى البداية المتواضعة التي انطلقنا منها. أذكر أني استدعيت مرة مع مارتي ورايس لاجراء جراحة لظبي جريح. واضطررنا الى اجراء الجراحة في سقيفة قديمة حيث وضعت لوحة خشبية عريضة على ركيزتين لتكون طاولة الجراحة. ما ابعد الشوط الذي قطعناه!

وكانت تلك السنوات مفعمة بالجهد بالنسبة الى ليندا كذلك. فقد ولدت ابنتنا آلي وابننا مايك بينما هي تعنى بحيوانات برية عدة. لكن تلك السنوات لم تغيرها، وظلت تلك المرأة الجميلة. وراقبتها وهي تنحني على ذلك الرشأ وتحضه على شرب الحليب وشعرها القاتم يتدلى على كتفيها ليستقر فوق رأس الرشأ.

وهمست: "يا ليندا، هل أنا واهم أم ان هذا الرشأ يشبه فالين؟"

وتفرست ليندا في الرشأ الوليد وقالت أخيرا وهي تهز رأسها: " لا أدري... يا روري...فالضوء يخدع في هذه الليلة."

ضحكت ومددت يدي لأربت الوبر الناعم ثم قلت: "أنا أدري... كل الأرشاء متشابهة." ودنوت من ليندا فأسندت رأسها الى كتفي وانسدل ستار من السكينة في جو ذلك المكان.

## نظرة أخيرة

استيقظت من نومي وأنا أشعر بفتلة في رقبتي وألم خفيف في ظهري الملتصق بجذع الصنوبرة. ونظرت الى ساعتي فاذا هي تشير الى الثالثة والنصف صباحاً. والتفت الى ليندا فاذا هي غارقة في نوم هادىء، كذلك الرشأ المستريح على ركبتيها.

وهمست في أذنها برقة: "ليندا، انهضي يا عزيزتي، الساعة الثالثة والنصف."

وحملنا الرشأ الى زاوية في باحة المنزل ووضعناه على فراش من القش. وأخذت ليندا تمرر يدها على رأسه كما لو كان طفلا رضيعاً.

قالت ليندا: "أتساءل هل آلي ومايك بخير."

فطمأنتها: "انهما قضيا ليلة مع أختك من قبل. انهما بخير. فلنمر ونأخذهما باكرا. يمكنهما أن يحضرا معنا حفلة الافتتاح. وآلي تحب أن ترى الرشأ الجديد."

وغادرنا الباحة ودخلنا مستشفى الحياة البرية. كان الهدوء يرين على المبنى الجديد تحت الضوء الخافت. وكانت الحيوانات الخاضعة للمعالجة لا تزال في المستشفى القديم في انتظار الافتتاح لتنقل الى المهاجع الجديدة.

وتمتمت: "يا ليندا، أُحب أنْ ألقي نظرة أخيرة. لن يخيم الهدوء على هذا المكان هكذا بعد الآن."

وأدركت ليندا ما أعني، فأمسكت بيدي وعبرنا غرفة المعالجة. كانت الخزائن المملوءة بالمواد الطبية تغطي الجدار. وفي الزاوية انتصب برّاد طويل بني اللون فتحت بابه وأنا ابتسم. كان يحوي أكداساً من السمك الصغير المجلد المعد لاطعام الحيوانات التي تقتات بالسمك، وعلباً من بقايا اللحم قدمت الينا هدية من مطعم محلّي لاطعام حيوانات أخرى.

## عنوان غريب

كان الباب المؤدي الى الغرفة التالية يحمل لوحة كتب عليها "طيور مائية." ان طائر الواق الامريكي ومالك الحزين الازرق اللذين نعالجهما سينقلان الى هنا، والصهريج العميق قرب الجدار سيكون مستقراً ممتازاً لطيور البط ومالك الحزين. ثم هنالك "غرفة الطيران" حيث يعاد تأهيل الطيور الجوارح. وثمة غرفة أخرى مملوءة بالاقفاص ستوضع فيها الحيوانات البرية الاخرى وتكون بأمان.

وقلت مناجياً نفسي: "الدينا أيضاً ثلاثة أقفاص للطيران في الخارج." وضحكت ليندا قائلة: "أعرف ذلك."

وقفت ونظرت الى زوجتي الجميلة. ان ليندا تشكل جزءاً من كل هذا، مثلي تماماً.

وقرب الهاتف في غرفة الاستقبال رأيت كومة من الرسائل. وقالت ليندا مبتسمة: "حين جيء بالرشأ الى هنا أغفلت أمر هذه الرسائل. لقد اتصل رايس ليقول انه سيقود طوال الليل قادماً من ولاية ميشيغان ليحضر حفلة الافتتاح. وطلب أن أخبرك أن نتائجه في الامتحانات النهائية جاءت جيدة."

وفكرت: سبع سنوات انقضت وبقيت سنة واحدة. ثماني سنوات! وهززت رأسي متذكراً أيامي كطالب طب بيطري.

قالت ليندا: "ثمة رسالة هنا موجهة اليك من طبيب بيطري في ولاية أوريغون."

ولم أكن أعرف أحداً في ولاية أوريغون. وناولتني ليندا الرسالة. ونظرت الى الغلاف واستبدت بي الحيرة. فقد كتب على العنوان:

الى الدكتور وايلدلايف (٤)

مينوكا، ويسكانسن

فضضت الغلاف بعناية وقرأت الصفحات التي وصلت الى عتبة بيتي. وتبين لي أن الطبيب البيطري قرأ في صحيفة نبأ افتتاح مستشفانا الجديد للحياة البرية. قال انه كان يفكر في تنفيذ مثل هذا المشروع، ويهمه أن يتلقى أخباراً عن المشاكل التي واجهتُها.

وناولت ليندا الرسالة، فأدهشها العنوان الغريب وأسعدها: "الدكتور وايلدلايف" (طبيب الحياة البرية). وبعدما قرأت الرسالة نظرت الي وسألتني: "بماذا سترد عليه؟"

قلت: "أظنني سأخبره الحقيقة. هيا، فبعد خمس ساعات ينبغي أن نعود الى هنا."

---

(٤) Wildlife بالانكليزية تعني الحياة البرية.

ورجعنا الى الباحة لنتفقد الرشأ. وانحنت ليندا لتلامس رأسه.

وهمست بصوت رقيق: "ذلك الطبيب البيطري يسأل عن مشاكلك. اني لا أتذكر اننا واجهنا مشاكل. هل تتذكر أي مشكلة؟"

ونظرت الى ذلك الحيوان المحتاج الى رعايتنا وحبنا، وفكرت في كل تلك الحيوانات المصابة أو اليتيمة في البراري التي تحتاج هي أيضاً الى مساعدتنا، ثم أجبت زوجتي: "لا، لا أتذكر."

بعد وقت قصير من قبول كتابي هذا للنشر أدركت أن شيئاً ما فيّ ليس على ما يرام. فالحيوانات التي كنت أرفعها بسهولة الى طاولة الفحص باتت ثقيلة على نحو غير عادي، كما بدأت أدوات الجراحة تسقط من يدي. وبدا لي أن الاستجابة العصبية في حركاتي تتجاوز الحد، وشعرت بالوهن يدب في يدي. وذهبت الى اختصاصي بالاعصاب فاكتشف انني مصاب بتصلب جانبي ضموري ناجم عن اختلال في الخلايا العصبية ويعرف بداء لو غيريغ(٥).

وتأثيرات هذا الداء تؤدي عادة الى الموت خلال أربع سنوات.

ان المرء يفكر كثيرا، وفي استرجاع الماضي أدركت أن السنوات التي قضيتها في مساعدة الكائنات البرية كانت أفضل فترة في حياتي. ومع أن بعضهم قد لا يهتم لذلك، فانني أظن ان السواد الاعظم منا ينعم بشيء من فطرة الدكتور وايلدلايف. انه الامر الذي يدفعنا الى مد يدنا لمساعدة مخلوق آخر أتعس حظاً منا.

فاذا لم توقظ تلك الفطرة في نفسك حتى الآن، فقد يكون الوقت أزف الآن لتوقظها.

**الدكتور روري فوستر** ■

(٥) Amyotrophic lateral sclerosis or Lou Gehrig's disease

## عندما تتكلم الشجرة

في لوحة على شجرة بمدريد عاصمة اسبانيا نقشت العبارات الآتية:

أنا دفء الموقد في ليالي الشتاء الباردة.

أنا الظل الذي يقيك وهج شمس الصيف.

ثماري وعصارتي تطفيء ظمأك في ترحالك.

أنا الجسر الذي يحمل سقفك، والباب لبيتك، والسرير الذي تتمدد عليه، والخشب الذي تصنع به قاربك.

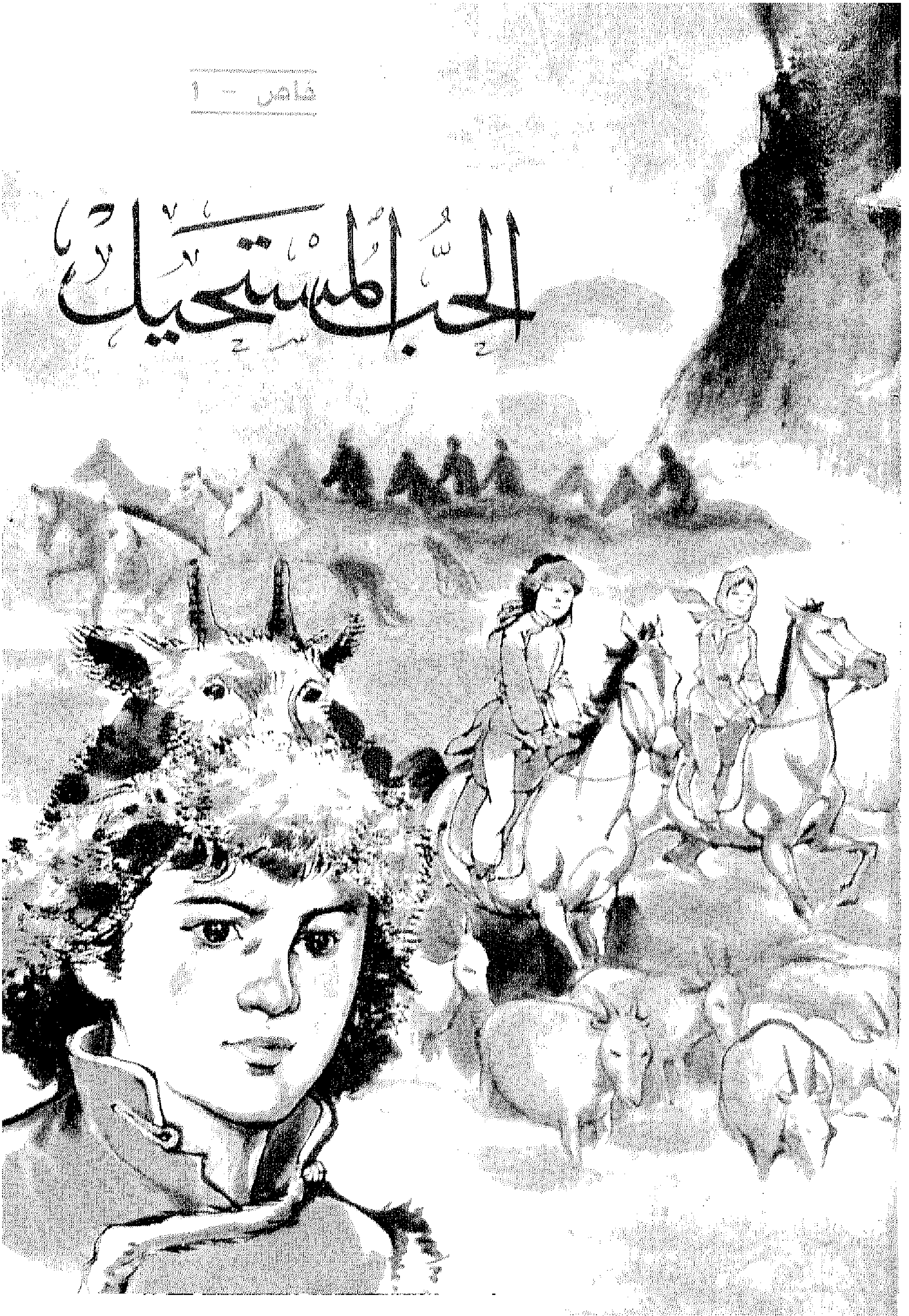
أنا مقبض معولك وخشب مهدك وهيكل تابوتك.

ج.ش.

---

كل الناس يحبون العاشق عدا الذين ينتظرون دورهم لاستخدام الهاتف.

ك.م.


خاص – ١
الحب المستحيل

# الحب المستحيل

**في براري منشوريا شمال الصين نشأت قبل نصف قرن صداقة متينة بين فتى صيني وابنة اريستوقراطي من المغول البدو. ومع السنين تحولت صداقتهما حباً. ولما ذهب الفتى إلى المدرسة كانت للفتاة ثلاث أمنيات: ألا ترتحل عائلتها، وألا يغادر الفتى تلك النجود، وألا يكبرا أبداً**

حول منزلي في مروج منطقة هيلونجيان الواقعة في ما كان يسمّى "الشمال العظيم" جُنّ العشب وكثف وبدت سلسلة جبال هنغان الكبرى كأنها لوحة تخريمية تفصل بين البرية الخضراء والسماء الصافية الزرقاء.

وعند منعطف صغير لنهر باكالون انتصب بيت كبير. إنّه بيتي المبنيّ بكتل مرصوصة من التراب وجذور الاعشاب، وهو دافىء في الشتاء وبارد في الصيف. وكان جد أبي كسب بجهده المتواصل قطعة الأرض تلك وقاوم الحيوانات الشرسة واللصوص فطردهم بعيداً عن النهر. وما لبث أن أسس مزرعته الكبيرة فأضحت مركزاً برياً منيعاً. وفي العشرينات من هذا القرن كانت "مزرعة آل ماي" تتألف من مزرعة رئيسة وست مزارع فرعية وفيها أكثر من مئتي عامل.

أما أنا، فتى البرية، فكان يحلو لي أن أعدو بفرسي مع شقيقتي فوق الأرض المكسوة بالثلوج. وكان الافق الشرقي عند الفجر يبدو وكأن كائناً ما أضرم ناراً في السماء. فأستيقظ وأختي في الصباح الباكر ونمتطي فرسينا متحدّيين البرد القارس لنعدو في البرية إلى حيث يجلس الرجال ليلا يحرسون ويذكون النار في مخيماتهم. وعندما يكون الطقس جيداً والريح ساكنة نركب عربة جليد ونطوف في الريف. وكانت أمي تعلّق الأجراس في أعناق الاحصنة فترافق موسيقاها الرائعة ضحكة أختي الرنّانة.

لكن الخطر كان يترصّد المرء في البرية. فهبوب الريح الشمالية ليلا وعواء الذئاب كفيلان بجعل القشعريرة تسري في الجسم. فغالباً ما نسمع بمسافر مستوحد هاجمه ذئب. ويروي سكان الجبل حكاية الذئب الذي دخل منزلا وخرج منه بطفل. ومن حين الى آخر كان ذئب يسرق إحدى النعاج على رغم الاحتياطات الشديدة التي اتخذناها.

Condensed from «Great Wild North,» © 1978 by Mei Chi-min, published by Ching Shan Publishing Campany, Taipei, Taiwan and «The Prairie,» © 1978 by Mei Chi-min, published by Hsing Kuang Publishing Co., Taipei, Taiwan. Illustrations: Tsui Shing On

كان الشتاء مرحلة صعبة، لكننا اتبعنا تقليداً في الاحتفال بعيد رأس السنة. فبعد العشاء ليلة العيد يقود جدي العائلة بكاملها إلى أحد أبراج المزرعة ويؤدي كلّ واحد منا حركة رمزية كأنه يذكي نار مخيم باضافة الحطب الى المواقد. ثم تمسك عمتي إناء الشراب وأمي الفنجان واخوتي واخواتي الصغار المصابيح وأنا البخور. ونسير متنقلين من مجموعة حيوانات الى أخرى، فيصب جدي على الارض فنجان شراب تلو آخر. وهي حركة ترمز الى امتناننا للحيوانات، إذ كنا نعتمد عليها في سبل رزقنا.

## رفيقة اللعب

في الربيع تكسو سحب من الزهر الابيض ضفتي النهر الصغير، وكانت أمي تأخذنا الى البرية لنعمل جميعاً على زرع الخضر والفواكه في قطعة أرض. وسرعان ما تنمو مزروعاتنا تحت أشعة الشمس الدافئة. وكنّا أحياناً نرى قطيعاً من النعاج ينظر الى الخضر من خلف السياج بأعين صغيرة شرهة. وذات يوم في أوائل الخريف عثرت شقيقتي على غزالة بريّة تأكل وصغارها الملفوف في الحديقة. فهرول أحد العمال إلى المزرعة ليأتي ببندقيته. لكن أمي أوقفته، ثم ذهبت الى الحديقة وطردت الغزالة برفق. وفي المساء قالت لنا: "يحتاج الناس الى أن يأكلوا، كذلك الغزلان البرية. ولا يجوز أن نقتلها لمجرد أنها أكلت بعض نبتات الملفوف."

وفي أحد أيام الصيف الجميلة، وكنت في السابعة من عمري، رجوت عمي أن يصحبني إلى المراعي البعيدة حيث يأخذ الأحصنة لترعى. فرفقاء اللعب قليلون وحياة البريّة موحشة. وامتطيت صهوة فرسي المرقّط وعدوت إلى جانب عمي ورجاله على طول النهر في اتجاه الطرف الجنوبي للغابة. وعندما أصبحنا عند منعطف النهر الصغير خرج من الغابة على الضفة الأخرى للنهر فريق من الكلاب الرعاة وهي تعدو وتنبح.

فتساءل عمي: "ترى من أين تأتي تلك الكلاب الضارية؟"

وفجأة خرجت فتاة صغيرة من الغابة راكضة. وصرخت آمرة الكلاب بالسكوت ثم لوّحت لنا بيدها. كان بريق يشعّ من عينيها وابتسامة تعلو ثغرها. لكننا لم نفهم ما كانت تقوله. كانت ترتدي ثوباً أزرق وتشد وسطها بحزام أحمر وتحمل سلة حيكت من أغصان شجرة الصفصاف. فقال عمي: "يا لها من مغولية فاتنة! لقد وجد ابن أخي رفيقة ليلعب معها."

وساعدني في قطف باقة من الازهار البرية واجتزنا النهر على حصانينا. وكان سرور الفتاة شديداً فراحت تقفز. وأومأ اليها عمي محاولا إفهامها أنه لا بدّ من أن ألعب وإياها. ففهمت للحال وأومأت برأسها موافقة. فقال عمي: "يا لها من صغيرة ذكيّة."

وشرعت الفتاة الصغيرة تقطف العشب وتحزمه رزماً ترسلها مع الكلاب إلى خيمتها. وأنا ساعدتها.

وأعجبت بفرسي فراحت تربّت قائمتيه الخلفيتين بيدها الصغيرة. وغسلت وجهه ودست أزهاراً برية في سرجه. ولعبنا طوال فترة ما قبل الظهر فعثرنا في

الغابة على أرنب بري وثمر عليق لذيذ وعنب بري. ولمّا أتى عمي ظهراً ليصحبني لم تشأ الفتاة أن تترك يدي.

وسرّت أمي كثيراً عندما علمت بصديقتي الجديدة. فسلقت بيضاً ورتبت بعض الفطائر لآخذها اليها بعد الظهر. وقالت لنا ان البدو المغول نادراً ما يربّون الدجاج، فلا بدّ من أن يجدوا البيض لذيذاً. وقلّما تتاح لهم فرصة تناول الفطائر والمعجّنات.

لمّا وصلنا إلى طرف الغابة كانت الفتاة الصغيرة في انتظارنا وقد بدّلت ملابسها فانتعلت جزمة حمراء وضفرت شعرها بشرائط حمراء. ولمّا رأتنا أتت إلينا راكضة.

ترجلت وعمي فبسط هو على العشب جلد خروف أبيض نظيفاً ووضع عليه الطعام الذي حضّرته والدتي ثم دعا الفتاة الصغيرة لتجلس وتأكل. وتماماً كما توقعت أمي، حاز البيض إعجابها الشديد وراحت تدقق في شكل كل فطيرة قبل أن تضعها في فمها بعناية.

وبينما نحن نتمتع بتناول وجبتنا الخفيفة رأينا رجلا يتجه نحونا على حصان أبيض. كان يرتدي ثياباً سوداء وقبعة مغولية من الحرير الاسود. فترجّل وفتح ذراعيه وهو يبتسم لنا بامتنان.

وخاطبني بالصينية: "ها! شكراً لك، شكراً جزيلا." ولمّا اقترب عمي على جواده، جمع الرجل يديه وكأنه يحييه: "شكراً لك يا أخي الصيني لأنك أضفت ابنتي هالينا." فترجّل عمي وردّ التحية: "إنهما يلعبان معاً. لمَ لا تأتي إلى مزرعتنا يوماً؟"

- أين مزرعتكم؟

"إنها تبعد بضعة كيلومترات عن طرف الغابة شمالا. فنحن نملك ست مزارع فرعية ضمن نطاق ٥٠ كيلومتراً على مقربة من نهر هوما."

- أوميتاباه! لقد انتهكنا حرمة أراضيكم إذاً.

ثم انحنى المغولي وأضاف: "إرغون، العلَم الايسر، تايجي من الرتبة الثانية، نالونبولي يعتذر اليك والى اخوتك. فقد أصاب القحط أراضينا قبل سنوات ولم يبقَ لنا إلاّ أن نتجه شرقاً لنعثر على مروج خضراء."

فقال له عمي: "تفضل بالجلوس."

## الزيارة الاولى

فيما الرجلان يتحدثان رحت أنا وهالينا نلعب بالقرب من النهر. ولمّا أتى عمي ليأخذني كان الظلام خيّم على الارض. فأخبرني أن والد هالينا كان عضواً رفيع المرتبة في الاريستوقراطية المغولية، وقد ساءت أحواله. وأضاف أنه دعاه وابنته الى مزرعتنا في اليوم التالي.

لمّا سمعت أمي نبأ زيارة تايجي من المغول أمضت المساء كلّه تحضّر وليمة للغد. وأرسل أبي فارسين إلى إحدى المزارع الفرعية ليأتيا بالعجوز سولان الذي يتقن لغة المغول.

وفي صباح اليوم التالي وما إن جفّ الندى عن العشب حتى ذهبتُ وعمي ننتظر ضيفينا. وقرابة التاسعة رأينا شخصين على جواديهما يخرجان من الغابة.

ودنا منا زائرانا بأناة كما درجت العادة

في البريّة. وكانت هالينا تركب فرساً صغيراً أبيض وتتبع والدها.

وكان التايجي في لباسه الرسمي الخاص وهو عباءة طويلة سوداء وقبعة سوداء تزينها شرّابات حمراء. أما هالينا فكانت ترتدي ثوباً أحمر يزيّن خرز صغير ياقته وكمّيه ووشاحه. وتدلت من عنقها سلسلة ذهبية عُلّقت بها محفظة من الحرير الأصفر. ورحت أراقبها وهي تضع على العشب الأخضر قدماً بعد أخرى. ولم أجد يومذاك عبارات تصف أناقتها.

وسارع عمي فعرّف أبي بهما. فركع التايجي على ركبة واحدة محيياً، وتفوّه بعبارات مباركة. ثم عرّف بهالينا التي ثنت ركبتها محيية. وكانت طريقة تصرفها تجعلها تبدو أكبر سناً مما هي في الواقع.

منذ ولادتها عاشت هالينا في الخيم، فراحت تنظر إلى بيتنا بفضول عظيم. وأثار الزجاج اهتمامها على نحو خاص: النوافذ الزجاجية ومرآة أمي وآنيتنا. وعلى مائدة الغداء سكبت لها أمي الرز في طبق صغير من الزجاج الأحمر، فأخذت به وما وَسِعَها الاّ أن تلهو به وهي تأكل.

وأصرّت أمي على أن تمضي هالينا بضعة أيام بيننا. فكنّا نلتقط الفراشات ونلعب بين أزهار الليْلك، وقد أغرمت بهريراتنا. وأحبّت حديقة خضرنا، فهي لم ترَ من قبلُ الخيار والذرة الخضراء. ولمّا أتت أمها لتحضرها أعطيناها هريراً. وكانت والدة هالينا تتقن الصينية هي أيضاً، فقالت لنا ان هالينا طفلة وحيدة للعائلة وان ليس لها رفقاء لعب غيري.

ومنذ ذلك الحين بدأ عمي يأخذ جياده لترعى عند المنعطف الصغير للنهر كي تتاح لي ولهالينا فرصة اللعب معاً. فما ان نصل الى هناك حتى تخوض هالينا النهر حاملة هريرها في سلّتها. وعلى هذا المنوال أمضينا شهراً سعيداً. ثم حان وقت ارتحال عائلتها. فانطلقت وأمي على فرسينا في اتجاه المنعطف الصغير لنشهد رحيل افراد العائلة. وقدّمنا اليهم أرغفة الخبز والبيض المسلوق. وكانوا فكوا خيمتهم وطووها وحزموها على ظهر جمل.

وودعت هالينا: "إلى اللقاء يا هالينا." أما هي فجلست على مطيتها ممسكة بهريرها وعيناها تترقرقان بالدموع.

## قافلة التجار

دينغ دونغ!دينغ دونغ!حمل إلينا نسيم الصيف العليل رنين الاجراس وهي تترجع في البعيد. إنها قافلة التجار في طريقها إلينا! جمالها تحمل كل ما يحتاج اليه المرء وييسر به من طعام صيني وغربي وأوان منزلية وثياب وحلى وألعاب. وكان أهالي أورونشون يتوقعون زيارة التجار، فأتوا بالفرو الثمين وساقوا غزلانهم الأليفة من الجبال العالية التي تبعد نحو مئة كيلومتر. أما أهالي سولون فأتوا على أحصنتهم حاملين معهم قرون الغزلان وعظام النمور وأقدام الدببة، وهي سلع باهظة الثمن تستعمل في الطب الصيني.

ما إن وصل التجار حتى استُقبلوا وكأنهم من أفراد العائلة. وتحلقت نساء المروج حول الحرائر والحلى المعروضة. فكنّ يجرّبن حلية وينظرن في مرآة التاجر. يا للفرحة! أما الأولاد الذين حملوا السلال



المصنوعة من أغصان الصفصاف فكانوا يشيرون بحياء الى ما تهواه قلوبهم غافلين عمّا يدسّه التجار في سلالهم من حلوى وألعاب.

وحلّت الظهيرة وانتهى عرض السلع. وبعد وليمة عامرة أصبح البائعون شاربين وأهالي المروج بائعين. كم حصاناً لديهم برسم البيع؟ وكم من صوف الحملان؟ وكم في حوزة الصيادين من جلود الفيزون والسمّور والذئب والنمر؟

وفي المساء قدم التجار في ضوء نار المواقد عرضاً ترفيهيا تضمن قرداً راقصاً ودمى متحركة. ولم ينته عرض الدمى المتحركة إلّا قبيل طلوع الفجر، عندئذٍ قدمنا الى التجار وليمة أخرى وأرسلناهم في سبيلهم.

وذات يوم خريف بعد مرور سنتين على رحيل هالينا، كنت وشقيقتي عند منعطف النهر نقطف ورق القيقب الأحمر فأشارت شقيقتي إلى البعيد قائلة: "أنظر."

ونظرت فرأيت شخصين يتجهان نحونا على حصانين. إنهما هالينا ووالدها. فاندفعنا للقائهما، ولمّا رأيانا ترجلت هالينا وأعطت أباها لجام حصانها وهرولت نحونا. لقد كبرت. أما شعرها فما زال مضفوراً بشرائط مزينة بالخرز. وقبضت على يدي وراحت تقفز وهي لا تدري كيف تعبر عن فرحها. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما سألتني بالصينية: "كيف حال الخالة؟ كيف حال الجميع في المزرعة؟"

كان مخيمهما يبعد أكثر من ١١٠

كيلومترات. وهما انطلقا ظهر الامس وأمضيا الليلة في البرية. وأخرجت هالينا أرنبين صغيرين من سلتها وأهدتهما إلى شقيقتي. وأخبرنا والدها أنها افتقدتنا كثيراً. ففي السنة السابقة نصب أفراد العشيرة مخيمهم بالقرب من نهر نان، ورغبت هالينا في أن ترانا. لكنهم كانوا ملزمين حراسة حيواناتهم طوال الوقت لان البرية حافلة بالذئاب. لذا لم تتح لهالينا وأبيها فرصة زيارتنا. أما الآن وقد أتيا فان هالينا تمنت أن تمضي بعض الايام معنا.

في ذاك المساء أقمنا عشاء عامراً تكريماً لضيفينا. وأخبرنا والد هالينا أنها سألته، فور مغادرتهما مزرعتنا، أن يعلّمها اللغة الصينية. فعلمها مدة سنتين وبات في امكانها تدبّر أمرها. وهكذا لم تنفك هالينا طوال العشاء تهمس في أذني بالصينية.

وبقيت معنا مدة خمسة أيام. ولما حان موعد الرحيل امتطت حصانها وقد أجهشت بالبكاء. وظلت تستدير وتلّوح لنا إلى أن غابت عن أنظارنا.

## الى المدرسة

في الثامن عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩٣١ اجتاح اليابانيون منطقة منشوريا. فغادر الشبان المزارع للدفاع عن الارض. فوقع على عاتق أمي عبء إدارة المزرعة الكبيرة والمزارع الست الفرعية.

وحين بلغت العاشرة من عمري بات في وسعي أن أعتني بأمري، فأرسلتني أمي لاتعلم في هاربن. وصباح رحيلي مشت أمي معي ووقفت على الثلج المتلألىء تبتسم لي وهي تخفي الكآبة في قلبها. وقالت لي بثقة: "أنا على يقين من أنك تعرف كيف تعتني بنفسك." ولمّا ابتعدت عربة الجليد رأيت أنها لم تبرح مكانها.

ويوم عودتي إلى المزرعة لقضاء عطلة الصيف ساقت أمي القطيع إلى الطريق التي كنت سأسلكها. وأكدت لي شقيقتي في ما بعد: "هي لم تكن تسوق القطيع، بل كانت تنتظرك. ولولا المسافة البعيدة لساقت القطيع الى مدينة نان."

وأخبرتني أمي أن هالينا ووالدها أتيا إلى المزرعة في شهر مايو (أيار) ليودعانا. فقد وهبهما زعيم عَلَم آرهورشن قطعة أرض في جنوب سلسلة جبال هنغان الكبرى. وتوجهت العائلة بحيواناتها الى القسم الجنوبي الشرقي من منغوليا الداخلية. فقضت هالينا ثلاثة أيام عندنا، وحين جاء موعد الرحيل راحت تذرف الدموع سخيّة وتقول لأمي: "أماه، لا أريد أن أترككم. فأنا أحب زهر البرية وزرقة النهر. أريد أن أبقى هنا وأنتظر عودة أخي الكبير من هاربن." ولكن توجب عليها أن ترحل. وأمضيت الصيف بطوله أفكر في هالينا وفي الحياة البدوية التي تعيشها مع أهلها في براري منغوليا الداخلية وصحاريها الخطرة.

وكنت كلّما عدت الى المزرعة في عطلة الصيف أرسل الي الجيران الدعوات. فأولئك "الأعمام والعمات" الذين يعيشون طوال السنة في البرية يريدون أن يروا كم كبرت وكم من الكتب قرأت وهل زاد ضجيج هاربن.

وفي أحد صباحات يوليو (تموز) ركبنا الخيل أنا وأمي وشقيقتي مسافة ٤٠

كيلومتراً قاصدين أقرب جيراننا. ووصلنا إلى مزرعتهم ظهراً فأضافونا وأكرمونا ولم نبدأ رحلة العودة إلا قرابة الرابعة بعد الظهر.

طاب لنا أن نمشي على العشب الندي، فقدت أنا وأختي حصانينا في ريف يزدان بأغمار من الازهار الحمراء والصفراء والبيضاء. أما أمي فتبعتنا وهي تتحدث إلى مضيفينا الذين أرادوا أن يرافقونا مسافة من الطريق. وتوقفنا عند نهر لتشرب الاحصنة. ثم قطفت أختي بعض أغصان الصفصاف وسألت أمي أن تحوك لنا سلّتين للزهر. ولمّا أنجز العمل رجت أمي مضيفينا أن يعودوا أدراجهم إذ كنّا اجتزنا نصف المسافة. وسرعان ما بدت البرية موحشة فهمزنا الجياد لتسرع.

## حصار الذئاب

حين أصبحنا على مسافة عشرة كيلومترات من المنزل رأينا نار المواقد المشتعلة في المزرعة. وفيما نحن نعبر النهر شبّ فرسي فجأة فسقطت بندقيتي في الماء. وتمسكت بعنق الحصان فلم أسقط.

أطلقت أمي نار بندقيتها بينما قبضت أختي على لجام فرسي المذعور. ولمّا استعدت السيطرة على أعصابي رأيت في أجمات الصفصاف أزواجاً لا تحصى من عيون وامضة. فروّعني المشهد وراح العرق البارد يتصبب مني. كنت على وشك الاصطدام بمجموعة من الذئاب. ونبّهتني أمي إلى ضرورة ترجّلي حالا والعثور على بندقيتي. فقدت حصاني إلى وسط النهر.

تراجعت الذئاب إلى الغابة حالما سمعت الطلقة النارية. وحشت أمي بندقيتها من جديد وقادتنا بأناة في مياه النهر. قالت إنه لا بدّ لنا من أن نجد مكاناً قليل الاشجار. وبعد هنيهة أشارت إلى مكان عند ضفة النهر. ولكن ما ان عدونا اليه حتى اندفعت الذئاب من الغابة وتوجهت نحونا. وانطلقت الاحصنة مسابقة الريح وهي تلهث بشدة. وقالت أمي إنه علينا أن نبطىء قليلا. فقد أصبح في امكاننا أن نرى بوضوح أكبر نار المواقد المشتعلة في المزرعة. ولعلنا ننطلق إلى المنزل بعدما تكون الاحصنة استردت أنفاسها.

وبقيت الذئاب تحاصرنا ولا تبعد عنّا إلّا حوالى مئة خطوة. فان تقدمنا خطوة تراجعت خطوة، وان توقفنا توقفت. وكانت عيونها الوامضة شنيعة في ضوء القمر.

صوبت أمي بندقيتها إلى تلك الأعين وراحت ترمي الذئب تلو الآخر وبدا أن الذئاب لم تعد تأبه لاطلاق النار، بل كانت تدنو منّا وتطبق علينا الحصار أكثر فأكثر. وأعطتني أمي بندقيتها بعصبية وأخذت معطفها الفرو من سرجها فأشعلت فيه النار، ثم قادتنا خارج حلقة الذئاب وهي تلوّح به في الهواء.

كان فرسي على وشك الانهيار وعجز عن مجاراة الحصانين الآخرين في عدوهما. فأبطأت أمي وأختي. وفي غضون ثوان اقتربت الذئاب منا وأصبحت على بعد ٣٠ أو ٤٠ خطوة فقط. وراحت الاحصنة المروّعة تشب وتطلق صرخات ذعر. وكاد معطف أمي ان يحترق بكامله. وكان معطفي ومعطف أختي مصنوعين من فرو

ثعلب الماء الثمين، فأحسست أن أمي تتردد في أشعال النار فيهما. وما لبثنا أن سمعنا عواء مجموعة أخرى من الذئاب يتصاعد في البعيد. رباه، كم من الذئاب تنتظر للنيل منا؟ وأصبح بعضها على بعد خمس خطوات أو ست منا، يشقّ طريقه



إلينا على نحو متلوّ. أطلقي النار! أطلقيها! وأطلقت أختي النار تكراراً لكنها اخطأت الهدف لشدة ذعرها. أما أمي فكانت تشعل معطف أختي ويداها ترتجفان فكادت أن تكسر عود الثقاب. وفي تلك اللحظة تناهت إلى مسامعنا صيحات رجال وعواء كلاب.

"أطلقي النار في الفضاء يا ابنتي. وحاذري أن تجرحي الرجال!"

كنا نرى ضوء المشاعل الكهربائية في الافق ونسمع في البعيد أصوات اطلاق نار. ورأينا نحو اثني عشر حصاناً وعشرين كلباً تعدو في اتجاهنا. ولشدة اهتياجها وارتياحها في آن، أطلقت أختي النار على ثلاثة ذئاب فأصابتها. أما الذئب الذي صرعته أمي فقد عضّ ساق فرسها قبل أن ينفق. وبدأت الذئاب تعدو مبتعدة.

وصرخت أختي وهي تمسح العرق عن وجهها: "لقد أحدقت بنا مجموعة هائلة من الذئاب يا أبي." فقال لها أبي: "أعرفت الآن يا ابنتي لمَ جعلتك تتمرنين على الرماية بهذه الجديّة؟"

ما إن دخلنا المزرعة حتى انهار حصاني وسقط أرضاً. وكان الدم ينزّ من فمه وجسمه يرتعش بشدة، فنفق مع الفجر. ولامست جلده الابيض كالثلج وأسفي عليه لا يوصف، وكسوت رأسه بالزهر الابيض. ولما طلع النهار ساعدني رجال المزرعة على دفنه في الغابة. ورحت كلّ يوم من أيام عطلتي أضع على قبره باقة من الازهار البرية.

## ليلة مقمرة

أزهرت أشجار الليلك صيفاً بعد صيف وودعت أوراق القيقب الحمراء المتساقطة خريفاً تلو آخر وسقطت الثلوج وتمازجت. ومرّت سبع سنوات ولم يعد "الشمال العظيم" برياً، بل انتصبت المصانع حيث كانت قرى الصيادين



وشقت الطرق ومدّت الخطوط الحديد عبر الغابات لتصل إلى المناجم والارصفة البحرية والمطارات.

وفي أحد أيام الربيع تلقيت وانا في هاربن رسالة عاجلة من أمي كتبت فيها: "يا ولدي! لقد عادت هالينا التي افتقدتها كثيراً. وهي اصبحت شابة جميلة. ونصب أهلها خيمهم على بعد ٢٢ كيلومتراً من مزرعتنا والبهجة تغمر قلوب الجميع."

وانتابني طوال فصل الربيع شعور بالسعادة والاضطراب. وأخيراً بدأت عطلة الصيف. فركبت قطاراً سريعاً الى الشمال. وفي المحطة كانت أختي وأمي في انتظاري.

وعندما خرجنا من المحطة أشارت أمي إلى فتاة تقف بخفر إلى جانب فرسها وقالت لي: "انظر من هناك. هل نسي واحدكما الآخر؟"

وعرفت للحال أن الصبية المغولية الجميلة إنما هي هالينا. لكنها لم تعد رفيقة اللعب التي عرفتها في طفولتي. فكأن أحدهم لوّح بعصا سحرية فغدت هالينا شخصاً آخر. لم أتعرف إلّا على الوشاح الأحمر المزدان بالخرز الذي ضفرت به شعرها. كانت ترتدي زياً مغولياً مطرزاً أزرق اللون وتضع حول عنقها صفين من اللؤلؤ وفي حزامها قراب مسدس. وكمّل ذلك الزي النموذجي لابنة عائلة بدوية سروال أسود مطرز وجزمة زرقاء. وابتسمت لي هالينا بخجل. فصرخت: "هالينا!"

وللحال اضمحل تحفظها فتقدمت مني. وكما في الماضي أمسكت بيدي والدموع

تفيض من عينيها. ثم تلمّست بذلتي المدرسية وأنعمت النظر إليّ.

ورحنا نجوب البرية على أحصنتنا لمدة يومين. وكانت هالينا تعرف أسماء الازهار البرية كلّها، فأخبرتني عن تلك التي يمكن استعمالها في صبغ صوف الغنم وتلك التي يصنع منها الشاي. وتحدثنا وضحكنا وكل منا يحاول أن يخبر الآخر كلّ ما حدث له منذ اللقاء الاخير.

ودعتني والدة هالينا لأمكث مع عائلتها بضعة أيام. وأتت هالينا في اليوم السادس بعد عودتي لتأخذني إلى أهلها. ولمّا دنونا من مخيمهم نادت أمها وخالتيها فهرعن الى استقبالنا. وأخذن قبعتي ولجام فرسي ورحن يحدقن إلي وكأنهن يتفحصن عملا فنياً. ثم دعونني الى دخول خيمتهن والجلوس على حرام من الفرو الابيض.

وتناولنا طعام العشاء على العشب في جو مرح جداً. وجلست هالينا الى جانبي تؤدي دور المترجم. ثم شرعت خالتها داير تنفخ في المزمار، فتصاعدت موسيقاه في الغابة وبدت لي في ضوء القمر بالغة الروعة.

## "لست سوى بدوية"

كانت تلك الليلة الاولى التي اقضيها في الغابة. فكنت وهالينا من الاضطراب والغبطة بحيث لم نستطع أن نأوي إلى فراشينا. فرحنا نتمشى على العشب والهواء عابق بشذا الازهار البرية. وكان ضباب خفيف يغلّف الغابة وشعاع القمر ينفذ إليها كالابر. وتناهت إلى مسامعي موسيقى من البعيد. فأعلمتني هالينا انها موسيقى الخالة نيبولون التي تحرس الاحصنة ليلا. ولم أكن أدرك من قبل مبلغ سحر الليلة المقمرة في الغابة.

خرجت من خيمتي صباح اليوم التالي فوجدت هالينا جاثمة عند ضفة البحيرة تتمرّى فيها وتمشّط شعرها الطويل. ولمّا انتهت وضعت صندوق زينتها بين اغصان شجرة. ان الحياة بالنسبة إلى البدو غاية في البساطة.

وركبت النساء أحصنتهن بعد الفطور وراحت الخالة نيبولون تعزف على عودها. فتبعتها الخراف ثم الخالة داير وهي تخيط جالسة على صهوة جوادها. أما والدة هالينا فكانت تعدّ خرزات سبحتها. وقطفت هالينا زهرة حمراء ودستها في شعرها ثم راحت تهمهم أغنية مغولية.

وبقيت وهالينا طوال الوقت لا نفترق أبداً. ومرّ شهر بسرعة وحان موعد مغادرتي البرية وعودتي إلى أضواء هاربن الباهرة. وعشية رحيلي أتت هالينا لتودعني. وفيما نحن نمشي في تلك الليلة المقمرة المفعمة بأريج الليلك أخبرتني أن لها أمنيات ثلاثاً: ألاّ ترتحل عائلتها وألاّ أغادر أنا البرية وألاّ نكبر أبداً. وأسرّت الي بما يقلق نفسها: "أخشى ألاّ أكون جديرة بك. فأنا لست سوى بدوية من البراري. ولو كبرنا لواجهتنا المشاكل." وبدأت تنتحب.

فقلت لها: "ارجوك يا هالينا لا تتفوهي بمثل هذه الكلمات. لقد كبرنا معاً فكيف لي أن أنسى ماذا يعني واحدنا للآخر؟ لا تبكي يا عزيزتي."

وفي صباح اليوم التالي ودعتُ عائلتي. ورافقني عمي ورجلان من المزرعة حتى

مدينة هايهي. وبعدما اجتزنا بضعة كيلومترات رأينا ثلاثة أشخاص مقبلين نحونا على احصنتهم. وتبيّن لنا أنهم هالينا وخالتاها. كانت هالينا تمسك منديلا زهري اللون والخالة داير تنفخ في مزمارها والخالة نيبولون تحمل اناء شراب من الفضة. وترجلت هالينا وسحبت من ثنيات منديلها قدحاً من الفضة. فسكبت فيه الخالة نيبولون الشراب وقدمته هالينا إلي والدموع في عينيها.

ثم همست بصوت منفعل: "سيمرّ عام قبل أن نلتقي."

وحذرتني الخالة نيبولون: "لا تنسَ هالينا بعد عودتك الى المدينة الكبيرة."

فقلت: "لا تقلقي يا هالينا، واعتني بنفسك."

وخشيت الخالتان أن يغمر الحزن هالينا فادارتا حصانيهما وانطلقتا.

ومضت السنة بسرعة واقتربت عطلة الصيف من جديد. فعزمت ابنة عمي وصديقاتها على قضاء العطلة في مزرعتنا. وهكذا، حين بدأت العطلة، ركبتُ القطار برفقة خمس فتيات ومجموعة هائلة من الحقائب وآلات التصوير ومعدّات الرسم وآلات الفونوغراف والاسطوانات والكتب والغيتارات. كانت أمي وشقيقتي وهالينا في انتظارنا. وما ان نزلت من القطار حتى هرولت هالينا إليّ وأمسكت بيدي كما في السابق. فبدت لي ناحلة أكثر من ذي قبل، لكن جمالها قد زاد. وساعدتُ الفتيات على امتطاء جيادهن، ثم ركبت أنا وهالينا فرسينا ورحنا نسير خلفهن متلكئين.

وسألتني هالينا: "هل فتيات هاربن كلّهن بمثل هذا الجمال؟"

وشرحت لها الامر: "إنهن صديقات ابنة عمي، وأنا لا أعرف أياً منهن."

عند الظهر توقفنا لتناول طعام الغداء. وكانت هالينا شديدة الارتباك فلم تقل الكثير ولم تأكل الكثير. ولكن كلما التقت نظراتنا نجحتْ في رسم ابتسامة على ثغرها.

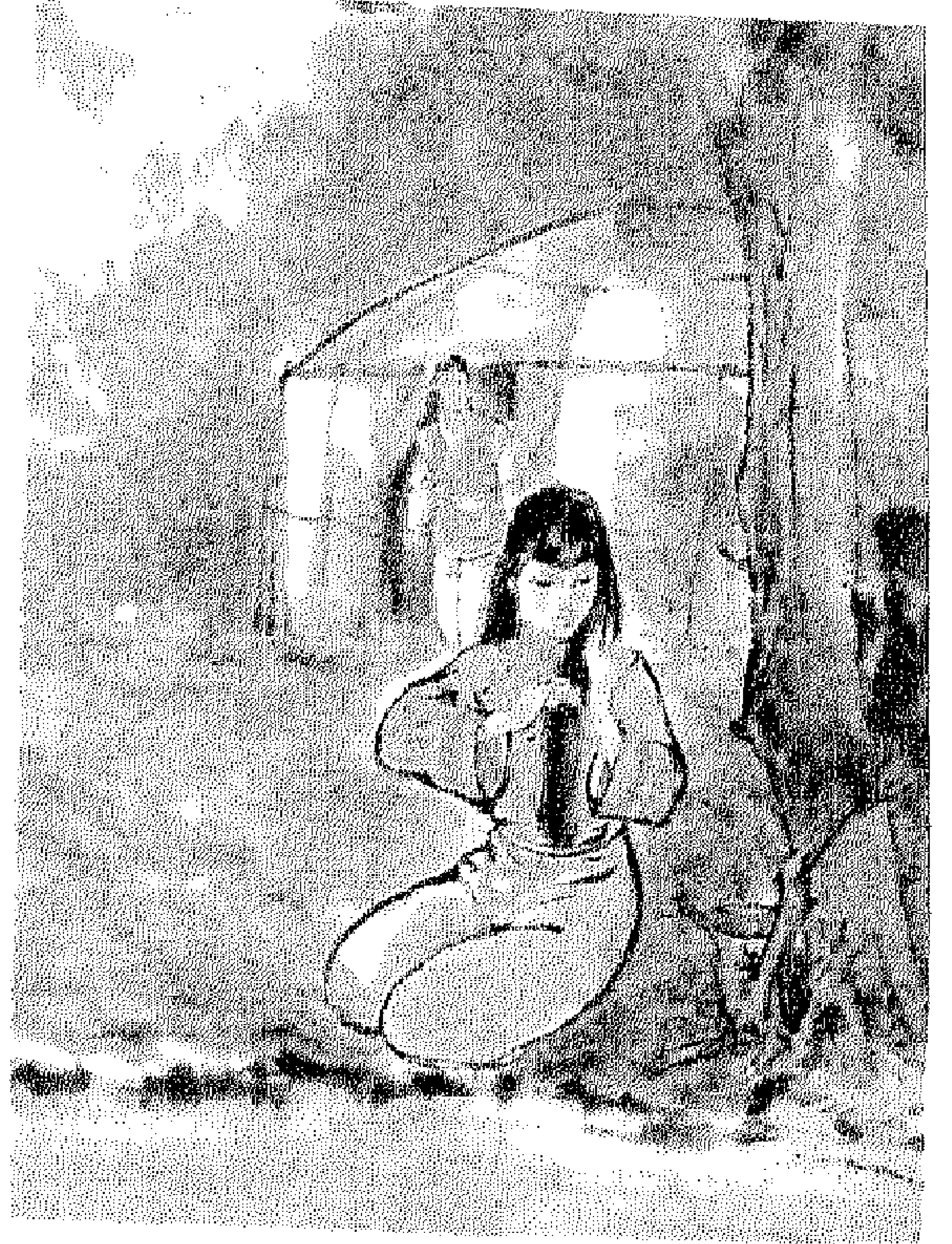
## دموع الغيرة

أضفت الفتيات على المزرعة جواً من البهجة والمرح. فكنّ يعزفن على غيتاراتهن تحت أشجار الليلك ويرقصن على العشب ويغنين ويتحدثن ويضحكن ويلتقطن الفراشات في الغابة ويرسمن. ولمّا كان رجال المزرعة منهمكين في أعمالهم فقد وقعت على عاتقي مهمة مرافقتهن وحمايتهن عندما يخرجن. وهكذا، كثيراً ما كانت هالينا تأتي فأكونْ أنا غائباً عن المزرعة.

لكني في احيان أخرى كنت أسألها الانضمام إلى المجموعة والاستماع إلى الاسطوانات. وذات مرة حاولت أن ألقنها أصول الرقص، لكن حياءها منعها من تحريك قدميها. وأخبرت الفتيات عن الأيام الجميلة التي أمضيتها وهالينا عندما كنّا طفلين.

وقالت ابنة عمي بشيء من السخرية: "ستكون زوجة ابن عمي العتيدة ابنة بدوي من المغول." فضحك الجميع وبدا الارتباك على هالينا.

كنت أعرف أن هالينا هادئة الطباع. فهي مختلفة تماماً عن أولئك الفتيات



الملبئات بالحيوية والمرح. ولمّا رافقتها عند الغسق أخذتها بين ذراعي وقلت لها: "لا تعذبي نفسك. علينا أن نثق أحدنا بالآخر، فالكثير من السعادة ينتظرنا."

وذات عصر تحلقنا أنا والفتيات حول موقد وراحت احداهن تداعب أوتار غيتارها وأنا أرقص مع فتاة أخرى. وفجأة رأينا هالينا على حصانها الابيض تقف على بعد مئة خطوة وتحدّق الينا مذهولة.

وناديناها: "هالينا!" لكنها استدارت وانطلقت مبتعدة. فهي لم تدرك أن تصرفنا كان اجتماعياً لا غير. وأسفت الفتيات لما حدث. وفي اليوم التالي ذهبنا الى الغابة نبحث عنها لنشرح لها الامر، لكننا لم نعثر عليها. فنحن لم نعرف الى أين أخذت العائلة حيواناتها لترعى.

وغابت هالينا عن المزرعة أياماً. وذات يوم رأيتها مقبلة نحونا. فامتطيت جواداً وذهبت للقائها. ولكن ما ان رأتني حتى أدارت حصانها وابتعدت. وهكذا كانت كل يوم تأتي لتلقي نظرة على ما يحدث في المزرعة ثم تبتعد من جديد.

وذات يوم عند العصر أخذت أسرع جياد والدي واختبأت في الغابة أنتظرها. وما ان مرّت بالقرب مني حتى انتزعت اللجام من يدها وأنزلتها عن حصانها.

ثم قلت لها: "أصغي إلي، هل جننت؟" ولم تكن لكلامي فائدة. فعلى رغم شرحي وتبريري ما وسعها الاّ أن تبكي.

فرحت أهدئها ثم ساعدتها على ترتيب شعرها الذي ذرته الريح وعلى مسح الدموع عن وجهها. ولم تنبس هالينا بكلمة. ولم نفترق الاّ عندما طلعت أولى نجوم المساء.

## ثلاث فارسات

عندما عدت الى المزرعة كانت الساعة تقارب منتصف الليل. فقررت ألا أسيء الى هالينا بعد اليوم. وفي الصباح أخبرت أمي أني سأبتعد عن الفتيات، وعلى عمي أن يرافقهن من الآن وصاعداً. أما أنا فسأتذرع بحجة أخذ الخيل الى المرعى. وغادرت المزرعة قبل أن يستيقظن.

كنت غاية في القلق أمام ما يحدث لهالينا. فأنا في الثامنة عشرة من عمري ولا أدري كيف أعالج ظرفاً كهذا. وفيما أنا مستلق على العشب أفكر في الأمر ملياً، سمعت صوت حوافر فرس يعدو مسرعاً. وما لبثت أن رأيت الخالة نيبولون تبتسم لي بودّ. بدت وكأن لديها الكثير



لتقوله لي، لكنها لم تكن تجيد الصينية فلم تفضِ بما في سرّها الاّ عندما أتى سولان العجوز ليترجم لي. قالت انها كانت تبحث عن مهر ضال عندما رأتني آخذاً خيلنا. وأضافت انها والخالة داير راغبتان في زيارتنا، فهما لم تتحدثا طوال السنة الاّ عني، لكنهما لم تأتيا لاننا نستضيف زواراً مهمين وهما تخشيان أن يسخروا منهما. وختمت: "عليك أن تكون صريحاً معي. ما هي علاقتك بالفتيات؟"

وشرحت لها الامر بأفضل ما استطعت.

"آه، إن هالينا لفتاة عنيدة جداً. عندما رأتك تستحم في النهر مع الفتيات أذهلها المشهد. كنّ يرتدين ثياب سباحة وأنت كنت معهن تتشمس. فبكت هالينا مريراً. كما انها رأتك تراقص فتاة."

وودعتني الخالة نيبولون بالعبارات الآتية: "أعرف انك لست متقلب المزاج، لكن هالينا لن تتزوج سواك." وفي ما بعد، بينما كنت أتناول الغداء مع رجال المزرعة، ظهرت الخالة داير وصرخت لي: "أنت لم تنسني، أليس كذلك؟"

كانت تعلّمت اللغة الصينية، فاقتربت مني وأمارات الود على محياها وسكبت لي اللبن في وعاء صغير من النحاس وقالت: "إذا كان نهار الغد مشرقاً، انتظرنا هنا بأحصنتك، فسأحاول مع الخالة نيبولون اقناع هالينا بلقائك."

ولمّا كان الصباح التالي مشرقاً ارتديت بذلتي المدرسية البيضاء ووقفت على العشب أنتظر هالينا. وقرابة الساعة التاسعة رأيت في الافق سحابة من الخراف البيض يتبعها ثلاثة أشخاص على أحصنتهم.

كانت هالينا ترتدي لباس فارسة أرجوانياً والخالة داير تنفخ في المزمار والخالة نيبولون تبتسم لي بسعادة. وسارعتُ الى هالينا فغمزت لي الخالتان بعينيهما واختفتا.

## الغابة الصامتة

ساعدت هالينا على الترجّل. ولاحظت أن شعرها لم يعد مضفوراً بل مشدود الى الوراء بوشاح من الحرير الأحمر وأنها كانت تعلّق في أذنيها قرطين من الفضة. لم أرها بمثل هذا الجمال من قبل. وعلى رغم كآبتها كانت الرقة تنبعث منها والتأثر يشعّ من عينيها. فأخذتها بين ذراعي وضممتها إلي. فتنهدت عميقاً

وانهالت الدموع من عينيها مرة أخرى.

ثم جلسنا على العشب. وكانت تبكي ورأسها على كتفي وكأنها تحاول بدموعها أن تسرّ الي بكل شكاويها. فحضنتها وكأنني أمنع زوال حلم. فان لم تكن الحياة سوى حلم فليتوقف الزمن فلا يتغيّر شيء.

وفجأة سمعت حوافر حصان. ورأينا سولان العجوز يجتاز المرعى. وما هي الاّ هنيهة حتى بانت الفتيات اللعينات. كنّ يبحثن عني. أما أنا فكنت في منتهى الغيظ حتى اني تمنيت لو تظهر مجموعة من الذئاب وتلتهمهن جميعهن.

وحاول العجوز سولان أن يحول دون اقترابهن، لكنهن لم يبتعدن. وربما لم يرين هالينا وأنا أحتضنها. فرحن يناديني ويلوحن لي، فانفجرت هالينا بالبكاء من جديد. وفي النهاية انفصلت عني وركضت إلى حصانها فامتطته وابتعدت.

وفي اليوم التالي أخبرتني الخالة نيبولون أن هالينا مريضة. فعمّ القلق نفوس الجميع، وصرّحت لي الفتيات أنهن لم يرينها عندما أتين يبحثن عني. وبعد الغداء نصحتني أمي بالذهاب مع شقيقتي لزيارتها. فتبعتنا الفتيات. وحدها والدة هالينا استقبلتنا، فأعلمتنا أن هالينا متوعكة وأنها لا تستطيع مقابلتنا.

وبعد خمسة أيام ذهبنا لزيارتها ثانية. ولكن حينما وصلنا الى البحيرة الصغيرة في الغابة لم نرَ أي خيمة وقد اختفت الحيوانات كلّها. وعلى الشجرة التي كانت هالينا تخبىء فيها صندوق زينتها ربطت منديلها الزهري. وفي طياته عثرت على خصلة شعر أسود برّاق. تلك كانت طريقتها في توديعي. فبدت لي الغابة عندذاك ساكنة كالموت.

لم يتحقق أي من أمنيات هالينا الثلاث. اذ لم أرها بعد ذاك. وسرعان ما عدت الى هاربن. أما فترة صباي في البرية فقد أصبحت من الماضي. وبعد مدة قصيرة دخلت الجامعة.

**ماي تشي – مين** ■

## الشعر والقصيدة

الشعر في قصيدة هو ما يجعلك تضحك وتبكي وتتلوّى وتتألق وتخبو وتشعر بوخز وتلزم الصمت وتعرف أنك وحدك ولست وحدك في هذا العالم المجهول.

دیلان توماس، شاعر بريطاني

## هاتف القلوب

قالت الفتاة: "لا تتصل بي الليلة، فقد اتصلت بي أربع مرات ليلة أمس."

فردَّ الشاب: "حسناً، ولكن تذكري: عندما لا يرن جرس الهاتف عندك أكون أنا على الخط."

ب.م.

خاص - ٤

# هدية والد



# هدية والد



**ماذا تسمّي المرض عندما يضربك وأنت في السن الثامنة عشرة؟ أتسمّيه ظلماً أم قدراً؟ جان - مارك جايني تلقّى ضربة ضعضعته، لكنه انطلق في حرب لا هوادة فيها لاسترداد صحته. ولأن المرض أعطب كليتيه فهو كان في حاجة الى كلية جديدة تمنحه الحياة. تلك كانت هدية والده**

"استيقظ! استيقظ!"

تناهت الكلمات الى سمعي عبر ضباب كثيف. أردت أن اتكلّم لكن الكلمات لم تخرج من فمي. أين أنا؟ سمعت همهمات وصراخاً ورأيت أشكالا بشرية ترفرف حولي. وأخيراً أمكنني ان أميّز بعض الاصوات المألوفة وان تكن مشوّشة.

"هل تسمع؟ إنها تعمل. لقد بدأت الكلية تؤدي وظيفتها للحال."

وشعرت أني أطفو الى السطح. وأحسست ثقلا في رأسي. أردت ان أتحرّك لكن جسدي تمرّد علي. وأخذت الاشكال حولي تتجسّد. خلت نفسي في حلم، إلا ان الالم الذي اخترق احشائي سرعان ما أعادني الى الواقع. حاولت أن أنظر الى مصدر الألم، فطالعتني ضمادات كثيفة برز منها أنبوبان وصل كل منهما بزجاجة.

بدأت أخرج تدريجاً من سباتي العميق، واستيقظت مراكز الالم، كل بدوره. أدركت أخيراً أن كليتيَّ التالفتين أبدلتا بكلية أخرى صالحة. لكنها ليست مجرّد "أخرى"، بل هي كلية والدي.

Condensed from «A Transplant for the Right to Live,» © 1981 by Jean-Marc Jahény and published by La Pensée Universelle, Paris. Illustration: Jeff Cornell

والدي؟ أين هو؟ حاولت أن أناديه، ولا بدّ من ان بضع كلمات خرجت من فمي لان احدى الممرضات جاءت اليّ وقالت: "والدك بخير وكل شيء سار على ما يرام."

فجأة اختلطت الامور في ذهني ثانية. أمور كثيرة حصلت وبسرعة كبيرة تجاوزت مقدرة عقلي على تسجيلها، خصوصاً بعد تلك السنوات الخمس الاخيرة الملأى بالشك والكوابيس.

## بداية المحنة

كان ذلك في يوليو (حزيران) ١٩٦٦ وأنا على وشك إنهاء تدرّبي كاختصاصي بالادوات الكهربائية المنزلية. علمت ان مصنعاً لقولبة البلاستيك في لومان (فرنسا) بالقرب من منزلي كان في حاجة الى مستخدمين.

وقدمت طلبا وجاءني الجواب وفيه موعدان، أحدهما لاجراء مقابلة والثاني لفحص طبّي. أمر مضحك، لكنني شعرت بالخوف. كنت في صحّة جيدة لولا انتفاخ حول كاحليّ لاحظته منذ شهر.

"إخلع ثيابك،" جاءتني التعليمات في المستوصف وامتثلت ببطء وشعرت بألم في رأسي. ومن الغريب أن هذا الألم كان يعاودني في المدة الاخيرة وفي البقعة نفسها من مؤخر العنق.

"سوف أقيس ضغط دمك،" قال الطبيب وهو يلفّ الشريط حول ذراعي ويضغط المنفخ. وشعرت بانتفاخ الشريط وبنبض الدم في شراييني. وبدا الطبيب متعجباً وقال لي وهو يخرج: "استرخِ وسوف أعود بعد خمس دقائق."

مرّت الدقائق الخمس كأنها ساعات. وأخيراً عاد الطبيب وقاس ضغطي مجدداً. وأخبرتني ملامحه أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام.

"أنت في الثامنة عشرة من عمرك؟"

– نعم.

"حسناً، انما ضغطك الدموي هو ١٨ على ١٢ والضغط الطبيعي ١٣ على ٧. دعنا نفحص عينة من بولك."

وخرج الطبيب ومعه العينة ثم عاد بعد عشر دقائق وكان وجهه خالياً من أي تعبير.

وبادرني: "يجب أن تراجع طبيبك للحال. ربما الامر ليس خطيراً، لكنه يحتاج الى علاج سريع."

بعد ظهر ذلك اليوم قصدت طبيب العائلة وسلمته رسالة من طبيب المصنع. ورحت أراقب وجهه وهو يقرأها. لم تختلج فيه أي عضلة. فحصني بالسماعة من دون أن ينبس بكلمة ثم جسّ كاحليّ.

"هل مضى على هذا الانتفاخ وقت طويل؟"

– شهر أو ربما شهران.

بعد ذلك فعل ما فعله طبيب المصنع قبله: قاس ضغط الدم وأجرى تحليلا للبول وحصل على النتائج ذاتها. بدا قلقاً، وتضاعف خوفي.

– الامر ليس خطيراً، اليس كذلك يا دكتور؟

تردد برهة ونظر الي بانعام قبل أن يجيبني: "ربّما لا، ولكن يجب أن تدخل المستشفى."

وقعت كلمة "مستشفى" علي وقع المقصلة. فقلت باحتجاج: "انا لا أفهم."

"انك قطعاً في حاجة الى معالجة، لكنها لن تستغرق وقتاً طويلا. ليس اكثر من ثمانية أيام أو عشرة. من المحتمل أنك مصاب بالتهاب الكليتين."

– وماذا يعني ذلك؟

"انها جرثومة في الكليتين. ويمكن القضاء عليها من دون أي مشكل إذا ما اكتُشفت باكراً. لكننا نحتاج الى فحوص اكثر شمولا. لهذا السبب أود أن تدخل المستشفى."

## سيطرة المرض

مكثت في المستشفى الاول ما مجموعه ثلاثة أشهر. وكانت الايام تنساب ببطء مريع. ولجأت الى القراءة بضع ساعات في اليوم، اما بقية الوقت فكنت امضيها في انتظار نتائج الفحوص اليومية. ونشأ بيني وبين مرضي نوع من الاتصال وشعرت به يستوطن داخلي ويستولي عليّ مع أني حاربته بكل قواي.

وظلّت حالتي على ما هي. وفي شهر سبتمبر (أيلول) تركت المستشفى بناء على رغبتي لانني كنت في حاجة الى تغيير الجو. وسمح لي الاطباء بالذهاب بشرط أن أتناول جرعات منتظمة من مضادات الحيوية (انتيبيوتيك) التي سببّت لي حالا من الغثيان. وزاد الامر سوءاً انه تعين عليّ أن أتبع نظام حمية خاصاً يقضي بعدم تناول الملح في الطعام. ووجدت صعوبة في التقيّد بهذا النظام.

وفي شهر أكتوبر (تشرين الأول) أُجريت لي فحوص جديدة إثر ظهور دم في البول، وأُبلغت أن حالي غير قابلة للشفاء.

وقال الطبيب لوالديّ: "ليس في وسعنا ان نفعل المزيد." وشرح لهما أن مرضي مزمن.وأن كليتيّ على وشك الانهيار. كنت مصاباً بالتهاب حادّ في الكليتين(١) وهو مرض خطير وغير قابل للشفاء.

لم أستطع تصديق ذلك، بل لم أرد أن أصدّقه. وعندما عدت الى البيت عزمت على التفتيش عن عمل وان أضرّ ذلك بصحتي. كنت راغباً في الحياة حتى لفترة وجيزة. فأنا لم اكن تجاوزت الثامنة عشرة من عمري.

وجدت عملا في مصنع للادوات الالكترونية. ولم أبخل على عملي بأي جهد، لكنني كنت أتعب بسرعة. ولم أود أن يرثي أحد لحالي، ولكن كان من الصعب اخفاء حقيقة وضعي. كنت أتقيأ باستمرار، ولم يكن الصداع يفارقني.

أما في البيت فقد تغيّر تصرّفي كثيراً. وبت اسمع شقيقاتي يشتكين: "انه ضيّق الخلق ونكد المزاج دائماً." وكنت أعلم ذلك. وحاولت جهدي أن أضبط نفسي لكنني لم أقوَ على ذلك. في هذه الاثناء لم يستسلم والداي للأمر ولم يسلّما بتقديرات المستشفى لفرص شفائي، وعادا الى استشارة طبيب العائلة الذي حوّلهما على اختصاصي اسمه الدكتور لوران(٢) يعمل في مستشفى فوش في سورين. وحُدد لي موعد في الثالث من يناير (كانون الثاني) ١٩٦٧.

ذهبت الى الطبيب برفقة والدي، وهو موظف في السكك الحديد الوطنية بفرنسا. وفي الثاني من يناير (كانون

(١) Subacute nephritis

(٢) أسماء الاطباء مستعارة.

الثاني) غادرنا لومان الى باريس حيث مكثنا عند أحد أعمامي. وكان والدي مرحاً، أما أنا فشعرت بتقلص في معدتي.

وللوصول الى سورين تعين علينا أن نركب القطار العادي ثم المترو. ولاح لنا المستشفى الى اليسار كتلة من الاسمنت الاصفر منتصبة تحت سماء زرقاء باردة. وجاء دوري بعد انتظار نصف ساعة فاستُدعيت الى غرفة الفحص ودخل والدي في اثري.

وجدنا في انتظارنا رجلا ابيض الشعر تلفّه هالة من الرقّة. بدا أبوياً وواثقاً من نفسه، وبادرني: "اخبرني والدك بحالك، ولقد قرأت الملفّ. استلقِ هناك."

أمضى وقتاً طويلا يجس كاحليّ المنتفختين ثم قال: "الامر خطير وعليّ أن أدخلك المستشفى."

## حطام انسان

لم أجزع هذه المرة لدى سماعي كلمة مستشفى، لا بل شعرت بالارتياح لوجودي بين يدين أمينتين لطبيب يبعث الاطمئنان في النفس. وأقنعت نفسي بأن كل شيء سيمرّ بسلام.

كانت لغرفتي شرفة، ومن النافذة المطلّة على المدينة رأيت باريس كلها. كان مسموحاً لي بالتجوّل في أروقة المستشفى، وهكذا تعرّفت الى عدد من جيراني. وأمضيت معظم وقتي في القراءة، وسرعان ما انتهت إقامتي هناك.

أعلن الدكتور لوران: "لقد انتهينا يا بُنيّ وعملنا كل ما علينا. ستتناول البريدنيزون وهو دواء يستدعي مراقبة شديدة. وله أحياناً بعض التأثيرات الجانبية لكنها ليست فائقة السوء. عُد الينا بعد شهرين من أجل فحص عام."

وانقضى شهران ولا أسوأ.

التأثيرات الجانبية فاقت كل تصوراتي. كانت مريعة، بل ساحقة. انتفخ وجهي وتبدلت سحنتي يوماً بعد يوم. أصبحت عبارة عن رأس ضخم جاثم فوق جسد ناحل. وأرعبتني صورتي في المرآة، والادهى من ذلك كله أنني لم أشعر بأي تحسّن.

أسرعت في العودة الى المستشفى حيث بقيت ثلاثة أشهر. وحاول الاطباء طمأنتي زاعمين انها مجرّد مرحلة موقتة، ورددوا علي: "وجهك الجميل هذا سيعود كما كان."

وتساءلت: ما الذي حصل لوجهي؟ أصبحت حطام انسان. ومرت الايام والليالي وأنا مستلق في سريري أو جالس في كنبة. وحين استغرق في النوم بعد محاولات يائسة كنت أرى كوابيس فيها مسوخ ذوات رؤوس ضخمة.

كنا في شهر يوليو (تموز) وقد مضت سنة على مرضي. وأثارت كآبتي قلق الدكتور لوران فارتأى وقف البريدنيزون واقترح عليّ أن أمضي شهراً في مصح في هوت غارون فوافقت فرحاً.

غادرت المدينة في قطار باريس - تولوز السريع. كان وجهي ما زال منتفخاً غير ان الورم بدأ يخف، خصوصاً حول العنق، وهذا ما جعلني أشعر بتحسن ضئيل.

وصلت الى مصح قصر فيرن الذي يبعد ٤٠ كيلومتراً عن تولوز. إقامتي فيه

افادتني كثيراً، والنزهات في حدائقه الرائعة ولعب البولينغ على أرضه المكسوة بالعشب اشاعت في نفسي شعوراً بالعطلة. واستعاد وجهي شكله الطبيعي وارتفعت معنوياتي. وفي نهاية الشهر حضر والدي لاصطحابي الى باريس كي أخضع لبعض الفحوص.

## استراحة قصيرة

رأيت مقدم الحافلة القديم وهي تقترب لاهثة. وسمعت صريف الكوابح ولاحظت الغبار الذي أطارته العجلات. وانفتح الباب وخرج منه ثلاثة ركاب تعلّق بصري كلياً بأحدهم، وكان والدي.

شعرت أني أراه بعينين جديدتين. نظرت الى الوجه الذي أحببت والى العينين اللعوبتين العابثتين في الرأس الذي اعتراه الصلع. وبقفزة واحدة كنت بين ذراعيه. وانسابت الدموع على خديّ وشعرت بدموع والدي أيضاً.

تناولنا الغداء معاً. ومع أن طعامي كان خالياً من الملح إلا أنني اقبلت عليه بشهية افتقدتها منذ زمن. وتبادلنا الحديث بشوق وحماسة، خصوصاً حول أخبار العائلة.

ذاك المساء توجهنا الى تولوز حيث اضطررنا الى الانتظار ساعتين قبل وصول قطار باريس وسألني أبي: "اذا كنت لا تشعر بتعب شديد، فلماذا لا نذهب في جولة في المدينة؟"

ووافقت بفرح. ومشينا. لم أشعر بكاحليّ ينتفخان. كنت في أحسن حال.

وصل القطار وانطلقنا في طريقنا الى باريس، الى مستشفى فوش. كانت مقصورتنا خالية ممّا أتاح لي فرصة للتمدد. ورحت أسترجع في ذاكرتي أحداث النهار دقيقة دقيقة. كان ذلك أجمل يوم قضيته منذ مرضي، وما زالت عيناي تغرورقان بالدمع كلما تذكرت عناقي الحار لوالدي.

أمضيت ثلاثة ايام في المستشفى وجاءت النتائج مرضية. شهر آخر من الراحة أعود بعده الى العمل، هكذا قال لي الدكتور لوران.

وهذا بالضبط ما فعلته. وفي شهر أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٧ عدت الى عملي. وكانت صحتي تصعب علي العمل، لكنني أصررت على المداومة تسع ساعات في اليوم. كنت طموحاً أعمل حتى في العطل الاسبوعية، على ان الشعور بالارهاق عاودني من دون رحمة، وعاد اليّ التقيؤ بمعدل مرة كل يومين مصحوباً بصداع رهيب.

مرّت سنة على هذا المنوال خضعت خلالها لفحوص عامة كل ثلاثة أشهر. ومع نهاية السنة أرجعني الطبيب الى نظام حمية أكثر صرامة. حتى والداي لاحظا أن المرض تمكّن مني. وعلى رغم ان العمل أصبح عبئاً ثقيلا عليّ فانني لم أعطّل وأصبحت على وشك الانهيار التام.

يناير (كانون الثاني) ١٩٦٩.

ذات صباح بارد شعرت بارهاق شديد وبألم رهيب يطرق داخل رأسي. لكني نهضت وتهيأت للذهاب الى العمل. وضجت أصوات في رأسي وشعرت بغثيان وبسخونة في رأسي وبجليد في بقية أعضائي. يجب أن أفتح النافذة... يجب ان اذهب الى العمل... ولفّني فراغ مطلق.

عدت الى وعيي في مستشفى ألفته جيداً. وجاء الدكتور لوران يعودني وجلس على حافة السرير وأخذ يدي بين يديه ونظر في عيني وسألني: "هل تعرف ما هو الزرع؟"

– سمعت به. ولقد التقيت عدداً من المرضى الذين أُجريت لهم هذه الجراحة هنا.

"وكيف وجدتهم؟"

– في حال جيدة. ما الذي تبغي قوله يا دكتور؟

"لقد توقفت كليتاك عن العمل، او انهما على وشك التوقف. علينا أن نفكّر بجراحة زرع."

ومع أنه تكلّم برقّة إلا ان كلماته أحدثت دوياً داخل رأسي ولم افقه لها معنى، لا بل رفضت أن أفهم، ولم استطع لملمة تفكيري فبكيت.

## المرحلة ما قبل الاخيرة

لا بدّ من أنني بكيت الى أن غلبني النوم. وكان رأسي ما زال يؤلمني عندما استيقظت. أردت ان أنادي الممرضة لكني تريثت قليلا. ان ثقتي كبيرة بكرم الاطباء الذين تولوا معالجتي وبانسانيتهم كذلك. انهم لن يدعوني أموت وعملهم لن يكون سهلا ما لم أساعدهم.

في الاسابيع التي تلت أُخضع والداي لفحوص شتى وأجريت لهما تحاليل بول ودم وأدركت أنهما صمّما على التبرّع لي بكلية. وأبى عقلي تقبُّل الفكرة مع ان جسدي تاق اليها. ومعرفتي الوطيدة بوالديّ اكدت لي أن شيئاً لن يثنيهما عن عزمهما، وان عملهما ذاك كان بالنسبة اليهما محتوماً ومنطقياً. فهما منحاني الحياة مرة، ومن الطبيعي جداً في نظرهما أن يمنحاني إياها مرة ثانية.

أنا لم يكن لدي ما أخسره، لكن هذا القول لا ينطبق على والديّ. أردت أن أتأكد من عدم تعرضهما لأي خطر أو سوء، طبّياً أو جراحياً. وبعد معاناة طويلة أجبرت نفسي على مناقشة الامر مع الدكتور لوران. كان جوابه قاطعاً وصريحاً: "والداك ليسا في خطر البتّة. والاثر الوحيد الذي ستتركه الجراحة ندبة بسيطة. يجب أن توافق على إجراء الجراحة."

كان الطبيب في منتهى الحزم بالنسبة الى نقطة أخرى. قال لي: "قبل أن نقرّر إجراء الزرع وقبل أن نختار متبرعاً، يجب أن نرسلك الى مصحّ مجهّز بكلية اصطناعية تعالج بواسطتها. فمن الضروري جداً تطهير كليتيك وجعلهما تعاودان وظيفتهما الطبيعية موقتاً."

ونقلتني سيارة اسعاف الى العيادة وبدت غرفتي الزرقاء هادئة ومريحة تحت أشعة الشمس التي دخلتها من النافذة. وجاء رجل في الاربعينات وقدّم نفسه: "انا الطبيب المناوب. بعد الظهر سنجري لك ديلزة صفاقية(٣). لا تقلق، انها مسألة بسيطة."

"لا تقلق!" عبارة بسيطة، لكن عقلي المضطرب وجد فيها خداعاً وتضليلا. ومع أني لا أجزع بسهولة إلا انها جعلتني أتوجّس شراً. ثم استمعت الى شرح عملية

(٣) Peritoneal dialysis. والصفاق هو الغشاء المصلي الشفاف المبطن للتجويف البطني.

الديلزة الصفاقية: انها إجراء لنزع السمــوم من الــدم، تنــوب الكليــة الاصطنــاعيــة أثنــاءه عن الكليتين الطبيعيتين للتخلّص من مادة البولة (urea). والاسلوب المتّبع هو بسيط فعلاً، والعمليّة تتطلّب ادخال محلول ملحي خاص الى البطن بواسطة إبرة، فيتولى هذا المحلول امتصاص البولة الفائضة من التجويف الصفاقي قبل ان يسحب خارج الجسم بابرة ثانية حاملا الفضلات.

ربما هو فعلا أسلوب بسيط، إلا انني كنت مُحقاً في التخوف منه. ففي كل عملية تصريف كنت أشعر بألم رهيب يعصر صدري. وطال ليلي. وشعرت بعطش شديد لكن الشرب كان محظوراً عليّ. وتُقت الى النوم لكنه جفاني.

انتهت العملية عند منتصف الليل وأُنزل الجهاز. "تهانينا! " قال الطبيب، واضاف: "لقد انخفضت نسبة الحمض البولي على نحو ملحوظ، والآن يمكننا ان نثبّت تحويلة (shunt) من اجل اجراء جلستي ديلزة كل أسبوع."

## رحلات مكوكية

للتحويلة التي تمّ زرعها في ساعة متقدمة من بعد ظهر اليوم التالي تحت مخدّر موضعي مبدأ بسيط: تدخل أنابيب بين شريان ووريد في أسفل الذراع وتوصل عبر خرطوم خارجي بالكلية الاصطناعية التي تنقّي الدم.

بعد ذلك يغطى الجهاز كله بالشاش المطهّر الجاف الذي يمكن نزعه بسهولة من أجل مراقبة الخرطوم. والمراقبة مهمّة جداً لانها تساعد في تجنب ثلاث مضاعفات محتملة: الورم الدموي والنزف والجلطة.

ولم أكن أخشى الورم الدموي والنزف لانهما لا يحصلان الا اثناء الديلزة، وهي عملية تستدعي مراقبة طبّية مكثفة. أما الجلطة فيمكن أن تتكون في أي وقت بسبّب الدم المتخثّر انسداداً في الانابيب. لذا كان عليّ ان أجري فحصاً ذاتياً ثلاث مرات في اليوم لاكتشاف أي تخثّر يمكن أن يؤدي الى انسداد وبالتالي الى جلطة.

لون الخرطوم، في حاله الطبيعية، أحمر صاف خال من أي رقشة سوداء أو مصل مصفر، وملمسه دافىء وهذا يعني أن الدم يجري فيه كما يجب. وكانت التعليمات تقضي بأن أستدعي الطبيب عند أقل ارتياب.

هذه التدابير أخرجتني من دائرة الخطر. حتى نظام الحمية عن الطعام أصبح أقل صرامة. وأحسن ما في الامر أنه بات في وسعي أن أقضي في البيت الوقت الفاصل بين ديلزة وأخرى.

مضى على هذه الحال شهران وعلى مرضي نحو ثلاث سنوات. وأصبحت الديلزة محفوفة بالمشاكل وتضاءلت طاقتي على تحملها. وتكرر انسداد التحويلة بين جلسة وأُخرى مما استدعى انتقالي الى باريس من أجل ازالة التخثر منها. وأرهقتني تلك الرحلات المكوكية.

آخر يونيو (حزيران) ١٩٦٩.

كان الطقس حاراً. وأثناء وجودي في العيادة لتلقي العلاج قال لي الطبيب: "كلّمني الدكتور لوران. ابتداء من الغد

سنجري لك سلسلة من الفحوص والتحاليل هي الاجراءات الاولية التي تسبق الزرع."

دخل والدي المستشفى في الاسبوع التالي ومكث أربعة أيام أجريت له فيها بعض الفحوص. اذاً هو من سيتبرع لي بكليته.

وثرت على الفكرة مجدداً. وللمرّة الثانية أقنعني الدكتور لوران بحججه.

كان الطقس رائعاً في ١٤ يوليو (تموز)، وهو عيد اقتحام سجن الباستيل. ومن سطيحة المستشفى ذلك المساء شاهدت الالعاب النارية فوق باريس: أنواراً متفجّرة تتلألأ في السماء السوداء وتضيء زوايا المدينة. كان الهواء رقيقاً ورطباً وكأنه ينبئ بعاصفة.

وفي اليوم التالي التقيت الدكتور كوستر بوجهه المتألق بالحيوية والنشاط وشعره الاشقر الذي وخطه الشيب. فخاطبني: "سأجري لك الجراحة غداً، وكل شيء سيكون على ما يرام. سترى."

بعد ذلك جاء اختصاصي التخدير وأجرى لي فحصاً بالسماعة وردد بعض كلمات التشجيع ثم انصرف. حاولت ان استغرق في القراءة لكنني لم أستطع التركيز. فتوجهت الى الغرفة ٦٢١ حيث أنزل والدي وتحدثنا في كل شيء الا في جراحة اليوم التالي. بدا سعيداً، الا أنني كنت على يقين أنه قلق عليّ.

ظهر ١٦ يوليو (تموز) جاء الممرضون يحضرونني للجراحة. فألبست قميصاً أبيض وخفّين أبيضين وأُعطيت العقاقير التي تُعطى عادة قبل الجراحة. وشعرت بفراغ في رأسي، وبدأت أرى الممرضين عبر ضباب لفهم وهم يأخذونني الى غرفة العمليات.

سمعت احدهم يقول: "سننزل الآن."

وسألتهم: "وأبي؟"

فأجابوني: "مضى عليه اكثر من ساعة في غرفة العمليات."

سواعد قوية دفعت العربة النقالة. وفُتح باب ودخلنا غرفة كبيرة بلاطها أخضر والاطباء داخلها في ثياب خضراء. سواعد أربع رفعتني الى طاولة العمليات، ومن خلف القناع كلمني الدكتور كوستر: "سأجعلك تنام."

طعم لاذع ملأ فمي. أبي...!

## الحليفة والصديقة

"حسناً يا بُنيّ، كل شيء مرّ بسلام. انك الآن انسان جديد."

- شكراً يا دكتور لوران. وأبي، كيف حاله؟

"انه بخير ويمكنك أن تراه قريباً. والآن يمكننا أن ننزع هذه التحويلة. أنت لم تعد في حاجة إليها على ما أظن. وحالما يصبح في وسعك تناول الطعام، يمكنك أن تأكل منه ما تشاء، اذ سنعيدك الى نظام الغذاء الطبيعي. في أي حال يمكنك أن تشرب الآن."

قال هذا وخرج من الغرفة والسرور باد عليه. وغمرتني سعادة اشتقت اليها منذ زمن طويل.

ضمادات كثيفة لفّت بطني الذي حمل ثلاث ندب: جرحاً في الوسط امتدّ من قاعدة الصدر الى أسفل البطن، وجرحين جانبيين صغيرين خرجت منهما أنابيب.

وعلمت في اليوم التالي أن جراحة

أخرى لزرع كلية أُجريت في اليوم نفسه الذي أخضعت فيه أنا للجراحة، لكنها لم تنجح لأن جسم المريض نبذها.

وغرزت كلمة "نبذها" في ذهني. وفي انتظار نتائج فحصي الدم والبول اللذين أجريا لي كل يومين كنت أشعر بدوار شديد وتملكني قلق رهيب. وأصبحت ميداناً لمعركتين من نوع جديد: واحدة لاسترداد مناعتي وأخرى لاسترداد معنوياتي. على انني خضت الحرب من موقع قوة لأن كليتي الجديدة، وهي سلاحي الرئيسي، أعطيت لي بكثير من المحبة، ولن ينبذها جسدي لأنه يدرك أنها حليفته وصديقته وليست عدوة.

في اليوم الثالث انتُزعت ابر المصل من أوردتي وبقي المسبار (probe) وأنابيب التصريف. على أن هذا لم يثنني عن التوجه وحدي الى غرفة والدي. وما ان قطعت الامتار العشرين بين غرفتينا حتى باغتني ألم كطعن الخنجر في رأسي كان توقف بعد الجراحة، فارتميت في أقرب كرسي في الغرفة.

وفتحت عيني، فرأيت والدي راقداً في سريره والفرح يشعّ من وجهه. ونظر الواحد منا الى الآخر ثم ضحكنا.

قال: "لم تضع أي وقت."

– كيف حالك؟

"انني بخير. مجرّد ألم في الرأس. وأنت؟ يقولون لي ان كليتك تعمل جيداً."

كليتك. نطقها هكذا وكأنها فعلا ملكي. أنا أيضاً شعرت انها ملك لي. وفي أي حال، كان أقصى ما أتمناه هو أن يحتضنها كياني كلّه ويتبنّاها.

مرّت الايام بعد ذلك رتيبة وبدأت أستعيد قوتي وأتناول الطعام. وأظهرت التحاليل أن كليتي تعمل على نحو جيد جداً. وشاركني الاطباء في بهجتي. كل شيء بدا مختلفاً، ورحت اكتشف العالم من جديد: الناس والطعام ونور الشمس، حتى الحياة نفسها. كنت كمن يولد ثانية.

## حياة جديدة

في غياب أي مضاعفات غادر والدي المستشفى بعد أسبوعين. اما انا فبقيت اشعر بألم مبرح في منطقة الكلية. ومع أن التحاليل والفحص بالاشعة لم تظهر شيئاً، فان الاطباء أشاروا علي بجراحة استكشافية وحددوا موعداً لها.

وعندما استعدت وعيي بعد الجراحة الثانية – وهذه المرّة كان الامر أسهل بكثير – أُبلغت أن كل شيء طبيعي وأن الامر لم يكن سوى انذار خادع.

اليوم الحادي والعشرون.

جسدياً، شعرت بحال جيدة، وملأت أيامي بالقراءة وبلعب الشطرنج وأصبحت شهيتي شديدة فكنت أجبر نفسي على التمهّل في ازدراد الطعام. ورحت أقوم ببعض التمارين الرياضية لأقوي عضلات بطني، وكل صباح اهبط السلالم الست قاصداً كشك الصحف ثم أعود واصعدها. وعادت الي قوتي تدريجاً ولم يعد نفَسي ينقطع ولم تعد ساقاي كالمطاط تحتي.

وفي اليوم الستين أعطيت اجازة ثلاثة أيام. وذكرتني إحدى الممرضات: "لا تنسَ ان تعود يوم الاثنين."

وصل والدي لاصطحابي بعد ظهر ذلك اليوم. وفي طريقنا الى المحطة توقفنا نصف ساعة في أحد مقاهي الارصفة.

وصعدنا القطار الذي انطلق بنا. وعلى ايقاع العجلات نظمت أغنية رحت ارددها: "إني شفيت... اني شفيت."

في لومان ركبنا سيارة أجرة. الى أين؟ الى البيت! الى بيتنا! استقبلتنا والدتي وأخواتي على السلم بهرج ومرج وصيحات ودموع ونشيج. يا له من استقبال حافل!

وسألتني والدتي: "ماذا تبغي للعشاء؟"

- فاصولياء.

بعد ثلاث سنوات من الحمية وجدت طعم الفاصولياء ولا أشهى. لكنني أقبلت على الطعام بوجل. هل سينتفخ كاحلاي كالعادة كلّما "خبصت" الطعام؟ هل سيعاودني الصداع؟ هيا، انسَ الماضي يا فتى. انك الآن انسان طبيعي. انسان في صحته الكاملة.

في المستشفى، يوم الاثنين التالي، جاءت النتائج ممتازة وأعطيت "علامة" ١٠٠ وقيل لي اني لا أختلف عن اي انسان آخر له كليتان طبيعيتان.

على انني لم أخرج بعد من نطاق الخطر.

## لمسات أخيرة

سبتمبر (ايلول) ١٩٦٩.

عدت الى المستشفى لاجراء فحص عام. وعشية اليوم السابق لمغادرتي اياه جاءني الدكتور غوتييه، أحد مساعدي الدكتور كوستر، وغليونه في يده. كانت عيناه تبتسمان على رغم التواء في زاويتي فمه.

"علينا ان نجري لك جراحة أخرى."

- لماذا؟

"تصوير قناة البول أظهر بداية تضيُّق في الحالب (٤)."

استحوذ عليّ خوف كدت أنساه وطلبت من الطبيب شرحاً لما قاله.

أجاب: "أنت تعلم أن الحالب هو القناة التي تحمل البول الى المثانة. وهذه القناة هي، في حالها الطبيعية، ضيّقة. والذي حصل أننا لاحظنا لديك انقباضاً في نقطة منها، وهي حال تُعرف بالتضيّق وتستدعي اجراء جراحة لا تنطوي على أي خطر. بالطبع هي جراحة دقيقة، لكنها ممكنة."

ولاحظ الطبيب مبلغ اضطرابي فأضاف: "لا تقلق. الدكتور كوستر سيجري لك الجراحة. فهو كغيره من الفنانين يحتاج الى وضع اللمسات الاخيرة على اعماله لتخرج من يديه غاية في الكمال."

انقضى على الجراحة يومان وجاء الدكتور لوران ليعودني وربت يدي. فسألته: "ماذا عن كليتي يا دكتور؟"

فرد: "كل شيء على ما يرام، وكليتك تعمل بانتظام. ولكن يجب أن تحترس. تجنّب الحركة ليبقى المسبار في موضعه أطول فترة ممكنة."

أسبوعان من الألم أعقبهما شعور بحريق لاهب وحاجة مفاجئة وعنيفة الى التبويل ما لبثت أن خفت. وأخيراً جاءني الجواب الذي طال انتظاره وتقت الى سماعه. لقد أظهرت صور الاشعة لمجاري البول أن "كل شيء حسن والكلية تعمل تماماً وليس من مشكلة في الحالب."

أُبلغت أنني في حاجة الى شهرين من النقاهة قبل أي تفكير في العودة الى

(٤) Ureteral stenosis

العمل. أما كمية البريدنيزون فستنقص تدريجاً لتصل الى عشرة مليغرامات يومياً، وهي جرعة عليّ أن أتناولها طوال عمري.

وغادرت المستشفى وحدي هذه المرة. ولم أشعر بخوف. فكليتي الجديدة حرصتْ على البقاء معي بمقدار ما حرصتُ على الاحتفاظ بها.

## مفاجأة مرة

ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩.

أمضيت عيد الميلاد مع العائلة ومع بياريت رفيقة الطفولة التي عرفت كل تفاصيل معاناتي واصبحت بمثابة فرد من العائلة. كنت في حال جيّدة وليس ما يحول دون استمتاعي بوجبة شهية.

وجاءت نتائج الفحص النهائي في مستشفى فوش جيدة ففتحت امامي طريق العودة الى العمل. تلك الاشهر الثمانية الخالية من أي نشاط جسدي تركت آثارها، ولكن مع مرور الايام عدت قادراً على العمل ثماني ساعات في اليوم من دون انزعاج.

أهم حدث ميّز الاشهر الثلاثة الاولى من العام ١٩٧٠ عزمُنا أنا وبياريت على الزواج. حددنا موعد العرس في ٢٤ ابريل (نيسان) ١٩٧٠ وهو يوم عيد مولدي الثاني والعشرين.

كان العرس مناسبة للفرح وكنّا غاية في السعادة وهو لم يكن مجرد احتفال، بل قمة انتصار كبير تضافرت كل جهود العائلة لتحقيقه بعزم نابع من اليأس.

إلا ان جعبة الحياة لم تفرغ من المفاجآت المرة.

ففي شهر يونيو (حزيران) قضت شقيقتي مونيك في حادث سيارة وهي لم تتجاوز ربيعها السابع عشر. ومرّت علي أيام رهيبة. لماذا خطف الموت هذه الصبية التي أحبّت الحياة كثيراً؟ لو كنت أنا من اختارته المنية لبدا الامر طبيعياً أكثر.

على ان ما قالته لي والدتي يوم الجنازة ما زال صداه يتردد في ذهني: "لن تصاب بنكسة، يا حبيبي، ليس لك الحق في ذلك."

شدت هذه الكلمات عزيمتي. كنت مرتبطاً بعقد عليّ أن أنفذه، والاستسلام ليس من حقي. من أجل والديّ، وأبي بالتحديد، كان علي أن أفي بالتزامي.

أكملنا مسيرتنا في الحياة بالتي هي أحسن.

وحلّ العام ١٩٧١. لقد انقضت ستة اشهر وكنت في اتم الصحة. وأعدت طلي المنزل الذي استأجرته أنا وبياريت وفرشنا ارضه بالسجاد. لم يكن لدي متسع من الوقت لانجاز كل ما تقت الى اكماله.

ودرجنا على تناول طعام الغداء كل يوم أحد في منزل والدي، مما اتاح لهما أن يراقباني عن كثب. وكل أحد كنا نتبادل عبارات كأنها شعائر مرسومة، فكانا يسألانني: "هل أنت بخير؟"

فأجيب: "بالتأكيد، أنا كما تريان قوي كجبل إفرست."

- انما يبدو عليك التعب.

"التعب؟ لا، أبداً. انني ممتلىء نشاطا."

بهذا كان ينتهي الاستجواب حول صحتي. وكنت أعرف أن أبي لا يرغب في

اطالة هذا الحديث. كان يكتفي بالنظر الي، فأقرأ في عينيه فرحاً عظيماً ممزوجاً بالفخر.

واشتريت وزوجتي قطعة أرض في الريف لنشيد عليها منزلا. وللحال غرقت في العمل الشاق. كنت أملأ عربة اليد بالاسمنت والخشب والاكياس وأجرها. كانت ارادتي اقوى من جسدي الذي طالما رجاني لاتوقف. والواقع اني كنت اسجّل أول انتصار لي من دون مساعدة أحد.

ثم اعتدت الجهد الجسدي ولم أعد أشعر بألم في عضلاتي من جراء العمل. وجاءت نتائج الفحوص جيدة وكانت كليتي تعمل حسناً على رغم الاجهاد الذي تعرّضت له.

وانتقلنا الى البيت الجديد بعد أربعة أشهر من العمل المضني.

## وجه في الذاكرة

كان شهر فبراير (شباط) من العام ١٩٧٦ بارداً ومثلجاً. عدت من عملي الى المنزل واصطحبت زوجتي الى السوق. بدا كل شيء طبيعياً في ما عدا شعور داخلي غريب.

في طريق عودتنا الى البيت عرجنا على أصدقاء لنا في لومان لنأخذ سيارتنا الثانية التي تركناها عندهم. كانت السيارة متوقفة في مرأب خاص خلف المنزل. وما ان اقتربنا منها حتى لفتتني رقعة من الورق مثبتة تحت مسّاحة الزجاج الامامي. فتوجست شراً وتملكني رعب غريب وراحت يداي ترتجفان ولم أجرؤ على التقاط الورقة.

حملت الرسالة توقيع اصدقائنا أصحاب المنزل، وكل ما فيها كان هذه العبارة: "الرجاء الاتصال بنا حالا."

وخلت الامتار القليلة الفاصلة بين المرأب والباب الامامي للمنزل كيلومترات.

سألتهم ما الامر.

فجاء الجواب موجزاً ومتقطعاً: "حصل حادث في محطة السكة الحديد حيث يعمل والدك، وعليك ان تتوجه حالا الى منزل ذويك."

لم نجد أحداً في منزل والديّ. فاندفعنا الى محطة السكة الحديد حيث رحّب بنا أحد الحرّاس. فبادرته: اسمي جايني وأريد بعض المعلومات عن الحادث. أظن أن والدي بين المصابين.

رفع الحارس سماعة الهاتف ثم ادار القرص وانتظر قليلا ثم سمعته يقول: "عندي سيد اسمه جايني، وهو يريد ان يستعلم عن الرجل الذي أصيب عندنا. انتظر قليلا، سأدعه يكلمك."

انتزعت سماعة الهاتف بانفعال لأسمع ما خشيت أن أسمعه: "حالما اكتشفنا الحادث نقلنا جثمان السيد جايني الى البراد."

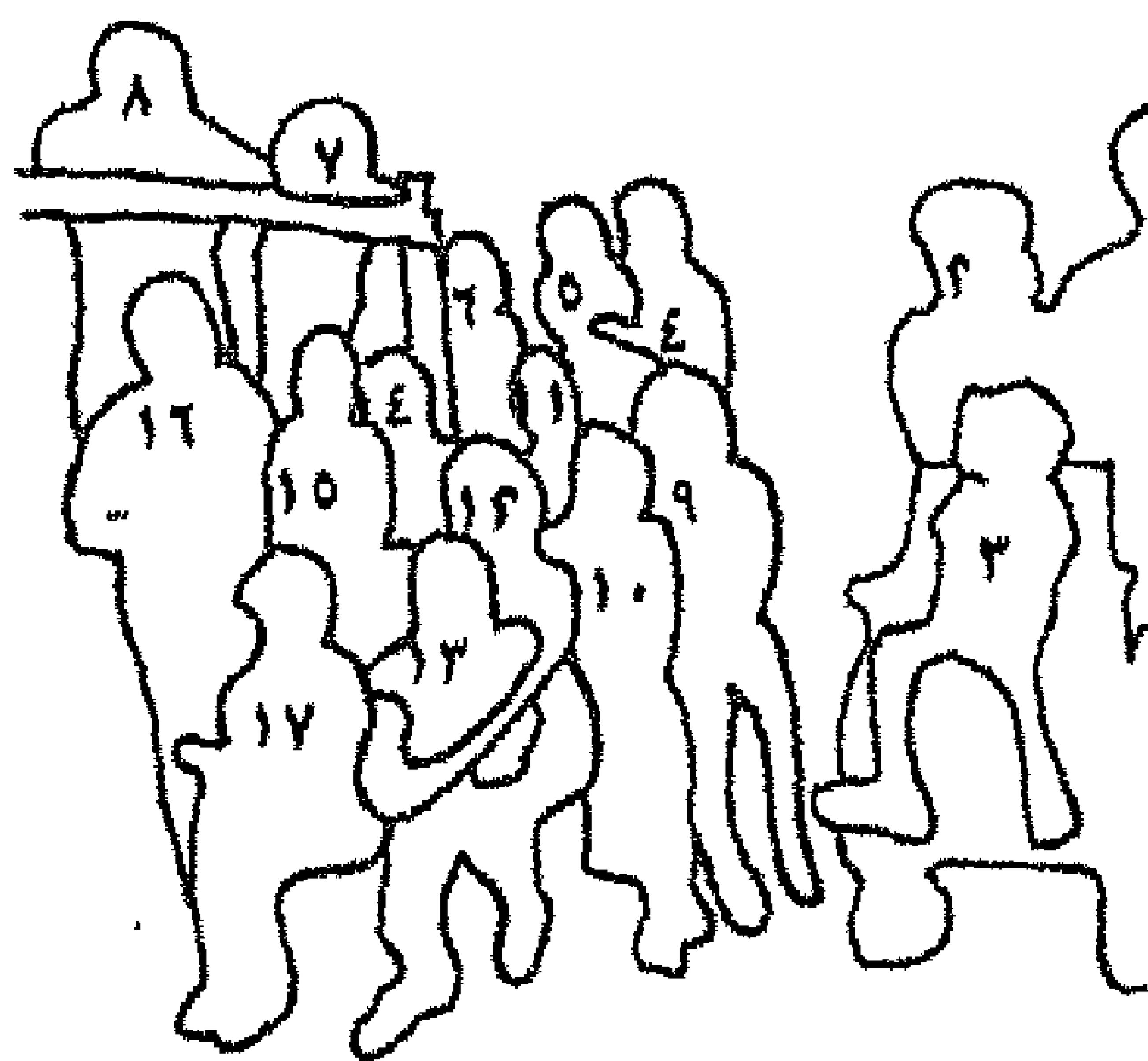
استندت الى بياريت ونحن في طريقنا الى الخارج. لن أرى بعد الآن وجه أبي الباسم وعينيه العابثتين ولن أسمعه يروي النكات التي طالما أضحكته. لقد رحل أبي، لكن وجهه سيظل محفوراً في ذاكرتي، وسيظل جزء منه حياً فيَّ يمدّني بالحياة.

شكراً لك مرة أخرى يا أبي.

**جان - مارك جايني** ■

# من أروع القصص

# لاكازا نوسترا




يزبورن: ١. توم ٢. ليزا ٣. ميشيل
اي ٥. باتريك ٦. جوشوا ٧. تايسي
ندا ٩. فيليس ١٠. ديفيد ١١. جون
جينا ١٣. تالي ١٤. دورين
مايكل ١٦. جيمي ١٧. كريسي

Photos: Richard Pierre





# من أروع القصص

# الاكاذا نوسترا

حين كانت جينا تعيش في ايطاليا قرأت قصة عن امرأة تتبنى الاطفال المعاقين، فلامست القصة المؤثرة التي تروي حياة تلك المرأة مع عائلتها، وتراً حساساً في قلب جينا.

فقالت في نفسها: "ذلك ما أريد أن أفعله في حياتي." وهاجرت في ما بعد الى كندا حيث تزوجت راي أوزبورن

وهو شاب من برامبتون بمقاطعة اونتاريو. وعندما أفصحت جينا لزوجها عن الحلم الذي يراودها في تنشئة "عائلة خاصة" هلع اول الامر، ثم تملكته الاثارة حول ما ينطوي عليه مستقبل مثل هذه العائلة.

وهنا فصول من تلك المغامرة التي تبنى فيها الزوجان خمسة عشر ولداً بينهم عدد من المعاقين، واكتشفا الغنى في حقيقته



بعد ظهر يوم سبت من شهر أغسطس (آب) كانت أشعة الشمس تنعكس متـألقة عن لوحة تحمل عبارة "لا كازا نوسترا" التي تعني "بيتنا" بالايطالية، مرفوعة على مدخل بيت فسيح مبني بالقرميد الاحمر في احدى ضواحي مدينة برامبتون بمقاطعة اونتاريو الكندية. في الباحة الجانبية كان رجل وخط الشيب رأسه يرتدي سروالا عتيقا وقميصاً أزرق، مكباً على تبديل شموع الاشعال في سيارة خضراء مقفلة. هذا الرجل يدعى راي أوزبورن، وهو راح بين فينة وأخرى ينظر الى باب المنزل حيث وقف طفل صغير يطوقه جهاز معدني للمشي ويعتمر خوذة واقية حمراء لماعة.

في الجهة الاخرى من الباحة كان بضعة أولاد يلعبون بهدوء غير عادي وكأنهم يستشعرون أن شيئاً ما سيحدث. وفي نافذة المطبخ وقفت جينا أوزبورن وهي امرأة رشيقة القوام ذات عينين بنيتين وشعر فاحم. كانت ترتدي سروال جينز وقميصاً مخططاً وتمسك في يدها خسة. لقد نسيت السلطة التي كانت تحضرها، فهي على غرار زوجها راحت تراقب "ابنهما" جوشوا جوناثان البالغ من العمر اربع سنوات.

يأمل جوشوا أن يتمكن ذات يوم من اللعب بكرة القدم. غير انه وُلد من دون ساقين وله جدعتان في مكان الذراعين وعليه أن يتعلم المشي. وحين تبنته عائلة أوزبورن قبل سنة كانت ذراعاه الاصطناعيتان غير مناسبتين ويكاد وزنهما يساوي وزن جسمه. وحصل له راي وجينا على أطراف اصطناعية جديدة وجهاز مشي وعكازين خفيفين. وراح الزوجان يوماً بعد يوم يربطانه بهذا الجهاز المعدني ويحضانه بصبر وأناة على محاولة المشي بساقيه الجديدتين. واذ يندفع جوشوا خطوة واحدة الى الامام، وأحياناً خطوتين تهتف العائلة عالياً ابتهاجا بنجاحه.

اليوم ثمة أمر مختلف بالنسبة اليه. فبعدما رُبط بجهازه، وقف ساكنا وقد اختفت تلك الومضة الشيطانية من بريق عينيه. وبدا وجهه شاحباً تحت خوذته الحمراء وارتسمت على تقاطيعه سيماء التصميم. لقد عزم على أمر ما، واليوم هو يومه.

أخذ نفساً عميقاً، ثم تحركت ساق وتبعتها الاخرى ببطء ممض. ثلاث خطوات... أربع.... خمس... ألقى بعدها راي أدواته من يديه فأخذ العرق يتصبب من وجه جوشوا لكنه واصل الجهد. وحين اقترب من والده تقدم راي وربت كتفه وقال له بثقة: "كنت أعرف أنك قادر على ذلك يا بني." وابتسم جوشوا وتابع سيره حتى اجتاز الباحة المعبّدة. لقد افلح حقاً في مشيته الاولى وحده. وصاح الاولاد بعفوية: "رائع. رائع."

داخل المنزل أحست جينا أن التوتر الذي شد عضلات فقارها تلاشى، وترقرقت الدموع في عينيها. كان حقاً شبه معجزة.

حدث ذلك عام ١٩٧٩. والآن، بعد انقضاء سبع سنوات على تلك الخطوات الاولى المترددة، يلعب جوشوا بكرة القدم فيركلها بقدمه الاصطناعية ويجعلها ترتد

عن خوذته الواقية. انه حقق هدفاً آخر من اهدافه الكثيرة.

## بهجة خالصة

"لا كازا نوسترا" هو بيت راي أوزبورن (٤٣ عاماً) وزوجته جينا (٣٩ عاماً) وأولادهما الستة عشر، وبينهم ١٥ ولداً بالتبني ولجميعهم مشاكل خاصة على نحو او آخر. وضخامة هذه العائلة لا تدهش أحداً أكثر مما تدهش الأبوين انفسهما.

في شهر مارس (آذار) ١٩٧١ حين وضعت جينا طفلهما جون رفع راي علماً أزرق على سارية امام المنزل ليعلم الجيران أنه رزق صبياً. والآن تقول جينا: "لو ان أحداً قال لي حينئذ انه في غضون السنوات الاثنتي عشرة التالية سيرتفع العلم خمس عشرة مرة اخرى لقلت له: لا سبيل الى ذلك، فأنا لست من هذا الصنف."

ولدت جينا في جوار سالرنو بايطاليا. وكانت في الخامسة عشرة حين هاجرت الى كندا واستقرت في تورنتو مع والديها وشقيقها الاصغر. كانت فتاة ناحلة في السادسة عشرة حين دخل راي أوزبورن مطعم والدها ليشتري مرطبات لزملائه في محطة وقود مجاورة، فاعجبت جينا للحال بالشاب المرح المفتول العضلات كما اعجب هو بها. وفي غضون أربعة أشهر شرعا يخططان للزواج.

قبل اي خطوة كان لدى جينا شأن مهم عليها أن تحسمه وهو: ما رأي راي في انشاء "عائلة خاصة"؟ فقبل سنوات قرأت جينا قصة عن امرأة تبنت أولاداً معاقين. ومست تلك القصة المؤثرة عصباً حساساً في قلبها. وقالت في دخيلة نفسها: "هذا ما أريد أن أفعله في حياتي."

بالنسبة الى راي كانت فكرة تبني أولاد ذوي حاجات خاصة أمراً مقلقاً. لكن جينا جعلت الفكرة تبدو مثيرة بحيث وافق راي عليها معدّلة بعض الشيء: "قد يمكننا أن نتبنّى طفلا معاقاً أو طفلين ثم نرزق أولاداً من صلبنا." لكنهما لم يحلما قط أن يكون لهما أكثر من أربعة اولاد.

اقترنا عام ١٩٦٧ ولمّا تكد جينا تبلغ العشرين وراي الثانية والعشرين. وخلال سنة بينما كانت تراودهما الاحلام الساذجة باشرا تبني عائلة. ولكن لدى مراجعة "جمعية مساعدة الاطفال" اكتشفا انه لا يكفي أن يكون لديهما بيت ورغبة صادقة في الرعاية لتحقيق بغيتهما. وقال لهما المسؤولون في الجمعية انه لم يمض على زواجهما وقت كاف كما لم يقم أي دليل على انهما عاقران، لذلك لا يمكن وضع اسميهما على لائحة الانتظار لتبني أطفال. ولم تثبط هذه الخيبة عزيمتهما فقررا أن يعكسا مسار خطتهما بانجاب طفل طبيعي أولا ثم يتبنيان آخرين.

عام ١٩٦٩ أسقطت جينا. وقال لها الطبيب انها قد لا تقوى على الحمل بجنين الى اكتمال نموه. ولكن في شهر مارس (آذار) ١٩٧١ وضعت ابنا هو جون، وُلد مكتمل النمو وفي صحة جيدة. ولازمت بيتها لتكون أماً بدوام كامل تكرس وقتها لابنها. وزاد هذا الطفل رغبة الزوجين في طفل آخر.

كان جون بلغ الشهر التاسع حين قصد

الزوجان ثانية جمعية مساعدة الاطفال فرفض طلبهما مجدداً. وتضحك جينا وهي تتذكر ذلك: "استبد بي القنوط نحو خمس دقائق، ثم أدركت أن ثمة مؤسسات أخرى يمكننا أن نتصل بها." واتصلت بـ"الجمعية الكاثوليكية لمساعدة الاطفال" وسألت هل ثمة امكان للنظر في طلبهما. وكان الجواب نعم. وأخيراً حصل الزوجان على الموافقة على أن يصبحا والدين بالتبني.

ومع ذلك تعيّن عليهما أن ينتظرا. وأسقطت جينا حملا آخر. وكان هذا الحدث حاسماً خصوصاً بعدما أخبرها طبيبها أن أي حمل لها في المستقبل سيسقط كذلك.

بعد سنتين حين كان جون في قرابة الثالثة من عمره تلقت عائلة أوزبورن اتصالا من الجمعية وسئلا هل يرغبان في تبني طفلة سوداء جميلة اسمها كريستان. كان عمر الطفلة ١١ شهراً ويقل وزنها عن ستة كيلوغرامات وهي في عهدة مؤسسة حكومية وكانت مصابة بالكساح وربما بسرطان العظم. ولم يتلكأ الزوجان في اتخاذ القرار. وقالت جينا للموظفة التي اتصلت بهما: "اذا كانت كريستان تعاني ما قلت، فانها في حاجة الى أبوين الآن اكثر من أي وقت. اننا نريدها أن تكون معنا في البيت."

كانت الطفلة كريسي معضلة حقاً. وبدا انها لا تريد أن تعيش. وتعيّن على جينا وراي أن يرغماها على تناول طعامها. كان يرعبها أن يلامسها انسان وقاومت كل من حاول حملها. وأدرك الزوجان أن عليهما ايجاد رابطة تشدها اليهما، فدأبا على حملها بين أذرعهما على الدوام. وحين كانت جينا تقطع أعشاب المرجة أمام البيت كانت تحمل كريسي على ظهرها في رباط من قماش.

وحين بلغت كريسي شهرها الثامن عشر زالت مخاوفها. وتذكر جينا انها "أخذت تمشي وتتكلم وتفعل كل شيء. لقد أصبحت بهجة خالصة." ومن حسن الحظ لم يظهر لديها أي أثر لسرطان العظم.

## طفلة من سايغون

أضحى منزل آل أوزبورن بيتا سعيداً زاخراً بالمحبة. كان راي وجينا يقضيان أصباحهما مع جون وكريسي سعيدين بتقدمهما. وفي فترات بعد الظهر كان راي يذهب الى عمله في محطة وقود للسيارات. وبقي امر واحد ينغص حالهما، اذ كانا يرغبان في عدد أكبر من الاولاد. واتصلا بالمؤسسات المعنية فمنيا بالخيبة. وقيل لهما: "أنتما محظوظان، فلديكما طفلان. كثيرون من الناس ليس لديهم طفل واحد." وكان الزوجان يدركان حسن حظهما لكنهما لم يفهما سبب تلكؤ الموظفين المسؤولين. كانا يقرأان ويسمعان باستمرار عن أولاد "يتعذر تدبير شؤونهم" وهم يعانون مشاكل خاصة. وكان الجواب دائماً: "أنتما صغيرا السن ومثاليان في تفكيركما وليست لديكما الخبرة لرعاية مثل هؤلاء الاطفال."

أصبحت جينا عضواً مؤسساً في جمعية "الآباء المهتمين بالتبني" وهي جماعة من المتطوعين تتعاون مع الأزواج

الراغبين في التبني. كانت هذه الجماعة ترسل ثياباً وطعاماً الى الاطفال في فيتنام. وذات يوم بادرت جينا زوجها: "لا مفر من الامر. اذا كنا عاجزين عن الحصول على طفل هنا فعلينا أن نتبنى واحداً من الخارج."

أجريت لهما دراسة بيتية وحصلا على الموافقة. ومن طريق وكالة مجازة لتدبير تبني الاطفال الفيتناميين اختيرت لهما طفلة من ميتم في مدينة سايغون. وحصلا على صورة لابنتهما المقبلة وأخذا ينتظران. وانقضت ثمانية عشر شهراً قبل أن يتلقيا إشعاراً بأن الفتاة في طريقها اليهما.

في ٦ مارس (آذار) ١٩٧٥ جلس راي وجينا وجون وكريسي ووالدة جينا وبعض أصدقاء العائلة في قاعة مطار تورنتو الدولي ينتظرون الطائرة الواصلة من سايغون في السادسة صباحاً.

شبك راي وجينا ذراعيهما وهما يراقبان الركاب النازلين من الطائرة. وكان الايتام الفيتناميون رضعاً يحملهم مرافقون، اما ابنة أوزبورن الجديدة التي بلغت من العمر ما يمكنها من السير فخرجت أخيراً وهي تمسك بقوة يد الدليل المرافق.

ما ان اقتربت الفتاة حتى لاحظت جينا أنها جميلة. كانت خلاسية منحدرة من امرأة فيتنامية وجندي أمريكي أسود. كان جلدها ذهبياً أدكن وشعرها أسود تتواثب عقصاته حول وجهها. وركضت جينا اليها وضمتها الى صدرها وقبّلتها، لكن الصغيرة اعرضت عنها ثم مدت يدها لتشد القرطين المتدليين من أذني والدة جينا.

في البيت غسلت الفتاة المتعبة وأطعمت ثم وضعت في السرير. وبعدما ودع آل أوزبورن الصحافيين والمصورين تنهدت جينا قائلة: "نحن الآن عائلة."

## مهام في البيت

قرر الزوجان أن يسميا الفتاة تايسي، وهو اسم بطلة قصة عن امرأة أمريكية مستعبدة دعيت تايسي قبل أن تعتق في جنوب الولايات المتحدة.

رأت جينا تشابهاً في الحالين. فعلى غرار العبدة الآبقة نقلت تايسي الى بلاد جديدة وتعين عليها أن تنسجم مع أساليب جديدة في حياتها. وعلى غرار العبدة الآبقة أيضاً قاست مشقات عظيمة.

وبحسب ما ورد في جواز السفر كانت الفتاة في الثانية من العمر، ولكن بدا للزوجين جلياً أنها في الرابعة بل الخامسة. ولم يتسنّ لهما قط أن يعرفا ماذا جرى لها خلال تلك السنوات، وبدا أن الفتاة قد محت تلك الفترة من ذاكرتها تماماً. ولا ريب في أنها لقيطة تخلّت عنها أمها وعثرت عليها ممرضة أوسترالية اعتنت بها ورعتها حتى استعادت صحتها وأدخلتها الميتم. وبين مجموعة الاولاد هناك تعلمت تايسي أن الطفل الذي يبكي بأعلى صوته يحظى بأوفر مقدار من الاهتمام. وهكذا قيض لها أن تنجو وتعيش.

منذ البداية اتخذت الصغيرة موقف التحفظ دفاعاً عن نفسها. وكان راي وجينا درسا قاموساً باللغتين الانكليزية والفيتنامية وحاولا مخاطبتها، غير أنها

لم تستجب لاي منهما كما لم تستجب لمحاولات جون وكريسي إشراكها في اللعب. وأخيراً أخذ الزوجان يشيران اليها باسماء الاشياء بالانكليزية فتلقنت اللغة سريعاً.

واتفق الزوجان على ان "كل ما تحتاج اليه هو المداعبة والمحبة." غير أن تايسي لم تسمح لاحد بأن يحبها. وظلت سيماء الحزن منطبعة على معالم وجهها على رغم كل ما بذله أبواها الجديدان. وظلت، حين لا تلبى احدى رغباتها، تنفجر للحال في ثورة صاخبة من الغضب. وهكذا لم تكن السنوات القليلة التالية سهلة، اذ كانت تايسيٰ عدائية في طباعها وضنينة بما لها من اشياء. وكانت أحياناً تتحدى أبويها، وحين يأمرانها بالذهاب الى غرفتها والانفراد هناك لمدة ٣٠ دقيقة عقابا لها على خشونتها كانت تضرب الارض بقدمها وتصيح: "لا أفهم لماذا يجب أن أذهب الى غرفتي لمدة ٣٠ دقيقة من أجل هذا الامر!"

وكانت جينا تجيبها: "أنت تتمردين يا تايسي، وتعرفين ماذا يترتب على ذلك. الآن عليك أن تبقي نصف ساعة في الغرفة بدلا من ٣٠ دقيقة." وعندئذ تذهب تايسي الى غرفتها وهي تدمدم محتجة لتقضي ٣٠ دقيقة كاملة.

ومع تقدم تايسي نحو النضج اخذت مثل هذه الحوادث تتضاءل. وعلى رغم ذلك ظلت تثير قلق أبويها. ويقول راي: "حين تطلب من تايسي أن تفعل شيئاً ينبغي أن تقول ما تعنيه تماماً. أما مع الآخرين فيمكنك أن تقول: اصعد الى فوق، فيفهمون أنك تأمرهم بالذهاب الى غرفهم. ولكن اذا قلت ذلك لتايسي فانها تصعد السلّم وتقف على الدرجة الاخيرة. يتراءى لنا أحياناً كأن لدينا محامياً في البيت."

## "اتبع هواك"

قال راي لزوجته ذات يوم: "جينا، انظري الى هذا،" مشيراً الى صورة في صحيفة أتبعت بقصة في باب "طفل اليوم" المخصص للاطفال الذين ينتظرون التبني. كان ذلك في شهر أكتوبر (تشرين الاول) من العام ١٩٧٤. والطفل الذي اجتذب انتباه راي كان يدعى ديفيد، وهو صيني – كندي عمره خمس سنوات، أصم جزئياً ويعاني كذلك علة الغلوكوما (الماء الاسود) والسد (الماء الازرق) في عينيه. كان السد في العين اليمنى قابلا للازالة والغلوكوما فيها قابلة للعلاج، أما العين اليسرى فلم يكن ممكنا تصحيحها وتعيّن استئصالها. والى ذلك كان ديفيد مصاباً بداء في المفاصل جعل يديه وقدميه كمضارب الكرة، وخامر الاطباء شك في أنه مصاب بعلة وراثية يخشى أن تقصر أمد حياته.

واذا كان ثمة طفل في حاجة الى رعاية خاصة، فان ديفيد هو ذلك الطفل. غير أن عائلة أوزبورن كانت لا تزال تنتظر وصول تايسي. وانقضت أربعة اشهر ولم يتقدم أحد لتبني ديفيد. حينئذ قرر الزوجان بدافع عاطفي البحث في امكان تبنيه.

في شهر مارس (آذار) من العام ١٩٧٥، وهو الشهر عينه الذي وصلت فيه تايسي، ذهب الزوجان الى معهد للمتخلفين للقاء ديفيد. وكان يساور جينا

ريب في الامر، لكن شيئاً ما في الطفل استهوى راي. وكانت تلك المرة الاولى يلاحظ أحدهما صفة معينة في طفل، شيئاً ما لم يستطع الآخر أن يدركه على الفور. وكانت جينا تثق بفراسة راي، وهكذا تقدما يطلبان تبني الطفل.

في أوائل السبعينات كان معظم طالبي التبني ينشدون أطفالا رضعاً، وأي طفل مصاب بعاهة تعسّر أن يقبله احد. في هذا الجو جاءت عائلة أوزبورن تنشد الطفل الاكبر سناً والذي يعاني مشاكل وله حاجات خاصة. وساورت الشكوك مارلي مانئغ وهي مساعدة اجتماعية لا علاقة مباشرة لها بطلب عائلة أوزبورن تبني ديفيد، وحسبت أنهما مهووسان وشككت في دوافعهما. ففي عهدتهما طفل أسود مريض وطفلة يتيمة من فيتنام تعاني اضطرابات، وها هما الآن يرغبان في تبني طفل ثالث مبتلٍ بمجموعة من المشاكل.

لا غرو اذاً في أن تشكك مؤسسة "مترو تورنتو الكاثوليكية لمساعدة الاطفال" المسؤولة عن ديفيد ومؤسسة "مساعدة الاطفال"، كلتاهما في دواعي هذا الطلب. وفي أحد الاجتماعات احتقن وجه راي غضباً وضرب بقبضته طاولة الاجتماع بينما كانت جينا، الصريحة حتى في غضبها، تقرّع المسؤولين: "لو قلتم لي: لا تقلقي يا جينا فسنأخذ هذا الطفل على عاتقنا، لما كنت أبالي، لكنكم لا تقولون هذا والطفل ليس له بيت يؤويه."

لم تكن في الامر غرابة. فالطفل ولد في كندا لابوين هاجرا من هونغ كونغ، ووضع في مؤسسة لرعاية الاطفال فور ولادته وبقي هناك حتى بلغ الرابعة. بعد ذلك توالت محاولات تبنيه من غير طائل. لم يكن من السهل أن يحب أحد ذلك الطفل، ناهيك بأن يتبناه. وبدا أنه كان يصرخ دائماً ولم يتدرب قط على قضاء حاجاته الطبيعية.

ومع أن التشخيص اعتبر ديفيد معاقاً، فان جينا وراي اللذين يمقتان السمات المطلقة رفضا أن يصدقا ذلك. وقالت جينا لراي ذات يوم: "ترى بماذا يفكر هذا الطفل؟ انه لا يسمع جيداً ويكاد لا يرى شيئا. أظنه منطوياً على نفسه."

ووافقها راي مضيفاً: "ثمة شيء في عينيه. اني غير مقتنع بأنه على هذه الدرجة من السوء كما يعتقدون."

## العين الضائعة

أخيراً أوتي اصرارهما ثماره. ففي شهر أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥ سمح لآل أوزبورن بأخذ ديفيد الى لا كازا نوسترا، ومرة أخرى ارتفع العلم الازرق فوق السارية في باحة البيت. والتقطت جينا صورة للعلم لتضعها في "سجل حياة" ديفيد، وهو سجل يفتح لكل طفل يكون في رعاية الدولة، وتدون فيه كل الوقائع المهمة في حياته ويرسل معه الى بيت من يتبناه. ولكن كان من المستحيل افهام ديفيد مغزى هذا السجل حين جاء الى منزل آل أوزبورن.

لم يتجاوب ديفيد مع جهود الزوجين لجعله يستخدم المرحاض لقضاء حاجته. وهو في الواقع لم يكن يستجيب لاي شيء. كانت جينا تمسك برتقالة وترفعها امام عينيه مفترضة انه يستطيع تمييز شكل الثمرة، وتمسك يده كي يلامس

البرتقالة وتقول له: "يا ديفيد، هذه برتقالة... وهذه طاولة... وهذا معطف." ولكن لم تظهر على ملامح ديفيد ومضة تشير الى أنه استجاب.

وعلى رغم ذلك ظل راي وجينا مقتنعين بأن ثمة امكانات كامنة في الصبي. فطيبة قلبيهما ورغبتهما الشديدة في مواصلة الجهد مكنتاهما من الاستمرار. غير أن ذلك كان عسيراً بحيث حسبا أحياناً أنهما لن يتبنيا طفلا بعد ذلك.

وأخيراً لاح بريق من الاستجابة. أخذ ديفيد يتعرف الى ملابسه وبدأ تدريبه على قضاء حاجته يحقق نجاحاً. ومن طريق "المعهد الوطني الكندي للعميان" تمكن الزوجان من الاستعانة بطالبة جامعية كوسيط. وطوال فصل الصيف كانت هذه الطالبة تقضي النهار مع العائلة وترافقها في نزهاتها وتساعد ديفيد على ادراك كنه الاشياء التي يعجز عن رؤيتها والاصوات التي يتعذر عليه سماعها.

في العام ١٩٧٧ استؤصلت العين التالفة وركبت لديفيد عين اصطناعية قدر لها أن تصبح موضوع كثير من القصص العائلية.

ذات يوم حين كان ديفيد يغسل عينه الاصطناعية أسقطها في مصرف المغسلة. واتصلت جينا هاتفيا بالمرأب حيث كان راي يعمل في تصليح سيارة أحد الزبائن. واستدار راي ونادى زميلا له قائلا: "علي أن أركض الى البيت لفترة دقيقة اذ ان ديفيد أضاع عينه." فرد الزميل: "حسنا، سأحل مكانك حتى تعود." وبدا كأن صاحب السيارة أصيب بصدمة وسأل: "أي نوع من الرجال يتلقى بمثل هذه الخفة خبراً بأن ابنه فقد عينه؟"

حين بلغ ديفيد العاشرة أجريت له جراحة لاستئصال السد من عينه اليمنى. وباستخدام نظارة مزدوجة العدسة استعاد بعض نظره. وبعدما ركب له جهاز قوي للسمع تعلم كيف يتكلم.

وتقول جينا: "كان ديفيد أول ولد معاق عندنا، وكان تبنيه عسيراً في اعتبارات عدة. ولكن بدا أن الأمور تتوازن. فحين يلاقي راي يوماً صعباً معه ألاقي أنا يوماً موفقاً، وبالعكس. انه الآن طفل ذكي ومحب يهوى الكتابة والرسم والعزف على الأرغن. ومهما تكن رعايته شاقة فاننا لا يمكن أن نتخيل حياتنا من دونه."

## الافادة من كل قرش

خلال السنوات الاولى من حياتهما معا، حين كانا يعملان كلاهما، استمتع راي وجينا بنمط حياة مريح ماليا، أما الآن وقد أضحى لديهما أربعة اولاد فعليهما الافادة من كل قرش من أجر راي، كذلك اصبح توسيع البيت أمراً ضرورياً.

ان تبني الاولاد من طريق جمعيات مساعدة الاطفال في كندا يتم من دون مقابل. ولكن بما أن تايسي جاءت من الخارج فان الكلفة كانت باهظة. ففي فيتنام تفرض رسوم على التبني، وثمة أتعاب قانونية وأجرة السفر جواً، وهذه كلها بلغت نحو ٣٠٠٠ دولار كندي (نحو ٢٢٠٠ دولار أمريكي). وبما أن حال ديفيد الصحية استلزمت سفرات متكررة الى المستشفيات والعيادات فقد بات

الزوجان في حاجة الى سيارة ثانية.

في ذلك الوقت، كما الآن، دأبا على شراء حاجاتهما من متاجر الجملة، حيث يشتريان الدقيق والشوفان في أكياس من حجم ٤٠ كيلوغراماً ومواد التنظيف في أكياس من حجم ١٢ ليتراً ومقادير كبيرة من الجبن ولحم البقر المفروم والدجاج والديوك الرومية بصفقات خاصة. كذلك يشتريان الثمار من المزارع التي يقطف منها الزبون حاجته عن الشجر. وقطفا ثمار شجرة القبقب في باحة البيت لصنع الدبس.

وأفادت جينا من خبرتها في المطعم فعرفت كيف تخطط لاعداد وجبات الطعام وكيف تطبخ بطريقة اقتصادية. كانت تخيط ثياباً للاولاد وتقايضها مع أمهات اخريات. وفي أحد متاجر الاحذية في برامبتون اشترت ستة أزواج بسعر منخفض جداً. وعرض عليها فرع تسويق لاحد مصانع ثياب الاولاد سترات تنقصها سحابات، فاشترتها بسعر زهيد وخاطت لها سحابات.

ولم يكن راي يعتبر نفسه حِرفياً، لكنه اكتشف في نفسه مهارات لم يحلم بها قط. بنى حديقة زجاجية لزراعة الخضر ووصل بها مصرف مجففة الثياب وغدا الهواء الدافىء الرطب يتيح لهما زرع الخضر طوال أشهر السنة. كما بنى ملعباً للاولاد مجهزاً بمنزلق، وعرزالا وأرجوحة من اطارات المطاط.

وسدد الزوجان القرض لشراء البيت، وهكذا استحصلا على قرض بقيمة ٤٢ ألف دولار يكفي لشراء سيارة ثانية وتغطية نفقات تبني تايسي وكلفة الجزء الذي أضيف الى البيت. وأنجز راي الاعمال الداخلية بنفسه، وهكذا أعاد تنظيم البيت بحيث أصبح يتألف من خمس غرف نوم بدلا من ثلاث. وفي غرفة الجلوس الملاصقة للمطبخ الموسع أفردا مكاناً لموقد كبير يحرق الحطب ورثه راي من جدته. وفي الجهة الثانية من المطبخ بنيا مكتباً لحفظ القيود التي بات يتوجب عليهما اعدادها.

بعد اتمام هذه التجديدات حان الوقت للتفكير في تبنٍ جديد. ومن طريق عملها في "جمعية الآباء المهتمين بالتبني" تعرفت جينا الى فتاة اسمها دورين. كانت في السادسة من عمرها وهي هجينة نصفها من قبيلة "انويت" ونصفها الآخر من قبيلة "كري". وكانت مصابة بعاهة انكشاف الفقار(١) التي جعلتها مشلولة من الخاصرة نزولا. كما كانت مصابة بالاستسقاء الدماغي(٢) الذي حد من قوة بصرها الى المستوى الادنى. وكانت تقضي أيامها في كرسي ذي عجلات. وصنفت الفتاة في فئة الاولاد الذين يتعذر تبنيهم، ولم تكن تعرف شيئاً عن العالم خارج جدران المؤسسة التي تعيش فيها. كانت كذلك بدينة مترهلة ومصابة بالسلس(٣). وصدمت جينا حين رأتها في المؤسسة للمرة الاولى. وتتذكر: "كانت ضخمة الجثة ولها وجه كبير قمري الشكل وشعر مقصوص قصيراً."

أدرك الزوجان أن دورين لا مستقبل لها

---

(١) انكشاف الفقار او الصلب المفلوح (spina bifida)

(٢) Hydrocephalic

(٣) السلس (incontinence) هو عدم استمساك البول والبراز.

في المؤسسة فتقدما بطلب لتبنيها. وقالت جينا: "سنخضعها لنظام حمية وندع شعرها يطول وستغدو أجمل فتاة في العالم. وسنؤمن المعالجة لساقيها ونخرجها من الكرسي وان يكن ذلك آخر شيء نفعله في هذه الحياة."

تبدلت صورة دورين وأشرقت حياتها في رعاية عائلة أوزبورن. وصممت لها جبائر ومشابك خاصة كانت تشد حولها فتبقي ساقيها ثابتتين بحيث تقوى على تعلم المشي بمساعدة عكازين. والجبائر يمكن فكها عند الركبتين حين ترغب دورين في الجلوس. وسرعان ما بدأت تتنقل داخل البيت وتؤدي نصيبها من الاعمال المنزلية، حتى انها باتت تحمل الثياب المغسولة صعوداً وهبوطاً على السلم. وللمرة الاولى في حياتها خرجت الى المدرسة كسائر الاولاد.

في شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٨١، حين بدأت بربارة ريدل تقود السيارة المقفلة التي تنقل دورين الى المدرسة، لم تدرك أن الفتاة الجديدة لا تبصر الا بعد انقضاء بضعة أسابيع. وهي تقول: "حين كنت أنزل السلم الكهربائية كانت دورين ترتقيها وتجلس في مكانها من دون ارتباك. وأخيراً لاحظت أنها بدلا من النظر للبحث عن أحزمة السلامة كانت تتلمس بيديها. عندئذ عرفت. أما هي فلم تفه بكلمة واحدة."

خارج البيت تركب دورين دراجة تسيّر باليد، وتركب الكرسي ذا العجلات للخروج في نزهات طويلة، مثل زيارة حديقة الحيوان، عندما تكون المسافة التي ينبغي أن تقطعها طويلة جداً بالنسبة الى المشي على عكازين. وأجريت لها جراحة مكنتها من التحكم بالمثانة. ويرجو راي وجينا أن تجرى لها ذات يوم جراحة مماثلة لضبط حركة الامعاء.

اكتشفت دورين كذلك متعة القراءة. انها تستخدم مطبوعات "برايل" المخصصة للمكفوفين، والتي تقرأ بملامسة الانامل، في البيت وفي المدرسة. وهذا يمكنها من مجاراة رفقائها في الصف. والآن تعرف دورين ماذا تريد أن تفعل في هذه الحياة: "سأعلم طريقة البرايل للمحرومين نعمة البصر."

## صاحب الصورة

في يونيو (حزيران) ١٩٧٨ جاء الولد السادس ليستحوذ على قلبي الزوجين أوزبورن. انه جوشوا جوناثان، طفل عمره ثلاث سنوات ذو عينين زرقاوين وابتسامة عريضة، وليست له ذراعان ولا ساقان. ولم يكن والداه الطبيعيان قادرين على تحمل عبء طفل بلا أطراف فوضعاه في بيت رعاية. ومن طريق جمعية الآباء المهتمين بالتبني عممت جينا وراي صور الطفل عل أحداً يرغب في تبنيه.

شاهد الزوجان أوزبورن جوشوا للمرة الاولى بينما كانا ينقلان دورين في مصعد مستشفى الاطفال في تورنتو، ووقعت أعينهما على صبي الصورة التي كانا يعممانها. واستهوتهما على الفور نظرته الشقية وسرعة بديهته. وكانت السجلات تشير الى انه متخلف، لكن الزوجين لم يقتنعا بذلك للحظة واحدة.

وفي كل مرة زارا المستشفى كان

جوشوا هناك أيضاً. ولم يمض وقت طويل قبل أن يدركا أنهما يريدان ضمه الى عائلتهما.

قال لهما الاطباء: "انها فكرة سيئة. جوشوا يحتاج الى الكثير من الاهتمام الشخصي. وأنتما، مع خمسة أولاد، وديفيد ودورين معاقان، لن تتمكنا من النجاح في هذه المهمة." غير أن جينا وراي شعرا بأنهما قادران على القيام بما يجب، وأحسا أن ذلك يناسب جوشوا ويناسبهما.

تأهبا لمواجهة اعتراض المساعِدة الاجتماعية المحلية، الا أنهما ابتهجا حين وجدا أنها تعضدهما. وأوضحا للاولاد الآخرين العجز الذي يعانيه جوشوا وبحثا معهم في أي غرفة يُعطى وأي مكان الى الطاولة يناسب كرسيه ذا العجلات. وأعد له الاولاد لوحات ترحيب. وفي آخر أيام الدراسة في يونيو (حزيران) أحضر راي وجينا الطفل جوشوا جوناثان الى البيت.

كان راي بنى منزلقاً عند نافذة الطبقة العليا لتسهيل اخراج دورين في حال شبوب حريق في البيت. ووضع جوشوا في غرفة مجاورة للسبب عينه. وفي ما بعد، حين أصبح الزوجان قادرين على تحمل الكلفة، بنيا مصعدا في زاوية البيت قرب المدخل الرئيسي بحيث يتمكن الطفلان من النزول الى الطبقة الارضية والخروج لوحدهما. كما أكمل راي تعبيد الباحة الخلفية والفسحة الامامية حيث يمكن أن تتحرك الكراسي ذوات العجلات بسهولة. ولما كان جوشوا يعاني علة هضمية تتطلب أن يشرب حليب المعز فقد أضافت العائلة معزاً الى الدجاجات التي تربيها في السقيفة.

أوكل الى جون أمر الاهتمام بالمعز. انه الآن في السابعة من عمره ولديه اهتمام جدي بالحيوانات والطبيعة. وفي أثناء التنزه كان يمطر أباه بالاسئلة ويطلب منه التوقف ليتفحص حشرة أو زهرة. وكان راي يجيب عن الاسئلة بصبر ويساعد جون في جمع ما يملأ جيوبه من الحصى الملونة التي يأتي بها الى البيت.

## ولد نموذجي

في ذلك الخريف، وقد أصبح في البيت ولد معاق دون سن المدرسة، كانت جينا تستعين بمدبرة منزل من الصليب الاحمر حين تخرج لمقابلة الاطباء والمدرسين. والمدبرة المنزلية مادلين ستينغ على رغم خبرتها، ساورها شيء من الخشية وهي تقود سيارتها الى البيت. فانها لم تلتق الزوجين أوزبورن من قبل ولم يكن لها اتصال بالاولاد المقعدين. غير أنها أحست منذ البداية وكأنها في بيتها. قال لها راي: "حين يستيقظ جوشوا اخرجيه من سريره ودعيه يدب حيث يشاء."

بعد دقائق من مغادرة راي نادى جوشوا قائلا انه استيقظ وأصبح مستعداً للذهاب الى الحمام. وحين رأت مادلين الجسد الضئيل على السرير شهقت دهشة. وفكرت في نفسها: "كيف يستطيع ولد كهذا أن يجلس في كرسي المرحاض من دون ذراعين وساقين تحفظ توازنه فلا يسقط؟"

واتخذت تايسي صفة الاخت الكبرى وقالت: "ارفعيه هكذا... وامسكي به حول الخصر واسنديه... هكذا."

اكتشفت مادلين انها تغلبت بسرعة

على خشيتها من حالة جوشوا وأضحت جزءاً متمماً لعائلة أوزبورن.

حين أتى جوشوا الى لا كازا نوسترا كانت ذراعان اصطناعيتان ركبتا له الا انهما كانتا ثقيلتين وعسيرتي التشغيل. ولم تركب له ساقان اصطناعيتان قط. وقرر راي وجينا أنه ينبغي تزويده مجموعة جديدة من الاطـراف. وحين أحضـرت الاطراف الاصطنـاعيـة مـع العكازتين الخفيفتين وجهاز المشي أضحى كل شيء متوافرا لجوشوا كي يمشي. الا أن الامر لم يكن سهلا. ويوماً بعد يوم دأب راي وجينا والطبيب المعالج في مركز اونتاريو للاطفال المقعدين على اجراء تمارين تقضي بأن يتدحرج حتى يقعد وبعد ذلك ينتصب واقفاً. كانوا يحضونه: "هيا يا جوشوا قوِّم عجزك لكي تؤمن توازنك. قف منتصباً بطول قامتك. هل تستطيع وضع ثقلك على القدم اليمنى؟ على قدميك كلتيهما؟ افعل هذا مرة ثانية. هيا يا جوشوا."

ظهرت تورمات مؤلمة على جسم جوشوا من أثر الاحزمة التي تثبت الاطراف الاصطناعية. وظلت جينا تنقله في السيارة أسبوعاً بعد أسبوع الى مركز اونتاريو للاطفال المقعدين حيث يجري له الفنيون تجارب على أجهزة مختلفة. الاحزمة التي تثبت ذراعيه كان ينبغي أن تتقاطع مع الاحزمة التي تثبت الساقين، وكان كل هذا عسيرا جداً على الزوجين. كان نزع ملابس الطفل لكي يذهب الى الحمام يستغرق ٢٠ دقيقة.

وأخيراً ركبت لجوشوا ساقان متصلتان بحقّين (تجويفين) مثبتين حول وركيه وجدعتيه. وكانت الساقـان مجهّزتين بمفاصل عند الركبتين يمكن أن تقفل فتتصلب لتسهيل المشي. ومن أجل القعود كان على جوشوا ان يجذب حبلين ليفك مفاصـل الركبتين. ولكن حين اكتسب قدرة كافية على الوقوف منتصبا بحيث يقوى على الركل بساقه الى الامام والدوران على وركيه واستخدام العضلات في الجدعتين، لم يعد في حاجة الى قفل مفاصل الركبتين. لكن تشقق الجلد بقي مشكلة.

وتبين أخيراً أن طوقاً من المعدن يحوط الخصر ويبطن بالجلد يحل المشكلة. وهكذا، بعد الكثير من الجهد والالم، حان ذلك اليوم السعيد في شهر أغسطس (آب) ١٩٧٩ حين خطا جوشوا أولى خطواته.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد ثمة شيء يقف جوشوا دونه. أصبح قادراً على اللعب خارجاً مع أصدقائه، وصمم له مركز اونتـاريو لـلاطفال المقعـدين دراجة كهربائية. وكانت تلك خطوة عظيمة الى الامام. وأصابت فراسة آل أوزبورن في شأن فطنته. لم يكن جوشوا متخلفاً عقليا على الاطلاق. وحين بلغ السن المناسبة بدأ يحضر الصفوف العادية في المدرسة الرسمية.

وبدأت بربارة ريدل التي كانت تنقل دورين في السيارة، تأخذ معها جوشوا كذلك. وتهز رأسها حين تتذكره في كرسيه الكهربائي ذي العجلات: "حسبت أن علي أن أنظم في حقه محضر مخالفة لسرعة السير. انه يندفع بسرعة على منزلق الصعود ويدخل السيارة حتى يكاد

يخرج من الجهة الاخرى، ثم يضغط الكابح. انه الولد النموذجي."

ذات صباح واجه جوشوا صعوبة في ساقيه الاصطناعيتين. فساعدته بربارة في ركوب السيارة ثم تنفست الصعداء قائلة: "ياه، أصبحت ثقيل الوزن. كم وزنك الآن؟"

فأجابها بلامبالاة: "اثنان وعشرون كيلوغراما مع الاجهزة وأربعة عشر من دونها." لقد اضحت الاطراف الاصطناعية حقيقة حياتية بالنسبة اليه.

وباستخدام الذراعين الاصطناعيتين الكهربائيتين اللتين صنعتا له في مركز اونتاريو للاطفال المقعدين، وهما تشبهان اللحم البشري لونا وبنية ومجهزتان بيدين تعملان ببطاريات صغيرة، أصبح جوشوا قادراً على القيام بمعظم ما يستطيع الاولاد الآخرون القيام به. وحين يرتدي سروال الجينز ويتقدم مترنحاً على عكازتيه يبدو كصبي كسرت له ساق في أثناء التزلج.

خلال استراحة الغداء في المدرسة يلعب جوشوا بكرة القدم مستعيناً بالكرسي الكهربائي للانطلاق بسرعة، وبكرة اليد مستعيناً بعكازه. حتى انه تعلم السباحة. وعندما رأى بركة السباحة التي بناها الزوجان أوزبورن في الباحة الخلفية أراد أن يسبح كالآخرين، ولكن بما ان لا ساقين له، وذراعاه عبارة عن جدعتين، فقد بدت هذه الرغبة مستحيلة التحقيق. عندئذ تدخلت دائرة الاطراف الاصطناعية في المركز لتحل المعضلة، فصنعت له زعنفة تشبه زعانف حوريات البحر مثبتة بحزام مطاط. وحين يحرك وركيه كانت الزعنفة تدفعه في الماء بين جنبات البركة بسرعة اخوته وأخواته.

وسجله أبواه لتلقي دروس في السباحة لدى جمعية خيرية. وعلّمه مدربه حركة خاصة تتيح له أن يسبح من دون الزعنفة.

وهتفت أمه وهي تراقبه يلعب: "هذا لا يصدق! تصور، لو لم نره ذلك اليوم في المصعد لما كان معنا الآن."

## خمسة أولاد جدد

سألت ليندا أمها وهي تأوي الى فراشها، وكانت ترغب في سماع القصة مرة بعد مرة: "أخبريني يا أمي كيف جئت لاعيش معكم هنا؟"

فردت الام: "كنت هدية قدمت الينا لمناسبة السنة العالمية للطفل."

كانت ليندا في الثامنة من عمرها حين تبنتها عائلة أوزبورن في شهر يونيو (حزيران) ١٩٧٩، وهي هجينة منحدرة من دم ايرلندي وهندي امريكي. وأساء والداها الطبيعيان معاملتها، ثم بدأت تنتقل من بيت رعاية الى آخر حتى تم تبنيها. ولكن حين انتقلت عائلة ليندا الى اونتاريو انفسخ التبني. وتركت هذه الصدمة في نفس الفتاة جروحاً لما تندمل تماماً بعد.

ونتيجة اضطراب تلك المرحلة المبكرة من حياتها تعذر على ليندا أن تشعر بالاطمئنان. ولكن في ليلة عيد الميلاد عام ١٩٨١ قالت لجينا: "يا أماه، هذا ثالث عيد ميلاد لي هنا. انتهى الامر. لن انتقل من هنا بعد الآن."

بعد عشر سنين مضطربة شعرت ليندا أخيراً أنها في أمان.

راي فخور بتقدم ليندا نحو النضج وهو يقول: "طلبت منها أن تحضر لي كوباً من عصير الفواكه الى الحديقة بعد ظهر ذات يوم. وفي حين كان أي ولد آخر ربما أحضر كوباً واحداً، أخرجت ليندا صينية وضعت عليها غطاء وعصيراً لجميع الجالسين هناك. فعلت ذلك بكل لباقة."

والى احتفال رفع العلم أبدع آل أوزبورن تقليداً عائلياً آخر، وهو أن يختار كل طفل يأتي الى لا كازا نوسترا شجرة تزرع له في الحديقة: واختارت ليندا شجرة اجاص. واذ هي تراقبها تنمو وتنشب جذورها في الارض فانها تشعر ان قوة تلك الشجرة ترمز الى قوتها هي.

في ٤ يوليو (تموز) ١٩٨٠ رن جرس الهاتف في منزل آل أوزبورن وقالت موزعة الهاتف: "هل أنت السيدة أوزبورن؟ لك مكالمة من كينورا."

وانبهرت أنفاس جينا، فالمخاطبة كانت بربارة كلارك منظمة شؤون التبني في المكاتب الاربعة لـ"جمعية مساعدة الاطفال" في كينورا. وهي لم تبقِ جينا متلهفة اذ بادرتها: "لقد أقر طلب التبني." وهتفت جينا فرحاً. انهما سيحصلان على خمسة أولاد جدد من الهنود الامريكيين. انهم اخوة من شمال اونتاريو كانوا موزعين على أربعة بيوت رعاية.

سمع الزوجان أوزبورن بهذه العائلة المشتتة في أحد اجتماعات التبني في السنة السابقة وسعيا الى العثور على عائلة تقبل أن تتبنى الاولاد الخمسة معاً. وكما حدث في السابق، كلما ازدادت معرفتهما بالاولاد عظمت رغبتهما في تبنيهم. وفي انتظار وصول الوافدين الجدد رفع الزوجان قيمة القرض ليتمكنا من بناء ملحق جديد بالبيت. وبينما كان المتعهد ينجز الاشغال الخارجية انهمك راي في اتمام الاشغال الداخلية. وأضحى للعائلة بيت من ثماني غرف.

وللمرة الاولى قدمت اليهم مساعدة مالية بموجب قانون اعانة الاطفال في مقاطعة اونتاريو، وذلك لان جمعية مساعدة الاولاد في كينورا أدركت أن عائلات قليلة يمكنها أن تتحمل تكاليف اعالة خمسة أولاد جدد دفعة واحدة. وصرف آل أوزبورن ذلك المال لشراء خمسة أسرّة وبعض الملابس ومباشرة معالجة أسنان ولدين.

## جينا المجنونة

حين وصلت جيمي (١٥ عاماً) وتوم (١٣ عاماً) وفيليس (١٢ عاماً) وليزا (١١ عاماً) ومايكل (٨ أعوام) الى لا كازا نوسترا كان راي يدق المسمار الاخير في طاولات غرف النوم التي صنعها بنفسه. وكانت جينا ناشطة في تهيئة الملابس التي سيرتديها الاولاد في عرس ابن عم لها في تورنتو في اليوم التالي. وحين دخلت قاعة الاحتفال مع عائلتها المتضخمة حديثاً، شعرت ببعض الحيرة. وهي تقول الآن: "كنت معتزة بكل هؤلاء الاولاد وسعيدة لان الجدد منهم كانوا معنا حينئذ. ولكن في الوقت عينه كنت ألاحظ حواجب الاقارب ترتفع استغرابا لدى رؤيتنا، وأحسست أن الناس كانوا يعدّونهم ويقولون: هاكم جينا المجنونة قد فعلتها مرة أخرى."

في يونيو (حزيران) ١٩٨١ أضيف عضو آخر الى عائلة أوزبورن. كان اسم الطفلة الجديدة تالي، وهي فتاة نابهة في الثانية من عمرها متحدرة من اصل مغربي لفتت نظر الزوجين أوزبورن من طريق شبكة التبني. لم يكن لها ذراعان، بل جدعتان تشبهان الجناحين. ولم يكن لها فخذان ولا ركبتان، بحيث اتصل أسفل ساقيها بوركيها مباشرة. وعلى رغم نقص اصبعين في قدمها اليمنى فانها كانت قادرة على الرسم والتلوين وحل الاحاجي وتسليك عقد من الخرز بتلك القدم.

عملية تبني تالي اقتضت وقتاً طويلا. وطلب الزوجان العون من مارلي مانغ المساعدة الاجتماعية التي كانت انتقدتهما وانتقدت جمعيات مساعدة الاطفال معهما لأنها وضعت هذا العدد الكبير من الاطفال المشوهين في بيتهما. وكانت التقت جينا وراي في اجتماعات التبني غير أنها لم تحضر قط الى لا كازا نوسترا. ومع أنها احبت الزوجين فقد ظلت على اقتناع بأنهما تحملا أكثر مما يطيقان.

وبحلول العام ١٩٨١ أضحت مارلي مانغ من مؤسسي الوكالة الخاصة الاولى للتبني في أونتاريو. وطلبت منها جينا اجراء دراسة جديدة عن وضع بيتها لارسالها الى الوكالة التي تنظر في قضية تالي. الا أن مارلي أحجمت عن تحمل هذه المسؤولية واقترحت على الزوجين أن يتصلا بجمعية مساعدة الاطفال.

لكن هذا التهرب لم يجد، وعادت جينا تتصل بها هاتفياً. هذه المرة أدركت مارلي مانغ أن عليها أن تفعل شيئاً.

وبدافع من شعورها بأن الزوجين أعطيا أسباباً غير صحيحة لرفض طلبهما وانهما يستحقان أن يصارحا بالحقيقة، قررت أن تجري معهما مقابلة وجاهية. وهي تقول: "المرة الاولى التي ذهبت الى بيتهما كانت لكي اقول لهما: أولا، انكما تعانيان عُصاباً. ثانيا، أنا أجزع من وجود كل هؤلاء الاطفال في العائلة. ثالثاً، أنا لا أظن أنكما قادران على توفير كل حاجاتهم كما لا أشعر بأنكما تدركان قصور امكاناتكما."

خلال ١٥ دقيقة من وصولها، تحوّل موقف مارلي تماماً. وهي تعترف: "ان قبولهما غير المشروط بالاطفال، مهما تكن حالهم، وروح الكفاح الهائلة التي يتحليان بها، والطريقة التي يتصديان بها لكل ما يتعلق باولادهما، هذه الاعتبارات كلها قهرتني."

وانبرت مارلي للمساعدة في تبني تالي وغدت صديقة لآل أوزبورن. وهي تقرّ: "قد يبدو ذلك غريباً، ولكن حين أشعر بحاجة الى الهدوء والراحة أو الى حافز عاطفي أذهب للقاء راي وجينا وأغادر بيتهما ونفسي مطمئنة الى أن كل شيء على ما يرام في هذا العالم."

على غرار سائر الاطفال، ألِفت تالي بيتها الجديد بسرعة. وأخذت تتنقل وحدها وتزحف متلوية على الارض بسرعة مدهشة. امر واحد لم تكن قادرة عليه حين جاءت، وهو تسلق السلم مع أنها كانت ترغب في ذلك. جوشوا يعرف كيف يتسلق السلم، لكن الامر اقتضى من ابويه اسابيع عدة ليعلماه كيف يرتقي السلم وحده الى الطبقة العليا.

كانت تالي تمثل نوعاً من التحدي لجوشوا. فهو بقي طفل العائلة المدلل وقطب الاهتمام حتى مجيئها. وبدا أن تالي الفطنة والثرثارة والمعتدّة بنفسها ستحل مكانه. غير أن حاجتها الى المهارات التي كان هو يتمتع بها وطدت العلاقة بينهما.

خلال خمس دقائق علمها جوشوا ما قضى هو أسابيع مضنية ليتعلمه. ومن دون أي اطراف اصطناعية اقتربا من أسفل السلم. قال لها جوشوا: "تمددي على الدرجة السفلى ووجهك الى أسفل... هكذا. ثم اقعدي على هذا النحو وضعي كتفيك على الدرجة الاعلى. والآن ارفعي عجزك وكرري العملية لتتسلقي الدرجة التالية."

اخذ جوشوا يدفعها من الوراء بجدعة ذراعه. واخيراً استطاعت تالي أن تصعد. وسرعان ما انطلقت على السلم لوحدها. أما جوشوا الذي كان تقدم كثيراً بحيث أضحى قادراً على صعود السلم بأطرافه الاصطناعية، فقد وجد الرضا في دوره الجديد كأخ كبير.

## رفيق الحضانة

عندما يكون هناك طفل جديد سينضم الى عائلة أوزبورن، يتناقش راي وجينا في الامر مع جميع الاولاد. وفي العادة ينتهي البحث بموقف حماسي للجميع.

وعلى غرار جوشوا، أبدت جيمي، وهي مراهقة يافعة وجميلة، بعض التحفظات عن تالي: هل ستحتاج الى مقدار كبير من الرعاية؟ وهل سيتعين على جيمي، باعتبارها الاكبر سنا، أن تخصص لها جانباً من وقتها الضيق مما يبعدها عن مدرستها وأصدقائها وقيادتها لفرقة الترتيل؟ غير أن تالي سرعان ما استحوذت على قلبها كما فعلت بالآخرين جميعاً. والآن تتولى جيمي تمشيط شعر أختها الصغيرة كجزء من واجباتها الصباحية وتنضم الى الآخرين في التفكير بأسماء تدليل لها: "الانسة فأرة" أو "طائر البطريق" كما يدعوها عمها روبي. ويقول راي مداعباً: "تالي ثرثارة." فتحتج الصغيرة وهي تترجح بين ذراعيه: "لا! يا أماه، قولي له. تالي جميلة وليست ثرثارة!" فتضحك جينا موافقة.

تالي أصغر فتاة ابداً مبتورة الذراعين فوق المرفق تركب لها ذراعان اصطناعيتان تعملان بالبطاريات. انها عاملة نشيطة ولذا تعلمت بسرعة كيف تشغلهما. وحين لا تستعين بهما فانها تتناول طعامها بمهارة ونظافة من طريق وكز الصحفة أو الكوب بفمها، ثم تلتقط طعامها أو تحتسي الحليب من دون أن تهرق شيئاً.

انها كذلك فخورة بالسيارة المصغرة الحمراء المسيّرة ذاتياً والتي تبلغ سرعتها القصوى ثلاثة كيلومترات في الساعة. ولها مقود معدّل بحيث تستطيع تالي تحريكه بأصابع قدميها. هذه السيارة صممها "معهد اونتاريو للاطفال المعاقين" وكانت نموذجاً اختبارياً قدم اليها مجاناً. وفي المقابل يحفظ أبواها ومدرسوها سجلا يبين مدى تقدمها في استعمال السيارة يرفعونه الى مصمميها مرة كل ثلاثة أشهر.

وفي دار الحضانة التي تذهب اليها

تالي تتطلب قيادة سيارتها مساحة لا تتطلبها السيارة العادية لذلك هي تتنقل بدفع جسمها. أما سلوكها فعادي الى درجة مشجعة. وبعدما سمعت اخوتها وأخواتها يتحدثون عن رفقاء لهم بدأت هي تتكلم عن صبي صغير تحبه في صف أطفال السن الثانية. وحول مائدة العشاء ذات مساء مازحها أحدهم في هذا الشأن فقاطعته بحدة: "لقد تخاصمنا. ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى عنه." وكانت لصوتها رنة فتاة بالغة.

أحبت طلاء الاظافير الذي وضعته أختها الكبرى فيليس على أظافير قدميها ويدها الاصطناعية. وهي ترتدي ثوبها المخملي الاحمر مع سروال يناسبه خاطته أمها، وتدفع برأسها الى الوراء لتظهر الشريط الاحمر المربوط في شعرها.

وتقول جينا: "بعض الناس يعتبرون تالي معاقة جسدياً. لكننا لا نعتبرها كذلك. انها أي شيء سوى هذا."

## حاسة سادسة

روبرت، شقيق جينا، كان في البيت ذلك اليوم من شهر أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨١ حين وصل الطفل الرابع عشر. كان باتريك هذا، وهو في الشهر الثامن عشر ويعاني عطلا حاداً في البصر والسمع، يزعق من دون توقف. وهز روبرت رأسه قائلا: "يا جينا، لقد تجاوزت الحد هذه المرة. انك لا تقوين على انقاذ العالم كله."

سُحرت جينا بوجه باتريك المستدير ولفائف شعره الاشقر حين ذهبت الى البيت الذي تعهده نيابة عن أصدقاء لها كانوا يفكرون في تبنيه. ورأته ممدداً ومستغرقاً في النوم على الارض بجانب كلب ضخم أخذ ينبح في وجهها عالياً. ولم يكن باتريك يسمع نباح الكلب، لكنه استيقظ ومال غريزيا نحو جينا. كان لمعطفها حزام موشى أعجبه. وأخذ يتبعها حيثما تسير متعلقاً بالحزام.

قالت جينا لاصدقائها: "باتريك مصاب بالحبسة (٤) ويشبه مريضاً بجلطة دماغية تعطلت قدرته على الكلام." ولكن كان لديها حدس بأن في باتريك شيئاً أبعد مما حسبه الاطباء.

ويقول راي: "ان جينا ايطالية وتصغي اليك اذا اردت أن تشرح لها أمراً ما ولكن لا شيء يقنعها متى اتخذت قرارها."

وقرر أصدقاء آل أوزبورن ألا يتبنوا الطفل بسبب العطل العصبي الذي قيل ان باتريك يعانيه. وحين سمع راي بقرارهم ذهب هو كذلك للقاء باتريك. واستدارت جينا نحوه وعيناها تعبران بجلاء عن أفكارها: "الا نستطيع نحن... أعني هل تظن...؟"

كان يخامره شك. وبدا له أن رعاية طفل معطوب الدماغ، اضافة الى العبء المرهق الذي يحمله وزوجته سيكون جنوناً مطلقا، غير أنهما تعلّما أن يثق كل منهما بغريزة الآخر.

الاشهر القليلة الاولى كانت كابوساً. كان بتريك يزعق بلا انقطاع ولم يتح لهما ان يناما الّا لماما. واذا هما حاولا مداعبته كان يدفعهما بعيدا عنه. وقالت جينا:

(٤) الحُبسة أو الخَرَس (aphasia) هي فقد قوة التعبير بالكلام او الكتابة او الايماء.

"انه يتألم يا راي. أنا واثقة من ذلك." واخذت موعدا من طبيب وجاء التشخيص: انسداد في الجهاز الهضمي. وبعد اصلاح هذه العلة توقف باتريك عن الصراخ.

في البداية بدا كأن باتريك يتعرف الى الناس بملامسة شعرهم ويتنقل من مكان الى آخر مهتدياً بحاسة سادسة. فيركض بين جنبات البيت ونادراً ما يصطدم بشيء. وعندما يشعر أن هناك كوباً من الحليب له على طاولة المطبخ، يتسلّق كرسياً ثم يمد يده الى الكوب ولا يخطىء. وتبتسم جينا قائلة: "الا تظن أن هذا القرد الصغير يستطيع أن يرى؟"

جهز باتريك بعدستين مكبرتين قويتين وفرتا له بعض الرؤية. واذ هو ينمو ويبقى سليماً من العدوى في أذنيه فيمكنه أن يسمع أصواتاً ذات نغمة وقوة معينتين. وأفاد الاطباء انه يتصرف على مستوى متأخر سنة واحدة عن سنه الحقيقية. وهو الآن يذهب الى دار حضانة مع تالي.

## "حياة تناسبني"

تقول جينا: "الفضل لتالي في احتمالنا باتريك خلال الاشهر القليلة الاولى. فحين كان يرفضنا كانت هي تسبغ علينا حبها. كانت طيبتها شاملة تفسح مجالا للجميع." وتتوقف جينا عن الكلام لحظة لتفكر ثم تضيف: "ان كل شيء يسير نحو الاحسن. لو لم نحصل على ديفيد لما كانت لنا الشجاعة الكافية ربما لنفكر في تبني باتريك."

بينما كانت جينا تقود سيارتها في زحمة السير في طريقها الى موعد آخر مع أحد مستشفيات الاطفال في تورنتو، وجدت فرصة نادراً ما تتاح لها للتأمل في ما هي تعمل. وتساءلت: "ماذا تراني أفعل بحياتي؟ لماذا أواصل العمل على هذا المنوال؟" واذا بها تجيب نفسها: "ان الناس الذين يرهقون أنفسهم هكذا يفعلون ذلك من أجل أنفسهم فحسب، وليس من أجل انسان آخر. يمكنني ان انقطع على تبني الاطفال وأنكفىء الى نفسي مكتفية بالقاء محاضرات في الجامعات ومؤتمرات التبني. لكن ذلك لن يرضيني. فما دام هنالك طفل يمكن ان تتحسن حاله مع عائلة مستقرة كعائلتنا فيصبح جزءاً صالحاً من هذا المجتمع، فان هذه هي الحياة التي تناسبني."

يشعر الزوجان أوزبورن غالبا بالضيق من التأخيرات البيروقراطية في نظام التبني. وفي رأيهما ان المتطلبات تكون غالباً أشد مما ينبغي. وتقول جينا: "قد يعتبر الزوجان اللذان يتقدمان للتبني غير متقاربين في السن، او ان نمط حياتهما على غير النهج المتبع، او ان وزنهما أكثر او أقل مما ينبغي. ولكن لا ريب في ان ليس بين هذه الاعتبارات ما يؤثر حقاً في صلاحيتهما ليكونا أبوين صالحين للطفل."

يتمنى راي وجينا أن تعطي الوكالات اصحاب العلاقة المعلومات الكاملة عن كل طفل مرشح للتبني. وثمة أسباب طبية حقيقية لذلك، اذ ربما كان في عائلته داء سكري مثلا. وهما يؤمنان بأن الزوجين المتبنيين ينبغي ان يعرفا أكبر مقدار ممكن عن أحوال والدي الطفل وأشقائه. وتقول جينا: "يبدو مناسباً أن نعرف هذه

الخلفيات كي نخبر الاولاد بها حين يصبحون مؤهلين لذلك."

انهما يتطلعان الى اليوم الذي تقوم وكالة مكرسة لخدمة اهالي الاولاد ذوي الحاجات الخاصة. وتضيف جينا: "ان المعضلات لا تبرز فقط بين الساعة التاسعة والساعة الخامسة. ومن المغالاة أن نطلب من المساعدين الاجتماعيين أن يتحملوا عبء الدعم الذي يحتاج اليه مثل هؤلاء الاهالي."

## أغنى الناس

من طريق اختلاطهما بجماعات الآباء الراغبين في التبني يقدم راي وجينا أقصى ما في طاقتهما من مساعدة. انهما يخططان لانشاء غرفة فسيحة يتاح فيها للاولاد الزائرين ان يلعبوا بينما الآباء يستريحون ويبحثون في مشاكلهم. هؤلاء الآباء يفدون في كل يوم، ويسعى الزوجان اوزبورن الى تدبير شؤونهم. وتقول جينا ضاحكة: "ان جدران بيتنا قابلة للاتساع."

وعلى رغم غناهما العاطفي فان المال يبقى مصدر قلق دائم. والزوجان يقدران العون الحكومي الذي يتلقيانه. فجوشوا الذي يعاني صعوبة في تدوين أفكاره على الورق بالسرعة الكافية حصل على دماغ الكتروني معدل ليلائم حاجاته، جهز بمفاتيح عريضة مسطحة بحيث يستطيع ملامستها باصابع يده الاصطناعية الكهربائية. والوكيل الذي يبيع هذه الآلات يعرف آل اوزبورن وهو قدّم سعراً خاصاً.

ان الاطراف الاصطناعية التي جهز بها جوشوا ودورين وتالي يجب إبدالها في فترات منتظمة تبعاً لنموهم. وتتحمل الحكومة الكندية تكاليف هذه الاطراف من طريق "برنامج الاطفال المبتوري الاطراف" التابع لـ"الادارة الكندية لمشوهي الحرب." ومن دون مثل هذا العون لا تستطيع سوى عائلات قليلة تحمل النفقات التي يتطلبها اولاد اوزبورن. ويقول راي في ذلك: "اننا اخرجنا هؤلاء الاولاد من مؤسسات تكلف دافعي الضرائب اموالا طائلة لابقاء الأطفال قاعدين في كراسيهم ذوات العجلات، في حين ان اطفالنا جميعهم هم الآن في المدارس النظامية وسيصبحون ذات يوم أعضاء منتجين في المجتمع."

يتلقى آل اوزبورن كذلك عوناً من هيئات اجتماعية ومن فاعلي خير اصبحوا الآن جزءاً من حياة الزوجين. وثمة امرأة تقطن في بلدة براماليا المجاورة تحوك ألبسة صوفية للاولاد، وأخرى شبّ اولادها وغادروا بيتها وهي تصنع لاولاد اوزبورن الحلوى فيدعونها "سيدة الحلوى". وهناك كذلك السيدة آنا غنجيمي وهي في الثانية والثمانين وتقطن في ولاية نيويورك وقد قرأت عن هؤلاء الاولاد وسألت راي وجينا هل يمكنهما ان يتبنيا عضواً جديداً في العائلة، جدة عجوزاً.

اتخذ راي استعدادات لضمان مستقبل الاولاد. فحصل على شهادة تأمين شاملة الحوادث والحياة بحيث انه في حال وفاته يسدد ثمن البيت ويبقى كل ولد مؤمناً حتى بلوغه الحادية والعشرين. والتسوية المالية التي تستحق في هذه الحال توفر النفقات الكاملة لمن يتحمل مسؤولية العائلة طوال عشر سنين على الاقل أي

حتى يبلغ الاولاد الكبار سن الرشد.

وتقول جينا جازمة: "نحن لا نفكر ابداً في اعادة اي من اولادنا الى مؤسسة رعاية!" ولكل طفل "عرّاب". وعين منفذان للتركة ووكيلان. وتفكر جينا في كل شيء بواقعية: "اذا قتلت في حادث سير فان مدبرة منزل من الصليب الاحمر ستتسلم العائلة حالا. نظام هذا البيت سيبقى."

## حيث العمل متعة

وعلى غرار كل الآباء يصاب الزوجان اوزبورن بالارهاق. انهما يضطران الى النهوض في الليل تكراراً لتهدئة روع طفل يبكي او آخر بلل فراشه. ويساورهما القلق احياناً. وتفكر جينا وهي مستلقية في سريرها "بدا لي أن ليزا كانت حزينة خلال العشاء، ربما حدث لها ما ساءها في المدرسة." وهما لاحظا اخيراً ان جون كان يبدو مضطرباً. وكشف لهما طبيب نفساني ان ابنهما الطبيعي يعتبر نفسه كأي منهما ويأخذ على عاتقه مسؤولية الأب البديل للاولاد الآخرين. فبحثا في هذا الامر مع ابنهما وأوضحا له انه ليس مضطراً الى العناية بسائر الاولاد لان هذا عبء لا يقوى على تحمله من في سنه.

وعلى رغم مخاوفهما لم يساورهما قط اي شعور بالندم على ما فعلاه. وتوضح جينا الامر: "ليس اولادنا عبئاً علينا، بل هم فرحتنا. انهم في صغرهم كل حياتنا، وهكذا نريدهم ان يكونوا. لا يشعرنّ احد بالأسف من أجلنا، فنحن أغنى الناس."

انه نهار السبت. أخذ راي بضعة اولاد في نزهة الى الغابات. وتولت جيمي رعاية الآخرين فيما راح توم يساعد في اعمال مزرعة مجاورة. وحان وقت الغداء وراي هو الطاهي ذلك اليوم. انهم سيتناولون طعاماً صينياً. دورين تعد الشوك والسكاكين فيوزعها جوشوا وكريسي على الطاولة المصنوعة من خشب الصنوبر وطولها ثلاثة امتار، وقد صنعها راي لكي تتسع لهم جميعاً. فيليس وليزا وديفيد ينظفون المنزل بعد انتهاء عملية الخبز ذلك النهار، وثمة ٤٠ فطيرة جاهزة لتوضع في الثلاجة. وفي الخارج يعلف جون وتوم المعز والدجاج.

وعلى لوحة الاعلانات المعلقة على حائط المطبخ، بين نماذج الرسوم التي حققها الاولاد، لوحة صغيرة في اطار كتب عليها: "الجنون وراثي ويمكن ان ينتقل اليك من اولادك."

ويتعالى صوت صارخ: "هيا الى الطعام!" وتجلس العائلة الى المائدة وتسند العكازات الى زاوية الغرفة. وتتلى صلاة شكر قصيرة تفسر بالاشارات للصم وبملامسة الايدي للعميان ويستقر الجميع!

بين هؤلاء الآن الولد الخامس عشر في عائلة اوزبورن، وهي فتاة تدعى ميشيل في العاشرة مصابة بشلل دماغي التحقت بالعائلة في شهر اغسطس (آب) من العام ١٩٨٣. انها فتاة صغيرة زرقاء العينين ذات ابتسامة عريضة وشعر احمر مربوط في شكل ذيل حصان. وهي تجلس في كرسي ذي عجلات بجانب أمها كي يتسنى لها ان تساعدها في تناول طعامها.

انضم الى العائلة كذلك طفل بلا يدين

يدعى دانيال وعمره أربع سنوات، وهو جاء من هونغ كونغ في اغسطس (آب) ١٩٨٤. وبعد خبرة جينا وراي مع جوشوا وتالي فانهما لم يترددا في طلب تبني دانيال. فلديهما كل الاجهزة التي لم تعد تناسب جوشوا بعدما كبر، وكانا يعرفان انهما سيحظيان بكل ما يحتاجان اليه من عون من مركز الاطفال المعاقين.

بعد الغداء يرفع الاولاد الصحاف ويضعونها في آلة غسل الصحون ويمسحون الطاولة ثم ينظفون المطبخ. وثمة واجبات اخرى "ولكن - تقول جينا - اذا كان الطقس جيداً فاننا نحضّ الاولاد على الخروج، فتنظيف البيت بالمكنسة الكهربائية يمكن ان ينتظر الى الغد."

ويلاحظ الزوار الروح المرحة التي تنجز فيها هذه الاعمال. وتضيف جينا: "يسهو عن بالهم أن الوضع هنا يختلف عن بيت ليس فيه سوى ولد واحد يتعين عليه القيام بالعمل وحده. هنا، حين يكب اربعة اولاد أو خمسة على العمل يصبح الامر متعة ومرحاً ومناسبة اجتماعية." وينبغي انجاز العمل قبل أن يحين وقت مشاهدة التلفزيون. ويسمح لهم في العادة بنصف ساعة لبرنامج يرغبون جميعاً في مشاهدته. وآخر عمل تقوم به جينا قبل ان تأوي الى فراشها هو اعداد مائدة الفطور لكي توفر وقتاً في الصباح.

## حمّام خاص

انها السادسة والربع من صباح يوم عمل وأجراس المنبهات تقرع كلها في لا كازا نوسترا. جينا - أو جيمي اذا استيقظت باكراً - تحضر القهوة. وهناك عصير الفواكه والخبز المحمص والاجبان والبيض والزلابية. بعد ذلك يساعد الكبار الصغار في ارتداء ملابسهم. وثمة جدول مطبوع ملصق على جدار غرفة جوشوا يحدد من عليه ان يساعده في ذلك النهار.

كل من يحمل معه الى المدرسة علبة غداء يغسل علبته ويجففها في اليوم السابق. ووجبات غداء اليوم التي يحضرها اثنان من الاولاد دورياً في اشراف جينا، تُصرّ وتحفظ في البراد في الليلة السابقة.

وبعد ساعة تتوقف اربع حافلات مدرسية في الباحة المعبدة امام البيت، ويركب جوشوا ودورين وميشيل حافلة مجهزة بمصعد للذهاب الى مدرسة رسمية، ويلحق بهم فيليس وليزا وجون وكريسي ومايكل وليندا وتايسي في حافلة مدرسية عادية. جيمي وتوم يركبان الحافلة ذاتها لكنهما ينتقلان منها الى حافلة اخرى للذهاب الى مدرسة ثانوية. ويركب ديفيد حافلة الى "المركز الاقليمي للمعاقين سمعياً" ومنها الى مدرسة خاصة. وتنقل سيارة مغلقة باتريك وتالي في الثامنة والنصف الى مركز للمعالجة.

في الايام التي تخرج فيها جينا مع أحد الاولاد الى موعد طبي في تورنتو تغادر البيت في الثامنة صباحا. وعندما تعود تتناول مع راي فنجان قهوة ثانياً وتغتنم برهة للمسامرة بعد أن يكون الاولاد ذهبوا الى مدارسهم. ثم تهبط الى الطبقة السفلى لتضع الدفعة الاولى من عشر دفعات يومية من الثياب في الغسالة.

ولما كان راي يعمل في نوبة مسائية

فانه يحتاج الى ساعات الصباح لينجز اعمالا لا حصر لها في البيت وحوله. ها هو أنجز الآن تلميع خزائن وصنع رفوفاً في حمام الطبقة السفلى.

ومرة ثانية اصبح آل اوزبورن في حاجة الى توسيع البيت. فغرف النوم أصغر مما ينبغي وعندهم حمامان يستعملهما ١٨ شخصاً ولا بد من الوقوف في طابور. وتحلم جينا بحمام خاص لها ولزوجها، "حمام له قفل." والسيارة المقفلة والسيارتان الاخريان في حاجة دائماً الى صيانة. ولكن ثمة نقطة جيدة هنا، فهذه السيارات قديمة ولا يقودها احد من الاولاد، لذلك فان قيمة التأمين عليها جميعاً هي ٥٠٠ دولار سنوياً.

## "جميعهم لي"

قبل ثلاث سنوات كان راي يمضي ساعة او نحوها كل صباح في الدرس لاكمال برامجه في علم السلالات البشرية وعلم النفس. وهو يقول: "كان عسيراً ان اعود الى الدرس بعد انقطاع دام عشرين سنة. وحاولت ان أقرأ اثناء العمل وفي فترات الراحة لكن هذا لم يوفر لي وقتاً كافياً، اما في المنزل فمن العسير غالباً التركيز على اي شيء." وهكذا اضطر الى صرف النظر عن الدرس. وجينا كذلك تابعت برامج دراسية وكلاهما يأملان الآن استئناف الدراسة حين يتاح لهما بعض الوقت. ان الزوجين اوزبورن يعتبران الآن اختصاصيين بشؤون التبني استناداً الى خبرتهما العملية، ولكن ما داما لا يحملان درجات علمية فليسا مخوّلين رسمياً تقديم المشورة الى الآباء الآخرين، ولديهما مشاريع كثيرة للمستقبل حين يكبر الاولاد، اما الآن فهما قانعان بعائلتهما.

الصيف هو أفضل الفصول بالنسبة الى عائلة اوزبورن. فأديم الارض ليس مجلداً فيعوق العكازات والكراسي ذوات العجلات. وفي الطقس الحار تحلو النزهات بجانب برك السباحة وقضاء النهارات على الشاطىء.

خلال اجازة راي السنوية اشترك الجميع في عملية تحضير البندورة (الطماطم) ونزع النوى من ثمار الكرز واعدادها للتجليد وكان الكل يعمل في السقيفة الامامية عند مدخل البيت. وهم اقتصدوا ٣٠٠ دولار لانفاقها على متعة للجميع. واختيار هذه المتعة لم يكن عسيرا، وجاء الاقتراع باجماع الاصوات: "مدينة العجائب في كندا." ان الرحلة التي اختارها الاولاد الى "مدينة الملاهي" القريبة من تورنتو قد تكلف الـ ٣٠٠ دولار كلها، ولكن اذا كان الاولاد شاؤوا ذلك فسيكون لهم ما يريدون.

قال الابوان: "حسناً، وعليكم ان تبدأوا التفكير في ما يجب ان نأخذه معنا من طعام للغداء."

كان رسم الدخول في العادة ١٥،٩٥ دولاراً يخفض الى ١١،٩٥ دولاراً لكل فرد بقسيمة من "ادارة مشوهي الحرب". وهذا يجعل مجموع رسم الدخول يزيد قليلا على ٢٠٠ دولار. اذا في وسعهم الذهاب في هذه الرحلة. واتصل راي هاتفياً بمدينة العجائب ليتأكد من امكان ايقاف السيارات في مكان قريب من المدخل بحيث يستطيع جوشوا ودورين وتالي

وميشيل ان يبلغوها في كراسيهم ذوات العجلات.

سئل راي على الهاتف: "هل أنتم من مؤسسة رعاية اجتماعية؟" فاجاب: "كلا، بل نحن عائلة واحدة." وران صمت مشوب بالريبة على الطرف الآخر من خط الهاتف ثم تابع المتحدث: "حسناً، لدينا رسم خاص للبيوت الكبيرة. والاولاد المعاقون يدخلون مجاناً. سنرى اذا كان في وسعنا ان نفعل شيئاً من اجلكم."

لكن ادارة مدينة العجائب الكندية فعلت شيئاً تجاوز ما كانوا يحلمون به. وفي مقابل رسم بلغ ١٠٠ دولار فقط سمح لهم بركوب جميع عربات اللهو ومشاهدة كل الاستعراضات.

وعندما ركب الاولاد القطار الافعواني السريع(٥) وقف راي وجينا يراقبانهم. وحين انطلقت المركبة كان تفكير الزوجين متطابقاً: "ان جوشوا محروم أي وزن في ساقيه، وحين تهبط المركبة على المنحدر فانه سيسقط منها."

وصاحت جينا وهي تلصق وجهها بكتف زوجها: "اوه يا راي، لا أقوى على النظر. انا واثقة بأنه سيسقط من المركبة." وحاول المشرف على تسيير المركبة ان يوقفها، لكن الوقت فات.

ولكن لم يكن ثمة داع الى القلق. فجوشوا المعتمد على نفسه دائماً تعلق بالمركبة بقوة. وليندا الجالسة الى جانبه طوقته بذراع واقية فوق ركبتيه لتبقيه في أمان.

كان يوماً مدهشاً. وعاد الجميع الى السيارات مرهقين ومبتهجين بعدما أقفلت بوابات مدينة العجائب منهية اثنتي عشرة ساعة لا تنسى.

نهار الأحد جلست جينا الى مكتبها في غرفة ملاصقة للمطبخ واخرجت ملفاً آخر. انه ملف طلبات للمساعدة من اجل تسديد ثمن اطراف اصطناعية.

وفيما هي تعمل غفا باتريك في اريكة بجوارها وهو يقبض على دمية دب محشوة وجلست تالي على ارض الغرفة وهي تمسك بقلم بين اصابع قدمها اليمنى. انها تخط رسالة ايضاً، لكن فقدان النشاط في البيت أضحى مضجراً.

وتقول تالي: "أماه، أشعر بصداع." وتضيف وفي ظنها ان امها لم تستوعب خطورة الأمر: "الصداع يعني ان ثمة الماً في الرأس." وتضحك جينا وتمد يدها لتداعبها. لقد عملت جينا ما يكفي ليوم احد، وعليها ان تنظم النزهة التي خططت لها العائلة بعد الظهر في الحديقة العامة القريبة.

احتل الاولاد وراي وجينا وصديقان للعائلة بضع طاولات في الحديقة. وبعدما جلست جينا مع الصديقين لتستمتع بكوب من المرطبات، التفتت الى حيث كان راي ينظم لعبة كرة القدم وهي تتساءل كيف عثر على العدد اللازم من اللاعبين. وفجأة ومضت الفكرة في بالها وشهقت: "يا الهي! انهم جميعا لي! الفريق كله من أولادنا!".

واستراحت وهي تبتسم. ماذا يخبىء لها الغد؟ لا أحد يعلم. لكن اليوم كان سعيداً، بل انها ثماني عشرة سنة سعيدة.

ايلين بتيفرو ■

---

(٥) Roller coaster

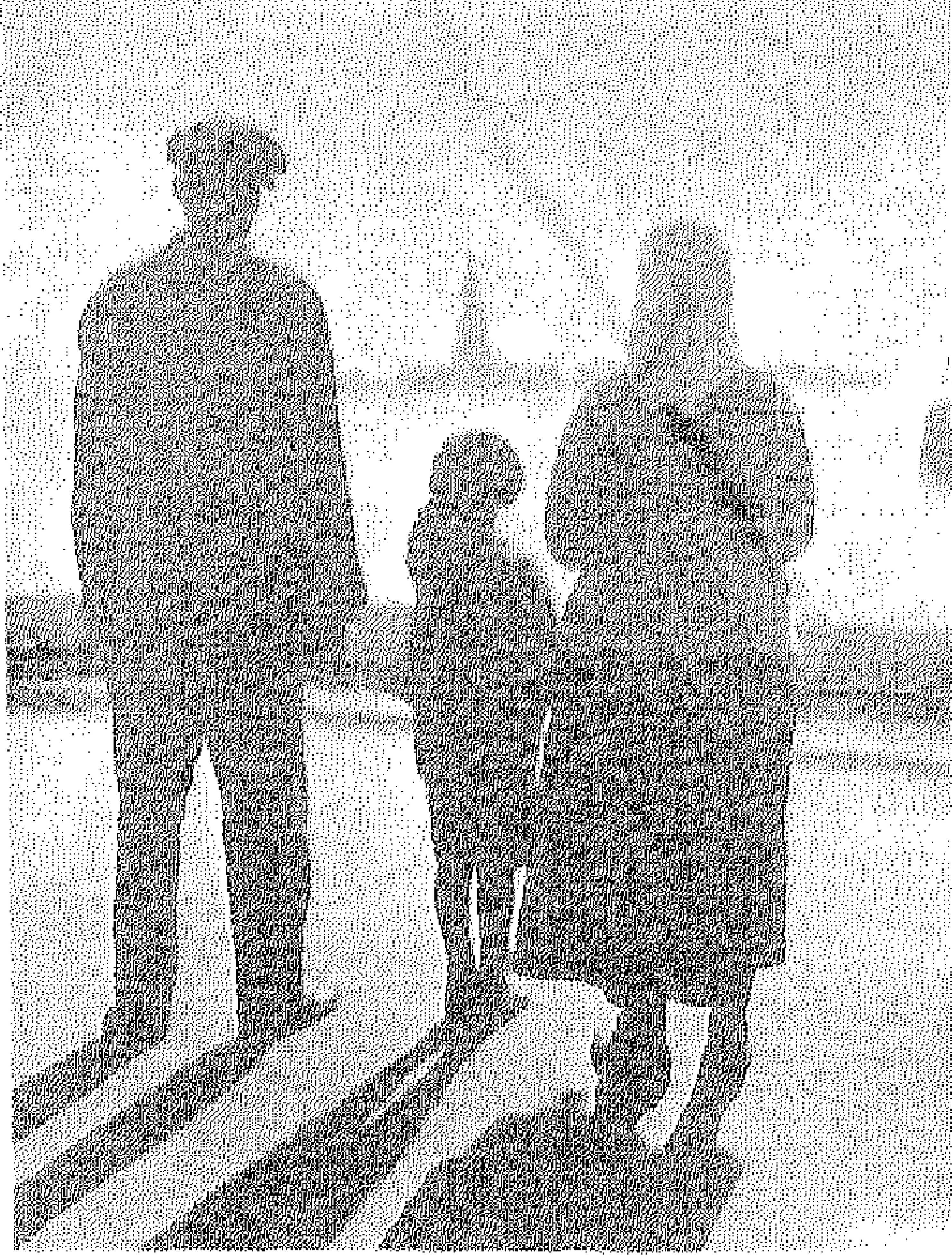
كتاب الشهر

# السيدة الحرية

ابتقت الفكرة من مناخ الحرية
في قرية صغيرة بفرنسا
وبرزت الى الوجود عام ١٨٨٦ في مرفأ نيويورك.
وهكذا أصبحت "السيدة" رمزاً للحرية و"أم المنفيين"
بالنسبة الى الملايين في أنحاء العالم.
صنعت من ألواح النحاس والاربطة الحديد،
لكن المتطلعين اليها يشعرون
أن لها قلباً من نار.

هذه السنة تم ترميم السيدة
واحتفل بعيدها المئوي.
وها هي قصة القرن الاول من حياتها،
مستقاة من الكتب والمجلات
والصحف ومن المصادر الاصيلة.
انها تحية الى "سيدة الحرية" التي
تستعد لحمل مشعل الرجاء والحنين
على مدى السنين المقبلة.

# تمثال الحرية



ان أول مشهد من امريكا وقعت عليه عيون الكثيرين من المهاجرين كان تمثال الحرية. وهم لن ينسوا هذا التمثال أبداً. ولقد استبدت الرهبة بادوار كورسي حين كان صبياً ايطالياً ني العاشرة من عمره اذ وقعت عيناه على هذا التمثال:(١)

"كنا على متن الباخرة "فلوريدا" بعدما قضينا ١٤ يوما في البحر عقب خروجنا من مرفأ نابولي. وكانت الباخرة مكتظة بـ١٦٠٠ مسافر من أبناء ايطاليا. كان سرورنا عظيماً، كلنا اولاداً وكباراً، لاننا غادرنا عرض البحر ودخلنا أخيراً خليج نيويورك.

"احتشد المسافرون حولنا أمام الحاجز على متن السفينة. ورفعت الامهات والآباء صغارهم لكي يتاح لهم كذلك أن يروا تمثال الحرية.

"ونظرت الى ذلك التمثال وقد تملكني شعور بالذهول وخامرني شك في حقيقته. كان ينتصب كشبح غائم في الضباب، وفرضت مهابته الصمت المطبق على متن السفينة فلوريدا. فهذا الرمز الذي يمثل أمريكا، هذا التعبير العظيم عن كل ما تلقناه على انه المعنى الذي تنطوي عليه هذه البلاد الجديدة التي نحن آتون اليها، أثار الرهبة في نفوس المهاجرين المفعمة بالرجاء."٢

ويستعيد البولوني آرنولد فايس ذكرياته: "تمثال الحرية أعظم شيء رأيته في حياتي. يا له من منظر مدهش! وإدراكك أنك أصبحت في هذه البلاد... يا الهي، شيء يكاد لا يصدق!"

ساره آشر مهاجرة من روسيا لا تزال تتذكر الضوء والالوان: "نهض جميع المسافرين في الساعة الرابعة او الخامسة صباحاً. وخرجنا جميعاً. كان تمثال الحرية جميلا في ضوء الفجر الباكر وأشعة الشمس الوهاجة. وكانت الالوان جميلة ومياه البحر مخضرة. بدا كبيراً جداً، وكانت الدموع تنهمر من جموع العيون."٣

---

(١) المصادر التي اقتطفت منها هذه المعلومات مدرجة في الصفحة قبل الاخيرة من هذا الكتاب. وكل رقم يشير الى المقطع السابق بكامله.

رأى أرمنفيلدو مانشي تمثال الحرية للمرة الاولى حين وصل الى الولايات المتحدة قرابة العام ١٩٠٠. وأثاره المشهد بحيث أنه نذر أن يزور التمثال كل عام في عيد ميلاده. وكان هناك يبتسم والدموع تترقرق في عينيه، في عيد ميلاده المئوي عام ١٩٧٩.[٤]

"بالنسبة الينا جميعاً، نحن الذين ولدنا هنا وعدنا من رحلاتنا ومن حربين عالميتين، كان التمثال يعني: "الوطن، لقد عدت الى الوطن." وفي مجيئنا وذهابنا في الطائرات هذه الايام لا نزال نرنو الى التمثال بتأثر ونهتف: "ها هو تمثال الحرية! هناك، تحت!"

العودة الى الوطن مبهجة. "لم أر في حياتي شيئاً يضاهي جمال سيدة الحرية في نيويورك." هذا ما كتبه الكابتن هاري ترومان(٣)، وكان في الرابعة والثلاثين من عمره في رسالة الى حبيبته بيس والاس لدى أوبته من الحرب العالمية الاولى. وأضاف: "انك تدركين أن هؤلاء الشبان صمدوا في مواقع كثيرة كانت محفوفة بالاخطار، ولكن حين عزفت الفرقة الموسيقية لحن "وطني الجميل" بقيت مآق قليلة لم تتبلل بالدموع."[٥]

هذا ما تكرر بعد الحرب العالمية الثانية. "ما ان أخذت ناقلة الجند المسماة "الجنرال هاري تايلور" تمخر في خليج نيويورك بعد ظهر ذلك اليوم القائظ من شهر اغسطس (آب) حتى احتشد نحو ٣٠٠٠ جندي منا نحن العائدين أمام حاجز السفينة لنرنو بلهفة الى ذلك المشهد الوحيد الذي يعني لنا الوطن. رفعنا رؤوسنا... ولاح لنا التمثال. انه تمثال امرأة مهيبة في ثيابها الخضراء الفاتحة ترفع المشعل مرحبة بنا. وبدا أن زفرة واحدة صعدت من ٣٠٠٠ حنجرة كادت تخنقها العواطف المتأججة.

"عدنا الى الوطن. أخيرا نحن في موطننا."[٦]

بالنسبة الى آخرين اضحى تمثال الحرية مزاراً ونصباً يحيي ذكرى رفقاء قضوا في سبيل الوطن.[١]

## معنى خاص

كان جو هيدروسكو بحاراً على سفينة – مستشفى في الاسطول الامريكي رست قبالة مرفأ بيرل هاربر في جزر هاواي في ٧ ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٤١. وبعدما ألقت القاذفات اليابانية قنابلها أدت بطولته الى انقاذ ما يزيد على ٣٠٠ جندي أمريكي جريح بمن فيهم ٢٤ رجلا احتبسوا في البارجة "أوكلاهوما" المنقلبة. وفي العام ١٩٦٩، عند بلوغه الخمسين من العمر، أضحى جو طياراً مجازاً. وفي ٧ ديسمبر (كانون الاول) من كل عام دأب على التحليق بطائرته فوق تمثال الحرية والقاء باقات من الورد تكريما لرفقائه البحارة الذين لم يؤوبوا الى الوطن قط.

توفي هيدروسكو في شهر يوليو (تموز) من العام ١٩٨٣، وأقسم فريق من أصدقائه الطيارين على متابعة هذا التقليد الذي التزمه. وفي السابع من ديسمبر ١٩٨٥ قامت ١١ طائرة بهذه التحليقة. فحامت عشر منها في تشكيل

---

(٣) أصبح هاري ترومان في ما بعد الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة.

واحد فوق التمثال بينما هبطت الحادية عشرة الى مستوى منخفض. وعندئذ انحنى مايك سافاريز، وهو واحد من البحارة الذين أنقذهم هيدروسكو، وألقى ٤٤ وردة حمراء واحدة عن كل من السنوات التي انقضت على الغارة على بيرل هاربر، مع زهرة وردية واحدة تكريماً لذكرى جو هيدروسكو.٤

يقول دانيال بورستين أمين مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة: "أحس أني أصبحت أمريكيا من جديد كلما رأيت تمثال الحرية."

ويتذكر المؤرخ البارز بول هورغان أنه جاء في طفولته من شمال ولاية نيويورك مع والده الذي احضره لمشاهدة التمثال لانه "كان يحاول أن يجعل مني مواطنا امريكياً."٥

ان الرجال الذين عملوا على اصلاح ما فعلته عوادي الزمن والطقس في التمثال تتملكهم عاطفة قوية تشدهم اليه. وقد ساعد روبرت كونمي في انشاء سقالة ضخمة من الالمنيوم تحتضن التمثال في أثناء جهود الترميم الواسعة التي أجريت في أواسط الثمانينات. قال كونمي لمراسل صحيفة "نيويورك تايمس" انه "كان بين الاشخاص الاوائل الذين قيض لهم في غضون ٩٨ سنة من عمر التمثال أن يحدقوا عن كثب الى عينيه التي تتسع كل منهما نحو ثلاثة أرباع المتر." وحين اقترب من "السيدة" قبلها قبلة عظيمة.

كثيرون أحبوا "السيدة"، منهم ما يزيد على مئة ألف فرنسي رجالا ونساء وأطفالا تبرعوا بفرنكاتهم التي جنوها بالجهد المضني ليصنعوا تمثالها، وما يزيد على ١٢٠ ألف أمريكي من كل الاعمار جادوا بسنتاتهم ودولاراتهم لبناء القاعدة التي تليق بمقامها، وملايين المهاجرين الذين انتعشت قلوبهم لرؤية مشعل الترحيب.٤ كذلك ملايين الزوار. فلكل من هؤلاء كانت السيدة تمثل معنى خاصاً.١

قال تشارلي ديليو وهو ميكانيكي صيانة في التمثال: "ان لها شخصية خاصة بها، شخصية قوية، راعية. انها تخاطب الناس بلغة صامتة يفهمها الجميع. انها تنطق بما ناضل الناس من اجله عبر مئات السنين. هذا التمثال مزار يُقصد."٤

مزار، رمز موطن ورجاء، نصب تذكاري لرفقاء؟ التمثال لم يبدأ هكذا.١

## ولادة حلم

كانت أشجار الحور ترتسم بلون قاتم على زرقة السماء عند الغسق ذات ليلة صيف من العام ١٨٦٥ في غلاتينيي القرية الفرنسية الصغيرة في ضواحي باريس، حين زرعت البزرة الاولى. كانت نوافذ القصر تشع بالانوار الصفراء المنبعثة من الشموع حين جلس فريق من الاعيان الفرنسيين بعد عشاء فاخر في مقاعد من الخشب المحفور يبحثون في شؤون بلادهم.

جميعهم كانوا من الاعيان البارزين، ولكن لم يكن بينهم من هو أبرز من مضيفهم ادوار رينيه لوفيفر دي لابولاي. كان استاذاً في القانون وأشد مناصري الولايات المتحدة في فرنسا. وكلما تعمق في تمحيص دستور الولايات المتحدة

ازدادت رغبتـه في اقـامـة ديموقراطية على النهج عينه في بلاده.

مع احتساء كؤوس الشراب تحول الحديث الى مـوضوع الاعتراف بالجميل بين الامم. وانتصب لابولاي واقفاً على قدميه وعيناه تلتمعان وقال: "ان الولايات المتحدة تكنّ عاطفة لفرنسا أكثر مما تكنّ لأي أمة اوروبية أخرى."٦ ثم ذكر ضيوفـه بأن الـولايات المتحدة ستحتفل بعد وقت وجيز بالعيد المئوي لثورتها.٤ وضرب الطاولة بيده وأضاف: "اذا كان لنصب تذكاري أن يقوم في الولايات المتحدة تخليداً لذكرى استقلالها فأنا احسب ان من الطبيعي أن يبنى هـذا النصب بجهـد مشتـرك تساهم في أمتانا معاً."







(فوق) النحات بارتولدي وأمه التي كانت سيماؤها التقليدية نموذجاً لتمثال الحرية. (الى اليمين) ادوارد رينيه لوفيبر دي لا اقترح اقامة نصب للحرية ونظّم تمويل المشروع بين الفرنسيين. (الى اليسار) غوستاف ايفل مصمم هيكل التمثال الذي يعتبره المهندسون العصريون "رائعاً اليوم كما كان قبل مئة سنة."

وكان شاب يافع من العاملين لدى المضيف يصغي بانتباه الى هذا الحديث. والكلمات الاخيرة التي نطق بها لابولاي اثارت اهتماماً خاصاً في الضيف الشاب، اذ انه كان نحاتاً. وكان اسمه فردريك اوغوست بارتولدي.٦

كان بارتولدي في الثامنة عشرة من عمره حين أوكلت اليه أول مهمة ذات صفة عامة، وهي نحت تمثال لقائد في جيش نابوليون الاول. وحين أزيح الستار عن التمثال بعد أربع سنوات حقق حجمه المثير وأسلوب نحته الديناميكي شهرة فورية لصانعه بارتولدي. وفي غضون العقد التالي صنع نصباً تذكارية بأحجام عملاقة لبضع مدن فرنسية. وكانت تسحره الاحجام الضخمة في النحت.٤

كان بارتولدي مثاليا بفطرته. واتخذ موضوع الحرية مغزى خاصاً في نفسه بعد الحرب الفرنسية - البروسية بين ١٨٧٠ و١٨٧١.١٤ التي انتهت بهزيمة ساحقة لفرنسا وابعاد الامبراطـور نابـوليون الثالث. وغدت فرنسا جمهورية مرة أخرى، غير أن الحكومة الجديدة كانت ضعيفة. وكانت القوى العظمى تأمل اعادة حكم الملوك.٤ وهكذا حين اجتمع لابولاي وبارتولدي مع آخرين في غلاتينيي في



Photos: Top, courtesy Musée Bartholdi, Colmar; left, The Bettmann Archive, Inc.; right, Culver Pictures, Inc.

مطلع ربيع ١٨٧١ كان جو الاجتماع في قاعة الطعام مختلفاً تماماً عما كان قبل ست سنوات. في هذا الوقت خيم على هذا اللقاء ظل من التشاؤم فيما الحاضرون يفكرون كيف يستطيعون تحقيق حكم أكثر ديموقراطية في بلادهم على غرار حكومة الولايات المتحدة.

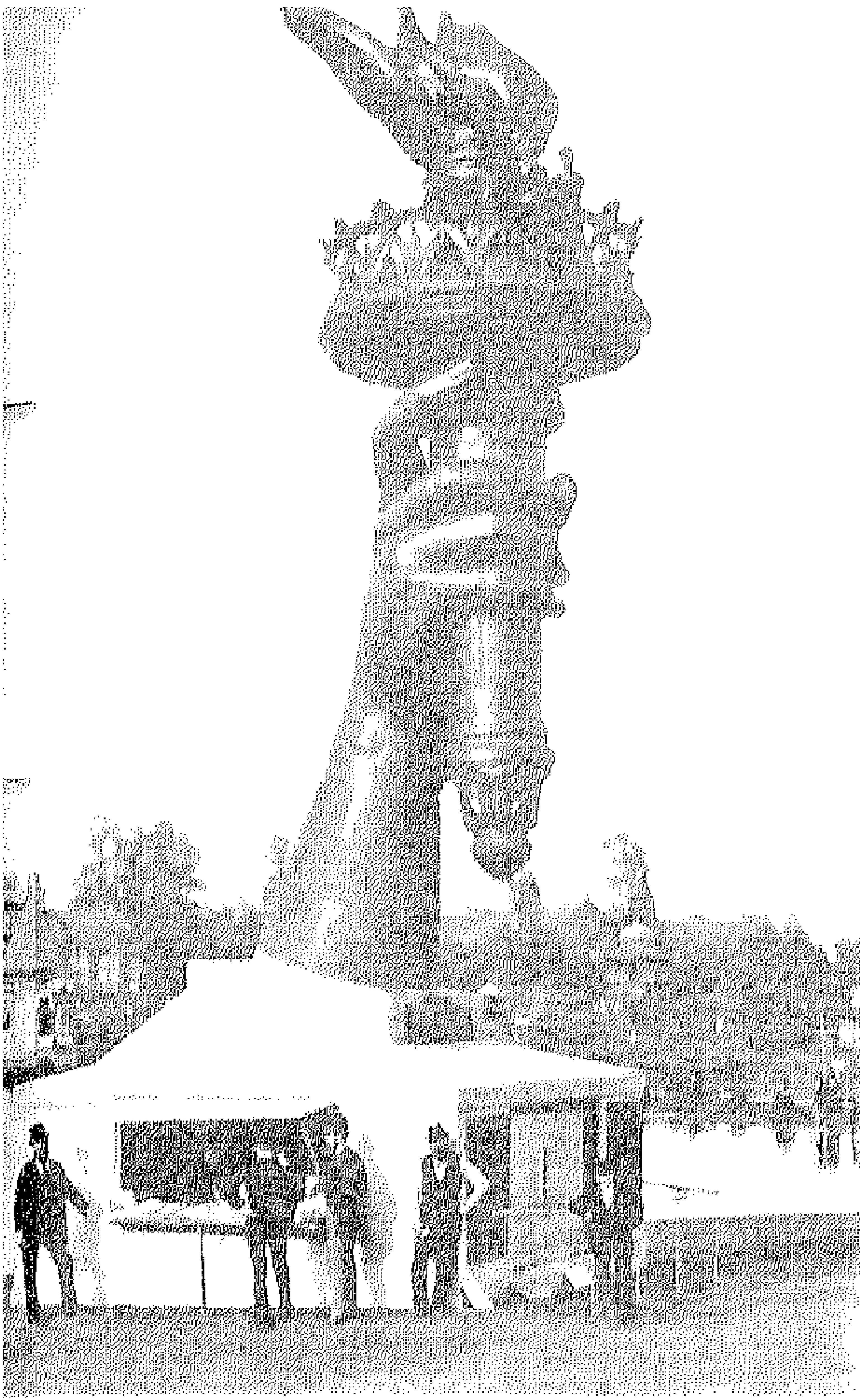
نظر لابولاي حوله وسأل هل الوقت غير مناسب لاقامة النصب التذكاري الذي اقترحه قبل ست سنوات.[٦]

عندئذ ذكّر بارتولدي بأن العيد المئوي لاستقلال الولايات المتحدة يحين بعد خمس سنوات، وسأل أي تذكار يمكن أن يكون أنسب لتخليد النضال المشترك في الثورة الامريكية. ألا يمكن أن تؤدي حملة في الامة الفرنسية لتخليد هذه الذكرى الى تعزيز مشاعر الفرنسيين تجاه النظام الجمهوري؟[٤]

قال: "أحسب من الخير أن نعرض على الامريكيين تمثالا... تمثالا للحرية." وتعالى الهتاف من الحضور وانهالت عبارات الاستحسان لاقامة تمثال يمثل "الحرية التي تنير العالم."[٦]

تطوع بارتولدي للقيام برحلة الى الولايات المتحدة على نفقته الخاصة، من أجل الاطلاع على مشاعر الامريكيين وآرائهم في هذا الصدد وايضاح تفاصيل الخطة لهم ومحاولة اقناعهم بالمشاركة في تحمل النفقات.

في شهر يونيو (حزيران) من ذلك العام وصل بارتولدي الى نيويورك. وأثار اعجابه مشهد المرفأ المهيب والاعمال التجارية الناشطة فيه. وحين كانت سفينته تعبر المضيق للوصول الى الخليج

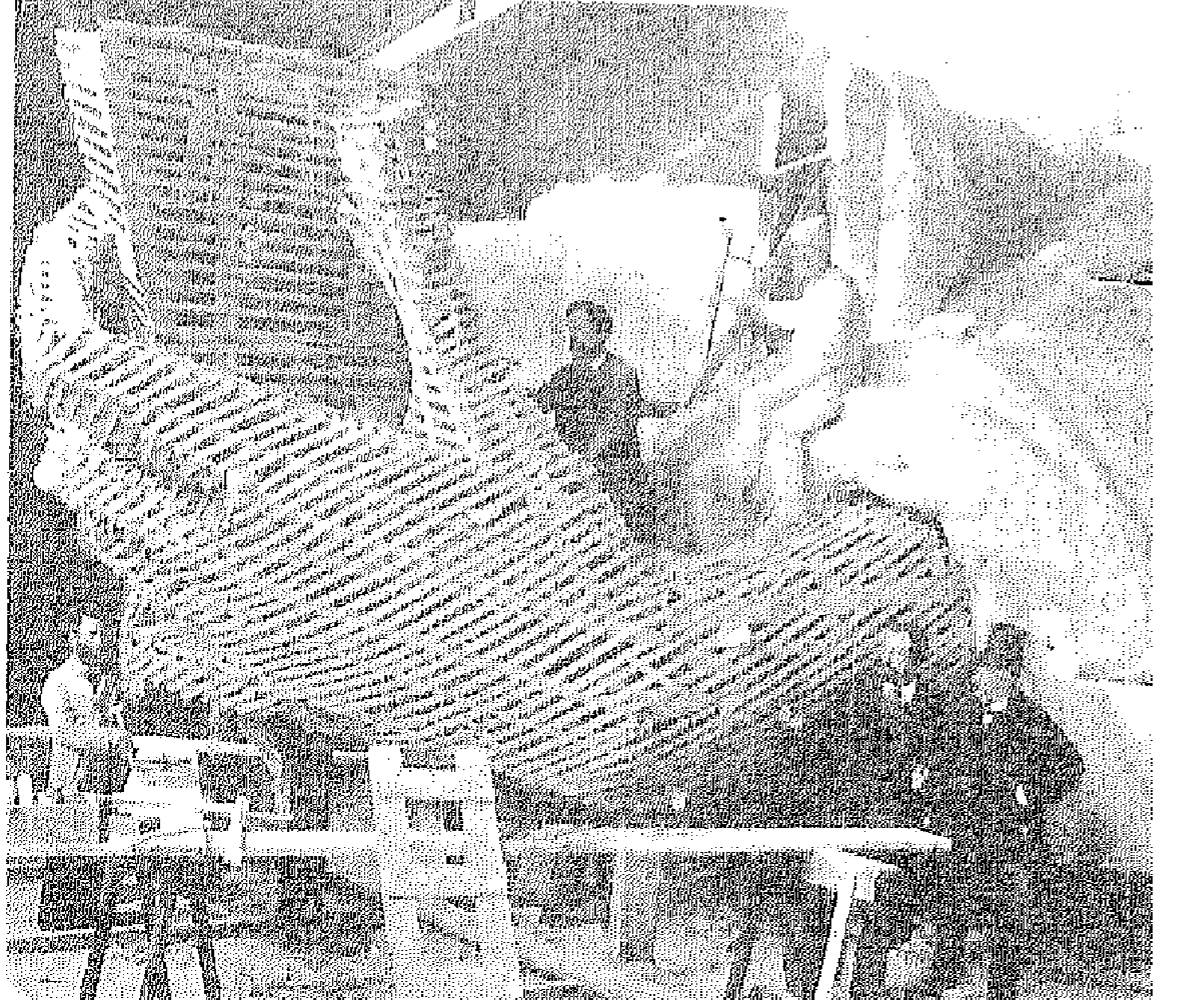


لاحظ وجود جزيرة هناك. كل من يصل الى هذه البوابة لامريكا يتحتم عليه ان يمر بها.

وأدرك بارتولدي حالا أنه عثر على الموقع المثالي للنصب الذي يسعى الى اقامته. ذلك الموقع كان يدعى آنذاك جزيرة بدلو. وابتهج بارتـولدي حين اكتشف، كما ذكر في كتابه الى لابولاي، أن ملكية هذه الجزيرة تعود الى الحكومة، اي انها أرض مشاع للولايات المتحدة كلها.[٤]

رسم بارتولدي بسرعة ما رأى. خلف مشهد الجزيرة كانت منطقة مانهاتن تمتد الى الافق المغشى بالضباب. والى اليسار يسار الصورة ظهر نهر الهدسون وزاوية من ولاية نيوجرزي. والى اليمين

Photo: The Bettmann Archive, Inc.



(فوق) في أسفل اليمين، بارتولدي (من دون قبعة) يراقب عملية صنع يد السيدة وهيكل ذراعها في مشغل في باريس.
(الى اليمين) ذراع "آنسة الحرية" ومشعلها، وقد اكتمل صنعهما في الوقت المناسب للعيد المئوي لقيام الولايات المتحدة وكانا من المعروضات التي أحرزت شعبية في المعرض المئوي في فيلادلفيا عام ١٨٧٦.

نموذجاً لصنع تمثال "الحرية التي تنير العالم." لكن التمثال الذي أخرجه شابه امرأة لها سيماء أشد تراثية وصرامة من سيماء زوجته. انه وجه أم بارتولدي.٨

وفي النهاية عزم بارتولدي على أن يحمل التمثال بيده وذراعه اليسريين لوحة تخلد ذكرى تاريخ اقرار اعلان الاستقلال، أي الرابع من يوليو (تموز) ١٧٧٦، وأن تخطو ساق السيدة الى الامام وكأنها تسير بعزيمة وتدوس أصفاد العبودية المحطمة. كما قرر أن تعتمر تاجاً تنطلق منه سبعة اشعاعات ترمز الى قوة الحرية التي تطلق أشعتها فوق البحار السبعة والقارات السبع.٤

امتدت أبراج جسر بروكلين غير المكتملة فوق النهر.

ووسط المرفأ رسم بارتولدي التمثال الذي تخيله فارعاً في السماء المضيئة: امرأة ضخمة من البرونز، تمثالا بحجم هائل.٧

## الاصابع العملاقة

خطط بارتولدي لصنع تمثال قد يكون أضخم تمثال صنع أبداً. ولكن أي شكل سيعطيه؟

التقى بارتولدي في حفلة زفاف فتاة سمراء جميلة اسمها جان اميلي باهو دي بويزيو. ويعتقد كثيرون أنه استخدم هذه الفتاة، التي أصبحت في ما بعد زوجته،

حتى ذلك الحين بقي تمثال الحرية نموذجاً من الطين في مشغل بارتولدي. ترى كيف يتسنى له أن يضخمه ليغدو ذلك التمثال الجبار؟ الطريقة التقليدية المتبعة في صب التماثيل من المعدن المصهور لم تكن تفي بالغرض. اذ ان مثل هذا التمثال الثقيل، وإن قطع أجزاء، سيكون من المستحيل شحنه في سفينة، ناهيك باقامته على قاعدته.

تذكر بارتولدي عندئذ طريقة "التصويج" (repoussé) القديمة التي صنع بها، كما يقال، تمثال "جبار رودوس".٦ التصويج بالمعنى الحرفي تعني تطريق رقائق معدنية من الداخل لتكوين الصورة



Photo: Photoworld / FPG

المكتملة في الخارج.[٩] والتماثيل المصنوعة بطريقة التصويج تكون أساساً أطباقاً مجوفة وداخلها هيكل ثابت له من الصلابة ما يمكنه من مقاومة أعتى العواصف. ولصنع بشرة التمثال فضل بارتولدي استخدام النحاس نظراً الى خفته وسهولة تطريقه. وحين يتعرض النحاس للهواء يكتسي طبقة خضراء جميلة من الزنجار، ويكفي أن تكون سماكته مليمترين.

واتخذ بارتولدي القرار الجسور بأن يصنع تمثاله بارتفاع لم يسبق له مثيل ويبلغ ٤٦ متراً. وأظهرت حساباته أن التمثال بذلك الطول يجب أن يكون قطر خصره ١١ متراً وطول أنفه متراً وربع متر، وطول سبابة يده مترين ونصف متر. ولم يكن في وسع بارتولدي سوى أن يخمن كم سيكون وزن هذا التمثال الضخم.[٤]

المشغل الوحيد الذي توافرت فيه التسهيلات لانجاز مثل هذا المشروع كان "موندوي وبيشيه" الذي دعي في ما بعد "غاجيه وغوتييه وشركاهما" في باريس.[٦] وحجز المشغل كله لصنع التمثال. واستخدم بارتولدي فريقاً من المحترفين المهرة.

الخطوة التالية كانت التعاقد مع مهندس معماري شهير هو أوجين ايمانويل فيوليه ليدوك، من أجل تصميم الهيكل الذي سيحمل التمثال. وخرج فيوليه ليدوك بفكرة بارعة لكنها مرهقة، تقضي بأن تكون العناصر الداعمة حجرات تملأ بالرمل. وكل حجرة يمكن أن تفرغ من الرمل كلما أصبح أي جزء من بشرة التمثال في حاجة الى اصلاح.[٤]

بينما كان بارتولدي منهمكاً في العمل للتوفيق بين الافكار والاشكال والاساليب التي تحقق له حلمه، تعهد لابولاي الاهتمام بتمويل المشروع. وكانت الخطوة الاولى تشكيل منظمة يكون هو رئيسها دعاها "الاتحاد الفرنسي الامريكي."

فتح الاتحاد حساباً مصرفياً وأسس مكتباً في موقع محترم في باريس. وفي ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٨٧٥ نشر دعوته العامة الاولى، وجاء فيها: "اننا سنقدم التمثال الى أصدقائنا الامريكيين عربون محبة، وهم بدورهم سيوفرون نفقات بناء قاعدته." حتى أزهد مساهمة كانت تقبل بامتنان.

الفورة الاولى من التجاوب بدت مشجعة. وتبرع أحد كبار صناعيي المعادن بتقديم جميع ما يتطلبه المشروع من النحاس. وعندما ذهب اليه بارتولدي شخصيا ليشكر له تبرعه قال الصناعي وهو يبتسم بخجل: "انا لست أميراً لكنني أحب الحرية. وأحب أمريكا. وأود أن اظهر للملأ أن الفرنسي يمكن أن يضاهي الامريكيين في الوطنية."

في زهو من الاستبشار بالتوقعات العظيمة قرر الاتحاد اقامة مأدبة في ٦ نوفمبر (تشرين الثاني). وكانت مناسبة مؤثرة أبرزت نموذجاً لـ"الحرية التي تنير العالم."

كان لنبل فكرة بارتولدي أثر بالغ في النفوس مما حرك المشاعر للتباري في الخطابة التي حملت لابولاي على اقتراح تحية الصداقة الابدية بين فرنسا والولايات المتحدة.

انطلقت الحملة الصاخبة حسناً. ولكن

بعد التبرع ببضعة ألوف أولى من الفرنكات أخذ الدفق يشح حتى غدا نذراً ضئيلا. وبدا أن مشروع التمثال الضخم سيجهض قبل ولادته.

ثم خرج بارتولدي بفكرة رائعة لاشراك القطاع التجاري الفرنسي في المشروع بأسلوب مربح. وقضت الفكرة "بأن يمنح كل من يرغب في الربط بين انتاجه وهذا النصب التذكاري حق نقل صورة التمثال وترويجها تجارياً." وبدأ بارتولدي يتلقى دعماً مالياً من عدد من المدن الفرنسية ومن الجمعيات والمؤسسات.[١]

## "سوف تصمد"

بحلول العام ١٨٧٦ أدرك الاتحاد أن عليه أن يرسل على الاقل بجزء من التمثال غير المكتمل كهدية رمزية في العيد المئوي للولايات المتحدة.[٥] وتسارع العمل ونقلت الذراع التي تحمل المشعل على وجه السرعة الى معرض فيلادلفيا المئوي في شهر أغسطس (آب).

وتبين أن الذراع والمشعل كانا من أكثر المعروضات في الاحتفال المئوي غرابة وشعبية. وكان الزوار يلجون داخل الذراع ويتسلقون سلماً ضيقة لبلوغ قمة المشعل ليحظوا بمشهد رائع لاراضي المعرض.[٩]

بعد انتهاء المعرض نقلت الذراع والمشعل الى مدينة نيويورك. وهناك عرضا لبضعة أشهر في حديقة "ماديسون سكوير" فأثارا اهتماماً شعبياً واسعاً مما ساعد على استدرار التبرعات لاقامة التمثال. وأخيرا أعيد شحنهما الى باريس.[٤]

وانتقل بارتولدي الى المرحلة التالية وهي أعداد الرأس والكتفين لمعرض باريس العالمي الذي كان مقرراً صيف ١٨٧٨.[٥] ووصف مراسل لصحيفة "وورلد" النيويوركية المشهد داخل مشاغل "غاجيه غوتييه" فقال: "ثمة ٥٠ عاملا يطرقون النحاس بكل ما أوتوا من قوة. وقد تسلقت سقالة ووقفت على مستوى عينُ التمثال الرهيبة وطولها حوالى ثلاثة أرباع المتر من طرف الى آخر، فاستوعبتني بنظرتها الغامرة. وبدا أن عدداً من الاقزام من فصيلتنا كانوا يدبون في جوف بدا كأنه خلقين ضخم لتكرير السكر. وأدركت أنهم رجال يجهدون في صنع تاج لرأس التمثال."

عندما اكتمل صنع الرأس رفع على عربة ناقلة يجرها ١٣ حصاناً ونقل الى الموقع المحدد له في المعرض. وتجمع جمهور صاخب يهتف للحرية بينما كان التمثال يخترق شوارع باريس. وذكر أحد الصحافيين أن الرأس الضخم كان عند كل منعطف يميل قليلا على الدكة المصنوعة من القضبان والقش تحته، وكأنه يحيي المعجبين. وكتب هذا الصحافي: "رغماً عني رفعت يدي الى قبعتي لأرد له التحية."

ولكن بعد اقفال معرض باريس في نهاية ١٨٧٨ بقي الاتحاد الفرنسي - الامريكي في حاجة الى مبلغ من المال لتغطية تكاليف صنع التمثال.[٩] ولم يثبط ذلك من عزيمة بارتولدي، فبدأ العمل في صنع الجسم الضخم. ولكن في العام ١٨٧٩ توفي فيوليه ليدوك فجأة من دون أن يتم تصميم الهيكل. ولم يبقَ امام برتولدي

سوى أن يلجأ الى المهندس الوحيد في فرنسا القادر على مواجهة التحدي وتصميم الهيكل الداخلي الذي يجب أن يحمل ثقل التمثال ويبقيه صامداً في وجه العواصف الاطلسية التي تهب على شاطىء نيويورك.

كان غوستاف إيفل هو الخيار المناسب تماماً. ففي حين كانت أفكار فيوليه ليدوك ذات طابع قديم كان إيفل يفكر في نهج تقنية القرن العشرين بعدما أوكل اليه انشاء جسر عبر مياه نهر غارون المضطربة في جوار مدينة بوردو. ولم يكن إيفل بنى جسرا من قبل، فانصرف الى العمل لانجاز المشروع ضمن مهلة زمنية تكاد تكون مستحيلة. وفي أحد أيام فبراير (شباط) القارسة سقط أحد العمال في نهر غارون وجرفه التيار. وكان ايفل سباحا ماهراً فخلع معطفه الرسمي وحذاءه والقى بنفسه في المياه وأنقذ العامل. وبعد ذلك عاد ايفل وانتعل حذاءه وارتدى معطفه الرسمي فوق قميصه وسرواله اللذين كان يقطران ماء وعكف على متابعة عمله كأن شيئا لم يحدث.[٧]

ولولا مساهمة ايفل الخاصة لكان من المشكوك فيه أن نجد تمثال سيدة الحرية قائماً حيث هو الآن. وكان تصميمه لدعم التمثال من الداخل يقضي بأقامة برج قوي في الوسط يتألف من أربعة أعمدة رابطة ترتفع من القاعدة الى عنق التمثال. من هذا "العمود الفقري" تتشعب أعمدة أصغر حجما تصلها قضبان دقيقة شبيهة بالرفاصات بالجهة الداخلية من الالواح النحاسية التي تشكل بشرة التمثال. هذه الالواح في الواقع تبقى معلقة عند رؤوس القضبان التي تسمح لها بالتمدد والتقلص مع تبدلات الحرارة وضغط الريح.

هذا التصميم الفريد كان ابداعاً رائداً أوحى أسلوب ناطحات السحاب الحديثة. فالالواح النحاسية في التمثال لا يحمل بعضها ثقل البعض الاخر، لكنها تتعلق كلها على الدعائم الداخلية، تماما كالجدران الخارجية في ناطحات السحاب التي تتدلى من الهيكل الفولاذي.[٦]

على غرار بارتولدي لم يكن إيفل مفتقراً الى الثقة بنفسه. وحين سئل الى أي حد يستطيع هذا البناء الذي أبدعه الصمود في وجه عوادي الطبيعة اجاب ببساطة رائعة: "سيصمد."

## شاعرة صاعدة

في تجربة أولية ولاستقطاب اهتمام المتبرعين بالمشروع قرر بارتولدي أن يجمع أجزاء التمثال في باريس موقتاً.

صادف ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٨٨١ الذكرى المئوية لمعركة يوركتاون. وكانت القوات الفرنسية أدت دوراً حاسماً في تحقيق الانتصار الذي أمن نجاح الثورة الامريكية. ومن أجل تخليد هذه المناسبة دعي الوزير الامريكي المفوض لدى فرنسا ليفي مورتون ليعاون في تثبيت أول لوحة نحاسية على الدرع الحديد. وتحت انظار بارتولدي وأعضاء الاتحاد الفرنسي – الامريكي دق مورتون أول رابط فولاذي في اصبع القدم اليسرى لتمثال الحرية.[٩]

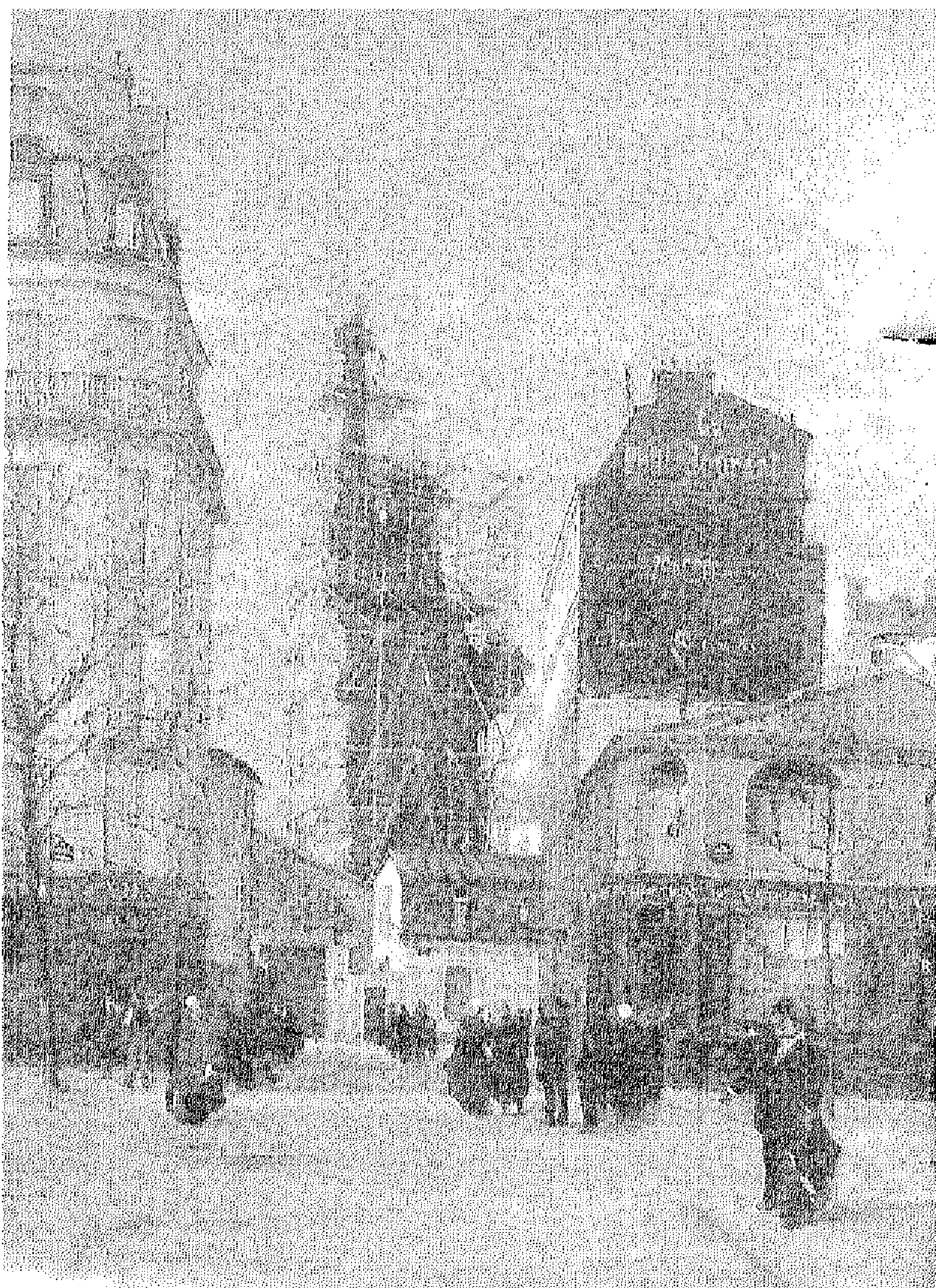
كان هذا الاحتفال بمثابة انتصار أخير بالنسبة الى لابولاي، إذ غدا يأمل أن يكون

عليه أن يرفع المشعل للتمثال الذي وصفه لابولاي بأن له: جسماً من حديد وروحاً من نار."[6]

واستمر العمل طوال فصل الربيع ذاك. وفي الباحة خارج مصانع "غاجيه وغوتييه" بنى النجارون منصة خشبية ضخمة حول التمثال. وفي كل يوم دأب النحاسون والحدادون على تسلق عدد من السلالم لتثبيت الالواح النحاسية الرقيقة التي تؤلف جلد تمثال الحرية على الهيكل الحديد.

وبحلول شهر يوليو (تموز) اكتمل صنع التمثال حتى الخاصرة، وقرر بارتولدي أن يقيم احتفالا لعماله. وحمل الطعام والشراب الى طاولة وضعت فوق المنصة في جوف التمثال بين الحبال والاسلاك والرافعات. وكان في عداد المدعوين الى الحفلة المهندس إيفل والحرفيون البارزون العاملون مع بارتولدي وعدد من الصحافيين، اذ ان بارتولدي لم يفوت فرصة للترويج للتمثال.

هامة التمثال أمست في النهاية تهيمن على ذلك الجزء من باريس الذي يحيط بمشاغل"غاجيه -غوتييه". وبحلول ديسمبر (كانون الاول) كتب بارتولدي: "أخذ التمثال يعلو فوق المنازل. والربيع



التمثال وقد جمع موقتاً في مشاغل "غاجيه - غوتييه" يهيمن على مشهد شارع باريسي رسمه الفنان فكتور دارغو عام ١٨٨٤.

Photo: Giraudon / Art Resource

النصب جاهزا في الوقت المناسب للذكرى المئوية لتوقيع معاهدة السلام عام ١٧٨٣ التي وضعت رسمياً حداً للثورة الامريكية. الا أن صحته كانت واهنة وراوده شك في أنه قد لا يعيش حتى ذلك الوقت.[4]

وحين توفي لابولاي في مايو (أيار) ١٨٨٣ خلفه كرئيس للاتحاد الفرنسي - الامريكي فردينان دي ليسبس المهندس الشهير الذي شق قناة السويس. وأضحى

المقبل سيجده قد علا فوق المدينة."[9]

في حين أوشك بناء التمثال على الاكتمال في باريس، نظمت اللجنة الامريكية لتمثال الحرية حملة لجمع المال في نيويورك من أجل بناء القاعدة.

وتقرر أن تباع بالمزاد مخطوطات لكتّاب مشهورين. كما طلبت اللجنة من ايما لازاروس، وهي شاعرة معروفة في الرابعة والثلاثين من العمر، أن تؤلف أغنية للمشروع.

في العام ١٦٤٩ هاجر أجداد لازاروس من البرتغال واستوطنوا نيويورك التي كانت في ذلك الحين مستعمرة هولندية تدعى أمستردام الجديدة. وازدهرت اعمال العائلة هناك عبر الاجيال. وفي طفولتها تثقفت لازاروس على مدرسين خصوصيين. وعندما بلغت السابعة عشرة نشرت أول كتبها. وكانت شهرتها كشاعرة تتنامى حين اتصلت بها اللجنة.

وجاء جواب لازاروس جازماً: "أنا لا أنظم الشعر على الطلب."

## الجبار الجديد

لكن في ذلك الحين وصلت سفينة الى نيويورك ناقلة ٢٠٠٠ لاجئ من روسيا. ووضع هؤلاء في مساكن موقتة في جزيرة "وارد" في النهر الشرقي. وخرجت لازاروس من منزل عائلتها الفخم وأبحرت على طوافة لمشاهدة هؤلاء اللاجئين.

كانت جزيرة وارد مكسوة بالقمامة. ولم يكن يتوافر للاجئين وسائل تدفئة، وكانوا يقاسون البرد القارس في ملابسهم الرثة. ولم يكن في المهاجع مغاسل كما لم يتوافر طعام كاف.[7]

وتبدلت حال لازاروس تأثراً بما رأت عيناها. وبدا أن تلك كانت المرة الاولى التي يقع نظرها على فقراء مضطهدين. وأطلقت مشاهدتها سيلا عارماً من الولاء.[5] ووجدت نفسها متحدة مع أولئك الناس.

في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٨٣، بعد يومين من رفض لازاروس طلب اللجنة، نظمت القصيدة الآتية وارسلتها الى لجنة التمثال:

### الجبار الجديد

على نقيض ذلك الجبار اليوناني العاتي

الذي تمتد ساقاه القاهرتان فوق الخليج،

ستقف هنا على عتبات أرضنا التي تغسلها الامواج

امرأة عظيمة ترفع مشعلا، نوره من البرق المحبوس،

اسمها أم المنفيين، ومن يدها التي تحمل القبس

ينطلق النور مرحباً بالقادمين،

وعيناها الرفيقتان تهيمنان على المرفأ.

انها تصرخ من خلال شفتيها الصامتتين:

"احتفظي ايتها الاراضي القديمة بأبهتك المأثورة،

وارسلي الي المرهقين والفقراء

وجماهيرك التي تتوق الى التنفس بحرية

والمخلفات البائسة على شطآنك الزاخرة.

The New Colossus.
Not like the brazen giant of Greek fame,
With conquering limbs astride from land to land;
Here at our sea-washed, sunset-gates shall stand
A mighty woman with a torch, whose flame
Is the imprisoned lightning, and her name
Mother of Exiles. From her beacon-hand
Glows world-wide welcome, her mild eyes command
The air-bridged harbor that twin-cities frame.
"Keep, ancient lands, your storied pomp!" cries she,
With silent lips. "Give me your tired, your poor,
Your huddled masses yearning to breathe free,
The wretched refuse of your teeming shore;
Send these, the homeless, tempest-tost to me,
I lift my lamp beside the golden door!"

Emma Lazarus.
November 2nd 1883.



ايما لازاروس التي هاجر أجدادها من البرتغال الى نيويورك عام ١٦٤٩ دفعتها مشاعرها المستثارة الى نظم قصيدة "الجبار الجديد" (الى اليسار) بعدما شاهدت الاحوال المزرية للمهاجرين الهاربين من حملات الاضطهاد عام ١٨٨٣.

ارسلي هؤلاء البؤساء الذين لا مأوى لهم
الذين تتقاذفهم العواصف. أرسليهم الي.
فها أنا أرفع مشعلي عند البوابة الذهبية.[٧]

لم يدر في خلد بارتولدي أو لابولاي ايجاد صلة بين التمثال والرجاء بحياة جديدة في امريكا للتعساء والمضطهدين، بل كان هدفهما فقط أن يكون التمثال رمزاً للحرية كمثل اعلى وقوة تاريخية.[١] لكن ايما لازاروس رأت "الجبار الجديد" من زاوية اخرى تختلف تماما عن نظرتهما.[٥] والامريكيون الذين وجدوا في الرمز الاولي للتمثال معنى مجرداً فحسب، تقبلوا نظرتها اليه بحرارة.[٩]

بحلول العام ١٩٠٣ أضحى التمثال مرتبطاً على نحو لا ينفصم بموجة الهجرة المتدفقة التي تمر حوله. وفي تلك السنة تولت امرأة تدعى جورجينا شويلر، وكانت صديقة للشاعرة لازاروس، ترتيب عملية حفر قصيدة "الجبار الجديد" على لوحة



Photos: Facsimile of Poem, Museum of the City of New York; Emma Lazarus, Library of Congress

معدنية داخل القاعدة. وهذه القصيدة التي طبعت ودونت ودرسها الطلاب أخذت تشتهر تدريجاً لتصبح مألوفة لدى الناس كالتمثال ذاته.[٥]

ومن المحزن أن ايما لازاروس لم يقيض لها قط أن ترى تمثال الحرية. فهي سافرت الى أوروبا عام ١٨٨٥ قبل أن يعاد تشييد التمثال على جزيرة بدلو. وحين رجعت الى أمريكا بعد سنتين دخلت سفينتها مرفأ نيويورك في ظلام الليل وكانت هي تعاني داء السرطان. ونقلت مباشرة الى بيتها حيث توفيت بعد وقت قصير من عودتها ولها من العمر ٣٨ عاماً.[٩]

## تعثر المساعي

انتهى العمل في باريس في شهر يونيو (حزيران) ١٨٨٤.[٤] وفي ٤ يوليو (تموز) ازدانت ساحة مصانع "غاجيه - غوتييه" بالاعلام. وتجمع حشد من الاعيان حول قدمي سيدة الحرية بينما كانت جوقة موسيقية تعزف نشيدي "المارسييز" (النشيد الوطني الفرنسي) و"العلم المرصع بالنجوم" (النشيد الوطني الامريكي). وتولى دي ليسبس، ممثلا فرنسا، تقديم التمثال رسمياً كهدية الى الشعب الامريكي. وأعلن: "نرجو أن يبقى هذا التمثال الى الابد ميثاق صداقة بين فرنسا وجمهورية الولايات المتحدة العظيمة."

وبحلول عيد رأس السنة ١٨٨٥ أعلن بارتولدي أن التمثال أصبح جاهزاً للشحن الى أمريكا. وبدأت عملية تفكيكه وترقيم الاجزاء المختلفة بعناية فائقة ومن ثم توضيبها في ما يزيد على ٢٠٠ صندوق ضخم. وشحنت الصناديق على متن البارجة الفرنسية "إيزير" التي رفعت مراسيها وأقلعت في ٢١ مايو (أيار).[٤]

وصلت البارجة "إيزير" الى مرفأ نيويورك في ١٧ يونيو (حزيران). وبعد يومين توجهت تحت أشعة الشمس الوهاجة الى جزيرة بدلو لافراغ شحنتها. كانت تتقدمها أربع سفن من أسطول الولايات المتحدة ناقلة عمدة نيويورك وسواه من الاعيان. وكانت الجوقات الموسيقية والابواق البخارية في السفن والمدافع وهتافات الجماهير المحتشدة تحدث ضجيجا لا ينقطع.

بقيت ثمة مشكلة واحدة وهي أن القاعدة لم تكن انجزت بعد.[٥]

كان الاتحاد الفرنسي الامريكي أنهى بنجاح حملة لجمع الاموال للتمثال عام ١٨٨٠. وتوقع بارتولدي، فيما كان العمل جارياً بانتظام في باريس، أن الجهود في نيويورك لتحضير القاعدة ستلاقي نجاحاً مماثلا. لكن ذلك لم يتحقق.

بعد انطلاقة موفقة في ١٨٧٧ تعثرت مساعي اللجنة الامريكية لجمع الاموال،[١] اذ أخفق أعضاؤها في توضيح المغزى الشامل لتمثال الحرية كرمز، وطبيعته الخاصة كهدية فريدة.[٥]

لكن رئيس الولايات المتحدة آنذاك يوليسيز غرانت كان وقع القرار الذي حدد جزيرة بدلو موقعاً مناسباً للتمثال.[١] وبدأ العمل في انشاء القاعدة عام ١٨٨٣ في اشراف الجنرال تشارلس بومروي ستون الذي تدرب في كلية وست بوينت كمهندس. وحوّل ستون الجزيرة كلها

معسكراً استقر فيه ما يزيد على ١٠٠ رجل. وتولى رجاله حفر الارض حتى بلغوا الطبقة الصخرية الصلدة لتكون أساساً للتمثال.

اكمل ستون بناء الاساس في شهر يونيو (حزيران)، وارتفع الهيكل فوق الارض المنبسطة حوله ١٦،١ متراً وابتلع ٢٤ ألف برميل من الاسمنت، كما ابتلع معظم الاموال التي جمعت حتى ذلك الحين.

في ٤ يوليو (تموز)، حين زُف تمثال الحرية رسمياً الى الولايات المتحدة في باريس، كان حساب اللجنة في المصرف يكاد لا يكفي لمد ثلاثة مداميك من حجار القاعدة.[٥] وفي نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) تضاءلت المبالغ المتوافرة الى حد أوجب وقف العمل. وكان ارتفاع القاعدة لا يتجاوز ٤،٥ أمتار وبقي منها ٢٣ متراً لتكتمل.

ولكن في حين بدت الامور في أحلك الظلمات لاح بريق من الامل اذ هبَّ الصحافي الشهير جوزف بوليتزر لنجدة المشروع.[٤]

## قروش للقاعدة

كان بوليتزر، وهو ابن تاجر حبوب مجري وأم متحدرة من أصل نمسوي ألماني، هاجر الى الولايات المتحدة عام ١٨٦٤ وحارب تحت راية جيش الاتحاد (جيش الشمال) في الحرب الاهلية الامريكية التي اشتعلت بين ١٨٦١ و١٨٦٥ وأضحى مراسلاً صحافياً في مدينة سانت لويس بعد الحرب. وأخيراً انتقل الى نيويورك حيث اشترى صحيفة "وورلد" (العالم).[٦] وأثارت المصاعب المالية التي كان يعانيها مشروع تمثال الحرية غيظاً متزايداً في نفسه. وفي ١٤ مارس (آذار) ١٨٨٥ نشر مقالا افتتاحياً تحت عنوان "العار الوطني"[٤] منددأً:

"سيكون وصمة عار لا تمحى في جبين مدينة نيويورك والجمهورية الامريكية أن ترسل اليهما فرنسا هذا التمثال العظيم من دون أن نستطيع نحن حتى تقديم المكان الذي ينبغي أن يقف عليه. يجب أن نجمع المال! دعونا لا ننتظر أصحاب الملايين. اعتبروا هذا النداء شخصياً في دخيلتكم. أعطوا شيئاً مهما يكن قليلا. أرسلوا ذلك القليل الينا. دعونا نسمع صوت الشعب."[٧]

في ١٥ ابريل (نيسان) بعد أربعة اسابيع تماماً من بدء حملة جمع الاموال بلغت الحصيلة ٣٥ ألف دولار. وكانت أسماء المتبرعين تدرج على صفحة خاصة تحت صورة "العم سام" رمز الولايات المتحدة وهو يرفع قبعته الرسمية، والعنوان الآتي: "صندوق وورلد لقاعدة تمثال بارتولدي." كما كانت رسائل المتبرعين تنشر كذلك. ونشرت الصحيفة أحاديث لسعاة مكاتب صغار وفنانين مجاهدين ومهاجرين جدد وطلاب مدارس وأناس فقراء وعجزة.[٩]

جاء في احدى الرسائل: "أنا فتاة وحيدة في هذا العالم، أحصّل معيشتي بجهدي وبعرق الجبين. اني أرسل اليكم ٦٠ سنتاً هي محصلة انكاري لذاتي. وكم أتمنى لو استطعت أن أجعلها ٦٠ ألف دولار. لكن القطرة بعد القطرة صنعت المحيط."

وقال أطفال في عائلة انهم تلقوا ثلاثة دروس في اللغة الفرنسية، وأضافوا: "لم نحب اللغة الفرنسية، غير أننا نحب الشعب الفرنسي لانه أهدى إلينا هذا التمثال الجميل. ونرسل اليكم دولاراً واحداً هو المبلغ الذي ادخرناه للذهاب الى السيرك."

ومن بلدة دافنبورت النائية في ولاية آيوا أرسلت مساهمة من صف حضانة، جمعت بكل جهد وعناية وقيمتها ١،٣٥ دولار. وفي يوم واحد وردت مساهمات من ١٥٠٠ طالب في مدرسة عمومية.

وحقّ للفتى ادي بريمان أن يعتز اذ كتب: "نحن ١٤ ولداً أسسنا نادياً لجمع المال للتمثال. فبدل أن ننفق مالنا في شراء الحلوى اقتصدناه. وأكتب اليكم هذه الرسالة بنفسي. فأنا رئيس النادي."



جوزف بوليتزر، المهاجر الذي أصبح مالكاً لصحيفة "وورلد" النيويوركية، استنفر الناس "ليعطوا شيئاً مهما كان زهيداً" لتأمين كلفة اقامة قاعدة التمثال، والا فسيواجهون العار في عيون الفرنسيين الذين قدموا الكثير. العنوان في صحيفته هنا يعلن نجاح الحملة التي أطلقها.




وشاركت الصحف في أماكن أخرى في ما اصبح حملة وطنية. وهكذا اخذت "السيدة" تستحوذ على قلوب الامريكيين.[٤]

وجاء الاعلان العظيم في ١١ أغسطس (آب) حين نشرت صحيفة "وورلد" في صفحتها الاولى الخبر الاتي:

مئة ألف دولار! خاتمة ظافرة للحملة العالمية لصندوق وورلد لقاعدة تمثال الحرية.[٧]

آه، يا سيدة الحرية، باركك الله،

بما ان كل هذا المال أضحى متوافراً فلن تبتئسي بعد الآن لافتقارك الى مكان تقفين فيه."[٦]

وأرسل متبرع وهو خادم "يبلغ أجره خمسة دولارات في الشهر" ٥٠ سنتاً. وتعذر على ساع فقير في مكتب أن يقدم سوى نكلة واحدة. وجاء عطاء قيمته دولار واحد من "امرأة وحيدة ومسنّة جداً."

وجُمع المال من أكثر من ١٢٠ ألف شخص في حملة تبرعات عاصفة استمرت خمسة أشهر. والحقيقة الرائعة أن ٨٠ في المئة من المجموع جاء في تبرعات تقل عن دولار واحد.

Photos: Left, collection of Joseph Pulitzer, Jr., St. Louis; Right, New York Historical Society

١٩٨٦

أما وقد أصبحت المبالغ جاهزة، فقد أخذ العمل يتقدم نحو الاكتمال. ووضع الحجر الاخير في ٢٢ ابريل (نيسان) ١٨٨٦.[٤]



رسم ادوارد موران لوحة "ازاحة الستار عن تمثال الحرية" كما بدا من خلال الضباب والمطر في ٢٨ أكتوبر (تشرين الاول) ١٨٨٦.

## "مرحى للحرية!"

حان الوقت لفتح الصناديق التي بقي فيها تمثال الحرية محتجزاً مدة تقرب من سنة. وأعقب ذلك فترة أربعة اشهر لتجميع الاجزاء. وفي ١٢ يوليو (تموز) انتصب هيكل إيفل مثبتا بمسامير الى عوارض من الحديد تحتضنها القاعدة. وكان البناء قوياً الى حد ان احدهم قال انه يستحيل أن ينقلب من دون ان تنقلب الجزيرة معه.[٥] وحينئذ ثبت اللوحان النحاسيان الاولان في مكانيهما، وقد حفر على الاول اسم بارتولدي وعلى الثاني اسم بوليتزر.

حين دق المسمار الاخير كان التمثال يرتفع ٩٢ متراً من مستوى البحر الى المشعل.[٤] وبدأت الاستعدادات لمهرجانات التدشين التي تقرر أن تجرى في ٢٨ اكتوبر (تشرين الاول).[٩] وبدأت مشاعر الاثارة تتصاعد في النفوس منذ اللحظة التي شوهدت السفينة البخارية "بريتانيا" وعلى متنها بارتولدي ودي ليسبس في عرض البحر أمام "جزيرة النار" يوم الاحد الواقع فيه ٢٤ اكتوبر.[٧]

وفي صباح اليوم التالي مخرت "بريتانيا" مياه مرفأ نيويورك ميممة شطر جزيرة بدلو. وانقشعت الغيوم وهرع بارتولدي الى الحاجز فوق ظهر السفينة. كانت أشعة الشمس تلتمع منعكسة على الغلاف النحاسي لتمثال الحرية.

وتراءى لبارتولدي حين رأى التمثال للمرة الاولى منتصباً فوق القاعدة[٧] أنه يكاد يخطو نحوه مرحباً.[٦] انه حلم يتحقق. وتمتم النحات: "اني أشعر بالسعادة، بالسعادة الكاملة."[٧]

انبلج فجر ٢٨ اكتوبر (تشرين الاول) مغبراً ممطراً متجهما، لكن فرانك لسلي



Photo: Museum of The City of New York

المحرر في "الصحيفة الاسبوعية المصورة" كتب ملاحظا: "ان الطقس لا يقوى على اخماد حماسة الشعب الامريكي." وتقرر أن ينطلق أعظم عرض شهدته نيويورك أبداً من الجادة الخامسة وبرودواي، وأن تبحر السفن الحربية من نهر هدسون الى الخليج لتؤدي التحية لتمثال الحرية وهي تمر بالجزيرة.[٤]

في الساعة العاشرة والنصف استقبل رئيس الولايات المتحدة غروفر كليفلاند وكبار المسؤولين الامريكيين بارتولدي ودي ليسبس والبعثة الفرنسية على منصة العرض في ساحة ماديسون. وصافح كليفلاند بارتولدي بحرارة قائلا له: "انك أعظم رجل في أمريكا اليوم."

وضمت المسيرة ٢٠ ألف شخص. وسارت في المقدم ألوية الجنود الامريكيين وتبعتها فرق "رماة روشامبو" وبعدها المسؤولون في المدينة في عرباتهم. وكانت الابرز بينها عربة جورج واشنطن تجرها ثمانية جياد.[٩]

استغرق سير الموكب أكثر من ثلاث ساعات ليمر أمام منصة العرض. وحين وضع رئيس الجمهورية قدمه على أرض جزيرة بدلو دوت المدافع وأطلقت جميع السفن في المرفأ أبواقها.[٥]

وأقيمت منصة خطابة بجانب قاعدة التمثال. وألقى دي ليسبس خطاب الاهداء وتبعه عضو مجلس الشيوخ وليم ايفارتس رئيس اللجنة الامريكية.[٩] وفي تلك الاثناء كان بارتولدي قابعاً داخل رأس تمثال سيدةالحرية ممسكاً بحبل متصل بعلم فرنسي كبير يغطي وجهها. كان ينتظر اشارة من صبي جلس على مستوى حوالى ٩٠ متراً تحته وكان عليه أن يلوح بمنديل حالما ينهي ايفارتس خطابه.

بعدما نطق ايفارتس عبارة "...والارادة التي لا تقهر للنحات العظيم بارتولدي" توقف برهة عن الكلام ليلتقط أنفاسه، فحسب الولد أن تلك هي نهاية الخطاب فلوح المنديل اشارة.[٦] وفجأة سقط العلم المثلث الالوان وأطل الرأس الجبار من خلال الضباب والمطر المنهمر.[٩] وهتف أحد الواقفين على المنصة: "مرحى للحرية!" وتعالى هتاف الجماهير.[٦]

عندئذ انطلقت كل المدافع المنصوبة في المرفأ، على الارض وفوق البحر، وأخذ كل ربان يتبارى مع انداده في اطلاق صفارات سفينته الصارخة. وهتفت كل الحناجر حتى بحت ولم يعد في وسع ايفارتس المسكين أن يفعل شيئا سوى أن يقعد في مكانه.[٤]

بعد ١٥ دقيقة انخفض الضجيج أخيراً ونهض الرئيس كليفلاند ليلقي كلمته[٩] التي كانت من أفضل ما قاله في حياته: "لن ننسى أن الحرية اتخذت هذا المكان موطناً لها. فدعاتها المخلصون سيبقون نارها مشتعلة، وهذه ستشع فوق شطآن الجمهورية الشقيقة في الشرق وتنعكس من هناك لتلتقي اشعاعات متجاوبة وتؤلف معاً دفقاً من النور يخترق عتمة الجهل والظلم حتى تنير الحرية العالم."[٦]

كانت كلمات كليفلاند تعبيراً عن الفكرة الكامنة في بناء تمثال الحرية، وهي أن الحلف بين الجمهوريتين العظيمتين ينبغي أن يمارس نفوذاً قوياً على الحكومات الاخرى.[١]

ولاحظت صحيفة "هيرالد" النيويوركية أن باخرة ضخمة مزدحمة بالمهاجرين مرت في المرفأ أثناء الاحتفالات. وتساءلت الصحيفة: "ترى ماذا كان معنى تلك المناسبة في أعين أولئك المهاجرين المرهقين؟"[٤]

## ايقاد المشعل

بدا تمثال الحرية في النهار رائعاً. وأبرزت أشعة الشمس كل حنية في اهابه النحاسي. وتحت الاشعة المنخفضة في الصباح الباكر والمساء بدت السيدة وكأنها تعتمر هالة من الضوء. ولكن اذا كان لها أن تبدو متألقة على هذا النحو في الليل أيضاً فلا بد من نظام اضاءة أقوى من أي نظام عرف حتى ذلك الحين.

وفكر بارتولدي كثيراً في هذا الامر. وأخيراً قرر أن من الواجب اقامة أنوار حول المشعل. وتوجه مرايا عاكسة وهج النور الى أعلى فتؤلف شعاعاً يرى من مسافة كيلومترات. ثم يقام نظام انارة آخر في شكل دائرة حول القاعدة، كما تنصب أنوار داخل التاج، ولكن هذه ينبغي ان تكون للزينة فقط وفي شكل اكليل مرصع.[٤]

قبل أسبوع واحد من التدشين أعلن مهندس تابع لسلاح الهندسة في الجيش الامريكي أن تلك الانوار من شأنها أن تبهر ربابنة السفن التي تمخر مياه الخليج. وتم تعديل شكل اللهب فوق المشعل بفتح صفين من الفجوات في غلاف المشعل ووضع الانوار داخله.[١٠]

وبعيد مغيب الشمس في يوم الاحتفال بتقديم التمثال أنيرت الاضواء. ومن متنزه "باتري" في الطرف الجنوبي لجزيرة مانهاتن كان من الممكن رؤية القاعدة والمشعل فقط في نور خافت.[٤] وعلقت صحيفة "وورلد" على ذلك بكآبة: "يبدو المشعل كأنه حباحب ليل اكثر مما هو منارة تضيء."

وعدّل جهاز الاضاءة عام ١٨٨٧ ثم عام ١٨٩٢ وظلت النتائج مخيبة للامال. وفي العام ١٩١٦ أعيد تصميم المشعل جذرياً.[٤] وأوكل العمل الى النحات غوتزون بورغلوم وهو وطني متحمس تاق الى المغالاة في كل شيء. وهو الذي حقق بعد ذلك نصب جبل راشمور التذكاري في ولاية داكوتا الجنوبية، حيث نحتت تماثيل ضخمة لرؤوس واشنطن وجفرسون ولنكولن وتيودور روزفلت في جرف صخري على جانب جبل شاهق. وكان أشبه ما يكون ببارتولدي آخر من القرن العشرين.[٥]

قطع بورغلوم أجزاء من الغلاف النحاسي الذي يشكل لهب التمثال. وأبدل هذه القطع بنحو ٦٠٠ لوح من الزجاج الملون صبت بطريقة تجعلها تحتفظ بالشكل الاساسي للهب الذي كان بارتولدي صممه للمشعل.[٤]

تم تدشين النظام الجديد في ٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩١٦ في أحد المهرجانات التي اتسم بها تاريخ التمثال. ومن متن اليخت الرئاسي "مايفلاور" ضغط الرئيس ودرو ولسون زراً لاسلكياً ارسل اشارة كهربائية أنارت الاضواء الجديدة. وأدت امرأة دوراً رئيسياً في الاحتفال بتكريم تمثال سيدة الحرية، انها الطيارة روث لو التي حلقت حول التمثال في طائرة تجر وراءها راية كبيرة كتبت عليها كلمة "الحرية."[٥]

وفي العام ١٩٣٦ حضر الرئيس فرنكلين روزفلت ليلقي خطاباً في العيد الخمسيني للتمثال. وكرر الرئيس التعبير عن امتنان الامة الامريكية لفرنسا لتقديمها هذه المدية العظيمة. وقال عن المهاجرين الذين اجتذبهم نور التمثال: "انهم جلبوا لنا القوة والبنية المعنوية التي تطورت في حضارة تعدى عمرها قروناً وتأججت من جديد حين راودها حلم بحياة جديدة في أمريكا، أرض الفرصة الثانية" بالنسبة الى الناس في أنحاء العالم.[٤]

وحيا الرئيس المهاجرين الذين وفدوا الى البلاد وقال: "انهم وجدوا هنا الحياة لان حرية العيش وجدت هنا."[١٣]

تحققت ميلا مايسنر ليندسي من مدينة دنفر بولاية كولورادو أن هذا القول صحيح. وهي لا تزال تذكر ذلك الصباح القارس الممطر في ربيع ١٩٠٥ حين "جئت كطفلة مهاجرة وشاهدت تمثال الحرية للمرة الاولى." وحين القت السفينة مرساتها في خليج نيويورك "أخرجني والدي من جوف السفينة المظلم الى نور النهار في عالم جديد.

"عندئذ نظرت الي سيدة التمثال من عليائها، فصرخت وأنا اشير الى البحر الهائج تحت ستار الضباب: "آه يا ابي، ها هي السيدة تخوض المياه لملاقاتنا."

"ورد أبي: أجل، أجل. أنظري كيف ترفع المشعل وتحمل الكتاب. لا ريب في ان هذا هو جمال الحرية والمعرفة."[٦]



مهاجرون في جزيرة ايليس في بواكير هذا القرن. بعدهم وفد ملايين الناس ومروا تحت أنظار السيدة اليقظة.

عرفت سيدة الحرية لحظات رائعة أخرى كثيرة، احداها عام ١٩٧٦ في مناسبة العيد المئوي الثاني لمولد الولايات المتحدة، وكان ذلك أروع عيد استقلال عرف أبداً في الرابع من يوليو (تموز). وخصص الدور الابرز لسيدة الحرية التي نعمت بأشعة ذهبية جديدة لمشعلها وتألق رأسها الجميل بنور ثلاثة عشر ضوءاً كاشفاً زنة كل منها طنان ونصف طن.

Photo: The Bettmann Archive, Inc.

في مساء الرابع من يوليو (تموز) توهجت سيدة الحرية بأنوار الالعاب النارية الباهرة، ونظم المحتفلون ليوم العيد عرض "عملية الشراع" وهو عرض رائع للسفن الشراعية التي بلغ عددها ٢٢٥ ترفع اعلام ٣١ دولة. وفيما كان ملايين الناس يتوافدون ليحجزوا أمكنة مشرفة على العرض فوق الشاطئ، وملايين آخرون يراقبون العرض على شاشات التلفزيون، ابحرت السفن في موكب مهيب عابرة أمام جزيرة الحرية، وهو الاسم الجديد الذي اطلق على جزيرة بدلو عام ١٩٥٦.

وللحال بدأ التخطيط على نطاق اعظم لعرض آخر للسفن الشراعية احتفالا بالعيد المئوي للتمثال يقام عام ١٩٨٦.[٤]

## طفل عمره ١٠٠ عام

خلال مئة سنة تتعرض أي امرأة لكثير من الاحوال. وهذا ما حدث فعلا لتلك السيدة. لقد أدى لها مراسم التكريم جميع رؤساء الولايات المتحدة الذين حكموا في غضون القرن الذي انقضى. وجاءها رجال بارزون من أقاصي المعمورة ليعبروا لها عن احترامهم، كما أدت هي دورا بارزا في الاحتفالات الوطنية. كذلك فرض عليها دوراً غير مستحب بعض المتظاهرين الذين تسلقوا داخلها لينشروا شعاراتهم فوقها. ومنذ أزيح الستار عن التمثال ظل عدد زواره يزداد باطراد حتى بلغ نحو مليونين سنوياً.

ولا يمكن أن تتحمل السيدة كل هذه الاحوال من دون أن تصاب بأضرار. فقسم هنا أو جزء هناك كان يتطلب اصلاحا.

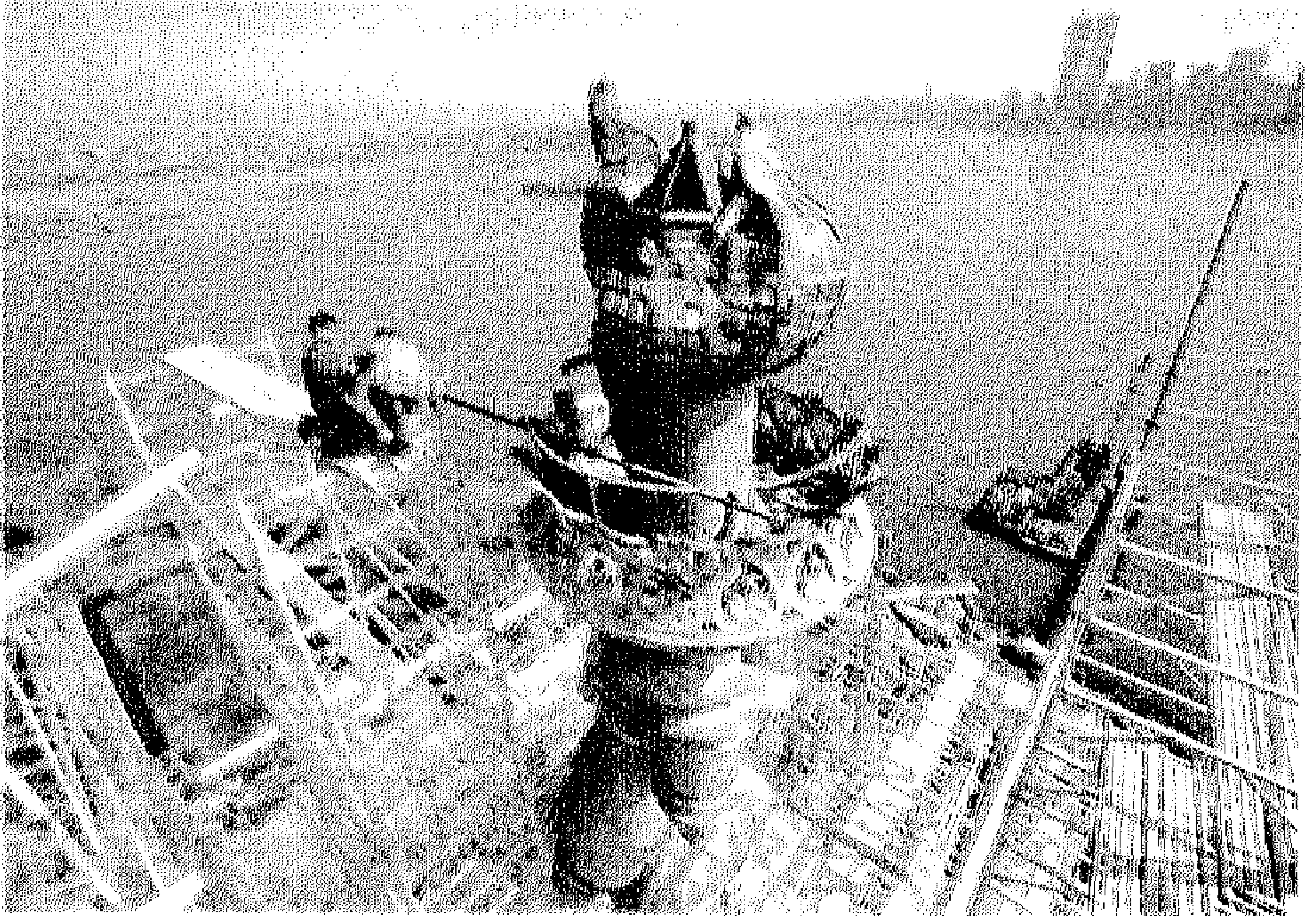
في مطلع الثمانينات أجري لسيدة الحرية فحص "جسدي" شامل، وأمضى مهندسون معماريون فرنسيون وأمريكيون سنتين في معاينة كل جزء منها، بدءاً بالمشعل وانتهاء بأصابع القدمين.

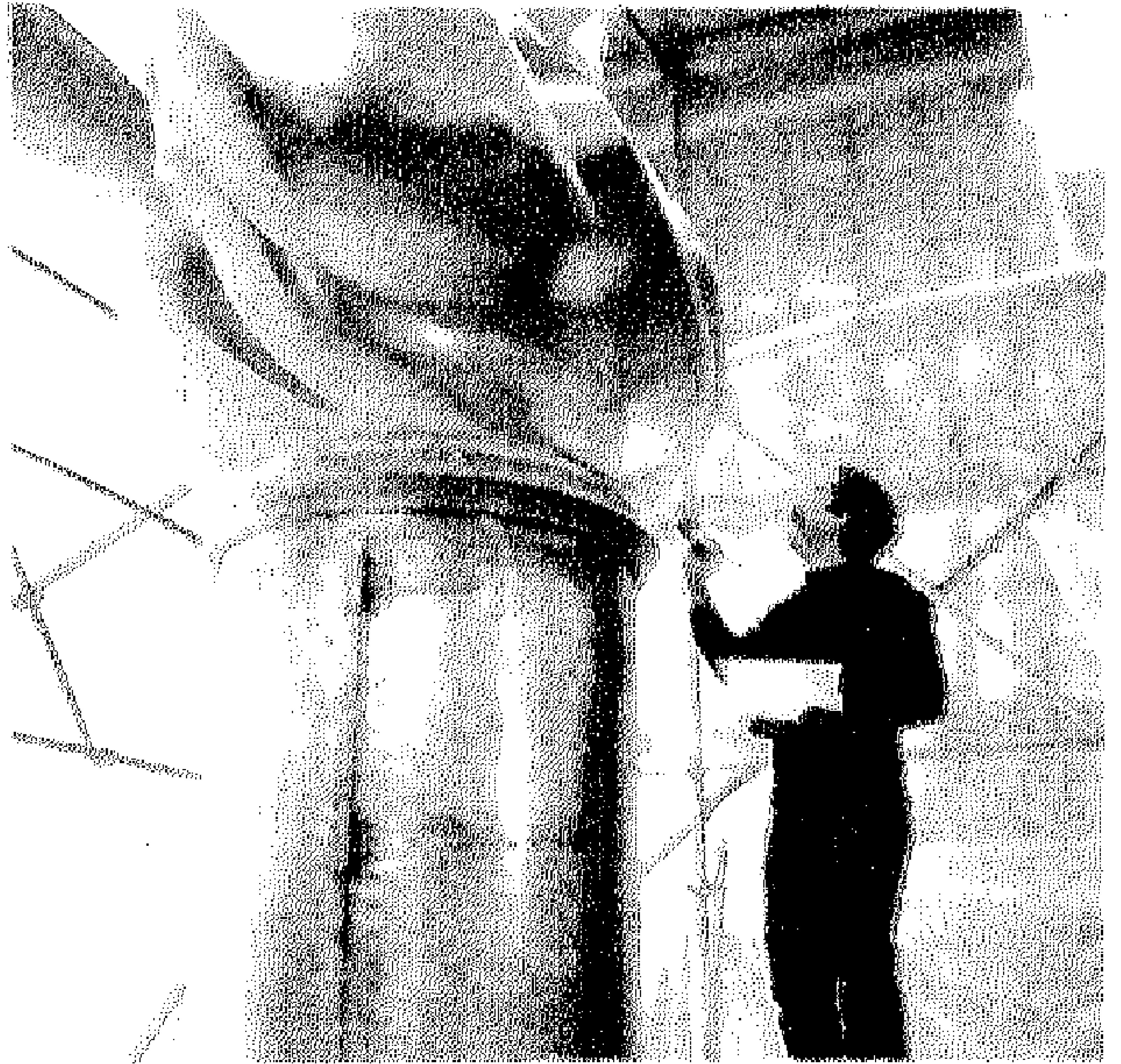
وكشف هذا الفحص مجموعة علل تبدأ من الاعلى. فالمشعل كله، من شرفته الصغيرة الى قمة اللهب فيه، وجب إبداله. والبنية الداخلية في الذراع اليمنى المرفوعة عدلت في وصلتها بالهيكل الداخلي. لكن هذا التعديل أضعف وصلة الكتف التي أخذت تزداد ضعفاً. ومن المذهل أن الرأس كان منحرفاً عن نقطة الارتكاز الوسطى نصف متر،[٤] فالثقل الزائد على الهيكل جعله ينحني قليلا الى اليمين فيخسف الذراع بإحدى الحراب المثبتة في التاج. وتبين أن نحو نصف الجذع الحديد الذي يدعم الصفيحة النحاسية قد تأكل.

قال ادوارد كوين المستشار الهندسي لمشروع الترميم: "لا يقتصر الامر على التجميل. فنحن لا يمكننا أن نشتري ثوباً جديدا للسيدة أو نطليها بمساحيق التجميل، بل كان علينا أن نصحح ما أصابها من مشاكل داخلية." ومهما يكن فان الخبراء المعاصرين أفهمونا أنه اذا تعين عليهم أن يعيدوا صنع التمثال فانهم يكتفون بابدال المواد المستعملة من دون أن يمسوا تصميم ايفل[١١] الذي لا يزال رائعا ان كما كان قبل مئة سنة.[١٠]

الخطوة الاولى في عملية الترميم كانت احتضان التمثال بأكمله في سقالة من الالمنيوم وزنها ٣٠٠ طن وقد تكون الاضخم في نوعها أبداً. هذه السقالة







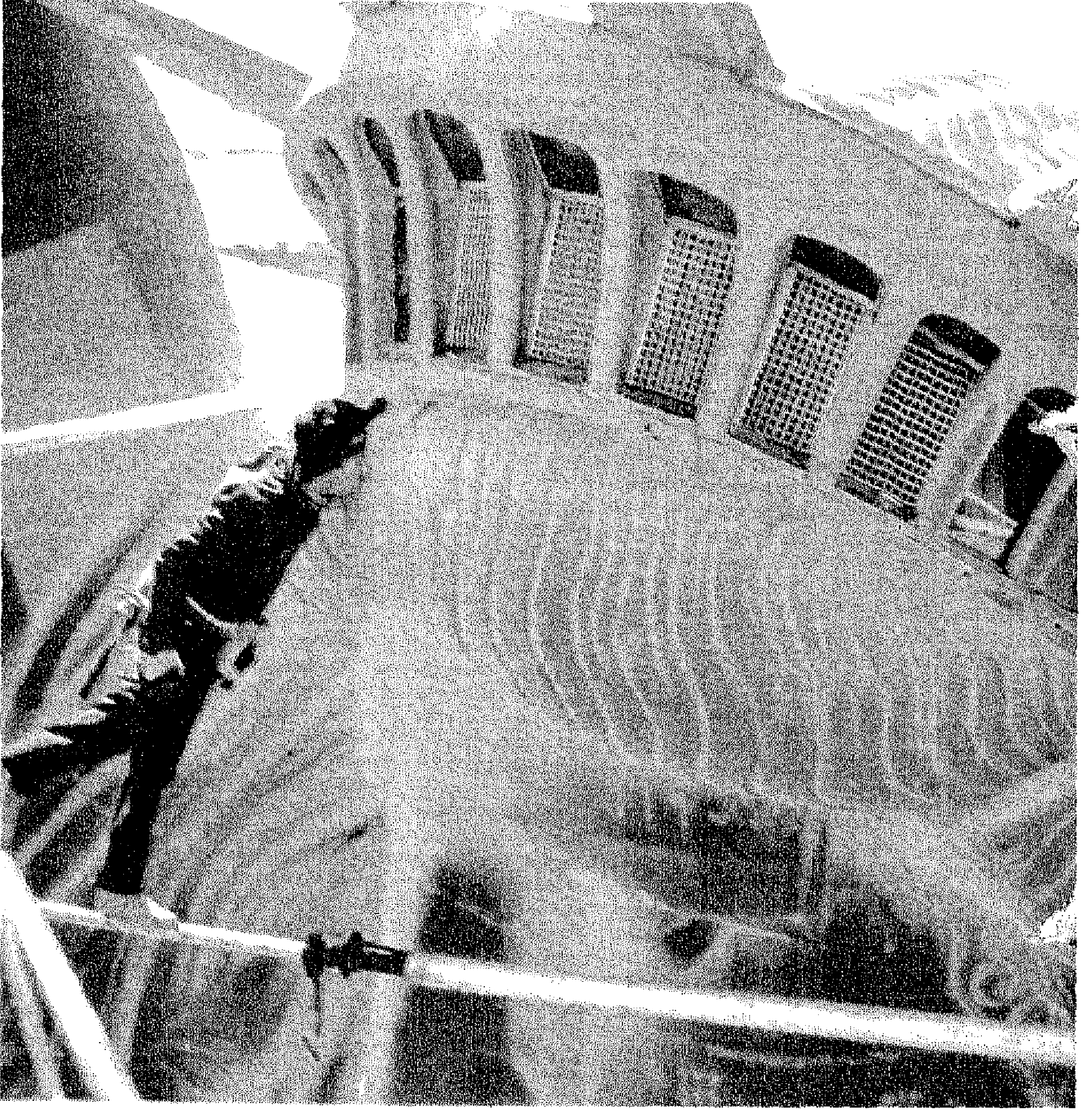
(فوق) منظر المرفأ قبل نزع المشعل القديم المهشم.
(الى اليمين) اللمسات الاخيرة على المشعل الجديد المصنوع من النحاس والمصفح بالذهب.
(الى اليسار) قبلة لـ"آنسة الحرية" من أحد العمال على منصة عالية من الالمنيوم أثناء عملية الترميم.

أتاحت للعمال أن يصلوا الى أي جزء من جوف التمثال ودعم المصعد المصنوع من الشباك السلكية أمام الواجهة.[٤]

ويصف أحد المسؤولين الاحتفال باكتمال انشاء السقالة، الذي أقيم ظهر يوم ماطر، لكنه جميل، من (ابريل) نيسان ١٩٨٤. يقول ان الضيوف ملأوا المنطقة المطوقة بالحواجز عند قاعدة التمثال. وبعد خطاب قصير ألقاه لي ياكوكا رئيس مجلس الادارة في شركة "كرايزلر" للسيارات ورئيس مؤسسة تمثال الحرية وجزيرة ايليس، صعد مع مصوري التلفزيون في مصعد خارجي الى قمة الهيكل.



Photos: Top, Peter B. Kaplan / The Stock Market; Right, Bradford A. Hill / The Stock Market

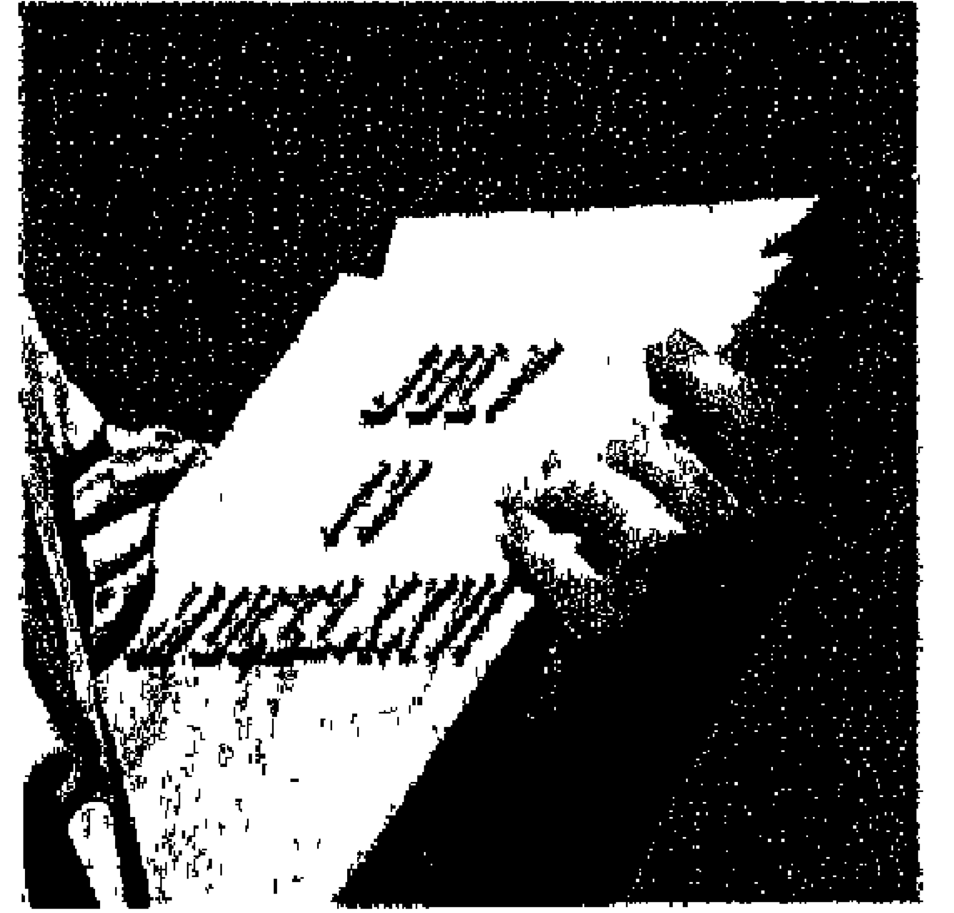


"وحين هبط المصعد سألت مشغّله المعتمر خوذة واقية عما اذا كان مسموحاً لي أن أصعد أنا كذلك. فأجاب: "بكل تأكيد، اقفز داخل المصعد. ووجدت نفسي متورطا نتيجة نزوتي المتهورة. فدخلت ذلك المصعد الرجراج. وأقفل الباب وتحركت الآلة ثم أخذنا نصعد في ذلك القفص الهش المترجح مبتعدين عن صلابة الارض المحببة.

"تسلق ذلك القفص الرجراج احد جوانب النصب الجبار متجاوزا القاعدة وثنايا الرداء واشعاعات التاج وأخيراً المشعل. وأعقبت ذلك الصعود خضة عنيفة قلبت احشائي.



Photo: © 1984 Koni Nordmann / Contact Press Images



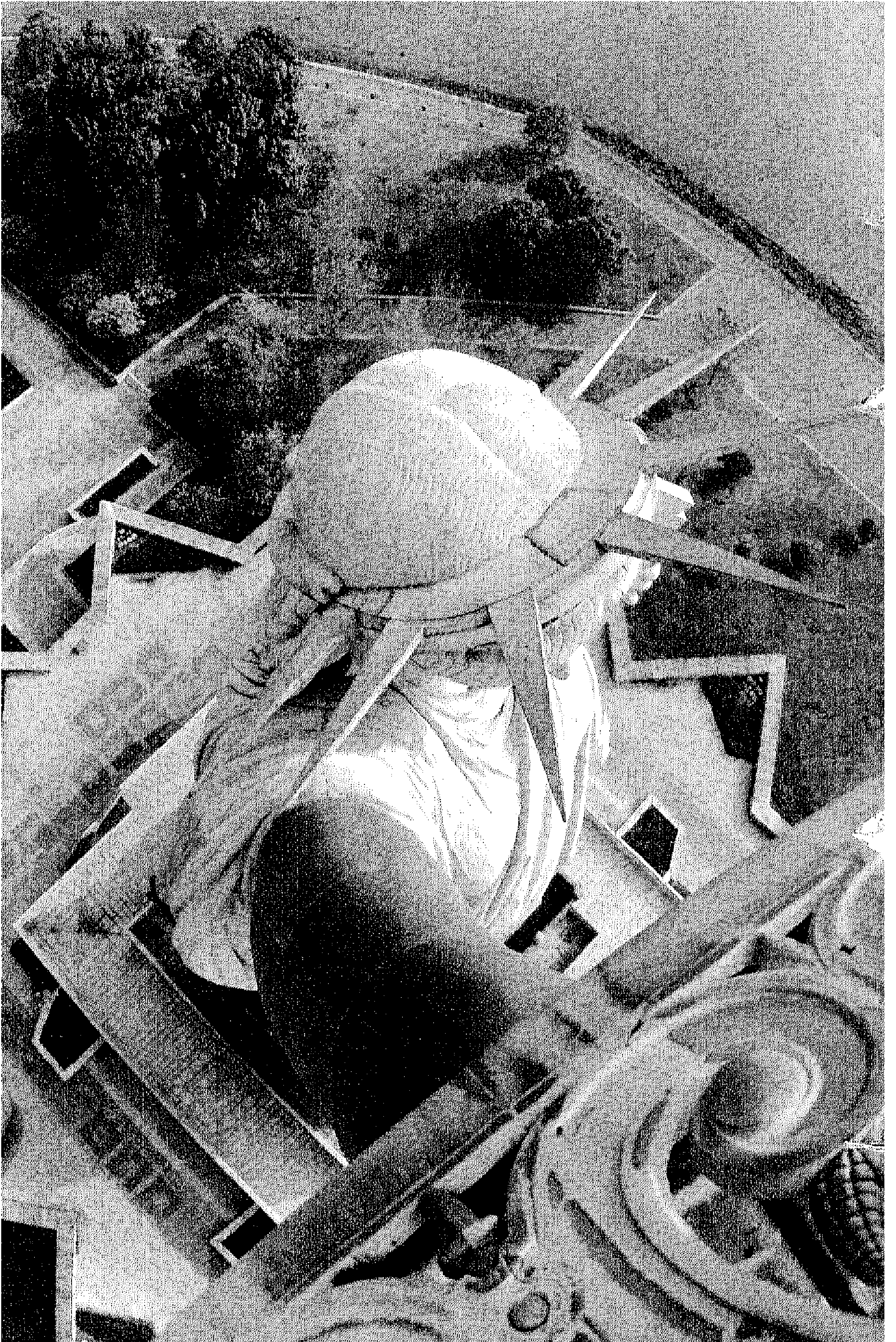
(فوق) الوجه الجديد للسيدة.
(الى اليمين) الكتابة على لوحتها: "٤ يوليو (تموز) ١٧٧٦" بالارقام الرومانية.
(الى اليسار) مشهد من أعلى قبل التجديد.

"انفتح الباب المواجه للتمثال وأشار عامل المصعد الى سلمين قصيرتين من الادراج تؤديان الى المنصة العليا القائمة فوق لهب التمثال. وأدركت أن لا مناص لي من الخروج، وليكن ما يكون.

"وشددت قبضتي علي الحاجز الواقي وأنا أتنفس في شهقات قصيرة متلاحقة، متجاهلا الذين كانوا حولي. وأكرهت نفسي على النظر بعيداً عبر المرفأ المزدحم بالسفن الى القسم الجنوبي من شبه جزيرة مانهاتن. ثم ألقيت نظرة الى



Peter B. Kaplan / The Stock Market



أسفل، فاستحوذ علي شعور غامر كاد يدفعني الى القفز خارجاً.

"ورفعت نظري الى السماء وأنا أشد قبضتي على الحاجز الواقي. وجررت نفسي الى الدرجات. وتمكنت على نحو ما من مغالبة الريح العاصفة والهيكل المتمايل والخوف المختلج في جوفي الى أن بلغت القمة. وألقيت نظرة على المشعل تحتي. لكن الخوف تملكني فجأة مرة أخرى. وعدت أدراجي متقهقرا الى المنصة وداخل القفص، وتكومت على نفسي في زاوية بينما كان المصعد يمتلىء بالناس.

"واخيراً ارتج القفص وتحرك وبدأ هبوطه المترجرج عائداً الى الارض.

"وحين بلغنا سطح الارض أرخيت قبضتي على القفص، وكان شعور غالب يعتلج فيّ بالاعجاب والامتنان تجاه العمال الذين بنوا تلك السقالة والحرفيين الذين. سيقضون السنتين المقبلتين في اصلاح التمثال من السقالة الدقيقة الهشة.

"سمعت في ما بعد أن ياكوكا شعر بالانزعاج كذلك عندما صعد الى القمة في ذلك اليوم. وهذا ما أشعرني بالراحة."[١٣]

في الرابع من يوليو (تموز) ١٩٨٤ نزع المشعل المهشم بعناية من ذراع سيدة الحرية. وقال مدير أشغال الترميم جين ماكغافرن ان المشعل أنزل الى الارض بحنان "كأنه طفل عمره مئة عام."[٤]

على رغم نظافة التمثال عموماً فقد بدت عليه لطخات عدة. لذلك تقرر أن يغسل بالماء كلياً ويفرك بعناية لازالة اللطخات التي تضر به، سواء بمنظرها أو بتأثيرها الكيميائي.[١٠]

وأخطر مشكلة داخلية كانت تأكل الدعائم الحديد التي تحمل الاهاب النحاسي للسيدة. وأبدل المهندسون هذه الدعائم قضبانا من الفولاذ الذي لا يصدأ مفصلة له خصوصاً، وعزلوا الدعائم الجديدة عن الاهاب النحاسي بغشاء من مادة التفلون. وبما ان الدعائم مهمة جداً في حمل الاهاب الخارجي للتمثال فلم يرفع في وقت واحد أكثر من ١٦ قضيباً من مجموع ١٨٠٠"[١١]

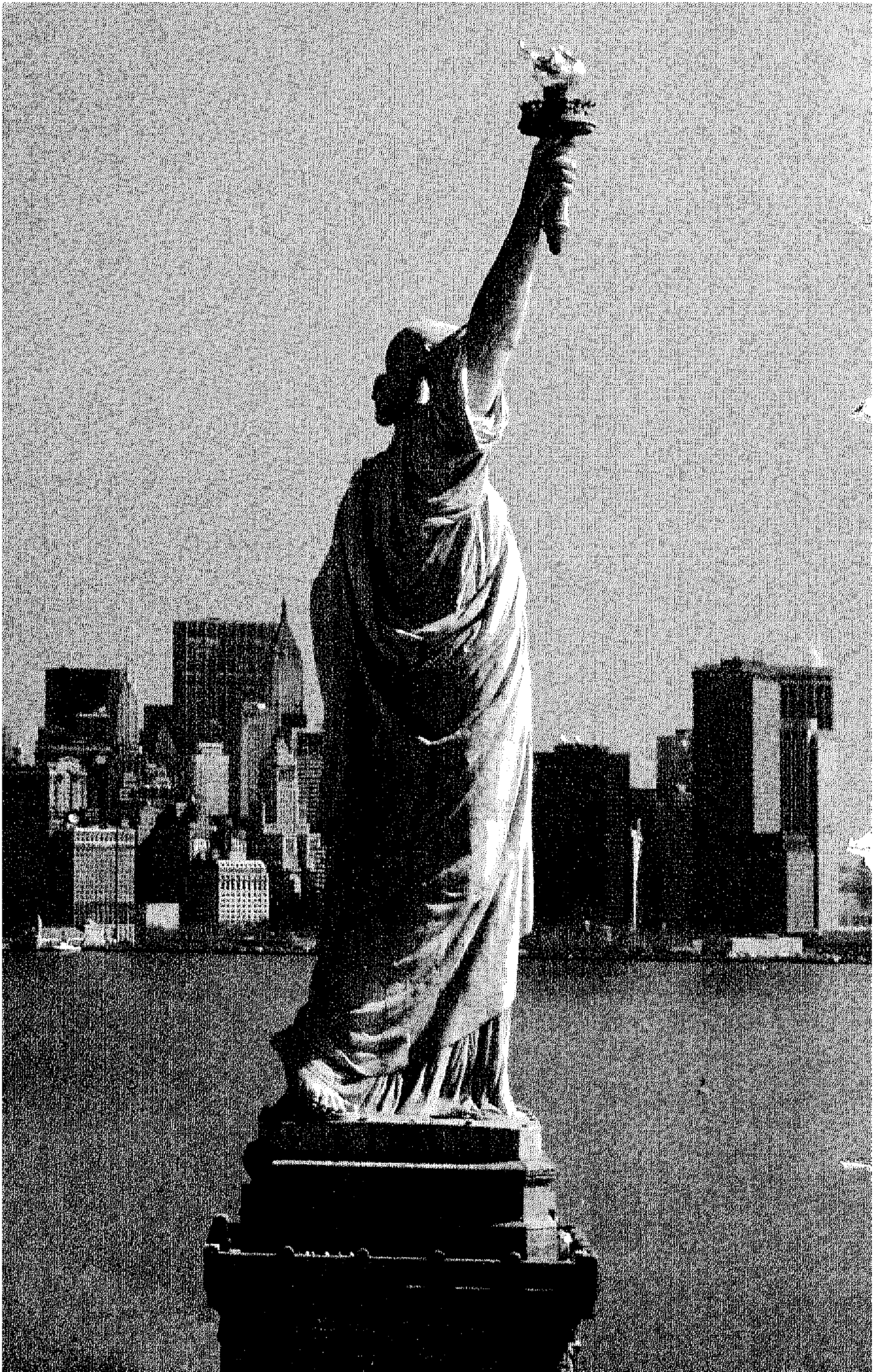
وأوضح المهندسان الرئيسيان في عملية الترميم ريتشارد سيت هايدن وتيري دسبونت: "كان هدفنا الرئيسي أن نكشف ما هو موجود ونحسنه: الروعة في الضخامة والجمال في البناء والاثارة في التسلق. واذا تسنى أن نبقي التمثال مبدياً سعة خيال بارتولدي وعبقرية إيفل الهندسية، نكون أفلحنا في مسعانا."[١٠]

## "مرحبا يا سيدة الحرية"

تبين أن شعور الرأي العام ازاء التمثال قوي جدا. فما ان نشر الاعلان الاول عن حملة جمع الاموال في أوائل العام ١٩٨٣ حتى انهالت التبرعات غزيرة. وبحلول شهر أغسطس (آب) ١٩٨٤ أي قبل نحو سنتين من الموعد النهائي، كانت مؤسسة تمثال الحرية جمعت قرابة ١٠٠ مليون دولار. وجاء نحو ثلاثة أرباع هذا المبلغ من شركات ومؤسسات أخرى، والربع الباقي من أفراد. أولاد المدارس وحدهم جمعوا ما يناهز ١،٤ مليون دولار.[٤]

"أم المنفيين" ترفع من جديد "المشعل عند الباب الذهبي" في مرفأ نيويورك.

Photo: Henry T. Kaiser



قد يعود نجاح حملة التبرعات الى قدرة سيدة الحرية على ايجاد علاقة حميمة بينها وبين الامريكيين كأفراد. وهذه القدرة وصفها صحافي على نحو رائع حين قابل عدداً من عمال الترميم وهم يحتسون القهوة في انتظار الباخرة التي تأتي في الساعة السابعة والنصف لتنقلهم الى العمل. جميع العمال كانوا يذكرون التمثال بعبارة "السيدة."

قال احدهم وهو مهاجر ايطالي الاصل: "بالنسبة الي أشعر أن لعملي مغزى خاصاً. فأنا آت من الجهة الاخرى من العالم." وقال حداد يعمل في قولبة الاضلاع الحديد: "أعتقد أننا جميعاً واقعون في حب هذه السيدة، سواء اعترفنا بذلك ام لا."٥

سحر السيدة كان دائماً يهز مشاعر محبيها. فلنعد بالذاكرة الى صيف ١٨٩١ حيث تدفقت حشود من العائلات المهاجرة الى مرفأ نيويورك. بين هؤلاء كانت طفلة ذات اثني عشر ربيعاً اسمها كاثرين براونلي، غادر والدها الارمل ايرلندا وهي في السادسة ليستقر في بورتلاند بولاية اوريغون. وفي أوائل العام ١٨٩١ حجز لها والدها سفرة على سفينة مبحرة من بلفاست، لكن ثمن بطاقة السفر لم يدفع في الوقت المعين ففاتت السفينة كاثرين. وفي وسط المحيط الاطلسي غرقت السفينة ولم ينجُ أحد من ركابها.

في هذا الوقت كانت كاثرين أمنت سفرة على مركب آخر. ولكن حين وصلت الى نيويورك لم يكن ثمة أحد في انتظارها. فوالدها، الذي أيقن انها هلكت في السفينة الغارقة، عاد الى أوريغون. ولم يكن في وسعها ان تصل اليه. ولم تكن تعرف أحداً في امريكا، كما لم يكن لديها مال. وهي لم تتناول طعاماً منذ يومين.

وبينما الفتاة جالسة وحيدة في جزيرة ايليس نظرت الى تمثال الحرية وزال خوفها. وتراءى لها أن "السيدة" تحميها.

وانقضى الليل بطيئاً. وأخيراً اقترب منها أحد العمال على الجزيرة وسألها عن اسمها. فردت: "كاثرين براونلي." وذهل الرجل. اسمه كذلك كان براونلي، وتبين أنه ابن عمها. ودفع الرجل نفقة انتقالها الى بورتلاند.

وأخيراً عثرت كاثرين على والدها في ولاية أوريغون. وهناك تزوجت ورزقت

Sources: 1. Reader's Digest summarization based on several sources. 2. *In the Shadow of Liberty: The Chronicle of Ellis Island*, © 1935 by Edward Corsi. 3. *Island of Hope, Island of Tears*, © 1979 by David M. Brownstone, Irene M. Franck and Douglass L. Brownstone, by permission of Wieser and Wieser, Inc., New york. 4. *A Statue for America*, © 1985 by Jonathan Harris, by permission of Edite Kroll Literary Agency, New York, on behalf of the author. 5. *Statue of Liberty*, by Bernard Weisberger, © 1985 by Christian Blanchet, Bertrand Dard and American Heritage Press, Inc., by permission of American Heritage, Inc. 6. *Freedom's Holy Light*, © 1985 by Richard H. Schneider, by permission of Thomas Nelson Publishers. 7. *Bearer of a Million Dreams*, © 1986 by Frank Spiering, by permission of Jameson books. 8. Nicolas Poulain, Reader's Digest, © 1977 by the Reader's Digest Assn., Inc., 9. *Gateway to Liberty*, © 1986 by Mary J. Shapiro, by permission of the author. 10. *Restoring Liberty*, © 1986 by Richard Seth Hayden and Thierry W. Despont, by permission of McGraw-Hill Book Co. 11. Calvin Sims, New York, *Times*, © 1985 by the New York Times Co. 12. From a speech by President Roosevelt, October 28, 1936. 13. John M. Allen, © 1986 by The Reader's Digest Assn., Inc., 14. *Liberty: The Statue and the American Dream*, by Leslie Allen, © 1985 by the Statue of Liberty-Ellis Island Foundation, Inc., by permission of Summit Books, a division of Simon & Schuster, Inc.

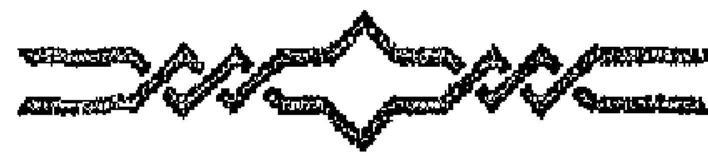
صبيانا وبنات أصبحوا رجال اعمال ومزارعين وممرضات ومدرسين. أحفادها أصبحوا موظفين حكوميين ومحامين وبنائين ومهندسين. وعلى رغم ذلك لم تنس حكايتها. وطوال حياتها ظلت تتكلم عن "السيدة" التي أنقذتها.[٧]

لي ياكوكا كان القوة الدافعة وراء حملة جمع الاموال.[١] كان هو نفسه طفلا فقيراً في عائلة ايطالية مهاجرة.[٤] وقد كتب: "كان تمثال الحرية أول معلم من أمريكا يلوح للملايين من المهاجرين الوافدين الى جزيرة ايليس. وهكذا غدا رمزاً دائماً للرجاء بالنسبة اليهم. كذلك بالنسبة الى مئات الملايين منا، نحن أبناء هؤلاء المهاجرين وأحفادهم، يبقى تمثال السيدة التي ترفع مشعلها رمزاً لما حبانا به أولئك المهاجرون وما أعطتنا اياه هذه الارض.

"ولما تنته القصة بعد. فتمثال الحرية لم يرمم كنصب تذكاري للماضي فحسب، بل كتحد للمستقبل كذلك. ستقف السيدة أقوى وأكثر تألقاً مما كانت أبداً، تذكرنا بما اعطتنا وبما نحن مدينون لها."

وحكى الرئيس الامريكي رونالد ريغان ان اجداده الاوائل جاؤوا من ايرلندا قبل أن ينتصب تمثال الحرية. وكان "المشعل الذي هداهم هو الحرية ذاتها. ومع ذلك جسّد تمثال بارتولدي قبل مئة سنة مثلهم العليا في شكل رائع.

"واذا شاء الله، سيبقى تمثال الحرية دائماً ينادي محبي الحرية هنا وفي أرجاء العالم. وفيما نحن نحتفل بالذكرى المئوية للسيدة، دعونا جميعاً، نحن الذين نحبها، نصرخ بصوت جهوري وواضح: "مرحباً يا سيدة الحرية" حيثما تستقر الحرية، هناك وطني."[٦]



## اهداء الى زوجة

اهدى ألبرت مالفينو كتابه "مبادىء الكترونية": "الى جوانا، زوجتي الجميلة والذكية والتي لولاها لما انجزت شيئاً. فهي تريحني دائماً وتواسيني، ولا تتذمر أبداً ولا تتدخل في ما لا يعنيها، ولا تطلب شيئاً، وتحتمل كل شيء، وتكتب كل اهداءاتي."

دار "ماغرو - هيل" للنشر

---

## على خطى دون كيشوت

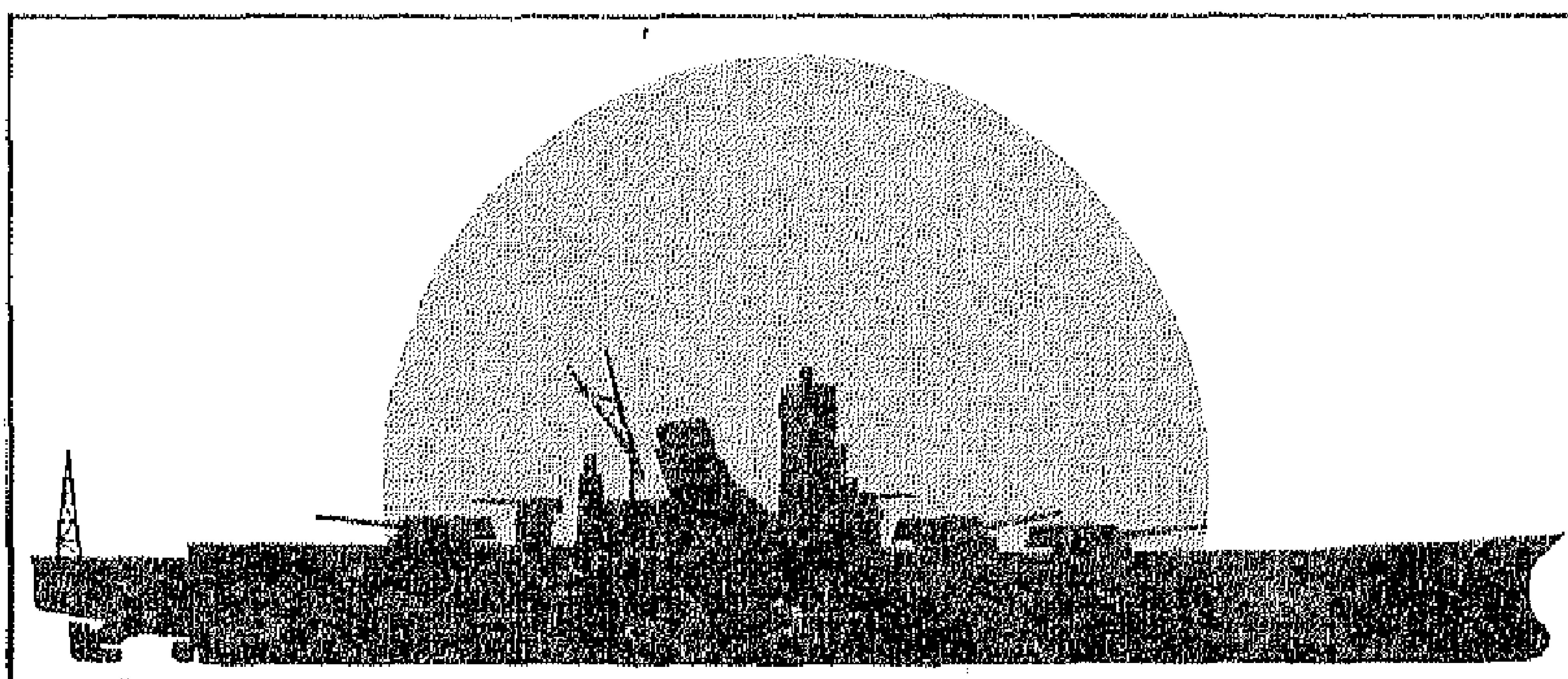
ذات ليلة توقف سائق شاحنة عند مطعم يقدم وجبات خفيفة. ووجد هناك عدداً من سائقي الشاحنات يتبارون في الحديث عن بطولاتهم.

وانقضت بضع دقائق وهم يروون حكايات مثل: "كنت منطلقاً بسرعة ١٠٠ كيلومتر في الساعة على الطريق حيث السرعة القصوى ٩٠ كيلومتراً. وذلك الشرطي التعس عاد خائباً اذ لم يتمكن من اللحاق بي." وفي هذه اللحظة عبرت طائرة فوق المطعم. فقال الداخل الجديد: "لقد آن أن يلحق بي ذاك الطيار. فنحن انطلقنا معاً قبل ساعة."

ج.ف.

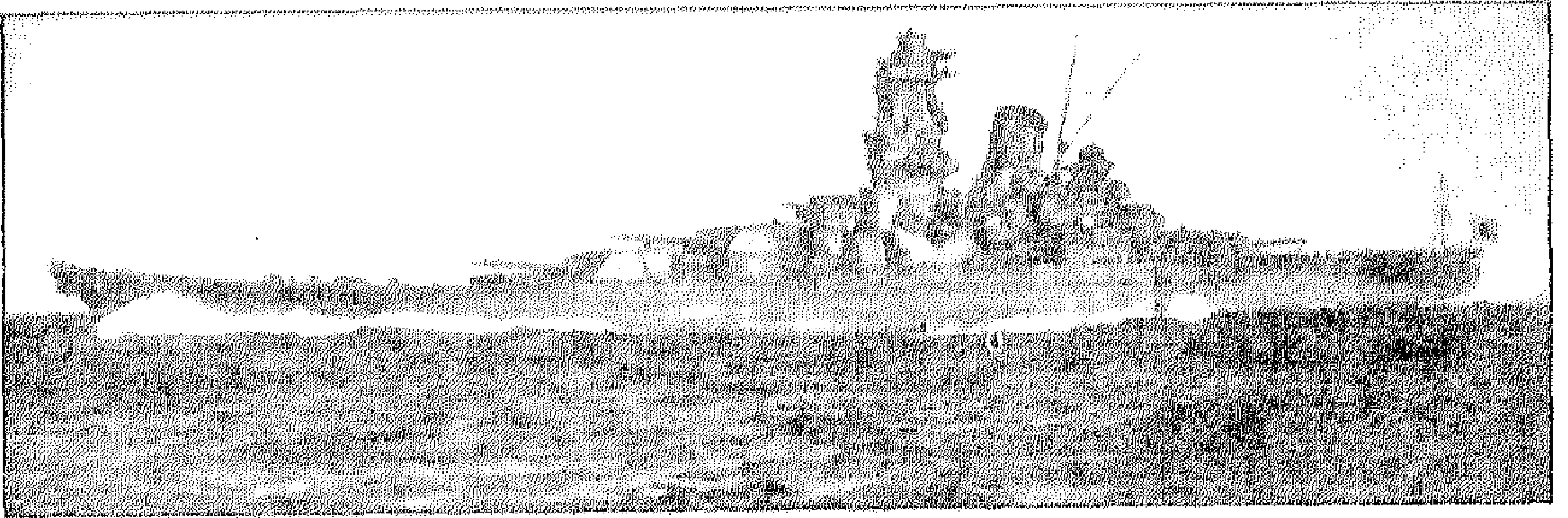
كتاب الشهر

# النهاية المجيدة



ملخّص من كتاب
بقلم رصّل سبور

حان وقت اطلاق البادرة الأخيرة العظمى.
في ابريل (نيسان) ١٩٤٥،
بينما القوات الامريكية تجتاح جزيرة أوكيناوا
القريبة، أخرجت اليابان البوارج الحربية
العشر الباقية لديها لمناوأة
اضخم اسطول بحري عرفه العالم.
ولا مندوحة من الاقرار بأن البارجة "ياماتو"
التي كانت تشكل رأس الحربة في هذه القوة البحرية
اليابانية، كانت في الواقع
احدى أضخم السفن الحربية
وأقواها في التاريخ.
كانت حمولتها تزيد على ٧٠ ألف طن


Wide World Photos

وسلاحها الرئيسي يتألف من تسعة مدافع ضخمة
من عيار ١٨،١ بوصة (انش)
وهي مدرعة بأثقل الدروع التي لفت سفينة
حربية أبداً. وهكذا بدا أنها لا تقهر.
ولكن من سخرية القدر أن اليابانيين انفسهم

جعلوا تلك البارجة الخارقة غير ذات جدوى في القتال.
ذلك بأن الهجوم الذي شنوه على مرفأ بيرل هاربر
من متون حاملات الطائرات قضى الى الأبد
على الدور الحاسم الذي كانت تلعبه
المدرعات البحرية الضخمة في الحروب.
وقد أدرك معظم الذين شاركوا في خروج هذه السفينة
الجبارة الى القتال أنها انما تقدم ضحية
لانقاذ ماء وجه الاسطول الامبراطوري،
اذ ينبغي الا يترك الجيش يقاتل منفرداً. وعلى
الاسطول ان يؤدي دوراً مهما يكن عديم الجدوى.
فلتواجه البارجة ياماتو الموت بكرامة،
فهذا أفضل من الاستسلام المزري

# النهاية المجيدة

حصل ماسانوبو كوباياشي على اجازة لقضاء ليلته الاخيرة على الشاطىء مع والديه. وكوباياشي شاب في التاسعة عشرة من عمره كان أصغر المدفعيين على متن البارجة "ياماتو". وركع الثلاثة حول طاولة في احدى غرف الفندق وراح الوالدان يبتسمان بخجل لابنهما البحار. وعلى غرار جميع المدنيين في تلك الحقبة من الحرب، وكان ذلك في أواخر مارس (آذار) ١٩٤٥، بدا أنهما يعانيان نقصاً في التغذية. وكانا يرتديان ثياباً رثة. وكان القطار الذي جاءا فيه من مزرعتهما يتوقف ثم يتابع السير كلما دوّت صفارات الانذار معلنة اقتراب قاذفات القنابل الامريكية او كلما فرغ العمال من ازالة الركام عن خطوطه.



Condensed from «A Glorious Way to Die,» © 1981 by Russel Spurr,
Published by Bantam Books, Inc., New York

حتى ذلك الحين كانت قنابل قليلة سقطت هناك في كوري، الا ان الناس كانوا يستعدون للغارات التي مسحت من الوجود مدناً يابانية اخرى كبيرة. في ذلك الوقت كانت المدارس تفتح يومين في الاسبوع فقط، وانهمك البحارة وربات المنازل وطلاب المدارس في الحفر في سفح الجبل شمال المرفأ لانشاء ملاجىء آمنة تركز فيها مشاغل التصليح وتوضع المخارط وسواها من الآلات التي يسهل نقلها.

وكان والد ماسانوبو يشعر بالانزعاج الا أنه على النمط التقليدي أخفى مشاعره حتى نهاية اللقاء. وأخيراً قال: "بشأن هذه الحرب... يبدو ان الامريكيين لا يزالون يرفضون الاقرار بالهزيمة. فمقاتلاتهم تهاجم الآن وطننا. وثمة اشاعات أن أوكيناوا ستتعرض قريباً للهجوم."

في هذه الاثناء كان ماسانوبو يلعق اصابعه بلذة. وقال لأمه: "هذه حلوى لذيذة." وانحنى كل منهما للآخر مبتسماً. ثم التفت الى والده مطمئناً: "الناس يروجون الاشاعات دائماً." لم يسعه ان يخبر والديه بما يدور على متن السفينة من أخبار عن ان الامريكيين احتلوا فعلا بعض الجزر قبالة أوكيناوا.

ورد الأب: "طبعاً، لا بد من أن ينحسر المدّ. فطيّارونا الكاميكاز الانتحاريون يغرقون سفن العدو ويبعثون الرعب في قلوب جنوده. سنواصل القتال وان هلك منا مئة مليون."

كان الاب يردد ببغائياً الهراء الذي دأبت وسائل الدعاية على بثه في البلاد.

لكن ماسانوبو لم يجد مبرراً لمخالفة رأي أبيه. فالموقف الحربي بلغ من السوء درجة حدت القيادة العليا اليابانية، والأمة بأسرها، على التحول الى الأوهام. كان الناس يعلقون رجاءهم على معجزة كالزوابع الخارقة (الكاميكاز) التي انقذت اليابان في القرن الثالث عشر من الغزو المغولي. وبدا قبل فترة وجيزة أن الغارات الانتحارية التي شنها طيارون فدائيون في الفيليبين جاءتهم بتلك المعجزة. فأساليبهم الانتحارية التي تعمدوا فيها اقتحام حاملات الطائرات الامريكية بطائراتهم من طراز "زيرو" وسواها أوحت أنها ستحول مجرى الأحداث. والكلمة الشائعة في اليابان في تلك الايام كانت "توكو" أو "الخصوصي"، وهو تعبير ياباني يعني الانتحار.

دوّت الصفارات في الشارع خارج الفندق. فالدوريات على الشاطىء كانت تستدعي الجنود. وقال ماسانوبو متلعثماً بكلمات الوداع: "عليَّ ان أذهب." قد لا يرى أبويه بعد ذلك، غير ان التقاليد العائلية اليابانية الصارمة كانت تحظر أي اظهار للمشاعر العاطفية. وكل ما تيّسر للشاب ان يقوله وهو يمشي القهقرى نحو الباب: "أنا فخور بأن اخدم على متن البارجة ياماتو."

## العملاق ينطلق

أبحرت البارجة ياماتو متجهة الى البحر الداخلي وكأنها جبل من الفولاذ أغبر اللون يخطر بخيلاء. كان متنها الأعلى المصنوع من خشب الساج (التيك) الصلب ينبسط متموجاً بطول ٢٦٥ متراً،

فينحدر من مقدم السفينة ويرتفع في شكل قنّة وراء البرج - ب، وهو ثاني موقعي المدفعية الاماميين وكل منهما مجهز بثلاثة مدافع من عيار ١٨،١ بوصة، ثم ينحدر نحو المؤخر. أما الهيكل المدرع للبارجة فكان مقسماً خمس طبقات تضم ١١٤٧ حجرة لا يتسرب اليها الماء وهي معقدة التركيب بحيث اقتضت الضباط الثمانية لمتن السفينة نحو ساعة لاكمال دورتهم التفتيشية.

تلك لم تكن أكبر البارجات الحربية في العالم فحسب، بل كانت جميلة أيضاً. منصة القيادة الانسيابية الشكل، وطولها ٤٣ متراً، أنيقة وخالية من الشوائب. مدخنتها الضخمة الوحيدة مائلة الى الوراء بزاوية ٢٥ درجة. أجزاؤها العليا تعج بالمدافع، من ابراجها الثلاثية المدافع (اثنان في المقدم وواحد في المؤخر) فضلا عن المدافع الثانوية من عيار ٦،١ بوصات، الى حشد من ستة أبراج مجهزة بمدافع ثنائية الاداء من عيار ٥ بوصات و٤٨ دشمة متقاربة كل منها مجهزة بثلاثة رشيشات مضادة للطائرات.

صاح القائد: "الى وسط السفينة!"

كان قائد ياماتو الاميرال كوساكو آريغا يراقب البارجة بنفسه من مركز القيادة المكشوف.

ورد الضابط هناك: "مستعدون يا سيدي." وهمهم آريغا. انه يهمهم دائماً حين يستغرق في التفكير. كانت له خبرة ضئيلة في أمور البارجة الجبارة منذ تسلّم قيادتها قبل أربعة أشهر. وكان بعض المسؤولين في وزارة البحرية حينذاك اعترضوا على تعيين ربان مدمرة عمره ٤٨ عاماً لقيادة بارجة حربية ضخمة كتلك. وفي الواقع كانت تنقص هذا الرجل القصير المكتنز والوافر النشاط تلك الكياسة العزيزة على قلوب رجال وزارة البحرية. فهو كان أقرب الى فلاح قوي منه الى محارب من الساموراي النبلاء، هكذا قال مرؤوسوه. لكن آريغا كان يتمتع بكل شجاعة المحارب وبكثير من خبرة البحّار.

## أسطول على ورق

شق الملازم البحري ساكاي كاتونو طريقه في الممرات المزدحمة لبلوغ الموقع المحدد له: مركز مراقبة الاضرار في القسم الثامن. بدا وكأن طريقه الى هناك لن تنتهي، لكنه اخيراً ولج المسرب المؤدي الى المركز ليجد رجاله مجتمعين وقد أرتدوا بذلات الاسبستوس الواقية من الحريق ووضعوا أجهزة التنفس وحملوا الخراطيم والاطفائيات واعدّوا الدلاء المملوءة بالرمل لمكافحة أقدم عدو للبحّار: الحريق في عرض البحر.

وما ان أصدر الامر المقتضب حتى انتشروا يتفحصون الأبواب والفتحات، من قمرة القيادة الى آخر غرف المحركات في ميمنة السفينة ونزولا الى جوفها. ولم يكن كاتونو يتصور أن في غمار المعارك مكاناً أسوأ من هذا يدفن فيه المرء. وكان يثير قلقه ادراكه أن مراقبة الأضرار في السفن لم تؤخذ بعين الجد في البحرية اليابانية كمهمة حربية. فالتشديد كان دائماً على الهجوم وليس على الدفاع، ولم يقدّر اليابانيون قط عمليات اصلاح السفن وانقاذ البحارة.

احتشد كبار الضباط داخل قاعة الاجتماعات يتمعنون في الخرائط المنمّقة المنتشرة على الطاولة التي تتوسط القاعة. وعند أحد طرفي الطاولة وقف قائد الاسطول الثاني، نائب الاميرال سيتشي ايتو، وهو رجل طويل القامة محني المنكبين ومحارب قديم في الرابعة والخمسين من عمره.

كان ايتو يعارض دخول اليابان الحرب ضد الولايات المتحدة. فالاذلال الذي لحق بالولايات المتحدة في بيرل هاربر هلّلت له دول المحور في صور كاريكاتورية ساخرة تمثل العم سام يفتح قمقماً فينطلق منه مَارد من المحاربين الساموراي. لكن الواقع كان ان اليابان فتحت قمقماً لم يجدر بها ان تفضّه، واقتحمت مسرح الأحداث في العالم كقوة عظمى حاقدة ومعتدة بنفسها. وها هي القوات الامريكية تحتل الجزر الواقعة الى الجنوب الغربي من اوكيناوا وتوصل الحرب الى العتبة الامبراطورية، مع أن هذه الحقيقة ظلّت خافية حتى ذلك الوقت عن الشعب الياباني.

بقيت أمور كثيرة مخفيّة عن الشعب الياباني. فبعد الهزيمة الساحقة التي نزلت بالاسطول الياباني قبل خمسة أشهر في الفيليبين أصبح هذا الاسطول قوة منهوكة. والجزء الاكبر من الجهد الحربي للبارجة ياماتو أهدر في المراسي الجنوبية وتخللته رحلات تموينية الى الحاميات المبعثرة على الجزر. وحتى شهر اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤ لم تكن ياماتو أطلقت سوى قذيفة مدفعية واحدة في سورة من الغضب. فقد تصدت مع شقيقتها البارجة الجبارة "موساشي" وقوة بحرية يابانية ضخمة، لحاملة طائرات بقيادة الاميرال الامريكي وليم هالسي الملقب "الثور". وانقلبت موساشي بعدما اصابها عشرون صاروخاً. وأصيبت ياماتو بقنبلتين. ولكن قبل أن يتمكن الطيارون الامريكيون من التحوّل بكامل قوتهم الى ياماتو انطلق هالسي المتسرّع الى مهاجمة القوة اليابانية الثانوية، وهكذا عادت ياماتو الى اليابان كسفينة قيادة لأسطول لم يبقَ له وجود سوى على الورق.

## الاختباء

قال ايتو لسامعيه ان قادة الاسطول المشترك يفكرون في الخروج الى مواجهة مضادة للحصار. وقضت الخطة بأن تنطلق البارجة ياماتو مع أي عدد من سفن الحماية التي يمكن جمعها، فتطوف حول جزيرة كيوشو الجنوبية ثم تسرع بالالتجاء الى القاعدة البحرية في ساسيبو. الامريكيون سيهاجمون هذه القوة بلا ريب، ولذا أعدت أفواج من الطائرات الانتحارية لضرب حاملات الطائرات الامريكية وهي تطارد ياماتو.

تجهّمت وجوه الضباط اليابانيين. فهم لم يتصوروا أن البارجة، وهي مفخرة الاسطول، يمكن ان تستخدم شركاً فحسب لاستدراج العدو. وأعلن إيتو: "اني أشعر ان الواجب يدعوني الى الاقرار بكل اخلاص أن شكوكاً تخامرني حول هذه الخطة. ولكن مهما يكن، وما دامت هذه هي الأوامر، فعلينا أن نبذل قصارى جهدنا."

تساءل النقيب تامايشي هارا: "إذاً هذا ما آل إليه أمرنا." فالقوة التي تجمعت حول ياماتو لم تزد على عشر سفن بدت على بعضها آثار ثلاث سنوات من القتال. وكانت سفينة هارا، وهي الطرّاد الخفيف "ياهاغي"، عضواً جديداً في هذه القوة لم يُختبر الا في معركة واحدة. وكانت حمولته ٨٥٠٠ طن وسرعته القصوى ٣٥ عقدة (نحو ٦٥ كيلومتراً في الساعة)، لكن مدى قدرته على احتمال وطأة القتال بقي علامة استفهام معلقة.

أمام الطراد ياهاغي رست المدمرة "هاتسوشيما"، وهي سفينة عمرها ٢٢ سنة والوحيدة الباقية من فئتها. ورست وراءها ثلاث مدمرات دخلت الخدمة بعدها بسنة، وهي "ايسوكاز" و"هاماكاز" و"يوكيكاز" التي سلمت من معارك كثيرة حتى غدا بحارتها يعتقدون أنها لا تغرق. وكان ثمة ثلاث مدمرات أخرى تكمل المجموعة، وهي "أساشيمو" التي تعاني أعطالا في المحركات بعد اصابات كادت أن تكون قاضية تلقتها في خليج لايتي، و"سوزونسوكي" وهي مدمرة قديمة في الخدمة اشتهرت بخروجها سالمة من معارك عدة، وشقيقتها المدمرة "فويوتسوكي".

وكان الاميرال كايزو كومورا، صديق النقيب هارا والقائد العام للقوة المرافقة، يقف بجانبه على منصة القيادة المكشوفة للطراد ياهاغي. ويتذكر أحد الضباط أن "المظلة كادت لا تقي رأسيهما من المطر"، لكن قيادة الطراد من الغرفة المدرعة للدفة لم تكن مسألة واردة.

القادة اليابانيون كانوا يستخفّون بالوقاية منذ رفض الأميرال الاسطوري طوغو الاحتماء في معركة تسوشيما قبل ٤٠ سنة.

واجال كومورا نظره بازدراء في المرفأ الصغير المطوق بالتلال المكسوة بأشجار السرو ثم زمجر: "هذا اختباء." وهز هارا رأسه ايجاباً. فتلك القوة التي جمعت على عجل كانت مختبئة فعلا.

كان ماسانوبو كوباياشي يتوق الى الاستحمام بعدما فرغ من تنظيف ياماتو. فصانعو البارجة خصصوا للبحارة أحواض استحمام بالماء الساخن يبلغ طول كل منها حوالى تسعة امتار. وكان البحارة يغسلون أجسادهم قبل أن يغوصوا في الماء ويسترخوا. وكان ذلك يشبه الحمّامات القروية التي اعتادوها في موطنهم. وكان بعض البحارة الشبان يربطون منشفة حول رؤوسهم ويغرزون فيها قطعة من الصابون ثم يغوصون في الحوض بحيث تبقى الصابونة وحدها فوق سطح الماء. كانوا يسمّون هذه العملية "الغوّاصات".

مشى الملازم ميتسو واتانابي الى موقع الرادار على منصة القيادة الاولى. وتحت موقعه كان البحارة يسعون كالنمل الزاحف فيمسحون السطوح ويطلون بالزيت حبال الاسلاك وينزعون آثار الصدأ التي ظهرت عليها. وراح رجال المدفعية ينظفون مدافعهم منهمكين في فحص رافعات الذخيرة والقواطع الكهربائية في جوف السفينة وفي غرف المحركات الاربع حيث انصرف المهندسون الى العمل على التربينات (العنفات) الضخمة.

استدار البرج الرئيسي الخلفي نحو مقدم البارجة وارتفعت أفواه المدافع الثلاثة الضخمة الى أعلى حدّ لها. هذا الوضع لا يوفر لها قدرة كبيرة مضادة للطائرات، لكن القنبلة الجديدة التي دعيت "سان - شيكي" التي لقبت "قفير النحل" حلّت الآن محل الذخيرة العادية. هذه القنبلة المحشوة بطبقات من الشظايا، تنفجر في فترات محددة وتنتشر مثل حشوة من حبيبات الرصاص في بندقية صيد.

## النسر الأقرع ينتظر

أخذت مدافع البارجة الامريكية "نيومكسيكو" من عيار ١٤ بوصة تهدر مرة كل ثلاث دقائق فترتج لها تلك السفينة القديمة التي تبلغ حمولتها ٣٢ ألف طن. وكانت أعمدة من التراب ترتفع من سفوح اوكيناوا المخددة بينما سفن الاميرال مورتون ديو، من القوة الضاربة ٥٤ تؤمن التغطية للمشاة الامريكيين الزاحفين على الشاطىء على بعد بضعة عشر كيلومتراً منها. جميع السفن في تشكيلة الاميرال ديو كانت قديمة العهد كفاية.

البطء كان السبب في اقصاء هذه البوارج المهيبة عن الانضمام الى حاملات الطائرات السريعة التي أضحت تهيمن على الاعمال الحربية في المحيط الهادىء. غير أن عمليات الانزال البرمائية قيّضت لها ان تخدم فترة أخيرة كقواعد مدفعية متحركة داعمة للقوات على البر.

وكان الهجوم الشامل على اوكيناوا العمل الانتقامي ما قبل الاخير ضد اليابان، فهذه الجزيرة هي موطىء القدم الاخير قبل الوصول الى طوكيو. وكان محللو الاستخبارات الامريكيون يعتقدون ان اليابانيين عاجزون عن تقدير حجم القوة المتفوقة المنقضّة عليهم. والقليلون الذين زعموا أنهم يفهمون النفسية اليابانية اعتقدوا أن روحية الساموراي ستكون المسيطرة، وسيستمر القتال حتى النهاية.

جثم "النسر الأقرع" في مقعده على متن حاملة الطائرات الامريكية "بانكرهيل". وقد ناسبت هذه التسمية الرمزية الاميرال مارك ميتشر قائد القوة البحرية الضاربة ٥٨، فقد كانت تلوح في سيمائه هيئة طائر جارح. وكانت تلك أضخم قوة من حاملات الطائرات عرفها العالم أبداً، وتضمّ ١٧ حاملة وما يزيد على ١٠٠٠ طائرة وتواكبها ثماني بوارج سريعة و١٥ طرّاداً وأكثر من ٦٠ مدمّرة. وبرزت خصلات من الشعر الأشيب من تحت قبعة الاميرال التي ظللت أنفه المستدق وعينيه الزرقاوين اللامعتين. وقد أثبتت حرب المحيط الهادىء صحة نظريات اولئك الرجال أمثال ميتشر الذين كانوا رادة في تطوير سلاح الطيران في الاسطول الامريكي، بعدما اضطر هذا الاسطول، على أثر خسارة سفنه الحربية في بيرل هاربر، الى الاعتماد على حاملات الطائرات. وفي غضون السنتين اللتين انقضتا على تلك الكارثة طوّرت البحرية الامريكية قوة هائلة من حاملات الطائرات كانت رأس حربتها ٢٤ حاملة من طراز "إيسكس".

سفينة ميتشر القيادية "بانكر هيل" كانت مثالا لذلك الطراز من الحاملات. فقد زادت حمولتها على ٢٧ الف طن وبلغت سرعتها القصوى ٣٣ عقدة (نحو ٦١ كيلومتراً في الساعة). وسلّحت باثني عشر مدفعاً من عيار ٥ بوصات مع عشرات من طائرات "بوفور" و"أورليكون" ظاهرة للعيان في مكامنها تحت مدرج الطيران الذي بلغ طوله ٢٦٦ متراً.

هيكل السفينة كان مملوءاً بالذخائر والخزانات المعبأة بوقود الطائرات ووقود الديزل، ويا له من خليط خطر. احتمال شبوب حرائق كان جدياً حتى ان الاسطول الامريكي استعان بهارولد بورك من دائرة الاطفاء في مدينة نيويورك. وابتكر بورك نظاماً من أجهزة رش الماء وقذف الرغوة لمكافحة اللهب ركّبت على متن الحاملة، وفصلت بين الجهاز والآخر مسافة ٣٠ متراً. وقبيل أي هجوم كان وقود الطيران المتبقي في الانابيب يضخ الى الخزانات وتملأ هذه الانابيب بغاز خامد.

## رومية الجدود

في منتصف الطريق بين طوكيو ويوكوهاما توّج مقر القيادة المشتركة للاسطول الياباني مرتفعاً غير بارز داخل حرم جامعة كايو في هيوشي. هذا المركز القيادي للجهد الحربي البحري الياباني بأسره كان مخفياً داخل سلسلة من الأنفاق محفورة في السفح تحت مجموعة من الأبنية المموّهة.

وكان نوع من الشلل المتزايد أخذ يغشى القيادة اليابانية المشتركة منذ كشفت معركة لايتي في الفيليبين ان الاسطول الياباني ليس نداً للقوة البحرية الامريكية. وبدا كأن القائد الأعلى للاسطول الياباني الاميرال سويمو تويودا فقد سلطة أخذ القرارات نهائياً.

الا ان مقداراً كبيراً من النصائح كان لا يزال يقدم اليه. ودعت احدى المجموعات حوله الى اعداد آخر ما بقي من السفن الصالحة للقتال من أجل خوض معركة اليابان المقبلة. مثل هذه القوة، لن تقوى على اجهاض الانزال على شواطىء أوكيناوا، سواء أرافقها دعم جوي أم لم يرافقها، وكانت اليابان آنذاك تحاول ان تلملم بدائل لحاملات الطائرات من أماكن قصية مثل مانشوريا وكوريا. وحتى هذه الخطة الاخيرة التي هيأت فيها البارجة ياماتو لتكون سفينة استدراج بخروجها الى عرض البحر والدوران حول جزيرة كيوشو كانت عملا جنونياً.

لكن الحكماء التزموا الصمت. فهم أدركوا أنهم خسروا الحرب، لكنهم شعروا أن من الخطر الاقرار بهذه الحقيقة علناً. أما الاكثرية الصاخبة النزّاعة الى القتال فكانت تنادي بمواصلة الحرب بصرف النظر عن عدم تكافؤ القوى.

النقيب شيغانوري كامي كان الأسوأ بين هؤلاء. وبدل أن توكل اليه قيادة بحرية يجد فيها متنفساً لروحه العدوانية وربما تفريجاً نهائياً له، ألزم المداومة هنا في هيوشي كرئيس للعمليات، وهو منصب لا يتفق مع طباعه. فأوضاع الحرب في نظره كانت تتطلب هجوماً عسكرياً حاسماً يستهدف الوريد في عنق العدو. كان يصرخ: "ماذا كنا فعلنا في الزمان

القديم؟" كنا غامرنا بكل شيء في هجوم شعاره "قاتل أو مقتول". فلنبعث روحية طوغو في تسوشيما أو روحية ياماموتو في بيرل هاربرا"

كان من العبث الاشارة الى أن روحية بوشيدو لا يمكن ان تصحح خللا ساحقاً في توازن القوى لم يواجهه طوغو أو ياماموتو. والشجاعة المجردة لا تعوض النقص الفادح في القوة الجوية والطيارين المدربين وحاملات الطائرات وسفن الحراسة. لكن الافصاح عن مثل هذه "الهرطقة" كان يبهر أنفاس كامي وبغيظه، فيصيح بصوت راعد: "هذا سخف كافر. كل ما نحتاج اليه هو اظهار روحية جدودنا الأمجاد."

## الموت المجيد

كانت القيادة المشتركة تعقد اجتماعاتها اليومية في الساعة التاسعة صباحاً. وصباح الخامس من ابريل (نيسان) ١٩٤٥ أخذ رئيس قسم الاستخبارات يعرض المعلومات القليلة المتوافرة لديه: القوة الامريكية في اوكيناوا تتعاظم باستمرار، وما يزيد على مئة الف من جنود الاعداء أصبحوا الآن على سواحلها.

عندئذ هب النقيب كامي واقفاً على قدميه وصاح: "الاسطول الثاني، المسمى الآن القوة الضاربة الخاصة، سيشارك غداً في عملية تن - ايتشي. وستبحر سفينة القيادة ياماتو مع الطرّاد ياهاغي وثماني مدمرات في ٦ ابريل (نيسان) لطرد الامريكيين من أوكيناوا. وبعد انزال أقسى هزيمة بالعدو ترسو ياماتو على الشاطيء وينزل منها البحارة الذين يمكن الاستغناء عنهم لتعزيز حامية اوكيناوا."

تحولت أنظار ضباط القيادة المذهولين نحو تويودا للتأكد مما سمعوا. واكتفى الاميرال بدفن ذقنه في راحتيه وهز رأسه في تجهم. عندئذ تكلم ضابط مسؤول عن التموين وقد استبد به الرعب، وأبدى شكّه في أن تتمكن اليابان من تأمين احتياط كاف من الوقود للقيام بهذا الهجوم من دون خفض استهلاكه في أماكن اخرى. لكن كامي تجاهل هذا الاعتراض شارحاً: "انها عملية انتحارية، والوقود سيكون كافياً للذهاب من دون الاياب."

وهكذا كان. ووجهت البارجة ياماتو مع القوة المواكبة لها في مهمة "كاميكاز" انتحارية. وتقرر كل ذلك في تلك الليلة. كان كامي وتويودا أمضيا ساعات يتسامران في خلوة في مكتب الاميرال. ولم يوضع أي محضر بالحديث، لكن التبرير الذي قدّمه تويودا لاحقاً جاء فيه أن البارجة ياماتو والقوة المواكبة لها تواجهان احتمالا متعادلا في النجاح أو الاخفاق. وليس على هذه القوة الا أن تنقض على سفن النقل العدوّة في مراسيها فتعطل عمليات الانزال وتتيح لحامية اوكيناوا الفرصة المثالية لالقاء العدو الغازي في البحر.

كان كامي اكثر من رئيسه استخفافاً بالمقاومة الامريكية، اذ ان "الروحية اليابانية" ستطغى على قوة العدو التقنية والمنتجة، كما أن التضحية تعزز تلك الروحية وتساهم في تحقيق النصر. وسينفذ هجوم معاكس عجائبي.

يا لها من طريقة مجيدة للموت. كان نور غريب يشع من وجه كامي وهو يشرح الخطة للضباط المجتمعين. وران سكون مطبق على قاعة الاجتماع فيما الضباط يصغون بذهول وصمت اليه وهو يسير بين الطاولات ملوّحاً برزمة من الاوراق: البارجة الضخمة والسفن المواكبة لها ستندفع الى الامام بالسرعة القصوى في دغشة قبل الفجر لتبلغ قلب القوة العدوة المحتشدة. وسيستبد الهلع بالامريكيين الجبناء فيشرعون في اطلاق النار عشوائياً بعضهم على بعض في الظلام، وتتناثر السفن حطاماً محترقاً عائماً على وجه الماء.

## قادة مخبولون؟

وردت برقية تحمل سمة "سرّي جداً". وقرأها الاميرال سيتشي ايتو مرتين ثم نادى: "ادعوا موريشيتا سان ليقابلني."

وكان رئيس أركان الاسطول الثاني نوبوي موريشيتا رجلا طويل القامة يدخن بلا انقطاع، وهو احد البارزين القلائل الذين تحدّوا العقيدة البحرية اليابانية الصارمة. وهبط عدداً من السلالم الفولاذية ودخل غرفة ايتو وأدى له التحية العسكرية.

وأشار اليه ايتو بأن يجلس في كرسي ثم ناوله البرقية. ووصل آريغا فيما موريشيتا لا يزال يقرأ. فالبرقية وردت من تويودا، من مركز القيادة المشتركة، وهذا نصها:

العملية تن - ايتشي ستبدأ الآن. الاسطول الثاني سيشكل قوة الهجوم الخاصة الاولى من سفينة القيادة ياماتو وكل سفن المواكبة المتوافرة. وستخرج القوة من البحر الداخلي في الساعة ١٥،٠٠ من ٦ ابريل (نيسان) وتهاجم أسطول العدو الغازي في اوكيناوا قبل الفجر في ٨ ابريل (نيسان). الوقود متوافر لرحلة الذهاب فقط. هذه عملية توكو.

استقام آريغا في جلسته وأخذ يدمدم. وبدا كأن موريشيتا يكاد ينفجر، وزمجر: "هذه ليست تعليمات وافية."

والواقع انه حين وردت أوامر مفصلة اتضح ان العملية تن - ايتشي كانت كومة من الافتراضات الفجّة اكثر مما هي خطة هجوم. فقد تعين على البارجة ياماتو وسفن المواكبة التسع أن تخرج الى بحر الصين ثم تبحر من دون اعتراض على مدى عشر ساعات في وضح النهار نزولا أمام سلسلة جزر ريوكو، ثم تتحول مع هبوط الظلام نحو شواطىء الانزال في اوكيناوا. وهناك تنطلق تحت جنح الظلام لابادة القوات الأمريكية الغافلة. ويسبق ذلك شن غارات انتحارية كثيفة على أسطول العدو، لكن القوة المهاجمة نفسها تبقى من دون تغطية جوية. وكان جلياً انه من غير المتوقع أن تعود أي من هذه السفن الى قاعدتها. فبعد انزال أفدح الأضرار بالعدو، على السفن ان ترسو قبالة الشاطىء لتنضم طواقمها الى حامية الجزيرة. وأوصى ملحق جنوني بأن تستمر مدافع ياماتو الضخمة في توفير الدعم بعد أن تكون حشرت نفسها بين الصخور المرجانية على الساحل. ولم يوضح الملحق كيف يمكن امداد تلك المدافع الضخمة بالطاقة المحركة.

ضابط المدفعية في الاسطول، العقيد تاكاو مياموتو، كان يشعر أن من الصواب أن تغرق ياماتو وهي تقاتل. غير أن صديق هارا، الاميرال كايزو كومورا القائد الأعلى للمدمرات المواكبة، اعتبر أن قادة الاسطول المشترك قد خبلوا. فهل من المفترض حقاً أن تهاجم القوة الضاربة الامريكيين، ام ان العملية مجرد استدراج؟ واستأذن كومورا متجهماً ان يسمح له باستشارة قادة المدمرات.

## حفلة عامرة

على متن الطراد ياهاغي تكلم كومورا بصراحة في الربابنة المجتمعين: "هذه العملية ليست حتى مهمة انتحارية، لأن تلك تفترض وجود فرصة لضرب هدف يستحق أن يهاجم. لست آبه للموت، غير أني أحجم عن القاء رجالي في التهلكة."

كان موقفاً لا سابقة له. فلم يكن أحد يناقش الأوامر في الاسطول الياباني. وعلى رغم ذلك أثار كومورا جدلا. فكل ضابط من الحضور كان حارب باستمرار طوال ثلاث سنوات ونصف سنة. والآن اعلنوا جميعاً اتفاق آرائهم حول لاعقلانية قيادة الاسطول المشترك وثقة اليابان في الساعة الاخيرة بأن العمليات الانتحارية يمكن أن تكون سلاحاً حاسماً. ان إهدار الطائرات النادرة مع طياريها كان عملا جنونياً، اما اهدار البوارج القليلة المتبقية مع طواقمها من البحارة المجرّبين فهو عمل اجرامي. واعتبر هارا ان من الافضل ان يتوجه الاسطول الى عرض المحيط الهادىء لمهاجمة الخطوط المكشوفة لمواصلات العدو.

حين عاد كومورا الى ياماتو ليعرض موقف رجاله لقي صداً مهذباً لآرائه. ورجع من الاجتماع مرهقاً ليعلن أن المهمة ستنفذ كما هو مقرر. وقد تذكر هارا ذلك في ما بعد فقال: "طأطأ كومورا رأسه وكأنه يعتذر. فعزمت على التصدي لحقيقة هذا الموقف غير الواقعي فبادرته: "اننا نقدّر موقفك يا سيدي الاميرال، ولكن علينا الآن أن نفيد من الوضع الحالي الى أقصى الحدود."

برقية القيادة اليابانية في شأن العملية تن - ايتشي هالت محلّلي الرموز الامريكيين في هاواي. وأرسل تحذير طارىء ذو اولوية عليا جاء فيه: "ان اليابانيين يخططون للخروج والاقتحام."

كان الاستكشاف الجوي بيّن أن بارجة عدوة ضخمة ترسو في البحر الداخلي. مثل هذه السفينة الضخمة لا يمكن أن تحاول العبور في مضيق شيمونوسيكي الضحل والملغّم بكثافة. وسيكون الخروج عبر مضيق بونغو الأعمق والأوسع بين جزيرتي كيوشو وشيكوكو. وللحال استنفرت الغواصات التي كانت تجوب المنطقة.

راجت الاشاعات على متن ياماتو. وكان البحارة القدامى حين يرون الاعلام تعطي اشارات العملية تن - ايتشي يهزّون رؤوسهم مدركين ما وراء كل ذلك.

أمر النقيب جيرو نومورا، الضابط التنفيذي في ياماتو، بأن يتجمّع كل البحارة. وللحال غطت السطح الامامي الفسيح صفوف من البحارة بألبستهم الخضراء، تمتد حتى المقدمة. وأوجز الاميرال آريغا تفاصيل العملية. فتعالى هتاف مدوّ أمام الشمس الغاربة.

وترقرقت الدموع في عيني نومورا وهو يراقب هذا البحر الزاخر من الرؤوس المرفوعة. ان قرى معظم هؤلاء الرجال كانت تحوّلت ركاماً نتيجة القصف الجوي. وتقدم نومورا ووقف بجانب آريغا وصاح: "لتضرب ياماتو العدو ضربة انتحارية."

وتعالى هتاف راعد وثلاث تحيات للامبراطور قبل أن يتجمع الرجال ويتبادلوا المهمات متجاهلين دعوات الضباط الى التزام الصمت. أما في قسم صغار الضباط فلم يبدُ على هؤلاء أثر للتفاؤل وقال أحد الملازمين: "من يراهن على أننا لن نستطيع قطع نصف المسافة؟"

جلس كبار الضباط في حجراتهم يناقشون المهمة بلامبالاة وكأنها لا تعنيهم. وتساءل المهندسون ألا يجدر التأكد من مدى تحمّل هيكل البارجة تأثير الاصابات. فاذا تعرضت ياماتو لضغط كاف فانها قد تهتز حتى تنفرط قطعاً متناثرة.

قدّم أحد الخدم كؤوس شراب من زجاجات نهبت من سنغافورة قبل ثلاث سنوات. وأكد بحارة ياماتو أن الاسماك في البحر ستتلذذ بالشراب على مدى كيلومترات حول السفينة اذا قُدِّر لها ان تغرق. لكن نومورا كان مصمماً على أن يحرم الاسماك هذه اللذة. وقضى آخر الأوامر التي أصدرها في ذلك اليوم باقامة حفلة عامرة كبرى تبارى طهاة ياماتو الثمانون في إعدادها. وقدّموا بين ألوان الطعام "السيكيهان" المصنوع من الفاصولياء الحمراء المطحونة و"الاوكاشيراتسوكو" وهو نوع من الطعام البحري يقدّم من دون أن تنزع منه رؤوس الأسماك.

## هدف مغرٍ

خروج ياماتو كان أقل ما يقلق سبروانس. فالخطر الحقيقي كان يتمثل في الغارات الانتحارية. وكشفت الصور الجوية تجمعاً لنحو ٧٥٠ طائرة موزعة في قرابة ٥٠ مطاراً مموهاً ببراعة في جزيرة كيوشو. وهكذا أكد الاجتماع الصباحي لقائد الاسطول الخامس الذي عقد على متن السفينة "نيومكسيكو" في السادس من ابريل (نيسان) أن الهجوم الانتحاري المتوقع منذ زمن طويل أصبح وشيكاً.

اعتقد اليابانيون أن الامريكيين ترعبهم الغارات الانتحارية. وكانت اذاعة "زهرة طوكيو" تردد كل ليلة لسامعيها المتجهمي الوجوه: "ستندمون ايها الشبان، فأنتم لا تدركون عظم الورطة التي وقعتم فيها." الا ان اليابانيين اخطأوا تقدير ردّ فعل الامريكيين، تماماً كما أخطأوا من قبل عواقب الغارة على بيرل هاربر. فلم يكن الامريكيون مرعوبين، بل كانوا حائرين. كانوا يتساءلون عن نوع هذا العدو الذي يواجهون: لا شك في ان الانسانية براء من هؤلاء الناس، فليبادوا عن آخرهم. كانت هذه نظرية مناسبة تماماً لواشنطن كي تستخدم السلاح الذري ضد اليابان في وقت لاحق.

كانت أشعة الشمس الغاربة تخبو حين قرقعت سمّاعات الاجهزة اللاسلكية منذرة بأن الدورية الجوية المقاتلة مشتبكة في معركة ضارية في مكان ما شمال اوكيناوا.

وتأهب المدفعيون المرهقون للعمل. وسرعان ما ظهرت الطائرة الاولى من تشكيل كيوشو الهجومي منقضّة على سواحل الانزال في اوكيناوا. غير ان الطيارين غير المجرّبين تجاهلوا التعليمات الواضحة المعطاة لهم بانتقاء الاهداف الرئيسية كالبوارج وحاملات الطائرات وبدا أنهم صمموا على التضحية بأنفسهم فوق السفن الصغيرة. كانت عشر من بوارج سبروانس تطوف حول الشاطىء وتشكل هدفاً لا يجوز لأي طيار عدو أن يقاوم الاغراء بمهاجمته. وهكذا في غارة بعد غارة أصاب الطيارون الانتحاريون ٢٢ سفينة، الا أنهم أفلحوا في اغراق أربع منها فقط.

## مياه خطرة

مع هبوط الظلام تحولت الريح العاصفة نسيماً رخاء. وفي الصباح اقلعت ٣٧٢ طائرة انتحارية من سلاحي البر والبحرية من جزيرة كيوشو. ولم يعد منها الى قواعدها سوى ٤١ طائرة حماية و١٧ قاذفة قنابل وعدد قليل من الانتحاريين.

وهلل راديو طوكيو للهجوم معتبراً اياه "ضربة لن تقوم للعدو قائمة بعدها أبداً،" زاعماً أن بارجتين أمريكيتين و٥٧ سفينة أخرى اغرقت. لكن الحقيقة كانت أن ذلك الهجوم الذي كلف اليابان أبهظ ثمن دفعته أبداً، اخفق في اصابة أي هدف رئيسي.

في الساعة الثانية فجراً أيقظت مكالمة هاتفية من القيادة المشتركة الضابط المسؤول عن مستودع الوقود في توكوياما وأبلغ الى قاعدة توكوياما، وهي المرفق الاكبر لتخزين الوقود في اليابان، أن البارجة ياماتو والقوة الضاربة الخاصة ستتصل إليها قريباً ويجب ان تزود وقوداً يكفي فقط لايصالها الى أوكيناوا.

امتعض الضابط المسؤول في توكوياما، المتجهم الوجه وغير الحليق الذقن، اذ ان الخزانات الضخمة القائمة في ذلك المرفأ المحروس جيداً لم تكن تحوي سوى ١٥ ألف طن من الوقود. والاسطول الامريكي العامل قبالة سواحل اوكيناوا كان يستهلك أكثر من هذه الكمية كل ٢٤ ساعة. وعلى رغم ذلك بدا أن الاميرالات القابعين وراء مكاتبهم على استعداد لاهدار ذلك الوقود الثمين، والسفن أيضاً، في عملية لا أمل يرجى منها لتخفيف الضغط عن اوكيناوا. ومهما يكن فان قاعدة توكوياما ستتيح لتلك السفن فرصة القتال. ستستمد وقوداً من "الخزانات السرّية"، فخزانات الوقود الفارغة كانت تحوى بقايا تبلغ ٢٠٠ طن ليست في متناول المضخات، الا أن الرجال كانوا يلجون داخلها ليستخرجوا الوقود منها باليد حتى النقطة الاخيرة. وربما وفرت هذه العملية من الوقود ما يكفي لتجاوز تعليمات قيادة الاسطول المشترك.

وهي وفرت في الواقع أكثر من ذلك. أمرت قاعدة توكوياما بتقديم ٢٠٠٠ طن فقط للقوة بأسرها، مما يسمح لها بالقيام ببعض المناورات السريعة التي تستهلك مقدارا كبيراً من الوقود لكنه لا يكفي لرحلة العودة الى قواعدها. الا أن القاعدة تحدت التعليمات وزودت القوة ما يناهز ٨٠٠٠ طن.

كان نومورا، على متن ياماتو، على علم بالأمر ورضي أن يوقع أنموذج طلب للوقود يرضي بيروقراطيي طوكيو. في هذه الاثناء كان أمين سره ينظر الى ساعته باستمرار. فسفينة البريد ستغادر في الساعة العاشرة. وأذاع نومورا الأمر.

كتب الملازم ميتسورو يوشيدا رسالة محزنة الى والديه جاء فيها: "أرجو أن تتخلّصا من الاشياء التي تخصني. ليعتنِ واحدكما بالآخر، وابذلا أقصى جهدكما في اي شيء تقومان به."

وكتب هارا ربان الطراد ياهاغي: "اني على وشك الخروج الى القتال كربّان للقطعة الوحيدة الباقية في هذا الاسطول. يجب أن تعلما أني سعيد، وأن تفخرا بي. ودائماً."

لحق هارا بسفينة البريد في اللحظة الاخيرة. وللحال دوّت صفارات الانذار فهرع بحارة السفن الى مواقعهم. الا ان صفارات انتهاء الاستنفار دوّت بعد قليل. فالعدو المهاجم كان قاذفة وحيدة تحلق على بعد كيلومترات، انها مجرد طائرة استطلاع.

وجه النقيب فرانك شايب طائرته المجهزة بمعدات تصوير الى شرق كوري، فاكتشف القوة الهجومية التابعة للبارجة ياماتو. وبعدما عاد الى قاعدته واخبر قائده بالامر. قال هذا: "انها تغطية ممتازة." فالصقر المنتقم أضحى على وشك الانقضاض، والاقحوانة العائمة توشك أن تتمزق تويجة تويجة.

كانت الشمس تنحدر نحو جبال كيوشو حين دخلت القوة المهاجمة مضيق.بونغو. وهدرت فوقها الطائرات التي شكلت لها مظلة واقية. وكان الطيارون يعرفون أن الغواصات العدوة تتربّص هناك. وتمدّد آريغا على كرسي مستطيل ليستريح في مركز قيادته الموحش ويراقب ضابط الملاحة وهو يوجّه الاندفاع السريع على مقربة من ساحل كيوشو. وأصدر الاميرال تحذيراً بأن المياه هناك محفوفة بالاخطار، فثمة جزر وجُرف وصخور مغمورة وجميع المنائر مطفأة. وهز الضابط رأسه بعصبية موافقاً. كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء نوبته في العمل.

بعيد الثامنة والنصف مساء جلجل جرس الهاتف بالقرب من ذراع آريغا. وأبلغ اليه التقاط اشارات صادرة عن غواصة امريكية. وهذا يعني أن العدو اكتشف تحركاتهم.

## الفرصة الضائعة

الغواصة الامريكية "تريدفين" الغائرة تحت الماء قبالة الساحل الشرقي لجزيرة كيوشو التقطت اشارة الانذار بخروج البارجة ياماتو. غير أن كل السفن الامريكية المتربصة في المنطقة كانت خاضعة لأوامر تقضي بعدم شن أي هجوم قبل استئذان القيادة في هاواي. وكان كبار الضباط يخشون أن يؤدي أي هجوم سابق لاوانه الى اغراق الغواصات قبل أن يتم فك رموز التقرير الحاسم حول المشاهدات ونقلها الى القيادة في هاواي. وظلّت أنظار ربّان تريدفين مركزة على الشاشة الخضراء الباهتة في جهاز تحديد موقع الغواصة الذي يرسم صورة رادارية للجوار على مدى كيلومترات

حولها . وفي الساعة السابعة والنصف رأى أربع نقاط مضيئة تنطلق من بين التعرجات التي تمثل ساحل جزيرة فوكاشيما . وبعد دقيقتين انجلت النقاط المضيئة عن سفينتين كبيرتين وأربع سفن صغيرة على الأقل.

وحين أصبحت أقرب هذه السفن، وكانت مدمرة، على مسافة نحو ستة كيلومترات من الغواصة، كان الأنبوبان الاماميان لاطلاق الطوربيد في الغواصة جاهزين للعمل. وراح ربّان الغواصة يلعن الأوامر التي تمنعه من الهجوم. وبدا أن تقرير هاواي يستغرق دهراً. وفيما كان عامل اللاسلكي في ثريدفين يبث تقريره عن مشاهداته ويكيل اللعنات، راح الربّان يراقب تشكيلة مدمرات المواكبة اليابانية تمر به وهو عاجز عن القيام بأي عمل. احدى السفن التي كانت المدمرات تواكبها رسمت على شاشة الرادار نقطة مضيئة كبيرة الى حد يمكّن من اعتبارها حاملة طائرات. وبينما الربّان يبلغ عن مشاهداته في سورة من الغيظ "فاتت غواصته فرصة احتلال مكان في سجل الشهرة والمجد."

## النظرة الأخيرة

غالب ماسانوبو كوباياشي النعاس على رتابة نبضات محركات السفينة وأخذ يتساءل كيف سيكون غده. وسار الملازم ميتسورو يوشيدا نحو قمرة الرادار. ووقف على المنصة العليا في السفينة ليجلو بصره. وتراءت له الاشياء بوضوح تدريجاً: متن السفينة الطويل المتعرج، المنشآت العليا المتراكمة فوقه كأنها مكعبات يلهو بها الاطفال، وعلى الجانبين تلوح أشكال غائمة وبيضاء ترسمها الأمواج التي تشقها المدمرات المواكبة.

انتهت نوبة خدمة يوشيدا قبيل الفجر وتسلّل الى مهجعه مسروراً. وحل كوباياشي مكان أحد رفقائه في العمل داخل قاعدة المدفع. كانت الرطوبة تقطر ماء من أطراف مظلّات المدافع. الملازم واتانابي تسلّم مسؤوليته على منصة القيادة الاولى، والملازم كاتونو جمع فريقه المكلف معالجة الاضرار داخل المقصورة المهتزة المخصصة لهم.

وفتح موريشيتا علبة سجائر جديدة وهو يدقق في خط سير السفينة. في الساعة الثالثة، تكون السفينة منطلقة في خط متعرج بسرعة ٢٢ عقدة (٤٠ كيلومتراً في الساعة) فيعبرون ثغر خليج كاغوشيما. وسيقودهم خطهم غرباً الى موقع يبعد حوالى ٢٤٠ كيلومتراً الى الغرب من كيوشو. بعد ذلك، قرابة الساعة العاشرة، عليهم أن يبدأوا انطلاقتهم الخطرة في وضح النهار وفي اتجاه جنوبي شرقي. وبعد ثماني ساعات ينبغي ان يكونوا على أهبة التحوّل للاندفاع نحو أوكيناوا.

بينما كانت أنوار الفجر الاولى تشق الغيوم المخيمة على ارتفاع منخفض، أحضر خادم آريغا الشاي والماء الساخن وموسى الحلاقة والصابون والمنشفة. وأنهى الاميرال زينته وهو يهمهم لنفسه ويحدّق الى البعيد الى جبال اليابان الغائمة.

وتعالى صوت يقول: "حدّق جيداً، فلن يتاح لك أن تراها ثانية."

كان هذا صوت كوياما ضابط الاشارات في البارجة. غير أن فريقاً من صغار المهندسين الذين كانوا يقومون بتمارين رياضية على سطح الحظيرة الخلفية انتفضوا لدى سماعهم هذا الكلام وصرخوا في قائله: "اذهب الى الجحيم ايها المخبول الهرم. لن يقوى احد على اغراق ياماتو."

## لا مجال للخطأ

فرقعت مكبرات الصوت على متن البارجة. وكان المتكلم الضابط التنفيذي نومورا. أعلن أن قيادة الاسطول المشترك ابلغت اليه أن الهجمات الانتحارية التي شنت بالأمس أغرقت اربع حاملات طائرات امريكية على الاقل. لذلك فان في استطاعة القوة المهاجمة أن تتوقع مقاومة جوية أضعف مما كان مقدّراً.

وشرع المهندسون الصغار يسخرون بصوت عال من كوياما. وكانوا على وشك الفراغ من تناول فطور مؤلف من الرز والمخللات، حين دوّى النفير داعياً الجميع الى الالتحاق بمراكزهم فوراً. فالطائرات العدوة تحوّم فوق رؤوسهم.

حين تسلم سبروانس تقرير المشاهدة من الغواصة ثريدفين، أمر الاميرال ديو، الذي كان يقود البوارج المهيبة في القوة الضاربة ٥٤، بجبه قوة العدو المهاجمة. وربما كان احساس البحار التقليدي في سبروانس أشعره بأن تلك فرصة لخوض آخر مواجهة قتالية في التاريخ بين البوارج الضخمة، فهذه لم تتواجه الا نادراً خلال تلك الحرب التي أصبحت فيها القوة الجوية السلاح الحاسم. وها هي الفرصة متاحة لاخضاع اجيال من نظريات الحرب البحرية لتجربة مجيدة تحت قصف المدافع.

الا ان حاملات الطائرات بقيادة ميتشر كانت حينئذ منطلقة شمالا في طريقها لملاقاة ياماتو. كان النسر الاقرع مصمماً على اثبات نظريته التي تمسك بها طوال سنوات: ان القوة الجوية تبزّ قوة السفن الحربية. ثلاثة من التشكيلات الضاربة الاربعة ستكون متوافرة لخوض القتال، وهي تتألف من ١٢ حاملة طائرات و٩٨٦ طائرة. انها كافية تماماً لنسف القوة اليابانية بضربات جوية من دون تقليص المظلة التي تحمي جو أوكيناوا. الا أن ميتشر كان في حاجة الى تقويم دقيق لنيات اليابانيين.

عبّر كبير ضباط الاستخبارات لدى ميتشر عن تقديراته: "الارجح أن تتوجه ياماتو الى الغرب من سلسلة أوكيناوا. ستحاول تنفيذ الاندفاع الاخير تحت جنح الظلام لتضرب أوكيناوا مع بزوغ الفجر. غير أنها قد تتظاهر بالتوجه شرقاً لتضليل طائراتنا الاستكشافية."

وكانت مهمة ميتشر الرئيسية دعم عمليات الانزال على سواحل أوكيناوا، وهي تحظر الابتعاد مسافة طويلة عن الجزيرة. وتمثلت مشكلته في الاقتراب من العدو مسافة تسمح بضربه من دون الابتعاد عن الجنود الذين نزلوا الى الشاطىء. لذلك توجب أن يكون تقديره لاتجاه العدو وموقعه صحيحاً تماماً. ليس امامه أي مجال للخطأ. والطيارون سيتاح لهم أن يقضوا ما بين ١٥و٢٠ دقيقة فقط فوق الهدف، والاّ فلن يقيّض لهم أن

يعودوا الى قواعدهم أبداً. واليابانيون كذلك يمكن أن يغيّروا مخططاتهم وينكصوا عائدين من حيث أتوا. لكن ميتشر هزّ رأسه قائلا: "لكنهم سيقاتلون."

## "أضربها أنت!"

مع فجر ٧٠ ابريل (نيسان) أقلعت ثلاثة أسراب من طائرات الاستكشاف في جو ماطر وملبّد بالغيوم للتحقيق في تشكيل بهيئة مروحة تظلّل جانبي كيوشو لجهتي المحيط الهادىء وبحر الصين. وفي الساعة الثامنة والدقيقة السادسة ورد التقرير الاول للمشاهدة، وكان مضللا. فقد رأى المستكشفون قوة يابانية تتجه شمالا في خط متعرج. ترى هل يمكن أن تكون متجهة الى ساسيبو ومن ثم الى اليابان؟ وساد جو متوتر موقع العلم المزدحم على متن بانكرهيل. وبعدئذ، في الثامنة والدقيقة الثانية والعشرين، جاء التصحيح المنشود: لم يعد ثمة مجال للشك، القوة اليابانية متوجهة الى اوكيناوا.

ستنقضي ساعة ونصف ساعة قبل أن تصل القوة الضاربة ٥٨ الى المدى الذي يمكنها من شن الهجوم. وفكر ميتشر ملياً ثم تحول الى رئيس أركانه النقيب بورك قائلا: "أصدر أمراً بالهجوم الشامل في الساعة العاشرة."

عمت الفوضى المنضبطة متون حاملات الطائرات حين انطلقت في الجو المقاتلات وطائرات الانقضاض وطائرات الطوربيد التي يزيد عددها على عدد الطائرات التي استخدمها اليابانيون في الهجوم على بيرل هاربر. الطائرات التي اقلعت عن الحاملات "سان جاسنتو" و"بيننغتون" و"هورنيت" و"بيلو وود" التابعة للمجموعة ٥٨،١ اعقبتها طائرات أخرى تابعة للمجموعة ٥٨،٣ أقلعت عن متون الحاملات "ايسكس" و"باتان" و"بانكرهيل" و"كابوت" وأخيراً "هانكوك". وفي الاجمال بلغ عددها ١٣٢ مقاتلة و٥٠ قاذفة قنابل و٩٨ قاذفة طوربيد، انطلقت كلها في اتجاه شمالي شرقي. (الطائرات التي اقلعت عن متن الحاملة هانكوك تأخرت ١٥ دقيقة عن الموعد المقرر وضلّت طريقها على الفور.) ولحقت بهذه القوة ١٠٦ طائرات أخرى انطلقت من الحاملات "انتربيد" و"لانغلي" و"يوركتاون" التابعة للمجموعة ٥٨،٤ وذلك في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين. عندئذ تحوّل ميتشر الى بورك قائلا: "أبلغ الى الاميرال سبروانس أني أقترح ضرب القوة البحرية التي خرجت مع البارجة ياماتو." لكن بورك نقل الاشارة بعبارة أوجز وهي: "هل تضربها أم أضربها أنا؟"

كان سبروانس ألحق سفينة قيادته بخط القتال الذي يقوده ديو ليشترك في المصادمة التي تاق اليها. وكان لا يزال ثمة احتمال أن يُسعف الحظ اليابانيين أو يسيء الامريكيون التقدير فينجو العدو من المكمن الجوي الذي نصبه له ميتشر. وربما دعت الحاجة الى استخدام السفن القديمة التي يقودها ديو لوقف تقدم البارجة ياماتو. ولكن لا مجال لصد البحار القديم عما نواه. ورد سبروانس على ميتشر بأحد أقصر الاوامر العملانية التي

اصدرت في تاريخ الحروب البحرية. وهو: "اضربها أنت!"

## الاشتباك الأول

بدت السفن اليابانية من الطائرة الكبيرة "مارتن مارينر" ذات المحركات الاربعة وهي تخترق الغيوم، كأنها دمى صغيرة غبراء ترسم وراءها أخاديد بيضاء على صفحة طاولة رصاصية. وظهرت نفخة من الدخان في قاعدة المدفع الرئيسي الخلفي على متن ياماتو. ثم انفجرت كتلة ضخمة من الدخان الأسود وراء احدى طائرتي دورية، فهزتها من دون أن تصيبها بضرر.

وعلى متن الطراد ياهاغي أصيب هارا بالهلع. فهذا الطقس كان كارثة بالنسبة اليه. الأشعة الفضية الحادة كانت تشوّه المسافات، وزخّات المطر لم تكن على كثافة كافية لتحجب السفن من الجو. وأخذ الطرّاد ياهاغي يتّبع خطاً متعرجاً مع المجموعة، والمدمرات تقتفي أثره في اتجاهات متقاطعة. قواعد المدافع المضادة للطائرات المزدوجة على متن ياهاغي وهي من عيار ٥،٩ بوصات، ومجموعات الرشاشات من عيار ٢٥ مليمتراً، صوّبت فوّهاتها نحو طائرات العدو المستطلعة. الطراد يزخر بالقوة النارية وبحارته متشوقون الى استخدام تلك القوة. ولكن لم يحن الوقت بعد، اذ لا معنى لاهدار الذخيرة قبل أن يقترب العدو الى مدى أقصر.

وحدث عطل ما للسفينة "أساشيمو"، اذ كانت مدخنتها تطلق دفقات من الدخان الأخضر. وأخذت المدمرة تتأخر عن الركب شيئاً فشيئاً وهي ترسل إشارة بمعنى: "أواجه عطلا في المحركات." وازداد قنوط هارا، فهو كان يشعر باطمئنان أوفر حين كان ذلك المقاتل القديم على ميسرته.

لكن التفاؤل كان يزداد على متن ياماتو. فلا بد من أن الغارات الانتحارية بالأمس شلّت حقاً الحاملات الامريكية. فالامريكيون يرسلون طائرات استطلاعية، ولكن هل بمقدورهم تجميع قوة جوية كافية لتسديد ضربة عنيفة؟

كانت تلك فرصة مثالية لاختبار قنابل "سان-شيكي"الجديدة. وأطلقت القاعدة المدفعية الخلفية وابلا كثيفاً على تلك الاشكال الشبحية التي لاحت في الغيوم. وضحك آريغا حين رأى الطائرات العدوة تتوارى وصاح: "لقد ذعروا من هذا."

في غرفة الرادار الرئيسي تحلّق الرجال حول الملازم يوشيدا يدخنون سجائر الأمبراطور التي وزعت غداة يوم المعركة ويحتسون الشراب. وأبلغهم حاجب جذلان أن الطهاة يعدّون الشيروكو للغداء، وهو حساء يصنع من الفاصولياء الحمراء مع أقراص من الرز. وحين صعد يوشيدا الى متن السفينة دهش اذ وجد الجميع في حال من الاسترخاء. ثم صاح أحدهم: "انظروا هناك."

التقط الرادار الرئيسي صورة ٢٥٠ طائرة مقبلة من الجنوب الغربي. ثم تفجرت غمامة صغيرة سوداء مثل سرب كثيف من النحل من خلال السحب المتلبدة. وأخذت الطائرات تحوّم فوق مقدم البارجة. وجلجل صوت آريغا: "استعدوا لصد الغارات الجوية!"

كانت تشكيلة القوة الضاربة ٥٨،١ تحوّم فوق القوة العدوة. وأخذ قائدها العقيد ادموند كونراد على متن الحاملة هورنيت يقوّم الموقف. لقد بدأ اليابانيون يطبّقون تدبير المراوغة بالسير في خط متعرج فتترك سفنهم خطوطاً متلوية من الزبد في صفحة البحر الهادئة. وفجأة اندفع الطراد القائد ياهاغي متقدماً القوة. وعلى بعد حوالى ٢٠ كيلومتراً الى الشمال توقفت مدمرة وحيدة، انها المدمرة المعطلة أساشيمو. ولم يكن ثمة ما يشير الى الامريكيين بأن تلك المدمرة مصابة بعطل في محركاتها. وظلّت أربع من المدمرات تتراقص حول البارجة ياماتو، بينما اندفعت الثلاث الاخرى لاحقة بالطراد ياهاغي.

## نقطة الدم الاولى

ما دام الأمر في يد كونراد فان طياريه لن يتوجهوا جميعاً في خط مستقيم لمهاجمة الهدف الرئيسي: البارجة ياماتو. فالسفن المواكبة يجب أن تغرق كذلك. وأصدر أوامره الصريحة بضرب المدمرات بينما تتوجه قاذفات القنابل المنقضّة من طراز "هيلدايفر" وقاذفات الطوربيد من طراز "آفنجر" للتعامل مع البارجة ياماتو والطراد ياهاغي. وخطة القتال هذه كانت صقلتها خبرة ثلاث سنوات من حرب المحيط الهادىء: تنقضّ المقاتلات بقنابلها الثقيلة. واذ ينهمك العدو في صدّها تبدأ طائرات "آفنجر" حاملات الطوربيدات غاراتها الخطرة على مستوى سطح البحر، وتستمر في خط اندفاعها مدة كافية لاطلاق طوربيداتها من مسافة ١٣٠٠ متر. والغاية من هذا الاندفاع إلقاء تشكيلة عريضة من الطوربيدات لا تتيح أي مناورة للسفن تحاشيها. ونادى كونراد ربابنة طائرات الانقضاض "هيلدايفر" التابعة للحاملة بيننغتون: "هاجموا الصبي الكبير!"

في اللحظة عينها هاجمت الطائرات الانتحارية القوة الضاربة ٥٨. معظم الطيارين اليابانيين الأحداث وغير المجرّبين أُسقطوا قبل ان يروا الهدف الذي كانوا ينشدون. غير أن ربّان طائرة "زيرو" يابانية كان يقودها بدراية محارب قديم اندفع بمهارة أمام مقدم الحاملة هانكوك مما جعل هذه تصدم "التابوت" الذي كان يطير فيه. وانفجرت قنبلته ووزنها ٢٣٦ كيلوغراماً داخل حظيرة الميسرة بينما تدحرجت طائرته واقتحمت مجموعة من الطائرات الرابضة التي سرعان ما غمرها بحر من الوقود الملتهب. ولبرهة بقيت الحاملة هانكوك في خطر داهم. في المراحل الاولى من الحرب كانت مثل هذه الاصابة خليقة بتدميرها. ولكن عند الساعة ١٢،٥٠ تمت السيطرة على الحريق. وعاد طيارو تشكيلها الجوي في الساعة ١٦،٣٠ يجرّون أذيال الخيبة، اذ وصلوا الى بعد ١١٥ كيلومتراً من ساحل كيوشو من دون أن يشاهدوا أثراً للعدو. وكان ذلك اليوم يوم الحاملة هانكوك.

العقيد الطيار هيو وود في حاملة الطائرات بيننغتون قاد تشكيلا من أربع طائرات "هيلدايفر" في انقضاضات منخفضة على مؤخر ياماتو. وانحرفت السفينة العظيمة يساراً فشق مقدمها

موجة نصف دائرية فيما التمعت على متنها ومضات حمراء صادرة عن مجموعات المدافع في وسطها. وقصمت اصابتان أنابيب الزيت في طائرة وود وعطلتا دفة الانقضاض على الجناح الأيسر. بيد أنه تابع انطلاقه في اتجاه مؤخر السفينة وألقى بقنابله على طول الهيكل قبل ان ينكفىء الى قاعدته وطائرته تقطر زيتاً. ونظر الى الوراء فرأى عموداً من الدخان ينطلق من خلف مدخنة ياماتو. لقد أصيبت ثلاث طائرات أخرى من سربه انفجرت احداها في البحر. لكن القنابل الملقاة احدثت دوّارات كبيرة من المياه حول ياماتو وانفجرت قنبلتان فوق الهيكل الضخم. في هذه الاثناء كانت المقاتلات المنطلقة من الحاملة بيننغتون تلتزم أوامر كونراد القاضية باخماد نار المدفعية المضادة التي كانت تطلقها المدمرات اليابانية المراوغة. وسرعان ما شبت النار في احداها. وبعيد ذلك انفجرت مدمرة ثانية.

## ثلاث دقائق

الا أن كونراد اعتبر النتائج الأولى لهجومه مخيبة للآمال. لم تخفّ نار المدافع اليابانية، وطائرات هيلدايفر المنطلقة من الحاملة هورنيت ظلّت تتعرض لنار صائبة فأصيبت أربع منها بأعطاب لا يمكن اصلاحها وهبطت واحدة اضطرارياً على سطح البحر. في هذه الاثناء كانت القاذفات الانقضاضية الباقية من مجموعة الحاملة بيننغتون تزرع الدمار في سفن القوة اليابانية محققة ثلاث اصابات في الطرّاد ياهاغي واصابة واحدة في كل من أربع مدمرات أخرى.

حينئذ عبرت ثلاث قاذفات طوربيد من الحاملة بيننغتون من خلال نار المدفعية المضادة ميمّمة شطر الطراد ياهاغي الذي رجّته القنابل. كانت النار التي تواجهها حامية، لكنها حافظت على خط انطلاقها وحققت اصابة في الجانب الايمن للطراد. وبعد ثوان انقضت ثماني طائرات آفنجر تابعة لمجموعة الحاملة هورنيت، عبر عاصفة من نار المدفعية المنطلقة من ميسرة البارجة ياماتو. وتسابق الطيارون على ارتفاع أربعة أمتار ونصف متر فوق سطح البحر المبقّع بآثار شظايا القنابل، محافظين على اتجاههم خلال دقائق محفوفة بالخطر ولكنها ضرورية لتسديد اصابة دقيقة. ستة طوربيدات أصابت الهدف، سقط أحدها في البحر بالقرب من مقدم ياماتو. ولكن على رغم الضرر الكبير الذي لحق بالبارجة فقد ألقت الطائرات الأخرى مجموعة واسعة من الطوربيدات، أربعة منها سلكت مساراً صحيحاً وخطراً نحو ياماتو وكلها اصابت الهدف. هذا ما ورد في التقرير الذي أبلغته الحاملة هورنيت عن المعركة، مع أن طائرات عدة كانت تحوّم في الجو بحيث يتعذر الجزم بشأن "من أصاب ماذا."

في تلك الاثناء كانت طائرات "هيلكات" انطلقت من الحاملة الخفيفة "سان جاسنتو" وأنجزت عملها على المدمرة آساشيمو. وقد تكون آساشيمو أعطبت، الا ان مدفعييها واصلوا القتال في دفاع عنيد. فهبطت المقاتلات الى

مستوى متنها لتحصدهم بالنار، ثم تحولت عبر السفينة دائرة حولها لالقاء أكبر عدد ممكن من القنابل. وعلى رغم ذلك واصلت آساشيمو صد الهجوم.

بعد غارتين أو ثلاث بدأ متن المدمرة يشتعل وصمتت مدافعها. ثم عمدت ثماني طائرات "آفنجر" الى القاء رشة من الطوربيدات. وانحرفت المدمرة الى اليمين في محاولة يائسة للارتداد وتمكنت من تفادي طوربيدين، ومرت الطوربيدات الأخرى في محاذاة المؤخر من دون أن تحدث ضرراً. الا ان طوربيدين أصابا الهدف، ورفع الانفجاران مقدم آساشيمو عالياً في الهواء. وغاصت المدمرة في الماء، لكن انفجاراً هائلا وقع تحت سطح البحر رفعها الى أعلى وخلّفها كتلة مبددة من الحطام وبعض الناجين. وهكذا قضي على المدمرة آساشيمو في أقل من ثلاث دقائق.

## طوربيدات الى ياماتو

عثر الاميرال ايتو على الاميرال آريغا في مركز قيادة البارجة ياماتو وهو يراقب الطائرات المقبلة من خلال منظار ويردد: "قاذفات طوربيد، مقاتلات، قاذفات انقضاضية. يا لهؤلاء الأوغاد! عندهم كل شيء!"

وفي محاولة لالهاء المغيرين عن ياماتو اندفع الطراد ياهاغي مبتعداً عن سفينة القيادة بسرعة ٣٥ عقدة (٦٥ كيلومتراً في الساعة). وحين انقضت طائرات من طراز "هيلدايفر" على جانبه الأيسر أداره هارا بقوة الى اليمين. وانهمرت شلالات من الماء القذر على متن الطراد من جرّاء سقوط القذائف في البحر، لكن المقاتلات من طائرات "هيلكات" ظلت تلاحقه على مستوى السطح تقريبا وتلقي عليه مزيداً من القنابل، كما اخترق رصاص الرشاشات المنشآت القائمة على متن الطراد.

قاد هارا الطراد نحو وابل من المطر على بعد نحو كيلومتر، لكن المقاتلات اطبقت عليه على مستوى الصواري. ونجا الطراد بأعجوبة من مجموعة قنابل اطلقت عليه. بعد ذلك أمطرته أربع طائرات "آفنجر" مجموعة صواريخ موجهة الى جانب هيكله. وانحرف هارا بالطراد في دائرة لمواجهة الطوربيدات المقبلة، ولكن بعد فوات الأوان. ففيما الطراد في منتصف دورته أصابه طوربيد في وسط هيكله تحت مستوى الماء. وساد السكون. وأخذ الطراد ياهاغي المصاب يتمايل مع الأمواج وقد سكنت محركاته وانقطعت فيه الكهرباء وأخذت بقعة من الزيت تنداح على صفحة الماء وراءه. وراح هارا يراقب ثلاث طائرات "آفنجر" أخرى تهدر منقضة على سفينته وهو عاجز عن المقاومة. وبرز مؤخر الطراد مرتفعاً من اليم. ونظر هارا الى ساعته غير مصدق ما يرى. لقد انقضت ١٢ دقيقة فقط على بدء المعركة.

البارجة ياماتو كانت تتعرض لمعاملة أقسى. غير أنها بنيت لتحمّل ذلك. السرب الاول من طائرات "هيلدايفر" سجل اصابتين على الأقل بقنبلتين من وزن ٤٥٠ كيلوغراماً. احدى هاتين القنبلتين انفجرت في الطبقة السفلى الثانية فقتلت جميع أعضاء فريق

مكافحة الأضرار في مؤخر الميمنة. أما الأخرى فأصابت غرفة الرادار الرئيسي. وأمر الملازم يوشيدا بالتحقق من الاضرار.

زحف يوشيدا وسط الدخان المتصاعد وهو يدب على يديه ورجليه كما يفعل الجنود ليجعلوا من أنفسهم أصغر هدف ممكن. وأخذه العجب كيف يمكن ان ينجو أحد من الموت على السطوح المكشوفة. كانت رشاشات العدو بعثرت جثث الرجال هناك. غرفة الرادار انشقت تماماً وتناثرت الاشلاء بين الأجهزة المحطمة. وركض يوشيدا راجعاً وقدماه تنزلقان على الدم المتجمد. وانفجرت قنبلة قذفته على السلم المؤدية الى منصة القيادة فتسلّق السلم مترنحاً وهو يردد مشاهدته لغرفة الرادار: "كل الرجال ماتوا. جميع الأجهزة تحطمت."

وقف إيتو على منصة القيادة وكأنه صخرة صماء وانقطع عن اعطاء الأوامر. فجأة اطلق موريشيتا صرخة مدوية. كان ينظر بهلع عبر الميمنة مشيراً الى المدمرة هاماكاز بسبابة ملطخة بنيكوتين التبغ. كانت الانفجارات تتوالى على المدمرة القديمة. وبرز مقدمها ومؤخرها من الماء بعنف ثم اختفت في عمق البحر.

قبع نومورا على لوحة المراقبة المحطمة. ومن خلال باب صغير في مركز القيادة المدّرع بدا كوباما الهرم يدير عجلة توجيه نحاسية صغيرة بأسرع ما تستطيع يداه. وجاء ضابط صغير مترنحاً ليخبر نومورا ان رجال فريق مراقبة الاضرار قضوا جميعاً. وعزم نومورا أن يخرج راكضاً الى السطح ليرى بنفسه ما هناك. حتى ذلك الوقت كانوا تعرضوا لقصف بالقنابل فقط. أين طوربيدات العدو؟

وقذفه انفجار عبر الغرفة. وهكذا جاء الرد على تساؤل نومورا. ها هي الطوربيدات تصيب أهدافها.

## التقاط الانفاس

بذل آريغا قصارى جهده. كبار القادة في طوكيو ينبغي ان يروه الآن، هم الذين ظلوا يتساءلون عما اذا كان ربان المدمرة المنتفخ البطن والشرس الطباع هذا يستطيع تسلم زمام بارجة حربية خارقة. لقد أمكنه أن يتفادى ببراعة معظم القنابل المتساقطة على سفينته. ولكن حين كان آريغا يركز اهتمامه على تحاشي طائرات "هيلدايفر" المنقضة تسللت قاذفات الطوربيد الى جهة الميسرة على مستوى منخفض.

صبت مدافع ياماتو قنابلها في البحر لتثير ستاراً من الشظايا ونوافير الماء فتحجب السفينة عن التشكيل الخطر المقبل نحوها. الا أن طائرات "آفنجر" حافظت على خط سيرها على ارتفاع ١٥٠ متراً عن سطح البحر. وترنحت احداها خارجة من التشكيل ثم انفجرت في البحر. لكن الطائرات الباقية ألقت طوربيداتها ثم تفرّقت في كل اتجاه.

أمل ياماتو الوحيد في الخلاص كان يكمن في استكشاف الخطوط الجيّاشة من الفقاقيع التي تتركها الطوربيدات المقبلة وراءها ثم التحوّل لتشق طريقاً بينها. ولذا تطلق مجموعة من الطوربيدات بحيث تصيب الهدف مهما حاولت السفينة أن تتحاشاها. وهذا ما

حدث فعلا. أخطأ ياماتو خط من الزبد الثائر ومر بقرب ميمنتها. وعبر خط آخر قرب المؤخر. وانفجر ثالث عند مؤخر منصة القيادة واخترق رابع الهيكل عند غرفة المحركات اليسرى.

ونهض نومورا من سقطته. وأخبره المهندسون أن مقداراً قليلا من الماء يتسرب الى الداخل، لكن البارجة لم تمل على جنبها وظلت سرعتها على ما كانت.

البحارة على متن المدمرة فويوتسوكي الذين ظلّوا محافظين على مواقعهم في الميمنة، أدركوا ان ياماتو انتهت. لكنها برزت للعيان في مهابة من خلال غابة كثيفة من الرذاذ المتطاير ومدافعها تطلق الحمم، الا ان فجوات من آثار القنابل كانت بادية على منصتها. احدى القنابل انفجرت في القاعة الكبرى التي كانت تستخدم كغرفة اسعاف للطوارىء.

U.S. Navy



ياماتو تحاول الفرار من القذائف والطوربيدات المنهالة عليها من الاسطول الامريكي في المحيط الهادىء في ٧ ابريل (نيسان) ١٩٤٥.

عندئذ تعالى هدير طائرات هيلدايفر منقضة على مؤخر ياماتو. ودخلت طائرة وحيدة منظار الرماية أمام كوباياشي، فصاح من وراء مدفعه المثلث الفوهات والدخان يتصاعد منه: "واصلوا اطلاق النار!" وترنحت الطائرة وهي تصعد في الجو والرصاص الخطاط يمزق بطنها المكشوف. بعد ذلك سقطت في البحر وتهادت ثلاث مظلات صفراء هابطة فوق سطح الماء.

وكان الساعي لا يزال يتقيأ حين وقف أمام نومورا.

تعطلت خطوط الهاتف عندما ضرب طوربيدان آخران الجانب الأيسر. وشغّل نومورا الصمامات ليصحح انحرافاً الى اليسار ضاخّاً ٣٠٠٠ غالون من ماء البحر الى الصهاريج الجانبية الفارغة الملتصقة بهيكل ياماتو على الجهة اليمنى، فتباطأ اندفاع البارجة على نحو ملحوظ لكنها أخذت تستقيم في وضعها.

وتوقفت الغارات. كانت ياماتو مصابة بأضرار الا انها لم تشل. وأمر آريغا ضابط الاشارات ان يرفع العلم «Z» وهي الاشارة التاريخية النلسونية التي رفعها الاميرال توغو وهو يقفل خط المعركة للأسطول القيصري في تسوشيما، ومعناها:

على هذه المعركة يتوقف مصير امتنا. فليبذل كل رجل قصارى جهده.

قال آريغا: "نحن لا نزال عائمين ونقاتل. والآن نأخذ فترة لالتقاط الأنفاس."

كان ذلك في الساعة ١٢،٥٩. وقدر لفترة التقاط الانفاس أن تدوم أقل من خمس دقائق.

## تجدد الهجوم

أوكل كونراد الاشراف على المعركة الى العقيد أوتر من القوة الضاربة ٥٨،٣. ويتذكر أحد معاوني أوتر تلك الفترة: "كان ربابنة الطائرات يقومون بكل أنواع الانقضاضات الجنونية. ربابنة قاذفات الطوربيد القوا بقذائفهم من مسافة قريبة جداً من السفن حتى ان طائرات عدة تمكنت بصعوبة من تجنّب الاصطدام بالمنشآت القائمة على متون السفن بمسافة لا تتعدى سنتيمترات قليلة. وكانت البارجة ياماتو ممددة تحت القاذفات المنقضة عليها ومدافعها تطلق الحمم والدخان يتصاعد من هيكلها. وادعى أربعة طيارين أنهم حققوا اصابات بين البرج الأمامي والمؤخر. وبعد ثوان أصاب طوربيد الجانب الأيسر من المقدم. وأعقبت ذلك أسراب أخرى من طائرات "آفنجر" انقضت على فترات من ١٥ ثانية بينما كانت البارجة العظيمة تواصل دورتها البطيئة التي تكشف جزءاً كبيراً من جانبها الأيسر للطائرات المغيرة. وزعم الطيارون أنهم سجلوا ثماني اصابات، وربما بالغوا في ذلك."

في هذه الاثناء كانت البنية الفوقية للطراد ياهاغي تحوّلت ركاماً يتصاعد منه الدخان. ورفع انفجار مؤخر الطراد من الماء. ثم سقط المؤخر ثانية في الماء بصدمة عنيفة. عندئذ اطلق أوتر أسراباً اخرى من طائرات "آفنجر" أقلعت عن متن الحاملتين باتان وبانكرهيل. وخلال هذا الهجوم أصاب طوربيدان فقط البارجة ياماتو، وهذا يدل على فاعلية النيران المضادة للطائرات. ولكن حين اطلق أوتر قوة ضاربة مؤلفة من ١٩ طائرة من الحاملة الخفيفة كابوت لتسدّد الضربة القاضية، أدرك أن البارجة ياماتو انتهى أمرها.

كانت البارجة تباطأت وأخذت تميل قليلا نحو جانبها الأيسر، حين انقضّت طائرات "آفنجر" على ميسرتها. وزعم الطيارون أنهم سجلوا أربع اصابات، غير أنه يحتمل أن يكون طوربيدان أصابا ياماتو في آن.

الساعة كانت تشير الى الاولى والنصف بعد الظهر. لقد انتهت فترة التراضي. وأخذت ستون طائرة من القوة الضاربة ٥٨،٤ تتسابق لتسديد الضربة القاضية.

مزّق الرصاص الراية الحريرية الكبيرة التي ترفع في اثناء المعركة والمرفرفة فوق السارية الرئيسية. لكنها على غرار البارجة عينها بقيت مرفرفة على نحو مدهش. ياماتو كانت لا تزال تملك قدرة

قتالية ضخمة بعد تصحيح ميلها، ولم تفقد سوى نسبة ضئيلة من سرعتها.

كان آريغا يهمهم وهو يذرع قمرته المكشوفة حين تقدمت المدمرة فويوتسوكي متراقصة لتوفر تغطية اضافية. وكانت الأمواج ترتد عن مقدمها وهي منطلقة بسرعة تزيد على ٣٠ عقدة (٥٥ كيلومتراً في الساعة). واقتربت المدمرة هاتسوشيما من ميسرة البارجة في جوار المدمرة كاسومي. اما المدمرة آساشيمو فقد اختفت عن الانظار قبل فترة طويلة. أما الطراد ياهاغي فقد تأخر عن الركب، وتوقفت المدمرة ايسوكاز قربه لتقديم العون اليه.

## "هذا الرجل مات"

كان اليابانيون على اقتناع أن الامريكيين استنفدوا قواهم بعد يومين من الغارات الانتحارية عليهم. وبعد ساعات قليلة يسدل الظلام ستاراً يحجب تلك القوة. عندئذ لن يحول شيء دون خوض معركة بحرية صرف صنعت البارجة ياماتو من أجلها.

وقف نومورا يزمجر ثائراً أمام هاتفه المعطل. وجاءه رسول مبهور الأنفاس ليخبره أن عدداً قليلا من المهندسين استطاعوا الخروج من غرفة المحركات الرقم ٨ التي اغرقتها المياه في الجانب الخارجي الايسر. وأمر نومورا بضخ ٢٠٠٠ غالون آخر من مياه البحر الى صهاريج الجهة اليمنى لتصحيح الميل الذي تجدد نحو اليسار. لكن أي اصابات جديدة بالطوربيد في الجانب الأيسر من شأنها أن تعرّض استقرار ياماتو لخطر عظيم.

وبعد ذلك لن يجدي أي ضخ للماء في تصحيح الخلل. وتوسل نومورا الى آريغا لكي يبقي البارجة محافظة على دورانها الى اليمين ليبقى جانبها الأيسر المصاب مرتفعاً فوق الماء.

عندئذ صاح أحد صغار الضباط المكلف الاشراف على فريق المدفعية لدى كوباياشي: "ها هم قد عادوا." وأطلق كوباياشي رشة من مدفعه المضاد وتسنى له أن يلمح وجه المدفعي في الطائرة المنقضّة ورأى شفتيه منفرجتين في تكشيرة شرسة وهو يصبّ رصاص سلاحه على موقع مدفع كوباياشي المكشوف. وأصيب رفيقه كاروما، الذي كان يلقّم المدفع بجانبه، برصاصة حطمت فخذه الأيمن. ويبدو أن الرصاصة مزّقت شرياناً اذ بدأ ينزف بغزارة.

ربط كوباياشي مرقأة ضاغطة حول الفخذ ونقل رفيقه الى مركز الاسعاف المزدحم وسط السفينة. وألقى الطبيب نظرة سريعة على كاروما ثم حدّق الى وجه كوباياشي وقال: "عد الى مدفعك أيها البحار. هذا الرجل مات."

عيّر المدفعي في الموقع الرئيسي قذائف "سان – شيكي" لتنفجر بعد ثانية واحدة من اطلاقها. وثار أمام العدو ستار جديد متفجر من الماء. غير أن طائرات "آفنجر" واصلت غاراتها بتصميم قتالي لا يرحم بينما البارجة ياماتو تتابع دورتها الى جهة اليمين.

لاحظ نومورا وجود ثلاث اصابات وربما أربع في الميسرة وواحدة في الميمنة. وتضاءلت السرعة الى ١٨ عقدة (٣٣ كيلومتراً في الساعة). وتمسك آريغا

بدعامة حين أخذ متن السفينة يميل بزاوية حادة. وتوقفت المدافع الضخمة عن القصف، وصمت جهاز البث في الميمنة. وبدأ البحارة يفرّون من خلال فتحة التهوئة هاربين من غمرة القيادة التي أخذت تمتلىء بالماء. وبقي آخرون في أماكنهم يدخنون ويحتسون الشراب بهدوء.

## سرب من الشرق

هبط ساع على السلم الى حيث كان كاتونو غارقاً في عزلة رهيبة وصاح: "المياه تغمر الاجزاء العليا. وعلى الفرقة السابعة لمراقبة الاضرار أن تغرق كل الأقسام اليمنى بالمياه."

وسار كاتونو أمامه هابطاً ثلاث طبقات نحو جوف السفينة. وفتح فوهة وأمر ثلاثة رجال بالنزول الى الصنابير البحرية. وانتظر خمس دقائق ثم عشراً. وضرب طوربيد الهيكل فتردد صوت كأنه قرع جرس عظيم. ونادى كاتونو رجاله ليصعدوا. وغمر الماء قدميه لكنه ظل ينادي رجاله حتى جاء ضابط صغير حمله قسراً الى الخارج وأطبق باب الفوهة وراءه.

هرع موريشيتا الى الحاجز الواقي فوق الجانب الأيمن وصاح: "من هنا أيتها السمكة الصغيرة. من هنا." كان يخاطب الطوربيدات.

وضحك وهو يضرب كتف آريغا بكفه حين اصاب طوربيد وسط السفينة. كان ذلك ثمناً باهظاً لتصحيح ميل البارجة، لكن ياماتو صححت وضعها بحيث اقتصر ميلها على خمس درجات الى الميسرة.

وأسرعت المدمرة كاسومي متمايلة نحو ياماتو. وكانت مصابة بأضرار فادحة ولا سيطرة عليها. ووقفت السفينتان جنباً الى جنب تراقب كل منهما الاضرار الفادحة التي نزلت بأختها، قبل أن تنقلب المدمرة المعطلة على جانبها الأيسر. وكانت القنابل فتتت مقدم المدمرة سوزوتسوكي ومؤخرها وكومت الجثث على متنها. ووقعت صواريخ على المدمرة فويوتسوكي الا أنها لم تنفجر. كما ان المدمرة السريعة يوكيكاز بقيت سليمة من أي خدش.

وقذف انفجار هائل مؤخر ياهاغي عالياً فوق الماء. وضرب طوربيد آخر المقدم من الجهة اليمنى. وبدت المنشآت العليا على متنها وكأنها ضربت مراراً بفأس هائلة. وأخذ الطراد ياهاغي يتفتت قطعاً متناثرة. وأسرعت المدمرة ايسوكاز لتتوقف بجانب الطراد حين ظهرت طائرات أخرى من بين الغيوم. وهدرت محركات المدمرة في اهتياج وهي تحاول تحاشي الطوربيدات المنقضة عليها، لكن انفجارات متلاحقة دمرت هيكلها وارتفعت سحب من الدخان الاسود حجبتها عن الانظار.

أمسك الاميرال كومورا بذراع هارا وأشار بيده الى شيء ما. كان ذلك سرباً يضم أكثر من مئة طائرات مقبلة من جهة الشرق.

كان اليابانيون لا يزالون يقاتلون: وانطلقت قنبلة من المدمرة ايسوكاز المصابة بأضرار قاضية، فأصابت ربان طائرة "هيلدايفر" وقتلته. لكن هذا الهجوم الأخير فاق قدرة الطراد ياهاغي

على الاحتمال. وألقى كوموراً نظرة أخيرة على متن الطراد الغارق وسأل بهدوء: "حسناً يا هارا... هل سنذهب الآن؟"

وتمتم هارا كلمات اعتذار ثم انحنى وأصدر الأمر باخلاء السفينة. كانت الساعة تشير الى الثانية والدقيقة الخامسة بعد الظهر والامواج ترتمي على الهيكل الفولاذي لمركز القيادة حين نزع الصديقان حذائيهما. وأطلقت الطائرات العدوة رصاصها على متن السفينة الغائص في الماء. وشطرت دفقة من الرصاص أحد قوارب النجاة نصفين فقتلت ١٤ رجلا. وكان هارا سبح مسافة أربعة أمتار ونصف متر حين جذبه الطراد الغارق الى أسفل. لكنه سبح عائداً الى سطح البحر. وحين انجلى بصره رأى رؤوساً سوداء تحوقه من كل جانب. وهتف رجل أسود الوجه: "هارا، هل أنت بخير؟" كان هذا كوموراً عائماً في بحر من الزيت.

## الموت

مرت فترة طويلة من الهدوء قبل أن يعاود الامريكيون غاراتهم، أو هكذا خُيِّل الى البحارة على متن البارجة ياماتو. وأعد واتانابي كتب الرموز لاتلافها. والتهم يوشيدا علبة من البسكويت القاسي. وأخذ موريشيتا يركض ذهاباً واياباً يراقب الاجهزة ويمازح البحارة.

كان آريغا يهمهم بهدوء حين انقضت القاذفات مرة أخرى. وسرعان ما عادت البارجة ياماتو تجنح ٢٠ درجة نحو اليسار. صهاريج التوازن على الميمنة أضحت مرتفعة جداً فوق الماء بحيث تعذر على المضخات أن تملأها بالماء.

وأمر آريغا بصوت مخنوق ان تملأ غرفة المحركات الخارجية في الميمنة بالماء. من شأن ذلك أن يصحح جنوح السفينة. ولكن ماذا سيكون مصير المهندسين الثلاثمئة الباقين تحت؟ بعض الناجين يعتقدون أن الوقت لم يكن يسمح لهؤلاء بالخروج قبل تدفق المياه عليهم. لكن نوموراً يصرّ على القول انه منحهم الوقت الكافي للنجاة. الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن غرف المحركات غمرت بالماء وتوقف جنوح السفينة جزئياً، مع أن السرعة انخفضت الى ثماني عقد (نحو ١٥ كيلومتراً في الساعة).

عندئذ أصاب طوربيد عشوائي مؤخر البارجة. والتوت الدفة الى اليسار وعلقت على هذا الوضع، كما تعطلت أبراج مدافعها. وأخذت ياماتو تدور على نفسها وهي عاجزة عن القيام بأي حركة فيما ميسرتها مغمورة بالماء وبرجها الأعلى ينقلب مترجحاً نحو الأمواج. ونهض ايتو متثاقلا وأمسك عمود المنظار بيد غطاها كف ابيض، ثم حيا جنوده متجهماً وقال: "أنجوا بحياتكم. انا سأبقى مع السفينة."

وجد نوموراً الاميرال آريغا ينظر الى البحر ويدخن سيجارة. وقال الضابط التنفيذي لاهثاً: "لم يعد ممكناً تصحيح جنوح السفينة." وبدا أن آريغا لم يسمع ما قاله. عندئذ صرخ نوموراً: "يا سيدي، السفينة تغرق!"

وهز آريغا رأسه بأسى وترقرقت الدموع في عينيه.

وقال نوموراً: "رجاء يا سيدي، أعطِ الأمر باخلاء السفينة."

واخيراً تكلم آريغا: "حسناً.. اذهب أنت كذلك يا نومورا. ينبغي أن ينجو أحد منا ليروي القصة."

## الى الأعماق

أمر نومورا حالا بأن يصعد جميع البحارة الى المتن. لكن ما يزيد على ألف رجل في جوف السفينة لم تتح لهم فرصة للنجاة. وفي أنحاء البارجة ياماتو كان رجال يرفضون أن يغادروا مواقعهم مفضلين أن يغرقوا معها.

ومن أجل منع التسابق المسعور للوصول الى جانب السفينة أمر نومورا الرجال المتدفقين الى المتن الخارجي أن "يرتاحوا" قبل أن ينزلوا الى الماء. ووقف مع حشد من البحارة المغرقين في الضحك وأخذوا جميعاً يبولون في البواليع.

في مركز القيادة وقف كوياما الهرم قابضاً على عجلة التوجيه. كان يردد: "الدفة لا تجيب!" ثم صمت الصوت فجأة. لقد غرق كوياما وهو واقف في موقعه.

وربط بعض الضباط أجسادهم بالأثاث المثبّت في السفينة. وركض موريشيتا بينهم وهو يكيل لهم اللكمات بقبضتيه صائحاً. "انجوا بحياتكم! أخرجوا!" ورأى واتانابي يشد وسطه بحبل الى طاولة غرفة الخرائط، فلكمه على رأسه صائحاً فيه: "أخرج! أخرج!". يوشيدا نفسه فرّ هارباً من امام القائد الثائر.

وحلّقت ست طائرات "آفنجر" من الحاملة يوركتاون مقبلة على مستوى منخفض نحو ياماتو. كانت البارجة لا تزال تدور على نفسها مشلولة القدرة وميمنتها المطلية بالأحمر مرتفعة فوق سطح الماء. وشقت أربعة طوربيدات على الأقل طريقها في اتجاه البارجة. وأصاب بعضها الهدف مخترقاً الهيكل تحت مستوى الدرع.

وصرخ آريغا بأعلى صوته: "عاش الأمبراطور!" فالتقليد المتّبع في الأسطول الامبراطوري يقضي بأن يغرق القائد مع سفينته. ويزعم بعضهم أنهم



بذلك يتبعون نهجاً يُمارس في الأسطول الملكي البريطاني. لكن التقليد البريطاني يقضي فقط بأن يكون القبطان آخر من يغادر سفينته. والمرجح أن آريغا اتبع تقليداً يابانياً قديماً يوجب على القائد أن يكفّر عن خطيئة اضاعة سفينته.

خرج الملازم كاتونو الى المتن فلم يصدق ما رأته عيناه. البارجة المهيبة كانت تغرق بسرعة، وثمة مكبر للصوت غير مرئي ينعق برتابة: "فليغادر جميع الرجال السفينة! هذا أمر!" ولم يلبث الصوت ان صمت. وبدا كأن العالم بأسره يحبس انفاسه بينما أخذ البرج الرئيسي في البارجة ياماتو ينحني نحو البحر وكأنه طود يخرّ بحركة بطيئة. وبعد هنيهة أضحى على مستوى الأمواج. عشرات الرجال الذين كانوا في الماء حوله اجتذبتهم المدخنة الضخمة الى داخلها.

بعض البحارة مثل كوياباشي تلكأوا في النزول. وللحال أخذ المدفعي الشاب يتسلّق متن البارجة المائل وكأنه ماعز. وترددت اصوات راعدة من جوف الهيكل الغارق منبئة أن جدران مقصورات السفينة وقمراتها تتحطم وتعوم. وجرّ كوياباشي نفسه على الجانب الأيمن بينما كانت البارجة ياماتو تنقلب ببطء. وبلغ في تسلقه حيزوم السفينة من اليمين ونظر عبره الى أسفلها المكسو بالعشب البحري وقد احتشد فوقه الناجون. وصرخ ضابط شبه عار ربط حول رأسه عصبة بيضاء: "بانزاي!" وهو يلوح بسيف في يده بتحد زري للطائرات المحومة فوق رأسه.

وأخرج كوياباشي من جيبه آخر ما بقي لديه من الطعام الذي وزع عليهم قبيل المعركة: قطعة بسكويت فريدة. ووجد كذلك سيجارة مهشمة طبع عليها التاج الامبراطوري. وأخذ يقضم البسكويتة ويدخن.

وقذفه انفجار قوي بعيداً في البحر. الانفجارات التي كانت تحدث تحت الماء قتلت عشرات الرجال، وعامت جثث كثيرة على سطح الماء. وعثر على الضابط التنفيذي نومورا طافياً في غيبوبة، وتحتم عليه أن يعاني طوال سنوات جراحاً داخلية. وتخبط الملازم يوشيدا شاقاً طريقه الى سطح الماء وعيناه تحرقان ورئتاه تكادان تنفجران. ووجد حوله جماعات من السابحين وجثثاً طافية وحطاماً محترقاً. كان هذا كل ما بقي من إحدى اكبر بوارج العالم بعد مئة ودقيقتين من القتال اليائس. وعندما انفجرت البارجة ياماتو ارتفعت سحابة هائلة مئات الامتار في الهواء، وشوهدت بوضوح من كيوشو على بعد مئات الكيلومترات.

## خاتمة

هامت المدمرات اليابانية الباقية على الأمواج وبحارتها يتألبون في ذهول باحثين في ما آل اليه أمرهم. وكان أعلى الضباط الباقين رتبة ماسابوشي يوشيدا قبطان المدمرة فويوتسوكي، فبثّ الى القيادة البرقية الآتية:

"ياماتو وياهاغي وهاماكاز أغرقت. آساشيمو وسوزوتسوكي مفقودتان. ايسوكاز وكاسومي مصابتان بأضرار

فادحة. الوحدات الباقية صالحة للخدمة. أقترح انقاذ الناجين ومواصلة المهمة."

وفيما المدمرات تنتظر الرد من القيادة عملت طواقمها على انتشال الناجين من البحر. وكان بين هؤلاء هارا قبطان الطراد ياهاغي والاميرال كومورا وموريشيتا ونومورا وكوباياشي وواتانابي والملازم يوشيدا. وفي الساعة ١٦،٥٥ أطلقت المدمرة فويوتسوكي طوربيداً على المدمرة المعطوبة كاسومي وتولت المدمرة يوكيكاز اغراق المدمرة ايسوكاز بفتح الكوى في قعرها. وفي الاحصاء الأخير تبين أن ٢٦٩ ضابطاً وبحاراً أنقذوا من البارجة ياماتو. وبلغ عدد الضحايا من بحارتها ٣٠٦٣ بمن فيهم إيتو قائد الأسطول وآريغا قائد البارجة. أما في القوة المواكبة فقد قتل ١١٨٧ رجلا.

وبلغت الخسائر الامريكية ١٠ طائرات و١٢ رجلا.

عند الساعة ١،٢٣ من فجر ٨ ابريل (نيسان) أمرت القيادة المشتركة بوقف اعمال الانقاذ والعودة الى القاعدة. وللحال عاد الناجون يتعثرون عياء الى قاعدة ساسيبو، فألقت المدمرة فويوتسوكي مراسيها في الساعة ٨،٤٥ والمدمرتان هاتسوشيمو ويوكيكاز بعد نحو ساعة. وفي الثانية والنصف بعد الظهر وصلت سوزوتسوكي، المدمرة التي لا تقهر والتي نسف حوالى ستة امتار من مقدمها، فدخلت المرفأ وهي تسير القهقرى بقوتها الذاتية والنار لا تزال تشتعل فيها.

هكذا انتهت تلك المعركة الانتحارية.

رضّل سبور ■

## رابح بخيل

قال المتحدث على الهاتف: "أهنئك، لقد ربحت الجائزة الكبرى! مليون دولار! فهل أنت سعيد؟"

وأجاب الرابح: "أنا في منتهى السعادة."

– وماذا ستفعل الآن؟

"سأخبر أصدقائي أن رابح الجائزة ليس أنا."

ف.ل.

---

## محام ناجح وسيدة غاضبة

نجح أحد المحامين في دفاعه عن قضية تتعلق بفضيحة شهيرة. وبعد المحاكمة التقته سيدة غاضبة بادرته: "أما من موكّل الا وقبلت توكيله مهما يكن حقيراً وسافلا وذا سمعة شائنة؟"

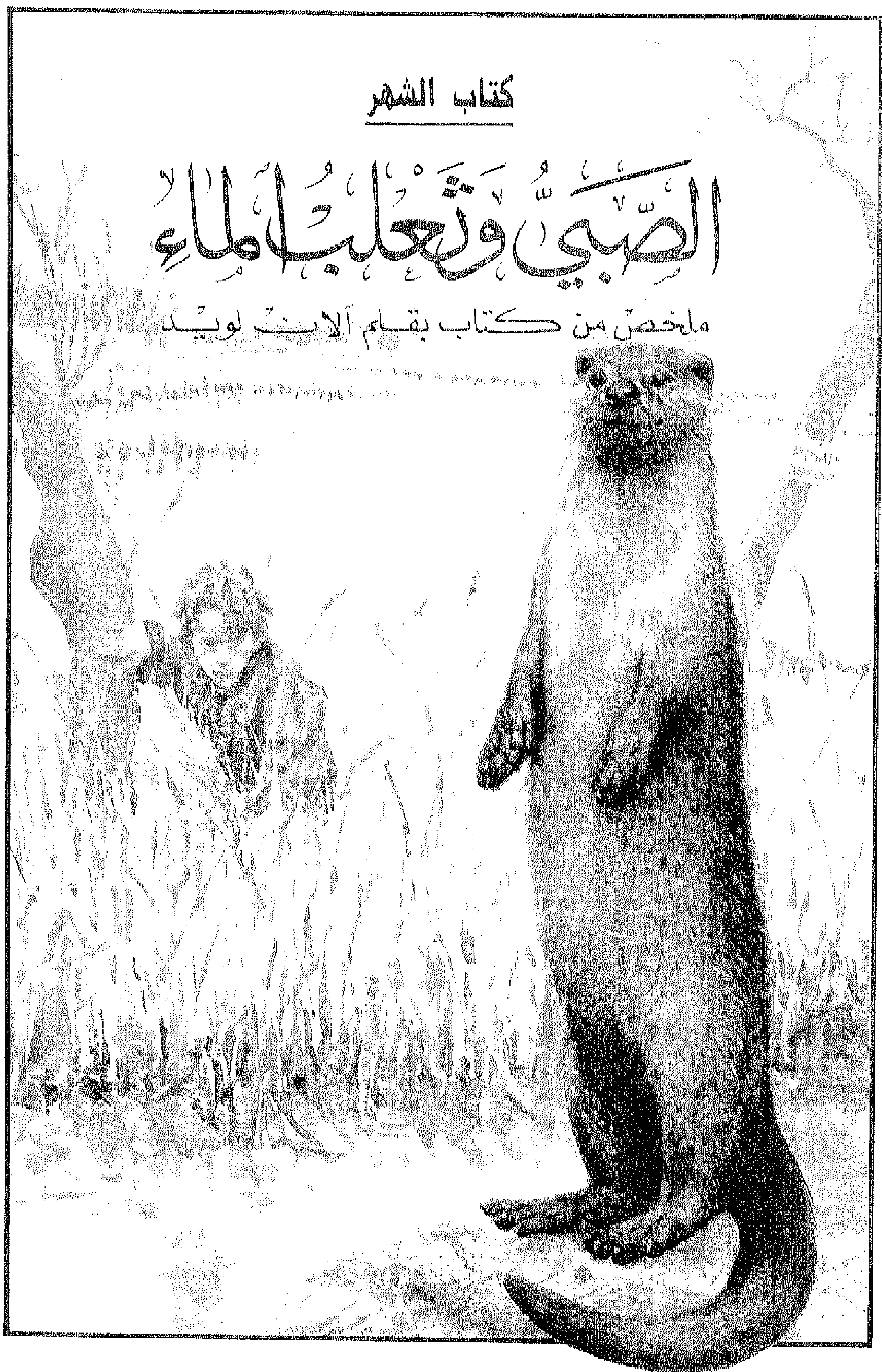
فرد المحامي برصانة: "ذلك يتوقف على أمور عدة. فماذا فعلت أنت يا سيدتي؟"

ج.د.

---

بعض الاشخاص لا يبعدونك عن الوحدة فحسب، بل يجعلونك تتمناها.

ك.م.


كتاب الشهر
الصبي وثعلب الماء
ملخص من كتاب بقلم آلان لويد

# الصبيُّ وثعلبُ الماءِ

ملخص من كتاب بقلم آلان لويد



قصة الصبي ولُوط القضاعة والرجلين العجوزين اللذين خاضا معارك كثيرة من أجلهما، هي ويا للأسف قصة خرافية. ففي بريطانيا تعرّض حيوان القضاعة في أواخر الخمسينات لهبوط عددي مفجع، وصيحته اليوم أندر من صيحة الباز أو طائر المرعة المبقّع. ويتساءل الكاتب: "هل يبقى لوط حياً؟" ويضيف: "في مكان لا يبعد إلا قليلا من حيث جلست أكتب هذه الاسطر، هناك خندق يحمل على الخريطة اسم "قناة القضاعة". لكن القضاعات أو ثعالب الماء التي كانت تجوب مستنقعات رومني في بريطانيا اختفت قبل أكثر من عقدين. الا أن في وسعها أن تعود وتسبح حيث اعتادت لو وُجد من يهتم لها." وفي ما يأتي قصة لوط، وهي حكاية ماضٍ لم يتحقق ومستقبل ما زال موعوداً.

Condensed from «The Last Otter,» copyright © 1984 by A.R. Lloyd, published by Hutchinson, London
Illustrations: Carol Binch



دوت الصيحة تماماً كما كانت تدوي قبل العصر الجليدي، ثاقبة وبدائية، وأعقبتها صيحات راحت تعلو من رأس عريض مرفوع لجسم رمادي بني نصف مغمور بالماء وثابت على قائمتين مكففتين(★) في المياه الضحلة. انه ذكر قضاعة. لم يلقَ نداؤه استجابة، فهو واحد من قلة متبقّية من جماعات القضاعة التي كانت في ما مضى تملأ مستنقعات رومني الخضراء في الطرف الجنوبي الشرقي لبريطانيا.

كانت حيوانات الانقليس تسبح سريعاً. وغطس القضاعة في الجدول وراح يجوب الاعماق مترقّباً. أطبق خطمه وأذنيه وطفت فقاقيع الهواء من فمه الى السطح كالجبال. وما لبث ان رأى "أسطول" الانقليس ينفخ الهواء بايقاع كالمضخّة. وسُمعت جلبة وأصوات انقضاض ما لبثت أن توقفت، وظهر القضاعة بعدها يجرّ ضحاياه الثلاث الى نتوء صخري أملس فوق الجدول. ولكم عرف ذلك النتوء في الماضي من ثعالب بحر جاءته باعداد لا تحصى. فهناك دارت معارك بينها وبين كلاب البحر، وهناك سبحت اناثها وتعلمت صغارها أساليب بنات جنسها. أما الآن فقد ألفى القضاعة نفسه وحيداً على النتوء. وسُمعت قرقعة عظام بين فكيه، كان يأكل وحيداً.

في ذلك الوقت كان فتى يصطاد بالصنارة قرب حاجز للماء في أعلى الجدول، فسمع نداءه. وعلق في صنارته انقليس فتناوله على عجل ورماه في سلته وهو يتلوى. وابتعد عن الحاجز وزحف على الضفاف بين الاشجار وتخطى اللافتة التي كتب عليها: "ممنوع الدخول: أملاك خاصة."

كان الفتى في حدود الحادية عشرة من عمره، صغير الحجم بادي الحرمان، وكان خوفه كبيراً من أن يراه أحد. وواصل زحفه متسللا نحو المكان الذي انطلقت منه الصيحة، وعندما بلغه قذف الانقليس برشاقة نحو الصخرة الكبيرة.

ونادى بصوت خافت كالهمس: "لوط! أحضرت لك واحداً كبيراً!"

انتصب القضاعة على ذنبه وقائمتيه الخلفيتين وحملق الى الفتى بعينين مستديرتين مشعّتين. كان متخماً وغير راغب في رفقة أحد. لكن ذلك لم يثنِ الفتى الذي تابع ملحّاً: "اتذكرني؟ كنت أرمي لك السمك وأنت صغير."

نفث القضّاعة بضراوة علامة الانزعاج وأدار ظهره للصبي. والواقع أن لوط بعدما ترك وشأنه لم يعد لديه ما يشتكي منه، فالحياة كانت سخيّة معه، وعشرات الآجام في تصرّفه من دون منازع. ولم يكن له أعداء كثيرون وكان ينظر الى ثعالب البر بازدراء وسخرية، فهو أمكر منها وأحذق، خصوصاً في الماء. وكان يعرف كيف يختفي عند اللزوم.

ولمع ضوء في بيت الصياد على القمّة مرسلا شعاعاً رفيعاً من فتحة باب، ثم خبا. بعد ذلك سُمع وقع أقدام تحدث حفيفاً على أوراق الشجر الساقطة. والتصق القضاعة بالصخرة قبل أن يقفز إلى الماء ويختفي. اما الصبي فانطلق

(★) القائمة المكفّفة (webbed) هي التي يتخلل براثنها غشاء جلدي يساعد في السباحة، كقوائم البط والاوز.

متوارياً بسرعة قصوى. ووصل الى حافة الماء رجل يجر رجليه بتثاقل ووقف قرب الجدول والتعب باد عليه. كان فمه قاسياً، وهو حاول أن يخترق الضباب بعينيه. أما اليد التي أمسكت بالعكاز ذي النعلة الحديد فلم يكن فيها سوى ثلاث اصابع وابهام وجدعة معقودة.

## الصياد

في اليوم التالي وقف الصياد ذو الاصابع التسع في مكتبه الذي يشبه الحظيرة، وصوّب منظاره الى النهر. كان الرماد يملأ المدفأة الكبيرة، وبدت قطع الاثاث كالاقزام وسط ضخامة الغرفة التي ظهرت اثار الموت في كل ركن منها: اقنعة من رؤوس الثعالب، وسمك محنّط معروض في خزائن، ورؤوس قضاعات مرصوصة على الجدران كالميازيب.

في مواسم الصيد الماضية كان الصياد يعود باكثر من خمسين قضّاعة. لكن الطرائد بدأت تختفي تدريجاً مما اضطره الى التقاعد وتسريح كلابه وفي نفسه غصّة.

فجأة زمّ الصياد شفتيه واندفع خارجاً صافقاً الباب وراءه. اتجه نحو الزورق حيث جلس النوتي بجسمه القصير الممتلىء وجلده المتغضن بفعل الريح والشمس، يمضغ غليونه. وسأله بحدّة: "أين هو ذلك الصبي الملعون؟"

- لم أر أحداً.

"اللعنة! اني رأيته هنا معك. أنه يسعى الى سمكي يا رجل!"

- انه لا ينشد سوى قليل من السمك الصغير يا سيد.

"هذا امر يفضي الى غيره. الفتى يجب أن يُحتجز."

تسلّق الصياد التلّة وهو يعرج. فبرز الصبي من بين الاعشاب وقال للنوتي: "لم أسرق اي سمكة. اقسم لك."

- لكنك كنت على أرضه.

"ذهبت لأرى القضاعة. انها الحقيقة! كان أليفاً وهو صغير. ولا يهمني أصدقتني أم لا."

أطلق النوتي ضحكة مكبوتة. فلا أحد في هذا المكان استطاع معرفة الجهة التي اتى منها ذاك الصبي. ومع أنه لم يكن مؤذياً فانه كان كاذباً مراوغاً، ولكن ليس أكثر من سائر الاولاد.

ورد النوتي: "أنا لم أولد البارحة يا صاحبي. القضاعة لا يعرف للصداقة معنى. انه ماكر وغدّار كبنات عرس."

فاحتج الفتى: "انك لا تعرف لوط. إنه الوحيد المتبقي، لذلك هو مهم! كل بنات جنسه اختفت."

- نعم، كذلك البحارة وركاب الزوارق.

وكان ذلك صحيحاً، فعدد قليل جداً من الصيادين ما زالوا يمرون بزورقه ويتوقفون ليحتسوا عصير التفاح الذي يقدّمه. ولكن الى متى سيدوم ذلك؟ بصق النوتي وتابع: "انتبه للصياد العجوز ايها الفتى، فهو سيسلخ جلدك اذا امسك بك على أرضه."

رمق الفتى الزورق المملوء بأوراق الشجر والراسي قرب العشب وقال في نفسه "لو كان لدي زورق مثل هذا لما احتجت الى وطء أرض الصياد."

ولو كان لديه قارب للحق لوط الى أقاصي النهر.

ووعده النوتي: "ساصلحه ذات يوم."
– ذات يوم، عبارة مطاطة قد تعني أي شيء."

في حقل في أعلى النهر راح لوط يطرف بعينيه ليطرد النعاس. فجأة جمد في مكانه. لقد اندفعت نحوه جماعة من الكلاب وألسنتها المدلاة تلمع. وقف لوط هنيهة في مواجهة ذلك السيل الجارف، ثم انطلق كالسهم في اتجاه النهر وقوائمه القصيرة تقرع الارض وجسده يتموج. وأطبق عليه كلب راح ينهشه بأنيابه الحادّة، لكن لوط تملّص منه ولاذ بالفرار. وبقي يعدو على غير هدى وهو ينزف من جرح مفتوح. ورأى أرنباً يخرج من خندق فتوجه اليه واندس فيه. وشعر بدوار في رأسه وسرى في جسده خدر غريب قبل أن يغمى عليه ويسقط سابحاً في بركة من دمه.

## بين الوعي والغيبوبة

مع هبوط الليل عاد الفتى الى حاجز المياه، ووقف عند مؤخر الزورق وراح يدفعه، لكن الزورق ظل جامداً لا يتزحزح. ومدّ الفتى يده داخله وراح يحفر بأصابعه، وأخرج حفنة رطبة من أوراق الشجر المهترئة. وأعاد الكرّة مراراً حتى أفرغ الزورق من الورق، حفنة بعد حفنة.

كان الليل ندياً والفتى يرتجف من البرد والمياه الموحلة تحوطه. وخفّ الزورق تدريجاً وبدأ يهتز. ورمى الفتى الى متنه مجذافين وقضيباً ثم دفعه الى الماء بكل ما أوتي من قوّة.

ورأى الفتى مقدّم الزورق طافياً فارتاح قليلا. وبعد دفعة أخيرة سُمعت قعقعة وأصبح الزورق في الماء. وصعد الفتى اليه وجلا وظل يدفع بالقضيب حتى ابتعد الزورق عن اليابسة واستقر في الماء ثابتاً. كان خشبه مهترئاً والطحلب يغطي متنه، لكنه كان عائماً. وزرّر الفتى معطفه اتقاء للبرد والرطوبة، وتابع الدفع بالقضيب.

وفي طريقه الى صخرة القضاعة مرّ بعدد من الخلجان الصغيرة التي تجمعت فيها قطعان من الماشية راحت تراقبه من بعد. وشعر بنشوة عارمة وهو ينزلق مبتعداً عن الاشراك الخفية التي نصبها الصياد. ولم يتمالك عن القول وقد غمره زهو الانتصار: "اصبح الزورق في الماء يا لوط. وأنا في طريقي اليك."

غير انه وجد صخرة القضاعة مهجورة. وربط الزورق بحبل بال وزحف الى الضفّة وهو ينادي بصوت خافت: "لوط!" وهوت على كتفه يد ثقيلة، يد تنقصها اصبع. وتملص منها الفتى وانطلق يعدو لاهثاً نحو الزورق المتداعي.

تمدّد لوط على العشب خائر القوى شبه غائب عن الوعي لا يدرك شيئاً ممّا يدور حوله. وانزلق جرذ من وسط الضباب رافعاً خطمه وعلى شفته العليا وشم أصفر، وتبعه ثان وثالث وغيرهما كثير، وحوّمت طيور النورس فوق المكان. فاكتمل عقد أكلة الجيف. لكن رشيشاً من الماء بدّد السحر وتشتتت الحيوانات في كل صوب، كل من حيث اتى. ورفع الفتى البدن الساكن ووضعه في القارب: "استيقظ يا لوط بحق السماء."

تحرّك لوط قليلا ثم همد ثانية. أين هو بهلوان الماء؟ أين هو الصياد الماهر؟

حتى الحظ تخلى عنه هذه المرة فبدا كالجرو مغلوباً على أمره لا حول له ولا طول. وجاءه الصوت متوسلا متملقاً: "هاك بعض الطعام."

كان لوط عاجزاً عن الحركة وعن تسلّق أسوار سجنه العائم، لكنه لم يكن عاجزاً عن الاكل. وما ان أخرج الفتى سمكة وقدّمها اليه حتى التهمها بنهم. وراح يترجح بين الغيبوبة والوعي. وكان كلما عاد اليه وعيه يأكل شيئاً من دون أن يبدي تبرماً بوجود الفتى معه. الى ان حاول هذا أن يلمسه فانتفض بشراسة وانقضّ عليه.

وصرخ الصبي وهو يتفحص أصابعه: "آه! ما زلت قادراً على العضّ."

ابتعد الصبي بحذر، فالحيوان الجريح الذي أمامه ليس لعبة يتسلى بها. كان طوله حوالى ١٢٥ سنتيمتراً ووزنه نحو احد عشر كيلوغراماً، وكانت أنيابه مخيفة.

تابع الفتى طريقه عبر الجدول. وخاطب لوط: "علينا أن نسرع قبل أن يُفتقد الزورق." وفيما هو يجذف مبتعداً راحت الجرذان ترمقه بعيون تنضح شرّاً.

## قاضم الاصابع

تحرّك ظل رمادي مترقّب. كان قاضم الاصابع عملاقاً، والرجال الذين رأوه قدروا طوله بمتر ونصف متر. لكنه في هذه الاثناء سار محدودب الظهر كوتر قوس مشدود لينطلق. وكانت رقبته ممدودة وخطمه الرمادي الذي يحمل ندباً خلفتها معارك سابقة، يهتز بغضب. فهو التقط رائحة خصم فاحت بقوة آتية من مكان ناء في النهر ضمن مملكته.

لكن رائحة من نوع آخر شغلت باله وجعلته أشد حذراً، رائحة حملها الدخان المنبعث من نار مشتعلة في كوخ صغير من الآجر كان الصيادون في الماضي يأوون اليه. وكتم القضاعة الهرم غضبه الى أن خمدت النار مع الفجر ورأى الزورق ينساب مع التيار. فقطع الجدول واقترب من الكوخ وراح يتنشق بحذر. شاهد بقايا خشب محروق تشكل دائرة ورأى كتلا من الطين المسفوع حيث شوى الفتى سمكاً. ولاحظ خسوف الارض الترابية حيث رقد الفتى في كيس النوم. لكن هذه الروائح جميعها بشرية، فانطفأ قاضم الاصابع وعاد من حيث أتى الى الماء وقد استعر غضباً. فرائحة لوط كانت واضحة، واستباحة الارض وقحة وفاضحة خصوصاً ان المستنقع مملكته، وانتصب مجدداً وعيناه تقدحان شرراً وانطلق في اثر المعتدي متلصصاً. تسلّق أكمة وتفحص الارض المنبسطة أمامه بنظرة شاملة. لم يرَ سوى الزورق. لكن انفه لا يخطىء. لوط حتماً في الجوار.

والواقع أن لوط كان هناك فعلا، وهو بدأ يتململ من احتجازه. لقد أمضى فترة النقاهة في بالوعة الزورق، وهو الآن ينشد الحرّية. تفحّص المويجات ووقف برهة على حافة الزورق مترجحاً قبل أن ينطلق كالسهم ويختفي عن الانظار.

رأى الفتى الدوائر في الماء ففكر: "كان يجب أن أنتبه الى ذلك. بحق السماء، أين أنت يا لوط؟"

وظهر جانب من الجسم المبلل ثم غطس لوط ثانية مداعباً.

كان الخوف واضحاً في صوت الفتى وهو

يناديه متوسلا: "انك لست على ما يرام بعد. عد الى هنا." لكن لوط المتبجح المختال اختار هوة عميقة وسط الجدول وغطس فيها ثم ما لبث أن قفز منها كالصاروخ حاملا سمكة نهرية سمينة. وأطبق بفكيه على فريسته ذات الحراشف ثم تمدد على ظهره وراح يقذفها في الهواء ليعود ويلتقطها بمخالبه المكفّفة.

وصرخ الفتى وفي حلقه غصة: "يمكنك أن تأكلها في الزورق يا لوط."

لكن لوط لم يأبه له والتهم سمكته باستخفاف.

وتابع الصبي: "حسناً، كل ما فعلته أني انقذت حياتك. لا تشكرني على واجب."

وراح المطر يهطل بغزارة على الزورق. فجأة سمع رشيش ماء. ونظر الفتى الى مصدره فرأى لوط يقفز الى بالوعة الزورق ويستقرّ في ركنه المفضّل. ثم يغطّ في نوم عميق.

## غنيمة سهلة

قصف الرعد وومض البرق وامتلأ الزورق بالماء. وكان كلما أفرغه الصبي يعود ويمتلىء ثانية. فقال: "علينا أن نعود به الى الضفة يا لوط."

غمرت المياه المنهمرة الزورق فيما القضاعة يثب مرحاً وسط الظلام. ووصل الراكبان اخيراً الى مكان تحت جسر يبعث الرهبة في النفس، فربط الفتى الزورق تحت احدى القناطر وصوت الطوفان حوله كفحيح الافعى. قال: "لا مطر هنا على الاقل. الآن يمكنني انه افحص ذلك المصرف المسدود."

جال لوط في المكان مستكشفاً. والتقط أنفه رائحة مسكية العبير تنبعث من تحت الجسر، فعرفها للحال. انها الطعم الذي يستخدم للايقاع بالقضاعات. لم يعد لديه أدنى شك في ان الخطر محدق. ثم سمع أصواتاً بشرية فغطس في الماء.

"هل من متاعب يا بني؟"

عبرت الشاحنة الارض المسطحة وهي ترتجّ ثم توقفت بالقرب من الجسر. كانت ملطخة بالوحل وحملت على أحد جانبيها كلمة "نقل". ونزل منها رجلان اقترب أحدهما من الفتى وسأله: "هل قاربك مثقوب؟"

كان الرجل شديد الهزال وبدت وجنتاه الناحلتان تحت القبعة.

وأجابه الفتى باقتضاب: "سأصلحه في دقيقة."

ظلّ الرجل يبتسم ببرود ثم سأل: "من أين انت؟"

"من أعلى النهر،" أجابه الصبي الذي كان أذكى من أن يثق بأحد.

لكن الرجل ألحّ: "ربما أنت تعرف بيت الصياد."

- انني اعرف الصياد.

"وهل تعرف حرّاسه؟"

- حرّاسه؟ ومن يرضى أن يعمل لديه؟

قلّب الفتى الفكرة في رأسه ثم تجهّم وجهه وتابع: "الستما في طريقكما اليه؟"

ورد الرجل: "أنت لا تعرف أي وجهة سنسلك. فعملنا في النقل يشمل المنطقة كلها ونحن نعمل حيث يحلو لنا." ثم نادى رفيقه قائلا: "الفتى يعرف بيت الصياد."

كان وجه الرجل الثاني منتفخاً ومدهناً وكرشه ضخماً. وهو قال متذمراً: "دعنا نأكل أولا ثم نتابع سيرنا." ثم أجفل عندما توجه صوب اليابسة سرب من الزرازير. وقال بصوت أجش: "اسكت. راقب الجزيرة جيداً. هناك قضاعة في العشب، لقد لمحت شاربيه. أنظرا"

وأنطلق الاثنان يعدوان على الجسر وكرش الرجل الضخم يهتز أمامه.

## الانثى

لم يقلق الفتى لانه عرف أن لوط لن يعلق مع هذين الغريبين. وتسلّل الى الشاحنة. وفي الجزء المغطى منها رأى أعقاب سجائر وخريطة وأحزمة رصاص ومسدسين وصناديق ذخيرة وبنادق وحبالا لنصب الاشراك ومشاعل كهربائية ومؤنا.

وانسلّ الى مؤخر الشاحنة. وما ان فتح الباب حتى تدحرج صوبه رأس بقرنين وعينين مستديرتين تحدقان اليه كأنهما قمران. وخلف الغزال النافق رأى الفتى اكواماً من الطيور البرّية ومناقيرها مخضّبة بدمائها وكأنها شواهد على مجازر رهيبة أكبر من أن يفقه لها الفتى معنى.

واستدار استعداداً للهرب، لكن الحكمة قضت ألا يعود خالي الوفاض. فحمل كيس المؤن وانطلق يعدو نزولا نحو النهر. وقطع ضفافاً مغمورة بالماء لم يكن ليجاريه في عبورها سوى الكائنات ذوات الزعانف أو القوائم المكففة. وتناهى اليه صوت مزمجر يطلق الشتائم.

أزعج الحمالان لوط فغطس وسبح مع التيار تحت الماء حتى وصل الى ضفاف مهجورة. وتسكّع بكسل هناك وجعل يقلّب الصخور بحثاً عن الانقليس. ثم طفا الى السطح حيث المياه خضراء مصفرّة والرؤية واضحة. ولاح أمامه في البعيد طيف ضخم. واستطاع تمييز عنق طويل رشيق وفقاقيع هواء طفت الى السطح. كان الطيف يتحرك برشاقة وسهولة وحجمه ثلثا حجم لوط. لم يكن ذلك الطيف سوى قضاعة انثى كانت الاولى التي رآها لوط منذ كان صغيراً.

واندفعت الانثى بسرعة البرق الى الاعشاب حيث كمنت وفي عينيها تحدٍ. كانت جميلة وفراؤها .كالحرير. وما ان اقترب منها لوط بمشية جانبية حتى انقضّت عليه وهي ترعد وتنفث. فتراجع مندهشاً من حلمه ورأفته بها. وظل يتراجع الى أن استكانت. وعلى رغم الغضب الذي بدا في عينيها فان مزاجها تغيّر وأصبحت أقل عداء. وعندما اقترب منها هذه المرّة كان صدّها لعوباً، حتى طريقة امساكها بعنقه وشدّها لجلده بدت تمثيلية. وراحا يتدحرجان ويتصارعان. وسقطا في الماء وهما يتدافعان. وعندما وصلا الى الاعماق تحولا شبه طوربيدين منطلقين. وكالدوامة قطعا احراجاً وغابات ومروجاً خضراء منبسطة. وعرض لوط مزهواً كل ما عنده من مهارات، وراح يقفز باهتياج كأرنب بري. وأخيراً نهكهما التعب فارتميا على الارض طلباً للراحة، وغط لوط في سبات عميق. ثم هبّ من نومه فلم يجد الانثى التي ما ان سمعت الزورق يدنو حتى ولّت هاربة.

ورآها الفتى تعدو فصرخ: "مرحباً يا لوط، تعال. لدينا مؤن الآن، ويمكننا اللحاق برفيقتك."

ظلت الانثى تتنقل بحذر في المستنقعات طوال يومين. الى الشمال يمتد الخط الساحلي القديم الشديد الانحدار، وهو اليوم يبعد كيلومترات عن البحر. فالرومان والسكسون الذين حطوا فيه رحالهم في الماضي حفروا خنادق بقصد استصلاح الارض وتجفيف المستنقعات لاستعادتها من البحر. ووصلت الانثى الى موئل طيور البلشون الذي تحوطه الاشجار، فهو كان ملاذها وملجأها تختفي فيه عن عيني قاضم الاصابع. ونظرت الى السماء وهرولت، فاللون الوردي كان ينذر بصقيع قارس.

## صيد القضاعة

على بعد كيلومترات وقف النوتي أمام مبنى الصيادين وراح يقرع بالحاح الباب المرصع بالمسامير الحديد. وسمع صرير وظهر الصياد على العتبة وقال: "أدخل يا رجل، فالبرد قارس!"

لم تكن القاعة التي ولجها النوتي اكثر دفئاً من الخارج. فالسقف المصنوع من روافد خشبيّة كان عالياً والارض المكسوة بالاجر كانت عارية. وبدأ يتكلم: "لقد هرب ذاك الشحاذ الصغير بالزورق."

– هل سرق الزورق؟

"لا يهم ماذا سرق. يكفي أن يسرق أرنباً ليُشنق!"

– اللعنة على هذا الوغد!

"ارجو أن يكون الفتى حيّاً، فالزورق متداع مهترىء وربما غرق الغلام أو تجمّد. ان قاربي في الانتظار."

– الزوارق والقوارب من اختصاصك، وأنت لا تحتاج الي.

"إلا في شيء واحد فقط..." قال النوتي وهو ينظر الى غنائم الصيد المعروضة عند جاره، "...وهو صيد القضاعة. وإلا لما أتيت اليك."

– صيد القضاعة؟

"هناك قضاعة مع الصبي." هذا ما أخبره اياه عامل النقل وهو رآهما معاً: الصبي يدفع الزورق بالقضيب والقضاعة مكوّر على نفسه كقط في قعر الزورق. لا أحد سوى الصياد يمكنه ان يتعقب القضاعة في تلك المستنقعات الواسعة الكئيبة.

وهمهم الصياد: "البرد قارس يا رجل." ثم توجّه الى خوان ضخم وملأ كوبين شراباً مدفئاً وقدم واحداً الى النوتي. وتابع: "سأذهب معك. لكن عليك أن تشرب هذا أولاً. طعمه لاذع لكنه يبعث الدفء في الجسم، وأنت يا مسكين محتاج الى الدفء." ولوى قسمات وجهه ثم أضاف بسرور وحشي: "صيد القضاعة في هذا الطقس!"

رسم الجليد حدوداً للجدول ودفعت الريح الثلج المتساقط الى الخلجان فتجمع على حافاتها نتوءات مدوّرة. وبكى الفتى من شدّة البرد ولم يعد يشعر بيديه وقدميه ولم يبق في كيس الطعام الذي نشله من الشاحنة سوى نصف فطيرة.

وتثاءب لوط على الضفّة وانهمك في تنظيف مخالبه. تاق الى تلك الانثى اللعوب ذات الجسد اللدن. وانحدر في اتجاه النهر علّه يصادفها. ومرّ وقت قصير وصل الفتى بعده الى نقطة التقاء الجدول بقناة قديمة كانت في زمن نابوليون خندقاً شُقّ للحماية من الغزو. وعلى ضفاف

النهر انتصبت أشجار مقطوعة الرؤوس كالعسس. وبسط لوط أذنيه، ودوّمت في الظلام ريح باردة حاملة رائحة قضاعة ذكر. فجأة أضاء نور القمر المكان راسماً ظلالا لاشجار الدردار والحور. ورفع لوط رأسه فرأى القضاعة العملاق يخطر في الليل وسط بياض الثلج كتمثال من حجر. وزمجر العملاق: "قف، ولا تتقدم!"

فرد لوط مرتجفاً: "أنا أذهب حيث أشاء."

– انك تنتهك مملكتي. أنا قاضم الاصابع، ملك المستنقعات. أنظر وارتجف!

"انك هرم. لا تتوهم أنك تخيفني. لوط لا يعرف حدوداً. جئت أبحث عن الانثى الصغيرة وانا عازم على العودة بها أيها العجوز!"

– إذن سوف تموت!

## ليلة الكارثة

أين لوط؟ وراح الفتى يلعن رفيقه. فالظلام يهبط وكان من المفروض أن يكونا في طريق العودة قبل ذلك بكثير. وتمتم من خلال أسنان تصطك: "لا يمكنك ان ترحل هكذا." غير انه كان يعلم يقيناً أن لوط قادر على عمل كهذا. فهو يفعل كل ما تمليه عليه طبيعته الجامحة. وبعدما فقد الامل في عودته ناداه: "حسناً، سأبحث عنك بنفسي."

تساقط الثلج على الزورق الذي راح يترنح حتى كاد الفتى أن يسقط في الماء. وكانت بوابة النهر مفتوحة فجرفت المياه المتدفقة الزورق الذي اندفع كأنه في سباق. وسمع الفتى في البعيد أصوات شجار وجرّ أقدام، فاندفع الى أمام بسرعته القصوى.

وقفز الى الضفة شيء غير محدّد



الشكل راح يهسّ بضراوة فاغراً فمه. ونظر اليه الصبي مشدوهاً، فهو لم يسبق أن رأى لوط في هذه الصورة المخيفة. بدا قبيحاً مبتلا وفراؤه خصل كالمسامير وفمه ملتو حقداً. وشهق الفتى. الوغد جعله يبدو هكذا هزيلا تافهاً. لقد أطبق عليه القضاعة الغريب وأنشب براثنه في عنقه.

وصرخ الفتى: "توقف يا لوط! سوف يقتلك!" وراح يضرب الماء بمجذافه بعنف. في البدء لم يأبه الخصمان المتصارعان لهذا المتطفّل. وأخيراً جمدا في مكانهما وأعينهما تدور في محاجرها. وقبل أن يولي الوحش الكبير الادبار التقت عيناه عيني الفتى الذي قرأ فيهما تصميماً على القتل. واستمر لوط يسبح في الماء متباهياً فترة وجيزة ثم



انسلّ كالحية الى الزورق واستقرّ في ركنه المعتاد. بدا معتدّاً بنفسه ربما اكثر ممّا ينبغي، فبادره الفتى: "حظك طيّب اذ وصلت في الوقت المناسب، وإلا لأجهز عليك."

تابع الفتى طريقه شرقاً تحت ضوء القمر ورفع ياقة سترته اتقاء للهواء البارد وخاطب لوط: "سنجد تلك الانثى في مكان ما الى الامام."

وسُمع صوت شيء يتكسّر، شيء حاد اخترق بدن الزورق تحت الماء فتطايرت الشظايا الخشبية وتدفقت المياه الى الداخل مثل نافورة.

سلك النوتي طريقاً منحرفة في اتجاه الضفة. ووقف الصياد في مقدم القارب والبرد يلفح جسده كالسكاكين وعيناه تدوران في محجريهما. وصاح: "أدخله ذلك اللسان! قلت لك اللسان يا رجل! تكاد تخطئه."

- لا تعطني تعليمات أيها السيد!

"اللعنة عليك!"

أدار النوتي الدفة بامتعاض. فالصياد كان بادي الجنون، ولكن مَنْ سواه يمكنه أن يتعقب القضاعة؟ من سواه يعرف الدلائل: طرقاً غير واضحة المعالم، آثار جسم متدحرج، آثار أقدام قلّما يجدها النوتي متشابهة. الصياد يعرف تلك العلامات كلها ويعرف أيضاً الأثر الذي يخلفه لوط والمكان الذي يأكل فيه. ولأن القضاعة يقصد الاماكن المرتفعة للانقضاض انحنى الصياد ليستكشف أكمة علّه يجد لوط هناك. ولما همّ أن ينهض تلوّت ملامحه ألماً، فهو كالكلب الذي نزل معه من القارب، كان يعاني التهاب

المفاصل. وكلاهما متقدم في السن، تذكّر الصياد بغضب. ونظر الى الكلب وهو يخوض في الماء، وللمرّة الثانية رأى قطيع القضاعة وخواصرها تلمع أمام عينيه. حتى الاصوات الصاخبة التي سمعها ذلك اليوم الرهيب ما زالت تطنّ في أذنيه. واسترجع في ذهنه صورة ذلك القضاعة الضخم وهو يغوص الى أسفل ويستقر في القعر جسماً هامداً. ورأى نفسه من جديد وهو يمد يده الى ذلك الوحش الذي ظنّه ميتاً ثم يسحبها بسرعة ويقفز من الالم. تذكّر الالم والدم ومنظر الاصبع المبتورة والجدعة الدامية. تذكّر قاضم الاصابع ورآه يبتعد منسلّاً كالافعى.

وناداه النوتي: "هل أنت على ما يرام؟"

– بالطبع اني على ما يرام ايها العجوز الأحمق. هيا أدر المحرّك. فالظلام سيضعنا في موقف حرج.

## اشارة الخطر

اشتدّ البرد وهبّت الريح واجتاحت المستنقعات عواصف ثلجية جمّدت المطر وخلفت حول الرجلين طبقة جليدية رقيقة. وصرخ الصياد وهو يشير الى أشجار الحور: "هناك!" ونزل من القارب ليفحص عن كثب بطة نافقة منهوشة الصدر. وتابع: "اننا في اثره، ذلك الشحاذ المكفّف. لم يلتهم سوى اللحم الطريّ ولو كان ثعلباً لما أبقى من الفريسة الا الجلد والعظم."

وسأله النوتي: "هل هو بعيد أيها السيد؟"

فرد: "مسافة ساعتين أو ربما ثلاث ساعات. في وسعنا ان نتابع الصيد لو كانت معنا مصابيح." فجأة أشرقت اساريره فهتف: "بحق السماء! المخزن!"

كانت الساعة قرابة السادسة عندما فتح الحارس الباب استجابة لقرع الرجلين وزودهما مصابيح وانضم اليهما.

امتلأ الزورق بالماء قاذفاً الفتى الى المياه المتجمدة. وبهر الصقيع نفَسه فراح يتخبط كالمجنون. وعندما وصل الى الضفّة ارتمى عليها وهو يلهث. وجثم لوط يحكّ جلده وكأن الامر لا يعنيه، وما لبث أن انطلق والفتى يتعثر في إثره.

كانت الريح ضارية فوق القمّة، وشاهد الفتى لوط يستكشف المكان فتبعه وهو يقطر قطعاً من الجليد البحري. في البدء بعثت الحركة الدفء في جسده، لكن التعب ما لبث ان غلبه. وكان البرد يعذّبه كلما توقف، فراح يقطع خندقاً بعد آخر حتى استنفدت قواه. وما ان وصل الى القمة حتى هوى الى الارض وراح يتدحرج على المنحدر إلى ان استقر في القعر خائر القوى. كانا على بعد ثلاثة كيلومترات من الزورق عندما انفرجت الغيوم وأضاء نور القمر المستنقعات التي بدت كحصيرة فضية التفت حولها الخنادق كالافاعي. وبان فوق المرتفعات الجليدية شيء آخر: بناء غير واضح المعالم.

"إنه ملجأ يا لوط!" وصل الفتى اليه بمعافاة والم. كانت جدرانه عالية. ونظر الفتى الى الداخل من نافذة ذات اطار خشبي بسيط. وزحف الى الباب وهو يتشبث بالجدران. وفي الداخل ارتمى في اقرب مقعد وهو يكاد لا يعي شيئاً.

وسمع صرير الباب، ودخل لوط وهو يشمشم. رأى الجسد المكوّر فظن أن الفتى نائم. وخرج وتوجّه الى العشب النهري حيث أخذ سنة من النوم. ومع انبلاج الفجر انزلق الى الماء حيث رأى المصابيح تلمع. ورأى أيضاً ثلاثة رجال يتوجهون ناحيته وهم يشتمون، يتقدمهم كلب هرم. وللحال التقط لوط إشارة الخ

"الى الكوخ!" سمع صوت الصياد ملحاحاً فيما غطس القضاعة في الماء.

مرّ الوقت مسرعاً.

"لقد وصلت لتوي من بيت الصياد،" قالت المرأة للنوتي وهي بادية الضيق وذراعاها مشبوكتان أمامها. ثم ابتسمت. كانت أصغر سناً ممّا بدت، وذات وجه عريض وملامح تنمّ عن ادراك وتعقّل. وتابعت موضحة: "انني من الانعاش، من دائرة العناية بالاولاد."

وسألها النوتي باهتمام: "كيف الصبي؟ هل من تحسّن؟"

– لا بأس عليه.

"يا لحظ البريء! لو كان أحدنا في مكانه لقضى غرقاً. بدا تعساً عندما وجدناه. إنه حقاً عفريت ماء."

واستدارت المرأة رافعة حاجبيها وقالت: "انه كثير الكذب. أود أن استعلم منك، فهو كتوم ولا استعداد لديه للكلام. ربما أنت..."

ورد النوتي ببطء: "إنه ليس سيئاً."

– أنا متأكدة من ذلك. لكنني اشكّ في أنه اكمل فصلا واحداً في المدرسة في حياته أو نَعِم مرّة واحدة بالدفء. لا يجوز أن نترك الفتيان يغرقون او يواجهون الحياة بمفردهم من دون مدرسة، انه في حاجة الى من يعتني به.

وبصق النوتي. فأضافت المرأة مطمئنة: "سنعتني به."

## صيحة فرح

انهارت معنويات لوط وثبطت همته. فالانثى صغيرة الحجم والمستنقع كبير جداً. وهو فتش السدود والقنوات ومسارب الفيضانات، لكن الخنادق لا تنتهي. واشتاق لوط الى الزورق والى صوت الفتى.

استراح لوط في الليل، وفي الصباح انتصب على قائمتيه الخلفيتين وراح يتأمل ضباب الفجر اللؤلؤي وهو ينقشع عن البحيرة. ثم غطس في الماء وسبح الى الضفة الأخرى قاصداً موئل البلشون، وهو كومة من الركام تعلوها الاعشاب وترتفع فيها أشجار الزان ويحوطها جدول صغير وقفت فيه طيور البلشون ساكنة متأملة. وأطلق لوط صيحة لم تلق استجابة. كان الجدول صامتاً. وفي مكان مرتفع شاهد بلشوناً هرماً وقف مزهواً وفي نظرته اكتفاء ورضا. كانت معه أنثى صغيرة. كشر لوط عن انيابه امتعاضاً، فهو لم يقطع المستنقعات ليجد بلشوناً سعيداً بشريكته! وأطلق صيحة ثانية. اين هي تلك الانثى؟

كانت الانثى في الجانب الآخر تسبح في جدول ضيق مسرعة الى بيتها. ولمحت لوط في البعيد وهي تشق طريقها بحذر في مكان من الجدول معقود كالانشوطة. كان يسبح متمهلا والمياه تغمره حتى صدره. وسرت في جسدها قشعريرة واهتزّ أنفها الافطس. وشعر لوط ان أحداً في

اثره، فاستدار مكشراً عن أنيابه وهجم. ثم تسمر في مكانه وأطلق صيحة فرح. أما هي فظلّت مترقبة.

شعر لوط بانجذاب كبير وشدّه سحر الانثى فانضمّ اليها. وضربته بقائمتها الامامية. والتحما في الماء الضحل وكأنهما في حلبة للمصارعة. وانتصبا على نحو جعل جلدهما الواسع يتهدّل في طيات حول جسديهما. ومن شدّة الطرب راح لوط يقفز كالضفدع الى الامام والى الوراء والانثى اللعوب تطارده من مكان الى آخر. وظلا هكذا يمرحان ويتمرغان في الوحل مدة طويلة حتى نال منهما التعب فاستلقيا تحت أشعة الشمس يتجففان.

## صراع مميت

كانت الانثى بجانب لوط عندما استيقظ هذه المرّة. وتمغطت متثائبة، فذهب اليها بحماسة. وظهر القمر من وراء الاكمة كبيراً ذهبياً. وقطعا الجدول وثباً الى أن بلغا بركة طافحة يسبح فيها سمك كثير والابوام الصغيرة تموء حولها كالقطط والقمر ساطع فوقها.

من مكان ليس بعيداً في أعلى الجدول سمع قاضم الاصابع مغازلتهما الصاخبة، وهو كان يجوب غابة الزان بحثاً عن فريسة. واستشاط غيظاً حين رآهما. كان لوط يتثاءب عندما أطلق طائر البلشون صيحة تحذير مكتومة جعلت الانثى تغطس في الماء. وساد صمت مريب قبل أن يمزق سكون الغابة زئير قاتل. وفي لمح البصر انقض قاضم الاصابع على لوط الذي كان في أحد الخنادق يستعدّ للمواجهة. ولاقاه باستقبال أذهله.

انقضّ قاضم الاصابع ثانية وهو يزمجر. وبضربة من رأسه العريض أرسل لوط الى الماء مترنحاً. وغاص الاثنان ملتحمين ورمى قاضم الاصابع بثقله على لوط ودفع به الى القعر حيث غمره الطين وسدّ منخريه. لكنه ما لبث أن أفلت منه. ووصل الاثنان الى العشب وهما يزمجران بضراوة مثل نمرين.

تلقى لوط ضربة مخلب جانبية تبعتها أخرى طرحته أرضاً وجعلته يدور كالمغزل. وحاول أن يرد الهجوم لكنه أخفق وتراجع الى حافة الماء حيث وقف استعداداً لهجوم ثان. أنياب ضخمة نهشت لحمه. وارتفع في الهواء ثم سقط. وجُرّ على الارض وبدأ يغيب عن الوعي. ثم تملص بأعجوبة. كان مكسواً بالمخاط والدم يسيل من إحدى عينيه، ورأى بالثانية بريق الانتصار في عيني عدوّه. وتراجع لوط ببطء وأدرك أنه يجب ألا يكف عن الحركة مهما بلغ الثمن.

تعرّض لثلاث هجمات أفلت منها جميعها بالمراوغة. كانت الاشجار وعيدان القصب "تسبح" حوله. وشاهد البلشون العجوز القضاعتين في صراعهما المميت، فوقف يتفرج وانضمت اليه بلاشين أخرى، باعناق ممدودة واعراف تهتز. ثم ما لبثت المياه ان غمرت الوحشين المزمجرين وحجبتهما.

وظهرت موجة مفاجئة على سطح الجدول ثم انشقت عن رأسي القضاعتين المتصارعين. وتراجع لوط نحو العشب وتوقف فجأة. فقد احس شيئاً حاداً خدش ردفه. ورأى حوله أسلاكاً شائكة هي بقايا صدئة من سياج قديم.

"الموت!" صرخ قاضم الاصابع، وهجم. غير أن صيحة الحرب سرعان ما تحولت صرخة ألم إذ اصطدم رأس العملاق بالسياج المحجوب وعلق في أشواكه. وراح يخبط على غير هدي. وارتعدت فرائصه وتعاظم توتره. وتجلّد وحاول أن ينتزع نفسه من "البراثن" التي علق بها. ونجحت محاولته في النهاية وتحرر من العذاب الذي استبدّ به.

## كرة من فراء

اندفع لوط كالسهم مخترقاً الجلد السميك حول الرقبة. وفي هجوم معاكس شبّ قاضم الاصابع على لوط واثخنه جروحاً ومزّق جلده حتى سال دمه. لكن القضاعة الصغير ظل متمسكاً بخصمه كالكمّاشة متجاهلا الالم الذي عم جسده والعمى الذي غشي بصره. واشتدّ هياج العملاق فراح يضرب الارض بذيله. وتدحرج الاثنان الى الماء ككرة من فراء تزن نصف طن. وغاصا الى القعر متماسكين. وبدأت قوة قاضم الاصابع تتضاءل وأصبح صراعه أقل عنفاً. وغدا الماء حولهما عكراً مما أفسد متعة المشاهدة على طيور البلشون.

حاول لوط أن يلتقط أنفاسه ورأسه يهدر وصدره يضيق. وومضت أنوار امام عينيه فسبح صعوداً. وعندما وصل الى سطح الماء شاهد قاضم الاصابع يسبح بألم في اتجاه العشب. لم يلحق به من شدّة التعب.

ونظر قاضم الاصابع الى الوراء ورأسه مدلى. وخاطب لوط: "الانثى لك، فخذها."

"أنت!" صرخ النوتي مغتاظاً، "ماذا تفعل هنا؟"

"اني دائما أتصيد هنا،" أجابه الفتى وهو يبتسم.

وغص النوتي وكاد يختنق: "لا يحقّ لك ذلك يا فتى. فلقد عولجت واعتُني بك جيداً، والآن عدت تهرب من المدرسة. لا تقل لي انهم يوقظونك في الصباح الباكر لتذهب الى الصيد. ماذا يحدث ان رأتك تلك السيدة من الانعاش وأنت ممدد هنا على حاجز الماء؟"

– لم يكن ذلك ليزعجك في الماضي.

"ربما لا، ولو انني أبديت انزعاجاً لكان الزورق ما زال هنا."

هزّ الصبي كتفيه ورد مبرراً: "لقد امتلأ بالماء ولم يعد صالحاً. ولو صمد يوماً آخر لوجدنا الانثى. لكن لوط سيجدها، وسينجبان صغاراً وستَعود القضاعات تملأ النهر."

وعاتبه النوتي: "احمد الله على أنك ما زلت حياً. الحيوانات هي التي اوقعتك في تلك الورطة. أنا والصياد أخرجناك. فكنْ ممتناً بذلك."

– جئت أشكرك أنت والصياد.

"يجب أن تعامل هذا الغول بأدب أيها الفتى." قال النوتي ذلك وهو ينظر الى مبنى الصيادين من خلال أشجار السنديان. وأضاف: "كنت اذهب معك، لكنني لا أستطيع ترك الحاجز. انه صوت الواجب."

تسلق الفتى المنحدر. فوجد المبنى أكثر كآبة ممّا تصور. وانسلّ خلف المنزل حيث صُفّت صناديق النفايات، ورأى أمكنة تصلح للاختباء. ومرّ بقنوات طويلة جفّت مياهها ووصل الى رواق كُسيت ارضه بالآجر، أغراه منظره فولجه.

"ماذا تبغي يا عزيزي؟"

أمسكت الخادمة العجوز بالمكنسة وكأنها سلاح بتّار. وأضافت: "هل تبغي زيارة الصياد؟ حسناً. لقد مضى زمن طويل لم يزرنا أحد."

وسارت أمامه في أروقة مظلمة وأقبية كبيرة مكسوة بألواح من خشب السنديان. ثم فتحت باباً متيناً ظهر الصياد من خلاله منحنياً وراء مكتب ضخم.

وصرخ: "ماذا يفعل هذا الولد المزعج هنا يا امرأة؟"

فالتفتت العجوز الى الفتى مطمئنة: "لا تهتم يا عزيزي. تفضل بالدخول."

## الهدنة

جمد الفتى في مكانه معقود اللسان. فرؤوس القضاعات كانت تحملق فيه فاغرة الافواه. وبدت السنتها المدهونة جافة متشققة وعيونها زجاجية في محاجر محزّزة وأفواهها ملتوية. انهم هنا... صيادو الجداول الذين اختفوا... أسلاف لوط وأجداده وأقاربه. واستدار الفتى راجعاً والدموع تلسع وجنتيه.

وصرخ: "لقد قتلتها! هذا ما فعلته بالقضاعات!"

"اصمت، اللعنة عليك!" زمجر الصياد مادّاً يده الكبيرة القاسية ذات السبابة الناقصة. وتفادى الفتى اليد الممدودة بحركة سريعة وصاح: "لن أدعك تقتلني! لا تلمسني!"

– اهدأ يا ولد. نحن لم ننقذك لكي نقتلك.

"لقد قتلت القضاعات!"

مشى الصياد الى النافذة وهو يعرج، وخيّم على المكان صمت قصير قطعه الصياد: "السمّ مسحها من الوجود. المبيدات المستخدمة في الزراعة قضت عليها في سنوات قليلة. قرون انقضت والناس يصطادون القضاعات، ولم يشكل ذلك خطراً بابادتها. لقد قضت بسموم المواد الكيميائية."

– انك تختلق أعذاراً. أنت قتلتها!

"لا تشكّ بي يا فتى! أنت لا تعرف شيئاً. وكيف لك أن تعرف؟ فأنت متسكّع ولص زوارق." وجلس الصياد جامداً الى مكتبه، فهو ضحّى بنفسه من أجل أرضه التي تسرح فيها الغزلان ومن أجل اشراكه وضِفافه الملأى بالطرائد، وتحوّل ناسكاً معوزاً. ولطالما سعى اليه رجال بملايينهم الوقحة وقدموا اليه عروضاً في مقابل أرضه وقالوا انهم سيرشّون السموم ويستأصلون الآفات والحيوانات ويحوّلون الوادي مكاناً "كفيّاً"... لو باعهم أرضه. وهوى الصياد بقبضته على الطاولة وصرخ: "اياك ان توجه اليّ الاتهامات يا فتى! لو لم أصمد لانتهى الوادي كله. ليست القضاعات وحدها، بل الحيوانات البرّية جميعها. انني لست وحشاً!"

ودخلت الخادمة تحمل صينية. فخاطبها الصياد بغضب: "قدمي اليه القهوة."

وسأله الفتى: "اذاً، لن تؤذي لوط!"

– لوط؟

"القضاعة."

بدا الاهتمام في عيني الصياد المنتفختين: "أؤذي لوط؟ سأعقد معك هدنة. انما عليك أن تقوم بدورك. إذا عاد لوط فلن أؤذيه. أما أنت فتعود الى

المدرسة ولا تهرب منها ثانية. هل اتفقنا؟"

فكّر الصبي في القضاعة ورد كاذباً: "نعم، اتفقنا."

## جيل جديد

حلّ الربيع وزخر المساء باصداء غريبة. لذلك أتت الصيحة التي سمعت من بعيد مضللة للسمع. أحدثت الطاحونة أصوات صرير وقرقرة واقتربت الاسماك الصغيرة من سطح الماء وحط غراب على غصن يقضم مخلباً ويراقب الفتى بغموض.

جلس الفتى يأكل لوحاً من الشوكولاتة. لم يخبر أحداً بعزمه على مراقبة القضّاعة وهو بدأ الاختباء منذ اللحظة.

وخيّم الظلام على الوادي. شعور غريب استحوذ على الفتى. شعر بان القضاعة موجود في مكان ما قريب منه. لم يكن لديه أي إثبات أو دليل حسي، ولكن سرعان ما انشق الماء عن رأس عريض لامع. وكتم الفتى صرخة ترحيب عفوية.

لم يكن لوط وحده، إذ سرعان ما ظهر رأس صغير آخر. خرجت الانثى من الماء وانطلقت تشم الحشائش بنشاط وخفّة وصدرها الفضي يلمع. كانت رائعة ملساء ومتوحشة وفي وسطها امتلاء. وتوقفت قرب أزهار زرقاء كالابواق. وفكر الصبي: "سأسميهما لوط وباغل." وارتجف تأثراً، فصغار القضاعة ربما ملأت الجدول ثانية.

قادهما لوط بفخر واعتزاز الى مخبأه في عمق الضفة. كانت جدرانه الطينية جافة. وراحت باغل تقفز في الهواء وتحفر الارض بقائمتيها والفرح يغمرها. وغاب لوط برهة ثم عاد حاملا أوراق السرخس بين أسنانه وفرشها على الارض. وأخذت باغل تقفز بجذل فوق الفراش الحديث وتقحم الاوراق هنا وهنالك وتخر بسرور كالقطة. أخيراً انتهت المغازلة وسبح الذكر عائداً الى صخرة القضاعات. وهتف الفتى متهللا: "لقد نجحت يا لوط، انها ساحرة!"

لم تبد على القضاعة أي دهشة، بل نظر الى الفتى بعينين متفحصتين فيهما بعض تحفظ. وسارع الفتى الى طمأنته: "لا تجزع يا لوط، لن أزعجها. اني هنا لاحرسها."

ظلّ الفتى في مكانه يراقب المدخل ويحرسه في الايام التي تلت. ألا أنه لم ير باغل تخرج. وهو حين لمحها للمرة الاخيرة كان بطنها يكاد يلامس الارض وكانت متقلّبة المزاج. وكان لوط يخرج من وقت الى آخر ليصطاد في أعالي النهر. وذات يوم استبدّ بالفتى قلق شديد فزحف الى المدخل الخلفي وراح يسترق السمع. سمع صريراً خفيفاً. وكاد يقفز من شدّة الانفعال، وانسل عائداً. وما ان ابتعد قليلا حتى انطلق يعدو وينادي: "لوط! لقد خرجت الجراء!"

تكوّرت باغل في الظلام والجراء الثلاثة بفرائها الرمادي الناعم وعيونها المغشاة، ملتصقة ببطنها تنشج والنعاس طاغ عليها.

أرهفت باغل سمعها وظلّت يقظة متنبّهة. سمعت وقع اقدام تروح وتجيء في الدهليز المؤدي الى المخبأ. ورأت اشكالا لم تتبينها في الظلام. وعبق المكان برائحة الجرذان. أعناق غليظة امتدت نحوها. وتفجّر غضبها عنيفاً

فتشتتت الجرذان مذعورة. ثم ما لبثت جحافلها أن عادت من المدخل الامامي غير المحروس، تتقدمها جرذة مهزولة عجفاء راحت تتشمم ولعابها يسيل. فأحاطت الجرذان بالجراء وأمها من كل صوب. وتجهمت الجراء وراحت باغل تلتف وتدور كالدوامة.

وصل لوط والحجرة تعجّ بالجرذان. انقضّ على الأول وقصم ظهره. وتناول الثاني وكسر عموده الفقري. ولوح بالثالث في الهواء وقذف به الى السقف. ثم أمسك بالرابع وأجهز عليه. وحاول اثنان الفرار من المدخل الخلفي، فحوصرا بين باغل ولوط وقضيا في "المجزرة". أما الجراء فظلّت سالمة لم يمسسها أذى. وراح لوط يربتها بأنفه فيما وقفت باغل وفراؤها منتصب من شدّة الغيظ.

"ابق قريباً منا. فأنا والجراء في حاجة اليك."

## عودة اللصوص

اتسعت ابتسامة الفتى وهو يراقب الجراء ذات الاسابيع الستة تحبو خارجة من المخبأ بوجوهها الفطساء وعيونها التي بهرها منظر النهر وجعلها تطرف. ولاحظ أن أحدها، ذا الكرش المنتفخ، فيه شيء من غطرسة لوط وحبّه للعرض. فهو مثله كان يختال ويخطر في مشيته. وتقدّم القزم الحريري الملمس بضع خطوات قبل أن يسقط ويشغل نفسه بحك عنقه بمخالب كالابر. وما لبث ان نهض وسار مترنحاً الى ضفة النهر المفروشة بأوراق الشجر.

جمد الفتى في مكانه، فعلى بعد أمتار قليلة من المكان الذي ارتمى فيه الجرو كانت سمكة كبيرة خضراء من نوع الكراكي تحوم في المياه الضحلة. جزع الصبي، ومن دون وعي هرع الى الكرة المخمليّة الصغيرة. لكن باغل قطعت عليه الطريق وهي تزمجر وتكشّر عن أنيابها. فجأة سُمع صوت شيء يتحرك في الماء. وما لبث لوط أن قفز الى الصخرة حاملا انقليساً بين أنيابه.

وتوسّل الفتى: "بحق السماء يا لوط! أخبرها أننا اصدقاء." فنفخ لوط فيما اندفع الجرو الصغير نحو أمه وهو ينشج وذيله منتصب. أما هي فبصقت على الفتى للمرّة الثانية. ونتشت الشقي الصغير واختفت داخل المخبأ.

وتنهد الفتى: "النساء! انهن نزقات الطبع حقاً."

قصف الرعد وتجهمت السماء. وسمع الفتى صوت عجلات تقترب، والتصق بالارض عندما رأى الشاحنة متجهة نحوه. ومن خلال أوراق الشجر شاهد الرجلين يرميان علباً فارغة وأكياساً (نايلون) وبقايا أخرى في القناة. وسمع كلاماً متذمراً وتجشؤاً. ثم سمع الرجل السمين يقول: "حان الوقت لاصطياد قضاعة."

وأجابه شريكه الناحل ذو الوجه الاعجف: "لا تفكر في الامور الصغيرة. ان بيت الصياد يعجّ بالغزلان، والحرّاس عجوزان إحداهما داخل المنزل والاخرى في الكوخ الصغير."

ارتقت الشاحنة المدرّج بتثاقل. وما كادت تبتعد عن الحاجز حتى أطلق الفتى لساقيه العنان وراح ينهب الارض بين الحشائش والاشواك. وقفز فوق السياج

الذي يحوط بيت النوتي وهو يصرخ: "سيقتلان القضاعات وغزلان الصياد. ستحصل مجزرة!"

وأمسك به النوتي صائحاً: "دعك من القصص الخيالية. انك في مأزق مع الصياد ومع سيدة الانعاش. لقد كذبت ثانية. أنت وعدت بأن تصطلح. أنظر الى نفسك الآن، أنت هارب من دون إذن!"

– لم أكذب إلا لأخلّص القضاعات. يجب أن تساعدني. في حوزتهما سلاح، انها الحقيقة!"

تفحّص النوتي وجه الغلام بصرامة، فهو أيضاً رأى الشاحنة. ولم يكن أحد يتحرك في هذه الانحاء، وكانت غزلان الصياد في مكان مكشوف. وساوره الشك فسأله: "هل رأيت سلاحاً يا فتى؟ إن كنت تكذب..."

– رأيت بنادق صيد.

"حسنا، لكن عليك أن تقنع الصياد بما تقول. أنا لم أرَ سوى الشاحنة."

## معركة الصياد

جلس الثلاثة الى طاولة كبيرة يتشاورون. وقال الصياد متجهماً: "الصبي على حق بتحذيرنا. ونحن نحتاج اليه لانه يعرف الوغدين. لن أسمح لأحد باطلاق النار على غزلاني!"

فقال النوتي محذراً: "لن يكونا وحدهما، فهما سيصطحبان عصابة من المجرمين."

وزمجر الصياد: "اللعنة عليهم جميعاً!" واستلّ سيفاً كان معلقاً على الحائط وهزّه وهو يصرخ: "دعهم يأتون!"

منظر الرجل الشرس في سترته المرقعة سحر الصبي فكاد يحبه. فهو اكتسب الآن أبعاداً جديدة كقاهر للصوص، لولا انه بدا اكبر سناً من صورة البطل. وعلى رغم غضبه المتّقد فلم يرَ الفتى فيه الند الكفي للرجل السمين.

قال النوتي: "انه مجنون. انهم ليسوا أطفالا!"

– رعاع حقيرون! هل تظن أننا نحن لا نستطيع قهرهم؟

"نحن؟" رد النوتي وتابع: "بل أنت أيها السيد. فأنا والفتى لن نشاركك في هذه المعركة. دع الشرطة تعالج الموضوع!"

واعترض الفتى: "الشرطة بعيدة جداً، ولن يسعها أن تنتظر هنا ليل نهار."

ووافق الصياد: "انك على حق ايها الفتى." ثم تابع، وهو ينظر الى النوتي بغضب: "عند هذا الصغير الخامة المطلوبة، وأنا لا أتحمل المراوغين!"

وتطوع الفتى فقال: "يمكنني أن أراقب النهر. وإذا اتوا عبره فسأعلمكما." وارتسمت في ذهنه صورة الزورق السريع الجديد الرابض في مرأب الصياد. ثم تابع: "يمكنني أن أخفر الغابة كلها لو كان الزورق معي. وأنا قادر على تدبّر أمري فيه."

وسأله النوتي متهكماً: "كما تدبرت أمرك في الزورق الآخر؟"

وصاح الصياد: "اللعنة، إنه ذكي." وتوجه الى خزانة البنادق واختار واحدة ناولها للنوتي قائلا: "جرّبها يا رجل."

– ان كنت تعتقد أنني سأطلق النار على الناس فأنت مجنون أيها الصياد. سأتولى الحراسة، ولكن ليس بهذا السلاح."

أدرك الفسق الفتى وهو متوجه الى مرأب الزورق. وسمع صوت باب يصفق. وسرعان ما ظهر الصياد من مخبأه وهو يعرج.

وقال الصياد بصوت أجش وهو يضغط بقبضته الهزيلة البندقية تحت إبطه: "انك دقيق في مواعيدك أيها الفتى. فلننزله الى الماء." ودفعا بالزورق الى النهر فتلقفته المويجات.

وتابع الصياد وهو يتناول المجذافين: "اجلس في مؤخر الزورق أيها الفتى وافتح عينيك الثاقبتين جيداً."

– هل تعتقد أنهم سيأتون في هذا الوقت؟

"الغسق يلائمهم ويتيح لهم التسلل في الظلال. ولكن ليس في وسعهم أن يخفوا الشاحنة."

## لهو العائلة

كانت الغابة كثيفة حولهما. وجلس الفتى في المؤخر غارقاً في تأملاته. كان على قابي قوس من الوثوق بالرجل، ولكن منح ثقته هكذا لم يكن بالامر السهل عليه. أخيراً سأله: "هل ما قلته لي من أن القضاعات أبيدت بالسم صحيح أم انك اختلقته؟"

– يا ألله! الاختلاق من اختصاصك أنت! المبيدات قضت على القضاعات ولوثت الجداول وسمّمت الاسماك. لقد مُنع استعمالها ولكن بعد فوات الاوان.

"الن تصطادها بعد اليوم؟"

– كلا... اللعنة عليك... لن اطارد بعد اليوم سوى لصوص الغزلان من رعاة البقر الوقحين!

"سنوقفهم، أليس كذلك؟"

وصرخ الصياد بصوت اجش: "أسئلة حمقاء!" وبحركة تعوزها الرشاقة خلع سترته ودفع بها الى الصغير.

استلقى لوط قرب جدول صغير والجراء من حوله تصخب وتقفز مرحاً وتضرب الارض بأذنابها كأنها تنتقم من شيء ما. ثم انقضّت على سمكة نهرية حملتها اليها باغل، وراحت تنهشها بأنيابها الصغيرة حتى لم يبق منها إلا الذيل، فاختطفه أحدها وهو يهدر ويزمجر وحمله متشبثاً به بمخلبيه الاماميين.

لمعت عينا لوط وهو ممدّد باسترخاء. فتربية الجراء كانت مسؤولية باغل، واقتصر دوره على مشاركتها في اللهو من وقت الى آخر كلما عنّ ذلك على باله أو كلما سيطرت عليه شخصية المهرّج الساكن داخله. وراح يضرب الماء بذيله ويرش الجراء، فيما راحت هي تطارده مطلقة صيحات التهديد والوعيد بتبجج وعجرفة. وجاراها لوط في صخبها وجعل



يقرع الأرض بذيله، فجدّت في إثره. وتباطأ قصداً فأدركته، ولما أمسكت به تظاهر بالغضب.

ريح ضارية عصفت في الوادي سبقتها روائح وأصوات. وانتصبت باغل على قائمتيها الخلفيتين واخذت تنادي جراءها. وحان وقت العودة الى البيت، إلا أن الجراء استمرت في اللعب. واشتدت الريح وازداد صوت باغل حدّة. وزمجرت العاصفة وتلاطمت الامواج وشعر لوط بالخوف الذي استبدّ بشريكته. فاندفع يستعجل صغاره وهو يهدّد ويتوعد. وغمرت مياه النهر الضفة وملأت الصدوع والشقوق وهي ترغي وتزبد، فيما تسلق جروان الضفة وجلين مذعورين.

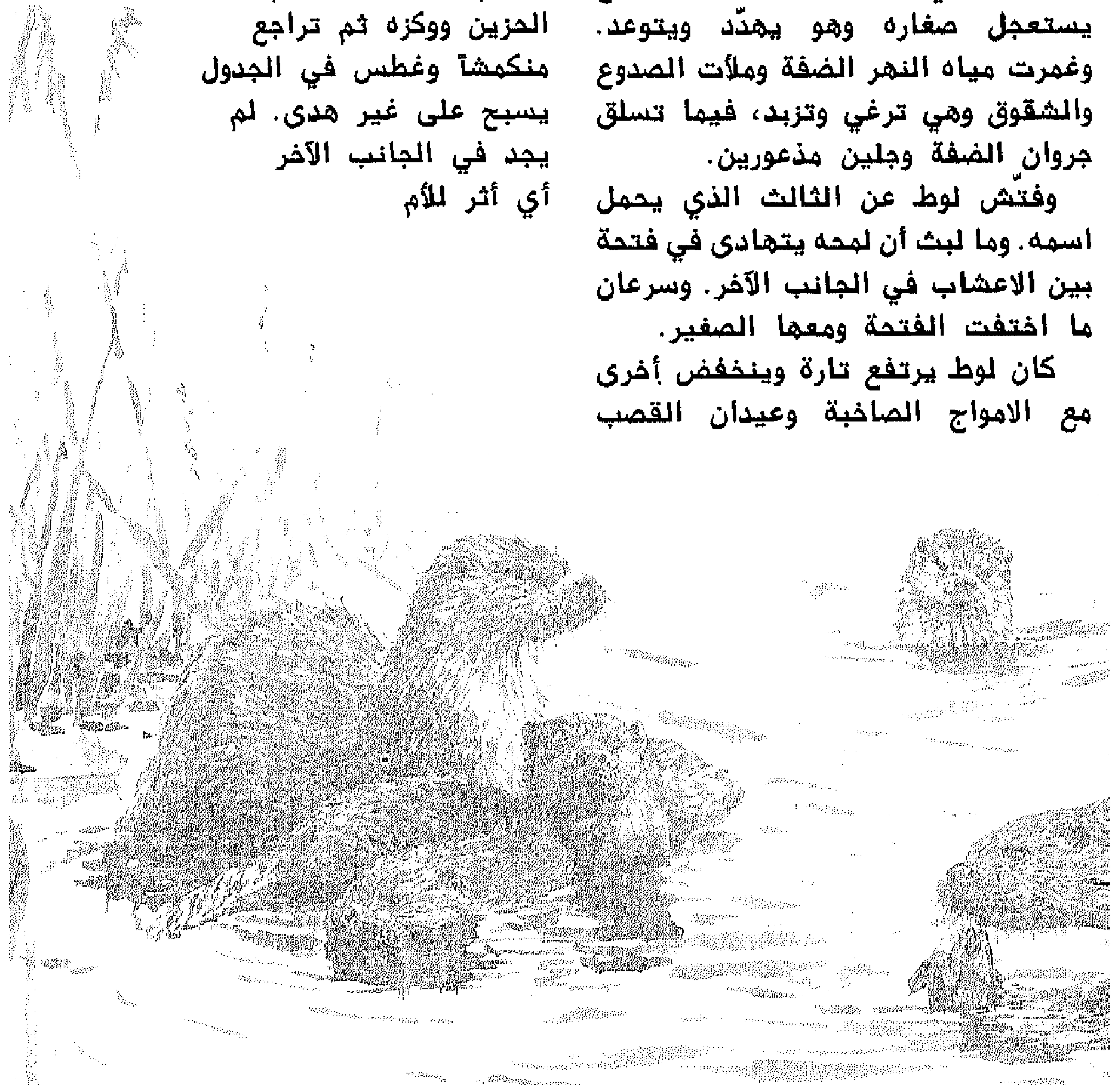
وفتّش لوط عن الثالث الذي يحمل اسمه. وما لبث أن لمحه يتهادى في فتحة بين الاعشاب في الجانب الآخر. وسرعان ما اختفت الفتحة ومعها الصغير.

كان لوط يرتفع تارة وينخفض أخرى مع الامواج الصاخبة وعيدان القصب تتطاير حوله. وتوجّس شراً من تلك العاصفة وشعر بخطر داهم، فتابع طريقه بين الادغال والفرو حول رقبته منتصب ككلب وحش غاضب.

## الموت

انطرح لوط الصغير فوق العشب على نحو غير طبيعي، كومة جامدة من المخمل المبتلّ على عشب سحقته الاقدام، محطّم الجمجمة مكسور الظهر.

وتقدّم لوط من الجسم الحزين ووكزه ثم تراجع منكمشاً وغطس في الجدول يسبح على غير هدى. لم يجد في الجانب الآخر أي أثر للأم



والصغيرين، والمخبأ كذلك كان خالياً.

ما حصل هو أن باغل ساقت صغيريها أمامها في اتجاه المخبأ قرب صخرة القضاعات. وما لبث أن برز أمامها شكل بشري متكىء على جذع شجرة، انه انسان بدين يبعث منظره الرعب في النفس يتحرك في اتجاهها. فجذبت الصغير الأقرب اليها وانطلقت تعدو فوق الاعشاب والخنادق الى أن بلغت قناة قريبة. ولما عادت الى المخبأ كان صغيرها الآخر اختفى.

"باغل!"

استدارت على عجل مكشرة عن أنيابها. فرأت الفتى ينزلق في الجانب الآخر من الجدول. "انه لوط الصغير يا باغل!" ونفخت متذمرة على رغم الارتياح الذي شعرت به، فهي تعلمت ألا تخاف الفتى، لكنها الآن لم يكن لديها متسع من الوقت له، ثم ما لبث لوط أن وصل مع التيار وحيداً مضطرباً.

وصاح الصبي وهو يرتجف: "ما الذي حصل بحق السماء؟ لقد نفق لوط الصغير، والجرو الثاني مفقود. سآتي بالزورق."

اسرع في اتجاه الزورق وأنزله الى المياه وبدأ يجذّف. ثم نادى: "تعال يا لوط. أنت يمكنك ان تعثر عليها." فالجرو المفقود كان أنثى عُقدت عليها آمال كبيرة. وسبح لوط قرب الزورق وهو يرتفع وينخفض مع الامواج. ومن غريب الامور أنه بدا غير مكترث، وربما كان ذلك من هول الصدمة. غير أن الصبي استمر في البحث علّه يجد أثراً للجرو يقتفيه. إلا أن الآثار التي رآها في الوحل لم تكن آثار قضاعة، بل آثار طيور البط والطيطوى.

أخيراً ربط الفتى الزورق وتسلق المنحدر الى الطريق خلف الطاحونة التي حجبتها الاشجار. اقترب من البناء برفق ودفع الباب الكبير فانفتح. وفي الظلام بدت الشاحنة التي علاها السخام ضخمة جداً. وسمع أصواتاً فأختبأ. اربعة رجال جلسوا على صناديق في الخارج وهم يقطعون الانتظار بالحديث.

"لم نأت الى هنا للرياضة،" قال عامل النقل الذي يشبه وجهه وجه ابن عرس، "نحن هنا الليلة من أجل غزلان الصياد وليس من أجل القضاعة."

فنهره الرجل البدين وهو يلقي بعلبة الى الماء. "كفّ عن مضايقتي. ألم اقل انني سأحصل على قضاعة؟ ان لها ثمناً غالياً هذه الانثى الجميلة!"

وقال أحد الرجلين الآخرين: "ستنفق قبل ان تستطيع بيعها."

– لن تنفق قبل ان أبيعها وأقبض ثمنها.

تلوى الصبي في مكانه وهو يتصبب عرقاً فيما تابع البدين كلامه: "كانت ثلاثة. نهشني الاول فألقمته ضربة هشّمته وحملت الآخر معي."

ومن صندوق خشبي صغير بالقرب من الرجل البدين خرجت أصوات خربشة وحفر بالمخالب. كان الصوت ضعيفاً انما فيه اصرار. ونظر الرجل البدين الى الصندوق وركله برجله فتوقفت الخربشة وقال: "لا تزعجيني وإلا ضربتك بالجزمة!"

صعد لوط الى السطح في مكان يبعد قليلا عن بركة الطاحونة. ووصل الفتى لاهثاً وقفز الى الزورق وانطلق على عجل وهو يتكلم: "لقد أمسكوا بالجروة. انهم

أربعة رجال. ولا يمكننا ان نسترجعها وحدنا، عليّ أن انذر الصياد."

## مشاجرون وأنصار

اتكأ الصياد العجوز على بندقيته ومعه الفتى والكلب الهرم. ومع افول النهار قطّب حاجبيه وهو يشعر بألم في عينيه.

- هل انت متأكد من أنها الليلة؟

أومأ الفتى برأسه ايجاباً.

- إذاً انتبه جيداً يا بني.

وهمس الفتى: "ربما، انما هناك أربعة منهم."

- لصوص رعاع ملعونون! لقد خضت غمار حربين. هل تعتقد أنني غير قادر على مواجهتهم؟

وران صمت قطعه الصياد قائلا برفق: "سنحتفل في وقت لاحق. انك في حاجة الى سقف فوق رأسك. وفي المنزل غرف كثيرة. يمكنك أن تمكث هناك."

فهمهم الفتى: "سيجدونني، جماعة الانعاش."

- لن يأخذوك مني ايها الفتى. دعهم يحاولون! سوف... سوف أتبناك.

زلق لسانه من دون قصد. غير أن الفكرة راقته فتابع: "أنت تحتاج الى بيت، وسيكون لك قضاعتك." وبعد تأمل قصير أضاف بصوت أجش وحنان ظاهر: "سيصبح عندي من أصطاد معه. كيف ترى ذلك يا فتى؟" دم جديد في البيت القديم وفتى يشبّ في الديار.

- هل ستفعل ذلك حقاً، فيصبح لي منزل على النهر؟

"انه امر مناسب أيها الصغير." فجأة ظهر توتر على الصياد وزمجر الكلب وهدر: "ما هذا؟"

بدت غزلان الصياد في البعيد ظلالا ونقطاً. ولم ير الفتى سواها. وكانت الافكار تدور في رأسه. هل يسكن مع الصياد؟ في بيته؟ حاول أن يفكّر جيداً.

فجأة لمع شيء في الظلام، ربما ماسورة بندقية. ثم رأى الفتى طيفاً منحنياً تبعه ثان فهمس: "هناك في الغورا انهما اثنان. لا، ربما ثلاثة. لن تمكنك رؤيتهم قبل أن يخرجوا من بين الاشجار."

- اذاً سأنال منهم، فهم حيث أريدهم!

"انهم أربعة."

– العدد لا يهمّ. اسمع يا فتى. الآن يمكنك أن تعدو وراء تلك الايكة فتصل الى البيت من دون أن يراك أحد.

"لكنك في حاجة الى مساعدة."

– اذهب، هيّا.

تنفّس الصبي الصعداء وقد أخجله شعوره بالفرج. إلا انه انطلق يعدو الى كوخ النوتي. وقرع الباب وهو يلهث.

"هل انت بخير يا فتى؟"

– الرجال يتسلقون المنحدر الآن والصياد وحده. سيقتلونه.

"يلزمهم أكثر من ذلك لقتل الصياد مسبّب الحروب."

وبصق النوتي وهو يتقدّم الفتى الى الكوخ: "الامر كما هو لم يتغيّر منذ أجيال. أمثاله يدخلون شجاراً وأمثالي ينضمون اليهم. كلّنا مجانين! انه لا يملك حبتي فاصولياء يأكلهما، لكنه رفض عروضاً بالملايين ثمناً لأرضه!"

خرج النوتي من السقيفة حاملا مذراة واستدار نحو الصبي وخاطبه بصلابة: "سأعود للحال، ولا أريدك معي!"

هذه المرّة لم يشعر الفتى بأي خجل، فمهمته كانت واضحة في ذهنه. شعر أن الوقت دهمه فانطلق يعدو بين الاعشاب يعلق بين سيقانها تارة وتخدشه الاغصان طوراً. وجعل يخوّض في الماء على غير هدى.

## الانقاذ

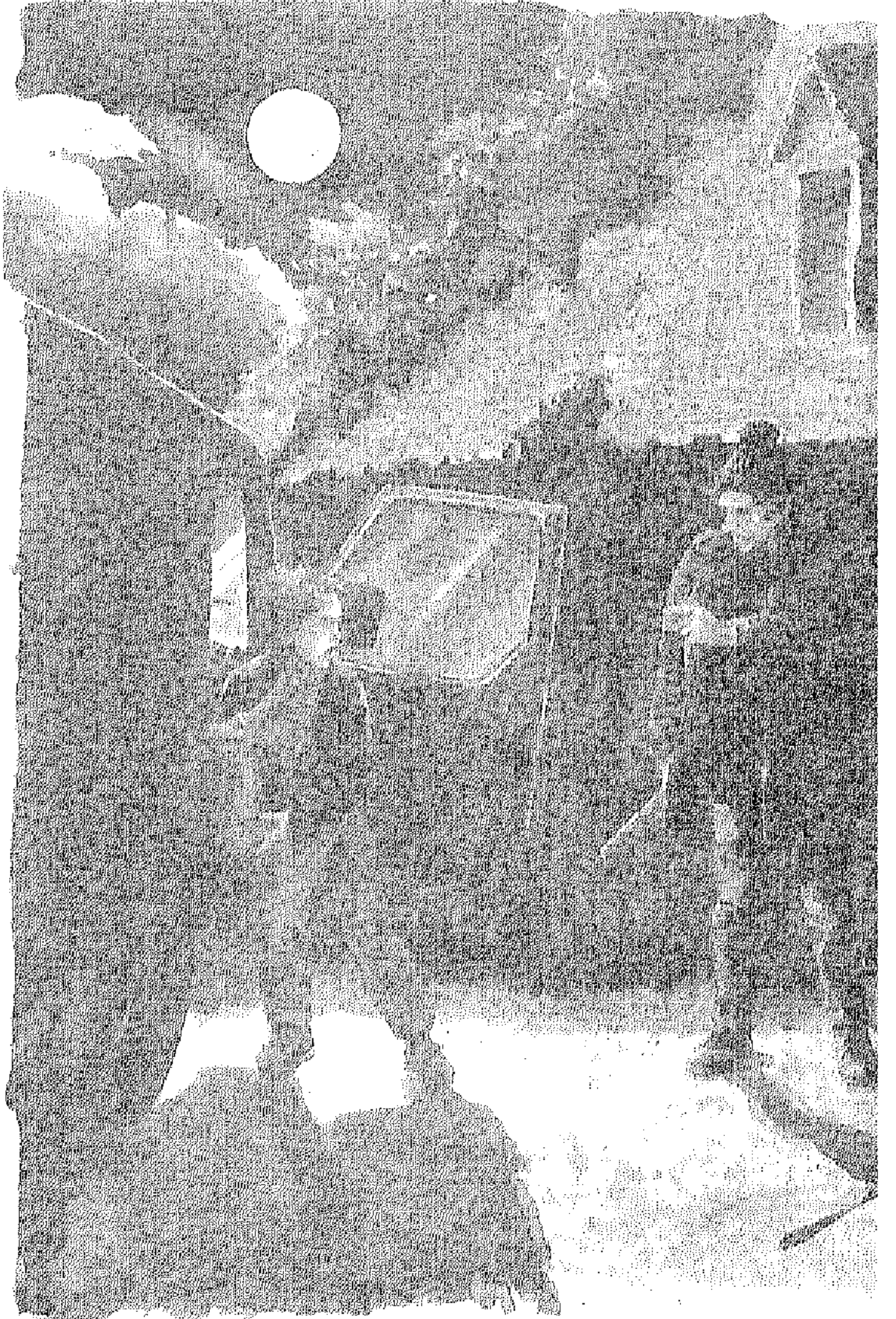
تكوّرت الاسيرة الصغيرة على نفسها وأنفها ملتصق بذيلها، وراحت تنشج وهي ترتجف. وكانت حفرت في الخشب حتى سال الدم من مخالبها. وتاقت الى أمها بكل عرق فيها. وعندما افاقت دسّت أنفها في احدى الزوايا مستكشفة. ولاحظت تقوساً طفيفاً في الخشب فراحت تحفره بمخالبها الامامية حتى لان وظهر فيه صدع صغير، فتشجعت واستمرت تحفر وتخدش.

وجمدت في مكانها إذ برز رجل من خلف الطاحونة وقذف بعلبة الى الماء. ونادى اللصوص الذين طالت غيبتهم: "هيا!" كان دوره في العملية أن ينطلق بالشاحنة لدى سماعه اطلاق نار. ولم يطل وقوفه فعاد الى الطاحونة. وتابعت القضاعة الصغيرة الحفر. وسرعان ما تحوّل الشق كوّة للمراقبة أتاحت لها رؤية البركة التي عذّبها منظرها. واشتدّ صراخها وعلا وراحت تضرب كوةّ المراقبة بعنف. فجأة ظهر من البركة رأس عريض يقطر الماء من جبينه الشرس، وجال ببصره على الضفاف مستكشفاً.

بحركة سريعة صامتة وصل لوط الى الصندوق وأنشب فيه أنيابه. فاتّسع الشق وانتعشت آمال الصغيرة القابعة في الداخل وراحت تكدح بدورها. ومرّت دقائق طويلة ولوط يعمل الى ان سمع وقع أقدام روّعته فاختبأ. واخذ الرجل يتنقل خلف الطاحونة. في تلك اللحظة التقطت أذنا لوط صوتاً جاءه من مكان قريب.

"لوط!" همس الفتى من مكان على الضفّة: "ابق في الماء وأنا سأطلقها."

جد الفتى في البحث بين الصناديق ثم تنهّد يائساً: "لقد نقلها من مكانها!" وتقدّم ببطء الى ساحة الطاحونة يتنقل بخفّة من ظلّ الى آخر حتى وصل الى الشاحنة وفتح الباب قرب مقعد السائق.



يعدو صوب النهر والرجل في إثره. وتناول حجراً من صوان وانهال على الصندوق. وما ان انفتح حتى أماله. وفي لحظة خاطفة كانت الجروة في الماء حيث وجدت لوط في انتظارها. وارتمى السائق على الفتى الذي أفلت منه وغطس في الماء وراء القضاعتين سابحاً مع التيار تحت الماء بكل ما اوتي من قوّة.

## صيادا الاوغاد

وقف النوتي في مواجهة التلال وقد رأى شكلا بشرياً يقفز بعياء من أجمة الى دغل. ثم سمع طلقة نارية. كان ذلك الرجل المخبول يطلق النار في الهواء. واستعدّ النوتي وصوّب المذراة وكأنها بندقية.

"اين هم؟"

– في الوادي. ولقد أحرقت آذانهم. الشحاذون. أطلق النار وأمشي. هذه هي الخدعة التي تجعلهم يعتقدون انهم في مواجهة حامية.

"لا تطلق النار ايها المجنون. فليست لديك من الذخيرة ما يكفيك لجولة أخرى. وفي أي حال لقد تسببت في تشتت الغزلان. وربما هي الآن خارج نطاق الخطر خلف المبنى. لا تحدث صوتاً ودعنا نؤويها."

وزمجر الصياد: "قلت لك انهم في الوادي. لقد تـأخرت. اللعنـة!" ثم "خرطش" البندقية. صحيح أن الغزلان

وهناك في المقعد الآخر استقر الصندوق فنتره الفتى من مكانه فيما انبعث منه صوت كالصرير.

كان الصندوق متيناً فراح الفتى يبحث عن مخل لينزع عنه الغطاء. وفجأة طلع القمر وغمر نوره الباهر البناء والساحة وظهر الرجل بوضوح ليكتمل هلع الصبي. وللوهلة الاولى أجفل الاثنان، ثم سُمع صوت طلق ناري بعيد.

شدّ الفتى الصندوق الى صدره وانطلق

كانت في مأمن، إلا ان دم الصياد كان فائراً. "سننال منهم، أولئك الشحاذين!"

حاول النوتي أن يكبح جماحه، لكن الصياد جعل يدور كالدوامة.

- اهجم أيها المجنون العجوز!

"لا يمكننا حتى أن نراهم!"

وقف الاثنان ينعمان النظر في الأجمة حولهما: رجلان هرمان يحمل احدهما بندقية صيد والثاني مذراة. وتقدم الصياد وتذمّر النوتي، لكنه تبعه والمذراة في يده كالعصا الرامحة. فجأة سمعت أصوات اغصان تتكسر وصاح الصياد بابتهاج وتبجج: "بحق السماء، انهم يفرّون كالارانب! دعنا نمطرهم بوابل من الخردق!"

- دعهم يرحلون. اني ذاهب الى البيت، والفتى في انتظاري."

- لن تتمرّد الآن! الفتى في مأمن في بيتي.

"انه في كوخي."

- أتعني أنه ذهب الى الزورق؟ تباً لهذا الولد الشقي. أترى كيف يعمل عقله الملتوي؟ القضاعة الملعونة! لقد خدعنا بمظهره الكاذب وذهب الى النهر. سيلتقي الاوغاد وجهاً لوجه. هل تأتي معي؟

"اجل أيها السيد."

راحت الصغيرة تخوض في الماء بشجاعة ولوط وراءها يستحثها. ثم غطس في الماء وصعد الى السطح حيث كان الصبي يسبح.

كشر الرجل البدين وعبس، فالليل مضى وهو ورفقاؤه أخفقوا في ما أتوا من أجله اخفاقاً ذريعاً. فالغزلان لم تعد في متناولهم، والاعيرة الناريّة التي أطلقت في الظلام جعلت الفوضى تدب في صفوفهم. غير أنه ما لبث أن رأى شيئاً يبرز فجأة على سطح الماء. ورفع البندقية واستعد.

للمرّة الثانية برزت الى سطح النهر ثلاثة أشكال ملساء مسطحة. قضّاعات ثلاثة كانت تسبح في الماء. وسدّد الرجل البدين بندقيته الى كبيرها وأطلق النار.

وخرجت الصرخة من رفيقه الهزيل الذي اندفع الى الامام: "يا الهي! انه ولد! ولد يسبح!"

ونهره الرجل البدين: "انه قضاعة."

- أنا رأيته! لقد أصبته وغاص في الماء.

سبق للرجل البدين ان قتل طيوراً وحيوانات أخرى، لكنه لم يقتل اولاداً. وألحّ بصوت خشن: "أنه قضاعة. وفي أي حال أنا لم اكن هنا. لا أحد منّا كان هنا!"

## عودة القضاعات

تدفق المطر غزيراً وغمرت المياه المكان.

وأخذت الصياد سورة من الغضب وحملق في الروافد الخشبية القديمة في سقف الكوخ المهجور الذي كان الفتى يأوي اليه أحياناً وراح يصرخ: "انه طفل! اين هي العدالة؟ كان طفلا واعداً بمستقبل..."

وبكى النوتي: "لماذا يرحل الآن؟ لقد عاش من اجل ذلك القضاعة."

- كان علينا ان نسلّمه، تباً له."

"ونخونه؟"

– من أجل حمايته يا رجل.

"كان من الممكن أن نروّضه نحن الاثنين. انما الآن فات الاوان." ووقف الاثنان كأسدي بحر هرمين ومعطفاهما يقطران ماء: "هكذا هي الحال معنا. دائماً متأخران."

ورد الصياد: "ربما، لكن يجب ألا نفقد الامل."

"ايها الصياد!"

كان ذلك في اليوم التالي، وكان الصياد ما زال يبحث. فهو لم يفقد الامل. ودنا الصوت وللمرة الثانية سمعه الصياد: "ايها الصياد، لقد عاد الفتى!"

وقف الصياد يحك جدعته وهو يرى الخادمة العجوز قادمة اليه وهي تلهث: "هل تسمعني ايها الصياد؟ لقد ظهر في بيتك! لقد عاد!"

– ذلك الولد الشقي؟ وطفرت الدموع من عينيه ولم يجرؤ على تصديق العجوز التي ردت: "نعم، ولو ترى في أي حال!"

– سأسلخ جلده! ما الذي فعله؟

"كان مختبئاً كل ذلك الوقت. لقد أُطلقت عليه النار."

– هل هو مصاب؟

"ليباركك الله، كلا. لقد اخطأته الرصاصة وهو الآن في الحمام."

– هو في الحمام؟

"وردي اللون كالطفل."

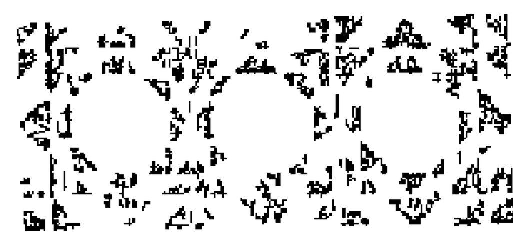
ولاح طيف ابتسامة على شفتي الصياد وقال: "في الحمام؟ سأقطع أذنيه!"

في صباح اليوم التالي لبدء هجرة الانقليس الجماعية، وقف لوط على صخرة القضاعات ينادي باغل. كانت القضاعات، كبارها وصغارها، تسبح حول الصخرة واجسادها تتماوج. وكانت في الجميع تخمة. راحت تدور باندفاع وصخب ويقفز الواحد منها فوق ظهر الآخر والدوائر في الماء تكبر والمويجات تطوق المنصّة الصخريّة. وانطلقت شخصية المهرّج الساكن في كل قضاعة، وراح الجميع يهزج بحيوية لا تعرف الوقار. وأخيراً استلقى لوط قرب باغل ووكز الانثى ذات الفراء الاملس، فردّت بعضّة في عنقه فيها حنان وعاطفة.

انه سلطان المستنقعات وسيد جدول الانقليس. تمدّد لوط وفي رأسه شيء من رؤوس النمور، وراح يرتد الى الجراء التي كانت تقذف حبة بلوط في الهواء ثم تتلقفها وهي تروح وتجيء.

لقد عادت القضاعات الى المستنقع.

آلان لويد ■



## حجة الكسول

يعترف أحدهم بأنه شديد الحساسية لجهة جز العشب أمام بيته ويقول: "إني أتوق الى يوم يقبض على كل من يعمل في فناء بيته، بحجة تشويه البيئة."

كتاب الشهر



ملخص من كتاب
بقلم جون بيكاسن

# أزهار من أجل ليزا



# أزهار من أجل ليزا

**كانت عائلة كيلي في غرفة الانتظار في المستشفى عندما تلقت النبأ المفجع. فحادث السيارة الذي تعرّضت له ابنتهم ليزا تسبب في تحطم جمجمتها وجعلها في حال وفاة دماغية. وعلى رغم هول المصاب، قررت العائلة ان تهب كلية ليزا لمن له حظ في الحياة.**

**احد المستفيدين كان طفلا في الثالثة من عمره اسمه ماثيو، أجريت له عملية زرع للكلية التي تلقاها من ليزا. وهذه قصة كفاحه الشجاع ضد خطر مزدوج: العدوى الجرثومية، والمحاولات المتكررة لجهاز المناعة لديه لإتلاف الجسم الغريب**

في تلك الليلة الباردة من شهر مارس (آذار)، تجمعت الغيوم في سماء غاب قمرها واكفهرّ الجو منذراً بمطر غزير. وقد شعرت الفتاتان بالريح تصفع وجهيهما وسمعتاها تعصف بين الاشجار والحشائش.

راحت ليزا كيلي، وهي فتاة دقيقة الحجم رشيقة الحركة، تنتقل بسرعة في الظلام ومعها صديقتها جون. وكانتا

تسيران على حافة طريق ريفية ذات خطين تؤدي الى سوق تجارية تبعد عنهما اقل من كيلومتر. وكانت اواصر صداقة حميمة تربط الفتاتين. فكلتاهما طالبتان في الصف الماقبل الأخير في المرحلة الثانوية وهما اعتادتا ان تمضيا ليالي السبت معاً.

قالت ليزا: "لن نذهب الى اي مكان سيراً على الاقدام بعد اليوم، فالاسبوع المقبل ستكون لي سيارتي الخاصة."

"الحمراء؟" سألتها جون.

- نعم، وهي بليموث ٧٦.

وبصوت علا على صوت الريح، صرخت جون: "أكاد لا اقوى على الانتظار."

وبفضل عمل جزئي، استطاعت ليزا ان تدخر مبلغ ١٥٠٠ دولار. وهي كانت توجهت الى والدها في وقت سابق من ذلك المساء وراحت تلاطفه وتعانقه حتى انتزعت منه وعداً بمرافقتها يوم الاثنين لشراء السيارة. وقالت له: "سأكون سائقة محترزة، سوف ترى."

ابتسم لها والدها وقال: "اعرف هذا يا عزيزتي."

في السابعة عشرة من عمرها كانت ليزا صارخة الجمال واجمل ما فيها عيناها الزرقاوان اللتان كانتا تشعان وداعة ورقة. اما شعرها الاشقر الطويل الذي ينساب حول وجهها بانوثة وسحر فقد كان في تلك الليلة يتمايل مع الريح وهي جادة في سيرها.

اقتربت الفتاتان من محطة للوقود تحوطها حوانيت صغيرة عند تقاطع طريقين ريفيتين معبدتين يكتنفهما الظلام. ولم يعد يفصلهما عن السوق سوى مئتي متر. على ان اجتياز ذلك التقاطع لم يكن بالأمر السهل على رغم وجود اشارة ضوئية.

وكانت ليزا ترتدي سروالا من قماش الجينز وسترة زرقاء ذات قلنسوة متصلة بها وتنتعل قبقاباً خشبياً جعل قدميها تطرطقان على الرصيف. وقالت لها جون: "انك تبدين مثل حصان يخب."

بلغت الفتاتان التقاطع وحدقتا الى الظلام مستكشفتين الطريق وعندما تأكدتا من خلوها من العربات تقدمتا الا انهما فوجئتا باضواء مصابيح امامية لسيارة ظهرت من المجهول. فاندفعتا فراراً من الخطر الداهم لكن قبقاب ليزا اعاق تحركها فيما نجحت جون في الوصول الى الجانب الآخر وراحت تستعجل صديقتها الخطى، لكنها ادركت حين رأت السيارة تنزلق مندفعة في اتجاه ليزا التي شلت قواها، ان صديقتها لن تنجو منها وهي كانت على بعد متر احد من حافة الطريق عندما صدمتها.

"يا الهي، يا الهي!" صرخت جون وهي تنتحب وتستغيث. وما لبث الليل من حولها ان امتلأ بالاصوات التي تنبىء بالأزمات. فقد سُمعت اولا صفارات الانذار وفرق الانقاذ وسيارات الاطفاء والشرطة ثم هدر محرّك مروحية اسعاف تابعة لشرطة الولاية حومت فوق المكان قبل ان تحط في موقف للسيارات.

لفّت جو لسلي بقايا الفروج المشوي في الالمنيوم وحشرته في الثلاجة فيما راح صديقها ريك يساعدها في صف

الاطباق في الجلاّية. وضغطت جو زر التشغيل والقت نظرة سريعة على ساعة الحائط التي كانت تشير الى العاشرة مساء. كان يوماً شاقاً بالنسبة الى جو.

كانت جو امرأة مطلقة في الحادية والثلاثين من عمرها ذات شعر بني ينسدل حتى كتفيها وعينين بلون البندق تخفيهما وراء نظارتين طبيتين ووجه دقيق جذّاب ينمّ عن حيوية فائقة.

وكانت تلقت تدريباً في المركز الطبي في جامعة ديوك بدورام في ولاية كارولينا الشمالية لتصبح مساعدة طبيب. لكنها خلال الاشهر الاخيرة شغلت منصب مديرة بالوكالة لمركز بلتيمور الكبرى لتأمين الاعضاء البشرية وحفظها وهو منصب يتطلب عملا شاقاً ومرهقاً. وهي امضت الليل الفائت في عملية استقبال وتسلّم لكلية آتية من ولاية كارولينا الشمالية، لذلك كانت تتطلع تلك الليلة الى امسية هادئة في المنزل.

وما كادت تستقر في ركن مريح في غرفة الاستقبال حتى رنّ جهاز الاستقبال الالكتروني لديها. فانطلقت الى الهاتف مستطلعة الامر فبادرتها الممرضة في مستشفى جامعة ميريلاند: "يستحسن ان تحضري يا جو."

- ماذا حدث؟

"إصابة في الرأس لشابة وصلت بالمروحية قبل عشرين دقيقة."

- سأحضر في الحال.

استدارت جو الى ريك وهزّت كتفيها فاجابها بالمثل، فهو متفهم ويعرف ان استدعاءها على هذا النحو المفاجيء جزء من عملها.

كان السير خفيفاً كالعادة مساء ذلك السبت وجعلت سيارة جو "الفولكسفاغن" ترتجّ فوق الحفر التي خلفها الشتاء القاسي. وما هي الا دقائق حتى كانت في الساحة الخلفية للمستشفى. حيث اوقفت سيارتها تحت إشارة "موقف طوارىء خاص بفريق الزرع الطبي."

دخلت المصعد وتوجهت فوراً الى مكتبها في الطبقة السادسة. وعلى عجل ارتدت المعطف الابيض الخاص بالمختبرات ثم هبطت ثلاث مجموعات من السلالم وصولا الى القسم الخاص بإدخال إصابات الصدمات والرضوض. وهي كانت تعمل ضمن فريق مهمته تقويم صلاحية انسان مشرف على الموت للتبرّع بواحد او اكثر من اعضائه ثم مفاتحة عائلته بالموضوع من أجل الاستحصال على إذن منهم. ولطالما اجتازت جو تلك الاروقة المؤدية الى ذلك القسم في ساعات الليل المتقدمة خصوصاً في عطل نهاية الاسبوع حين تكثر حوادث السير القاتلة. كان عملها صعباً ودقيقاً.

## لا امل

عندما دنت جو من هذا القسم ألقت نظرة على الصندوق المضاء المعلّق على الحائط خارج غرفة الاستقبال ورأت فيه صورة اشعة يظهر فيها الشكل المستدير الابيض لجمجمة بشرية. في الحالات الطبيعية يظهر البياض متكاملا املس وصقيلا بخلاف الصورة التي شاهدتها والتي تخللت بياضها خطوط غامقة بدت كالانهر في صورة لمنظر طبيعي التقطت من بعيد. وادركت جو ان صورة الاشعة

كانت تشير الى الاسوأ: كسور عدة في الجمجمة التي بدت كقشرة بيض.

انها صورة جمجمة ليزا كيلي.

في غرفة المعاينة، احاط الاطباء والممرضات بليزا وراحوا يعملون بلهفة محمومة لانقاذها. كانت كلماتهم مقتضبة واصواتهم منقبضة وعيونهم وايديهم تتحرك بسرعة وليزا ساكنة لا تتحرك، ومن حولها وسائد وضمادات تمنع الاختلاج العضلي اضافة الى كمادات وادوات معقّمة واجهزة اوكسيجين وتنفس وإنعاش.

ورفض أحد الاطباء الشباب ان يستسلم لليأس وسأل عن مؤشر غاز ثاني اوكسيد الكاربون. على ان مسحة الحزن التي بدت على ملامحه انبأت جو بانه كان يعلم انه سيخسر امام قسوة الموت هذه المرة.

ويقوم نظام المعالجة من الصدمة على السرعة والمبادرة وهو مصمم على هذا الاساس. فالاستسلام ممنوع قبل التأكد بشكل قاطع من ان الوفاة محتومة. والجهد الانقاذي الذي بوشر في مكان الحادث توبع حالما أنزلت ليزا من المروحية. ولقد لجأ الاطباء الى جميع الطرق والاساليب المعروفة لانقاذها. فمن العقاقير الى انابيب العروق الى التهوئة الفائقة.

والمؤشران المشجعان الوحيدان كانا ان بؤبؤي عينيها ظلا يستجيبان للضوء وان مؤشراتها الحيوية ظلّت ثابتة. على ان الورم في دماغها أخذ في الازدياد وبلغ درجة بات التخلص منه متعذراً.

ومرت الدقائق فاستدار احد جراحي الاعصاب في اتجاه جو وقال لها: "يبدو انها ستحال عليك." قالها بصوت منخفض. وتلك كانت لغة الموت. فردت:

"هذا ما قدرته عندما رأيت صور الاشعة." ثم سألت: "هل وصلت عائلتها؟" فاجابها:

"انهم في الطريق الينا." واضاف: "سوف اكلمهم في الموضوع".

دنت جو من ليزا، فرأت امامها شابة على عتبة الحياة مستعدة لخوض تجاربها حتى النهاية، لكن تلك الفرصة ولّت.

نظرت جو الى الكيس البلاستيكي الصغير الذي يتدلى من كعب السرير الذي رقدت فيه ليزا. كان البول في داخله صافياً مما يدل على ان كليتيها تعملان طبيعياً.

## ابنة بالتبني

خرجت جو الى الرواق وهي تعرض في فكرها اجواء اللقاء مع اهل الفتاة. ومثل تلك اللقاءات لم يكن من السهل التنبؤ بنتائجها. فحدث مرة ان أغمي على والد فتى مراهق وانهار امامها. ومرة أخرى هجم عليها شقيق شاب مصاب بطلق ناري. لم تكن لديها اي فكرة عما سيؤول اليه لقاؤها وعائلة كيلي.

فور تبلغهم النبأ تجمع افراد عائلة كيلي، وهي عائلة كبيرة متماسكة، وهرعوا الى المستشفى. وصل يوجين مع ابنه تومي البالغ عشرين عاماً. اما زوجة يوجين لويز، فكانت توجهت الى هناك برفقة مورين احدى بناتهما المتزوجات التي تقطن في الجوار. واخيراً وصل دونالد والتقى الجميع في المستشفى ما عدا إلن

التي كانت خارج المنزل ولم تعلم بالحادث الا لاحقاً.

كان المستشفى يبعد مسافة ساعة بالسيارة عن منزل العائلة الانيق والمريح والذي بناه يوجين كيلي بنفسه، وهو نجار في التاسعة والخمسين. وفي الطريق الى المستشفى طافت صور لليزا امام عينيه. فقد رآها طفلة ثم شابة. وحاول جاهداً ان يتشبّث بالامل.

اما لويز، فجلست في السيارة مع مورين وعجبت لسخرية القدر فهي ظنت ان همومها لن تبدأ قبل يوم الاثنين حين تكون ليزا اشترت السيارة.

ازدحمت صور ليزا في مخيلتها ورجعت لويز بذاكرتها ١٤ عاماً حين عرفت ليزا للمرة الاولى طفلة في الثالثة من عمرها انتزعت بأمر قضائي من والديها اللذين كانا يسيئان معاملتها وخصوصاً والدتها التي كانت تعاني عدم استقرار واضطراباً عاطفياً. وبما ان عائلة كيلي درجت على استقبال الاطفال والعناية بهم فقد عهدت اليها محكمة الولاية في رعاية ليزا وتربيتها. ولم يكن أحد ليحسب ان ليزا لم تكن ابنتهما الحقيقية نظراً الى الاواصر القوية التي كانت تربط بين افراد العائلة.

كان لعائلة كيلي في ذلك الوقت ثلاثة اولاد هم: دونالد ومورين وهما طالبان في المرحلة الثانوية وتومي وهو تلميذ في المرحلة الابتدائية. وكان افراد العائلة ينعمون بفيض من الحب والحنان، وما ان وقعت انظارهم على الطفلة المحرومة حتى قرروا جميعهم الاحتفاظ بها.

ومع انه مرت اشهر قبل ان تسمح ليزا لأي من هؤلاء بضمها او معانقتها، الا ان الحب تغلّب في النهاية على كل ما عداه وحلّت الابتسامات والضحكات مكان الكوابيس والبكاء ونوبات الغضب وتحوّلت الطفلة المرتعبة انساناً مُحباً للمرح والحياة.

بعد سنتين استقبلت العائلة شقيقة ليزا الصغرى إلن التي كانت في عهدة عائلة اخرى. وما ان حان وقت إدخال الفتاتين المدرسة حتى كانت عائلة كيلي أتمت المعاملات القانونية ومنحتهما اسمها. ومع ان الاجراءات القانونية للتبني استغرقت سنوات الا ان العائلة تابعتها بعزم وعناد، وكانت على وشك الانتهاء منها.

## القرار الحاسم

عندما وصلت مورين ووالدتها الى قسم الصدمات في المستشفى، أُدخلتا قاعة الانتظار. وبعد دقائق وصل يوجين وتومي. وباعصاب مشدودة جلسوا ينتظرون. ثم اقترب منهم جرّاح الاعصاب بردائه الاخضر الخاص بغرفة العمليات. وكان منقبض الاسارير مشدود الملامح. وقال بصوت منخفض:

"انني آسف، فإصابة ابنتكم في الدماغ لا شفاء منها وليس لديها اي امل في الحياة."

وبصوت منتحب سألته لويز: "لا امل؟"

- كلا، انني آسف جداً.

حملت جو لسلي عينة من بول ليزا واسرعت تتسلّق السلم الى مختبر الباثولوجيا لاجراء الفحوص التي تحدد اذا كانت كليتاها سليمتين. فالتقنية

الطبية ابقت جسد ليزا حياً وحافظت على تدفق الدم الى الاعضاء الحيوية. غير ان جذر الدماغ لديها، وهو المركز الذي يتحكم بنبضات القلب والتنفس وضغط الدم، اخذ ينسحق تحت ضغط انسجة الدماغ المنتفخة والامل في الحصول على كليتيها سيتبدد فجأة اذا توقف قلبها عن الضخ وتوقف تنفسها.

في تلك الاثناء تولى طبيب مراقبة جهازها العصبي. والفحص الذي اجراه اظهر ان ليزا فقدت كل احساس بالالم العميق وان اعصابها فقدت القدرة على الاستجابة حتى اللاارادية وان عينيها لم تعودا تستجيبان للضوء. وللتحقق من مقدرتها على التنفس تلقائياً، تم فصلها لفترة وجيزة عن الجهاز الذي يضخّ الاوكسيجين الى رئتيها فلم تستطع التنفس. وقبل اعلان الوفاة الدماغية يقتضي الاسلوب المتبع في ميريلاند التحقق من الامر بواسطة تخطيطين منفصلين للدماغ. وبعدما اجراهما لم يعد لدى الطبيب ادنى شك في ان ليزا فقدت كل امل في الحياة.

حين علمت جو بالأمر شعرت انه حان الوقت لمفاتحة العائلة بالموضوع. والحصول على إذن من الشخص الأقرب يعتبر ضرورياً جداً في حالات التبرع بأحد الاعضاء.

جلست مورين وحيدة على اريكة في غرفة الانتظار. فاقتربت منها جو وقدمت اليها نفسها قائلة: "انني آسفة جداً."

شكرت لها مورين عاطفتها وعيناها محمرتان من فرط البكاء وأخبرتها أنها كانت ممرضة مجازة وطلبت منها ان ترافقها لرؤية ليزا وقالت: "اودّ ان اعرف اذا كانت حالها تسمح لوالدي بأن يراها."

ساعدتها جو في ارتداء الثوب المعقم وقادتها الى سرير ليزا. وحالما وقعت عينا مورين على أختها راحت تنتحب ومدت يدها ولمست الجسد البارد.

## "ليته كان..."

خرجت الاثنتان من الغرفة واستهلت جو حديثها لمورين: "ليته كان في وسعي ان اقول ان هناك املا، لكن الامل مفقود." اطرقت مورين محدقة الى الارض فيما تابعت جو: "اود ان تفكر عائلتك في وهب اعضاء ليزا. اتمنى ان توافقوا لكني اتمنى ان توافقوا من اجلكم انتم. مع الوقت سيكتسب هذا العمل معنى ربما ساعدكم على التخفيف من وقع خسارة ليزا عليكم."

وبدل ان تطيع مورين غريزتها وتصرخ بعفوية: "كلا! لا تسببوا لها مزيداً من الالم!" استدارت نحو جو بهدوء وقالت: "عليّ ان اراجع والدي بالأمر فالقرار يعود اليه." ثم توجهت نحو قاعة الانتظار حيث والدها.

ولأن محكمة الولاية كانت لا تزال الوصي الشرعي على ليزا، فقد اتصلت جو، بعد مغادرة مورين الغرفة، بالمسؤولين شارحة لهم الوضع لجهة التبني. وهم اعتبروا وهب اعضاء ليزا عملا مقبولا شرط ان توافق العائلة عليه.

وضعت جو سماعة الهاتف في مكانها وتوجهت الى يوجين كيلي الذي لم يتردد لحظة بل قال: "نعم. اني اعتبره عملا

مميزاً فليزا احبّت الناس دائماً وأحبّت ان تعطيهم."

ناولته جو النموذج الخاص بالموافقة على التبرع وهو كان يحوي إقراراً بهويته وبإنه يجيز الامر. وقد وقّعه في الحال وقال: "سوف اخبر لويز لاحقاً لانها لن تقوى الآن على تحمل ما يجري."

وافقته جو على رأيه ونصحته بالذهاب الى المنزل لانه لم يعد هناك ما يفعله في المستشفى، فليزا ستوضع قيد المراقبة طوال الليل ولن يصدر بلاغ رسمي بالوفاة قبل صباح اليوم التالي. وقالت: "لماذا لا تذهبون جميعكم الى المنزل لتنالوا قسطاً من الراحة؟"

جمع يوجين افراد عائلته. وكانت الساعة قاربت الثانية صباحاً والطقس بارد حين توجه الجميع الى البيت.

ذلك الاحد، بعد سهر ليلتين مرهقتين وبسبب عطل طرأ على المنبّه، استغرقت جو في النوم الى ما بعد وقت نهوضها المألوف. وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً، رنّ جهاز التنبيه الالكتروني المتصل بالمستشفى. وعندما راجعت جو قسم الصدمات اعلموها أن نشرة الدماغ الالكتروني اصبحت جاهزة وهي تحتوي على لائحة باشخاص مرشحين لعمليات زرع اعضاء.

كان ديف كابوس وهو تقني يعمل في معاهد جونز هوبكنز الطبية قد امضى الليل الفائت وهو يحلل عيّنة من دم ليزا من اجل تحديد نوع انسجتها ومطابقتها بواسطة الكومبيوتر مع انسجة اكثر من ٥٠٠٠ مريض في حاجة الى زرع اعضاء واختيار الاشخاص الاكثر تطابقاً لها.

والانسجة كالدم فئات، غير ان فئات الانسجة هي اكثر تعقيداً وتصنف على اساس مولدات بروتيينية مضادة موجودة في بعض خلايا الجسم.

ولا جدوى من ارسال كبد او كلية لمريض بأمسّ الحاجة اليها ما لم تكن انسجة الطرفين متطابقة فاحتمال رفض الجسم لها مرتفع جداً.

## سباق مع الوقت

وصلت جو الى قسم الصدمات الساعة التاسعة والنصف فاجتمعت لتوها بالجرّاح، وفي العاشرة والنصف أُدخلت ليزا غرفة العمليات الرقم ٦ فتقدم الجرّاح واحدث بضعاً طويلا ثم انصرف الى استئصال كليتي ليزا. وحرص على ان يبقي للشرايين والأوردة والحالب طولا كافياً يسمح للجرّاحين العاملين على زرع الكلية في الطرف الآخر، بأن يخيطوها في جسد المتلقي.

وضعت جو كليتي ليزا في اوعية بلاستيكية معقّمة ثم ادخلتهما صندوقاً مصنوعاً من مادة "الستايرونوم" مملوءاً بقطع صغيرة من الثلج ضبطت برودته على اربع درجات مئوية اي ما يعادل برودة ثلاجة منزلية. ولا تبقى الكلية حية خارج الجسم اكثر من ٤٨ ساعة.

اتصلت جو هاتفياً بموظف آخر يعمل منسقاً في القسم الذي ترئسه اسمه بوب غرانت وسألته: "كم يلزمك من الوقت للحضور الى القسم؟ فلدينا كليتان جاهزتان للتسليم."

– سأكون هناك خلال عشرين دقيقة.

استعانت جو بلائحة الكومبيوتر التي

زودها اياها كابوس وراحت هي وبوب يتصلان بالمراكز التي يعالج فيهما المرضى الذين تعتبر درجة تطابق انسجتهم مع انسجة ليزا جيدة. احد هؤلاء كان ماثيو لاندس وهو طفل في الثالثة من عمره اظهر الفحص ان درجة تطابق انسجته مع انسجة ليزا كانت مرتفعة جداً. وتطابق اربعة مولدات مضادة كان يُعتبرُ في ذلك الوقت امراً ممتازاً وفي حال ماثيو كانت هناك ثلاثة من اربعة.

إتصلت جو بمنسّق قسم الاعضاء الحية في سنسناتي الذي قال لها: "اننا في حاجة ماسة الى الكلية."

بقي عليهما ان يجدا متلقياً صالحاً للكلية الثانية. وتبين من اللائحة ان هناك امكاناً لا بأس به بالنسبة الى مريض في مركز وولتر ريد الطبي في واشنطن. وعندما اتصل بوب بالمركز قيل له ان لديهم مريضة تدعى كارولين بلانشارد تنتظر واهباً. وقد غمرت جو موجة من الارتياح، فكل من كليتي ليزا كيلي وجدت لها موطناً على ما يبدو.

لم يتوقف السباق مع الوقت. وعلى أحد جوانب البراد الذي حمل كلية ليزا اليمنى الى مستشفى وولتر ريد في رحلة استغرقت ساعة ألصقت لافتة ذات لون برتقالي صارخ حملت بخط اسود عريض العبارة الآتية: "كلية بشرية للزرع." اما الكلية اليسرى التي كان عليها ان تقوم برحلة أطول الى مستشفى الاطفال في مركز سنسناتي الطبي، فوصلتها جو بآلة خاصة وظيفتها تقليد الدورة الطبيعية والقيام مقامها من طريق ضخ مزيج مبرد من البلازما ومحلول ملحي و"ودكستروز" ومغذيات أخرى، الى الكلية عبر الأوعية المتصلة بها.

ولأن الرحلات الجوية التجارية الى سنسناتي كانت انتهت ذلك اليوم، فقد اتخذت جو جميع الترتيبات لاستخدام طائرة خاصة وابدى جماعة سنسناتي استعدادهم لتسلم الكلية في المطار.

## "إبر" لجورج العجيب

بعد ظهر ذلك الأحد الهادىء كانت الشمس مشرقة في اوهايو فيما هبت ريح قاسية وباردة في الولاية. وعلى رغم البرد، تصبب جيم لاندس عرقاً وهو يشقّق الحطب في الفناء الخلفي لمنزله.

وما ان دخل المنزل حتى سمع رنين الهاتف "فصرخت زوجته بيتي: "انا سأجيب."

وما ان رفعت السماعة حتى عرفت الصوت.

كان المتكلم الدكتور بول ماك انري من مستشفى سنسناتي للاطفال. فسألها: "هل بامكانكم إحضار ماثيو بعد الظهر؟ نود ان نأخذ قليلا من دمه من اجل فحص للتطابق. لدينا كلية آتية من بلتيمور وتبدو الامور جيدة."

اجابت بيتي: "سنكون هناك خلال ساعة."

كان ماثيو يلعب في غرفته، فركعت بيتي بقربه وقالت له: "لقد تحدث معنا الدكتور ماك إنري بالهاتف الآن،" ولما لم يعر ماثيو كلامها اي اهتمام، تابعت: "يريدنا ان نذهب الى المستشفى من اجل اجراء فحص."

"وخزة اخرى؟" كان ماثيو يكره

"الوخزات" كما كان يسمي الابر وكانت تنتابه الكوابيس في الليل بسببها.

- اجل يا عزيزي. انما وخزة صغيرة فقط."

"سأحضر جورج معي،" قال ماثيو وهو يتناول السعدان المحشو الذي لم يدعه ماثيو يفارقه خصوصاً عندما يذهب الى المستشفى او عندما يكون في حاجة الى مواساة. وامضى الطفل اكثر من ثلاثة ارباع حياته في المستشفى وبدا متقبلا لضرورة وجوده فيه احياناً.

كان ماثيو لدى ولادته طفلا قوياً معافى. وحدها والدته، بحدسها المرهف، لاحظت تغيراً بدأ يطرأ عليه تدريجاً منذ الشهر الثاني. ولم يعد يقبل ان يحمله أحد وراح يبصق طعامه وكانت حرارته ترتفع من وقت الى آخر. وحدث وهو في شهره الخامس، ان أدخل مستشفى للاطفال بسبب التهاب في الشعب. عندها فقط شُخّصت حاله.

وتبين ان إحدى كليتيه اكتسبت، وهو جنين، حجماً غير طبيعي كذلك الحالب الذي اصبح طوله ضعفي الطول الطبيعي وظهرت فيه عقد تسببت في تراجع البول الى الكلية مما اقتضى سلسلة من الجراحات اقتضت اولاها ازالة العقد. وهذا التدبير اطال عمل الكلية، وإن في حدّه الادنى، لفترة وجيزة.

وقبل اربعة اشهر من بلوغه السن الرابعة، كان حجمه اقرب الى حجم ابن السنتين منه الى حجم ابن الاربع. وحمل جذعه الصغير آثار جراحات عدة بينها عمليتا زرع غير ناجحتين اوصلته احداهما الى حافة الموت لرفض جسمه الكلية.



## ساعة الحقيقة

في انتظار عملية الزرع، يبقى معظم مرضى الكلى احياء بفضل آلة للديلزة الدموية وهي كلية اصطناعية تقوم بوظيفة الكلية الطبيعية في تنقية الدم.

وكانت الاوعية الدموية لدى ماثيو من الصغر بحيث لا تسمح بتحمل عملية الديلزة الا لوقت وجيز جداً. وهو كان في حاجة الى كلية جديدة ليبقى على قيد الحياة وعنصر الوقت اصبح داهماً.

"مرحباً يا ماثيو،" رحبت به إحدى الممرضات عندما وصل مع والديه الى المستشفى ثم اضافت: "اني ارى جورج معك." اما الدكتور ماك انري فقال له: "علينا ان نأخذ قليلا من الدم يا ماثيو. فهل توافق؟"

اومأ ماثيو برأسه موافقاً.

وقد طمأنته الممرضة: "وخزة صغيرة فقط. لن تشعر بها." فرماها ماثيو بنظرة ارتياب لكنه مد ذراعه اليسرى. وعندما ادخلت الممرضة الابرة في الذراع، شد على "جورج العجيب" بقوة وقاوم دموعاً كادت ان تنهمر.

انتهى الامر بسرعة وعاد ماثيو مع والديه جيم وبيتي الى البيت.

في تمام الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، رنّ جرس الهاتف في منزل آل لاندس وكان المتكلم الدكتور ماك إنري الذي اخبر جيم ان الكلية وصلت في حالة جيدة وان نتيجة فحص التطابق كانت مشجعة وسأله: هل في امكانك الحضور مع ماثيو الساعة السابعة؟"

– نعم، اجابه جيم.

في غرفة الانتظار في الطبقة الاولى من مستشفى الاطفال راح جيم وبيتي يتحدثان مع الدكتور جون نوزيرذي الجرّاح الذي سيجري العملية. كان رجلا ضخماً ويداه كبيرتان. وعجبت بيتي كيف ان يدين بتلك الضخامة تعملان داخل الاجساد الصغيرة بالدقة والرهافة المطلوبتين.

واوضح لهما الدكتور نوزويرذي ان كلية ماثيو الطبيعية تحولت بؤرة للجراثيم وان اقل إصابة او عدوى جرثومية يمكن ان تشكل خطراً مميتاً خصوصاً مع العقاقير التي تعيق المناعة الطبيعية التي كان على ماثيو ان يتناولها اثناء عملية الزرع.

وما لبث الطبيب ان دخل صلب الموضوع وقال: "لقد فكرنا ملياً في الامر. نريد ان نفصل كليته اثناء العملية. أعلم ان هذا امراً مفاجئاً بالنسبة اليكما." استوعب جيم وبيتي مغزى كلامه وما تضمنه من معنى.

ثم اضاف الطبيب: "انه قرار قاس. لماذا لا تتداولان الموضوع؟"

## "هيا افصل الكلية"

فكرة فصل كلية ماثيو أرعبت بيتي وجيم، فهي على رغم العطل الذي فيها ابقته حياً بعد عمليتي زرع فاشلتين. ومن دونها سيفقدان آخر صمّام للامان في حال فشل هذه العملية ايضاً.

وراحت بيتي تنتحب بصوت خفيض وقالت: "بودّي ان اضمه بين ذراعي واحمله الى البيت. على الاقل سيكون معنا لبضعة اشهر اخرى."

اما جيم فقال: "لو كنت مكانه لاصررت على اعطاء الكلية المزروعة افضل فرص

للبقاء. انها امله الوحيد في حياة حقيقية. اعتقد ان ماثيو كان سيفضّل كل شيء او لا شيء على الاطلاق."

وعلمت بيتي في قرارتها ان جيم كان على حق وقالت: "اعرف هذا، اعرف هذا."

عندما عاد نوزويرذي الى قاعة الانتظار نظر جيم بعيني الطبيب وقال: "نحن موافقان. هيا افصل الكلية."

كانت العاب ماثيو مصفوفة على الطاولة قرب السرير. اما جورج العجيب فكان مسنداً الى جانبه في السرير. حاول جيم وبيتي اخفاء قلقهما لكن ماثيو ظل صامتاً فيما هما يشرحان له ظروف العملية.

"ستحظى بكلية جديدة،" قالت بيتي فرد بصوت خفيض يكاد لا يسمع: "اعرف."

وطمأنته بيتي: "بابا وماما سيمكثان هنا. لن نغادر المكان ابداً."

استوعب ماثيو كلامهما لكنه بقي صامتاً.

بعد الخامسة بقليل وضع الصبي على حمّالة ونقل الى غرفة العمليات الرقم ٣. سارت بيتي وجيم الى جانبه ممسكين بيديه. "نحن نحبك يا عزيزي وسنبقى الى جانبك" ابلغته بيتي.

لم يُظهر ماثيو اي خوف ولم يتذمر. عيناه فقط افصحتا عن الخوف في داخله.

بعد السادسة مساء بقليل احدث نوزويرذي اول شق في الجهة اليمنى في اسفل البطن، لان الكلية المزروعة لا توضع في الجهة الخلفية مثل الكلية الطبيعية بل في الجهة الامامية حيث فرص الوصول الى الاوعية الدموية افضل بكثير.

في العمليتين السابقتين، وبسبب صغر حجم ماثيو آنذاك، تم وصل الكلية بالشريان الاورطي والوريد الاجوف باعتبارهما الوحيدين القادرين، بالنسبة الى حجمهما، على تزويدها الدم الكافي. اما الآن فلم يكن نوزويرذي يبغي استخدامهما مجدداً. ولأن حجم ماثيو اصبح يسمح بخلاف ذلك فانه عزم على وصل كلية ليزا بالشريان والوريد الحرقفيين في الجهة اليمنى.

وبعد عمل استغرق ساعة عبر انسجة جعلتها العمليات السابقة ليفية قاسية، ذُهل نوزويرذي عندما اكتشف ان ماثيو لم يكن لديه شريان حرقفي ايمن، وتعويضاً لهذا الشذوذ، تولت بعض الأوعية الفرعية نقل الدم الى الساق.

انتقل نوزويرذي بسرعة الى الجهة اليسرى.

خارج غرفة العمليات، حاول جيم وبيتي ان يتحدثا في الامور العادية لكنهما سرعان ما تخليا عن الفكرة. وسرح فكر جيم الى تلك الصبية المجهولة ابنة السبعة عشر ربيعاً التي ربما انقذت كليتها حياة ولده. ولم يكن مضى على وفاتها اكثر من ٣٦ ساعة. "أملنا قائم على احزان سوانا" قال في نفسه.

## قطبة بعد قطبة

في غرفة العمليات، وجد الدكتور نوزويرذي صعوبة في تحديد وجهة سير عمله داخل جسد ماثيو الذي وجد فيه الكثير من الانسجة المتليفة. وتوصل اخيراً الى كشف الشريان والوريد الحرقفيين الايسرين.

وضعت الممرضة ملزم الاوعية الذي امر به في يده المبسوطة.

وجد نوزويرذي الوريد ليّناً مرناً فاحكم الملزم ليمنع جريان الدم فيه. اما الشريان فوجده قاسياً خشناً كأنه حبل مجمّد لنشر الغسيل. وبواسطة ملزم آخر اوقف جريان الدم فيه هو الآخر.

ثم اعلن: "اني جاهز للكلية."

فصلت ممرّضة الاحتياط، وهي ممرضة متنقّلة مهمتها احضار الادوات او استدعاء الاطباء من خارج غرفة العمليات المعقمة، الكلية عن آلة الترطيب التي كانت متصلة بها وحملتها الى الجرّاح بعد ان غطّتها بمنشفة معقّمة.

تناولها الجرّاح بين يديه وغسلها بمحلول ملحي دافق ثم انزلها برفق في الجيب الذي احدثه لها في بطن ماثيو. كان لونها ارجوانياً مزرقّاً وحجمها بحجم قبضة يد صغيرة.

بعد ذلك احدث نوزويرذي، بدقّة واحكام، شقين في كل من الشريان والوريد الحرقفيين ليسهل ربطهما بالاوعية الدموية لكلية ليزا. وفيما هو يخيط الاوعية، وهي المرحلة الاهم في هذه الجراحة، القى نظرة على الساعة. لم يكن امامه سوى ٣٠ دقيقة لانهاء عمله من دون ان تتعرض الكلية لأي خطر او أذى. وراح، بتركيز مطلق ودقة متناهية، يخيط قطبة بعد اخرى. فنجاح العملية لم يكن يتحمل ادنى خطأ.

راحت يدا نوزويرذي الضخمتان تعملان بسرعة واتقان وهما تحوكان بواسطة الابرة المنحنية التي بدت كشصّ لصيد السمك من دون شوك. كان يغرزها في وريد ليزا ويعقد بها انشوطة في وريد ماثيو ثم يسحبها بواسطة ملقاط صغير. ومع كل قطبة كان الرباط بين ماثيو وكلية ليزا يشتد احكاماً.

"كم استغرقت من وقت؟" سأل.

فاجابته الممرضة "اربع عشرة دقيقة."

كان العمل بالشريان اكثر صعوبة، واستوجب غرز الابرة دفعاً اكبر.

وسأل ثانية: "كم استهلكنا من وقت؟"

- ٢٣ دقيقة.

شعر نوزويرذي بتيبّس في عنقه وكتفيه من شدة الارهاق. وغرز آخر قطبة وبها اصبحت الاوعية وحدة متماسكة كأنها ملحومة. ثم نظر الجرّاح الى الساعة. ثلاثون دقيقة مرّت من دون زيادة او نقصان.

## الامتحان الصعب

حان وقت الامتحان: امتحان لعمله وامتحان للكلية. حلّ نوزويرذي الملزم عن الوريد حيث ضغط الدم اقلّ بكثير منه في الشريان ورأى دم ماثيو يسري الى كلية ليزا. وبعدما تحقق من عدم وجود اي تسرّب قال: "يبدو الامر جيداً."

والآن جاء وقت الامتحان الأصعب. فقد حلّ الملزم عن الشريان الحرقفي لدى ماثيو. وكالماء المتدفق من سدّ مفتوح تدفّق الدم الى كلية ليزا. لا شيء على الاطلاق يضاهي رؤية كلية ضامرة متقلّصة تغيّر لونها وهي تعود تنبض حياة وعافية مع عودة الدم اليها. وكلية ماثيو الجديدة عادت في الحال وردية اللون متعافية. بعد ذلك بقليل تساقطت من الحالب

قطرات قليلة من البول فوق منشفة معقّمة.

"انها تفرز بولاً" صاحت إحدى الممرضات فيما سمعت هتافات مكتومة آتية من تحت الاقنعة الطبية حول طاولة العمليات. لقد بدأت الكلية عملها.

لم يكن مضى على حادث ليزا كيلي اكثر من ٤٨ ساعة، عندما وصل نوزويرذي الحالب في كلية ليزا الى مثانة ماثيو ثم انتقل الى الجهة الخلفية لنزع كليته الطبيعية. كانت مرقّشة ضامرة تغطيها رقع رمادية لندبات قديمة وكلها علامات التهاب جرثومي مزمن. لقد كان قرار استئصالها صائباً. والغريب في الامر هو كيف ان كلية مثلها كانت تعمل اطلاقاً.

بعد الاولى صباحاً بقليل نقل ماثيو الى القسم المعزول في وحدة "العناية الفائقة" حيث سيتلقى الدواء الخاص الذي يعيق المناعة الطبيعية عبر الوريد وذلك لمساعدة جسمه على عدم رفض كلية ليزا. وتجريده من مناعته الدفاعية تركته معرّضاً جداً للعدوى من طريق الميكروبات.

وعلى رغم الارهاق الشديد بعد عمل متواصل دام سبع ساعات ونصف ساعة خرج نوزويرذي من غرفة العمليات منتعشاً لأن كل شيء سار على ما يرام. واظهر ماثيو قوة ارتداد وتكيّف قوية وظلت مؤشراته الحيوية قوية ثابتة.

وهو بثياب العمليات، التقى نوزويرذي جيم وبيتي وقال لهما: "اكتسبت الكلية في الحال لوناً وردياً وكل شيء يبدو الآن جيداً جداً."

كانت الساعة الثامنة صباحاً والطقس ابرد من المعتاد بالنسبة الى شهر مارس (آذار) عندما اوقف الدكتور ماك إنري سيارته خلف مستشفى سنسناتي للاطفال. وضع معطفه ومحفظة اوراقه في مكتبه في الطبقة الرابعة وتوجه عبر القاعة الى مكتب مونيكا كينلان الممرضة المنسّقة في قسم الكلية وسألها: "كيف ماثيو؟"

فاجابته: "يظهر ان هناك بداية رفض."

كان ماك إنري طبيب اطفال مختصاً بامراض الكلية وكان مهتماً جداً لتقدم ماثيو. وما زال يذكر الخيبات المريرة التي تعرّض لها الفتى وعلى رغم ذلك لم يستسلم للمرض بل ظل يكافح بتشبث وعناد حتى عندما فقد جميع مَن حوله الامل.

## يتألم ولا يتذمر

أدرك ماك إنري جيداً ان كل عملية زرع تقابل ببعض الرفض. وفي ما يتعلق بماثيو، فان اعراض الرفض ظهرت سريعاً في المرتين السابقتين، اما الآن وبعد خمسة ايام من عملية الزرع الاخيرة، فان ابسط اشارة كانت مصدر قلق.

ارتدى ماك انري معطفه الابيض وتوجه الى الغرفة التي رقد فيها ماثيو معزولا عن سائر المرضى. وحالما رآه بادره بمرح: "صباح الخير يا ماثيو."

حدّق ماثيو الى الطبيب بعينين خاليتين من اي تعبير. وكان جورج العجيب قربه في السرير. واثناء مكوثه في المستشفى كان ماثيو غالباً قليل الكلام يقتصر حديثه على بيتي.

وصرخت احدى الممرضات: "لقد شعر ببعض الألم لكنه لم يتذمر."

عندما انحنى ماك إنري ليجس كليته، تشبّث ماثيو بجورج العجيب. كانت حوافيها صلبة محددة وهذه علامة على ان الرفض لم يليّنها.

قرر ماك إنري ان يعطي ماثيو علاجاً فعالا يوقف المناعة وكان واثقاً من ان الرفض اكتُشف في الوقت المناسب لكن علاجه كان دائماً محفوفاً بالخطر كمن يمشي على حبل مشدود، فاذا كان قوياً جداً فانه يعرّض ماثيو للعدوى بشتى انواع الجراثيم الى درجة ان رشحاً بسيطاً قد يشكّل خطراً على حياته. اما اذا كان ضعيفاً، فانه يسمح للاجسام المضادة بان تغزو كلية ليزا وتتلفها.

من الناحية الاحصائية كان احتمال تقبّل جسم ماثيو للكلية خلال سنة ٥٠/٥٠، فاذا ما احتفظ بها لسنة كاملة فمعنى ذلك ان هناك املا كبيراً في انها ستستقر في داخله وتصبح جزءاً منه.

وكان عمل الكلية يُرصد يومياً، ومعنى هذا اخذ عيّنة من دمه كل يوم. وما ان خرج ماك انري من الغرفة حتى دخلت مونيكا الممرضة المفضلة لدى ماثيو وقالت له: "عليّ ان اسحب قليلا من الدم. هل يسمح جورج بذلك؟"

استدار ماثيو نحو جورج ثم قال: "جورج يقول انه لن يبكي."

قالت مونيكا ان "جورج شجاع جداً" وهي تتظاهر بسحب الدم من السعدان - الدمية. فرد ماثيو:

"جورج وانا لا نبكي" فيما الممرضة تغرز الابرة في ذراعه.

كانت مونيكا تقوم بهذه التمثيلية كل يوم واصبحت تدرك ان جورج كان بطريقة ما يمثل الذات المريضة لدى ماثيو وان الفتى كان يدرك بدوره ان هذا الجزء منه في حاجة الى معالجة وهو احب ان يبقيه منفصلا عنه.

بعد يومين شاع خبر سار: لقد تغلبوا على الرفض.

ولأن ماثيو يمكن ان يتقدم بصورة افضل في البيت فقد سمح الطبيب بنقله الى المنزل فور استقرار حاله، اي بعد قرابة اسبوعين. وما ان غادر المستشفى حتى بدأ يخرج من قوقعته واصبح طفلا طبيعياً كسواه من الاطفال.

### ازمة القلق

في اوائل ابريل (نيسان) وللمرة الاولى منذ عملية الزرع عزمت العائلة تناول العشاء معاً. وكان ماثيو واختاه اللتان تكبرانه فاليري وجاني، يشاهدون برنامج رسوم متحركة على التلفزيون (التلفاز) في غرفة الجلوس حيث كان جيم يقيم بعض الرفوف فيما انشغلت بيتي في المطبخ.

فجأة انهار ماثيو ارضاً. فصرخ جيم: "بيتي! يبدو انها نوبة!" وللحال اتصلت بيتي هاتفياً بفريق الطوارىء الطبي وبالدكتور ماك إنري ونُقل ماثيو بسرعة الى اقرب مستشفى حيث وصف له الاطباء "الفاليوم" المهدىء للاعصاب بغية اخراجه من النوبة من دون ابطال مفعول الدواء المعيق للمناعة الذي كان يتناوله. وتعذر على الدكتور ماك إنري تفسير ما حدث متسائلا هل العقاقير هي التي

تسببت بالنوبة. وطلب من جيم وبيتي إذناً بنقل ماثيو الى مستشفى الاطفال. فوافقا على طلبه بعدما خرج ماثيو من دائرة الخطر.

في القسم المعزول في المستشفى وضع ماثيو خطأ مع طفل آخر مصاب بالحماق ولم يكتشف ذلك الا صباح اليوم التالي فنُقل الصبي من الغرفة، على ان احداً لم يكن متأكداً من ان ماثيو لم يلتقط العدوى. والحماق هو احد اكثر الامراض عدوى. وزيادة في التعقيد، اظهرت التحاليل المخبرية ان عمل الكلية يتدهور. هل كان ذلك بسبب العدوى. ام انها بداية رفض جديد؟

عرض ماك انري وفريق من الاطباء الخيارات المتاحة امامهم وقرروا اعطاء ماثيو مادة "الغلوبيولين" المنيع ضد القوباء المنطقية حماية له من الحماق كذلك قرروا ان يتابعوا في الوقت نفسه العلاج بواسطة العقاقير المعيقة للمناعة الطبيعية.

وسأل جيم باضطراب: "ولكن ماذا لو التقط ماثيو الحماق؟" وهو خشي ان يرفض جسم ماثيو كلية ليزا اذا اوقفت العقاقير التي تعيق المناعة.

غير ان احداً لم يكن يملك الاجابة عن هذا السؤال. وعندما دخل جيم وبيتي الغرفة كان ماثيو يحتضن جورج العجيب ويهزه. فسألته بيتي: "كيف صحة جورج اليوم؟"

كانت عينا ماثيو يقظتان على نحو منير على رغم قلة كلامه فاجاب: "انه مريض من جديد."

أحنى جيم رأسه واسترسل في صلاة صامتة: "ايها الاله الحبيب، لا تدع ابني يموت."

وحده الوقت كان سينبىء اذا كان ماثيو يعاني عدوى جرثومية او إذا كان جسمه في حال رفض حادة. ولم يكن امام جيم وبيتي سوى الانتظار. ومرور الوقت من دون ظهور اعراض العدوى كان في مصلحة ماثيو.

## "إنه يحترق!"

حدث ذات صباح، بعد اسبوعين، ان دخل جيم غرفة ماثيو الذي طالعه بابتسامة مشرقة اضاءت الغرفة. وكانت وجنتاه ورديتين ومعنوياته مرتفعة. لم يكن هناك اثر لأي عدوى وبدا ان مسألة الرفض انتهت بسلام.

اندفع جيم نحو الهاتف واتصل بزوجته ووسط الدموع والضحكات قال: "يبدو ان ابننا عاد الينا."

في منزل آل كيلي خارج بلتيمور، جلست لويز وابنتها مورين تتحدثان حول فنجان من القهوة. وتطرق الحديث الى تأثير وفاة ليزا على العائلة. سألت الام ابنتها: "هل اطلعتك على رسالة جو؟"

– لا.

فتحت لويز درجاً واخرجت رسالة مطوية بعناية. انهمرت دموع مورين وهي تقرأ عن الاشخاص الذين تلقوا اعضاء ليزا وقالت: "الخير الذي نتج من الوفاة يبعث في النفس الامل." واضافت: "يسرح بي الفكر الى هؤلاء الناس واتساءل ما شكلهم وكيف حالهم."

فاجابتها مورين: "عندما اتذكر لِمَ احبّت ليزا الاطفال اتبيّن صواب حصول

ذلك الطفل الصغير على احدى كليتيها."

اومأت لويز برأسها موافقة وقالت: "انه اكثر مَن افكر فيه."

بدأ الامر برشح بسيط شعر به ماثيو يوم الجمعة وكان مضى على عملية الزرع ستة اسابيع. ففي وقت متقدم من ذلك اليوم ارتفعت درجة حرارته قليلا وتسارع تنفّسه. ظل جيم وبيتي يراقبانه طوال المساء ثم وضعا اداة مرطّبة في غرفته وأويا الى فراشهما قرابة الساعة الثانية صباحاً. وفي الثالثة، عندما تفقّده جيم، كانت حرارته دون ٣٨ درجة مئوية مما اشاع في نفسه شعوراً بالانفراج. ولكن عندما دخلت بيتي الغرفة في الرابعة وجدت تنفّسه سريعاً وسطحياً واشار ميزان الحرارة الى ٤٠ درجة. فنادت بيتي جيم قائلة: "انه ملتهب!"

القى جيم نظرة على ماثيو وقال: "يستحسن ان نرجعه الى مستشفى الاطفال."

والرحلة الى المستشفى الذي يقع على مسافة ٣٠ دقيقة بالسيارة من منزل عائلة لاندس، لم تستغرق تلك الليلة سوى ١٧ دقيقة.

وصور الاشعة التي اخذت في غرفة الطوارىء اظهرت ان رئتي ماثيو امتلأتا بسائل جعل القلب يتضخم على نحو خطر.

اما السبب فلم يعرفه احد وبقي سير العلاج غير واضح. ومع شروق الشمس كان الاطباء ما زالوا يدرسون حال ماثيو فاستدعوا جيم وبيتي الى احدى قاعات المحاضرات وتحدثوا معهما بصراحة في حضور ماك إنري ونوزويرزي. تفحص جيم وجهيهما وقال في نفسه: حتى ماك انري المتفائل الدائم يبدو قلقاً.

استهل ماك إنري كلامه بان الاطباء توصلوا الى قرار صعب. كانوا في حاجة الى نسيج من رئة ماثيو لكي يحددوا مجهرياً نوع الجرثومة التي غزت جهازه والطريقة الوحيدة هي استئصاله جراحياً.

ضعف جيم. كان ماثيو من الضعف بحيث يتعذر عليه رفع رأسه فكيف يجرون له جراحة وهو على هذه الحال؟

لكن ماك انري اصرّ: "لو ان امامنا طريقة اخرى للجأنا اليها."

فقال له جيم: "لقد قطعت مع ماثيو هذا الشوط كله فافعل الآن ما يتوجب عليك."

اقترب الدكتور نوزويرزي من بيتي وقال لها: "سأبذل قصارى جهدي. وسوف اضبط الامور وسيخرج ماثيو سالماً."

دمعت عينا بيتي وتفاءل جيم خيراً.

غير ان آمالهما تلاشت في وقت لاحق من النهار بعدما نقل ماثيو الى غرفة العمليات. واستبد بجيم شعور بان ماثيو لن يخرج من هذه المحنة سالماً. فراح يصلي.

## "الحمد لله"

خيّم على غرفة العمليات صمت مشدود. فتح نوزويرزي صدر ماثيو واستأصل قطعة صغيرة من النسيج الرئوي حملتها ممرضة الاحتياط الى المختبر بسرعة فائقة. ثم ادخل آلة ماصة التجويف الصدري وسحب بها كمية كبيرة من السائل كانت على وشك التسبب في وفاة ماثيو.

سمع جيم وبيتي خطوات الدكتور نوزويرذي تقترب من قاعة الانتظار. وما ان دخلها حتى قرأا في وجهه الخبر السار.

قال لهما: "الحمد لله، خرج ماثيو من العملية سالماً." فحرارته انخفضت وعادت رئتاه الى صفائهما. واوضح لهما ان نوعاً من الجراثيم التي غالباً ما تهاجم الجسم الذي يكون في حال انعدام المناعة، تسبب له في داء ذات الرئة. والآن، وبعدما حُدد السبب، بات في الامكان القضاء عليه بالمضادات الحيوية.

لم تتمالك بيتي نفسها فاجهشت في البكاء. اما جيم فكانت تلك اسعد لحظات عمره.

## لا رفض

ارتدى جيم وبيتي الثياب والاقنعة المعقّمة ودخلا حجرة الطوارىء التي يوضع فيها المرضى بعد الجراحات تحسباً لأي طارىء. كان ماثيو موصولا بانابيب غرزت اطرافها بأوردته وباجهزة مراقبة ترصد مؤشراته الحيوية. كانت جميعها مستقرة فركع جيم بالقرب من السرير وقال: "انك بخير يا رجلي الصغير."

رفع ماثيو نظرة نحو والده الذي قرأ في عينيه امارات التعب وليس الهزيمة، على رغم ان تلك كانت الجراحة الكبرى السابعة التي أخضع لها ماثيو في اقل من ثلاث سنوات ونصف سنة. ومالت بيتي عليه ووضعت جورج العجيب في السرير بقربه ثم شدت على يده وقالت: "اننا نحبك،" وراحت ترددها مرات عدة.

غادر ماثيو المستشفى في اواخر شهر مايو (ايار) وكان انقضى اسبوعان على العملية. كانت كليته تعمل على نحو ممتاز ولم يظهر لديه اي مرض جرثومي. ومنذ ذلك التاريخ وقوّته تنمو باطراد.

وفي شهر يوليو (تموز) احتفل ذووه بعيد ميلاده الرابع. وكانت بيتي تصحبه مرتين في الاسبوع الى عيادة المستشفى حيث كان يحظى كل مرة باستقبال خاص. وابرز شعره المقصوص، على غرار الصبي في لوحة "الفتى الهولندي"، وهي قصة مستقيمة فوق الجبين والاذنين، استدارة وجهه الملائكي وعينيه المشعتين اتقاداً وحيوية. واثناء زياراته العيادة كان دائم الحركة يركض من مكان الى آخر ويختبىء في الزوايا يختلس النظر منها الى الآخرين. وفي الاسابيع التي توالت جاءت نتائج الفحوص متطابقة: لا اثر لأي رفض.

وفي اواخر يوليو (تموز)، اصطحبه والداه الى العيادة من اجل الفحوص الدورية. وكانت انقضت خمسة اشهر على عملية الزرع. وفي نهاية الزيارة تحدث جيم وبيتي الى الدكتور ماك انري. قال جيم:

"لم نحظ باجازة منذ ولادة ماثيو ونود ان نذهب في السيارة الى وسكنسون لمدة عشر ايام في شهر اغسطس (آب)." بالطبع كانت صحة ماثيو همّهما الاكبر. فعلى رغم انه بدا بصحة جيدة، فهما يخشيان الابتعاد عن المستشفى لمدة طويلة. وقالت بيتي: "لا نريد ان نعرّضه لأي خطر." فابلغهما ماك إنري انه يقدّر مخاوفهما واعرب عن اعتقاده ان اي والدين في وضعهما يتعرضان لمثل معاناتهما، لا بد ان يشعرا مثلهما. ثم

طمأنهما الى ان ماثيو يتقدم على نحو جيد جداً وان عمل الكلية ممتاز ولا دليل على اي مشكلة لدى الصبي. واضاف انه يعرف من خلال خبرته ان فرص النجاح النهائي تزداد بنسبة كبيرة بعد ان تهدأ الخضّة الاولى التي تحدثها عملية الزرع.

ثم نظر ماك انري اليهما واسمعهما كلاماً لم يسمعاه من قبل. فهو قال: "اعتقد انه من الافضل أن تدركا ان ابنكما يتمتع بصحة سليمة. اذهبا في عطلتكما وسيكون ماثيو في خير."

ذهل جيم وقال: "لم اكن اتوقع اني سأسمع في حياتي مثل هذا الكلام من طبيب."

استمرت صحة ماثيو في التقدم على نحو ملحوظ. ومع حلول فصل الخريف أُدخل حضانة للاطفال وكان طوله زاد حوالى ثمانية سنتيمترات خلال الصيف واصبح قريباً من المعدل بالنسبة الى طفل في الرابعة.

وفي احد ايام شهر نوفمبر (تشرين الثاني) وفيما بيتي تنظف غرفة ماثيو، عثرت تحت السرير على صورة يظهر فيها الصبي محاطا بعدد من الاطباء والممرضات الذين اعتنوا به.

ثقب صغير في الصورة لا تتعدى مساحته السنتيمترين حيّر بيتي ثم ادركت ماذا نقص من الصورة: جورج العجيب. لا بد ان شخصاً ما تعمّد ذلك الثقب وحذف جورج من الصورة!

عندها فقط لاحظت بيتي ان جورج العجيب لم يكن في مكانه المألوف فوق السرير بالقرب من وسادة ماثيو. فتشت الغرفة بحثاً عنه ثم وجدته في احدى الزوايا في خزانة ماثيو حيث لا يراه احد.

## ازهار لليزا

وصل آل لاندس الى مكان الاحتفال بذكرى ليزا قبل دقائق من بداية الاحتفال. تناول جيم برنامج الصلاة وقفزت عيناه الى اسفل الصفحة حيث قرأ: "زهور في ذكرى من وهب ماثيو حياة جديدة."

في مثل ذلك اليوم من العام الفائت حصل الحادث وبفضل كلية ليزا كُتبت حياة جديدة لماثيو.

نقل جيم بصره بين الاهداء والازهار ذات الالوان الصفراء والوردية والبيضاء وازدحمت في داخله مشاعر الفرح والاسى والعرفان بالجميل من اجل ماثيو وليزا وعائلتها. ونظر الى بيتي الواقفة بقربه. فرآها تبكي.

خارج بلتيمور، انتهت مورين ذلك المساء من تناول عشائها. وبقي نظرها معلقاً بساعة المطبخ. ففي الساعة ٨،٤٠ من مساء ذلك اليوم من العام الماضي حصل حادث ليزا. عبثاً حاولت مورين ان تتظاهر بان لا فرق بين وقت وآخر، غير ان الساعة ظلت تذكّرها باختها. فتوجهت الى غرفة الطعام حيث لا ساعات وجلست تقرأ صحيفة الاحد بمنهجية ونظام.

وعلى بعد بضعة اميال، كان والدا مورين وإلن امضوا ذلك اليوم مع ذكرياتهم. وحاولت لويز ان تقنع نفسها بان "الايام المعالم" في حياة البشر كانت دائماً الاصعب وبأن مرور الوقت كفيل بتخفيف الالم وها قد انقضى عام وما زال الألم يفوق كل تصوراتها.

لم تنق مورين، ولا عائلتها، تلك الليلة طعم النوم وكانت افكارهم كلها مع ليزا والشخصين اللذين تلقيا كليتيها.

فبخلاف ماثيو لم يحالف الحظ كارولين بلانشارد زوجة الضابط المتقاعد في الجيش، اذ لم يتقبل جسمها كلية ليزا الثانية وظل يرفضها الى ان توقفت نهائياً عن العمل واستؤصلت.

## شعور بالسلام

صباح يوم احد من شهر ابـريل (نيسان) كان الطقس حاراً على نحو غير معتاد. وكانت انقضت اربع سنوات على الحادث الذي اودى بحياة ليزا وعلى عملية زرع الكلية لماثيو. ومع ابتعاد السيارة عن ضواحي العاصمة واشنطن واقترابها من الريف في ميريـلاند، استوقف جيم الشبه بينه وبين الريف في اوهايو وقال ذلك لبيتي.

الامنية التي ظن جيم وبيتي انها مستحيلة، كانت على وشك ان تتحقق. وهما كانا في طريقهما لملاقاة عائلة كيلي. ومثل تلك اللقاءات بين عائلتي المتلقي والواهب غير مستحبة تقليدياً وتعتبر مجازفة خطرة لانها تعرّض عائلة الواهب للحزن مرتين في حال فشل عملية الزرع.

ولم يسبق لجو لسلي ان علمت بمثل هذا اللقاء. لكنها شعرت ان الحال بالنسبة الى عائلتي كيلي ولاندس كانت مختلفة وان اجتماع العائلتين فكرة صائبة. احتمال الحزن مرتين كان ضئيلا جداً لان كلية ماثيو كانت تعمل بشكل رائع، بعد انقضاء اربع سنوات على عملية الزرع. وكان ماثيو خارج دائرة اي خطر متوقع.

لم تكن حماسة جو للقاء آل لاندس لتقل عن حماسة العائلتين للاجتماع.

تجمّعت عائلة لاندس في سيارة واحدة واستقلت جو وريك الذي اصبح زوجها، سيارة اخرى. والتقى الجميع مورين في محطة للوقود وتوجهت القافلة ومورين في المقدم، الى منزل آل كيلي. في الطريق ازدحمت التساؤلات في رأس بيتي: كيف سيكون وقعنا عليهم؟ هل سيحبّوننا؟ هل ترفع رؤية ماثيو معنوياتهم ام تحيي في نفوسهم شعور الاسى على الابنة التي فقدوها؟

مورين ايضاً كانت متوترة، فلقد سيطر هذا اللقاء على تفكيرها طوال اشهر وتساءلت في نفسها عن الشعور الذي سيخلفه في نفوس افراد العائلة منظر ذلك الصبي الصغير الذي يحمل جزءاً حياً من ليزا. وهي لم تصدق عينيها عندما وقعتا عليه. كان احمر الشعر ذا جمال اخاذ. وخلافاً لتوقعاتها رأت طفلا يضج حيوية وعافية.

انعطفت مورين بالسيارة الى اليمين وتبعها الجميع في الطريق الخاصة المكسوة بالحصى والمؤدية الى منزل آل كيلي. هناك توقفت السيارات الثلاث وترجل من فيها. تقدمت مورين من ماثيو ومدت اليه يدها قائلة: "تعال، والدتي بشوق لرؤية هذا الفتى الصغير. من الافضل ان ادخله اليها."

ما ان فتحت مورين الباب الامامي حتى تقدمت لويز كيلي نحوهما. جمدت في مكانها عندما وقعت عيناها على ماثيو

الذي وقف خجلا وهو يحدّق اليها بعينيه البنيتين المستطلعتين. حاولت مورين ان تنطق اسمه لكن العبرات خنقت صوتها فضمتها امها الى صدرها واجهشت الاثنتان في البكاء لكنهما مسحتا دمعهما ودعتا الضيوف الى الجلوس. وعندما دخل يوجين وقف في الجانب الاخر من غرفة الجلوس وظل لحظات طويلة يحدّق بصمت الى ماثيو.

ساد الغرفة صمت طويل قطعته مورين عندما تقدمت من الرف فوق الموقد



وتناولت صورة فوتوغرافية لليزا تعود الى سنة تخرجها في المدرسة الثانوية ودفعت بها الى جيم وبيتي اللذين تفحصا الوجه الجميل بتقاطيعه الدقيقة والشعر الاشقر الطويل. هزّت بيتي رأسها وقالت وهي ترفع بصرها الى لويز: "كم كانت جميلة."

"نعم،" قالت لويز ثم اضافت: "كانت روحها جميلة ايضاً."

أرتهم مورين صوراً اخرى لليزا وكان ماثيو يتفحص كل واحدة منها. وهو علم ان تلك كانت صور الفتاة التي وهبته الكلية. قال جيم للويز: "انه يدرك." فردت هي بايماءة من رأسها.

بعدئذ وصل شقيق مورين دونالد مع زوجته سوزان وابنتهما آن وهي في الرابعة وابنهما داني وهو في السابعة. وما لبث داني ان دعا ماثيو الى اللعب في الخارج.

### [illegible]

بعدما تعرّفت العائلتان واحدتهما الى الاخرى، زال التوتر والقلق وشرع آل كيلي يتحدثون مع جيم وبيتي عن ليزا كأنهم ارادوهما ان يعلما ان الكلية التي ابقت ماثيو حياً اتت من انسانة لو عرفاها لأعجبا بها واحبّاها.

كانت لويز اعدت للمناسبة وجبة من اصناف مختلفة من السلطة ولحم العجل المشوي وديك الحبش. وحضّرت اصنافا ختامية اخرى من الكعك والفاكهة والحلوى. وفيما الجميع يتقدم نحو المائدة، اقترب يوجين من جو وقال لها:

"كانت ليزا ستسعد لرؤية هذا الصبي الصغير." ثم اطرق برهة قبل ان يضيف: "اينما كانت، اظن انها تعلم."

بعد الغداء، اصطفّ الجميع في المرجة الامامية للمنزل والتقطوا الصور التذكارية وتبادلوا العناوين وتواعدوا على الكتابة. وقف جيم على الدرج الامامي وصافح يوجين قائلا: "اشكر لكم ضيافتكم واشكر لكم كل ما فعلتموه من اجلنا."

رد يوجين: "يسعدنا ان..." لكنه لم يستطع المتابعة. فادرك جيم قصده وربت ظهره متفهماً.

تعانقت بيتي وموربن، كذلك جيم ولويز. كان عناقاً حاراً مبللا بالدموع، وبدوا كأنهم بعناقهم هذا يحاولون ابدال الذكريات المؤلمة بأخرى سعيدة.

اما ماثيو وداني فلف الواحد منهما ذراعه حول الآخر وقال داني: "انك صديقي". فاجابه ماثيو: "انت صديقي ايضاً. يجب ان تأتي الى بيتي في المرة المقبلة لنلعب معاً."

راحت مورين تراقب ماثيو وهو يسير نحو السيارة التي كانت في انتظاره وفجأة ادركت ان رؤيته رفعت معنوياتها حقاً وقالت في نفسها: لا يقولنّ احد ان الله تخلى عن المؤمنين به.

بعد ذهاب آل لاندس، استدارت مورين نحو والدتها. جزء من نفسها كان ينتحب وجزء آخر كان يبتسم للذكريات الحلوة التي خلفها ذلك النهار. غرقت مورين في تأملاتها لحظة قصيرة ثم قالت: "للمرة الاولى منذ وفاة ليزا، اشعر بالسلام اخيراً."

نظرت لويز اليها وبصوت رقيق قالت: "وانا ايضاً."

**جون بيكانن** ■



## الام الضائعة

وقف ولد أمام صندوق المحاسب في متجر كبير وعيناه الواسعتان تدمعان، وقال للمحاسب بانكسار انه ضائع. فطمأنه المحاسب: "لا تقلق، سأجد لك أمك." ثم راح يفتش معه في الممرات ويسأله في كل منها: "هل ترى أمك؟" فيجيبه بالنفي. وأخيراً أوقفه المحاسب على منضدة في مدخل المتجر وقال له: تلفّت جيداً الآن، هل ترى أمك؟" فرد الولد: "لا، لكنني في كل مرة أرى أبي."

ك.د.

---

## صانع المفاتيح ونفايات المتنزهين

يعمل أحدهم صانع مفاتيح في منتجع سياحي. وحدث مرة ان أوقف بعض السياح سيارتهم بالقرب من محله وأفرغوا منها النفايات في أرضه ثم غادروها للتنزه على الشاطىء. وما ان ابتعدوا حتى تقدم الرجل من السيارة وفتح قفلها بسلك معدني والتقط النفايات كلها عن الارض ورماها داخل السيارة واقفلها من جديد.

د.ل.

كتاب الشهر



# والاس الرجل والأسطورة

بقلم تشارلز فرغسون

Photo: Wendell Ma



كان رجلا هادئاً قليل الكلام
الا انه عرف كيف يعرض أفكاره
في الـ"ريدرز دايجست"
التي أصبحت المجلة
العالمية الاولى والمطبوعة
التي يقرأها أكبر عدد من
الناس في تاريخ الصحافة.
لقد تضمنت صفحاتها ما
قصه الرجل من حكايات
كثيرة وما قدمه من
معلومات ونوادر مضحكة
الى أكبر عدد من
القراء بلغه أي انسان.
في الذكرى الخامسة والستين
لتأسيس المجلة نحتفل
بعبقرية دي ويت والاس
من خلال قلم تشارلز فرغسون،
وهو مؤلف ومحاضر وأحد كبار
المحررين السابقين في المجلة.

الى اليسار: دي ويت وليلى والاس.
الى اليمين: المحرران
في مكتب دي ويت وخلفهما لوحة مارك
شاغال "الشموع الثلاث."

Right Photo: Arnold Newman

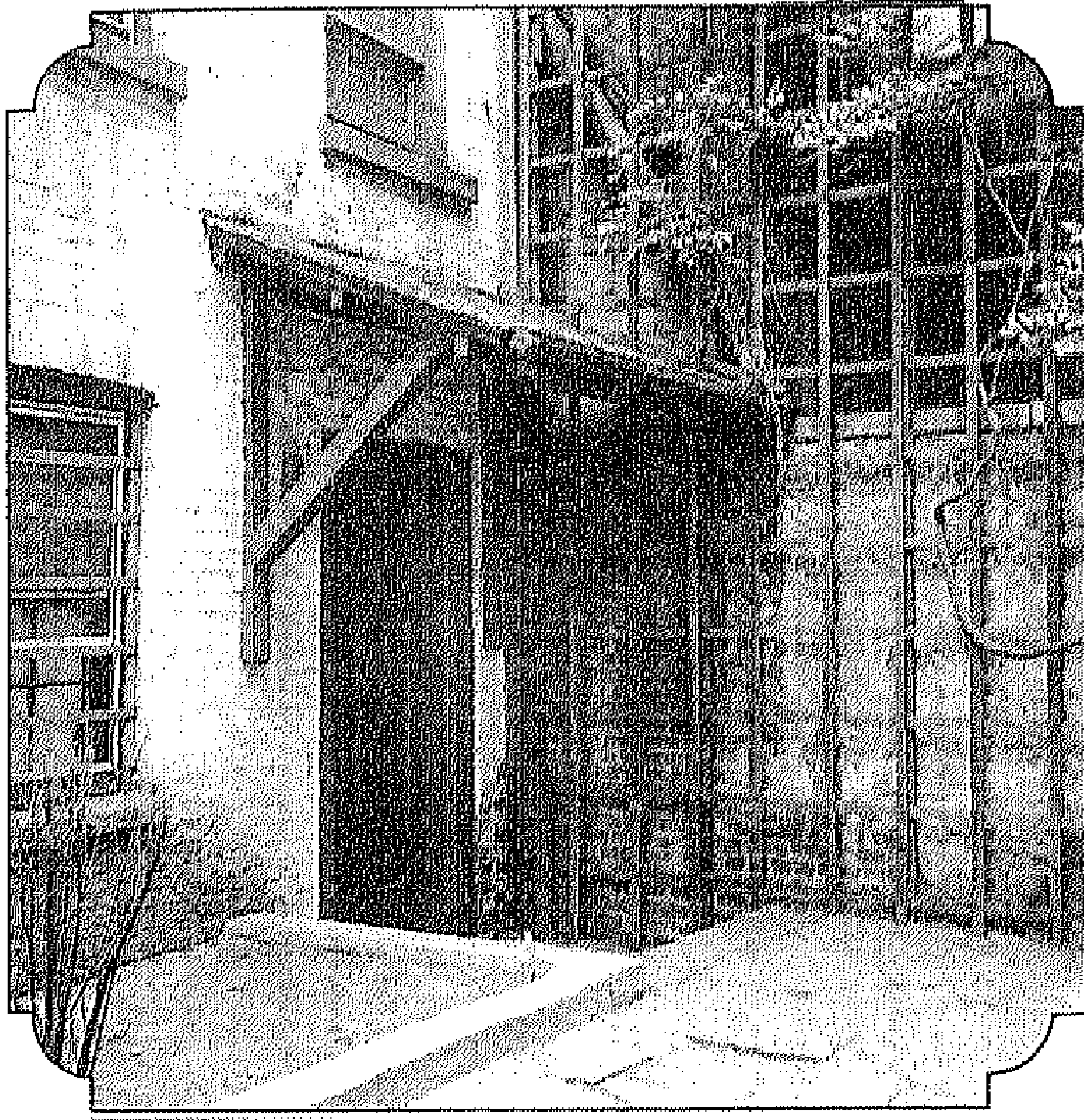
المكان هو "قرية غرينتش" في نيويورك والزمان صباح يوم من أواخر يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢. القرية ترتدي الطابع البوهيمي ويسكنها فنانون وشعراء وكتاب. فمن يتعاطون صناعة الكلمة يقصدون نيويورك ليكونوا على مقربة من الاسواق الادبية. يذهبون الى القرية حيث الايجارات منخفضة والفقر يلبس زي الرومنطيقية، وقد يكون ذلك شرطاً للنجاح.

في مكتب يقع في طبقة سفلى بشارع مينيتا كان العمل جارياً على توضيب العدد الاول من الريدرز دايجست للشحن، وكان يحمل تاريخ فبراير (شباط) ١٩٤٢. المشرفان على العمل هما دي ويت والاس وليلى اتشيسون والاس، وهما مؤسسا المجلة ورئيسا تحريرها. وقد استعانا بزمرة ممن يرتادون الحانة في الطبقة الارضية.

في نهاية المطاف تم توضيب الرزمة الاخيرة من ٥٠٠٠ عدد وعنونتها ووضعها في أكياس البريد. وقضت المرحلة اللاحقة بأن تتولى احدى سيارات الاجرة نقل الاكياس الى أقرب مركز للبريد. بعدئذ تمضي أيام حافلة بالانتظار القلق لمعرفة رد فعل العالم على إصدار المجلة الصغيرة الجديدة.

ليلى أتشيسون والاس حسناء سمراء ناعمة زرقاء العينين في الثانية والثلاثين من العمر. وهي انصرفت الى العمل الاجتماعي بعد ممارستها تعليم الانكليزية قبل الحرب. وقد تزوجت دي ويت قبل ثلاثة أشهر.

دي ويت والاس، الذي بات يدعى "والي" تحبباً، شاب في الثانية والثلاثين ناحل الجسم طويل القامة ذو مشية رياضية. عندما كان في سن المراهقة دأب على لعب البيسبول وكان في نظر عائلته فتى خائباً. والده



١ شارع مينيتا، نيويورك.

أستاذ يوناني تولى رئاسة احدى الجامعات. وقد تخلى دي ويت عن الدراسة في الجامعة وشغل وظائف عدة. وبعدما طرد من عمله في احدى المؤسسات في بيتسبورغ، جاء الى نيويورك بقصد اصدار مجلة من بنات أفكاره.

بلغ عرض الريدرز دايجست ١٤ سنتيمتراً وطولها ١٩ سنتيمتراً وعدد

صفحاتها ٦٤ بما في ذلك الغلافان اللذان هما من الورق نفسه. أما سماكتها فكانت تعادل نصف سماكة الخنصر. وكانت أولى سمات نجاحها وجاذبيتها اصدارها في "حجم الجيب" وتضمينها مواد مكثفة. وقد غابت عنها القصص والصور والالوان والاعلانات فتضمنت مقالات تثقيفية مفيدة مصفوفة في أسطر متلازة.

هل ستكون "المجلة الصغيرة"(١) مقبولة لدى القراء؟

لسنتين أعقبتا اصدارها بقي جواب الاختصاصيين سلباً. لكن دي ويت الهاوي، بمساعدة عروسه و٢٠٠٠ دولار استدان معظمها حاول النهوض بالمجلة بقدرته الذاتية.

## فكرة رائعة

كان دي ويت محباً للقراءة منذ طفولته، كل ما يلقاه مكتوباً أو مطبوعاً يثير فضوله.

واعتاد منذ السن التاسعة عشرة، ان يدون كل ما يعتبره مفيداً.

كان أخوه بنجامين يكبره سناً، وهو أحب مطالعة الكتب. ولما كان دي ويت متنبهاً لكل جديد في عالم يشهد تبدلا سريعا، فقد أكب على المجلات واتبع طريقة بنجامين في تدوين الملاحظات. وشرح ذلك مرة لوالده: "لدي قصاصات من الورق بقياس ٧،٦ × ١٢،٧ سنتيمتراً. وعندما أقرأ مقالا أدون جميع المعلومات التي أرغب في الاحتفاظ بها على احدى هذه القصاصات. وقبل النوم أراجع في فكري ما قرأته خلال النهار وأقلب ملف المدونات من وقت الى آخر. واتساءل: ترى لماذا لا يكون الوقت الذي أصرفه في ذلك مفيداً كالوقت الذي يصرف في قراءة الكتب."

في بعض الاحيان لم يكن الاستشهاد او الايجاز يفي بالغرض، فيدون والي لب المقال بخط صغير باسلوب الكاتب نفسه.

قطعت الحرب العالمية الاولى كتابات والي. ففي اليوم الخامس من الهجوم على موز - أرغون (فرنسا) في أكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٨، أصيب الرقيب والاس من كتيبة المشاة ٣٥ بشظايا في أنفه ورقبته ورئته وبطنه. واستقرت احدى الشظايا على بعد كثافة شعرة من وريده الوداجي في الرقبة. وأخبره طبيب مازحاً: "لو انشق الوريد لما وجدنا وسيلة لوقف النزف الا بخنقك."

أمضى والاس فترة نقاهة دامت بضعة أشهر وخطر له أن الملاحظات التي دونها قد تصلح اساساً لمجلة ذات طابع عام. واذ كان مقيماً في مكان تكثر فيه المجلات فانه أخذ الفكرة جاداً، فاستزاد قراءة واختار مقالات ودون منها ما استساغه.

بعدما عاد والاس الى منزله في سانت بول (ولاية منيسوتا) عمل لمدة ستة أشهر في المكتبة وجمع أعداداً كبيرة من المقالات. بعدئذ اختار ٣١ مقالة اختصر كلا منها في صفحتين أو أقل، وعهد الى مطبعة في سحب بضع مئات من النسخ لهذا النموذج الاولي من الريدرز دايجست.

(١) Little Magazine

حدث ذلك في يناير (كانون الثاني) ١٩٢٠. وبغية تمويل المشروع استدان والي من أخيه بنجامين ٣٠٠ دولار. ورفض أبوه بادىء الامر مده بمبلغ مماثل مشيراً الى أن دي ويت لا يحسن التعامل بالمال، لكنه اقتنع أخيراً بحجة مؤداها أن القراء هذه الأيام "متشوقون الى بلوغ لب الاشياء".

بدأ والي يعرض نموذجه في سانت بول. ثم حمله الى دور النشر في شرق الولايات المتحدة مبدياً رغبته في تقديم "اختراعه" الى أي شخص يبدي استعداداً لنشر المجلة وجعله رئيس تحريرها. ورفض الناشرون الفكرة، الواحد تلو الآخر، زاعمين إما أنها ساذجة واما انها جدية وتثقيفية أكثر من المطلوب.

وبعد طول اكتئاب، وجد والاس طريقه الى النجاح حيث لم يتوقع.

فذات يوم مر بصديقه باركلي انتشيسون الذي درس واياه في احدى الكليات قبل عشر سنين. وكان دي ويت أمضى عطلة الميلاد في منزل آل انتشيسون في تاكوما بولاية واشنطن حيث أعجب كثيراً بأخت صديقه ليلى بل، التي كانت مخطوبة. وأثناء الحرب اختارت مهنة تتمثل في مساعدة النساء العاملات في المصانع على تحسين أوضاعهن. وهي كانت لا تزال تمارس مهنتها في نيويورك حين التقى والي أخاها وعلم منه أنها لم تتزوج. فأرسل اليها برقية جاء فيها: "أوضاع النساء العاملات في سانت بول مروعة. المطلوب تحقيق فوري."

ومن قبيل المصادفات كانت لدى ليلى مهمة في سانت بول. وفي ليلتها الاولى هناك طلب والي يدها، فأجابته بنعم في الليلة الثانية. وبعد خطبتهما قدم اليها نسخة من نموذج مجلته، فبادرته: "علمت منذ البداية أنها فكرة رائعة." غير أن اعتبارات عملية برزت وقتذاك. فقد عادت ليلى الى نيويورك وتسلم دي ويت وظيفة كتابية في شركة "وستنغهاوس الكتريك" في بيتسبورغ. ولكن لم يفته أبداً التفكير في مجلته. وفي العام ١٩٢١ حين عمدت ادارة الشركة الى خفض عدد الموظفين، كان دي ويت والاس، وهو آخر من جرى توظيفه، أول من استغني عنه.


ليلى في صباها.

كان تسريح والاس فاتحة خير بالنسبة الى مشروعه. ففي غمرة كآبته تذكر

اقتراح أحد زملائه العمال بيع المجلة الى القراء مباشرة بواسطة البريد. وللحال عاد والي الى غرفته وجلس وراء آلته الكاتبة وقال: لتذهب دور النشر الكبيرة الى الجحيم! ثم شرع في طبع رسائل يلتمس فيها اشتراكات في المجلة. ووجه رسائله الى مدرسين وممرضات ورجال دين وأعضاء في جمعيات نسائية. وهو حصل على أسماء أساتذة جامعيين من الكتب السنوية الخاصة بالجامعات.

كان عليه أن يقدم عرضاً جيداً، فتعهد الغاء الاشتراك ورد المال اذا لم تنل المجلة رضا المشترك. وبقي يوجه مثل هذه الرسائل لمدة أربعة أشهر وفي كل منها لمسة شخصية. وغادر بيتسبورغ في أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢١ ألى نيويورك حيث كان على موعد مع ليلى. وتوصلا معاً الى إنجازين: الاول زواجهما في بلدة بليزنتفيل الصغيرة على بعد ٤٨ كيلومتراً الى الشمال من نيويورك، والثاني تأسيسهما مجلة "ريدرز دايجست". وحصل هو على ٥٢ في المئة من الاسهم وهي على ٤٨ في المئة. وبعدما استقرا في منزل صغير في قرية غرينتش تلقيا مجموعة أخرى من الرسائل قبل سفرهما في "شهر" عسل دام أسبوعين. وبات للمجلة ١٥٠٠ مشترك يدفع كل منهم ثلاثة دولارات. وأصبح لدى الزوجين ما يكفيهما من مال لاصدار العدد الاول، وربما الثاني أيضاً.

وبغية المساعدة في تسديد نفقات المطبعة أجرا غرفة في منزلهما وشاركا زوجين آخرين في المطبخ والحمام. وأمضيا الاشهر التالية في انتظار

وتساؤل: ماذا لو قرر ثلث المشتركين استرداد أموالهم؟

العدد الاول من المجلة تضمن كلاماً عن الدكتور الكسندر غراهام بل وايمانه بأن التثقيف الذاتي عمل يدوم مدى العمر:

"أولى ضرورات الثقافة الصحيحة هي الملاحظة. لاحظ! تذكر! قارن! هذا ما جعل جون باروز عالماً عظيماً في الطبيعيات ومورغان رجل مال مهماً ونابوليون قائداً فذاً. هذا هو أساس كل ثقافة."

كانت المقالة تعبيراً دقيقاً عن تفكير دي ويت والاس الذي ترك الجامعة وتتلمذ على ذاته وأوجد الريدرز دايجست.

## الحذاء الابيض

لم يكن تعامل والي مع عائلته أمراً سهلاً. فهو ولد في سانت بول في ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٨٩ ابناً ثالثاً لجايمس وجانيت والاس. كان والده يحمل ثلاث شهادات دكتوراه، عمل استاذاً في كلية ماكاليستر ومن ثم رئيساً لها. وكان لكل من الوالدين تفكيره الخاص، فلم يصلا الى اتفاق في شأن تسمية وليدهما. فكتب الأب الى حمويه: "أظن أننا سنسميه المجهول لبعض الوقت." وفي نهاية المطاف سمته والدته وليم روي، في حين سماه والده دي ويت. وبقي الاسم الثاني هو السائد.

غمرت جانيت ابنها بعطف مفرط. وحسب "الموضة" السائدة حينذاك جعلت له شعره حتى السن الخامسة.

كان والي في الاربعين عندما التقيته، وبدا حسن المظهر قصير الشعر بعدما تخلص من شعره الأجعد الطويل.

في بداية دراسته حصل الصبي على علامات ممتازة فترفع صفين دفعة واحدة. بعدئذ تحول اهتمامه الى أشياء أخرى، خصوصاً الرياضة والتهريج. وعرفه اخوته صاحب شخصية يصعب التنبؤ بها وغير منسجمة مع تقاليد العائلة. أما في عيون أصدقائه فكان "الفتى اللاهي في العالم الغربي."

وبعد أعمال شغب في المدرسة ركب ورفيقه القطار الى كاليفورنيا هرباً من القصاص. وعلى اثر عودته انتسب الى كلية ماكاليستر ليتركها بعد سنتين فقط حين أصبح موضع نقمة لادخاله بقرة الى الطبقة الثالثة في الكلية. واثر عمله في مصرف بكولورادو وممارسته لعبة البيسبول في أوقات فراغه، انتسب الى جامعة كاليفورنيا في باركلي ليعيد دراسة السنتين اللتين قضاهما في الكلية.

ما من أمر مثل الكلام على الفقر يحمل المرء على التفكير في الثراء. والنداءات التي تلقاها والي من أفراد عائلته كي يحقق تفوقاً أكاديمياً ترافقت مع واقع مالي قاتم عاشته عائلته. فراتب الدكتور جايمس لم يكن كافياً لتسديد الديون المتأخرة. وحين كان والي في باركلي كتب جايمس الى ابنه البكر بنجامين:

"إن ما أتحمله من دي ويت يفوق كل تصور. فهو ينتعل حذاء أبيض بثمانية دولارات. ما من رجل في سانت بول كلها ينتعل حذاء بهذا الثمن، ولا حتى جايمس هيل ملك السكك الحديد. ويبدو أن من المستحيل ادخال فكرة العمل في رأس دي ويت."

## مدرسة الحياة

بقيت فكرة عوز العائلة تلاحق والي، فقرر أن يجمع ثروة ذات يوم. وفي عطلة صيف ١٩١١ أخذ يطوف على بيوت المناطق الريفية في اوريغون ويبيع خرائط للولاية. في اليوم الاول باع ١٢ خريطة في مدفورد، علماً أنه مشى مسافة ٤٠ كيلومتراً في سبيل ذلك. وأثناء تجواله كان يتحدث في ردهات الفنادق الى باعة متمرسين فيدون ملاحظاتهم.

أخذ والاس بالبيع. وكان في الليل يقرأ مجلات ويدون ملاحظات عن أفكار من شأنها تحسين فرص عمله. وبعدما اتسعت دائرة معارفه اكتشف أنه لا يكلم أحداً الا ويتعلم منه شيئاً. فالانسان العادي قد لا يحمل شهادة أكاديمية ولكن لا تجوز الاستهانة بذكائه. كان معظم محادثيه يتوقون الى المعرفة مثله.

دخل والي المسرح في الوقت المناسب، فشهد بزوغ عصر من المعلومات. وفي حين تضاءلت المفاهيم القديمة أو انقرضت، أصبح التغيير في ذاته محور الأخبار في القرن العشرين. وهكذا أشبعت الصحف القراء بكل التفاصيل والتوقعات، وكان تركيزها على السرعة. لكن قسماً كبيراً من القراء شده بفيض المعلومات الى حد أنه لم يستطع التمييز بين التفاهات والحقائق.

وجد دي ويت ان الصحف اليومية توفر أخباراً تتسم بالهزال والسرعة، في حين أن المجلة المصنفة بين صحيفة وكتاب تتيح للقارىء الوقت الكافي كي ينمي فكرة ما ويبقى على اتصال بالاخبار الجديدة.

وكانت تلك الفترة أساسية في حياة رجل سعى الى الارتفاع بطموحاته فوق كل الحدود، وذلك من طريق تحسين الذات. فالنجاح يمكن تحقيقه بالتعلم. لكن العلم لم يعد مقيداً بين دفتي كتاب، بل أصبح متداولا وعملياً وأداة تغيير. الحقيقة كانت متغيرة، والاكتشافات الجديدة تفرض استيعاب الحقيقة.

أما بالنسبة الى دي ويت فان بزوغ عالم الأعمال لم يكن مجرد طريقة جديدة لكسب العيش، بل كان نوعاً جديداً من النظام التعليمي. انه يتيح معرفة الأشياء بدلا من العلم بها.

وهكذا، على رغم خيبة دي ويت في بيع الخرائط، كتب الى والديه: "ان الوظيفة التي أعمل فيها لها سمة جامعية." وفي رسالة أخرى كتب: "ان الخبرة قيمة بصرف النظر عما أفعل."

## قيمة القراءة

ذات مرة كان والي في طريقه لتسليم مجموعة خرائط، فتوقف ليشهد محاكمة. وأثاره الجدل بين المحامين. ولم يكن يتاح له الوقت الكافي لمشاهدة محاكمات عدة، لكنه فكر في أنه قد يجد مطبوعات



دي ويت على ضفة بحيرة وابوغاسيت في ويسكنسن حيث كان لعائلته كوخ صيفي.

عنها. وفي احدى الليالي مشى مسافة ثلاثة كيلومترات تحت المطر حتى وصل الى مكتبة مدفورد كارنيغي واختار كتاباً عنوانه "فن الاستجواب" بقلم فرنسيس ويلمان. وأمضى العطلة الاسبوعية في غرفته يطالع الكتاب. وكتب الى والده عن هذه التجربة.

رأى دي ويت أن في امكانه تطبيق أسلوب استجواب الشهود ليس فقط في المحكمة، بل أيضاً في كل ظرف حياتي. والوقوع على الكتاب بين للطالب الشاب أن ثمة مصادر رائعة للمعرفة مخبوءة في كل مكان.

وبالنسبة الى الابن الاصغر في عائلة علم مثل عائلة والاس، كان دخول مجال العمل الذي يكسب مالا يثير تساؤلات حول بعض القيم الاخلاقية. ورأي كثيرون أن النجاح يعني المادية. بيد أنه بالنسبة الى غالبية الناس، ومنهم دي ويت، فان التقدم المادي للانسان لم يكن يشكل تهديداً، بل انه وعد كبير ببزوغ عصر جديد، عصر الانجاز حين يمتلك كل فرد ما يكفيه من كل شيء.

هذا الايمان لقي الدعم من قصة أندرو كارنيغي أحد أبطال ألجير في الحياة الواقعية. انه من أغنى الرجال في العالم، وهو نشر فلسفته في الحياة التي تفيد أن المرء الناجح في العمل يتعين عليه الاستمرار في جمع الثروة كي يوزعها بعدئذ على الناس. وأدرك كارنيغي أيضاً قيمة المطالعة وكيف أنها توسع الآفاق، فوهب ٦٠ مليون دولار لتشييد مكتبات. وحين اكتشف دي ويت المكتبة في مدفورد كانت واحدة من ٢٠٠٠ مكتبة عامة انشأها كارنيغي في الولايات المتحدة وفي البلدان الاخرى حيث يتكلم الناس الانكليزية.

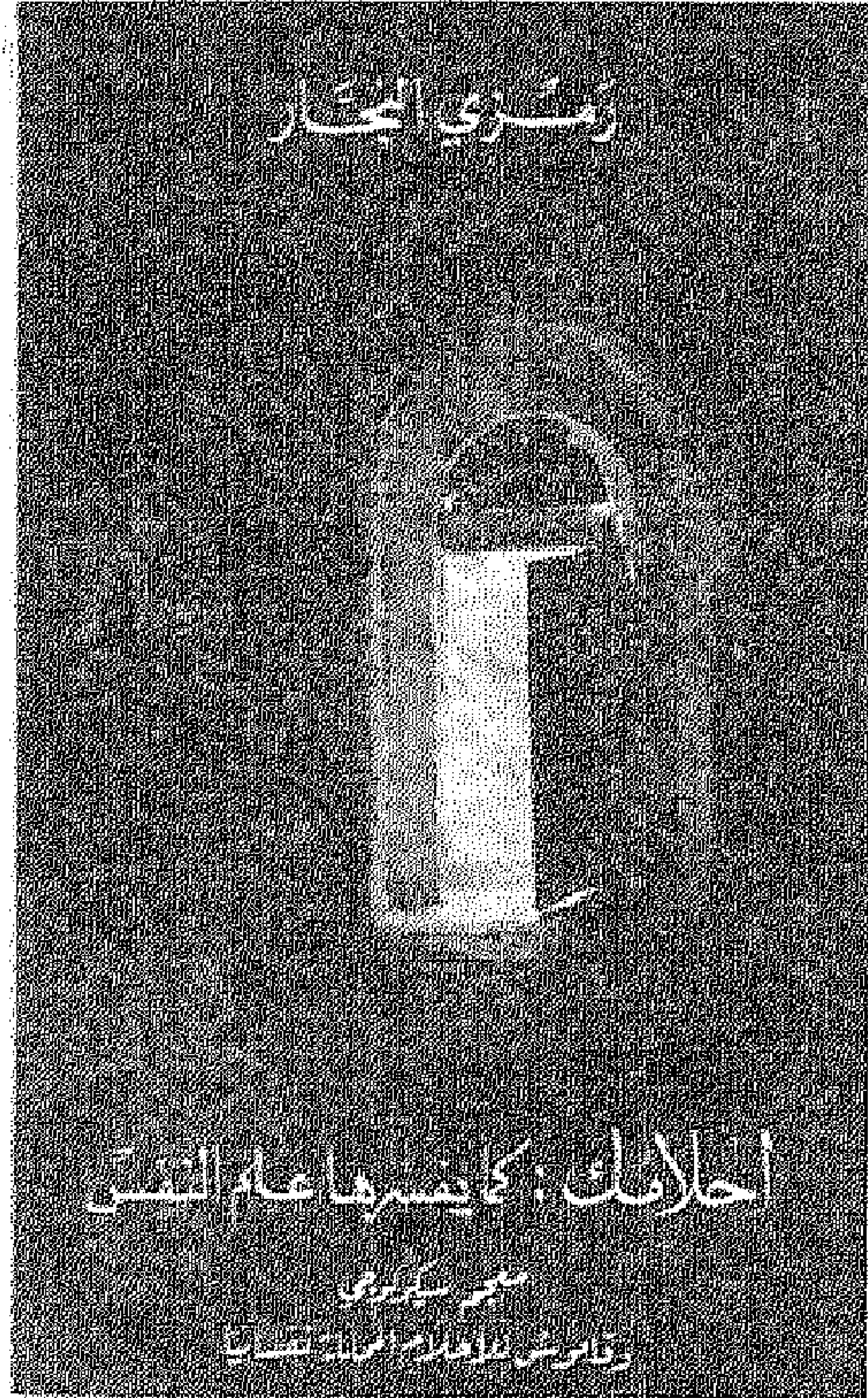
## في البساطة معرفة

منذ طفولته عرف دي ويت المكتبة كمؤسسة. لكن الأمر اختلف عندما استقلّ وبات منفتحاً على نظام يتيح لكل طالب علم معلومات عن أي موضوع. وبالنسبة الى شخص يتتلمذ على نفسه، تعتبر المكتبة المكان المثالي لتحصيل المعرفة. وبعدما اكتشف دي ويت مكتبة مدفورد استغل المكتبات الى أبعد مدى.

وكشخص ترعرع في تكساس، شهدت كيف يقفز الكتاب فوق الحواجز ويطوف العالم بأسره. كان الفارق في العمر بيني وبين والاس عشر سنين ويفصل بيننا ١٥٠٠ كيلومتر، ومع ذلك جمعتنا مكتبة كارنيغي. وبدا الامر كأننا التقينا هناك. كان ذلك قبل عقد من تأسيس والاس منشورته التي جعلها شهيرة، وقبل عقدين من مجيئه الى دار النشر التي كنت أعمل فيها ليسألني أن أكتب مقالات للدايجست.

في ذلك الخريف ذهب والاس الى باركلي للسنة الثانية، وفي الربيع ترك الجامعة نهائيا. وشغل وظيفة مكتبية في دار "ويب" للنشر في سانت بول حيث تولى الرد على الاستفسارات المتعلقة بالكتب الزراعية. وفي الليل واصل تدوين مقتطفات حول الحكمة العملية، من مطالعاته في المجلات. وكان يلح عليه سؤال: هل توفر هذه الملاحظات الاسس الصالحة لاصدار منشورة تتحف القراء

# لن يجازف أحد ويخبركم عن أحلامه بعد اليوم...




هل صحيح أن الأحلام ظروف مختومة لكشف أسرار الشخصية أم هي إشارات مبطنة تنبيء بالمستقبل؟ لأول مرة، وبالأسلوب العلمي:

- إكتشف الغامض في شخصيتك وشخصيات الذين من حولك.
- كتاب «أحلامك كما يفسرها علم النفس» لرمزي النجار ليس ترفيهياً وهدفه ليس المرح الخفيف: بل هو معجم موسوعي وقاموس كامل، دقيق ومبسّط، هدفه دعوة القارىء والقارئة لإتقان تحليل الحلم وإكتشاف اللاوعي لجعله كتاباً مفتوحاً.
- هذا الكتاب هو طريقكم نفتح طريق اللاوعي حسب علماء النفس أمثال "Freud" و"Yung" و"Adler" وغيرهم.
- تحليلات نفسيّة، فوريّة للأحلام في دقيقة واحدة أو أقل.
- الأحلام الفرديّة والجماعيّة كلها مفسّرة في لحظات.
- الأحلام كلّها مفهرسة مثل القاموس وهي الأكمل في أول معجم سيكولوجي موضوع باللغة العربية.
- كلنا يحلم حتى الذين ينسون أحلامهم يجدون في هذا الكتاب الطريقة المثالية ليتذكروا أحلامهم.

تفاصيل حجز نسختك كلها مفصّلة في القسيمة أدناه...
أسرع في الحصول على الكتاب الآن، وإبداء سؤال الأهل والأصدقاء: ماذ تحلمون: عادة ؟ ؟ ؟


- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

قسيمة الشراء (إملاء بخط واضح وبالعربية أو الإنكليزية):

الإسم: ________________ العمر ________

العنوان الكامل ________________________

إرسل بالبريد الجوي المسجّل (المضمون) القسيمة مرفقة بشيك مسحوب على مصرف في نيويورك بإسم رمزي النجار بقيمة ١٠ (عشر) دولارات أميركية إلى أحد العناوين التاليين:
مجلة المختار: ص.ب: 8707-11 بيروت – لبنان أو — مجلة المختار: ص.ب: 55228 المتن الشمالي – لبنان أو
بالتلكس: 44615 MOKTAR LE.
الرجاء وضع العبارة التالية على المغلّف: «أحلامك كما يفسّرها علم النفس»

بأمثلة وارشادات حول اصابة النجاح في الحياة؟

نقل الفكرة الى أحد أصحاب الشركة، ولفت نظره الى مجموعة اخطاء ارتكبها رئيسه في السنة السابقة. وردّ المسؤول: "انها وثيقة مثيرة للاهتمام يا دي ويت. وأنا آسف لأنها تعني طردك من العمل." ولكن حصل ان هذا المسؤول ابدى اعجابه بمواهب دي ويت الكتابية، فعرض منحه اعتماداً مالياً اذا ما قرر مباشرة اصدار مطبوعته.

أكب دي ويت على العمل للحال. وفي غضون أشهر أصدر كتيّباً بعنوان "كيف تجني أقصى مردود من الزراعة"(٢) جاء في ١٢٨ صفحة. وأدرج في الكتيّب أنفع النشرات الزراعية التي أصدرتها الدوائر الحكومية. ومن ثم قاد سيارة مستعملة وطاف في خمس ولايات قاصداً المصارف ومحال البذور التي قد تشتري كتيبه بأعداد كبيرة لتوزيعه على المزارعين، وفي بضعة أشهر باع ١٠٠ ألف نسخة، فسدد دينه لدار "ويب" وغطى بقية التكاليف. وهو لم يحقق ربحاً، لكنه بات يعرف كيف يصدر منشورة.

وفكر في خيارات كثيرة لمتابعة هذا العمل، وكان أحدها موجهاً الى أصحاب المحلات ويضم مجموعة من أفضل المقالات التي كتبت في المبيعات. وأخيراً عنّت له فكرة: أن يصدر منشورة دورية لا تختص بالمزارعين وأصحاب المحلات، بل تتوجه الى جميع القراء الراغبين في زيادة معرفتهم وتحسين أحوالهم والنجاح في حياتهم.

ولكسب العيش في هذه الاثناء عمل والاس مع صانع تقاويم (روزنامات). كان ذلك عام ١٩١٦ قبل أشهر من خوض الولايات المتحدة الحرب. لكن الفكرة العظيمة رسخت في ذهنه. ومن الملاحظات الكثيرة التي تركها الآتية:

"مطبوعات: لا تجزع أبداً، فثمة نزوع خفي وقوي الى المعرفة. واذا نمّيت هذا النزوع كان كل دولار تدفعه لشراء مطبوعات مصدر نفع كبير لك."

وبدأت مصداقية هذه الكلمات تظهر مع أول عدد من الريدرز دايجست.

## رسائل من المحرر

لم تكن ثمة الغاءات ولا طلبات لاسترداد الاشتراكات. لذلك انهمك المحرران في تحضير العدد الثاني. وبقيت ليلى في وظيفتها في العمل الاجتماعي لدفع الايجار. أما والي فكان يتوجه يومياً الى مكتبة نيويورك العامة لتصفّح المجلات فيها بدل شرائها. واذا كان العدد الاخير من مجلة ما لا يتضمن مقالة تثير اهتمامه يصعد الى الطبقة العليا لتصفح الاعداد القديمة. والمقالات التي استرعت انتباهه دوّن خلاصاتها على ورق أصفر.

وفي سبتمبر (أيلول) ١٩٢٢ انتقل الزوجان الى بلدة بليزنتفيل حيث عقد قرانهما. واستأجرا مرأباً بـ٢٥ دولاراً شهرياً وانتقلا اليه حاملين أكداساً من المجلات وطلبات الاشتراكات الجديدة. واستمر ورود الطلبات في حين بقي والي يبعث برسائل الترويج. وفي نهاية السنة الاولى ارتفع توزيع المجلة الى سبعة

(٢) Getting the Most out of Farming

آلاف. وتطلّب الوضع الجديد مساحة أكبر للعمل، فاستأجر الزوجان سقيفة معدّة لحصان ومتصلة بالمرأب، في مقابل ١٠ دولارات اضافية شهرياً. وجاءا بآلات كاتبة وآلات استنساخ واستعانا بجيرانهما للعمل بأجر.

واظب دي ويت على كتابة رسائل الترويج مع اللمسة الشخصية فجاءت فاعلة. فمثلا، قرأ مرة في مجلة أن ثمة سكرتيرة نقلت للعمل في فيلادلفيا. ففكر: هذه الفتاة ترسل الى مدينة غريبة، فأي رسالة تردها، حتى ان كانت للترويج، ستلقى استحساناً لديها وستقرأ كل كلمة فيها.

كان يبعث جميع الرسائل بالبريد الممتاز، وبعض العناوين على المغلفات كان مكتوباً بخطه.

ان طريقته المباشرة للوصول الى المشتركين ارست علاقة شخصية معهم وشكلت نوعاً من الصداقة بين رئيس التحرير والقراء. فرسالة الترويج التي تتلقاها توجه اليك من الرجل الذي أسس المجلة وأصدرها، وهو يعرض عليك الاشتراك فيها لمنفعتك الخاصة. وهناك مجلات أخرى بدأت الصدور في الوقت نفسه وتوجهت الى ملايين القراء وحصلت عليهم في نهاية المطاف. غير أن بداية الدايجست ارتكزت على الفرد، لذلك فاقت في نجاحها جميع المجلات الاخرى.

## تجاوز الهدف

عندما شعر المحرران بالراحة المادية بدأا يغادران البلدة بهدف الاختلاء بعيداً عن أي مضايقات. وفي غضون أيام تراوح بين سبعة وعشرة كانا يجمعان مواد العدد التالي. وكانا في الغالب يستأجران غرفتين متجاورتين في فندق، فيعمل دي ويت في واحدة ويسلم ليلى مقالات لتحضرها في الغرفة الأخرى. وبغية تجنب اضاعة الوقت كانا يتراسلان بأوراق يمررانها تحت الباب. وهذه واحدة وجدت مكتوبة على عجل في دفتر بفندق سانت ريجيس في نيويورك:

"لقد قرأت ١٢ عدداً من كل من هذه المجلات يا عزيزتي، وأنا الآن مثل طفل مرهق. آمل أن يكون ثمة شيء مفيد. تعالي وقبليني قبل النوم."

وضع والاس نصب عينيه هدفاً اساسياً وهو أن يؤمّن ٥٠٠٠ مشترك يدفعون قيمة اشتراكهم سلفاً الامر الذي سيوفر مبلغ ١٥ ألف دولار سنوياً يكفي في العام ١٩٢٢ لتغطية تكاليف المجلة وتأمين حياة مريحة لمحرريها. وقد يمكنهما السفر أيضاً وتحضير مواد في اثناء ذلك. إلّا أن توزيع الدايجست وصل بعد أربع سنوات الى ٢٠ ألفاً شهرياً. وفي السنوات الثلاث التي تلت سجّل التوزيع أرقاماً مرتفعة جداً فبلغ ٢١٦ الفاً. وكان والي مهيّأ لتقبل النجاح الكبير الذي حققه والمشاكل الخاصة التي تنتج من مثل هذا النجاح.

وفي حين كانت الدايجست تنمو باطراد شرع دي ويت وزوجته يستأجران طبقات كاملة في بنايات بليزنتفيل المعدة للمكاتب. وذات يوم توجه رالف هندرسون (٢٦ عاماً) الى مكتب والاس طالباً وظيفة في قسم التحرير. ودوّن رالف ملاحظة عن والاس الذي وظّفه:

"طوله ست أقدام وأنفه البارز يزيده أناقة. (بدلاته موصى عليها عند الخياطين، وليلى تحب أن تشتري له ربطات عنق حريراً من ليبرتي أو سولكا). انه يصغي أكثر مما يتكلم. لكن عينيه السريعتي الحركة تدلان على حيويته وحبه للاستطلاع.

"جميع أعمال التحرير كانت تجري في غرفة الجلوس حيث ركز والي طاولته. كان يقرأ بين ٤٠ و٥٠ مجلة على نحو منتظم، فيختار ٣٠ مقالة ويختصرها بعناية. هكذا سار العمل، بدءاً بالمقالات التي يخط عليها ملاحظات بقلم الرصاص وانتهاء بالاوراق الصفر المطبوعة على الآلة الكاتبة والمعدَّة للارسال الى المطبعة. كل قصاصة يجب أن تمر في آلته الكاتبة النقّالة "كورونا." وفي الغرفة ذاتها وضعت ليلى بيانو كانت تعزف عليه أحياناً كثيرة. وهكذا تمتزج انغام البيانو بطقطقة الآلة الكاتبة وتصل الى المكتب المجاور حيث كنت أعمل."

إنها قصة شاب وفتاة جذابين لم يحتاجا الى شبك أيديهما ليتحابا، فقضيا ساعات معاً أوصلتهما الى النجاح.

## ابتسامة حظ

مرّ دي ويت والاس بالدار الصغيرة لنشر الكتب حيث كنت أعمل. كنت أكتب مقالات لمجلات في أوقات فراغي، وقد أعاد والي نشر عدد منها. لكنه ذلك اليوم سألني أن اكتب مقالة خاصة بالدايجست.

كتبت ست مقالات للدايجست قبل انتقالي الى بليزنتفيل في العام ١٩٣٤ لانضم الى اسرة التحرير. كنا اثني عشر شخصا في الطبقة العليا من بناية احد المصارف وامتدت تحتنا خطوط السكك الحديد، فكان هدير محركات البخار يمزق السكون كل ساعة. وكانت مهمتي مساعدة رئيس التحرير في التعامل مع كتّاب المقالات فنختار أكثرها إبداعاً.

## جامعة الجيب

بعد ظهر يوم سبت من العام ١٩٣٥ كان والي يقود سيارته، فانحرفت به خارج الطريق وأصيبت بأضرار. وأخبره سائق الشاحنة التي قطرتها عن حوادث أخرى استدعي بشأنها وعن الجثث التي سحبها من حطام السيارات. وبفعل القصص التي سمعها من سائق القاطرة قرّر المحرر أنه اذا أطلع قرّاءه بالتفصيل على الحوادث التي تودي بالسيارات الى مجمّع الكسر لعمدوا الى تحسين قيادتهم.

لذلك عيّن كاتباً شاباً يدعى جو فيرناس ليتحدث الى شرطيي السير في ثلاث ولايات، بهدف الحصول على روايات من شهود عيان عن أسوأ الحوادث التي شهدوها. لكن النتيجة التي حصل عليها بعد أسابيع جاءت مخيبة، اذ كتب فيرناس مقالة عادية عن الموضوع في حين أن والي أراد أن يدخل الرعب قلوب القراء.

قال جو في ما بعد اننا طلبنا منه إعادة كتابة المقالة خمس مرات. وفي أي حال فالمقالة كما ظهرت في عدد أغسطس (آب) ١٩٣٥ كانت رائعة. والى ما اتسمت به من صراحة ودقة في وصف الحوادث، فانها حملت عنواناً معبراً في شكل صلاة: "نجنا يا رب من الصواعق

والعواصف ومن الزلازل والحرائق والفيضانات. نجنا من الطاعون والمجاعات ومن الحروب والقتل والموت المفاجيء."

أرسلت ٥٠٠٠ نسخة من المقالة الى الصحف مع إذن باعادة نشرها بغية تمكين أكبر عدد من السائقين من قراءتها قبل حلول عطلة عيد العمال. وبالفعل نشرت المقالة في الصحف في جميع المدن الامريكية الكبرى وفي منشورات اخرى كذلك. وتليت عبر محطات الاذاعة ونوقشت في المدارس والمطاعم. واستمرت طلبات اعادة نشرها ترد لعقدين من الزمن. كانت رائعة كلاسيكية، وهي بلا شك المقالة التي قرأها أكبر عدد من الناس على الاطلاق.

معظم العاملين في النشر اعتبروا والاس محرراً يعمل على قص المقالات ولصقها، وناشراً يصدر مجلة صغيرة تحوي مواد نشرت سابقاً. ومع ذلك فان هذا الشاب الهادىء نشر مقالة هزت البلاد فأثارت لدى أرباب الصحافة إعجاباً يشوبه شيء من الحسد. وفي السنوات التي تلت أصبحت المقالات الاصلية الجديدة ظاهرة أساسية في قائمة المحتويات. وأثارت المجلة مواضيع عن الفاشية وأخطار التدخين والمخدرات وقيادة السيارات في حال السكر، وهي مواضيع أضفت على المجلة طابع الصحافة الباحثة.

حتى تلك الفترة لم يكن والاس وزوجته كشفا اي ارقام عن عملياتهما. ولكن اسكاتا لبعض الاشاعات، نشر والي تفاصيل وافية عن تلك العمليات وسمح لمجلة "فورتشن" الاقتصادية الشهيرة بنشرها في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦. وبلغ توزيع الدايجست آنذاك مليونا وثمانمئة ألف نسخة. وعلى رغم أنها لا تتضمن اعلانات فان "جامعة الجيب" درّت على مالكيها ٤١٨ ألف دولار في السنة السابقة. والرجل لم يكن محرراً خلاقاً فحسب، بل كان أيضاً بارعاً في المجال المالي.

## منزل دائم

بعد نشر المقالة فترت علاقات والي مع عائلته أكثر. فقد ارتعب والده من جراء الثروة التي كشفها. أما أخوه بنجامين الذي كتب من أكسفورد رسائل ودية كثيرة الى "أخي الصغير العزيز"، فقد أبدى له ملاحظات اتهامية مفادها أن دي ويت لم يعطه - ولم يعط أباه - حصصاً من الارباح في مقابل القروض التي قدماها اليه قبل مباشرته نشر المجلة. (كان ذلك أمراً لا يرغب فيه دي ويت وهو أن يكون له شريكان، والد مفكر وأخ أكبر سناً ينصان عليه.)

وبعد زواجه بشهرين كتب والي الى عائلته عن ليلى وفي ذهنه همّ عمله: "لا أعرف فتاة تملك المواصفات الكاملة التي تملكها ليلى والتي تؤمن لي زوجة سعيدة. وأعتقد أنها لا تعرف معنى القلق والتململ. انها ترضى بالبقاء وحيدة أثناء النهار. وهي تحب القراءة والموسيقى والتنزه وتستمتع بعمل البيت. لها ذوق رفيع، وهي مقتصدة ولم تمرض أبداً. كما انها تفكّر في الآخرين وتراعي شعورهم. وانها عاطفية أيضاً."

وعلى رغم أنه أورد اسمها قبل اسمه كرئيسة تحرير فانها كانت قليلة الاهتمام بالتحرير. بيد أن براعتها في عالم الفن والديكور ضاهت براعته هو في الكتابة. وهي اخذت على عاتقها مسؤولية بناء بيتهما في بليزنتفيل بغية استدراج والي من المكتب الذي كان في الاصل زريبة خيل. وفي أوائل الثلاثينات فكرت في تأسيس منزل آخر دائم، وشرعت تجمع تصاميم له ومفروشات وسجاداً قديماً ولوحات فنية وآنية من الكريستال والفضة.

(٣) High Winds

## غرام بالطائرات

انتهى بناء البيت الثاني في العام ١٩٣٧ فضمّ ٤٢ غرفة من طراز "نورمان". بُني البيت بحجار محلية على تلة تشرف على بحيرة "بايرام" التي تقع على بعد بضعة عشر كيلومتراً شمال بليزنتفيل. واشرفت ليلى على تفاصيل البناء واطلقت عليه اسم "الرياح العاتية"(٣). وكان الجيران يدعونه "القلعة" بسبب برجه المستدير.

كذلك أنشىء مدرّج للهبوط على مساحة ٤٢ هكتاراً. واشترى والي طائرة بمروحة واحدة من طراز "فيرتشايلد." كانت الطائرة تتسع لأربعة ركاب وقادها والي بحماسة. كان يستمتع بالتحليق فوق تلتهما لاثارة الخوف في قلب ليلى. وثمة مناورة كان يحب تأديتها وهي أن يطفىء المحرك وينساب للهبوط هوائياً. وهو هجر الطيران في العام ١٩٤٠ عندما قدم طائرته الى كندا.

واذ كانت الدايجست تحتل ١٤ عقاراً مأجوراً حول بليزنتفيل والفوضى فيها تكاد تبلغ الذروة، تعين على والي أن يفعل شيئاً. فاذا كان ما يحتاج اليه بناء




دي ويت وليلى والاس على غلاف مجلة "تايم" في عدد ١٠ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥١. وقد خصصت ثماني صفحات في العدد لقصة نجاحهما.

Portrait: Boris Chaliapin

جديداً فان ليلى كفيلة بانجازه. وهكذا رسم مهندسون معماريون خرائط بحسب اقتراحاتها المستوحاة من أبنية في بلدة وليمسبورغ القديمة.

بدأ العمل في العام ١٩٣٧ على أرض مساحتها ٤٢ هكتاراً تقع بين بليزنتفيل و"الرياح العاتية." وكانت المالكة المشاركة تحضر يومياً لمراقبة العمل. وقد اكتمل البناء عام ١٩٣٩. وهو من ثلاث طبقات من الآجر الأحمر رفعت فوقها قبة بيضاء. وتولت ليلى الاشراف الكامل على الزخرفة الداخلية. وتضمنت المفروشات قطعاً قديمة العهد وأعمالا فنية، وأحيط البناء بجنائن غنّاء.

## المشاركة في الثروة

البرج في "الرياح العاتية" منح والي مسكناً صغيراً خاصاً. ولم يكن الوصول اليه ممكناً الا بسلم ضيّقة ملتوية. والى جانبه أقيمت غرفة حوت ثيابه وسريره. وفي معظم الامسيات، بعد تناوله العشاء، كان والي يستأذن ليلى فيصعد الى مكتبه ويكب على العمل. ولم يدر أحد متى كان ينام. وكان المرح بالنسبة اليه يتمثل في قيادته طائرته.

وحاولت ليلى أحياناً تعديل سلوك زوجها. ففي رحلتهما الاولى الى لندن نزلا في فندق "سافوا". وكان والي حقق نجاحاً ولم يعد يحتج بأنهما لا يستحقان الرفاهية.

واشترت له ليلى هدية هي بطاقة لتعلم الرقص في معهد آرثر موري.

بدأ اصدار الطبعة البريطانية من الدايجست في العام ١٩٣٨ ولحقتها طبعات اخرى في لغات مختلفة. واليوم ثمة ٣٠ طبعة في ١٥ لغة. وفي العام ١٩٥٠ أسس "نادي الريدرز دايجست." وأصدرت الشركة الناشرة كتباً واسطوانات وأشرطة مسجلة. وفي العام ١٩٥٥ فتحت المجلة صفحاتها للاعلانات بغية الحد من ارتفاع بدل الاشتراك. وهكذا زادت الارباح. وبحلول العام ١٩٨٠ قدرت ثروة الزوجين بنصف مليار دولار.

من ناحية اخرى تميز عطاء الزوجين بالسخاء. ففي ١٩٤١ تلقت المجلة ٧١٠٤٠ دولاراً هي حصتها في مقتطفات أدبية للدايجست نشرت حديثاً. وبدلا من اعتبار المبلغ دخلا شخصياً قرر والي أن يوزعه على ٣٤٨ موظفاً لديه يتقاضى كل منهم ٢٥٠ دولاراً أو أقل شهرياً.

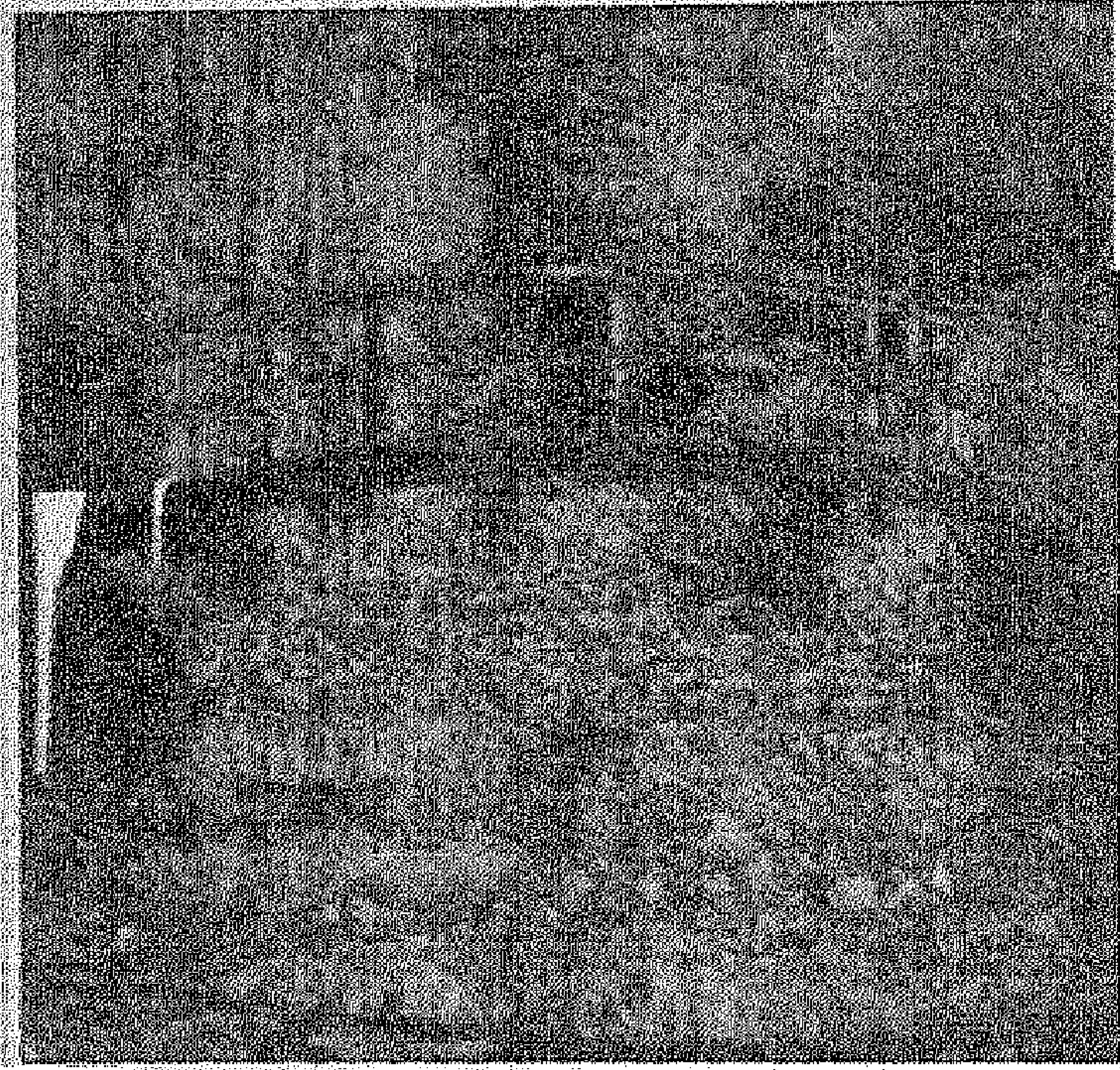
وهو واصل الاغداق على موظفيه طوال حياته. وفي العام ١٩٧٦، في نهاية الحفلة السنوية لقدامى موظفي الشركة، وقف وقال: "يؤسفنا، أنا وليلى، أن ننصرف قبل انعقاد الجلسة المقبلة لمجلس الادارة ولكن..." ثم زف نبأ زيادة الرواتب لجميع الموظفين البالغ عددهم ٣٣٠٠ بحسب النسب الآتية: ١١ في المئة للموظفين الذين يتقاضون ٤٠ ألف دولار أو أقل سنوياً و٨ في المئة للذين يتقاضون أكثر من ذلك.

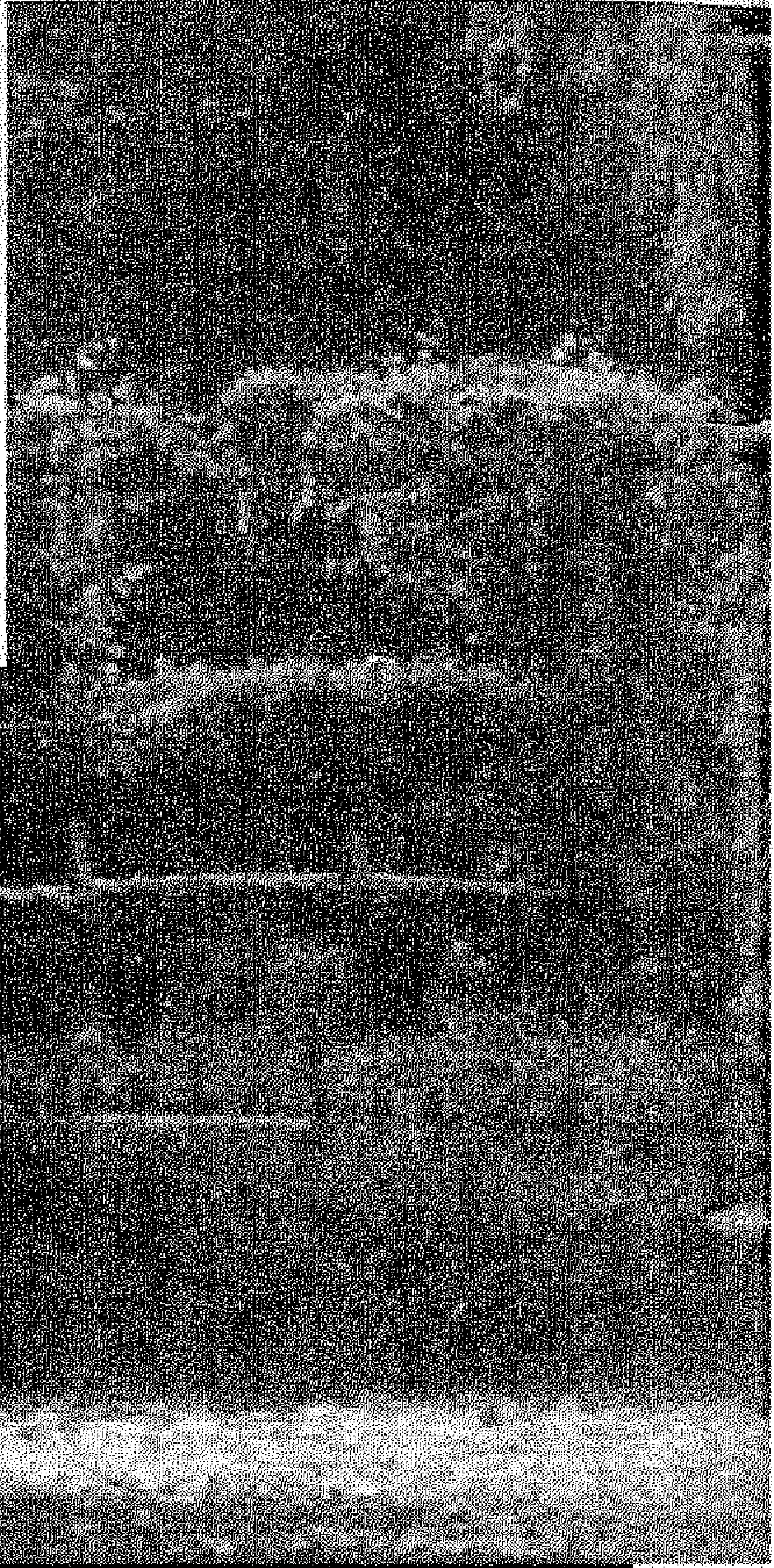
واذ لم يرزق الزوجان أطفالا فانهما لم يهتما لتأسيس "امبراطورية" بل اصبحا يعطيان بسخاء أسطوري. فتلقت كلية ماكاليستر أكثر من ٥٠ مليون دولار من والي وهو على قيد الحياة. أما "جبل

(٤) «Outward Bound» . راجع موضوع "الابحار الى الخارج" في"المختار" عدد فبراير (شباط) ١٩٨٥.

Photo: Dmitri Kessel / Life

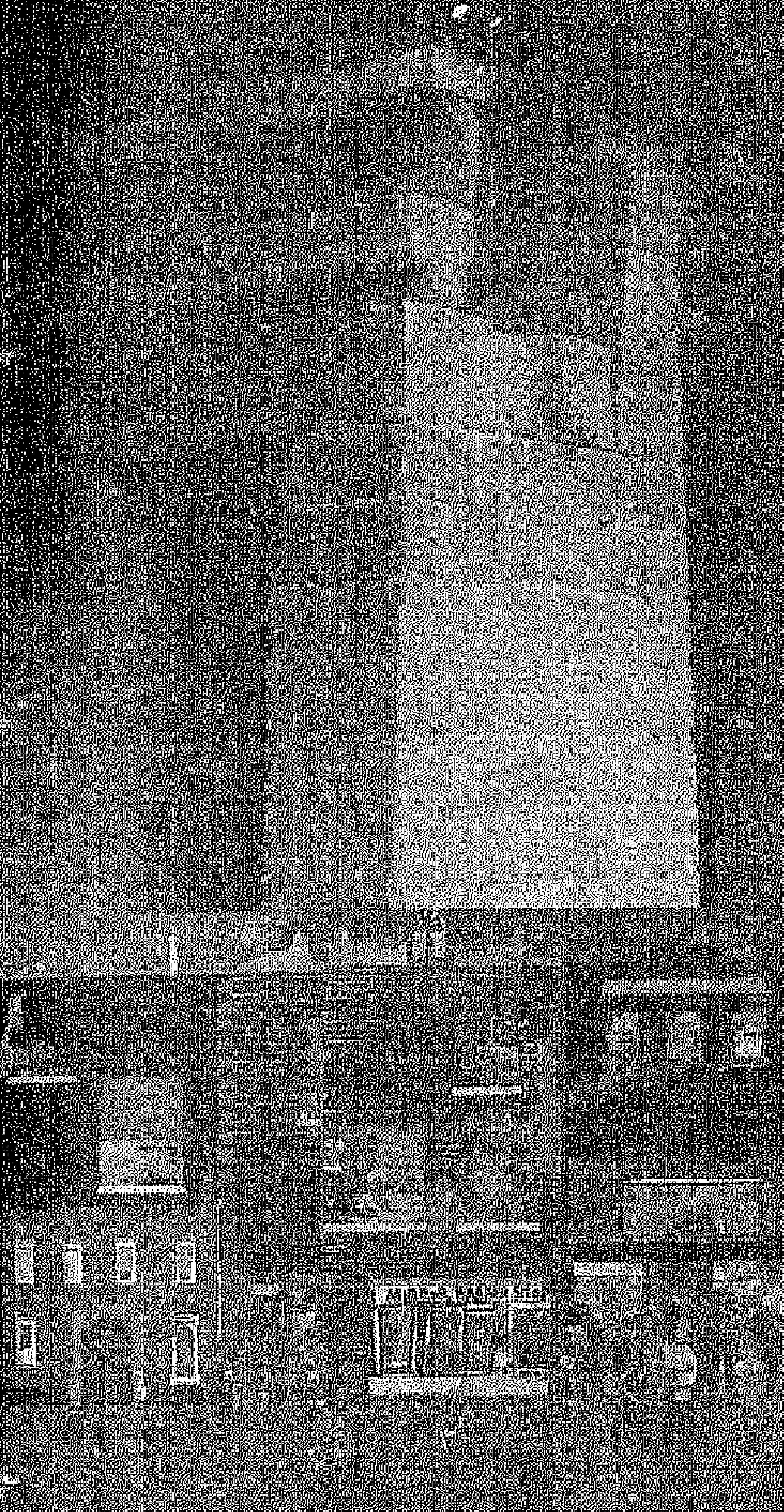
الجسر الياباني في حديقتي مونيه
في جيفرني بعد تجديدهما عام ١٩٨٠.
وفي الصورة الدخيلة يبدو المشهد
كما تخيله مونيه في أواخر القرن الماضي





حرمون"، وهو المدرسة الداخلية التي درس فيها وتركها قبل الاوان، فتلقت نحو خمسة ملايين دولار. كذلك أسس صندوقاً للبحوث والسفر لطلاب الصحافة، وقدم ١,٨ مليون دولار الى مكتبة نيويورك العامة، لتجديد القاعة المخصصة للصحف والمنشورات حيث كان في بداية حياته المهنية ينسخ بخطه مقالات من المجلات التي تروقه. وقد عمدت أمانة المكتبة الى اطلاق اسمه على تلك القاعة.

ونشر والي مقالات عدة عن "الابحار الى الخارج"(٤) وهو برنامج يرتكز على



فوق: الهيكل المصري "دندور" المرمم في متحف متروبوليتان بمساهمة من ليلى. الى اليسار: لوحة "الشارع" (١٩٧١) لرومار بيردن والتي ستعلق في جناح ليلى أتشيسون والاس في المتحف.

خوض المغامرات وممارسة نشاطات في البراري حيث يتعلم الشباب كيف يوسعون آفاقهم ويتجاوزون محدودياتهم ويكسبون الثقة بالنفس. وفي غداء عمل في نيويورك دس والاس ظرفاً في جيب جوشوا ماينر رئيس الحركة في الولايات المتحدة. ويقول ماينر: "أثناء نزولي في المصعد فتحت الظرف فوجدت داخله رسالة وحوالة بقيمة مليون دولار."

وذاع صيت ليلى في البلاد وخارجها. ومن صندوق خاص أسسته، تلقى متحف متروبوليتان في نيويورك أكثر من ٥٠ مليون دولار. وفي هذا الشهر (فبراير/ شباط ١٩٨٧) يفتتح في المتحف جناح خاص بفن القرن العشرين يحمل اسمها. كذلك اتخذت ترتيبات لوضع أزهار حيّة في قاعة المتحف الكبرى نظرا الى الرابط العضوي بين جمال الطبيعة والفنون، كما عمدت الى تجديد حديقتي الرسام كلود مونيه ومحترفه في جيفرني بفرنسا.

بدا والي رجلا عادياً خلال المدة التي حقق فيها ثروته وعظمته. وهو فعلا كان

Photos: (right) Eddie Adams; (left) courtesy The Metropolitan Museum of Art

عادياً، لكنه استطاع الارتقاء الى أعلى درجات العظمة. كان خارقاً بفضل حبّه للاستطلاع وطاقته الفريدة على العمل.

كان يشتري بطاقات بريدية من أي مكان يسافر اليه ليرسلها في الميلاد. فيكتب العنوان على كل منها بخط يده مع كلمة ودية، ثم يرسلها الى كتاب وعملاء وناشرين وموظفين لديه. فيشكر لكل منهم العمل الذي أداه خلال السنة وساهم في إنجاح الدايجست.

في أحد أعياد الميلاد أرسل ٨٠٠ بطاقة من هذه.

اعتقد والي دائماً أن الطريق الى اصلاح البشر متداخلة في المستقبل. وفي عمله الصحافي ساعده هذا الاعتقاد على اتخاذ قرارات كثيرة مكنته من التجاوب والآخرين بعفوية وصدق. وعندما بدأ يصدر "المجلة الصغيرة" لم يجرِ دراسة للمواضيع التي يرغب القرّاء في مطالعتها. بل علم فقط ما أراد هو أن يقرأ.

وكان مفهوماً أن الآراء الواردة في الدايجست، صغيرها وكبيرها، تمثل رأي المحرر الى حد بعيد. وذات مرة كان والي



قيل عن والي انه خجول بطبعه. كان خجولا مثل جرافة لشق الطرق! فذات مساء كنا في أحد مطاعم نيويورك، وراح كل منا يعرض قائمة الطعام ليختار ما يشتهيه. وذكرت عن حسن نية أن ما يأكله رواد المطعم قد يتيح لوالي اختياراً أفضل. فأطبق لائحة الطعام ونهض ومضى يجول بين الحاضرين ناظراً الى الصحون التي أمامهم ليختار الأفضل. وهو حصل على المعلومات التي سعى اليها، وأنا حُشرت في الموقف الذي استحققته.

وجو فيرناس يخططان لنشر سلسلة مقالات تتعلق بالمأكولات في بلدان مختلفة. وجاء دور المأكولات الهندية فقال والي: "سوف أتخطى الهند." فاعترض جو على تجاهل الكري فرد والي: "لن نتناول الطعام الهندي، فانا لا أحبّه."

كان هم والي السعي الى المعلومات التي تعزز آمال الانسان وتوسّع آفاقه. فالمشاكل كانت تتجسد أمامه عندما يجد أن حلولا لها اكتشفت أو أن القارئ

يستطيع فعل شيء لمواجهتها. لقد عاش حياته ملتزماً عبارات مثل "جدير بالاقتباس" و"جدير بالذكر" و"جدير بالتطبيق."

## الوداع

في الثالثة والثمانين من عمرهما أعلن والي وليلى رسمياً تقاعدهما. وفي حين كانا يتنازلان تدريجاً عن مسؤولياتهما التحريرية، بقي والي على اتصال وثيق بها.

في مناسبة عيد الميلاد في العام ١٩٧٨، وصلت الى الدايجست بطاقة معايدة تقليدية ومجهولة المصدر موقعة بكلمات مطبوعة هي: ليلى ودي ويت والاس. وداخل البطاقة كلمة من والاس مطبوعة بأحرف كبيرة:

"لقد انحسر نظري الى القريب في الأشهر الأخيرة (لحسن الحظ ما زال نظري الى البعيد جيداً). لدي صعوبة في قراءة خط يدي. لذلك امتنع عن توجيه ملاحظاتي اليكم وهو الشأن الذي كنت استمتع به في الماضي."

إن المحرر الذي أحب أن يظن ان جميع المشاكل قابلة للحل واجه في نهاية المطاف مشاكل لم يكن بمقدوره حلها.

كانت تمر أوقات يشعر فيها والي بروح الشباب. فقد جاءه جوش ماينر من حركة "الابحار الى الخارج" طالباً مساعدته لتنظيم حملة في أنهار غرين وكولورادو. وتجاوب معه الى حد انه شكل فريقاً من رجال أصغر منه سناً - في السبعينات من عمرهم ومعظمهم موظفون سابقون في الدايجست - للمشاركة في الحملة. وفي الثامنة والثمانين بقيت قدرته على التنظيم فاعلة.

توفي والي في مارس (آذار) ١٩٨١ عن واحد وتسعين عاماً. أما ليلى فعاشت ثلاث سنوات أخرى وتوفيت في الرابعة والتسعين.

خلال سني والي الأخيرة، شعرت بنوع من الحنين الى الماضي. وما زلت اتذكر كل فترات بعد الظهر عندما كنا، هو وأنا، نترك مكاتب الدايجست فوق خط السكك الحديد في بليزنتفيل ونقود السيارة الى الريف حيث كانت البناية الجديدة قيد الانشاء. كانت لامبالاته الطبيعية تخبو أكثر فاكثر مع كل زيارة حتى أخذ يبدي اعتزازه بالبناء. وفي حين كان البناء يتعالى، كنت أشعر بفرح على رغم انني لم أكن مسؤولا ولكن بصفتي أحد المالكين.

بعد وفاته مباشرة وقعت على أبيات شعر مترجمة حاكتني كما تفعل الموسيقى وقالت ما عجزت أنا عن قوله:

"لحناً يخفت
ولكن أنظر!
ان القبّرة
التي تغني تلك الاغنية
قد اختفت."

الحزن تفكير ضعيف، والضعف لا يعني النهاية. فالمجلة التي صنعها دي ويت والاس تبقى المنشورة التي يقرأها أكبر عدد من الناس في العالم، ومنها يستوحي الملايين في أكثر من ١٠٠ بلد الامل والطريق السليم. القبرة اختفت، لكن الاغنية تبقى.

**تشارلز فرغسون** ■

كتاب الشهر

# حكايات عن الإنسان والحيوان

ملخص من كتاب
بقلم جايمس هيريوت

# حكاياتٌ عَنِ الإنسانِ والحيوانْ

**ذات يوم انتقل طبيب بيطري شاب يدعى جايمس هيريوت الى بلدة داروباي الصغيرة في يوركشاير (بريطانيا) ليعيش ويعمل فيها.
ووجد هناك طبيعة تتميز بمناظر رائعة الجمال. وبدأ يكتب عن الحياة في داروباي. وسرعان ما أخذ قراؤه يعدون بالملايين.
وهم شعروا بأن كتبه تصف بلاد عجائب يسكنها بشر وحيوانات على السواء.
وهنا، في كتابه الأخير، جمع جايمس هيريوت قصصاً عن الحيوان توحي انه طبيب بيطري في المقام الأول**

عندما كنت فتى في غلاسكو باسكوتلندا، فتنت بالكلاب. وكثيراً ما تساءلت: لماذا هي مخلصة للجنس البشري الى هذا الحد؟ ولماذا تسر بصحبتنا وترحب بنا حين نعود الى المنزل؟

ثمة كلاب تتصف باشكال واحجام وألوان مختلفة، ومع ذلك فهي تملك مواصفات أساسية مشتركة في ما بينها. فما وراء ذلك؟

بدأ كل شيء يتبلور عندما لفت نظري مقال في احدى المجلات بعنوان: "مهنة الطبيب البيطري الجراح." وبصفة كوني طبيباً بيطرياً في امكاني البقاء مع الكلاب في جميع الأوقات، أحاول معالجتها وانقاذ حياتها.

كنت لا ازال أحاول تحقيق طموحي هذا عندما زار الدكتور أ.و. وايتهاوس رئيس كلية الطب البيطري في جامعة غلاسكو، مدرستي للتحدث الينا. فقد أخبرنا اننا اذا تخصصنا بالجراحة في الطب البيطري فلن نصبح أثرياء أبداً ولكن ستكون لنا حياة كثيرة التنوع.

اقتنعت بكلام الدكتور وايتهاوس، وأعلم الآن تماماً ما أنا فاعله. لكن العقبات كانت كثيرة، اذ أن هذه المهنة هي علمية وانا لم اكن ميالا الى الدراسة العلمية. إلا انني اجتهدت حتى أصبحت طالباً في كلية غلاسكو للطب البيطري، واسعى الى أن اصبح طبيب كلاب. كانت نظرتي الى نفسي واضحة، وتخيلتني واقفا برداء المهنة في غرفة العمليات، على وجهي قناع وامامي على الطاولة كلب ممدد أحاول انقاذه بجراحة.

خرجت الى العالم الرحب بعدما اقترن اسمي بلقب جراح بالطب البيطري من الكلية الملكية من دون أن تتبدل الرؤية التي لازمتني أيام فتوتي. كانت الكلاب في كل مكان تنتظرني، لكن العالم كان قاسياً وغير مبال. فالركود الاقتصادي الذي حدث في الثلاثينات كان لا يزال ضاغطاً على مهنتنا الامر الذي أدى الى ندرة الوظائف. كاد اليأس أن ينال مني لو لم يعين لي موعد لمقابلة من اجل وظيفة في يوركشاير دايلز. والوظيفة التي كنت في صددها تناولت الاحصنة والابقار والاغنام والخنازير. فأين أصبح الحلم الذي طالما راودني؟

وسط الاضطراب الذي تخبطت فيه، كان ثمة عامل ايجابي. فقد كنت اعمل في الهواء الطلق معظم الاوقات تحوطني طبيعة خلابة. كنت مندهشاً كيف ان أحداً لم يكلمني عن يوركشاير من قبل، فالمنطقة غنية بتلال عشبية تطل على أنهار يكثر فيها الحصى وقرى هادئة. لقد كنت في منطقة رائعة الجمال، واذا كان القدر شاءني طبيباً في مزرعة بدلا من طبيب كلاب، فان جمال الطبيعة عوض ذلك.

من المؤسف بالطبع أنني لم أحقق طموحي، لكنني سرعان ما أيقنت أنه كان هناك عمل متصل بالكلاب في القرى المتناثرة في دايلز. فبعدما امضيت سنة في ممارسة الطب البيطري هناك، بدأ الزبائن يأتون إلى داروباي ساعين الى خدمات طبيب بيطري أراد في الحقيقة معالجة حيواناتهم الصغيرة.

كان عملي هذا جزءاً من ممارسة يومية، لكنه لم يكن معالجة الكلاب التي حلمت بها في فتوتي. كذلك لم يكن هناك ممرضات بلباسهن الابيض ولا غرفة عمليات. بل أذكر كيف كنت أخدر كلباً اصغر من فصيل الـ "لابرادور" مكسور الرجل على أرض مكتب البريد في القرية، أو أساعد بقرات على إيلاد صغارها في زاوية مظلمة أو اتمام اجراءات الجراحة على طاولات المطابخ أو الواح التجفيف في أكواخ منعزلة.

كنت أعرف كل مريض باسمه وأذكر المرض الذي كان يشكو منه، فاطمئن الى حاله عندما التقيه وأنا أعبر شوارع القرية.

لم يتبدل شعوري إزاء الكلاب وساعدني هذا الامر على التعامل مع زبائني. فهناك أشخاص يشعرون بحياء عندما يضطرون الى اظهار ما يكنون من مشاعر ازاء حيواناتهم. فهم غير مضطرين الى الافصاح عن ذلك لأنني أعرف حقيقة شعورهم.

وهنا اروي بعضاً من أعز ذكرياتي في هذا الصدد.

# كلب جميل ونشيط

بعدما خرج رامبلنغ غراول من قفصه ووقف أمامي لافحصه بواسطة المسماع، أيقنت أنه أكبر كلب رأيته في حياتي. بعض الكلاب الايرلندية قد تكون أطول منه أو أعرض، لكنه أوزن منها. كان يدعى كلانسي، وهو اسم جيد يطلق على كلب ايرلندي. جو موليغان كان ايرلندياً على رغم السنوات التي قضاها في يوركشاير.

بدا كلانسي ودوداً، لكن صوتاً قوياً كان يتردد صداه في قفصه الصدري، وبدت شفتاه كما لو ان قشعريرة تسري في جسمه. لقد ايقنت فجأة ان الوضع الذي كنت فيه وأنا راكع أرضاً على ركبتي وأذني اليمنى على بعد سنتيمترات قليلة من فمه، محفوف بالخطر.

وقفت وتراجعت بعض الشيء ثم سألت السيد جو موليغان: "هل كلبك يتقيأ؟"

انه يتقيأ كثيراً.

وكان رئيسي سيغفريد فارنون أخبرني يوم وصلت الى داروباي ان الكلب كان على ما يرام، ولكن لوحظ انه يقضم القاذورات التي يلقاها في طريقه لذلك اعطي محتوى زجاجة من مزيج "بيزموث - ماغنيزيوم - كاربونات" في مواعيد منتظمة. وقال لي سيغفريد أن كلانسي عندما كان يشعر بضجر يرمي جو أرضاً ويداعبه بغية الترفيه عن نفسه.

دعاني الواجب المهني الى القيام بفحص كامل له، كقياس درجة حرارته مثلا. كل ما كان علي عمله هو إمساك ذيله. وما ان فعلت ذلك حتى أدار الكلب رأسه ونظر إلي ببرود، فسمعت مرة أخرى هديراً يخرج من صدره.

"سوف آتيك يا سيد موليغان بالزجاجة المعتادة."

تظاهر جو بالارتياح وهو يضع الزجاجة البيضاء في جيبه وقد راقبته وهو ينصرف الى الشارع والغليون في فمه تنبعث منه سحابات من الدخان تبدو كأنها تصدر عن قطار يهم بالاقلاع. وكان كلانسي وراءه يمشي بهدوء يوحي انه في صحة جيدة.

كان سيغفريد جالساً وراء مكتبه في سكلديل هاوس، كان ذلك يوم جمعة وهو يوم الاستقبال حسب مواعيد صباحية. وهو دون على ورقة من دفتر قائمة بزيارات ينبغي القيام بها، ثم قطع الورقة واعطاني اياها. "لاحظت أن كلب موليغان في عداد الحيوانات المريضة فماذا لديك عنه؟"

- كان الأمر غامضاً بعض الشيء، فثمة ما يحير في شأن كلانسي. لم أستطع إجراء كشف له عن قرب لكنه بدا نشيطاً الى حد ما.

وضع سيغفريد القلم جانباً وقال: "كان الله في عوننا. أنت جايمس الطبيب البيطري الجراح الذي له خبرة سنتين، لا تستطيع الادلاء باي معلومات سوى قولك "نشيط الى حد ما". انه لأمر مؤسف. فعندما يأتينا حيوان أتوقع منك اجراء فحوصات كاملة له."

"حسناً"، قلت والشك يعتريني.

نهض سيغفريد من كرسيه ومشى نحو الباب وهو يردد: "أفضل أن أذهب واعاين الكلب بنفسي."

بعد ايام قليلة التقيت جو موليغان




العجوز في السوق والى جانبه كلانسي. فتوجهت اليه وسألته: "كيف حال كلبك؟"

أمسك جو غليونه ورسم على شفتيه ابتسامة خفيفة واجاب: "حاله جيدة، يا سيدي."

"هل عالج السيد فارنون حاله؟"

– نعم، لقد اعطاه مزيداً من الدواء الأبيض.

"ألم يجد شيئاً آخر عندما فحصه؟"

أخذ جو مجة من غليونه وقال: "كلا لم يجد شيئاً آخر. انه رجل ذكي يا سيد فارنون. لم ار رجلا يعمل بمثل ما يعمل به من سرعة، لقد انهى فحصه في ثلاث ثوان."

فقلت: "هذا مثير للدهشة. ماذا جرى؟"

ضرب جو غليونه بكعب حذائه، ثم أخذ سكيناً وراح يحضر حفنة تبغ أخرى: "حسناً سوف أخبرك الآن. دق السيد فارنون على الباب ودخل الغرفة، وأخرج فوراً ميزان الحرارة من علبته. كان كلانسي مستلقياً بجانب النار فوقف للتو وأصدر نباحاً خفيفاً."

في امكاني تصور الوحش الذي يعلو الشعر جسده وهو ينبح في وجه سيغفريد فاغراً فاه ومكشراً عن اسنانه.

واضاف: "اعاد السيد فارنون ميزان الحرارة الى علبته وخرج من الغرفة."

لم يجر الكلام على الكلب الكبير لأكثر من اسبوع، لكن ضمير سيغفريد المهني كان يؤنبه لأنه جاء الى المستوصف بعد ظهر ذات يوم عندما كنت احضر مع اخيه تريستان، وهو طالب في السنة الاخيرة بكلية الطب البيطري، شراباً ضد الحمى ومسحوقاً لمداواة المعدة.

فخاطبنا قائلا: "أنا غير مقتنع بأننا اكتشفنا سبب تقيؤ كلب موليفان. بالتأكيد السبب هو فساد الشهية، لكنني أريد التأكد من ذلك. لقد سألته أن يأتي بكلانسي بعد ظهر غد بين الثانية والثانية والنصف عندما نكون كلنا هنا." نظر إلي وتابع كلامه: "جايمس، عندما يصل الكلب هل تمسك مؤخرته؟" ثم نظر الى أخيه وقال: "وانت تريستان، امسك رأسه."

سبق لتريستان ان فحص كلانسي، فرد: "حسناً، حسناً."

فرك رئيسي يديه وقال: "حينما يدخل المخدر جسمه يهون الأمر."

بعد ظهر اليوم التالي اجتمعنا نحن الثلاثة ورحنا نتجاذب أطراف الحديث ونتطلع الى الشارع بين فينة وأخرى. خيم سكون بيننا قرابة الثانية والخمس والعشرين دقيقة. وفي الدقائق التي تلت حدقت عيوننا الى ساعاتنا. وفي الثانية والنصف تماماً قال سيغفريد:

"هذا أمر غير مقبول. فلقد ابلغت جو انه يتوجب عليه الحضور قبل الثانية والنصف، لكنه يحضر دائماً متأخراً. لن ننتظر أكثر من ذلك فعلينا انا وجايمس أن نعالج مهراً، وأنت يا تريستان عليك أن تفحص وحش ويلسون. فلننطلق إذاً."

خرجنا نحن الثلاثة من الباب الى الممر، وفي غضون ثوان كنا في الشارع. ولدى انطلاق تريستان، تصاعد من عادم سيارته دخان كثيف. أما انا ورئيسي فانطلقنا بسرعة مماثلة في الاتجاه المعاكس.

وما أن بلغنا ضواحي البلدة حتى رأينا موليغان الذي كان ترك بيته للتو ومعه كلانسي.

قال سيغفريد بدهشة: "ها هو! انه لن يصل قبل الثالثة وهو يقود بهذه السرعة." ثم نظر الى الحيوان الضخم الذي غطى الشعر جسده، وبشائر الصحة والحيوية تطفح من وجهه، وتساءل: "يبدو نشيطاً، الى حد ما، أليس كذلك؟"

## الشرود

في اثناء احدى جولاتنا في السوق، انا وسيغفريد، شاهدنا الكلب الصغير بين الأكشاك.

وعندما كانت شؤون الجراحات تسير على ما يرام كنا نخرج ونتحدث مع المزارعين المجتمعين في دروفرز آرمز. ولفت انتباهنا مرة كلب أمام كشك البسكويت.

"انظر الى هذا الحيوان الصغير،" قال سيغفريد، "وفي اي فئة تصنفه؟"

– انه يشبه الخروف، غير ان فيه شيئاً مميزاً.

اقتربنا منه وخاطبته بالآتي: "دعنا نلقيَ عليك نظرة." حدّقت الي عيناه البنيتان لبرهة، ولكن عندما اقتربت منه أكثر، أدار وجهه وانصرف.

لم الحق به لأنني كنت اجهل موقف سيغفريد من الحيوانات الصغيرة. والحقيقة انه كان يعارض وقتئذٍ بشدة فكرة الاحتفاظ بها كحيوانات داجنة. وقال ان ذلك محض هراء، على رغم أن خمسة كلاب متجانسة كانت تتنقل معه في السيارة باستمرار.

عندما كنت واقفاً هناك، جاءني شرطي شاب وقال: "كنت أراقب ذلك الكلب وهو يستعطي طوال الصباح، لكنني مثلك لم أستطع الاقتراب منه."

– نعم، ان ذلك مستغرب. فهل تعرف من هو صاحبه؟

فرد: "ان هذا الكلب غريب يا سيّد هيريوت. أظن انه شرود. فأنا لا أفهم كيف يترك المرء حيواناً لا حول له من دون مساعدة."



هذا الشكل أليس كذلك يا جايمس؟ أي ساعة نكون جاهزين للخروج. من الافضل أن تنتقل الى المكان وتلقي نظرة على الكلب. وأنا سأبقى في انتظارك هنا."

كان الوجار خلف مركز الشرطة، فقادني الشرطي اليه. وبعدما فتح الباب، رأيت الكلب ممدداً على الارض من دون حراك وقد بدت عليه آثار كدمات، وكانت احدى رجليه مصابة بكسر. كذلك ظهر دم على شفتيه.

رفعت رأسه برفق ونظرت الى فمه. وعندما وقع نظري على وجهه، بان لي كأنه أصيب بصدمة. كانت عينه اليمنى مدلاة خارج محجرها. وحدّق إليّ مستعطفاً بعين واحدة.

فسألني الشرطي: "ما رأيك يا سيّد هيريوت؟"

علمت ما كان الشرطي يقصده، فالامر الوحيد الذي يريح هذا المخلوق الضائع الشريد هو جرعة سريعة من المخدّر فتنتهي آلامه وأذهب أنا الى الحفلة. نهضت وسألت الشرطي بدوري: "هل في امكاني استعمال الهاتف؟"

رد علي سيغفريد بصوت يوحي ان صبر صاحبه قد نفد: "جايمس، هل نسيت الحفلة؟ اذا أردت الذهاب علينا التوجه الى المكان الآن. فالحيوان الذي ذهبت من اجله ليس سوى كلب شرود."

– أعلم ذلك يا سيغفريد لكني لا أستطيع اتخاذ قرار. ليتك تأتي وتبدي لي رأيك."

تنهد سيغفريد عميقاً وقال: "حسناً يا جايمس."

لقد صاحبت قدوم سيغفريد جلبة وهو

عندما أويت الى فراشي في تلك الليلة، لم أستطع طرد صورة مزعجة من مخيلتي وهي صورة مخلوق صغير تائه في عالم غريب، يطلب مساعدة بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.

مساء الجمعة من الاسبوع ذاته، كنّا انا وسيغفريد نستعد لحفلة في هانت شرق هيردسلي التي تبعد عن مكان اقامتنا حوالى ١٥ كيلومتراً. كنت على وشك الانتهاء من ارتداء ثيابي عندما رن جرس الهاتف. كان على الخط الشرطي الذي كلّمته في وقت سابق من الاسبوع. قال: "لقد امسكنا الكلب الذي كان يستعطي في السوق، إذ وجده أحد الرجال ممدداً على حافة الطريق على بعد حوالى كيلومتر من البلدة. لقد أصيب في حادث."

أعلمت سيغفريد بالأمر فنظر الى ساعته وقال: "ان الامور تحدث دائماً على

يدخل مركز الشرطة وعلى كتفيه معطف مصنوع من وبر جمل فوق قميص بيضاء وربطة عنق سوداء. تقدم منه الشرطي الشاب باحترام ورافقه الى الوجار.

انحنى سيغفريد فوق الكلب وامسك رأسه ورفعه بعناية، وقال: "يا إلهي" ثم نهض وتمتم: "فلنجر له جراحة."

أعطينا الكلب مخدراً، بعدما مددناه على طاولة، وفحصناه بامعان. وقال سيغفريد على الاثر: "عينه في غير محلها، عظم الساق مكسورة، وفي انحاء جسمه كدمات عدة. هناك ما يشغلنا حتى منتصف الليل."

فك رئيسي عقدة ربطة عنقه، كما فك زر قبة قميصه: "بحق السماء هذا أفضل."

نظرت اليه وهو أمام طاولة العملية وسألته: "ماذا عن الحفلة؟"

- لا تهتم لها فثمة ما يشغلنا.

## الشرطي والكلب الصغير

انهمكنا في العمل لمدة طويلة. بدأنا بعين الكلب. زيتت العين وعمل سيغفريد على ادخالها مجدداً في حجرتها. وقال: "ليس ثمة ضرر كبير، سنخيطها كي نحميها لأيام قليلة."

بعدئذ شرعنا في العمل على الكسر في الساق قبل ان نخيط الجراح المتعددة التي اصيب بها. غير أن ما كان يشكّل مصدر ازعاج بالغ لنا هو ان علينا القضاء على الكلب بعد عشرة أيام اذا لم يتقدم خلالها أحد ويتعرف اليه.

عندما انتهينا من العمل كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل، فنقلنا الكلب على حمّالة الى غرفة الجلوس ووضعناه قبالة النار. وانحنى سيغفريد فوقه ولمس أحدى اذنيه وقال: "يا له من كلب صغير رائع."

بعد يومين فككت القطب وسررت لرؤية العين المصابة متعافية. وكان سرور الشرطي الشاب يوازي سروري. وهو قال متعجباً: "أنظر الى عينه، لن تعرف أبداً أن صاحبها تعرض لحادث."

مرّت الأيام ولم يسأل أحد عن الكلب، وفي اليوم العاشر قصدت مركز الشرطة. كنت أكره تسليم كلب صغير السن يتمتع بصحة جيدة ولكن بصفة كوني طبيباً بيطرياً كان عليّ القيام بذلك.

سألت الشرطي الشاب: "ما من أخبار حتى الآن؟" فهزّ برأسه سلباً.

هممت بتجاوز الشرطي، وكان الكلب الى جانبي يتطلع إليّ بعينين براقتين وتبدو على محياه دلائل السرور. الا اني استدرت بسرعة محاولا الخروج فناداني الشرطي: "سيّد هيريوت أظن انني سآخذه."

حدّقت اليه وقلت: "أنت؟"

فأجابني بهدوء: "نعم، ومع اننا لا نستطيع توفير مكان لكل كلب شارد إلاّ أن هذا الكلب يختلف عن غيره."

سرى في عروقي دفء ونظرت الى الشرطي كأنني لم أره من قبل وسألته: "ما اسمك؟"

فأجاب: "فيلبس، بي.سي. فيلبس."

فقلت له: "حسناً يا فيلبس!" ثم هممت بمد يدي لمصافحته وتربيت كتفه لكنني استطعت ضبط نفسي احتراماً لمهنته.

فك سيغفريد بقية القطب، ولم أر مريضنا ثانية إلا بعد أربعة أسابيع عندما



جاء فيلبس بالكلب ومعه ابنتاه اللتان حضنتا حيوانهما الاليف بأيديهما وحملتاه الى الطاولة. كان فمه مفتوحاً للتعبير عن امتنانه. فابتسم فيلبس وقال: "يصعب عليّ القول كم نحن سعداء بوجوده بيننا يا سيد هيريوت. انه واحد من أفراد العائلة."

فقلت له: "حسناً، فهو لن يجد مكاناً أكثر رعاية له." فضحك فيلبس وخاطب الكلب الصغير: "هذا ما نلته من استجدائك في الازقة. فأنت الان في عهدة القانون."

## ورك ورجلان

"هل في امكان السيد هيريوت معاينة كلبي، من فضلك؟"

انها كلمات مألوفة غالباً ما تتردد في غرفة الانتظار في سكلدايل هاوس، لكن قائلها هذه المرة استوقفني وأنا خلف الباب.

لا يمكن أن يكون السائل هيلين ألدرسون، ولكن بدا الامر كذلك. نظرت من ثقب الباب من دون تردد. كان تريستان واقفاً هناك ينظر الى شيء بعيد عن نظري. وجل ما استطعت رؤيته هو يد مرتاحة على رأس كلب مريض، وطرف تنورة (جونلة) صوفية.

وسرعان ما انحنى رأس هذا الشخص ليتكلم مع الكلب فبدا أنف صغير وشعر أسود منسدل على وجنتين طريتين.

كنت لا أزال في حال من الشك عندما دخل تريستان الغرفة فجأة وكاد ان يصطدم بي. أمسك يدي وقادني الى المستوصف عبر الرواق. وبعدما أغلق الباب خلفه تكلم الي همساً: "إنها السيدة الدرسون وتود رؤيتك! لا تريدني انا ولا سيغفريد بل تريد السيد هيريوت!"

نظر إلي بعينين واسعتين لبضع لحظات ثم فتح الباب وحاول دفعي في الرواق وانا في حال من التردد: "ماذا تنتظر؟"

– يبدو انني أشعر ببعض الحرج أليس كذلك؟ خصوصاً بعد تلك السهرة.

ضرب تريستان جبهته بيده وقال: "كان الله في عوننا! انك تهتم للتفاصيل أليس كذلك؟ لقد طلبت رؤيتك فما الذي تبغيه أكثر من ذلك؟ هلّم اذهب اليها!"

سرت الى غرفة الانتظار فنظرت إليّ الزائرة وابتسمت. انها الابتسامة ذاتها التي وقع عليها نظري عندما تقابلنا للمرة الاولى. تواجهنا لبضع لحظات في جوّ ساكن.

قالت بعد صمت: "انه الكلب دان،" فهزّ الكلب ذنبه بقوة لدى سماع اسمه وتحرك في اتجاهي. فانحنيت فوقه وربتّ رأسه: "أرى أنه مصاب في رجله."

– نعم، لقد قفز هذا الصباح فوق حائط ومنذ ذلك الوقت وهو على هذه الحال، إذ هو لا يستطيع الوقوف.

فقلت لها: "صحيح. خذيه الى الغرفة الثانية لكي ألقي عليه نظرة. ولكن دعيه يمشي أمامي."

تركت الباب مفتوحاً وسارت أمامي هي والكلب.

وبدا من خلال مشيته أن وركه في غير محلها اذ كانت قدمه تمسح الأرض، انه خلل أساسي ولكن في استطاعتي اصلاحه بسرعة.

وضعت دان على طاولة الجراحة في غرفة العمليات وتفحصت وركه. ما من شك في أن عظم الفخذ في غير محلّه.

سألتني هيلين: "متى ستبدأ الجراحة؟"

– للتو. سوف أنادي تريستان لأن العمل يتطلب شخصين.

"أليس في استطاعتي مساعدتك؟ انني أرغب جداً في ذلك."

نظرت اليها والشكوك تساورني: "أنا متأكد من أنك لا ترغبين في ممارسة لعبة شد الحبال ودان في الوسط."

فردت: "لكنني قوية جداً واستطيع تحمّل ذلك."

قلت: "صحيح. انزعي عنك المعطف ولنباشر العمل."

لم يتحرك الكلب لدى ادخالي الابرة في وريده. وبعدما دخل المخدر جسمه ارخى رأسه على ذراع هيلين، وسرعان ما فقد الوعي. أمسكت الرجل المصابة وقلت لهيلين: "أريدك أن تمسكيه تحت وركه جيداً عندما أبدأ الشد. هل أنت جاهزة؟ فلنبدأ الآن."

إن جذب عظم الفخذ يتطلب قوة كبيرة وقد ادت هيلين مهمتها بشكل صحيح فكانت تشد في اتجاه معاكس للاتجاه الذي أشد فيه انا. ومارست جميع الاساليب لاعادة العظم الى مكانه. وكنت اتساءل عما تفكر فيه هيلين في تلك الجولة من المصارعة عندما سمعت صوت العظم وهو يدخل موضعه. يا له من صوت مستحب.

حرّكت الورك مرة بعد مرة فلم اصادف مقاومة مما دل على أن العظم عاد الى مكانه. وقلت لهيلين: "حسناً انتهت العملية وآمل أن تظل الورك في موضعها. انني أشعر بأن نجاح العملية أمر دائم."

حملت دان الى سيارة هيلين ووضعته في المقعد الخلفي.

وفي المساء اتصلت بي هيلين وأفادت أن دان يمشي بشكل طبيعي. وسكتت

لبرهة ثم قالت: "أشكرك جزيل الشكر على ما فعلته."

- لا شكر على واجب. انه كلب مميز.

ترددت لحظة ولكن يجب أن أخاطبها الآن: "تذكرين اننا كنا نتكلم اليوم عن اسكوتلندا. حسناً كنت أمر في البلازا هذا الصباح وعرفت ان فيلماً عنها يعرض هناك، ظننت ان في الامكان... ربما ترغبين في ان نراه معاً."

ساد صمت لبرهة تسارعت خلالها دقات قلبي.

"حسناً،" قالت هيلين، "نعم أرغب في رؤيته، ولكن متى؟"

- مساء الجمعة؟

"اشكرك والى اللقاء."

أعدت سمّاعة الهاتف الى مكانها في حين كانت يدي ترتجف.

## جوك أفضل الكلاب

جلست في السرير ونظرت أمامي الى داروباي والتلال خلفها.

ثم نهضت وسرت الى النافذة. ان الصباح سيكون جميلا فقد سطعت أشعة الشمس على قرميد السطوح التي طاولتها بعض الاشجار المزروعة في الجنائن المحيطة بالمنازل.

كان المنظر الذي تقع عيناي عليه كل صباح يجلب السعد، بعد رؤية هيلين التي كانت أجمل منه. عقب انهاء شهر العسل، أقمنا بيتنا الاول فوق سكلدايل هاوس. سيغفريد الذي كان رئيسي حتى زواجي، والآن هو شريكي، عرض علينا استعمال الغرف الفارغة في الطبقة الثالثة مجاناً فقبلنا عرضه بامتنان. ومع انها كانت تتسم بالبساطة، فان الكثيرين حسدونا عليها.

عملت هيلين بسرعة على غلي الماء في غرفة الطعام الخلفية التي تستعمل مطبخاً في الوقت ذاته، وشربنا أول فنجان شاي ونحن بجانب النافذة نتطلع الى الحديقة. بعد تناول طعام الفطور جمعت بعضاً من أغراضي بما في ذلك خيطان الجراحة التي سأستخدمها في تقطيب جرح في رجل مهر، وخرجت الى الحديقة ثم استدرت ونظرت الى نافذتنا فظهرت منها يد وهي تحمل قطعة قماش لتجفيف الصحون. لوحت لها بيدي فبادلتني القماشة التلويح بحماسة. تلك كانت بداية كل يوم، وكانت بداية جيدة.

كان المهر المصاب في مزرعة روبرت كورنر. لم يكن مضى علي هناك وقت طويل عندما شاهدت كلبه جوك. كانت قضيته تثير الاهتمام فهو يحب مطاردة السيارات التي اعتبرها فناً في ذاته. مزرعة كورنر تقع في نهاية طريق طويل وتمر طريقها بحقول منحدرة حتى تصل الى الطريق السفلية. ولم يكن جوك يعتبر أنه أدى عمله بطريقة صحيحة ما لم يرافق السيارة حتى نهاية الطريق. تلك كانت هوايته المفضلة.

راقبته بعدما أنهيت تقطيب رجل المهر وبدأت تضميدها. كان يجول بجسمه النحيل المغطى بشعر أسود وأبيض متظاهراً بعدم الاكتراث لي. كان في انتظار اللحظات المناسبة.

وما أن أدرت محرك سيارتي وتحركت بها قليلا حتى تنبه الى ذلك. وفي حين أسرعت قليلا أخذ هو يعدو بارتياح

محافظاً على سرعة توازي سرعة سيارتي.

كان ثمة كوع قاس في منتصف الطريق تقريباً، فقفز جوك فوق الحائط قاطعاً الكوع وبدا كتلة سوداء فوق مرج أخضر. وبعدما اختصر المسافة ظهر مجدداً مثل صاروخ. بقي يعدو بجانبي حتى وصل الى الطريق المعبدة حيث فارقني بوجه بدت عليه دلائل السرور. لقد اعتبر انه انجز عمله على ما يرام.

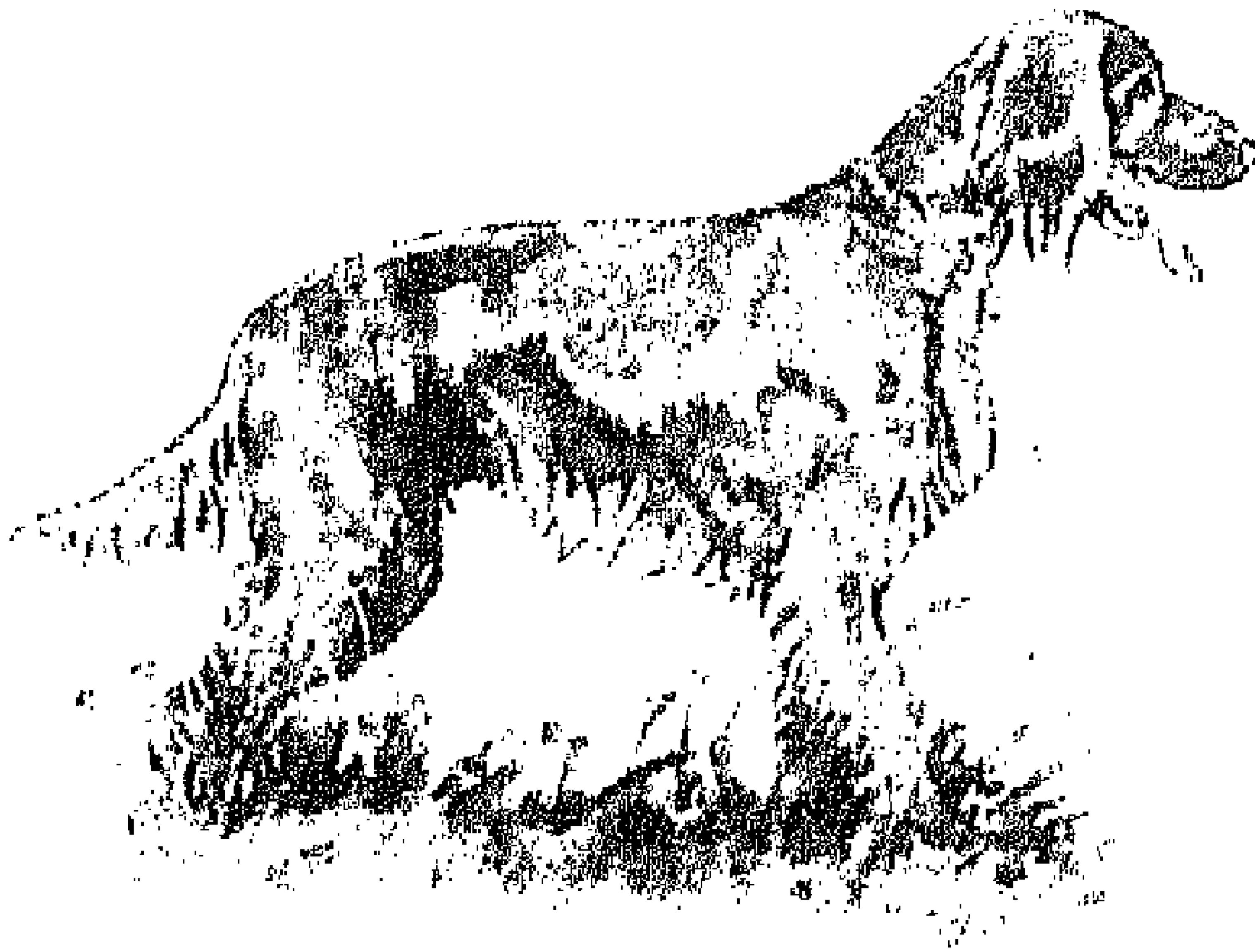
وهناك وجه آخر لجوك، اذ هو كان يقوم باداء ممتاز في خلال مباراة حراسة القطيع. ونتيجة ذلك، حصل السيد كورنر على جوائز عدة. وفي الحقيقة، كان في وسع المزارع بيع الحيوان الصغير في مقابل مال كثير لكنه لم يقتنع بمفارقته. وبدلا من ذلك، اشترى كلبة لتلازم جوك. وقد أنجبا سبعة جراء تنتقل في الرواق وبين الاقدام. كان جوك يراقبها وهي تحاول اللحاق به في سعيه الى مرافقة سيارتي.

وكانت مرت عشرة أشهر تقريبا على زيارتي الاخيرة للمزرعة عندما رأيت الجراء من جديد، كانت مثل نماذج سبعة لجوك. تحركاتها حولي وأنا أهم في الدخول الى سيارتي أثارت في نفسي بعض الذكريات. كانت تتسابق على المراكز بحيث تستطيع الافلات بسرعة.

انطلقت بسيارتي مسرعاً في الرواق وانطلقت السبعة على جانبي السيارة وعيونها تلاحقني. وعندما انسحب جوك تبعته الجراء. ولكن عندما دخلت حرم المنزل، لاحظت شيئاً جديداً. فمن عادة جوك مراقبة السيارة باستمرار كأنها عدوته. أما الآن فكان يحدق الى الجراء وهي على جانبي السيارة كأنها كانت أنداداً له.

ما من شك في أن جوك كان في ورطة، إذ حاول جاهداً مجاراة الجراء في السرعة. لقد مر بلحظات حرجة عندما تعثر في العدو ووجد حوله الجراء السبعة فبدا كأنه خسر كل شيء، لكن فيه ارادة قوية لم تهن فعاد الى العدو بكل ما يملك من قوة. وفي الوقت الذي وصلت الى الطريق كان جوك في الطليعة مرة أخرى.

لكن ذلك أخذ منه كل جهد، فخففت السرعة قبل الانطلاق بعيداً ونظرت الى جوك الذي مد لسانه بعدما أنهكه التعب. كان همه ألا يصبح منسياً بعد بروز الجراء.



شعرت بأسف إزاء الكلب. وفي زيارتي التالية للمزرعة، بعد قرابة شهرين، لم أكن متشوقاً لرؤية جوك في مرحلة شيخوخته الحتمية. لكنني عندما قدت سيارتي في الرواق وجدت المكان غير مأهول على غير عادة.

كان روبرت كورنر ينقل تبناً الى حيث كانت الأبقار. فسألته: "أين كلابك؟"

فاجاب: "لقد ذهبت جميعها. بحق السماء ثمة سوق مزدهرة لكلاب رعاية الماشية. انني حققت ربحاً لا بأس به من ذلك."

وسألته مجدداً: "ولكن ألست محتفظاً بجوك؟"

فاجاب: "آه بالطبع. أنا لا استطيع مفارقة الكلب العجوز. إنه هناك."

وبالفعل كان جوك يجول من دون ان يتظاهر بأنه يراقبني. وعندما انطلقت بسيارتي كان هو إياه فأخذ يعدو الى جانب سيارتي بارتياح ورافقني الى الطريق من دون مشكلة.

اظن انني شعرت بارتياح كالارتياح الذي كان يشعر به هو. فهو وحيد لا يتحدى تفوقه اي كلب آخر. انه ما زال افضل الكلاب.

## كلمة عزاء

غالباً ما كنت أظن أن كلبي جاك ساندرز هما مثال الكلاب. كان أحدهما يدعى جينغو. وحين حقنته بالمخدر، أطلق الثور الأبيض أنّة واحدة ثم أسلم نفسه الى القدر.

في غضون ذلك، أخذ صديقه سكيبر الذي لا يفارقه أبداً، يعض اذنه بلطف. كان منظرهما على طاولة واحدة أمراً غير مألوف، لكنني لم أعلق على ذلك عندما رفعهما صاحبهما الى الطاولة نظراً الى العلاقة القائمة بينهما.

كان سكيبر في عامه الحادي عشر، وبدأ يظهر تقدماً في السن من خلال صعوبة الحركة وضعف البصر. أما جينغو فكان في عامه الثالث، أي في اوج قوته. كان حيواناً هائلا تغطي عظام صدره عضلات قوية. ولكن عندما أخذ سكيبر يعض أذن جينغو بعنف، استدار هذا والتقط رأس سكيبر بلطف بين فكيه فتوقف الحيوان الصغير عن العض. لقد كان عناقهما محبباً!

بعد عشرة أيام احضرهما صاحبهما الى العيادة لفك القطب. كانت تبدو عليه علامات القلق، إذ لاحظ ان عيني الكلب الصغير متعبتان وذيله مرخي من دون حراك، حتى أن عض رفيقه لاحدى كفيه لم يثر فيه أي اهتمام.

تفحصت الكلب الصغير بعناية. كانت حرارته مرتفعة، وهذا يدل على انه مصاب بالتهاب حاد ولكن من الصعب معرفة مكانه. مررت يدي على رأسه فتحرك ذنبه قليلا واستدار بعينيه الودودتين في اتجاهي. رفعت جفنه العلوي بسرعة فوجدت مشحة صفراء في بياض عينه.

قلت: "جينغو مصاب بداء اليرقان الذي تصعب معالجته. وحقيقة الامر أن نسبة نفوق الكلاب التي تصاب به مرتفعة جداً."

شعرت بالاسى وانا ارى الالم والقلق المفاجئين ينعكسان في عيني ساندرز لكن تلقيه إنذاراً آنئذ كان أفضل من تلقيهِ صدمة في ما بعد، لأنني علمت ان جينغو قد يلقى حتفه في غضون أيام قليلة. وحتى اليوم ما زلت أفقد الامل كلما رأيت مشحة صفراء في عيني أحد الكلاب. اعطيت جينغو حقنة مصل مع علمي انها لن تكون ذات جدوى كبيرة، إلا أنه لم يكن لدي علاج آخر.

اتصل بي جاك ساندرز بعد أيام وقال: "لقد نفق جينغو في الليلة الفائتة يا سيد هيريوت. أظن انه لا بد من اعلامك." كان يتصنع الهدوء في كلامه. وأضاف: "شكراً لك على ما فعلته."

ومما يزيد الوضع سوءاً، في مثل تلك الحالات، هو محبة الناس لحيواناتهم. فساندرز وزوجته كانا بلا أولاد وكرسا وقتهما للحيوانات.

وقفت وسماعة الهاتف في يدي وقلت: "انا آسف يا جاك. على اي حال ما زال لديك سكيبر." كان كلامي تعزية له على رغم أن الكلب كبير السن.

فرد: "هذا صحيح فنحن ممتنون لسكيبر."

## مريض الفراق

بعد أقل من أسبوع اتصل بي جاك ساندرز مجدداً وقال: "جاء دور سكيبر. يبدو انه مصاب بالمرض ذاته."

شعرت بانقباض في معدتي وقلت: "لكن... لا يمكن حدوث ذلك! لقد أعطيته حقنة واقية!"

فرد: "لا أعلم، ولكن تظهر عليه التعاسة وبالكاد يأكل شيئاً. يبدو أن حاله تسوء بسرعة."

أسرعت الى سيارتي وانطلقت بها. وعندما وصلت الى منزل ساندرز في ضاحية البلدة، جر سكيبر نفسه على السجادة من دون أن تظهر عليه علامات السرور. فحملته بسرعة الى طاولة المطبخ وفحصته بعناية. لم تكن ثمة علامات يرقان في بياض عينيه وكانت حرارته طبيعية. "حسناً،" قلت، "لا يمكنني ايجاد أي مرض فيه ولكن يجب الا ننسى انه مسن."

– هل تظن أنه مريض بسبب فراق جينغ؟

"نعم، لقد كانا صديقين حميمين لكنه سوف يتغلب على ذلك."

التقيت جاك بعد أيام قليلة في السوق. فسألته: "كيف حال سكيبر؟"

نفخ خديه وقال: "على حاله تقريباً. انه لا يأكل شيئاً وهو يهزل كثيراً."

في اليوم التالي زرت ساندرز، وذهلت لرؤية سكيبر، فبعدما كان مليئاً بالحيوية والنشاط، يقبع الآن في كوخه وكأنه ينفق.

مع مرور الأيام حاولت إعطاءه مقويات ومواد فيها حديد لكن حاله تراجعت



بسرعة. وبعد قرابة شهر من نفوق جينغو زرت ساندرز فكان سكيبر في كوخه وعندما ناديته رفع رأسه ببطء. كان وجهه نحيلا وعيناه شاحبتين وقد نظر إلي من دون أن يعرفني. ان فراق صديقه لا يسبب ذلك.

فناديته: "هيا أخرج من هناك."

هز جاك ساندرز رأسه وقال: "حاله

سيئة يا سيد هيريوت فهو لا يبارح كوخه أبداً وعندما نحمله يصعب عليه الوقوف على رجليه. فماذا تقترح؟"

كان كلامه مثل دقات جرس حزين. كل ما قاله دل على كلب يعيش ايامه الأخيرة. لم أفكر في انه تنبغي مشاهدته وهو يتألم، فبعدما تدارسنا الموضوع، سحب جاك نفساً عميقاً وقال: "صحيح. اذا لم اتصل بك حتى الساعة الثامنة من صباح غد أرجوك أن تأتي وتجعله يرقد."

وفي الصباح التالي بعدما تناولت طعام الفطور، نظرت هيلين إلي وتساءلت: "جيم ماذا في الأمر؟"

فاجبتها: "لا شيء." وأخبرتها عن سكيبر: "ان حاله جزء من عملي لكنني رجل عاطفي. في بعض الاحيان أظن أن الطب البيطري هو اختيار خاطىء بالنسبة إلي."

فقالت: "أنت على خطأ إذ لا أستطيع ان أتصورك صاحب مهنة أخرى. سوف تفعل ما يتوجب عليك وبالطريقة الصحيحة." ثم قبلتني وأسرعت الى عملها.

وصلت الى منزلساندرز منتصف الصباح وقد احضرت زجاجة مخدر مركز. وأول ما وقع نظري عليه، عندما دخلت المطبخ، كان كلباً صغيراً أبيض اللون. نظرت السيدة ساندرز إلي وهي تبتسم: "لم نستطع تحمل عدم وجود كلب بيننا، لذلك توجهنا الى السيدة بالمر التي ربت جينغ ووجدنا لديها هذا الكلب معروضاً للبيع. فاشتريناه منها ودعوناه جينغو أيضاً."

فقلت: "يا لها من فكرة رائعة!"

حملت الكلب الصغير فحاول لحس وجهي. إن هذا سيجعل مهمتي أسهل من ذي قبل.

أخذت زجاجة المخدر في يدي وتوجهت صوب الكوخ. كان سكيبر متقوقعاً على حاله. أدخلت إبرة الحقنة في غطاء القنينة المطاطي وكنت على وشك سحبها عندما رأيت سكيبر يرفع رأسه. بدا أنه كان يراقب الكلب الصغير، ويلاحقه بعينيه المتعبتين، في وقت كان الكلب الصغير منهمكاً في شرب طبق مليء بالحليب.

وقفت ساكناً أراقب سكيبر وهو يحاول مرتين النهوض الى أن استطاع الوقوف. كاد ان يسقط على الارض لكن رجليه المرتجفتين حملتاه بصعوبة. اقترب من الكلب الصغير لبعض الوقت. كدت لا أصدق ما أراه وهو يلتقط الاذن الصغيرة البيضاء في فمه.

أعدت الزجاجة والحقنة الى جيبي. وقلت بهدوء: "هاتوا له طعاماً." فأسرعت السيدة ساندرز ووضعت بعض قطع اللحم على احد الصحون. لم يكن لدى سكيبر قوة لمضغ اللحم، لكنه رفع قطعة واحدة وأخذ فكاه يتحركان.

وبعد قرابة ثمانية أشهر، جاء جاك ساندرز الى العيادة ووضع جينغو الصغير على الطاولة، وقد ذكرني وجهه وذيله بسلفه. قال جاك: "لاحظت وجود بثور في باطن رجليه." ثم انحنى ورفع سكيبر. في تلك اللحظة ركزت اهتمامي على سكيبر وهو يقضم برفق وحيوية اطراف الكلب الابيض.

فقلت لساندرز: "هل تعلم يا جاك،

انني أظن ان سكيبر سيحيا لسنوات عدة."

"حقاً؟" نظر جاك ساندرز إلي بعينين براقتين، "لكنني أذكر أنك اعلمتني بنهايته."

– أعلم ذلك ولكن يستحسن أن يكون المرء على خطأ في بعض الاحيان.

## فينوس

ذات يوم عندما كنت أشرب الشاي، جاء الى منزلي جوش أندرسن، وهو أحد مزيني الشعر في المحلّة.

كان يحمل كلبته الرمادية فينوس واللعاب يسيل من فمها. وقد بدت على وجهه علامات الأسى حتى كادت الدموع أن تنهمر من عينيه. قال لي: "إن في حلقها عظمة دجاجة وهي تكاد تختنق."

أمسكت فكَي الكلبة وأبعدتهما بعضاً عن البعض بقوة. وهذا مشهد مألوف لدى جميع الاطباء البيطريين. كانت هناك عظمة عالقة في أعلى الحلق.

وقلت للسيد اندرسن: "لا تقلق، انها عظمة عالقة بين اسنانها. تعال معي الى غرفة المعاينة وسأسحبها في لحظة."

لاحظت أن الرجل ارتاح الى كلامي فعبرنا الرواق. وقال لي اندرسن: "أشكر الله على ذلك يا سيد هيريوت. ظننت أن أجلها دنا. لقد أحببناها كثيراً وأنا لا أستطيع خسارتها."

ابني جيمي البالغ من العمر خمس سنوات ترك سندويشته والشاي الذي كان يشربه ولحق بنا. وقف ساكنا يراقبني وأنا أدخل الآلة في فم الكلبة. وسبق لجيمي ان شاهد مثل هذا المنظر مراراً.

وتقتضي عملية نزع العظمة فتح الفم وامساك العظمة بواسطة كلّاب ثم سحبها. لكن فينوس خافت من الكلّاب كذلك المزيّن، حتى أن الهلع الذي أصاب مالكها فاق هلعها هي الى حد كبير.

حاولت تهدئة روعهما وقلت لصاحبها: "هذا لا شيء يا سيد اندرسن فأنا لن اسبّب لها اي أذى ولكن عليك امساك رأسها لبرهة."

تنفّس اندرسن الصعداء وامسك رقبة الكلبة مطبقاً عينيه بقوة ومشيحاً برأسه عنها قدر المستطاع.

اما انا فخاطبتها بالآتي: "والآن يا فينوس سوف أحاول اصلاح الامر."

لم تصدقني فينوس على ما يبدو. لذا حاولت الافلات وأخذت تلطمني بكفيها ورافق ذلك انين صادر عن صاحبها. وعندما أدخلت الكلّاب فمها أطبقت على الآلة بأسنانها الامامية بشدة. ولم يستطع السيد اندرسن تحمل المزيد فأفلتها.

قفزت فينوس الى الارض وتابعت العراك في حين كان جيمي يراقب ذلك. وابتسم إذ اصبحت الامور أكثر جدية.

فقلت لاندرسن: "سوف أعطيها جرعة مخدّر ضئيلة."

وبدا شحوب على وجه جوش فسألني: "هل تعني أنك ستجعلها تنام؟ وهل ستكون بخير؟"

فاجبت: "بالطبع، بالطبع. إذهب وعد إليّ بعد ساعة تقريباً." وبعد مغادرته مباشرة، أسرعت في تحضير جرعة من مادة "بنتوثال".

إن الكلاب لا تتصرف بقسوة في غياب

اصحابها، لذلك رفعت فينوس بسهولة الى الطاولة. لكن اسنانها ما زالت مطبقة على الكلاّب وكفيها على استعداد...

أمسكت رجلها وادخلت حقنة المخدّر أحد عروقها. وفي غضون ثوان هدأت فينوس وارخت رأسها وجسمها على الطاولة.

قلت: "ما من مشاكل الآن." أبعدت أسنانها من دون عناء عن الكلاّب والتقطت العظمة به وسحبتها من فمها.

كنت أراقب فينوس بدقة فوجدت أنها لا تتنفس. فقلت لنفسي ان لا خطر عليها فقد حقنتها بكمية صحيحة من المخدّر.

كان لدى ابني شعور بأن ثمة شيئاً ما سيحدث، وكان على صواب. فقد رفعت فينوس عن الطاولة وهززتها مرات عدة ثم أسرعت عبر الرواق. فلحق بي ابني مسرعاً الى الباحة الخارجية.

وضعت الكلبة على الحشيش وجثوت بجانبها. ورحت انتظر واراقبها في وقت خفق قلبي هلعاً، غير ان أضلاعها لم تكن تتحرك وعينيها لا تركزان النظر.

ليس ممكناً حدوث ذلك! أمسكت رجلي فينوس وبدأت أدور بها فوق رأسي بقوتي الكاملة. وهذه الطريقة لم تعد معتمدة الآن إلا أنها كانت مجدية في السابق. وبدا أنها نالت موافقة ابني فتمادى في الضحك حتى وقع على الحشيش.

وعندما توقفت عن الدوران بها لاراقب ضلوعها التي لا تتحرك صرخ بي ابني: "مرة أخرى يا والدي." ولم تمض ثوان قليلة حتى عاودت الكرّة وبدت فينوس كطائر يحلّق في الفضاء.

لقد فاقت الحركة التي كنت أقوم بها كل توقعات جيمي إذ عوّض ما شاهده سندويش المربّى الذي تركه. لا أعلم كم مرة توقفت عن الدوران وأنزلت الكلبة الى الارض ثم تابعت الدوران، ولكن في النهاية بدأ قفصها الصدري يعلو ويهبط وعاد البريق الى عينيها.

لم أجرؤ على النهوض بسرعة لأن الحائط القديم أمامي كان لا يزال يتراقص وكنت أكيداً من السقوط ان نهضت. وخاب ظن جيمي فسألني: "ألن تعاود الدوران مرة أخرى يا والدي؟"

فاجبته: "كلا يا بني، كلا."

قعدت على الحشيش ووضعت فينوس في حضني: "لقد انتهى الأمر الآن."

وحين عاد جوش اندرسن، كانت كلبته استعادت نشاطها. فقلت له: "انها ما زالت غير مستقرة تماماً بسبب المخدّر، لكن ذلك لن يدوم طويلا."

فسألني: "أليس ذلك عظيماً؟ وهل واجهتك مشاكل؟"

واجبته: "أبداً، على الاطلاق. إنها عملية بسيطة."

## احمل عصا كبيرة

عندما استعيد ذكرى السنوات الماضية أعرف انني كنت محظوظاً مع كلابي ومنها الكلب الايرلندي الذي كنت أطوف به جبال اسكوتلندا أيام فتوتي، والكلب الابيض الصغير المتميز بطابع خاص، وسام المحبّب الذي تبدو عيناه الكبيرتان كأنهما تنظران إليّ من خلال بطاقات المعايدة. ثم جاء هكتور ودان.

كان هكتور كلب صيد صغيراً، نشيطاً وذكياً. أحد أصدقائي نبهني الى عدم

امتلاك واحد من جنسه. وقال: "انها كلاب شريرة." لكن هكتور الذي حصلت عليه وهو في أسبوعه السابع كان مخلوقاً ذا طبيعة حسنة. كل من رآه للمرة الاولى أحبّه فأصبح كلباً مشهوراً. وعلى مرّ السنين ساهم في انجاب عدد كبير من الكلاب، وبدورها انجبت سلالته الجديدة سلالة أخرى، وكانت كلها تتميّز بطباع هكتور. والى الآن، وبعد سنوات عدة على نفوقه، أشعر بالغبطة كلما دخل عيادتي واحد من سلالة هكتور.

جاء دان إليّ مصادفة. كان ذلك عندما اشترى ابني جيمي، وهو في الطريق لان يصبح جراحاً بيطرياً، كلباً أسود أطلق عليه اسم دان. وعندما انضم جيمي إلينا كطبيب جراح اصطحب دان، وهكذا أصبح لدينا كلبان في المنزل. ونشأت صداقة فورية بين هكتور ودان اللذين كانا يكبران وسط جو من اللعب والسرور.

كان دان عن حق كلباً جميلا وتميّز باخلاص شديد وتكاوين جليلة. عندما غادر جيمي المنزل قصد الزواج، ترك دان في عهدتي. وبصفة كوني الطبيب البيطري للمنطقة فقد كان هذان الكلبان مميزين بالنسبة إليّ. دان، من جهته، كان يتمدد على مقعد السيارة ويضع رأسه على ركبتي في حين كان هكتور يتطلع من الزجاج الأمامي واضعاً كفيه على مسكة التروس. لقد كان يكره أن يفوته شيء.

عملت في أجمل منطقة في بريطانيا، فقادتني رفقة الكلاب الى أراض تكسوها الحشائش على قمم التلال. وكانت هناك مساحات شاسعة من هذه الاراضي التي تعتبر طريّة بالنسبة الى الاكف والارجل، وهي خالية من السيارات والناس والضجيج.

كان دان يلحّ على شيء واحد في خلال نزهاتنا وهو حمله عصا. واذا لم يكن ثمة عصا في فمه، كان يبدو تعيساً. وبما اننا كنا نتنقل في الغالب في منطقة خالية من الاشجار حيث يصعب ايجاد اخشاب، فقد كنت أعمد الى وضع كمية كبيرة من العصي الطويلة في صندوق سيارتي.

لم يظهر دان ضيراً من حمل العصا في فمه كيلومترات عدة، وكانت أولى علامات تقدمه في السن رجوعه من دونها. وهناك علامة أخرى هي أن رغبته تحوّلت من العصي الكبيرة الى الصغيرة والقصيرة منها.

عندما قضى هكتور ودان في غضون سنة، أصابتني لامبالاة ازاء الكلاب.

لقد كانا كلبين رائعين من خلال تعارض أساليبهما، فصعب عليّ وأنا في الخامسة والستين من عمري ابدالهما.

## وأخيراً... بودي

عندما نظرت الى كلبي بودي، شعرت أن مفقود القيادة أكمل لفّة كاملة. إنه كلب صيد، وكنت رغبت في امتلاك واحد مثله عندما وصلت الى يوركشاير، منذ ما يقرب من خمسين عاماً. وكلما كان ينفق أحد كلابي، لم يكن يتوافر لي كلب مثل بودي.

بعد نفوق هكتور ودان، ثبطت عزيمتي لمدة سبعة أشهر، وهي المدة الوحيدة في حياتي التي عشتها من دون كلاب. وكدت امتنع عن عادة المشي مع الكلاب لولا الجرو الاصفر اللون الذي كانت ابنتي تمتلكه. روزي كانت تسكن بجوار منزلي،

وأطلقت على كلبتها اسم بولي التي أصبحت رفيقتي في تلك المدة. لكن سيارتي بدت فارغة في خلال تجوالي بها.

ذات يوم سبت ظهراً، دخلت روزي وقالت لي بلهفة: "هناك اعلان في أحدى الصحف عن كلاب بوردر صغيرة. انما السيّدة مايسون في بيدال."

كان الخبر مفاجئاً لي فكدت اتصرّف فوراً لكن رد فعل زوجتي أذهلني. اذ هي قالت: "ذكرت الصحيفة إنّ هذه الكلاب الصغيرة عمرها ثمانية أسابيع. اذاً هي مولودة قرابة عيد الميلاد. ألا تعتقد أنه بعد فترة الانتظار هذه من الأفضل أن نحصل على كلاب مولودة في الربيع؟"

فاجبتها: "نعم هذا صحيح. ولكن يا هيلين انها كلاب بوردر! وقد لا نحصل على فرصة أخرى!"

قالت: "آه. أنا أكيدة اننا سنحصل على واحد منها وفي الوقت المناسب إذا صبرنا بعض الشيء."

"ولكن... ولكن." وجدتني اتكلم مع هيلين التي ادارت لي ظهرها وانحنت فوق مقلاة مليئة بالبطاطا.

قالت: "سوف يكون طعام الغداء جاهزاً بعد عشر دقائق. فأنت وروزي في امكانكما اصطحاب بولي في نزهة."

بعدما خرجنا من المنزل التفتت روزي إليّ وقالت: "يا له من أمر مضحك. فاهتمام والدتي بامتلاك أحد هذه الكلاب يوازي اهتمامك. ولكن من المؤسف أن تضيعا الفرصة."

فقلت: "لا أظن اننا سنضيع الفرصة." ثم همهمت: "أراهن انه لدى عودتنا الى المنزل ستكون امك غيّرت رأيها."

رفعت روزي حاجبيها وقالت: "لكنها بدت جادة في رأيها."

لدى عودتنا فتحت الباب الخارجي ورأيت هيلين تتكلم عبر الهاتف. فالتفتت إلي وقالت: "انني اتكلم مع السيدة مايسون. هناك كلب صغير واحد لم يبع بعد وهناك اشخاص قادمون لرؤيته



من مسافة ١٣٠ كيلومتراً. علينا أن نسرع. لقد استغرقت نزهتكما وقتاً طويلا!"

تناولنا طعام الغداء بسرعة وانطلقنا انا وهيلين وروزي وحفيدتنا إيما الى بيدال. وأشارت السيدة مايسون الى مخلوق صغير الحجم تحت طاولة المطبخ. وقالت: "ذاك هو." فانحنيت الى حيث كان فحملته بين ذراعي وبدأ يحرك ذنبه بقوة كما أخذ يلحس يدي بلسانه الوردي اللون. وعلمت من النظرة الاولى انه سيكون لنا وذلك قبل اجراء معاينة سريعة له تتعلق بداء الفتاق.

انهينا الاتفاق بسرعة. وفيما نحن

عائدون الى المنزل وبصحبتنا الكلب الصغير بين ذراعي إيما، خطر لي انه بعد قرابة ٥٠ عاماً تسنى لي الحصول على كلب "بوردر".

سكن بودي معنا وسط جو من الغبطة. كنا كالضائعين من دون كلب في المنزل. ولكن من قبيل المفارقة اننا بعد مدة من عدم وجود كلب في منزلنا، أصبح لدينا الآن واحد بطول ٤٣ سنتيمتراً، لكنه استطاع تحقيق أعجوبة فأصبح لهيلين كلب لتطعمه كما أصبح لدي رفيق اصطحبه في السيارة وفي نزهاتي المسائية، علماً انه كاد أن يكون غير مرئي في الشارع.

كان لقاؤه الأول وبولي حدثاً في ذاته. لقد ذكرت الصداقة الفورية بين هكتور ودان. لكن الأمر اختلف بالنسبة الى بودي. لقد وقع في الحب، من دون أن نبالغ في قولنا هذا. بولي اصبحت أهم مخلوق حي في عالمه، وبما انها تسكن في الجوار، فقد كان في إمكان بودي مراقبة مسكنها من نافذة غرفة الجلوس في منزلنا.
و كان يحظى كل يوم بنزهة معها.

ثمة نتيجة سلبية ظهرت على بودي هي الحسد. كان مستعداً بلا تردد للوقوف في وجه أي كلب مهما كان كبيراً إن هو حاول التقرب من بولي. إلا انه يخسر في احيان كثيرة من دون أن يستسلم. وفي الآونة الاخيرة فككت قطباً من كتفه بعدما واجه بضراوة أحد الكلاب المنافسة له. فقد حصلت معركة بينهما قبل ان اتمكن من تفريقهما. لكن بوردر بدا مستعداً لاكمال المعركة في حين كان فمه مليئاً بالشعر.

ذات يوم، عندما كان على وشك انهاء السنة الاولى من عمره، كنت أتمشى مع بولي وبودي. فعدت بالذاكرة الى سنين مضت يوم رأيت بولي تلتقط عصا ويحاول بودي انتزاعها منها، فدارت معركة ذكرتني بهكتور ودان.

ويعتبر بودي نفسه كلباً صلباً فهو يشعر بحياء ازاء اظهار مشاعره. اذا كنت جالساً على مقعد، يجلس بجانبي ويظهر ان عمله غير مقصود. ولديه عادة خاصة به وهي الجلوس بين رجليّ وأنا أكتب. انه هناك الآن. وبما أن المقعد الذي اجلس عليه دوّار، فيتعيّن علي التنبه وعدم الاستدارة فجأة.

إن لدى الكلب الصغير تكاوين خاصة، وعدد افراد سلالته قليل. لذا أجدني أحدّق اليه باهتمام كلما وقع عليه نظري.

في الصيف الماضي، وبعدما وضعت سيارتي على المركب الذي يبحر بين عبان وجزيرة بارا في أوتر هيبريدس، لاحظت وجود رجل امريكي ذي شعر فضي اللون أخذ يحدّق الى بودي وهو ممدد على المقعد الخلفي. كان الرجل أحد المعجبين بهذا النوع من الكلاب واخبرني عن كلبه. وأضاف: "انها كلاب رائعة."

لقد كان يعبّر عن مشاعري، لكنني عندما أفكر في بودي لا أهتم لسلالته. أن ما يرضيني ويبعث الدفء في نفسي هو انه حلّ محل الحيوانات التي سبقته. انه اعادة تأكيد على الحقيقة القائلة بأن حياة الكلاب القصيرة لا تعني فراغاً لا نهاية له، وان الفراغ يمكن ملؤه بينما الذكريات تبقى وتدوم.

جايمس هيريوت ■

كتاب الشهر

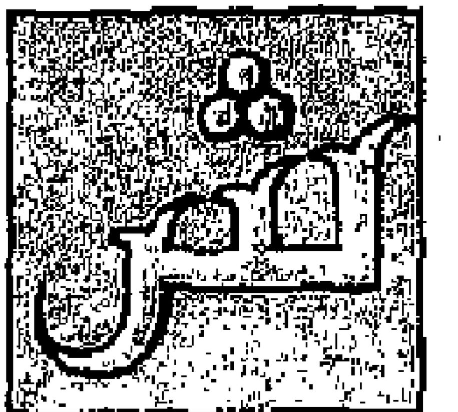
# حمى الذهب

ملخص من كتاب
بقلم بيار برتون



# حمّى الذهب

**ما ان شاع نبأ اكتشاف الذهب قرب نهر يوكن في شمال كندا حتى سرت بين الناس حمّى ظلت تستعر طوال سنتين، بدءاً بمنتصف صيف ١٨٩٧ مع وصول الخبر الى العالم الخارجي. وتلك الفترة الوجيزة اختصرت حياة ألوف من الناس وقعوا في أشراك أحلام جامحة استبدت بهم حالما وطئت أقدامهم كلونديك، تلك البقعة من الأرض التي اقتضى الوصول اليها أن يقطعوا القفار والبراري ويتكبدوا المشقات ويقاسوا الاحزان**



"شيء ما" كان في الجو ذلك الصباح من شهر يوليو (تموز) من العام ١٨٩٧. شيء شعرت به الجموع المنتظرة على رصيف ميناء سان فرنسيسكو. ولكن ماذا كان ذلك؟ هل للهمسات المثيرة المتناهية من الشمال أساس من الصحة؟ هل ان تلك الباخرة الصغيرة اللاهثة في اتجاه رصيف التفريغ، تحمل حقاً كنوزاً ونفائس؟ وكانت "اكسلسيور" أبحرت قبل تسعة أيام من ميناء بعيد على بحر بيرنغ قرب مصبّ نهر يدعى يوكن. ولمّحت الاشاعات آنذاك الى أن أمراً مثيراً حصل في مكان من ذلك النهر.

ومع اقتراب الباخرة ارتفعت بين الحشود المتجمعة على الرصيف همهمة مسموعة. وظهر على حافة الباخرة صف طويل من الرجال اعتمروا قبعات واقية خاصة بالمناجم. ولمّا اقتربوا اكثر وتبيّن الناس ملامحهم بدوا رجالا هزيلين غير حليقي الذقون أهرمتهم الايام قبل الاوان، ينظرون بعيون محمومة في وجوه غضنتها الشمس.

وطالع الجمع بعد ذلك منظر غريب. كان الرجال يعبرون الى البر مترنحين وهم يصارعون حقائب جلديّة بالية تكاد تتفتق حول مفاصلها وصناديق مُقفلة ضاقت بما فيها وبطانيات مربوطة بغير إحكام ناؤوا

Condensed from «The Klondike Quest: A Photographic Essay, 1897-1899», © 1983 by Pierre Berton Enterprises Ltd., and published by McClelland and Stewart Ltd., Toronto, Ontario

بحملها فتعاونوا على رفعها الى الرصيف. وسرعان ما تجلّى للأعين المفتونة أن تلك الامتعة لم تكن عادية. فالحقائب والصناديق والاكياس كانت محشوّة بالذهب.

في تلك اللحظة من التجلي بدأت حمى الزحف في اتجاه كلونديك. وقبل إبحار "اكسلسيور" الى الشمال مجدداً كان عدد الراغبين في بطاقات سفر ممن خيّبت الباخرة آمالهم عشرة أضعاف استيعابها الفعلي من الركاب. ففي ذلك العقد المظلم وسنواته العجاف التي أطلق عليها التاريخ خطأً اسم "التسعينات المرحة" وقضى فيها الناس جوعاً في الأزقة، كان لكلمة "ذهب" رنين سحري. فتزاحم الناس للحصول على المعدن الثمين واكتنازه في الجوارب والسكّريات بعدما فقدوا الثقة بالعملة الورق. وتراءى لهم أنه في مكان ما وراء الضباب القطبي كانت الثروة ملقاة على الأرض.

وبعد يومين وصلت "سفينة كنز" أخرى الى ميناء سياتل في ولاية واشنطن، وسرى في القارّة نوع من الهوس الجماعي. وكان في استقبال السفينة "بورتلاند" على الرصيف في السادسة من صباح ١٧ يوليو (تموز) ما يزيد على خمسة آلاف شخص. وما ان بلغت الساعة التاسعة والنصف حتى كانت جميع الطرق والمنافذ المؤدية الى الميناء تعجّ بألوف الاشخاص الذين توافدوا الى المكان مع حيواناتهم وعرباتهم وكرّاجاتهم. ففي مكان ما وراء الافق كانت الثروة والمغامرة والخلاص.

عمّال القطارات هجروا عرباتهم، ورجال الشرطة مراكزهم وبذلاتهم، والرعاة قطعانهم، والكتبة والصحافيون مكاتبهم، والباعة مراكزهم، حتى ان رئيس بلدية سياتل أبرق استقالته من سان فرنسيسكو حيث كان يحضر مؤتمراً وانضم الى القطيع.

قيل ان من أصل مليون شخص خطّطوا للذهاب الى كلونديك لم يحالف الحظ سوى مئة ألف. وهكذا فإن قصص البطولة في كلونديك تروي حكاية الانسانية جمعاء. حكاية ألوف الرجال والنساء مع خيولهم وكلابهم، اكتظت بهم سفن ناءت بحمولتها. حكاية شواطىء عجّت بالمنقبين عن الذهب زحفوا اليها مع قطعانهم. حكاية جبال غطت منحدراتها صفوف مرصوصة من الباحثين عن الذهب. حكاية أنهر وبحيرات ملأت صفحاتِها الزوارق والسفن. حكاية قرى متداعية تفجرت مدناً. وخلال الاشهر الثمانية عشر التي تلت تحوّل سهل يوكن الداخلي قفير نحل بشرياً.

وعجّت مدن سان فرنسيسكو وسياتل وبورتلاند وفيكتوريا بالرجال وضاقت الفنادق بالنزلاء. وبالقرب من أرصفة الموانىء كانت الكتل البشرية تتحرك بتثاقل بين اكياس المؤن، وغصّت الطرق بأناس حرصوا على الظهور في الزي الرائج آنذاك: بذلة من الجوخ الماكيناوي المبهرج وقبعة ذات حافة عريضة وجزمة قوّي نعلها بالحديد لوقايتها من البري. واستغلّ النصابون والمقامرون الغشاشون الناس المتسكعين في انتظار سفن تنقلهم شمالاً، واستنزفوا مدخراتهم. اما الحديث عن الذهب فلم ينقطع. والكلام

على الذهب تضمن رقة ومناجاة، وابدعت لوصفه تعابير وكلمات كأنه غاية في ذاته وليس وسيلة لحياة أفضل. وانتقلت العدوى الى الصحف فراحت تطلق عليه اوصافاً مستحدثة، فهو "الذهب النفيس الاصفر" و"الذهب الاصفر النقي" و"الذهب اللماع."

ذلك الذهب كان في مكان ما على الارض بين الطحالب.

## طالبو الاثارة

لم يكن لدى الوافدين الجدد الذين أعمتهم صورة الذهب المرسومة في أذهانهم أي فكرة عمّا كان ينتظرهم. فجميع الذين كافحوا في سبيل الحصول على بطاقات سفر زخرت صدورهم بأمل العودة بالثروة، حتى ان البعض منهم حملوا أكياساً من الخيش لالتقاط كتل الذهب التي توقعوا أن يغرفوها من حصى الجداول في بونانزا وإلدورادو.

والخريف في يوكن حمل عبيراً ملأ الجو. واكتست المنحدرات بأشجار البتولا المصفرّة وأعالي الجبال بالجنبات الارجوانية. وعلى صفحات البرك الضحلة خلّف الصباح طبقة رقيقة من الجليد. والصور الفوتوغرافية الملتقطة للساعين الى كلوندايك، أظهرتهم ملتفّين بالفراء. فلا بد اذاً أنه كانت لديهم فكرة وان بسيطة عن الظروف التي كانت في انتظارهم: البرد القارس على الشواطىء والريح التي تصفر بين الشعب والمجازات والضباب المخيف في مواسم الشتاء الشمالية. ومع ذلك أطلقوا لمخيلاتهم العنان كأن لمعان الذهب وحده كفيل ببعث الدفء في أجسادهم. وطغى هدير الزحف على كل أصوات التحذير.

ولقد عُرفت التسعينات بزمن الانسان الواثق بنفسه. وكل من إنضمّ الى الجموع الزاحفة ذلك الشتاء فعل ذلك مدفوعاً بالايمان بأنه حتماً حاصل على ما سعى اليه، وإلا لما أقدم وهو بكامل وعيه على التخلي عن عمله وعائلته وموطنه من أجل نزوة عابرة.

ما لم يكن وارداً على الاطلاق هو عدم الذهاب الى كلوندايك، وليس العكس. ففي تلك الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار، بات لزاماً على كل من انضمّ الى الصفوف الزاحفة ان يؤمن ليس فقط بالمستقبل، بل بنفسه كذلك. ثم أتت حمّى الزحف الى كلوندايك لتمحو أزمة الثقة التي سفّهت قارة بكاملها. وكانت الهتافات تنطلق من الجموع كلما غادرت سفينة المرفأ وكأنها صيحات حرب أو صلاة جماعية تحمل الأمل بغد أفضل.

هؤلاء الساعون الى الاثارة كانوا يترجحون بين التصديق والتكذيب. وبينهم من انطلق في رحلته الى أرض الذهب الغامضة ببهجة ومرح وكأنه في الطريق الى باريس أو بومباي. فأخذوا معهم عصافير الكناري والببغاوات. ومنهم من حمل غيتاراً أو بيانو أو مجازاً خشبياً للعبة البولنغ أو عدّة كاملة لكرة المضرب أو فانوساً سحرياً. والطريف أن بعض هذه الامتعة وصلت الى مدينة الذهب حيث لا تزال الى اليوم.

وفي المدن الساحلية استماتت الحشود المنتظرة للحصول على مضاجع في أي سفينة متجهة شمالاً، الى حد أن

بعض المنتظرين رفضوا مغادرة أمكنتهم في الطابور حتى للاكل أو النوم. وفي سبيل الحصول على بطاقات سفر لم يتورع ألوف عن القتال والسطو والرشوة، وارتضوا السفر على متون سفن محطمة حملتهم عبر الساحل المسنن لكولومبيا البريطانية والازقة البحرية(١) والانهار الجليدية في آلاسكا.

في هذه السفن التي رمّمت على عجل بعدما كانت معدّة للكسر، امتلأت المقصورات بالعشرات. منهم من افترش الارض المكشوفة أو لزم العنابر والمخازن الخانقة. كانوا ينامون في ثيابهم وينتظرون أكثر من سبع ساعات للحصول على وجبة هزيلة. وهم صمدوا في وجه العواصف وأمام تمرّد البحارة على ربابنة السفن، ونجوا من كوارث غرق كثيرة. وتعين عليهم ان يتحملوا رائحة الروث والقيء ونباح الكلاب المستمر ورهاب الاحتجاز والصرير المنبعث من بدن السفينة الراشح، الى رائحة العرق المنبعثة من الركاب الذين انحشروا كالسردين المحفوظ. تحملوا كل ذلك لان شواطىء سكاغواي وديا كانت تناديهم. وخلف الشواطىء كانت الجبال، وخلف الجبال المجازات، وخلف المجازات البحيرات المجلدة، وخلف هذه النهر العظيم. وفي آخر النهر العظيم يقبع الذهب!

تقع شواطىء سكاغواي وديا عند انتهاء أحد أروع الازقة البحرية في العالم ويدعى قناة لين. في هذه الربوع تعكس مياه البحر الصافية صورة المنحدرات الجبلية التي ترتفع عمودياً فوق الزرقة الفيروزية فتبدو السفن العابرة بقربها كالاقزام.

ولم يكن لدى الناس على متون تلك السفن أي استعداد لتذوّق الجمال الطبيعي، فهم أدركوا أخيراً ان رحلتهم لن تكون تلك النزهة الخفيفة. فهم رأوا سوراً هائلا من الجليد والصوّان يسدّ الطريق امامهم، وكان هدير الشلالات المتفجرة من قممه يصم الآذان ومنظر الكتل الجليدية المتدلية منه يرهب النفس. وهذا المشهد بدّد الى الابد الاحلام الجميلة التي دغدغت مخيّلات المتفائلين، فأدركوا أن عليهم اجتياز تلك المتاريس المخيفة، راجلين أو على صهوات الجياد، عبر احدى فتحتين ضيقتين عُرفتا بممري وايت وتشيلكوت.

## قاصدون وعائدون

الوصول الى الممرين كان عبر احدى مدينتين ازدهرتا بسرعة وهما ديا الواقعة عند مدخل ممر تشيلكوت وسكاغواي في اسفل ممر وايت. ولكن قبل ذلك كانت صدمة ثانية في الانتظار. فعلى المسافرين ان يغادروا السفن حاملين أمتعتهم ومصطحبين حيواناتهم. ومن تجمّع منهم على المتن قرب الحافة سمع صوت المرساة وهي تلقى و"سعال" المحركات قبل أن تتوقف. لكن اليابسة كانت على بعد كيلومترين، ولم يكن هناك معبر خشبي أو رصيف أو حمالون. ولم ير أولئك الاوائل امامهم سوى منبطحات

(١) هذه الازقة (Fjords) هي معابر بحرية تحوطها أجراف صخرية. وهي تكثر في البلدان الاسكندينافية وفي المناطق القطبية.

الجَزر وشواطىء مخضلة تتخللها جداول جليدية كالشرايين.

أفرغت السفن حمولتها من رجال وحيوانات وأمتعة في الأزقّة البحريّة المتجمدة أو في قوارب مسطحة راحت تعبر الى الشاطىء جيئة وذهاباً، ومن متون السفن دليت صناديق تفتح قيعانها فتظهر الخيول وهي تصهل برعب قبل أن تهوي الى المياه التي تعجّ بالمعزى والبغال والكلاب والثيران. أما صناديق الامتعة فكانت تقذف الى القوارب بعنف فتنفتح وتتبعثر محتوياتها. وما سلم منها بالتحميل لم يسلم في التفريغ، إذ كانت الامتعة تقذف الى اليابسة من دون اكتراث حتى امتلأت الشواطىء باكوام الصناديق وأكياس الطحين والمقالي والافران والاطواف المقلوبة والعربات وأكياس التبن. وتدافع الرجال يبحثون عن أمتعتهم. وتسلق بعضهم اكوام الامتعة والمؤن التي ارتفعت كالجبال وراحوا يقرأون أسماء أصحابها قبل قذفها.

ولم ينتهِ العذاب هنا. فالمدّ لم يكن ليرحم. وما ان تفرغ السفن حمولتها حتى تضج الشواطىء بمختلف الاصوات من نباح الكلاب الى صرير المركبات وصريف المناشير وقرقعة النار وصهيل الخيل وشتائم الرجال وهم يكافحون لينقلوا أمتعتهم قبل أن يدهمهم المدّ. وعندما غمرت المياه المالحة اكياس الطحين والسكر والشوفان والملح والخميرة والبطاطا المجففة والحساء المجفف التي انفقوا لشرائها مدخراتهم، ارتمى كثيرون فوق الرمل وهم ينتحبون.

وكان بين الوافدين من أدرك بسرعة أن الثروة الحقيقية لم تكن بين الطحالب المجلّدة في أجوان إلدورادو وخلجانها بل في جيوب من آمن بها. وأقيمت مكاتب زائفة لنشر معلومات زائفة، وانتحل بعض الاشخاص صفة عمال برق وبريد وراحوا يرسلون برقيات زائفة في مقابل مبالغ معينة، علماً أن الاسكا لم تكن مربوطة بالعالم الخارجي بأي خط أو سلك.

والذين قاوموا هذه الاغراءات لم ينجوا من مطاردة طلاب المال، وسرعان ما وجدوا محافظهم اقل انتفاخاً إذ تعين عليهم ان يدفعوا اجرة الانتقال بالقوارب واجرة الأرض التي نصبوا عليها خيمهم وأجرة استحمامهم وغسل ثيابهم وقصّ شعورهم وتصويرهم في اوضاع مختلفة. وهنا حوار ألِف الناس سماعه آنذاك:

"هل التقط لك صورة يا سيدي؟"

– بالطبع!

– "الدفع نقداً من فضلك!"

إن لم يعجبك الوضع يمكنك ان تختار وضعاً آخر ولكن في مقابل مزيد من المال. وتؤثر أن تظهر باناقتك الكاملة أمام خلفيّة زائفة أو أمام كوخ في البرية وعلى وجهك ابتسامة متفائلة. انها صورة ترسلها الى من خلفت وراءك لترفع معنوياتهم. ولم لا؟ الذهب موجود والجميع يردد ذلك.

لكن الامر اختلف بالنسبة الى "ذوي الاقدام الجليدية" الذين استنفد الانتظار طاقتهم على الاحتمال ولم يعد في حوزتهم سوى نصف البضائع التي حملوها معهم. فافتتحوا لتصريفها مطاعم موقتة داخل خيم ممزقة أو أكشاك من خشب

أقاموها لبيع ما يملكون من لحوم وحبوب وشاي. ومع نفاد بضاعتهم اشتروا تذاكر سفر واجتازوا للمرة الاخيرة الشواطىء الملأى بالركام المبعثر متجهين الى عرض البحر ليلقوا باجسادهم التعبة في القوارب المنتظرة لتعيدهم من حيث اتوا.

وفيما هم راجعون كان مئات الوافدين الجدد يشقون طريقهم بإصرار وعناد للانضمام الى السلسلة اللامتناهية من الرجال والنساء الجادين نحو الشمال عبر رمال مبتلة بالمياه ووحول دبقة صفراء وأحراج كثيفة ليحطوا رحالهم في أودية تجري فيها أنهار وجداول.

## خيول نافقة

للوهلة الاولى بدت الطريق الجبلية بين سكاغواي وممر وايت سهلة وممتعة. انها مجرد طريق للعربات تلتف صعوداً بين أشجار الصنوبر، يقطعها المرء بيسر ومتعة على صهوة جواد يحمله الى أرض الاحلام. لكن الأهوال ما كانت لتبدأ قبل الوصول الى "تلّة الشيطان." هنا لم تعد الطريق طريقاً بالمعنى الصحيح، بل درب لولبي ضيق يمتد ٧٥ كيلومتراً عبر سلسلة رهيبة من الحواجز الجبلية. وأي زلّة قدم معناها الهلاك المحتّم. وعلى جنبات الجبال تسابقت أنهر الوحل. وكانت الطريق تمزق الاقدام بصخورها الحادة كالنصال. وظهرت فيها حفر قادرة على ابتلاع حصان. وكان على الآتين ان يقطعوا حقولا واسعة تغطيها جلاميد أدمت أقدامهم.

عبر المستنقعات والوحول والاودية ومجاري الانهار والمنحدرات والقمم، تقدّم ذلك القطار البشري الغريب من دون انتظام تحت سماء غائمة تمطر رذاذاً. انها كتلة متشابكة من البشر والبهائم غرزت اطرافها في الوحل حتى الكواحل. وكانت شتائم الرجال وأنّاتهم تسمع وهم يسوقون قطعانهم.

التصق الناس بجدران المنحدرات التي غطتها الجلاميد. ومن تجرأ منهم ونظر الى أسفل رأى منظراً اقشعر له بدنه: مئات الجيف المهترئة لأحصنة نافقة غطّت الحصى في قعر النهر. وكان قد نفق ثلاثة آلاف حصان في ممّر وايت ذلك الشتاء.

بعض البهائم قضت بوحشية. فبسبب سوء توزيع الحمولة على ظهورها اختل توازنها وهوت من أعلى الجرف الى المياه. وبعضها قضت من الحمى الناجمة عن جروح مقرّحة في حوافرها، وبعضها سقطت ارهاقاً بعدما ظلت منتصبة وحمولتها على ظهورها ٤٠ ساعة متواصلة في انتظار تحرّك الركب. وقليلة هي البهائم التي أطلق عليها اصحابها رصاصات الرحمة تخليصاً لها من عذابها. فالرحمة لم تعد تعرف طريقاً الى قلوب اولئك الرجال الكادحين في اتجاه ممر وايت. "فقلوبهم تحوّلت حجاراً صماء، وتحولوا هم حيوانات ضارية،" هذا ما قاله فيهم جاك لندن وكان شاهداً حيّاً على ما جرى ذلك الخريف في تلك الاصقاع.

مع حلول شهر سبتمبر (أيلول) أصبح واضحاً للجميع أن بلوغ كلونديايك قبل الربيع أمر متعذر. فانكفأ الالوف الى سكاغواي.

وفي سكاغواي اكتشفوا أن الطيور أتت على كل ذرة من الطعام، وأن كل انسان لم يحمل معه طناً من المؤن سيقضي جوعاً وبرداً في بقاع مقفرة خلت من محلات السمانة ومن الحرفيين ووسائل النقل. ووجد رجال المدن أنفسهم عالقين في رحلة مكوكية بطيئة، بعدما ظنوا ان الرحلة الى كلونداليك كانت خطاً مستقيماً الى الثروة. فقطعوا المستنقعات والانهار باندفاع وحماسة من أجل بلوغها. ولأن قلّة منهم استطاعت أن تحمل اكثر من ٣٠ كيلوغراماً كل مرّة، فقد تحتم على معظمهم أن ينقلوا أمتعتهم على مراحل.

### عيون غائرة

تحت وطء ألوف الاقدام تحوّل الثلج الذي ما فتىء يتساقط، جلاميد بيضاء صلبة أضفت شكلا خاصاً على الطريق الجبليّة التي راحت تعلو كبناء من اسمنت. وزاد ارتفاعها على ثلاثة أمتار في بعض الاماكن. وعلى الذرى والقمم في تلك الطريق الجبلية البيضاء انتظم الناس في صفوف متراصة لم تظهر فيها ثغرة واحدة طوال خمس ساعات، وكأنهم سجناء موثقون بسلسلة. وكانت أقدامهم تارة تزل وتارة تنزلق. وراحوا يتقدمون بظهور منحنية ووجوه مزرقة من فرط العناء، وكأن ذلك السلك الهائل الملتف صعوداً الى القمة أذاب شخصياتهم. وتابعوا زحفهم مترنحين يجرّون مزالجهم لاهثين ويحملـون أثقالهم متـأففين ويسوقون قطعانهم شاتمين. واختلطت الاصوات المكتومة التي حملتها الريح بالأنين المتصاعد من الجموع.

وفي مقابل كل شخص بلغ القمّة واحد عاد أدراجه. بعضهم ارتمى على الارض مرهقاً قبل أن يستسلم، أو فتك به المرض من جراء أكل اللحم الفاسد في المقاهي المنتشرة على جنبات الطريق، أو قضى بالحمى الوافدة أو بذات الرئة أو بالتهاب السحايا، أو نفد طعامه فتعذر عليه أن يتابع، وبعضهم ردّته خيّالة الشرطة في الشمال الغربي التي نيطت بها حراسة الحدود بين آلاسكا وكندا، وذلك لعدم مقدرته على إعالة نفسه.

كثيرون أبوا الهزيمة وصمدوا في وجه التحديات حتى ان واحداً استخدم قطيعاً من الايائل لنقل مؤنه.

ونجح رجل وامرأته في نقل زورقين الى القمة بعد تفكيكهما اجزاء. واستطاع أحد المصورين أن يجني قوته متنقلا في عربة جليد تجرها معزى طويلة الشعر، وهو راح يلتقط صوراً لرجال غارت عيونهم واشتد هزالهم ولحيوانات نافقة. وأحدثت هذه الصور ضجة صحافية عندما عُرضت لاحقاً في أحد المراكز التجارية الكبرى في برودواي بنيويورك.

وبين الزاحفين من واجه الصعاب بتحد وثقة معتبراً تجربة كلونداليك مغامرة جديرة بأن يتذوقها المرء. ومن هؤلاء فريق الاسكوتلنديين الذين وفدوا ذلك الشتاء بفرائهم وقلنسواتهم الصوفية، يتقدمهم نافخ بوق راح يعزف أنغاماً رددّت أصداءها القمم والمنحدرات وصولا الى شواطىء بحيرة بينيت حيث كان بناة السفن يستعدون للانطلاق في المرحلة الاخيرة من تلك الرحلة الشاقّة الى حقول الذهب.

كان هناك خياران امام الجموع الزاحفة التي وجدت نفسها متروكة على الشواطىء عند مدخل قناة لين. فإما أن تسلك طريق سكاغواي الجبلية بانهارها الموحلة ورائحة الجيف المنتنة، واما أن تبدأ الرحلة في محاذاة نهر ديا الملتف صعوداً الى مرتفعات تشيلكوت الشاهقة.

## مستشفى للمجانين!

كان مظهر الطريق الجبليّة خادعاً شتاء ١٨٩٧ - ١٨٩٨. فممر تشيلكوت، خصوصاً المرتقى الاخير فيه الذي يزيد ارتفاعه ٢٠٠ متر على ارتفاع ممر وايت، استعصى تسلّقه على جميع البهائم المحمّلة. فهو في الخريف كتلة من الجلاميد الزلقة وفي الشتاء منحدر رهيب من الجليد الصرف. ومع ذلك وعلى رغم الانهيالات الثلجية الهادرة والعواصف المزمجرة، ثبت بالبرهان أنه كان المنفذ الأفعل الى حقول الذهب. ولقد نجح نحو ٢٢ ألف شخص من الذين تصدّوا له في العبور الى الجهة المقابلة مع أطنان المؤن التي حملوها في عرباتهم وكراجاتهم.

السيول البشرية المتدفقة من ديا ملأت السهول والغابات المحيطة بنهر دلتا حيث نعم الآتون بهدوء موقت بعد صخب المدينة والفوضى التي عمّتها. فعلى جانبي الطريق الجبليّة انتشرت أشجار الحور والبتولا والصفصاف مضفية على النفوس سكينة وراحة.

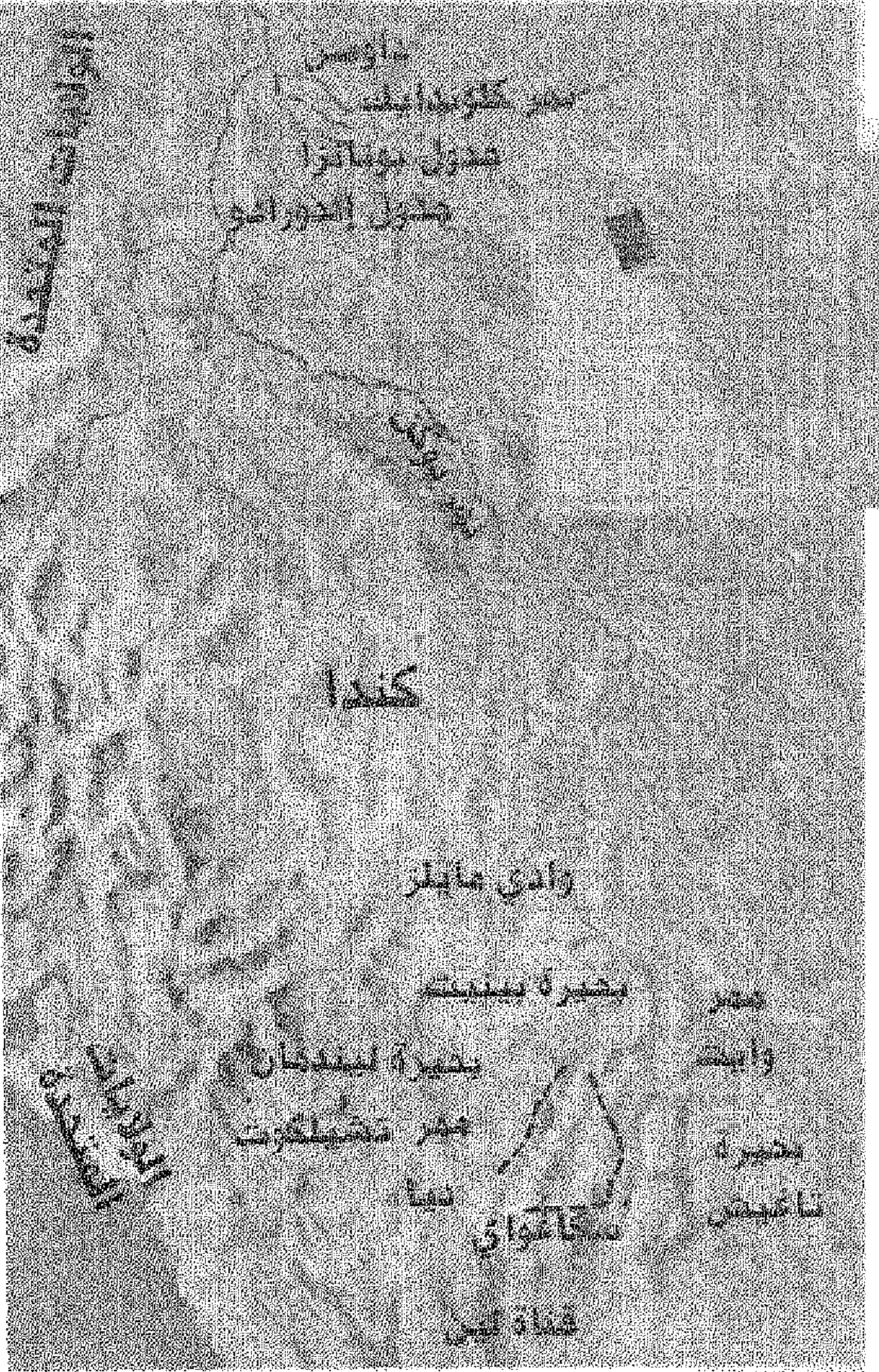
لكن الجميع ما لبثوا أن أدركوا أن واقع طريق ديا لم يكن مثل ظاهرها. فعلى جانبيها تكدّست عشرات الصناديق، فالصندوق غير عملي كمحمل لامتعة السفر. وبعضها كان مليئاً بالحلى الرخيصة والتذكارات وأدوات الزينة والصور المؤطرة التي لم تعد لها قيمة في نظر مَنْ أخذ عقله بغنائم أنفس.

ومع اشتداد الانحدار انحشر النهر في واد كئيب شعر كل من وطئه بقوة الجاذبية. وسدّت الطريق سلسلة من الجبال الساحلية المنحوتة في الصخر. وبان مخيّم "شيب" في قعر الوادي عند الحدّ الذي لم يكن لينمو بعده شجر.

هنا في حوض عميق كأنه أحدث بواسطة مغرفة، شاهد الوافدون منظراً لم ينسوه طوال حياتهم: أمامهم حشد من الخيم والاكواخ المبنية على عجل، ووراءهم صف طويل من المتسلقين بدا فوق المنحدرات البيضاء كشريط مدلّى من ثلم في القمة.

عندئذ أدرك كل واحد فيهم حجم الجهد المطلوب وأبعاده. صحيح أن سبعة كيلومترات مستقيمة فقط كانت تفصلهم عن القمّة، لكن هذه الكيلومترات ارتفعت ١٠٠٠ متر فوق بلدة ديا. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتحوّل هو أيضاً لطخة على جدار الجليد ذاك.

أما مخيّم شيب فلم يعرف الهدوء، وكان يتمدّد ويتقلص مع ذلك المدّ البشري الذي تألف من رجال يتصببون عرقاً وكلاب تنبح وخيول تخلى عنها أصحابها. هرج ومرج في كل مكان كأن الجميع في مستشفى للمجانين. وهنا أيضاً تحوّلت حاجات الناس الاساسية كماليات. واضطر الرجال الذين نهكهم التعب الى دفع أجرة يومي عمل لتناول




وجبة طعام هزيلة، وثروة صغيرة لقضاء ليلة على الأرض في واحد من ١٥ فندقاً لم يكن بينها مستحق لهذه التسمية. وكان في وسع أي شخص أن يبتاع ما شاء من سكاكر وجوز وبندق وحطب وأدوات مطبخ ما دام قادراً على الدفع.

وسرعان ما اتضح لكل من انطلق من مخيّم شيب أنه لم يكن أمامه سوى مكان من اثنين ينال فيه قسطاً من الراحة، الأول تحت جلمود ضخم عُرف باسم "البيت الحجري" والثاني رفّ صخري مسطّح عُرف باسم "الميزان" يقع في قعر مرتقى شديد الانحدار. هنا كان عمال النقل يزنون حمولتهم مرّة ثانية ويزيدون التعريفة الى دولارين لكل كيلوغرام.

وإذ شعر أحد الوافدين الجدد بعجزه عن المتابعة بسبب الارهاق الشديد فانه كان يواجه بفاتورة تبلغ قيمتها ٢٠٠٠ دولار. فإما الدفع واما العودة. أما البهائم فعجزت عن عبور موقع الميزان وهي محمّلة، وعدد قليل من الاحصنة نجح في تسلّق ذلك المرتقى ولكن من دون حمولة. وتعيّن على الرجال أن ينقلوا كل شيء على ظهورهم بما في ذلك الكلاب والمزالج. وفيما الثلج يتساقط من دون توقف ظهرت فوق الميزان جبال من المؤن نقلها أصحابها على دفعات في رحلات مكوكية.

## الموت ولا السرقة

جدّ الرجال في تسلق "السلّم الذهبية" التي تألفت من ١٥٠٠ درجة من الجليد الصرف، وليس لديهم سوى حبل مغلّف بطبقة من الجليد يتمسكون به. وكانوا في فرائهم وثيابهم الصوفية التي التقطت لهم الصور وهم يرتدونها تارة يتصببون عرقا وأخرى يتجلدون من شدّة البرد. وتقدموا بأجسادهم المطويّة بفعل الجاذبية وبطونهم شبه الخاوية التي لم تعرف سوى الفاصولياء الباردة والكعك المبلل والقهوة الرديئة. مضوا وهم يستجمعون قواهم الخائرة التي استنزفتها الديزنطاريا والتقلصات

المعوية. ولم يعادل خوفهم من الرياح المزمجرة سوى خوفهم من الانهيالات الثلجية المدمرة.

كانوا على استعداد لتحمّل التأخير الطويل بسبب العواصف الثلجية والحوادث الطارئة، لكنهم ما ان بلغوا القمّة ورياحها العاصفة وألقوا بامتعتهم بين أهرام الامتعة المغمورة بالثلج التي حملها من سبقهم، حتى اكتشفوا الحقيقة المرّة. تلك كانت الخطوة الاولى، وعليهم أن يعودوا ادراجهم غير مرة ليتأكدوا من أن كل أمتعتهم من لحم وشاي وعدّة وخيمة وفرن ومزلجة مرّت على مركز للشرطة الخيالة على الحدود الدولية. ففي الجهة المقابلة حيث كانت البحيرات تنتظر انقضاض المنقبين عن الذهب، لم تكن هناك مخازن لبيع الادوات المعدنية والخردة ممّا فرض على كل متسلق أن يحمل معه عدّته الكاملة لبناء قارب: سكّين ومشحذ وبلطة ومنشار سوطي ومسحاج وفأرة نجار ومسامير، الى لفائف الحبال ودلاء القار. وأهم من ذلك كلّه المقلاة لفصل الذهب عن التراب. فكيف يخوض المرء في الكلونديك ويعود ليحرر ثروته من الشوائب من دون مقلاته الخاصة؟

تكدّست المؤن والذخائر على القمة وبدت كبنايات تفصلها ممرات ضيّقة. وظهرت غابة من الرفوش ذات الاذرع الطويلة رسم بها أصحابها حدوداً في الثلج تفصل أمتعتهم عن أمتعة سواهم. لكن الوقت لم يطل قبل أن يغطي الثلج هذه العلامات ويدفنها مع كل شيء آخر، من بيانوهات وبراميل شراب وأدوات خشبية وأوان زجاجية وأقفاص وحرير فاخر وبراميل تحوي ديوكاً رومية محشوة وحتى محراث يزن ٥٠ كيلوغراماً حمله مزارع من آيوا.

هنا أدرك البعض مرّة أخرى أن الذهب الحقيقي كان أقرب الى متناولهم من الكلونديك، وهم استغلوا مبدأ العرض والطلب ليجنوا ثروات طائلة. فتلك الكماليات، مثل أكياس الصحف القديمة وحجار الشحذ و١٠ آلاف زجاجة من مستحضر لطرد البعوض، تحول أصحابها لاحقاً مقاولين وتجاراً وملأوا بها الطرق والسلالم، وسرعان ما أصبحت قيمتها تساوي ثقلها ذهباً. ونجحت احدى النساء في جمع مبلغ من المال غطّت به مصاريف رحلتها، من طريق اقامة حفلات عزف على آلة البانجو، وراحت أخرى تبيع الشراب في "حانة" متنقلة وجعلت سعره يرتفع مع اشتداد الانحدار. على أنه لم يكن للكلفة أي اعتبار في نظر الذين توقعوا ان يغرفوا الثروة من حقول الذهب.

وعلى طول طريق تشيلكوت قبع "الواثقون" في انتظار السذّج واضرموا النار لتدفئتهم وبنوا المزالج لتخفيف ثقل احمالهم وأقاموا الخيم لتقيهم العواصف. وأمعنوا في التمويه والتظاهر فحملوا مزالج مزيّفة واكياسا مملوءة بالريش واقفاصاً جوفاء ظهرت منها أذرع المعاول. ونجحوا في الظهور بمظهر الصالح الذي يمدّ يد المساعدة الى اخوانه المحتاجين. وظلّت تلك الحقيقة محجوبة عن أعين الساعين الى الثروة الذين خرجوا بخسارة بعد كل لقاء.

ولكن ما من مشعوذ أو دجّال استطاع

نقلون المؤن في ممر تشيلكوت.



في الطريق الجبلية من سكاغواي
الى ممر وايت، كومة من
الصخور الهاوية والاشراك القاتلة.



نساء في داوسن.



صورة أخذت عشية الانطلاق وفي خلفيتهما منظر ثلجي زائف.

ان يكبح اندفاعهم لمدّة طويلة. فتابعوا طريقهم بكدّ وتصميم وأعادوا الكرة ثانية وثالثة. ومع اشتداد الانحدار راحوا يتسلقون ركوعاً.

وما كانت الصعوبات إلا لتشحذ خيالهم والمآسي الفردية إلا لتحجّر قلوبهم. وانهار أحدهم من شدّة الارهاق وبسبب كسر في ساقه، فارتمى على حافة الطريق أياماً من دون ان يأبه له أحد، الى أن نقله أحد الحمالين في مقابل اجر.

لم تكن المصائب أو الامراض أو الموت او حتى جرائم القتل لتهزّهم. السرقة فقط كانت في نظرهم جريمة شائنة. وكل واحد سُرقت منه عدّته فقد حظّه في الثروة، إذ كان رجال الخيّالة على الحدود يجبرونه على العودة. لذلك كان الشخص الذي يضبط وهو يسرق يربط الى عمود ويجلد أمام الجميع. وتجنباً لمواجهة ذلك العذاب المهين فضّل احد اللصوص أن يطلق النار على نفسه.

## نهاية الحلم

بلغ ارتفاع الثلج على القمّة ٣٠ متراً وأصبح الممر خندقاً عرضه ١٠٠ متر تعصف داخله الريح، وبدا الرجال يتحركون فيه كأشباح ضبابية. وكان عليهم أن ينتظروا شمس الربيع لتذيب القشرة التي غلفته كالمعطف قبل أن يحزموا أمتعتهم وينطلقوا نحو البرك الداخلية في الجهة المقابلة من الجبل والتي انبعثت منها أصوات المطارق والمناشير وكأن أسطولا ضخماً قيد البناء.

استمر تدفق النهر البشري من الجبال الساحلية حتى ضجّت البرك التي تغذي نهر يوكن بالحركة والنشاط. وفي ربيع ١٨٩٨ نصب اكثر من ٣٠ ألف شخص خيامهم في محاذاة شواطىء لندمان وبينيت وتاغيش. وهناك، بطريقة بدائية منزلية وباستخدام الخشب الغضّ، بنوا اسطولا من المراكب الصغيرة لرحلة بحرية واحدة تحملهم ٨٠٠ كيلومتر الى سهول كلونديك الذهبية.

يوم ٢٩ مايو (أيار) بدأ الجليد يتفسخ وظهرت فيه بعض الشقوق. ثم سمع دوي كهزيم الرعد وتفجرت البرك وتحوّلت خلال ٤٨ ساعة دروباً مائية ذات لون أخضر جليدي صاف. وعلى صفحات المياه الزجاجية انزلق ٧١٢٤ مركبا من جميع الاوصاف: زوارق خفيفة ضيّقة، صنادل، قوارب مسطحة، زوارق مجدّفة، أفلكة، رموث، مراكب شراعية ذات صار واحد، قوارب خفيفة في شكل صدفة الكوكل، وجميعها محملة أطناناً من الاطعمة والمؤن.

المتلهفون لأن يكونوا أوائل الواصلين كانوا في المقدم. وفي لمح البصر وجدوا أنفسهم داخل ممر وادي مايلز المظلم، وهو شق في جدار من البازلت(٢) تتوسطه دوامة ووراءها مجموعة شلالات صاخبة لا ترحم، تسببت في تحطم مئة وخمسين قارباً وفقد خمسة رجال. ومع وصول الاسطول الى ذلك المخنق توقف الزحف.

حرص الخيالة حتى ذلك التاريخ على التردد على الزاحفين وتأمين بحارة مدربين لكي يرشدوهم.

وسرعان ما انفرط عقد الاسطول الصغير وتفرقت القوارب في كل اتجاه

(٢) البازلت حجر بركاني قاس قاتم اللون.

وظهرت كالبقع على صفحة النهر. وكانت أشعة الشمس الحارقة تلذع وجوه الرجال ٢٢ ساعة يومياً فيما دفعتهم جحافل البعوض والذباب الى حافة الجنون. واستحال النوم على الذين أهملوا احضار ناموسية، ولم تلبث حال التوتر التي همدت عند بلوغهم البرك أن عادت تستعر. والرفقاء الذين تمكنوا من تجاوز خلافاتهم في الماضي تحولوا أعداء في مواجهة بعضهم بعضاً. وكتب أحدهم: "كان الأخ في حرب مع أخيه والأب في حرب مع ابنه. وانتفت روح التسامح والصفح بين الزاحفين على تلك الدروب." وفي جزيرة سبليت أپ بلغ بهم الامر اقتسام المقالي والقوارب بعد شقها أنصافاً كي لا يتنازل أحد للآخر. وهم برروا سلوكهم بالقول ان داوسن لم تعد تبعد سوى بضع ساعات وان حقول الذهب أصبحت في متناولهم وانهم في أي حال لم يكونوا في حاجة الى شركاء.

خلال الساعات القليلة الاخيرة تابع الرجال رحلتهم من دون توقف. وكانوا كلما تقدموا ازدادت أعصابهم توتراً. وها هي غايتهم أخيراً أمامهم: منبسط من الأرض انتشرت عليه الخيام والاكواخ الخشبية والمخازن التجارية من دون نظام أو اتساق وعلى امتداد ثلاثة كيلومترات في محاذاة ضفة النهر وصولا الى المستنقعات والتلال المحيطة. ومع اقتراب الزوارق الى الشاطىء لا بد من أن كل رجل قرص جسمه ليتأكد من انه في علم وليس في حلم. والمشهد أمامه، هل كان حقيقياً؟ ومنظر السديم المتبخر من المستنقعات كما بدا تحت ضوء شمس يونيو (حزيران) أضفى على المكان طابعاً غريباً. تلك كانت داوسن، مدينة الذهب، نهاية الحلم.

## انحسار الحمى

وصل الاسطول الصغير الى مصب نهر كلونديك في ٨ يونيو (حزيران) ١٨٩٨. ومنذ وصوله ظلت الزوارق تتدفق الى داوسن ليلا ونهاراً لمدة شهر كامل حتى لم يبق على الشاطىء متسع، مما اضطر الذين وصلوا لاحقاً الى ربط زوارقهم بزوارق سواهم مشكلين صفاً بلغ عرضه ستة زوارق وامتد على طول الواجهة المائية.

ومع تدفق الرجال بالألوف حاملين خيامهم البالية المتسخة، أخذت المدينة تتمدد صوب التلال وفي اتجاه النهرين حتى بدت كزهرة كبيرة بيضاء. وفي شارع فرونت المحاذي للنهر اختلطت الواح الخشب بالمنازل غير المنجزة وجذوع الشجر والسلالم في بحر من الوحل. وكان على الرجال والجياد اما أن يشقوا طريقهم عبر جداول من الاقذار والوحول واما ان يترجحوا على ألواح خشبية غير ثابتة ونصف مغمورة بالوحل الدبق تترنح تحت اقدامهم. واكتظ الممشى الخشبي الرئيسي بالعابرين ولم يبق فيه متسع يتحرك فيه انسان.

الوافدون الجدد لم يتمالكوا أعصابهم ونزلوا من المراكب مهرولين كأن بهم مساً من الكهرباء. لكن امراً غريباً حصل لهم وقت وطئت أقدامهم الارض. فجميع الشواهد والبيّنات أنبأتهم بأنهم سيندفعون الى جداول الذهب. والحقيقة

أن الالوف منهم لم يفعلوا ذلك، بل جمدوا في أمكنتهم يحدقون الى نشارة الخشب التي غطت شارع فرونت والى الجدول والوحل. وسمعوا مرة أخرى صرير المناشير وقرع المطارق، ورفعوا أبصارهم الى التلال التي بيّضتها الخيام المصطفقة في الريح. ورأوا الناس الذين سبقوهم يروحون ويجيئون كالنيام وقد أصبحوا جزءاً من جمع بشري لا هدف له، قال فيه أحد الكتّاب المعاصرين انه "جمع غريب، مبهور، فاتر الهمة، يجر الناس فيه أقدامهم المتلكئة."

وبين كل الشعوذات التي ابدعتها ظاهرة الكلونديايك، تلك كانت الأغرب. فهؤلاء الناس حفروا طريقهم "بأظفارهم" وتحدوا أفظع الأخطار وصرفوا على الطريق نحو سنة من عمرهم وتغلبوا على جميع العقبات التي اعترضتهم لكي يصلوا الى هدفهم. وها هم الآن هنا. ماذا كان هدفهم؟ لم يتكبّد احد منهم عناء زيارة واحدة لتلك الجداول الاسطورية أو حتى عناء تقديم طلب رسمي يعطيه حق التنقيب. ومنْ فعل ذلك فانما من باب "رفع العتب" ومن دون مبالاة ولا حماسة. وهم عرفوا في أعماقهم أن الأرض الحقيقية أخذت منذ زمن. ومنهم مَنْ لم يكلّف نفسه عناء ضرب معول واحد في الارض التي أصبحت ملكاً له. أما الذين تشبثوا بايمانهم بأن كتل الذهب مطروحة على الارض في انتظار من يغرفها، فقد خاب أملهم أخيراً بعدما أدركوا أن الذهب مدفون في أسفل الوادي على عمق لا يقل عن عشرة امتار وأن غيرهم سبقهم اليه.

على أن الخيبة لم تكن الميزة الرئيسية للجموع التي احتشدت في شارع فرونت ذلك الصيف. فبعد التوتر الذي ساد الرحلة، انقطع شيء ما فجأة. فهؤلاء الرجال كانوا مدفوعين بهدف واحد: الوصول الى أرض الذهب. وهم وصلوا اليها الآن وانتهى الامر ولم تعد أمامهم حواجز يتحدونها واصبحوا "مستنفدين" على حد التعبير الذي ساد العصر.

ذاك كان السبب في انحسار حمى الذهب. والرجال الذين أمضوا اشهراً يتحدثون عن الذهب كانوا في الحقيقة ينشدون المغامرة، وذلك ما حققوه بالفعل. والنجاح لم يكن ليقاس بأكياس الذهب، بل بالشعور بالرضا بالنجاح في الوصول الى تلك الارض. وهم حققوا ما قصّر عنه سواهم. وهم كتبة وباعة وعمال ورجال لم يحملوا رزمة واحدة طوال حياتهم أو يتسلقوا جبلا او يبنوا قارباً أو يعبروا نهراً جارفاً. لقد قهروا القفار. والآن، مثل قدامى المحاربين، في وسعهم أن يشاركوا في العرض.

راحوا، بوجوه مغبرة ولحى شعثاء ودثائر خبا لونها وسراويل مرقعة وجزمات عالية، يذرعون شارع فرونت جيئة وذهاباً، يسيرون بظهور منحنية وهم يجرون أقدامهم.

أما صيادو الثروة الحقيقيون فكانوا أبعد نظراً. ولم يكن همهم اكتشاف منجم للذهب بل العثور على شخص يملك واحداً. وفي موسم الشتاء السابق كانت داوسن تعج بأصحاب الملايين من الوافدين الأول الذين حظيوا بالارض الغنية بالتبر. على

أن ثرواتهم لم تكن لتشتري لهم شيئاً. أما الآن فإن قانون العرض والطلب أتاح للذين لم يكلفوا أنفسهم عناء التنقيب ان يحققوا أرباحاً جيدة. ووجد أحد الرجال سوقاً لحمولة قارب من القطط تحمّل من اجلها تهكمات رفاقه ونكاتهم، فاشتراها منه عشرات من اصحاب المناجم الذين تاقوا الى رفقة بعد طول حرمان. وهم دفعوا له أونصة(٣) من الذهب في كل قطة. وباع آخر حليباً معلباً بدولار لكل علبة. ونجح ثالث في جمع ٥٠٠٠ دولار بصنع قبعات وأثواب نسائية.

## مدينة مثيرة

بدأت معالم الحشود المختلطة تتضح فوق المرتفع الرملي في محاذاة الواجهة المائية حيث راح الرجال يحاولون تصريف البضائع التي حملوها. وهناك بات في وسع المرء ان يبتاع ما يستهويه من المعروضات، كعقد من اللؤلؤ أو خفّ من الساتان أو ناب فيل أو فستق أو ليموناضة.

ولأن الجميع حرصوا على احضار ميازين لتثمين ثرواتهم فقد كانت ميازين الذهب سلعة كاسدة في تلك السوق. كذلك الطحين الذي أحضر كل قادم منه ما لا يقل عن ٢٠٠ كيلوغرام. إلا أن قلة اهتمت لنقل مكنسة، فأصبح سعر الواحدة ١٧ دولاراً. والمسامير كانت نادرة مما رفع سعرها فبيع نصف الكيلوغرام منها بثمانية دولارات، خصوصاً أن حركة البناء في داوسن كانت في ازدهار. وبيعت قطعة الأرض في الشارع الرئيسي بعشرين ألف دولار. وبلغ اقل ايجار شهري لغرفة في المدينة ١٠٠ دولار أي مئة مرة أكثر من ايجار غرفة أفضل في أي مكان آخر.

ومع بداية الصيف عج النهر بالسفن التجارية بمداخنها الصفراء التي تنفث دخاناً ابيض وعجلات التجديف التي لا تكف عن الدوران، والبيارق المرفرفة فوق الصواري. واكتظت المراكب بالبشر من كل لون: رجال اعمال ومقامرين ومنقبين ساعين الى الذهب وحتى سيّاح. ومع نهاية شهر أغسطس (آب) كانت ٥٦ باخرة مغذّفة و٨ زوارق قطر و٢٠ مركباً ضخماً أفرغت ٦٧٠٠ طن من البضائع على الأرصفة التي بُنيت حديثاً وغدت المطاعم تقدم ألوانها من الطعام الفاخر: المحار اللذيذ والكركند مع صلصة "نيوبرغ" ولحم الموظ المشوي.

على أن هذا العزّ وذلك الترف اقتصرا على "ملوك الدورادو" وهو الاسم الذي عُرف به حديثو النعمة آنذاك. أما الفرد العادي الذي افترش الارصفة في شارع فرونت، فلم يحظ بأكثر من التحديق ببله وانشداه الى المشاهير العابرين امامه مثل تشارلي اندرسون الذي عُرف باسم "الاسوجي المحظوظ" لانه نال مليون دولار بصك تمليك خُدع به ولم تكن له قيمة سابقة، وبيل غيتس المعروف باسم "الهلّال" أحد أصحاب صالة "مونتي كارلو" للتسلية.

وما ان بلغ الصيف منتصفه حتى أصبحت داوسن أكبر مدينة كندية غرب

(٣) الاونصة وحدة وزن للجوار والمعادن الكريمة وتساوي ٣١،١٠٣٤٧٦٨ غراماً. وفي ما عدا ذلك فهي تساوي ٢٨،٣٤٩٥٢٣١٢٥ غراماً.

وينيبيغ، وكأنها نمت فجأة كنبتة فطر. وكان عدد سكانها يزيد أو ينقص مع كل سفينة آتية او مغادرة ومع تحركات الرجال الى التلال المحيطة ومنها. وفي إحدى الرحلات التي انطلقت من البرك، عبرَ نقطة التفتيش في تاغيش ٢٨ الف شخص فيما وصل ٥٠٠٠ غيرهم في مراكب نقلتهم من آلاسكا من طريق النهر. وبعدد سكان جاوز الثلاثين ألفاً، حق لداوسن ان تتباهى بمصرفين وصحيفتين يوميتين وخطوط هاتفية ودار للسينما.

## موجة صقيع

انتقلت الفوضى التي عمت طريق الرحلة الى شوارع المدينة التي كان شكلها يتغير كل يوم، لا بل كل ساعة. لا خرائط ولا عناوين ثابتة، فالرجال والخيام والاكواخ في حركة دائمة وتغيّر مستمر. وفي ذلك المزيج من الاخشاب وقماش القنب راح الرجال يسيرون في دوائر يفتشون بخجل وارتباك عن شركاء الماضي ليصلحوا ما بينهم من خصام. ولم يكن الحظ حليفهم في غالب الاحيان، فالذي ينتقل من مكانه كان عادة يفقد الصلة بمعارفه وأصدقائه. وبدأ الناس يعلّقون رسائل وإعلانات على لوحة النشرات في "شركة آلاسكا التجارية" يعلنون فيها تقديم مكافآت الى من يرشدهم الى أصدقائهم القدماء. ولم يخلُ شارع فرونت أبداً من أناس يبحثون عن آخرين أو من أشخاص التقوا بعد طول فراق فجلسوا على الرصيف وغرقوا في الحديث.

في شهر أغسطس (آب) عرف شارع فرونت عزاً كبيراً، وغصّ بالاعلام واللافتات التي كتب عليها بأحرف عريضة "ذهب! ذهب! نشتري ونبيع ذهباً!" والسعر الرائج للذهب كان ١٦ دولاراً للأونصة.

مرة اخرى اختلفت حقائق الامور عن ظواهرها. فنادراً ما كان الذهب صافياً، بل كان مشوباً بالنحاس والحديد والرمل، وقاعات الرقص التي صدحت منها الموسيقى وأنغام البيانو لم تكن سوى زرائب مكشوفة جُملت بواجهات زائفة. والشقيقتان أوتلي اللتان قدمتا عرضاً غنائياً على مسرح غير منجز كانتا في الواقع أماً وابنتها.

لم يكن ذلك مهماً. فعندما غنت المرأتان باصوات رنانة كالجرس، وأنشدتا الأغاني العاطفية الرائجة، خيّم على الحشود المجتمعة صمت عميق. فالزاحفون الى حقول الذهب كانوا بعيدين جداً عن موطنهم، وأحدث رسائل تسلموها كتبت قبل أشهر. لقد حملتهم الاغاني الى البعيد.

في اواخر شهر اغسطس (آب) ضربت موجة صقيع المدينة وذبلت أشجار البتولا والحور في اعالي التلال. وواجه الجميع القرار الحاسم. اكثر من ثلث الذين تدفقوا الى داوسن في شهري يونيو (حزيران) ويوليو (تموز) ابتاعوا تذاكر سفر على متن احدى البواخر وغادروا المدينة الى الأبد. أما الباقون فكانوا من الذين لم يستهلكوا كل مؤنهم، وهم شرعوا للحال في بناء اكواخ استعداداً للشتاء. وأخذ بعضهم يقوم بأعمال موقتة

للصمود حتى الربيع. وقرر المئات غيرهم المجازفة، وانطلقوا الى الجداول والانهار والاجوان التي قيل لهم انها مغطاة بالذهب. هل حقيقة أن سنة واحدة فقط انقضت منذ سحرتهم تلك القصص والأخبار؟ الى الامام شقّوا طريقهم في محاذاة نهر كلوندايك، الى بونانزا والدورادو وهنكر ولاست تشانس (الفرصة الاخيرة) وفوق الحاجز الى سالفر ودومنيون، لا ليتقدموا بطلبات تعطيهم حق التنقيب أو التملك، بل ليكدحوا عند الذين حظوا بالثروة.

## تحرير الذهب

قبل أن يكتشف جورج كارماك ورفقاؤه الهنود الذهب في خليج بونانزا يوم ١٦ اغسطس (آب) ١٨٩٦، كانت مستجمعات الامطار في وادي كلوندايك، كمئات غيرها، أحدثت حفراً وأخاديد في نجود يوكن. فنتيجة نمط من التأكل والانجراف يعود الى ملايين السنين، كانت هذه المستجمعات أودية عميقة لم يصل اليها الزحف الجليدي ليشوهها، تحوطها كالمصاطب منبسطات مرتفعة تشير الى جيشان حصل في قشرة الأرض في زمن غابر. وفي قعر الاودية كانت الانهر بمياهها البيضاء المزرقة تجري متمعجة بين الطحالب والصفصاف فوق حصى بلون الطبشور وهي تقرقر وتلمع.

ولم يكن في كلوندايك عرق ذهب. فالذهب هناك تحول كسراً وغباراً قبل زمن بعيد بفعل عمليات التأكل ذاتها التي حفرت الاخاديد في الوادي.

على أن في أعماق تلك الاودية وفي المرتفعات بين الصخور الرقاقية التي كانت في ما مضى مجاري أنهار جوفية، يقبع أغنى الحصى في العالم. ومن اجل الوصول اليه راح ألوف الرجال يمزقون الوادي ويضربون فيه معاولهم ويجردونه من كل نبات وحيوان ويعرّون المنحدرات من أشجار البتولا والحور. ثم سكبوا ملايين غالونات الماء لغسل الاتربة والرمال الحاملة الذهب.

كان في استقبال الوافدين الجدد عام ١٨٩٨ الذين غامروا بالخروج الى حقول الذهب للمرة الاولى، مشهد خارق شكل علامات فاصلة في حكاية حمّى الذهب. فالصدوع والاودية من أدناها الى أقصاها كانت تضج بالحركة والنشاط.

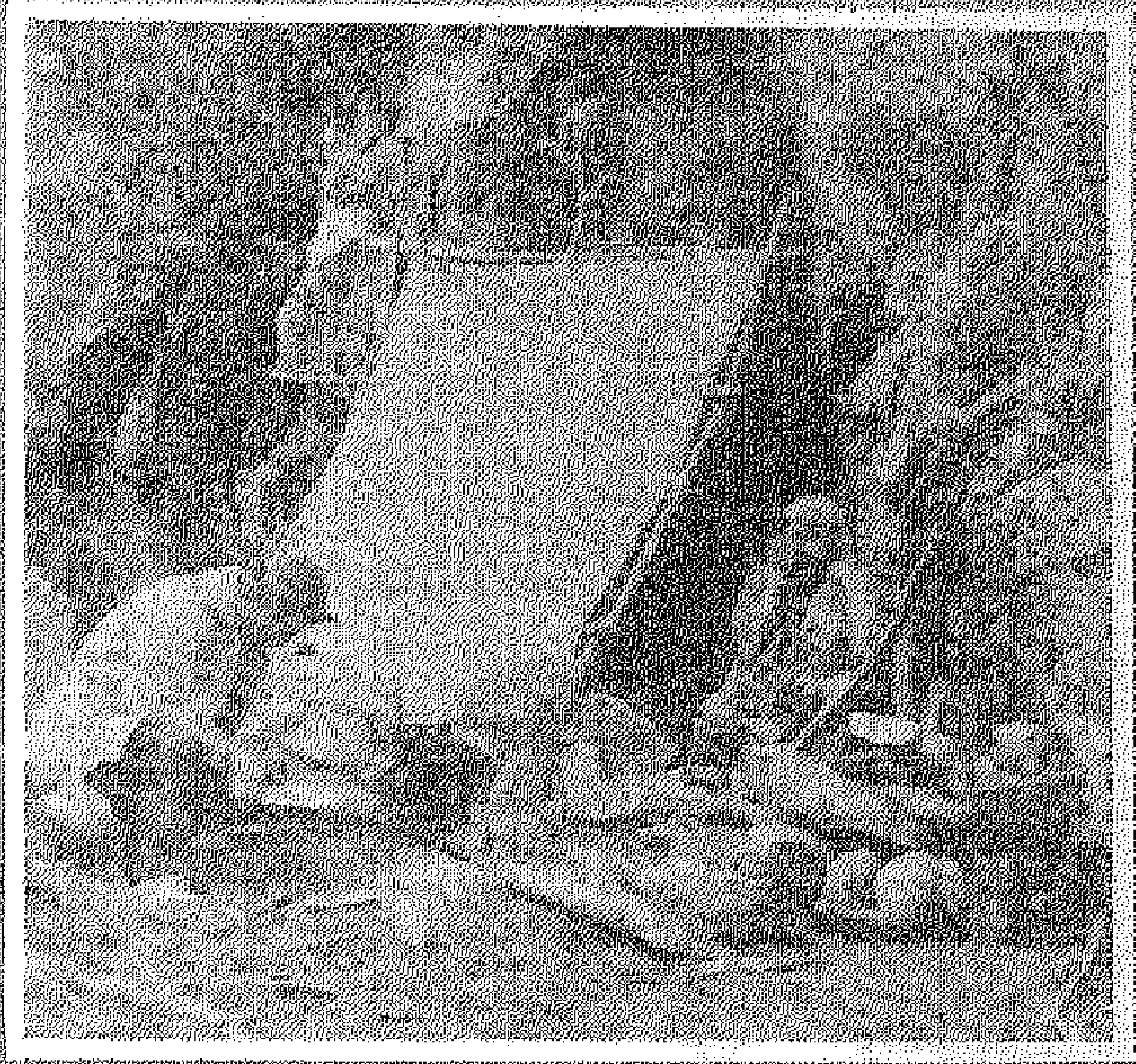
والأرض التي كانت خضراء ذات يوم، تحولت صحراء من الوحل الاسود اللماع. جبال من الحصى المستخرج من الحفريات لطخت المنحدرات البيضاء. قنوات اصطناعية اخترقت صفوف الاكواخ الخشبية المنتشرة بين مصبّ النهر وأسفل الوادي. واختفى المنظر الطبيعي تحت اكوام الصناديق والمراجل والمحركات البخارية والمضخات وخراطيم المياه والرافعات والمساند وقضبان السكة الحديد.

هنا فقط كان الوافدون يدركون حجم الجهد المطلوب منهم لتحرير الذهب من براثن الصخر الصلد. والعثور على الذهب واخراجه الى السطح وتخليصه من العوائق أمور استغرقت معظم أشهر السنة. والخطوة الاولى في هذا السبيل كانت تحديد موقع الذهب الذي أمل كل منقب أن يكون ضمن ملكه. ولتحديد الموقع

الانطلاق الى ديا.

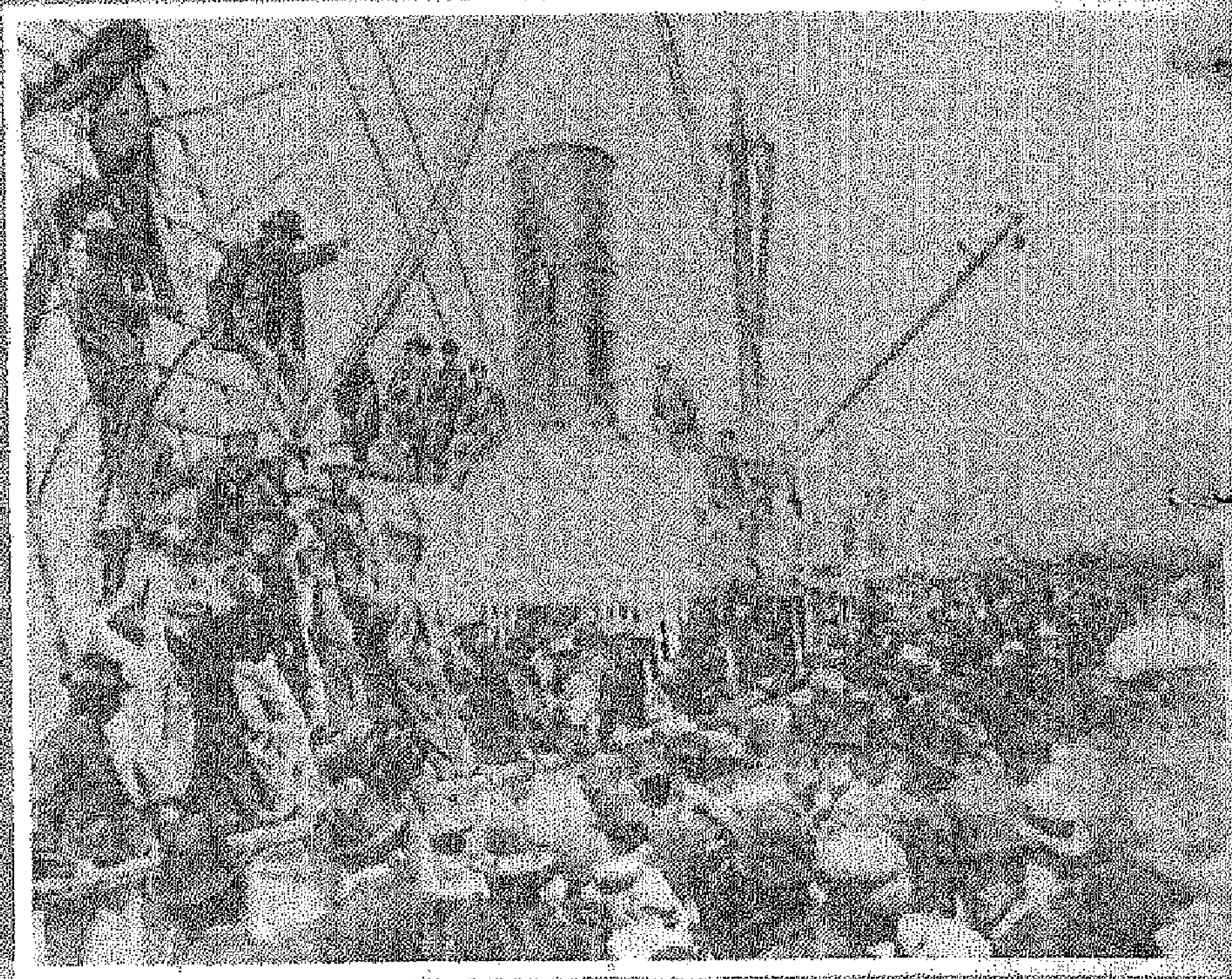


ينالون قسطا من الراحة
في الطريق الى مخيم شيبب.



ينخلون الحصى
لعزل الذهب.

على متن زورق محمل بأكثر من طاقته ويتجه شمالاً



تعيّن على المنقب اولا ان يحفر طريقاً عبر الجليد السرمدي بحرق الأخشاب، ثم يجرف الجليد والتربة المذابة وصولا الى الصخر الصلد. وان لم يعثر هناك على الذهب فعليه أن يعيد الكرة الى أن يعثر على ضالته. بعد ذلك يشق نفقاً جانبياً في الجليد متتبعاً مجرى الجدول القديم. وكان ذلك يتطلب رفع التراب الى السطح بواسطة دلو.

## ملوك إلدورادو

تلك الاعمال فرضت على المنقبين الإستعانة بعمال مأجورين. وهكذا فان الوافدين الجدد الذين ظنوا أن الذهب يستخرج كما تستخرج البطاطا، وجدوا أنفسهم محشورين في جوف الأرض أياماً وأسابيع متتالية يعملون بأجر ويضربون الجليد السرمدي الصلب كالصوان ويلهثون ويكادون يختنقون في مهاوي المناجم ومداخلها المفعمة بالدخان، فيما ضباب الشتاء يلف الوادي فوقهم. أما الليالي فأمضوها في ضوء الشموع في اكواخ خشبية عبقت فيها الروائح النتنة المنبعثة من الثياب التي نشرها أصحابها لتجف فوق أفران حمراء كالجمر.

ولم يكن الربيع ليحمل اليهم الفرج. فبعد العمل داخل المناجم انتقلوا الى السطح حيث راحوا يعملون بعيون طارفة بفعل الومض الجليدي وشمس الربيع، فيجرفون التربة الغنية وينقلونها الى القنوات. كانوا يكدحون ساعات وأجسادهم تصرخ. وكانت محنة اخرى تنتظرهم كل ثلاثة أيام. فالمياه كانت تقطع عن القناة تمكيناً للعمال من رفع "الحصير" من قعر المنجم وغسل التراب باليد. وكانوا من أجل ذلك يجلسون القرفصاء طوال النهار فيما أكتافهم وسواعدهم في عمل لا ينقطع، يغسلون الذهب - ذهب سواهم - أونصة بعد اونصة. وهذه العملية كانت تتكرر مرات حتى لا تبقى ذرة من التراب الذي نقلوه الى السطح في الشتاء، من دون غسل.

عند ملتقى بونانزا والدورادو، في نقطة لا تبعد كثيراً عن الارض التي تملّكها كارماك، بلغت حمى العمل ذروتها. فنهر إلدورادو الاغنى في كلونددايك والذي استقطب ٣٠ طلب تمليك بلغت قيمة الواحد منها مليون دولار، كان يصبّ مباشرة في أغنى زاوية في بونانزا، في قطعة مثلثة لا يتجاوز عرضها الثمانية والعشرين متراً. واشتهر هذا المصب باسم "نصيب ديك لوي" وعُرف كأغنى قطعة أرض في العالم. فهو وُجد عرَضاً نتيجة قسمة غير دقيقة قبل بها أحد تجار الجلود بعد تردد. وكان أن حصل منها لاحقاً على نصف مليون دولار.

كان في وسع العمال أن يلمحوا ديك لوي نفسه وهو يترنح مطروباً ويدفع عربته التي تجرّها الخيول الرائعة على طريق الوادي.

كانت غراند فوركس ثانية كبرى المدن في يوكن بعد داوسن، وكان عدد سكانها يزيد أو ينقص قليلا عن ٥٠٠٠ نسمة. أما النخبة الاجتماعية فيها، أي "ملوك إلدورادو"، فكانوا قبل عامين فقط مُعدمين لا يملكون فلساً واحداً. ولكن بالنسبة الى الوافدين حديثاً كان لاسماء اصحاب الملايين هؤلاء الذين اغتنوا

بسرعة، وقع سحري. احدهم، كلارنس باري، لكثرة ما كان يملك من ذهب، ملأ به صفيحة ووضعها أمام باب منزله مع لافتة كتب عليها "تفضل!"

هذه القصة وغيرها التي صعب تصديقها ألهبت خيال الزاحفين الى كلونديك الذين تجمع بعضهم في حانة غولدهيل يتفرجون على أصحاب الملايين. اما الباقون فمضوا يكدحون مرهقين، ممزقي الثياب، مبهورين، وكل أملهم أن يعثروا على الثروة يوماً.

## فحم ورماد

التجارب التي خاضها من مكثوا في كلونديك سنة كاملة فاقت الخيال. ومع مرور الوقت تلاشت الفظائع التي تعرضوا لها على الطريق ولم يعد عالقاً في ذاكرتهم سوى ما عاشوه أخيراً.

كان لدى الجميع جوع للذهب. أما الآن وقد حصلوا عليه فانه بدا لهم اتفه التوافه. وذات مرة دعا أليكس مكدونالد الملقب "ملك الدورادو" احدى الصحافيات لتغرف ما شاءت من وعاء ملأه بعشرين كيلوغراماً من الذهب. قال لها: "تفضلي وخذي ما تشائين، فهناك الكثير غيره."

وعندما نُصح بات غالفن أحد أصحاب الملايين في بونانزا بالحرص على أمواله، صرخ في ناصحه: "مصاريف! لا أريد أن أسمع هذه الكلمة ثانية هنا! واياك ان تلفظها في حضوري. هذه كلمة لا يفهمها أحد في الشمال. ان كنت تملك مالاً فاصرفه، فالمال وُجد ليصرف." وما ان حلّ ربيع ١٨٩٩ حتى كان أنفق ماله كله.

لكن الذهب لم يكن السلعة الوحيدة الثمينة في داوسن كما قدّر لولسن مزنر أن يكتشف. وهو سطا على مطعم آملا أن يحصل على بعض الشوكولاتة. ولخيبته كانت الشوكولاتة مخبوءة في الخزنة الحديد.

عام ١٨٩٩ بلغ مهرجان داوسن ذروته. فقد نشر ثورستين فيبلن روايته الانتقادية الشهيرة التي تناول فيها الطبقة المترفة. والحقيقة ان "الاستهلاك اللافت" الذي تكلم عنه فيبلن ينطبق على النخبة الثرية في مدينة الذهب. فهناك قطار خاص لرجل يدعى مورغان وآخر يدعى فاندربلت، وهنالك مجموعة من كلاب الاسكيمو المختارة التي بلغت قيمتها ٢٥٠٠ دولار اقتناها جيم دوغرتي وكيرلي مونرو. حتى ان دوغرتي أقام مقصفاً على مزلجته. اما مونرو فأنفق ٤٣٢٠ دولاراً على طعام لستة جراء. ودفع كلارنس بيري ٤٠٠ دولار لكل طن من التبن كي يعلف البقرة الوحيدة من نوع جرزي في البلدة. فما نفع الذهب ان لم تستطع أن تترك انطباعاً في الناس؟ واذا فشلت في بناء قصر في شارع فرونت فيمكنك ان تبتاع قاعة للرقص، وهي كانت عنوان النجاح واحد رموز المركز العالي. أن يحدق الناس اليك داخل مؤسستك الخاصة، وأن يأتوا على ذكر اسمك همساً، وأن تصبح انساناً مهماً بعدما كنت مغموراً قبل سنتين، كان أقصى ما ابتغته الطبقة الاريستوقراطية في كلونديك. وهذه جميعها أمور يشتريها الذهب. وفي داوسن كان الرجال يعيشون ليومهم وكأنهم في حرب. وقد

عبّر غيرتي "صاحب السن الالماس" عن ذلك اذ قال: "لم يكن يسع الغريبي الاطوار هؤلاء الا أن ينفقوا الذهب. كانوا يخشون أن تنتهي حياتهم قبل أن يستخرجوه كله من جوف الأرض."

من الصعب جداً الا يصاب الانسان بعدوى حمّى الانفاق وان لم يكن يملك الا القليل. وكل شيء في داوسن كان قابلا للبيع او الشراء.

مع ذلك تباخل مجلس المدينة ورفض أن يرفع اجرة رجال الاطفاء المحليين. وتلك كانت غلطة دفع ثمنها غالياً. ففي أثناء الاضراب الذي أعلنه رجال الاطفاء اندلع حريق في غرفة الطبقة الثانية من حانة بوديغا. وخلال دقائق أتت النار على اكثر من نصف شارع فرونت. وكان ذلك يوم ٢٦ ابريل (نيسان) ١٨٩٩.

وفي سكون تلك الليلة ارتفعت ألسنة اللهب عمودياً محولة الرطوبة المختزنة ضباباً لفّ المدينة. وانهارت معظم الحانات وقاعات الرقص. وهرعت النساء الى الشوارع المغطاة بالجليد وهن يصرخن ويستغثن. وتحولت أشهر الابنية في المدينة فحماً ورماداً، وكان مجموعها ١١٧. وقال ولتر واشبرن وهو يراقب انهيار مسرح الاوبرا الذي يملكه: "هكذا أقمته وهكذا ذهب. فما هم!"

## قصص نجاح

فوق "أشلاء" المدينة التي تحولت رماداً قامت مدينة أخرى اجمل وأمتن. نوافذها من زجاج وأرض ابنيتها مفروشة بالسجاد. مدينة عرفت الحمامات التركية والبياضات الكتانية والفضة والبلور والبيانوهات والكهرباء. ومع ذلك كانت داوسن تخطت ذروة ازدهارها. وشعر بذلك الهبوط اواخر الوافدين الذين وصلوا من ادمونتون بعيونهم الغائرة وأجسادهم الناحلة بعد شقاء طويل استمر سنتين، عبر ما سمي آنذاك "الطريق الكندية." ألوف الناس راحوا يذرعون الشوارع بحثاً عن عمل بات نادراً. وفي العالم الخارجي كانت الحمى انحسرت. وأصبحت كلمة كلونديك تردد باحتقار، وبيعت مقالي الذهب كأوعية للجلي بنصف ثمنها الحقيقي.

بعد ذلك سرت في المدينة رعشة مألوفة. فعلى بعد ٣٠٠٠ كيلومتر في محاذاة النهر، على شواطىء نوم في آلاسكا، حدث أمر مثير: ثروة من الذهب تم اكتشافها ملقاة على الارض في انتظار من ينتشلها. وخلال شهر فرغت داوسن من أهاليها الذين اكتظت بهم السفن النهرية المتجهة نزولا. الحانات أغلقت وهبطت قيمة العقارات وخسرت قاعات اللهو زبائنها. وخلال أسبوع واحد في شهر أغسطس (آب) ترك ٨٠٠٠ شخص داوسن الى الأبد. وانتهى الزحف في اتجاه كلونديك ليبدأ من جديد في اتجاه آخر.

لم تدم حمّى كلونديك اكثر من سنتين، بدءاً بمنتصف صيف ١٨٩٧ عندما بلغ العالم الخارجي خبر اكتشاف الذهب. وهذه الفترة الوجيزة اختصرت حياة ألوف من البشر. والحقيقة ان هذا الزحف الهائل لم يكن الا صورة مصغرة للحياة برمتها، بمراحلها المختلفة، انعكست فيها سذاجة الطفولة وحماسة الشباب

وخيبة منتصف العمر وحكمة الشيخوخة. والذين أفادوا من هذه التجربة اكتسبوا حكمة ونضجاً وباتوا يدركون نقاط الضعف ومواطن القوة في شخصياتهم.

معظم أصحاب الملايين من كلوندايك أنهوا حياتهم في فقر مدقع. والواقع ان الذين أتوا بعدهم هم الذين قطفوا ثمار الزحف الى الذهب. وانعكس البهرج الذي ميز مغامراتهم بعشرات من حكايات النجاح الذي أصابوه.

غير ان قصص النجاح الحقيقي انطلقت من صفوف البؤساء في شارع فرونت. وبين هؤلاء من دوّن مذكراته او رواها لسواه. ومن هذه المذكرات استقطر الرواة والكتاب حكايات التجارب التي مرّ بها الرواد الأول. حكايات تنضح بالمشقات والالم المكتوم المغلّف بالنشوة والنجاح والفرص التي تنتظر أن تُستغل. حكايات أخلاق شذبتها الشدائد.

عرف الناس أن في وسعهم اتيان المستحيل وتحقيق أعمال بطولية لم تكن لتخطر لهم على بال قبل ان يبدأ الزحف الى الذهب. من منا اليوم على استعداد ليخوض المشقات والصعاب التي واجهت السعاة الاول؟ من منا على استعداد لتسلق قمة تشيلكوت وسط العواصف ومحملا بالاثقال، ليس مرة واحدة بل أربعين مرة؟ من منا على استعداد ليبني قارباً من الخشب ويقطع فيه الانهار والشلالات مسافة ٨٠٠ كيلومتر؟ من منا على استعداد لبناء كوخ من جذوع الشجر يعيش فيه ثمانية أشهر يقتات بالفاصولياء واللحم المجفف في حرارة أدنى من ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر؟

ومع ذلك فان ٣٠ الف شخص أقدموا خلال موسمين جنونيين على اكثر من هذا كله. معظم الذين خاضوا تلك التجارب خرجوا منها بثقة اكبر بأنفسهم وبحس أرهف لتحديد هدفهم في الحياة، وفوق كل ذلك بيقين ان لا شيء ذا اهمية يمكن ان يحصل عليه المرء بسهولة. قلة بينهم تأثرت بالتجربة سلباً وخرجت منها أضعف مما كانت.

هؤلاء الشباب الذين أخذت لهم الصور في كلوندايك وظهروا فيها بفرائهم ودثائرهم الانيقة، فقدوا براءتهم الى الابد.

بيار برتون ■

## معزاة مدللة

أثناء رحلة في الريف دهشت السيدة لرؤيتها رجلا على سلم أسندت الى شجرة تفاح، يحمل بين يديه معزاة تأكل الثمار من الشجرة. وأثار هذا المشهد فضولها فتقدمت من الرجل وسألته عما يفعل.

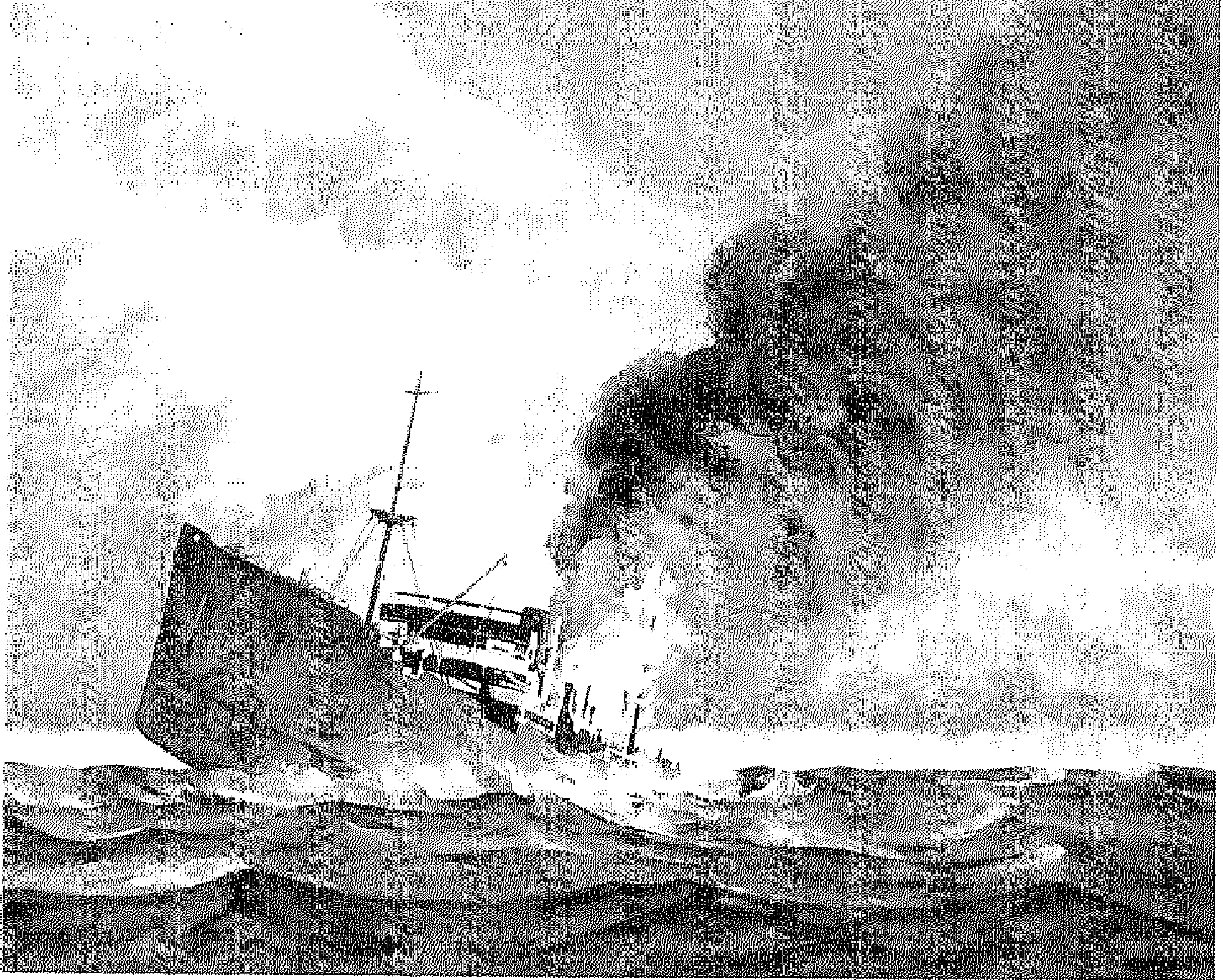
فأجابها: "كما ترين، أطعم معزاتي."

فقالت: "ألا تستغرق هذه الطريقة وقتاً طويلا؟"

فرد الرجل: "وهل يعني طول الوقت شيئا للمعزاة؟"

هـ.م.

# كتاب الشهر



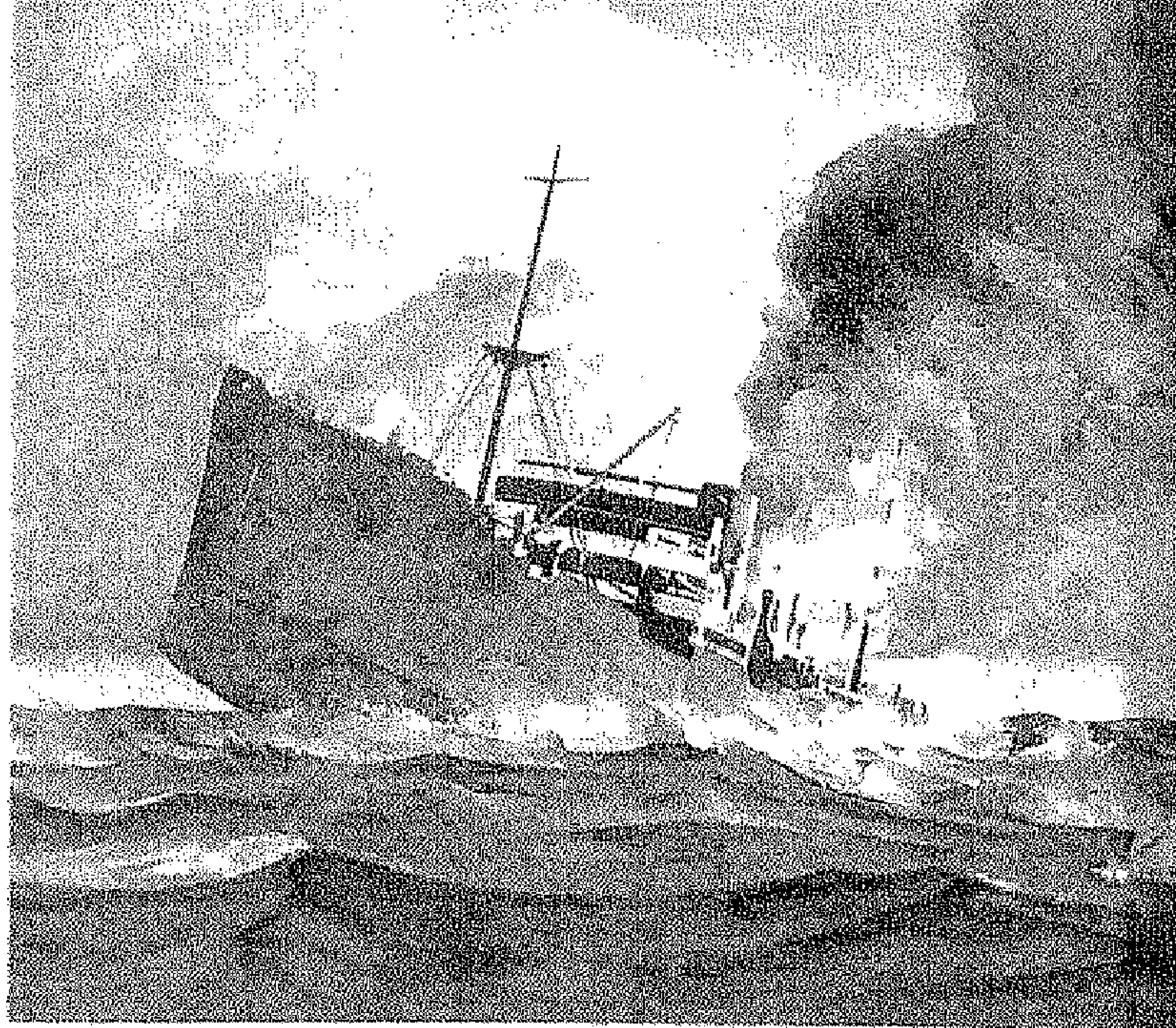
# أيام لا نهاية لها

ملخص من كتاب

بقلم روثان لوم ماكون

# أيام لا نهاية لها

جاء في كتاب "غينيس" للارقام القياسية
العالمية ان أطول مدة سجلت لوحيد بقي حياً على طوف
هي مئة وثلاثة وثلاثون يوماً قضاها المضيف بون ليم
الذي قصفت باخرته بالطوربيد في المحيط الاطلسي
في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٤٢.
وأنقذ في ٣ ابريل (نيسان) عام ١٩٤٣.
والى ادراج اسمه في سجلات الاعمال الباهرة،
فان بقاء ليم حياً يعتبر من عجائب الشجاعة والبراعة.
وهو، على رغم جنسيته الصينية والتقاليد البحرية آنذاك
التي كانت تحول دون تعلمه حتى مبادىء الابحار والعمل
للنجاة لدى مواجهة المخاطر، اضطر الى الكفاح
ليس من أجل التغلب على العوامل الطبيعية فحسب بل من أجل
محاربة التمييز بين اجناس البشر ايضاً.
وعلى رغم عريه ووحدته وضلاله وحنينه الى مسقط رأسه
خرج من محنته بجسم وروح صحيحين. وهذه هي قصته



في الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٤٢ كانت الغواصات والطائرات "الذئبية" تشن هجمات متوالية على سفن الحلفاء. وكانت الباخرة "بنلوموند" تتحرك في مسلك وقائي لولبي يمنة ويسرة كل عشرين دقيقة، وعلى ظهرها مضيف يدعى بون ليم مستلقٍ على ظهره في مرقده موثقاً رجله بعمود الحاجز الواقي.

هذا المضيف الصيني البالغ من العمر ٢٢ عاماً التفت الى ساعته فاذا هي الحادية عشرة والدقيقة الاربعون. عليه اذاً أن يسرع وألّا تأخر عن تقديم طعام الغداء. وما كاد ينتهي من ارتداء ثيابه حتى بدأت الباخرة تميل ثم تنحني انحاء قوياً. هزَّ انفجار طبقاتها الفولاذية فسقط ليم على الارض وحملق منذهلا حينما رأى عموداً مائياً يتدفق من كوة الباخرة. وتبع الانفجار الاول انفجار ثانٍ أنبأ بأن الباخرة نسفت بالطوربيد.

امسك ليم سترة النجاة وخرج متعثراً الى الرواق جاهداً للاحتفاظ بقدمين ثابتتين ضد انحناء الباخرة، لكن هذه كانت مائلة بحدة مما اضطره الى الاستعانة بيديه الاثنتين لتسلق السلالم وبلوغ مكان قارب النجاة. وبينما هو يعالج سترة النجاة كان الآخرون يمرون به صارخين: "هيا اسرع!" وما كاد يصل الى ظهر الباخرة حتى وجد قارب النجاة ابحر و"بنلوموند" تستقر على نحو منذر بالسوء وأمواج البحر تتكسر على ظهرها.

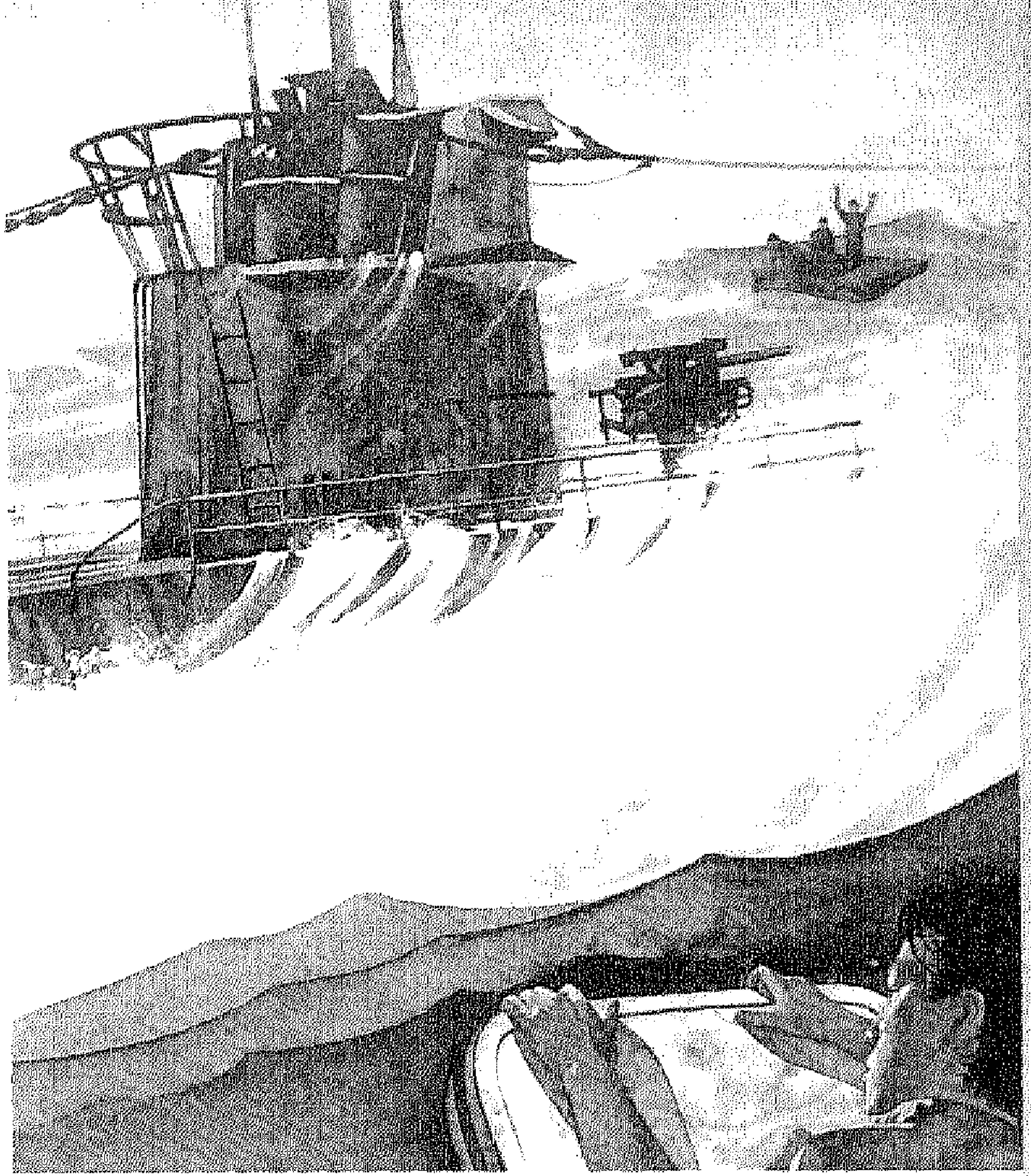
انتاب ليم السعال واتكأ على الحاجز الحديد ودونه هسيس البخار وصراخ رجال الاطفاء العالقين تحته. فجأة مالت الباخرة بقوة. لمح ليم ثلاثة بحارة يكافحون من اجل انزال قارب نجاة من منصة الربان الى الماء. فركض اليهم متعثراً. وفي تلك اللحظة سُمع صوت عظيم كالرعد فزعق احد البحارة: "ارمِ نفسك."

قبل ان يتمكن ليم من التجاوب ثَقُل مؤخر الباخرة فغرقت، وجرفتها الى اسفل أطنان من مياه البحر اللازوردي. ابتلع ليم جرعات كبيرة من الماء والنفط ثم اندفع الى أعلى وهو في هذه الحال المؤلمة. أمسك بلوح خشبي مكسور ونظف عينيه من الاقذار التي غشتهما.

كل ما بقي من "بنلوموند" حباب من زيت الوقود وحطام وجثث منثورة لخمسة وخمسين رجلا. بدأ ليم يضرب برجليه بشراسة ويدفع الخشبة أمامه حتى رأى رجلين يسحبان ثالثا الى طوف. على بعد مئة متر منه.

صرخ: "النجدة، هنا!"

لم تبدُ من الرجال اشارة الى أنهم



تساءل ليم: هل أغرقت الغواصة الطوف وقتلت من كان عليه، ام ان أولئك الرجال لا يزالون أحياء يتمسكون بحطام الباخرة؟

نادى: "أمن أحدٍ هناك؟"

كان الجواب الوحيد سكوتاً مخيفاً.

أما هو فظل وحيداً على سطح مياه الاطلسي بعيداً عن الشاطىء البرازيلي نحواً من ١٢٠٠ كيلومتر.

حينما كان ليم يترجح على الامواج رأى بريق براميل معدنية كبيرة. غطس في فجوة مائية لكنه طلع منها بجهد متحركاً بين أذرع وأرجل مبتورة. سمعوه أو رأوه. قذف الخشبة جانباً وتابع طريقه سباحة بين الجثث المتناثرة، لكنه كلما تخيل أنه اقترب من الطوف كان هذا يبتعد عنه. رأى غطاء كوّة من كوى الباخرة عائماً الى جانبه فاندفع اليه وامسكه وهو "يرى" الموت أمامه. واذا ببرج غواصة يرتفع وسط الزبد وتنفتح كوة يخرج منها بحارة ينتشرون أمام الغواصة ووراءها. مؤخر الغواصة كان على بعد بضعة أمتار من الطوف المتمايل بجنون. انتشل البحارة ركاب الطوف واقتادوهم الى الغواصة.

بعد دقائق رآهم ليم يعادون الى الطوف. اما الغواصة فزأرت ودارت في شكل قوس كبيرة مخرت عباب الماء مخلفة فجوات مائية هادرة ثم توارت. الامواج تصفع وجهه وتلسع عينيه. أما الطيف البعيد فبدأ يتضح له تدريجاً. انه طوف من "بنلوموند" مصنوع من ستة براميل مانعة للماء مثبتة ضمن اطار خشبي.

## الطوف الوحيد

ببطء مؤلم اندفع ليم نحو الطوف يغالب القُرّ والنعاس. تخيَّل صوتاً ناعماً يقول له: "الريح تقذف هذا الطوف اقرب فأقرب اليك، في امكانك أن تتوقف عن السباحة وتستريح." تدلّى رأسه وغفا، غير أن فاه وأنفه بقيا فوق سطح الماء. بغتة هزته موجة صاخبة فاستفاق واندفع الى الامام بكلالة.

نشيجه أيقظه. الظلام حالك والقيء

غشى وجهه ولوَّث الخشبة تحته. تذكر أنه كان يكافح من أجل بلوغ الطوف، وأنه أمسك حبل النجاة وصعد اليه مرتفعاً عن سطح الماء. تذكر أيضاً أنه كان يمر بذاك الطوف يومياً على متن الباخرة، وحاول أن يتخيل حقيقته: كان الطوف مؤلفاً من لوحين خشبيين مرفوعين فوق ستة براميل لتعويمهما، وشبه حوض في الوسط. ورأى ليم اللوحين الى جانبيه وشعر بالماء يصفع وجهه، فأدرك أنه وسط الحوض. أراد ان يخرج من الحوض وينزع عنه سترة النجاة المبللة وقميصه القطني، وكان سرواله أفلت في الباخرة الغارقة، لكنه خشي أن يسقط عن الطوف المتمايل. ولو وجد شيئاً يستعين به كحبل لما خاف أن ينجرف بعيداً اذا ما سقط في الماء.

تلمس حافة الطوف وهو يرتعد برداً وخوفاً. أحس بعقدة فسحبها فاذا هي حبل يتدلى في الحوض. أمسك طرفه وعقده على معصمه.

لم يستطع أن يفك شريط سترته لان هذه كانت مبلّلة وموثوقة باحكام. وحين رفعها فوق رأسه شعر بجلده ينسلخ. أما قميصه القطني فقد تمزق.

أخيراً تسلّق حافة الحوض لاهثاً. تعرّى من ثيابه، لكنه على رغم تحرره من ماء الحوض أصبح معرضاً للرذاذ والريح. ثنى يديه تحت ابطيه والتف حول نفسه مثل كرة واستسلم الى الرقاد وهو يرتجف وطعم القيء ما زال في فيه.

أيقظه نور الشمس وهو يكتوي ظمأ واحساسا بالخطر. تفرس في ما حوله فاذا سهول خضر في كل صوب. وعلى رغم شدة حرارة الشمس ظل يرتجف. مد يده ليتناول سترته فوجد اللوح الخشبي الضيق الذي نام عليه فارغاً من أي شيء. جلس القرفصاء وأخذ يتفحص الطوف قلِقاً عارياً.

كان طول الحوض ١٥٠ سنتيمتراً وعرضه ١٢٠. وتحت كل من اللوحين حجرة ضيقة بلغ عرضها متراً، وفي كل جانب من الطوف مستوعب معدني. وقرأ ليم على المستوعب أمامه: "١٠ غالونات ماء."

فك المفتاح المعدني الثقيل ورفع الغطاء. تلألأ الماء النقي، لكن الشحم والاوساخ كانت تغطي يدي ليم. يجب أن يتدبر مغرفة. زحف الى المستوعب الآخر وفتحه. وجد داخله علباً ورزماً وزجاجات.

## احتفال شهي

جعل ليم من احدى العلب مغرفة وعاد الى الماء ظامئا يجرعه. بعد ذلك أخذ يفرز المحتويات الاخرى. داخل علبة وجد ست أسطوانات مغلفة بورق مانع للماء. نزع غلاف احداها فوجد أنبوباً صغيراً ذا مقبض خشبي، يشبه السهم الناري الذي يطلق في الاعياد. تنهد ليم، فخلال ست سنوات من عمله في البحر كمضيف لم يتعلم اطلاق اشارة نارية.

التقط مصباحاً كهربائياً طويلا وضغط مفتاح الانارة فاضاء. فاطمأن قلبه، اذ سيكون لديه على الاقل ضوء اذا ما قضى ليلة اخرى على الطوف. العلب والرزم الباقية كانت تحوي طعاماً. وقرأ ليم الكتابات المطبوعة على بعضها، أما البعض الآخر فكان يحمل أحرفاً لم تعنِ له شيئاً.

قسم ليم مغنمه قسمين: معروفاً وغير معروف. "المعروف" شمل كيلوغراماً من الشوكولاتة وخمس علب من الحليب المجفف وكيساً من سكر الشعير وزجاجة من عصير الليمون الحامض. أما "غير المعروف" فشمل ستة صناديق وعشر علب واناء أقراص.

تفحص الكلمات المطبوعة على احدى العلب البيضوية المسطحة: "بيميكان، لحم بقر مجفف، طحين، دبس، شحم." جميعها كانت مألوفة لديه وهو في الباخرة "بنلوموند" الا الكلمة الاولى.

فتح العلبة وغمس اصبعه في محتواها ولحس فاذا ثمة شيء مالح مقبول.

فتح اناء الاقراص. عرف كلمة "حليب" على الملصق. مضغ قرصاً فتذكر المسحوق الذي كان يستعمله لاعداد الشراب الساخن للضباط. بعد ذلك تفحص أحد الصناديق فرأى بسكويتاً اسمر فهتف: "أخيراً شيء مشبع!" عض قطعة فوجدها قاسية. فتساءل: ماذا لو نقعت هذا البسكويت في الماء كما ينقع ذلك الضابط العجوز البسكويت في الشاي؟

بدأت شمس العصر تخبو. وشعر ليم بوخز في جسمه كأنَّ نملا يتأكله. عليه أن يجد بسرعة مكاناً يلجأ اليه.

فتح احدى الحجرتين الصغيرتين فوجد مجذافين ولفّة كبيرة من قماش الخيش الابيض المستعمل للستائر. سحب اللفة فاذا هي بطول عشرة أمتار وعرض ٧٥ سنتيمتراً وفي كل طرف منها ستة ثقوب وفي كل ثقب رُبط حبل.

حار في امره. فتح الحجرة الثانية فوجد أربعة قضبان وقطعة خيش كبيرة مربعة في كل من زواياها ثقب ربطت به انشوطة، وفي رأس كل قضيب ثقب واسع كاف لادخال الانشوطة. بهذه كلها أصبحت لديه المواد اللازمة لبناء ملجأ.

لف قطعة الخيش الطويلة حول جوانب الطوف فاصبح له سور علوه ٧٥ سنتيمتراً. وركز القضبان الاربعة في الثقوب التي اكتشفها في الزوايا، واحداً في كل ثقب. وسقفها بقطعة الخيش المربعة. وعند حلول الظلام كان له ملجأ يتحرك فيه وينفذ اليه الهواء.

قرر ان يحتفل افتخاراً بانجازه. ذابت الشوكولاته كثيفة على لسانه، تبعها الـ "بيميكان" اللذيذ ثم العصير الذي جعلت حموضته سكر الشعير الذي تلاه، أحلى ما يكون.

## صغار وكبار

الليل خيّب تفاؤله، فهو لم يكفَّ عن الارتجاف متأثراً برطوبة الهواء. ضم ذراعيه الى صدره وأخذ يفكر في بيته وبلده.

نزل الى البحر أول ما نزل قبل ست سنوات، فتى يتدرب على الملاحة في بواخر أوروبية خاصة بالضباط. ومع ذلك فهو الان لا يعرف عن المراكب والبحار اكثر مما كان يعرف آنذاك، والسبب أنه لم يكن يريد أن يتعلم. كان يقدم الشاي والكاكاو الى الضباط على منصة الربان. وكان مأخوذا بالآلات، يريد أن يتعلم كيف يتتبع التيارات المائية راسماً مسالكها، فأصبح يمتلك كل المهارات التي تتعلق بشؤون المحيط، علما أن الصينيين تعودوا العمل كمضيفين وطبّاخين

وحمّارين واطفائيين ومصورين وليس كملاحين.

كان ليم آخر ثمانية اخوة وأخوات يترك منزله العائلي في مسقط رأسه هينان، الجزيرة المعلقة كقلادة نزلت من اليابسة الى بحر الصين الجنوبي. معلم القرية النكِد كان يشعر بأن هينان بقعة محصورة بالمياه، فقضى معظم أيامه يتلو على تلاميذه مقاطع من كتابات السياسيين الذين كانوا ينفون الى الجزيرة قبل أمد بعيد. وعندما ترك ليم المدرسة وهو في الخامسة عشرة من سنيه كان يستطيع أن يقرأ صحيفة ويكتب رسالة ويجري حسابات بسيطة ويتلو الاحرف الهجائية الانكليزية وبضع كلمات في هذه اللغة.

لم يتعلم شيئاً عن الزراعة مع أنه لم يكن في القرية عمل غير ذلك. كما انه لم يكن على استعداد حينما قال له أبوه: "يا ليم، ابن عمك يي تاي عائد غداً الى سفينته في هونغ كونغ وأنت سترافقه."

في اليوم التالي، بعد وداع أمه الدامع، غادر وابن عمه منزله مشياً مسافة ساعة ونصف ساعة الى محطّة جتني ثم تابعا رحلتهما في الباخرة الى هونغ كونغ. واذ جرّه ابن عمه ليتسلقا معاً سلالم الباخرة "تاندا" تساءل هل سيكون الضباط لطفاء أم قساة، وهل سيكون العمل سهلا أم صعباً.

أخوه الذي كان آنذاك مضيفاً في مقصف الباخرة يرتدي الزي المنشّى، رسم له الصورة الآتية: "الضباط الاوروبيون يبلغون الصينيين الأوامر من طريق رئيس يدعى "الرقم ١." لذلك ليس مهمّاً ألّا يتكلم الانكليزية. عليه أن ينهض الساعة الخامسة صباحاً، يكنس الارض ويلمّعها، ثم يجلب المؤن من عنبر السفينة. وعليه ايضاً أن يظل مستعداً للعمل في أي وقت من النهار اذا ما دعت الحاجة، سواء أكان العمل جلياً لآنية المطبخ أم بحثاً عن شيء أم حملا أم ترتيبا للاسرّة.

وطعام المضيفين الصينيين فضلات الركاب الا وجبة العشاء التي يتناولونها عادة في العاشرة ليلا. كمية هذه الوجبة ليست بكبيرة لذلك يجب الا يعتمد عليها، بل الاعتماد هو على الراتب المؤلف من خمسة دولارات هونغ كونغية شهرياً."

## تعليمات مغلقة

قضى ليم ليلته متعباً متوتراً بسبب نومه المتقطع، وانتظر بزوغ الفجر بفارغ الصبر. في الافق الشرقي بدت السماء رمادية لؤلؤية، وفي الافق الشمالي الشرقي تلبدت الغيوم منخفضة مهددة. فجأة بدأ الطوف يهتز اذ هبت نفحات من الهواء الساخن وهاج زبد البحر منذراً بعاصفة.

ربط ليم حبلا حول معصمه واستلقى على الخشب مستعداً للتمسك بما يثبته عندما تنفجر العاصفة. تدفقت المياه عبر القدد الخشبية وانصبّت في الحوض، فجعل الطوف يتقلب صعوداً ونزولا، ومضت الامواج المتلاطمة الداكنة الاخضرار تتحطم على ظهره. وشق البرق السحب السود الضاربة الى الارجواني تاركاً وراءه سيولا من المطر. ودوى الرعد واقتربت العاصفة محتدمة احتدام

الفرسان الغزاة. والحبل الذي ربطه ليم حول معصمه بدأ يضايقه ويحزّ في راحتيه. وتشنجت عضلاته لكنه لم يجسر على الحركة. الا أن هذه الحال لم تلبث أن زالت كما بدأت.

هدأت العاصفة. أما ليم الذي كان يرتجف ويحلم بالتبغ والحمام الساخن والطعام الدافىء فتخيل انه رأى جسماً أسود لباخرة تقترب. اضاء المصباح الكهربائي اشارة الى وجوده، لكنّ شيئاً طار من الماء ولسع يده فصرخ ورمى المصباح. انها سمكة طائرة وقعت عليه وهي تلهث فقذفها الى البحر مغتاظاً. في اليوم التالي جعل في الحبل ثلاث عقد اشارة الى ثلاثة أيام مضت على وجوده في الماء. لم تكن له شهية للاكل لكنه علم أنه يجب ان يأكل. فكسر قطعة بسكويت ومزج فتاتها بالماء واللحم المجفف. لكن كل لقمة منها ابتلعت بغصة.

## أمل ومرارة

توقف ليم عن محاولة الأكل، وعبثاً حاول فك رموز التعليمات الخاصة باعطاء الاشارات الضوئية. واذ تأكد له وجود أدوات هذه الاشارات في متناول سهل فوق احد المستوعبين استلقى على ظهره يستكشف البحر والسماء. أخذ يتساءل: كيف يمكن ان تمر أيام عديدة كهذه من دون أن يشاهد مركباً واحداً أو طائرة واحدة؟ هل من المعقول أن تغرق "بنلوموند" بسرعة لا تترك مجالا لارسال اشارة خطر؟ اذا كان الامر كذلك فقد لا يدري أحد بغرقها الا بعد فوات الاوان.

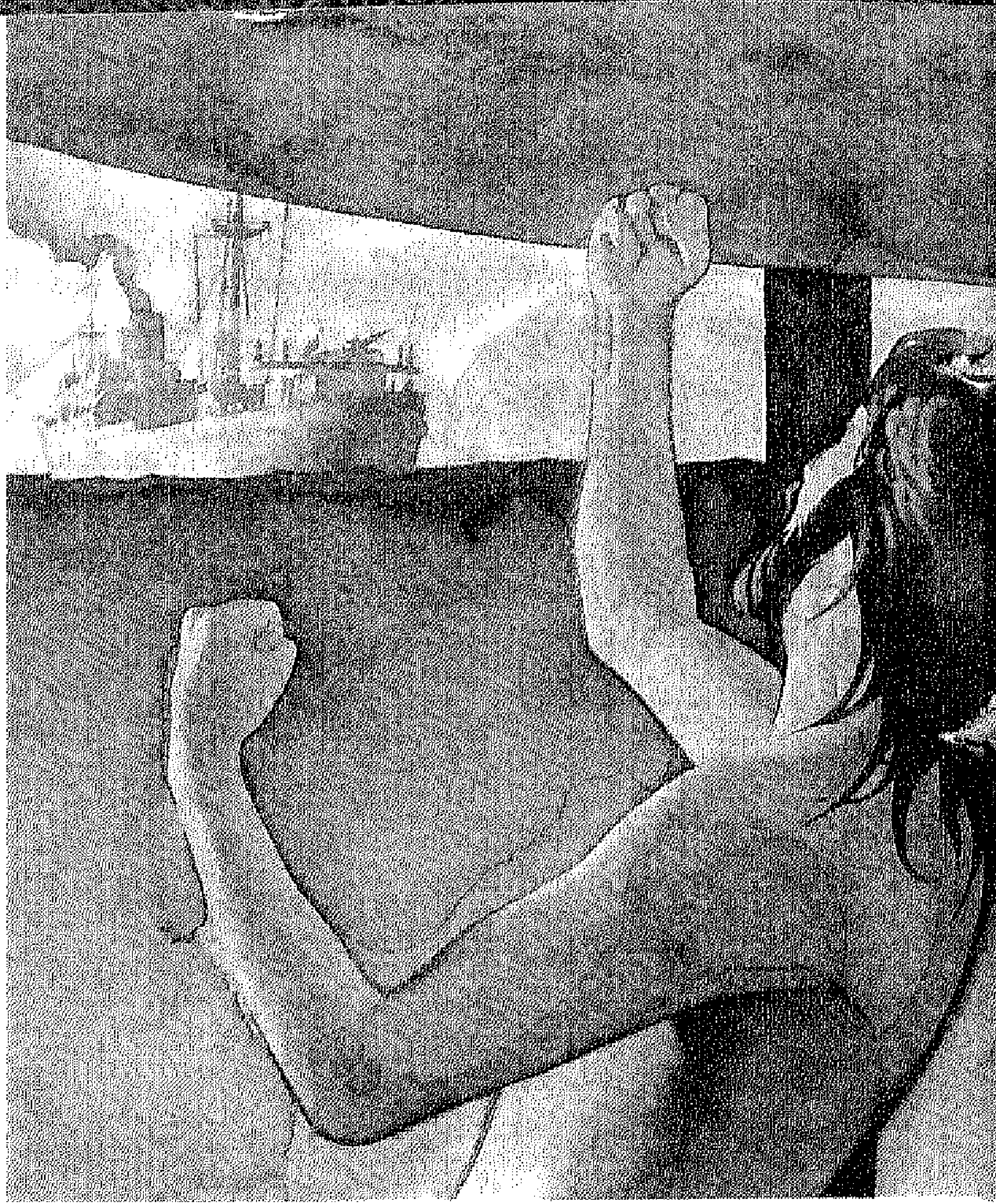
سبعة أيام توالت. البحر يتماوج كافعوان والسمك الطائر يمر سراعاً على سطح الماء.

فجأة ظهرت في الجهة الجنوبية كتلة حجبت جانباً من شمس الغروب. ازداد خفقان نبض ليم وكاد لا يجسر على التنفس. طفق يتتبع الكتلة، وعندما بدأت تأخذ شكل باخرة ثم مدمرة ازداد انفعالا وخوفا من أن يخسرها اذا ما ظل ينتظر على أمل أن تقترب منه. قفز الى حوض الماء لارسال اشارة خطر. وبدأ البرق يومض من بين ثنايا السحابة البرتقالية الكثيفة، وتابعت الباخرة سيرها. فانتشل ليم سهماً نارياً وأمسك قبضته وصوبه نحو الباخرة.

نزع ما أمل أن يكون شريط الاطلاق، فاذا بكبسولة السهم تنفصل مع الشريط. لم يحدث شيء آخر. تفحص السهم والكبسولة. رأى على رأس هذه سطحاً خشناً يشبه جانبي علبة الكبريت، ولاحظ ان على السهم رأساً صغيراً مستديراً أسود، فأخذ يحك رأس السهم برأس الكبسولة تكراراً كما يفعل بعود الثقاب وجانب علبة الكبريت. أخيراً تطاير شرر فرمى المشعل عالياً فارتفع نحو السماء في شكل قوس ثم هبط منطفئاً.

تحققت مخاوفه، فحاول مرة اخرى قراءة التعليمات لكنه لم يفهم شيئا. فقرر أن يفعل بسهم ثانٍ ما فعله بالاول. نزع الشريط وحك الكبسولة برأس السهم فاذا بلهب أبيض باهر يتفجر نجوماً ضاربة الى الاحمرار. قهقه ليم مبتهجاً.

اما الباخرة فواصلت سيرها وأصبحت قريبة منه حتى انه سمع هدير محركاتها، هذا الهدير الذي هو امتداد لضربات قلبه



الملوّع. أنار سهماً آخر فالتهب باعثاً شعاعاً ساطعاً أحمر. فعل هذا العمل فعله، فتوقفت الباخرة واديرت الدفة نحو الطوف محدثة رشاش ماء.

هلّل ليم. ركاب الباخرة شاهدوه. وقبل حلول الظلام سيكون ناجياً ونظيفاً يأكل طعاما حقيقياً ويدخن السجائر ويشرب الشاي. لوّح بيديه فرحاً للباخرة التي كان كل شيء فيها جميلا: الطبقة السفلى، والطبقة العليا الرمادية الداكنة، وقوارب النجاة المتمايلة، والمدافع الرابضة في المقدم والمؤخر. الآن أصبحت الباخرة اقرب اليه بحيث يمكنه ان يسمع صوت المحركات الخفيف. رأى ثلاثة رجال في دفة القيادة ونفراً منتشراً عند الحافة ومرابض المدافع. ولمح ومض منظار فأطلق آخر أسهمه.

فجأة أدرك أنه مُتقصّى. كان يعلم أن غواصات العدو أنزلت الى الماء أطوافاً تحمل رجالا يدّعون أنهم ناجون من مركب غارق، وحين يقترب منهم مركب لانقاذهم ينسفونه بالطوربيد. تساءل ليم: هل الرجال الذين يتقصّونه يظنون أنه يخدعهم؟ جن جنونه ولوّح بيديه وصرخ.

هدرت محركات الباخرة وغيرت وجهتها. أما ليم فجمد مكانه. الموج المتلاطم يهدهد الطوف وهو يتمسك بعمود زاوية. ظلت الباخرة قريبة منه برهة بحيث كان يسمع السعال وخبط الابواب وخرير الماء الذي يُغسل به ظهر الباخرة. وما لبث صوت المحركات أن تلاشى وتوارت الباخرة كأنها لم تكن.

## أحقر الاعمال

المرارة والمذلة اللتان ذاقهما ليم منذ ترك هينان انفجرتا الآن. وأخذ يلعن الافق الفارغ وينتحب: "لتقتلع الغربان عيونكم، وليكن السمك تابوتكم والماء لحدكم."

رأى ليم انه مخدوع في الصورة التي كونها عن الحلفاء، مثلما خُدع مواطنوه الصينيون القرويون بما سمعوه من أحاديث وتلقوه من هدايا الصينيين العائدين عبر البحار. وبمقدار ما كان هؤلاء يحاولون اثبات ما يتبجحون به كان

هو، الفتى المتمرن المثقل بالعمل براتب ضئيل، يستصعب الاقتناع بأن صينيين كزملائه المضيفين، بتبسمهم الفاتر الفارغ ورؤوسهم الخانعة وانكليزيتهم الركيكة، يعودون الى بلدهم بمثل ما به يتبجحون. لكنه ادرك الحقيقة تدريجاً، حقيقة استياء أولئك الصينيين من العمل ساعات طوالا ومن الاجر الحقير الذي يتقاضونه ومن الطعام الرديء الذي يتناولونه، اضافة الى رفض تكليفهم الا القيام بأحقر الاعمال. تبيّن له ان خيبتهم مرآة لخيبته. وبعمل ثوري واحد ترك البحر.

بعد مرور شهر، والحرب ما زالت دائرة، أقنعه ابن عمه بالالتحاق بالباخرة "بنلوموند." وشرح له أن ثمة حاجة ماسة الى صينيين يعملون على البواخر أيام الحرب، وأن ذلك أجبر الشركات البريطانية على تحديد ساعات العمل وزيادة الاجور.

على متن "بنلوموند" كان ليم يكسب أكثر من رفقائه الفتيان المتمرنين بستة عشر ضعفاً. الطعام لم يكن رديئاً. الوقت متوافر للتدخين ومطالعة الصحف ولعب الورق (الكوتشينة) والنوم. واذ قنع بذلك سد اذنيه عن سماع شكاوى البحارة الصينيين على مراكب أخرى والذين ما برحت مطالبتهم بالمساواة ترفض.

انتهى ليم من ذكرياته هذه التي لا تفيده الآن، وأيقن أن كل ما عليه أن يفعله هو جذب انتباه مركب حليف لانقاذه.

تساءل: كيف يمكن أن يكون في هذا الغباء؟ الرجال الذين كانوا يتقصونه من الباخرة لا يمكن أن يعتقدوا أنه يخدعهم. انهم لم ينقذوه لانه صيني فحسب.

أغمض عينيه واستسلم الى الرقاد.

## حل قاس

استيقظ منتعشاً نشطاً وهمّ بعقد العقدة الثامنة في الحبل. الا أنه توقف، فهو لا يريد ان يكون نكداً ومتوتراً بعدٌ الايام وتفحص البحار، بل يجب أن يتوقف عن العيش هنيهة فهنيهة ويبدأ التخطيط.

مستوى الماء في خزان الشرب انخفض نحو الخُمس. وهذا يعني أنه شرب غالونين في سبعة أيام. الماء الباقي يكفيه، بهذا المعدل، ثمانية وعشرين يوما فقط. أما اذا خفض من مشروبه اليومي ثمن غالون فالماء يكفيه أربعين يوماً. كذلك حال مؤونته الغذائية. صندوق كامل من البسكويت القاسي نفد، كذلك نصف كمية السكر ونصف كيلوغرام من الشوكولاتة وثماني علب من البيميكان ومعظم أقراص الحليب وثلث عصير الحامض. اذا ما قسمت البقية على اربعين يوما فالحصة اليومية تكون حفنة من الحليب المجفف، وست قطع بسكويت ونصف حفنة من البيميكان وقرصين من الحليب، أما الشوكولاتة والسكر وعصير الحامض فتبقى للمناسبات الخاصة.

كان ليم متأكداً من أنه سيخسر من وزنه، لذلك سيحتاج الى فراش يغطي به اللوح الخشبي الذي ينام عليه والى ملاءة تقيه رشاش الماء وبرد الليل. اما خيمة الخيش فلم يكن في غنى عنها، ولكن ماذا عن القطعة التي سوّر بها الطوف؟

انها لمغامرة. الطوف يتمايل فوق الامواج وليم مستسلم الى الرقاد من دون حراك. لم يعد يخاف السقوط عن الطوف، ولكن ماذا يفعل اذا ما فاجأته عاصفة؟ أخيراً قرر ألا يقلق نفسه بهذا التفكير، فصحته في خطر أيضاً. القروح والدمامل تغطي قدميه ورجليه وردفيه. وبدأ يحلّ عقد قطعة الخيش.

عند وقوع الظلام أخذ قطعة الخيش المتيبسة من كثرة ما جمد عليها من الملح، وطواها ست طيات وفرشها على الخشب كما يبسط لحافا. ثم اندس في منتصف طياتها بحيث أبقى ثلاثاً كلحاف وثلاثاً كفراش. اما يداه فبقيتا خارجاً لضيق القطعة. لكن تخيله اياها ككفن جمده يقظاً. وكلما أغمضت عيناه انتفض مذعوراً يرشح منه عرق بارد.

في الصباح الحادي عشر من عزلته فوق سطح الماء نهض أشد ارهاقاً مما كان حين نام في الامس. وهكذا ظلّت حاله في الايام التالية. واذا ما أغفى عكّر نومه كابوس يظهر عجزه عن اللحاق سباحة بمركب منقذ. الضنى استنزف قواه مُضعفا تفكيره ورؤيته، والامل الذي كان يدغدغ مخيلته، بدأ يتحول يأساً. أخيراً بدأ الكابوس يتقهقر ونومه يزداد طولا.

انتقل الى صراع ذاتي آخر. في الساعات الحارقة بعد الظهر كان يشرب حصته من الماء قبل حلول الظلام. وليعوض الخلل وضع خطة تقضي بأن يكثر من الشراب ويقلل من الطعام في الايام الشديدة الحر، ويقلل من الشراب ويكثر من الطعام في الايام الغائمة. ومع أنه لم يكن جائعاً فقد حرص على التنويع. فاذا مضغ يمضغ قطعة من البسكويت القاسي الذي لا طعم له ويتخيّل أريج اللوز تطحنه رحى ناعمة، واذا لحس البيميكان الدهني باصبعه تخيل نفسه يأكل المعجنات في مسقط رأسه.

كان يشرب علبة كاملة من الحليب قبل ان يفسد محتواها، فأصيب باسهال أنضب ماء جسمه. بعد ذلك بدأ ترتيبات تساعده على تلافي ما حدث، فكان يفتح علبة الحليب ليلا ويحفظها نهاراً باردة في صفيحة مملوءة بماء البحر. بهذه الطريقة يدوم الحليب ثلاثة أيام، واذا ما أصبح حامضاً فهو لا يسبب اسهالا.

بعد كل هطول مطر كان يغتسل فيشعر بنظافة جسمه وشعره من اللزوجة والاقذار وبنقاء فمه ولثته. توقف نقصان وزنه، ولوحت الشمس جسده وجفت بشرته وطال شعره وكثف وغطى عينيه.

القشريات البحرية الملتصقة بجوانب الطوف كانت تجذب السمك الطائر والسمك الذهبي الضارب الى الزرقة الذي كان يطارده، وسمك القرش والسمك الفضي اللماع ذا الذنب الاصفر. أحب هذه الاسماك الى ليم كانت الذهبية الضاربة الى الزرقة التي يراوح طولها بين متر ومترين. كانت هذه الاسماك تتفيأ ظل الطوف وتحتك به ككلاب تحاول التخلص من البراغيث. أما ليم فكان، حين يراقب هذه الاسماك، يشعر بأن توتره قد زال.

## سمك الاحلام

عندما كان ليم تلميذاً في قريته سمع من معلمه القاسي القصة الآتية:

"أحد المنفيين بنى شرقة في منزله

في هينان. وكان يجلس عليها يوماً بعد يوم منتظراً رسولا يأتيه ببرقية رسمية تأمره بالعودة الى بلده. الرسول لم يأت ابداً. مات المنفي، والناس اطلقوا على المكان الذي كان يجلس فيه متطلعا الى الخارج اسم: شرفة الايام التي لا نهاية لها."

بقي ليم ينتظر النجاة وهو يفكر في أن طوفه هو شرفة أيامه التي لا نهاية لها. رأى القمر مكتملا مرة واحدة، والان، وقد أخذت مؤونته تتقلص بسرعة، بدأ يراقب القمر وهو يكبر مجدداً. نفد ما كان لديه من شوكولاتة وسكر وأقراص وعصير حامض وحليب مجفف ولم يبق له الا نصف صندوق من البسكويت القاسي وربع علبة من البيميكان وغالونان من الماء. وهذا يعني أنه لم يعد يملك ما يكفيه حتى نهاية الشهر القمري.

قدماه ورسغاه تورمت من كثرة انحباسها في ماء الحوض. وعلى رغم افتراشه الخيش فان قروحه لم تنمدل. سقط مرة عن الطوف فاصيب بجروح بالغة بسبب القشريات التي غطت جوانبه، لكنه لم يُعرِ ذلك أهمية وكأنه حدث لشخص اخر. والاسوأ من كل شيء انه لم يكن يدرك انه في تصرفه هذا يسلك خطاً رفيعاً بين التعقل والجنون.

هز رأسه غضباً. بينه وبين الممات بضع قطع من البسكويت القاسي وقليل من اللحم المجفف وغالونان من الماء. لكنه لم يكن ليصدق أن الموت ممكن. فهو لم ينجُ بسهولة بعد غرق "بنلوموند." لقد جاهد كالابطال حتى بلغ الطوف، وظل يراقب البحر ويبث الاشارات ويحصي ما لديه من مؤونة شراباً وطعاماً ويصنع ما يفترشه ويلتحفه. والان عليه أن يستنبط طريقة يؤمن بها طعاماً وشراباً.

قرر أن يسوي قضية الماء أولا. لم يكن يمر يوم غير ممطر. لكن المطر كان يتساقط رذاذاً متقطعاً ويخف يوماً بعد يوم. فماذا اذا انقطع تماماً. خزان الماء يكفيه مدة قمرين، وعليه أن يجد طريقة لملئه. حدق الى الخيمة يتأملها. وعلى رغم بلادة تفكيره تذكر أنه عند هبوب العواصف كان يرفع الخيمة من وسطها لنزح الماء المتجمع ورفع الضغط. لعله يفعل الامر ذاته مجدداً ويجمع الماء ويخزنه.

ولكي يجعل الخيمة حوضاً صالحاً لماء الشفة عليه ان يغسلها وينظفها من الملح المتجمد عند بدء كل زخة مطر، كما عليه أن يجعلها سهلة المنال بحيث يتمكن من تسريب الماء الى الخزان من دون صعوبة. غير أن المطر كان يهطل في أوقات قصيرة جداً مما لا يدع مجالا لفك الخيمة وغسلها واعادتها الى مكانها. عض شفتيه وأمعن تفكيراً، وتساؤلا: المطر المتجمع وسط سقف الخيمة خدّده وأبلاه بحيث بات ممكناً أن ينثقب. أوليس تحاشياً لهذا الامر تجعل للمنازل سقوف منحدرة مزودة ميازيب؟

وثب واقفاً وهتف: "ذلك هو الحل."

تسلق حافة الطوف وباشر العمل. ثنى قطعة الخيش جانبين منحدرين. ربط زاويتي أحد الطرفين على علو ٣٠ سنتيمتراً من قضيبيهما، ثم عقد زاويتي الطرف الادنى في شكل تجويفة يتجمع فيها الماء ثم ينحدر. بهذه الطريقة

يغسل المطر المنهمر الخيش وينظفه من الملح، وبعد ذلك يحوّل بسهولة ليصب في الخزان.

اما القضية الثانية التي كان عليه أن يعالجها فهي قضية الطعام. هذا يمكن أن يكون سمكاً. اذا فسخ الحبل الذي لديه خيوطاً رفيعة، أمكنه صنع سلك للصيد. ولكن من أين يأتي بصنارة؟ عاد بالذاكرة الى المصباح الكهربائي عندما جذب السمك الطائر ليلا وقال في نفسه: قد يكون الحل في هذا المصباح.

## النصر

ضغط ليم زر المصباح آملا خيراً لكن النور كان خفيفاً مما يدل على ان قوة البطاريات خفت. فك غطاء البطاريات فانزلقت ومعها الرفاص الذي يضبطها. التقطه ليم وتفرّس فيه وابتسم: اذا لويت هذا الرفاص وشحذت رأسه أصبح صنارة رائعة.

تفسيخ الحبل وجدل بعض خيوطه سلكاً للصيد استغرقا يوماً كاملا. وجدل ليم خيوطاً أخرى وجعل منها مقبضاً لسكين صنعه من غطاء علبة. وما تبقى من الخيوط عقد به قضبان الزوايا ليزيدها رسوخاً.

طلع القمر لكن انفعال ليم أبقاه أرِقاً. فلوى رفاص المصباح في شكل صنارة وجعل أحد طرفيه حاداً كرأس الابرة وذلك بحكه بمفتاح خزان الماء. بعدئذ أجبر نفسه على الاكل، فازدرد بصعوبة قطعاً من البسكويت واستسلم الى الرقاد حالماً بالسمك اللؤلؤي ينزلق في بلعومه.

احلامه الدافئة عبثت بها وخزات البرد والرطوبة. وثب من نومه واقفاً والمطر يتساقط على حافة الحوض. ملأ يديه ماء وما إن رشفه بشراهة حتى بصقه. انه مالح كماء البحر.

لم يقو على انتظار المطر لينظف الخيش. انها المطرة الاولى منذ يومين وما بقي لديه من الماء لا يكفيه الا ليوم واحد. أمسك بقضيب زاوية وانحنى الى الجانب السفلي للخيمة. وببعض الهوس ضرب الخيش بقبضته اليمنى. لكنَّ المطر بدأ يتساقط والبرق يومض، فزحف الى حوض الماء ودفع الخيش الى فوق بغية ازالة الماء المالح عنه. ثم راح يتلمس بحثاً عن علبة يستعملها لغرف الماء لاعناً عجزه عن التخطيط.

أخيراً عثر على علبة غرف بها ماء وذاقه فوجده ما زال مالحاً. أفرغ خيش الخيمة مرتين لكنه لم يحصل على ماء نقي. وبانفعال شديد أخذ يغرف الماء من أخدود السقف ويسكبه في الخزان. وحين انحبس المطر وبدأت حرارة الشمس تسحب البخار من الخيش كان خمس الخزان امتلأ. عندما تمطر السماء ثانية سيكون الملح على الخيش أقل. ومنذ الآن سيصنع ليم رباطا لمغرفة الماء فلا يحتاج الى تلمسها مرة اخرى في الظلام.

أما المشكلة التي عليه أن يعالجها اخيراً فهي اصطياد السمك. واذ لم يكن متأكداً مما يُصنع الطعم لف قليلا من اللحم المجفف في شكل كروي، كما كان يرى والده يلف العجينة، وشكه في الصنارة. لكن الطعم تفتت في الماء واكلت سمكة صغيرة الفتات العائم. حاول أن يـدخل الخطـاف في قطعة من

البسكويت القاسي لكنه التوى. فنقع قطعة البسكويت في الماء لكنها لم تثبت في الصنارة افضل من كرة اللحم المجفف.

عندئذ ألقى الصنارة في الماء من دون طعم متمثلا بالوزير الصيني الكبير جنغ ثاي غنغ في عهد سلالة "تشو" العظيمة والذي كان يصطاد السمك من دون طعم قائلا ان السمك يأتي اليه مختاراً اذا كان راغباً. وربما أتى السمك الى صنارة ليم هكذا.

## عمل مضن

اقترب من الصنارة سمك صغير قليل، ولكن لم تعضها سمكة واحدة. ارتبك ليم، وأخذ يطوي اصابعه القاسية وينظر متجهماً حوله، فشاهد مرعى الحلزون الملتصق بجوانب الطوف فقهقه: "الحلزون هو الطعم!"

كان جالساً فوق الطعم ولم يدرِ.

اخذ حلزونة وكسر قشرتها وشك لحمها بالصنارة والقى السلك في البحر.

كانت قطعة اللحم الطريئة شديدة الحلاوة بحيث لا يمكن السمك تجاهلها. أحس ليم السلك يُشد الى أسفل ورأى سمكة صغيرة سمراء تقضم الطعم كله من دون ان تعلق بالصنارة. استشاط غيظاً وأعاد الكرّة بطعم جديد. شعر بشد عنيف فجذب السلك مبتهجاً وأمسك السمكة العالقة من ذنبها الشائك ورماها على ظهر الطوف. ثم فك الصنارة وربط السلك بقضيب زاوية وأخذ يتفحص صيده.

رأس السمكة كان يساوي نصف طولها البالغ حوالى ٢٠ سنتيمتراً. وجسمها مسطح الى درجة انه لم يحوِ الا قليلا من اللحم. بدأ يجوّفها وينظفها. لا حراشف لها، لونها رمادي ومنظرها لا يثير الشهيّة. فسخ قطعة صغيرة من لحمها الوردي وشمها بحذر فزمَّ بأنفه اذ تنشق رائحة النشادر (الامونيا). وأغمض عينيه وعض بأسنانه الكتلة المطاطية وأخذ يعلكها.

لم يتمكن من بلعها فقد ضاق بها بلعومه. انحنى جانباً وبصق ثم تغرغر بالماء وبعد ذلك شرب. لم يبق أمامه الا البسكويت فأكل على مضض وهو يغصُّ، حباً بالبقاء فقط. ولكن لم يبق لديه من البسكويت الا ما يكفيه للغد. لذلك آثر اكمال تجويف السمكة ليكافح جوعه بعد نفاد البسكويت.

توقف في منتصف العمل: ربما فسدت السمكة اذا بقيت حتى الغد. لو كان لديه ملح لتمكن من حفظها. ولكن لديه ملح، بل محيط كامل من الملح. تذكر كيف كانت أمه تعلّق صفوفاً من السمك في قضيب خيزران حتى تجف. ذلك ما سيفعله. سيربط حبلا بالقضبان ويعلق به السمك الذي يصطاده. وعندما يجف يتجمد عليه الملح الذي يتجمد على الخيش وعلى جسم ليم. رفع يديه نحو السماء وصرخ بأعلى صوته مبتهجاً بالنصر.

قبل انقضاء العصر كان ليم اصطاد سبع سمكات صغيرة أخرى ونظفها وعلقها بالحبل. وبعد ظهر اليوم التالي تبين له أن الحر الشديد والملح الكثيف في الهواء أكملا عملية التجفيف. لكن السمك المجفف نقص وزنه وصغر حجمه واسودّ وأصبح كاللحم المقدّد تماماً.

أكل اللقمة الاولى بحذر، لكنه دُهش حينما وجدها قابلة للعلك معتدلة المذاق. وبعد مضيّ شهرين قمريين على أكل البسكويت القاسي وجد لذة في أكل السمك المجفف.

السمك الاسمر كان نهماً وسهل الاصطياد. لكن حراشفه العظيمة وزعانفه الحادة جرّحت أصابع ليم. أما الوجبة الواحدة منه فتكاد لا تكفيها عشرون سمكة. السمك الفضي أطول من الاسمر واكثر بدانة وأنعم حراشف، لكنَّ فمه صغير الى حد أن ليم كان يسحب السلك قبل ان يعلق السمك بالخطاف تماما. أما السمك الازرق الذهبي فكان من الذكاء والحركة بحيث يصعب اصطياده. وبعد أيام قلائل أصبح السمك الاسمر أشد حذراً من ذي قبل.

عند اكتمال البدر كان النور الساطع في الخيمة يجذب السمك الطائر فيطير داخلها. طول السمكة نحو ٣٠ سنتيمتراً، جسمها مستدير، رأسها متناسب الطول بالنسبة الى جسمها، خلافاً للسمكة الاولى التي اصطادها ليم، مما جعلها اكثر بدانة. ولما أفل البدر عاد ليم الى سيرته الاولى في الصيد.

انه مسرور، فهو يملأ كل دقيقة من نهاره عملاً: يسحب صيده من الماء، ينزع حراشفه، يجوفه، ينظفه، ثم يعلقه بحبل التجفيف. بعد ذلك ينظف ظهر الطوف من الحراشف والدم. لكن يديه انتفختا وتشققتا من جراء هذا العمل. ان الجهد الذي كان يبذله في صيد أربعين سمكة أو خمسين، ثم تجفيفها، ثم العمل على صيانة السلك، كان أمراً مضنياً، اضافة الى العبء الذي يواجهه في تفريغ الخيش من الماء عند هطول المطر مما كاد يفقده صبره. كان حريصاً على أن يبعد المطر عن السمك المجفف كي لا يفسد. وكان يقلق اذا مضى يومان أو ثلاثة من دون مطر.

فجر آخر بزغ. ومن شكل القمر أدرك ليم أنه يصطاد منذ اثني عشر أو ثلاثة عشر يوما فقط. وبات يتأخر في مباشرة العمل صباحاً، وفي المساء كان الرقاد بالنسبة اليه اشد ضرورة من أكل السمك الذي تعب في صيده وتحضيره.

لم يكن يأكل كثيراً فلم يترك نفايات كثيرة. لكن أحشاء السمك التي كان يرميها عن الطوف الى البحر بدأت تجذب القرش وسواه من الاسماك المفترسة. هذه طردت السمك الاصفر مما جعل صيد ليم يتضاءل. وذات صباح أحس السلك يُشدُّ بعنف ولكن من دون ثقل فتساءل: أترى احدى الاسماك الجديدة سرقت الطعم؟ جذب السلك وتنهد عندما رأى سلك الصنارة المعدني المبروم وقد بات مستقيماً.

## صنارة وسلك

استلقى ليم على ظهره وهو يرتجف، اذ أدرك أنه على وشك خسارة الصنارة التي هي الصلة الوحيدة بينه وبين الطعام والحياة. لكنه وهو في ذعره فطن الى ان مشكلته ليست في تغلب القرش وسواه من الاسماك الكبير على الصنارة بمقدار ما هي في صِغَر الصنارة. فلماذا لم ير ذلك من قبل؟ بصنارة صغيرة يصطاد سمكا صغيراً، وبصنارة اكبر يمكنه أن يصطاد

سمكاً أكبر. علما أن سمكتين كبيرتين تعادلان أربعين أو خمسين سمكة صغيرة.

طفق يفكر في ما عليه أن يعمل. الصنارة يجب أن تكون من المعدن. صنارته من المعدن لكنها صغيرة وغير قوية كما ينبغي. لذلك يجب البحث عن بديل معدني أشد صلابة. حدّق مليا الى الطوف فبدت له المسامير الصدئة المغروزة في الخشب فصاح: "هذه! سأصنع من المسمار صنارة."

حك الخشب القاسي باصابعه المخدشة ومرّر ابهامه على رؤوس المسامير الصدئة، فأخذه العجب حينما بدت له فضية تتلألأ تحت الصدأ البرتقالي كرماد سيجارة تحترق. تنهد من أعماقه. ان عملية استخراج المسمار ستكون بمثابة ضريبة على مؤونته. انها تستغرق أربعة أيام أو أكثر، ومؤونة السمك لديه البالغة ٨٣ سمكة مجففة لا تكفيه سوى يومين.

عند نوبان أشعة الشمس في البحر أخذ مفتاح خزان الماء وطفق يغرزه في الخشب الى جانب المسمار الذي انتقاه. وحاول أن يجعل الثقب صغيراً مقدار الامكان. فحفر في العمق بدلا من العرض. لكن نور القمر كان ضعيفاً مما اضطره الى العمل بالتلمس. تشنجت عضلاته وبدأت يده ترتجف وتصبب العرق من جبينه وتجاوز الخدر أصابعه المتوترة الى لثة أسنانه المنقبضة. وعندما اشرقت الشمس استسلم الى الرقاد.

استيقظ منهوكاً. وحين ذهب لمعالجة المسمار رأى يديه مثخنتين بالجروح والرضوض من جراء ضغط مفتاح خزان الماء. وعندما حاول أن ينتزع المسمار من سجنه الخشبي انزلقت أصابعه المدماة عن مقبض المسمار كأنها مدهونة بالشحم. بسط راحتيه على الخشب بشدة وعض المسمار بأسنانه وجذبه. أوشكت أسنانه ان تتفكك وسال الدم منها فبصقه. وعض رأس المسمار بأضراسه القوية وكرر المحاولة فانتفخت عضلات عنقه وانفجر الالم من جذور أسنانه صعوداً الى جمجمته.

المسمار تحرك. أما ليم فعلى رغم الظمأ والالم اللذين انتاباه آثر أن يغالب المسمار بجانبي حنكه. استمر على هذا المنوال ساعة بعد ساعة الى أن أفرج الخشب عن سجينه. وبفعل قوة الجذب الذي انتشل به ليم المسمار هوى برأسه على الخشب. ولو لم يظل حنكه مطبقاً لسقط المسمار وضاع.

## طيف شاحب

حان وقت الانتظار الذي لا يطاق. كان عليه ان ينتظر شفاء يديه ليتمكن من تحويل المسمار صنارة. كان عليه أن ينتظر ابتعاد اسماك القرش عن الطوف ليتمكن من قطع حبل النجاة العائم على مستوى سطح الماء لانه المصدر القنبي الوحيد الذي يجعل منه سلكا جديداً قوياً للصنارة الجديدة.

رائحة الطوف اصبحت لا تحتمل لان ليم توقف عن طرح النفايات في البحر خوف اجتذاب القرش. أما تشقق اصابعه ويديه فأخذ في الشفاء رويداً رويداً.

بعد مرور نهار وليلة اختفت أسماك القرش. فمد ليم يده بحذر الى الماء وقطع جزءاً من حبل النجاة. لكن تفسيخه



لم يكن سهلا نظراً الى يبوسته من كثرة ما عليه من الملح والحلزون. وثابر على عمله راجعاً بالذاكرة الى أمه وهي تغرز مسلّة وتخرجها مراراً في حشوة الورق والقطن التي تصنع منها نعالا لاحذية العائلة، علما أن كل نعل كان يستلزم ألف قطبة. وهكذا سلك صنارته سيستلزم ألف ليّة.

أخيراً تم العمل ولم يبق على ليم الا أن يصنع الصنارة. ولكي يحدّب المسمار دَقَّه بمفتاح خزان الماء. لكن كل دقة كانت تعيد فتح قرحة في يده. تابع دق المسمار حتى تحدّب، ثم برد رأسه من طريق حكه بالمفتاح.

ستة أيام انقضت على صيده الاخير، أمضاها من دون غذاء وراحة كافيين مما جعله هزيلا ضعيفاً. لكنه الان يملك صنارة قوية حادة.

جعل طعمَ صنارته الجديدة سمكة صغيرة كان اصطادها بصنارته القديمة. وتذكر قول جدته: "البراغيث الكبيرة تأكل البراغيث الصغيرة." وأمل أن تكون هذه هي الحال مع السمك.

رأى شبحاً رمادياً يجري مسرعا نحو الصنارة. وأحس السلك يُشد ويهزه بعنف أشعره بضعفه. تمنّى الاّ تكون السمكة قرشاً وأن تعيى قبل أن يعيى هو. ومن قوّة الشد ثلَّم السلك راحته، لكنه ثابر على العمل. واذا بسمكة تطفو على وجه الماء، جسمها طويل وقليل العرض. جذب السلك بعنف وَمد يده الى السمكة وأمسكها من ذنبها المتشعب وألقاها على ظهر الطوف وهي لا تزال معلقة بالصنارة.

شدها الى صدره وأغمد سكينه خلف عينيها وقطع رأسها. لكنها ظلت تنتفض وهي ملتصقة بصدره. شقها طولا بسكينه قسمين ثم أزال أحشاءها وشرّحها شرحات مستطيلة بلغ عددها سبع عشرة علقها جميعها بحبل التجفيف. بدا مبتهجاً ومسروراً فبعدما كان يكافح من أجل اصطياد خمسين سمكة صغيرة يومياً بات يكفيه أن يصطاد سمكتين أو ثلاثا بهذا الحجم.

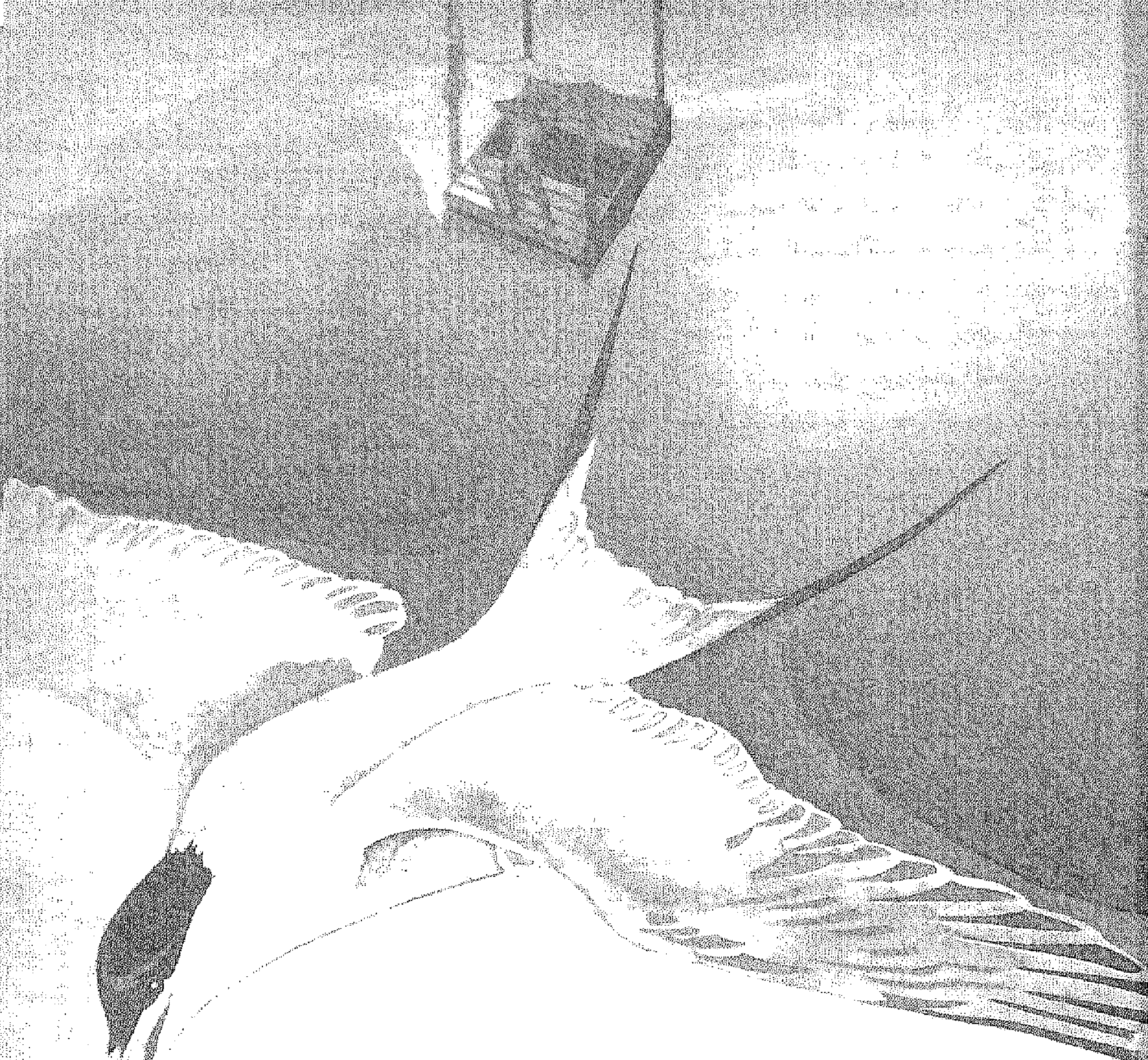
تعبه واضطرابه تواريا كما الضباب. تحركه بات أقوى من ذي قبل، ويداه شفيتا. وكلما ارتفعت كدسة السمك المجفف في خزان المؤونة ازداد ارتياحه. كان ينهض عند شروق الشمس، ينشر فراشه في حرارتها ليجف من الرطوبة، ويغتسل ويستعد للعمل ثم يطوي الفراش. يؤجل تناول الطعام الى ما بعد انجازه صيده اليومي وتنظيفه وتعليقه بحبل التجفيف وتنظيف ظهر الطوف. وعلى رغم التلف الذي أصاب بعض السمك المجفف من جراء الرطوبة كان يبقى في خزان المؤونة مقدار يكفيه مدة أسبوع. ونظراً الى سقوط المطر يوميا بقي نصف خزانه ممتلئاً. كان فخوراً بنظافة الطوف وبصفوف السمك المجفف والصنارة والسكين وحبل التجفيف. فكل هذه كانت توفر له الاكتفاء الذاتي.

عاد بالذاكرة الى قريته فتخيَّل البحر حوله حقولا منبسطة والافق لجيناً يتلألأ والماء اللازوردي مروجاً تكسوها الازهار. انما الفرق بين حقله وحقل قريته هو أن حقله ينتج محصولا يومياً من السمك. عندما اقترب البدر الثالث من الاكتمال شعر ليم بفرح داخلي عظيم وأخذ يردد أغاني طفولته ويزيّن الطوف بحسك السمك الصغير معلقا اياه بالحبال مع قطع صغيرة من التنك تلمع في نور الشمس.

## الطائر السجين

لمح ليم خيالا طائراً يحلق رشيقاً في ضوء القمر الساطع. ففكر ناعساً: ليت هذه السمكة الطائرة طائر حقيقي. ثم سمع خفق جناحين وزقزقة. كان ذلك طائراً حقيقياً.

قويت الزقزقة، فالطائر كان يحوّم فوق رأسه. انه في حجم حمامة وريش ذيله الطويل بدا شفافاً في ضوء القمر. حط غير مستقر على رأس قضيب ثم حلّق طيفاً أبيضَ وتوارى في ظلمة الليل. أما الذي دلَّ على حقيقته فما سقط منه ولوّث



ظهر الطوف. هذه الظاهرة أذهلت ليم. وجود الطائر يعني بلا شك وجود شجر وجبال وسهول.

مضى اليوم التالي من دون أي اشارة الى طائر أو يابسة. ففقد ليم الامل. وعند حلول الظلام اندس بين طيات الخيش يناجي خياله كي يعيد اليه السلام الذي حطمه الطائر.

فتح عينيه بغتة فشاهد رفيف جناحين في مؤخر الطوف. فتساءل: منذ متى هذا الطائر الناحل هنا؟ وما هي الا لحظات حتى توارى الطائر ثم عاد عند طلوع القمر تتبعه ستة طيور أخرى. الطيور الستة لونها أسود، وهو الابيض الوحيد بينها. هذا السرب أصبح جزءاً من ايقاع ليالي ليم. لكن هذا الوضع لم يستقر تماماً، فعند اكتمال البدر توارت الطيور الستة.

الطائر الابيض وحده بقي وقد أصبح أشجع من ذي قبل. يجثم على حبل أو قضيب هادئا كفرخ في قن الدجاج. بعض

الاحيان كان يجثم على الخشب قرب قدمي ليم. ومرة قفز من كتفه الى حضنه كأنه يتحداه لكي يلتقطه. وعندما كان ليم يراقبه تذكر صفار البيض الذي كان يشربه. فهل يا ترى، اذا ما التقط هذا الطائر، يحصل على بيض ينوع به طعامه؟ ان الامر جدير بالمحاولة.

في الليلة التالية حضر الطائر. طوى ليم رجليه تحته وجلس شبه قرفصاء والتوتر يشد عضلاته. رفع الطائر احدى قائمتيه ومشى على الاخرى ونقد فتيتة سمكة. أما ليم فمد يده اليمنى وقبض عليه.

خفق الطائر جناحيه بعنف وأخذ ينقد أصابع ليم وينقد ذاته وينقد الخشب. ربط ليم أسيره بشريط. واذ أحس الطائر أنه أصبح مكبلا ولا أمل له بالنجاة أخذ يزعق غاضباً خابطاً جسمه بالخشب. ولم يهدأ الا بعد وقت.

فك ليم رباط الطائر بعدما عقد خيطاً بكلتا قائمتيه وربطه بقضيب زاوية. ثنى الطائر جناحيه وحاول أن يطير، لكن الخيط المربوط بقائمتيه حال دون ذلك وجعله ثابتاً في مكانه. أخذ يزعق عاليا ويصفق بجناحيه على نحو جنوني. وضع ليم أمامه ماء وسمكة مجففة فعبث بهما، وظل على هذه الحال من الاضطراب حتى انقضاء الليل فخارت قواه وهدأ. عند الفجر قدم اليه ليم سمكة مجففة أخرى فلم يبد مقاومة لكنه لم يأكل. وعندما مد ليم يده تقهقر الطائر مذعوراً.

في ضوء النهار بدا ريش الطائر مخضباً بلوم أحمر وردي ومنقاره أصفر ضارباً الى الاخضرار وبشرة وجهه زرقاء ضاربة الى السواد وقدماه داكنتين ضاربتين الى اللون الرمادي. ظل الطائر رافضاً الطعام ذلك اليوم واليوم الذي تلاه. وبعد ظهر اليوم الثالث شرب ماء من العلبة التي حملها اليه ليم وتقبل ملاطفته، لكنه ظل يرفض أكل السمك مجففاً كان أم نيئاً. ريشه اللماع غدا شاحباً وبؤبؤا عينيه لا حياة فيهما. أما ليم فنصره كان كئيباً.

من فرط حزنه فك وثاق الطائر الذي أصبح ضعيفاً حتى بات يتعثر في مشيته. تلك الليلة سمع ليم نقراً وصوت رش ماء. وفي الصباح كان الطائر رابضاً على الماء على بعد بضعة أمتار. وقبل سقوط الظلام طار ولاح شبحاً في الافق واستحال ذكرى.

## سرب طائرات

تلك الليلة سقط نيزك من السماء انذاراً بكارثة. لكن ليم تظاهر بأنه لم يشاهده. وفي الصباح أنزل المغرفة الى خزان الماء ليشرب فلم تمتلىء الا في قعره، وشم رائحة سمك فاسد فاستنتج ان ما رآه كان حقيقة.

لقد انشغل بالطائر فانصرف عن عمله اليومي. وهبت عاصفتان ممطرتان فلم يهتم لتفريغ الماء عن الخيش. كان يصطاد ليغري أسيره ولم يتعب نفسه بتجفيف ما يصطاد. وفسد السمك المعلق في خزان المؤونة منذ أهمل تهوئته.

ألقى صنارته في الماء، ولكن بدا أن حظه طار مع الطائر. لم يصطد بمقدار ما كان يصطاد سابقاً.

انحبس المطر فاذا بالظمأ مجدداً مشكلة حياة أو موت.

أخذ ليم يلوم نفسه ويفكر متألماً. تذكر أنه عندما كانت سكينه تصيب العمود الفقري للسمكة وهو يقطعها، كان ينزف منها سائل. أخذ فقرة وفتحها وامتص السائل الموجود فيها فرطب حلقه. جعل فتات السمك مكعبات لفها بقطع الخيش وأخذ يضغطها ليستخرج منها عصيراً. هذا العمل استنفد منه طاقة كان عاجزاً عن توفيرها.

ذكريات محاولاته السابقة أكل السمك النيء جعلته يتردد في تكرارها لكن الحاجة أجبرته على اعادة الكرة، فاخذ قطعة لحم نيئة وبدأ يعلكها حتى جفت. واذ لم يكن يريد أن يتلف شيئاً ابتلعها.

في الايام التالية اكتشف أن أكله اللحم النيء يجعله أقل ظمأ من أكله مجففاً. ولتنويع غذائه بدأ يأكل الكبد والقلب والكليتين وقد وجدها كلها طيبة المذاق. وذات ليلة رأى سرباً كثيفاً من سمك السردين يسبح تحت الطوف، فغرف منه ملء يديه وأكل كل ما غرفه.

ونظراً الى ندرة صيده، لم يستطع ليم اعادة احتياطه من السمك كما كان. نقص وزنه وضعفت يداه ورجلاه وبرزت عظامه مما عرضها للرض والالم كلما احتكت بالخشب القاسي. وكم حاول أن يتجاهل الفراغ الذي خلفه الطائر. ثلاثة اشهر قمرية مرت ولا أثر أو صوت لانسان سواه. قبل ذلك كان مقتنعاً بحاله. لكنه الآن طفق يتأسف على سلامه المحطم ويتخيل الطائر معلقاً في الشمس مجففاً ليكون وليمة طيبة او محمصاً حتى يتشقق جلده ويصبح بلون العسل الداكن. وقرقرت معدته وأحس ضيقاً في صدره.

في الصباح كان حلقه جافاً بحيث تعذر عليه أن يبلع شيئاً. خزان الماء فارغ تقريباً. وهو قطع وعداً على نفسه بأن يظل من دون شرب حتى المساء، ولكن اتراه يستطيع ذلك؟ تطلع متألماً الى السماء فرأى جناحين فضيين يلمعان. راقبهما بفارغ صبر، فاذا بهدير المحركات والذيل الدخاني يوضحان له الحقيقة.

وثب في مكانه وصرخ بصوت أجش. ماذا يفعل ليجذب انتباه الطيار. لقد أضاع سترة النجاة البرتقالية اللامعة كما أتلف كل أسهمه النارية. ماذا لو رفع علما ولوّح به، أما تلفت حركاته الانتباه؟ مزق قطعة من الخيش الذي يفترشه وثقبها من جهة واحدة وعلقها بمجذاف.


هدير الطائرة تلاشى، لكنها ستعود وسيكون هو جاهزاً.

تلك الليلة ظل يراقب القمر النصفي الاصفر الذي لا حياة فيه. واخذ يتساءل من أين أتت الطيور؟ ومن أين جاءت الطائرة؟ هل هو على خط طيران؟ هل هو قرب يابسة؟ أما زال يبحر بعيداً عن أمريكا الجنوبية؟

عند بزوغ الفجر قطع تفكيره هدير محركات طائرة ثانية ظهرت في الافق الاحمر الوردي. بدأ هديرها يتعاظم وحجمها يكبر، فلوح بعلَمه مسعوراً لكن الطائرة توارت.

رمى علمه ورفسه لاعناً الطائرة والطيار. اقترب من مفتاح خزان الماء لكنه لم ينزعه. لم يعد لديه أي ضمان لهطول المطر أو للنجاة. وضع طعماً في الصنارة وألقاها في الماء، لكن المياه





الصاخبة أبعدت السمك. أخيراً التقط ثلاث سمكات صغيرة وامتص عصارة أعمدتها الفقرية فعاد قادراً على البلع. والذي زاده اضطراباً وانزعاجاً البحر الذي بدا قاتماً هائجاً.

شاهد طائرات في الافق فبدأ يتفحصها بقلق. ست منها كانت متجهة نحوه. واحداها اخذت تدور وتهبط تدريجاً غامرة الطوف وصاحبه بضوضائها، ثم ألقت شيئاً وقع في البحر وأحدث رشاشا من الماء. واذا ببقعة زيتية مشرقة تنتشر على سطح الماء. لقد ألقت الطائرة علبة صباغ ربما لتحدد موقع ليم.

توارت الطائرات وراء السحب المذهبة فقهقه ليم ولوّح بيديه. وظل طوال النهار يتفرس في البقعة الزيتية المنتشرة في المحيط اللازوردي. ومع اقتراب الظلام رأى في الافق دخاناً، فرك عينيه وحدق ملياً وعد ثماني طائرات تحلق لولبياً. انه سرب! أخيراً سينقذ!

## الطعم الاخير

البحر شديد الهيجان والليل ارخى سدوله وحرارة الجو آخذة في الانخفاض. الشعور بالخطر قطع خيط الامل الاخير بان القافلة ستكتشفه. فجأة فهم ليم سبب هيجان البحر. الحرارة الخانقة في الايام القليلة الماضية والرطوبة المزعجة التي أدت الى تعفن احتياطه من السمك كانتا انذاراً بعاصفة مدمرة شبيهة بالاعاصير التي تضرب مسقط رأسه هينان.

الغيوم حجبت القمر والريح ضربت الخيش في دوي كطلقات نارية، وعصفت بالطوف دافعة ليم مكرها الى العمل. الريح تشتد والخيمة تتماوج والطوف يندفع مع الريح عبر دوامة المياه الدكناء.

سقط ليم في حوض الماء اذ انكسرت موجة على سطح الطوف. اخذ يسعل ويبصق ثم تمسك بالخشب بينما الطوف ينطلق بسرعة فوق الموج. غطس الطوف في فجوة مائية فتدفق الماء الى الحوض. وتعلق لي بالحافة وكاد يختنق لو لم يرتفع الطوف ثانية فوق الموج فتنشق الهواء مجدداً.

ومض البرق ليضيء البحر الاسود. والهدير المرعب ينطلق من الامواج المتلاطمة الهاجمة على الطوف. والريح العاصفة تمزق العلم والخيمة. والمياه تملأ الحوض. أما ليم فقد تخدرت اصابعه بفعل الصقيع فكادت تفلت الالواح الخشبية.

هدأت العاصفة لكن الموج ظل يتكسّر في كل صوب. الطوف لا يزال في دوامة من الزبد. أفلتت أصابع ليم الخشبة فأخذ ينقلب من جانب الى جانب في الحوض يائساً يبتلع الماء ويبصقه ويتقيأ وخامرته أفكار سود.

نهض صباحاً وفي وركه ألم شديد، لكن ظمأه كان اقوى من الالم. لقد سقطت الخيمة في الحوض وانتشر السمك المتعفن على ظهر الطوف. ارتخى العلم وتدلى من المجذاف المكسور. تورمت أطراف ليم وبات جلده المثلّم تنخزه حرارة الشمس الشديدة. اذا لم يُعد بناء الخيمة احترق. ولكن يلزمه أولا أن يروي غليله.

زحف نحو خزان الماء بعناء سبب له

دوارا. اما ماء الخزان فكان اكثر مما توقع. شرب جرعة كبيرة لكنه ما لبث أن بصق. كان الخزان مملوءاً ماء عذباً من قبل غير أن ما فيه الان لم يكن ماء صافياً. لذلك لم يبق له من سبيل لارواء ظمئه الا اذا هطل المطر او جاءه من ينقذه.

زحف فوق قيء قديم وسمك متعفن وعمل على اعادة نصب الخيمة وتفريغ الماء من الخزان. كان يستريح طويلا لكنه لم يستعد قوته. ولدى غروب الشمس اخذ النسيم يحرك الغيوم. لكن ليم كان مُتعبا جداً بحيث لم يتمكن من تناول طعامه، ومحطما من الالم بحيث عجز عن غسل الخيمة. انه لا يستطيع الا النوم.

## صيد ثمين

انبلج النور فنهض متوتر الاعصاب جائعاً. فتح خزان المؤونة فانتشرت رائحة السمك المتعفن. تضعضع وتلمس سكينه وسلك الصيد عبر أقذار الخزان، ثم استلقى على جانبه وبدأ يتفرس في الحلزون المسترخي. وبدلا من أن يضع الطعم في الصنارة أكل كبريات الحلزون متذوقاً السائل الذي ينزل منها في بلعومه. ثم تطلّع قلقاً الى الشمس ووضع في الصنارة طعماً مما تبقى من الحلزون والقاها في البحر.

على رغم انشغاله في الصيد طوال النهار لم تبد له من الصنارة اشارة لعضة سمكة. أخذ منه الغضب كل مأخذ. واذ حل الظلام سحب الصنارة وأكل هو الطعم. تحرك ببطء وبسط فراشه المبلل على الخشب لينشف وغرق الى جانبه في سبات عميق. استيقظ مرة واحدة ليندس بين طيات الخيش متقياً برد الليل.

في اليوم التالي أحنى التعب ظهر ليم فبات كعجوز. والدمامل الناتجة من الماء المالح تفشت في انحاء جسمه. بلعومه أصبح جافاً فبات لا يستطيع أن يبلع شيئاً. لم يكن يبوّل الا مرة واحدة في النهار بدلا من مرتين أو ثلاثاً عندما كان يتناول كامل وجبات الطعام.

في اليوم التالي نزّت القروح وتفجرت الدمامل. وضع طعماً في الصنارة وألقاها في البحر واغمض عينيه. لم يعلق في الصنارة شيء.

في الصباح التالي فتش في السماء عن سحب فلم يجد شيئا. ولم تكن ثمة اشارة لمركب أو طائرة او يابسة. كما انه ظل من دون سمك.

توالت الايام ولا صوت الا بقبقة الغاز في معدته المتشنجة. انه منذ سبعة أيام لم يأكل ولم يشرب شيئا.

عندما فكر في أنه رأى طائراً يحوّم فوق رأسه في ضوء القمر كان في حال هذيان. حط الطائر الصغير بلطف على الطوف قرب أصابع يد ليم. التفت الى الرجل باستهزاء وانتقل الى مكان أقرب. ركّز ليم نفسه واحتفظ بيده ثابتة ومدها.

التقط قائمتي الطائر وضرب رأسه ثلاثاً بحافة الطوف. استراح وتنفس الصعداء قبل أن يقطع عنق الطائر ويمص دمه. بكلالة أخرج امعاءه وعلكها وامتصها حتى جفت. وكان يستريح حتى السبات بين بلعة وبلعة. ثم استخرج القلب والكبد والكليتين وقطعها أجزاء صغيرة ليستطيع أكلها من دون علك.

في الصباح التالي وضع قطعاً صغيرة من جلد الطائر طعما في الصنارة. كان وصول الطائر نقطة تحول. المطر بدأ يسقط رذاذاً قبل الظهر. وكان ليم ضعيفاً جداً فلم يستطع غسل الخيش أو التقاط المطر، لكن ما ابتلعه من جرعات مالحة شدد عزيمته. تلك الليلة سمع خفق الريش مجدداً. الطائر الجديد كان صغيراً أيضاً لكن دمه ولحمه انعشا ليم الذي كان يحلم بأنه طفل صغير بين ذراعي أمه. وفي الغد وجد البحر مكثفاً بالسمك. ومع ان أصطياد سمكتين صغيرتين اتعبه فان لحمهما الابيض كان وليمة لذيذة بعد الطائرين.

## نهر الرجاء

عودة السمك والمطر كانت فرجاً كبيراً. نام ليم عميقاً وتحسنت حاله وبدأ يعالج قروحه ويصلح سلك الصيد. أصبح خبيراً في شؤون الغذاء، يرشف السائل النقي حول دماغ السمكة الصغيرة، يمضغ العينين، يأكل البيض في الداخل. أما العالم الذي قذفته اليه العاصفة فبدا أبرد.

على مدى أربعة ايام انهمر المطر من دون شفقة. وعندما خف ظلت الشآبيب تتساقط قوية بعد الظهر. الرطوبة المستمرة تفسد اللحم قبل أن يجف. السمك جاهز والطيور كثيرة فلا حاجة الى الادخار. الماء النقي يسقط اسرع من الماء المستهلك.

ذات مساء لاحظ ليم أن البحر مخضب بلون أحمر ومع ذلك لم يرَ اثراً للحمرة في ذهب الشمس المشع عند المغيب. فألقى علبة في البحر. وعندما راق الماء ترك قشرة بنية في أسفل العلبة. وهلل ليم: "طين!" انه قريب من نهر... ومن يابسة.

تلك الليلة كان ليم منفعلا جداً بحيث تعذر عليه أن ينام. في جملة الطيور التي كانت تحلق حول الطوف طائر بري لا جلد بين مخالبه. تتبعته عينا ليم حتى طار صوب القمر. رأى ليم في وجه القمر حفراً سوداً دقيقة، فصاح متعجباً: "اغصان! قمر وأغصان! أمر غير طبيعي!" لم يجسر على تصديق عينيه. اتكأ على جنبه وغرف ماء بيديه وذاقه، انه ماء عذب!

عند الفجر انقشع الضباب فرأى ليم رؤوس أشجار خضر وسعف نخل تلوح. ذهل لكنه ظل خائفا أن يجرفه البحر ثانية، لان الريح والتيار كانا يدفعانه قريباً ثم بعيداً. وعندما كان يقترب كان يسمع زقزقة الطيور ويتنشق النسيم الذي يهب من الغابة نديا.

طوال النهار ظل يبحث عن دخان او منفذ على الضفاف البعيدة الكثيفة الظلال. انما بعد الظهر بدأ صوت اليابسة ينقطع والمطر يتساقط بقوة بحيث لم يعد يرى أبعد من الطوف. وعندما انحبس المطر عادت الغابة الى حياتها وضوضائها.

في الصباح انقشع الضباب قليلا، وظهرت مراكب صيد. وبانت جزر خضر ضاربة الى الزرقة. واذ كانت لا تزال مغطاة بالضباب فقد بدت غير حقيقية. لم يصبر ليم الى أن ينقشع الضباب تماماً ليرى بوضوح. فصرخ بصوت أجش. لكن جميع مراكب الصيد كانت توارت الا واحداً.

طول ذلك المركب عشرة أمتار. له شراع واحد بني فكأنه سفينة صينية. أتراه وصل الى الصين؟ أما المركب فبدا كأنه يتجه نحوه. ولما فتح ليم فاه ليصرخ فرحاً ما استطاع الى ذلك سبيلا.

"النجدة!" نقّ بالصينية ثم بالانكليزية.

وعندما زاد اقتراباً وجد أن المركب لم يكن سوى قطع خشبية بعضها ملصق ببعض. فتساءل هل ان الذين على المركب قوم متوحشون. ميز ثلاثة: رجل وامرأة وفتاة. انهم شديدو السواد بحيث لا يمكن أن يكونوا صينيين. وثيابهم تبدو غريبة. لوّح الرجل بيديه صارخا:

"أبريطاني أنت؟"

ظن ليم أن سيد المركب يتفحصه بمنظار. وتحول المركب بعيداً فجمد ليم مكانه يعبث بشعره وذقنه. ثم هز رأسه وصرخ: "صيني! أنا صيني!"

فجأة فطن الى أنه عار. فارتبك واتخذ من العلم ستراً. والتفت الرجل الى المرأة التي مشت بقدمين ثابتتين نحو مؤخر المركب. أما مقدمه فأصبح على بعد سنتيمترات من الطوف. أمسكت المرأة بأحد قضبان زاوية الطوف، ورمى الرجل الى ليم حبلا ملفوفاً ومد اليه يده وهو يبتسم ليساعده في الانتقال الى المركب.

تردد ليم وبغتة أحس باحجام لم يكن يتوقعه. انه يجهل المركب ومن عليه، في حين انه قادر على تدبر امره على طوفه بامان. بدأ يجمع سكينه وسلك الصيد. أما الرجل في المركب فأومأ اليه سائلا هل يريد أن يقطر الطوف.

فهز ليم رأسه أن لا. ثم أمسك بيد الرجل وصعد الى مركب الصيد.

## خاتمة

وصل مركب الصيد وعليه بون ليم الى مرفأ بيليم البرازيلي في السادس من ابريل (نيسان) ١٩٤٣. لقد بقي ١٣٣ يوما تائهاً في البحر. وهو رقم قياسي. مشى الى الشاطىء من دون مساعدة.

وقبل شهرين ونصف شهر من ذلك التاريخ أنقذ ثلاثة بحارة في مكان قريب من المكان الذي انقذ فيه ليم. وهم بقوا في البحر ثلاثة وثمانين يوماً، الى أن عثرت عليهم دورية بحرية فأنقذتهم.

القنصل البريطاني في بيليم ذهل لحالة ليم. وجاء في الصحف المحلية أن "ليم، على رغم اسوداد لونه بتأثير الحرارة، لم يُظهر اي دلالة على جوعه وظمئه وكفاحه ضد الامواج والشمس والجو."

خرج ليم من المستشفى بعد خمسة وأربعين يوماً من الراحة والمراقبة. ودبر القنصل البريطاني وشركة "بن لاين" البحرية امر سفره الى نيويورك في انتظار نقله الى بريطانيا.

الملازم صموئيل هاربي من البحرية الامريكية حمل قسم الطوارىء في البحرية الامريكية في نيويورك على استجواب ليم عله يحصل على معلومات تفيد من سيكون في مثل حاله في المستقبل. وجهزت البحرية طوفاً مشابهاً لطوف ليم. ومثل هو كيف صنع سلك الصيد والسكين. أما الشريط الذي صور لهذا التمثيل فاستخدم في تدريب جنود

البحرية الجدد. ومع ذلك، فحين تقدم ليم للتطوع في البحرية رفض طلبه لأن قدميه... مسطحتان.

تسلّم ليم عدة هدايا، بينها وسام الامبراطورية البريطانية الذي منحه اياه الملك جورج السادس في يوليو (تموز) ١٩٤٣ تقديراً "لشجاعته غير العادية وجَلَده ودهائه."

بعد الحرب بأربع سنوات أدت جهود الضابط هاربي الى قبول الكونغرس الامريكي التماساً خاصاً قضى "بالسماح لبون ليم بدخول الولايات المتحدة الامريكية واعطائه اقامة دائمة فيها."

وعام ١٩٥٢ أصبح ليم مواطناً أمريكيا. وفي تلك السنة تزوج في بروكلين بنيويورك ورزق أربعة أولاد.

عندما تسلم ليم الوسام الملكي قال لصحافي بريطاني: "آمل أن تكون خبرتي برهاناً على أن الصينيين في هذه الحرب يستطيعون مواجهة المشقات مثلما يواجهها البحارة الظرفاء التابعون لجنسيات أخرى. البحر لا يميّز بين رجل أصفر ورجل أبيض. كلنا، نحن الذين نسافر في المراكب ونواجه مخاطر البحار، يجب أن تكون لنا أوضاع متساوية."

روتان لوم ماكون ■

# فوجي
# روح اليابان



**عاش كريستوفر لوكاس في اليابان عدة سنوات فأحب تلك البلاد وشعبها. وبعد غياب طويل عاد اليها فوجدها موطنا مندفعا نحو الصناعة والتقنية، مزدحما بالسكان، يكرّس ذاته لاجتراح "العجائب" الاقتصادية. يحمله الصخب والتلوث، والتقدم الجنوني في المدن، على اللجوء الى مزار على قمة جبل فوجي، وهو مكان يحلم الياباني بزيارته**

على بعد حوالى ٤٠ كيلومتراً من الشاطىء يقف جبل فوجي وحيداً شامخاً، ـياً، ملهماً، يشرف على اليابان كما تتوج قمة افرست جبال حملايا. علوه الذي يزيد على ثلاثة كيلومترات يُضفي عليه قوة مطلقة وعظمة لا تدرك ونقاء تاما.

"فوجي - سان"، كما يسميه اليابانيون، هو عادة جبل ساكن، هادىء لكنه قابل للثوران احيانا. آخر ثورة له حدثت عام ١٧٠٧ وغمرت مساحة ١٠٥ كيلومترات من مدينة طوكيو وبلغ علو الرماد ١٥ سنتيمتراً. وهو، على رغم هذا التمرد، يعني كثيراً لليابانيين. انه أكثر من رمز غير رسمي للامة، انه مستودع حياة، والمكان الذي يجدد فيه اعضاء القبيلة طاقاتهم الاحساسية ومزاياهم الوحدانية.

انه اعلى جبال اليابان واسمى رموزها.

شيء يعلو فوجي.

الصعود الى فوجي - سان هو غير الصعود الى اي جبل، لانه بالنسبة الى اليابانيين حج وتقليد وتظاهرة وطنية جماعية. ويمتد موسم الصعود شهرين يقعان في منتصف الصيف وتقام خلالهما احتفالات على منحدرات الجبل. ويتسلق المنحدرات قرابة ثلاثة ملايين، اما الذين يجتازون المحطة السادسة فيقدرون بمئتي الف.

انا صحافي بريطاني مقيم في طوكيو، مضى عليَّ عقدان وانا افكر في الصعود الى جبل فوجي. انه احد الاكتشافات التي كنت كل سنة اقول لنفسي سانجزه السنة المقبلة. وكان صباح، سبقه حمام ليلي بخاري عابق، غادرت المدينة الكبرى الى منحدرات فوجي - سان.

كانت لوازمي لتسلق ٣٧٧٦ متراً تكاد لا تفي بالغرض: سروال جينز قديم، حذاء للعدو، صدرتا صوف، مصباح كهربائي،

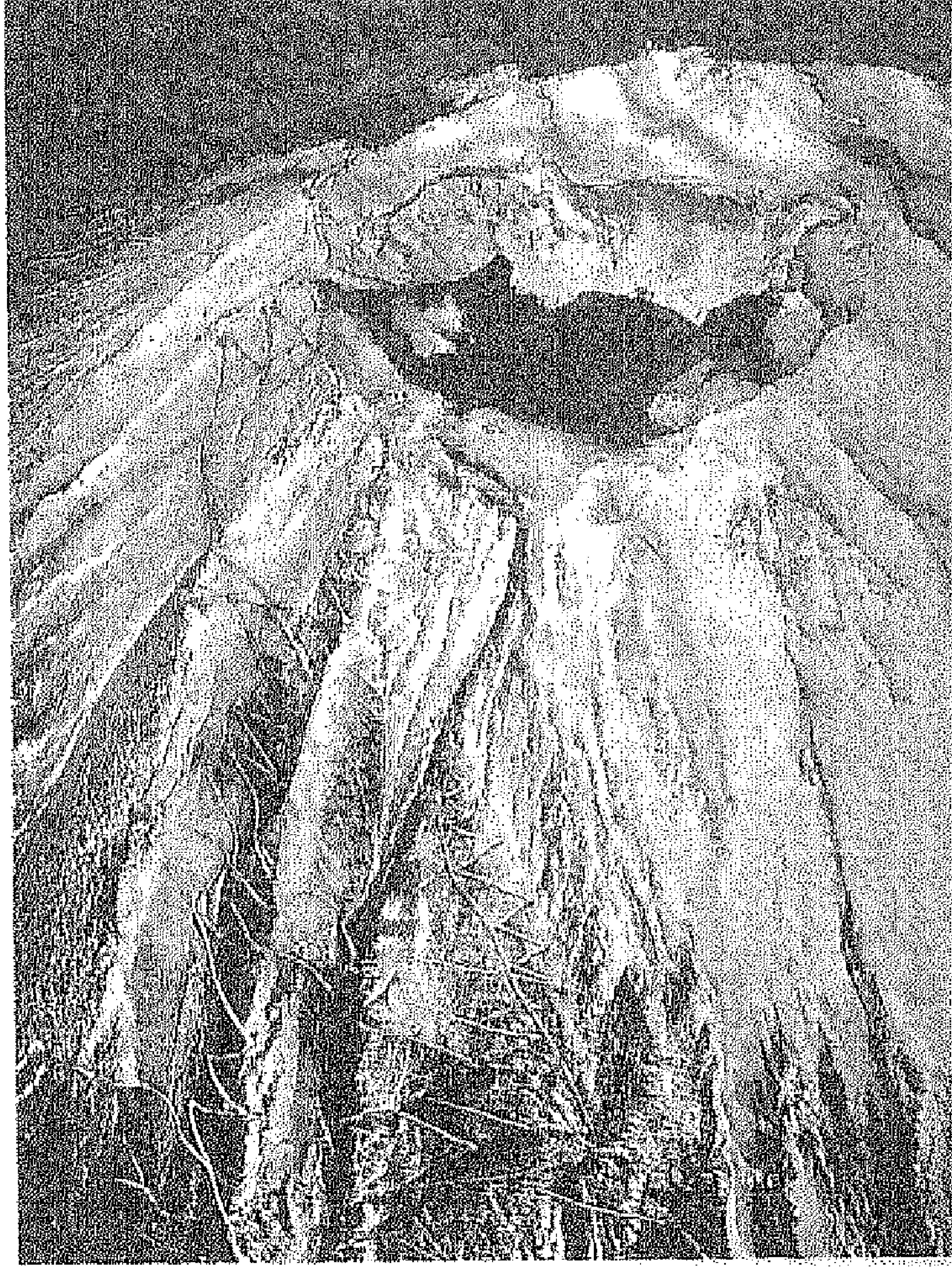
والعاب الفيديو الحمقاء واطفال يرتدون زي الانسان المتفوق (السوبرمان). وفي الخارج ساحة باتساع ملعب كرة القدم مزدحمة بثلاث وخمسين سيارة سياحية كبيرة وعدد لا يحصى من المركبات الخاصة. وحواليها حوانيت تبيع هدايا وتحوي علّيقا بلاستيكيا وسلاسل مفاتيح عليها رسم جبل فوجي وقمصانا ومصبّعات من سكّر.

المكان كله يرتج بعزف موسيقي مستمر. انه اسوأ تجمع سياحي.

البركان الضخم الذي تبلغ مساحته قرابة ٨٠ كيلومتراً، يكتنف بوجه او بآخر كل ما هو من صنع الانسان الياباني. فوق محطة غوغوم التي يلفها الضباب، يرتفع قفر مكسوّ ببقايا الفحم والرماد والحمم التي كان البركان يقذفها منذ القدم. انه لمنظر مذهل. فوجي - سان يشغل كل تفكيرنا.

في هذا الصباح المشبع بالبخار من شهر يوليو (تموز) تغص المحطة بالزوار. فثمة جماعات "ميتسوبيشي" و"توشيبا" و"دنتسو" الاعلانية وكبار اعضاء نادي الروتاري وصغار نادي الليونز والنساء المراقبات للطيور. وكان ثمة ١٥٠ طالبا من ثانوية "يوكوهاما" بثياب فيروزية وقبعات قطنية بيضاء لاتقاء حرارة الشمس. اما انا فكنت المتسلّق المستقل الوحيد.

اشتريت، مثل غيري، "كونغوزو"(٢) كاملة بجرسين رنانين وعلم ياباني. انها



قومة جبل فوجي والمنحدر الجنوبي الشرقي، من علو ٥٧٠٠ متر.

شراب منشط، فستق سوداني، سمك مجفف، تفاحتان، كمية من الينّات.

في الطريق الى الجبل عشر محطات: الثلاث الاولى محطات نافلة الغاية منها التوقف قليلا للراحة. الرابعة غير موجودة اصلا لان اليابانيين الذين يعتقدون بالخرافات يفضلون الاّ يتعاطوا و"شي" اي الرقم ٤ والموت معاً. وكمعظم المتسلقين ذهبت تـوا الى المحطة الخامسة المسماة "غوغوم" حيث مخيم فوجي الاساسي.

تمنيت الآن لو لم آتِ ابداً. ففي المخيّم طقطقة آلات الـ"بنبول"(١)

(١) Pinball لعبة تدفع بها كرة فوق سطح متحدر وسط دبابيس واهداف.

(٢) Kongozue

Photo: Paolo Koch / Photo Researchers

عصاة خشبية تساعد على السير في الاراضي الصخرية. العلم خلق لي مشكلة، فهناك علمان يابانيان وعليّ ان اختار احدهما. علم رسمي يدعى "هينو - مارو" وهو يمثل الشمس القرمزية وسط فسحة بيضاء، وعلم يدعى "كايغن - كي" وهو علم البحرية القديم ذو الخطوط النورانية المشعة. سألت البائعة: "ايهما افضل؟" فابتسمت وناولتني علم البحرية قائلة: "هذا هو الافضل".

"اسرعوا!"

الان، وقد انجزت استعداداتي، مشيت مسرعا خلال الضباب. كان الجو رطبا حاراً. وبين جيوش فوجي المندفعة بعصي "الكونغوزو" سرت وحيداً بقوة وكبرياء عاملا على اخفاء شعوري بالوحدة. خط سيرنا الوقور المتعرج كان يمر في الغابات بين شجر الشربين وشجر الارز الشامخ في محاذاة الحجار البركانية المستطيرة.

تجاوزنا الغابة وبلغنا المحطة السادسة وهي ملجأ منخفض مبنيّ من الجبس. من هناك اطللنا على جبال محدودبة ضخمة تشمخ نحو السماء في ظل سحب متقلبة سوداء. من بعيد يبدو فوجي - سان جبلا ناعما، صامتا، مكللا بالخزامى والبنفسج الزاهي والارجوان الرطب. ومن هنا يبدو جافاً، خشناً، صخرياً، مخيفاً، ولكنه محبب. امتداد لا نهاية له، مكسوّ ببقايا الفحم والرماد والخفّان والحمم، وعالم قمري مكشوف ذو لون احمر محترق تخالطهُ خطوط كبريتية صفراء وبرتقالية.

الغيوم تحوطنا، والرعد يقصف والمطر ينهمر. سلمني الدليل الملفوح من حرارة الشمس ورقة صغيرة صفراء كتب عليها: "حذار الصخور والحجار المتساقطة، انها تنذر بالخطر. اذا سمعت رعداً تيقظ واذا جاشت نفسك توقف عن التسلق فوراً واسترح." رباه! ماذا افعل هنا؟

الطريق المتعرج الغامض الذي نسلكه بدأ ينحرف صعوداً نحو جانب البركان. اما انا فاسير وعيناي شاخصتان الى تحت. هطل المطر فارتديت معطفي وتابعت سيري ولكن بتؤدة. وما هي الا لحظات حتى وجدتني اتسلّق الى جانب زوجين اشيبين متعبين لولا عكازتاهما لسقطا. المرأة محدودبة والرجل يبدو كأنه كونفوشيوس وقد بُعث بلحيته الطويلة الكثة. هي في الرابعة والسبعين وهو في السابعة والسبعين. سألتهما: "لماذا انتما تتجشمان مشقة الصعود؟" فاجابا بكل بساطة: "انه عمل يجب ان يتم". وتابعا تهاديهما.

المطر ينهمر حاداً منحرفاً يلسع وجهي، والطريق لم يكن صعبا فقد مهدته اقدام المتسلقين منذ مئات السنين. لكن الصعود نال منا قسطه. مررت بفرقة من الجيش جالسة تستريح والسخط باد على وجوه افرادها. انها هناك للقيام بتمارين ولكنها مبللة، مكتئبة، مثقلة بالاجهزة المرسلة واللاقطة وبالاكياس المحمولة على الظهور وبالخوذ المصفحة والبنادق الآلية.

المتسلقون العائدون يختالون متأنقين اختيال من انجز اعمالا باهرة قائلين بابتهاج: "غانباتي" اي اسرعوا. انه

تعبير دائم الترداد في الجبل. وفجأة ادركت انه تعبير عن الروح الذي يدفع هذه الامة ولا يُقهر. سمِّه اذا شئت "قوة الارادة الجماعية." ايام السعد وايام البؤس، في السراء وفي الضراء، هذا الشعب يظل يتحرك. اما انا فغدوت شديد اللهاث واهي القدمين، ولكن الامر مغرٍ. انا ايضا سابلغ القمة. لن أفشل امامَ كل هؤلاء الناس، ابداً لن افشل، فلأسرع.

بلغنا المحطة السابعة. الريح عاصفة هوجاء، وعصاتي الموسومة بحديد لماع يحدد العلو تشير الى اننا الآن على ارتفاع ٢٩٨٧ متراً. هذه المحطة هي ملجأ بدائي منخفض في مكان جبلي محجوب عن الريح، مبني من حجار الحمم، سقفه من تنك مثبت بصخور. في نافذته عجوز تبيع الجائعين عشبا مسلوقا وبيضا مغليا، وشرابا منشطاً. طلبت شرابا منشطاً فاجابتني منذرة: "انت تحتاج الى شراب مقوٍّ."

انها على حق. فالى الحر الذي نكابده صعدنا بسرعة الى قفر جهنمي مملوء حمما قاسية وصخوراً حادة الانحدار. مشينا على مهل نحاذر الخطر بين الصخور الحادة قافزين من ممر ضيّق الى آخر مصممين على الوصول الى السلاسل المساعدة. يداي تجرحتا، وسروالي تمزّق. وعندما مررت بثلاثة مراهقين يحملون دراجاتهم شتمتهم بصوت عال وقلت: "ادراجة ايضا؟" فاجابوا مبتسمين: "نعم، انها ليست بدعة جديدة. المراهقون تعودوا ركوب الدراجات على قمة فوجي."

لم اتمالك من الضحك ولكن ليس طويلا. هذا القفر المخيف من الحمم يبدو انه يمتد الى ما لا نهاية. كل صخرة فيه شائكة حادة وكل حجر قاطع. وكل مَطلع شديد الانحدار. ومع ذلك ففوجي – سان لم يكن ابداً مغلقا على الناس. اول من بلغ القمة كان إنّوجيوجا وذلك قرابة العام ٨٠٠ ق.م. وعاد بحاجبين ملفوحين من الحرارة وبرواية عن فوهة بركان هائلة تغلي بالحمم الزرقاء.

خف المطر وبدأت الريح تميل الى السكون، لكن هذا لا يعني الّا تعزية بسيطة. تابعت السير تعباً بين الصخور الحمر والشمس تسطع من بعيد تحتنا على قمم سود وبحيرات تتلألأ كأنها قطرات ندى. والمتسلقون يواصلون تقدمهم على مهل ولم أكن اسمع تذمراً من اي واحد منهم.

الآية اليابانية في الايام الجيدة تقول: "أنا أتأمل، اجازي جسدي، اتألم في صمت، اجاهد حتى النهاية. غانباتي: أسرع، جاهد، قاتل!"

## شعور حار

نحن الآن صاعدون في طريق وعر قاسٍ بين منحدرين من الرماد البركاني تحوطهما صخور ضخمة تشبه نيازك ضالة، طريق زلِقٌ ضيِّق ضيقَ الكتفين. وعلى رغم السلاسل المساعدة، ظل الناس يتعثرون. مشيت حذراً الى جانب اربعة عميان موثوقين واحدهم بالآخر يقودهم دليل، والى جانبنا رجل برجل واحدة، يعرج ولكنه شجاع. بعض المتسلقين رزح جانب الطريق.

توقف المطر، وانقشعت السحب.

تحتنا ينتشر فوجي بأبهة مدهشة مضاء باشعة الشمس الصفراء، ملؤه حظائر كبيرة بين بنيّة داكنة وحمراء صدئة وخضراء تغمرها الغيوم المنخفضة. وهناك لافتات كتب عليها: "حذار المنحدرات، حذار الصخور، حذار العاصفة."

تابعت التسلق. وعلى ارتفاع ٣٠١٨ متراً توقفت مُنهك القدمين عند كوخ حجري صغير. بخمسة وعشرين سنتيما وسمت عصاتي، وبدولارين ونصف دولار حصلت على كوب ساخن من القهوة. داخل الكوخ المتسلقون المرهقون تمددوا على الحصر يدخنون ويتحدثون وقد بدوا سعداء مرتاحين. انه "طابع اليابان القديم." قبل قرابة قرن كل واحد كان يسافر مشيا على قدميه ويستريح في محطة قروية خشنة مثل هذا الكوخ. هنا استقبلت استقبالا حاراً. وكل شخص الآن على منحدرات الجبل يفعل الامر عينه وبالطريقة ذاتها وينتابه الشعور اياه.

جرحت اصبعي وانا اقشر تفاحة، فاذا برجل نشيط ذي وجه كوجه الصقر يتحرك فوراً بقلق وبطريقة سحرية يقدم الي رباطا لزجا ومرهما مطهراً. انحنى امامي وقال: "أنا كازيو متسوموتو" رئيس قسم في شركة اسكان، وانت؟" رددت الانحناء وبوقار تبادلنا بطاقتينا. تفحص متسوموتو – سان بطاقتي جيداً ثم انحنى ثانية وقال: "ستكون من دون ريب رفيقي ورفيق مساعدي في التسلق؟" أجبت: "يا له امراً عظيما!"

هنا وحدتي الغالية ولّت. احد المساعدين حمل فوراً حقيبة سفري شأني شأن الاسياد في اليابان.

فريق موتسوموتو المتسلق والمسجل كفريق اجنبي ضعيف صعد الى هذا المكان بين مقذوفات فوجي الاخيرة من حمم مجمدة ضخمة. الجو الآن بدا قارساً، مظلما ونحن نتئد في سيرنا فوق القمم والغيوم. درجة الحرارة في طوكيو كانت ٣٥ (مئوية) اماً هنا فقاربت حال التجمد. معدل درجات الحرارة على القمة طوال السنة ٦،٦٧ درجة تحت الصفر.

جلسنا القرفصاء وابصارنا شاخصة الى تحت. الهواء نقيّ صاف. انها للحظة سارة. صمت كأننا في معبد. في هذا الوقت مر طلاب ثانوية "يوكوهاما" المشاغبون ملوحين بايديهم وديا كما تفعل الخيالة المكتئبة التي تسير من دون نظام. وهكذا فعل كونفوشيوس وزوجته المحدودبة اللذان يتهاديان متثاقلين على عكازتيهما، ينظران الى فوق ويبتسمان ابتسامة ضعيفة ويدلفان الى امام. وفي مكان اعلى وجدتهما يصليان بين صخور الحمم.

متسوموتو – سان يشير الى ثلاث كتل كبيرة من الثلج غير الذائب. اما انا فأسناني كانت تصطك. القمم البعيدة ظهرت بلون ارجواني حانق والنور يتلاشى تدريجا ومقذوفات الحمم القريبة بدت حالكة السواد والسحب المنتشرة فضيّة اللون. هبّت في وجهي ريح قارسة فتملكني الالم وكان هذا درسا لي ففعلت ما يفعل الياباني الصالح، عضضت على شفتي وتابعت مسيري.

فجأة رأينا فتى متجها نحونا بسرعة من التلة وهو يهتف تكراراً: "إراسشاي" اي "اهلا وسهلا، اهلا وسهلا."

قال متسوموتو – سان: "سنستضيفه، الطعام ليس وفيراً انما الفرش نظيفة". وهذا كل ما نريده الآن.

وصلنا الى المحطة الثامنة المعروفة بـ"غوريكوكان" التي نطل منها على مشرق الشمس من علو ٣٤٤٤ متراً. من هنا نشاهد قمة فوجي – سان السوداء التي تشبه ورقة متجعدة. وفجأة تألق حولنا نور ساطع ثم ارتفع في الغسق قوس قزح رائع. وعلى الشواطىء هبط الظلام.

## "بانزاي!"

لا يزال في اليابان حنين عذب الى الاشياء القديمة، الى يوم كانت البلاد معزولة عن العالم وعن الاجانب المزعجين. يوم كانت الحياة ابسط واسهل مما هي اليوم. تلك الليلة لاحظت في فندقنا الجبلي المزدحم بالناس كثيراً من الضوضاء. ولم أر ابداً مثل هؤلاء اليابانيين القانعين المستلقين على ظهورهم.

كانت "غوريكوكان" غرفة مستطيلة، منخفضة، قاتمة، ذات بلاط مكشوف قذر وحصر مفروشة بأناقة حول مربّع مفتوح يتأجج فيه جمر فحم حجري. كل متر مربّع منها يشغله متسلقون مضطجعون متعبون يأكلون ويشربون ويتحدثون. كل شخص كان يحصل، في مقابل خمسة وعشرين دولاراً، على مضجع بمساحة متر مربع وعلى وجبة تحتوي على قصعة من الرز الابيض المغلي وحساء الفول والملفوف المحفوظ بالخل واكواب غير محدودة من الشاي الاخضر. اما متسوموتو – سان، رجل فوجي المحنك، فكان يحضر، على سبيل الاحتياط، علبا صغيرة من الفراريج المتبّلة والبطاطا المتبلة والمحار المدخن وسمك الصيدح. كل هذه الاصناف كان يقدمها الينا مساعداه على الطريقة التقليدية مع ملاعق صينية. اما متسوموتو نفسه فكان يقدم شراباً معلباً واكوابا من الورق المقوّى. واما انا فدون تروٍّ القيت بما لدي من شراب وفستق سوداني.

مدير الفندق، وهو رجل ضخم الجثة قوي العضلات، ذو لحية كثة سوداء ورباط برتقالي على جبهته، أعلن ان الانوار ستطفأ الساعة الثامنة تماما وسنوقظ الساعة ٢،٣٠ فجراً تمكينا لنا من بلوغ القمة لحظة شروق الشمس.

قبل حلول الثامنة رافقنا الى ما وراء ستار رثٍّ حيث وجدنا قرابة ثمانين شخصا، ذكوراً واناثاً كباراً وصغاراً ومتوسطي الاعمار، ممددين على الارض اما نياما واما منهكين. سلّم كل واحد منا فرشة ووسادة صغيرة قاسية وتركنا نتدبر امورنا. مولّد الكهرباء لفظ انفاسه الاخيرة وانطفأ النور.

انتصبت في وجهي ركبة شاب ياباني، وعلى صدري تتحرك رِجْلا شخص آخر يشاركني في الفراش. وهناك رجل يجلس فجأة وينطلق في الفناء ثم يصمت ويستلقي على ظهره ويغفو. وهنا آخر غطيطه كصوت المنشار ورفيق له كآلة بخارية. يا له ايقاعا من غطيط.

اخيراً غلبني النعاس فغفوت.

تَمَّ ايقاظنا الساعة ٢،٣٠ فجراً. الريح الهوجاء تهز زجاج النوافذ والغيوم

الكثيفة الممطرة تنتشر حولنا، وطيوف الحجاج تمر من امام نوافذنا وقد حمل كل منهم مصباحا كهربائياً كاشفاً. المسؤولون ينادون جماعاتهم في الظلام الدامس وينبهونهم الى اقتراب موعد "الانفجار الاخير لقوة الارادة الجماعية."

بعدما جرعنا قصعة ساخنة من حساء المعكرونة تهيّأنا للسفر في الليل القارس العاصف والممطر. لا نستطيع ان ننظر الى ابعد من مترين امامنا. انه لامر مخيف. اما متسوموتو - سان فيقول: "لا تجزع." واما انا فلا ادري لماذا لا أجزع. مررنا متثاقلي الخطى بالجنود المكتئبين الذين يتجمعون بعضهم فوق البعض الآخر في ملجأ الفندق، نصف نيام.

أخطأنا طريقنا وسط الغيوم فوقعنا وسط صف من المتسلقين يبدو ان لا نهاية له. اجتزنا منحدراً منفتحا على الريح، وصعدنا في ممر رمادي حاد الانحدار يقع بين صخور كبيرة سوداء مطمورة بالرماد الى نصفها. في عصا كل متسلق جرسان ونحن كنا نتبع رنين الاجراس. وكالعميان نصعد في طرق ملتوية حامدين الله على وجود سلاسل مساعدة نتمسك بها ونهتدي.

وصلنا الى المحطة التاسعة. اللافتة تشير الى اننا على ارتفاع ٣٣٥٢ متراً. وسمت عصاي مجدداً. مررنا تحت عتبة بوابة في شكل نير ذات لون قرمزي تدعى باليابانية "توريي." ثم دخلنا مزار "شنتو" الصغير المحفور في جرف عال في منحدر الجبل. القينا بعض النقود المعدنية على المحراب المكشوف. وكالماشية في الحظيرة، تجمعنا طلبا للدفء والسلوى. ومن العجب العجاب ان متسوموتو - سان عبر وحيداً.

صعدنا على مهل الى منعطف شديد الانحدار والغيوم لا تزال تلفنا. احسست ان وجهي تجمّد وان يديّ تخدّرتا. كنا كثراً نتسكّع محشورين ردفا الى ردف. انها الرابعة والدقيقة الاربعون، ساعة شروق الشمس، ونحن كالمجانين على مقربة من القمة ولكننا واقعون في عرقلة سير مزعجة. انها ساعة الازدحام على فوجي - سان.

فجأة تحوّلت الغيوم الرمادية السريعة الدوران الى حمراء وردية ناعمة، وتفرّقت متجهة الى الشرق حيث ارتسمت في شكل دائرة قرمزية تحجب الافق ثم ارتفعت مهيبة فوق القمم النائية. انه حقاً لمنظر رائع. العلم الياباني يرفرف، والهتاف ينطلق مدويا من حناجر المتسلقين: "بانزاي بانزاي بانزاي" وآلاف السواعد تلوّح مرتفعة فوق الرؤوس.

دهشت وصدمت في آن: "بانزاي" تعبير ياباني حربي معناه: الى الامام، هجوم، اقتحام." كل وجه الآن ملتفت نحو شروق الشمس. وكثيرون من الشيوخ القريبين منا ساجدون على الصخرة الحادة يصلّون واعينهم مغمضة. انه لامر غير عادي.

الضباب الرطب تفرّق، ونحن كالجنود سرنا، فكأنما الامر مدبر سلفا. طريقنا الملتوية تتصاعد بحدة ونحن نتسلق لاهثين يداً فوق يد. بعد مضي نصف ساعة بلغنا القمة حيث الدرج العمودي الشاهق الاخير الذي برته صخور الحمم. مشينا متمهلين تحت عتبة مصنوعة من حجر

الصوان حيث مررنـا بنصبي أسدين صينيّيـن منحـوتيـن. امـا النبيـل متسوموتو - سان فكان دائما ينحني امامي بخشوع، كذلك مساعداه. وانا ارد التحية ويداي على ركبتي. قال، لي: "اوميديتو،" اي مبروك. فرددت له التحية.

## على قمة فوجي

هنا على القمة الجو صاف، نقي. وشمس الصباح الباكر تبدو صغيرة ذات دائـرة لجينيـة، تسطـع في سمـاء زرقاء. ومن هنا نشاهد عشرات القمم تلوح خلال السحب المتنقلة على انخفاض آلاف الاقدام تحتنا. كل بقعة ترقص وكل حجر يلمع. والريح تهب باردة منعشة. اما انا فشعرت بانني رجل عظيم.

قال متسوموتو، من دون اي ايضاح: "الان سنذهب الى مزار شنتو."

المزار في فوجي - سان مقام مهيب. ولكنه كغيره من المزارات منخفض بسيط مكشوف ومكوّن، تقشفاً، من خشب الصنوبر غير المصقول، ومع ذلك فهو يباهي تاج الاسرة الامبراطورية الاقحواني المذهب.

داخل المزار وسمت عصاي في مقابل ١٠٠ ين، ثم لحقت بالحجاج الذين كانوا يغرفون التمائم او رقع الحظ السعيد واوراق الابراج، من سلة مملوءة بمثلها. انها لتجارة رابحة. بعد ذلك أرشدنا الى عمق المكان حيث ركعنا حول موقد فحم حجري وقدم الينا الشاي الاخضر وقصعة من الحبوب الحمراء الحلوة اللزجة. ثم دعينا الى الجلوس امام طاولة خشبية بسيطة وضعت عليها كؤوس كبيرة من الجعة اليابانية المستخرجة من الرز وسواه من الحبوب.

جلسنا القرفصاء وابصارنا شاخصة الى رجل غامض الملامح يرتدي عباءة يابانية حريرية ثقيلة الوزن وسروالا منشى ويعتمر قبعة مستطيلة سوداء مخروطية الشكل. وكان هناك قرع طبول وطقطقة عصي وترنيم على ناي من قصب. الرجل يرفع يدين متعارضتين ويلوح بغصن من خشب الكافور تتدلى منه قطع مستطيلة من الورق، ويرنم ترانيم قديمة لا يفهمها احد، ويسكب لكل منا وفقاً للاصول ملء القمع جعة يابانية مستخرجة من الرز. دفعنا ما يتوجب وغادرنا المكان.

قرب المزار، على قمة الجبل، يستقر قصر السرور وهو مبنى كبير للاستراحة وحانوت للهدايا. الساعة تقرب من السادسة والدقيقة الثلاثين صباحاً والمكان مزدحم بالناس. خمسة مغنين انفجروا بغناء ياباني صاخب، وثلاثة تلفازات تعرض مشاهد من مباراة في كرة القدم. وكان هناك كثير من الالعاب التي يولع بها اليابانيون الصغار مثل مصارف لباعة متجولين ورواد فضاء وسواها من الالعاب الالكترونية.

ضمن هذه الجدران مقهى غير محبب يبيع شطائر ووجبات نقانق سمك، وحانوت مكتظ بادوات الزينة يبيع كلاما فارغا مثل: "قمصان قمة جبل فوجي الجميلة،" "ملصقات فوجي - سان،" "خناجر فوجي - سان رقم ١،" "بطاقات جبل فوجي،" "اعلام أساهي،" "مخللّات شروق الشمس،" "تفاح أساهي المحلّى."

وللتخلص من هذه الورطة قررنا، متسوموتو - سان وانا، السعي الى اكتشاف فوهة البركان. شروق الشمس اللطيف لم يكن حاراً والجو لا يزال قارساً، والريح تهب مخترقة ما بين صدرتي ومعطفي ونحن نسير في اتجاه نفحاتها الرطبة. فجأة بدت القمة مهجورة. تطلعت الى تحت فذهلت اذ رأيت صفا كالنمل يزحف نزولا. لم تكد تمر ساعتان على بزوغ الفجر حتى كان الحجاج الجزعون يتدافعون مغادرين. انه لامر لا يصدّق. كيف يتحمل الناس مشاق هذه الطريق الطويلة المتعرجة ليبلغوا فندق الجبل ثم يكادون لا يُمضون الا نصف ساعة على القمة الشاهقة.

لم نتزعج في النزول. سرنا عبر قمة صخرية مستديرة مجتازين حافتها الحجرية لنجد انفسنا فجأة خارج مجرى الريح مواجهين قلب البركان الذي كانت فوهته العظيمة هادئة آنذاك. ويبلغ علو الفوهة ١٨٠ متراً، وهي ذات جوانب رمادية داكنة تتخللها خطوط سوداء وبقع ثلج قديم.

على جانبها البعيد لقيت المراهقين الثلاثة يسرعون نزولا على دراجاتهم، وهم يتبرمون غيظاً، نحو الممر الضيّق الممهّد عند سفح القمة. ويبلغ طول هذا الممر ١٦٠ متراً فقط. ويظهر ان الثلاثة كانوا ذاهبين الى حفلة راقصة. كل سرج من دراجاتهم وسم بعبارة "قمة جبل فوجي،" وهم بهذا معجبون جداً. سألتهم: "أيستحق هذا الوسم كل تلك المشقة؟" فاجابوا: "نعم، بكل تأكيد. اثنان فقط غيرنا من مدرستنا فعلا مثل هذا."

تابعنا السير حتى وصلنا الى آخر قمم فوجي - سان واعلاها حيث وجدنا مرصداً حكوميا متواضعا وواجهنا رياحا وعموداً بسيطا مصقولا من المرمر الاحمر مكتوبا عليه: "هذا هو اعلى جبل ياباني، فوجي - سان ٣٧٧٥م". من هنا، من على قمة القمم هذه، تأملت السهول الزمردية المنبسطة دوننا فادركت ان فوجي - سان بالنسبة الى اليابانيين يقع في نقطة الصفر من البوصلة. كل شيء يمكن ان يتحرك او يتغير الا فوجي - سان فهو ابداً باق ثابت لا يتحرك ولا يتغيّر.

موتسوموتو - سان التفت فجأة الى ساعة يده وتكلّم بحدة مع مساعديه، ثم انحنى بفتور وقال، من دون اعتذار: "يجب ان اذهب الان." فقلت له: "كنت سعيداً جداً برفقتك النبيلة." انحنى ثانية، فرددت التحية بسرعة ثم انصرف.

## جوهر فوجي - سان

سرت وحيداً ثانية فدرت الدائرة الكاملة حول الفوهة. الجو لا يزال بارداً والجليد يتكسّر تحت قدمي. اما القمة فقد كانت في فوضى: الصحف الممزقة تتطاير مع الريح، والعلب الفارغة تقعقع مهملة على الصخور الرملية، وعلى طول الطريق تتبعثر زجاجات الجعة الفارغة والاكياس البلاستيكية والملاعق الصينية. كهنة فوجي - سان ومستخدمو الفندق يحرقون نفاياتهم يوميا من دون انقطاع قبل غروب الشمس، والنفايات تتقد كنار مشعل في العصور الوسطى. لكن المتسلّقين يتركون وراءهم دائما كثيراً من الفضلات.

مشيت الى منطقة مكشوفة حارة مطمورة بالحجار المنثورة، واقعة بين الفوهة ومحيطها الخارجي، فكنت كذرة في قمة فسيحة موحشة. جلست القرفصاء وحدّقت الى تحت. انه لمشهد رائع فخم، ولكن مرعب. صحراء مقوّسة كبيرة ملأى حمما بنيّة وسوداء وحمراء صدئة، ومنحدر موحش مهلك مطمور بحجار بركانية رمادية. لا شجرة واحدة ذابلة، ولا ورقة واحدة من النبات. اليابانيون يسمون هذا المكان "الارض المحروقة." لا شيء باق الا حطام الانفجار البركاني الهائل منذ قرابة ٣٠٠ الف سنة، ذلك الانفجار القوي الذي محا اثار ثلاثة او اربعة براكين لا تزال تحت الارض.

على ارتفاع ٣ كيلومترات، في فلاة تمزقها الرياح، ضللت الطريق فتظللت ملجأ تحت صخرة كبيرة حيث شعرت فوراً بأن لي رفاقا. تفرست في الظلال حواليّ فوجدتني مراقبا من عشرات البوذيين النحيفي الاجسام المدسوسين في وجه الصخرة. انها اشارة متواضعة لتوسل فضل او نعمة. حضورهم المخيف جعلني افكر مليا بهذا الجبل السحري ووجوهه المتعددة.

سمعت من ورائي اصواتا ترنم تراتيل باهتة تترجع كالاصداء مع الريح، اصواتا غامضة خارقة. فوقفت وعدت ادراجي الى الفوهة. هناك داخل دائرة من صخور الحمم يجلس القرفصاء قرابة ستين يابانيا معظمهم من الرجال والعجّز. يركعون على حصى حادة وايديهم مشبوكة بعضها بالبعض الآخر، ينحنون انحناء بطيئاً رافعين رؤوسهم الى فوق ثم خافضينها الى تحت تكراراً بحيث تكاد جباههم تلامس الارض. بينهم شاهدت العميان الاربعة وهم لا يزالون موثوقين بعضهم بالبعض الآخر، وشاهدت كونفوشيوس ذا اللحية الكثة وزوجه الواهية.

يتجمعون، بعضهم على بعض، طلبا للدفء، جاثمين شاخصين بابصارهم الى الداخل، الى الفوّهة المنفغرة.

حين انضممت الى هذا الجمع الهادىء بدأت افكر في ان قيام هذا الشعب المتواضع بهذا الاحتفال البسيط يتضمن المغزى الحقيقي لاي صعود الى هذا الجبل. هؤلاء الناس، كغيرهم من المتسلّقين يتشاركون في الالتزام الازلي قلبيا وروحيا للاحترام والتنسك.

ان الصعود الى فوجي - سان، بالنسبة الى اليابانيين، هو اكثر من عمل رياضي، اكثر من تجربة الجسد الضعيف او قصاصه او التغلب عليه، اكثر من سباق تصاعدي هجومي شعبي كثيف، اكثر من تعبير عنيد عن قوة الارادة الجماعية. الصعود الى فوجي - سان هو كل هذه ولكنه قطعا اكثر منها كلها مجتمعة.

الصعود الى فوجي - سان هو في الحقيقة نوع من نهج. هو عمل يقوم به الناس، عمل يجب ان يقوموا به. الآباء يأخذون ابناءهم الى القمة. والاساتذة يقودون تلاميذهم. ورؤساء المؤسسات يجلبون اعضاء مجالس الامناء. انهم يكرمون النفس اليابانية: الروح اليابانية "ياماتو داماشيي،" طلوع الشمس، طلوع الامبراطور، طلوع الشمس الازلية. انها الروح التي توفد التجار اليابانيين لاستكشاف العالم، والتي تجعل التلاميذ

اليابانيين يحرقون زيت منتصف الليل، والمهندسين اليابانيين يكدون على مدار الساعة من اجل انجاز مشروع ما في الوقت المحدد.

الادمغة الالكترونية حلت محل سيوف "ساموراي"، لكن الجبل السحري يبقى اعظم مظهر دائم منظور للروح اليابانية، والصعود اليه يظل تعبيراً لا يضاهى عن ولاء المواطن الياباني وتكريس نفسه لوطنه. الصعود الجماعي يؤكد الانتماء المطلق الى المجتمعات القبلية.

بعد ساعات قليلة عدت الى مزار "الاميرة الشجرة المزهرة" الذي استعاد الآن هدوءه، ملتقطا انفاسي قبل عودتي نزولا. جلست على الدرج اتمتع بنظرة تأملية اخيرة من القمة الخلابة. رأيت التوأمين المنتميين الى عائلة سوزوكي اللذين لا يقهران والبالغين من العمر خمسة وسبعين عاما، وكنت قد التقيتهما وانا صاعد الى الجبل، فتوقفت وحييتهما. فقالا، وهما يربّتان ظهري: "حسنا، كلنا ناجح في المعركة، أليس كذلك؟" فأجبت: "بكل تأكيد". فقال احد التوأمين: "نحن مسرورون لمجيئك، شكراً لك. فوجي - سان هو رمزنا، كما ترى، ولذلك يجب ان نؤدي له الاحترام."

وقال الاخ الآخر: "فوجي - سان كان ايضاً رمزنا ايام الحرب السيئة ولكن كل شيء الان غدا منسيا، أليس كذلك؟" واضاف، والصدق باد في تعبيرهما: "ولكننا جميعنا صعدنا الآن معا الى فوجي، اليس كذلك؟ انها لفكرة طيبة."

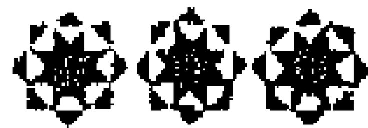
بعدئذ انحنينا بعضنا لبعض وتصافحنا وتعانقنا ثم تصافحنا ثانية وقلنا معا: "الى اللقاء السنة المقبلة." فعلنا وقلنا كل هذه الاشياء الودية الجيدة التي يتفوه بها الناس بعد تشاركهم في رحلة جريئة هي خبرة مثيرة للعواطف تستحق الذكر. ثم ذهب كل واحد منا في طريقه ونحن نلوّح مودعين "سايونارا مرة اخرى."

عدت في الطريق المنحدر اتعثر وحيداً على السجيل المتحرك، وبعد هنيهة مررت بالمحطة المتعبة المعرّقة الشديدة الانحدار حيث سمعت كلمة "غانباتي،" فاسرعت.

من المضحك القول: "الرجل الحكيم يصعد الى فوجي - سان مرة واحدة في حياته." وهناك قول قديم يحذر: "المجنون فقط يصعد مرتين" اما انا فسأعود ثانية يوما ما.

**كريستوفر لوكاس**

ترجمة السفير هنري أبو فاضل



# عدستان يقظتان

تكثر شكاوى الطلاب الجامعيين من الصفوف الباكرة في الثامنة صباحاً. وقد تعجبت لرؤيتي احدى طالباتي كل صباح وافرة التيقظ والنشاط. فسألتها مرة عن سر حيويتها الصباحية فأجابت: "الامر بسيط يا استاذ. اني أبقي عدستيَّ اللاصقتين في الثلاجة ليلا، وفي الصباح أضعهما في عيني قبل دخولي الصف."

ل.ب.

كتاب الشهر

# هَنْرِي فُورْد

## أسْطورَة على ٤ عجَلات

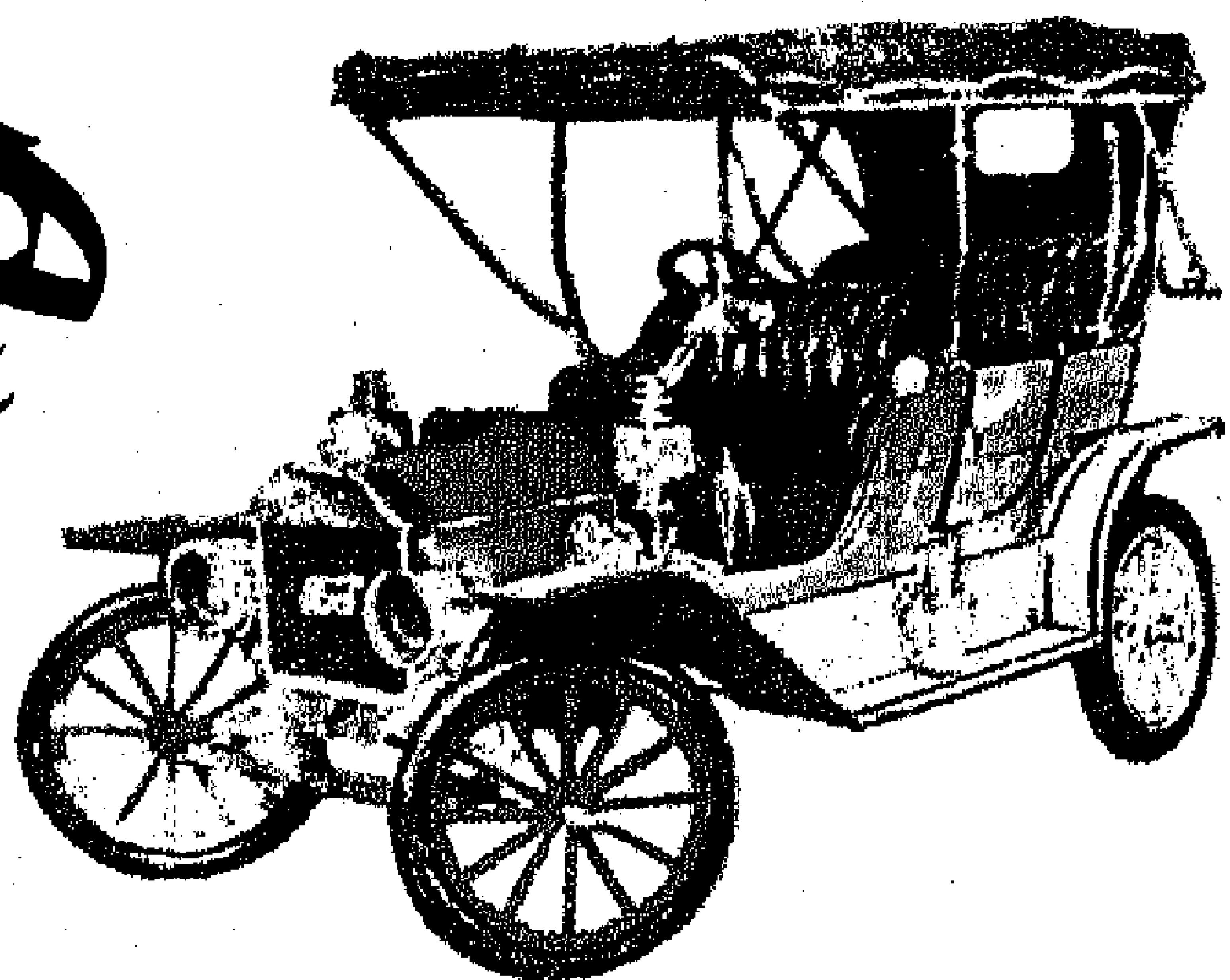


Illustration: Ed Acuna

# هنري فورد

**صنع هنري فورد أنجح السيارات الاولى، وكان رائد خط التجميع الحديث. وعُرف كمصمم ملهَم ومواطن أصيل وبطل شعبي أنتج "سيارة الشعب" التي وضعت العالم كله على عجلات. ولكن خلف هالة الاسطورة كمنت شخصية معقدة تصارع فيها الرجل الحالِم النبيل مع الشرس العنيد الغريب الاطوار.**

**في هذا الكتاب الرائع حول سيرة هنري فورد، يعرض روبرت لاسي الانجازات المذهلة والخيبات المحبطة في حياته، وخصوصاً اخفاقه الذريع كأب.**

**ان حكاية هذا الرجل العظيم والشركة التي أسسها والسلالة التي أرساها هي من أروع حكايات العصر**

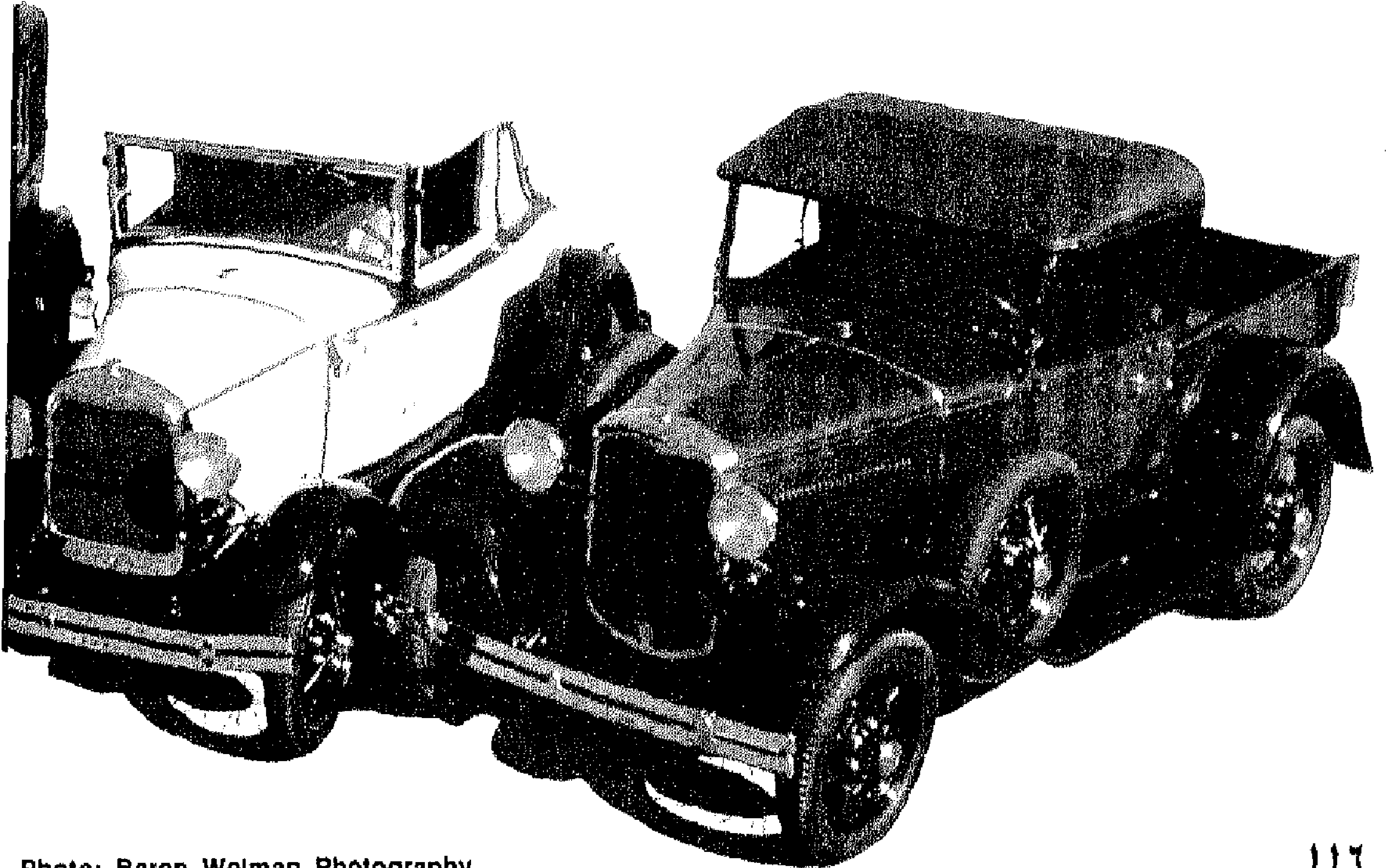
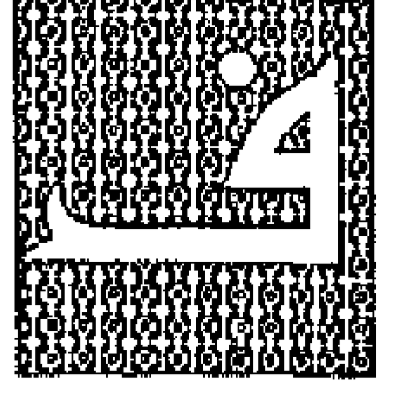


Photo: Baron Wolman Photography



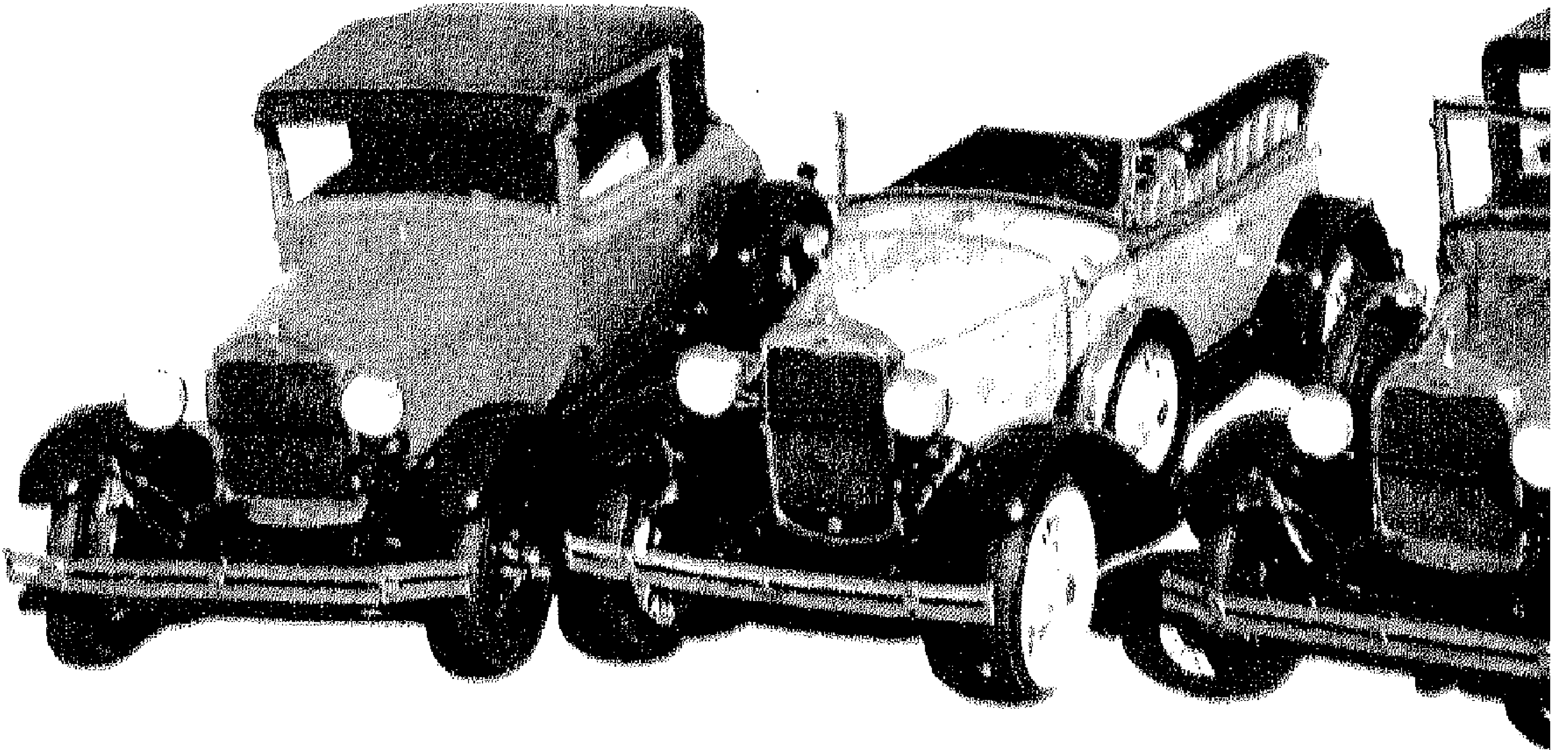
في الطـريق من المطار الى مدينة ديترويت بولاية ميشيغان تستوقف المرء لافتة عالية تبدو كعدّاد المسافات في سيارة. وفيما النظر معلق بها يهبط الرقم الاخير في الجانب الايمن ليحل محله الرقم الذي يليه. إنه عدّاد الكتروني ضخم لا يسجل الأميال المقطوعة بل عدد السيارات المنتجة في الولايات المتحدة، الذي يبلغ في سنة "جيدة" ٣٤ الف سيارة يومياً أي ثمانية ملايين سيارة سنوياً.

في جميع البلدان الصناعية مصانع للسيارات، إلا أنها متناثرة في أنحاء مختلفة. وليس من مكان آخر في العالم مثل ديترويت تجمّع فيه صانعو السيارات في مكان واحد مثل ذلك الموقع الرمادي الداخن. ولا من اسم بين جميع الاسماء يضاهي "فورد" سحراً.

الكلمة تطالع المرء حيثما توجه. فمن "مستشفى فورد" و"قاعة فورد" و"شارع فورد" الى الطريق العامة "ادسل فورد" التي يجتازها المرء آتياً من المطار والتي تخترق "بلاد" فورد، تلك الارض المسطّحة الخضراء في ميشيغان حيث ترعرع هنري فورد. وهو ولد في قرية ديربورن التي هي الآن الضاحية الغربية لديترويت. وعند انتهاء الطريق العامة على مشارف المدينة يقع المصنع الذي أنتج، وما زال، اكبر عدد من سيارات "فورد" واسمه مصنع "نهر روج لسيارات فورد" (١).

إنه لمنظر مهيب، مصنع فورد: كتلة ضخمة من المداخن والابراج وهكتارات من السطوح المتعرّجة والمسننة. عندما بناه هنري فورد العجوز كان أكبر مجمّع صناعي على وجه الأرض. وهنري فورد لم يكن كسواه من صانعي السيارات الذين اكتفوا

(١) The Ford Rouge River



عائلة الطراز "أ" التي أنتجت بين ١٩٢٧ و١٩٣١ ولقيت رواجاً شعبياً.

بجمع الاجزاء، بل أراد أن يعود الى الأرض ليستخرج منها المواد الخام التي يصنع منها سياراته. فاشترى لهذا الغرض مناجم فحم ومناجم حديد. وابتاع مساحة من البرازيل قرب أرض مقطوعة الشجر في محاذاة الامازون ليزرع فيها أشجار المطاط، وسمّاها "فوردلانديا." وملك تلالا بكاملها مكسوّة بأشجار الصنوبر. ولنقل كل ذلك الى ديربورن بنى أسطوله الخاص: "اسطول فورد."

المراكب التي بناها - هنري فورد الثاني وبنسون فورد ووليم كلاي فورد - ما زالت تعبر نهر روج محيية ذكرى أموات وأحياء من عائلة فورد. حتى أفران صهر المعادن تحمل أسماء أفراد من العائلة.

يحلو لأخيلة الناس أن تصوّر هنري فورد كصبي نشل نفسه من العدم. والحقيقة أن هذه الصورة تنطبق على والده وليم الذي وصل مع عائلته الى الولايات المتحدة في العام ١٨٤٧ بعد اجتياز المحيط الاطلسي هرباً من المجاعة التي ضربت ايرلندا. وكان آل فورد من الفقراء الذين استوطنوا ايرلندا الجنوبية. وفي الولايات المتحدة انضمت العائلة الى أقارب لها في ميشيغان، وما لبثت ان اشترت قطعة أرض. وعندما أبصر هنري النور كان صار لآل فورد شأن.

تزوج وليم فورد في ٢٥ ابريل (نيسان) ١٨٦١ ماري اوهرن ابنة أحد جيرانه بالتبني. ولم يكن هنري بلغ الثالثة عشرة من عمره عندما ولدت أمه طفلها الثامن. وبسبب مضاعفات صحية، توفي الطفل وتبعته أمه بعد ١٢ يوماً اي في ٢٩ مارس (آذار) ١٨٧٦.

قال هنري لاحقاً: "شعرت كأن إساءة كبيرة لحقت بي." فالبيت والعائلة أصبحا في نظره "كساعة من دون زنبرك." وهو ظل طوال عمره يبجّل ذكرى أمّه بحماسة بلغت حد العقدة.

وفي مقابلة أجريت مع صبي المزرعة الذي أصبح احد أغنى أغنياء العالم، لم يجد سوى تفسير بسيط لنجاحه الباهر. قال: "حاولت أن اعيش حياتي كما كانت والدتي لتتمنى." وعلى رغم ما أضفى عليه النجاح من قسوة فقد ظلّ ذكر أمه يرسم على ملامحه تعبيراً يقرب من الحنان.

## ●●● مفكك الهدايا ●●●

بعد وفاة والدته بأشهر قليلة كان هنري الصغير راكبا مع والده في عربة تجرّها الخيول عندما رأى قاطرة بخارية مدفوعة بطاقة ذاتية مقبلة نحوهما.

وبعد ٤٨ سنة قال: "ما زلت أذكر تلك القاطرة وكأنني رأيتها البارحة."

كانت تلك القاطرة التي لا تجرّها أحصنة، الاولى التي رآها هنري فورد في حياته. وهي كانت نسخة معدّلة عن المراجل العمودية التي كان المزارعون يستمدون منها الطاقة لآلاتهم الصغيرة. وفي وقت لاحق كتب فورد: "كنت شاهدت كثيراً من تلك المحركات محمولة على ظهور الخيل. لكن تلك العربة كانت مزوّدة سلسلة تصل المحرك بالعجلتين الخلفيتين للهيكل الذي حمل المرجل."

ولطالما اعتبر هنري فورد لقاءه تلك القاطرة موعداً مع القدر. والواقع أنه ليس من الصعب أن يتصور المرء لماذا

ترك لقاء تلك العربة المبتكرة القوية الضّاجة هذا الوقع في نفسه. فهو كان في ذلك الوقت يرزح تحت وطأة الصدمة التي أحدثتها وفاة والدته، يتلمّس طريقه الى منطلق جديد في الحياة.

سيرة هنري فورد في صباه تزخر بحكايات عن مواهبه الميكانيكية الفذّة. ومن الروايات المتداولة أنه منذ رأى داخل احدى الساعات، وهو بعد في السابعة، أصبح مصلح ساعات موهوباً. ولفرط ولعه بهذا العمل كان يقايض كرياته الزجاجية بدواليب ساعات. وتتذكر أخته مارغريت أن أشقاءه، عندما كانوا يتلقون هدايا ميكانيكية في الاعياد، كانوا يتفقون: "لا تدعوا هنري يأخذها، فهو سيفككها."

· في السبعينات من ذلك القرن لم يكن مستقبل الابن البكر لعائلة فورد خافياً على أحد من أفرادها. وقالت مارغريت: "كنا نعلم جميعاً أن هنري لا بد من أن يغادرنا الى ديترويت."

المدينة التي وطىء هنري أرضها في أول ديسمبر (كانون الاول) ١٨٧٩ كانت أقدم المستوطنات الرئيسية على شواطىء البحيرات الكبرى (٢). بقي فورد هناك حتى العام ١٨٨٢. فعمل اولا في متجر للآليات يملكه "جايمس فلاور وإخوانه" ثم في "دراي دوك" كبرى شركات بناء السفن في المدينة. وبعدما أنهى ما اعتبره تدريباً ميكانيكياً كافياً، عاد الى المزرعة وهو في السن التاسعة عشرة ليساعد والده في جمع الغلال. وبقي هناك حتى قارب الثلاثين من عمره.

القاطرة البخارية التي ألهمت الفتى كانت في الواقع آلة زراعية. وهو من اجل آلة زراعية أخرى تخلى موقتاً عن ديترويت. فالذي حصل ان أحد الجيران ابتاع من شركة "وستنغهاوس" محرّكاً زراعياً صغيراً يحمل باليد بغية استخدامه في حصد محصوله و"درسه" ولتأجيره من ثم في الجوار. لكن عطلا طرأ على المحرّك بسبب قلّة مهارة العامل الذي شغّله.

واستدعي هنري لمساعدة جاره. وهو قال لاحقاً: "أظن انه كان خائفاً من الآلة. والحقيقة انني خفت منها انا أيضاً." لكن التدريب الذي تلقاه في ديترويت لم يذهب سدى. فأكبّ على الآلة وراح يتفحصها. ويتذكر ذلك اليوم: "بدأت أعمل على المحرّك الصغير. وعندما ملكت زمامه، ملكت زمام نفسي كذلك."

## ●●● أوتو· الصامت ●●●

بعد عمل يوم بطوله على المحرك شعر هنري بأنه تعلّم الكثير عن شركة "وستنغهاوس." وكان ذلك اليوم في حياته بداية صيف جميل أمضاه وهو يسوق المحرّك من مكان الى آخر في ديربورن. ومع انقضاء الصيف انضمّ هنري الى شركة "وستنغهاوس." وكان عمله يقتضي تنقلا في الريف الجنوبي لولاية ميشيغان من اجل تشغيل آلات الشركة وصيانتها.

في أول يناير (كانون الثاني) ١٨٨٥ قصد آل فورد نزلا ريفياً في غرينفيلد بالقرب من ديربورن للاحتفال بالسنة الجديدة. وهناك أعجب هنري بصبية ناعمة تزخر حيوية ذات عينين سوداوين

---

(٢) البحيرات الكبرى هي سوبيريور وميشيغان وهورون واري وأونتاريو، وهي تفصل بين الولايات المتحدة وكندا.

وشعر كستنائي تدعى كلارا جين برايننت.

عن هذا اللقاء قال هنري في مقابلة أجريت معه عام ١٩٢٣: "علمت خلال نصف ساعة أنني وجدت ضالتي."

وفي ١١ ابريل (نيسان) ١٨٨٨ تزوجا، وكان ذلك اليوم العيد الثاني والعشرين لمولد كلارا. وهما أمضيا شهر العسل في المزرعة الصغيرة التي عاش فيها هنري في السنتين السابقتين: ١٦ هكتاراً من الاحراج كان والده اشتراها في الستينات من ذلك القرن ولم يتسنّ له أن يقطع أشجارها. وأتيح لهنري أن يقطع الاخشاب بآلاته البخارية.

اهتم هنري فورد بالارض وزرع ما يكفيه وكلارا إلا أن غرامه الحقيقي انصبّ على الآلات. وهو أمضى صيفين متتاليين ... لا على تجميع الآلات الزراعية واصلاحها لشركة "باكي للحصاد." ودعي الى ديترويت مراراً. وفي إحدى الرحلات تسنى له أن يشاهد عن كثب المحرك الذي اخترعه الالماني نيكولاوس أوغست اوتو ولقي اقبالا واسعاً واستأثر باهتمام الجميع في عالم الآلات. "أوتو الصامت" ذاك لم يكن يعمل على البخار، بل كان أحد المحركات الجديدة ذات الاحتراق الداخلي التي تعمل بالنفط.

لدى عودة هنري الى البيت حاول أن يشرح الامر لزوجته مستعيناً برسوم. وهو شعر في قرارته بأن بعض التعديلات كفيلة بتثبيت مثل ذلك المحرك على دواليب بحيث يندفع من تلقائه على نحو شبيه بذلك المرجل الذي كان رآه وهو في السن الثالثة عشرة.

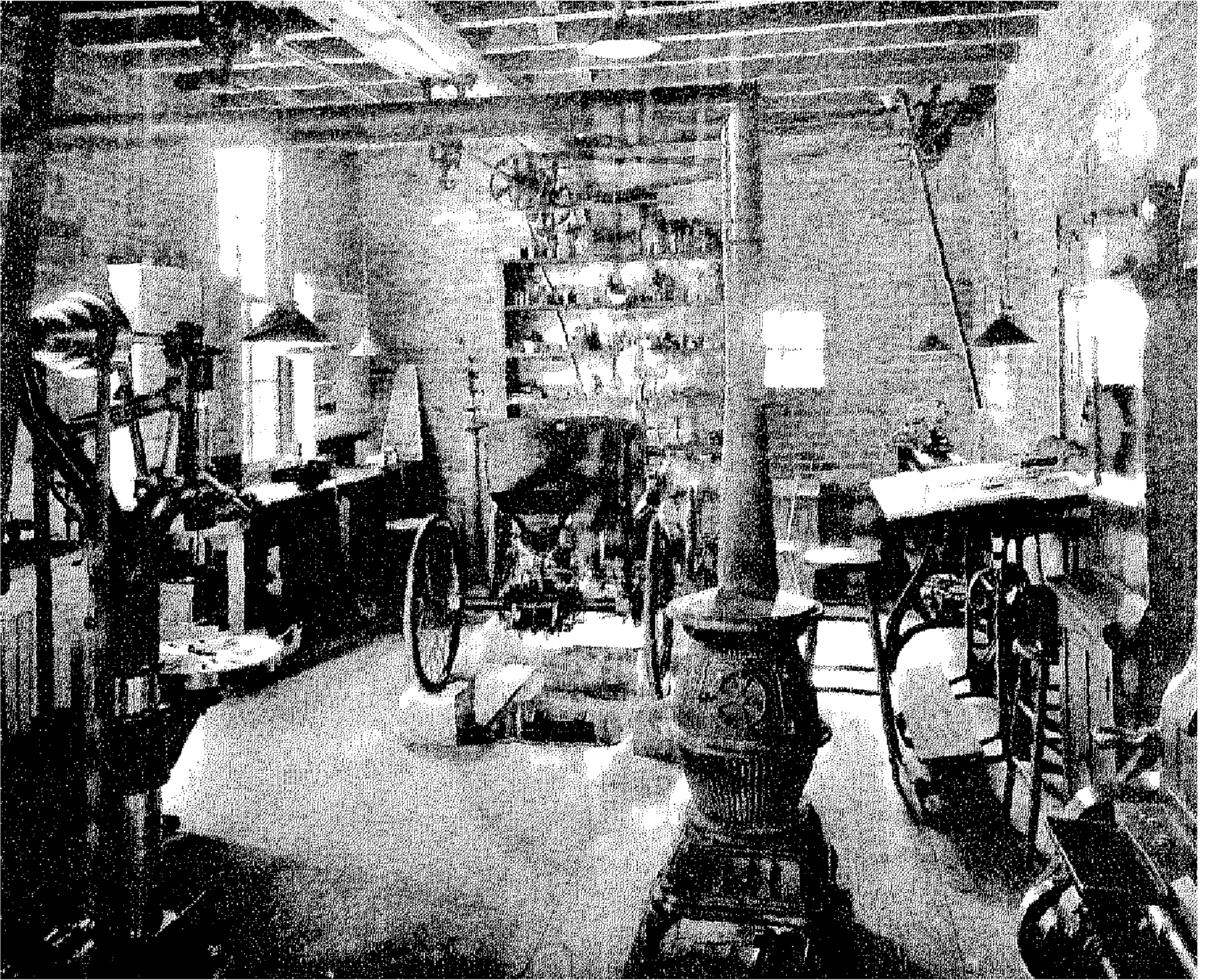
على أن المحركات ذات الاحتراق الداخلي تعتمد على الكهرباء في تشغيلها. ولم يكن هنري يعرف الكثير عن هذا الموضوع. فراح يستكشف فرص العمل في ديترويت. ثم تلقى عرضاً من شركة "اديسون" للانارة وغدا في وسع الزوجين - اذا وافقت كلارا - أن ينتقلا الى ديترويت للحال.

أقرّت كلارا بأن فكرة الاقتلاع من الجذور أرهبتها وكادت أن تحطمّ قلبها. إلا أن هنري لم يجد سبباً لبقائهما في الريف، "حيث قطعت جميع الاشجار" على حدّ قوله.

## ●●● برميل نقود ●●●

بالامس كان هناك بل والهاتف، اديسون والمصباح الكهربائي، الاخوان رايت والطائرة. واليوم ها هو هنري فورد وسيارته جديران بالتكريس بين عظماء المخترعين الابطال. غير أن هنري فورد لم يكن مخترعاً مثل بل واديسون والاخوين رايت الذين اخترعوا هم شخصياً الآلات التي شهرتهم. أما انجاز فورد فكان مبنيّاً على عمل سواه.

عندما انتقل هنري وكلارا في العام ١٨٩١ الى ديترويت، كانت في فرنسا مصانع تنتج السيارات. أما شرف انتاج السيارة الاولى فيتقاسمه الالمانيان غوتليب ديملر وكارل بنز اللذان صنعاها بين العامين ١٨٨٥ و١٨٨٦. أما في الولايات المتحدة فيعود شرف انتاج السيارة الاولى الى الاخوين فرانك وتشارلز دوريا اللذين حق لهما ان يفخرا بأول عرض لسيارة تشغّل بالغازولين



نسخة في قرية غرينفيلد للكوخ القرميدي في جادة باغلي حيث صنع فورد سيارته الاولى.

(البنزين) وكان ذلك في العام ١٨٩٣.

هنري فورد رجل هجر مزرعته في العام ١٨٩١ بحلم استحوذ على تفكيره وهو ابتكار عربة لا تجرّها خيول. وهذه الصورة لا تتفق مع شهادته الشخصية ولا مع السنوات الاربع الاولى التي أمضاها في أعمال متفرّقة.

ومما قاله في العام ١٩٢٢: "في البدء لم تبد لي فكرة العربة التي لا تجرّها خيول عمليّة كفكرة المحرّك الذي يؤدي الاعمال الصعبة في المزرعة. ان رفع الاعمال الشاقة عن كاهل المزارع وايكالها الى الحديد والآلات، كانا طموحي الدائم."

اتخذ فورد مكاناً خالياً في شركة "اديسون" للانارة وحوّله ورشة خاصة. وكان كلّما تسنّى له بعض الوقت يختلي في غرفته الصغيرة تلك، يعبث بقطع من المعدن وبأسلاك كهربائية.

ربما كان يناير (كانون الثاني) ١٨٩٦ نقطة الانطلاق لانتاج أولى سيارات فورد. ففي وقت سابق زار هنري فورد مكتب صديق له يدعى تشارلز كنغ، وكان أحد المتحمسين لفكرة العربة من دون خيول، حيث وقع على مقال صحافي يشرح طريقة بناء محرّك بسيط يشغل بالغازولين، باستخدام أدوات ونفايات منزلية. بعد ذلك بوقت قصير علّق على المقال أمام



Photo: Courtesy Ford News Bureau

جورج كاتو وهو تقني كهربائي عمل معه في شركة "اديسون": "ان مشروعاً كهذا قد يدرّ برميلا من النقود."

### ●●● مهووسو الميكانيك ●●●

كان كاتو أحد الميكانيكيين الموهوبين في الشركة الذين عملوا مع فورد على المحركات وأنظمة الاشعال التي كان يتسلّى بها في ورشته الخاصة. وكان هناك "مهووسان" آخران هما جايمس بيشوب وإدوارد هاف.

وعندما حان الوقت جدّياً لبناء سيّارة نقلوا نشاطهم الى سقيفة صغيرة خلف منزل فورد، سطحها من الآجر وفيها نوافذ صغيرة وباب ضيّق وفسحة في الوسط تكاد لا تتسع للسيارة التي عزم هنري على صنعها بنفسه.

لبناء قلب المحرك، استعملوا أنبوباً أخذوه من محرّك بخاري قديم ووسعوا داخله وقطعوه نصفين طول كل منهما ٢٨ سنتيمتراً. وهكذا حصلوا على اسطوانتين. ووضعوا خزان الوقود فوق المحرك مباشرة لكي يجعلوا الغازولين يتدفق الى المحرّك بفعل الجاذبية. وأوصلوا الطاقة الى الدواليب بواسطة سلسلة معدنية بلغ طولها ثلاثة امتار.

صُمّمت سيارة هنري فورد على أساس أن تبلغ سرعتها القصوى ٣٢ كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة كبيرة بالنسبة الى المقاييس السائدة آنذاك. أما سرّ سرعتها فكان وزنها الذي لم يتجاوز الـ٢٣٠ كيلوغراماً بحيث أن رجلا بمفرده كان قادراً على رفعها بسهولة وهي خالية من المحرّك.

بدا واضحاً لفورد أن السيارات الاولى كانت هشّة والاستغناء عن كيلوغرام واحد أو اثنين من الوزن ربّما خفّف الضغط عليها وجعلها أسرع واقتصادية اكثر وأقلّ تعرضاً للعطل.

سرعة، ثقة، وسعر متدنّ. تلك كانت المبادىء التي أراد هنري فورد اعتمادها في انتاج السيارة.

سمّى فورد سيارته الدراجة ذات العجلات الاربع(٣). كانت دواليبها رفيعة كدواليب دراجة هوائية وهيكلها صغيراً يكاد لا يرى. وهو أخفى داخليتها في اطار خشبي ووضع في المقدّم لوحاً تجميلياً من الخشب. ومع ذلك ظلّ منظر السيارة كمنظر عربة أطفال.

في ساعات الفجر الاولى يوم ٤ يونيو (حزيران) ١٨٩٦ انتهى العمل على السيارة. كانت كلارا هناك، وهي التي لازمت زوجها أثناء العمل. وكان أيضاً جيم بيشوب الذي تقرر أن يرافق هنري فورد على دراجة هوائية. وفيما الاثنان يستعدان لدفع السيارة الى الشارع أدرك فورد أنه اقترف غلطة سخيفة. فباب السقيفة الضيّق لم يكن يسمح بمرور السيارة. فاحضر فأساً وانهال على الباب. وهدم صفوفاً عدة من الآجر قبل أن تصبح السيارة طليقة. وعندما أدار دولاب الموازنة(٤) لفظ المحرّك أصواتاً مفرقعة قبل أن تدب "الحياة" في السيارة.

لقيادة سفينته الصغيرة كان هنري فورد ابتكر ذراعاً تحمل في طرفها زراً متصلا بما سمّاه "بوقاً". ولم يكن هذا

(٣) Quadricycle
(٤) Flywheel

سوى جرس باب ثبّته في المقدّم.

الساعة الثانية بعد الظهر وصلت الرحلة التاريخية الى نهاية محرجة عندما تعطّلت السيارة فجأة أمام فندق "كاديلاك" وتجمّع حولها جمهور من الشامتين راحوا يهزأون بفورد وبصاحبه بيشوب. إلا أنهما أجريا بعض الاصلاحات على السيارة فعادت اليها الحياة ورجعا بها الى المنزل لينالا قسطاً من الراحة.

وبعد فترة قصيرة قاد هنري فورد السيارة مسافة ١٣ كيلومتراً الى ديربورن حيث زار أخته مارغريت.

## ●●● سباق العصر ●●●

في العام ١٨٩٨ حصل فورد على دعم



Courtesy Ford Motor Co.

صورة نادرة لهنري فورد ذي الشاربين وهو يقود "الدراجة" ذات الدواليب الاربعة في العام ١٨٩٦.

مالي أولي لخليفة دراجة الدواليب الاربعة. فالمركبة الاولى التي طوّرها بدت كسيارة حقيقية: مقعد خلفي مبطّن، مصابيح من نحاس، رفاريف جذّابة. كانت جديرة بأن تقارن بأي عربة أخرى لا تجرّها الخيول في ذلك العصر. وفي العام التالي أعلنت شركة "ديترويت للسيارات" انتاجها. وكان هنري فورد المدير الفني في الشركة وهي كانت أولى شركات انتاج السيارات في ديترويت، وقد أنتجت في العام ١٩٠٠ بضع عشرة سيارة قبل أن تقع في عجز في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ذاته.

عجز الشركة لم يثبط عزيمة وليم مورفي، أحد الممولين، فظل متحمساً للمشروع الجديد الذي كان فورد يعمل على إخراجه الى النور، وهو مشروع سيارة سباق.

لاثبات جدارة سياراتهم، درج جميع صانعي السيارات الأول على اقامة سباقات. وفي سبتمبر (أيلول) من العام ١٩٠٠ فاز الكسندر ونتون على عدد من المنافسين الاقوياء في سباق الـ٨٠ كيلومتراً في شيكاغو. وهو منتج سيارات من كليفلاند ذاع صيته بعد اشتراكه في عدد من السباقات. وفوزه الاخير جعله أبرز منتجي السيارات في الولايات المتحدة. وعندما عُرف أن ونتون سيأتي باحدى سياراته الى ديترويت ليتبارى بها ضد جميع المشتركين، لم يعد أمام هنري فورد مفر من قبول التحدّي.

جرى السباق في ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠١ على طريق جديدة تمر

بالقرب من منتجع غروس بوينت على شاطىء البحيرة شرق ديترويت. ولاسابيع لم يكن لأهل ديترويت حديث سوى موضوع السباق الذي تجمّع ٨٠٠٠ متفرّج لمشاهدته. ثلاثة متبارين فقط وصلوا الى نقطة الانطلاق، وكانت اسطوانة احدى السيارات راشحة فلم يتمكّن صاحبها من الاشتراك مما جعل عدد المتبارين ينخفض الى اثنين هما: الوجه الابرز في دنيا انتاج السيارات ألكسندر ونتون وفتى ديربورن المنتج الخائب هنري فورد. خفض المشرفون على المباراة المسافة من ٤٠ كيلومتراً الى ١٦ إذ بدا واضحاً أن السباق سيقتصر على سيارة واحدة، ولن تكون مشاهدة ونتون يقود سيارته ١٤ دورة ذلك الحدث المشوّق.

أصبح ونتون للحال في المقدم. ومع أنه ساد شعور بأنه ربما كان لسيارة فورد السرعة التي تسمح بتجاوز السيارة المنافسة، فقد بدا واضحاً أن هنري فورد كانت تعوزه الخبرة، فتركيزه انصب على الناحية الميكانيكية وليس على القيادة، وهو كان يخسر في كل دورة.

بالقرب منه على موطىء السيارة قبع هاف ممسكاً مقابض خاصة. وكانت مهمته تنحصر في حفظ توازن العربة. وعند كل منعطف كان يمدّد جسده ويخفضه برشاقة محاولا أن يبقي السيارة ضمن المنحنى. ولكن بعد ثلاث دورات كان ونتون يتقدم بأكثر من ٣٠٠ متر. وبدا أن السباق أتى الى نهايته.

بعد ذلك اخذ هنري فورد يقترب من منافسه، فلقد توصّل مع هاف الى ايقاع متناغم فعّال على المنعطفات. وفي الدورة السادسة تمكنا من تضييق المسافة بين السيارتين الى حد ملحوظ، وبدأ البطل يفقد السيطرة.

في وصف مجريات ذلك النهار كتبت صحيفة "ديترويت تريبيون": "خيط رفيع من الدخان الازرق ظهر في مؤخر السيارة ما لبث أن تحوّل غيمة." وعبثاً حاول مرافق ونتون أن يجري بعض التصليحات على السيارة وأن يسكب زيتاً في محركها.

الا أن ذلك لم يجدِ. وفي الدورة السابعة انطلق هنري فورد الى المقدم حيث بقي الى نهاية السباق. ومع كل دورة ازدادت المسافة الفاصلة بينه وبين ونتون.

كانت كلارا فورد بين المتفرجين الذين أخذتهم الحماسة. وفي رسالة الى أخيها كتبت: "ليتك كنت هنا لتشاهده. فالناس كانوا مأخوذين. أحد الرجال قذف بقبعته في الهواء، وعندما وقعت على الارض داسها بقدميه من دون أن يكترث. فلقد كان شديد الحماسة."

## ربيع الاربعين ••

كان فوزاً ساحقاً وعن جدارة. اليوم ربما شعر السائق برضا أقل اذا فاز في سباق بسبب عطل ميكانيكي في سيارة منافسه. ولكن في ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠١، فان ذلك الدخان الأزرق الذي انبعث من سيارة ونتون ومقدرة سيارة

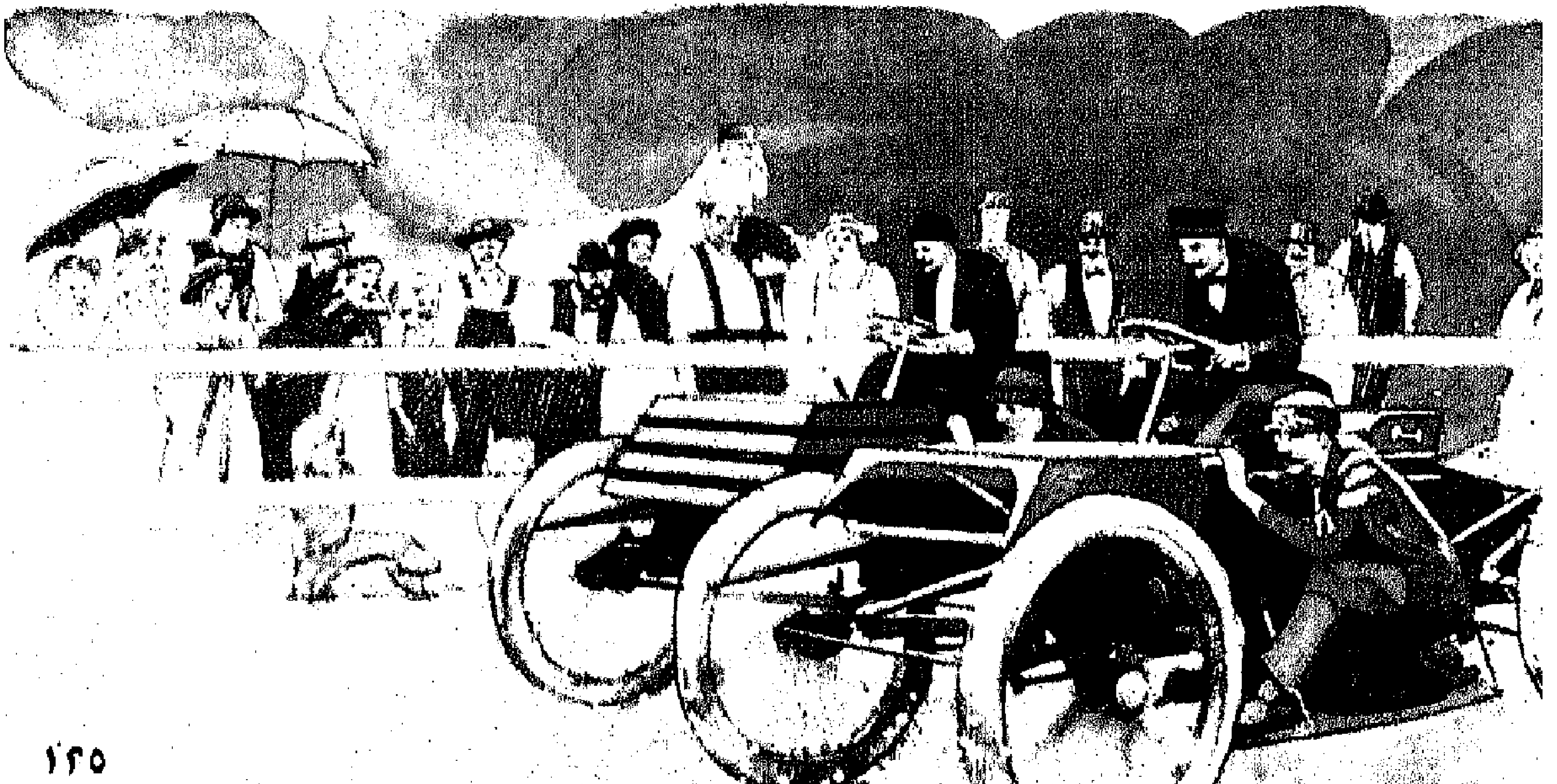
سيارة فورد على الاستمرار والصمود، انعكسا مباشرة على مدى تصدي كل منهما للمشكلة الأهم في نظر المتسابقين في ذلك الوقت، الا وهي الثقة بالناحية الميكانيكية.

بين المتفرجين ذلك اليوم الخريفي كانت مجموعة من الرجال قرروا أن يعيدوا النظر في قضيّة هنري فورد. وسرعان ما حصل على دعم جديد لانشاء شركة ثانية.

لكن انتاج أعداد كبيرة من السيارات يحتاج الى أنواع من المهارات تختلف عن تلك المطلوبة لانتاج نموذج منفرد. إلا أن فورد المدفوع بحبّ الاعمال التجريبية لم يستطع كبح جماح هوايته مجازفاً بأموال داعميه. وبعد مضي أربعة اشهر فُصل.

الاخفاق المزدوج لم يقلق هنري فورد. وشهد العام ١٩٠٣ ولادة شركة ثالثة إذ كان فورد يعمل على انتاج سيارة جديدة أثبتت متانتها لاحقاً. وهي عُرفت في ما بعد بإسم الطراز "أ" من "شركة فورد للسيارات." وبالمقارنة مع مشاريعه السابقة كانت تلك المحاولة دقيقة ويعوزها التمويل. وخلال أسابيع قليلة أعلن أفلاسها. ولكن في ١٣ يوليو (تموز) اشترى طبيب أسنان من شيكاغو اول سيارة من الطراز "أ". وكان ذلك بداية سيل جارف من المبيعات.

مع نهاية شهر مارس (آذار) ١٩٠٤ كانت شركة فورد باعت ٦٥٨ سيارة بسعر أساسي أولي بلغ ٧٥٠ دولاراً للواحدة. وبلغت حصة هنري فورد ٢٥ ألف دولار، وهو الذي لم يساهم بقرش واحد. ومع ذلك شعر بتعاسة في نهاية السنة الثانية، فشريكه الرئيسي أراد أن يصنع سيارات أغلى ثمناً. فالأثرياء هم السوق الاستهلاكية التقليدية لتحقيق أرباح مرتفعة. لكن فورد بحسّه المرهف أدرك أن هناك سوقاً اخرى أغنى وأكبر بكثير. فتدبّر أمره واشترى حصة شريكه في الشركة. ومع أن بعض حملة الاسهم بقوا معه فانه احكم سيطرته المطلقة على الشركة.



بعدما أتمّ هنري فورد هذه الصفقة في أحد أيام يوليو (تموز) طلب من أحد العمال الميكانيكيين ان يقود سيارته الى المنزل. وفي الطريق تخلّى عن تحفظه قائلا: "إنه ليوم عظيم هذا. سنوسّع الشركة وسنرى كيف ستنمو بسرعة وتقفز من نجاح الى آخر. والفكرة الكبرى في رأسي هي ايصال السيارة الى الجمهور."

كان في وسع هنري فورد وهو في الثانية والاربعين من عمره أن يختار الطريق الاسلم، لكنّه اختار خطاً غير عادي. فالربيع لا يزور معظم الرجال وهم في الاربعين، لكنه خالف القاعدة في حال هنري فورد. وهو كان على عتبة مرحلة يُسر في حياته وحالفه النجاح في كل خطوة خطاها.

## ●●● الطراز "ت" ●●●

تعرّف تشارلز سورنسن الى فورد في العام ١٩٠١ وعمل لديه في ما بعد. وهو أرجع تاريخ الهامه بناء سيارة "ت" الى أيام تجارب هنري فورد على "الفناديوم" وأنواع اخرى من الفولاذ المعالج بواسطة الحرارة. فتلك التجارب أوحت اليه أن في الامكان صنع سيارة أمتن وأخف وزناً واشدّ سرعة من أي سيارة أخرى صُنعت من قبل. وهو كان استخدم ذلك الخليط الجديد في صنع سيارة لفورد عرفت بالطراز "ن". لكنه كان عازما على استخدامه مجدداً على نحو أكثر طموحاً وبطريقة جديدة. وكان العمل جارياً لبلورة تلك الطريقة وراء ابواب موصدة في شركة فورد.

ومع أن المحرك ذا الاسطوانات الاربع في الطراز "ن" شكّل ابتكاراً مهماً للسيارة الاقتصادية، إلا أنه لم يكن بسيطاً. فقالب المحرك تألف من وحدتين، في كل منهما اسطوانتان، ثم أثبت الى علبة المرافق (٥). أما في الطراز "ت" فكانت فكرة فورد تقضي بجمع الطاقة في قالب واحد يضم الاسطوانات الاربع. وبعدما عمل سورنسن على معالجة الصعوبات العملية قدم فورد اقتراحاً آخر يقضي بقطع القالب من أعلى. وهكذا ولدت الصورة الاساسية للمحرّك الحديث ذي الاحتراق الداخلي: قالب واحد للاسطوانات وفوقه رأس اسطوانة منفصل ومثبت برتاج.

أراد هنري فورد جهازاً متيناً ومرناً لتعشيق التروس(٦). وعلى هذا الاساس صمّم جوزف غالامب، وهو مهندس موهوب، جهاز التعشيق "الكوكبي" الخفيف الوزن والطويل العمر. وكان نموذجاً بدائياً لمعشق التروس الاوتوماتيكي الذي تشغله ثلاث دواسات للقدمين: كابح، ودواسة تسيّر العربة الى الامام، وأخرى الى الوراء. والتنسيق بينها كان يقتضي اكتساب مهارة تتيح تحقيق عدد كبير من الأعمال البارعة مثل إخراج السيارة من حفرة في الطريق بالانتقال فجأة من الاندفاع اماماً الى التراجع خلفاً.

على مدى سنة كاملة كدّ هنري فورد مع معاونيه ليلا ونهاراً. وتذكر غالامب وسورنسن أن فورد كان محيطاً بكل التفاصيل: الكهرباء ونظام التحويل

(٥) Crankcase أو الكرنك.

(٦) Gears

وصندوق الاسطوانات واستخدام الفناديوم بكثرة. ولم يغب عن باله مرّة واحدة الهدف النهائي وهو: سيارة تجمع البساطة والذوق الرفيع.

عندما أنزلت السيارة الى السوق في العام ١٩٠٨ انهالت الطلبات على الشركة. وفي السنة التالية بيع أكثر من ١٠ آلاف منها بلغ ثمنها تسعة ملايين دولار.

والحقيقة ان فورد أنتج سيارة اثبتت انها اكثر من مجرّد وسيلة للانتقال. فهي زودت العالم نمطاً جديداً من الحياة.

ثبت في النهاية أن الطراز "ت" تطابق حقاً مع حاجات الشعب المتململ الذي كان يحاول أن يملأ قارة بكاملها. وافتتن بها المزارعون وأقبلوا على شرائها بأعداد كبيرة. والنوابض (الرفاصات) التي حملت الجزء الأعلى من العربة على محوري العجلات كانت مرنة بحيث تلاءمت تماماً مع طرق ذلك العصر الموحلة والملأى بالحجار والاخاديد.

عقب الحرب العالمية الاولى وصلت سيطرة فورد على سوق السيارات الى حدّ أن نصف السيارات في العالم كانت من الطراز "ت".

وحوّلت سيارة فورد ما كان ألعوبة في أيدي الاثرياء وحدهم حقاً مشروعاً للجمهور. وبدأت أغرب قصّة حب بين الانسان وسيارته.

## ●●● الباليه الآلي ●●●

كبقية السيارات المنتجة في أوائل هذا القرن كانت سيارات هنري فورد الاولى تجمع على مراحل منتظمة منطقيّة تتوخى الاقتصاد. وهي الطريقة نفسها التي كانت متّبعة في انتاج الآلات في الثمانينات والتسعينات من القرن الـ١٩: سلسلة من الأعمال المتعاقبة المنتظمة ذات فاعلية في توفير المال والوقت.

بعض المجدّدين امثال اسحق سنجر وسايروس هول ماكورميك وساموبل كولت كانوا ينتجون السلع بالجملة وفق نظام انتاج وُصف بـ"خط العمليات." فإنتاج ماكينة الخياطة مثلا أو الحاصدة او السلاح الناري، كان يقتضي تجميع الماكينات والعمال بحيث تنجز في كل مرحلة عملية خاصة على سلعة ناقصة، وهكذا، الى أن يتم صنع السلعة على النحو المطلوب. وبالنسبة الى السيارات، كانت فرق العمل تتولى أولا صنع المحرّك في مهود ثابتة داخل مشاغل خاصة، وعند الانتهاء كان المحرك ينقل الى مشغل آخر حيث يتجمّع العمال حوله فيعملون على تثبيت محاور الدواليب. وبعد ذلك يُنقل الهيكل المعدني مجدداً الى مشغل ثالث تتّم فيه عمليّة التنجيد، وهكذا. وكان خط العمليات ينطوي على خطوات متدرجة ومحسوبة، لكنه لم يشهد تدفقاً مستمراً للسيارات.

من أجل انتاج "سيارة الشعب" التي حلم بها هنري فورد فانه لم يكتفِ بأن يكون مصنعه الأكبر في العالم، بل أراده الأفضل. فاختار له موقعاً جديداً: هايلند بارك، ٣٤ هكتاراً من الأرض في ضواحي ديترويت. وأثبتت الايام لاحقاً ان فورد ومهندسه المعماري ألبرت كاهن كانا شقيقين بالروح، وانتج عملهما معاً بناء فريداً مهوّاً يدخله نور الشمس من نوافذ

بلغت مساحتها ٤٦٥٠ متراً مربعاً فينير أرضه الفسيحة.

لكن الوقت لم يطل قبل أن تجد الشركة نفسها عاجزة عن تلبية جميع الطلبات التي تضاعف عددها خلال سنة من بدء الانتاج في المصنع عام ١٩١٠. وتعيّن البحث في سبل تعجيل الانتاج.

وهكذا ولد أول نظام تجميع متحرّك في العالم. كان ذلك في ربيع ١٩١٣ في دائرة المغنيط(٧). وقبل ذلك التاريخ كان عامل التجميع في تلك الدائرة يعمل على طاولة وحوله عدّته الكاملة من قطع المغناطيس ومسامير الربط والملازم. وكان بعد تسع ساعات عملاً يومياً يجمع نحو ٤٠ جهاز مغنيط. أما في النظام الجديد فلقد أوكل الى كل عامل تجميع عمل او اثنين فقط من الاعمال المطلوبة. فكان أحدهم يثبّت قطعة مغناطيس أو عزقة، مثلاً، ثم تمرر المجموعة كلها الى جاره. وكان انجاز جهاز مغنيط واحد يتطلب ٢٠ دقيقة في النظام القديم، وهذا الوقت انخفض في النظام الحديث الى ١٣ دقيقة و١٠ ثوان. وبعدما أبدل الرّف الذي كان على مستوى الخصر بحزام مرتفع مجهز بمحرك حدّد السرعة المطلوبة، انخفض الوقت مجدداً الى خمس دقائق فقط.

بالنسبة الى المحرّك، كان فورد ابتكر نظاماً متعاقباً يؤمن تدفقاً مستمراً للقطع. أما في النظام الحديث فوضع على حزام ميكانيكي. وهكذا فعل بالمحول أيضاً. اما الهيكل فكان يمر في نظام تجميع أخير خفض الوقت المطلوب لانجازه من ١٢ ساعة ونصف الى ٩٣ دقيقة.

خلال اشهر قليلة تحوّلت هايلند بارك شبه باليه آلي كبير يضجّ بحركة لا تهدأ. وفي وصفها قال فورد بفرح عارم: كل قطعة في الشركة تتحرك. لندع الحزام الآلي يتولى السير عنا. وإذا اختصرنا عشر خطوات يومياً لكل من العمال الاثني عشر ألفاً فمعنى ذلك توفير ٨٠ كيلومتراً من الحركة المهدرة."

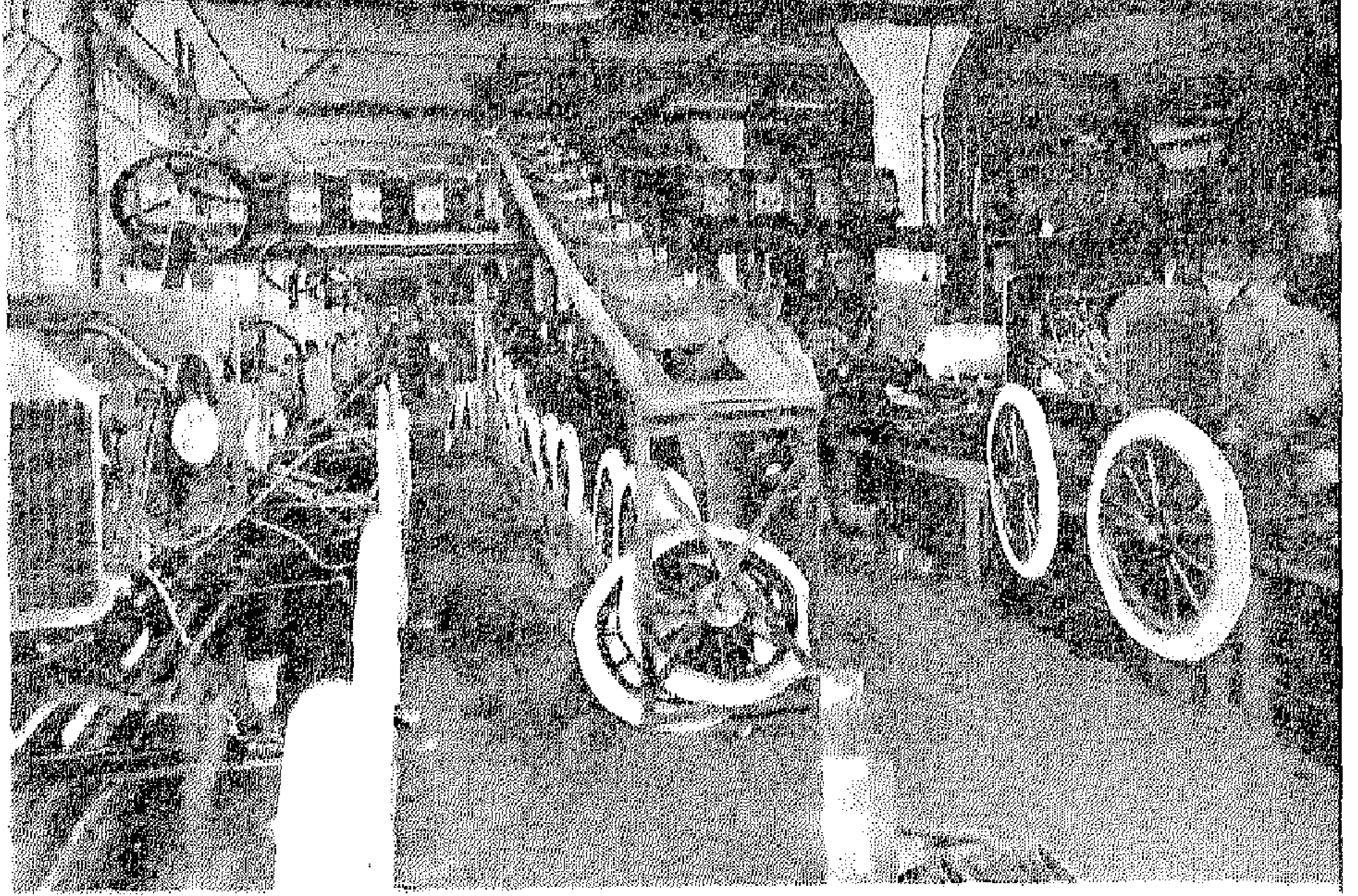
أنتجت الشركة ٧٨٤٤٠ سيّارة من الطراز "ت" بين العامين ١٩١١ و١٩١٢ بواسطة ٦٨٦٧ عاملا. وعندما تضاعف الانتاج في السنة التالية تضاعف معه عدد العمّال. لكن تضاعف الانتاج في ١٩١٣ - ١٩١٤ لم ترافقه زيادة في عدد العمال. ففي الحملة التي شنّها فورد لانتاج "سيارة الشعب"، عثر على مفتاح عملاق افضى به الى عالم سحري جديد.

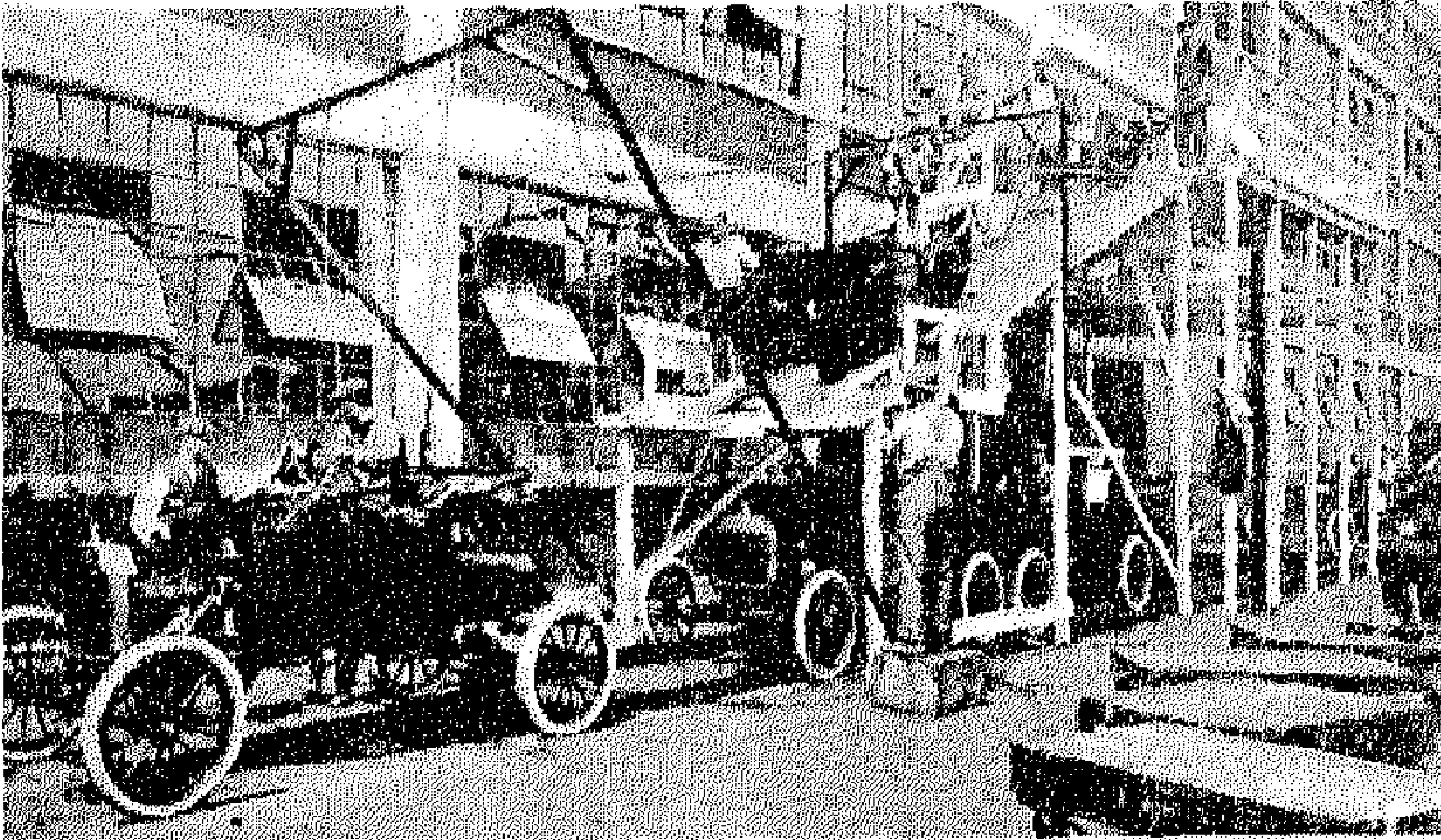
## ●●● فلسفة جديدة ●●●

في يوليو (تموز) ١٩١٣ احتفل هنري فورد بعيد مولده الخمسين. وحدَته هذه المناسبة على مراجعة انجازاته وتقويم اولوياته. وهو كان أمضى ذلك الصيف يعمل على استنباط طرق لتطوير نظام التجميع. ووسط ذلك كلّه تسنى له ان ينعم بعطلة كان لها في ما بعد معنى كبير في حياته.

أتت فرصة العمر عندما أقام فورد صداقة غير عادية مع جون باروز المؤلف والشاعر وتلميذ الاديبين الامريكيين الشهيرين هنري ديفيد ثورو ورالف والدو إمرسون. كان باروز في السادسة

(٧) المغنيط (magneto) جهاز كهربائي لاحداث الشرر في محرك داخلي الاحتراق.





(فوق) خط التجميع لانتاج المشعاع (الرادياتور) والعجلات للطراز "ت". تحت: بدن السيارة يوصل بهيكلها (الشاسي).

والسبعين شيخ الامريكيين المنادين بالمذهب الطبيعي (٨). وهو زار آل فورد قبيل عيد مولد هنري، ودعا الزوجين الى مساتشوستس ليرشفا من ينبوع الفلسفة المتعالية (٩) الذي لا ينضب. وقال هنري في ما بعد: "لقد علّمني أن اتذوق إمرسون."

كتاب أزرق هزيل وجد بين مخلفات فورد بعد وفاته هو مفتاح لغز ذلك الوتر الحسّاس الذي تحرّك داخل صانع السيارات عندما تعرّف الى فكر إمرسون. وكتاب الجيب ذاك يضم مجموعة مقالات إمرسون، وعلى غلافه الداخلي البالي دوّن هنري فورد بخطّه الدقيق العنكبوتي أرقام بعض الصفحات وملاحظاته حولها.

كان الفيلسوف إمرسون عبّر قبل مولد فورد بعشرين سنة عن ايمانه بأن الآلات "أفعال جديدة ضرورية" متناغمة في جوهرها مع الطبيعة. فالخطوط الحادّة في فأس سكان الحدود، وتكنولوجيا القاطرة

---

(٨) المذهب الطبيعي يقول بأن النواميس العلمية مؤهلة لتعليل جميع الظواهر.

(٩) الفلسفة المتعالية تقول بأن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر لا من طريق التجربة أو الخبرة.



Photos: The Bettmann Archive

البخارية، ما هي إلا أمثلة عن المكننة التي أدنت الامريكيين من الالغاز الطبيعيّة في قارتهم. وبدا مناسباً آنذاك أن تضاف سيارة "ت" الى القائمة.

كان أمرسون يؤمن كذلك بأن من واجب الابطال الذين حباهم الله نعمة الفوز أن يمدّوا يد العون الى من هم أقل حظاً من عباد الله الذين لم يكتشفوا السبيل الى الافادة من طاقاتهم الكامنة. وبنهاية العام ١٩١٣ وبدء العام ١٩١٤ آلى فورد على نفسه أن يصبح من هؤلاء الابطال.

## ●●● ناصر المعاقين ●●●

روى هنري فورد في ما بعد كيف أنه قبيل عيد الميلاد كان يسير في المصنع برفقة ابنه ادسل الذي بلغ العشرين من عمره وبدأ العمل مع والده. فالتقيا رجلين قذرين يتعاركان بضراوة والعرق يتصبب منهما والكدمات والخدوش تملأ جسديهما. هال هنري أن يكون ابنه شاهداً على عنف وانحطاط كهذين، وراح يفكّر في الاسباب التي تحول الناس من اشخاص وديعين حسّاسين الى أوغاد. واتخذ تفكيره وجهة جديدة. وهو شرح الامر لرجل الدين ساموبل ماركيس: "هناك ألوف من الرجال في المصنع لا يعيشون كما يجب. أعطهم دخلا محترماً فيعيشون حياة لائقة، لا بل سيسعدهم ذلك. ما يحتاجون اليه هو فرصة للتقدم في الحياة."

في يناير (كانون الثاني) من العام ١٩١٤ قرّر فورد والمديرون المساعدون في الشركة رفع أجور العمّال أكثر من ضعفين دفعة واحدة وأصبح أجر العامل خمسة دولارات يومياً وهو رقم لم يسمع به أحد من قبل.

وجُعل الحدّ الادنى الجديد أجرة يوم عمل من ثماني ساعات. ومن أجل ذلك أبدلت نوبتا العمل التي تمتد كل منهما تسع ساعات بنوبات متواصلة بلا انقطاع تدوم كل منها ثماني ساعات. وهكذا زاد انتاج الشركة وانخفضت ساعات العمل.

أما الرقم السحري - خمسة دولارات - فتوصل المقررون اليه باضافة علاوة "اقتسام أرباح" الى الأجر الاساسي، واشترطوا لها أن يكون العامل امضى ستة أشهر في الخدمة "وان يعيش حياة مستقيمة ومتّزنة ورصينة."

والخبر كما شاع أغفل هذه التعقيدات. وأبرزت الصحف في عناوينها الكبيرة نبأ الخمسة الدولارات يومياً. وزيادة الاجور تلك كانت من الضخامة بحيث بدت مستحيلة. واستقبل رسامو الكاريكاتور النبأ بخيال جامح فصوّروا عمّال المصنع عائدين الى بيوتهم بعد يوم عمل في سيارات فخمة يقودها سائقون خصوصيون. وندّدت صحيفة الـ"نيويورك تايمس" بالخبر ووصفته بانه تدبير "مثالي يستحيل تطبيقه." أما صحيفة "وول ستريت جورنال" فاتهمت فورد بارتكاب أخطاء اقتصادية فادحة، بل ربما "جرائم شائنة،" فهو أدخل مبادىء روحية ميداناً غريباً لا يتقبلها ولا تنتمي اليه.

ربما تأثر فورد بإمرسون الذي كتب أن ربّ العمل العاقل يجب أن يسعى الى رفع مستوى العمال وحسّهم السليم ورؤيتهم المستقبلية ونمط حياتهم. والتمييز الدقيق بين الأجر الاساسي وعلاوة اقتسام

الارباح هو سرّ تلك الهندسة الاجتماعية. والعامل في مصانع فورد لم يكن ليستفيد من العلاوة الا اذا أثبت أنه سيدخرها او يستثمرها بطريقة مفيدة تعود بالنفع عليه وعلى عائلته.

من أجل ذلك أحدث فورد دائرة جديدة سمّاها "الدائرة الاجتماعية" مهمتها التحقق من تقيُّد العامل بالشروط المطلوبة. وكانت الدائرة ترسل موظفين في زيارات ميدانية، وإذا لزم الامر كان هؤلاء يطرحون أسئلة على زوجة العامل وجيرانه للتأكد من أنه لا يبذّر حصته من أرباح فورد ولا يبدّدها على حياة اللهو والملذات.

في البدء استثنيت النساء العاملات من الافادة من علاوة الارباح. وكان فورد يزهو بذلك قائلا: "نتوقع من الشابات أن يتزوجن." لكن ذلك الاستبعاد سرعان ما صُحّح، واستخدم فورد النساء اكثر مما فعل معظم أرباب العمل في ديترويت.

تقدّمية فورد برزت أكثر بالنسبة الى المعاقين جسدياً. فبعدما اصبح أجر الخمسة الدولارات سارياً، أصدر مكتب التوظيف في الشركة تعليمات تقضي باعتبار الامراض المعدية وحدها سبباً لعدم التوظيف. وفي العام ١٩١٩ كان في الشركة ٩٥٦٣ عاملا وعاملة من ذوي العاهات الجسدية من أصل ٤٤٥٦٩. وكان الجميع يتقاضون الاجر الكامل نفسه. قلة من هؤلاء كانت قادرة على تدبّر عمل خارج هايلند بارك.

وسياسة هنري فورد حيال السود سبقت عصرها كذلك. ففي أوائل ١٩٢٠ كان بين عمّال الشركة اكثر من خمسة آلاف أسود، وما لبث عددهم أن تضاعف فبلغت نسبتهم في العام ١٩٣٦ عُشر العدد الاجمالي للعمال.

بتأثير من باروز وإمرسون، مقرون بشهيّة مفتوحة الى الربح وحظ حسن، وجد هنري فورد مجموعة من القوانين الاقتصادية المهمة. فأجر الخمسة الدولارات يومياً الذي ما لبث منافسوه أن عملوا به، شكّل الحل الأمثل لاحدى أهم المشاكل الاقتصادية، وهي ايجاد السوق للانتاج. فمن سيشتري جميع الاشياء التي بات في امكان المقاولين وأرباب الصناعة ان ينتجوها؟

وكان أن وُلِدَت الثورة الروسية، بعد ثلاث سنوات، قوّة متحركة جديدة بدّلت وجه التاريخ. إلا ان هنري فورد كان أظهر بالبرهان في هايلند بارك أن العامل ليس بالضرورة عدواً لرب العمل في المؤسسات الكبيرة. ففي وسعه أن يصبح من المساهمين وحملة الاسهم من خلال اقتسام الارباح وتقاضي أجر مرتفع.

## ●●● دكان الصحة ●●●

ذات مرّة قال هنري فورد للأب ماركيس: "انني في وضع غريب. فكل ما أشتهيه أناله. لكنني لا أبغي الاشياء التي يشتريها المال. ما اريده هو أن أعيش حياة تجعل العالم مكاناً أفضل لانني عشت فيه."

وماركيس الذي تخلّى عن أبرشيته في ديترويت عام ١٩١٥ كي يعمل في الدائرة الاجتماعية أصبح وثيق الصلة بهنري فورد وتعرّف الى نواح شتى من نفسيته المعقّدة. وهو الذي قال في وصف مزاياه

ودوافعه انها "من أرفع وأنبل ما اجتمع في انسان واحد." لكنه في الوقت ذاته رأى الجانب الآخر من شخصيّته: الغضب والحسد وتدبير المكائد. وهو كتب: "تدور داخله حرب لا تنتهي. حرب بين المثل العليا ودوافع مختلطة ومتباينة تباين الليل والنهار، حتى ليخيَّل اليك أحياناً ان داخله شخصيتين تتنازعان من أجل أن تسيطر إحداهما على الاخرى."

فتّش ماركيس عن تفسيرات لتلك التحولات المذهلة في شخصية فورد التي كانت تدور أمام عينيه. واستنتج: كأنما مخترع نظام التجميع لم يتوصل بعد الى تجميع أجزاء نفسه.

إحدى نزوات فورد السعيدة انشاء قرية غرينفيلد في ديربورن: ١٠٠ هكتار من حجر الاردواز والآجر الزهري وألواح الخشب. والقرية هي تحية إجلال وإكبار من فورد الى زمن في بلاده استهواه فحاول استرجاعه: زمن الشموع والاسترخاء، زمن ساهم هو أكثر من سواه في تدميره. وبدءاً بالعشرينات تمّ نقل مجموعات كاملة من البيوت القديمة العائدة الى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من أنحاء مختلفة في البلاد، وأقيمت جنباً الى جنب في ناحية من ميشيغان. أما الشوارع ففرشت بالحصى وأنيرت بقناديل تضاء بالغاز. وتمّ تكريس المكان في احتفال خاص عام ١٩٢٩، فكان أول حديقة رائدة ذات موضوع معين.

بنى فورد "مستشفى هنري فورد" في ديترويت حيث أرسى مبادىء إصلاحية. إذ كان نزيل المستشفى بعد المعاينة الأوليّة يمر بثلاثة أطباء اختصاصيين أو أربعة. وهذا النوع من المعاينة النظامية المتسلسلة كان نادراً في ذلك الوقت.

وكان يحلو لفورد أن يقول: "ذلك هو دكاني حيث آمل أن يتعافى الناس في أسرع وقت ممكن وتصلح أجزاؤهم المصابة."

وموّل فورد أبحاثاً حول فول الصويا لكونه، من جهة، طعاماً، ومن جهة ثانية مقوماً أساسياً لصناعة البلاستيك. وأقام "صناعات قروية" في الجنوب الشرقي من ميشيغان: طواحين مائية جميلة تضم مشاغل صغيرة. وهو كان يقدم باندفاع على أي عمل يستهويه.

## ●●● فورد اللاسامي ●●●

كان فورد أحياناً يخطىء التقدير. وهو صرّح بأنه يمقت الحرب. وفي العام ١٩١٥ استأجر الباخرة الاسكندينافية - الامريكية "أوسكار ٢" وأبحر مع مجموعة من الرجال يفكّرون مثله ووجهتهم أوروبا بغية انهاء الحرب الدائرة هناك. بدا له مفهوم السلام فكرة بسيطة. والبعثة التي تميّزت بالسذاجة وسوء الرؤيا والمثالية انتهت الى خيبة واخفاق ذريع بعدما كلّفت فورد أكثر من نصف مليون دولار.

وعلّق عالِم الطبيعة جون باروز على الموضوع: "ان قلب السيد فورد أكبر من رأسه. فخير له أن يحاول استعجال الربيع من أن يحاول استعجال السلام الآن."

على أن قلب فورد لم يكن دائماً في موضعه الصحيح. وكان لشخصيته جانب آخر عرفه الأب ماركيس. فهو كان، مثلاً، ضد الساميَّة، واشترى في العام ١٩١٨

صحيفة أسبوعية (١٠) كانت تصدر في ديربورن. وهو كان من دعاة الاعتدال وضبط النفس ومنح المرأة حقوقها ومن أنصار القانون الامريكي الذي صدر في العام ١٩٢٠ وظل سارياً الى ١٩٣٣ وحرّم انتاج المشروبات الروحية ونقلها وبيعها. وكان يرتاب في الأعمال التجارية الكبرى وفي رجال المصارف ورجال المال، ولاسيما اليهود منهم، ونقل عنه قوله لأحد الصحافيين عام ١٩٢١: "اليهودي مجرّد بائع متجول، تاجر لا ينتج." وظلّت صحيفته تتطرق الى الموضوع نفسه في كل أعدادها، وهو التأثير السيىء الذي يحدثه اليهود في السياسة والحياة العامة في امريكا، وفي عالم المال وطرق المعيشة والأخلاق عموماً.

تعود بذور معتقدات فورد هذه الى مبادىء "حزب الشعب الامريكي" التي تشرّبها وهو فتى في المزرعة والقائمة على الارتياب في رجال المال والوسطاء، وكانت في ذلك الوقت شائعة بين الطبقات الاجتماعية. ولما كانت الصحيفة توزّع في ألمانيا، فقد قرأ أدولف هتلر المقالات وأعجبته. وكانت النتيجة أن حمّل فورد علامة فارقة فبات الامريكي الوحيد الذي أتى هتلر على ذكره في كتابه "كفاحي"(١١) باطراء واستحسان.

ونزعة فورد اللاسامية كانت دائماً ذات طابع مجرّد لا شخصي. ولشدّ ما كانت دهشته عندما أعاد اليه الحاخام ليو فرانكلين سيارة "ت" كان أهداها اليه.

في العشرينات ظهرت عشوائية فورد أكثر. فاختلف مع بعض مساعديه وأصدقائه القدماء وصرفهم من الشركة وشنّ حروباً شرسة على الأقلية من حملة الاسهم وضيّق عليهم حتى اجبرهم على بيعه حصصهم. واثناء الضائقة الاقتصادية في الثلاثينات ساءت علاقاته بالعمّال فغدت حرباً مرّة وأحياناً دموية. لكن شخصيته لم تترك أثراً مأسوياً مدمراً كما تركت في علاقته بابنه.

## ●●● ولد في الظل ●●●

حصل إدسل براينت فورد على سيارته الخاصة وهو في السن العاشرة. وفي غياب قانون يحدّد السن الدنيا للقيادة كان ادسل يقود سيارته من البيت الى المدرسة. وهو كان تلميذاً نجيباً تعوّد أن يغادر المدرسة الى المصنع مباشرة حيث يلقي بحقيبة كتبه جانباً وينصرف الى مراقبة أحدث التطورات. وكان الموظفون المكتبيون يشاهدون هنري فورد بعد ظهر كل يوم يدخل مكاتبهم ليتفقّد أعمالهم عن كثب، فيبتسم عندما تقع عيناه على حقيبة ولده ويسرع الخطى ليلحق به.

كان ادسل شديد الولع والاعجاب بوالده. وكان هنري متعلقاً بابنه الوحيد. ولم يشك أحد في أن إدسل سيعمل مع والده في المستقبل. وكان علاماته في المدرسة تؤهله لدخول الجامعة، إلا أن والده الذي تخلى عن الدراسة وهو في السن السادسة عشرة لم يكن له كبير ثقة في التعليم العالي. لذلك انصرف ادسل الى العمل حالما أنهى دراسته الثانوية. وهو أصبح في العام ١٩١٥ امين السر في

(١٠) Independent
(١١) Mein Kampf

الشركة، وكان في الحادية والعشرين من عمره.

في المصنع كان الجميع ينادونه "السيد ادسل." وكان هادئاً متواضعاً لم يحاول قط أن يستغل وضعه. وكان يعامل مساعدي والده باحترام. ولم يكنّ له أحد سوى المحبة.

لكن ادسل لم يكن مستقل الرأي. كان كريماً ومهذباً ورقيقاً، وعلى الصعيد الشخصي كان اكثر انسانية من أبيه. وهو ملك كل مقوّمات النجاح الا واحدة، وهي الأهم: استقلال الرأي. كان عاجزاً عن مقاومة ارادة والده حتى في المسائل المتعلقة بالمبادىء التي آمن بها وأحبّها. تلك كانت الصفة المأسوية التي رافقته طوال شبابه.

كان إدسل فورد في الخامسة والعشرين حين أصبح رئيساً لشركة فورد للسيارات في أول يناير (كانون الثاني) ١٩١٩، وهو منصب احتفظ به طوال حياته. لكن هنري فورد لم يستطع التنازل عن سيطرته، وإدسل لم يعرف كيف يفرض سيطرته. وكأي ممثل ناشىء يأتي دوره على المسرح بعد ممثل عملاق، وجد إدسل صعوبة في ملء دور والده وتأديته بجدارة فكان حله للمشكلة أن امتنع عن تأدية أي دور.

والمأساة أن هنري لم يفهم دوافع ابنه الى التهاون والقبول بالامر الواقع. وبدل أن يدرك ان استعداده للبقاء في الظل نابع من حبه الشديد لابيه واعجابه به، ظن انه يعاني نقصاً أساسياً وضعفاً في الشخصية.

وربما كان ذلك من وحي امرسون. ففي مقال كتبه الفيلسوف بعنوان "التعويض" مقطع ذكر فيه أن قوّة الشخصية لا تكتسب ما لم "يُلدغ الانسان ويُجرح ويُهاجَم بقسوة." وهو خلص الى الاستنتاج أن "من ينعم بوسادة من الافضليات يخلد الى النوم، ولن يتسنّى له أن يتعلّم شيئاً ما لم يُعذّب ويضطهد ويُهزم." ولفرط اعجاب فورد بهذا المقطع كان يعيد قراءته تكراراً وهو علّمه بخط يده.



في حلبة سباق السيارات في عام ١٩٣٣.
من اليسار: هنري فورد وولده ادل واثنان من ابنا إدسل: هنري الثاني وبنسون.

UPI / Bettmann Newsphotos

ووصف "وسادة الافضليات" انطبق تماماً على إدسل. وهذا ما جعل هنري فورد دائم التذمّر ودفعه الى الترداد: "الولد ضعيف الشخصية."

ولكي يخشنه ويقوّي عوده حاول هنري أن يطبّق على ابنه تعاليم إمرسون. وحوّل حياته دوّامة من التهجّم والتجريح. كان يعطيه بيد ليأخذ منه بالأخرى. وعندما طلب إدسل صنع مجموعة من أفران الفحم الجديدة في مصنع نهر روج الضخم الذي بُني أثناء الحرب العالمية الاولى، تظاهر والده بالموافقة في حين أسرّ الى أحد معاونيه: "حالما ينتهي إدسل من صنع هذه الافران سأحطّمها."

وبالفعل حطم هنري فورد الافران حالما أُنجزت. وكان في وسعه أن يناقش الامر مع ولده أو أن يلغي الطلب، إلا انه تعمّد لزوم الصمت وانتظر الى أن تم المشروع فانقض وحطمه، مما ضاعف ألم إدسل، كذلك "جرعة دوائه."

وقدّر للشاب جون ديفيس في دائرة المبيعات ان يذوق طعم هذا "الدواء" مباشرة في أوائل العشرينات. وكان اقنع إدسل في غياب والده بحاجة الشركة الى مكاتب جديدة لموظفيها بمن فيهم المحاسبون. ووضعت تصاميم البناء الجديد وكُلّف من ينفّذ المشروع.

عندما عاد هنري فورد من السفر كان العمل في المشروع جارياً. فشرح له إدسل حاجة الشركة الى مساحات إضافية فسأله: "مساحات لمن؟" وما ان ذكر إدسل دائرة المحاسبة التي لم تكن تحظى إلا بالقليل من عطف هنري فورد، حتى ثار هذا واندفع خارجاً من الغرفة.

وفي صباح اليوم التالي وصل ديفيس الى عمله ليجد موظفي دائرة الحسابات في المرأب مضطربين. فمكاتبهم المكتظّة كانت في الطبقة الرابعة من البناء القديم، لكن عمّال الصيانة أتوا في الليل وافرغوها من كل محتوياتها فبدت عارية من كل أثاث. وفي وقت لاحق من ذلك النهار عَلم أن دائرة الحسابات أُلغيت وأن جميع موظفيها، رجالا ونساء ممن خدموا الشركة باخلاص وتفان معظم حياتهم، صرفوا من الخدمة.

وفي وقت متقدم من ذلك الصباح عرّج هنري فورد على ابنه وقال له مبتسماً: "إن كنت فعلا في حاجة الى مساحات، فهناك الكثير منها في الطبقة الرابعة."

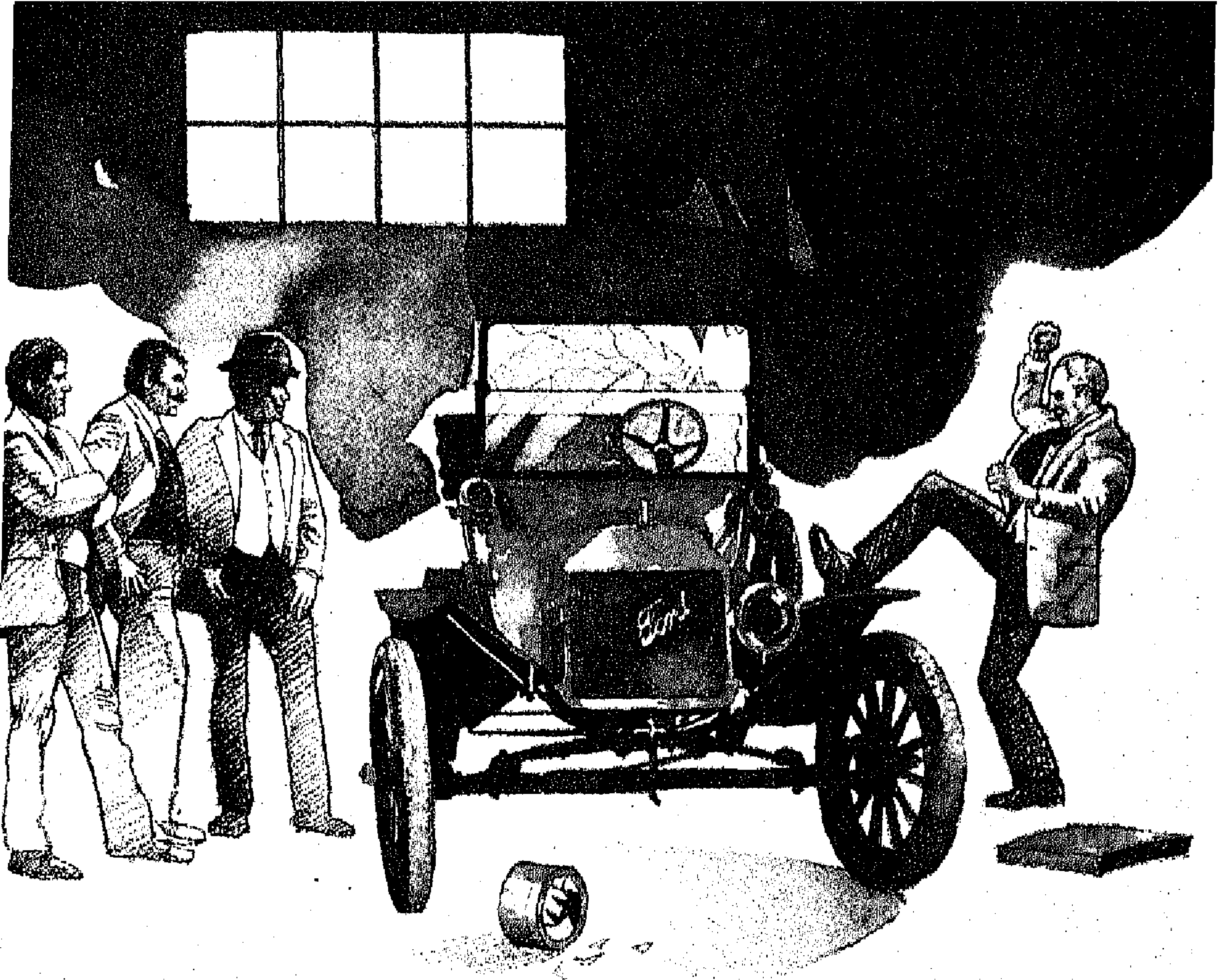
## ●●● فوضى مزاجيّة ●●●

بعد الحرب في العام ١٩١٩ عادت شركة فورد الى الانتاج بطاقتها الكاملة وأنزلت الى السوق طرازاً محسناً من سيارة "ت" زوّد مفتاحاً كهربائياً للمحرك(١٢) يُدار ذاتياً. وفي الاشهر الاثني عشر التالية أنتج فورد من السيارات أعداداً لم يسبق أن انتجها. إلا أن الازدهار لم يطل، وتحوّل ركوداً في صيف ١٩٢٠.

لعصر النفقات، خفض فورد عدد الموظفين الاداريين في الشركة من ١٠٧٤ الى ٥٢٨. وعلى أثر ذلك التدبير وتدابير أخرى، خرجت الشركة من نكسة ما بعد الحرب أنحل وأشد منافسة من أي وقت مضى.

التدابير التي اتخذها هنري فورد

(١٢) Electric Self — Starter



جاءت على حساب أثمن مصادر القوة في الشركة، وان يكن هذا المصدر غير ملموس. فالادارة بين ١٩١٩ و١٩٢١ فقدت عدداً من الموظفين الكبار أصحاب الخبرة والحكمة، واستحال على الشركة ملء الفراغ الذي تركوه. ورحيل وليم كندسن ألحق بالشركة خسارة فادحة، فهو كان اليد اليمنى لفورد الذي قال فيه ذات مرة انه "أفضل رجل انتاج في الولايات المتحدة." وقد ترك كندسن الشركة ليؤدي دوراً حيوياً في شركة "جنرال موتورز" على حساب فورد. ومن "الخطايا" التي اقترفها أنه تجرأ مرّة وعبّر عن شكّه في صواب اعتماد هنري فورد المستمر على سيارة "ت" وقال له إن الوقت حان، بعد ١٢ سنة، للتفكير في بديل منها.

أول اقتراح جدّي بإدخال بعض التعديلات على الطراز "ت" أبدي وعمر هذا الطراز لم يتجاوز الاربع السنوات. ففي العام ١٩١٢، لدى عودته من رحلة الى اوروبا مع كلارا وإدسل، اكتشف ان "ضباط" هايلند بارك نشطوا في غيابه لاخراج نسخة جديدة منقّحة ومطوّرة من سيّارة "ت". وهم عرضوا النموذج الجديد – سيارة منخفضة طليت باللك الأحمر اللمّاع – في أحد مرائب الشركة حيث شاهدها هنري فورد.

والذي حدث بعد ذلك وصفه أحد الشهود العيان: "كانت يداه في جيبيه.


Illustration: Bob Crofut

وراح يدور حول السيارة ثلاث مرات او اربعاً، يتفحّصها بدقّة كبيرة. كان للسيارة أربعة أبواب وسقف قابل للطي. أخيراً توقف بجانب الباب الايسر وأخرج يديه من جيبيه وأمسك الباب ثم "بانغ!" اقتلعه من مكانه! يا الهي! كيف فعل ذلك؟ لا أدري!"

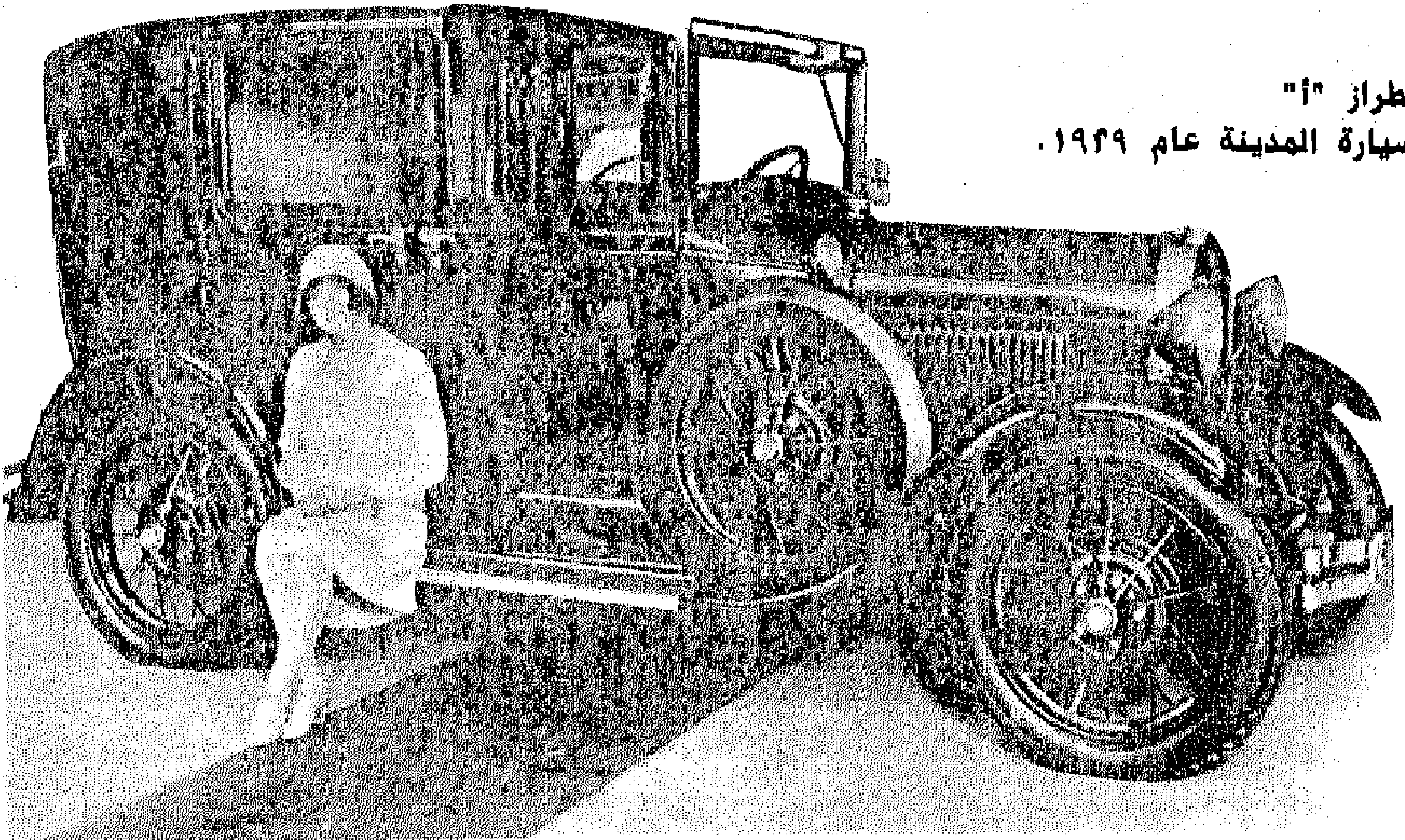
وتابع الشاهد كلامه: "بقفزة واحدة أصبح بجانب الباب الايمن، ثم "بانغ!" اقتلعه هو الآخر وأتبعه بحاجب الريح. ثم قفز الى المقعد الخلفي وانهال على السقف ضرباً بعقب حذائه. وعندما هدأت ثورته كانت السيارة أصبحت حطاماً."

كانت سيارة "ت" من تصميم هنري فورد وصنعه. ولم يكن مستغرباً البتّة أن يتعلق بها. لكنها على رغم التحسينات الشكلية والهندسية التي أدخلت عليها باستمرار، بدت عتيقة الطراز. وهي التي بقيت لسنوات طويلة تفوق سيارة "شيفروليه" في نسبة المبيعات. غير أن شركة "جنرال موتورز" ما لبثت أن استقطبت السوق الشعبية وانتزعت الاولوية. الا أن تعلّق فورد بتحفته أصبح شبه مَرَضيّ.

اعتاد هنري فورد أن يتناول طعام الغداء كل يوم في تمام الساعة الثانية عشرة. ودرج المديرون التنفيذيون الذين يقع عليهم الاختيار لتناول الغداء معه، على التجمّع في الثانية عشرة الا خمس دقائق في غرفة الطعام الخاصة حيث يروحون يتحدثون في أمور بسيطة في انتظار موعد وصول هنري فورد.

## ●●● الطراز "أ" ●●●

كان هنري فورد يمقت الاجتماعات الرسمية. لذلك كان وقت الغداء المناسبة الملائمة لاتخاذ القرارات المهمّة في سياسة الشركة. ونظراً الى "الغارات"



الطراز "أ"
لسيارة المدينة عام ١٩٢٩.

The Bettmann Archive

والاختراقات الكثيرة التي نجحت "جنرال موتورز" في شنّها على مبيعات فورد، فمن الطبيعي ان يدور حديث الفداء حول مستقبل سيارة "ت".

غير ان معاوني فورد نادراً ما تطرقوا الى ذلك الموضوع. والواقع أن تشارلز سورنسن، المنافس الأقوى لكندسن داخل هرم السلطة في شركة فورد، كان حكيماً بعيد النظر وتجنب الخوض في الموضوع. وحذا المديرون الاخرون حذوه. فأحد الاسباب التي ادّت الى ابعاد كندسن كان اقتراحه ادخال تغييرات. ولم يكن أحد ليجرؤ على مثل ذلك الحديث. وحده إدسل كان له من الاعتبار ما يخولّه أن يتكلم في الموضوع.

وذات يوم أتى إدسل على موضوع الكابح الهيدروليكي، وهو اختراع أثبت آنذاك تفوّقه على الكابح القديم من حيث الفاعلية والسلامة واعتمدته سيارات عدة. وأشار الى حاجة سيارة "ت" الى بعض التعديلات. ثم أضاف أنه ربما كان مستحسناً إخراج طراز جديد تماماً من سيارات فورد.

فكان ردّ والده انفعالياً: "إدسل، إخرس أنت!" ثم اندفع خارجاً من الغرفة.

أخيراً اقتنع هنري فورد بأن شركته كانت فعلا في حاجة الى طراز جديد من السيارات. وفي العام ١٩٢٧ أنزل الى السوق سيارة "أ". وهو اختار لها هذا الاسم باعتبار أنها شكّلت ثورة في التصميم ولذا وجب اعطاؤها أول حروف الابجدية وكأنها الأولى في عالم السيارات.

أحرزت سيارة "أ" انتصاراً هائلا. وهي تضمّنت جميع التحسينات التي كانت معروفة آنذاك وبيعت بسعر ٤٩٥ دولاراً أي أرخص بمئة دولار من مثيلاتها من سيارات "جنرال موتورز." إلا أن الأمل في أن يشكّل إدسل النواة لادارة جديدة شابّة تكون البديل العقلاني من الفوضى المزاجية التي مثّلها هنري فورد - هذا الامل تلاشى الى الابد.

## ●●● الرجل القوي ●●●

ازداد وضع إدسل سوءاً مع تنامي سلطة هاري بينيت. وكان من مصلحة هذا، كذلك من مصلحة الذين حاولوا أن يحطّوا من قدره، أن يروجوا اشاعات تزعم أن بينيت من اصل خشن وعنيف في حين أنه في الحقيقة بدأ مرحلة شبابه كطالب في جامعة آن آربور الهادئة في ميشيغان حيث كان زوج أمه أستاذاً للهندسة.

الأمر المؤكد أن هاري بينيت لم يكن يعرف شيئاً عن السيارات. فهو لم يكن ميكانيكياً ولا مهندساً ولا مصمماً. والذي ساعده على التقدّم ملاحظة أبداها هنري فورد أثناء حديثه عن بعض مشاريعه، وفيها أن عدم خبرة هاري بينيت في صنع السيارات هو المؤهل الذي يحتاج اليه ليبلغ القمّة.

كانت لشركة فورد شرطتها الخاصة التي عُرفت باسم "دائرة الخدمات." وفي وقت ما في العشرينات تمكّن هاري بينيت من إحكام سيطرته على تلك الهيئة وجعلها، بعد حملة تطهير، جيشه الخاص. ووظّف فيها عددا من لاعبي كرة القدم المتقاعدين وقطّاع الطرق.

أحب بينيت أن يتكلّم بعنف ويتصرّف


AP / Wide World Photos

هاري بينيت سنة ١٩٤١.

بعنف. وهو نصب هدفاً فوق إحدى الخزائن الحديد الخضراء في مكتبه، وكان من عادته أن يستل مسدساً من أحد أدراج طاولته ويروح يتمرّن على الرماية. ولتعزيز صورة العنف هذه دعم تمثيليته باقتناء أسود ونمور تركها تجوب ميدان الرماية الذي اقامه بالقرب من آن آربور. وكان أحياناً يصطحب وحوشه الى العمل ويسير بها في أرجاء مصنع نهر روج ظاهراً مظهر الابن القوي الذي يتوق هنري فورد اليه.

في منتصف الثلاثينات كان بينيت أقام شبكة من الاتصالات بين الشركة وعدد من رجال العصابات. وهذا التحالف الآثم ظهرت نتائجه في المعركة الشرسة التي خاضها فورد ضد الاتحادات العمالية. ففي ٢٦ مايو (ايار) ١٩٣٧ حدثت أولى المواجهات الجديرة بالذكر بين اتحاد عمّال السيارات وشركة فورد، حين حاول بعض أعضاء الاتحاد توزيع منشورات في مصنع روج. وكان أن تعرّض زعيم العمال والتر روثر وثلاثة رجال آخرين للضرب على أيدي مجرمين استأجرهم بينيت. وهكذا مني الاتحاديون بهزيمة نكراء.

في ابريل (نيسان) ١٩٤١ بلغت محاولات "عمّال السيارات المتحدين" ذروتها لادخال فورد في الاتحاد، فامتنع ١٥٠٠ عامل في مصنع روج عن العمل. وعندما اندلعت الأزمة كان إدسل في عطلة في فلوريدا، فعاد للحال الى ديربورن. لكن والده أمره بالابتعاد عن المشكلة وترك الأمر الى بينيت الذي رفض حتى مناقشة الشروط التي رفعها الاتحاد للوصول الى تسوية.

### ●●● إدسل النازف ●●●

تشبّث إدسل بفكرة مؤداها ان الطريقة الوحيدة للخروج من الأزمة هي المفاوضة، واضطر والده في النهاية الى الاذعان. وعاود العمال الانتاج في انتظار المفاوضات حول عقد عمل شامل. لم يشترك هنري فورد في المحادثات، إلا أن ردّ فعله الاول على الشروط الاخيرة التي تمّ الاتفاق عليها والتي أطلعه عليها بينيت في ١٨ يونيو (حزيران)، كان الرفض. وهو وصفها بانها "استسلام مذل." وعندما عاد الى بيته ذلك النهار طلبت منه كلارا تقريراً مفصلا عن موضوع الاتحاد. وهي كانت تعلم أن ادسل يفضّل التوصّل الى اتفاق ما وأنه شديد الاستياء من تأثير بينيت السلبي على والده.

وفي إحدى المناسبات صرخت كلارا في

وجه تشارلز سورنسن: "من هو بينيت هذا صاحب تلك السطوة على زوجي وذلك التأثير المدمّر على صحة ابني؟"

كانت كلارا توصلت الى قرار حول الاتحاد. فرأت انه حصل ما فيه الكفاية من العنف وإراقة الدم وأعلنت انه إذا لم يوافق هنري فورد على ابرام العقد فإنها ستهجره.

وفي وقت لاحق قال فورد: "ماذا كان يسعني أن أفعل؟ لا تنتقص أبداً من قوة المرأة."

لم يكن الامر في الحقيقة بتلك البساطة. فالحرب العالمية الثانية اندلعت في أوروبا عام ١٩٣٩، وكانت الولايات المتحدة تستعد لدخولها. وهي دخلتها فعلا في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤١ على اثر الهجوم الياباني على قاعدة بحرية امريكية في بيرل هاربر في هاواي. وكان فورد وقّع عقوداً دفاعية مع الدولة التي لوحت بفسخها ما لم تغيّر الشركة سياستها العمالية. من جهة ثانية تحرّك مجدداً ذلك "الشيطان" الذي يهوى المفاجآت والساكن داخل هنري فورد، فاتصل ببينيت وأمره بتوقيع العقد. وفي اليوم التالي أصبح فورد عضواً في الاتحاد وباتت أجوره الاعلى في تلك الصناعة.

العبارة التي افتتح بها هاري بينيت سيرته الذاتية لها مدلول كبير. فهو كتب: "في السنوات الثلاثين التي عملت مع هنري (فورد)، أصبحت صديقه الحميم وأقرب اليه حتى من ابنه." ومع أن بينيت خسر المعركة الشرسة التي قادها لابعاد الاتحاد عن شركة فورد، إلا أن هنري فورد استساغ تلك المعركة جداً، فهي اتاحت له أن يعرف الشعور بأن يكون للمرء "ابن" صلب خشن وقوي، يخطط ويرسم ويدبّر المكائد ويخوض الى جانب أبيه حرباً شعواء ضد العالم بأسره ويفعل كل ما لم يقدر إدسل على فعله أو يرغب فيه.

الجميع علموا أن إدسل كان مثخناً بالجروح وأن "روحه تنزف" على حدّ تعبير والتر روثر الذي يتذكره "كرجل شريف مترفّع يهتم لسواه." ويضيف: "شعرت بالأسى من اجله."

## ●●● قلب مكسور ●●●

بعد غزو بيرل هاربر واعلان أمريكا الحرب في العام ١٩٤١، بدأ التعب والارهاق يظهران على وجه إدسل. وهو كان قبل ذلك يبدو معافى وبصحة جيّدة. وفي أوائل ١٩٤٢ بدا شاحباً مهزوماً. وفي يناير (كانون الثاني) خضع لجراحة تقرّح في المعدة وراح معاونوه ينقلون اليه أكواب الحليب من مطعم الشركة من دون انقطاع. إلا أن مشاكل إدسل لم تقتصر على قروح المعدة، وربما كان في وسع الاطباء أن يحدّوا من انتشار السرطان لو اكتشفوه في وقت مبكر. فعندما خضع إدسل للجراحة تبيّن أن المرض استشرى خارج المعدة وبلغ الكبد.

في أوائل ١٩٤٣ كانت لادسل مواجهة أخرى مع بينيت خرج منها خاسراً كالعادة. وهو أخبر تشارلز سورنسن باكياً: "افضل ما يمكنني أن افعله هو أن اقدّم استقالتي. في أي حال صحتي لا تسمح لي بالمتابعة." لكن سورنسن جعله يعدل عن موقفه. إلا أن الامر لم يطل به، فما ان

حلّ شهر مايو (أيار) حتى لزم إدسل الفراش وقد أسقط في أيدي الاطباء الذي وقفوا عاجزين عن مساعدته. وعندما بلغ هنري فورد أن ابنه يحتضر رفض التصديق، وقال ان الاطباء في المستشفى الذي يملكه يجب أن يعيدوا الى ادسل صحّته.

كان هنري فورد على خطأ لأن إدسل ما لبث ان توفي يوم ٢٦ مايو (أيار) قبل أن يبلغ الخمسين من عمره بخمسة أشهر.

لم يكن من السهل تحديد سبب الوفاة: سرطان المعدة؟ سرطان في الكبد؟ قرحة؟ ولعل تشخيص أصدقاء إدسل الخلّص هو الاقرب الى الحقيقة، وهم عرفوا كيف تداخل الحبّ والرفض في حياته.

قالوا ان ادسل براينت فورد مات بقلب مكسور.

على اثر وفاة إدسل اصيبت ارملته اليانور بذهول واضطراب. ويتذكر ابنهما الاصغر وليم كلاي كيف كانت تنهار في البيت وتستسلم لنوبات مفاجئة من البكاء. ثم أتت الضربة القاضية عندما حان وقت تعيين خلف لادسل في رئاسة الشركة وأراد هنري فورد أن يعيّن هاري بينيت.

بدأت اليانور فورد تتشاجر مع حميها. واتهاماتها له جعلته يعرض معاملته لابنه. وهو سأل بينيت ذات يوم: "اتظن يا هاري أنني فعلا قسوت على إدسل؟"

فأجابه بينيت مسايراً: "قسوت عليه؟ لا. عاملته من غير عدل؟ نعم. ولو كنت أنا مكانه لغضبت." فقال هنري: "هذا بالضبط ما وددت أن يفعل! أردته أن يغضب!"

بعد تعيين مجلس الادارة تقرر أن يتولى هنري فورد نفسه رئاسة الشركة. ولكن في وقت بين العامين ١٩٤٤ و١٩٤٥ خلصت كلارا وإليانور فورد الى أن الشركة لن تكون مكانا أميناً لهنري الثاني، ابن إدسل البكر، حتى يتسلم الرئاسة من جدّه. وقد تكون كلارا تمكنت في النهاية من تحقيق ما بدا مستحيلا. وهي عملت طوال صيف ١٩٤٥ على إقناع زوجها بالتخلي عن السلطة ليس لهاري بينيت بل لمن تختاره العائلة.

## ●●● "جدي قتل أبي" ●●●

في ٣٠ سبتمبر (أيلول) استدعي هنري فورد الثاني الى إحدى القاعات المظلمة في فيرلين مقر عائلة فورد. وأشار اليه جدّه أن يجلس وأبلغه استعداده للتنحي وتكليفه هو رئاسة الشركة.

يتذكر هنري فورد الثاني ذلك النهار: "أجبته بأنني اقبل عرضه شرط أن تطلق يداي لاحداث أي تغيير أراه مناسباً. وهو لم يسحب عرضه."

في اليوم التالي أبلغ هنري فورد الثاني هاري بينيت استغناء الشركة عن خدماته. وفي وقت لاحق من ذلك النهار عاد الرئيس الجديد لشركة فورد في سيارته الى فيرلين ليبلغ جدّه التدبير الاداري الأول في عهده. ويتذكر: "كنت على يقين أنه سيقطع رأسي."

ولكن من غريب المصادفات أن هنري فورد الاكبر لم يبد أي اهتمام للنبأ وتمتم: "حسناً، لقد عاد هاري الآن الى حيث بدأ."

وفي رأي أحد المديرين التنفيذيين: "لم تكن الشركة التي تسلمها هنري فورد الثاني في طور احتضار، بل كانت ميتة، وحتى رميماً."

إلا أن الشاب أعاد اليها الحياة. فأتى بعدد من ضباط الجو السابقين الموهوبين الذين عُرفوا بلقب "الاولاد الشطّار" ووضعهم في امرة نائب الرئيس الجديد ارنست بريتش، وهو مدير صلب استماله من شركة "جنرال موتورز."

لم ييأت هنري الثاني نفسه بأي مهارات مالية للشركة. وهو لم يكن ذلك المفاوض المالي الموهوب الذي يبرم الصفقات بدهاء ومقدرة. ولم يدّعِ يوماً أنه خبير ميكانيكي. لكنه عمل بتنسيق منظّم مع بريتش. ويتذكر معاونوه آنذاك عزمه الاكيد على النجاح في العمل واندفاعه وحيويته. وتحفزه لاثبات شيء ما.

جوان بوغاس أرملة جون بوغاس الذي أصبح أقرب المقربين الى هنري الثاني وحافظ سرّه، تتذكر الامسيات في السبعينات التي صرفها الرجلان جالسين يستعيدان الايام الخوالي والمعارك ضد هاري بينيت. كانا رفيقي سلاح حَلَتْ لهما العودة الى ربع قرن مضى واسترجاع المغامرات والاثارات والمخاطر التي عرفاها.

وذات مرّة سأل بوغاس فجأة: "هنري، لماذا فعلتها؟ لماذا لم تنصرف الى اللعب؟"

ولا تزال جوان بوغاس تتذكر الاتقاد والقوة في جواب ذلك الرجل الذي لم يسمح قط لعواطفه بالظهور. وهو قال: "في عقلي أن جدّي قتل أبي. أعرف أنه مات بالسرطان، لكن ذلك حدث بسبب ما فعله به جدي."

في السنوات التي تلت العام ١٩٤٥ عرف ولي العهد الذي لم يأخذه أحد على محمل الجد، كيف يثأر على طريقته الخاصة. وهو أثبت جدارته.

## ●●● في ضوء الشموع ●●●

ربما اقتنع هنري فورد في أعماقه بأنه لن يعيش أبداً، لكنه بالتأكيد توقّع أن يعمّر ليبلغ المئة. وفي معظم سبعيناته حافظ على وعيه وحيويته على رغم بعض الغيمات السود التي أخذت تطول كلّما تقدّم به العمر. وأصبح أحياناً يظهر منطوياً على نفسه، فارغاً ومشوّش التفكير.

وفي اعتقاد هاري بينيت ان السبب موت إدسل. وهو كتب: "بعد وفاة إدسل لم يعد سوى رجل مسن مرهق يرغب في العيش بسلام."

نهار الاثنين في ٧ ابريل (نيسان) ١٩٤٧ كان الطقس ممطراً كالعادة في ميشيغان. وكان نهر روج آخذاً في الارتفاع. وبسبب الفيضان تعين عند بزوغ الفجر، اغلاق المحطة الخاصة التي تزوّد فيرلين الكهرباء.

اقترحت روزا باهلر، خادمة كلارا فورد، أن تذهب العائلة الى فندق ديربورن لتناول الفطور. إلا أن هنري فورد وجد الفكرة سخيفة: "بحق السماء! لدينا مواقد! في ايرلندا واسكوتلندا يطهون كل شيء على المواقد!"

أضرمت روزا النار في جميع مواقد

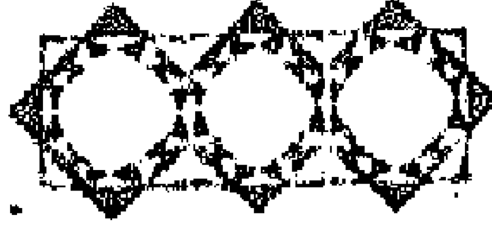
المنزل. وعندما نزل فورد استدعى سائقه وطلب منه ان يأخذه في جولة على ديربورن ليستطلع ما أحدثته الفيضانات من أضرار. كانت النار تهدر في جميع مواقد المنزل ذلك الليل وتبعث في أرجائه ضوءاً مترجرجاً عزّزته الشموع.

قال فورد: "سأنام جيداً هذه الليلة. وسنأوي الى الفراش باكراً."

في وقت متقدم من ذلك المساء استيقظت الخادمة على صوت كلارا وهي تقول: "اظنّ أن السيد فورد متوعك جدا." واستدعي طبيب. وعندما وصل في منتصف الليل كان صانع السيارات قد مات. هكذا ترك هنري فورد العالم: في ضوء الشموع والنار حوله، تماما كما دخله قبل ثلاث وثمانين سنة.

روبرت لاسي

ترجمة د. باسمة سكرية عيد



من فاته الخيال حُرم جناحين يحلق بهما. محمد علي، بطل العالم السابق في الملاكمة

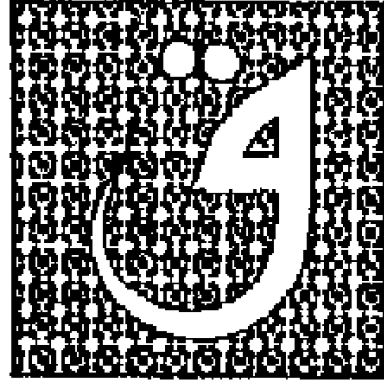
كتاب الشهر





# الأعصار القاتل

**قبل عامين تفجرت فجأة على شاشات الرادار في مصلحة الارصاد الجوية في الغرب الاوسط الأمريكي صور عواصف رعدية عنيفة. تلك كانت "خلايا عملاقة" تتلظى داخل بطونها السوداء المشبعة بالرطوبة أعاصير قاتلة. أخذت العواصف تضرب المدن بضراوة مدمرة. تلاشى ما ينيف على ١٣٠٠ منزل واستحالت المباني الحكومية الباقية معارض للجثث ومراكز لضحايا الكوارث. وبفضل الشجاعة والتفاني اللذين أبداهما أهل مروءة هرعوا ليشاركوا في المصاب ويقوموا بالواجب، انبثقت روح الأمل من بين الركام**


قرابةالسابعة والنصف من صباح الجمعة ٣١ مايو(أيار) ١٩٨٥، جلس محلل الارصاد الجوية ستيف ويس إلى مكتبه تحوطه أطراف وامضة للدماغ الالكتروني وشاشات رادار في شكل حدوة حصان. ومكتبه في المركز الوطني الأمريكي لرصد العواصف الشديدة في مدينة كنساس بولاية ميسوري. وقد أبلغه لاري ولسون المحلل المناوب لفترة منتصف الليل، اذ كان على وشك الانصراف، أن ثمة خطراً لا يستهان به ينبىء بهبوب عواصف رعدية عنيفة. وبدا أن منطقتي شرق اوهايو وغرب بنسلفانيا هما الهدفان الرئيسان.

كان الطقس غريب الاطوار خلال الاسبوع الأخير من مايو (أيار). فقد ضربت العواصف الثلجية كولورادو ومونتانا وويومينغ وحركت رياحاً بسرعة ١١٣ كيلومتراً في الساعة في نبراسكا. ولفحت تكساس وأوكلاهوما وكنساس حرارة قياسية بلغت ٣٨ درجة مئوية، فيما تمددت العواصف الرعدية من ميسوري الى وادي اوهايو.

حبات برد بلغ قطرها ثمانية سنتيمترات انهالت على مصنع لتجميع محركات سيارات "فورد" خارج مدينة كنساس، محطمة النوافذ ومحدثة ثقوباً وانبعاجات في أكثر من ألفي سيارة جديدة.

وسارع ويس الى تحليل بعض الرسوم البيانية والنماذج المطبوعة الماثلة أمامه. الرجل الوسيم اليقظ يعبث بشاربيه ويرسم المنحنيات برشاقة موضحاً التخوم الأمامية ومشكلا شبه

Condensed from «Tornado Watch # 211,» © by John G. Fuller, reprinted by permission of William Morrow & Company, Inc., New York. Illustration: Ron Defelice

خريطة جوية مسحية. الصورة التي برزت للعيان أنذرت بسوء: كتلة هوائية قارسة تتشكل فوق القطب المتجمد الشمالي مندفعة جنوباً في سبيل تصادمي مع كتل كبيرة من الرطوبة والهواء الشديد الحرارة المتجه شمالا من خليج المكسيك. خشبة المسرح على ما يبدو معدة لنشوب معركة بين كتل الهواء، ولكن لا معلومات بعد عن تكون احدى سلاسل الأعاصير الأكثر تدميراً في تاريخ الولايات المتحدة.

على مسافة ١٠٠ (( كيلومتر شرق مركز الارصاد، في الناحية الشمالية الغربية من بنسلفانيا غير بعيد من إري، تقع بلدة آلبيون الصغيرة الوادعة. هناك، وقت كان ستيف ويس يستهل حساباته في مدينة كنساس، كانت ليندا كواي تنشط في مواكبة أطفالها الثلاثة بيلي (١٠ سنين) ومايكل (٥ سنوات) وبوني سو (سنتان) لتناول طعام الفطور. كانت بداية عادية ليوم عادي: بوني سو تصيح من كرسيها العالي وبيلي ومايكل يلتهمان الحليب والكعك أمام جهاز التلفزة. منزلهم في جادة المتنزه الجنوبي بسيط وأنيق ومتين، وهو واحد من اثني عشر منزلا خشبي الهيكل مبنية في صف منتظم.

الحادث الأبرز في آلبيون ذلك اليوم مباراة في الكرة. وهي نوع من المسابقات المعدة لاطفال الروضة كمايكل. وحدد موعدها في المساء الباكر. غير أن الجو ماطر، وما لم تصف السماء فان احتمال اجرائها ضعيف.

طوال الصباح كان الطقس في آلبيون متقلباً. أخبرت احدى الجارات ليندا أن الطقس يجعلها ترتقب سوءاً. لكن الشمس كانت تذرّ قرنها ثم تتوارى، فصرفت ليندا اهتمامها الى أعمال المنزل.

على بعد بضع وحدات سكنية في شارع إيست بيرل كانت ساندرا ستالسميث تؤدي العمل الرتيب ذاته. انها حامل في شهرها الرابع، ولديها خمسة أولاد صغار ذوي نشاط: البنات بري (٩ سنوات) وبروك (٨ سنوات) وبرايس (سنة واحدة) والصبيّان لوك (٦ سنوات) وزاكاري (٣ سنوات). كان لوك متأخراً عن المدرسة فحضته ساندرا على الاسراع.

الأمور هادئة في الريف المجاور المليء بالهضاب المشجرة المتدحرجة والمتاخم للجنوب عبر مراع خضراء خصبة تنتشر في مزارع الآميش القريبة. والآميش جماعة شديدة البأس تخاف الله وتعمل في حراثة الأرض وتأنف تطفل العالم المادي المعاصر. في ذلك اليوم ركب بعض أفرادها عرباتهم التي تجرها الخيول في سبيلهم الى تجمع للنسوة العاملات في صنع اللحف، متحدين السيارات في "الطريق ١٨(" في بنسلفانيا.

في شارع ماركت بالقرب من وسط البلدة يجلس المحرر بوب ماكليموندز الى آلته الكاتبة العتيقة في مبنى صحيفة "الأخبار" بآلبيون، ويستعد لتسجيل أحداث الاسبوع وفق تسلسلها الزمني: مأدبة صغيرة من الدجاج والبسكويت في مركز التجمع، مزاد في سوق مفتوحة في نادي السروج. بوب المرهف الذكي يستمتع بدوره كمحرر في بلدة تثير ذكريات زمان أكثر بساطة.

علماء الأرصاد في المركز الوطني لرصد العواصف الشديدة معروفون بلقب "بوّابي الجحيم." فهم يقتفون الرياح الهوجاء والعواصف الرعدية. ولكن من بين العواصف الضارية التي يراقبونها تعد الأعاصير أكثرها تدميراً وعصياناً على الرصد. فهي المنقولة في أرحام عواصف رعدية بالغة الكثافة تدعى "الخلايا العملاقة"(١) تزعق منحدرة من سحب ركامية شاهقة وترسل بالتناوب رياحاً لا يمكن قياسها، ماصة أي شيء من عين أوزة الى عربات قطار.

## قناصة الموت

طوال سنين كان ستيف ويس وفريد أوستبي، الرئيس المناسب لمرصد العواصف في مدينة كنساس، يراقبان الأعاصير المهلكة التي لا يمكن توقعها. وكلاهما في العادة يفضل معالجة الاعصار المداري(٢) على الاعصار الدوّامي(٣). فالاول يتحرك ببطء نسبياً ويمكن اقتفاء اثره بسهولة، وثمة متسع من الوقت ليطلق المحللون انذاراتهم. أما الأعاصير الدوامة فتتوارى كالقناصة داخل العواصف الرعدية العنيفة وتثب بسرعة من مكامنها. وعموماً، لا يمكن المرء ان يعرف سوء مظان مخابئها. وكثيراً ما تتبدد قبل ان تضرب.

لم يشأ أوستبي وزملاؤه أن يطلقوا انذارات خاطئة. فتقرير اذاعة رصد اعصار هو مبعث ألم نفسي لديهم.

عند "زقاق الأعاصير"(٤) في السهول الواسعة بالغرب الاوسط الأمريكي يتنبه الناس الى التحذيرات عن العواصف. أما الى الشرق حيث تندر الأعاصير فتسود اللامبالاة. كما أن الانذارات الخاطئة تجعل الجمهور غير آبه للخطر. والسؤال هو: متى يطلق الانذار؟

تقع على مركز الارصاد بمدينة كنساس مسؤولية "رصد" العواصف الرعدية الشديدة والأعاصير في أي مكان من الولايات المتحدة. وتعمد المحطات المحلية للرصد الجوي الى اطلاق "تحذيرات." وكثيراً ما يخلط بين الكلمتين فتنجم أخطاء تسبب كوارث.

رصد الاعصار يعني ببساطة أن الظروف غدت مؤاتية لهبوبه من منطقة ما من دون التوصل الى تعيين الموقع المحدد. أما الانذار بالاعصار فيطلق في ظروف اكثر الحاحاً: حين يشاهد مراقب مسؤول زوبعة فعلا على الأرض - "أرض الحقيقة" كما تسمى - أو حينما يراقب "صدى سنارة" على شاشة محطة الرصد الجوي. وصدى السنارة شكل كسنارة صيد السمك المعقوفة يسببه اندفاع يدور بسرعة على احد محورين. وهو ظاهرة لا تبرز دوماً على الرادار، غير ان العين البشرية ما زالت هي المكشاف الموثوق به.

يسابق ستيف ويس الزمن منهمكاً في عمله خلف أطراف الدماغ الالكتروني. التقرير الرسمي عن استشراف الطقس الملبد سيرسل برقياً في العاشرة من ذلك الصباح، اذ تترقبه مئات محطات الأرصاد. فما الذي سيرد في التقرير؟

العواصف الرعدية الشديدة يتوقعها

(١) Supercells
(٢) Hurricane
(٣) Tornado
(٤) Tornado Alley




ويس. فاذا ما تقدمت جبهة البرد تحت الهواء الرطب المتقلب الدافىء الآتي من الخليج، فقد تتسبب في تكوّن سحب ركامية شاهقة يبلغ ارتفاعها ٢١ ألف متر وقطرها ١٦ كيلومتراً. وكل خلية من العواصف قد تكون حاضنة لنوع من الاعاصير.

عزم ويس وأوستبي على المضي في رصد العاصفة الرعدية. في العاشرة والدقيقة الرابعة عشرة صدر التقرير اليومي وفيه احتمال هبوب اعصار.

طوال اليوم راحت محطات الرصد الجوي في كليفلاند وبوفالو وألباني وفيلادلفيا وبتسبرغ تبحث في الحال بدقة مع ويس واوستبي. المحللون في هذه المحطات شاطروا ويس قلقه وحيرته. فثمة نقص غريب في النشاط الجوي فوق أوهايو الشرقية وبنسلفانيا الغربية، حيث يتوقع تصادم الكتل الهوائية وبروز علامات اضطراب. لكن هذه لم تظهر.

وفيما النهار ينقضي غدا الطقس اكثر ارباكاً. فحيثما كان من المنتظر ان تتشكل الغيوم الركامية، ظهرت شاشة الرادار صافية جلية.

رأى ستيف ويس الاشارات الاولى المنذرة بالخطر في الساعة ٣،٥٢ بعد الظهر. أمر لا يصدق. سحب ركامية هائلة تتفجر على شاشات الرادار كخلايا سرطانية خبيثة. وما لبثت الخلايا الضخمة أن أصبحت عناقيد كبيرة كوّنت خط زوابع بلغ طوله حوالى ١٦٠ كيلومتراً على الحدود بين اوهايو وبنسلفانيا.

رسم ويس اطاراً محكماً حول المدن داخل الطوق المرتقب أن يضربه الاعصار. وكانت ثمة مدن تؤلف خطاً شمالياً - جنوبياً على امتداد الحدود وهي آلبيون وأتلانتيك وويتلاند وبيفرفالز في بنسلفانيا، ونيوتون فالز ونايلز في اوهايو. وعلى نحو مشؤوم بدت المدن مصفوفة كقوارير "بولنغ"(٥).

واذ التفت ويس الى الرادار صعق لما رأى سرعة بروز الخلايا العملاقة على الشاشة. كل ما شاهده أقنعه بأن الظروف غدت ملائمة لهبوب اعاصير وعواصف رعدية. في الساعة ٤،١٥ تحوّل الى لوحة المفاتيح طابعاً عليها: "المناوبة ٢١١ لرصد الاعصار. بلاغ: الاذاعة الفورية مطلوبة... أعاصير... حبات برد كبيرة... احتمال التماع برق خطير... ليحذر الأشخاص في المناطق المهددة..."

---

(٥) البولنغ لعبة تصف فيها اشكال خشبية في شكل قوارير صغيرة وتدحرج اليها كرة كبيرة.

Map: George Buctel

وفقاً لسجلات المصلحة الوطنية الامريكية للارصاد الجوية فان الاعاصير الدوامة أدت منذ العام ١٩٤٠ الى مقتل عدد من الامريكيين يزيد على ضعفي عدد ضحايا الاعاصير المدارية.

كما أن الأعاصير الدوامة حالما تبرز من مخبأها تمكث على الأرض فترة تراوح بين بضع ثوان وما يزيد على ثلاث ساعات. وتقدر سرعة الريح داخل قمع الاعصار بحوالى ٥٠٠ كيلومتر في الساعة، على رغم عدم توافر أداة لقياسها.

وتراوح رقعة الدمار الذي يخلفه الاعصار بين أقل من متر مربع ومجاز مميت يربو على ثلاثة كيلومترات عرضاً و٣٢٠ كيلومتراً طويلا. والأعاصير الاكثر شؤماً تأتي في "عائلات" ويتبع أحدها الآخر فتطرق سبلا شتى عبر المدن والأرياف.

## الهجمات الناطقة

ما من منطقة في العالم تشهد وفرة أعاصير كالولايات المتحدة، اذ يضربها في المتوسط ٨٠٠ إعصار سنوياً، ومتوسط عدد ضحاياها ١٢٠ سنوياً. "زقاق الأعاصير" يتلقى هجمات بين الفينة والفينة. غير ان الزوابع الاكثر فتكاً والتي تخلف اكبر عدد من القتلى انما تهب على المناطق المكتظة بالسكان في الشرق والجنوب الشرقي.

واذ يعصف قمع الاعصار الابيض الضيق مدوماً، سرعان ما يستحيل اسود قذراً ويتسع منتفخاً بالأنقاض التي تمتصها قناته. وتدوّم حول القمع من الخارج مواد أخرى تبدو عن بعد كنسور تحوم حول جثة. ولدى التدقيق عن كثب تنقلب "النسور" سقوفاً وعوارض خشبية وألواحاً وحيوانات وشاحنات سودها الطين والقذارة.

وصفت أقماع الأعاصير بـ"الافاعي المتلوية" و"خراطيم الفيلة الغضبى" التي "تشفط" الاشياء الى أعلى كمكانس كهربائية عملاقة. ويوصف صوتها بأنه "لا يوصف،" الى تعبير "هدير ألف قطار سريع" الذي يستعمل أحياناً.

العواصف الرعدية الضخمة التي تسبب هذا الخراب تعلو في الجو الى ارتفاع ٢٠ كيلومتراً. ولا تكتفي بتوليد الأعاصير، بل تندفع بعصف صاخب وتغطي الأرض بالبرد القاسي في حجم كرات القاعدة (بيسبول) أو الليمون الهندي (غريبفروت).

التيارات الهوائية القوية المتوارية داخل الخلايا العملاقة مميتة، وهي ترتفع بسرعات اقصاها ١٦٠٠ كيلومتر في الساعة.

الرياح العاتية عالياً تأتي بالهواء الجاف. واذ يبرد الهواء بفعل التبخر ويدوّم حول التيار الصاعد، فانه يبدأ الهبوط في شكل تيارات هوائية نازلة. وينتج من ذلك دوران في اتجاه معاكس لحركة عقارب الساعة، وتنطلق حركة دائرية الى ارتفاع ٧٦٠٠ متر فوق الارض. ويدور القمع أسرع فأسرع ويشرع في الهبوط. وقد تمضي ساعة قبل أن يبلغ الأرض. وهو قد لا يبلغها مطلقاً.

ثمة بعض إلماعات لتحديد شدة الاعصار سابقاً. وفي الواقع يمكن قياس قوته بعد أن يبلغ ذروته.

تيودور فوجيتا أستاذ علم الأرصاد في جامعة شيكاغو بولاية إيلينوي يشبه الأعاصير بالمجرمين: "لا تستطيع الأعاصير الفرار من دون ان تترك بصماتها."

تعقب فوجيتا ما يربو على ٣٥٠ اعصاراً وعاين اكثر من ٦٤٠٠ كيلومتر من الآثار البشعة التي خلفتها الاعاصير. وهو ابتكر "مقياس فوجيتا" للأعاصير الذي يتدرج من "ف - صفر" الى "ف - ٥".

الأعاصير من درجتي "ف - صفر" و"ف - ١" تسبب أضراراً خفيفة ومتوسطة. انها تنسف النوافذ فتنتزعها من أطرها. فيما ينجم عن الأعاصير من درجتي "ف - ٢" و"ف - ٣" دمار كبير. فهي تمزق السقوف وتدك الجدران.

تقدر سرعة الرياح داخل الأقماع بين ١٨٢ و٣٣٢ كيلومتراً في الساعة. وتخلف الأعاصير من درجة "ف - ٤" دماراً رهيباً اذ تسوق رياحاً بسرعة تراوح بين ٣٣٣ و٤١٨ كيلومتراً في الساعة. والاعصار من درجة "ف - ٥" يحدث خراباً لا يصدق، ويُقلّ رياحاً يقدر البعض سرعتها بـ٤٨٠ كيلومتراً في الساعة.

في هذه المرحلة تقذف العارضات الفولاذية كقشّات مص المرطبات وتنهار جدران المنازل كالكرتون وتنسحق الشاحنات فتغدو مثل الاكورديون. ومع ذلك فقد تبقى المباني أو الشاحنات البعيدة حوالى متر عن طرف القمع سليمة. البيوت على أحد جانبي الشارع قد تسوّى بالأرض، فيما لا تصاب تلك الواقعة على الجانب الآخر بأذى. قد تجرّد دجاجات من ريشها وتبقى من دون أذى.

وثمة خط رفيع بين الدمار الشامل الذي يحدثه الاعصار والأمان الكلي خارج مساره.

## الحقيقة على الارض

ما ان اذاع ستيف ويس "بلاغ المناوبة ٣١١" حتى أفلت الزمام من المحطة الجوية بمدينة كنساس منتقلا الى محطات الأرصاد المحلية الرئيسية: اري وكليفلاند ويونغستاون وبتسبرغ. كل منها تتعامل مع الأخريات، وعليها جميعاً الابلاغ عن رصد الاعصار واطلاق انذارات بالعاصفة.

اندفعت اشارات الانذار عبر اذاعة الادارة الوطنية للجو والمحيطات. وبعد لحظات أذيعت أيضاً عبر نشرات الاخبار التلفزيونية واذاعات الهواة وأجهزة الاطفاء والشرطة وجهاز اذاعة الطوارىء في كل منطقة. وغدا السؤال الكبير: أيتنبه الناس الى الأمر أم يرتكبون هفوة الظن أن أي مكروه يحصل فلن يصيبهم هم؟

كان ريتشارد بومبوي القاطن في ضواحي بلدة آلبيون أحد المواطنين القلة الذين حملوا تقرير الاحوال الجوية على محمل الجد. وهو رجل مقعد استعاض عن نشاطه البدني بتطوعه للعمل في شبكة المصلحة الوطنية للارصاد الجوية. وعبر مذياع الهواة الذي يملكه كان يصغي الى الأخبار التي تبثها محطات الارصاد في اري وكليفلاند.

بعيد الرابعة تلقى بومبوي اشارة من كليفلاند بأن ثمة عواصف رعدية عنيفة تتحرك شرقا صوب بنسلفانيا. وكان

بومبوي أثبت على برجه الاذاعي آلة تصوير فيديو تغطي دائرة من ٣٦٠ درجة. وهو رأى كتلة الركام(٦) المكفهرة وهي تدنو. وأمكنه كمستطلع متمرس أن يتبين سوراً هائلا من الغيوم متدلياً على مستوى منخفض عند أسفل الخلية العملاقة، وهو نذير بالاعاصير. انتظر بومبوي متلهفاً فيما خلايا الرعد المشؤوم تدنو أقرب فأقرب.

في محطة إري كان ديف بيل يعمل في غرفة الرادار. فجأة شاهد على الشاشة أثراً واضحاً لـ"سنارة." كان بيناً. وفي اللحظة ذاتها ورد نداء اذاعي من بومبوي. الوقت يناهز الخامسة عصراً.

أعلن بومبوي: "لقد عاينت للحال اعصاراً لحظة ملامسته الأرض. إنه يتجه مباشرة الى آلبيون."

جاءه الجواب: "سنطلق على الفور انذاراً عن الاعصار."

في آلبيون داخل دائرة الاطفاء فوجىء المتطوع روجر سيلي بقعقعة مباغتة لحبات برد. وفي الشارع كان صبية يلعبون ضاحكين. ثم، ولأمر ما، رمى سيلي بصره الى السماء.

رأى في البعيد كتلة ضخمة رمادية اللون غير محددة المعالم وهي تتلولب شفافة كسائل البلاستيك الصافي. بدا كأن سرباً من الطيور يحوم مرتبكاً في جنون.

لكن سيلي حين أنعم النظر أدرك أن ما رآه ليس سوى كتل من الحطام تحوي سطوح منازل. ولاحت الكتلة المدومة بمجملها وكأنها تتجه نحوه مباشرة. فصرخ في الاطفائيين الآخرين فزجروا الصبية وأبعدوهم عن الشارع وأدخلوهم مبنى دائرة الاطفاء. ثم اطلقوا صفارة الانذار.

عادت ديبي شيرمان الى بيتها من عملها في مصنع لاجهزة التدفئة في ادنبورو المجاورة. أحضرت البريد ثم ركبت سيارتها الى المدينة من غير أن تعي أنها متوجهة نحو الاعصار.

أحد الجيران رآها وهو يعدو ليدخل شاحنته الصغيرة حظيرة الماشية، فحسب أنها في سبيل الاصطدام بالاعصار الهائل. وشرع يومىء اليها كي يحرفها عن الطريق، لكن الاعصار كان يتحرك على نحو غريب الاطوار ولم يبد أنها تسرع. لذا قر رأيه على أنها تعي ما تفعل. وكان على خطأ.

في أسفل الطريق شاهد قمع الاعصار يمتص السيارة الى علو ٦٠ متراً، فتسقط مهشمة في أحد الحقول وتقضي ديبي شيرمان على الفور.

في غرفة الجلوس بمنزلها في جادة المتنزه الجنوبي في آلبيون اطمأن بال ليندا كواي إذ علمت أن مباراة الكرة ألغيت. وكان زوجها تشارلي، الرئيس المساعد لدائرة الاطفاء التطوعي بآلبيون، اتخذ قراراً بذلك. وفيما ليندا تضفي اللمسات الاخيرة على مائدة الغداء، التقط مذياع تشارلي انذاراً مباغتاً: "ليذهب كل الاطفائيين الى مخفرهم حالا." وغادر تشارلي مقعده مسرعاً فيما اجلست ليندا ابنتها

(٦) كتلة الركام (cumulonimbus) سحب مكفهرة ترتفع قممها في شكل جبال أو أبراج وتطلق وابلا من مطر أو ثلج.

بوني سو في كرسيها العالي ونادت طفليها الآخرين الى المائدة.

في الوقت نفسه تقريباً بدأ كلب العائلة يئن وينكمش مرتعداً. ودوى قصف رعد هائل وانطفأت الانوار. لم يكن ذلك مستغرباً خلال هبوب العواصف، وكانت ليندا جهزت المصابيح الجدارية فشرعت تضيء شموعها.

ومن مكان قريب نظرت ساندرا ستالسميث من نافذتها فأبصرت ابنيها لوك وزاكاري وابنتها بروك يلعبون في عاصفة البرد المفاجئة. عندئذ تردد صدى صفارة الاطفاء، فنادت ساندرا الاولاد. وفيما لوك يدلف الى الداخل أخبر أمه ان احد الجيران سمع أن ثمة اعصاراً. لذا صاحت وهي في الطبقة العليا منادية ابنتها بري، وأمرت الجميع بالنزول الى الاسفل وانتزعت صغيرتها الرضيعة برايس من كرسيها النقال.

## السبات الأخير

في مكتب الاحوال الجوية في اري ظهرت على شاشة الرادار آثار "سنارتين" أخريين، احداهما قرب الغابات والمخيمات في متنزه بيماتوننغ على بعد ١٩ كيلومتراً جنوب آلبيون. وحدد موضع الاخرى بالقرب من جايمستاون وأتلانتيك، متوغلا مسافة ١٩ كيلومتراً اضافية الى الجنوب. وبدا محتوماً أن "عائلة" من الأعاصير الفتاكة على وشك تخريب الزاوية الشمالية الغربية من الولاية.

في آلبيون سمعت ليندا كواي الهدير يتعالى. صاحت في الاولاد ليهبطوا الى الطبقة السفلى ثم اتجهت لاطفاء الشموع ابتغاء للسلامة. في تلك اللحظة تكسرت جميع النوافذ في الاسفل وتطايرت شظايا الزجاج عبر الغرفة. ولاحظت ليندا بطرف عينها حركة خفيفة وأدركت مرعوبة أن بوني سو ما زالت في كرسيها العالي.

وفيما كسر الزجاج تتناثر في الغرفة جثت ليندا على ركبتيها ودبّت عبر بلاط غرفة الطعام صوب الكرسي العالي. واذ بلغته قلبته وانتزعت منه الطفلة ثم زحفت عائدة الى المطبخ وهي تحمي صغيرتها بذراعيها.

صعقت ليندا حين وجدت الاولاد ينتحبون عند باب القبو. لقد بلغت شدة الامتصاص حداً انها اوصدت الباب فلم يستطيعوا فتحه. فعمدت وهي لا تزال تحمل بوني سو، الى سحب الباب بكل قواها حتى انفتح. ثم انسلت والاولاد الثلاثة هابطين السلم الى القبو.

انخرط الاطفال في البكاء سائلين: "أماه، أماه، ما هذا؟"

رحل الهدير الفظيع ولم يبق سوى الصمت. وألفت ليندا نفسها تخاف الخروج من القبو وتخشى ما قد تقع عليه عيناها حين تخرج.

أخيراً استجمعت شجاعتها وقادت الاولاد فارتقى الجميع سلم القبو. كان البلاط بساطاً من الزجاج المكسور. الأشجار مهشمة في كل الجوانب المحيطة بالمنزل، غير أن الاعصار رأف به فأبقاه في مكانه. ومن بين اثني عشر منزلا الى جانب الشارع حيث يقطنون، كانت خمسة مدمرة تماماً وزال اثنان من الوجود.

عندما دنا المدير من شارع ايست بيرل احتجزت ساندرا ستالسميث كل أولادها في القبو. جمعتهم أمام الحائط الوحيد الذي لا تتخلله نافذة وخلف طاولة ثابتة كدست عليها جرار ملأى بالمعلبات.

شرعت، هي الحامل في الشهر الرابع، تصلّي وقلبها خافق. وحاطت لوك بذراعها اليمنى وبري باليسرى والتصقت بالجدار واقفة والطاولة امامها. القبو مظلم كئيب والاولاد يبكون.

ثم ندت ضجة زاعقة تلتها دمدمة مروعة. الألواح الخشب وجدران البيت كلها انهارت متفجرة الى الطبقة السفلى وملأتها انقاضاً. أحست ساندرا الجدار ينسحق خلف ظهرها ويدفعها ببطء في اتجاه الطاولة.

شدت جسمها الى الخلف بكل ما أوتيت من قوة وذراعاها تغمران لوك وبري. ولكن من المستحيل ايقاف تقدم الجدار. إنها الآن منحنية على نحو مضاعف، وهي ولوك منحشران عند طرف الطاولة. عنق لوك كان عالقاً، وذقن ساندرا تضغط رأسه من دون رحمة. أمكنها ان تشم شعره ورائحته المحببة. ثم أحست به يتنشق نفسين ويهدأ.

وفي لحظة يائسة لمحت بروك فجوة في الارض المتداعية. وعلى رغم ارتفاع الفجوة مترين فوقها فان بروك زحفت على الركام في اتجاه تصاعدي. وأشارت عليها ساندرا بأن تطلب النجدة. مضت عشر دقائق. وبقي الصمت سائداً.

وفيما واصل المراقب ريتشارد بومبوي استقبال رسائل لا حصر لها وبثها في المناطق المحيطة بآلبيون، كان رئيس دائرة الاطفاء هيرك شيرر يقترب من وسط البلدة. واذ بلغ شارع ايست بيرل في سبيله الى مخفر الاطفاء أصابه الذهول. بدا له كأن الشارع اختفى. الناس يركضون بين اطلال منازلهم صائحين نازفين. ستون بيتاً انهارت أو اقتلعت من اساساتها.

باشر المتطوعون من حملة الفؤوس والمناشير يرفعون الاشجار المنطرحة وأعمدة الهاتف كي يجعلوا الشوارع سالكة أمام فرق الانقاذ. وتحركت عربات الاطفاء مجازفة ببلوغ أبعد مسافة ممكنة قبل أن ينطلق المنقذون سيراً باحثين عن ناجين.

لم تعثر بروك ستالسميث على أحد يعين اسرتها، لكن المنقذين تمكنوا أخيراً من الوصول الى بيتها. جذب أحدهم بري عبر الفجوة أولا ثم انتزع زاكاري الصغير الذي كان يرتعش كورقة شجر. بعد ذلك حاول أن يرفع الألواح الخشبية فوق ساندرا ولوك. كان ذلك مستحيلا، فاضطر الى التوقف وغادر المكان وهو ينتحب راجياً ساندرا ألا تقطع الرجاء.

انقضى نصف ساعة قبل أن يصل اطفائيون آخرون. وعمد أحدهم الى رفع الارض والجدار، لكن ساندرا ولوك بقيا محتجزين قرب الطاولة. وتناول اطفائي آخر مطرقة ثقيلة مهشماً الطاولة، فتفتتت وسقطت ساندرا ولوك الصغير على الأرض فرفعهما الاطفائي خارجاً.

حاول الفريق انعاش لوك لمدة خمس دقائق، غير أن المحاولة أخفقت. وجلست ساندرا مذهولة أمام جثته.




ناجون يشقون طريقهم وسط الركام في آلبيون بولاية بنسلفانيا.

## صفارات انذار

المخيم السياحي في متنزه بيماتوننغ في لينسفيل معتزل فيه شاطىء رملي تحف به اشجار صنوبر باسقة. في الخامسة والدقيقة العاشرة، اي بعد خمس دقائق من عبور الاعصار آلبيون، كان المخيمون في عطلة نهاية الاسبوع جالسين ينظرون عبر البحيرة. وما لبث ان اتجه صوبهم من حدود اوهايو خرطوم أنبوبي الشكل متلوياً كخرطوم اطفاء مضغوط. وغطس المخيمون في الماء هرباً منه.

انتزعت مضيفة المخيم روث آلان جهاز الهاتف لتنذر الناظر جين هارت في مركز المتنزه بالقرب من جايمستاون. بعد دقائق اتجه الخرطوم الملولب نحوها مباشرة. وارتفعت مقطورة آلان منقلبة كمركب تنك في العاصفة. وهي قضت حين سقطت المقطورة عليها.

وفيما هارت يستل آلة التصوير لالتقاط صور لحبات برد في حجم كرات الغولف شرعت فجأة تسقط في الريف، تلقى اتصالا هاتفياً ثانياً من أحد حراس المتنزه حذره من هبوب اعصار. ثم رأى الزوبعة العملاقة في السماء. كانت تتحرك في اتجاه جايمستاون. في تلك اللحظة سمع صفارات انذار في جايمستاون. كان صفيرها يرتفع عالياً ثم ينخفض ليعاود ارتقاء السلم الموسيقي.

وفي منتصف السلم تلاشى الصفير فجأة.

عند أطراف الدماغ الالكتروني في محطة الاحوال الجوية في اري جعل المحلل ديف بيل يراقب على شاشة الرادار ثلاث "سنارات" تشير الى الأقماع القاتلة وهي تنتقل عبر آلبيون وأتلانتيك وجايمستاون. ثم توالت التقارير. وفي ما بعد صنف الزوبعة التي عصفت بمدينة لينسفيل بدرجة "ف - ٣" وزوبعة آلبيون بدرجة "ف - ٤" وتلك التي هبت على اتلانتيك بدرجة "ف - ٤".

واذ هم تشارلز بولي وزوجته من أتلانتيك بمغادرة بلدة ميدفيل المجاورة قرابة الخامسة مساء، اكفهرت السماء. ثم على نحو مباغت سطعت الشمس ثانية. توقفا لتناول مثلجات في مطعم. وبعد دقائق دلف زبون آخر أخبرهم بهدوء: "لقد محا الاعصار مدينة في أسفل الطريق."

وثب بولي إلى سيارته، فأوصل زوجته الى بيت أصدقاء واتجه الى أتلانتيك. وحين دنا من المدينة ألفى نفسه يتفادى الأشجار وأعمدة الهاتف الساقطة. واذ اقترب رأى الانوار الملتمعة وسمع صفارات انذار سيارات الشرطة والاسعاف. في وسط المدينة لم يتبق منزل واحد. مكتب البريد اختفى. وكل الاشجار جزت من أصولها. بدا المشهد أسوأ من صور الكوارث الحربية التي رآها.

غير أن الكنيسة نجت. وكان المبنى الوحيد الذي بقي قائماً في وسط المدينة.

في نيوتن فالز على الحدود في أوهايو استشعر رجل الاعمال كلايتون ريكس شيئاً ما في الهواء. حوّل جهازه اللاسلكي الى موجة اذاعة الرصد الجوي. وفي الرابعة والربع حين بث ستيف ويس نشرة رصد الاعصار من كنساس لم يضع ريكس وقته فاندفع الى العمل. انه رئيس مصلحة السلامة العامة في نيوتن فالز وعضو في المؤسسة التطوعية، لذلك كرس نفسه مراقباً للاعصار. اتجه قاصداً دار البلدية، وللمرة المئة تقريباً خلال عشرين عاماً ارتقى السلم الحديد الى السقف مستشرفاً الافق بأناة.

ومن السطح أطل على الأرض المنبسطة غرباً. كان لون السماء مخضراً على نحو غريب، وما عدا ذلك لم يكن ثمة شيء خاص يلاحظه. بدا كأن الأمر انذار خاطىء. لكنه شهر مايو (أيار)، الشهر الذي تهب فيه الاعاصير. مكث ريكس هناك نصف ساعة ولحق به معاونه لاري سيمباك.

راقب الرجلان الموقع بصبر لمدة ساعة اضافية. ثم ازدادت السماء ظلمة وقويت الريح. في الساحة تحتهما بجانب رواق رابطة المحاربين القدامى، بدأت مجموعة من النسوة تتوافد لحضور لقاء أسبوعي. انحنت النسوة وسط الريح ودلفن الى الرواق ملوحات لريكس وسيمباك. رد ريكس تحيتهن بانذار شديد: "ثمة عاصفة مشؤومة تتشكل. إن سمعتن الصفارة انبطحن تحت الطاولات أو اهرعن الى الطبقة السفلى."

ابتسمن له وقصدن الرواق وكان عددهن يقارب المئة والخمسين. وما لبث أحد الكلاب ان شرع ينبح بشدة، ولاحت من بعيد سحابة سوداء كبيرة. سحابة كهذه، بمفردها، تدل على هبوب ريح عنيفة

تسقط الأشجار. غادر سيمباك المكان ليحضر منشاره ذا السلاسل، احتياطاً.

بعد دقائق أدرك ريكس ان اعصاراً عملاقاً آت مباشرة في اتجاه وسط البلدة. سيتضح له في ما بعد انه بدرجة "ف - ٥".

أذاع برقية الى الشرطة: "أطلقوا الصفارات واختبئوا."

## محتجزون وسط الهشيم

انعطف القمع بشذوذ في شارع فورت ثم قصد مباشرة حيث وقف ريكس مراقباً. اندفع ريكس الى الفتحة الصغيرة في السقف منزلقاً على السلم الحديد وقدماه تكادان لا تلامسان الدرجات. بدأ المبنى القرميدي المتين يهتز. وعلى سلم الطبقة السفلى كاد ريكس أن يصطدم برجال الشرطة الذين هبطوا الى القبو ثم سحبهم امتصاص العاصفة الى الدرجات السفلى.

حين دوت الصفارات في رواق رابطة المحاربين الأمريكيين القدامى أسرعت النسوة الى الاختباء تحت الطاولة متكومات احداهن فوق الأخرى.

تعالى هدير الاعصار وشرع السقف يتداعى. ولمدة عشر دقائق انكمشت النساء مرتعدات تحت الطاولات.

تعاقب لامتناه من الانذارات بعواصف شديدة أصدرتها محطات الارصاد في اري وكليفلاند وبتسبرغ. كثير منها لم يُفهم أو أسيء فهمه. قلائل من الناس في نايلز بأوهايو يتنبهون الى النشرات الجوية. وحسبما علق أحد المقيمين في ما بعد: "نحن نتلقى بلاغات دائمة عن حال الطقس. ولا أظن أن أحداً استوقفه الأمر."

الاطفائي جين كروكيت جالس في مكتبه بجانب القبو حيث تحفظ محركات الاطفاء في محطة الاطفاء الثانية. وكان منهمكاً في مراجعة التقارير والمقالات حين سمع ما خاله طوافة تحلق على علو منخفض. سار الهوينى الى المدخل مستوضحاً نوع الطائرة الآتية. وانضم إليه الاطفائي المناوب رون رينالدي. واذ رمق الاثنان الجنوب الغربي شاهدا في البعيد ما لاح لهما كموجة مدّية بحرية تندفع إليهما مدوّمة. كانت الموجة كثيفة برميلية الشكل. وبدا كأن طبقة من الحصى تدور من الداخل والخارج حول قطر القمع البالغ ٤٠٠ متر. ولكن اذ دوّم القمع عن قرب أدركا أن "الحصى" هي قطع خشبية ضخمة وألواح معدنية تلتوي في الهواء. وتبدلت الضوضاء من صوت طوافة الى قطارات هادرة. تشبث الرجلان بخوذتيهما وجريا للاختباء.

عندما همدت الجلبة برز كروكيت ورينالدي بحذر من المبنى. كان مخفر الاطفاء سليماً ما عدا النوافذ والسقف. لكن قمع الاعصار ألقى سيارة اطفاء في الدرب، وقد اخترق لوح خشب احدى عجلتيها الاماميتين وغطتها بقايا الاشجار الساقطة مما جعل اخراج آلات الاطفاء منها متعذراً.

الصفارات تدوي. المذياع في السيارة المنكوبة يزعق ببرقيات متداخلة. إحداها ترتفع جلية: مخزن المواد الغذائية هشيم. الغاز يتسرب. الناس محتجزون. اختطف كروكيت ورينالدي فؤوساً وأدوات أخرى وانطلقا صوب المخزن. هناك عثرا

على طفلة حرراها من الركام ثم أعانا سواها واتجها الى السوق في ساحة متنزه نايلز التي تبعد كيلومترين ونصف كيلومتر. لم يبق من السوق سوى انقاض. وثمة امرأة مطروحة بين الركام تشدها الى الأرض خشبة من عمود الهاتف. وأخرى انتزعت فروة رأسها. وبلغت حصيلة القتلى في نايلز تسعة.

في غضون ذلك اتجه الاعصار مستجمعاً زخمه الى الشرق صوب ويتلاند على بعد ٥٠ كيلومتراً وقد بلغ اتساعه حوالى ٥٠٠ متر. ومع ذلك فإن الجو في ويتلاند أخذ يصفو، وكان الناس هادئين وفي ظنهم أن العواصف مرت.

## عيون مذهولة

هيلين دوبي رئيسة بلدية ويتلاند، تعيش مع زوجها في ربوة مشرفة على البلدة. إنها امرأة لبقة محبوبة محترمة تتصف بقوة ساكنة رزينة. قرابة السابعة من ذلك المساء جلست الى آلة الخياطة في بيتها. فتناهى الى سمعها نقر خفيف لحبات برد على الشبابيك، تلاه هدير طائرات نفاثة.

قالت: "اني لأعجب من أين أتت كل هذه الطائرات!"

فرد زوجها مطلا من النافذة: "هذه ليست طائرات." واسودت السماء بغتة فأضاف: "إنه إعصار!"

هرعا الى القبو. وصاحت رئيسة البلدية وهي تنظر الى البلدة بعد دقائق من رحيل الاعصار: "لقد امحت ويتلاند!"

بدت البلدة من مدخل بيتها وكأن محدلة بخارية طحنتها. لم تبقَ ثمة معالم تستطيع استقراءها ولا شوارع ولا أعمدة هاتف ولا منازل. المصانع سُطّحت مما جعل تمييزها مستحيلا. فجأة صفت السماء فغدت زرقاء.

استحوذ على رئيسة البلدية شعور بزيف الاشياء. منزلها لم يصب بأذى. كيف يمكن ان تتحول بلدة باجمعها أنقاضاً في ثوان؟

ركبت سيارتها وكأنها في غيبوبة، وشرعت تنحدر الى وسط البلدة. وعلى نحو مماثل للجماعات التي يصيبها بلاء كان الناس يمشون بذهول، كجثث بها رمق من حياة. هتف لها بعضهم باضطراب. وتعالى نحيب وصراخ من المطمورين تحت منازلهم. كبحت رئيسة البلدية عواطف الأسى التي تملكتها: ليس مسموحاً ان أظهر عواطفي، ساعدني يا الله.

بحلول السابعة والنصف مساء شقت أربع زوابع قاتلة طريقها شرقاً من أوهايو عبر بنسلفانيا. واندس اعصار في جوف خلية عملاقة. وبعيد الثامنة اندفع فجأة في بيفر فالز وضرب غابة اليغين الوطنية ومضى يمضغ ما يلقاه في مسار مستقيم عبر الغابات التي بدت كأن جزازة آلية جبارة حصدتها دائرياً.

ختاماً قرابة الحادية عشرة والنصف ليلا، تبددت العواصف. وفي الظلام بدأ الهواء الدافىء الندي في الخلايا العملاقة يبرد، وتباطأ اندفاع الهواء المتقلب الى أعلى.

مساحة ٣٤ ألفاً و٣٠٠ كيلومتر مربع ترنحت تحت تأثير خمسة أعاصير فتاكة. وتم احصاء ٣٦ اعصاراً أخرى توازيها فتكاً، بما فيها أعاصير عدة في

ولاية نيويورك وفي اونتاريو بكندا.

الأمر المثير للسخرية هو ورود المعلومات متأخرة الى المركز الوطني لرصد العواصف الشديدة في كنساس. وقد وصلت الانباء مجزأة الى هذه المدينة عبر البرقيات. أما العدد الاجمالي للضحايا ففير مؤكد: آلبيون ١٢ قتيلا و٨٢ جريحاً، أتلانتيك ٢٣ قتيلا و١٢٥ جريحاً، ويتلاند ٧ قتلى و٦٠ جريحاً، بيفر فالز ٩ قتلى و١٤٠ جريحاً، نايلز ٩ قتلى و٢٥٠ جريحاً.

وتبين ان حسابات ستيف ويس الجغرافية كانت فائقة الدقة على نحو عجيب. فقد شمل الخراب الامكنة نفسها التي حددها في توقعاته.

## تقدير الاضرار

في هذه الاثناء، فيما أوستبي يراجع التقارير الواردة، مضت المدن التي رزحت تحت وطأة الاعاصير تحاول التغلب على مصابها. وتكررت المشاهد ذاتها من آلبيون الى بيفر فالز.

المولدات النقالة المزودة مصابيح كاشفة تكتسح المنازل والمباني التي يصعب التعرف إليها. الأصدقاء والأقارب يائسون يبحثون عن مفقودين. الصفارات تعول. سيارات الاسعاف والشرطة تتلوى بين الأشجار الساقطة والأعمدة والمنازل القابعة وسط الشارع. المناشير ذات السلاسل تئن. الكلاب والقطط هائمة تبحث عن بيوت لم تعد موجودة.

كل مواطن سليم وقادر ساهم في الانقاذ وإزالة الركام وتقديم الطعام الى فرق العمل. واستنفر الحرس الوطني الامريكي وأرسل الى أواسط المدن بمواكبة الشرطة وفرق الاطفاء والكوارث والاسعاف وعناصر تابعة لادارات الطرق ومؤسسات الخدمات العامة.

ومرت بضعة أيام قبل تحديد الجزية النهائية من قتلى وجرحى ودمار. ووفقاً لاحصاء في كندا كانت الحصيلة ٨٨ قتيلا وما يزيد على ألف جريح. وفي بنسلفانيا كان أثر العواصف رهيباً لم يسبقه مثيل. فثمة ٦٥ قتيلا، أي اكثر من مجموع ضحايا الاعاصير المسجلة في تلك الولاية منذ العام ١٩١٦. وثمة ١٣٠٠ منزل مطموسة وما يربو على ٥٠٠ أخرى لحقها ضرر جسيم. وفضلا عن الصناعات المدمرة زادت خسائر الولاية على ربع مليار دولار.

وذهل الرسميون لقوة الزوابع وهم يشرعون في تقدير الأضرار. ففي نايلز طارت ثلاثة صهاريج عملاقة لخزن الغاز، يزن كل منها ٣٤ ألف كيلوغرام، وسحقت كأكواب من ورق وقذفت عبر أحد الشوارع. وفي ويتلاند كانت سطوح الفولاذ المتموج لعدة مصانع متجعدة حول الاشجار والأعمدة والبيوت والاسيجة وكأنها طائرت محطمة.

وحلّقت ثلّاجة آل سنوغراس مسافة ٤٠٠ متر وانتهى بها المطاف على سطح أحد المصارف. واختفى كلب أوثقه صاحبه الى شجرة باختفاء الشجرة حين ثار الاعصار. وبعد ثلاثة أيام عثر عليه حي في أحد الحقول مربوطا الى جزء من جذع الشجرة المهشمة!

العناوين الرئيسية التي تبدت لعيون مواطني المنطقة يوم السبت ١ يونيو (حزيران) كانت مروعة: الزوابع محقت منطقة بكاملها. أعداد من القتلى ومئات

الجرحى. ولكن كانت ثمة رؤى ملهمة. فعند بزوغ فجر ذلك اليوم شوهدت ظلال قافلة من العربات متجهة صوب جايمستاون وأتلانتيك. مقطورات وحافلات وسيارات تكدست داخلها أطعمة وأدوات وملابس. مزارعو الآميش والمينونيت الشديدو البأس يهرعون لمعونة من يحتاج الى مساعدة. إنهم مثال حي على اندفاع جميع الناس المهتمين متفانين لاعانة ضحايا الكارثة.

## غرباء وأقارب

عم الكرم والسخاء. فابتكرت شركة نشر الصحف في اري شبكة ضخمة لتوزيع الغذاء بمعونة التجار المحليين. واضطلعت بمهمات دار المقاصة فواءمت بين عروض الاسكان المجاني وحاجات المهجرين. وظهرت أبواب صحافية مرفقة ببيانات مثل:

- توماس كوفمان، ٦٣٦ شارع بنسون، وترفورد، لديه سرير في منزل وعربة مقطورة للتخييم تتسع لثمانية اشخاص.
- جاك ستتسون، ٥٥٧٥ شارع ميهل، يعرض مأوى ولديه مكان للدواب والماشية.

تدفق الاعانات غزير حيثما كان. إحدى شركات الأغذية حزمت شاحناتها بالأطعمة ووجهتها الى البلدات المنكوبة. حوانيت البقالة ومطاعم الوجبات السريعة ومحلات الخردة أخلت رفوفها من البضائع. وفتحت الفنادق أبوابها لايواء المشردين. كذلك المدارس والمباني الحكومية والكنائس. ووجهت البلدات المجاورة نداء للمساعدة.

قال أحدهم: "لقد انبثق موقف ايجابي تجاه الفاجعة لم أره قبلا."

والواقع أن هناك اختلافات عقائدية بين جماعتي الآميش والمينونيت. فالآميش يتمسكون بالأعراف والتقاليد القديمة، ويصرون على ألا يطغى المادي على الروحي، فيما تتقبل جماعة المينونيت وسائل رفاه العالم المعاصر بتحرر اكبر. لكن كلتا الجماعتين تتفانيان في الاستجابة لنداء بني البشر بصرف النظر عن عقائدهم.

قافلة العربات شقت سبيلها في اتجاه أتلانتيك صبيحة يوم السبت برعاية مصلحة الكوارث التابعة للمانونيت، وهي منظمة انشئت لمساعدة الناس في ارجاء الولايات المتحدة وكندا حين تحل الفواجع. وفي النشرة التي توزعها تلك المصلحة حين تنزل عند جماعة ما: "قد نكون غرباء عنكم لكنكم جيراننا. قد لا نقدّر خسارتكم حق قدرها، لكنا نود أن نساهم في تحمل العبء معكم. كلنا رغبة في مد يد العون اذا أمكن ذلك."

أشرقت شمس السبت في أتلانتيك على جماعة الآميش الملتحين معتمرين قبعاتهم القش العريضة ومرتدين سراويل قديمة الطراز وهم ينتقلون من مزرعة الى اخرى حاملين المناشير والعتلات والمطارق. قال أحد المتطوعين: "الناس هاهنا لم يعلموا بمجيئنا. نحن لا نريد الا المساعدة في ترتيب الفوضى التي حصلت."

حافلات أقلت نحوا من ٨٠٠ متطوع الى المناطق المنكوبة في بنسلفانيا وأوهايو، فراحوا يرفعون دعامات ويدكّون

أخرى، وهم ينشرون الاخشاب ويكومونها ويعدون النفايات لنقلها بعربات اليد قبل الانتقال الى بلدة أخرى.

"منغص"

مسارات الاعاصير تحدث أحافير في المناظر الطبيعية، وهي ندوب بشعة قد تبلغ ثلاثة كيلومترات عرضاً و٨٠ كيلومتراً طولا. وتخلف ايضاً ندوباً نفسية ليس فقط في الذين تهاجمهم بضراوة ولكن أيضاً في الذين لم يصابوا بأذى.

في نيوتن فالز كانت كارولين سيمباك زوجة معاون رئيس مصلحة السلامة العامة تشعر بالذنب على نحو غريب. فمنزلها اصيب بأضرار طفيفة فيما امحت بيوت عدد من جيرانها. والعلامة الأخرى التي لاحظتها بعد انقضاء العاصفة هي جزعها من اي مطر او ريح او سحابة تظهر فجأة. وكان خوفها يزداد كلما حاولت ضبطه.

في آلبيون كان المحرر بوب ماكليموندز في صراع مع عواطفه أيضاً. فقد رحلت الرياح الدوامة ولم تمس منزله وأسرته بأذى، كما أنها أخطأت مبنى صحيفة "الأخبار" بأمتار. واذ أدرك ان صحبه وجيرانه فقدوا من يحبون، عسر عليه أن يجلس الى آلته الكاتبة. ومثل كثير من الناجين شعر بانزعاج ممضّ هو "إثم الاعصار."

ولاحظت مساعدته المحررة فيكي كانفيلد بيترز انها ما إن تشرع في

عناصر من الحرس الوطني يساعدون منكوبي آلبيون.



AP / Wide World Photos

طباعة أخبار النعي حتى تجهش بالبكاء. وبدأت تعاني ارقاً وفقدان شهية. ومرت أوقات أحست أنها تشارف الجنون. وحين أجرت مقابلة مع المستشار الصحي جيري اردلي فرّج عنها اذ علمت أن ردود افعالها طبيعية بعد مأساة كهذه.

وشجع الاطباء النفسيون الناس على التحدث عن تجاربهم ما استطاعوا ذلك. ونصح بأسلوب المحادثة مع الاطفال. وبذلت ساندرا ستالسميث وسعها لكتم حزنها بعد وفاة ابنها لوك. وراقبت أولادها الآخرين بعناية بحثاً عن آثار ما بعد الصدمة أو أمارات الكآبة.

لوهلة بدا أنهم غير متأثرين بالحادث. لكنها ذات يوم وجدت زاكاري منتحباً تحت ملاءته وهو يقول انه راغب في رجوع لوك. وانفجرت ابنتها بروك باكية حين كانت تتصفح صور العائلة. لم تبك بري (٩ اعوام) قط، لكنها عند أول علامة لهبوب عاصفة بدأت ترتعد بقوة. حتى الصغرى برايس أشارت الى السماء قائلة: "لقد ذهب لوك."

ساهم تدفق المعونات في تلطيف آلام ضحايا الاعصار. كما أن حضور أطراف خارجية كالحرس الوطني وشرطة الولاية والصليب الأحمر أضفى شعوراً نفسيا بالأمان. ولكن في نهاية المطاف، كان ثبات سكان المدينة هو ما جعلهم يجتازون المحنة.

كانت الشجاعة بادية في كل مجموعة. علقت الاعلام على الأعمدة في اكوام الركام التي كانت بيوتاً في ما مضى. اللافتات التي كتبت فيها كلمات بالدهان عكست سهولة تكيف الناس. وقد صيغ بعضها بروح دعابة ساخرة: "منزل رخيص برسم البيع" و"نبيع أدوات منزلية مستعملة بحسم ١٠٠ في المئة." ولافتات أخرى صريحة: "جميع الناس مهمون هنا." وبعضها موحٍ: "يا سكان آلبيون... ثابروا... نحن نحبكم."

وتجلت قوة أعصاب الناس في بيتر ستيبنسكي أحد سكان آلبيون منذ ٣٣ عاماً. كانت شقيقته تسكن في مقطورة في الشارع الواقع خلف مقطورته. وهي قضت عندما انفجرت المقطورة في الاعصار. واذ سئل ستيبنسكي هل سيرحل وأسرته عن البلدة المدمرة أجاب: "لن نذهب الى اي مكان." ثم نبش ركام قاطرته فعثر على بذلة حسنة المظهر ارتداها وتوجه لحضور مأتم شقيقته.

وقد أفصح بوب ماكليموندز عن هذا الشعور في صحيفته حيث كتب:

"في الساعة ٥،١٥ ليل ٣١ مايو (أيار) قضى ١٢ مواطناً من جماعتنا في الثواني المعدودة التي أمضاها الاعصار مكتسحاً آلبيون. وقد تلاشى ثلث المنازل تقريباً.

"بلدتنا الصغيرة تلقت اصابة بالغة. الجرح عميق ومؤلم، لكنه غير مميت. فروح الجماعة لا تقصر عن الاعاجيب.

"ستعود بلدتنا، وسننهض."

جون فولر

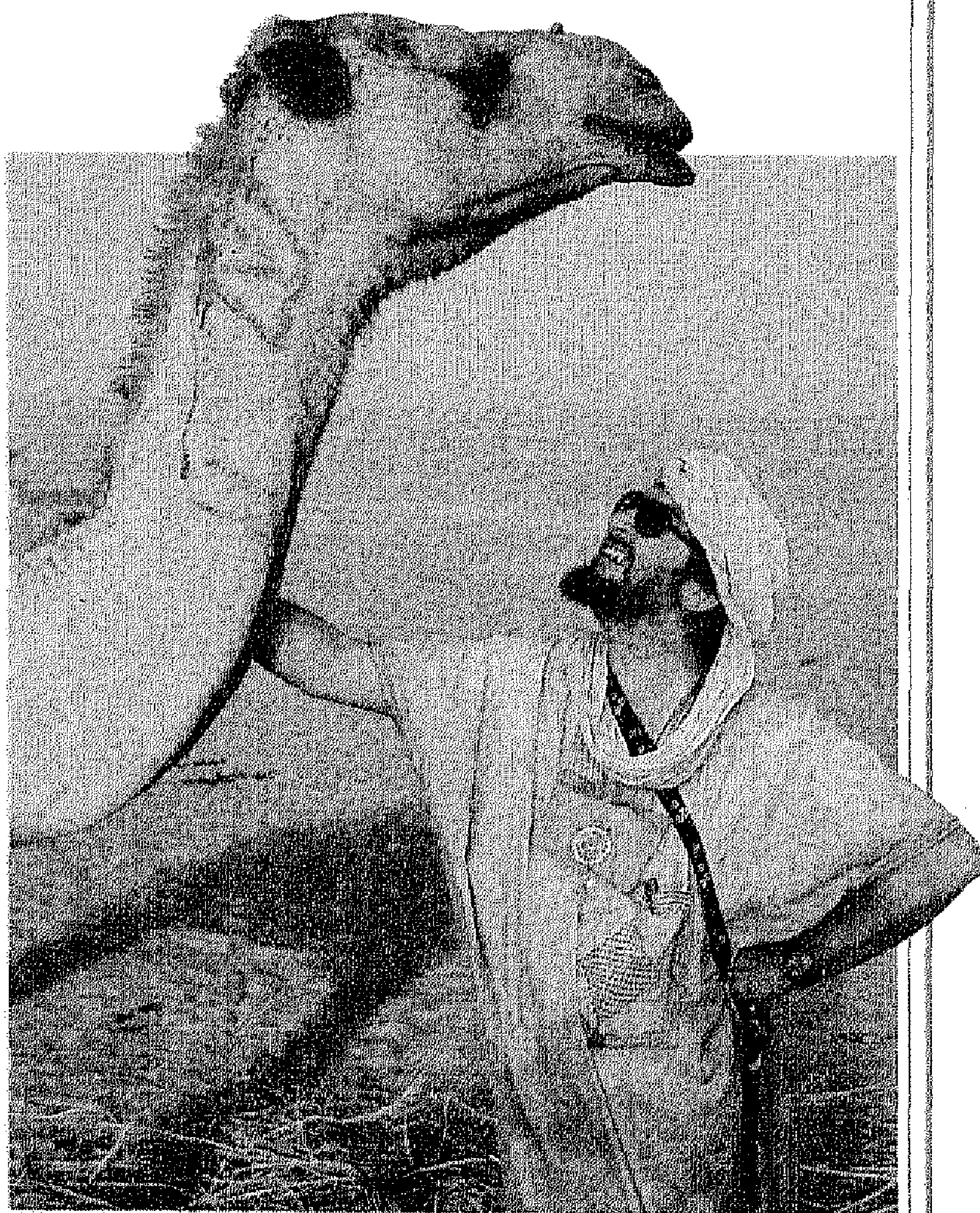


لا تبدو الحياة خادعة أو خائنة للرجل المدرك الموهوب، فهو بارع في التكيف معها.

ج٠م٠

خاص ١

# نزهة في الصحراء الكبرى



بقلم

تيد ادواردز

عام ١٩٨٣ بدأ تيد ادواردز من مقاطعة مانشستر في بريطانيا رحلته لاستكشاف الصحراء الكبرى في شمال افريقيا مصطحباً ناقتين. كان ينشد الهروب من الحياة اليومية وتحقيق حلم طفولة والبحث عن مغامرة. وهو أنجز طموحاته هذه بتحديه كبرى صحارى العالم، فاكتشف أيضاً عظمة إصرار المرء على البقاء.

وكتاب "خلف الواحة الأخيرة" تقرير عن تلك "النزهة" في الصحراء كما يحلو له أن يسميها. وهي رحلة مدهشة محفوفة بالاخطار وضعت تيد ادواردز في مصاف كبار الرحالة المعاصرين

# نزهة في الصحراء الكبرى

Condensed from «Beyond the Last Oasis,» © 1985 by Ted Edwards,
published by John Murray, London

بدأت القصة مع العقرب. فلما كان ليل الصحراء دافئاً أخرجت قدماً من فراشي لأبرّدها. لكني ما لبثت أن أحسست لدغة، وانساب ألم لاذع حارق انتشر في رجلي وسرعان ما عصر قلبي.

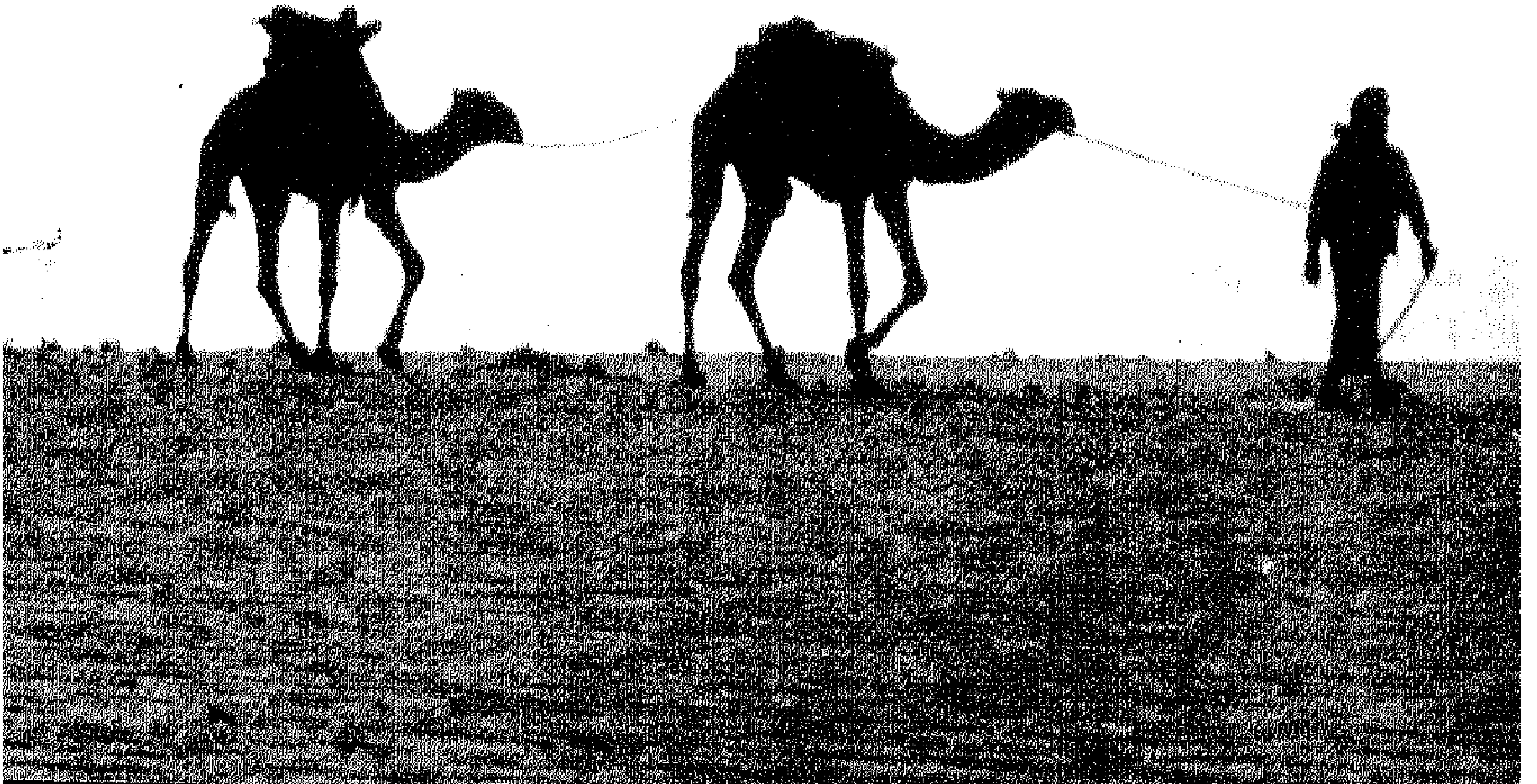
ومع أن مسكنات الاوجاع لم تجدِ إلاّ قليلا فقد حاولت أن أهدّىء من روعي متذكراً أن لدغات العقارب ليست مميتة إلاّ للصغار وأصحاب البنية الهزيلة. أما أنا، عامل الفولاذ الذي يزن ٨٩ كيلوغراماً، فلم أكن من هؤلاء ولا من أولئك.

وفعلا، قبيل الفجر انحصر الألم في رجلي. لكن المصائب، كما ورد في القول المأثور، لا تأتي فرادى. فخلال الليل أهرقت بضعة ليترات من ماء الشرب الذي كنت أحرص عليه، اذ هوت إحدى صفائحي الاربع على الرمل، وهي تلك التي تحمل سدادة غير محكمة.

وهكذا لم يعد في حوزتي سوى ٤٥ ليتراً ولم أكن بعد إلا في اليوم الرابع من رحلتي التي قدرت أنها ستستغرق ١٦ يوماً. فسوف أعبر وحيداً "الربع الخالي" من الصحراء الغربية، أي ما يزيد على ٥٥٠ كيلومتراً بين قرية أروان في مالي وقرية أولالاتا في موريتانيا. وما زالت أمامي مسافة ٥٠٠ كيلومتر تقريباً. أما ناقتاي "تراد" و"بيغي" اللتان تحملان زادي، فقد شربتا كفايتهما قبل انطلاقنا. لا شك في أن الـ٤٥ ليتراً تكفيني، ولكن لم يبقَ لي ماء احتياطي.

في الليلة التالية نصبت خيمتي في وهدة واستلقيت مرهقاً بعدما أجبرت على جرّ الناقتين متمسكاً برسنيهما عبر كثيبات يغرق الكاحل في رمالها. لكني لم أنم طويلا، فبعيد منتصف الليل هبت عاصفة رعدية وراح البرق يلمع في سماء مكفهرّة وكأنها تحذر ذاك الغريب الذي تجرأ على ولوج مملكتها. وعند بزوغ الشمس كانت ناقتاي غابتا عن النظر.

وبات الوضع خطيراً. فها أنا وحيد في كبرى صحارى العالم وقد بلغت نقطة تستحيل العودة منها، اذ تضاءلت فرص رجوعي ماشياً الى أروان، تلك القرية الصغيرة جداً، وان استعنت ببوصلة. وتعذر علي أن أحمل ما يكفيني من الماء



لأصل الى أوالاتا. لذا كان لا بد لي من العثور على ناقتيّ.

كان اتساع الوهدة التي نصبت فيها خيمتي حوالى ٥٠٠ متر. فأمضيت نصف ساعة أدور حول حافتها وأبحث عن آثار أخفاف الناقتين. لكن خف الناقة لا يغرق في الرمل، لذا فانه لا يترك إلّا آثاراً ضحلة حتى في أفضل الشروط. وقد حوّلت الامطار الغزيرة الرمل كتلة من الحفر العميقة الصغيرة.

فجأة لمعت فكرة في ذهني، فتذكرت أن خف الجمل يحمل ظفرين كبيرين تفصل واحدهما عن الآخر أربعة سنتيمترات أو خمسة وهما يخلّفان ثقبين توأمين حيث حلّا. ولا شك في أن تراد وبيغي أضطرتا الى التشبث بالأرض بواسطة أظفارهما وهما تصعدان من الوهدة. كان لا بد لي إذاً من البحث عند السفح الأكثر انحداراً.

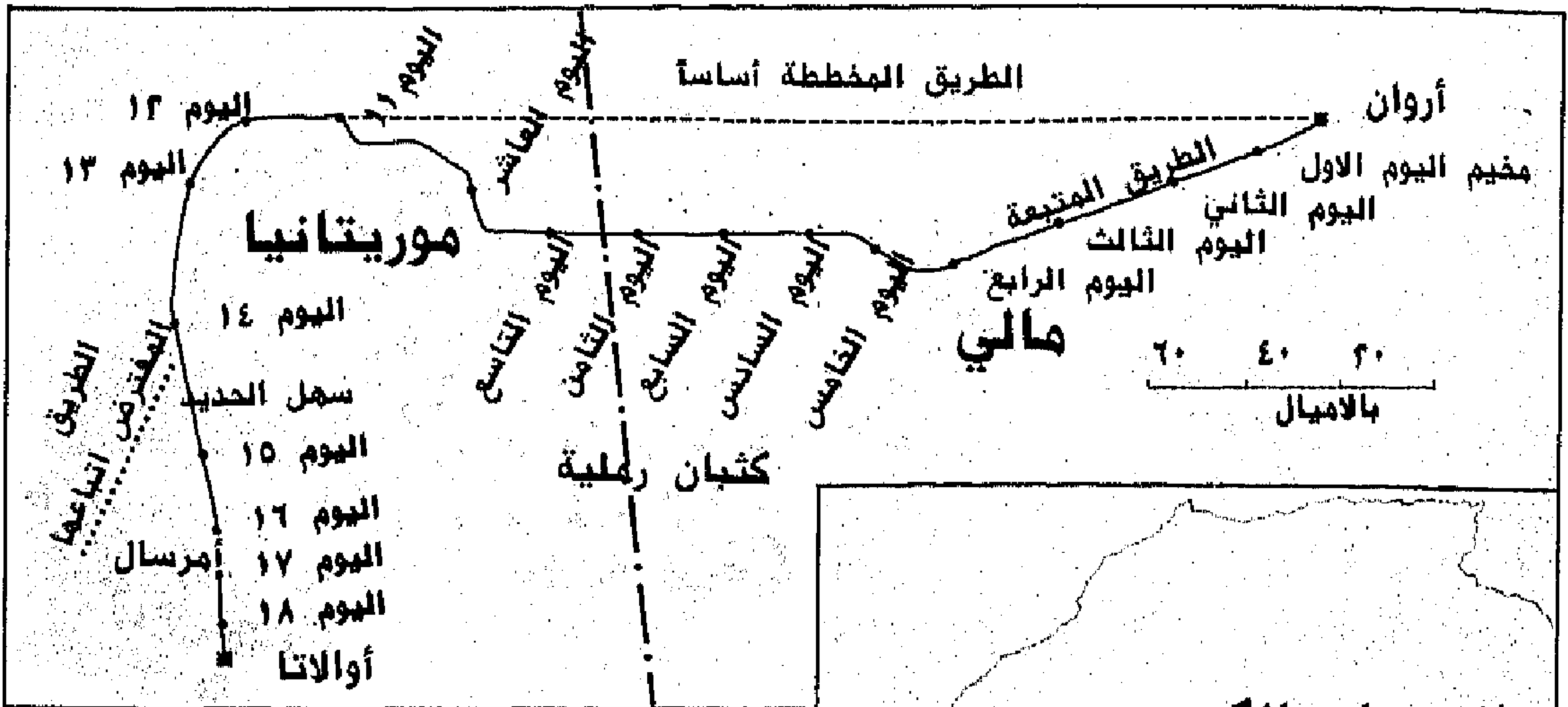
بين ملايين الحفر التي أحدثتها قطرات المطر في أرض الصحراء ما كنت لأفلح في رؤية الآثار المنتظمة لو اكتفيت بالتحديق الشديد. فالوضع يحتاج الى "نظرة نصفية" وهي خدعة تعلمتها عندما كنت ولداً أقتفي آثار الأرانب على العشب الأخضر في الصباح الباكر. فالتحديق عن كثب لا يظهر إلّا العشب الأخضر في كل مكان، لكن النظرة النصفية من أطراف العينين قد تكشف خطاً واضحاً حيث لم يعلق على الاعشاب الا قليل من الندى. وهكذا نظرت بطرف عيني فاكتشفت آثار الاظفار التي خلّفها مرور الناقتين. فاقتفيتها الى الوهدة التالية حيث أضعتها ثم وجدتها ثانية. وبعد ثلاثة كيلومترات، في وهدة خفية أخرى، عثرت على الناقتين المبللتين تمضغان ما اجترّتاه وكأن شيئاً لم يكن. وكنت ألفت عادة التحدث الى تراد وبيغي وكأنهما رفيقتان واقتنعت بأنهما تعبران عن آرائهما بالتخاطر. وحدّقت اليّ بيغي غير مبالية: أظن أنك تنتظر منا أن نحمل أمتعتك في هذا الطقس الرهيب. أما أنا فغمرتني موجة من الارتياح.

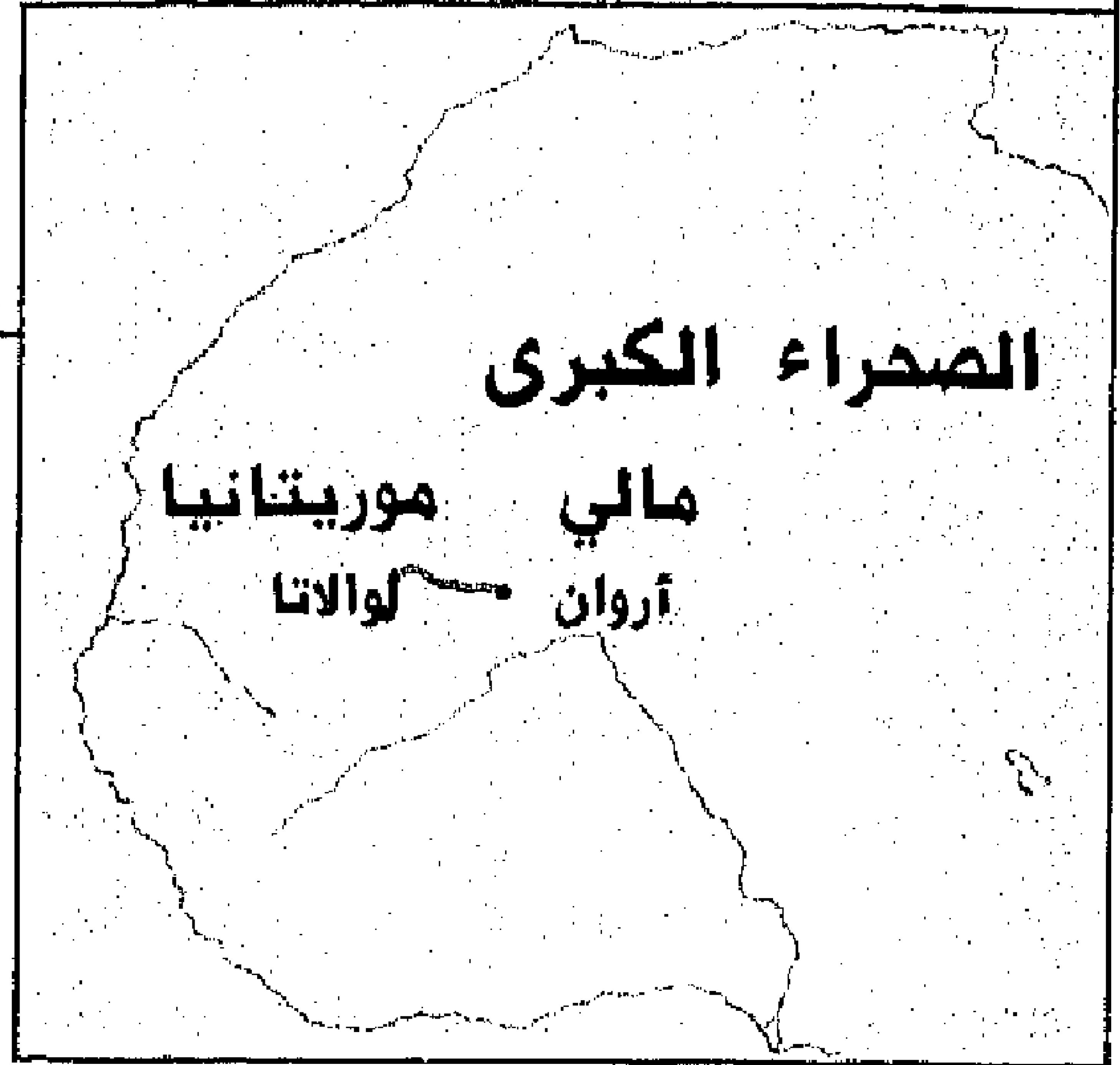
## فرصة العمر

في الثامنة والنصف كانت الناقتان محملتين زادي وعتادي وتابع الموكب العظيم مسيرته. رفعت طرف عباءتي فبدوت كاغريقي. أما رجلي الملدوغة فكانت تتماثل. وكنت عوّضت جزءاً من ماء الشرب الذي أهدر بجمعي ماء المطر في ملاءة بلاستيكية. ولما تحققت من صحة وجهتي بواسطة الخريطة والبوصلة دهشت إذ وجدت أن تقديري للمسافة كان صحيحاً. فتحوّلت مشيتي المرهقة مشية نشيطة ورحت أثب فرحاً وأنا أهبط الى الوادي الممتد أمامي.

وبعدما تناولت غداء مميزاً قوامه سمك سردين ومعجنات وحساء بصل وبندورة (طماطم) طلعت الشمس فجففت عدتي. وشعرت بأن العالم بهيّ ورائع. فكلما ارتقيت مرتفعاً امتدت أمام ناظريّ اودية جديدة يبلغ عرض كل منها حوالى ٤٠٠ متر وعمقها ٣٠ متراً. واختلجت نفسي إذ أدركت أنني ربما كنت الانسان الأول الذي يطأ هذه الأرض ويرى روائع مناظرها.

لقد خلّفت عبء الحضارة ورائي. وها أنا أعيش الآن حياة مختلفة تماماً، جلّ ما




يهمني هو الوصول الى أوالاتا. وغمرتني سعادة لا أتذكّر أنني شعرت بها من قبل.

اتّقد حبي للصحارى في طفولتي عندما تلقيت هدية كانت كتاباً فيه قصص مصورة حيث بدت الجمال حيوانات نبيلة جداً. فعقدت العزم على أن أمتلك واحداً ذات يوم وأسافر في الصحراء.

وفي العام ١٩٧٩ عندما أصبحت في الأربعين من عمري كنت أعمل في صناعة الفولاذ وأعتبر أستاذ مسرح مؤهلا للتعليم ولكن عاطلا عن العمل. وصادفت كتاب جيفري مورهاوس "الخلاء الرهيب"(١). ففي هذه القصة الكلاسيكية التي تروي محاولته الفاشلة عبور الصحراء على ظهر جمل عام ١٩٧٣، جزء أثار تشويقي حيث

يذكر المؤلف ان المنطقة الممتدة من أروان الى أوالاتا ما زالت غير مطروقة. فصعقت للأمر إذ كنت أظن أنه تم اكتشاف القارة الافريقية بأسرها. وكم هو مدهش أن أعرف أن ثمة منطقة لم تطأها قدم بعد. وهنا راودتني أحلامي القديمة وتوقي الى اكتشاف الصحراء. وقررت قبول التحدي. لقد أمضيت أشهراً عدة في تقديم طلبات للعمل وتلقي ردود بالرفض حتى شعرت أن المجتمع يعتبرني عنصراً تافهاً. اخيراً وجدت مبتغاي، فغمرتني النشوة.

بحثت أولا عن نصيحة الخبراء. فنبهني جيرارد مورغان - غرينفيل، وهو واضع كتيب حول الصحراء، الى وجود حديد خام في تلك الارض قد يؤثر في بوصلتي. لكن هذا الحديد الخام أنقذ حياتي، كما اتضح لي في ما بعد.

وعمدت الى شراء خرائط للمنطقة الممتدة بين أروان وأوالاتا. فتبين لي أنها رسمت بناء على صور فوتوغرافية

(١) The Fearful Void

التقطت من الجو، وهي لا تظهر سوى اتساع الكثبان الهلالية الشكل التي تمتد بين المستوطنتين. وفي ما عدا ذلك كان امتداد العدم الفسيح مقلقاً. وأذكر أنني دوّنت في يومياتي: "اللوهلة الاولى، امتلكني الخوف."

بعد تفكير مليّ عزمت على استئناف الرحلة وحيداً، لأنني قرأت أن معظم المشاكل التي تواجه الرحّالة في الصحراء تنشأ على ما يبدو من علاقتهم برفقاء سفرهم. ثم رأيت أنه يمكن الاعتماد على الجمال أكثر من السيارات، فقصدت تونس لأتعلّم كيف أسوقها وأتعامل معها.

وهناك لازمت قافلة متجهة الى واحة بن شرود، فاكتشفت أن الجمل لا يرتقي إلا الروابي القليلة الارتفاع وأن ركوب جمل نزولا على منحدر أمر يثير الرعب، اذ تبدو مفاصله كأنها على وشك التفكك فتسمع طقطقتها وتشعر بارتجاجها. أضف الى ذلك أن الجمل يصدر أصواتاً حنجرية تحاكي القرقرة في مصرف المياه، أما رائحته ففريدة لا تمت بصلة الى أي رائحة اخرى.

وسددت ديني للذين علّموني ركوب المطية فعملت لديهم بدلا من أن أدفع لهم مالا. وهكذ وصلت الى أروان من غير ان أنفق كثيراً. وكان يلزمني ألف جنيه استرليني (١٦٠٠ دولار) لأرتّب رحلتي. فشرعت أعطي دروساً خصوصية، وبعت بعض مقتنياتي، وكنت لا أتناول من الطعام الا اليسير.

اما اصدقائي فشكوا في صحة قواي العقلية عندما أخبرتهم بقراري. ولم يكونوا الوحيدين. فمدير صحيفة "صانداي تايمس" الذي طلبت منه رعاية مغامرتي أجابني: "بصراحة، إن رحلتك كما وصفتها لي تبدو انتحارية." غير أن الصحافي أليستير ماكدونالد العامل في شبكة «BBC» التلفزيونية الشمالية الغربية أجرى معي مقابلة قبيل ميلاد ١٩٨٢، فذاع صيت رحلتي. وبعد يومين أتى يسألني أن يصوّر جزءاً منها ليبث كشريط وثائقي على شاشة الـ«BBC» .

## ثمن المجازفة

في فبراير (شباط) ١٩٨٣ كنت في أروان مع أليستير وفريق التصوير المؤلف من ثلاثة رجال. وكنت اشتريت ناقتين وسرجيهما بنحو ٦٥٠ جنيهاً (١٠٤٠ دولاراً). وسميت الناقة البيضاء بيغاسوس(٢) مذ شاهدتها بالقرب من المطار، وسرعان ما رحت أدعوها بيغي تصغيراً. أما الناقة البنية فكانت تهاب السيارات. ونظراً الى خوفها هذا من التقدم دعوتها "ترادیشونال" أي "تقليدية" وبتّ أدعوها "تراد" تحبباً.

وصوّرني أليستير ثم انطلق بسيارته سالكاً الطريق السهلة التي يجتازها المسافرون جنوب الكثبان الرملية ليتسنى له تصوير وصولي الى أوالاتا. في هذه الأثناء حذرني مرشد عربي في أروان: "ابتعد ما استطعت عن الكثبان الرملية والا هلكت في أقل من ثلاث ساعات." لذا، عندما انطلقت من القرية بعيد بزوغ فجر ١٠ فبراير (شباط) عزمت على أن أتجنب الكثبان فأسلك الطريق الشمالية وأسير

(٢) البيغاسوس حصان أسطوري مجنح.

في محاذاة طرفها الغربي. لا شك في أن هذه الطريق المنعطفة تطيل رحلتي من ٥٠٠ كيلومتر الى ٥٥٠ كيلومتراً لكنها تقلل اخطارها.

وما لبثت ربلتنا ساقي أن آلمتاني بفعل حروق الشمس، لكني قررت أن أسير في هذه المرحلة الأولى بدلا من امتطاء احدى الناقتين حرصاً مني على عدم اهدار قواهما.

وهكذا أوثقت رسن بيغي بتراد، وأوثقت رسن تراد حول وسطي. وجدير بالذكر أن المرء يسير على الرمل بخطى قصيرة وسريعة، فاذا بوَطْء قدمي وقرقعة أحمال الناقتين، يرجعان صداهما عبر الاودية الساكنة. وهكذا اجتزنا في اليوم الأول مسافة ٤٥ كيلومتراً وفي اليوم الثالث مسافة ٣٥ كيلومتراً. ولم نر شجرتنا الاولى إلّا في اليوم السابع بعيد الحادية عشرة قبل الظهر عندما جاوزت الحرارة ٣٢ درجة مئوية. فجحظت عينا تراد وسال لعاب بيغي. توقفت. وشرعت الناقتان في مهمة تشذيب الشجرة. كانت ترتفع ثلاثة أمتار وتحمل أوراقاً شائكة وقد امتلأت بالنسغ. بدا لي ان تلك الشجرة هي طعام الجمال المفضّل. ولم أكن أعرف اسمها، ولكن بما أنها ظهرت في ساعة الغداء فقد سميتها "شجرة المنّ". واكتشفت في ما بعد أنها تدعى "شجرة الطرّفاء". وعلمت أن عرْب الصحراء يصنعون من نسغها حلوى يدعونها "المنّ."

في اليوم الثامن حملنا رحالنا وبدأنا سيرنا في تمام السابعة والربع صباحاً. وكانت الشمس تصارع سحباً متناثرة. واذا بي أرى ثعلب صحراء ينقضّ من أجمة شجيرات بجسم لا يتعدّى طوله ٤٥ سنتيمتراً وذيل طويل كث. ثم رأيت سحالي خضراء وخنافس سوداء، وفي بعض الأحيان غراباً وهو جامع القمامة في الصحراء ينسلّ من تيارات الهواء باحثاً عن كل ما هو مائت. أما الذباب فلازمني طوال رحلتي، يطنّ في أذني ويزحف على شفتيّ وحول أنفي وعينيّ.

وامتدت الكثبان الى يساري بتلالها الرائعة التي يرتفع بعضها مئة متر، فبدت عند مروري وكأنها تنهض من كبوتها في حين رحت أنا أغرق في رمالها حتى كاحليّ اللذين تلاشى فيهما الالم من حروق الشمس. أما ناقتاي فكانتا تنفران من مواجهة المنحدرات، فلم يكن لي بد من جرّهما. لذا اتضح لي أن عملية الاستكشاف تحاكي عمل العباقرة: فعشرة في المئة منها إلهام وتسعون في المئة عرق ينضح.

وفي العاشرة والنصف أصبحت السماء زرقاء صافية من الأفق الى الافق، فشعرت بأن عليّ أن أتوقف قليلا لأستريح. إنني جهدت على مدى ١٧ ساعة يومياً، وأضحى ثمن المجازفة واضحاً. لذا رأيت أن الاستراحات المتكررة قد تحفظ ما تبقى لي من قوة.

لكن المفعول المنشط للاستراحة الاولى ما لبث أن تلاشى. وأصبحت "سعيداً بالكثبان،" وهو تعبير ابتدعته اذ كنت كلما رأيت تلة توجهت للحال نحو قمتها بدل أن أدور حول الكثيب لأحافظ على استقامة دربي وأوفر حيويتي.

أما استراحة الغداء فأمضيت معظمها

في اصلاح آلة التسجيل الملأى بالرمل والتي كنت أسجّل فيها يومياتي، وفي التصوير بواسطة الكاميرا السينمائية التي أعارتني إياها أليستير ماكدونالد. فبعد تركيزها على حاملها الثلاثي القوائم وتشغيل محرّكها، كان لديّ ١٨ ثانية بالتحديد لأركض وأجرّ الناقتين لكي تلتقط لهما صوراً.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، وسط حرارة تجاوزت ٣٨ درجة مئوية، انطلقنا على الرمل اللاذع. وما هما الا ساعتان حتى اضطررت الى الاستراحة مجدداً. كانت الشمس مواجهة لي تماماً ووهجها يلهب مقلتي.

كانت تراد في عامها الخامس عشر، أي أنها شارفت منتصف العمر عند الجمال، وفي هذا الطقس لم يسعها الا أن تنثني وتبرك. أما بيغي التي ناهزت العاشرة من عمرها ونزعت الى التجهم، فاكتفت بالوقوف والتحديق الى البعيد. فالجمال، كالناس، يتمتع كل منها بامكانات معينة وشخصية مختلفة. قد يعيش بعضها ١٥ يوماً أو أكثر بلا ماء ولا يستطيع بعضها الآخر الصمود أكثر من ثلاثة ايام.

أما تراد وبيغي فبدتا على وشك الهلاك. ولربما صمدتا يومين آخرين في أبعد تقدير.

وسرعان ما برد الجو عندما غربت الشمس. وفي السادسة الا ثلثاً وجدت شجرة منّ أخرى. فتوقفنا لقضاء الليل عندها اذ كانت في منتهى الأهمية بالنسبة الى ناقتي.

أضرمت ناراً في الأغصان اليابسة. ولما جلست ذاك المساء أرتشف الشاي والجمر يلمع تحت مظلة النجوم، رحت أفكر في أن ابتهاج الأيام الماضية بدأ ينحسر كقوانا وأن المعركة الحقيقية شارفت بدايتها.

## الناقة العنيدة

عبرنا الحدود وولجنا موريتانيا في تمام الثامنة والربع من اليوم التاسع. وكان النهار أحرّ من الذي سبقه، والسماء مظلة زرقاء تحدق بالشمس الذهبية. ورحت أشق سبيلي بصعوبة. وعندما قاربت الساعة الحادية عشرة لم تعد قدماي تقويان على حملي. أنخت بيغي ونزعت حذائي، إذ ان الجمل لا يقبل قدماً منتعلة فوق عنقه. ويبدو أن بيغي حزرت ما أنويه: أنت تنتظرني ريثما أتعب ثم تريدني أن أحملك على ظهري. حسناً، سنرى.

قلت لها: "عفوك يا عزيزتي." وامتطيتها. لكنها أدارت رأسها وراحت تزمجر في وجهي: لن أحملك! فما كان مني الا ان سددت الى قفاها وخزة بعصاي فنهضت مدمدمة. ثم ما لبثت أن تمددت على جنبها قاذفة بي من مجثمي. وعندما حاولت ثانية أن أمتطيها نهضت، وقبل أن تترك لي فرصة الجلوس على نحو مستقيم رمتني في الهواء فهبطت على الرمل. وما لبثت أن شعرت بألم فظيع في جنبي الأيسر. لا شك في أن ثلاثاً من ضلوعي كسرت. لكنني ما زلت أذكر الفكرة الاولى التي طرأت على بالي: الحمد لله! الألم في جنب واحد وليس في الوسط، أي ان ظهري ما زال سليماً.

وزحفت الى أن بلغت فيء شجرة منّ قريبة. وتعذر علي أن أتابع سيري في ذاك اليوم، ورحت أفكر ملياً في وضعي. لقد بقيت لي مسافة ٢٧٠ كيلومتراً ومعي ٢٧ ليتراً من الماء ليس الا. فلا بد لي اذاً من أن اجتاز حوالى ٣٤ كيلومتراً يومياً، وهي مهمة مروّعة حتى ان لم أكن أعاني الإصابة والإعياء. ولم أجرؤ على امتطاء أي من الناقتين خشية أن يسبب لي تحركها ألماً شديداً.

وفي اليوم التالي تمادينا لمدة ساعتين في منطقة الكثبان والريح العاتية تقذف الرمل في وجوهنا، ثم رحنا نترنح على أرض رملية صلبة ما لبثت أن تلاشت ليحل مكانها سهل فسيح انتثرت فيه شجيرات خفيضة. فرحبنا بالتغيير.

أما أوجاعي المختلفة، بما فيها ألم مفصلي في كتفي ورثته من مخيم شتائي في شبابي حين نمت أرضاً بلا عازل ملائم، فقد اجتمعت كلها في وجع بليد انتشر في جنبي الأيسر كله. وما أفلحت في تجاهله الا عندما صبغت الشمس بالحمرة قرابة الرابعة عصراً. لقد حان وقت الاحتفال الكبير، فأنا قطعت نصف المسافة عبر الربع الخالي. وهكذا نصبت آلة التصوير على قوائمها واستعملت العصا التي أخز بها الناقة كسارية ثبتّ عليها علماً راح يرفرف. يا لها من لحظة فخر واعتزاز.

أما النقطة التالية في جدول أعمالي فكانت ترفاً وعدت به نفسي قبل أيام: الاستحمام. لا شك في أن العاصفة الرعدية التي هبت في اليوم الخامس أنعشتني، لكن الناقتين اعتادتا منذ مدة ادارة انفيهما كلما دنوت منهما! ولكم عذّبتني فكرة الماء الذي سيهدر في العملية، لكنني قررت ان أضحي بنصف ليتر. وهكذا نبشت بيدي حفرة في الرمل بطّنتها بملاءتي البلاستيكية ثم صببت فيها السائل الثمين. ورحت بعد ذلك أنظف كل جزء في جسمي.

المفعول النفسي كان مثيراً، اذ رحت أضحك بلا سبب ظاهر، حتى انني رقصت قليلا في السهل الذي لفعته الريح. وهيأت لمأدبة الاحتفال لحم بقر مجففاً ومبهراً مع البطاطا المهروسة وحفنة حلوى مجففة وعلبة مرطبات ادخرتها لهذه المناسبة المميزة. لكني لم أجد ضرورة لارتداء كامل حلتي لتناول العشاء.

## "قضي علي"

في اليوم الحادي عشر عبرنا "زاوية الكثبان" كما دعوتها، وكنا ندور حول منطقة الكثبان التي تمتد مسافة ٤٠ كيلومتراً الى الشمال. لكننا، لسوء الحظ، حاولنا ان ننعطف حول القمة على نحو حاد جداً، فبتنا وسط الكثبان تحوطنا من كل صوب مرتفعات رملية قاحلة. وفكّرت مع الناقتين في الاتجاه الذي يجب ان نسلكه، فوافقتاني على أن السبيل الوحيد للخروج هو من الجهة الشمالية. وهكذا أدرنا ظهورنا على مضض لقرية أوالاتا وتابعنا المسيرة الطويلة المجهدة في الصحراء.

في الخامسة بعد ظهر ذاك اليوم كنت قطعت ٤٠ كيلومتراً، فحططت الرحال لكني ما لبثت أن سمعت جلبة وطء ثقيل: لقد داست بيغي صفيحة ماء. وسرعان ما

رأيت بقعة رمل قاتمة حول الصفيحة. وثبت من مكاني ورفعت الصفيحة فاذا بقطرة الماء الأخيرة تنساب من اسفل الصفيحة المفلوقة.

لم يتبقّ لي سوى سبعة ليترات. إنها لكارثة حقيقية!

في اليوم التالي عندما أنهيت استراحة الظهيرة حاولت أن أرفع حقيبتي لأثبتها على سرج تراد، لكنها انزلقت من بين أصابعي وسقطت على الرمل. لم تعد يداي تقويان على حملها. حتى تلك اللحظة لم أكن وعيت تماماً كم أصبحت خائر القوى، فهزّني هذا الاكتشاف. لست أدري كيف رفعت الحقيبة عن الرمل في النهاية وأوثقتها بالسرج مستعيناً بركبتي ووركي.

وتمددت تلك الليلة لأنام مقتنعاً بأن حادثاً مؤسفاً آخر كفيل بالقضاء عليّ.

وفي اليوم التالي، الثالث عشر، بعد ساعة من انطلاقتنا، أصبحت الارض أكثر انبساطاً. يبدو أننا استدرنا أخيراً حول الكثبان وبات في امكاننا ان نتجه نحو الجنوب الغربي بزاوية من ٢٢٣ درجة بحسب بوصلتي. اما الخريطة فأظهرت لي أن ٦٥ كيلومتراً من الارض الرملية الصلبة تمتد أمامنا. ولكن ما إن اجتزنا ١٩ كيلومتراً حتى واجهتنا الكثبان من جديد. لقد انعطفنا قبل الأوان. في ذلك الحين "تكلّمت" الى آلة التسجيل: "إنها الثانية عشرة والنصف. الكثبان تمتد على مرأى العين. أظن انه قضي عليّ. ان عدت أدراجي شمالا فليس لدي من الماء ما يكفيني للبقاء. ليس أمامي سوى فرصة واحدة: أن أتابع نحو الجنوب الغربي."

وهكذا غامرت في بحر الكثبان الرملية بشمسها المحرقة وريحها اللاذعة. ولكن ما لبثت أن توقفت تائهاً وسط الكثبان الهلالية أبحث عن أرض مستوية. ثم اخترت درباً مستقيمة في الجنوب الغربي ورحت أجر ناقتي المتمنعتين صعوداً الى التلال ونزولا على أجراف رملية شديدة الانحدار، محدثاً انهيالات رملية هائلة. كنا نشقّ في الكثبان العذراء جرحاً بالغاً غير آبهين بروعة جمالها. ولست أدري ان كانت وسيلة التنقل هذه أكسبتني بعض الكيلومترات، ولكن خيل الي اننا نتقدم بسرعة أكبر.

## غرابان ينتظران

ظللنا نشق كثبان الرمل على مدى ساعة كاملة. وتذكرت ما قاله لي المرشد العربي في أروان: "ابتعد عن الكثبان والا هلكت في أقل من ثلاث ساعات." لكن غضبي فاق خوفي من الهلاك، غضبت من هذه الصحراء التي قد تؤخرني وتحول دون وصولي الى أوالاتا في الموعد المضروب. فرحت أصبّ جام غضبي وحقدي على الكثبان. فما كان منها الا أن أذعنت لمشيئتي واستسلمت، اذ ترامى أمامي فجأة، بعد الكثيب الأخير، سهل منبسط فسيح. فوقفت فيه ألتقط انفاسي مبتسماً. وأدركت مرة اخرى أنني شغوف بهذه الصحراء لما هي ولما قد تفعله بي.

لكنني لم أدرك وقتذاك انها لم تتركني بعد وشأني.

في اليوم الرابع عشر عثرنا على طبقات من الحديد الخام، الواح منبسطة وصدئة كأنها عظام الأرض العارية وقد

نتأت من اللحم. في ذاك اليوم قطعنا حوالى ٣٧ كيلومتراً، ولم تكن تلك المسافة كافية اذ لم يتبقَّ لي من الماء سوى ليتر ونصف ليتر. فعمدت الى تغيير خطتي كلياً. فبدلا من الاتجاه نحو أوالاتا مما يعني ثلاثة ايام مشياً بسرعتي الحالية، سأقصد أمرسال التي تحوي بئر ماء وتقع غرب أوالاتا. وهي لا تبعد، بناء على حساباتي، سوى ٨٥ كيلومتراً ويلزمني يومان من السير لأصل اليها.

في الصباح التالي انطلقت الى أمرسال. وشعرت بأنني خائر القوى، وكان لا بد لي من الاستراحة كل نصف ساعة. وفيما أنا مستلق على الارض أحدق الى الصحراء، حجبت نور الشمس ظلال. ورأيت غرابين مبسوطي الأجنحة يحلّقان على ارتفاع ثلاثة امتار مني ويفحصان مادة فطورهما. لا شكّ في أنهما لاحظا انهياري المتكرر. ورحت أصرخ فبقيا بعيدين. يقال ان هذه الطيور تفقأ عيني الضحية التي لم تمت بعد.

عندما انهرت للمرة التالية خيل الي أني سمعت اصوات حديث، لكني صرفت النظر عنها معتبراً أنها ثمرة هذياني. ولكن عندما سمعت الصوت المألوف لسعال ناقة قررت التحقق من الأمر. فانعطفت حول كثيب واذا بي أرى جملين ورجلا وصبياً عربيين جاثمين على الارض. كائنان بشريان! الأولان اللذان أراهما منذ اكثر من اسبوعين.

حييتهما مبتسماً بإحدى الجمل العربية القليلة التي أعرفها: "السلام عليكما!" فصعقتهما الدهشة وساورهما الشك. أجنبي في الصحراء في ثياب بدوي؟ رحت أومىء اليهما معبراً عن حاجتي الماسة الى الماء. وفهما إشارتي لكنهما لم يكونا يحملان ماء بل يصطادان الغزلان. سألاني من أين أتيت. فأخبرتهما، ولكن بدا انهما غير مصدقين.

فجأة انتصبا وقفزا الى ظهري جمليهما بخفة أملتها الخبرة وراحا يعدوان شمالا. أظن أنهما رغبا في الابتعاد عن هذا الاجنبي المجنون.

عدت الى ناقتيّ وتمددت على الرمل. لم يبقَ فيّ ذرة قوة. ها قد حان وقت اتخاذ القرار الاساسي: أأختار الحياة أم الموت؟

كان الألم في جسمي هائلا، فبدا الموت لي احتمالا واقعاً. يمكنني ان انحر نفسي بالسكين، ففي عروقنا، نحن أبناء الشمال، تجري دماء الفايكنغ(٣) ولا نموت الا والسيف في قبضتنا. لكنني مع ذلك شرعت أفكرّ في حجج تساعدني على اختيار الحياة. فقرية أمرسال كانت تبعد ٦٥ كيلومتراً، والسير اليها في النهار قصاص مضنٍ، خصوصاً انه لم يتبقَّ لي سوى نصف ليتر من الماء. وأوحت الي تراد: يمكنك ان تسير ليلا. وراحت بيغي تنوح: ما مصيرنا اذا متّ؟

صحيح، فلدي مسؤولية لا أستطيع التنصل منها. وشردت أفكاري الى بريطانيا. كنت أحمل بعض الصور لعائلتي وأصدقائي. فأخرجتها ورحت أنظر اليها. فغمرتني الذكريات. وغابت الشمس في الأفق. وما إن برد الطقس حتى استعدت بعض قوتي فعاد الأمل الى

(٣) الفايكنغ محاربون اسكندينافيون غزوا شواطىء أوروبا بين القرنين الثامن والعاشر.



نفسي. وحيث يوجد أمل لا بد من أن توجد حياة. وضعت الصور جانباً ووقفت وقدماي تكادان لا تحملانني. لقد قررت أن أعيش!

## عراك في الصحراء

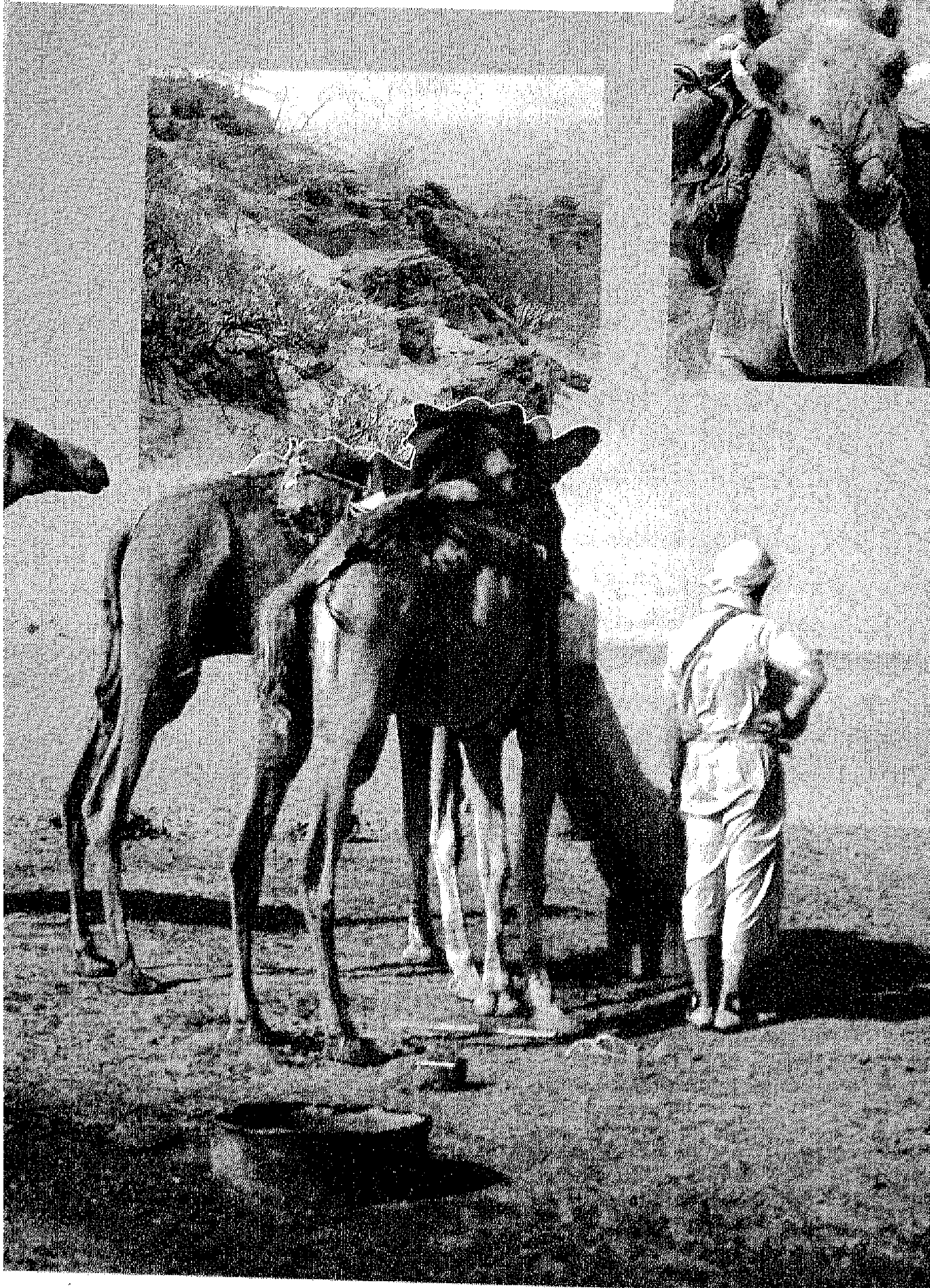
في ضوء القمر رأيت شجرة سنط لا تبعد كثيراً. فقدت الناقتين اليها على مهل وتركتهما تشذبانها فيما رحت انا أجمع الحطب وأضرم النار. واستعملت ربع كوب ماء وكيس الشاي الاخير وحبة السكر الاخيرة لاحضر الشاي. وتناولته في البداية رشفة رشفة، ثم تجرعت ما تبقى مرة واحدة فأحسست بالسائل يجري في حلقي وينفذ الى مسام كياني كلها. ثم أوثقت زجاجة الماء التي تحوي ربع الكوب الاخير الى سرج بيغي كي لا أشربها.

انطلقنا تلك الليلة في برودة الليل وقد ربطت بيغي بتراد ورسن تراد بوسطي. وسرت نحو أمرسال معتمداً على بوصلتي.

فجأة سمعت خلفي جعجعة آتية من بيغي، فلقد انزلق سرجها الى عنقها وكان لا بدّ من تثبيته. واذ كنت مرهق الجسم والعقل نسيت أن أفك وثاقي من تراد. فتبعتني. اما بيغي فراحت تزمجر وقد أزعجها ثقل السرج. فاعتبرت تراد هذه الزمجرة تهجماً عليها فهجمت على بيغي. راحت الناقتان تتعاركان بأسنانهما ورأسيهما وقوائمهما، ودار في الرمل أكثر من طن من اللحم المتشابك الغاضب.

أعلى اليسار، الجرف الذي تقع عليه أوالاتا. في الوسط، بيغي. أعلى اليمين، البدوي الذي التقاه ادواردز في اليوم السابع عشر. تحت، بئر على درب أروان يبلغ عمقها ٣٨ متراً.

# نزهة في الصحراء الكبرى



كنت لا أزال مربوطاً بتراد، فاذا بالناقتين ترميانني أرضاً في خضم عراكهما وكأنني خرقة بالية. يا له من كابوس!

حاولت ان أجذب تراد لابعدها، لكن قوة الرجل لا تقارن بقوة جمل غاضب.

وظلت الناقتان تتلاكمان وتزمجران برهة ثم وقفتا مرتعشتين تائهتي العيون فرحت أحدثهما برفق ثم اقتدتهما الى أجمتي عشب منفصلتين كي أهدئ من روعهما. أما أرض المعركة فبدت مزروعة بالأمتعة والأسرجة والرمل المنبـوش. بحثت عن زجاجة الماء فعثرت عليها، ولست أدري بأي أعجوبة بقيت سدادتها محكمة الاغلاق وبقي ربع كوب الماء داخلها.

حل اليوم السادس عشر وكانت الساعة الثانية فجراً. اما مدينة أمرسال فلم تعد تبعد، في حساباتي، سوى ٣٥ كيلومتراً. واستسلمت الى الرقاد بعدما خارت قواي تماماً. وفي معظم ساعات ذاك النهار اللاذع لجأنا الى فيء شجرات سنط. ولما غربت الشمس شربت نقطة الماء الاخيرة وحمّلت الناقتين.

انه اليوم السابع عشر. لقد تعديت النقطة التي كان من المفروض ان تقع فيها مدينة أمرسال. فرحت أبحث عن عوالم بشرية وقد غمرني يأس عارم.

عثرت على آثار حديثة لأخفاف جمال، فاقتفيتها لمدة ساعة ثم رفعت رأسي فرأيت ثلاث خيم بالية وأناساً يحدّقون اليّ. لقد نجوت! قال لي البدو إن أوالاتا تبعد ٣٠ كيلومتراً. لقد تأثرت بوصلتي بالحديد الخام الذي حُذِّرت منه، ونجوت بفضل توجهي نحو أمرسال. فالخطأ الناتج من البوصلة وجهني في الواقع الى أوالاتا. ولكن لو توجهت نحو أوالاتا، بحسب تقديري انا، لكنت أضعتها كلياً في الصحراء وربما مت.

أمضيت الليلة مع البدو. وفي صباح اليوم الثامن عشر زودوني سبعة ليترات من الماء فانطلقت مرتاحاً ومنتعشاً.

واشتد قيظ النهار وامتد أمامي، فجأة، الجرف الذي تقع عليه أوالاتا: أرض صخرية ترتفع ٣٠٠ متر وتصبّ في واد كبير. وجل ما عليّ فعله هو العثور على طريق الى ذلك الوادي ثم الانعطاف شمالا. بعد ساعة أكون في أوالاتا.

## "السلام عليك"

حتى في هذه المرحلة الأخيرة من سفري بقيت الصحراء تضمر لي الخفايا. عثرت على سفح يؤدي الى أسفل الجرف، فتبعتني الناقتان ببطء. فالجمال ليست متسلقة جبال ماهرة. استغرق هبوطنا ساعتين. ولما بلغنا الوادي سرنا فيه مدة ساعة. ثم وصلنا الى طريق غير نافذة. لقد نزلنا الى الوادي غير المقصود.

حاولنا ان نصعد منه، ولكن على بعد خمسة أمتار من القمة أصبحت الصخور شديدة الانحدار. فتمنعت الناقتان عن متابعة الصعود. فرحت أجرّهما وأدفعهما وأداعبهما، لكنهما أبتا صعود تلك الأمتار القليلة الباقية. فما كان مني الا أن أقتدت البعيرين المضنيين الى أسفل الوادي من جديد. كان الظلام قد حل فأمضينا الليل هناك.

في اليوم التاسع عشر أفلحت في الخلاص من الوادي بعودتي الى النقطة

التي دخلته منها. صعدت ٣٠ متراً الى قمة تلة آملا العثور على السبيل المؤدي الى أوالاتا. لكنني لم أرَ سوى أودية مترامية على مدى النظر. فتملكني الذعر. لقد شربت آخر نقطة ماء على الفطور. أأسقط في هذه المرحلة الأخيرة؟

ورحت أجر الناقتين فوصلنا الى حافة واد كبير يتسع بضعة كيلومترات. لا ريب في انه وادي أوالاتا. لم تبقَ فينا ذرة قوة. تراد وبيغي تنهاران كل ساعة. كانت الساعة الاولى والنصف بعد الظهر والشمس المروعة تقارب أوجها. جلست في فيء بيغي ورحت أنتظر البرودة أو الانقاذ او الموت.

وفي الثالثة والنصف نهضت لمحاولة أخيرة. وقادتني وهدة جانبية الى بطن الوادي. زحفت بصعوبة الى القعر الرملي، وقد شق النزول على ناقتيّ اللتين شارفتا الموت. وعثرنا هناك على آثار جمال. لم تعد قدماي تقويان على حملي، فالتمست المستحيل من بيغي التي أذعنت لمشيئتي وهي تنوح. وزحفنا الى أسفل الوادي وأنا متشبث بسرج بيغي لأبقى على متنها.

وانفتح الوادي العظيم أمامنا. فرأيت حشداً من الجمال والناس وبئر ماء. وتقدم مني أحدهم مبتسماً وحياني: "السلام عليك."

فسألته بصوت خفيض أجشّ: "أوالاتا؟"

فأشار الى مدينة تتلألأ بيضاء تحت أشعة شمس الأصيل. لقد وصلنا!

وسحب السقّاء ماء من البئر وصبه في دلو معدنيّ ضخم، وبسرعة مذهلة ابتلعته الناقتان اللتان شربتا للمرة الأخيرة قبل ٣٠ يوماً عشية مغادرتنا أروان. ولما اكتفتا شربت أنا.

وكان أليستير ماكدونالد خرج في سيارته الـ"لاند روفر" للبحث عني بعدما تأخرت وظنّ أنني مت. وهو استقبلني كأنني الابن الشاطر. ورحنا نتبادل الأنخاب بأكواب بلاستيكية، ثم التقطنا بعض الصور. وبعد أيام وطأت أرض مطار مانشستر.

في البداية لم يتعرّف أصدقائي الي، فقد انخفض وزني من ٨٩ كيلوغراماً الى ٦٣. لكني استعدت عافيتي تدريجاً.

انحسرت الذكريات البشعة لمغامرتي مع أنها لن تتلاشى أبداً. وكالشيوخ الذين يتحدثون دائماً عن حروبهم، سأظل أتحدث عن هذه الذكريات المرة في ساعات الحنين. لكني لن أستطيع التحدث عن الأمور الحقيقية، عن الرابط بين الانسان والحيوان والارض. وفي بعض أوقات الحياة اليومية سأبتعد عن الذين يحيطون بي وأرجع في نفسي الى الرمل والنجوم الصامتة وهدير العاصفة، وستترقرق الدموع في عينيّ الشاردتين.

ماذا عن ناقتيّ الجميلتين؟ غالباً ما أتساءل عما حل بهما. لقد اضطررت الى بيع بيغي بأقل مما اشتريتها. أما تراد فأهديتها الى مختار أوالاتا بناء على تلميحه. هل وجدتا الحياة السهلة التي استحقتاها بعدما حققتا رقماً قياسياً في بقاء الجمال من غير ماء وأمّنتا ورود اسميهما في حوليات الجِمال الى الأبد؟

تيد إدواردز

ترجمة جينا ابو فاضل

خاص ٢

# كابوس الحافلة المدرسية

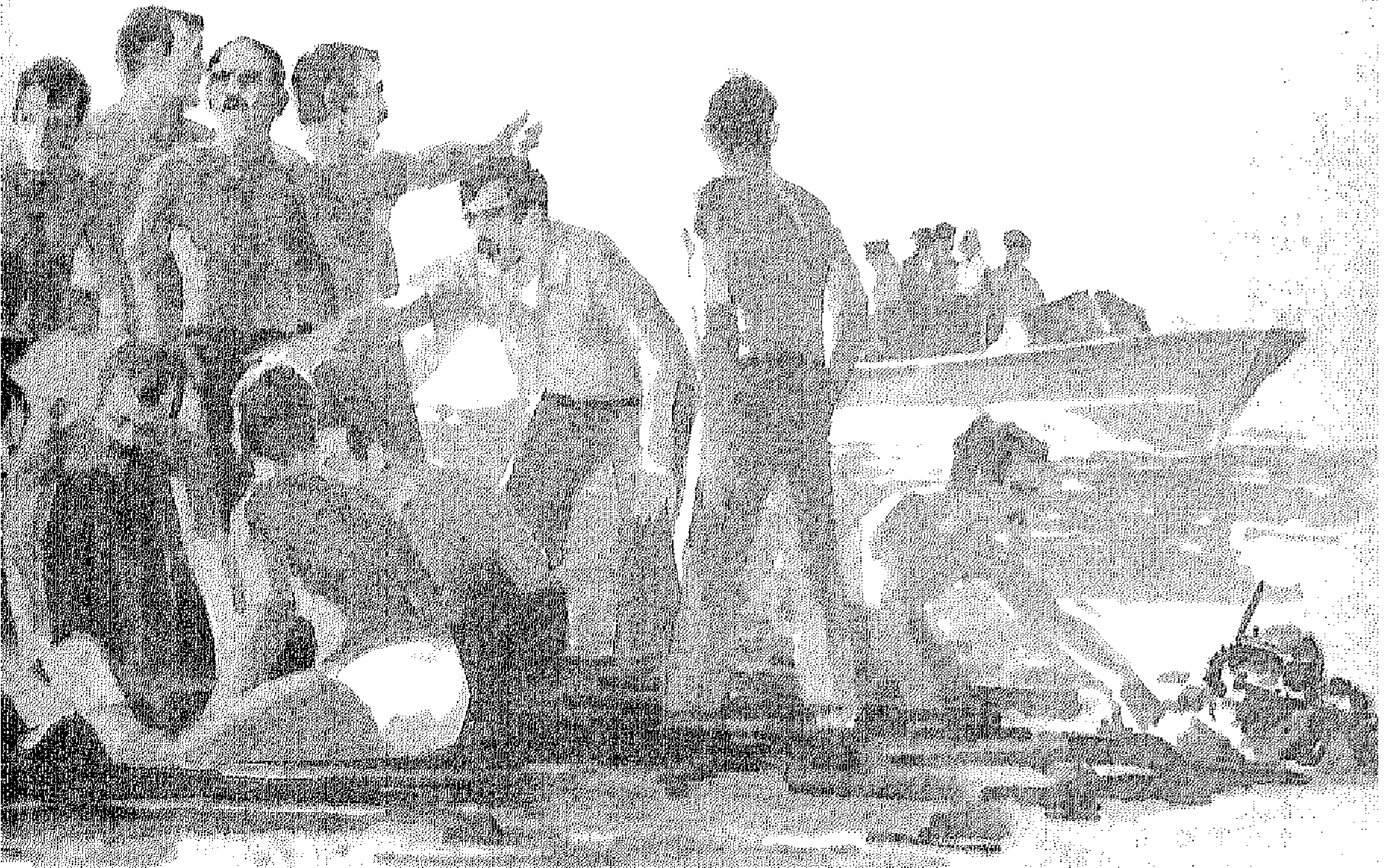
بقلم
وليم باركر

بعد دقائق من ركوبهم حافلة المدرسة التي ستقلّهم الى بيوتهم، وفيما هم يصخبون ويمرحون، حلت الكارثة بستة وسبعين ولداً من جنوب افريقيا

# كابُوسُ الحَافلة المدرسيَّة

حدث ذلك في تمام الساعة الاولى والثلث بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٧ مارس (آذار) ١٩٨٥. كانت جيل ماكيلريث مستلقية في كوخها الكائن في وستدين إحدى ضواحي جوهانسبرغ. انها طالبة طب في السنة الخامسة، وقد أمضت ليلة الثلثاء في قسم الطوارىء بمستشفى جوهانسبرغ العمومي، وانتهت مناوبتها في الاولى فجراً. ولم تحظ بسوى خمس ساعات نوماً عادت بعدها لتقوم بجولاتها الصباحية. وها هي فرصتها الاولى للراحة.

بدأت جيل حياتها العملية كمحررة صحافية. وإحدى أولى المهمات التي كُلّفت اياها تغطية أعمال الشغب التي اجتاحت مدينة كيب تاون في العام ١٩٧٦. وهالها ما شهدت من إراقة دماء



Illustrations: Tony Butler

وشعرت بخجل لعجزها عن إسعاف المصابين. وبعد ثلاث سنوات تزوجت طبيباً، فبرز لديها اهتمام بالطب وآلت على نفسها أن تصبح هي أيضاً طبيبة. وها هي الآن في الحادية والثلاثين من عمرها، ولم يبق بينها وبين الامتحان النهائي سوى سنتين من التدريب العملي.

استقبل قسم الطوارىء في الليلة الفائتة الخليط المعتاد من الناس: بضعة مصابين في حوادث سيارات، اثنين عضهما كلبان، وآخر وجد مصاباً بالقرب من إحدى الطرق العامّة. وكانت جيل عالجت في وقت بكر من نوبة الساعات لثماني طفلا صغيراً شقّ يده بمسمار ناتىء من عمود في ملعب لكرة القدم. ومع أن الجرح كان ينزف بغزارة إلا أن الطفل ظلّ رابط الجأش يبتسم بشجاعة وهي تخيط يده. كانت جيل تجد متعة في العمل مع الاطفال، واكثر ما استهواها فيهم مرونتهم وقدرتهم السريعة على التكيف واستعادة النشاط.

قفزت جيل من سريرها عندما اندفعت خادمتها دورين كابلو الى البيت وهي تصرخ: "النجدة يا دكتورة! أرجوك! لقد سقطت حافلة في السدّ."

تناولت جيل السماعة الطبية وكانت على الطاولة في البهو، وجرت نحو سيارتها ودورين خلفها. وعندما بلغتا رأس التلة المطل على سد وستدين أوقفت جيل السيارة حائرة. فهي توقعت



ان ترى حشوداً من الناس على السدّ، لكن الهدوء الذي لفّ الضاحية كان شاملا وكأن شيئاً لم يحدث. وكانت المياه امامها تلمع تحت اشعة الشمس الساطعة. استدارت جيل نحو خادمتها سائلة: "أين الحافلة؟" فأشارت دورين الى الماء وهي تنتحب.

أجهدت جيل بصرها مخترقة بعينيها سطح الماء. وهناك تحت الامواج المترقرقة ميزت شكل الحافلة بوضوح لم يدع أي مجال للشك. فشهقت: "يا إلهي!"

## ركاب صغار

مضت على وليم هورن ثلاث سنوات وهو يعمل سائق حافلة لبلدية جوهانسبرغ. ومن المهمات التي نيطت به خلال الاشهر التسعة الأخيرة نقل الأولاد بين مدرسة فورنتو الثانوية ومنازلهم في ضواحي وستدين وتريومف ونيولاندز. وهو عمل وجده ممتعاً. وكان وليم في الحادية والاربعين من العمر، متسامحاً إزاء مزاح المراهقين وهزلهم إذ كان هو نفسه أباً لخمسة اولاد راوحت أعمارهم بين ١٠ أعوام و١٨ عاماً.

وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم وقع هورن أوراق نقل ملكية سيارة "ألفا روميو" مستعملة ادّخر هو وزوجته ماري مبلغاً لشرائها. وكان هورن قبل انتقاله الى جوهانسبرغ يملك في كيب شركة نقل بالحافلات، لكنها افلست. أما الآن، وبفضل ساعات العمل الاضافية، استطاع وزوجته أن يتخطيا مشاكلهما المالية.

في الثانية عشرة الا عشر دقائق ظهراً حضر هورن الى محطة الحافلات في فوردسبرغ حيث كان دوره ذلك اليوم أن يقود حافلة الاحتياط في حال تعطل احدى الحافلات العاملة. وبقي هناك ٥٠ دقيقة أجرى خلالها كشفاً روتينياً على حافلة الاحتياط ففحص الكابح والمصابيح والمؤشر والدواليب ووجدها كلها سليمة.

ولأن ذلك اليوم خلا من أي حادث طارىء، فلم تكن هناك حاجة اليه. وفي الاولى الا ثلثاً صعد هورن الى الحافلة ٥٨٦، وهي صفراء ذات طبقتين كان يقودها زميله أوين سكورجي. وهو علم أن سكورجي كان كشف على الحافلة ووجد كل شيء فيها على ما يرام.

بعيد الاولى بعد الظهر أوقف هورن الحافلة أمام المدخل الرئيسي لمدرسة فورنتو خلف ثلاث حافلات أخرى. أدار جهاز الراديو وأسند مرفقه الى المقود وجلس ينتظر وصول الاولاد.

امتلأ الباص تدريجاً بالاولاد الذين جلس معظمهم في الطبقة السفلى حيث الحرارة أدنى. وكانوا يصعدون بجلبة وضجيج ثم يرتمون في مقاعدهم. وزاد في حماستهم أنه لم يكن يفصلهم عن عطلة عيد الفصح سوى ثلاثة أيام.

وكانت لويز فانويك السمراء ذات السبع عشرة سنة تتطلع بشوق الى العطلة التي ستمضيها في مزرعة عمّها في كيب الشمالية. وفي طريقها الى الحافلة نادتها إحدى صديقاتها: "مرحباً يا لويز، أتريدين أن نوصلك الى البيت؟ لقد أحضر أخي سيارته."

ترددت لويز لحظة قبل أن تجيب. فهي كانت وعدت بيرتوس غوينكامب

بمرافقته، وهو أحد أبناء الجيران وفي الثالثة عشرة من عمره. ثم ردت على صديقتها: "لا، شكراً." وبعد لحظات وصل بيرتوس وصعد الاثنان الى الحافلة. ولما كانت الطبقة السفلى امتلأت، فقد توجها الى السلم المؤدية الى الطبقة العليا حيث اختارا مقعدين في الوسط. كان الحر خانقاً فقال بيرتوس وهو يفتح النافذة المنزلقة بقربه: "لندع الهواء يدخل."

بعد قليل صعد بيتر كوين (١٧ عاماً) وأخته رونل (١٥ عاماً)وتوجها هما أيضاً الى الطبقة العليا. اختار بيتر مقعداً أمام رونل كي يتسنى لكليهما أن يجلسا قرب النافذة. وبعد دقيقة وقف بيتر وفتح جميع النوافذ التي طاولتها يداه. وعلى رغم ضآلة حجمه كان بيتر رياضي الجسم وعدّاء رائعاً. وكان هدفه، وهو صاحب العقل الرزين والوجه الانمش، أن يصبح مدرّساً.

## ضحك ثم صراخ

عندما أغلق وليم هورن جميع الابواب، كان في الحافلة ٧٦ ولداً جلس أكثر من ثلثيهم في الطبقة السفلى. أما في الطبقة العليا فكان لكل ولد مقعده وظل عدد من المقاعد خالياً فجلس الاولاد وظهورهم الى النوافذ كي يواجه بعضهم بعضاً ويتبادلوا الاحاديث. وراحوا يقايضون بالشطائر ويتبادلون النكات.

ادار هورن المحرّك فارتعدت الحافلة وما لبثت أن لحقت بأخرى كانت سائرة في الاتجاه نفسه الى تريومف عبر وستدين. كان هورن يعرف الطريق جيداً: نزولا من باب المدرسة الى شارع بيرث الذي يمرّ أمام مستشفى ستريجدوم ومنه الى شارع لويس وصولا الى الطريق الممتدّة فوق جدار سدّ وستدين.

كان ضوء الاشارة أخضر عند تقاطع شارعي لويس وبيرث، فزاد هورن سرعته ليقطعه في الوقت المناسب، وأخذ الطريق النازلة الى السدّ.

رفع بيتر كوين يده نحو النافذة المفتوحة مستمتعاً بالهواء البارد يداعب أصابعه. وكانت ابنة عمّه كارين تالغارد (١٤ عاماً) جالسة امامه وهي قالت له مبتسمة: "ثلاثة أيام فقط وتبدأ عطلة نهاية الاسبوع الطويلة يا بيتر." فابتسم لها بدوره.

لفت الحافلة منعطفاً. وفي الطريق المستقيمة الممتدّة فوق جدار وستدين ضاعف هورن سرعته فيما وقف بضعة أولاد استعداداً للنزول في الجهة الثانية للسد.

شعر هورن فجأة بألم حاد في رأسه ممّا أفقده التركيز، فانحرفت الحافلة يساراً قاذفة الاولاد بعضهم فوق بعض مما أضحكهم كثيراً. أرجع هورن المقود كما كان وهو يحاول جاهداً أن يستعيد سيطرته على الحافلة التي ظلت مندفعة الى حافة السدّ. وعندما داس هورن الكابح بشدّة انبعث من العجلتين الخلفيتين، صرير حاد، فيما ارتطم مخفّف الصدمات الامامي بأعمدة السياج الهشّة مقتلعاً ثمانية منها وكأنها سويقات عشب. ومن جراء الضجيج تحولت ضحكات الاولاد صرخات رعب. وحلقت الدواليب الاربعة خارج الطريق، وبدت الحافلة معلّقة في الهواء هنيهة قبل أن تسقط في الماء.

شعر بيتر بمؤخر رأسه يصدم النافذة. وبعد لحظات اندفعت من ركن السلّم موجة موحلة غمرت قدميه. ثم أخذت المياه تتدفق من النوافذ المفتوحة فيما غاصت الحافلة في الماء أكثر فأكثر. لمح بيتر ابنة عمّه كارين تشق طريقها نحوه، فصرخ لها وهو ينهال على إحدى النوافذ بقبضته: "سوف أكسر نافذة." لكن جهوده لم تثمر وظلّت النافذة ثابتة لا تتحرك. ثم أشار الى نافذة منزلقة صغيرة فوق الزجاج الرئيسي وقال: "أسرعي يا كارين، يمكننا أن نخرج من هنا."

استبدّ بكارين هلع فجائي وصرخت: "لا! دعني!" إلا أن بيتر انتزع منها محفظتها وكانت لا تزال متشبّثة بها، وكسر بها النافذة. وما كاد يفعل ذلك حتى تدفقت المياه الى الداخل. تسلق بيتر المقاعد ساحباً ابنة عمه وراءه من معصميها. وهو تمكّن من الخروج عبر النافذة ومن إخراجها هي أيضاً.

في تلك الاثناء، كانت الحافلة استقرت وتوقفت عن الغوص وقد بلغ ارتفاع المياه داخلها مستوى السقف تقريباً. وبعد جهد وصل الولدان الى السطح وعلى مسافة قريبة وراءهما برزت رونل من الماء وهي تلهث طلباً للهواء. وحاولت لبرهة أن تمشي على الماء، لكنها ما لبثت أن بدأت تسبح نحو ضفة تغطيها الاعشاب على بعد أربعين متراً.

مياه خضراء كثيفة ملأت الحافلة. لكن لويز فانويك ميزت بصيصاً من نور في إحدى الجهات فسبحت نحوه والاولاد حولها يتخبطون ويرفسون في محاولات يائسة للخروج. تلمّست طريقها نحو نافذة مفتوحة، وحين بلغتها حشرت جسمها فيها سعياً الى الخلاص، وما كادت تخرج نصف جسدها حتى شعرت باطار النافذة يلتصب حول وركيها. حاولت أن تقاوم الذعر الذي غمرها، ولوت جسدها مندفعة الى الامام إلا أن الاطار ازداد التصاباً مسبباً لها ألماً مبرحاً. لم يعد أمامها إلا الصلاة فراحت تبتهل: "ساعدني يا إلهي."

وما لبث الاخضرار حولها أن تحوّل سواداً.

## لكل ثانية ثمن

ما كاد تاجر السمانة فريدي ماهنر وشريكه كينيث نيل يتوقفان أمام منزل الأول المطل على السدّ، حتى شاهدا عدداً من الاولاد يتخبطون في الماء وهم في ثيابهم. فأيقنا أن هناك خطباً. فقفزا من سيارتهما وركضا فوق جدار السدّ. وتحت سطح الماء مباشرة ميّزا السقف الاصفر للحافلة على بعد حوالى ٣٥ متراً.

كان فريدي غطاساً سابقاً، وهو علم أن حظ أي انسان في البقاء حياً داخل الحافلة لا يتعدى ٣٠٠ ثانية، وانطلق يعدو وهو يعدّ. وعندما وصل وشريكه الى الفتحة التي أحدثتها الحافلة في السياج كان عدّه بلغ الثلاثين. وهو وصل الى الاربعين بعدما خلعا ثيابهما. وسمعا صوتاً وراءهما: "انتظر، يلزمكما شيء لتحطيم النوافذ." وكان العدّ بلغ ثلاثة وستين. أوقفا سيارة عابرة فناولهما سائقها رافعة من الصندوق وانطلقا بها نحو الماء.

عندما اقترب فريدي من الباص كان

عدّه بلغ المئة. وقدّر أن بعض الاولاد لا بد ان يحاولوا الخروج من باب الطوارىء. لذلك صرخ لرفيقه: "سأتوجه الى مؤخر الحافلة." وعندما أصبح في محاذاة النافذة الخلفيـة غطس تحت الماء ليستكشف داخل الحافلة. لكنّه سرعان ما شعر بحريق في عينيه وبعض أجزاء من جسمه فتمتم: "ديزل!" وكان زيت الوقود يتدفق من الخزان تحت الماء محدثاً بقبقة مسموعة.

مئة وواحد وعشرون... مئة واثنان وعشرون...

في تلك الاثناء كان كينيث تسلّق الى سطح الحافلة لتهدئـة الأولاد الذين تجمعوا هناك. وراح يبتهل الى الله: ارجوك يا الهي، دعنا نخرج بعضهم حياً. أرجوك يا الهي دعنا نصل اليهم قبل فوات الاوان.

أما فريدي فسبح في اتجاه مقدم الحافلة وراح يتلمس النوافذ المغمورة بالمياه.

مئة وخمسة وخمسون... مئة وستة وخمسون...

وجد فريدي النافذتين الاماميتين محطمتين فسبح داخل الحافلة حيث كان الماء أكمد قاتماً. مدّ يديه متلمساً لكنه لم يتحسس شيئاً. شعر بألم في رئتيه وبحاجة ماسة الى الهواء.

أخرج رأسه من الماء فسمع كينيث يناديه: "هنا! بسرعة!" كانت يدا كينيث تشدّان باحكام ميزاب الحافلة، وساقاه ممدودتين داخل نافذة مفتوحة تفلعان الماء بحركة مقص. وما لبث أن هتف: "عثرت على ولد." اقترب منه فريدي وتعاونا على انتشال فتاة شقراء فاقدة الوعي ودفعاها الى السطح وهما يصرخان للاولاد المتجمعين هناك أن يمسكوا بها.

مئتان وخمسة عشر... مئتان وستة عشر...

حاول فريدي أن يتقدم اكثر فاستعان بالرافعة لتحطيم إحدى النوافذ المغمورة. وهي انهارت من الضربة الثانية. دفع قدميه الى الامام يتحسس بهما الماء. لكنه لم يشعر بشيء. أخذ نفساً عميقاً وانزلق كالحية داخل الحافلة حيث غمرته المياه الى كتفيه. فجأة اصطدمت قدمه اليسرى بشيء. استعان بقدمه اليمنى وسحب بالاثنتين جسداً لفتى في قرابة الرابعة عشرة من عمره. "خذه!" صرخ وهو يخرج الى سطح الماء دافعاً الفتى أمامه.

مئتان وثمانية وتسعون... مئتان وتسعة وتسعون...

بلغ العد ثلاثمئة. فقال فريـدي لكينيث: "ليس لأي ولد نخرجه الآن أي حظ في الحياة ما لم يكن عثر على جيب هوائي." وغطس في الماء وقـدماه تسبقانه. شعر بشيء يتلوى بالقرب من ساقيه، وما لبث ان أخرج صبياً آخر من النافذة. مسحت ذراعا الصبي السطح وخرج من الماء وهو يتقيأ ويسعل.

شعر فريدي بفرح عارم وقال في نفسه: ما دام فيه هذا المقدار من الحياة فهناك أمل لآخرين. وبنشاط متجدّد غطس في الماء ثانية.

## ربما فات الاوان

قاومت جيل ماكيلريث حافزاً قوياً كان يدفعها الى القفز في الماء لانتشال

الاولاد، لعلمها أن في وسعها أن تقدّم مساعدة أجدى إن هي بقيت على الضفة. وفيما هي تنتظر غمرها شعور جارف بالعجز والاحباط.

فجأة وصلت الى المكان سيارة اسعاف تبعتها سيارة للشرطة. وبدأ انتشال الاولاد الموحلين. وسرعان ما قفزت جيل الى العمل بلهفة وحماسة. وهي خاطبت أحد المسعفين: "انني طالبة طبّ. هل يسعني أن أساعد في شيء؟"

"نعم، تسلمي هذا." جاءها الجواب في الحال.

كانت جيل تعلم ان الدقائق السبع أو الثماني الاولى بالغة الأهمية. وقد راقبت عمليات انعاش القلب والرئتين وطبقتها على دمية في حجم انسان. ولكن لم يسبق لها أن طبقتها على أشخاص حقيقيين.

على الأرض عند قدميها مددت فتاة شقراء في قرابة الرابعة عشرة من عمرها. أمالت جيل رأس الفتاة الى الوراء وضغطت صدرها بعقب يدها فوق القلب مباشرة. ثم أخذت نفساً عميقاً ونفخت في فم الفتاة فانتفخ صدرها اذ امتلأت رئتاها بالهواء. كررت العملية: دلّكت القلب ثم نفخت ثم توقفت برهة وجسّت النبض: لا شيء. فحصت بؤبؤي العينين: لا استجابة. ربما فات الأوان. وتساءلت: هل أقطع الرجاء وأتركها؟ أنا لست مؤهلة لاتخاذ قرار. كيف أختار من أساعد ومن أترك؟

ما ان ابتعدت جيل بضع خطوات عن الجسد الهامد حتى أنتشل من الماء رجل يرتدي بذلة رسمية زرقاء فأكبّت عليه للحال. وعندما نفخت في فمه للمرّة الثالثة شعرت بجسده يتشنّج وما لبث أن تقيأ. كان حياً! وعندما قلبته على جنبه لتصريف القيء لاحظت أنه لف خصره بحزام يحمل شارة البلدية. لا بد من أنه سائق الحافلة. جست نبضه فوجدته غير منتظم. فجأة تشنّج جسده ثانية. ووضع أحدهم بطانية تحت رأسه. وتابعت جيل تدليك القلب.

## خيارات صعبة

جرّ بيتر كوبن نفسه الى سطح الحافلة الغارقة وتطلع حوله بخيبة ويأس. كثيرون من رفقائه في المدرسة تجمعوا هناك مبهورين وكثيرون غيرهم كانوا يتخبطون في الماء محاولين الوصول الى الضفة. فتش عن أخته رونل باهتياج. ربما ما زالت عالقة في الداخل. فجأة انشقّ سطح الماء بالقرب منه وبرز رجل يدفع أمامه فتاة تلهث طالبة الهواء. قال بيتر في نفسه: لا يسعني أن أظل هكذا! وعاد الى المياه الموحلة.

سبح بيتر في محاذاة الحافلة، فاصطدم بفتاة علق نصفها في نافذة. أمسك بها من تحت ابطيها وجذبها نحوه لكنها لم تتزحزح. رفع ركبتيه وضغط بهما جدار الحافلة وجذب ثانية فتحررت الفتاة.

عاد بيتر الى سطح الحافلة وهو يلهث وجال ببصره في ضفتي السد. بدت له احدى السابحات وكأنها رونل. لكنه لم يستطع أن يجزم ظنه. وعلى الجسر امامه رأى برندا وكارين فان سيترت وكانتا في الحافلة الامامية. كان عليه ان يتأكد من أن رونل ليست محتجزة داخل الحافلة.

انتصبت جيل ومسحت العرق والقيء عن وجهها. أمامها على الأرض مدد ثمانية أولاد وغطي بعضهم ببطانيات. نقلت بصرها بينهم. وللمرة الاولى استوعبت ضخامة المأساة. واكتظت الطريق المؤدية الى السد بأسطول من سيارات الاسعاف والاطفاء والشرطة وبألوف المتفرجين فيما حامت طوافات فوق الرؤوس. وكانت الشرطة قطعت الطريق عند طرفي الجسر. ومع ذلك تمكن بعض الأهل من الوصول الى المكان وراحوا يفتشون عن أولادهم وقد ضعضعهم المصاب.

حولها كان المسعفون والاطباء والممرضات يعملون على نحو محموم. هنا ولد يضخون ماء من صدره، وهناك آخر يثبتون كمامة أوكسجين على أنفه وفمه، وهنالك ثالث يحاولون الا يدعوه يؤذي نفسه بفعل تشنجات أصابته. والجميع في حيرة من أمرهم أمام الخيار الصعب: بمن يبدأون؟

صمّت جيل أذنيها عن الضجيج وركعت بالقرب من جسد لا حراك فيه ولا لون لابنة خمسة عشر عاماً نبضها ضعيف وتتنفس بصعوبة. وكانت طوافة الاسعاف التابعة لمستشفى جوهانسبرغ العمومي حطّت

في مرجة صغيرة بالقرب من السدّ. وأدركت جيل أن تلك ربما كانت الفرصة الاخيرة للفتاة. نادت المسعفين وساعدتهم على رفعها الى النقالة. وما كادت الطوافة تقلع حتى انهمكت جيل بضحية أخرى.

## اجتماع الشمل

كان ضابط الصف لويس فانويك (٤٥ عاماً) في قاعدته في سوينتو على مسافة ٣٩ كيلومتراً من سدّ وستدين، حيث أكبّ على الملفات بحثاً عن دليل يساعد الشرطة في كشف غوامض جريمة. ورنّ جرس الهاتف في مكتبه. ولشدّ ما كانت دهشته عندما سمع صوت زوجته في الطرف الآخر. فهي نادراً ما تطلبه في مكان عمله. أخبرته: "لقد غرقت حافلة المدرسة في السدّ، ولويز بين ركابها."

"في السد؟" ردّد فانويك غير مصدّق. ونظر الى ساعة يده وكانت تشير الى الاولى والدقيقة الخامسة والعشرين، ثم قال: "انني قادم حالا."

اندفع لويس فانويك من مركز الشرطة راكضاً. وفي تلك الاثناء توقفت امام المركز سيارة دوريّة فجذب سائقها الى الخارج وقفز مكانه وانطلق ويده على البوق. وبسرعة بلغت ١٩٠ كيلومتراً في الساعة شق طريقه بين السيارات متلوياً كثعبان وما فتىء يصلي: أرجوك يا الهي، نجّها من كل أذى. أرجوك، دعها تعيش. وكان قطع المسافة الى عمله ذلك الصباح في أربعين دقيقة. أما الآن، بعد أقل من ١٤ دقيقة، فقد بات السد على مرأى منه. شاهد الناس يتراكضون مشدوهين وبعضهم كان يبكي. وأمامه على الطريق رأى فتياناً وفتيات حفاة وثيابهم مخضلة بالماء. وعرف منهم بعضاً من أولاد الجيران والاصدقاء، لكن لويز لم تكن بينهم.

نزل لويس من السيارة وقطع جرياً مسافة المئتي متر المتبقية الى الجسر. واخترق حاجزاً للشرطة. وهناك على جانبي الطريق طالعته أجساد ممدّدة وملفوفة ببطانيات. راح يتنقل بينها ساحباً الغطاء عن كل جسد. لم يتعرّف الى الضحيتين الاوليين. اما الثالثة فكانت استيل جاكوبس صديقة لويز الحميمة. ترى هل كانت لويز معها في الحافلة؟ الى جانب استيل تمدّدت إلسا فان هيردن وكانت تقطن في البيت المقابل لبيت آل فانويك. ثم شاهد جسد بيرتوس غوينكامب، الفتى الذي بيته في آخر الشارع والذي كان مفتوناً بلويز. تملكت الضابط رجفة ولم يعد قادراً على حبس دمعه فراح يبكي ويشهق وهو يرفع غطاء بعد الآخر عن الاجساد الممدّدة، الى أن وصل الى آخر الصف. لم تكن لويز هناك.

نظر الى السد بيأس، وكان فريق من العمال ينتشل الحافلة بواسطة رافعة. اذا كانت لويز ما زالت داخلها فلا شك في أنها فارقت الحياة. أسند جسده الى سيارة متوقفة ووضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء. واقترح أحد رفقائه في الشرطة الاستعلام عن لويز في المستشفيات، فتبعه فانويك الى سيارة الدوريّة.

في مستشفى ستريجدوم القريب غصّت غرف الانتظار بمئات الآباء والامهات



بخير. انها حية!" صعقه الخبر وعقد لسانه. فسألته ميمزي: "هل تسمعني يا لويس؟ إنها بخير وهي في منزل آل فانزيل. أحدهم نقلها في سيارته الى هناك." بعد دقائق اجتمع شمل الأب وابنته.

والاخوة والاخوات والاصدقاء الذين استبد بهم القلق فهرعوا الى المستشفى للاطمئنان. وعذّبت فانويك كلمات امرأة كانت تولول: "لا! ليس ولدي! لماذا ولدي؟" ثم قرأ أحدهم في المذياع قائمة بأسماء الأولاد الذين أدخلوا المستشفى، ولم يكن اسم لويز بينها. للمرّة الأولى بدأ فانويك يفقد كل أمل، وأيقن أن ابنته فارقت الحياة. وفكر: يجب أن أكلم ميمزي.

رفعت زوجته السماعة للحال. وقبل أن يتسنى له أن يقول شيئاً بادرته: "لويز

## بطل حقيقي

هانس كوين عامل لحام في الثامنة والاربعين من عمره يعمل في مجلس مدينة جوهانسبرغ. وهو ما كاد ينتهي من تناول طعام الغداء في مستودع المجلس في فوردسبرغ التي تبعد ثمانية كيلومترات عن السد، حتى ناداه كبير العمال سائلا: "هانس! ألا يعود ولداك من المدرسة في حافلة وستدين؟"

أومأ هانس برأسه ايجاباً ونظر الى الساعة في معصمه وقال: "لا بد من أنهما وصلا الآن."

– من المستحسن أن تأتي معنا. فلقد تلقينا الآن نداء بالراديو يطلبون فيه رافعة. احدى الحافلات غرقت في السد.

سرت في جسد هانس قشعريرة. فابنه بيتر وابنته رونل كانا في الحافلة.

اندفع نحو شاحنة متوقفة وانطلق بها، غير أن الرافعة الضخمة أمامه أرغمته على الابطاء فسار وراءها بسرعة لم تتعدّ الاربعين كيلومتراً في الساعة ممّا زاد عذابه. وكان خوفه يتعاظم مع كل دقيقة تمرّ، وراح يبتهل: عساها تكون حافلة أخرى!

وبعد نصف ساعة وصل الفريق الى السدّ. وفيما هانس يدفع وزملاءه الرافعة بين الجموع المحتشدة شعر بيد تلمس ذراعه. التفت فرأى زوجته ماري التي قالت له وهي تنتحب: "رونل بخير، ولكن لا أثر لبيتر."

انقضت ساعة والحافلة ما زالت تحت الماء. من المؤكد انه لم يعد فيها أحياء. أمسك هانس يد ماري وهما يشاهدان الحبال المتدلّية من ذراع الرافعة تُدخل الطبقة العليا وتعقد أنشوطة. سمعا هدير المحرّك وراقبا الحبال تُشدّ وتُسحب. لكن قعر الحافلة كان عالقاً في طبقة من الغرين الناعم بلغت سماكتها متراً. كان الضغط على السطح شديداً فبدأ ينفصل عن الحافلة.

انطلقت ماري تفتش بين المتفرجين علّها تجد بيتر. وعادت بعد دقائق وعلى شفتيها ابتسامة عريضة. قالت: "أظنّ أن بيتر بخير. فلقد أخبرتني برندا فان سيترت أنها لمحته فوق سطح الحافلة يساعد أولاداً آخرين." ابتسم هانس بدوره وقد غمره شعور بالفرح فمساعدة الغير كانت من أبرز مزايا بيتر.

استدعى عمال الانقاذ رافعتين اضافيتين مما ساعد في توزيع الثقل وأتاح لرجال الانقاذ أن يرفعوا الحافلة مترين فوق الوحل حيث أبقوها لفترة ريثما ينتهي غطاسو الشرطة من تفتيش الطبقة السفلى وطبقة الغرين المحيطة بالحافلة.

الساعة الخامسة بعد الظهر أخرجت الضحية الاخيرة على نقالة وكان الجسد مغطى ببطانية. ظلل هانس عينيه ليحجب عنهما أشعة الشمس الغاربة وحملق في الجسد المرفوع. لا... لا يمكن... مستحيل... انه مثل بيتر تماماً... لكن اولاد فان سيترت شاهدوا بيتر حياً...

اندفع هانس الى الامام وصرخ في الاطفائي الذي كان يرفع النقالة: "دعني أنظر اليه."

وجاءه الجواب حاسماً: "آسف، إن كنت تظن أن في وسعك التعرف الى بعض الضحايا فعليك أن تذهب الى مستودع الجثث."

انكمش هانس الى الوراء وعيناه مثبتتان على السروال الرمادي المبلل والحذاء الاسود. ورأى النقالة تُدخل سيارة اسعاف. لم يبق أمامه ما يفعله فسار الى منزله.

عندما فتح الباب اندفعت رونل نحوه وهي تشهق وأخبرته انها هي أيضاً شاهدت بيتر على سطح الحافلة. فطمأنها أبوها: "لا بدّ من أنه بخير."

انقضت ساعة وآل كوين يحاولون

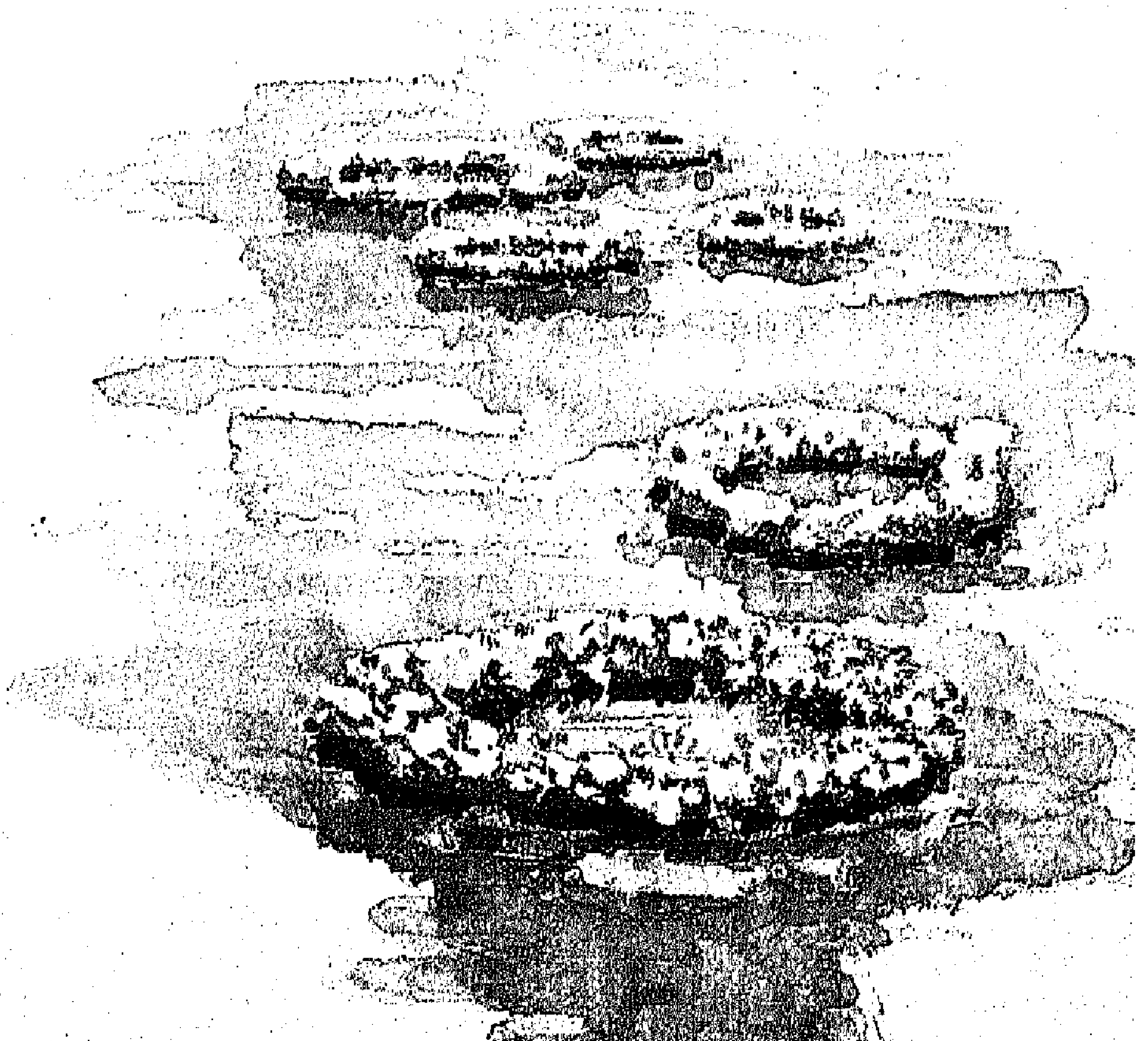
الاتصال بمستشفيات المحلة، لكنهم لم يتلقوا أي خبر عن بيتر. اخيراً توجه هانس الى مستودع الجثث مع شقيق زوجته جورج ابري. وكانت الساعة السابعة والنصف مساء. هناك تبدد الامل اذ رفع أحد الموظفين الغطاء عن الجسد البارد الهامد. كانت جثة بيتر آخر ما انتشل. وقد عثر عليها في الوحل خارج الحافلة حيث قضى بيتر وهو يخلص رفقاءه.

صباح اليوم التالي أفاقت ضواحي وستدين وتريومف ونيولاندز على هول الفاجعة التي حلّت. من بقي حياً من الاولاد توجه الى المدرسة حيث تليت الاسماء. أما قصة المأساة فروتها الأزهار الموضوعة على طاولات الدرس في اكثر من صف. لقد قضى ٤٢ تلميذاً: ٢٩ فتاة و١٣ فتى.

نهار السبت أقيمت جنازة جماعية لاثنتي عشرة ضحية في مدافن وستبارك الواقعة في الوادي تحت السد. ويوم الاثنين أقفلت المحال والمتاجر في جوهانسبرغ باكراً ونكست الاعلام في أنحاء البلاد حداداً على عشرين ولداً آخرين دفنوا ذلك النهار. أما بقية الضحايا فأقيمت لها جنازات عائلية.

ولايام طويلة بعد المأساة ظل الناس يتوقفون قرب جدار السد ويلقون باقات زهر في المياه الداكنة.

في اليوم الذي تلا الحادث أفاق سائق الحافلة وليم هورن في مستشفى جي جي ستريجدوم. وكانت رئته اليسرى ما زال فيها بعض ماء مما اقتضى الاستعانة بجهاز للتنفس. وقال له الاطباء ان من حسن حظه أنه بقي حياً. لكن شعور الندم



ظلّ يعذّبه. وتناهى اليه أن بعض آباء الضحايا يروم الانتقام. إثنان واربعون ولداً قضوا وهم في عهدته، وهو قدّر شعور ذويهم قياساً على شعوره هو لو كان أولاده بين الضحايا.

وعلى رغم فحوص الدم التي أثبتت نقاء دمه راجت اشاعات بأنه كان ثملا، الّا أن جيل ماكيلريث نفت ذلك نفياً قاطعاً. فهي أنعشته من طريق النفخ في الفم، ولم يحمل نفسه أي أثر لكحول.

مع أن هورن لا يتذكر من الحادث إلا القليل، إلا أن الشعور بالذنب ما برح يعذّبه. وهو عاش في يأس وانهيار بعد خروجه من المستشفى. وحاولت زوجته ماري جاهدة أن تخرجه من صمته وتبدد يأسه، لكنه اعتصم بالصمت واعتكف في غرفته المظلمة.

وبعد ثلاثة أسابيع عادت ماري الى البيت لتجده سابحاً في دمه وفي عنقه جرح عميق. وزعم هورن للشرطة أن ثلاثة رجال هاجموه، لكن رجال التحري سرعان ما أدركوا أنه حاول الانتحار.

وفي ١٦ أكتوبر (تشرين الاول) مثل هورن أمام محكمة جوهانسبرغ العليا بتهمة القتل عن غير عمد، وكان شاحباً محني الظهر. فقضت المحكمة بوضعه تحت المراقبة للتثبت من صحته العقلية.

وفي مارس (آذار) ١٩٨٦ بدأت محاكمته. وتبين أنه تعرّض في العام ١٩٨٢ لهجوم من أربعة رجال بات على أثره يفقد وعيه من وقت الى آخر. وهو أخبر القاضي أنه شعر بألم حاد في رأسه وبدوار ثم لفه الظلام ولم يعد يعي شيئاً. وحكم القاضي كريغلر بتبرئته مقتنعاً بأنه تعرّض لنوبة غيبوبة. وهو خاطبه: "انني مقتنع بأن لا مسؤولية جرمية عليك."

وفيما القاضي يغادر قاعة المحكمة علا تصفيق أصدقاء هورن وأفراد عائلته. وعندما خرج من مبنى المحكمة قال للصحافيين: "لن أنسى هؤلاء الاولاد ما حييت."

الصلاة والزمن تكفلا محو الغضب من قلوب أهالي الضحايا. ولقد تمكن رجل الدين وليم فان أسوجن وكان ابنه بين الاولاد الذين نجوا، أن يمدّ يد العون الى كثير من العائلات المفجوعة. وهو يقول: "من ظلام ذلك اليوم بزغ في مجتمعنا نور جديد ووجدنا تقارباً لم نألفه من قبل. نحن نعيش اليوم وعيوننا ترنو الى المستقبل."

**وليم باركر**

ترجمة د. باسمة سكرية عيد



## عندما تتكلم النمور

سمع حارس حديقة الحيوان سيدة تهتف: "انظروا الى هذه النمور الصغيرة الفتانة. ترى ماذا كانت لتقول لو قدّر لها أن تتكلّم؟"

تبسم الحارس بتهذيب وأجاب: "ستقول: نحن نمور يا سيدتي."

كتاب الشهر






ملخص من كتاب

بقلم روزانا بنزي و سافيريو تيافومي

Photo: Giancarlo De Bellis

# سجينة رئة الحديد

**في العام ١٩٦٢ ابتُليت ابنة الرابعة عشرة روزانا بنزي بشلل الاطفال ومنذ ذلك التاريخ تعيش "مصندقة" داخل رئة حديد في أحد مستشفيات جنوى بايطاليا. قاومت المرارة واليأس وصارعت لكي تبني حياة مثمرة وأضحت رمزاً يلمّ شمل المعاقين في ايطاليا كلّها. وها هي تروي، بكلماتها وأسلوبها، حكاية انسانة اختارت طريق الحياة**

في يناير (كانون الثاني) ١٩٦٢ اصطحبت أخي الصغير الى المستوصف لتلقيحه ضد مرض شلل الاطفال. فعلت ذلك خلافاً لارادة والديّ ونصف سكان بلدتنا موربلو. وكانت تلك أولى اللقاحات التي وصلت الى المنطقة. وبفعل سذاجة الناس وجهلهم فقد نظروا اليها بارتياب. لم يكن أخي تجاوز السنتين وكان طفلا دقيق الحجم مما ضاعف قلق والدتي وخشيتها. وهي توعّدتني آنذاك: "الويل لك إن أنت فعلت شيئاً من هذا القبيل!"

لذلك لم أتلقّ اللقاح. ولم يأبه احد لذلك. ففي الرابعة عشرة من عمري كنت صبيّة "ناضجة."

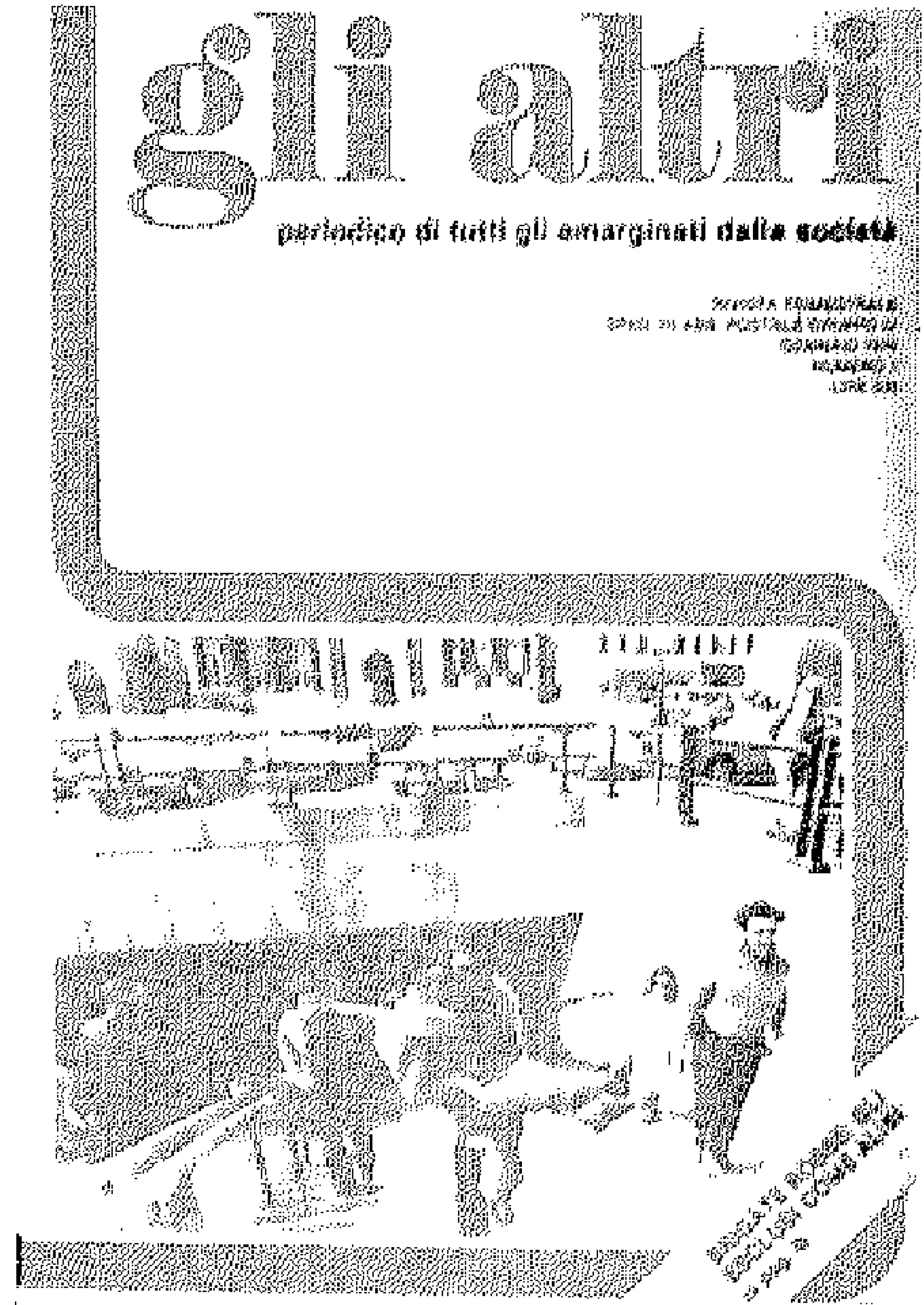
في وقت لاحق وقعت ابنة عمي فريسة المرض. وهي شعرت بوهن شديد وبصعوبة في تحريك احدى ساقيها، وعندما عدتها في بيتها بدا عليها السرور لرؤيتي. وعلى رغم مرضها تحدثنا كثيراً وضحكنا كثيراً.

وكانت طريق العودة عبر بساتين الكستناء ما زالت مكسوة بالثلج على رغم اننا كنا في شهر مارس (آذار). وراقني ذلك وشعرت بسعادة عارمة، فرحت أغرف حفنات من الثلج وأتركها تنساب بين اصابعي كالطحين. وازدردت منها الكثير. كان ذلك مسليا، وكنت انا سعيدة.

بعد ثلاثة أيام، صباح ١٦ مارس (آذار)، نهضت من فراشي وبي ألم فظيع



مجلس تحرير حول الرئة الحديد.




غلاف العدد الاول
من مجلة "الآخرون."

في الظهر. وشعرت بتعب عمّ جسدي وبكسل وانحطاط. ورحت أتنقل في مقهى والدي من مقعد الى آخر. وفي المساء غفوت سريعاً من شدّة الانهاك. وقرابة منتصف الليل ناديت أمي: "هلّا رفعتِ ملاءتي عن الارض يا ماما؟"

فردت غير مصدّقة: "هل جننت؟ ألا يسعك أن تفعلي ذلك بنفسك؟"

لقد أنهضتها من سريرها من أجل ذلك الطلب الغريب. كان لا بدّ من أن تجد عملي سخيفاً كتصرف طفل مدلل.

ولكن في صباح اليوم التالي لم اقوَ على رفع منديل الى أنفي لمسحه. ويداي عجزتا عن الوصول الى وجهي. أدنيت وجهي من يديّ لكن أناملي عجزت عن الاطباق على أنفي. وللحال طلبت أمي طبيب البلدة لكن أحداً لم يجده، فهو كان مسؤولا عن ثلاث بلدات.



Photo: By Courtesy of Rosanna Benzi

ساءت حالي بسرعة. مع قليل من المساعدة كنت أستطيع الوقوف، لكني لم أكن أقوى على النهوض بمفردي. نقلت الى سيارة والدي القديمة فانطلقت بنا الى المستشفى في أكيتيرم.

عند مدخل قسم الطوارىء تعسّر اخراجي من السيارة. خرج جسمي على طاعتي واضطررت الى ترك سواي يحرّكني. بتُّ متفرجة. استغربت لهاث الممرضات ونظرة الرعب في عيني والدي فيما المسعفون يضعونني على النقّالة ويرفعون عني الغطاء بعدما أصبحت في الداخل.

ثم أتى طبيب شاب أمسك زمام الامور للحال.

سألني: "هل تحبينني؟" ثم تابع: "إن كنت تحبينني فعلا اعطيني قبلة." راقتني المزحة ورفعت ذراعي. تدبّرت أمري بطريقة ما ووصلت الى كتفيه، لكنني لم أستطع شبك يديَّ حول عنقه. شعرت بأن جسدي تخلّى عني. أيقنت ذلك لكنني كنت مشدوهة ومرتبكة. ورحت اكتشف كل دقيقة أعمالا أخرى لم يعد في وسعي تأديتها وعضلة أخرى تمرّدت على ارادتي.

كان طبيب أعصاب يعاين بعض المرضى في غرفة مجاورة، فاستدعي ليفحصني. أخرج مطارق وأدوات أخرى غريبة راح يمررها على جلدي. كان والدي يراقب ما يجري وكأنه طقوس يؤديها مشعوذ. اخيراً استدار الطبيب نحوه وقال له: "شلل الاطفال يتقدم فيها بسرعة. ولو كانت ابنتي لنقلتها الآن الى جنوى. غداً صباحاً لن يكون في وسعها أن تتنفس وستحتاج الى رئة حديد ولن تجد الوقت الكافي لتوصلها الى واحدة."

وهكذا أصبح الامر واضحاً جداً. فإما الذهاب الى جنوى واما الموت. وأما الرئة الحديد فلم يكن أحد يدري ما هي.

## البيت الجديد

لم يعد والدي يملك أي خيار وقال لي: "ابقي هنا ريثما أعود الى والدتك لاخبرها بأننا ذاهبون الى جنوى." وقبل ان يغادر الغرفة وضع على الطاولة قرب السرير زجاجة ماء وكوباً، لكنهما لم يكونا في متناولي.

شعرت بعطش شديد لكنني لم أقوَ على رفع ذراعي عالياً لتناول الكوب. مسحته بيدي، وعبثاً حاولت أناملي الاطباق عليه قبل أن تهوي ذراعي كجسد هامد. لم يكن لي خيار سوى تكرار المحاولة، فحلقي كان جافاً وعطشي لا يرحم.

النساء الثلاث الاخريات في الغرفة كن نائمات. لم يكن هناك أي أمر آخر يفعلنه في تلك الغرفة في المستشفى. وحدها امرأة عجوز صغيرة الحجم بادية النظافة لها شعر أبيض كالثلج، لاحظت وجودي وراحت ترمقني بطرف عينها. وهي لم تكن واثقة بأنني أرغب في أن أشاهد في حربي مع الكوب.

أخيراً اقتربت من سريري خفيفة كالريشة وسألتني: "أنت عطشى، أليس كذلك؟ أنت عطشى؟"

رفعت الكوب الى شفتي وهي تبتسم. وفي الساعات القليلة التي تلت قدمت الي الماء غير مرة. ولم تفارق الابتسامة

شفتيها وكأنها أدركت أن حاجتي الى البسمة والى وجودها بقربي فاقت حاجتي الى الماء.

ثم نُقلت الى مستشفى سان مارينو في جنوى حيث عاينني طبيب ودود. فحصني بدقة واهتمام وفحص تنفسي ثم طلب مني أن أنام. وكان الليل قد انتصف، لكن النوم جفاني ورحت بين الفينة والاخرى اطلب من والدي ان يحرّك ساقي، فلم اكن مرتاحة.

"ماذا تقصدين؟ أحرك لك ساقيك؟" سألني وكأنه لم يشأ أن يفهم.

كان مجرّد التنفس يتطلب مني جهداً خارقاً. وقرب السرير في ضوء الغرفة الخافت ميَّزت بصعوبة شكلا أسطوانياً مستطيلا. الغموض الذي لفّ تلك الآلة سحرني وأثار فضولي. لم أفقه لها أي معنى، كذلك والدي. ولم نكن لندري وجهة استعمالها.

الصباح التالي كان زاخراً بمزيد من الاختبارات والفحوص، ولم أعد أقوى على أي حركة. تعذر علي أن أتنفس حتى بمساعدة الانبوب الذي أدخل فمي، فرحت أبصقه والممرضة تدخله مرة بعد أخرى. وبدأ مستوى الاوكسجين في جسمي ينخفض. وكل ما أذكره أن شخصاً اندفع الى غرفتي وهو يصرخ أنني أحتضر فليسرعوا. ثم هرع الجميع الى غرفتي.

أخذتني الممرضة بين ذراعيها. وخرجت من غيبوبتي برهة قصيرة كانت كافية لاعبّر عن رفضي دخول تلك الاسطوانة الصامتة ولأطلب منها أن تودّع الجميع باسمي وتدعني أموت بسلام.

عندما أفقت بعد ساعتين أو ثلاث ساعات وجدتُني داخل الرئة الحديد. ولعلّ الارهاق الذي أصابني تلك الليلة التي لم أذق فيها طعم النوم ساعدني في تقبّل احتضانها وخفف عني وطأة الصدمة. شعرت بضغط شديد على صدري ومعدتي. كانت الآلة تتنفس عني. وكنا في عصر ٢١ مارس (آذار) ١٩٦٢. ولم أدرك عندئذ انني كنت في بيتي الجديد.

## غرفة اجتماعات

كان رأسي الجزء الوحيد من جسمي الذي بقي خارج الرئة الحديد. أما بقية جسدي التي شلها المرض فكانت داخل تلك الاسطوانة البيضاء المطلية بالمينا وذات الفتحة المطاط حول العنق. وفي طرفها البعيد رأيت مضخة ما فتئت تضخ الى الامام والى الوراء محدثة الضغط الضروري للتنفس. وكان تنفسي متطابقا مع ايقاعها الرتيب. وتقت الى رؤية أشجار الدراق المزهرة من نافذة غرفتي العارية من أي أثاث.

في غرفة أخرى من ذلك المستشفى رقدت امرأة أخرى داخل رئة حديد أخرى على اثر حادث اصطدام بين سيارتين. وشعرت بوجودها على رغم أنني كنت وحدي في الغرفة ولم يسعني أن أراها. شعرت وكأنها معي في الغرفة.

ذات يوم دخل علي الدكتور انريكو غولكو المساعد الأول لرئيس الاطباء في المستشفى وعلى شفتيه ابتسامة عريضة. وأخبرني أن المريضة الثانية بدأت تتنفس من تلقائها. وأضاف: "هذا يعني أنه ربما كان في مقدورك أنت ايضاً أن تتنفسي كذلك."

كان الدكتور انريكو عامراً بالأمل وصبره طويلا. وحاولنا جاهدين. وذات مرّة نجحت في البقاء خارج الرئة والتنفس بمفردي مدّة ٤٠ دقيقة. أربعون دقيقة من الجهد المضني.

الاحتمال أن المرأة الاخرى ربما استغنت عن الرئة الحديد ملأ نفسي غيظاً وأثار حسدي. ولما توفيت بعد يومين تحوّل حسدي خجلا ونقمتي غصّة في حلقي. كان ذلك درساً وددت لو استغنيت عنه لكنه درس لن أنساه ما حييت. لن أحاول أبداً أن أتعزّى بمقارنة نفسي بمن حالهم أسوأ من حالي. كل من يفعل ذلك مخطىء. فألم الآخرين لا يمكن أن يفرّج كربتي.

كان الاصدقاء دائما مهمّين في حياتي. فغيابهم يشعر المرء بالوحدة، فكيف إذا وُجد في مثل حالي؟ وخلال الاشهر التسعة الاولى وأنا معزولة عن الدنيا في سان مارتينو، لم يتسنَّ لي أن أتعرّف الى أناس كثيرين، باستثناء الاطباء. ومع حلول عيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٤ نُقلت الى غرفة أخرى ملاصقة لقاعة كبيرة وبقيت فيها بمفردي.

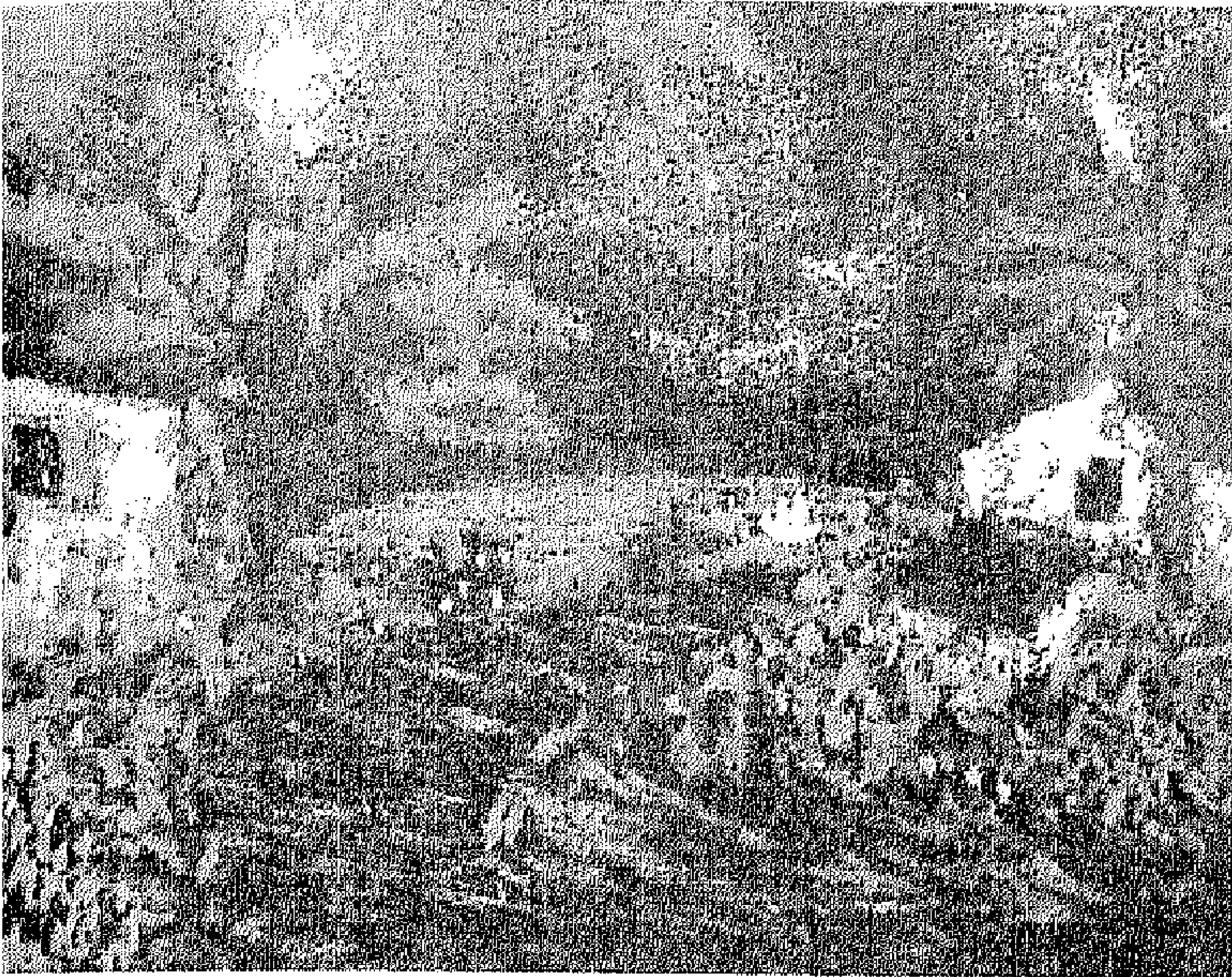
ولكن لسبب ما بدأ المرضى الآخرون يتجمعون في غرفتي ويتحلقون حولي ويتبادلون الاسرار والنكات والضحكات وأحياناً البكاء. وأظنّ أنهم كانوا يأتون الى غرفتي لانه لم يكن لديهم عمل آخر طوال النهار، من الصباح الى المساء. وبجانب رئتي الحديد كان سرير صغير استعمل للجلوس، ولم يكن يتسع للجميع، فكان بعضهم يظلّ واقفاً. وكان في الغرفة جهاز تلفزيون فكنا جميعنا نشاهد البرامج ثم نتناقش في مواضيعها.

## عالم آخر

وبدأت أكوّن صداقات جديدة من خارج المستشفى. وانضممت الى فرقة الكشافة المحلية. وكان يزورني فتية من الاصلاحية. وبدأت أتلقى رسائل من أناس لا أعرفهم. ودرج أصدقائي على اصطحاب اصدقائهم لزيارتي. ووسط هذه الفوضى بدأت أتأقلم مع حياتي الجديدة وشعرت بنوع من الاستقرار.

بعد ١٤ سنة من الحياة القروية تعرّفت الى عالم جديد: عالم الاطباء والاساتذة. كان حديثهم يدور حول الادب والموسيقى وشؤون العالم. شعرت بجهلي وبدأت اقرأ. على ان قراءة الكتب كانت تتطلب وجود شخص آخر معي يقلّب صفحات الكتاب. ولم يشكّل ذلك أي عائق، لأن غرفتي كانت دائماً تعج بالزوار من أصدقائي والمرضى الآخرين. صديقي أندريا، وهو طالب فلسفة، رعى محاولاتي الاولى في عالم الادب وعرّفني الى عدد كبير من الكتاب وأشبع هوسي في جمع تواقيع المشاهير وكنا نتناقش في كل الامور.

ثم جاءت مرحلة الرسم. انا لست الشخص الاول ولا الأخير الذي يتعلّم الرسم بواسطة الفم. في البدء كنت أجادل والدتي، التي لازمتني ليلا ونهاراً، في وضع الاوراق وطريقة حملها الفرشاة كي التقطها بفمي. وتحوّل وجهي قوس قزح، ولم تكن فوضى الالوان على الورقة سوى نسخة مشوّهة عن جداول الالوان التي سالت على وجهي وعنقي وفتحة



منظر طبيعي رسمته روزانا بفمها.

الرئة الحديد. أما بحيرات الالوان على الأرض فعكست الأمل والتحدي والصمود في الصراع الذي تفجّر من أجل الحياة. وساعدني الاطباء فاشتروا لي جميع المعدات المطلوبة. أما زملائي المرضى فاستشفّوا ما كان يجري داخلي وهللوا لمحاولاتي وشجعوني.

جعلتهم يعلّقون لوحتي الاولى على الجدار قرب المصباح كي يضفي عليها الضوء الاصفر هالة درامية، وطلبت منهم أن يسدلوا الستائر ليسود الغرفة جو من الغموض ريثما يصل رئيس الاطباء الطبّيب القلب البروفسور فيليس غريبولا.

وصل الطبيب أخيراً بربطة عنقه الفراشيّة وشعره القصير ونظارته ذات الاطار المذهّب وعينيه الزرقاوين الكبيرتين. خاطبني بصوت مرتفع: "كيف هي لعبتي اليوم؟"

وكان يسرني جداً عندما يناديني "لعبتي."

نظر حوله وكأنه يستكشف الغرفة المظلمة. وتعثرت قدمه بقاعدة المصباح وكاد أن يضرب اللوحة بأنفه. مستحيل الّا يراها! كانت القطعة الوحيدة المضاءة في الغرفة. وأخيراً هتف: "يا لها من لوحة جميلة! من رسمها؟"

- انا رسمتها! رسمتها بفمي.

"انت يا روزانا؟ أنت رسمتها بفمك؟ أكاد لا أصدّق. وأضاف وهو يتفحّصها "انك بارعة حقاً! لا بل عظيمة!" وانحنى فوق سريري وطبع على وجهي قبلتين والدمع الغزير ينساب على وجنتيه. وهمس: "شكراً لك." وبعد ذلك بدأ يزودني أنواع الفراشي والأوراق والأطر.

## اختيار الحياة

بدأ رجال الصحافة يظهرون في غرفتي، لا بل يحومون كالنحل. سألوني: "كم من الوقت مضى عليك وأنت هنا؟" "ماذا اصابك؟" "كيف تتدبرين أمرك وتفعلين هذا وذاك؟" الى ما هنالك من أسئلة.

فوجىء رجال الصحافة بمنظري. فهم توقعوا أن يروا صورة مجسدة للالم وللنفس

Photo: By courtesy of Rosanna Benzi

هوت الى درك الوحدة واليأس. كانوا على استعداد لنقل كلمات الاسى والحقد على القدر او كلمات الاذعان والاستسلام. لكنهم بدل ذلك وجدوا فتاة تضحك وتمزح. لم يجدوا أثراً للدمع ولنظرات الحزن التي توقعوها. أما أن تكون لي مخططات مستقبلية ومشاريع أنوي تحقيقها فقد بدا لهم ذلك امراً خارقاً وغير عادي.

وهكذا ظهرت في الصحف عناوين مثل: "الآنسة شجاعة" و"صلبة كالسنديانة" اشارة الى الفتاة التي تحدّت العالم والظروف وتعلّمت أن ترسم. وذاع صيتي ونُظم معرض للوحاتي. بعض الصحف مثل "كوريبيري مركانتيسلي" و"إل سيكولو ١٩"(١) أطلقت حملة هدفها شراء رئة حديد أخرى، فربما تعطلت الرئة الحالية ذات يوم. وخلال ٣٠ يوماً جمعت أربعة ملايين لير ايطالي(٢). أحياناً لا أفهم كيف تجري الامور، فعندما يطلق المرء نداء ما يفقد السيطرة ولا تنقطع المفاجآت. ولقد جاءني صديق يحمل ٣٠٠ ألف لير وقال: "هذه من ملهى في جنوى."

وكان المبلغ اقتطع من عائدات احدى الامسيات، فاضفناه الى الموجود.

في السرّاء وفي الضرّاء لم يكفّ زملائي المرضى في المستشفى عن تقديم الدعم الي وشدّ عزيمتي. وظهر ذلك جلياً عندما أصبت بالالتهاب الشعبي الرئوي. وفيما أنا معلقة بين الحياة والموت بدا أن جميع مَن في المستشفى يجد صعوبة في التنفس.

دام الخطر يوماً كاملا اختلط فيه الليل بالنهار وامتلأ بالاسود والرمادي وبألوان منتفخة لا حياة فيها وبمزيج من الاصوات. خيط وحيد ظل صامداً. خيط رفيع من النايلون لا نهاية له. وكلما تمطّى ضمن الحياة لجسدي العنيد الهامد الذي ظل طوال سنوات متشبثاً بحياة تغيّرت. هذا الخيط وذاك العناد وصلوات أصدقائي هي التي ابقت علي وانتشلتني من الهاوية.

ربما كان هناك من يفضل الموت، إلا انني اختار الحياة دائماً.

### الحب الاول

منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري، ممدّدة داخل غرفتي المظلمة أستمع الى آخر أصوات النهار وأراقب النور حولي الى زوال، وأنا أحلم بقصّة حبّ. كان في وسعي أن أنسج حكاية خرافية، لكن "سندريلا" لم تكن فقدت القدرة على الحركة بل فقدت حذاء. أي قصة خرافية تلائمني؟ ومن سيكتبها؟

ذات يوم، وكنت ما زلت مريضة بالتهاب الشعَب الرئوي، اتى موريسيو لزيارتي ومعه بعض الاصدقاء. جلس الجميع على السرير بالقرب من الرئة الحديد وراحوا يراقبونني. لا بدّ من أن منظري لم يكن جميلا مع الانابيب التي أدخلت انفي والشريط اللاصق لتثبيتها.

كنت في التاسعة عشرة وكان هو طالباً يكبرني بسنتين أو ثلاث سنوات. في البدء كرهته لكنه عاد لزيارتي غير مرة بعدما أبللت. كان كثير التكلم عن نفسه وأسراره وطموحاته. ثم بدأ يأتي بكتبه ويدرس في الغرفة عندي وأنا الى جانبه. وبدأت أهتمّ لامره. بعد فترة أصبحنا

(١) Corriere Mercantile; Il Secolo XIX

(٢) الدولار اليوم يعادل ١٣٥٠ ليراً.

متلازمين. وكان البروفسور غريبولا يمرّ بمحاذاتنا ويرمقنا بطرف عينه. وذات مرّة قال للممرضة: "أرجو أن تتركي هذا الباب مفتوحاً على الدوام. لا تنسي، نريد أن نرى تلك الغرفة جيداً." فضحكنا.

وبعد ظهر أحد الايام، في غياب موريسيو، دخل غريبولا غرفتي وبدا على وجهه انه يحمل كلاماً مهماً. قال وهو يختار كلماته بعناية: "روزانا، أؤكد لك أنني سأستمر في محاولاتي لايجاد علاج أو مخفف لشللك. أما اذا وقعتِ في الحبّ فإنك ستحملين مسؤولية نفسك."

تلت ذلك برهة صمت. ماذا يسعه أن يفعل لشللي؟ وماذا يسعني أن أفعل لحبي؟ وأخيراً قلت له: "كل منا يلعب ورقته. ومَن يخسر يدفع الثمن."

خرج من غرفتي بابتسامة وغمزة. لكنه بدا قلقاً. كان رجلا حسّاساً ويدرك جيدا دقة الظروف. كانَ يعلم مثلا أن لبعض الناس أفكاراً خاصة عما هو حسن أو شبه حسن أو مقبول أو مرفوض. المعاقون تجوز لهم الشفقة. والحقيقة أنها تُغدق عليهم بسخاء كبير. الحنان أيضاً لا يعوزهم أبداً، حنان الاشقاء والشقيقات والوالدات والاصدقاء. ولكن هل الحنان والشفقة هما كل ما يصبو اليه المعاقون؟

## سعادة غامرة

كل منّا يريد أن يعيش حياته العاطفية الحميمة كما يحلو له. وللمعاقين الحق في تلمّس طريقهم، وكل بأسلوبه الخاص.

كان موريسيو يعانقني ويقبلني، وكان مغرماً بي وأنا مغرمة به. واستمرت علاقتنا سنتين وجد خلالهما صعوبة في تقبّل الرئة الحديد، ليس فقط لانها كانت حاجزاً مادياً بيننا، بل لانه كان مهتماً بالمستقبل، ببناء بيت وعائلة وعمل ناجح. واقنع نفسه بأنه ليس اهلا لكل ذلك. وهو الآن متزوج وله إبن. أما أنا فأشعر أحياناً ببعض الأسف، لكننا ما زلنا اصدقاء. وهو يزورني من وقت الى آخر.

عندما بلغت الرابعة والعشرين وعلمت أنني لن انفصل ابداً عن الرئة الحديد، التقيت ماريو وكان طالباً في الجامعة. كان حبّنا كالثمر الذي ينضج بسرعة على شجرة قويّة ثابتة. كنّا نتحدث في السياسة والمجتمع والزهور وحقول القمح أيضاً. كنّا معاً نتساءل: ما الذي يُذهل أكثر، أول شعاع من نور الشمس يخترق الغيوم أو أول قطرة من المطر تسقط على الارض؟ وأيهما أسرع زوالا، سرب من الفراش أو سعادة الانسان؟ وأيهما أبعد منالا، النجمة أو المجتمع العادل؟ وتأملنا تحامل الناس والجدران التي تفصل الاولاد "غير السويين" عن سواهم.

"يجب أن تحاربي التحامل،" قال لي ذات مرّة.

هزّ قوله وتراً في نفسي وسألته إن كان متأكداً من أنه ليس شخصاً متحاملا. وكما قلت سابقاً، كانت الثمرة نضجت بسرعة كبيرة فتحديته.

تعلّم كيف يضع الجرس الزجاجي على عنق الرئة، وكيف يناولني أنبوب الاوكسجين. تعلّم كيف يفتح الرئة الحديد. حمل الحب الى الجسد الذي كان كتلة من الشعور لا تقوى على الحراك. أردت أن يحملني الى البعيد وأن أسمع

تنفسه في أذني وأستمتع بالسعادة التي غمرتني: بالدنيا والحياة والزهور وأشعة الشمس وقطرات المطر... كلها مجتمعة. لقد كنت قريبة من ماريو لسنوات طويلة. وهو اعتاد الرئة الحديد لكنه احتاج الى وقت اضافي. أذكر مرّة، وكنا في الاشهر الاولى من حبّنا، كيف عبّر عن شعوره بالاحباط. فراح يضرب المسند الذي استقر عليه رأسي ويصرخ: "انني أمقت سخّانة الماء تلك!" ففصلت ضربته مسند الرأس عن الرئة، ولو لم يسارع الى إسناد رأسي لدُق عنقي!

وصرخت: "هل أنت مجنون؟"

- انني أمقتها!

"حسناً، وإن كنت تمقتها فهي لي وليست لك!"

منذ العام ١٩٨٣ يعمل ماريو بعيداً عن جنوى. ولا اعرف ماذا يحمل لنا المستقبل. مازلنا نجتمع، لكن الامر أصبح أكثر صعوبة. كل ما أعرفه أنني في الخامسة والثلاثين من عمري لا أشعر برغبة في بناء علاقة مع شخص آخر. ليس لأن المرأة في الخامسة والثلاثين لا تملك ما تقدّمه، فهي ربما تملك أكثر من شابة في العشرين. كل ما في الامر أنني ربما استنفدت طاقتي على هذه الامور. والاحتمال الاكبر أنه إذا انفصلنا أنا وماريو فسوف أفقد كل اهتمام.

## بيت السلحفاة

بعثت أشعة الشمس الدفء في وجهي. أخيراً، بعد أكثر من عشر سنين، خرجت الى الهواء الطلق وزهور الربيع حولي تتمايل مع الريح التي غمرتني برفق. كانت الفراشات تنساب في ضوء الشمس. لقد مضى وقت طويل لم ارَ فيه فراشة حتى كاد شكلها يغيب من ذاكرتي.

في أوائل السبعينات، أي قبل ذلك ببضع سنوات، زارني عدد من البحّارة الاجانب وعندما عادوا الى بلادهم نشروا صورتي في الصحف، وأرسلوا الي قصاصة مع مجلّة سنوية كانت تتناول شؤون المعاقين. وللحال أصبح للمجلّة مكان على رفّ الكتب في غرفتي. وقد حوت المجلّة صوراً لعدد من ضحايا شلل الاطفال يتمشون في رئات نقالة تشبه بيوت السلاحف. اختمرت الفكرة في رأسي وتساءلت لماذا لا أفعل أنا ذلك.

سافر الدكتور أنريكو الى لوزان لمقابلة ممثل للشركة التي تنتج تلك الرئات، وكان هو استخدم احداها. وما لبث الطبيب أن اقتنع بجدواها فطلب واحدة.

عندما وصل "بيت السلحفاة" أخرجناه من صندوقه وكأنه هدية عيد ميلاد، وتحلقنا جميعنا حوله. أخرجت من صندوقي ووضعت الرئة حول صدري برهة وجيزة. لكنها لم تعمل جيداً. كانت خيبتي عظيمة. ولبثنا ننظر الى الآلة بصمت.

لكن أحد أصدقائي كان يتقن الانكليزية فقرأ التعليمات التي جاء فيها أن في الآلة مُخلا يضبط مستويين من التنفس: مستوى للاطفال وآخر للراشدين. وكانت الرئة عندما جرّبتها مضبوطة على مستوى الاطفال. وعندما ضُبطت على مستوى الراشدين بات في وسعي أن أتنفس. كان الامر في منتهى البساطة. بدا واضحاً أنني لم أعد طفلة، فقد بلغت سن الرشد.

كان رئيس الاطباء الجديد البروفسور

لوتشيانو باليسترا طويل القامة فاتناً، لكنه كان صارماً. وهو الذي أخرجني الى الهواء الطلق للمرّة الاولى. كان بيت السلحفاة الذي يعمل بالبطارية يضغط صدري بايقاع تشنجي منتظم. ولم يكن الاطباء يحتاجون لنقلي الا الى كرسي ذي عجلات.

كان ذلك يوماً رائعاً. تخيّل نفسك سجيناً داخل رئة حديد طوال تسعة اعوام، وفجأة تصبح طليقاً تتنزه في الهواء الطلق بمساعدة آلة صغيرة. هناك حركة تلقائية، ولأنها تلقائية جدا خلت أنني أتيت بها، وهي أخذ نفَس عميق بعد حبس طويل. كم هي حيّة في ذاكرتي تلك الفراشات...

بعد ذلك ذهبنا في نزهة تليق بالمناسبة. وصلنا الى ريكو. كنّا في فصل الربيع وقد امتلأ الجو برائحة البحر. بقيت داخل سيارة الاسعاف من اجل سلامتي، ثم توقفنا بالقرب من الميناء الصغيرة وفتح الطبيب الباب الخلفي. بقيت في مدخل السيارة مدّة كانت كافية لتسفع وجهي أشعة الشمس.

كان بيت السلحفاة مأموناً، وخدمت البطاريات مدّة طويلة. وعلى أثر هذه النزهة قررنا أن أغادر سيارة الاسعاف في الكرسي النقال. وبدأنا نقوم بزيارات خاطفة على الشاطئ. بدونا كفريق طبّي من المغاوير هبط في مكان غير مألوف وأثار دهشة الناظرين. كانت سيارة الاسعاف تتوقف فننزل منها. اولا أمي أو بعض أصدقائها، ثم البروفسور فرنكو أنريكي نائب رئيس الاطباء، وأخيراً أظهر أنا جالسة في الكرسي. وكان البروفسور انريكي أحياناً يسأل بعض المارة عما إذا في الجوار مطعم يقدّم السمك الطازج. وذات مرّة ظن أحد السادة انه سمع خطأ فوصف له الطريق الى أقرب مركز للاسعافات الأولية.

## نجمة المسرح

في بورتفينو واجهنا المشكلة المعتادة وهي ايقاف السيارات. فكل الناس يودون أن يتوقفوا في إحدى أشهر البقع في العالم مما دفع رجال الشرطة الى التشدّد، فكانوا يمنعون حتى الذبابة من الهبوط إلا حيث هو مسموح. وعندما شاهدوني أشق طريقي ببطء شديد في اتجاه البحر ومن حولي أصدقائي، راحوا يتكلمون في ما بينهم ويشيرون الينا.

بعدما سرنا في محاذاة الشاطئ بين جموع السياح عدنا الى موقف السيارات. وهناك وجدنا رجال الشرطة في انتظارنا. كانوا يحملون دمية ضخمة ذات شعر طويل جعد. نعم. أرادوا أن يفهمونا أن تحت البذلة الرسمية ينبض قلب يزخر بالمحبّة والانسانية.

رائع أن يستمتع الانسان بالهواء الطلق. هل تساءلتم يوماً عن سر جمال الافق؟ إنه يكمن في ذلك الخط الساحر الأقرب الى السماء. كنت أستمتع بمراقبة ابسط الاشياء: بحيرة، زهرة، طائر. عشرة ايام داخل الرئة الحديد كفيلة بأن تجعل أي انسان يُعرض عن المال ويفضّل رؤية سمكة تقفز في الماء أو طائر يحلق في السماء باسطاً جناحيه، ساكناً لا يتحرك.

لمس البروفسور انريكي غرامي بالمشاهد الطبيعية الخلابة وأبى إلا أن

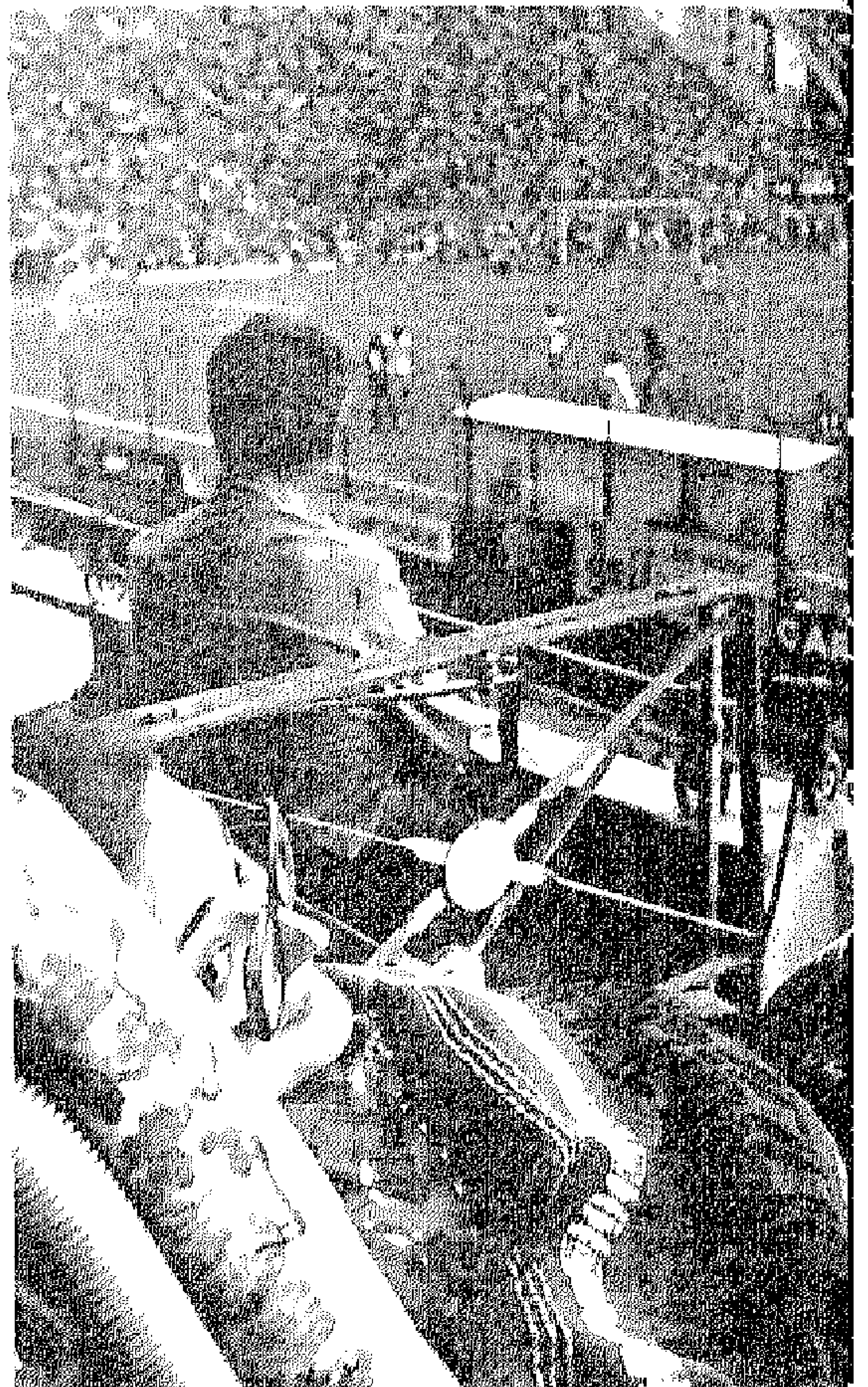
اجري المستشفى اتصالا بالادارة لتأمين بعض الترتيبات، كوصل الرئة بشبكة الكهرباء في المسرح تخفيفاً على البطاريات. ومع أن الادارة أبدت كل ترحيب وتجاوب فقد خشيت أن تثير أصوات اللهاث والنفخ التي تطلقها الرئة اعتراض المتفرجين.

وفي ليلة الافتتاح وصلت وصحبي متأخرين. وكنّا على يقين بأنه له يسمح لنا بالدخول. ولكن ما ان دخلنا قاعة المسرح حتى انطلق شخص الى وراء الستار ليُعلم الفرقة ان في وسعها البدء أخيراً. انهم كانوا في انتظارنا!

عند انتهاء العرض وُضع سلم على حافة المسرح وأنزلت باقة عملاقة من الزهور. تصورت انها لنجمة الفرقة. وكم كانت دهشتي عندما وضعها حاملها بين ذراعيّ. حتى وجهه لم يتسنّ لي أن أراه إذ حجبته عني الزهور الكثيرة. وعندئذ هبّ الجمهور واقفاً وهو يصفق ويهتف: "برافو!"

الحفاوة نفسها تكررت في حفلات أخرى. إلا انه حدث ذات مرّة أن اعترض اثنان من الحضور على صوت الآلة، فما كان من ادارة المسرح إلا أن أحدثت ثقباً في أحد المخارج أُدخل فيه انبوب الهواء المضغوط وأبقي المحرّك في الخارج كي لا يزعج صوته أحداً وتولى احد المتطوعين مراقبته طوال مدة العرض. ان كنتم تحبّون المسرح كثيراً فلن تعدموا حيلة لتدبّر أمركم.

مضى على استخدامي بيت السلحفاة أكثر من عشر سنين. ولأن استخدامه لا يخلو من الخطر، فلم ألجأ اليه غالباً. ومن



جالسة في "بيت السلحفاة" تشاهد مباراة في كرة القدم في ملعب "ماراسي" في جنوى.

يصطحبني اليها. وأذكر يوم ذهبنا أنا وهو وأمي الى مونتي فاس. وهناك في الهواء الطلق، وجنوى كلها تحتنا، تناولنا طعامنا الذي تألف من خبز ونقانق وشراب.

لم يقبل انريكي يوماً أن يتقاضى أي أجر على مرافقتي، حتى من المستشفى. وذات يوم شكرته فردّ: "أنا الذي عليّ ان أشكرك، فكل مرّة أصطحبك أكتشف أشياء كنت نسيت وجودها."

استغللت بيت السلحفاة على أحسن وجه. وأول زيارة لي الى المسرح كانت في المسرح الجنوي. وقبل أن أذهب الى هناك



Photo: Agenzia Leoni

جهة اخرى، تعلّمت أن استمتع بما أملك وليس بما لا أملك.

## باقة زهر

نُقلت في العام ١٩٦٧ من غرفتي في المستشفى الى شقّة صغيرة في مبنى الطوارىء المخصص للعناية الفائقة. كانت والدتي تنام في غرفتي اما والدي فوضع له سرير في المطبخ.

ذات يوم قال لي صديقي ستيفانو: "لقد احضرت لك هدية، جهازاً لاسلكياً للبث والالتقاط."

فسألته: "ما هذا؟"

فأجاب: "انه جهاز للبث والاستقبال."

ذلك اليوم دخلت عالماً تتداخل فيه عشرة اصوات مفردة يتجمع اصحابها حول طاولة وهمية ويدخلون في حديث. كانت اصواتهم صافية رنانة حيناً، وخافتة يانعة ورخيمة احياناً. تارة تقاطع وتمزح، وطوراً تعذّب وتداعب. وسرعان ما اصبحت غرفتي الصغيرة تزدحم بالاصدقاء، اصدقاء الراديو. كنت دائماً محاطة بهم: "الباتروس"، "الوحش"، "الاستاذ كرز"، "بيت"، "زهرة اللبن الثلجية"، "جياني"، "العين"، "ملاك الليل". كانوا يزورونني حتى في ساعات الصباح الاولى عندما لا اكون راغبة في النوم او عندما يجفونني الرقاد.

بعد شهر دعاني "الاستاذ كرز" الى الرقص، وعندما اعتذرت عن عدم قبول الدعوة انزعج واعتقد انني خجولة او انه تسرّع في دعوته وقال: "انني عجوز وكل ما ابغيه رقصتين او ثلاثاً."

صمتت جميع الاصوات الأخرى وأنا اشرح له سبب رفضي، وبدا اصحابها مثل دُمى معلّقة على اسلاك الاجهزة وهوائياتها.

في اليوم التالي لاحظت تغيراً في الاصوات، وشعرت ان الجميع ارادوا حمايتي فراحوا يمطرونني بعبارات المديح والاطراء. وإذا جرؤ احد الوافدين الجدد على مجاملتي، كانوا يسرعون الى إسكاته قائلين: "الا تعلم اين هي أيها الابله؟ انها داخل رئة حديد في المستشفى لا تقوى حتى على الحراك". منذ ذلك اليوم اصبح هناك، على الهواء، صوت مختلف. كم تمنيت الاّ يكون كذلك والا اكون انا صاحبته.

صار اسمي على الجهاز "باتريشيا" وبدأ جميع الرجال يتملقونني ويحاولون الفوز بالحظوة لدي. وبما انني لم اكن خجولة او مكبوتة، فلقد تقبلت كل ذلك الاهتمام بكياسة ولطف.

ومن الامور التي افتقدتها، تلك الهالة او "الشيء ما" الذي يحيط بكل امرأة ويدفع الرجال الى خطب ودّها. حتى المجاملات الخشنة التي يعوزها الصقل تقول لك على الأقل ان أحداً يجدك جذابة. هذا بالضبط ما اتاحه لي الجهاز. والامر المهم الذي تعلمته ان على المرء الا يدع الوهم يسيطر عليه في تبدّده مع مرور الوقت رحمة بنفسه وبالآخرين.

لم يكن لورنزو الشاب على علم بوضعي فبدأ يقرأ لي أشعاراً رقيقة فيها حبّ وغزل. ثم طلب عنواني وسألني هل يستطيع زيارتي. اعطيته عنوان منزلي وقلت له انني اعيش فيه مع عدد من الاصدقاء. ونبهته الى انني نادراً ما اكون

فيه. وأخبرته أنني مخطوبة وأضفت: "انني على ثقة بانك تقرأ اشعارك لاي فتاة!"

فرد: "كلا، اقسم لك باني لا افعل ذلك مع اي فتاة."

فقلت: "اني اجد صعوبة في تصديق ذلك. على اي حال ان كنت تود ان اصفح عنك فارسل اليّ باقة من الورد."

كان اخي فرنكو في البيت عندما وصلت باقة الزهر مع اهداء "الى باتريشيا" فاعتقد ان في الامر لغزاً.

## خير الاصدقاء

ذات مساء دخل على الجهاز فجأة صوت شاب يوناني لم يكن احد سمع باسمه من قبل، وقال: "باتريشيا، الا يمكن ان أثق بك وان لدقيقة واحدة؟ انك دائماً تغازلين الشبان!"

تساءلت عن هويّة ذلك الشاب لكنني قررت المضي في اللعبة فقلت له: "دعك من ذلك! انني الهو قليلا فما الضير في ذلك؟" فرد: "انك دائماً تقولين هذا. ولقد وعدتني بالّا تستخدمي الراديو في غيابي. انك مزعجة." فقلت له: "وانت تعلم ان نوبات الغيرة تلك تزعجني ومع ذلك فاني ادعوك الى عدم الكف عن إظهارها والتعبير عنها."

- "لا تحاولي ان تعكسي الامر. انت التي نقضت اتفاقاً خطياً!"

"اتفاق خطي! انك تتكلّم عن قصة غرام وكأنها دعوى في محكمة العمل."

بالاختصار كنا نرتجل المواقف. كانت خطبة عاصفة استمرت ثلاث سنوات وشهدت الحلو والمرّ والخيانة والمصالحة.

وكان "الباتروس" و"بريزا" والآخرون يتابعون فصول الرواية بصمت وقد حبسوا انفاسهم وبدأوا يرسلون الينا تحياتهم ويقدمون النصح الى من تخلّى عنه الحبيب.

في وقت لاحق، عندما علم الشاب جياني ان قصة الحب مع الشاب اليوناني لم تكن سوى مسرحيّة، راح يخطب ودّي جدّياً، فاعطيته املا وافهمته ان باتريشيا ليست ضد الحوار الراقي والجريء، وهي ليست فوقه وتتقن عبارات الحب شرط ان يثير الرجل اهتمامها. لكنه في المقابل عليه ان يفوز بحبّها، فهي ليست سهلة المنال، بل على العكس انها صعبة المراس بعض الشيء. "صدقني - قلت له -، انها رومنطيقية، تحبّ الزهور والنجوم والحقول الخضراء."

كان جياني يحبّ الحقول ايضاً وهو ذهب الى حدّ القول ان لا مانع لديه من اصطحابي اليها. لم ترفض باتريشيا طلبه وحدّدنا موعداً لذلك ذات مساء.

قبل اللقاء بقليل، اخبرته الحقيقة: "هالو! هنا باتريشيا. اصغ الي. لن نستطيع الالتقاء الليلة. فاجلس وسأخبرك السبب."

اخبرته كل شيء. لم يصدّق الامر للوهلة الاولى وفي اليوم التالي جاء لزيارتي وتحقق من صحّة اقوالي، فاصبحنا خير صديقين.

## "الآخرون"

نحن المعاقين في حاجة الى مجلّة تعبّر عن آرائنا ووجهات نظرنا. ظلّت الفكرة كامنة في رأسي سنوات عدة. ولما كنت

وبعض اصدقائي اعضاء في لجنة مشتركة للمعاقين وعلى اتصال دائم بجمعيات واتحادات واولياء، فقد جمّعنا مواد كثيرة واصدرنا نشرة انطوت على ارقام ومقابلات.

بيّنت تلك النشرة حقائق صاعقة، اذ كانت عقول الناس ملأى بالافكار الخاطئة. ولانهم لم يدركوا مشاكلنا لم يفعلوا شيئاً من أجلنا.

فكرة المجلّة رسخت في ذهني. وإذا فشلت فيها فستكون خسارة لي ولاصدقائي تقدر بـ١٠٠ الف لير. سمّينا المجلة "غلي الترى" (٣) اي "الآخرون" وشئناها صوت الذين لم يكن لهم صوت قبلا.

في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٦ طبعنا ٣٠٠٠ نسخة من العدد الأول فبيعت كلّها.

النجاح الذي احرزه ذلك العدد كان ذا مغزى وهو ان علينا متابعة المشروع. والعملية التي لم تتغيّر تاريخيا، هي في الواقع بسيطة. اثنان او ثلاثة منّا تولوا مراجعة المقالات واعادة صوغها عند الحاجة من دون احداث اي تغيير في المحتوى او المعنى. وكانت مجلة "الآخرون" بمثابة منبر لجميع الآراء وليس لآراء اصحابها ومحرريها فحسب.

المشتركون شكلوا الاكثرية بين قرائنا، فنحن لا نبيع المجلة في اكشاك الصحف والمجلات لأن الموزعين يتقاضون عمولة تبلغ نسبتها ٤٠ في المئة وهذا ليس في مقدورنا. كل عدد يكلّفنا نحو اربعة ملايين لير، ويغطي البيع مصاريفه، علماً اننا متطوعون لا نتقاضى اي اجر.

أحد المواضيع المهمة التي تطرّقت اليها المجلّة كانْ الاجهاض. بعض الناس ارادنا ان نعارض فكرة الاجهاض في حال حصول تشويه ظاهر وواضح في الجنين. الا ان ما طُلب منّا حقاً هو ان نعلن نوعاً من التلاحم الغريب لا بل الشاذ بين "المقعدين البؤساء" من الاحياء و"المقعدين البؤساء" الذين لم يولدوا بعد. والواقع ان المطلوب منّا كان نوعاً من القرار الفردي والواعي حول موضوع الاجهاض. انا لا اعتقد شخصياً ان في وسع المرء ان يكون ضد الاجهاض ومعه في آن.

موضوع الجنس كذلك تلقى معالجة عاصفة. واذا كان هذا الموضوع هو من المحرّمات بالنسبة الى الاصحاء، ففي وسعك ان تتصور معناه بالنسبة الى المعاقين. ويحق لي ان ادعي اننا ادينا دوراً مهماً ببثنا الفكرة القائلة بأن المعاقين ليسوا، في اي حال، غير جنسيين وان الجنس والحب امران اساسيان في حياتهم. وما زال المعاقون مكبوتين الى درجة ان اي محاولة من جانبهم للحديث عن حاجاتهم المشروعة، كانت تقابل بنعوت مثل "قذري العقول." وقد اشترك عدد كبير من القراء في هذا الحوار واصبحنا هدفاً لكثير من الاهانات صدرت عن كل الجهات، الأهل، الافراد المصدومين، وحتى جمعيات المعاقين.

وكنّا ايضاً اول من ازعج المسؤولين المحليين بالحاحنا على توفير اوتوبيسات مزوّدة مصاعد للكراسي المتنقلة. وكان جوابهم ان المال اللازم لمثل هذا المشروع

(٣) Gli altri

غيـر متوافـر. وفي ايطاليـا تعتبر التسهيلات المخصصة للمعـاقين من الكماليات، بخلاف البلدان الاوروبيـة الاخرى.

## تعيش روزانا

حان وقت الراحة والنوم وساعدني في ذلك الايقاع المنتظم للرئة الحـديد والنشاط الليلي المكتوم في المستشفى. رحت انصت، في دفء غرفتي المريح، الى صوت الآلة واعرض حالمة الوان الجدران والسقف. لن يطول الوقت قبل ان يطويني النوم.

فجأة، اطبق منفاخ الرئة بعضه على بعض وهو يهسّ كالافعى. سمعت صوتاً مرهقاً ثم شخرة تلاها صمت تام. لقد توقفت الرئة عن العمل ومعنى ذلك ان الزمن توقف اذ من دون هواء تنطفىء حياتي كما ينطفىء نور الشمعة في كوب مقلوب. ولطالما فكرت في هذه اللحظة، وبماذا يمكن ان يحصل في حال انقطاع الكهرباء. كنت اعلم ان امامي خمس دقائق قبل أن اغيب عن الوعي. حاولت ان اصرخ لكن صوتي علق في حلقي. رحت الهث بصمت طلباً للهواء، وحاولت ان اتشبث بالحياة ما استطعت. كل ما كان في وسعي فعله هو ان استلقي بسكون كسباً للوقت وحفاظاً على طاقتي. إن لم يأت أحد لنجدتي خلال خمس دقائق فاني سوف اموت.

أهكذا تنتهي الحياة؟ بدأ الاختناق البطيء يشوّش حواسي ولفّني ضباب من صور وافكار ونكهات والوان وروائح. وامتلأ رأسي بأسئلة شتى وبشعور ندم، ندم صادق وندم زائف، وبفضـول وادانة وغفران. ثم تراجعت كلها وطواهـا النسيان. أين أمي؟ لماذا لم تستفق من نومها في الغرفة المجاورة؟ ألَم يكن أحد يدرك أنني أريد أن أحيا؟ والأطباء... ماذا كانوا يفعلون؟ ما الذي يتوقف أولا القلب أم الدماغ؟ أيتها الآلة الغبيّة.

انفتح الباب بقوة واندفع الدكتور انريكو الى الغرفة. امسك الرافعة، المخل، الآلة، لا ادري ما اسمها، وراح يضخ بقوة فعاد الي الهواء بسرعة وعاودت الحياة مسيرتها في جسدي. بدا الامر كأنه قطار يسير على البخار أو طائرة تقلع أو ملاك حارس. لكن الحقيقة هي انني كنت انا روزانا في طريق العودة الى الحياة. ولقد عدت ظافرة.

يشكرني بعض الناس لبقائي حيّة وهم يقولون ان حالي تعبّر عن قدرة الانسان على التغلّب على الصعـاب وعـدم الاستسلام ومسايرة الظروف التي تفرضها عليه الحياة. لا يسعدني ان يعتبرني الناس رمزاً ولكن اذا كان هناك من عبرة فانها ليست في بِليّتي بل في حياتي وفي ما انجزته.

حال المريض العقلية مهمّة جداً. بعض المتقدمين في السن يقضون حزناً بعد ان يحشوا انفسهم بأقراص ليس في وسعها أن تعيد إليهم ارادة الحياة. القلق والشك والتخلي، كلها امور تعرّض المعالجة الطبيّة للفشل. الطبيب الجيّد يهتم بمـرضاه، وكنت دائمـاً حسنة الحظ فالاطباء غريبولا وغالكو وبكسيو وانريكي وباليسترا الذين تعاقبوا على العناية بي، جميعهم كانوا في غاية اللطف والرقة.

فاهتمامهم بي والعاطفة التي اظهروها لي ساعداني بمقدار مساو تقريبا لمفعول الدواء.

كانت عائلتي عضداً عظيماً لي. لم يتخل عني افرادها مرّة فكانوا دائماً يزورونني. وامنت لي والدتي معظم طلباتي طوال ٣٥ عاماً بصبر لا يعرف حدوداً. ابي يزورني كل يوم حاملا نبات الفطر الطازج الذي يجمعه من الحقول ويحضّره بنفسه في المطبخ القريب من غرفتي. واحياناً نجتمع انا والعائلة وبعض الاصدقاء على وقعات لذيذة ونستمتع بافخر الطعام الآتي من اوفادا.

اما اخي الاصغر فرنكو الذي عزم منذ صغره على ان يصبح طبيباً ليجد علاجاً يشفيني، فهو الآن في السنة الرابعة طباً ويعيل نفسه بتنظيف السلالم مرتين في الاسبوع. انه ينظف ٣٦ طبقة مرتين في الاسبوع ليصبح طبيباً. اما بقية وقته فيصرفها في الدرس. اعتقد انه سيصبح طبيباً ناجحاً وانا دائماً اقول له: "لا تنسَ عندما تصبح طبيباً ناجحاً وتربح مالا وفيراً، انك كنت تنظّف السلالم. لا تدع ذلك يغيب عن بالك!"

## نظرية حك الانف

"كيف تحكّين انفك؟" سألني الطفل وهو يمرر يده تلقائياً فوق انفه.

"لا تقلق - اجبته - عندما اشعر بحاجة الى حكّه فهناك دائماً انسان بقربي يفعل ذلك عنّي."

"انا احكّ انفي بنفسي." قالها رفايل بسرعة، ومن دون مقدمات، وبدا كأنه يفضل طريقته.

مضت خمس عشرة سنة وانا داخل الرئة الحديد ولم تخطر في بالي قط قصة حك الانف هذه لكن الاطفال شديدو الملاحظة وفضولهم اكبر بكثير من فضول الراشدين.

سألت رفايل: "ماذا تفعل ان أتت الفأرة واكلته؟"

- "اكلت ماذا؟"

"انفك."

ابتسم الصبي واجاب: "انادي امي."

فقلت: "وانا ايضاً انادي امي!"

ابتسم مقتنعاً بان بيننا امراً مشتركاً.

اكثر ما يعجبني في الاطفال بداهتهم وعفويتهم وتحررهم من جميع القيود الاجتماعية. والاطفال ليسوا متحيزين ويتعاملون والمعاقين مباشرة. ليت الكبار كانوا مثلهم.

ما الذي يغيّر الاطفال؟ ما الذي يجعلهم حذرين وضعيفي الثقة؟ اعتقد انهم يتعلمون هذه الامور من معلميهم ووالديهم. ربما اتت كلماتي غريبة مستهجنة لكنني اعتقد ان كثيرين من الآباء والامهات لا تروقهم رؤية ابنائهم يلعبون مع اطفال معاقين او يجلسون في المدرسة قرب اطفال متخلفين عقلياً. اعتقد ان الاطفال يلاحظون هذه التحفظات لدى والديهم فيأخذون بها.

ما الأذى الذي يمكن ان يحدثه طفل مشوه؟

احدى صديقاتي، وهي معلمة في صفوف الروضة؟ نقلت الي هذه المحادثة التي جرت بين بعض الاطفال وكان أحدهم من دون ذراع. كان معه صديقه وثلاث فتيات صغيرات. باندفاع تلقائي حاولت

الفتيات مساعدة الفتى على ارتداء معطفه، فقال لهن صديقه: "ماذا تفعلن؟ انه ليس غبياً وفي استطاعته ان يفعل ذلك بنفسه."

كم من الراشدين لهم هذا الحس السليم؟ وكم منهم يدرك انه بما ان المعاقين موجودون في هذا العالم فمن الافضل ان نتعلّم كيف نتعامل واياهم في شكل طبيعي منذ الطفولة.

## "أصدقائي هم حياتي"

غالباً ما يُطرح علي هذا السؤال: ايهما افضل، ان يخلق الانسان معاقاً ام ان يصبح معاقاً في ما بعد؟ لا جواب لدي. أحد اصدقائي ضرير وهو يقول انه افضل للمرء ان يكون ضريراً من ان يكون في مثل حالي. اما انا فأقول العكس وهو يرد: "لكنني استطيع ان اتحرّك وألمس."

"وأنا في استطاعتي ان ارى كذلك."

انقضت عشرون سنة ولم يقنع احدنا الآخر. واظن من الافضل ان نبقى هكذا. قلّما تزعجني افكار مثل "عندما كان في وسعي ان ارقص" او "عندما كنت قادرة على الركض،" واجد سهولة اكبر في تذكّر مناسبات قلت فيها كذا او كذا.

الاصدقاء هم حياتي وانا دائماً محاطة بهم يشجعونني ويهللون لانجازاتي. كل واحد منهم مشغول بأعماله ولكنهم يأتون لزيارتي دائماً. عندما ابتعد ماريو عن جنوى جاؤوا لزيارتي حاملين الي الهدايا: العاباً وزهوراً وبيارق ملأت الغرفة. رئتي الحديد مغطاة بالعاب صغيرة وهدايا واقوال وعبارات خالدة وامثال أحبها وتعجبني.

انكر عيد مولدي الحادي والعشرين. كان ذلك في شهر مايو (ايار) ١٩٦٩. وقد تحدثت الصحف عن هذا الامر، فامتلأت غرفتي بعد ظهر ذلك اليوم بنحو ٣٠٠ شخص اصطحبوا مصورين وصحافيين. وتلقيت برقية من رئيس الجمهورية.

الزهور ملأت غرفتي. زهور من اصدقاء، زهور "رسمية"، زهور من المستشفى، زهور من مؤسسات اخرى، زهور من اناس عاديين لم ارهم في حياتي سمعوا بقصتي او قرأوا عنها.

بالطبع مثل هذه اللحظات السحرية تضمحل، لكن شيئاً ما يبقى في داخلك. شيء من الصعب تحديد ماهيته لكنه بالتأكيد يبقى في الذاكرة لا يمحى وهو ادراكك انك لست في الحقيقة وحيداً وان حياتك مثل حياة الآخرين وان جزئياً.

وهذا ليس كل شيء. فما الذي كان يمكن ان تفعله شابة اخرى يوم عيد ميلادها الحادي والعشرين؟ ربما كانت ذهبت الى حفلة مع صديقها او الى نزهة او هما فعلا معاً امراً مميّزاً لا ينسى.

لم اذهب الى حفلة، ولكن كان هناك امر واحد اجيده وهو تقبلي لحالي كما انا بابتسامة وسخرية. اعرف كيف اتخلى برهافة وذوق عن الامور التي كان في وسعي فعلها في ظروف مختلفة. انني لا استسلم بسهولة.

يسألني الناس احيانا عن وصيتي فاقول: حسناً اتمنى ان يستمر العمل الذي بدأته وان يقول سواي ممن هم في حاجة الى عضد ودعم: "إن هي فعلته فمعنى ذلك انه ممكن."

اود ان اخلف ورائي ذكرى انسانة لها حسناتها وعيوبها. مجنونة قليلا ربما، لكنها تنظر الى نفسها بسخرية وتحب الاشياء البسيطة. ذكرى انسانة حاولت الا تبدو تعيسة.

فكرة الموت كانت تخيفني. كم من الوقت بقي امامي لأعيش؟ من حسن حظي ان التنبؤ صعب، وليست هناك حالات مماثلة كافية تسمح باستنتاجات احصائية موثوق بها. ولكن هناك امرأة عاشت ٣٧ سنة في الرئة الحديد. احد الابيات الشعرية التي كتبتها على رئتي هي لمارتشيلو مارسيزي يقول فيها:

"فليجدنا الموت احياء
ولتجدنا الحياة غير مائتين."

في ٢١ مارس (آذار) ١٩٨٧ احتفلت باليوبيل الفضي للرئة الحديد التي رافقتني طوال ٢٥ عاماً. كانت سنوات جديرة بالحياة. وهذه اللحظة بالذات لا ابغي ابدالها بسنوات من عمر سواي. بالطبع لو قدّر لي ان اغادر الرئة الحديد وامضي في طريقي لشعرت بالسعادة. ولكن هل تدركون كم من الناس يستمتعون بحياتهم اقل بكثير مما استمتع انا بحياتي؟ كم منهم يصرف حياته هدراً، من دون تفكير؟

لقد تعلّمت الا ابدّد اي شيء.

روزانا بنزي
وسافيريو بافومي

ترجمة د. باسمة سكرية عيد



## موسيقى صامتة

كنت وسط صحراء: سماء فسيحة وجبال عظيمة من الصوان وسكون تام يكاد يكون ملموساً. واذا بامرىء يوقف سيارته في جواري ويطلق لموسيقاه العنان.

المخازن الكبرى مشبعة بالموسيقى بحيث تسكّننا حتى يدق أمين الصندوق جرس جنازة النقد المدفوع. المسافرون جواً لا يعطون هنيهة قصيرة من السكوت ليتمكنوا من جمع أفكارهم التي شتتها اقلاع الطائرة. الموسيقى في قاعات الفنادق تحول دون اجراء حديث ضروري قصير. والمطاعم تردد صداها.

لا يسمح لنا بأن نتألم بصمت. أطباء الاسنان يثقبون الاضراس على نغمات الموسيقى. وربات البيوت ينظفن ويطبخن لباخ.

ربما بشريط تسجيل فارغ أو بأسطوانة فارغة تتأمن لنا الفرصة الوحيدة للتمتع ببضع دقائق من الهدوء التام.

م.د.

---

## ولع الشباب

الأمر الوحيد الذي يمكن أن يكبح ولع الشباب بزي أو تصرف ما، هو تبنّي الكبار هذا الزي أو ذاك التصرّف.

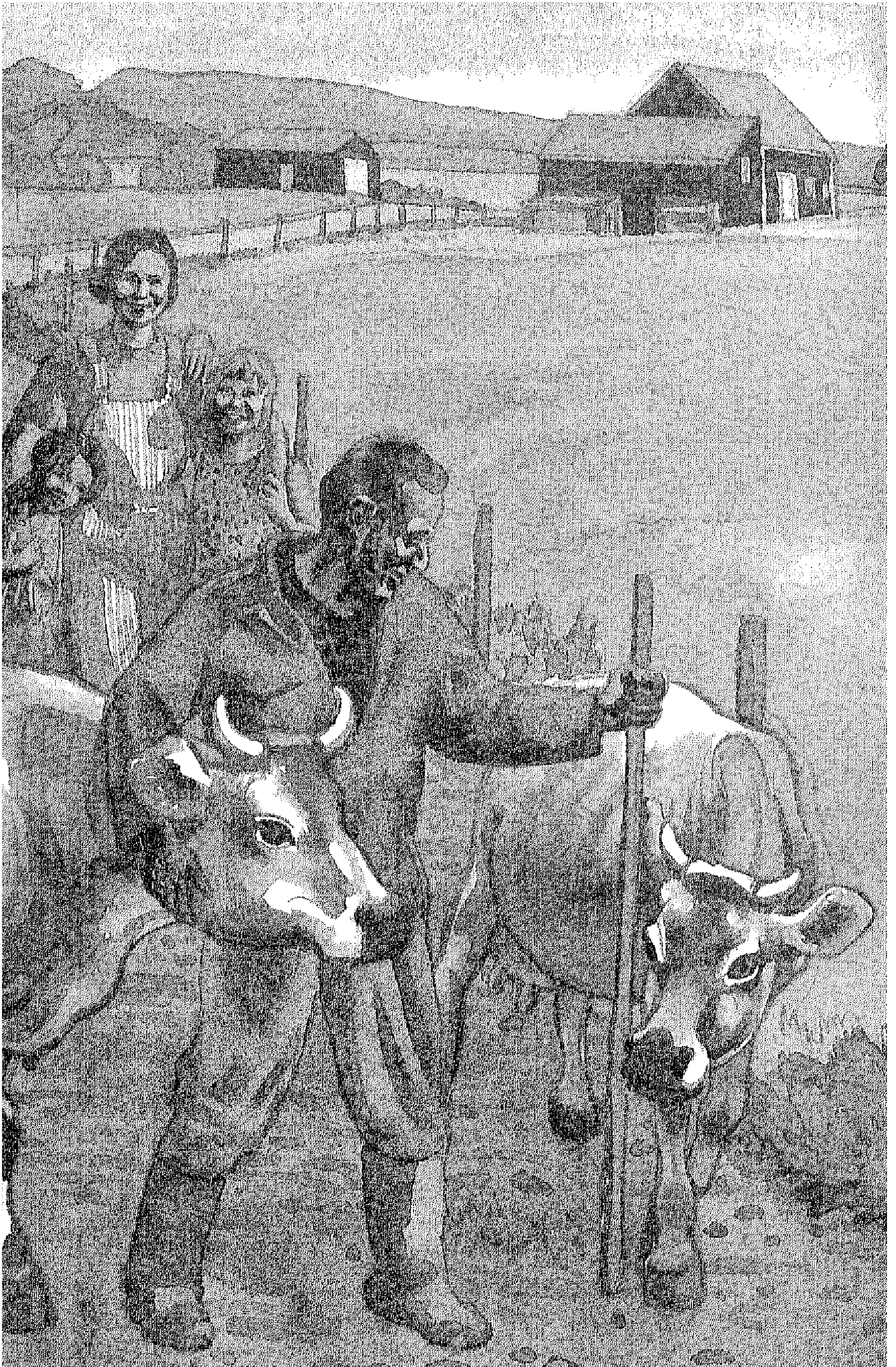
ذ.ل.

# بقرة قلبت حياتنا

ملخص من كتاب بقلم صونيا جونس

غادرت صونيا جونس وزوجها غوردن جنون مدينة نيويورك الى الشواطىء الهادئة والغابات الهامسة في مقاطعة نوفاسكوشيا جنوب كندا، متوقعين ان تستقر حياتهما في الابحاث الدراسية الهادئة لصونيا ورياضة الابحار لغوردن. ذلك كان قبل أن يلاقيا نصيبهما في بقرة حلوب صغيرة ذات لون بني ضارب الى الاحمرار، واسمها ديزي. في هذه الرواية السارة التي تحكي قصة انزلاق الزوجين الى تجارة الالبان، تخبر صونيا عن عائلة مدينية علقت في فخ غير متوقع: عائلة مؤلفة من زوج وزوجة وابنتين يكافحون بارتباك ورعونة من أجل الشهرة والثروة


Illustrations: James McMullan



# بقرة قلبت حياتنا

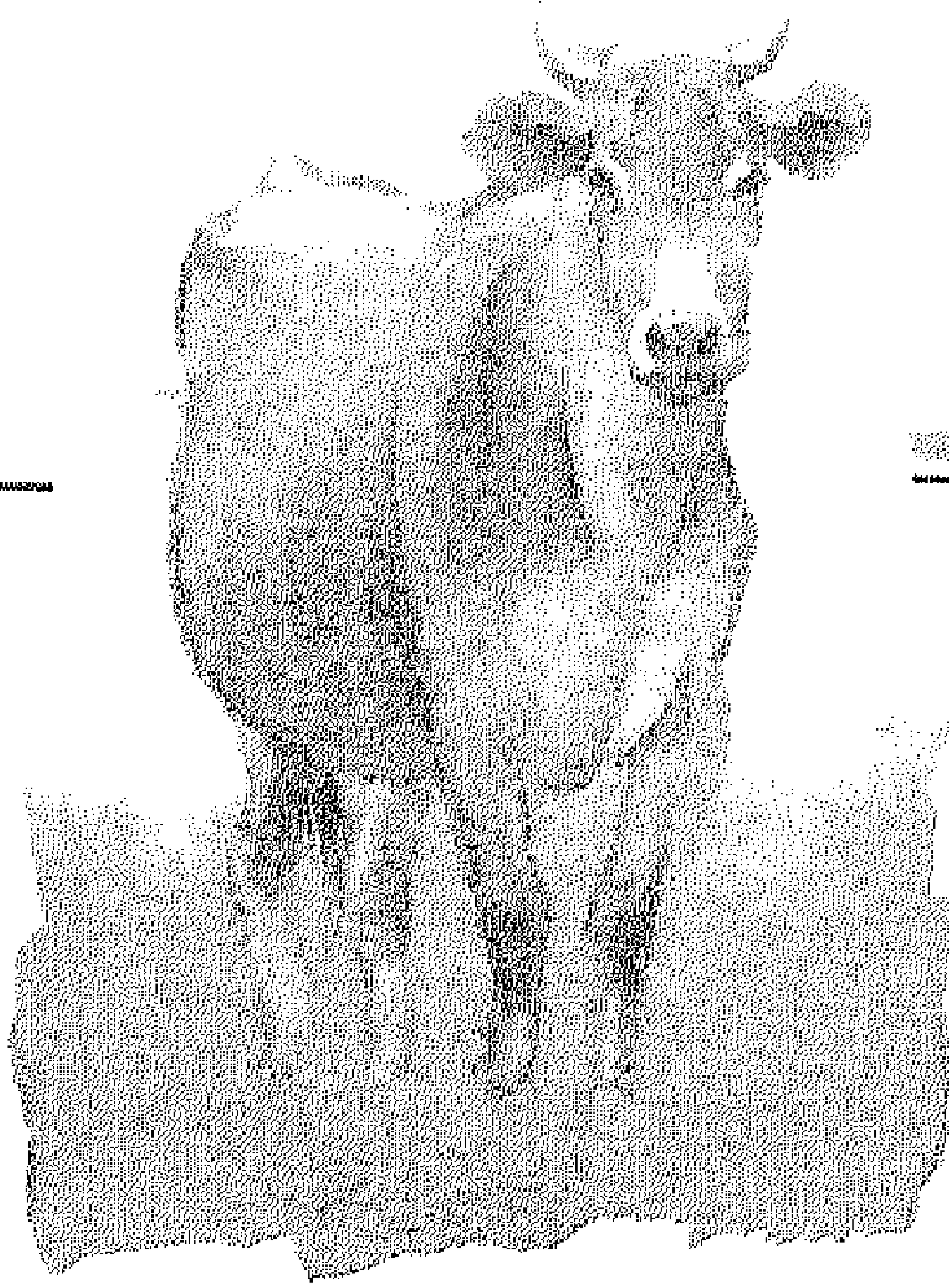
لو لم ينحبس الهواء في أنابيب الماء لما التقينا جارنا الا بعد وقت طويل. انه رجل ناحل الجسم ذو ملامح صارمة يدعى ترافيس أويكل. سمع من خلال الاشاعات في الجوار أن أستاذة من مدينة نيويورك انتقلت الى مكان قريب، فظن أن الاستاذة شخصية رفيعة المنزلة جداً فلا يمكنه التقرب منها. ولما أخبره زوجي غوردن أن الاستاذة هي أنا فحسب، وأننا في حاجة ماسة الى الماء لتلقيم مضختنا بغية طرد الهواء المحبوس في الانابيب، غدا ترافيس الصامت أقل خجلا وجاء يمشي مجهداً لانقاذنا ناقلا دلاء مملوءة بماء بئره(١).

عندما جلسنا بعد ذلك الى طاولة المطبخ أخذ ترافيس يتفحصنا ملياً. وقال: "أنا لا أبغي أن أسأل ما هو عمل غيري، ولكن ماذا تخطط أنت والسيدة للعمل في هذا المكان؟"

وصلنا الى نوفاسكوشيا في ربيع ١٩٧٤ ونحن لا نحمل الا الاشياء التي نحتاج اليها ريثما نجد مكاناً نستقر فيه. هذه الاشياء تضمنت ثلاث حقائب وصندوق كرتون مملوءاً كتباً واوراقاً باقية من تصفية مكتب غوردن الاستشاري الاداري في مدينة نيويورك وصندوق حفاضات وطفلة مولودة حديثاً.

بدأنا نفتش في الخط الساحلي عن قطعة أرض ذات واجهة مائية كافية لكي يرسي فيها غوردن اليخت الذي اعتزم أن يبنيه. أردت كوخاً مع منصة مائية حيث أتمكن من قضاء الامسيات الرطبة أرضع فاليري وأفكر في أمور عظيمة. وفي الخريف قبلت وظيفة لتعليم الاسبانية في جامعة دلهوزي في هاليفكس، وقد

(١) بعض أسماء شخصيات هذا الكتاب مستعارة. أما الاحداث فبعضها أجري عليه تعديل حفاظاً على السرية الشخصية.



تملكتني قناعة ذاتية بأن صفوف التدريس ستعكس الالهام الذي سيأتيني على الامواج المتكسرة أبداً على الشاطىء المتألق.

حينما اتصل بنا الوكيل العقاري هاتفياً وأشار الى مكان في لوننبرغ، تأكد لي أننا لا نفتش عن مزرعة، وأن لوننبرغ التي تبعد مئة كيلومتر عن هاليفكس هي نائية جداً عن مكان عملي. لكن غوردن لم يستطع المقاومة فقال: "لوننبرغ بلدة بحرية صغيرة ملأى بصيادي الاسماك والمحار ومصائد الكركند وبناة القوارب."

وما ان ذكر بناة القوارب حتى أدركت أن رحلتنا الى لوننبرغ هي، كالمد والجزر، لا مفر منها. لكن الذي لم أتوقعه هو أن البلدة ستكون قدرنا في غير طريقة.

تمتد المزرعة نحو كيلومتر في محاذاة المحيط، خضراء باردة المياه. وثمة طريق ترابية تصل مخزن المحاصيل الزراعية بالمنزل المؤلف من طبقتين وجناح خلفي أرضي، وامتد سياج بالٍ على حدود العقار الى داخل الغابة.

قال غوردن: "هذه هي، نحن في دارنا." وملأ رئتيه هواء مالحاً.

اعترضتُ: "ولكن يا غوردن، أأنت واثق بأنك تريد أن تعمل في الزراعة؟"

"من ذكر شيئاً عن الزراعة؟ لدينا هنا عشرة هكتارات. كل ما أبتغيه هو أن أسترخي وأهتم لعملي."

أمام جارنا ترافيس أصبح غوردن فصيح اللسان في محاولته اقناعه بأننا نقدر هذا المنظر الريفي ولا نحلم بالتعرض له في أي طريقة. ولكوننا أمريكيين، ظن غوردن أن ترافيس يخشى أن نقيم كشكاً خشبياً لبيع اللحم المدخن والنقانق ووجبات خفيفة كما يشاهد بكثرة على شواطىء الولايات المتحدة.

قال ترافيس: "كل ذلك حسن وجيد.

وليس من شأني أن أقول لامرىء ماذا عليه أن يفعل، لكنني لم أر احداً من قبل يشغل جزازة ليقطع الحشائش في مرعى مساحته خمسة وعشرون هكتاراً.

● نظرية الفئران والقطط

في اليوم التالي ذهبت أنا وغوردن وفاليري الى تاجر المحلة لنبحث عما يلزم المزرعة من ادوات. ولما تركنا المتجر كنا نملك جراراً مجهزاً بمعصف دوّار(٢) وآلة رَزْم و"شوكة" لجمع التبن، وكلها ذات لون أحمر متناسق.

قال ترافيس ذات صباح بأسلوبه العادي المختصر: "يستحسن أن تأتيا ببعض الحيوانات لتقضم عشب الارض."

رد غوردن: "حيوانات؟"

تابع ترافيس: "الآن، ليس من شأني أن أقول لامرىء ماذا يجب ان يفعل، لكنني على يقين بأني لا اريد أن أرى أرضه ترجع غابة من شجر الحور. اذا ما أهملت الارض، فخلال سنتين أو ثلاث سنوات لن تبقى صالحة لشيء. أنا لا أقول شيئاً، فلا تفهمني خطأ."

كان غوردن دائماً من الرأي القائل بأن العشب لا يحتاج الى عناية الا وقت الحصاد. أما ترافيس فكان يردد له أن العشب هنا يجب ان تقضمه الحيوانات التي تزوده السماد على مدار السنة لتحول دون نفاده.

قال غوردن أخيراً: "هذا صحيح، لنذهب الى المزاد العلني المقبل ونبتاع بعض الماشية. فربما جنيت ربحاً من تربية بعض رؤوس البقر."

وهكذا ساعدنا ترافيس لنصبح مالكي أحد عشر رأس بقر. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) كانت جميع البقرات مستقرة في الحظيرة وبقيت هناك طوال فصل الشتاء. وقدّر غوردن أن الحشيش المجفف الذي جمعناه سيكفي البقر طعاماً فلا نتكلف مالا. لكن خطأه كان جسيماً في حساب ما تكلفناه من وقت وجهد وعمل يدوي. وفي أواخر الشتاء جمعنا خارج الحظيرة كومة كبيرة من السماد قدّرها غوردن بـ٤٢ طناً.

قلت: "تصور أننا جمعناها كلها مجرفة مجرفة."

في الربيع برزت مشكلة جديدة: يرقان(٣) في كل مكان.

طردناها خارج الحظيرة بخراطيم الماء، لكننا أدركنا أنها ستتحول سريعاً ذباباً في الخارج والداخل. أول رد فعل لنا كان أن نشتري مبيداً للحشرات، لكن ترافيس كان له رأي آخر.

"لا سُمَّ يقتل كل هذه اليرقات. أنا لست من صنف الرجال الذين يقولون لجيرانهم ماذا عليهم أن يفعلوا، لكنني لو كنت مكانك أيتها السيدة لذهبت وجئت بدزينة من الدجاج، انه يبعد اليرقات عن الحظيرة ولا يكلفك شيئاً وسيكون لديك كل يوم بيض طازج."

كان ترافيس مقتنعاً الى حد أننا ذهبنا ذلك اليوم لزيارة مزارع يملك حيوانات متنوعة. رأيناه يدلف في طريق موحلة وهو يقود ما يشبه ظبية كبيرة بقرني بقرة حلوب وضرعها.

سأل: "أتستحسنانها؟ انها أفضل

(٢) Rotary mower. والمعصف منجل كبير.
(٣) اليرقان دود يسطو على الزرع.

أنواع البقر الحلوب الذي يمكنكما اقتناؤه."

حين عدنا الى البيت كنا اشترينا ١٧ دجاجة نقّاقة وديكا شكساً وقطتين بلون أحمر ضارب الى الاصفرار والبقرة "ديزي."

وفكّر غوردن ملياً في الامر وقال: "ان ما يحصل أشبه بالقَدَر، الماشية تجذب الذباب الذي ينتج اليرقان الذي يغذي الدجاج، والحبوب تجذب الفئران التي تغذي القطط. لا بد من وجود نظرية حتمية خاصة بالحظائر."

حققنا توازنا بيئياً مشابهاً لتوازن العائلات المزارعة ذات النمط القديم. الفرق الوحيد بينها وبيننا هو أنها تعرف تماماً ماذا تفعل.

● أهلي [illegible] مثاليون! ●

اعتاد والدي أن يقول لي بصوته الجهوري: "يا ابنتي، لا تقصري عن طلب النجوم. كوني أفضل ما يمكن أن تكوني، وكافحي من أجل العظمة. الدنيا غرور ورغبة زائلة. يمكنك أن تخسري كل شيء تملكينه في طرفة عين. لكن ثمة شيئاً واحداً لن يتمكن أحد من أن يأخذه منك، الا وهو دماغك. إجعلي حياتك تحدياً فكرياً عظيماً، ولتكن ثروتك قلبك وعقلك."

عملا بمثالية والدي قضيت سنوات عدة بعيدة عن الناس بين رفوف الكتب داخل مكتبة وايدنر التي لا يدخلها نور الشمس في جامعة هارفرد، أحشو دماغي حقائق واقعة. الى أن خرجت ذات يوم حاملة شهادة تعلنني دكتورة حقيقية. في اليوم التالي التحقت بزوجي في نيويورك متوقعة أن يكون لي تأثير في مجتمع مانهاتن الاكاديمي. ولكن سرعان ما أدركت أن الاكاديميين لا يتأثرون بسهولة بالعلماء الحديثي العهد.

قال غوردن الذي أصغى بأناة الى حكايات همي المبكية: "لا تدعيهم يحبطونك."

الشدائد والمحن تحرك غوردن الى العمل فيواجه التحديات بلذة قوية. وهكذا بنى مؤسسة استشارية ادارية ناجحة.

وأوضح لي ذات يوم: "اذا جرّبت شيئاً ما لم يفعل فعله، فجربي شيئاً آخر، واذا كان هذا غير صالح فجربي سواه، وهكذا الى أن تصيبي نجاحاً. انها مسألة شق طريق بين الاشواك، وهو عمل صعب من دون شك وأرى أن أدعوه اختراقاً نشطاً."

لكن نظرية غوردن في "الاختراق النشِط" لم تفعل في سوق نيويورك، لذلك اقترح علي أن أوسع بحثي ليشمل أمريكا الشمالية بأسرها.

سألته: "ولكن ماذا عن عملك؟"

"سأبيعه، شغلته ما دام يجب ان يبقى. التحدي انتهى. أنا الان في الثانية والاربعين من عمري. أتعلمين يا صونيا ماذا يعني ذلك؟ لا، كيف لك أن تعلمي؟ أنت أصغر مني بثماني سنوات. اني قضيت كل حياتي وسط اسمنت المدينة وأسفلتها."

فكّرت في أن أتقدم بطلب عمل الى أي جامعة تروقني على أن يكون موقعها قريباً من المحيط بحيث يحقق غوردن أمنية عمره ممارسة رياضة الابحار. وفي

يناير (كانون الثاني) كانت لدي ثلاثة عروض للعمل، أما الذي سلب مخيلتي فجاء من دلهوزي.

وهكذا انتقلنا الى لوننبرغ وبدأنا نطبق نظرية "الاختراق النشط" متبعين نجوم والدي. واتضح لنا أن الحقيقة مادية أكثر مما تصورنا. "البقر،" كما قال ترافيس لغوردن مرة، "قد لا يكون الا اضطراباً في أكياس جلدية."

في الخريف السابق بدأنا تربية الماشية. وفي يوليو (تموز) تضاعف قطيعنا. كانت البقرة ديزي حبلى عندما اشتريناها، وسرعان ما انتجت عجلة. أنا ايضاً كنت حبلى. ولم نعلم أن كل ما فعلناه كان خطأ الا بعدما جئنا بطفلتنا فكتوريا من المستشفى الى البيت. ولم يوفر ترافيس وقتاً في اخبارنا عن خطواتنا الاخيرة الخاطئة.

"لديكما أحد عشر عجلا جديداً بينها عشرة ثيران. والآن عادت السيدة الى المنزل ومعها طفلة." وحدق الى غوردن باستهجان وأضاف: "يفترض في المزارعين أن ينجبوا ذكوراً. أما اذا أردت أن تزيد قطيعك فتحتاج الى اناث. أنتم أهل المدينة كل ما عندكم معكوس."

أخبرنا أيضاً انه اذا ما تركنا عجلة ديزي ترضع حليب أمها فقد تصاب ديزي بالتهاب في ضرعها. وهكذا فُطمت العجلة، وبدأت تغذى بحليب من الدلو. أما غوردن فذهب الى العمل.

## ● غارقان في الحليب ●

أول دلو من الحليب جلبه غوردن الى البيت كان مصدر اثارة جسيمة. سكبناه في اثنتي عشرة قارورة قديمة تسع كل واحدة منها ليتراً، ثم وضعناها في الثلاجة، وبين فترة وأخرى كنا نفتح الثلاجة لابداء اعجابنا بتلك القوارير الرائعة المجمعة من بقرتنا دفعة دفعة. انه أول حليب نراه لم يأت من متجر. وبعد ساعات قليلة كانت سطوح القوارير مغطاة بقشدة شهية. انها بالنسبة الينا أعجوبة.

على مدى الايام الثلاثة التالية تعيّن على غوردن أن يجلب كل صباح وكل مساء اثني عشر ليتراً من الحليب. وطفقت أقضي أكثر وقتي في المطبخ، أحضّر بهوس الحلوى المصنوعة من السكر والبيض والحليب، وأروّب اللبن، وأبتكر شراباً كثيفاً من البيض المخفوق بالحليب والسكر وجوزة الطيب، وأخترع الجيلاتي (آيس كريم) وأطبخ حساء بالقشدة. وكنا نغمس البطاطا بالقشدة الخامرة، والخُضَر بالزبدة البيتية.

بصراحة، كنا غارقين في الحليب. ولسوء الحظ لم يكن ثمة جيران لا يقتنون بقراً في نطاق دائرة شعاعها ثمانية كيلومترات. نحن كنا صغاراً جداً لننتسب الى تعاونية المزارعين. وعندما اتصلنا بمعمل ألبان قريب منا لنأخذ اليه قشدتنا الدسمة، وجدنا أننا نحتاج أولا الى رخصة من "لجنة نوفاسكوشيا للالبان." ولم نتمكن من الحصول على الرخصة لأن الحصص النسبية (الكوتا) لهذا العام استنفدت. ولكن في استطاعتنا صنع مشتقات الالبان، كالزبدة والجبنة البيضاء.

ذهبت رأساً الى مخزن "ايفيت"

للاغذية الصحية في هاليفكس. وايفيت سيدة كيبيكية متوسطة العمر نَشِطة ثرثارة، مشكلتها الوحيدة - كما اخبرتني ذات مرة - هي أنها لا تحصل على لبن جيد. الآن في استطاعتي أنا أن أموّنها بعضاً منه.

أكدت لها أنه "لبن مضمون، دسم ولذيذ ولا يضاهى أبداً."

ضحكت من صميمها وقالت: "ليس عليك أن تقنعيني، فأنا سأكون سعيدة بشراء لبن لا يضاهى كهذا."

اشتريت إناء بسعة ليتر لصنع اللبن. بهذا الاناء وبآخر قديم لدي أمكنني أن أروّب ليترين من اللبن في آن. بعد ظهر اليوم التالي ذهبت الى متجر ايفيت وأودعته باعتزاز محتوى اثني عشر اناء.

لم أكد أصل الى البيت حتى كانت ايفيت على الهاتف: "انها نفدت!"

- أتعنين بسرعة؟

"زبائني كانوا مسرورين جداً. انهم يريدون المزيد. سيعودون غداً. يجب أن تأتيني بثلاثة أو أربعة أضعاف الكمية التي جئت بها. نعم."

## ● جهد عقيم ●

انطلقت وغوردن الى العمل باناءي اللبن. ولكن بعد خمسة أيام اتضح أننا لن نقدر أبداً على استجابة طلبات ايفيت الا اذا وجدنا طريقة لصنع كميات أوفر من اللبن. وذلك يحتاج الى اناء كبير يحفظ الحليب في حرارة ثابتة أثناء ترويبه.

قلت: "نريد شيئاً نستطيع تنظيفه جيداً."

قال غوردن: "ماذا عن حوض السمك الاستوائي في القبو؟ انه بلا ريب كبير الى حد كاف، وأظنه سيكون صالحاً اذا ما عزلناه بقطع قماش."

نظف غوردن الحوض بينما ملأت أنا بحليب ديزي أربع قدور تَسَع كل منها ثمانية ليترات، ووضعتها في الفرن لتُعقّم. تركتها حتى بلغت حرارتها ٨٥ درجة مئوية ثم برّدتها في المغسلة. وحين نزلت حرارتها الى ٥٢ درجة مئوية سكبناها في حوض السمك. وانتظرنا الى أن بلغت حرارة الحليب ٤٦ درجة مئوية فألقينا فيه "روبة" اللبن التي حضرناها في اليوم الفائت. غطيت الحوض بطبق ولففته جيداً ببعض الاقمشة. وبعد ثلاث ساعات وقفنا نرنو سعيدين الى أول انتاج لنا من اللبن الفاخر. انه تمّ باتقان.

قال غوردن: "لدي سؤال واحد، كيف نبرّد هذه المادة؟"

كاد قلبي ان يتوقف. نحن نعرف أننا اذا حركنا اللبن الساخن تحول مزيجاً رخواً من الخثارة والمصل. لذلك كان مهماً أن نبرّد كل الكمية قبل تجهيزها.

اقترحتُ بوهن: "أيمكننا تبريدها في المحيط؟"

- أتعلمين كم وزنها؟

"ربما يحسن ان نأخذها الى قبو المؤونة ونضعها في الثلاجة."

- قد ينفع ذلك، فلنجرب.

سبق أن اشترينا صندوقا صغيراً للتبريد كان لا يزال فارغاً.

أمضينا عشرين دقيقة في عراك مع الحوض حتى انزلناه في صندوق التبريد. وخلال بضع ساعات أصبح اللبن جاهزاً وتملكنا اعتزاز عظيم.

قلت مبتهجة: "صندوق تبريد داخله حوض سمك استوائي! أتظن أن معامل الالبان الاخرى سترسل جواسيس الى مزرعتنا ليروا كيف نعمل؟".

اذا كان حوض السمك داخل صندوق التبريد يمثل المرحلة الاولى في تطويرنا صناعة اللبن، فمخازن الاغذية الصحية ستدفعنا للحال الى المرحلة الثانية، لانها وعت بسرعة أنها خسرت زبائنها وربحتهم ايفيت. ولم يمض وقت طويل حتى طلبت منا هذه المخازن تزويدها لبن ديزي، أما نحن فلم نقل "لا." ومهما يكن فمن الواضح أنه لن يكون لدينا مكان في القبو لحوض سمك آخر.

واستغلّ غوردن كل مهاراته في الاستشارات الادارية ليعالج مشكلة التوسع. قال مبتسماً ومبتهجاً: "هذا يقتضي تخطيطاً."

كانت فكرته أن يمنحني لقباً رفيعاً هو "المديرة العامة المكلفة شؤون التنقيب والتقنية وتطوير الانتاج وممارسة الرقابة النوعية."

فقلت له: "أريد ان أعرف: أنت، ماذا ستعمل؟"

– سأهتم للشؤون الصحية والمواد الخام.

نفذ غوردن مهماته بسهولة. فاقتنى رفشاً ثقيلا وبقرة وديعة تدعى "زر الذهب." أما مسؤولياتي فأثبتت أنها أكثر تعقيداً، وعبثاً أجريت تجارب بكل طريقة قابلة للتصور بغية احتواء كميات كبيرة من الحليب، لكنني أخفقت الى درجة أن غوردن ذهب الى السوق واشترى ستة خراف لتأكل أخطائي. هذه الخراف اصبحت معجبة متحمسة غير منتقدة لجهودي العقيمة، مرحبة بكل دلو مملوء لبنا تالفاً وهي تطلق أصوات الابتهاج.

قلت ذات صباح بينما كنا نتبضع في مخزن محلي للادوات المعدنية: "لا فائدة من ذلك يا غوردن، فقد مضى علي ثلاثة أيام وانا أعمل رسماً وتصحيحاً لحل عقدة حليب زر الذهب، لكن كل شيء ينتهي في زريبة الغنم."

عيناه لم تكونا تنظران اليّ. كانتا مسمرتين على صناديق كبيرة صلبة خفيفة الوزن بلاستيكية ذات ثقوب وتجاويف، معروضة بسعر مخفوض. تمتم كلاما لم أفهمه.

صرخت: "انها محاضن!"

واذا بحانوتيين يقفزان وينظران الي شزراً.

اشترينا ثمانية عشر صندوقاً.

سمعت زبوناً يقول لآخر: "عجباً يا صديقي، بعض الناس يشتري أي شيء معروض بسعر مخفوض."

بعد أيام من التجارب نجحنا في اتباع أسلوب لسكب الحليب رأساً في أوعية بيضاء صغيرة من البلاستيك، ووضعها جميعاً داخل صندوق مالئين الفراغ بأي نوع متوافر من الورق الرقيق. وسرعان ما خطر لنا أننا لسنا مضطرين الى اخراج أوعية اللبن المروّب، بل يكفي أن نخرج الاوراق ونضع مكانها قطعاً من الثلج. هذه القطع تبرد اللبن طوال الليل. وفي الصباح نستبدل بها قطعا جديدة. بعد ذلك يصبح اللبن جاهزاً لنقله وتوزيعه.

وللتوفيق بين أعمال الزراعة والتعليم والامومة وصناعة اللبن، والساعات الاربع والعشرين، وضعنا جدولا بالأعمال اليومية. ننهض في الرابعة صباحاً بحيث يتمكن غوردن من حلب ديزي وزر الذهب والعودة الى المنزل في الخامسة. أثناء ذلك أرضع فيكي وألبس فاليري وأجهّز طعام الفطور. في الخامسة والدقيقة العاشرة يخرج غوردن لانجاز أعماله بينما أنظف أنا المطبخ وأحضّر الطفلتين لرحلة الى هاليفكس. في السابعة يستحم غوردن ويحمّل السيارة لبناً ثم نتوجه الى المدينة.

يقضي غوردن يومه في هاليفكس مع الطفلتين في بيت صديقة لنا على بعد شارعين من مكتبي في الجامعة. وفي مقابل ضيافتها كنا نملأ ثلاجتها حليباً وزبدة وبيضاً. وفي فترات مختلفة كنت آتي على عجل لأرضع فيكي وأحضن فاليري. أما غوردن فكان يحضر شطائر لنأكلها عندما أحضر الى البيت بين أوقات الصفوف.

في السادسة مساء نعود الى المزرعة، فأطبخ طعام العشاء بينما يغلي الحليب رويداً على الموقد. في الثامنة تكون فاليري وفيكي في فراشيهما، فتعطيانني وقتاً كافياً لتصحيح أوراق الامتحانات أو تحضير دروس اليوم التالي. حتى انني شاركت في تأليف كتاب لتعليم الاسبانية، فكنت أعمل بين الآنية والقدور والخراف وعلب الحفاضات.

وهكذا بقيت أنا وغوردن في بلبلة مستمرة. ولم يكن لدينا وقت ليسأل أحدنا الاخر هل نفتقد بعض البهجة التي ترافق حياة الرفاه. ولم نتوقف عن تذكير أنفسنا بأن أحد الاسباب التي تركنا نيويورك من أجلها الهرب من زحمة المدينة وعجلتها.



## ● مزرعة شبه الجزيرة ●

ذات يوم من أواخر الخريف وقفت في طريقنا الموحلة سيارة فخمة من نوع "مرسيدس." نزل منها رجل حسن الهندام شق طريقه

بحذر بين الاخاديد والاوحال. فأسرع غوردن للقائه. وشرعا يطوفان حول المنزل ويتبادلان حديثاً بدا ممتعاً.

وبينما كانا يهمان بدخول المطبخ قال لي غوردن: "لدينا زبون للبن."

قلت: "أهلا بك وبما تريد، ما زالت لدينا ثمانية أوعية."

فضحك غوردن: "أظنه يريد حمل عربة، انه السيد ديفيد سوبي مدير مخازن "سوبي" الكبرى. وهو توقع أن يجد، على الاقل، مصنع ألبان صغيراً بمدخنة أو مدخنتين."

ووافقه سوبي: "حقاً توقعت ذلك. صادفت انتاجكم في أحد مخازن الاغذية الصحية. هناك سيدة فاتنة تدعى ايفيت اخبرتني أنه أفضل لبن في أي مكان. ذقته وأيقنت أنها على حق، فقررت أن أعرضه في مخازني. أنا أهتم دائما لدعم الصناعة المحلية. ما اسم شركتكم؟"

بدوت في حيرة، والتفت الى غوردن فوجدته هو أيضاً في حيص بيص.

قلت: "نحن نسمي أنفسنا "مزرعة شبه الجزيرة."

انه أول اسم خطر في بالي، اذ شيدت مزرعتنا على ما يسمى "شبه الجزيرة الاول."

أومأ سوبي برأسه مستحسناً: "رائع. عندما تسلموننا لبنكم ألصقوا على الاوعية اسم شركتكم. وعليكم تطبيق الشروط الاخرى التي تطلبها الادارة الكندية لحماية المستهلك."

قال غوردن: "لا تقلق، يمكنك الاتكال على "شبه الجزيرة." أليس كذلك يا صونيا؟"

تمتمت: "صحيح."

لن يأتي الى مطبخنا كل يوم مدير جُملة مخازن طالباً لبناً. فكيف لامرىء أن يقاوم اغراء كهذا؟ على كل حال، انه يريد الانتاج لبضعة مخازن فقط كبداية. وقليل من المخازن الاضافية لا يأتي بفرق كبير.

بعد ثلاثة أيام وصلنا بسيارتنا الى المخزن الذي أوصى به ديفيد سوبي والذي يحظى بزبائن مميزين.

بادرنا طوم كرويل: "أبلغني السيد سوبي أنكما آتيان. خذا السيارة الى قسم الشحن وضعا انتاجكما على منصة خشبية نظفت لكما مساحة مترين منها."

قلت: "انتظر دقيقة، ليست لدينا شاحنة، ولا نريد منصة. ولن يمكننا أن نملأ رفاً بطول مترين."

بدا طوم محتاراً: "آه، آسف، ظننت أنكما ستسلمان بضاعة."

شعرت تلك اللحظة بارتباك لم أعرفه من قبل، وقلت: "أحضرنا دزينتين فقط."

قال كرويل: "آه، اليوم جئتما بالنماذج."

فأعلمته: "حسناً، ليس ذلك تماماً، هذه الكمية تمثل اللبن الفائض عن انتاج ثلاثة أيام."

هتف غير مصدق: "صندوقان؟ لن يبقيا أكثر من نصف ساعة. تعالا معي فأريكما ماذا أعني."

تبعناه الى قسم الالبان.

قال: "انظرا، خصصنا اثني عشر متراً للبن، وحتى هذه المساحة لا تكفي."

مرر غوردن يده على ذقنه مفكراً وتمتم: "هذا هو الوضع اذاً. انه يدعو الى اقتناء بقرة أخرى."

وردد كرويل: "بقرة أخرى؟ ستشتريان بقرة أخرى من أجل مخزني؟"

ألقى برأسه الى الوراء وضحك، وأضاف بوقار: "لا تفهماني خطأ، هذا رائع. زبائني سيحبونه، فقد تعبوا من الانتاج التجاري وضجروا من المصانع العملاقة التي يخرج منها طعام كيميائي اصطناعي. إسمعا، ألديكما صورة لاحدى بقراتكما؟"

قال غوردن: "ربما لديزي."

فسأل كرويل: "أهذا اسمها؟ ديزي؟ أنا أحبه، عليكما أن تضعا صورتها على بطاقات صناديق معملكما. ديزي يمكن أن تصبح بقرة السنة. انها ستكون تميمتنا (٤) وسيكون لدينا أعذب لبن في هاليفكس، وكل امرىء سيعرف عنه. ان الشركات في أونتاريو وكيبيك لا يمكنها أن تشحن الى هنا لبناً طازجاً كلبنكما."

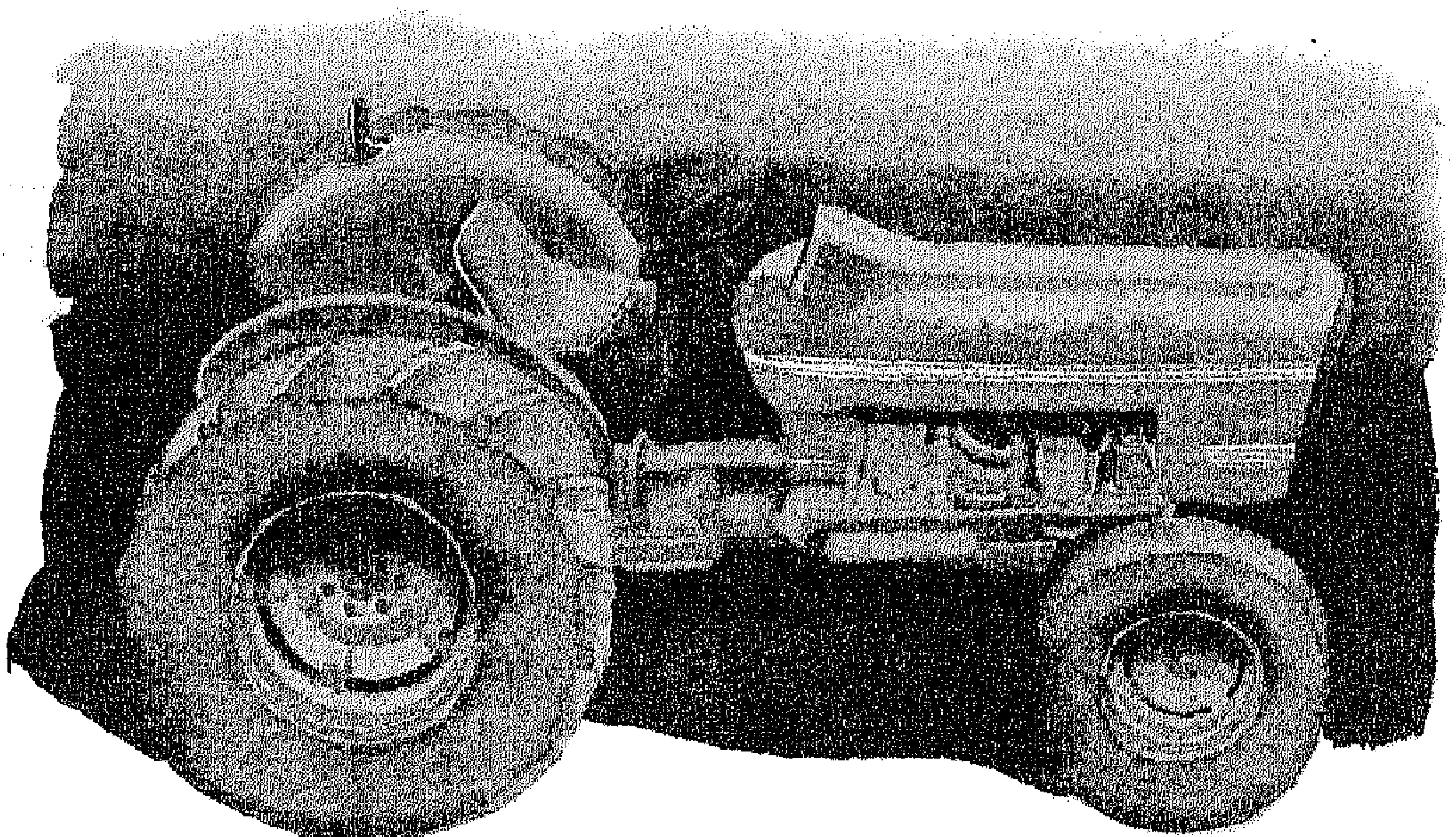
في طريق عودتنا الى البيت بدأت أدرك أن حذري يفسح مجالا للفرح. ديفيد سوبي وثق بنا، كذلك طوم كرويل. وفي الحظيرة مكان لثلاثين بقرة. جلست في مقعدي مطمئنة الى الاعتقاد بأن حليب ثلاثين بقرة سيكفي الى الابد.

## انخطبط بلا وعي

ان ضرورة ملء الرف البالغ طوله مترين أدت الى شراء بقرتين اضافيتين، سمينا احداهما "كلوفر" والثانية "ميلودي." ومع أن ميلودي كانت الأعجف بين مجموعة بقراتنا فقد أصبحت أكثرها انتاجاً للحليب.

قال ترافيس وهو ينظر باستحسان الى ضرعها المدرار: "يظهر أن البقر العظمي يعطي الحليب الكثير، لان الغذاء يتحول حليباً بدل أن يتحول بدانة في العضلات. ولكن ككل البقر تجب مراقبتها بعد الولادة خوف هبوط الكلس في الدم مما قد يؤدي الى الشلل."

(٤) التميمة هي جالبة الحظ السعيد.



كلماته كانت تنبؤاً. فبعدما ولدت ميلودي عجلها بيومين رأيناها ممددة في حظيرتها غير قادرة على التحرك. استدعينا الطبيب البيطري ونحن في هلع. حقنها محلولا كلسياً ومعدنياً، وخلال دقائق اشتدت ووقفت على حوافرها.

قال الطبيب البيطري: "تلزمكما بعض المساعدة هنا. كان في عيادتي أمس غلام يفتش عن عمل. انه من عائلة اسكوتلندية محترمة لكنها تمر بأوقات عصيبة."

فيليب ماكفرسون جاءنا عطية. انه شاب أشقر قوي في أوائل العشرينات من عمره. ولم يكد يبدأ عمله لدينا حتى كان بينه وبين الماشية تمازج، وبفضله اقتنى غوردن ثلاث بقرات أخرى وآلة حلب كهربائية.

أي تخطيط حقيقي نُفِّذ في تلك المراحل الاولى كان يتم من دون وعينا التام. لكن نموّنا بات يتحرك ذاتياً على نحو جيد. كلما احتجنا الى حليب أكثر، استجابة للطلب المتزايد، اشترينا بقرة أخرى وتموّنا صناديق جديدة. وعندما زاد انتاجنا على حمولة سيارتنا اقتنينا شاحنة صغيرة تحمل ٧٥٠ كيلوغراماً.

لكن الاسعار ارتفعت مع النمو. فمنذ اشترينا شاحنتنا ازدادت أسعار المحروقات ثلاثة أضعاف، فاضطررنا الى تأمين معظم مبيعاتنا في منطقة لوننبرغ بغية تقصير المسافات التي نقطعها في السيارة.

وكانت لنا لقاءات مع رجال أعمال عُتاة. والقصة الآتية توضح بعض ما واجهناه:

المخزن الوحيد في المنطقة الذي لا يعرض لبننا كان متجراً كبيراً مكتملا تملكه شركة "جوليات" الغذائية. الناس يقصدونه من أماكن بعيدة ليتبضعوا منه نظراً الى تخفيضاته المغرية في الاسعار. وبينما كنت في مخزن محلي نُصِحت بأن أقابل ادوار شوميكر في مكتبه الرئيسي في هاليفكس، فعملت على تحديد موعد معه.

بعد انتظار تجاوز الساعة أُدخلت غرفة السيد شوميكر ووقفت بصبر الى جانب مكتبه. ولكن يظهر أن من مبادىء السيد شوميكر ألّا يرفع نظره عندما يدخل غرفته بائع. تابع تفحص الملفات المنثورة أمامه بقصد الايحاء أنه يعالج أموراً مهمة معجلة.

أخيراً استوضحني بحدة: "حسناً."

بدأت: "هذا هو يومك السعيد يا سيد شوميكر."

فزمجر: "صحيح؟ وما هي الصفقة؟"

– جئت لابلغك اننا الآن جاهزون لتزويد مخزن جوليات أفضل لبن في العالم.

قال بفظاظة: "لدينا لبن كاف."

– لكنك لم تفهمني، انه أفضل لبن في أي مكان، صنعته بنفسي. اليك نموذجاً عنه.

وضعت الاناء على مكتبه وتراجعت لأتبين تأثير الصدمة فيه. بطاقاتنا المطبوعة أستبدلت بها ملصقات عليها طباعة جميلة تحمل صورة البقرة ديزي واقفة بهدوء تحت شارة كتب عليها: "مزرعة شبه الجزيرة – لبن طبيعي." ان

المنظر الريفي الذي رسمه الفنان يصعب على أي مشتر عنيد، حتى السيد شوميكر، أن يقاومه.

قال: "أنا لا آكل لبناً، انه بالنسبة الي رسم آخر لحليب مروّب. على كل حال، أي صفقة جلبتِ لي؟"

"نحن نقوم بكل شيء، من حلب البقرة الى الخزن على الرفوف. كل ما عليك أن تفعله هو أن تتصل بقسم المبيع."

"الصفقة، الصفقة!" قال شوميكر وهو يفرك ابهامه بأصابعه.

قلت: "سعر المبيع بالجملة الذي اقترحناه يعطيك ٤٠ في المئة ربحاً."

سأل: "ماذا عن المكتب الرئيسي؟ أي حسم جئت به الينا هنا؟ عليك أن ترفعي النسبة عشرين في المئة أيضاً اذا كنت تودين جبه المنافسة."

"أتطلب مني أن أدفع الى مكتبكم الرئيسي عشرين في المئة من دخل المبيع الاجمالي؟"

قال شوميكر من دون أي انزعاج: "هذا صحيح."

اغتظت. وغيظي تحول صدمة فقلت: "حتى أنا لا أكسب ذلك. انني أكون سعيدة اذا ما انتهيت بعشرة في المئة. وهذه العشرة يفترض أن أوظفها في العمل."

"اذاً ارفعي سعرك ٤٠ في المئة. قلتِ انك تصنعين أفضل لبن في العالم. اذا كان هذا هو الواقع فالمستهلك سيدفع الفارق في كل حال. ما الذي جعلك تظنين أن لبنك شهي الى هذا الحد؟"

"حسناً، نحن نستعمل حليباً طازجاً. وشذاه..."

فقاطعني: "هنا مشكلتكم تماماً، عليكم أن تخفضوا تكاليفكم اذا أردتم أن تكونوا منافسين. لا تستعملوا حليباً طازجاً. استعملوا الحليب المجفف كما تفعل الشركات الاخرى."

اعترضت: "لكنني لا أريد أن أصنع لبناً رخيصاً."

"اسمعي، ايتها السيدة جونس، لا خيار لك. اذا ما أردت أن تصنعي صنفاً خاصاً فاخراً فابقي صغيرة واحفظي أسعارك عالية. وعندما تتعبين من حلب البقر وصنع اللبن في مطبخك ارجعي اليّ وسيكون لنا حديث قصير آخر. فربما أصبحت عندئذ مستعدة لرؤية الوضع على طريقتي."

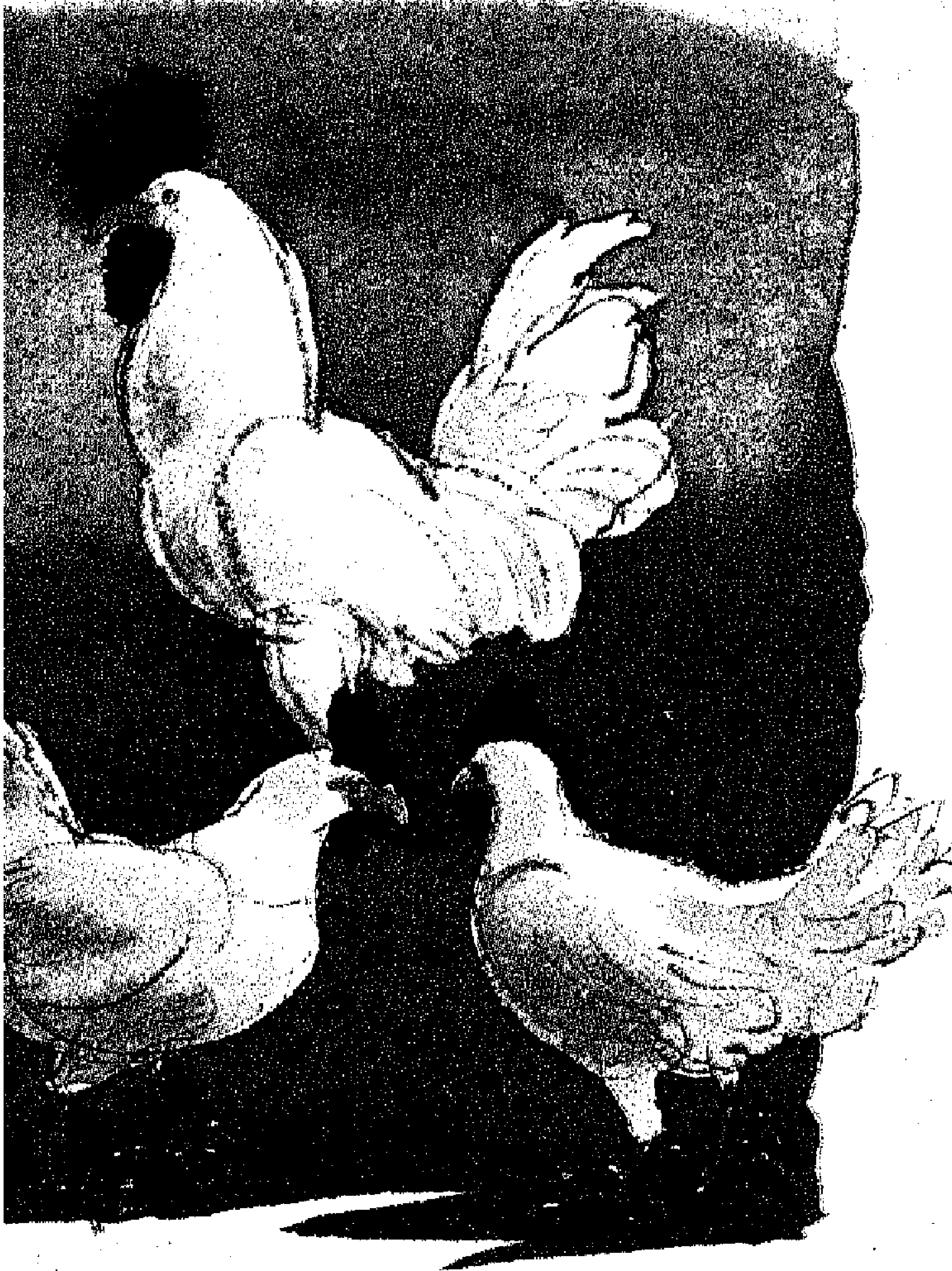
وقف فجأة وقادني الى الباب. وخرجت متمهلة من مركز رئاسة شركة "جوليات"، تلك الشركة التي قطعت عهداً على نفسي بأن تكون رفوفها يوماً ملأى بلبن "مزرعة شبه الجزيرة" وبسعر مناسب.

## ● الاستسلام ممنوع! ●

في أحد ايام يونيو (حزيران) وصلت الى المطبخ جنجر كوركوران تبيع بذوراً وغرسات للزرع. سألتني: "هل وضعت خطة لاستثمار حديقتك في الصيف؟"

فكرة الخُضَر الطازجة على المائدة كانت مغرية، لكنني لم أكن أحب العذاب الى حد يجعلني أؤدي عملاً اضافياً كالاعتناء بالحديقة.

عندما شرحت وضعي توسّلت الي جنجر: "دعيني اشتغل لك، أنا قديرة مع الاولاد، ويمكنني أن أتعلّم صنع اللبن، أنا سريعة التعلم."



كانت متلهفة جداً للعمل، فوافقنا أخيراً على اضافة اسمها الى قائمة مدفوعات العمال. واستوعبت جنجر كل ما علّمناها، لكن الكلفة الاضافية أزعجت غوردن فقال: "علينا أن نزيد مبيعنا."

في هذا الوقت أخذنا نبيع البقر المعد للذبح فنستبدل به بقراً حلوباً كلما دعت الحاجة. اقتنينا ١٥ بقرة، وعندما ذهبت جميعها الى المرعى اكتشفنا مندهشين انها ستزودنا قشدة تتجاوز طاقتنا على الاستهلاك.

قال غوردن ذات يوم: "عليك أن تجدي وصفة لصنع الجيلاتي (آيس كريم) يا صونيا، لا يمكننا اتلاف كل تلك القشدة. ثم ان الدجاجات التي تركتها جنجر تقتات بالحلزون في الحديقة ظنت أنها أُعطيت اذناً بزيادة انتاج البيض."

عندما لا تستعمل جنجر الموقد لتعقيم الحليب وترويبه أدخل أنا المطبخ لأحضّر حلوى من السكر والبيض والحليب لاستعمالها أساساً للجيلاتي. واستغرقت تجاربي وقتاً، لكنني توصلت أخيراً الى صنع مزيج الفانيلا الفرنسية الذي يرضي أي ذوق، واستعماله كأساس أحيا جملة نكهات أخرى.

كالعادة لم نكن مستعدين لما سيأتي. الزوار جاؤوا جماعات الى المزرعة تجذبهم الينا نشرة وضعناها في مكتب لوننبرغ السياحي. في هذه النشرة صورة البقرة ديزي ونبذة صغيرة عن مساهمتها في نمو الشركة ووصف مختصر لنكهات اللبن المختلفة وللجيلاتي المنزلية المصنوعة من الحليب. الناس يقفون صفوفاً أمام باب المطبخ منتظرين تناول الجيلاتي في غلاف من البسكويت المخبوز هشاً. داخل المطبخ كانت جنجر تتابع صنع اللبن بينما أنا أرفع قرن الجيلاتي بيد، وبالاخرى أحاول قبض المدفوعات.

إنتر إدنا امرأة جليلة متوسطة العمر تسكن في الجوار. أشفقت علينا ذات يوم وعرضت خدماتها كتلميذة متمرنة في

صنع الجيلاتي. لم يكن لدينا خيار، فإما إدنا وإما مستشفى الامراض العقلية.

ذات يوم أحد من شهر أغسطس (آب) كان يوماً نموذجياً: فيليب يصلح السياج وغوردن يدفع الفواتير وجنجر تضع الروبة في الحليب وإدنا تصنع الجيلاتي وفاليري تذوق الحلوى وفيكي تلوّث وجهها بسائل الشوكولاته وأنا أصنع شطائر محشوة بالبيض والسياح ينتظرون بصبر مشكور عند باب المطبخ.

الزبونة الاخيرة التي لبَّيتها ذلك اليوم وقفت بين المجلى وطاولة المطبخ تراقب الفوضى المطبقة. وسألتني متعجبة: "أحقاً تصنعين كل لبنك هنا في هذا المطبخ؟"

– آه، نحن نجهزه في غرفة الطعام ونضعه في الصناديق في غرفتي الاستقبال والجلوس.

"ولكن أين تعيشون؟"

– غالباً في الطبقة العليا.

"اسمعي، لا تستطيعون الاستمرار على هذا المنوال. أنتم تحتاجون الى مصنع للالبان. هل فكرتم في طلب مساعدة مالية من الحكومة؟"

تبين أنها كانت ممثلة للحكومة، وممثلاتها عادة لا يتفوهن بطلب المنح. لكن ذلك كان نهار عطلة لها، وقد أحست بأن عليها أن تقول شيئا. انها من كبار المتحمسين للبننا ولا تريد أن ترانا نحمل فوق طاقتنا وبالتالي نضطر الى وقف الانتاج.

بعدما وضعنا ابنتينا في فراشيهما تلك الليلة حاولنا أنا وغوردن التوصل الى نوع من الاتفاق حول طريقة التوجه في العمل. ورأى غوردن: "اما أن نتوسع وإما ان نكف عن الانتاج."

قلت: "أنت تعرف أن لدي وظيفة وما نعمله الآن ليس أمراً واجباً. يمكننا أن نختار. وأنت، ماذا في شأن يختك؟"

قال غوردن برقة: "نعم، اليخت، جميلة هي ممارسة رياضة الابحار عند المغيب، ولكن من المبكر جداً أن نفعل ذلك في هذه المرحلة من حياتنا. علينا أن نعطي أولا، واللبن عطاء جيد في اعتقادي. سنوسع أعمالنا. نضيف بضع بقرات الى المزرعة، وسيفيد أشخاص كثيرون من هذه العملية. انها نوع من اللهو، انها تحدٍ، سنرى ما اذا كنا نستطيع أن ننزل الى السوق طعاماً حقيقياً مغذياً. ففي كل مكان طعام كثير غير مغذٍ."

لا يجوز أن نرفع أيدينا مستسلمين. أمامنا وضع مفاجىء من الصعب تدبيره، لكننا عزمنا على أن نراه نافذاً الى نهاية ناجحة.

### ● ... خير من ميعاد ●

عندما حُلّت مشاكل الانطلاق في مصنعنا الجديد أصبح العمال ينتهون ظهراً من أعمال كانت تشغلهم طوال النهار في المطبخ. ولما كان المصنع فاخراً فقد ازدادت الكلفة النهائية أكثر من ضعفيَ المبلغ المقدر مما جعل منحة الحكومة البالغة ٣٠ في المئة من التكاليف، والتي وضعت على أساس المبلغ المقدر، تهبط الى ما دون ١٠ في المئة من الكلفة النهائية، علماً أننا لم نقع أبداً في مثل هذا الدَّيْن الباهظ.

كانت حاجتنا ماسة الى توسيع سوقنا

لتعويض كلفة المصنع وجعله ذا طاقة كافية. وكنت كل بضعة أشهر أزور ادوارد شوميكر في شركة "جوليات" لأذكره بأن لبننا يتمتع بشعبية متنامية، بطيئة ولكن ثابتة. أما هو فكان يرفض أن يتزحزح وإن قليلا عن طلب المكتب الرئيسي زيادة ٤٠ في المئة. انه مبلغ لا يسع "مزرعة شبه الجزيرة" أن تتحمله.

في تلك الاثناء علقت الآمال على "أسبوع الجيلاتي" في "معرض الشاطىء الجنوبي" حيث حجزت منصة في القاعة الرئيسية. وفي أغسطس (آب) جهزت ٧٥٠ ليتراً من اثنتي عشرة نكهة مختلفة. وكنت على ثقة بأني سأبيع معظمها لان الناس من أنحاء المقاطعة يأتون جماعات الى المعرض ليشاهدوا أفضل حيوانات المزارع ويراقبوا نتائج التحكيم. ومهما يكن فتفاؤلي تبخر لحظة وصلت لاضع منصتي، فالى جانبي كانت منصة لموسوعة علمية شهيرة.

مخاوفي تحققت بسرعة. تدفق الناس الى القاعة، لكن منصة الموسوعة لم تكن موقفهم الاول. واذا ما ضلوا الطريق ووقفوا أمامها انطلقوا مسرعين قبل أن يتمكن البائع من اعارتهم اهتماماً. ويظهر أن معظم الزائرين راقهم أن يشتروا الجيلاتي من المنصة القائمة في الجهة الاخرى من القاعة حيث تباع في أحد جانبيها شطائر هامبرغر وبطاطا (بطاطس) مقلية وفي الجانب الآخر يباع شراب ومرطبات.

قال أحد ممثلي الموسوعة: "هذا ما يحدث دائماً. نحن نرعب الزبائن فيبتعدون. كل ما أستطيعه هو الاعتذار والامل الا يكون ذلك مسيئاً جداً الى المنصات المجاورة."

تبين انه كان يعمل لحساب المركز الرئيسي في اونتاريو وجاء الى المنطقة ليدرس امكانات الاتصال بوكلاء للبيع في نوفاسكوشيا.

قال: "شركتكم الصغيرة تثير فضولي، أين تبيعون لبنكم؟"

أجبت: "انه يباع في جميع المخازن ما عدا مخازن جوليات. فأصحابها يرفضون شراءه ما لم أوافق على حسم ٤٠ في المئة لمكتبهم الرئيسي."

"أتعنين ٤٠ في المئة على الحد الاعلى بين سعر الجملة وسعر التجزئة؟"

– نعم، لكنني لا أستطيع تحمله الا اذا كثفنا الانتاج. وأنا لا أريد ذلك، وقد رفضت المساومة على نوعية بضاعتي.

"أتدرين من يهمه هذا الامر؟ ستيوارت ريتشي."

نظرت اليه من دون أن أستوعب ما يقول.

"ألم تسمعي بستيوارت ريتشي؟ عجباً! آل ريتشي يملكون شركات عدة بما فيها جوليات."

– ولكن لماذا ستيوارت ريتشي يهمه أمري؟

"حفاظاً على المظاهر. ليس في مصلحة أي من شركاته أن تعاملك بخسة. انه لا يجازف بسمعته من أجل مبلغ ضئيل."

قلت وأنا مستغرقة في التأمل: "ولكن كيف ألتقي سكرتيرة السيد ريتشي؟"

فرد: "ليست ثمة مشكلة. لدي رقمه الخاص، فلي معه أعمال ونحن نجتمع مرة

ي السنة لنبحث كيف تسير الامور. اذا ردتني أن أتصل به هاتفياً فاني على ثقة أنه سيكون سعيداً بالتحدث اليك."

اصطحبني الى كشك للهاتف خارج حظيرة الثيران. وسرت معه لأرفع قصة عمي الى ستيوارت ريتشي الذي أبدى عجبه برقة. وبينما كانت الثيران تخور في الداخل كان ريتشي يصغي الي تأدباً ويوافقني على ما سماه سوء تفاهم بسيطاً حدث مع "جوليات" ووعد بتسويته حالا.

في صباح اليوم التالي كان ادوارد شوميكر على الهاتف: "صباح الخير. دكتورة جونس؟ يا دكتورة، أنا سعيد بسماع صوتك ثانية. كيف عائلتك؟ اسمعي، كنت أفكر..."

الاسبوع التالي أجرينا أول تسليم في خمسة من مخازن "جوليات" على أن نتبعه بتسليم ٤٠ مخزناً عندما نصبح جاهزين.

## تناقض قانوني

المشكلة الكبرى في مصنعنا الجديد كانت آلة التعبئة. انها تسرب اللبن من كل شق وثقب وأنبوب فتتلوث وتلوث الآنية والارض باللبن. اشترينا الطراز غير المناسب، وعندما طلبنا تعويضاً وجدنا أن التاجر ترك المدينة.

بعد ظهر ذات يوم بينما كان غوردن يتفرس في الدلاء الثلاثة الطافحة باللبن سألني: "أتستطيعين ابتكار انتاج لبني جديد لا يقطر؟ اذا أمكننا استعمال هذه الآلة المعبئة لتجهيز انتاج لا يقطر، كان لنا مبرّر لشراء آلة جديدة تصنع اللبن الصحيح."

كما يحصل غالباً في مثل هذه الحالات جاءني الحل من حيث لم اتوقعه. فقبل أيام جلست اتمتع بوقعة من اللبن الكامل الدسم. ولم أكد ابتلع ملعقتين حتى أصابني ضيق بسيط فأرجعت القصعة الى الثلاجة. في اليوم التالي كان الفراغ الذي خلفته الملعقة مملوءاً مصلا، وهو سائل أصفر نقي. فألقيته خارجاً وعدت آكل اللبن. وتكررت هذه العملية ثلاثة أيام في سلسلة من نوبات ضيق أصابتني.

كلما أكثرت من القاء المصل خارجاً ازدادت كثافة اللبن الى أن أخذ شكلا ناعماً دسماً كالزبدة. عندئذ راودتني امكانات عدة. استطيع مزجه بالاعشاب والبصل لتغمس فيه قطع البطاطا والذرة المقلية. يمكن أن يمزج بالزيتون وسمك السلمون المدخن أو الكافيار ليوضع على شرائح خبز محمّص. واحتمالات كثيرة أخرى. كل ما بقي لي أن أعرف هو كيف أصنع منه كميات وافرة.

أجريت اختباراً على كل عملية تجفيف فكرت فيها، بما في ذلك اختبارات المصافي والاطباق المثقوبة. أخيراً استنتجت أن الوضع يتطلب اخضاع اللبن المجموع لقانون الجاذبية، فيوضع في وعاء ذي ثقوب صغيرة كافية لتسرب المصل وحفظ اللبن ويعلق في مكان عال عن الارض. اكتشفت كيس القماش القطني.

"لذيذة!" قال غوردن متعجباً وهو يحمل قطعة خبز محمص مغمسة في المزيج المكوّن من اللبن الدسم والصعتر والبصل والملح.

قلت: "سأدعوه جبنة اللبن. انه ناعم،

جبنة غير ناضجة مصنوعة من اللبن. لا يمكن أن يكون له اسم آخر."

تجمعنا حول آلة التعبئة نراقبها فرحين وهي تملأ الاوعية بجبنة اللبن الجديدة. ولم يندلق من الانتاج أي شيء في أي مكان.

خلال موسم الميلاد بيعت جبنة اللبن على نحو مدهش. وكافحنا بسرور لنبقى على مستوى الطلب غير المتوقع. ولكن ما ان انقضى رأس السنة حتى خف الطلب. لقد اعتبر الناس أن هذا الانتاج لا يقدم الا في الحفلات.

اقترح غوردن: "حسناً، اذا لم نتمكن من جعل أبناء نوفاسكوشيا يغيرون عادات أكلهم فلنجرب ارسال الجبنة الى مكان آخر حيث اعتاد الناس أنواعاً من المآكل مختلفة وغير عادية."

ومازحته: "اذا تمكنا من البيع في نيويورك، أفلايكون ذلك مدهشاً؟"

تأملت هذه الخاطرة ملياً وأنا أتطلع بحنين الى الاوقات التي عشناها هناك نتبضع من المخازن الجيدة التي تبيع المآكل الشهية.

بدا لي أن الوقت مناسب لأزور صديقا لي في لجنة مصانع ألبان نوفاسكوشيا. اشار علي أنه من الصعب شحن جبنة اللبن الى نيويورك. ففي كندا والولايات المتحدة انتاج فائض من الحليب بحيث يتعذر على احداهما التصدير الى الاخرى او الاستيراد منها. وقد فرضت حصص مقطوعة (كوتا) على تصدير منتجات الحليب واستيرادها.

سألته كيف تدخل الولايات المتحدة أجبان مثل "غودا" و"بروفولون" و"كاممبير." فأوضح لي أن الامريكيين كانوا يستوردونها من أوروبا قبل فرض نظام الحصص، لكن أبواب الاستيراد تقفل الآن.

مهما يكن، كان صديقي لطيفاً جداً الى حد أنه أظهر اهتماماً شخصياً بالامر. اتصل بي هاتفياً ذات صباح ليخبرني انه وجد طريقة للتملص من الكوتا أو للدوران حولها ضمن نطاق القانون. فلدى الامريكيين "كوتا" تدعى "أمسك الكل"(٥) تسمح لهم باستيراد كمية في حدود مليون و١٣٤ ألف كيلوغرام من أي نوع من الاجبان التي لا ينتجونها أو لا ينتجون كميات كافية منها، وجبنة لبننا تدخل هذا الاطار.

سُرَّ المسؤولون الحكوميون عن شؤون الالبان في أوتاوا حين سمعوا أن في امكانهم تغطية جزء من هذه الكوتا واتصلوا بنظرائهم في مدينة واشنطن لتسهيل طريقنا. وسار كل شيء حسناً الى أن تلقّيت مكالمة هاتفية من عميل لدى دائرة الغذاء والدواء الامريكية يخبرني بأنه لا يمكنني أن أسمّي انتاجي "جبنة اللبن." فاللبن، وفقاً للنظم الامريكية، يجب أن يحتوي على نسبة مئوية معينة من المصل، وعندما يُزال هذا المصل لا تمكن تسمية الانتاج لبناً. انتاجي يجب أن يسمى "جبنة طرية غير ناضجة من حليب مقشود."

بعد أسبوعين تلقيت مكالمة من موظف حكومي أمريكي آخر يبلغني أن انتاجي غير مقبول ضمن الكوتا لانه يدعى "جبنة اللبن." فالجبنة الطرية غير

(٥) Catch — all

الناضجة من الحليب المقشود موجودة بكميات كبيرة وفي كل مكان.

هذا التناقض الظاهر في القانون دمرني. لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً في شأنه.

كانت لدى ادوارد شوميكر خطة. دعاني الى مكتبه وقال: "هذه المرة هي للبحث في حسومات الكميات الكبيرة."

حجمنا يزداد بثبات. عندما كنا معملا صغيراً في سوق اللبن كان في امكانه تجاهلنا. أما الآن فعلينا أن نتصرف كسائر الصناعيين.

ذلك المساء قال غوردن: "انه كالجزية التي يبتزها "القبضايات" في مقابل الحماية. كل ما يتكلم عنه حسم غير قانوني في مقابل السماح بالبيع في مخازنه."

عزمت على زيارة ديفيد سوبي، عرّاب "مزرعة شبه الجزيرة." فلو لم يقتفِ آثارنا في ذلك اليوم المشؤوم قبل سنوات ويطلب منا أن نزود مخازنه لبننا المصنوع بيتياً، لما أصبحنا ابداً ذوي كيان في الاقتصاد المحلي.

قال سوبي مهدئاً: "أنا أفهم سخطك، لكن هناك جانباً آخر. مصانع الالبان ذاتها هي التي ابتدعت فكرة تأدية مدفوعات للمكتب الرئيسي، وفي نضالها من أجل زيادة حصصها في السوق كانت تواقة الى خفض أسعار بيع منتجاتها بالتجزئة في المخازن. ونحن وافقنا على ذلك ما دامت هي تعمل على تسوية فرق الحسومات. وهكذا، المستفيد الحقيقي هو المستهلك، اذ ان مصانع الالبان تساهم في جزء مما يدفعه الشاري. لا تعتقدي أنها مدفوعات غير قانونية. فليس ثمة سوء في ذلك حقاً."

- لكنني اذا بدأت أدفع الحسم فسأنتهي من دون أي مكسب.

"أنا أفهم ذلك. أنتم شركة صغيرة ما زالت تكافح لتصبح ناجحة. أنا، شخصياً، مستعد للانتظار طوال المدة التي يستغرقها قيام صناعة جديدة. ولكن يجب أن تدركوا أنكم عوملتم معاملة خاصة. قد يكون ادوارد شوميكر متسرعاً، هذا كل شيء. ولكن تأكدوا من أنكم اذا وضعتم خطة معه فعليكم أن تقدموا الحسم ذاته الى جميع المخازن. تلك هي العادة المرعية."

كنت دائماً أسلّم بأن الفضل في نجاح "مزرعة شبه الجزيرة" يعود الينا بكامله لاننا عملنا بكد وأخرجنا انتاجاً ذا مرتبة عالمية. لكنني الآن أدركت أن جزءاً من الفضل يعود الى أن المخازن عاملتنا بصبر وهوادة. فلو طلب منا أن ندفع الحسومات منذ اليوم الاول لكان الضغط المالي عبئاً مستحيلا.

وهكذا، في ضوء تفهمنا الجديد للتدبير المتخذ في شأن الحسم، اتصلنا بالمخازن للبحث في خطة شعرنا أننا نستطيع معالجتها جيداً في تلك المرحلة من نمونا. ومع أن الخطة خفضت مكسبنا المحتمل بحيث بات مردودنا مساوياً للنفقات، فاذا استمر مبيعنا في النمو فسنقدر أخيراً على كسب مردود لائق.

في ذلك الحين كنا نشتري معظم حليبنا من تعاونية المزارعين. وذات ليلة

قلت: "يا غوردن، لماذا لا نبيع البقرات؟" كانت الساعة الحادية عشرة ليلا وهو عائد من الحظيرة وقد فاحت من ثيابه رائحة الروث وشعره مندّى بالعرق.

ردد: "نبيع البقرات؟" لكننا نحتاج اليها لقضم عشب الارض."

– نؤجر المرعى للجيران. ترافيس سيكون مسروراً بافلات ماشيته على عشبنا. واذا لم يسعده ذلك فهنالك كثيرون غيره. تأمّل ماذا يمكنك أن تفعل لمزرعة "شبه الجزيرة" اذا لم يكن لديك عمل في الحظيرة. فما دمت أنا في دلهوزي فلن يسعني أن أفعل أكثر من مراقبة الامور، ولكن اذا كان لديك أنت وقت فيمكنك الخروج وتعاطي جميع انواع المحاسبات. نحن لم ندخل المستشفيات والمدارس والمقاهي. يجب أن نبيع اللبن لا أن ننظف حظيرة البقر.

استغرق غوردن أكثر من شهر ليتقبل حقيقة اننا سنكون أفضل حالا من دون ديزي وسواها من الماشية. وحين قضي هذا الامر أحس بانه تحرر من عشر سنين أشغالا شاقة.

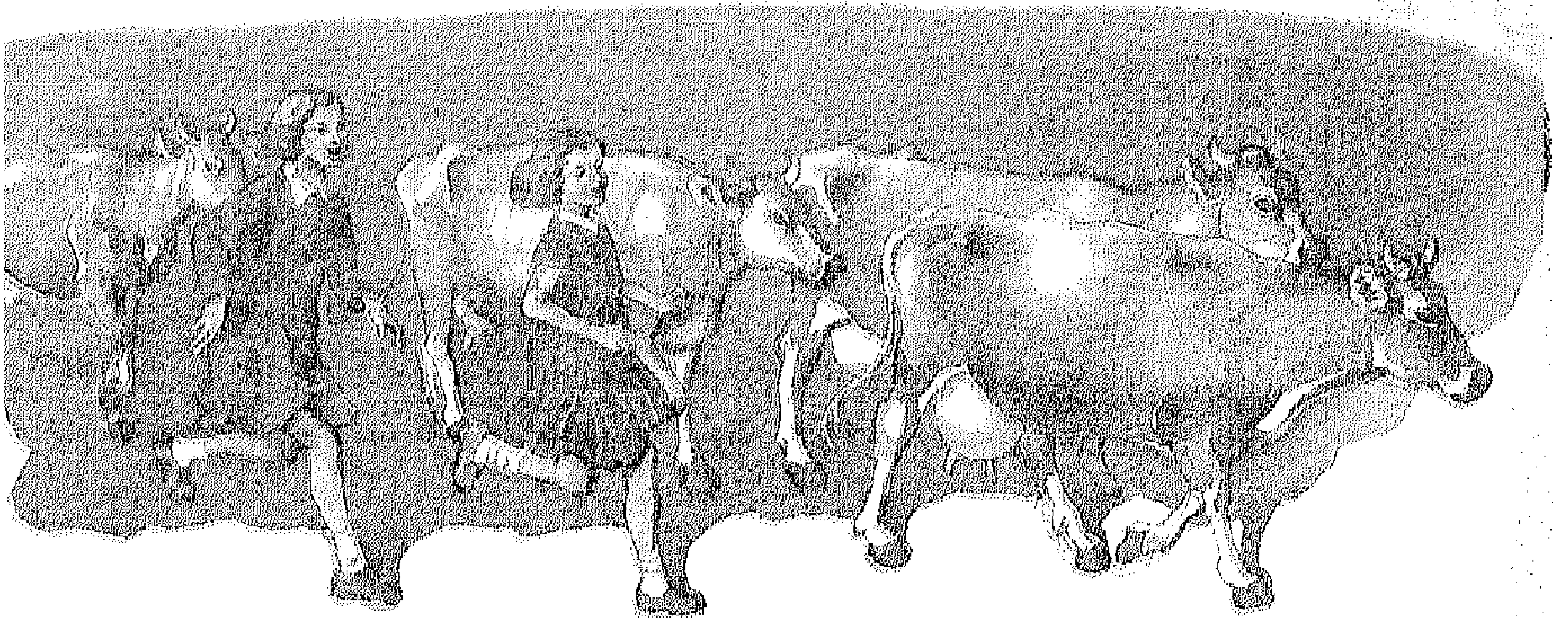
كان بيع الماشية بالمزاد العلني قاسياً علينا جميعاً. وبقي غوردن بعد ذلك يومين يعاني انقباضا نفسياً حاداً. أما أنا فايقنت أنني سأكون حزينة لانني لن أرى فاليري وفيكي من نافذة المطبخ تدوران حول البقرات في موعد حلبها بعد ظهر كل يوم وكل منهما تحمل عصاة تنتهي بشبكة مربعة لقتل الذباب.

انني ممتنةٌ للماشية، فقد علّمت ابنتينا الثقة بالنفس وممارسة السلطة بلطف ولكن بفاعلية.

علمنا أننا سنفتقد صديقاتنا القدامى، ولاسيما ديزي. لكننا آسينا أنفسنا بأن صورتها ستظل أبداً على ملصقات لبننا كما على رسائل شركتنا.

## ● عملية كبيرة ●

قيل ان النجاح في العمل مردّه غالبا الى قدرة الفرد على العمل الشاق حتى الضنى، واتكاله على نفسه بشجاعة، وحلمه أموراً مستحيلة. قليلون هم الذين يدركون الدور المهم الذي يؤديه الحظ في هذا المجال. انها حقيقة تراءت لي عندما



ظهر بريان إيفس في بابنا. هذا الرجل يملك مزرعة سمك ومصنعاً لتدخين السمك في مدينة يرموث حيث ينتج بعض أفضل سمك السلمون المدخن في المنطقة.

مشكلة بريان كانت الخسارة. فهو خسر مالا من جراء ما يطرح من فائض السلمون المدخن الغالي الثمن. وصمم على صنع "باتيه" السلمون المدخن، لكنه احتاج الى ما يجعل المسحوق متماسكاً، فكان الاختيار الظاهر جبنة بيضاء طرية مصنوعة من القشدة أو الحليب الكامل الدسم. لكن أشهر الاختبار أدت الى نتائج مريبة. ونشأت الصعوبة الكبرى من الصمغ والاضافات الاخرى التي تستعمل لتكثيف الجبنة الدسمة.

وقرر العدول عن المشروع. لكنه ذات صباح، وهو يتناول طعام الفطور، لاحظ زوجته تدهن خبزها المحمص بمادة غير صمغية. وبدا له أن هذه المادة البيضاء تملك الصفات التي يبحث عنها كوسيلة رابطة.

"ما هذه؟"

فردت زوجته: "آه، انها تدعى جبنة اللبن، من انتاج مزرعة شبه الجزيرة. انا مدمنة هذا الصنف."

وهكذا جاء الى بابي يحمل نماذج من باتيه السلمون المدخن الجديد. كان الانتاج في منتهى البساطة: سلمون مهروس، جبنة اللبن، أعشاب. أما المذاق فكان فاخراً.

أوضح بريان: "انني أرسل سمكي المدخن الى كل المدن الرئيسية في كندا والولايات المتحدة. انها سوقي الكبرى. ولا بد من كسب أموال طائلة في مدن مثل سان فرنسيسكو ولوس انجلس وهيوستن وميامي وبوسطن ونيويورك."

سألت وأنا أشعر بانفعال واثارة: "وماذا في شأن باتيه السلمون؟ أتخطط لارساله الى هناك؟"

– حسناً، من أجل ذلك جئت الى هنا. أأنتم في وضع يمكّنكم من تزويدي كميات وافرة من جبنة اللبن. انني مهتم كثيراً لهذه المادة. ويبدو أن زبائني يريدون ابتياع انتاجي، أعتقد أننا سنعمل جيداً، وربما جيداً جداً. هل يمكنكم معالجة هذا الامر؟"

سأله غوردن مدهوشاً: "أتستطيع الحصول على موافقة رسمية على هذا الانتاج؟ أتعتقد انه سينال بركة دائرة الغذاء والدواء الامريكية وغيرها من الدوائر الفرعية في الولايات المتحدة؟"

– هذا أكيد. لقد بدأت كل الابحاث قبل مجيئي، والبقية عليكم.

نظرت الى غوردن فوجدته ينظر الي. واستغرقنا في الضحك. شرحنا لبريان كم حاربنا للحصول على ترخيص بارسال جبنة اللبن الى الولايات المتحدة وكيف تخبطنا في معركة خاسرة.

سرّنا أن نضيف السلمون المدخّن الى تخطيطنا التجاري، اذ ان "مزرعة شبه الجزيرة" تدعم مربي الماشية وزارعي الفواكه ومنتجي العصير. نحن الآن يمكننا أن نقول اننا منشغلون بكل أصناف الصناعات الغذائية في نوفاسكوشيا. وهذا يشعرنا بأننا جزء من الاقتصاد النامي في منطقتنا المختارة، وبأن مساهمتنا، مهما تكن ضئيلة، وهبتنا

الاحساس بكوننا أعضاء حقيقيين في المجتمع.

قلت لغوردن قبل مدة وجيزة: "من المضحك ان نتوقف ونتأمل ما جرى. فلو أخبرتني، عندما عدت ذلك اليوم الى البيت وانا ألوّح بشهادة الدكتوراه، أنني سأصبح بائعة لبن، لعهدت بك الى مؤسسة للامراض العقلية."

– كل الفضل للبقرة ديزي.

"نعم، ديزي. هل أخبرتك أن صديقي دون باتون بدأ يتكلم عنها في دروسه التجارية في دلهوزي. كتب التجارة تشدد على أهمية تخطيط كل شيء. أما دون فيعلم طلابه أن النمو يكون غالباً بالتكيف مع الاحوال المتغيرة. ويعطي مثلا كيف أن صناعة اللبن نشأت من مشكلتنا حول ما نفعل بالحليب الفائض من بقرة واحدة وحيدة."

قال غوردن: "حسناً، انه على حق."

قلت وأنا أنظر من النافذة الى مصنعنا الصغير الكثير الحركة: "قد يكون ذلك صحيحاً، لكننا خسرنا كثيراً من الوقت والمال في مسيرتنا. وأنت، ماذا عن أحلامك في رياضة الابحار؟ حتى الان ليس لدينا وقت ولا منصة خشبية."

[illegible] غوردن وهو يطوقني بذراعه ونحن نتطلع عبر المروج الخضر الى المحيط المذهب بنور الشمس: "آه، نعم، ولكن لا تنسي أننا اقتنينا حديثا زورق تجذيف جميلا."

**صونيا جونس**

ترجمة السفير هنري أبو فاضل

خاص ١

# المدينة الفاضلة

ملخص من كتاب
بقلم فرانك ستيوارت



# المدينة الفاضلة

**في هذه الاسطورة البهيجة يلجأ الكاتب إلى اختباراته الخاصة في تربية النحل ليدون قصة عن مستعمرة للنحل والنتيجة رواية مثيرة آسرة**

المدينة داخل شجرة البلوط مأهولة بـ٦٠ ألف ساكن مجنح. يغمرها أثناء النهار ضوء باهت شفاف ينشر دفئاً ذهبياً ويتسلل من الثقب، وهو البوابة الرئيسية للمدينة، ومن الشقوق الرفيعة في جانب الجذع الضخم. أجيال متتابعة من النحل ملأت هذه الشقوق بصمغ العكبر(١) الشفاف من أشجار الصنوبر والخوخ. وأصبح هذا الصمغ قاسياً جداً كالزجاج الباهت. كانت أشعة الشمس تخترق العكبر أفقياً أثناء المغيب، وبفعل زاوية عجيبة ينقسم الضوء إلى ألوان الطيف السبعة. ويحدث ذلك خصوصاً بعد عاصفة رعدية. إنه أحد روائع ذاك المكان.

تاخمت شوارع المدينة أقراص معلقة من الشمع الأصفر اللماع. اتخذت تلك الأقراص شكل رفوش وتدلت من مسافات متساوية فاسحة للنحل في المجال للعمل في جانبي القرص من دون أن يعيق بعضه بعضاً. لم تتفاوت المسافات أكثر من ثلاثة مليمترات.

انها مدينة غير عادية. نحن لا نستطيع تكييف الهواء في مدننا، لكن النحل يعدل الحرارة والرطوبة وحتى النسائم التي تهوىء دروب مدينته الذهبية. تصطف "المروِّحات" عند مداخل المدينة وتثبت براثنها في الارض وتصفق أجنحتها بسرعة حتى تكاد تصبح غير مرئية. أما في الخارج فقد تضرب أشعة الشمس الأرض بقوة فيذبل العشب فوق التراب المحترق، وقد يقلب الثلج الكثيف الطبيعة فيسقط الاوراق المسودة عن الاشجار. أما هنا فحرارة المدينة تعادل

(١) العكبر مادة صمغية شمعية يجنيها النحل من براعم الاشجار فيثبت بها النخاريب.

دائما حرارة يوم صيفي حار، والهواء منعش يحمل شذا العسل "المقطوف" من عشرات ألوف الازهار.

لا نفايات ولا أوساخ تتجمع هنا. في منتصف الصيف، تروح ألوف الأقدام الصغيرة وتجيء من دون انقطاع. تنفذ الاعمال بجد وحماسة لا يشهدهما أي عمل بشري، إذ تنقل تلك المجنحات الصغيرة أحمالا ثقيلة وتنجز مهمات مذهلة. يتناثر اللقاح والعسل والغبار والعكبر والماء وفتات الشمع. يُقتل الذباب وتنشب معارك ضارية مع الدبابير فتتطاير الأجنحة والرؤوس والاقدام من هنا وهناك. إنما لا تبقى ذرة واحدة تلوث هذا المكان المثالي.

في جميع الاراضي، داخل الأشجار والكهوف، تنتشر مئات الألوف من هذه المدن الشمعية، وجميعها يتميز بالاتقان نفسه. تؤلف كل مدينة عالماً كاملا زاخراً بالعزم على استمرارية بنات جنسه على رغم الاعداء المفترسين والكوارث الطبيعية الساحقة.

الى الهواء! يصطفق الجناحان الفضيان الصغيران ١٦ ألف مرة في الدقيقة أثناء تحليق النحلة في السماء الربيعية المتوهجة.

للانسان وسائله في الطيران، إلا ان هذه النحلة جزء من الهواء. تمتلىء الاكياس الهوائية في صدرها فتزودها قابلية للطفو. يمكنها أن ترفرف أو تطير الى الوراء أو تتوقف على نحو مفاجىء بعد سرعة ٣٠ كيلومتراً في الساعة أو ترتفع بسرعة هائلة أو تقطع ١١ كيلومتراً من دون توقف.

عالمها الذي تعبره من غير دروب هو في منتهى الجمال. للنحلة خمس عيون ذات قوة وتعقيد عجيبين بالمقارنة مع عيوننا. فالى ثلاث عيون بسيطة في مقدم رأسها، هناك عينان مركبتان(٢) في موقع يماثل موقع عيوننا وتحمل كل منهما ستة آلاف عدسة. لا يستطيع إنسان تخيل الروعة العظيمة التي تشاهدها تلك العيون في صور وألوان يزخر بها يوم ربيعي أو صيفي.

رائحة موطن النحل ساحرة مثل منظره. في زباني النحلة(٣) خمسة آلاف ثقب "أنفي." وبالمقارنة مع حاسة شمنا الضعيفة التي تميز عموماً ما اذا كان ما تحت أنفنا طيباً أو مقرفاً، فإن النحلة تكتشف أريج زهرة تفاح واحدة عن بعد ٧٥٠ متراً.

انطلقت النحلة نحو الوادي عبر الجداول قاصدة الشجرة الذهبية، منتشية بمهمتها الرائعة.

انها شجرة "النخل" كما يسميها أهل القرية، هي نوع من الصفصاف الذي أثقل اللقاح الاصفر براعمه المتفتحة فدعي "خبز النحل." لقد تفتحت أولى البراعم التي تحمل طبقة كثيفة من الغبار الاصفر، نثره الهواء الأرج كالطحين المنخول فمنح الشجرة عطراً مثيراً.

إندفعت النحلة الى أكبر البراعم ونثرت ألف ذرة ذهبية. في قائمتيها الخلفيتين سلال اللقاح الصغيرة المحمية

---

(٢) Compound eyes

(٣) الزباني «antenna» قرن الاستشعار في الحشرة

بالشعر. وموقع هذه السلال ملائم، ولا تؤثر الحمولة الثقيلة على توازن النحلة في طيرانها الدقيق. كانت تمسك ذرور اللقاح اللامعة وتملأ بها سلالها بسرعة، فيعجز المرء عن ملاحقة حركتها بنظره المجرد، ثم تقفز بنهم الى برعم آخر.

إنها النحلة الاولى على تلك الشجرة، والمكتشفة الاولى لهذا المحصول غير المحدود من خبز النحل الجديد. لقد حُمل اللقاح الى المدينة من عشب البيش السام والزعفران وأزهار أخرى، لكنه كان علامة موسم حصاد مقبل. وها هو الحصاد هنا الآن ليؤمن حياة ألوف من النحل لم تولد بعد.

بعدما طفحت السلال أسرعت النحلة الى الفضاء مطلقة أزيزها المبتهج، وعادت الى منزلها في شجرة البلوط متعرجة فوق ٥٠ مرجاً أخضر.

وثبة واسعة أخيرة حطت بها عند مدخل بلاد النحل. وعلى الفور انقضت عليها من الثقب حارستان سوداوان شرستان وصالبتا زبانياتهما أمامها مثلما يصالب الحراس سيوفهم. انها غير متطفلة، بل تحمل الطعام وتميزها رائحة القبيلة الخاصة.

إندفعت حاملة اللقاح الى قلب الشجرة. مرت بسرعة في الطريق الوعرة ثم قفزت إلى قرص عسل متدلٍ وأخذت تفرغ اللقاح باضطراب من السلال في قائمتيها. وبعد التخلص من حمولتها بفارغ صبر بدأت رقصة ذهبية مرحة.

إنها راقصة الباليه الاولى في هذا الربيع والبشيرة بتجدد الحياة. بعث رقصها العنيف وضربات جناحيها المرتعشين أريج اللقاح المثير في أنحاء القفير. رفعت العاملات أبصارهن وسارعن الى خلية اللقاح الجديد. حاولت كثيرات لمس الراقصة بزبانياتها المتشوقة، وخلال دقيقة دبّ الاهتياج في القفير بأسره.

بعد ذلك حدث الفصل الأغرب في تلك العملية. انفصلت بعض "الجانيات" اللواتي يطفن بحثاً عن العلف، عن الراقصات وسارعن الى المدخل منطلقات مباشرة إلى شجرة "النخل" في الوادي البعيد.

لقد أعلنت حاملة اللقاح مصدر كنزها أثناء رقصها المبتهج بين أقراص العسل.

بعد وقت وجيز تدافع فيض من النحل تحت أشعة الشمس الى الشجرة الذهبية. كانت كل نحلة تعود محملة وتندفع الى خلية تلي الخلية المملوءة باللقاح الاول وتكرر بحرص ما فعلته البشيرة الاولى. وبعد ساعة اكتملت رقصة "خبز النحل." أفواج من النحل تمايلت وانحنت، دارت وأفرغت حمولتها، ثم عبرت مصفقة بأجنحتها الفضية. كانت شجرة البلوط تهمهم وجميع الأجهزة تعمل في الموطن الساحر داخلها. فالصوت يفصح عن سعادة وإنجاز عظيمين، ومن يسمعه لن ينساه أبداً.

## عسر الأوان

أمضت الحارسات نهارهن غاضبات وعصبيات فوق العادة. كن يمسكن النحلات القادمات بعنف ويطرحنهن داخل شجرة البلوط. وما لبث هذا المزاج

العصبي أن تفشّى في طرق المدينة.

ارتفعت الهمهمة في المدينة الشمعية. دخلت حشود العاملات، بعضهن مزود نصف حمولة والبعض الآخر خالٍ. كانت تحركاتهن مرتعشة مذعورة خرقاء. ضربن رؤوسهن على الاقراص وانغمس بعضهن بوحشية في أوعية العسل المفتوحة وبدأن ملء جيوبهن بالحمولة للهرب بها في حال وقوع كارثة مهلكة على المدينة. ضاعفت المروّحات في المداخل جهدهن للتخلص من الحرارة الزائدة المنبعثة من الاجساد الخائفة.

في الخارج كان الهواء كثيفاً وقد ازداد حرارة ورطوبة. فجأة انهمرت رماح المطر الفضية، تبعتها ريح ساخنة ثم هدير رعد. آنذاك تحول اضطراب النحل ذهولا. فبعدما كن يرغين ويزبدن فوق الاقراص توقفن وربضن بسكون.

بقين على هذه الحال طوال العاصفة، كأنهن ينتظرن الاذن بالتنفس من جديد، إلى أن تبدد المطر وابتعدت العاصفة بعد طول انتظار.

سطعت بقعة من أشعة الشمس كعباءة ذهبية عند أسفل الشجرة، ورمى قوس قزح وشاحه السباعي الالوان رابطاً أطراف السماء. وتحت تأثير سحر لا يقاوم، تدافع النحل الى المدخل وتدفق كالدبس اللامع الى تلك الفسحة في الغابة. أغرب ما في الامر هو الصمت المطبق الذي ساد المكان، لا همهمة ولا رفرفة جناح. احتشد النحل هناك محدقاً الى جسر الالوان المذهل.

تلاشى المنظر تدريجاً وظهرت بقع زرقاء في السماء بين الغيوم الرمادية المتفرقة. عاد النحل الى المدينة وبدأ طنينه من جديد، ولكن على نحو أكثر هدوءاً هذه المرة. ومع هبوط المساء بظلاله الطويلة، تحولت الاصوات همهمة خافتة.

هل أثّرت عظمة قوس قزح في حشود النحل؟ أهو منظر لا تحتمل روعته حاسة الالوان عندها؟

على مقربة من وسط البلوطة القديمة تدلى "عنقود" من النحل الصغير في فسحة خالية بحجم يد انسان. هن الحاضنات السابقات يعبّرن اليوم عن احتقارهن لذاك العمل في أغانيهن الخفيضة وفي هالة من الانعزال حولهن احترمتها العاملات والحاضنات والحارسات وحتى الملكة نفسها.

للمرة الاولى تبذل أولئك الصغيرات أقصى جهدهن في مهمة مرهقة وحيوية تضاهي دور الملكة. هن صانعات الشمع، العاملات الصغيرات اللواتي يتفردن بالقدرة على صنع الشمع الذهبي الذي من دونه لا وجود للمدينة.

تحضيراً لمهمتهن البارزة التي ستتسبب في هلاك بعضهن، التهمن أفضل العسل الى التخمة، إذ ان صنع نصف كيلوغرام من الشمع يتطلب أكل ما يراوح بين ثلاثة كيلوغرامات وسبعة من العسل.

كبسن بشدة طوال ساعات، تدفعهن رغبة مضطربة مشتركة، إلى ان ارتفعت حرارة تلك المجموعة عن حرارة بقية أنحاء المدينة. وتدريجاً، في كل واحدة من

النحلات الملتصقات، بدأت القشور البطنية التي تحمي الغشاء الدقيق الذي يفرز الشمع تعلو وتهبط في موجات متواترة قصيرة. أخيراً بانفعال ملحوظ غمر الصانعات المنفردات، بدأن يخرجن قشوراً صغيرة كالتوباز شديدة الرقة والخفة الى حد أن ١٠٠ قشرة تزن أقل من حبة قمح.

وللحال شرعت أولئك البانيات البارعات في صنع قرص شمع من الذهب الحي الذي فرزته. بدأن تشكيل الضلع الاوسط العمودي، ثم خلايا متحدرة من كل جانب كي لا يتسرب العسل الذي سيحفظ فيها. بدت كل خلية سداسية تحفة فنية رائعة وقد صقلت ولمعت أربع منها في كل سنتيمتر مربع كالرخام الاصفر.

حملت بعض صانعات الشمع تحفتهن إلى مكان آخر من المدينة في مأمن من الخطر والبرد المفاجىء. هناك تدلت من الاقراص خلايا الملكة الجديدة مثل كشاتبين ذهبية حادة. كانت جميع الخلايات متشابهة، جدرانها منحنية وملساء كالاطلس وقد نقشت على جوانبها ألغاز مثل خطوط عربية.

داخل الجدران اللماعة لهذه الهياكل التي تعلو ٢٥ مليمتراً ستضع الملكة بيضة لا تختلف عن البيض المحفوظ في خلايا العاملات. ولو أخرجت هذه البيضة ووضعت في خلية للعاملات، فستخرج منها أنثى عقيمة صغيرة بعد ٢٢ يوماً. أما هنا ضمن الجدران العالية والمفاتن الساحرة في الخلية الملكية، فستخرج بعد ١٦ يوماً كائنة جنسية تنعم بحياة طويلة وقادرة على ولادة اكثر من مليون كائن.

يدهن الهيكل قبل إغلاقه بأغرب مادة فاخرة في عالم النحل. إنه الهلام الملكي الذي يتحدى كل التحليلات. إن أكلته ساكنة الخلية الجديدة أو أي يرقة عاملة، فسيحولها ملكة شرط وضعه داخل خلية ملكية مناسبة تحمل جدرانها العلامات القبلية الغريبة.

أخيراً حان الوقت كي تحل الملكة القديمة السحر الذي منحها السلطة في هذه المملكة جيلا بعد جيل. لقد أصبحت المدينة مكتظة بالسكان. وفي الضوء الذهبي الباهت داخل كل هيكل مغلق تتم عملية النمو العجائبية. وخلال ساعات قليلة ستنبثق ملكة جديدة. سيهاجر نصف السكان، أي نحو ٣٠ ألف نحلة، مع الملكة القديمة إلى مقر جديد.

أثناء مرورها البطيء للمرة الاخيرة عبر طرق المدينة، فاتحة جناحيها اللذين ظلا مكتفين طوال سنوات، وثبت صانعات الشمع فجأة من أمكنتهن لمواكبة الجماعة الراحلة الى بوابات المدينة. لم تبقَ صانعة شمع واحدة. ربما قادتهن حكمة غريزية. ولكن قبل اتخاذ أي خطوة نحو المدينة الجديدة، على الصانعات تخطيط الجدران والبيوت والمهود ومخازن الطعام.

في الليلة نفسها في المدينة القديمة داخل شجرة البلوط تحرك شيء ما في أقدم هيكل. وفوق أزيز المروّحات المتواصل ارتفع صوت جديد حاد وملح. وللحال تلاشت كل الاصوات وانتظر النحل من دون حركة في ضوء القمر الباهت. ثم

انفتح غطاء الهيكل الذهبي في دائرة كاملة وارتفع ببطء بعدما تمزق سداده، وظهرت مخلوقة مشعة مكتملة النمو وجناحاها الوضاءان مطويان خلفها.

بعد لحظات اختفت بين الاقراص غامسة رأسها في خلايا العسل كأنها تغرف عزماً وتصميماً لدورها الجديد. وبعد أقل من عشر دقائق أسرعت نحو إحدى الطرق الذهبية متمتمة من جديد ذاك النغم الثاقب المتحدي. وقفت أمام الهيكل الملكي التالي وخرقت الغطاء بقسوة ومزقت رأس أختها الحية.

نفذت عملا مماثلا في كل هيكل. لقد أثبتت حقها بالملكية منذ ولادتها ولن تبقي على أي أميرة أخرى تنازعها على السلطة. وكلما فتحت الملكة هيكلا ونفذت مهمتها الشنيعة، دخلت العاملات يفتتن الجدران الفخمة ويرفعن الأنقاض ويزلن الاشلاء ويمهدن أرض الهيكل.

إنقضت أيام وليال. ساعة تلو ساعة من دون نوم جالت الاميرة الجديدة في المدينة مستكشفة تخومها النائية. أخيراً استدارت نحو المداخل بشوق موحية للجميع باقتراب ساعتها، ونفخت صدرها بسرعة مفاجئة وانطلقت كشعاع نور نحو الشمس. كانت تعلو وتهبط في قوس واسع مما أثار ذكور النحل في الأسفل. رفعوا أجنحتهم فوق أكتافهم وفي ثوانٍ أسرعوا وراءها في مطاردة ضارية.

اتجهوا نحو العلاء بسرعة متزايدة من دون تراجع. لكن قلوب أولئك المطاردين انسحقت واحداً تلو الآخر، فداروا وهبطوا عمودياً. لقد انطلق مئات من ذكور النحل، لكن قلة مُنحت نعمة ضمان ديمومة الآخرين على حساب حياتهم الخاصة.

أخيراً اندفعت الانثى بعنف نحو الارض مخلفة طالبيها أشلاء. ثم أسرعت من دون تردد الى الفسحة خارج بوابات المدينة.

وللمرة الأولى جمدت الحارسات في أماكنهن ورفعن زبانياتهن في تحية ملكية. عندذاك تفجرت موجة ابتهاج عارمة في انحاء المدينة من دون أن يعي أحد السبب. توقفت جميع الأعمال وتمايل السكان في الشوارع كالحشود الصاخبة أيام الأعياد راقصين في كل مكان. تدافعت العاملات والحاضنات الى المداخل وأحطن بسيدتهن الجديدة ورفعنها فوق الأكتاف برفق مطلق وأدخلنها المدينة.

منذ الآن تستطيع التحكم بالمستقبل. ومع تحريك عضلة واحدة تستطيع إنجاب أكثر من مليون عاملة، وذكور وملكات مثلها اذا شاءت.

## حصاد العسل

كان محصول البرسيم وافراً تلك السنة مغلفاً جانب التل بوشاح أبيض كالمن. في المروج غير المجزوزة طالت سيقانه وترجحت رؤوسه الهشة بين الأعشاب المتعانقة، وخلف آلة الجز وأزيزها انتفض من جديد مرصعاً الارض كالثلج في يوم مشمس.

إنه منتصف الصيف، موعد قطف النحل غلاله. كانت كل نحلة تغادر المدينة لتجمع حمولتها من الرحيق فتزور أكثر من مئة زهرة برسيم قبل أن تعود. كل حمولة تعادل ثلث قطرة. لكنها تحتوي على ما يراوح بين ٥٠ و٨٠ في المئة ماء، أي ان

وزن الرحيق يفوق وزن العسل المنتج أربعة أضعاف.

وعلى رغم ذلك، فمن أجل استمرار الحياة في مدينة النحل ينبغي جمع أكثر من ٢٠٠ كيلوغرام من العسل بين أبريل (نيسان) وسبتمبر (أيلول): ثلث قطرة من رحيق مئات الازهار كل مرة.

## أسراب الغزو

لمعت نحلة سوداء تحت الشمس خارج شجرة البلوط فهاجمتها الحـارسات. حاولت الفرار لكنها طوّقت بعد لحظات ومزق جناحاها ورأسها. وحملت الحارسات أشلاءها إلى المنصة النيّرة أمام المدخل. هناك مددت الجيفة السوداء تحذيراً للصوص.

بعد فترة وجيزة أمسكت حارسة منفردة مستكشفة سوداء أخرى على جذع الشجرة أثناء جولتها الليلية. وفي اليوم التالي ظهرت "دورية" سوداء مؤلفة من ثلاث نحلات مقاتلات حلّقن جنباً الى جنب. سحقت المعتديات بسهولة بالغة حارسة اعترضت طريقهن، واندفعن الى مدخل المدينة واختفين بين الاقراص.

شقت السارقات طريقهن ببراعة بين حشد من النحلات الصغيرات المنذهلات وملأن جيوبهن عسلا بخفة، ثم اندفعن إلى بـوابات المـدينـة. إكتشفت إحدى الحاضنات أمرهن واستدارت لمطاردتهن، وفي برهة قصيرة أطلقت مئات النحلات صيحات المطاردة. لكن الاوان فات، وفرّت إحدى السارقات متملصة من الأعداد المهاجمة وأطلقت أزيزها مسرعة نحو الغابة واختفت عن الانظار.

دب الاضطراب في المدينة. توقفت جميع الأعمال ما عدا مهمات الحاضنات. احتشدت الافواج المقاتلة عند المداخل. الحذر ضروري، إذ ان فرار مستكشف واحد يليه غزو محتم.

طارت السارقة حوالى ٨٠٠ متر في الوادي إلى خلية من القش هي مدينة النحل الأسود. ساكناتـهـا محاربـات شديدات مخيفات. وحالما شممن رائحة الحلوى المسروقة اصطفت مجموعة منهن خلف قائدتهن متمايلات بـأجسادهن ومرفرفات بأجنحتهن في رقصة الحرب.

خلال خمس دقائق انطلقت ٣٠ ألف سارقة في أسراب متقاربة كأسطول جوي في طريقه إلى ساحة القتال. وفي غارة تدريبية قبل الوصول إلى المدينة الذهبية انقضت على قفير صغير حديث الانشاء في إحدى الحدائق.

طوّق النحل المهاجم الحارسات بأعداد وفيرة وشق طريقه إلى الداخل. لم تحدث أي معركة، بل ارتكبت مجزرة وحشية. ذهلت المقاومات وثبطت همتهن إذ فاقتهن المهاجمات عدداً خمسة أضعاف، فتوقفن عن القتال فور بدئه.

تلا ذلك حدث غريب. اكتفت النحلات المنتصرات قتلا ووحشية ومددن ألسنتهن لاعقات الأجساد المنكمشة المتألمة. وفي ذلك الحين انتفضت النحلات المنهزمات وانضممت الى اعدائهن متجاهلات كل المبادىء وغمسن رؤوسهن في خلايا العسل ناهبات ممتلكاتهن الخاصة.

خلال دقائق ارتفع النحل الاسود في الفضاء معززّاً بألوف النحلات الخائنات من القفير المغتصب. ملأ بطونه بالعسل

المسلوب، ومع ذلك فمتى بدأ النحل الحرب والوحشية فانه لا يقدر على التوقف.

على أي حال لن يواجه جيوشاً هذه المرة. بينما كانت الحارسات يرحن ويجئن أمام الأفواج المحتشدة، اقتحمت المهاجمات، كعاصفة ثلجية، المداخل الرئيسية وكل شق وصدع يؤدي إلى المدينة. استولت على المداخل في انقضاضها الاول، ثم اكتسحت المدينة متكبدة خسائر باهظة.

سحقت من دون رحمة كل كائن حي في طريقها إلى الاقراص. وبعد وقت وجيز اكتست الارض سنتيمترات من الاجساد المصابة والنافقة. لكن المهاجمات لم يتمكنّ من خرق خط الدفاع الاخير. ربما شتتهن انهماكهن الزائد في التهام العسل وملء جيوبهن، فكان جشعهن سبب هلاكهن. عُززت صفوف المدافعات الذهبيات بفرق جديدة مما زاد الضغط على النحل الاسود، فأجبرته المدافعات الباسلات على التراجع وحولته خرقاً ممزقة. بدأت الجماعات الذهبية تتدفق من الثغرة.

إلا ان اضطراباً نشأ في قسم جديد من أرض المعركة. إنطلق فريق احتياطي من النحل الاسود وشق طريقه عبر تخوم العكبر حيث يبعث قوس قزح ألوانه إلى المدينة الذهبية عند المغيب، وتجمع وراء مركز الدفاع الأساسي في محاولة هجوم ضارية للوصول إلى الملكة.

ضيقت حارسات الملكة طوق الحماية. ولكن لم يكن من حاجة الى ذلك. فعندما بدأ النحل الاسود يتقدم تصدت له حارسة جرداء شنيعة يدعمها من الخلف فريق من المحاربات المنتخبات. وفي لحظات تلاشت آمال المهاجمات ووقعن في الشرك من دون أن تنجو واحدة منهن.

قامت المجازر في جماعات النحل الاسود المتفكك وحولته أعمال الثأر أشلاء. لا شيء يوقف التيار العارم من الوحشية عند النحل الأصفر. رميت المهاجمات في الفسحة الخارجية، واستمرت المعركة الى أن أبيدت الجماعة السوداء كأنها لم تكن.

لم تفرّ مهاجمة واحدة. لقد سحقت الجماعة السوداء ولا بد من انقراضها خلال شهر لانخفاض أعدادها. لكن المعركة التي دامت ساعتين أوقعت ٥٠ ألف "قتيلة"، ونصف مجموع هذه الضحايا ينتمي إلى "المدينة الذهبية."

## صغار من طبشور

فور انتهاء المعارك ضاعفت الملكة نشاطها واضعة مئات البيوض كل يوم تلبية للحاجة الملحة إلى المزيد من السكان قبل حلول الطقس البارد. في هذه الاثناء ثابرت الحاضنات على عملهن المتواصل في إطعام كل يرقة نحو ١٣٠٠ وجبة يومياً، أي بمعدل وجبة واحدة كل دقيقة في ٢٤ ساعة.

في هذا الفصل زهّر الخلنج باعثاً عطره الحلو - المر الذي جذب ألوف النحلات فأضافت الى حصاد الصيف أقراصاً شهية من عسل الخلنج الكهرماني مما فاض عن معدل استهلاك القفير في الشتاء. اجتهدت صانعات الشمع في العمل على هذه الاقراص مغلقة كل خلية بغطاء من

الشمع. وقبل ذلك بخّرت المروّحات الماء الزائد في العسل مما يحفظه في حال جيدة.

بعد ذلك في دفء شمس الخريف، حين بدت كل الامور مستقرة، تسلل الى البلوطة القديمة شبح خفي.

علمت الحاضنات بأمره أولا. فأثناء تجوالهن بين خلايا الحضانة استوقفتهن همهمة مفاجئة في إحداهـا. كانت الحاضنة تلعق بانفعال يرقة صغيرة يبس جسدها وتحولت تقاسيمهـا البيضاء اللامعة مادة طبشورية صلبة. وفي وقت وجيز أعلنت الحاضنات وقوع إصابات مماثلة.

حوادث النفوق بين الصغار تبعث الرعب في النحل كله. انه يواجه بشجاعة قصوى أي مرض يصيب النحل المكتمل النمو، لكن نفوق الصغار يطعن قلب الجماعة بكاملها ويبرّد حماسة العمل ورغبة الدفاع كما يقصّر عمر الجماعة إلى أشهر أو أسابيع.

أخيراً شكلت الحاضنات وفداً للذهاب إلى الملكة. وبدافع غريزي مشترك انحنين وتمتمن مشيرات الى رفيقاتهن باللحاق بهن، واتجهن نحو ابواب المدينة ثم انطلقن متلاصقات الى أعمق نواحي غابة البلوط حيث نمت الاشجار ثخينة وكثيرة العقد. فجأة التففن في دائرة واسعة مثل سلك أسود واندفعن الى بقعة باهتة الزرقة تحت حلقة من أشجار البلوط.

هذه البقعة الزرقاء هي امتداد جذور شجرة يحمل عنقها مئات الزهيرات الارجوانية.

تحلق النحل فوق الزهرات جامعاً باضطراب الرحيق الباهت ثم أسرع الى البلوطة وأفرغ حمولته في القرص حيث تعمل الملكة.

قبل أن تمتلىء الخلية الاولى إقتربت خادمات الملكة وحملن المادة الحادة بحذر على ألسنتهن وقدمنها إلى سيدتهن.

ترددت الملكة مفكّرة. لكن رائحتها بددت كل الشكوك. هي التي اعتادت رشف الطعام بتأن أكبت على هذه التقدمة بتلهف المدمن. وأخيراً ربضت بسكون وعيناها الكبيرتان جاحظتان في يقظة مخدرة.

بعد نحو ساعة نهضت الملكة فسارعت خادماتها الى إطعامها ثانية. لكنها رفضت العسل بقرف هذه المرة. سارت بين الأقراص عابرة وسط المدينة إلى أقصاها حيث أقراص الحضانة. هناك بدأت وضع البيض من جديد.

في الايام التالية نفقت مئتا يرقة وتحولت طبشوراً. ثم توقفت هذه الظاهرة فجأة. ان تلك المأدبة الهائلة من العسل المر شفت الملكة من مرضها. لم تدرك كيف حدث ذلك ولماذا، الا أنها تضع الآن بيضاً ينتج يرقات طبيعية لؤلؤية ومعافاة كالسابق.

## [illegible]

سطعت ثلوج الخريف الأولى على الأوراق الذابلة التي غطت أرض الغابة. في الجولات الفرحة في دفء النهار راقب النحل بقية الكائنات وهي تتحضر لفصل الشتاء. لجأت الخفافيش إلى ثقوب الاشجار بعدما اختفى قوتها من الحشرات

وتدلت هناك في نوم الشتاء. استقرت الضفادع في الوحول بجلال ووقار. بحث السمندل عن حجار باردة رطبة لينام تحتها طوال الفصل البارد. ونسجت العناكب أغطية حرير دافئة.

مع اقتراب الخريف خفف النحل من جولاته في الهواء الطلق. طغى النعاس على المدينة وتحولت جلبة العمل طنيناً خافتاً ومريحاً. تلاشت الحركة النشطة في الشوارع الذهبية وتنقل النحل ببلادة بعدما ترك الاقراص المعنقدة. ولدى مروره قرب المداخل وقف طويلا نعساً في الشمس ثم طار بكسل مقتصداً في تحريك أجنحته.

أخيراً أتى صباح اختبأت فيه شمس الخريف وراء الغيوم. أصبح الطقس بارداً والسماء رمادية والاوراق باهتة. لم تتسلل نحلة واحدة ذاك النهار.

بعد الظهر قام مجتاح غريب باستطلاع صامت حول الجدران الخارجية للمدينة. تسلل فأر بين أعناق الأعشاب في أسفل شجرة البلوط ورفع رأسه محدقاً بعينين مشعتين ثاقبتين. بقي هناك من دون حركة مدة طويلة وقد تجعّد أنفه قليلا وهو يشتم رائحة الخطر في الهواء. ثم وثب بخفة فوق جذع البلوطة ووقف عند مدخل مدينة النحل. جمد ثانية من دون حراك. انتصبت أذناه الزهريتان مصغيتين الى الهمهمة الخافتة البعيدة. لو طرأ أي تغيير على ذاك النغم لرمى نفسه الى الارض هارباً. ارتعش شارباه بشهية لرائحة العسل الذكية الجذابة.

مع ذلك لم تكن السرقة الحافز الوحيد لذاك المخلوق الصغير. كان يبغي السبات مثل النحل لكنه بدد أيام الصيف والخريف لاهياً من دون تفكير في الشتاء. وقد برد الطقس الآن وبات متعذراً بناء ملجأ خارجاً بعدما نفدت كل أشجار الجوز. يجب تدبر المأوى والقوت على حساب الآخرين.

وكومضة حمراء اندفع الفأر الى مدخل المدينة. قضم حواجز الشمع وفتح ممراً ضيقاً وأقحم جسمه تحت أقراص العسل.

رأى فوقه عشرات الالوف من عناقيد النحل النائمة، وفيما هو يراقبها انكمشت قليلا بعيداً عنه. ربض الفأر جائعاً مسنداً مخالبه الأمامية الى أسفل القرص. وأخذ يذوق العسل بتأن.

تفحص الفأر كل زاوية في القسم الأسفل من المدينة لاختيار مأواه. وبوثبة جعلت النحل ينكمش، استدار خارجاً.

عاد بعد نصف ساعة مع أنثى صغيرة. غالباً ما تدخل الفئران مستعمرات النحل ناحلة ثم تعجز عن الخروج من حيث دخلت لاكتسابها سمنة، فتعلق في الشرك عدة أسابيع من فصل الربيع. كانت الأنثى الجشعة تصئي بنهم وهي تلتهم العسل فيما حاول شريكها الوصول الى كومة من اللقاح العطر تبعد بضعة سنتيمترات عن القرص الأوسط.

كان تحركه مشؤوماً. لو اكتفى الفازيان بما طاولته قوائمهما إلى أن يحل الطقس البارد لانكمش النحل بعضه على بعض مبتعداً يوماً بعد يوم ومنغمساً في نشوة السبات على رغم إقلاقه المستمر. كان في وسع الفأرين التهام الاقراص وابادتها قرصاً بعد قرص فتنتهي قصة مدينة النحل مع مستهل الربيع وتنشأ فوق الانقاض عائلة من الفئران السمينة.

ولكن صادف أن وجهة تحرك الفأر كانت نحو جلالة الملكة مباشرة، فانقضت عليه ألوف النحل بزمجرة انتقامية. ووقع الفأر متلوياً بذعر فيما وخزته المهاجمات السامات في كل انحائه. تململ متألماً وزحف ثلاثة سنتيمترات أو أربعة نحو المدخل بادياً كوسادة دبابيس تحمل أكياساً بيضاء من السم. وكاد يصل الى الباب لو لم تسارع رفيقته الى النجاة وترفسه بقائمتيها الخلفيتين هاربة، فتدحرج فوق حشد من النحل وهناك تلقى الضربة القاضية.

إهتاجت المدينة بأسرها على رغم النسمة الباردة عند ذلك المغيب. اتجهت مئات النحل الى المداخل مستكشفة الأضرار، إلا أن ترميم الدمار كان مستحيلا، وعليها انتظار نهار دافىء يسمح بجمع العكبر لأن الشمع لا يصنع في برد الخريف. وجالت أخريات بوحشية حول الضحية التي مددت عند المدخل على جنبها كاشفة عن بطن ناصع البياض وظهر أحمر قاتم.

هناك انطرحت الجيفة يومين. ولاحقاً، تحت الشمس الساطعة في أواخر الخريف، أسرعت ألوف النحل مرفرفة كما لو أنه أوج الصيف، وابتعدت أسراباً وكتائب باحثة عن العكبر.

عادت خلال النهار بكميات كبيرة من العكبر. وغُلّفت جيفة الفأر بكفن صقيل شفاف رائع. بهذه الطريقة حفظت من الفساد وحصرت رائحتها النتنة التي إذا ما انتشرت قضت على النحل جميعاً.

مُدد الجسد الصغير هناك طوال سنوات. وكلما تشقق العكبر أو تفتت أصلحه النحل للحال. بدا الفأر نائماً بسلام لولا آثار الوخز السام في جنبه ورأسه.

في ذلك الشتاء أمسك البرد القارس الأرض في قبضته الحديد. وفي النهاية، مع ارتفاع بطيء في درجات الحرارة، ذابت الثلوج تحت الشمس الساطعة. نمت البراعم على الاشجار والنباتات. راقبت كبيرات السن من النحل حشداً نشطاً خارجاً من أقراص الحضانة الدائمة العطاء. كانت الملكة بينهن، لكن عدد اللواتي حاربن وعملن لكي تحمل هي شعلة الحياة في الظلمة تناقص تدريجاً فلم تبق منهن الا واحدة.

تلك الناجية الاخيرة، حاملة ذكريات الأيام الغابرة، تقدمت ببطء الى مدخل المدينة ثم شقت طريقها إلى السماء المشمسة. بحثت عن شيء ما، عن زهرة أو عسل جديد من أفضل ما صنع أو سيصنع.

تعبت بعد بضع مئات من الامتار. لكن عينيها ما فتئتا تنعمان النظر الى كل لون وشكل. وبعد تحديق طويل ظهرت نجمة ذهبية مختبئة في أسفل سياج الشجيرات. تعرّفت اليها فوراً، فهي كانت تبحث عنها. وبامتنان جزيل انزلقت داخل زهرة الهندباء.

نفخت ريح لطيفة في القصب عند ضفة النهر. في تلك اللحظة سقطت النحلة العجوز ناسية حمّى الحياة اللاهبة ومتحدة مع غطاء الغابات الأزلي. وعلى نغمة تلك النسمة ذاتها ارتعشت ألوف المولودات في المدينة الذهبية تحت أنوار حياة جديدة.

**فرنك ستيوارت**

ترجمة أسنسيون فيصل

خاص ٢

## في هذه اليوميات المؤثرة يروي أحد الآباء قصة ابنته ويسرد المخاوف والآمال والمباهج التي يختبرها والدان يرزقان طفلا قبل الاوان

اول ما يلفت نظري في جناح التوليد صندوق زجاجي على دواليب. انه محضن نقال مليء بالانابيب والحبال. ما ان يرى طفلنا النور سيوضع في ذلك المحضن وينقل على جناح السرعة الى قسم "العناية الفائقة" في عيادة خاصة بالاطفال الخديجين(١) في همبورغ - فاندسبك التي تبعد ستة كيلومترات. عيناي مسمّرتان بهلع على ذلك الباب الابيض المغلق على زوجتي التي كانت

(١) الخديج هو الطفل الذي يولد قبل تمام الايام.



كاترينا في شهرها الثاني عشر.

Photo: Sybil Schneider

في تلك اللحظة تضع مولودنا المنتظر. فجأة يتناهى الى سمعي عويل في غاية الرقة. إنها الصرخة الاولى لطفلنا!

تهرع اليّ إحدى الممرضات قائلة: "مبروك! إنها فتاة." بعد ذلك يتعلق نظري بطبيبة شابة تحمل بين يديها رزمة صغيرة ملفوفة في رقاقة من الالمنيوم وتتجه مسرعة نحو المحضن. تلك الرزمة كانت إبنتي: حفنة بشرية صغيرة يبلغ طولها ٣٧ سنتيمتراً ووزنها ١٠٤٠ غراماً. يغمرني شعور بالخوف وأحدق الى الرزمة الصغيرة. إنها تذكرني بعصفور منتوف وقع من العش قبل الاوان. تنهمر دموعي على خدي. تريد الطبيبة أن تعرف ما بي وتطمئنني: "طفلتك حية ترزق، ورقاقة الالمنيوم هذه ستساعدها على الاحتفاظ بحرارتها."

تنحني الطبيبة فوق المحضن وتنزل فيه ابنتي. ولا تلبث أن تعلّق بالجسد الصغير أربعة أقطاب كهربائية وظيفتها ضبط نشاط القلب ومستوى الاوكسيجين في الدم. وتتابع عملها. انها الآن تدخل أنبوباً رفيعاً متصلا بجهاز للتنفس في أحد منخري ابنتنا وصولا الى الرئتين. انتهت الطبيبة من عملها. ابنتي الآن في سيارة الاسعاف.

زوجتي بترا تبتسم لي بوهن وتقول بفرح: "انها فتاة."

غاب عن بالها الخطر الذي كان يحوق ابنتنا في تلك اللحظة.

**٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٢.** كانت أمنية بترا طوال السنوات السبع الاخيرة أن تُرزق طفلا. وهي الآن في الشهر السادس من الحمل. وستذهب اليوم الى المستشفى لوضع الترتيبات اللازمة من اجل الولادة. ان هذا إجراء عادي.

وكان طبيب التوليد اكد لنا أن طفلنا سيكون طبيعياً. وهو طمأننا: "كل شيء على ما يرام: وضعه داخل الرحم، حجمه، ضربات قلبه، قطر رأسه ستة سنتيمترات، كل شيء جيد." كما أرانا صورة للجنين مأخوذة بالتصوير الصوتي(٢) وهي تقنية تظهر الجنين داخل الرحم على شاشة خاصة. وبما أن هذا الفحص المهم لا يتضمن استخدام الاشعة السينية (إكس) فانه مأمون بالنسبة الى الأم والطفل وتمكن إعادته عند الاقتضاء وبحسب مشيئة الوالدين. ولقد أظهرت الصورة طفلنا متكوماً داخل السلى(٣) وابهامه اليمنى في فمه.

زوجتي تنتظر الطفل بفرح، أما أنا فيساورني شك. ربما كنت وزوجتي كبيرين في السن لانجاب طفل. فهي في الثالثة والثلاثين من عمرها وأنا في التاسعة والاربعين.

**١١،٣٠ قبل الظهر.** تلقيت في المكتب مكالمة هاتفية من زوجتي. كانت تلهث وقالت لي: "كلاوس، لقد بدأ المخاض. الطفل في الطريق. يجب أن أنقل الآن الى غرفة التوليد. أسرع وأحضر لي فرشاة أسنان وبضعة قمصان نوم." سمعتها تبكي وتصبب مني عرق بارد.

(٢) Ultrasound
(٣) السلى (amnion)



طفل بعد ستة أشهر من الحمل؟ سيسقط لا محالة.

هرعت الى البيت وجمعت بعض الاشياء بغير ترتيب. حملت فرشاة أسنان كما أوصتني زوجتي وبعض ادوات الزينة ودبابيس شعر ومبرد أظافير. يا الهي، بماذا أوصتني أيضاً؟

كانت بترا عندما وصلت الى المستشفى مستلقية في سرير ابيض ووجهها شاحب على نحو مريع. قرب سريرها رأيت صندوقاً في حجم ثلاجة منزلية. إنه مرقاب لتقلصات الرحم يرسل أصواتاً منبهة. الاصوات المتسارعة كانت لضربات قلب الجنين، اما الأبطأ فكانت لضربات قلب زوجتي.

قلم الكتروني يروح ويجيء على لفّة من

**في السن الرابعة لا فرق بين كاترينا وأي طفلة أخرى من جيلها ولدت في الموعد الصحيح.**

ورق التصوير راسماً خطوطاً: الخطوط المستقيمة تشير الى غياب الطلق، أما "المخربشة" فتشير الى حدوثه. وهذه تظهر على الورقة كل ٢٠ دقيقة.

أعطيت بترا دواء لوقف الطلق.

"هل هناك امل؟" سألت البروفسور إرنست هيكل، وهو الطبيب الذي اكتشف أن غشاء السلى بدأ يخرج من الرحم. فأجابني أن الاطباء يبذلون قصاراهم ليوقفوا المخاض. وأضاف أن بترا لو لم تأتِ اليه في ذلك اليوم من أجل الفحص لكانت أسقطت الجنين في المنزل.

**٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) .** ما زالت زوجتي لليوم الثاني في غرفة جانبية قرب قاعة الولادة. آلام الطلق لم تبارحها، وبدت على وشك الانهيار. اقتربت منها وتمتمت كلاماً لم استطع انهاءه. قلت لها: "ان أنت خسرت هذا الطفل، فأعدك بأن..." ولم أكمل الجملة.

كم مرة في الماضي رفضتُ فكرة انجاب طفل! ومرّت السنوات وكبرت زوجتي وربما باتت كبيرة على الانجاب. ضغطت يدي وقالت: "انني أريد هذا الطفل!"

**٨٠٠ صباحاً .** في البدء لم نلاحظ أن المرقاب لم يعد يعطي خطوطاً متعرجة وأنه لاكثر من ساعة لم يظهر على الورقة سوى خطوط مستقيمة. لقد توقف الطلق!

نُقلت بترا الى غرفة أخرى فيها سريران. وأشار عليها الطبيب أن تستلقي على ظهرها وحوضها مرفوع على

Photo: Wolfgang Jortzik

وسادة، وهو وضع يزيد تدفق الدم الى الدماغ ويسبب آلاماً مبرحة في الرأس. والهدف من هذا الإجراء اعادة غشاء السلى الى الرحم.

ظلت زوجتي في هذا الوضع تسعة ايام بلياليها. وكانت تسجل، والخوف يملأ قلبها، كل حركة يأتيها الجنين.

٤ ديسمبر (كانون الاول) الساعة ٨،١٤ مساء. غداً صباحاً تخرج بترا من المستشفى. جلست على حافة سريرها والسرور يغمرني. أمسكت يدها ورحنا نشاهد نشرة الاخبار في التلفزيون. فجأة تشنجت وقالت وهي تئن: "إنه المخاض من جديد." وعندما أخطرنا الطبيب المسؤول عن الجناح قرّر أن ينقلها فوراً الى غرفة التوليد. يا الهي، هل ضاع كل شيء؟

٨،٢٢ مساء. أخضعت بترا في غرفة التوليد لفحص بواسطة آلة صوتية تُظهر الخطوط الخارجية للجنين. "وضعه جيد،" قال لنا الطبيب مطمئناً. الا أنه أعلن أن المخاض لم يعد قابلا للتوقف، وجنيننا مصرّ على ان يولد وعمره ستة أشهر وأسبوعان. ومن مجمل الأوضاع بدا الأمل بانقاذه ضئيلا.

٨،٢٧ مساء. أعطى الطبيب بترا دواء يحتوي على هورمون يعجل نمو رئتي الجنين. ومع أن الجنين في الشهر السادس يكون مكتمل النمو، الا أن الرئتين ليستا كذلك.

بترا تحتاج الى أربع من هذه الحقن، واحدة كل ١٢ ساعة. ولكن ما العمل اذا قرر الجنين ألا ينتظر كل ذلك الوقت؟

٦ ديسمبر (كانون الاول) الساعة ٧،٣٥ مساء. نجحت بترا وانقضت الساعات الثماني والاربعون. لكنها منهكة ونبضها متسارع ويداها ساخنتان وجافتان كالورق. مسّدت شعرها المبلل بالعرق، فهمست بوهن: "أرجوك، اذهب الى البيت."

أأذهب الى البيت الآن والطفل قد يخرج الى النور في أي لحظة؟

"زوجتك على حق،" قالت لي إحدى الممرضات.

في البيت استلقيت على فراشي وأنا لا ازال مرتدياً ثيابي. وراحت الافكار تتلاطم في رأسي. ماذا لو خسرت الاثنين؟

ولا بد أنني استغرقت في النوم، لانني صحوت على رنين جرس الهاتف.

قالت لي الممرضة في الطرف الآخر: "يمكنك أن تأتي الآن."

٧ ديسمبر (كانون الاول) مساء. سُمح لي بأن أرى ابنتي كاترينا. في الغرفة الضيقة الخاصة بالتعقيم ارتديت ثوباً أخضر وخفّين من بلاستيك. الجراثيم المحمولة من الخارج قد تعني وفاة الطفل.

ابنتي ممددة على طاولة وليس على جسدها سوى حفاض من البلاستيك. هكذا يستطيع الاطباء والممرضات الوصول اليها بسرعة عند الاقتضاء. اما الدفء فيبلغها من مصباح حراري مسلّط على جسدها. للمرة الاولى أرى ابنتي من دون رقائق الالمنيوم البشعة. جسدها الصغير مربّط من كل الجهات. أقطاب كهربائية خمسة ثُبّتت الى صدرها وبطنها لمراقبة

ضربات القلب والتنفس والحرارة ومحتوى الاوكسيجين في الدم.

في منخرها الايسر أنبوب صغير يصل عبره حليب أمها الى معدتها مباشرة. وتحت ضمادة بيضاء على ساقها اليمنى أنبوب آخر متصل بوريد بالغ الصغر يحقنها محلولا يحتوي على فيتامينات وسكر ومواد بروتيينية ودهنية. وكل صباح تعدل مقادير هذه الاغذية المكمّلة بحسب الاقتضاء. وفي ضوء تحاليل لدم الطفلة تجرى بانتظام يقرر الطبيب "قائمة الطعام." وطريقة الاطعام هذه لا تخلو من الخطر على رغم ما يُبذل فيها من عناية وحذر. فالجراثيم قد تجد طريقها الى المحلول وتسبب تلوثاً وعدوى. وللحد من هذا الخطر تطبَّق في قسم العناية الفائقة أقسى الانظمة الصحية وأدقها. فالممرضة التي تحضّر الحليب ترتدي ثوباً معقماً وقبعة وكمامة وقفازاً معقمة. تصل المقومات في أنابيب وزجاجات مختومة وتحضّر في وعاء زجاجي معقم.

نظرت الى ابنتي، الى رأسها الصغير الذي لا يتجاوز حجمه راحة اليد وقد استطال عند الولادة بفعل كلّاب الطبيب الجراح، والى جلدها المغضّن وحركات ذراعيها وساقيها الصغيرة التي لا سيطرة لها عليها. وتلوت صلاة صامتة: "أرجوك يا الهي، لا تدع ابنتي تموت."

لاحظ الطبيب الوجوم على وجهي وراح يشجعني: "الامل ليس معدوماً، وحظها في الحياة ٨٠ في المئة."

في جناح الولادة ثمانية أطباء و٢١ ممرضة. وهم يعملون ٢٤ ساعة يومياً ويعنون بنحو ٣٠٠ طفل خديج يولدون كل سنة. ولا يحالف الحظ سوى ٤٠ في المئة من الاطفال الذين يقل وزنهم عن ٨٠٠ غرام. اما الاطفال الذين تراوح اوزانهم بين ٨٠٠ و١٠٠٠ غرام فحظهم في البقاء يرتفع الى ٦٠ في المئة، والى ٩٠ في المئة لمن زاد وزنه على ١٠٠٠ غرام. وشرح لي الطبيب المسؤول الامر: "خلال السنين العشر الاخيرة طرأ تحسّن كبير على الاساليب المستخدمة في هذا القسم، وبات في وسعنا انقاذ الخديجين الذين يقل وزنهم عن ٧٠٠ غرام."

العدوى هي العدو اللدود للاطفال الخديجين، بسبب عدم اكتمال جهاز المناعة لديهم. والى ذلك فان ١٥ في المئة منهم لا يتنفسون على نحو مرضٍ ويتوجب اخضاعهم لتنفس اصطناعي يزودهم كمية الاوكسيجين اللازمة.

وأخبرني الطبيب أيضاً أن جلطة دموية صغيرة ظهرت في دماغ ابنتي، ولحسن الحظ بدأت تختفي.

واضاف أنها تعرّضت لعدوى جرثومية، لأن غشاء السلى انفجر قبل الولادة باثنتي عشرة ساعة مما سمح للجراثيم في عنق الرحم بالانتقال اليها. والى كل ذلك ظهرت على طفلتنا أعراض اليرقان، والاطباء يعالجونها بالمصباح الأزرق، الا أنها ما زالت تحتاج الى وحدات دم لأن جسمها لا يقدر بعد على انتاج مقدار كاف من كريات الدم الحمراء.

١٧ ديسمبر (كانون الاول). اليوم، للمرة الاولى، سمح لبترا بأن ترى ابنتها. كانت كاترينا أمضت عشرة أيام في المحضن. والحقيقة أن قسم العناية

الفائقة في جناح الاطفال عالم قائم بذاته، عالم من الكروم والزجاج والتكنولوجيا، عالم صُفّت فيه المحاضن قرب جدار مثل أسرّة صغيرة. انها مهاجع من زجاج يبلغ ارتفاعها حوالى متر وعرضها ٦٠ سنتيمتراً وحرارتها ثابتة على ٣٤ درجة مئوية. يحتوي المحضن على فتحة مستديرة في كل من جانبيه، والفتحتان تتيحان للاطباء والممرضات ادخال أيديهم. وفوق كل محضن عُلقت مراقيب للتنفس وضربات القلب والدورة الدموية. وهناك مصباح فوق كل محضن وظيفته انذار الاطباء والممرضات بأن الطفل في خطر كبير، بارساله ضوءاً أحمر وازيزاً عالياً. وهذا معناه إما أن الطفل لا يتنفس كما ينبغي واما أن قلبه لا يعمل كما ينبغي.

إبنتنا ممددة على قماش أبيض وليس على جسدها سوى حفاض. ما زالت الانابيب والاقطاب الكهربائية متصلة بجسدها، ولكن حق لها الآن أن تفاخر بوزن بلغ ١٤٥٠ غراماً. حول رسغها الايمن سوار صغير من خرز وردي وأبيض، كل خرزة تحمل حرفاً من اسم عائلتنا.

لن أنسى ما حييت النظرة في عيني زوجتي وهي تنحني فوق ابنتنا. على وجهها ارتسمت دهشة وحنان وحب وخوف. بأنامل مرتبكة فتحت احدى ثغرتي المحضن ومدت يدها برقة متلمسة وجنتي الطفلة وصدرها. وقالت لها ممرضة: "لا عليك، طفلتك ليست سريعة العطب كما تظنين. انها في حاجة الى ملامسة جسدية."

منذ تلك اللحظة لازمت زوجتي طفلتها.

١٩ ديسمبر (كانون الاول). اليوم اشترينا لكاترينا لعبة كبيرة من قماش، داخلها علبة موسيقية. وما ان نسحب حبلا أبيض حتى تصدح بتهويدة للنوم. هديتنا مدلاة الآن في جهة الرأس من المحضن. انها مهمة جداً، فالاطفال الذين يولدون قبل الاوان لا يحتاجون فقط الى ملامسة بل الى سماع أصوات أمهاتهم أيضاً.

ولهذا السبب يعمد بعض مستشفيات التوليد الى تسجيل صوت الام وضربات قلبها على شريط يبث من مكان ما من المحضن بحيث يسمعها المولود. وفي المستشفى حيث ولدت ابنتنا تعتمد طريقة أخرى هي الساعات الموسيقية التي يشغّلها الوالدان في أوقات الزيارة. وما ان يتناهى صوت الموسيقى الى اذني الطفل حتى يعرف أن أمه حاضرة قربه.

٢٤ ديسمبر (كانون الاول). الجو العام في قسم العناية الفائقة يوحي عيد الميلاد. صحون فيها لوز وتفاح وكعك تملأ المكان. فجأة يقطع الصمت ازيز طال. تهرج الممرضات الى المحاضن. صبي صغير في حال تشنج. يُحقن دواء، ولكن بعد فوات الأوان. خط القلب الأخضر المنحني المتذبذب يتحول فجأة خطاً مستقيماً. وتصرخ احدى الممرضات "لقد توفي الصغير!"

وتقول زوجتي خائفة: "لكنه كان أكبر حجماً من ابنتنا." لا أحد يجيبها.

١ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٣. ما زال أنبوب التغذية في أنف كاترينا الصغيرة. لم يتسنَّ لنا رؤية وجهها بعد،

فالاسلاك التي تثبت الانبوب في محلّه تشوّه تقاسيمها التي لم تكتمل بعد.

تطلق الممرضات اسماً على كل طفل خديج. هناك مثلا "السيـد شميت" و"الآنسة ميلر." اما ابنتنا فاسمها "كيرميت الضفدع." كاترينا هي الاصغر حجماً بين جميع الاطفـال. عيناهـا جاحظتان ووجنتاها كوجنتي فأر. انها التقاسيم النموذجية التي تميز جميع الاطفال الخديجين.

٣١ يناير (كانون الثاني). محضن كاترينا خال. هل حدث لها مكروه؟ ممرضتان تقهقهان وثالثة تحمل طفلا بين ذراعيها: ابنتنا كاترينا! انها ترتدي سروالا أزرق فضفاضاً وقميصاً أبيض.

لم تعد كاترينا تحتاج الى محضن. طولها ٤٨ سنتيمتراً ووزنها ٢٥٠٠ غرام. منذ الآن ستوضع في مهد مدفأ يشبه المحضن ولكن من دون غطاء. واختفت الحبال والاشرطة وأنبوب الانف. لم يبق متصلا بجسدها الا قطبان كهربائيان لمراقبة التنفس.

للمرة الاولى أرى ابنتنا من دون شريط لاصق.

وجهها صغير جذاب وزاويتا فمها المنحنيتان الى أسفل تضفيان عليها مسحة من العناد.

يا له من شعور بالفرح رائع. كاترينا بين ذراعيّ اخيراً بعد ستة أشهر من ولادتها.

١٠ فبراير (شباط). ابنتي ممددة على طاولة تغيير الحفاضات وحول رأسها ضمادات سميكة بيضاء. سألت: "يا الهي، ماذا حدث؟" فأجابتني الممرضة: "لا شيء يستدعي القلق. كاترينا تتلقى كريات دم حمراء لأن ليس لديها ما يكفيها. إنها حالة تصيب معظم الاطفال الخديجين."

أدخلت قصيبة في الوريد الوداجي لكاترينا، وراحت مضخة كهربائية تضخ محتوياتها من كريات الدم الحمراء الى جسد كاترينا. وعندما سحبت القصيبة نزّت منها بضع قطرات دم صبغت الضمادات بلون أحمر. وأشاحت زوجتي بوجهها، فهي لا تقوى على رؤية الدم.

أما كاترينا فظلت غير آبهة. وهي نامت طوال الوقت الذي استغرقته العملية المخيفة.

١٧ فبراير (شباط) الساعة ١١ قبل الظهر. اليوم سنأخذ كاترينا الى البيت. طولها الآن ٥١ سنتيمتراً ووزنها ٢٧٣٥ غراماً. توجهنا الى المستشفى ومعنا في السيارة حاملة أطفال زرقاء وسلة ملأى بالهدايا للممرضات والاطباء الرائعين.

يا له من يوم جميل! السماء فوق همبورغ بلون اللازورد الازرق وكأن الطبيعة تشاركنا في فرحتنا.

الوقت الذي يستلزمه إخراج الطفل من المستشفى وانهاء جميع المعـاملات يمضي متباطئاً بالنسبة الى الوالدين اللذين يساورهما القلق غالباً لأنهما سيجدان أنفسهما فجأة مضطرين الى العناية بالطفل على مسؤوليتهما ومن دون مساعدة. لذلك هي نعمة للامهات أن يعلمن أن في وسعهن الاتصال بجناح

الاطفال الخديجين في أي وقت من النهار أو الليل لاستشارة الطبيب أو الممرضة. وأرقام الهاتف في ذلك الجناح تمثل بالنسبة الى الأمهات أرقام الطوارئ.

**الساعة ١١،٣٠ قبل الظهر.** أمضت كاترينا الرحلة الى البيت نائمة في المقعد الخلفي. لم يسبق لي أن قدت السيارة بمثل ذلك الحذر. ثم جاءت اللحظة المرتقبة: فبعد نحو ثلاثة أشهر في المستشفى رقدت كاترينا أخيراً في سريرها ذي الأعمدة الاربعة.

غادرت كاترينا عالم الادمغة الالكترونية الباردة. ولكن حتى في البيت كانت تحتاج الى بعض تقنيات متطورة مثل مكبر الصوت الذي يوصل أي صوت صادر من غرفتها الى كل جزء من البيت. ولقد أصررت على هذا الإجراء لانه الطريقة الوحيدة التي تريح بالي.

كاترينا تصرخ الآن بتحرّق ولهفة. الحمد لله!

**فبراير (شباط)**. تبدو كاترينا ضائعة في سريرها ذي الحجم الطبيعي. اننا نقيس وزنها يومياً ونطرب لكل غرام يضاف اليه. انها تأكل ليلا ونهاراً سبع وجبات او ثماني يومياً. وبعد كل وجبة نغير حفاضها. النوم بالنسبة الينا أصبح امراً منسياً.

غرفة طفلتنا مضاءة دائماً مثلما كانت الحال في قسم العناية الفائقة. عندما تدخل زوجتي تلك الغرفة وتتكلم بصوت مرتفع أدعوها الى الصمت: "ششش!" فترد: "ما هذا الهراء؟ كاترينا معتادة الاصوات منذ أيام المحضن. وهي تستيقظ عندما يكون الصمت مطبقاً والهدوء تاماً."

ليس سهلا علينا أن نعتاد هذا النمط الجديد في حياتنا. في الليل نتناوب أنا وزوجتي اطعام كاترينا وتغيير حفاضاتها. وكلما نظرت الى عيني ابنتي الزرقاوين أشعر كأنهما تخترقانني أو كأنها لا تراني.

طمأنني الطبيب: "انها الى الآن لم تُميز سوى الاشكال والظلال. انتظر أربعة أسابيع أخرى."

كان على كاترينا قبل ذلك أن تخضع لفحص مؤلم لعينيها. ترى هل جميع الاوعية الدموية مكتملة النمو؟ ترى هل ستتوصل يوماً الى الرؤية على نحو سليم؟ ملأ الخوف قلبينا. وفي العيادة حيث أجري الفحص وضعت ممرضة بضع قطرات سائلة في عيني كاترينا بغية تمديد البؤبؤ. بعد ذلك وصل الطبيب فحملت ،ممرضة أخرى جهازاً جديداً كالفنجان ووضعته فوق مقلتي الطفلة. وهذا الجهاز ينبئ الطبيب عما اذا كانت عينا كاترينا تتلقيان كمية كافية من الدم. بكاء كاترينا مزّق قلبينا. لكن الطبيب أسرع الى القول: "كل شيء على ما يرام." شعرنا بأن الشمس أشرقت فجأة.

في طريقنا الى البيت توقفنا لشراء مغطس صغير وردي من البلاستيك. يجب أن نغسل كاترينا يومياً منذ الآن. أثناء الحمام نلاحظ ان كاترينا تستمتع بالماء الدافئ، فهي تمطي جسدها الصغير بترف. الظاهر أنه يذكرها بسائل النخط في الرحم الذي هجرته قبل موعدها بثلاثة أشهر.

مارس (آذار). الدنيا ليل. فجأة، سمعت صراخ كاترينا عبر المذياع في غرفتنا. هرعت اليها فوجدتها حمراء الوجه منتفخة الصدغين. حملتها بين ذراعي ورحت أهزها برفق. توقف البكاء تدريجاً وتحول نشيجاً خافتاً. وسرعان ما أسندت رأسها الصغير الى عنقي. ربما هي شعرت بالنبضات المطمئنة لشرياني السباتي لانها غرقت في النوم ثانية. وعندما راجعت الطبيب في هذا الامر طمأنني: "لا تقلق، فكثير من الاطفال الخديجين يتعرضون لمثل هذه النوبات اثناء النوم. ربما كان ذلك رواسب تجربة مؤلمة تعود الى أيام المحضن في قسم العناية الفائقة."

لن أنسى ما حييت زيارة كاترينا الاولى لعيادة طبيب الاطفال القريبة من منزلنا. بالنسبة اليها كانت تلك نزهتها الاولى في عربتها ونشقتها الاولى من هواء الشارع. بدت صغيرة جداً وقد حجبها حرام أزرق سميك وقبعة صوفية حاكتهما لها جدتها.

الامهات في غرفة الانتظار محاطات بأولاد - لله ما أكبرهم - يضجون عافية وامتلاء. ابتسمن لكاترينا بإشفاق. وآلمني ذلك فعزيت نفسي بأنهن يجهلن الحكاية.

نظر طبيب الاطفال بارتياب الى البطن البارز والساقين المتقوستين. وراحت أنامله تجسّ الجسد البالغ الصغر ثم قال: "تلزمها تمارين رياضية مبكرة. هذا هو الدواء. انها تعاني تمدداً مفرطاً." وسألته عن معنى ذلك فشرح لي ان "الاطفال داخل الرحم يسبحون في النخط بوضعية متكورة. وحين يولدون قبل الأوان ينزعون الى المبالغة في التمطط فيتقوسون الى الوراء وينشأ لديهم تجوُّف في الظهر. التمارين الرياضية المبكرة هي العلاج لهذه الحالة."

أواخر مارس (آذار). للمرة الاولى كاترينا تبتسم لي. انها تتقدم على نحو ملحوظ. في وسعها أن تتمدد على بطنها وترفع رأسها لثوان. إنها تحاول الوصول بيدها الصغيرة الى حبل الخرز الملوّن الذي مددناه فوق سريرها من جانب الى آخر. أنا فخور بابنتي.

أبريل (نيسان). الآنسة بوتزير الاختصاصية بالمداواة الطبيعية تشرف على رياضة كاترينا. تقول لها بعطف: "ما زلت صغيرة جداً، لكنك ستتحسنين، لا تخافي." ثم تضعها في ثنية مرفقها وتجعلها في وضع جنيني، رأسها الى أسفل وركبتاها مرفوعتان الى بطنها وعمودها الفقري منحن كالقوس. إنها تُرينا كيف ننفذ ذلك في البيت عندما نرضع ابنتنا بالزجاجة. في وقت لاحق سنشتري لكاترينا كرة من المطاط لها ثلاثة أضعاف حجمها، فنمددها عليها من دون ثياب ثم نروح ندحرجها الى الامام والى الوراء لكي ننمي لدى ابنتنا شعوراً بالتوازن.

شهر ابريل (نيسان). راسخ في ذاكرتي لسبب آخر أيضاً. ففيه نامت كاترينا طوال الليل بعدما تناولت الزجاجة الاخيرة في التاسعة والنصف

مساء، ومع ذلك ظل القلق يساورنا ونمنا نوماً متقطعاً. كنا ننهض كل ساعتين أو ثلاث ساعات ونذهب اليها في غرفتها كي نتحقق من أنها ما زالت حية ترزق. عدم سماعنا بكاءها أخافنا.

أواخر ابريل (نيسان). اعتادت كاترينا أن تتمدد على بطنها مستندة الى ساعديها. الآن باتت قادرة على رفع رأسها مدة أطول.

بدأت كاترينا أيضاً تميز بيننا. صحيح أنها وفدت الى هذا العالم قبل نحو خمسة أشهر، لكنها لم ترنا قبل اليوم. اليوم فقط شعرنا بأنها رأتنا. انها تبتسم وتصرخ فرحة عندما ندلي دمية امام وجهها وندع القماش الزغب يدغدغ جلدها. عيناها تتبعان تحركات الدمية وخوفنا العظيم من أن تصبح عمياء تبدد نهائياً.

مايو (أيار). إنه الربيع. كاترينا ممددة على ظهرها تطلق صيحات الابتهاج وترفس الهواء بذراعيها وساقيها. فخذاها وساقاها ممتلئة الآن وهي تبدو، تقريباً، كأي طفل شهد ولادة طبيعية.

بدأت تصدر أصواتاً من بين شفتيها. انها تتمسك بسبابتي جيداً وترفع جسدها الى وضع جلوس. وجهها يعلوه الاحمرار بسبب الجهد الذي تبذله. وهي تتبع بعينيها أي شيء متحرك على بعد ٣٠ سنتيمتراً منها. انها تمسك "الخشخاشة" وتدنيها من عينيها وتتفحصها من كل زواياها. وهي تدير رأسها في اتجاه مصدر الصوت. وسمعها يلتقط حفيف الورق على مسافة ٣٠ سنتيمتراً ومواء هرنا "أوسكار" الذي لا يحلو له الرقود الا تحت سريرها.

للمرة الاولى تناولت كاترينا طعامها بالملعقة. وكانت معركة حامية. انها تصرّ على إطعام نفسها. وأثناء العملية تمرغ الطعام بيديها وعلى ذقنها وفمها وانفها.

يونيو (حزيران). أمر مثير: حفاض كاترينا نظيف! زوجتي هلعة تكلم الطبيب على الهاتف. "لا داعي الى الخوف،" يقول لها مطمئناً، "مثل هذا الإمساك يحصل. أضيفي قليلا من السكر الى طعامها، وإن لم تحصلي على نتيجة فأحضريها الى العيادة." ونجحت الوسيلة. لم يخطر ببالي قط أن الانسان يمكن أن يشعر بتلك السعادة لرؤيته حفاضاً وسخاً.

كاترينا تتحول طفلة ممتلئة. أصبح طولها ٥٧ سنتيمتراً ووزنها ٥٠٩٠ غراماً. اصطحبناها في العطلة التي أمضيناها على شاطىء بحر البلطيق. أخذتها بين ذراعي وجعلت قدميها تلامسان الماء البارد. لوت وجهها باشمئزاز. الأمهات الأخريات توقفن قربها وعلى شفاههن ابتسامة خفيفة. كانت قبعتها الشمسية واسعة جداً. لم تظهر النساء هذه المرة أي شفقة أو شعور بالتفوق. قالت احداهن: "كم هي جميلة! وعيناها ما أجملهما وما أطول اهدابهما!" لم اشعر بهذا الفخر قبل اليوم.

سنأخذ كاترينا بعد قليل الى عيادة

الطبيب لتتلقى اللقاح الثلاثي ضد شلل الاطفال والخانوق والكزاز. تلقت كاترينا وخزة الابرة من دون جلبة. انها فتاة شجاعة! يبقى علينا أيضاً ان نأخذها مرة اخرى الى قسم العناية الفائقة من اجل صورة صوتية. تنبئنا بما حل بالجلطة في الدماغ. قلقنا يتعاظم مجدداً. ولكن سرعان ما علمنا ان الجلطة اختفت تماماً.

يوليو (تموز). أصبح في امكان ابنتنا ان تتقلب في الفراش من جنب الى آخر. وجمالها يزداد يوماً بعد يوم. وجهها الريان تحوقه خصل شعر. لم أر في حياتي مثل تينك العينين الزرقاوين الكبيرتين. لا شيء في كاترينا يذكرني بالايام التي كانت فيها ملفوفة بورق الالمنيوم كعصفور منتوف مهزول.

أغسطس (آب). كاترينا تجلس بمفردها وترسل الينا ابتسامة عريضة. أردت ان أتأكد من ذلك فانتظرت بعض الوقت. إنها فعلا تجلس وحدها من دون مساعدة أحد.

للمرة الاولى أيضاً تلعب معي الاستغماء (الغميضة). انها تخفي وجهها بحفاض وتظن أنها اختفت فعلا. ثم بسرعة البرق تنزع الحفاض عن وجهها وتضحك مني.

سبتمبر (أيلول). أولى محاولات الحبو: كاترينا مستلقية على بطنها. ترفع جسدها على ذراعيها وتحاول أن ترفع ساقيها. لكنها تقع على وجهها. لم تحن الساعة بعد.

اشترينا لكاترينا كرسياً ثبّت فيه طبق للطعام. انها الآن تجلس معنا الى المائدة. تحاول ان تشرب من دون مساعدة، لكن محاولاتها غير ناجحة.

أكتوبر (تشرين الاول). ابنتنا نكدة الطبع تصرخ احياناً على نحو فظيع. انها تتقلب في سريرها بضجر وتململ واللعاب يسيل من فمها. يا الهي، ما بها؟ زوجتي تقيس حرارتها. انها طبيعية وتتفحص جلدها عن كثب. لا تجد خطباً. ثم تلاحظ شيئاً لماعاً أبيض في فم كاترينا... سنها الاولى!

نوفمبر (تشرين الثاني). حرارة كاترينا مرتفعة وجسدها أحمر وساخن. انها تصرخ وتسعل وأنفها مسدود. اتصلنا بالطبيب حالا. الالتهاب الشُعبي (كما شخصه الطبيب) استمر ثلاثة أسابيع. اننا نعطيها دواء للسعال وآخر لاسقاط الحرارة ونفرك ظهرها وصدرها بمرهم ملطف. وضعنا بعضاً من هذا المرهم على مناشف رطبة ونشرناها على المشعاع (رادياتور) لترطيب الهواء في الغرفة.

انه أول مرض يعتري كاترينا في البيت.

ديسمبر (كانون الاول). يزداد تلهفي لرؤية ابنتي تمشي. أنا أمسك يديها وأساعدها على الوقوف. تضع قدماً أمام الاخرى بحذر وارتباك. نجحت في الوقوف وحدها مدة ثوان قليلة. طولها الآن ٧١ سنتيمتراً ونصف سنتيمتر ووزنها ٨٦٦٠ غراماً. في السابع من هذا الشهر مضى

على ولادتها عام كامل. ولكن في الواقع يجب اعتبارها في الشهر التاسع.

في أي حال، انها أثمن هدية تلقيتها لمناسبة عيد الميلاد. انها تدرج في أرجاء البيت بخفها الاصفر المحوك من الصوف وتقول "دي دي" ولها سنّان. زاويتا فمها العنيدتان ما زالتا ظاهرتين، علامة الحيوية والنشاط.

انها توقظنا ثلاث مرات في الليل. في البدء تبكي ثم تقف في مهدها وتضرب سياجه. أحياناً أتمتم بغضب وأنا أنهض من الفراش والنوم يغشاني. وعندما يقع نظري عليها أصفح عنها حالا. وهي لا تحتاج الى أكثر من تمسيدة بسيطة على شعرها لتستغرق في النوم من جديد.

"طفلة رائعة،" يقول فيها طبيب الاطفال، "ونموها كامل. أتوقع أن تمشي وحدها قرابة عيد الميلاد."

توقعاته كانت صائبة. كاترينا تمشي الى شجرة الميلاد وحدها من دون مساعدة. يجب ان نرفع الشجرة كي لا تكون في متناولها. بعدما فتحنا هدايانا تلوت أنا وزوجتي صلاة شكر. شكرنا الله لانه سمح لخديجتنا بأن تنمو وتصبح طفلة قوية معافاة.

**كلاوس يوثيكي**
**بمعاونة الدكتور يورغن ستيدنغر**
ترجمة د. باسمة سكرية عبد

## هوندا والشباب

لم تثبط الايام همة سواشيرو هوندا مؤسس شركة "هوندا" للسيارات. لقد ابتكر ما يزيد على ٤٧٠ تصميماً وفكرة جديدة خلال عمله. وهو الآن يفكر، في السن الثمانين، في وسائل تكنولوجية جديدة.

يقول: "على كل امرىء ان يعمل لنفسه. الناس عموماً يقبلون على العمل برغبة وجد وتزيد قدرتهم على الابتكار حين يعملون طوعاً بارادتهم."

هوندا المتقاعد يتمنى العودة الى العمل في التصميم. يقول: "تحضرني بعض الافكار، لكنني أجد الشباب قد سبقوني اليها. ان الشباب رائعون، فهم يكتسبون خبراتنا ويضيفون اليها أفكارهم الخاصة.

س.ش.

---

## عنوان الثقة

أعلن مكبر الصوت في المكتب: "اننا نجرب مكبر الصوت للتأكد من انه سيعمل جيداً في الحالات الطارئة." لكن الموظفين فقدوا الثقة بهذا التدبير الوقائي عندما أضاف المتكلم: "وإذا لم تسمعوا هذا الاعلان فالرجاء الاتصال بنا."

ل.س.

كتاب الشهر

# دون كيشوت بين الذئاب

مُلخّص من كتاب
بقلم ديتون ا. هايد



# دون كيشوت بين الذئاب

معظم مشكلة أصحاب المزارع
في الغرب الامريكي، ومعظم حلها،
كانا أمرين بسيطين.
كان الذئب القيّوط(١)
من الحيوانات المفترسة
التي تعيش على غيرها،
اذاً هنالك كائن ما يجب أن يقتل.
أما ديتون هايد
فكان له في ذلك
الذئب رأي مختلف.
الذئب الذي شاركه
في أرضه بدا كأنه
يعتمر خوذة فضية ويطاعن
العاصفة، فكان رمزاً للارض
ومفتاحاً ثميناً لتفهمها.
في هذه القصة الحقيقية
يكتشف هايد، من خلال
معاشرته الحيوانات البرية،
أهمية الطبيعة وينتهي الى
وعي جديد لدور
أبناء جنسه

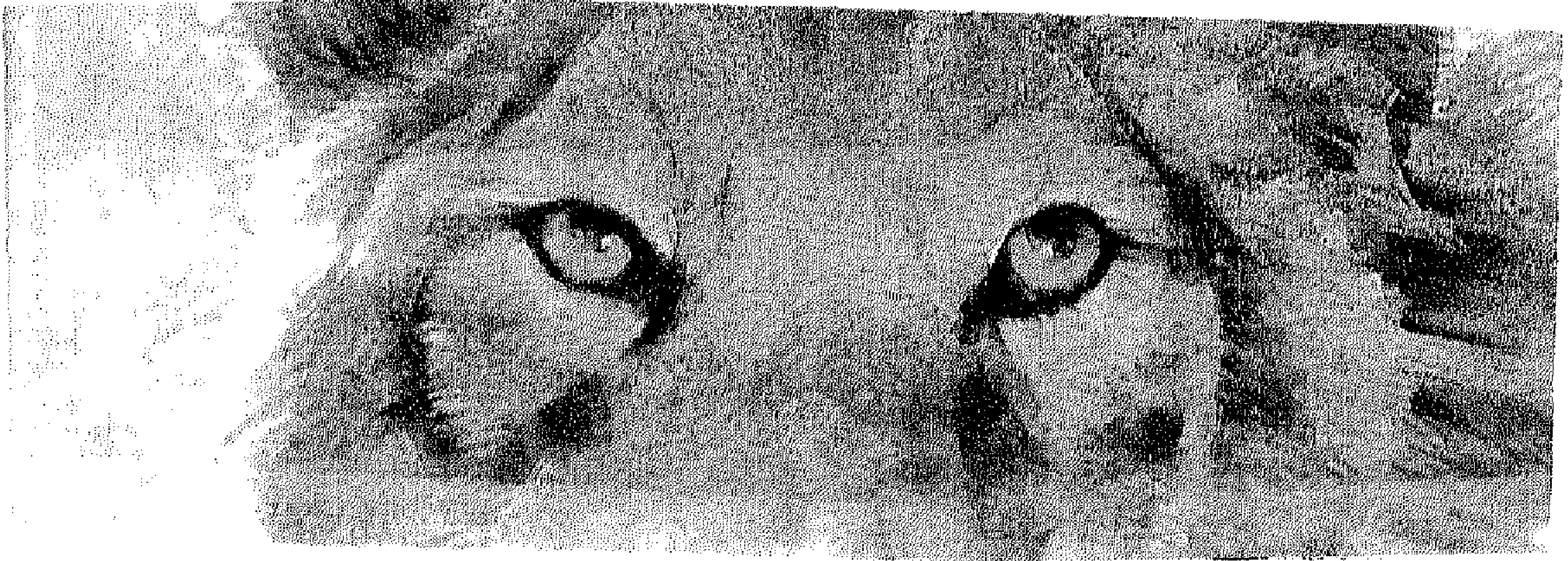
---

(١) Coyote. القيوط ذئب صغير يكثر في أمريكا الشمالية.

لا أدري لماذا أزعجني ذلك الذئب. ربما لانه لم يكن يدعني وشأني. كنت أؤدي الاعمال الربيعية في مزرعتنا بولاية أوريغون، أحفر قنوات وأزيل أكداس الاغصان المقطوعة وأقود جرارتي العتيقة الصدئة التي ادعوها "أليس الكبرى." كل صباح كان الذئب يغادر وجاره في غابة الصنوبر الواقعة على ضفة النهر ويتبعني عبر المروج إما فضولا غبياً وإما توقا الى مرافقة جرارتي الجبارة الهادرة.

يراقبون الذئاب جيداً. أما أصحاب مزارع المواشي فكان معظمهم يوافقونني على موقفي المتفهم من الوحوش، لكنهم كانوا خائفين من المجاهرة به. فالنفوس مشحونة، وقد يخسر المرء اصدقاء اذا ما انحاز الى جانب الذئب.

لكن هذا الذئب بقي يتصرف كأنه المالك السابق للمزرعة التي اشتريتها حديثاً. حاولت تجاهله لكنني بدأت امتعض من حفره الظاهر في مرجي



سبب بقاء الذئب في مزرعتنا هو أننا وضعنا لافتات تنذر الناس بعدم تخطي حدودنا بغية القنص. فنجا. ان هذا الجزء من أوريغون الذي يرتع فيه بضعة عشر رأس ماشية في مقابل كل ساكن بشري، هو مجهز بكل ضروب ضبط الحيوانات المفترسة. فهناك فخاخ وسموم وبنادق وطائرات مروحية. معظم جيراني ينقلون في شاحناتهم الصغيرة المكشوفة بنادق لقنص الحيوانات الضارية، وخصوصاً الذئاب. خارج مزرعتي كانت هذه الوحوش معرضة جداً للقنص. وطالما شاهدتها تفر نحو الغابة صفوفاً بنية. وكان الرعاة

الاخضر الجميل. خيل الي أنه يسخر مني كلما عجزت "أليس الكبرى" عن التحرك أو كلما انطلقت محمومة وسط بركان من بخار عابق برائحة المواد المانعة للتجمد(٢). كان يحفر الارض ليلتقط فأراً عند سد جديد، مسبباً جريان ماء الري في المرج الذي جففته لجمع التبن، وعند ذلك أهدده بقبضتي.

صباح ذات يوم أثناء تناول طعام الفطور أعلنت للعائلة أنني سأقضي على الذئب الذي يضايقني كثيراً.

حدق الي أولادي الخمسة بارتياب. قال

(٢) Antifreeze



Condensed from «Don Coyote: The Good Times and the Bad Times of a Maligned American Original,» copyright © 1986 by Dayton O. Hyde, published by Arbor House Publishing Co., New York

ديتون: "حين تحاول اطلاق الرصاص على الذئب سأقف أنا الى جانبه، وهكذا يكون في أكثر الاماكن أماناً."

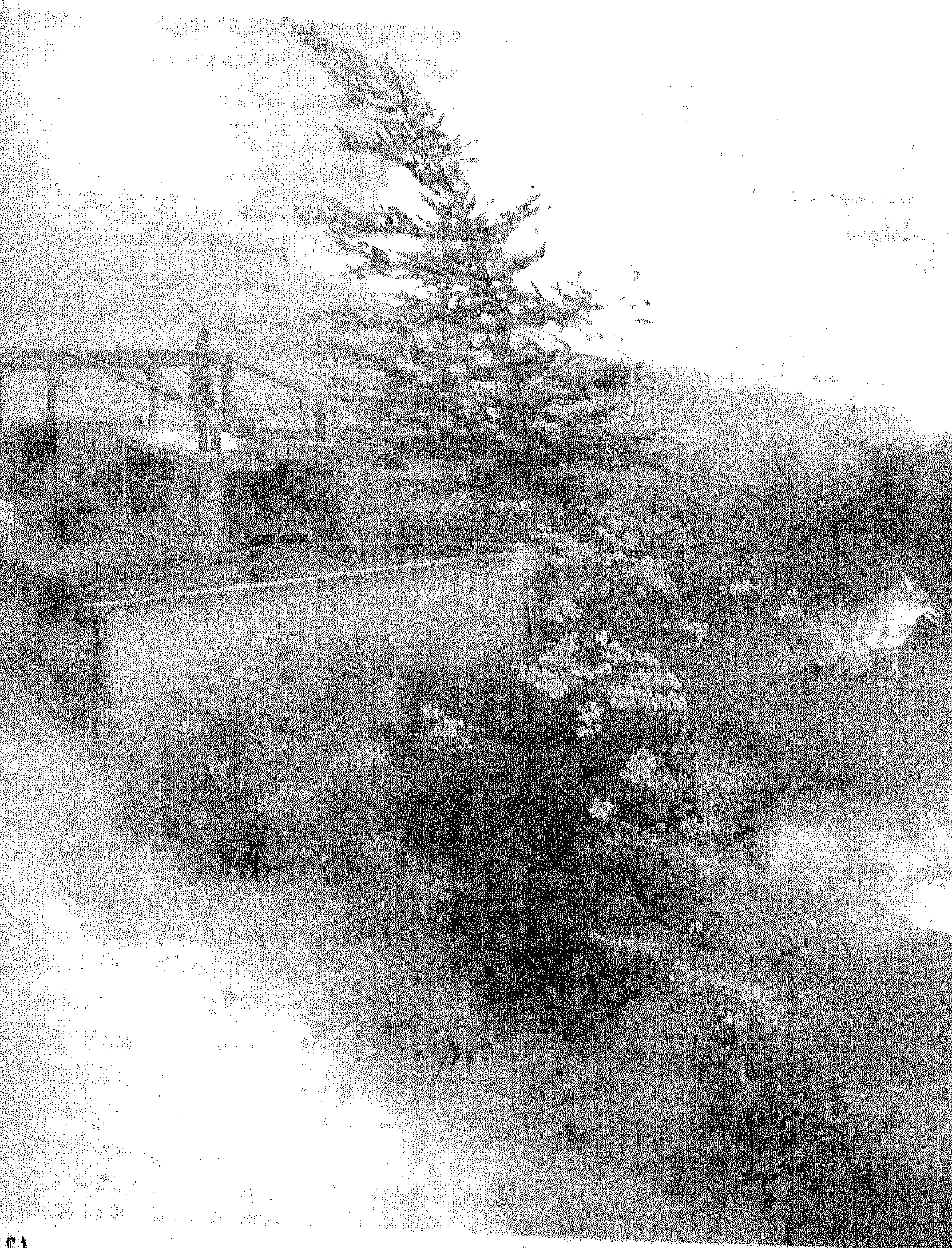
وقالت مارشا: "أتتصرف بمثل هذه الخسة؟ أنت رجل ذو قلب رقيق جداً." أما سائر الصغار فتكلف بعضهم الابتسام وتابعوا مضغ فطائرهم الساخنة شأنهم شأن ذوي القلوب الرقيقة.

نهضت فجأة عن المائدة وتناولت بندقية محشوة. وبدلا من أن أتابع الاكل مع محبي الذئب تسللت الى مستودع الغلال أرفس في طريقي أكواز الصنوبر. وكالعادة بدوت رجلا أحمق، وكانت حماقتي نصراً جديداً للوحش الملعون.

بلغت الجرارة ووضعت البندقية على سلسلتها المعدنية. ثم تفحصت جهاز تبريد المحرك ومسحت بسروالي القضيب الذي أقيس به عمق الزيت. واذا بالذئب الكبير يخرج من بين الشجر فاغراً فاه كأنه يريد ان يظهر لي أني جئت متأخراً. عيناه تقدحان شرراً والريح تداعب فروه. كان يبتسم.

تناولت البندقية بتأن وصوبتها نحوه وأطلقت النار. فسقط على العشب وانقلب على ظهره بحيث ارتفعت قوائمه الاربع في الهواء وأخذ يتلوى. ولحسن حظه كان ظهره فقط مخدوشاً. حدّق الي مستغرباً وعيناه مقلوبتان. عوى وعدل وضعه واضطجع لاهثاً ولسانه الوردي متدل من فيه نتيجة انهيار قواه.

زال غضبي. أقفلت الزناد واعدت البندقية الى مكانها على سلسلة العجلات. هناك عمل يجب إنجازه. تجاهلت أمر الذئب وصعدت الى مقعد



الجرارة. وأدرت المحرك وانتظرت قليلا الى أن صفا الدخان ثم أرخيت الكابح اليدوي فتحرك خمسة وثلاثون طناً من الفولاذ.

الى هدير الآلة سمعت فجأة فرقعة غير عادية. لم آبه لها لكنني تذكرت متأخراً أنني تركت البندقية على سلسلة العجلات. وعندما تحركت الجرارة سقطت البندقية على الارض وأخذت تجرها. وحين نزلت أتفقد ما يجري أمال الذئب رأسه الى الوراء وجلس يهزأ بي عويلا وتهليلا.

فجأة غمرني شعور بالفرج. جلست قرب بقايا البندقية وطفقت أضحك مع الحيوان المفترس.

## عواء ودي

مر أسبوع قبل أن أشاهد الذئب ثانية، امتطيت فرسي المفضلة "ستريت ادج" وقصدت "أليس الكبرى." وما كدت أبلغها حتى رأيت الذئب يخرج من تحتها كأنه أصبح مالكاً لها. ولدى اقترابي منه مشى حول الجرارة وهو يرفع على كل زاوية قائمة خلفية ويبول. ولما لمحته "ستريت ادج" خجلت وتعثرت فسقطنا معاً على الارض كتلة واحدة. فجفل الذئب وفر هارباً.

للاعتذار من الذئب تركت له نصف غدائي: رغيفاً بلحم مقدد. وبعد ساعة من ذهابي اختفى الرغيف. ودلت حفرة حديثة في المرج على أن الذئب قبل الهدية وطمرها ليحسّن طعمها.

أما وقد كسب الحيوان المفترس صداقتي فقد أصبح اعطاؤه نصف غدائي تقليداً يومياً. لكن هذا التصرف كان خيانة فاضحة لاصحاب المزارع المحليين، فبتُّ أتلفت حولي لارى ما اذا كان أحدهم ماراً من هناك. وعندما صادفت ذات يوم راعياً في أحد شوارع شلالات كلاماث تجنبت النظر اليه مفكراً: إنه يعرف. يعرف أني كنت لطيفاً مع الذئب.

عندما جئت "أليس الكبرى" ذات صباح على فرسي كان الذئب في انتظاري. تحت هيكل الجرارة وجد حصناً منيعا. هناك يتقي الرياح ومن هناك يهاجم. أريد أن أستعمل الجرارة، لكنني اذا ما حركتها نقضت الصداقة التي حاولت بصعوبة أن أنمّيها.

لم يمض وقت طويل حتى أدركت عائلتي ما يجري. فبينما نحن نتناول طعام العشاء ذات ليلة سألتني ابنتي جيني: "ماذا حدث للجرارة هذه المرة؟"

فأجبتها: "بعض قطعها يحتاج الى تغيير، والرجل المسؤول في قسم الصيانة سيطلب هذه القطع من شرق البلاد."

وقال ديتون: "من الافضل أن ننقلها في أسرع وقت ممكن. لقد رأيت الذئب يبول عليها. وهي الآن صدئة بما فيه الكفاية."

بدوت متكدراً. أما مارشا فسألت: "أي شيء صالح يستطيع الذئب ان يفعله؟"

قلت: "الذئب طبيب نبات القصعين، يلتهم المريض منه حافظاً ذلك الجنس السليم البنية. يأكل أيضاً الفئران والسناجب والارانب والجيف." اني لأفكر في نفسي كيف تحوّلت عاطفياً نحو الذئب.

أصرّت مارشا: "هل ضرر الذئاب أكثر

من نفعها؟ يقولون انها تأكل العجول، فلماذا لا تأكل عجولنا؟"

انها لنقطة جديرة بالاهتمام. قد تكون هناك أسباب تتعلق بالبيئة. لا شك في أن الطبيعة أسندت الى الذئاب دوراً، لكنني الى الآن لم أفكر في موقعها من سلم الحياة.

ذات يوم بينما كنت أعبر المرج على متن "ستريت ادج" رأيت صديقي أمامي. رأسه يلمع في نور الشمس كأنه مزيّن باللجين. انه يشبه دون كيشوت، بطل قصة الروائي الاسباني سرفنتس، بخوذته الفضية، الدون نفسه كان يهزأ بالعراك. فكّرت ملياً في ذلك وسميت الذئب "دون كيوت" (٣).

اقترب مني فارسي الوهمي فرأيت بين فكيه علبة مرطبات يرميها عاليا في الهواء ثم يلتقطها، يتركها تتدحرج ثم ينقض عليها ليحول دون هربها. "قتلها" بضربة من رأسه ورماها على العشب ووقف يراقبها ليرى ما اذا كانت تجرؤ على الصراع. وعندما استقرت امسك بها وأخذ يكرر لعبته الجنونية.

ها هو دون كيشوت يقاتل طواحين الهواء.

مع أني مزارع تابع للدون - فهو يستعمل جرارتي نزلاً ومركز مراسلات ويأكل نصف غدائي - فانه لم يظهر جزءاً يسيراً من الميل اليّ. أردت أن أكون محبوباً ومقبولا كصديق بحيث أستطيع أن أراقبه على نحو أفضل بغية تفهم الذئاب وطرق تصرفها، لكني لم أحظ بشيء.

كسرت الحاجز الذي بيننا مصادفة. انه شهر سبتمبر (أيلول) حين تصبح المهمات المهملة طارئة، ولا وقت لدي لمراقبة الذئب. وعلى رغم ذلك صممت على زيارة وجاره، فبدت "أليس الكبرى" وحيدة مهجورة ولا آثار حديثة للذئب هناك.

حين يئست من رؤية دون كيوت جلست أفكر. أما "ستريت ادج" فكانت ترعى، وعندما رفعت رأسها لترى ما ورائي التفتُّ أنا الى خلف فرأيت الدون جالساً منتصب الرأس كأنه يتساءل ماذا أفعل. تراجعت منفعلا وأملت رأسي الى الوراء وتفوهت بأفضل ما أستطيع من عواء.

حدق الي الذئب لحظة غير متأكد مما اذا أفضل له أن يبقى أم يهرب. فجأة بدأ يبصبص بذيله ويتلوى منفعلا ويميل اذنيه الى الوراء ويضحك مستهزئاً ثم يرفع رأسه وينتفض فرحاً.

لم يهمه أن صراخي كان متبدلا سمجاً كصراخ امرأة ساعة الولادة، بينما كان صراخه نشيداً رائعاً يمجد الحرية بعيداً عن موسم التزاوج وعن البرية. في لحظة واحدة حدث تغيير مدهش في علاقتنا. لاني عويت أخذني صديقاً له. وللمرة الاولى حصلت على بصبصة ذيل طالما طلبتها.

## طلقة بندقية

أقبل فصل الخريف ومعه الواقع المخيف: موسم الغزلان. في الغابات أناس كثيرون صالحون ذوو أخلاق حميدة يحترمون أصحاب المزارع وأراضيهم. ولكن هنالك أقلية تجعل من الموسم كابوساً للجميع.

(٣) Don Coyote

قبل افتتاح الموسم بيوم قررت أن أزيد عدد اللافتات التي تحمل عبارة: "ممنوع المرور." وظهر دون كيوت وأخذ يعدو وراء فرسي.. المناجذ أوت الى أجحارها لتتقي برد الشتاء، فلم يبق للذئب ما يأكله سوى الفئران والافاعي والجنادب. كنت متأثراً جداً لمصير الدون، أتراه يشعر بأن الرصاص سيلعلع غداً؟ قضيت تلك الليلة أتقلب على فراشي، أسمع الطلقات النارية متصوراً صديقي نافقاً معلقاً بالسياج.

أدركني الفجر وأنا أشد السرج على فرسي وأتوجه نحو الجرارة. ارتاح بالي من جهة دون كيوت، اذ كان لا يزال في وجاره. قدمت اليه قطعة نقانق مدخنة أتيت بها من بيت المؤونة. قفز عالياً وخطفها من يدي. وقف لحظة الى جانب الجرارة. نور شمس الصباح يزيد حدة لون شعر عنقه البرتقالي المائل الى الاحمرار، اما فروه الكثيف المتماوج مع النسيم فيدل على أن الشتاء أصبح على الابواب. جلس لحظة يحك جلده مبتهجاً وعيناه نصف مغمضتين. ثم تثاءب ونهض وأوى الى وجاره. انسحبت آملا أن يبقى هناك لانه اذا ما ظل قريباً من "أليس الكبرى" فانه في أمان.

فجأة سمعت طلقات نارية تدوّي في التلال، وطفقت الايائل تخرج من الغابات هاربة نحو المزرعة في هلع أعمى. ورأيت شاحنة صغيرة مقبلة نحوي.

صرخ جون من العربة: "أبي، لقد ترك أحدهم بوابة المزرعة مفتوحة فهربت منها عشرون عجلة وتسلقت منحدر الوادي في اتجاه خط النار."

اندفعت خارج البوابة المفتوحة واقتفيت آثارها في التراب الخفاني. أخيراً شاهدتها واقفة داخل كوخ في حرج صنوبر. صرخت فيها لتتحرك وقدتها نحو المزرعة. وبينما كانت تتقاطر عبر البوابة سمعت ذئباً يطلق عواء فرح. في وسط المرج جلس دون كيوت، واذ تقدمت منه مد قائمته نحوي وبصبص بذيله وابتسم مكشراً عن أنيابه البيض. كان معرضاً للقنص عبر سياجي.

فجأة تراجع الدون الى الوراء كأن دبوراً لسعه، وقفز في الهواء وسقط على الارض. أدركت ماذا حدث متذكراً ما علمني اياه قناص ألماني في الحرب العالمية الثانية: "الصوت يأتي بعد أن تكون أصبت." في تلك الهنيهة سمعت صوت الطلق الناري آتياً من بين أشجار الصنوبر، ومن بين تلك الاشجار هجم المعتدي على الحيوان المنطرح ارضاً وانتضى سكينا من وسطه وقطع ذيله.

لم أنبس ببنت شفة من فرط حنقي. وأوقفت فرسي.

ضحك الرجل رافعاً يده علامة النصر.

حاولت أن أحفظ صوتي من الانكسار وقلت: "لقد أصبحت بطلا كبيراً، أليس كذلك؟ قتلت ذئبي. أخرج من أرضي الآن!"

نهض الصياد غاضباً وحدّق الي وانتشل بندقيته ومشى.

ألقيت نظرة أخيرة واحدة على الحيوان الذي كان يعني لي كثيراً. دمه الاسود غطى عشب الخريف والنسيم العليل داعب فروه الريان فكأنه يواسيه.

امتطيت الفرس وغادرت المكان من دون أن أنظر الى الوراء، متتبعاً القناص

لاتأكد من أنه ترك عقاري. لم أتمكن من الرجوع لدفن الدون. ليَعد الى التراب كما تعيد الطبيعة كل الكائنات الى عناصرها. اني أذللت دون كيوت ما فيه الكفاية.

## رسالة غريبة

على منحدر جنوب المزرعة جذع صنوبرة كبيرة قصفتها العاصفة. هذا الجذع أصبح محط قلقي أجلس عليه أتأمل المشاكل.

يعلم الله أني لم أنزع أبداً الى أن أكون صاحب مزرعة مواش. انه أمر حدث. كان عالم طفولتي صغيراً لا يتعدى شمال مدينة ميشيغان على ضفاف احدى البحيرات الخمس الكبرى. ذات يوم من شهر أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٢٩ حدث الانهيار الكبير في سوق البورصة الامريكية. وكان والدي مراقباً في شركة تحطيب وتعدين، وكان يعاني تصلباً في الانسجة والشرايين. وذات يوم عدنا نحن الصغار الى البيت فوجدناه طريحاً في الرواق الخلفي غير قادر على الحركة. فنقلناه الى سريره بمساعدة الجيران. لكنه نهض في اليوم التالي. قطع عصاة من غصن شجرة وانطلق يمشي في الغابة التي أحب.

لم يكن له شفاء. ولما عجز أخيراً وبات مقعداً بلا أمل أخذ حطابوه يقطعون مسافة كيلومترات لزيارتـه مظهرين محبتهم وحاملين هدايا، من فطر وتوت بري وسواهما، مقرونة بصلاة أو مقطع شعر.

في تلك الايام حلمت بأن أصبح عالماً في التاريخ الطبيعي. وفي غدوات أيام الصيف كنت أزحف الى فراش والدي في مخيمنا قرب البحيرة وأضطجع هناك مصغياً الى الاصوات المنبعثة من الغابة. كان يمتحنني سائلا: "ما ذاك؟" فأجيبه باعتزاز انه طائر الدخلة أو الطائر السماك، حتى لم يبق كائن حي لم أعرفه.

ذات يوم في أواخر فصل الصيف كنت أتبضع في المدينة، فرأيت مجموعة من زملاء المدرسة في زاوية شارع. واذا بسيارة "فورد" قديمة ذات سقف مطوي تمر بنا جيئة وذهاباً وفيها فتاة شقراء جميلة مستكنة الى جانب السائق. حدق اليها أصدقائي مأخوذين وكل واحد ضائع في تخيلاته الخاصة.

وكنت لم ألتقِ فتى من عمري منذ أسابيع، فأردت أن أشركهم في خبرتي فقلت: "مرحباً، احزروا ما وجدت هذا الصيف؟ عش طائر دخلة!"

ما زلت أذكر النظرات الغريبة التي رموني بها وهم يديرون الي ظهورهم ليراقبوا سيارة الفورد المتقهقرة. وذلك جعلني أخجل لاهتمامي بالطبيعة.

بعد بضعة أسابيع، تلقيت رسالة من خالي الراعي في اوريغون يتباهى فيها بأنه يخرج من باب منزله صباحاً ومعه اناء مسطح يجرف به سمكاً نهرياً للفطور. أي نوع من الرسائل هذه لتكتب الى فتى اذا لم يكن حضوره متوقعاً؟

## قصاص مرعب

اضطجعت في الظلام الدامس على التبن في الاصطبل الكبير، وأصغيت الى أصوات جديدة علي. كنت في الرابعة

عشرة من عمري وأصغر بعشر سنين من أحدث العمال في مزرعة خالي التي كان يسميها "يامسي." أما أنا فكان اسمي بلغة الرعاة "البرعم."

سمعت، وأنا أتقلب يقظاً منفعلا، عصف رياح الجبال عبر المروج الخضر الفسيحة، وقرقعة أخشاب السقوف، وخنة الجياد اذ تتنشق رائحة التبن في معالفها، والغطيط المدوي الصادر عن "طاقم" المزرعة المؤلف من ثمانية عشر راعياً وخادماً كلهم غريب عني.

كان ذلك في أواخر يونيو (حزيران) ١٩٣٩. ولكن على بعد نصف متر من الاصطبل غطت الارض طبقة من الثلج بلغ ارتفاعها نصف متر بعد عاصفة ثلجية هوجاء هبت من جبال كاسكاد. ثنيت ركبتي الى صدري طلباً للدفء وتساءلت كيف قايضت بيتي بهذا الاصطبل. وما كدت أغفو حتى علا في الخارج صراخ جنوني.

صحت: "النجدة! استيقظوا! أحدهم أصيب بسوء." وثبت من فراشي ومشيت فوق اثني عشر جسماً واندفعت خارج الاصطبل، كان رئيس العمال هومر سميث يضيء مصباحاً بعود ثقاب خرق الظلمة بنوره البرتقالي. كان هومر قصير القامة ممتلىء الجسم يرتدي قميص نوم بدا فيها مثل ثور في خيمة.

جأر في وجهي: "اللعنة! ماذا يجري هناك؟"

قلت لاهثاً: "إسمع ما يجري في الخارج."

صمتنا كلانا، واذا بالصراخ يعود تتبعه قهقهة مجانين.

حك رئيس العمال ذقنه غير مصدق وقال: "اللعنة! هذا ليس شيئاً. انه قطيع ذئاب. لو جلست أنت على الثلج لكان صراخك ارتفع عالياً مثلها."

ذئاب؟ أخذ وجهي يحمر. وتمتم راعي بقر: "أحمق من يشغل صبياً في مزرعة." توارى المصباح وأخفى الظلام خجلي.

صباح اليوم التالي وجدت آثار قوائم الذئاب قرب الاصطبل، ثم لمحت حركة على الثلج بين الاشجار. ذئبان مختبئان بين الخمائل. وقفا يراقبانني. أي خيبة هذه! توقعت أن أرى وحشين، لكنهما كانا حيوانين صغيرين شبيهين بكلبين، آذانهما دقيقة وفماهما حادان كفم ثعلب وقوائمهما مستطيلة وذيلاهما طويلان كثيفان. لقد طرحا شعرهما فبدا جلداهما كثوبين باليين منخورين بالعث. قرع جرس المطبخ فانطلقا فارين كرصاصتين.

كان خالي يملك أكثر من ثمانية آلاف هكتار وستة آلاف رأس بقر. نمضي أسابيع ونحن نجمع نتاجها ونسِمه. أما مهمتي فكانت أن أدفع العجول الشكسة الى منحدر حيث طاولة الوسم. هناك آلة قابضة من حديد تكبل العجول بكفين من فولاذ ثم تديرها على جوانبها للوسم والتلقيح ونزع القرون. وكنت أعمل مثل عفريت تكفيراً عن خزيي السابق.

يظهر ان الرجال كانوا مصممين على الانتقام مني لاني أيقظتهم من أجل ذئبين. أعطاني هومر سميث جواداً نشيطاً رمادياً مرقطاً يدعى "سليبي"، له صهيل كصوت مدفع. وعندما احتججت على أن الجواد قد يكون كبيراً جداً علي هز هومر كتفيه قائلا: "يا ولد، هذا الجواد

لطيف تماماً. وكم اعتنى بأمه عندما كانت مريضة!"

أمضى الرعاة أوقاتاً مرعبة وهم يطاردونني على جيادهم وفي أيديهم حبال في أطرافها أنشوطات راحوا ينخسون بها جنبي جوادي ليجمح بي. وظلوا هكذا الى أن انقلبت عنه. بقيت برهة على الارض، لكنني واصلت زحفي رجوعاً الى أن أشفق علي راع عجوز يدعى آش مورو.

قال: "يا بني، أنت واقع في مشكلة محدودة. جوادك يعدو أسرع مما أنت تتعلم. مد قدميك إلى الأمام ومل الى الخلف. فكر ايجابياً وقل لنفسك انك في المرة المقبلة ستعلم هذا الجواد درساً."

فكرت كثيراً ايجابياً لكن ذلك لم يجدِ. وصباح اليوم التالي طرحني "سليبي" في حوض ماء راضّاً ضلوعي.

قال آش: "أنت الآن أفضل من السابق."

## ذئاب منقذة

أصبحت وآش صديقين. كان ذات يوم يرافقني عندما أجفل جوادي من سنور واندفع كالريح. لكنني تدبرت أمري وأنا على ظهره.

قال آش ضاحكاً: "يا ابني، لا أريد أن أفسدك بالاطراء، لكنني أرى فيك أملا. قد تصبح يوماً راعي بقر ناجحاً."

في ذلك الشهر، سبتمبر (أيلول)، هبت عاصفة ثلجية هوجاء من جبال كاسكاد فادركتني وتملكتني وأنا أرتدي سترتي الصيفية بعيداً عن المنزل. فانحنيت على السرج وخفضت رأسي أمام العاصفة تحت قبعتي الواسعة، قبعة راعي البقر. أخفى بياض الثلج العاصف معالم الارض والجو فحال دون ادراك الاعماق والجهات والمسافات. وأيقنت أني سألاقي المصير الذي لقيه غيري من رعاة البقر القليلي الحظ.

بعد حين ذاب الثلج عن ثيابي. ثم ساد الجو برد قارس فبدأ الثلج يتجمد وغدوت مغطى بقشرة من الجليد الالماسي. ذلك الصباح حاول جوادي الحرون أن يعدو وعيناه مغمضتان أمام الثلج اللاسع كالسياط وذيله يميل كيفما مالت الريح.

كنت مذعوراً. لقد انصرف جميع الرعاة الى المدينة وتركوني أفتش عن الماشية الضالة في الحقول البعيدة. واذا لم أجد ملجأ أميناً فسأتجمد قبل أن يعود الرعاة ويفتقدوني. اشتدت العاصفة الثلجية الى درجة انني كدت أعجز عن التنفس ولم أعد أعرف كيف أسير.

خيّل الي أنني سمعت عواء من خلال العاصفة. ففتحت جفوني بأصابعي الخدرة. رمح امامي ثلاثة أطياف – ذئاب مغشاة العيون بقشور من الثلج. ربما كانت تعرف شيئاً، فلي خيار ضئيل باتباعها. اذا كانت أحست بوجودي فيبدو انها لم تكن تبالي للامر. يظهر أن الحيوانات المفترسة التي يطاردها حريق أو طوفان تنسى مخاوفها المزمنة في هدنة من اليأس.

بين لحظة وأخرى لم أكن أرى الذئاب وسط العاصفة، اضافة الى أن آثار قوائمها خفيفة بحيث لا تلبث أن تختفي. كنت في حال هلع وخشيت أن تكون

الذئاب مضطربة مثلي. لكنني تبعتها بايمان أعمى متقياً بقبضتي صدمات العاصفة، أنظر خلسة من تحت حافتها كل خمس خطوات أو ست الى أن شاهدت الذئاب تسير على غير هدى. وحاولت أن أزيل الثلج عن أهدابي.

فجأة خيل الي أن الريح بدأت تنحسر. ورأيت اشجاراً متشابكة كخيام هندية ومغطاة بملاءة بيضاء. وما تحركت وجوادي نحو ملجأ من شجر الصنوبر حتى سكنت الريح واتقدت الحرارة في خديّ المبتلين. فتشت حولي عن الذئاب التي أنقذتني فلم أعثر عليها.

في الليلة الاولى التي قضيتها في المنزل الحجري الخاص بخالي في مزرعته "يامسي"، فكرت في اختباراتي تلك. وفكرت في أولئك الصبية الذين التقيتهم في زاوية ذاك الشارع في ميشيغان، فتولد لدي احساس بأني كنت محظوظاً وانتصرت عليهم.

## انتهاك محزن

حياتي المنشغلة في المزرعة جعلتني لا أشعر بالوحدة، كنت أزور والدي من حين الى آخر، وهما كانا يكتبان الي غالباً، لكن رسائلهما أخذت، رويداً رويداً، تصف الحياة غريبة كئيبة. أما رسائلي فكانت تتفجر اثارة: الجياد التي روضتها، الذئاب التي شاهدتها تصطاد في المروج، الرجال الذين عملت معهم وتعلمت أن أحترمهم. كنت على شفير التطوع لاصبح راعي بقر.

لم أذكر لاحد حقيقة ذهابي الى المدرسة، كما تجنب خالي اعلان هذا الامر. لكنه ذات يوم أعطاني ملابس تملأ متجر ثياب وأعادني الى البيت.

أثناء سني الدراسة ضربت كل مظاهر النمو، أصبحت ذا صوت خفيض، أمشي كمهر حديث العهد مستعد لحمل الاثقال، معتقداً اني لا أعرف شيئاً، وأسوأ من ذلك

اعتقادي أن لا أحد غيري يعرف أي شيء. وأخيراً، عندما أصبح طولي ١٩٦ سنتيمتراً، علوت كل من كان يعلوني.

حين ألتفت الى الوراء أتذكر فرح العودة الى "يامسي." لكنني أتذكر أيضاً ما يحزنني. فلدى كل عودة كنت أرى كم تقدم خالي في السن. وأثناء الحرب العالمية الثانية خدمت في سلاح الاشارة وراقبت تغير تقاليد الغرب الامريكي. العالم الذي أحببته كراعي بقر اختفى بسرعة. الخيول أصبحت لطيفة، وجياد السبق خربت القطعان. أما الرعاة القدامى الذين عاشوا أيامهم في المزارع يقصون حكايات ويحفظون جوهر حياة المزرعة، فقد غادروا الى المدينة.

مع كل ذلك، عندما نظرت الى الارض بقيت أرى طاقات الطبيعة حقيقة قوية متحركة. وحينما طار نسر ذهبي عن القمة ماراً فوق "يامسي" فكرت في أنه ما علي الا أن أرفع ذراعي فأسافر معه. وعندما سمعت الذئاب تعوي شعرت بانه ليس لي الا أن أميل برأسي الى الوراء فتغمرني سعادة عفوية. ويوم تجولت في الغابة أحسست بوجود بشر هناك منذ عصور بعيدة، بشر اعتنوا بالارض. من المحزن أننا انتهكنا ميزات الطبيعة.

بعد الحرب تزوجت فتاة تحسن ركوب الخيل كما يحسنه الهنود الحمر. أحبت المزرعة كما أحببتها أنا. لكن خالي كان يخاف الانفجارات السكانية. وكل مرة تكون زوجتي غردي حاملا ينسى أني رئيس عمال "يامسي" ويعنفني كطفل مزمجراً: "أنت كوالدتك تماماً، أنجبت كل هؤلاء الاولاد الذين لا تستطيع تدبير أمورهم ولها زوج لا يستطيع أن يعمل."

صممت على امتلاك المزرعة، أما خالي فكان يلوّح بها أمامي كما يلوّح بجزرة ليحول دون تحركي. تبخرت وعوده ببيعي يامسي. وكلما ذاب الثلج في الربيع عرضها للبيع. أقبل الناس أفواجا وظننت أنني خسرت المزرعة، لولا غزوة الفئران.

## غزوة الفئران

في أحد أيام صيف ١٩٥٨ وقف خالي الذي قارب منتصف السبعينات من عمره بقامته الفارعة الناحلة الانيقة، عابساً مغموماً خوف انهزامه أمام طوفان جنوني من فئران الحقول التي تحفر أنفاقاً تخترق المروج. كنا نراقب خراب "يامسي."

أمام أعيننا جاشت الارض وانقلبت سوداء كأن هناك ألف محراث خفي يحركها. واذ تزاحمت الفئران للحصول على غداء امتلأ الجو بزعيق غاضب حاد فكأن الطبيعة أصيبت بمس من الجنون.

مقاطعة كلاماث الزراعية الغنية شرق متنزه بحيرة كريتر وجبال كاسكاد أصابها وبأ الفئران الذي كان من أعظم الاوبئة التي عرفها التاريخ.

هذا الوافد تسببه عوامل عدة. الحروب الحيوانية الضارية التي حصلت في العقد السابق تركت للفئران أعداء طبيعيين قلائل. أما محاربة الحيوانات القارضة بالمواد الكيميائية فمنعت الامراض التي تحصر العدد. وبعد سنة غذائية جيدة للفئران اضطر الناس الى النزوح، وسجلت الفئران في توالدها رقماً قياسياً خلال

شتاء معتدل. الفأرة الوليدة لا يمضي عليها ستة اسابيع حتى تكون هي ذاتها جاهزة للولادة.

في ذلك الشتاء حاولنا في "يامسي" أن نؤمن العلف لستة آلاف رأس من الماشية. كنا نفتح ثغرة في كوم التبن فنجد داخلها تجمعاً من الفئران يلجأ اليها نهاراً. أما عالفو الماشية فكانوا يشدون أكمامهم وحواشي سراويلهم بخيوط من قنب بغية ابقاء الفئران خارج ثيابهم. اجتاحت الحيوانات القارضة المنازل فقضمت ستائر النوافذ وأغطية الاسرة. أما النساء فلجأن الى النوم في مغاطس الحمامات.

تفقد أصحاب المزارع أكداس التبن فوجدوا خيوط القنب ومقابض المناجل مأكولة والسروج ملتهمة بحيث لم يبق منها الا حلقات الاحزمة. وذات صباح أدرت محرك الشاحنة فاذا بوكر فئران في المحرك ينفجر ملتهباً ويدمر العربة. لم يكن لدينا ما نفعله الا الأمل بوقوع كارثة طبيعية تبيد هذه الآفات القارضة.

انتهى الوبأ بلا ضوضاء ولكن ليس قبل أن تمنى المنطقة بخسائر تقدر بملايين الدولارات. نفقت الفئران مهترئة في التراب. قال بعضهم: "انها عجيبة من العجائب." ولكن كان هناك من شعر بأننا نحن سبب الكارثة التي كانت ثمن عجزنا عن تفهم كوابح الطبيعة وموازينها ورفضنا التحالف مع القوس التي تحافظ على نظام الطبيعة.

بعدما حولت الفئران الحقل حجارا صغيرة أذعن خالي وباعني المزرعة. وما كدت أسرع لاخبر زوجتي وأولادي الخمسة أنني اشتريت العقار حتى صرخوا في وجهي: "ستجوع حتى الموت." وأشرقت عينا غردي فرحاً، أما الصغار فكانوا مندهشين.

بعد ذلك انكشفت لي الحقائق فملأتني شكوكاً. قصدت جذع الشجرة المقطوع الذي طالما جلست عليه ونظرت ملياً الى الوادي حيث تركت الشمس الغاربة ذكريات وردية حمراء. انتابني احساس غريب بأني كنت مراقباً، فالتفت الى الوراء فرأيت ذئباً كبيراً واقفاً بقوائمه الاربع على جذع الشجرة، وما لبث أن ركض نحو المرج وبدأ يعيث فيه فساداً كأنه له وليس لي. فأدركت أنني لست المالك الوحيد للمزرعة.

## عودة الدون

كان عليّ أن أرى ذلك الذئب الكبير مجدداً لانه أصبح "الدون" خلال الصيف والخريف الاولين بعد امتلاكي المزرعة. لكن مشاعري لدى رؤيته مقتولا بطلق ناري تجاوزت الغضب والحزن. مع دون كيوت كنت أشعر أني أقتفي شيئاً وهمياً هو تفهم مصير أرض أُعطيتها لاديرها، وعندما وضعت المأساة حداً لصداقتنا أصبح ذلك التفهم بعيد المنال.

طوال الايام التي تلت مقتل الدون دفنت نفسي في العمل أحضّر الماشية لفصل الشتاء. وذات صباح في شهر ديسمبر (كانون الاول) وقفت أتأمل السماء المتجهمة، وقلت لجون: "أظن من الافضل أن أنقل "أليس الكبرى،" فقد نحتاج اليها لجرف الثلج."

تلألأت عيناه وقال: "ماذا في شأن قطع الغيار؟"

أجبت: "سنسير من دونها. من الافضل أن تأتي معي فقد احتاج الى مساعدتك." وما كدنا نتوجه نحو الجرارة حتى بدأ ثلج خفيف يتساقط وهبت ريح عاصفة من الجبال. بدت "أليس الكبرى" باردة وغير مغرية. وضع جون يده على الكابح.

قال: "هاي، ماذا تحت الجرارة، أرى شيئاً يتحرك؟"

وقفت جامداً لأرى. لم يكن هناك شيء، بل ثلج يتساقط. ثم سكنت الريح فلمحت شكلا أسود فوق بياض الثلج. واذ توجهت متثاقلا نحو الجرارة وجدت هناك ذئباً لاح ذيله تحتها وهو واقف على ثلاث قوائم.

صرخت: "انه الدون، انا لا أصدق عينيّ. تركته نافقاً!" مددت يدي الى جيبي كالعادة أفتش عن قطعة خبز أو اصبع نقانق، لكنني فطنت الى أنني لم أحمل معي أي طعام. كان الذئب جائعاً. وكان الانقشاع سيئاً اذ ان جهاز التذويب لم يؤثر الا قليلا في الثلج المتساقط على الزجاج الامامي، وانحصرت رؤيتنا من خلال رقعتين صغيرتين. لم أستطع أن أفعل شيئا للدون فقلت: "لنذهب الى الاصطبل يا جون." كان في وسعي أن أستعمل الجرارة لجرف الثلج، لكن الدون يحتاج اليها ليبقى حياً.

كان للعثور على الدون تأثير في نفسي. لكنني ما زلت أتساءل عما اذا كانت صداقتنا نتيجة اطلاق النار عليه وانزعاجي لعذابه. عزمت على الاّ أجدد علاقتنا. قد أهديه جيفة، لكنني لن أقدم اليه بعد الآن خبزاً ولن أتدخل في أموره.

أعطيت اوامر صارمة بألا يقترب أحد من الجرارة، لكنني في اليوم التالي كسرت الاوامر بنفسي.

رأى ديتون أن جرح الدون قد يكون ملتهباً ووصفت أنا دواء هو اصبع نقانق مع قرصين من الـ"سلفانيلاميد." ثم غليت ورق صنوبر على الموقد ووضعت في يدي قفازين من المطاط وغطّست اللحم في الماء المغلي بورق الصنوبر وتركت هديتي على الجرارة. في اليوم التالي لم أجد لها أثراً. ربما سرقها غراب. لكنني شعرت بأنني أفضل حالا. انتظرت وأملت.

### معرفة الذكر

في أواخر يناير (كانون الثاني) خيل اليّ أنني رأيت الدون مجدداً. ترجلت عن فرسي وأخذت منظاري وصوبته نحو نقطة مميزة على منحدر حرجي حيث أذابت حرارة الشمس الثلج عن قسم من ورق الصنوبر. ظللت بضع دقائق أتطلع من خلال المنظار الى موضع لمحت فيه حركة.

بغتة، في انقشاع صاف، لمحت الحركة ثانية. ذئب صغير ذو قوائم أربع قفز عن جذع شجرة مقطوع واندفع الى الامام والتقط فأرة قذفها في الهواء وابتلعها. بعد ذلك ركض نحو "أليس الكبرى." انه أنثى! ولما اقتربت من الجرارة أخذت تتحرك بحذر تارة الى الوراء وطوراً الى الامام مستعدة للهرب اذا وجدت ما يجفلها. بدأت ضلوعها تضطرب ثم ألقت من فيها طعاماً على الارض. رفعت رأسها وأصغت وانتظرت ثم ركضت عبر المرج عائدة الى الحرج.

مضت نصف ساعة ولم يحدث شيء. اخترق البرد سترتي الثقيلة واقشعر بدني. وكدت أجزم بأن الدون نفق في غاره وأن جهد الانثى لتغذيته لم ينفع. لكنه ظهر فجأة من وراء شفرة الجرارة وهو يعرج متألماً. تحرك متثاقلا الى حيث وضعت الانثى الطعام. يبدو أن ألمه اشتد عليه فلحس عقب قائمته بحذر. أما فروه الرث فدل على اعتلال صحته.

كنت منشغلا بمراقبة الدون ففاتني أن ألحظ الذئبة الصغيرة تعود راكضة عبر المرج. اقتربت منه برقة وهي تبصبص بذيلها كاشفة عن أنيابها بابتسامة، ثم زحفت نحوه بخضوع وألقت بعض الطعام من فيها. دفعها الى الوراء وازدرد الطعام بشراهة.

في الساعة التالية عادت الانثى أربع مرات وفي كل مرة كانت تحمل للدون طعاماً. انها بحسب تقديري، لم تبلغ السنتين من عمرها ولمّا تنتج بعد. عجبت لقوة الغريزة العائلية عند الذئاب. لم يكن هناك رباط زوجي، لكن الانثى تعنى بفرد مصاب من جنسها. التصرف كان دائماً هو اياه. يختلس الدون ما تقدمه اليه الذئبة مظهراً عجرفة الذكر وسماجته. فكأنه، اذا ما فعل غير ذلك، يكون بمثابة متقبل صدقة.

ان دون كيوت على رغم تصرفه الشرير أصاب يسراً بما قدمته اليه الانثى من خدمة صادقة. كانت رحلاته الاولى لاستكشاف منطقته قصيرة ومؤلمة وحرجة، لكنه سرعان ما اكتسب مهارة جعل قائمة خلفية واحدة تقوم مقام اثنتين. وذات يوم كنت ممتطياً فرسي فرأيت الزوجين يطاردان الفرائس معاً، ورأيت الدون يحاصر حيواناً قارضاً مختبئاً في نفق ثلجي ويحفر بمخالبه الامامية ليخرجه من النفق ويفترسه.

أما الانثى فجلست تراقبه عن كثب وتبصبص بذيلها بينما كان هو يأكل فريسته كلها من دون أن يشركها في قطعة. وما ان وصلت الى البيت حتى زالت غصتي العاطفية. الدون تعافى.

## الذئبة الام

تعلمت من الدون كثيراً عن تصرف الذئاب. لكنه الآن وقد تعذب على أيد بشرية وأصبح كسيحاً، لا يمكن أن يعتبر في حال طبيعية. لأسباب استقصائية احتجت الى الحصول على ذئبين زوجين أجعلهما ينتجان وهما محصوران في قفص وأربي جراءهما على درجات متفاوتة من الشراسة مروضاً بعضها وتاركا بعضها الآخر ينمو على فطرته. فكرت في أن الدون سيهوّن الامر علي فيتزوج الانثى. لكن تزواجهما لم يتم في فبراير (شباط) موسم السفاد عند الذئاب. ويبدو انها كانت صديقة ورفيقة صيد فقط لدون كيوت.

أثناء فصل الشتاء راسلت معارف لي يروضون ذئاباً. وفي الربيع سمعت من زوجين صديقين في بنسلفانيا يشرفان على حديقة حيوان خاصة أن لديهما ذئبين غريبين عليلين شوقاً الى موطنهما الاصلي، ويريدان التخلص منهما. أسرعت الى الهاتف وأنا أتخيل زريبة صغيرة جميلة قرب مجرى مياه الربيع ووجاراً



نظيفاً حيث تستطيع انثى الذئب أن تنتج، وثقباً صغيراً بحجم العين أراقبها منه. أطعم بيدي بعض الجراء وأربيه شبه داجن وأجري جميع أنواع الدراسات على تصرفه.

شحن الذئبان جواً الى الغرب. نقلتهما في شاحنة من مطار شلالات كلاماث الى "يامسي." ساعدني ديتون في حمل قفصهما الى الحظيرة الجديدة. وسرعان ما كان الذئبان العاويان يتنشقان هواء أوريغون ملء رئاتهما.

سميت الزوجين "جاك" و"فيولا" على اسمي الصديقين اللذين أرسلاهما وتركتهما وحيدين يسويان أمورهما. راقبت أي تصرف يصدر عنهما نتيجة حصرهما فكانا، لولا نزوع جاك الى التحرك بعصبية، كأي ذئبين من الذئاب التي شاهدت عبر المزرعة.

كانت فيولا حبلى ووقت نتاجها يقترب بسرعة. جددت موضع نتاجها، فرشته بالتبن ونشارة الخشب وبعض الاسمال، هذا كل ما يمكن أن تشتهيه ذئبة ام. وبعد يومين استكنت فيولا في فراشها ونتجت ستة جراء عمياء لا تقوى على الحراك. بفضول فائق راقبتها من خلال الثقب الذي غطيته بقماش أسود لاجنبها النور المزعج. وحين اعتادت عيناي الظلمة استطعت أن أرى التفاصيل. ما زالت فيولا تلهث متأثرة بآلام النتاج وتدفىء الجراء بجسمها. هذه الجراء تشبه ستة مناجذ. تلحس فيولا أجسامها وتدلكها لتبعث فيها حرارة الحياة.

صمّمت على أن أزود الذئاب طعاماً طبيعياً. وكانت جهودي جبارة. أثناء هذا الوقت لم أتمكن من أن أنجز شيئاً كثيراً في ما يتعلق بالمزرعة، لكنني انتهيت الى تقدير بالغ لمساهمة الحيوانات المفترسة في ابادة القوارض. كان جاك وفيولا يفترسان يومياً ما يزيد على خمسة عشر خلداً. وكلما كبرت الجراء ازداد العدد.

لما كان القصد من الاحتفاظ بجاك وفيولا هو تربية جرائهما والتعلم منها فقد قررت أن "أخطف" جروين. يجب أن أفعل ذلك قبل أن تتفتح عيونهما، على أمل أن أترك عليهما الانطباع الذي تركته أمهما. وبعد ان يستقر الجروان سأخطف اثنين آخرين تاركاً الاثنين الباقيين مع والديهما. لم تكن لدي رغبة في تدجين الجراء، انما رغبتي كانت في ترويضها

الى الحد الذي يتيح لي مراقبتها من دون أن تهتم لوجودي.

حينما بلغت الجراء بضعة أيام من العمر أخرجها جاك وفيولا من الحظيرة الى وجار كانا حفراه بين جذور شجرة صنوبر. أخذت علبة معدنية فارغة وحفرت في التراب الناعم عند نقطة سمعت فيها مواء الجراء. أخيراً لم يعد ثمة تراب أحفره. وانكشفت لي حفرة مغطاة بشعر ذئب. في الضوء الخافت رأيت حركة جراء. التقطت اثنين ووضعت بعناية حجراً على الثقب وغطيته بتراب واسرعت بالجروين الى المطبخ ووضعتهما في صندوق محشو باسمال ناعمة أمام باب الفرن المفتوح فاستسلما الى النوم.

ذوبت حليباً مجففاً في الماء ووضعت المزيج على الموقد. وعندما أصبح ساخناً سكبت بعضه في قنينة ارضاع صغيرة. ثم أيقظت الجروين وسكبت السائل الساخن على معصمي لاتفحص حرارته. وعبثاً حاولت حمل الجروين على الرضاعة من القنينة. ثم أخذت غردي القنينة من يدي مستهجنة، وفي لحظة كان أحد الجروين يرضع بلهفة.

قلت: "عندما تنتهي الذئبة الام من ارضاع جرائها تنظفها بلسانها." حدقت الي غردي محملقة.

اتفقنا على تنظيف الجروين بمحارم ورقية رطبة. تمددت معدتاهما واستكانا في "عشهما" امام باب الفرن واستغرقا في النوم.

عندما نجح الجروان في التحول من رضاعة ضروع فيولا الى قنينة الارضاع وحلّت رائحتنا محل رائحة والديهما، قبلانا تماماً. وأصبحا حينما يشعران بوقع اقدام يشرعان في العواء والنباح ويستشمان حلمة القنينة وهما لمّا يبصرا. لم يكن سهلا علي أن أضع الحلمة في فم شيطان صغير يتلوى ويصرف كشريط تسجيل يدور بأقصى سرعة. لكنني أخيراً أتقنت الفن. وسرعان ما كنت أتولى تقديم وجبة الساعة الثالثة صباحاً.

## تدريب صيادين

في يومين اثنين، عندما بدأت عيون جروينا تتفتح، خطفت جروين آخرين من الوجار ودسستهما في قميصي. عيونهما كانت مفتحة لكنَّ لونها ما زال لون الطفولة الازرق. رمقاني غير متأكدين، أصديق أنا أم نسر جارح يطير بهما الى النهاية.

كانت فيولا تفعل أفضل مما كنا نفعل أنا وغردي. جراؤها أكبر من جروينا وشعرها البني ناعم لامع. أما جروانا فكانا اشعثي الشعر منتفخي المعدتين. تقبّل الضيفان الجديدان قنينة الارضاع بسرعة. لكنهما خلال يومين أصبحا رثي الشعر كالجروين الاولين. كان شعوري بأن الجراء حين تتدرج الى الطعام الطبيعي ستنمو كالنبات. ولحسن الحظ هذا ما حدث.

كل يوم كنت آتي الى الجراء الاربعة بحمل من المناجذ وأقضي بعض الوقت معها ألاعبها كأم. لكنَّ ذلك كان يحول دون انجاز ما يتوجب علي من أعمال في المزرعة. وحللت المشكلة باصطحاب الجراء أينما ذهبت. تكيفت والشاحنة، لكنها آثرت ظهر الفرس حيث كان كل

اثنين يستكنّان سعيدين في جانب من جانبي الخرج. في البدء كانت "ستريت ادج" تصل وتشم الجراء ثم تحدث ما يشبه الطقطقة بعمودها الفقري، فتعوي الجراء خصوصاً عندما يقترب منها أنف الفرس. ان جواداً آخر قد يرمينا جميعاً لكن فرسي غدت لينة مطواعاً عبر السنين.

على نحو غير منطقي لا يعرفه الا الاطفال، سمي الجروان الاولان "كوي" و"بوي" والاثنان الاخران "نك" و"بنجي." عندما اختطف كوي وبوي من أمهما وهما مغمضا العيون كانا هادئين. أما نك وبنجي فاختطفا وهما مفتحا العيون لذلك كانا اكثر عصبية واستقلالا. وأما الجروان اللذان تركناهما مع فيولا فكانا يختلفان تماماً. يخافان عندما يريانني وحين اقترب منهما يهرعان الى وجارهما.

الجراء الستة جميعها أمضت معظم وقتها في عراك مصطنع، يصارع احدها الآخر فيرميه أرضا كأنه يفتك بفريسة. لكن مأساة ضربت المجموعة ففرقتها. فذات يوم سمعت شغباً في خم الدجاج. أسرعت اتفقده فوجدت أحد جروي فيولا قد حفر طريقاً له من وراء السياج. أخذت الحيوان المذعور بيدي فأخفى رأسه في قميصي وهو يرتعد خوفاً. وعندما أرجعته الى الحظيرة شمه جاك وأرداه من فوره. قد تكون رائحتي أو رائحة الدجاج "حولته" حيواناً غريباً.

خفت على الجرو الآخر، لكنه عاش ونما. غير أنه بدا عصبياً وبائساً في الاسر. وأخيراً أطلقته. وكنا نراه بين الفينة والاخرى يلتقط الفئران في المرج بضراوة كما يلتقطها أي ذئب ضار. انه لم يعد يريد أي ارتباط بانسان.

فطمنا الجراء الاخرى عن الطعام والحليب. فعادت الى غريزتها تصطاد. ذات يوم حط جندب كبير على المرج فاكتشفت كوي مكانه وجرت نحوه مثقلة الخطى منخفضة الرأس. أما الجراء الاخرى فكانت تراقبها بغرابة. وبوثبة طويلة أطبقت كوي على الجندب بمخالبها الامامية وحجزته في فيها. فاذا بالجراء تقبل نحوها وتأخذ في معاركتها حتى سكنتها. استعادت كوي نشاطها في هنيهة وابتعدت مسرعة والجراء الباقية تطاردها. اكتسحت ازهار غردي وعبثت ببقعة من الاقحوان قبل ان تتابع طريقها بين العشب المزهر. أخيراً تعثرت وسط نباتات ذات أزاهير عنقودية لجينية. وانتهى كل شيء: الحشرة والازهار.

أما بنجي فهو الذي جعل الجراء صيّادة أبداً. وقف مصادفة على مخبأ للفئران تحت أوراق الشجر. فاذا بفأرة تزعق وتقف على قائمتيها الخلفيتين وتعض بنجي في شفته. لم يثنه ذلك عن عزمه فغرز مخالبه في الفأرة وقبض عليها وألقاها نافقة. أما الجراء الباقية فجلست في شكل دائرة وأخذت تترصد الفرصة لتختلس عضة من الفريسة. وكلما اقترب أحدها من بنجي كشر هذا عن أنيابه الصغيرة وزمجر.



حين وصل جاك وفيولا كنت منهمكاً في تأمين المياه لجزء من المزرعة يدعى حقل كاليموس. كان المصدر الوحيد لمياه

الصيف بئراً عميقة وكانت الآلة التي تحرك المضخة تحتاج الى اصلاح.

في ذلك الربيع جبت منطقة كاليموس وأدركت سرها الخفي. كان عندي احساس غريب بأن الهنود القدامى يراقبونني. واذ جلست على حافة الوادي رأيت حجراً غريباً مثلّما على الارض فالتقطته لاتفحصه. كان ثقّال شبكة صيد هندية. كم مضى عليه هناك؟ ألوف السنين؟ ولماذا كان هناك بعيداً عن أي بحيرة؟

بعد ذلك لاحظت تحتي على منحدر الوادي طبقة من تراب نبات مائي مما يدل على أن الارض كانت مغمورة بمياه بحر داخلي. اذاً لم يكن ثقّال شبكة الصيد في غير محله. كانت هناك بحيرة في وقت ما. تخيلتها ممتدة أمامي وعلى ضفافها قرى هندية وعلى سطح مياهها هنود في زوارقهم يجمعون بذور زنابق الماء ويلقون شباكهم مثقلة بحجار مثلّمة بغية صيد السمك. وفوق الرؤوس تحلق طيور البط والاوز وعلى امتداد الشاطىء تجثم طيور الكركي.

صرفني جاك وفيولا عن تأملي في كاليموس. وفيما أنا أغير المكربن الكبير في محرك المضخة عادت الي فكرة البحيرة. قد استطيع بناء سد على فم الوادي لخزن المياه المتدفقة من ثلج الشتاء. يمكنني أن أعيد بناء البحيرة التي محاها الزمن.

تملكني الانفعال. كان أفراد عائلتي سكان أراض جافة، وكلهم معتاد سماع صهيل الخيل في الصباح الباكر. وأنا منذ أيامي الاولى في شمال ميشيغان عرفت صوت تدفق الماء على شاطىء البحيرة. ان سقسقة الطائر المائي تحدث في نفس الطفل أثراً لا يزول.

دلني مسح أولي للارض على أن البحيرة ربما كانت بطول ١٦٠٠ متر وعرض ٨٠٠ متر. في اليوم التالي اتصلت بمتعهد لبناء السدود. طلب مئة ألف دولار لانجاز العمل. كان المبلغ يتجاوز امكاناتي. اذا كان لا بد من بناء سد فيجب أن أبنيه بنفسي. لكنني لا أعرف كيف أبني سداً.

كلفت مهندساً وضع التصميم ثم سعيت الى طلب رخصة بناء. عرفت المصاعب التي ستواجهني معتبراً بما لقيت في محاولة سابقة مع أصدقاء لي في بناء سد بعلو ١٨ متراً وعرض ٧٥ متراً وطول ٤٠٠ متر.

في عملية بناء البحيرة كنت في حاجة ماسة الى "أليس الكبرى." وكأن دون كيوت أدرك أنني سأسلبه قصره، فابتعد عندما اقتربت منه وتوارى بين أشجار الصنوبر.

انطلقت "أليس الكبرى" وهي تهدر بصوت كقصف الرعد نافثة دخاناً أسود. وما ان تحركت حتى شاهدت العشب يختفي تحت سلاسل عجلاتها تاركا خطين متوازيين من صدأ يشبه تراب الحديد. صلّيت من أجل أن تستطيع "أليس الكبرى" انجاز المهمة. هناك أمور كثيرة تنبغي تأديتها: أولاً، ازالة الاغصان المقطوعة من منطقة البحيرة، ثم حفر موضع السد حتى الوصول الى طبقة صخرية وفقاً لتعليمات المهندس الحكومي. بعد ذلك علينا نزع الطين عن الحجار البركانية لاستعمالها في بناء السد.

اقتنيت حفارتين مستعملتين اضافة الى محدلة. وعندما جئت بكل المعدات الى موقع السد كان ثمة منظر مؤثر من المعدن الصدىء.

فتيان العائلة مجموعة مخشوشنة. تيلور، وهو في الثالثة عشرة من عمره، قاد "أليس الكبرى" التي تزن ٣٥ طناً. وقاد جون، وهو في الخامسة عشرة من عمره، حفارة بلغ حجمها ١٨ متراً مكعباً. وقدت أنا الحفارة الثانية. أما ديتون البالغ من العمر ٤٢ عاماً فكان يجر المحدلة تارة الى الامام وطوراً الى الوراء ليرص الارض جيداً. وبدأ الموقع يشبه مقلعاً كبيراً للنحاس.

مضى صيف وخريف. وآخر حمل من التراب دك في السد. طبقاً لجدول العمل وصل المهندس الحكومي وفريقه لتفقد السد. وبعد اجراء مسح شامل قال لي انه، باعتبار النفقات التي صرفت، لا يمكن بنّاء محترفاً أن يبني مثل هذا السد الفخم.

صافحته وانا منهوك القوى، ومشيت بين الاشجار. لقد صممت، كيفما كان الامر، على بناء سد لبحيرة نضبت منذ ألوف السنين. تعاونت مع الطبيعة الام بغية ايجاد موطن للحياة البرية.

## دعوة الى النزهة

خلال ذينك الصيف والخريف اللذين مضيناهما في العمل في السد اكتسبت الجراء مهارة في الصيد، لكنها مهما اشتهت طعامها البري فلم يفتها أن تتسول فتات غداء. واذ توقف الآلات الكبيرة هديرها القاصف تجعل الجراء من ذلك حدثاً اجتماعياً. يعوي نك وبنجي عن بعد ثلاثة أمتار. ويجلس بوي عند أقدامنا يراقب وينتظر. وتدب كوي نحو أحضاننا تكسو وجوهنا بالقبلات وتدير رأسها لندرك أنها تود أن نحك أذنها. كانت كوي ألطف الجراء وأحبها الينا.

الى اللحم كانت الجراء تحب الشمّام والخوخ (البرقوق) المقطوف حديثاً. تأكل الخوخ حالا أما الشمام فيوفر للتسلية بعد الظهر. يمسك أحد الجراء قشرة ويصعد الى رابية محافظاً على لقمته من كل متحدٍ. انه يذكرني بألعاب الدون القديمة.

وعندما نكون في قيلولة يخرج دون كيوت من الغابة ليراقبنا كأنه يتذكر ولائم زمن مضى. لكنه لم يكن يأتي من مكان بعيد في الغابة، ربما لانه أدرك أن شلل قائمته الخلفية جعله قابلا للعطب اذا ما ابتعد كثيراً عن وجاره.

في هذا الوقت تبدلت الجراء شكلا وهيئة. وهي كالاطفال، عندما تخف حركتها يظهر دهاؤها. ذات يوم تفرست فيها فرأيتها فقدت مظاهر الجراء وغدت طويلة القوائم ناحلة الاجسام قادرة على مسابقة الرياح. نك وبنجي وبوي بدأت تظهر استقلالية أكثر من ذي قبل. فبعدما كانت تنتظر وقت الانصراف لتتوسل الصعود الى الشاحنة، باتت تقتضي ملاطفة وتملقاً. الذئاب ليست كالكلاب. فاذا لم ترغب في فعل شيء ما فهي لا تفعله. ومن هنا تأتي شراستها.

قال تيلور بأسف: "انها ستتركنا قريباً."

هززت برأسي: "كلها ما عدا كوي، اظن انها ستبقى معنا."

كان نك وبنجي الجروين الاولين اللذين اختفيا. خرجا بعد ظهر أحد الايام ولم يعودا. وذات يوم، وقت الغداء، اختفى بوي. لم أره لاني كنت مشغولا بمداعبة كوي. وحينما نظرت الى حيث كان يقف رأيت أعشاباً ترقص في مهب الريح.

واجهتني مهمة أخرى قبل الشتاء، وهي نقل حجرة رعاة البقر الى موقع البحيرة. كانت غير مدهونة وملتوية من شدة حرارة الشمس ومهشمة من قوة الرياح. زجاجها مكسور نتيجة اصطدام الطيور به، لكن رعاة البقر الذين ترعرت معهم كانوا يستعملونها. وفي خشب سقفها القاتم الذي عششت فيه العناكب حفرت أسماء الرعاة وبينها "آش مورو" و"هومر سميث." وهؤلاء ماتوا جميعاً.

لم أصنع للحجرة بديلا، بل رفعتها ووضعت تحتها قطعتين ثقيلتين من خشب الصنوبر وجررتها وراء "أليس الكبرى" الى الحافة الشرقية للسد. ثم ثبتها بمقدار ما استطعت. كنت متعباً من تدفئة البيت الكبير في "يامسي" بينما كانت غردي والاولاد في المدينة حيث يتعلمون. أردت مكاناً أضع فيه قدمي أمام موقد هادر وتقضي كوي ليالي الشتاء في الداخل.

ذلك الشتاء بدأت الصيد مع كوي على البقعة المغطاة بالثلج حيث ستكون البحيرة يوماً. أمسينا مطاردين ليليين كبيرين. تعوي الذئاب في التلال فنجيبها، أنا وكوي، منشدين أغنيتنا الخاصة فرحين بوجودنا معاً.

في فبراير (شباط) اعتدنا عواء الحيوانات المفترسة لأقل سبب. ذات ليلة كان ذئب وحيد يعوي خارج الحجرة. انه لعواء مألوف! بعد دقائق تكرر العواء ورأيت الذئب بوضوح على الثلج. لا ذيل، ثلاث قوائم. انه دون كيوت!

ناديت: "هيا يا كوي!" لمست أذني بأنفها وغادرت المكان. أردتها أن تتمتع. لكنني كنت قلقاً. فالغابات ملأى بذئاب قد لا تقدِّر كوي.

عادت كوي بعد يومين تجر أرنباً ثلجياً كبيراً نحو الحجرة. في احدى كتفيها غرزة ناب وهي تعرج ألما من عضة في قائمتها الامامية. لكنها كانت مسرورة.

## السماك الأول

ضربت كوي ركبتي بذنبها فيما نحن نراقب القطر الازرق الاولي يسيل من مياه الثلج الى "البحيرة." لم يحدث في البدء أي تغيير منظور. امتصته الارض العطشى. ولكن تلك الليلة هطل مطر غزير أذاب ثلوج القمم وأجرى سيلا جارفاً نحو حوض البحيرة. تدفقت المياه الى القاع ثم تجمعت أمام السد وبدأت تتحول تدريجاً من مستنقع الى بركة فبحيرة صغيرة.

بعد ذلك سمعت، وأنا جالس أمام الغرفة، نعيقاً محزناً آتيا من السحب الرمادية المتفرقة في الجو. واذا بخمسة طيور سمّاكة تصفر وتحوّم فوق البحيرة كأنها غير مصدقة أن هذه الكمية من الماء يمكن أن توجد هنا. حبست أنفاسي اذ بدأت هبوطها نحو الارض. رأيت سطح البحيرة الصافي يتماوج حينما خفقت الطيور أجنحتها الى الوراء

لتبطىء هبوطها. شربت وهندمت أرياشها.

في اليوم التالي كان هناك عدد متزايد من هذه الطيور ومن البط والاوز. ومثل مغنطيس لا يقاوم كانت البحيرة تجذب طيور الماء من الجو. انها مكافأة الطبيعة لنا.

اتسعت البحيرة رويداً رويداً من أربعة هكتارات الى عشرين فأربعين. جذب تكاثف الحياة البرية النسور الضعاف فجاءت تفترس البط والاوز فارزة ما كان منها مريضاً وغير مؤهل للحياة. أدركت وأنا أراقبها كيف كان يجري نظام الافتراس الحيواني بسلاسة قبل أن يأتي الانسان.

مع حلول فصل الربيع وبدء تحسن الجو عادت غردي والاولاد من المدينة وجربنا أسلوبي الجديد في الري. ملأنا المستنقعات والقنوات والبرك ثم تركنا المياه الجليدية تسخن في حرارة شمس الجبال وتتحول الى لون الشاي قبل أن ندفعها الى المروج.

ذات يوم امتطيت "ستريت إدج" وذهبت الى المزرعة. فهز التغيير مشاعري. للمرة الاولى أرى نظاماً فاعلا في الارض. كنا نتعاون مع الطبيعة بدلا من أن نهاجمها. عادت المستنقعات القديمة. وبين ليلة وضحاها ظهر نبات جديد خشن، غذاء للمواشي وموطن جديد كامل للحياة البرية. كنا سابقاً نعتمد السموم المبيدة. والان عندما تفحصنا المناطق حيث حوّلت الجنادب الارض غباراً وجدنا ان عدداً كبيراً من الطيور انتقل اليها وأن الذئاب تراقب الراكون سارق الاعشاش. فراخ الطيور نمت مع الوقت والجنادب التي فاتتها لا تملأ صفيحة.

ذات فجر انطلق عويل غريب من جهة البحيرة جعل كوي تعوي وتنبح. خرجت وراءها من الحجرة واذا بالعويل المخيف يتكرر عبر المياه. ثم رأيت شيئا يسبح على بعد مئة متر من الشاطىء. انه طائر سمّاك. الاول من نوعه أراه منذ طفولتي في ميشيغان. كان يسبح في البحيرة من جانب الى جانب يفتش عن سمك. لكنه وجد ضيافتي فقيرة فطار. عزمت على الاتيان ببعض السمك اغراء له بالبقاء في المرة التالية. ان بحيرة من دون سمّاك هي بحيرة موحشة.

## وعي جديد

تجولت في الغابة على "أليس الكبرى." بينما كنت اسير مستكشفاً ومعي كوي قبل أشهر وجدت ينبوعاً صغيراً يمكنني، باستعمال الجرارة، أن أجعل منه بركة تنهل منها الطيور والحيوانات.

لكن "أليس الكبرى" تعطلت فجأة بينما كنت أجوب بها تلة فوق البحيرة. بضربة هائلة ألقت قضيباً حديداً من جانب المحرك، فتدفق "دمها" الاسود الحار على ثلج الشتاء المبكر، وارتفع منها نحو شجر الصنوبر لهب ازرق دل على نهايتها.

بعد أسبوع، بينما كنت متوجها على فرسي نحو "أليس الكبرى" لاجلب بعض الادوات من صندوقها، رأيت آثار أقدام

حديثة لدون كيوت الذي نزل عارجاً من القمة ليطالب بإرثه. نظرت تحت الجرارة فرأيت أنه حفر هناك وجاراً جديداً.

كانت كوي تصطاد عندما غادرت الحجرة الى بيت المزرعة عشية الميلاد. تلك الليلة سقط الثلج بكثافة مما جعل الطرق غير سالكة. أملت ان تظفر كوي بفريسة وتهتم بذاتها من دوني.

قالت جيني: "أمسكنا بك الآن يا أبي. لن تشاركنا كوي فيك حتى يتحسن الجو. أليس أفضل أن يكون بين كوي والدون ميل متبادل؟"

قلت: "لا مجال، انه كبير جداً عليها ولا ذيل له وبقائمة خلفية واحدة. فأي نوع من الحياة ستكون حياتهما معا؟"

"أبي! أنت غيور، لا تريد أن تتخلى عنها. حان الوقت لجبه الحقائق. ليست كوي كلباً، انها وحش وستكون في الغابات أسعد حالا، يجب أن تعرف ذلك."

حدقت اليها لحظة طويلة. انها على حق. كنت غبياً فلم أر ذلك. لقد تدخلت في حياة دون كيوت، والآن أتدخل في حياة كوي. ضممت جيني الى صدري.

بعد جرف الثلج عدت الى الحجرة. كانت كوي جالسة في المدخل وعلى فروها كتل ثلج راحت تصلصل كصنوج صغيرة عندما بدأت تثب مرحاً اذ رأتني. أما أنا فشعرت بالاطمئنان. كوي قد تبقى معي بملء ارادتها. داخل الغرفة تملكها قلق. وحينما خرجت لاجلب حطباً تبعتني واختفت.

بعد ظهر ذلك اليوم رأيت كوي ودون كيوت معا يستنشمان رائحة الفئران. حشرت كوي فأرة في زاوية ومزقتها بأنيابها، لم يأت الدون أي محاولة لاخذها منها. سمحت له كوي بأن يزدرد البقايا ثم حاولت أن تلعب معه، فكشر عن أنيابه وعضها ثم عرج بظرافة نحو "أليس الكبرى." تبعته كوي مسافة لا بأس بها. وعادت الى الحجرة قرابة منتصف الليل.

في الظلام الدامس قبل الفجر أفزعتني زمجرة في الخارج. ركضت كوي نحو الباب بينما أضأت أنا المصباح. من خلال الضوء المنتشر على الثلج لمحت الدون. قفزت كوي الى الخارج مستعدة للعب، لكن الدون ضربها بصدره وألقاها في منسف الثلج. اضطجعت بهدوء. شفتاها في تشابك مصطنع وذيلها يضرب، بينما كان هو يتفحص حالها. شعرت بأن لا حق لي في التدخل في صبابتهما فرجعت الى الحجرة ووضعت في الموقد قطعة حطب من الصنوبر. بعد قليل ضربت كوي الباب بمخلبها كي أسمح لها بالدخول.

لم ينم أحد منا. أخذت كوي تخطو الى الامام والى الوراء متأثرة بآلام الحيض ضاربة الارض بمخالبها من دون توقف. وفي الخارج كانت الذئاب في عراك.

عند الصباح أقفرت ساحة القتال ونهض الدون من وراء جذع شجرة مقطوع. ورأته كوي من النافذة فأخذت تنبح وتقفز بجنون.

قلت: "اهدئي، سأخرجك حالا من هنا." تجاهلت زمجرتها المنذرة وحاولت ضبطها بضمها الى صدري. لكنها بحركة سريعة أغرزت مخالبها في ذراعي. وحين صرخت من الالم فتحت الباب بصدرها. فر الذئبان معاً، وبعد قليل سمعتهما عند القمة قرب



"أليس الكبرى" يعويان بوحشية كمعشر الذئاب.

لم أر كوي مدة أسبوع. وذات يوم بينما كنت أقطع الحطب ويدي في حمالة، تطلعت الى فوق فرأيتها جالسة على الثلج تراقبني. أردت أن أناديها الي، ولكن بدلا من ذلك تمتمت: "اذهبي يا كوي، اذهبي مع دون كيوت."

بعد ذلك استدرت وابتعدت. كنت مشتاقاً اليها لكنني تابعت طريقي نحو البحيرة، وسرعان ما بدأ سحرها يزول عني. أصبحت أسير الى الامام نحو وعي جديد. أينما ألتفت ارى الطبيعة تعمل. غاز الميثان يرتفع من قاع طين البحيرة ويتجمع تحت الجليد. المياه ساكنة لكنها حية في الزجاج النقي تحت قدمي. سمعت التغريد العذب الذي يطلقه الطائر الناسك كما سمعت عواء ذئب.

بدأ الثلج يتساقط سائلا على وجهي كالدموع، فأويت الى حجرتي. تلك الليلة وأنا مضطجع على فراشي أصغيت الى الريح وشعرت بدافع الى عواء رثائي أخير. لكنني غصصت به. كيفما تكن العاصفة غداً فاني سأعود على الثلج الى عائلتي. استحال حطب الوقد جمراً واستسلمت الى الرقاد.

**ديتون أ. هايد** ■

ترجمة السفير هنري أبو فاضل



## قصص الصيد

سأل أحدهم صديقه عن صيده الاخير، فأخبره هذا: "انه كان رائعاً. اصطدت عشرين بطة كانت تطير واحدة وراء أخرى."

قال الصديق: "إنك تبالغ كثيراً."

– حسناً، عشر بطات.

"لا شك في أنك تمزح."

– لقد بدأت تضايقني يا صاحبي. أنا متأكد من اصابتي أربع بطات على الاقل.

"ما زلت غير مصدق."

– ما بك يا رجل؟ لماذا لا تصدقني؟ كانت هناك بطتان على الاقل لأنهما كانتا تطيران الواحدة خلف الاخرى.

ب.ف.

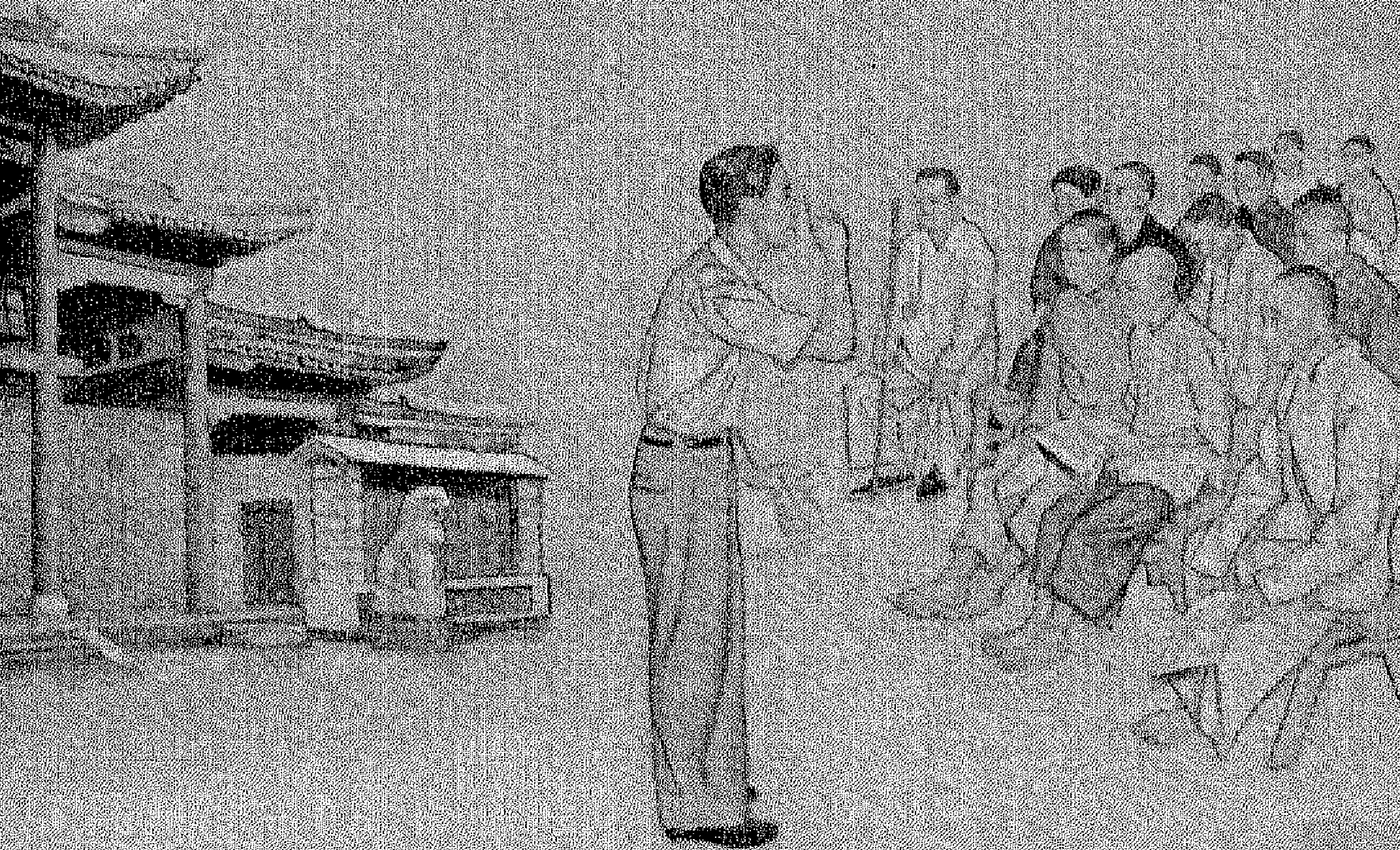
---

## لونها المفضل

توقفت سيدة عند اشارة مرور حمراء. وحين اضيئت الاشارة الخضراء لم تتحرك اذ كانت مستغرقة في تفكيرها. فنزل رجل من سيارته المتوقفة وراءها وسألها بلطف: "سيدتي، هل تنتظرين لونك المفضل؟"

ب.ك.

كتاب الشهر



# مُعَلِّمُ الفُقَرَاءِ

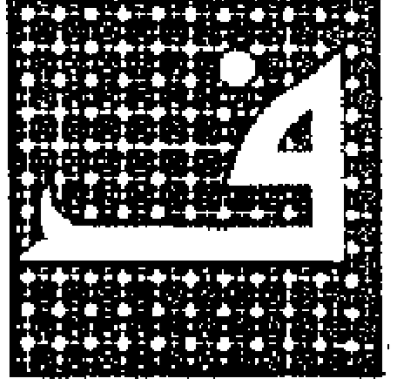
بقلم جون هيرسي





# مُعَلِّمُ الفُقَراءِ

هذه قصة رجل معمِّر ذي ايمان ورؤيا لا يقهران،
أصبح، وان كان قليل الشهرة،
احدى القوى العظمى في عصرنا.
كان جيمي ين يؤمن دائماً بطاقة الرجل العادي.
شعر بأن الحمالين الاميين في موطنه الصين،
وجميع المقهورين في العالم الثالث، يستطيعون تعلم القراءة
والكتابة والعناية بشؤونهم الصحية والعيش
عيشاً مفيداً منتجاً. انطلق لتحقيق رؤياه مواجهاً كل الصعاب.
كتب جون هيرسي، الحائز جائزة "بوليتزر"، عن هذا الرجل
الذي حملت فكرته الرجاء والكرامة الى الملايين



في غرفة الجلوس بمنزلنا استقر زائر في كرسيّ من السنديان. كان ذلك في العام ١٩٢٤، وكنت أنا في العاشرة من عمري. وكان والدي ادارياً في جمعية خيرية في مدينة تينتسن شمال الصين، والمرسلون الجوالون يأتون غالباً الينا ليقضوا ليلة معنا. أما صورة هذا الزائر الشاب، وهو مستقر في كرسي السنديان، فما زالت ماثلة في ذهني.

ثلاثة أمور جعلت هذا الرجل عالقاً بذاكرة فتى في العاشرة من عمره. أولا، انه صيني ولكن له كنية أمريكية اذ يناديه والدي "جيمي"، وهذا كان امراً عادياً. ثانيا، كانت تربطه بوالدي صلة عميقة ثابتة. ثالثاً، كانت له عينا رجل تقي ونظرة ثاقبة بدت كأنها تتقبل في أي وقت فتى صغيراً مثلي كفرد ذي قيمة رفيعة في هذا العالم.

لم يكن ثمة من سبيل لفتى في العاشرة لأن يعرف أن هذا الانسان النشط قُدِّر له أن يصبح أحد عظماء القرن العشرين. بعد سنوات دعاه وليم دوغلاس، قاضي محكمة العدل العليا في الولايات المتحدة، "الرجل الصالح" لأنه كان يقوم بأهم عمل فردي في العالم.

عمله سيعود على المجتمعات القروية في العالم الثالث بابتكار ثوري. سيبدع نهجاً للقرويين يعلّمون به أنفسهم كيف يعيشون على نحو أفضل وأغنى. سيقدم الى المناطق المضطربة في آسيا وأمريكا اللاتينية وافريقيا قاعدة للوفاق. أما الفتى ابن السنين العشر فلم يستطع أن يتخيل شيئاً من ذلك، لكنه شعر باتقاد ذلك الرجل الجالس في كرسي السنديان وبحماسته.

مرت سنون مضطربة هزت العالم قبل أن تلتقي دروبنا ثانية. وذات يوم مشمس من العام ١٩٨٠، بعد مرور أكثر من نصف قرن على لقائنا الاول، جلس معي ينغ - تشو جايمس ين البالغ من العمر سبعة وثمانين عاماً في منزل احدى بناته في الولايات المتحدة وأخبرني كيف أن ابتكاراً انبثق من عقله كان زهرة رجاء للجنس البشري عبر السنين.

كانت هذه هي الاولى من محادثات عدة أجريتها مع جيمي ين خلال الثمانينات، وظلت حية في ذاكرتي كما ظل منظره الاول عندما كنت صبياً صغيراً. كان رجلا ناحلا، ذا جبهة عالية تتصدر مخزناً كبيراً للدماغ، وعينين تبدوان ثاقبتين جداً لانحصارهما بين أجفان ضيقة، وفم حساس تحت أنف مستقيم. انها الصورة الخارجية لامرىء هادىء هو عالم صيني من الطابع القديم.

لكنه حين تكلّم بدا صوته عميقاً قوي التعبير. وكان هو يثب عن كرسيه مندفعاً متحمساً مقتنعا بما يقول، ويداه منبسطتان حيناً ومنقبضتان حيناً آخر، تضربان الهواء كلما ظهر شك على قسمات من يتحدث اليه. وبدا واضحاً حين تكلم أن وقود هذه القوة المتفجرة ما هو الا الهمّ العميق الذي يشغل هذا الانسان تجاه الاخرين، والطاقة الداخلية المتقدة التي لا يمكن أن تكون الّا المحبة.

أخبرني جيمي ين أنه عندما بلغ العاشرة من عمره أعلمه أبوه أن الوقت حان ليترك البيت ويحصّل ثقافة تؤهله

لعالم متغير. ولد ين ينغ - تشو في السادس والعشرين من أكتوبر (تشرين الاول) ١٨٩٣ وسط اقليم ستشوان في الصين. كان والداه فقيرين، وكانت المعرفة ذخيرة أبيه الكبرى.

## الى المدرسة

منذ عهد سلالة تانغ في القرن السابع كانت الصين يحكمها علماء. وكان كل الموظفين في قصور الاباطرة يولّون مناصبهم نتيجة فوزهم بامتحانات في العلوم والآداب الصينية. أما ينغ - تشو فبدأ والده يعلمه هذه المؤلفات في سني طفولته. ولما بلغ العاشرة من عمره كان تعلّم، وفقاً للطريقة التقليدية، أن يعيد النصوص بعد أبيه بأعلى صوته، وأصبح متضلعاً من "الكتب الاربعة" ومن "كتب الآداب الخمسة" في منهج التعليم القديم.

كان أبوه ذكياً وشعر بأن الاسلوب القديم مقضي عليه. فأراد أن يتعلم ابنه عن الغرب فيدرس العلوم ليهيىء نفسه لأمور عظمى فيما كانت الصين، "الجبار النائم"، تستيقظ لتدخل العالم الحديث.

بعد بضعة أشهر دبّر الوالد أمر تسجيل ينغ - تشو في "مدرسة العلم الغربي" في مدينة بونبينغ التي تبعد ١٤٥ كيلومتراً عن منزله. انطلق الصبي مشياً يرافقه أخوه الاكبر، حاملا صرّة من الثياب ملفوفة بقماش أزرق. لم تكن المسيرة سهلة، اذ لا طرق معبّدة هناك بل مسالك وعرة. واستغرقت الرحلة خمسة أيام.

يقف الاخوان ليلا ويبيتان في خانات بدائية، حيث ينام حمّالون فقراء ينقلون أثقالا من الملح وسلعاً جاهزة عبر الارض القاسية. ان مناظر هذه الخانات عند المساء تركت في نفس الصبي تأثيراً عميقاً. كان هو وأخوه يجلسان في حلقة مع ثمانية حمالين أو عشرة ذوي ثياب رثة يبلون أقدامهم المتورمة في وعاء واحد من الماء الساخن، يخبر بعضهم بعضاً قصصاً صاخبة عما يتألم ويكابد، ويضحكون، ويلعنون، ويتشاجرون. كلمة "كولي"(١) في الانكليزية التي تعني "حمّالا" في العربية هي جامعة لكلمتي "كو" و"لي" في الصينية اللتين تعنيان "القوة المرة." أما ما تعلّمه الفتى في تلك الخانات من المعنى الحقيقي لهاتين الكلمتين فظل راسخا في صميم حياته المسلكية.

وصل الاخوان ليلا الى "مدرسة العلم الغربي." ارتجف الاخ الاصغر عندما رأى الرجل الابيض الذي استقبلهما، حاملا مصباحاً، كبير الجثة، خشن الشاربين، ذا حاجبين مخيفين فوق عينين غارقتين. كان هذا الرجل رئيس المدرسة، وهو بريطاني غريب الاطوار يدعى وليم ألديس تحدّى رؤساءه في الارسالية الصينية بتربية الفتيان الواعدين تربية دنيوية، ارتدى ثياباً صينية وحلق مقدّم رأسه على الطريقة الصينية وأرخى في مؤخره ضفيرة شعر طويلة.

كان ينغ - تشو الخجول النحيف خائفاً من ذلك الشخص ومنزعجاً من رؤيته التلاميذ الآخرين أكبر منه بكثير اذ راوحت أعمارهم بين أربع عشرة سنة وثماني عشرة. بات أخوه ليلته تلك في قرية

(١) Coolie

مجاورة، أما هو فترك وحيداً في غرفة خالية يكابد حنيناً قويا الى بيته ويبكي. وسمعه ألديس.

صباح اليوم التالي استدعى رئيس المدرسة الاخوين وقال للأكبر: "هذا الصبي صغير جداً ليكون في مدرسة، خذه الى البيت وارجعه بعد سنتين أو ثلاث." أما المزيّة التي كانت ستخدم ينغ - تشو في بقية حياته فأثبتت ذاتها ساعتئذ. طلب أن يعطى فرصة ثانية، وقال انه اذا ما سمع يبكي تلك الليلة فسيعود مع أخيه الى البيت في اليوم التالي، وإلّا فسيبقى.

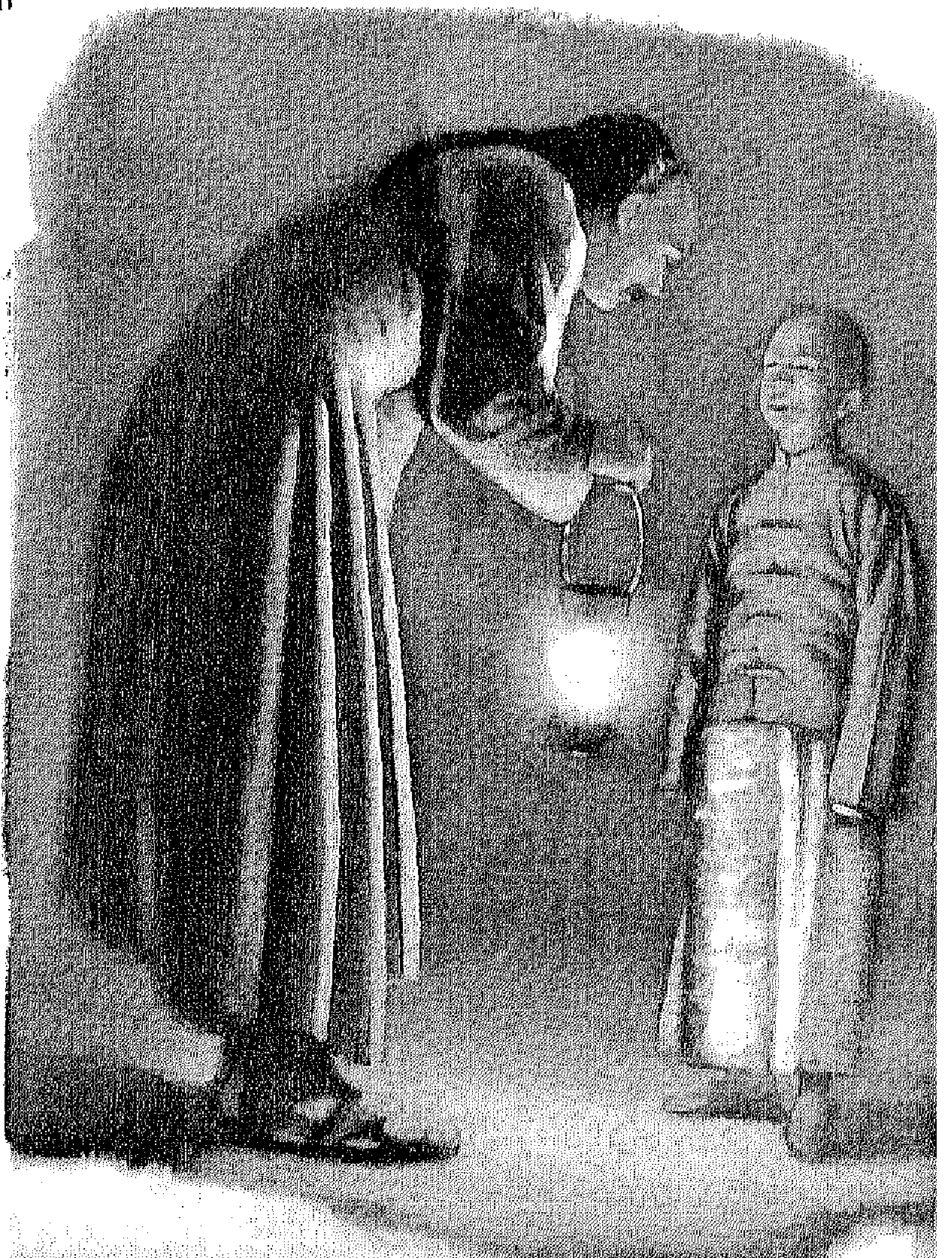
جعلت حياة المدرسة ولذة التعلم من ينغ - تشو انساناً جديداً. أصبح قوي البنية ونما واثقاً بنفسه.

## صيني في هونغ كونغ

بعد أربع سنوات حصل ينغ- تشو على منحة دراسية في مدرسة ثانوية قديمة تديرها ارسالية أمريكية في مدينة شنغدو عاصمة اقليم ستشوان. هذه المدرسة تبعد عن منزله مسافة ٣٢٠ كيلومتراً، وأربعة وعشرين يوماً سيراً. ذهب وحده، وبات لياليه في الخانات مع الحمالين والمزارعين يشاركهم في الطاسات المملوءة رزاً.

في السابعة عشرة من عمره تخرّج بامتياز. كانت المدرسة مزدحمة بالتلاميذ. وعندما بدأ بريطانيان ادارة نزل لبعض الطلاب أوصاهما وليم ألديس بتشغيل ينغ - تشو كمساعد صيني لهما. فجعله أحدهما تحت رعايته، وهو جايمس ستيوارت حفيد أحد النبلاء. كان ينغ - تشو يترجم كلام ستيوارت عندما يخطب في الانكليزية. وبتقليده أسلوب الرجل الانكليزي تعلم الاتزان والثقة في التكلم.

رأى ستيوارت مواهب محميّه وقال انه يجب الّا يدفن نفسه في الصين. أراده ان يتمكن من الكلمة. وكان آرثر، اخو ستيوارت



الاكبر، مقيماً في هونغ كونغ، فسار اليها جايمس مع محميه الصغير مشياً مدة أربعين يوماً ليقدمه الى أخيه. كان ينغ - تشو ممتناً جداً من تشجيع جايمس ستيوارت ولطفه فقرر اطلاق اسم حاميه على نفسه. ومنذ تلك اللحظة أصبح يدعى ينغ - تشو جايمس ين. أما اصدقاؤه الامريكيون فكانوا ينادونه جيمي.

لم تكن لدى ين معلومات كافية في الرياضيات والفيزياء والكيمياء ليتمكن من اجتياز الامتحانات الجامعية، لذلك ادخله آرثر ستيوارت مدرسة تهيّء الطلاب لدخول الجامعة.

أخذ ين مكانه بين طلاب أصغر منه بكثير. عمل كعبد. في صيف السنة المدرسية الاولى وجد معلماً يعطيه دروساً في الرياضيات في مقابل دولار لكل جلسة. ولكن كان عليه أولا أن يجد المال. آخر الصيف أبلغ الى ستيوارت أنه مستعد للامتحانات، فبدا هذا منذهلا ومرتاباً لكنه سمح له بأن يحاول.

نال جايمس ين أعلى معدل في الامتحانات. وزاد في سروره تبلّغه أن في امكانه المطالبة بمنحة الملك ادوارد السابع البالغة ١٦٠٠ دولار أمريكي في جامعة هونغ كونغ، على أن يتخلى عن جنسيته الصينية، لان المنحة لم تكن تعطى الا لمن يحمل جنسية بريطانية. أما جايمس فقال ان هذا ثمن باهظ جداً.

دخل جامعة هونغ كونغ بطريقته الخاصة. هذه الجامعة كانت، مبدئياً، للبريطانيين، أما هو وصديقان صينيان فوجدوا جو الجامعة استعمارياً لا يطاق. وبعد سنتين خططوا للسفر الى الولايات المتحدة. واقترح أحد الامريكيين أن يذهبوا الى كلية أوبرلين في أوهايو، وساعدهم على جمع نفقات السفر. وعلى متن الباخرة تصادق ين مع متخرج في جامعة ييل في نيوهافن بولاية كونتيكت كان عائداً الى الولايات المتحدة بعدما علّم سنتين في جامعة ييل في الصين. تحدث هذا مع جايمس حول السعي الى دخول ييل بدلا من أوبرلين.

حين وصل جايمس الى نيوهافن زار عميد كلية ييل. للوهلة الاولى وجد العميد جافاً غير أنوس. وكان هو خائفاً أن يخذل. وبعدما اطّلع العميد على ما أنهاه من دروس في جامعة هونغ كونغ سأله عن المال الذي يحمله. فأجاب جايمس انه يملك أربعة وثمانين دولاراً. قال العميد: "أنت شاب شجاع." وقبله في صف السنة الثالثة، علما أن المرحلة الدراسية هي أربع سنوات.

أحب ين ييل وإن تعين عليه أن يعمل ليل نهار ليواصل دروسه ويعيش من دون استدانة. كان يخدم على موائد الطلاب ليكسب اجراً. أما هو فكان يأكل في مطعم صيني رخيص. أيام الصيف كان يتجول ويبيع بياضات ومطرزات صينية. وفي سنته التالية نال منحة دراسية كاملة.

في ييل تعلّم معنى المساواة ولم ينسه. وترك فيه ذلك تأثيراً بالغاً اذ رأى أنه، كطالب صيني معدم، يمكنه أن يحصل على ما يحصل عليه أحد أعز أصدقائه، تشارلز تافت، الذي لم يقبل أن يُفضّل على سواه لانه ابن وليم تافت الرئيس الاسبق للولايات المتحدة. ودرس

جايمس القانون الدستوري على الرئيس الاسبق نفسه الذي كان حينذاك أستاذاً في الجامعة.

أجاد جايمس في دروسه، لكنه بعد مدة طويلة أخبر مجموعة من خريجي ييل في بكين أن احدى أهم الامثولات التي تعلمها في الجامعة كانت في أول لعبة مباراة شاهدها لكرة القدم. كانت جامعة هارفرد، المنافسة الرئيسية لجامعة ييل، تتقدم شوطاً بعيداً، وكان اللاعبون ممرغين بالوحل. وبدا أن اللعب سيستمر بمشقة لان ييل أصبحت في حال خسارة نتيجة اصابات عدة بين لاعبيها. وكان عدد النقاط يزداد في جانب واحد على نحو مذل للجانب الاخر. أما جيمي ين، الذي أخذ عن التقاليد الصينية أن طالب العلم يجب أن يتجنب المشقة الجسدية، والذي هالته الخسارة المعنوية التي كانت الجامعة تعانيها، فالتفت الى الطالب الامريكي الجالس بجانبه وسأل: "لماذا لا يوقفون اللعب؟ ان ييل لا يمكن أن تربح."

لكن صديقه رد: "يجب أن نستمر في اللعب حتى يصفر الحكم."

## آلة النقانق

العالم في اضطراب. اشتعلت الحرب العالمية الاولى في العام ١٩١٤ وجايمس ين ما زال في جامعة هونغ كونغ. وخلال ربيع ١٩١٧ أثناء سنته الاولى في ييل أعلنت أمريكا الحرب على ألمانيا. وبعدما تخرج جايمس في ييل أرسل الى أحد أكثر الاماكن غرابة وغموضاً خلال تلك الحرب الفتاكة، فكان ذلك اختباراً له جعله يضع منهجاً لحياته.

ان مرحلة الحرب التي انخرط فيها ين نادراً ما وصفتها كتب التاريخ. هي شبه ضلال. ولم تكن شيئاً تفتخر به قوات الحلفاء. الاصابات في خطوط فرنسا الامامية أشبه بالكوابيس، والحلفاء في ضيق شديد نظراً الى حاجتهم الى قوى بشرية. فكر بعضهم في "استيراد" حمالين وفعلة من الصين ليحلوا مكان عمال الحلفاء الذين يستطيعون حينئذ الذهاب الى الجبهة. أما اولئك الحمالون والفعلة فينصرفون الى انشاء الطرق والسكك الحديد والمخيمات والمطارات ونقل المؤن وتفريغها والعمل في مصانع الذخيرة.

باذن من الحكومة الصينية جمع البريطانيون الموجودون في شمال الصين معظم أولئك العمال. نشروا أولا اعلانات تفيد عن تقديم أموال الى من يرغب في العمل في فرنسا. لكن الاشخاص الذين يريدهم البريطانيون لا يعرفون القراءة، لذلك استأجروا عملاء لتجنيد العمال من طريق الاتصال الشخصي. كل الذين اتصل بهم العملاء كانوا فقراء مساكين ذوي ثياب رثة أخنى عليهم الدهر، رفعوا أيديهم بالقبول لدى سماعهم وعداً بغذاء يومي وبأجر يومي مقداره فرنك واحد (يساوي حينئذ عشرين سنتاً). ولم تكن لأي مهم فكرة عن الفرنك ولا عن فرنسا ولا عما سيعملون ولا حتى عن الحرب كيف تكون.

عند تسجيل الاسماء في مركز للتجنيد في مرفأ في شمال الصين كان كل مجند يمر في جهاز يسميه البريطانيون "آلة النقانق" حيث تقطع، من دون أي

احتفال، ضفيرة الشعر التي كانت سمة فخر لدى كل صيني، ثم تنزع عنه ثيابه وتحرق. بعد ذلك يُدخل الحمّام وينظّف من القمل ويلبس بذلة قطنية خشنة وتؤخذ بصمات أصابعه ويوضع حول معصمه الايسر شريط معدني عليه رقم. هذا الرقم سيكون اسمه.

في الوقت الذي تخرج جيمي ين في ييل كان قرابة ١٨٠ ألفاً من أولئك الحمالين والفعلة المهملين، المساوين حينئذ لاربع فرق عسكرية، وصلوا الى فرنسا. وضعوا ضمن مخيمات محروسة في عالم غريب منذهل. كان الجو رطباً وبارداً. أما الضباط المسؤولون فكانوا لا يتكلمون الصينية بل يسوقونهم كبهائم. لم يكن اللحم المعلب كافياً، ولا الحبوب المشوية، فاذا بالغذاء الاجنبي يسبب المرض للذين اعتادوا أكل الرز والخضر. لم يعطوا ماء ساخناً ولا شاياً، فسبب لهم الماء البارد غيثاناً. وعُدوا في الصين بأنهم لن يكونوا محاربين، لكن كثيرين منهم أُرسلوا الى الجبهة وعانوا اهوال الخنادق ومرابض المدفعية في تلك الحرب الرهيبة. قتل منهم ثلاثة آلاف في القصف قرب كاليه. وكلّف بعضهم أعمالا مكروهة تقضي باعادة دفن جثث الجنود البريطانيين والفرنسيين التي وضعت في مدافن موقتة.

الشيء الوحيد الذي انتعش بين الحمالين والفعلة الصينيين هو البؤس. وبين اليوم والآخر شغب وعصيان في أوساطهم.

في فصل الربيع الدراسي من السنة الاخيرة لجايمس، حين دعي كثير من أصدقائه الامريكيين الى الخدمة العسكرية، استمزجه "المجلس الوطني للعمل الحربي" في جمعية «YMCA» في ما اذا كان يرغب في الذهاب الى فرنسا للمساعدة في انقاذ الحمالين والفعلة الصينيين من ورطتهم. لم يتردد. تذكر الحمالين ذوي الاسمال البالية في خانات بلده، رجالا من دون رجاء، يضجون بالضحك كلّما قص أحدهم بصوت عال قصة حياته الصعبة القاسية. وبعد تخرجه بيومين سافر بحراً ووصل سالماً وعُيّن في مخيم للعمال الصينيين قرب بولونيا.

منذ بدء الحرب كانت جمعية «YMCA» أقامت مراكز غذائية لجنود الحلفاء خلف خطوطهم. ولما سمع اداريو الجمعية ما يقاسيه العمال الصينيون عمدوا حالا، من دون استئذان قيادة الحلفاء، الى نقل مراكز غذائية مماثلة الى مخيماتهم. كان اداريون كثيرون من الجمعية مرسلين في الصين وتفهموا أوضاع الصينيين، وكان والدي أحدهم.

## الخطوة الاولى

في مخيم بولونيا كلّف جيمي ين الاشراف على المركز الغذائي الذي أقامته الجمعية، فيبيع العمال سجائر وحلوى وينظم حفلات ترفيه وألعاباً مختلفة.

كان قلبه على الحمالين والفعلة الصينيين. انهم يعملون عشر ساعات يومياً حتى تنهار قواهم. والبرد القارس جعلهم يتعاطون المسكرات والافيون. أما الجنود الفرنسيون السابقون الذين أعفوا من مهماتهم بعد بتر أحد أطرافهم في الخنادق فكانوا يبيعون الصينيين مشروباً

ومخدرات. ونشبت مشاجرات عنيفة. سمع جايمس اخباراً عن حمالين وفعلة انتحروا نتيجة شعورهم بالعار أو خسارتهم في المقامرة أو تعرضهم للاهانة من ضابط أبيض. كان العمال الصينيون منهوكي القوى ومرضى نتيجة الجو الممطر الرطب مما أوقعهم فرائس للنزلة الوافدة (الانفلونزا).

لم يمضِ جايمس ين سوى بضعة أيام حتى تحقق من أن المرض الاعظم المدمر والمنتشر هو الحنين الى الوطن. العائلة في الصين هي كل شيء. وأولئك العمال سلخوا عن آبائهم وعن مقامات تكريم أجدادهم.

ذات ليلة جاء الى مقر جايمس ين ثلاثة عمال كئيبي الوجوه. حيّوه بحسب التقاليد الصينية بعبارة "يا معلم" والتمسوا منه أن يكتب ثلاث رسائل، واحدة الى أم وواحدة الى زوجة وواحدة الى عم. وهذه الرسائل سيقرأها على متسلميها أحد القرويين الذين يعرفون القراءة. سُرّ ين لذلك وكتب الرسائل بخطه الصيني الانيق.

في الليلة التالية جاء المعلّم ين أثنا عشر رجلا يلتمسون منه أن يكتب باسمائهم رسائل الى ذويهم، فلبّاهم برضا. وفي الليلة التالية كان هناك خمسون. وليلة اثر ليلة أمسى صف طويل ينتظم أمام باب ين من نحو ٢٠٠ او ٣٠٠ رجل ينتظرون مساعدة المعلم. في مخيم بولونيا عشر كتائب مؤلفة من ٥٠٠٠ رجل. وتساءل: "متى ينتهي ذلك؟"

ثم خطرت له فكرة هائلة كانت في الحقيقة فكرة ثورية.

في فجر كل يوم كان المخيم بكامله يُجمع من أجل تلاوة الاسماء وتوزيع الاعمال اليومية. وذات صباح استأذن ين القائد بالقاء كلمة في العمال فأذن له.

خاطبهم بالصينية: "أيها الرجال، كثيرون منكم يعرفون أني أكتب لبعضكم رسائل يبعثون بها الى ذويهم. منذ الليلة توقفت لا رسائل بعد الآن."

فاذا بقهقهة تنفجر، وهي علامة صينية خاصة تعني عدم التصديق.

قال ين: "أنا أعني ما أقول، لا رسائل بعد اليوم، من أراد منكم كتابة رسالة الى ذويه فليفعل ذلك بنفسه."

فسمعت قهقهة أقوى من الاولى، لكنها هذه المرة كانت نوعاً من المجاملة اذ حلت مكان الاحتجاج الفظ على بطلان ما قاله المعلم ين. ذلك لأن مهنة كتابة الرموز في "المملكة المركزية" كانت موقوفة منذ ٤٠٠٠ سنة على الادباء والعلماء. أما القرويون فكان يُعتقد أنهم ليسوا أهلا للتعلم لانهم كسالى وأغبياء، وأن لا نفع منهم الا في ظهورهم القوية وأيديهم القاسية. وقد تقبل القرويون هذه الفكرة.

لكن ما رآه ين في أولئك العمال الصينيين أثناء اقامته القصيرة في المخيّم أقنعه بأنهم لا تنقصهم أدمغة، بل تفوتهم فرص مناسبة. واعتقد أنه يستطيع تعليمهم القراءة والكتابة.

تابع كلامه: "أنا أعني ما أقول، يمكنكم أن تتعلموا كيف تقرأون رسائلكم الخاصة وتكتبونها. كم واحداً منكم سيتطوع ويأتي الى مقرّي في الامسيات ليتعلم الكتابة؟"

لم يرفع أحد يده، بل تجددت القهقهة. انتظر ين. كان هناك صمت طويل. ثم رفعت يدٌ فثانية فثالثة الى أن بلغ العدد أربعين.

قال ين للاربعين: "أنتم تلاميذي، تعالوا الليلة الى مقري."

اكتشف جايمس ين مصيره من دون أن يدري. أدرك أن المهمة التي تواجهه جسيمة. في المخيم ٥٠٠٠ عامل، وفي فرنسا نحو ١٨٠ ألفاً، وفي الصين قرابة ٣٥٠ مليون قروي أمي. واذ أحب جيمي أن يستشهد بالامثال الصينية فانه اختار، وهو يخبرني عن لحظة قراره، هذا المثل: "رحلة المئة كيلومتر تبتدىء بخطوة أولى."

كيف له أن يعلّم هؤلاء الرجال؟ ليس في اللغة الصينية أحرف هجائية. فكل كلمة ممثلة برمز. والعلماء الصينيون الذين كانوا يكتبون بأسلوب انشائي رفيع يدعى "ون - لي" كان عندهم ٤٠ ألف رمز يختارون منها ما يشاؤون. مثل هذه الكتابة الضخمة الغامضة هي فوق متناول أولئك العمال القرويين.

وصادف أن شاباً صينياً لامعاً يدعى هيو شيه كان يدرس في الولايات المتحدة ونشر في العام السابق مقالا بعنوان "اقتراحات تجريبية لاصلاح الادب الصيني." قال هيو في بحثه: "لغة الادب الكلاسيكي ون - لي لغة ميتة، وما من لغة ميتة تنتج أدباً حياً. ان اللغة الوحيدة الممكنة للقراء الصينيين في المستقبل هي "باي - هوا"، اللغة المحكية لدى معظم الشعب الصيني."

كان جيمي ين قرأ ما كتبه هيو، فقرر أن يحاول تعليم الحمالين والفعلة الصينيين كتابة رموز للكلمات التي ينطقونها يومياً. وسيحصر هو المفردات بالكلمات التي يحتاجون اليها في كتابة رسائل مقتضبة الى عائلاتهم وقراءة النشرات الاخبارية البسيطة عما يحدث في الحرب وفي العالم. اختار نحو ٦٠٠ كلمة تستعمل في التخاطب العامي ليلقن الرجال اياها.

## حمالون متعلمون

هكذا بدأ. بعد عشر ساعات من العمل الشاق كان العمال الاربعون الجسورون يلتقون معلمهم ساعة واحدة كل ليلة. وفيما كان جيمي يحدثني عن تلك المجموعة الاولى من المتعلمين القرويين كان صوته يرتجف من التأثر. قال انه كان عملا أخاذاً متوقداً من النوع الذي لم يحدث أبداً خلال ٤٠٠٠ سنة من تاريخ الصين.

بعد مرور أربعة أشهر أجرى ين امتحاناً لتلاميذه. طلب من كل واحد أن يكتب رسالة قصيرة الى ذويه ويقرأ نشرة اخبارية بسيطة كتبها بنفسه. اجتاز الامتحان خمسة وثلاثون من أصل اربعين.

بعد بضعة أيام نظم ين اول حفلة تخريج. دعا قائد القطاع الذي ينتمي اليه العمال الصينيون وضباطاً بريطانيين كثيرين. جميع عمال المخيم الـ٥٠٠٠ كانوا محتشدين هناك. اختار للشهادات ورقاً أحمر لان الاحمر هو في الصين رمز الفرح والسعد. وكتب بخطه لكل ناجح شهادة جاء فيها: "ان فلاناً هو مواطن متعلم في الجمهورية الصينية."



كل قروي متعلم قرىء اسمه تقدم باعتزاز أمام زملائه ليتسلّم شهادته، فصفق له الحاضرون وهللوا وضربوا الارض بأقدامهم.

في اليوم التالي سجّل ٢٠٠٠ حمال أسماءهم للفصل الدراسي الثاني في صفوف جيمي ين .التاريخية.

في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨، عقدت الهدنة وانتهت الحرب وعاد الجنود البريطانيون والامريكيون الى بلديهم. أما الحمالون الصينيون فلم يعودوا بل كلفوا القيام باشغال شاقة في ساحات القتال المدمّرة. كان عليهم أن يطمروا الخنادق ويهدموا المرابض المسقوفة ويزيلوا الاسلاك الشائكة والذخائر الحية غير المنفجرة. والمناظر التي صادفوها جعلت صورة الرجل الابيض تنخفض في انظارهم الى مستوى أدنى. الحرب في الثقافة الصينية التقليدية حماقة والتجند عمل حقير. أما الغربيون فمن الواضح أنهم لم يفعلوا شيئاً الا محاربة بعضهم بعضاً.

في هذه المرحلة الدقيقة كُلف أبي مهمة الاشراف على مراكز جمعية «YMCA» التي تعنى بشؤون العمال الصينيين. واتضح له أن مخيماً واحداً برز بمعنوياته العالية كمغارة على شاطىء خطر. هذا المخيم هو حيث كان ذلك الشاب الثائر المشرق الوجه الذي لم يمض وقت طويل على تخرجه في جامعة ييل، يسهر على تغيير حياة العاملين في المخيم. انتشرت معرفة القراءة والكتابة في مخيم جيمي كما تنتشر ألسنة اللهب. وازداد عدد الحمالين المسجلين في صفوفه بحيث اضطر الى تدريب تلاميذ قدامى ليكونوا أنفسهم معلمين، ودعاهم "أساتذة مساعدين."

ذات يوم زار مخيم بولونيا الرائد الكندي هربرت كول الذي كان مكلفاً مهمة

الاشراف على كل جهد تبذله الجمعية في سبيل العمال الصينيين. وفيما هو وين يتحدثان سمعا ضجيجاً. خاف كول ان يكون ثمة عصيان، فسأل: "ما هذا؟" أجاب ين: "أيها الرائد، ليس ذلك شغباً، انه ضجيج رجالي وهم يدرسون الصينية. أنت تعلم أننا في الصين نتعلم دائماً بصوت عال."

طلب كول أن يرى الصف. ولما رأى الحمالين يكتبون الرموز على اللوح الاسود اغرورقت عيناه. وقال انه عاش في الصين أعواماً كثيرة، لكنه لم يتخيل السوقة الحمالين يكتبون رموزاً محترمة.

بعد ذلك كتب الرائد كول الى جيمي ين ليحضر الى مقره في باريس. وهناك اخبره أنه يريده أن يشرف على برنامج تربوي يشمل ١٨٠ ألف حمال صيني في فرنسا.

وافق ين بشرط واحد، أن يأتي الى مخيمه جميع التلاميذ الصينيين المتطوعين من هارفرد وكورنل وييل وسواها من الجامعات الامريكية، وعددهم ٦٧، ليمضوا عشرة أيام ويراقبوا ما يجري. هذا العمل يكلف مالا. وقال كول انه سيموله.

جاء الرجال الى مخيم بولونيا وسروا بما شاهدوه، وعادوا الى مخيماتهم وأقاموا صفوفاً للتعليم.

حين تعلم الحمالون الصينيون في المخيمات الاخرى القراءة، أصبح من الجلي أن ثمة نقصاً في النصوص والكتب. ابلغ الرائد كول ين أن الامر يعود اليه في عمل شيء ما بهذا الشأن. فتطوع ين لاصدار صحيفة ونشرها وتوزيعها، مكتوبة بلغة سهلة يستطيع أولئك الرجال قراءتها. وهذه الصحيفة ستدعى "اسبوعية العمال الصينيين."

عندما استدعي الرائد كول الى كندا بعد وقت قصير تسلّم أبي مركزه. أما جيمي ين فانتقل الى باريس لاصدار صحيفته، وسكن هو وأبي في بيت واحد واصبحا صديقين مدى حياتهما. في هذه العلاقة طرأ على أبي شيء جديد. كانت الفكرة الاساسية لجيله من المرسلين أن يذهبوا ويعلموا الصينيين كيف يعملون أشياء. مع جيمي ين انقلبت الآية. تعلّم أبي كثيراً عن طريقة عمل الاشياء من هذا الرجل الصيني الذي يصغره بخمسة عشر عاماً والذي كان بالنسبة اليه، كما كان بالنسبة الى الحمالين الصينيين، المعلم ين.

تحققت معجزة تعليم القرويين في الامسيات. داخل مخيم اثر مخيم كان القرويون الصينيون المتعلمون يقرأون بصوت عال أخبار الوطن والعالم. فكانوا أشبه بالمصابيح المضاءة.

ذات يوم تسلم جيمي رسالة من قروي كان تعلّم القراءة والكتابة في المخيم جاء فيها: "أيها المعلم العظيم ين، منذ صدور صحيفتك بدأت أعرف كل شيء تحت السماء. لكن صحيفتك رخيصة جداً، اذ ان ثمن النسخة سنتيم واحد مما سيضطرك قريباً الى التوقف عن اصدارها. تجد ربطاً مبلغ ٣٥٠ فرنكاً ادخرتها اثناء عملي في فرنسا طوال ثلاث سنوات."

عندما قرأ جيمس ين الرسالة أدرك ماذا عليه أن يعمل بقية حياته. انه ترعرع قريباً جداً من الـ"كو" والـ"لي"

في حياة الحمالين الصينيين، أي من مراراتهم وطاقاتهم. وأدرك أن عليه أن يتخلى عن طموحه الى العمل السياسي في الصين الجديدة، وقرر أن يقف حياته على تعليم ملايين القرويين الصينيين.

## تعليم العميان

في العام ١٩٢٠ حُلَّت هيئات العمل الصينية. سافر جيمي ين الى الولايات المتحدة في باخرة واحدة مع أبي الذي صمم على اقناع صديقه الملهم بالعمل في الصين ضمن اطار جمعية «YMCA». استماله والدي لحضور مؤتمر في نورثفيلد بولاية مساتشوستس حيث قدمه الى ديفيد يو رئيس الجمعية في الصين.

لكن جيمي أراد أن يشحذ مواهبه، فعزم على تحصيل درجة ماجستير في التاريخ من جامعة برنستون. وكان لديه سبب آخر للبقاء في الولايات المتحدة، وهو أنه أثناء وجوده في ييل التقى أليس هيوي في "المدينة الصينية" في نيويورك ووقع في غرامها. كانت طالبة في دار المعلمين في جامعة كولومبيا، وشابة لامعة متحمسة حادة الذهن بحيث تكون، اذا ما قبلت به زوجاً، شريكة مثالية في المهمة التاريخية التي اختارها.

خلال سنته الدراسية الثانية في برنستون نمي اليه أن أمه التي لم يرها منذ أربع سنوات كانت مريضة. تخلّى عن منحته وأسرع الى الصين ليراها. واذ كان صفر اليدين عاد الى منزله العائلي كمتسول ماشياً تحت المطر طوال عشرة أيام من تشونكنغ الى البيت القديم في باجو، مرتدياً ثياباً كثياب حمال صيني. في الخانات على طريقه وجد نفسه، بعد كل مجازفاته في العالم الكبير، كأنه ما زال في رحلاته الطفولية وفي عاطفته نحو الحمالين ذوي الاسمال.

بعدما اطمأن جيمي الى ان والدته كانت موضع عناية حسنة رحل الى شانغهاي. هناك، ولفرحة أبي الذي عاد الى الصين أيضاً، زار ديفيد يو وقال انه وصل الى استنتاج مفاده ان جمعية «YMCA» هي المؤسسة الوحيدة التي تهتم بالفقراء الصينيين. أما المشكلة فهي أنه لم يكن للجمعية قسم للتعليم الشعبي.

قالو يو: "ابدأه انت."

كان في شانغهاي جاذب اضافي هو أن أليس هيوي كانت تعمل في جمعية «YWCA» كمدرّسة للتربية البدنية والصحية. وفي العام ١٩٢١ تزوجا.

استكنَّ جيمي للعمل. اختار الكلمات التي علّمها في فرنسا، لكنه انتهى الى استنتاج هو أنه يحتاج الى مفردات صينية أساسية تُنتقى على نحو علمي دقيق من الكلمات الاكثر استعمالا في اللغة العامية.

بمساعدة طالبين عائدين من جامعتي هارفرد وكولومبيا جهز كتابا مبسّطاً للقراء المبتدئين عنوانه "ألف رمز في كتاب قراءة للعامة."

اختار جيمي وفريقه شانغشا، عاصمة اقليم هونان، لتكون مركز اختياره. ألّف لجنة كبيرة من مواطنين قادة. ووزع فريقه ١٥٠٠ ملصق اعلاني يظهر فيها رجل أعمى يحمل رسالة يرجو أن يقرأها أحد. ثم نظموا عرضاً ضخماً حاملين أعلاماً

وهاتفين: "الرجل الامي رجل أعمى."

قسم ين شانغشا ستين دائرة. وجنّد ستين طالباً من الجامعات والمدارس الثانوية المحلية، وسلم كل واحد منهم دائرة لاستمزاج آراء سكانها. ذهب هؤلاء الشبان من شارع الى شارع ومن متجر الى متجر ومن منزل الى منزل يسجلون أسماء القرويين ذوي الاسمال الذين يريدون أن يتعلموا، فسجلوا مئات من الحمالين والصناع المتمرنين والبالغين الذين يعملون في جر عربات الركاب والاسكافيين والخياطين والكناسين والمتاجرين بالاعشاب والحلاقين والرعاة وصانعي الاسهم النارية والمتسولين.

## يقظة الجبار

في تلك الاثناء عين جيمي ثمانين معلماً من المدارس الحكومية والخاصة والارسالية ليعلموا ساعة ونصف ساعة كل مساء. وافقوا جميعاً على القيام بهذا العمل. درّبهم جيمي على الاسلوب الخاص بتدوين الرموز الألف، وأمّن غرفاً للصفوف في المدارس الابتدائية ودور العبادة ومراكز النقابات والمنازل الخاصة في أنحاء المدينة.

مدة التدريس أربعة أشهر. وفي نهاية كل شهر امتحان، ومن يجتز الامتحان بنجاح يكافأ بتقليده شارات ملونة بألوان العلم الصيني: الاحمر والازرق والابيض والاسود. والافتخار بتقلد هذه الشارات ساعد على اكتساب التفات واسع في المدينة الى ما كان لجيمي ين من هدف شجاع هو تعليم كل سكان شانغشا القراءة.

من أصل ١٣٧٠ "رجلا أعمى" فقيراً، اجتاز ٩٦٧ الامتحانات الاخيرة بنجاح. وفي يوم تخرجهم منحهم حاكم الاقليم شهادات "مواطنين متعلمين في جمهورية الصين".

وللحال تحرك جيمي نحو حملته التالية، فسجل في المدينة ١٥٠٠ أمّي جديد للفصل الدراسي الثاني.

أدرك جيمي الآن أن حلمه بأمة متعلمة قد يصبح حقيقة. فانطلق الى تنظيم غزوة ثانية لمدينة يانتي (المعروفة أيضاً باسم زيفو) في الشمال وفيها مرفأ مفتوح تزوره غالباً مراكب بريطانية وأمريكية.

كانت الخطط هنا مطابقة لخطط شانغشا مع فارق واحد كبير. هذه المرة كان على الاناث أن يشفين من "عماهن." وذلك بالنسبة الى الصينيين صدمة وفكرة ثورية. فعلى مدى ألوف السنين كان العلم موقوفاً على الرجال. أما النساء فكنّ "متاعاً." أقدامهن مقيدة، وعندما يتزوجن يصبحن ملكاً لعائلة الزوج. ولكن في يانتي، خلال فترة غير عادية من تاريخ الصين، سجل جيمي ين ١٤٦٦ فتى ورجلا و٦٣٣ فتاة وامرأة لتعلم القراءة.

رأست حفلة التخريج امرأة هي السيدة سيونغ زيلينغ زوجة رئيس وزراء سابق للجمهورية والتي أصبحت نصيرة جيمي ين. كانت قدماها مقيدتين، لكن أباها المقدام علمها تأليف المقالات ونظم الاشعار ومرّنها على الخط. وفيما موسيقى الشرطة والبحرية الامريكية تعزف في الاحتفال بكت وقالت: "لم أر من قبلُ متعلمين حفاة."

كان لدى السيدة سيونغ نبأ تود اعلانه. في العشرين من أغسطس (آب) ١٩٤٣، سيعقد في بيكين مؤتمر وطني حول تعليم العامة دعي اليه مندوبون من عشرين اقليماً. وكان جيمي مستعداً لتوسيع مهمته فتشمل الصين بأسرها.

أنشأ المؤتمر "الجمعية الوطنية لحركة التعليم الشعبي." وأعطت السيدة سيونغ جيمي ين غرفة صغيرة في مجمّعها لتكون مركزاً له، ووضعت في تصرفه مالا. بلغت موازنة السنة الاولى ما يعادل ١٠٠٠ دولار أمريكي. وكان راتب جيمي ين خمسين دولاراً شهرياً، وفي المكتب كاتب واحد يعمل بدوام جزئي.

بهذه البداية الصغيرة أيقظ جيمي ين "الجبار النائم." ففي العقدين التاليين علم ملايين الفقراء من الرجال والنساء في أنحاء الصين. أما عطاؤه فكان في النتيجة أعظم من ذلك.

## عرينة النمر

موهبة ين الجميلة هي أنه المعلم الذي يتعلم من تلاميذه. أمران اثنان وسعا رؤياه بنوع خاص.

في هانغزو أحرزت فتاة في العاشرة من عمرها نجاحاً مدهشاً. كانت تأتي من الريف، حيث ترعى بقرة، الى المدينة لتتلقى دروسها. هذه الفتاة الصغيرة جعلت جيمي ين يدرك أن ثمة في الريف مهمة أبعد وأوسع مما في المدينة المكتظة بالسكان. اذ يشكل القرويون ٩٠ في المئة من الشعب الصيني، ومعظمهم أميون. وهكذا بدأ عمله في القرى الريفية قرب بيكين.

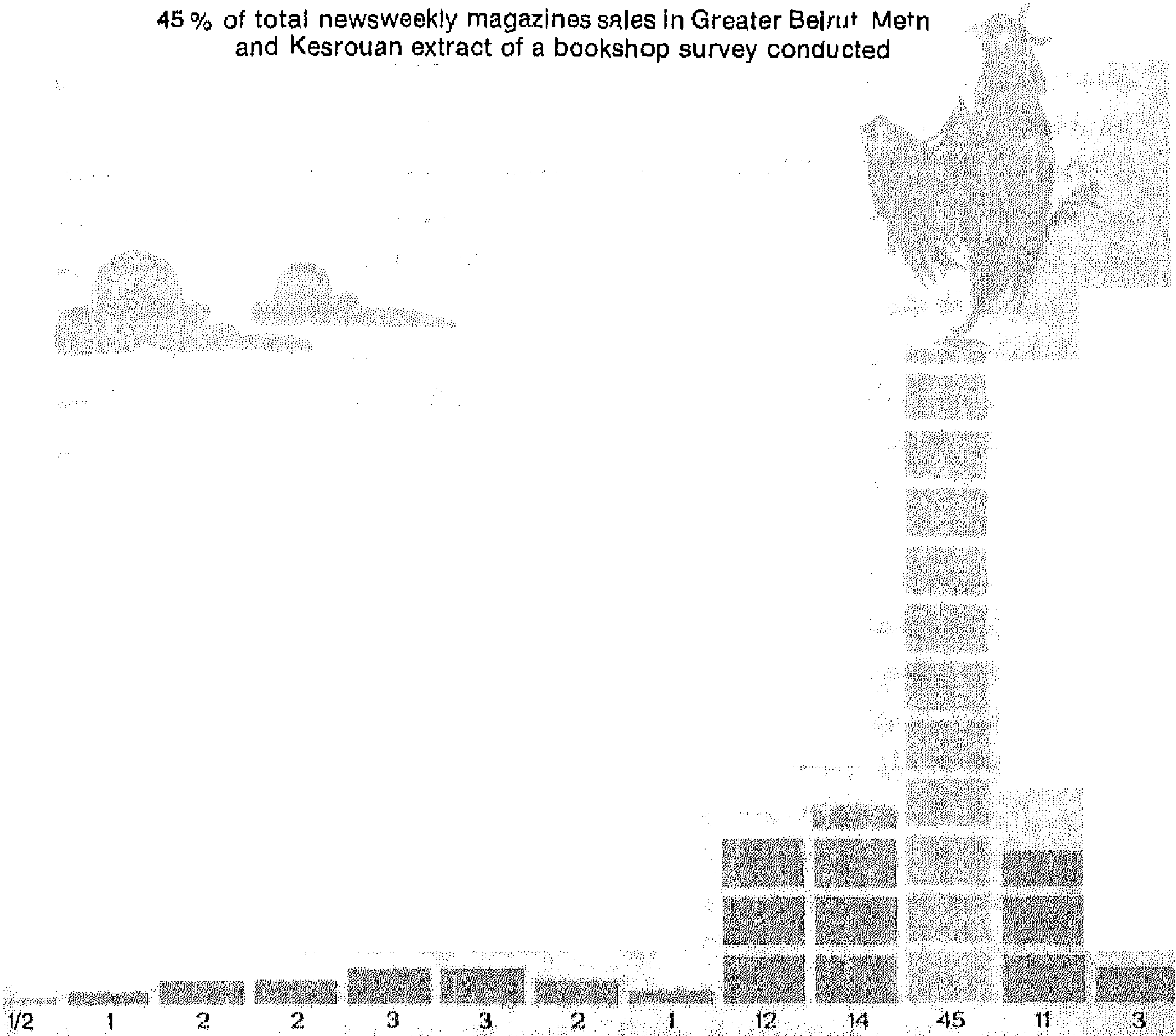
أنجز فريقه تقدماً عجيباً، ولكن ذات يوم قصد المعلم ين مزارع كان تخرج في دراسة الرموز الالف وقال: "أنا أقرأ، لكنّ بطني يتضور جوعاً كبطن جاري الذي لا يعرف القراءة."

هذه الشكوى جعلت جيمي ين يسأل نفسه: "أي نفع لنا اذا ما أكثرنا من التعليم وأخفقنا في معالجة المشاكل المفجعة: مشاكل الفقر والجوع والمرض وسوء الادارة؟" ان الحلم بمواجهة هذه المشاكل ليس أمراً مثبطاً للعزيمة، بل هو جرأة ودعوة الى ثورة حقيقية. هو استنباط خطة لانعاش الحياة القروية الصينية. قال ين مستشهداً بأحد الامثال: "اذا لم تدخل عرينة النمر فلن تحصل على الجراء."

في ذلك الوقت كانت الوحدة الحكومية الادارية الاساسية تدعى اقليماً (سيان في الصينية) وكان هناك ١٩٠٠ اقليم. فاذا تمكن جيمي من ان يصنع انموذجاً مشرقاً في اقليم واحد، نسجت بقية الاقاليم على منواله.

بلغت مساحة اقليم دنغ حوالى ١٣٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانه نحو ٤٠٠ ألف في ٤٧٢ قرية قذرة أخنى عليها الدهر. أما جيمي فأول قرار جريء اتخذه هو أن النهج المبدع الوحيد الذي يجب سلوكه لاستغلال هذا المختبر البشري هو التعرف اليه. وهذا يعني الذهاب اليه والعيش فيه بتواضع بين القرويين القذرين الجهلة كواحد منهم. أقنع فريقاً من ثلاثين شخصاً ذوي ثقافة عالية بالانتقال من العالم الاكاديمي الى الكوخ الموحل. وضم هذا الفريق اختصاصيين بالزراعة

# The sky is still our limit




النهار العربي والدولي

an nahar arab & international

مجلة كل لبنان، مجلة كل اللبنانيين

exclusive advertising representative TAMAM S.A.L

وأطباء وصيادلة وموظفي حكومة وأعضاء في مجلس الشيوخ ورؤساء جامعات. واستقرت معه زوجته في كوخ وهناك ربت خمسة أولاد. وعلى مدى تسع سنوات كان أعضاء الفريق يذهبون الى السكان ليحملوهم على احداث تحوّل عظيم في اقليم دنغ.

ولما كان ين يسير في اتجاه مغاير لعادات القرويين المكرّمة وأساليبهم الزراعية ومعتقداتهم، فانه احتاج الى تهيئة للامر بكل عناية. قرر الاّ يأتي بالتغيير من طريق فرضه بل بتعلّم ما يحتاج اليه القرويون وما يريدونه، ثم تسليم القيادة الى القرويين أنفسهم لتحقيق الهدف.

انتقل جيمي وأعضاء فريقه الى بيوت بسيطة في احدى القرى، وهناك أخذوا يراجعون النظريات التي طالعوها في الكتب عن الاصلاح الريفي في ضوء ما وجدوه في الحياة الراهنة حولهم. وضعوا تدريجاً برنامجاً رباعياً يشمل مجالات التعليم والمعيشة والصحة والادارة الذاتية.

لكن البدء ببرامج متطرفة في اقليم دنغ يقتضي بعض المال. في العام ١٩٢٨ كان جيمي ين مدعواً من جامعة ييل للسفر الى الولايات المتحدة لتسلم درجة علمية شرفية. سافر مستغلا الرحلة لجمع نصف مليون دولار. وقد قال له هنري فورد الذي تبرع بعشرة آلاف دولار: "أنا أحب فكرتك، سر في التعليم المكثف للشعب كما أسير أنا في الانتاج المكثف للسيارات."

حين رجع جيمي كان أعضاء الفريق متأهبين للعمل. وقرروا البدء بانشاء مدارس قروية.

ارتاب القرويون في امرهم باديء ذي بدء. كانوا مثقلين بأعباء مخيفة من الضرائب: ضرائب على الارض وعلى تطيير طائرات ورقية وعلى ذبح الماشية وعلى الاسهم النارية، فظنوا أن ين وأعضاء فريقه يجب أن يكونوا جاؤوا لجباية ضرائب جديدة أو لتبليغهم عقائد غريبة أو لسجنهم في صناديق شيطانية (آلات التصوير).

في باديء الامر استمال جيمي كبير القرية وأخبره عما تم انجازه في المدن الكبرى. وطاف في القرية منادٍ يدق ناقوساً داعياً الى اجتماع يعقد في ساحة القرية. وحين تجمع المزارعون رأوا الزائرين يرتدون ثياباً قروية، وفهموا أنهم يعيشون في قرية مجاورة داخل أكواخ موحلة كأكواخهم.

وكان ين لقن كبير القرية ما يقول، فخاطب الجمهور: "هل لكم أعين؟ من له عينان فليرفع يده." ورفع الجميع أيديهم. ثم حمل كتاباً وقال: "كم واحداً منكم يرى هذا؟" فارتفعت كل الايدي. وأضاف: "كم واحداً منكم يستطيع قراءته؟" لم ترتفع يد واحدة. فقال: "لكم أعين، لكنكم عميان. ههنا بضع رجال يستطيعون أن يشفوكم من العمى في أربعة أشهر. ليس عليكم أن تدفعوا مالاً، عليكم فقط أن تصرفوا ساعة واحدة كل ليلة. وفي أربعة اشهر تبصرون."

وكما فعل جيمي في مخيم باريس، سأل الكبير عمن يريد أن يتطوع. وبعد صمت طويل تم تسجيل صف جريء.

وهكذا أسس ين ست مدارس تطبيقية في أنحاء مختلفة من الاقليم. وسرعان ما أظهرت هذه المدارس الرائدة كم يمكن أن يعلّم في أربعة أشهر، وأنشأت كل قرية مدرستها الشعبية الخاصة التي ينفق القرويون على معلميها.

## عائلة واحدة

بعد ذلك حوّل ين وأعضاء فريقه انتباههم الى بطون القرويين المتضورة. وخلال سنة بدأ المزارعون يقارنون كمية البيض التي أنتجتها دجاجاتهم القديمة (٥٠) بتلك التي أنتجتها الدجاجات الجديدة المهجّنة ذات الريش الابيض (١٠٠) كما أخذوا ينوعون بذورهم ويتناوبون غلالهم مما أدى الى زيادة انتاج القمح والذرة والخضر والقطن. أما الحليب فكانوا يحصلون عليه من المعز التي تستهلك علفاً أقل مما يستهلكه البقر.

ابتكر معهد مزارعي اقليم دنغ مضخة آلية تضخ الماء من الآبار لري الارض، ومدمّة(٣) بصفين من الاسنان بدلا من صف واحد، ومحراثاً خشبياً ذا دولاب ضابط لعمق الثلم.

شرع القرويون في التعاون بدلا من أن يعمل كل واحد منهم لمآربه الخاصة. مزارعو القطن الذين كانوا ضحايا غش التجار الوسطاء اتحدوا وباعوا بالاتهم مباشرة الى مصانع تيانجين. وطفق العمال يغرسون أشجار الحور على جوانب الطرق الداخلية في القرى وقاية من الرياح. وكان ذلك ابتكاراً غيّر في ما بعد معالم سهول شمال الصين.

بعد ذلك تحول فريق ين الى الشؤون الصحية. ان المزارع المريض يصبح دائماً مزارعاً فقيراً. لم تكن ثمة عناية طبية بالقرويين في أنحاء الاقليم. انهم يستقون الماء من الآبار الواقعة قرب المراحيض وأكوام البراز البشري. وتضمّد القابلة حبل السرّة للوليد بالوحل. أوبئة الكزاز والجدري والرمد الحبيبي واسعة الانتشار.

وبمساعدة الطبيب الصيني س.ك. تشن، الذي سبق له أن تدرب في كلية الطب التي تمولها مؤسسة روكفلر في بيكين، وفي هارفرد، علّم فريق ين العمال الصينيين المتطوعين العناية الصحية الاساسية. وزود كل فرد مواد طبية ثمنها دولار واحد تشمل الاسبيرين واليود والضمادات وكبريت النحاس للرمد الحبيبي، وعلم العمال الصحيين كيف يحافظون على الآبار الصحية وكيف يطهرون الجروح ويضمدون حبال السرة ويلقحون ضد الجدري والكوليرا. وعندما بدأ هؤلاء المساعدون الصحيون أعمالهم تحسنت أحوال القرويين الصحية على نحو سريع مدهش. وتمثلاً بهم نشأت بعد مرور سنوات فكرة النهج الصيني الواسع الانتشار المعروف بـ"الاطباء الحفاة."

في العام ١٩٣٣ زار اقليم دنغ موظف حكومي. ولما شاهد ما أنجزه فريق ين قال له: "برنامجك كطاولة مربعة ذات ثلاث قوائم: التعليم والشؤون المعيشية والشؤون الصحية. أنت تحتاج الى قائمة رابعة، قائمة سياسية لتجعل الطاولة مستقيمة."

(٣) المدمّة خشبة ذات أسنان تسوّى بها الارض.

كانت حكومة الاقليم التقليدية من شأن رجل واحد. ومن المفترض ان يكون حاكم الاقليم "موظفا أباً." لكن القرويين كانوا يرونه طاغية يجمع المكوس ويعاقب على الذنوب الصغيرة. يموّن الملاكين، وفي منطقته يعشش الفساد.

أما القرويون، وقد تعلموا كيف يديرون مدارسهم الشعبية، فأصبحوا مستعدين لادارة حكومتهم الذاتية. كانت فكرة ين الاساسية الاستعانة بفهم الصيني لمعنى العائلة. منح قرويي دنغ فرصة امكان صيرورتهم عائلة مؤلفة من ٤٠٠ ألف مواطن يعيشون معاً منسجمين، ولجميعهم صوت في ادارة شؤونها. جعل كل قرية تنتخب أعضاء مجلسها وتطرد الاداريين الفاسدين. وهكذا عرف أهالي اقليم دنغ فكرة العدالة الرائعة ورأوا فيها، وهي تتحقق، المثل الصيني الاعلى القديم القائل: "تحت السماء عائلة واحدة."

انقطع عمل ين في اقليم دنغ قبل أوانه. في العام ١٩٣٧ اجتاح اليابانيون سهول الصين الشمالية وطردوا منها ين وفريقه. الآن برزت المزية التي مكنت الصبي الصغير من تجاوز الليلة الثانية من حنينه الى البيت بعدما غادره الى المدرسة. لم يسعَ الى تجربة جديدة فحسب بل وسع هدفه مرة أخرى. انتقل الى شانغشا مكان حملته التعليمية الناجحة الاولى وشرع في تنظيم كل اقليم هونان الشهير بانتاج الرز والذي بلغ عدد سكانه ثلاثين مليوناً.

بمساعدة المئات من التلاميذ والمعلمين اللاجئين الذين انسحبوا من المناطق الساحلية التي احتلها اليابانيون، نظّم ين خمساً وسبعين حكومة اقليمية، ودرّب ٥٠٠٠ موظف مدني و٣٠ ألف شيخ قرية. مرة جديدة قطع الغزاة اليابانيون عمل ين قبل أوانه، لكن ما انجزه فريقه جعل معنويات الاقليم عالية جداً فقاوم أهلوه الغزاة أشرس مقاومة شهدها أي اقليم، اذ صدوا ثلاث هجمات يابانية قبل أن تنجح الهجمة الرابعة أخيراً.

انتقل ين الى تشونكنغ في ستشوان، الاقليم الذي ولد فيه والذي انسحبت اليه الحكومة الوطنية، وشرع في تطبيق مبادىء اقليم دنغ. اعاد بناء جامعة على طراز ريفي ونظم برنامجاً رائداً في ولاية من خمسة ملايين نسمة.

في العام ١٩٤٦، بعد اندحار اليابان، عرض جيمي على الجنراليسيمو تشانغ كاي شيك خطته لجميع أقاليم البلاد. تأثر تشانغ بها لكنه قال: "عندما نسحق جيوش الثوار سندعم خطتك كلياً."

قال ين: "لكنك لن تستطيع أن تهزم الثورة في ساحة القتال الا بعد أن تتغلب عليها في القرى، ففقر القرويين ويأسهم هما اللذان يغذيان الثورة."

في العام ١٩٤٧ سافر ين الى الولايات المتحدة لجمع المال لثورته التعليمية وطلب الى الكونغرس الامريكي مساعدته. وفي العام ١٩٤٨، عندما وافق الكونغرس على مساعدة الصين، خصّص سبعة وعشرين مليون دولار لمشروع ين في اعادة بناء الريف.

أخفقت حملات تشانغ كاي شيك

العسكرية، ونفد الوقت ولم ينفق من المساعدة الامريكية سوى أربعة ملايين دولار. وهذا كان أشد الانكسارات إحزاناً. وعندما استتب الامر للثوار في العام ١٩٤٩ لم يطرد جيمي ين من مختبره فحسب، بل طرد من البلاد التي أحبها.

مرة أخرى طلب فرصة جديدة وبلغ هدفاً اعظم. لقد بدأ عمله بأربعين حمالا أمياً، ثم أخذ اقليماً على عاتقه، فمقاطعة، فبلداً، والآن العالم بأسره.

## المساعدة الذاتية

بعدما أنشأ جيمي ين قاعدة ادارية ومصدراً مالياً في الولايات المتحدة، بحث عن بلد اسيوي يصلح لان يكون مختبراً لحركة عالمية. اختار الفيلبين. هناك بدأ العمل على غرار اقليم دنغ في ثلاث وخمسين قرية في اقليم نويفا اسيجا وفي ست عشرة قرية في اقليم ريزال. واذ كان يحتاج الى قادة في هذه القرى الرائدة اقترح تسجيل طلاب الجامعات، فكان الجواب: "لا،" الطلاب الفيلبينيون يريدون مناصب حكومية ورواتب عالية.

قال ين: "لنرَ."

وجه نداء الى الطلاب: "اذهبوا الى أبناء الشعب، عيشوا معهم، تعلموا منهم، خططوا معهم، ابدأوا بما يعرفون وابنوا على ما لديهم." وفي وقت قريب كان لديه ٣٠٠٠ متطوع متلهف للعمل.

خلال بضع سنوات كان فريق ين متغلغلا في سبعة عشر اقليما من جزر الفيلبين. وفي العام ١٩٥٥ كان التقدم الذي تم في جبهات ين الاربع حافزاً لحكومة مانيلا على اصدار قانون يجيز للقرى أن تنتخب مجالسها الخاصة للعناية بالشؤون التعليمية والمعيشية والصحية، فكان أول انتخاب وطني للمجالس القروية في تاريخ الفيلبين في السابع عشر من يناير (كانون الثاني) ١٩٥٦. أما ين فمنح، تقديراً لانجازاته، جائزة رامون ماغسيسي التي كان كل فرد يشتهي أن ينالها.

حين بدأ ين وأعضاء فريقه يفكرون على نطاق عالمي شامل اتضح لهم أمر واحد: ان جيمي ين، بحماسته الملهمة، لا يستطيع أن يجعل حضوره ملموساً في كل قرية من جزر الفيلبين ولا في كل قرية أخنى عليها الدهر في الدول المتخلفة. تزدهر القرى ما دام القادة الغرباء باقين فيها، وحين يغادرونها تتدهور أمورها. لذلك نشأت الحاجة الى قادة محليين على المدى الطويل.

في الستينات ابتكر فريق ين طريقتين لتحقيق هذا الامر. الاولى ايجاد شبكة من الاتحادات، للرجال وللنساء وللشباب. اتحادات الرجال تعمل على تحسين الزراعة والتسويق والحكم الذاتي. واتحادات النساء تعمل في مجالات الشؤون الصحية وانشاء الحدائق المنزلية وتربية الطيور الداجنة والعناية بتغذية الاطفال. واتحادات الشباب تركز على شؤون التعليم وصنع الاثاث وغرس النبات وصنع الاجر واقامة المجمعات السكنية وتنظيم الالعاب الرياضية والاعمال المسرحية. من خلال هذه الاتحادات يشترك القرويون في اتخاذ القرارات المتعلقة بأمورهم الحياتية مما يفسح في المجال لظهور القادة.



أما الابتكار الثاني فجاء في السبعينات، وهو نظام المدارس الشعبية التي كان القرويون يدعونها "مدارس الطلاب الكادحين." وقد كبر هؤلاء الطلاب رجالا ونساء واختيروا قادة في مجالات التعليم والمعيشة والصحة والحكم الذاتي.

بعد تثبيت هذه الخطوات الموضعية حان الوقت للانتقال الى بقية العالم. في العام ١٩٦٠ كان ين أنشأ "المعهد العالمي لاعادة بناء الريف." وبعد سبع سنوات أصبح مركزه الرئيسي ضمن باحة مساحتها خمسون هكتاراً في مدينة سيلنغ في اقليم كافيت على بعد أربعين كيلومتراً من مانيلا. ونظراً الى التسهيلات المتيسرة بوجود جامعة من الدرجة الاولى بدأ المعهد يستقبل متدربين من دول العالم الثالث. ان هؤلاء المتدربين، الذين يتوقّع أن يكونوا حملة

مشاعل الحركة، اكتسبوا أول اختبار لهم الى جانب زملائهم الفيليبينيين في المختبر البشري الناجح في كافيت.

خلال السبعينات والثمانينات عاد هؤلاء المتدربون الى بلدانهم ليعلّموا غيرهم العمل في القرى متبنين أفكار جيمي ين في ثقافاتهم الوطنية. واليوم أصبح ألوف العمال منشغلين ببرامج في الفيلبين وغواتيمالا وكولومبيا وغانا وكينيا والهند وبنغلادش وسري لانكا والنيبال وتايلند واندونيسيا.

ان الاختبارات التي أجراها العمال جعلت دول العالم الثالث ترى أنه، بالمساعدات المتفهمة، يستطيع الفقراء العمل بجد في سبيل حل مشاكلهم الخاصة، ويتجاوبون مع الدعوات الى المساعدة الذاتية على نحو أفضل مما كانوا يتجاوبون بالسوط والبندقية.

## الانسان الجديد

كان في حياة جيمي ين، على رغم كل انجازاته، حزن شديد. فهو، مثل الحمالين الصينيين في فرنسا قديماً، اقتلع من جذوره. واذ شعر بانه مبعد عن وطنه الام فعل في العام ١٩٦١ ما أبى أن يفعله وهو تلميذ صغير. تخلّى عن جنسيته الصينية وأصبح مواطناً أمريكياً.

في العام ١٩٨٠ توفيت زوجته في الولايات المتحدة. أما أبناؤه الثلاثة فظلوا في الصين، وألمعهم قضى تحت عجلات قطار.

في العام ١٩٨٥ دعا مجلس الشعب الوطني جيمي ين ليعود الى منزله القديم في اقليم دنغ كضيف مكرّم. قبل الدعوة. ولحظة وطئت قدماه التراب الصيني في مطار بيكين كان له لقاء دامع مع أرملة ابنه ومع ولديه الباقيين ومع تجمع من أبناء اخوته الذين جاؤوا من اقاليم عدة للترحيب به. أخيراً، تحت السماء عائلة واحدة.

لقي جيمي ين، البالغ من العمر اثنين وتسعين عاماً، ترحيب الابطال طوال ثلاثة أسابيع. أول من كرّمه كان حاكم اقليم هيبي الذي أقام له مأدبة. بعد ذلك ذهب الى بيته في اقليم دنغ ودهش حين وجد منزله القديم قد جدد وحوّل متحفاً تكريما له، وفيه صور له ولزملائه ونسخ أصلية من كتب القراءة التي استعملها فريقه في الحملات التعليمية.

أدرك جيمي ين أخيراً أن عمله تخطّى النظريات والعقائد وأوتي ثماره في موطنه. وأيقن أن الاساليب التي ابتدعها في اقدامه التاريخي على تعليم القرويين القراءة والكتابة والعناية بنظافتهم وأمورهم الصحية والاتكال على انفسهم برهنت أخيراً أنها أساليب صحيحة.

لاقليم دنغ اليوم سمعة مدوية في أنحاء العالم. في مركز الولاية قال الحاكم لجيمي ين: "بعدما تركتَ الصين تابعت تشجيع تعليم الجماهير وأشركت أربعاً وأربعين دولة من العالم الثالث في خبرة اقليم دنغ. الان أصبحت كل هذه الدول تعرف أن ثمة اقليماً يدعى اقليم دنغ، وهذا هو فخر دنغ."

حان وقت الانصراف. وعندما خرج جيمي ين من منزله تحت المطر المنهمر وجد الشارع مزدحما بالقرويين. وقف تحت قنطرة مدخل المنزل وخطب فيهم




جيمي ين في بيكين
في يوليو (تموز) ١٩٨٦.

شارحاً ما تعني له هذه العودة. واذ دخل سيارته لمغادرة المكان تقدمت امرأة عجوز وألصقت وجهها بنافذة السيارة المبللة. فتح ين النافذة فهمست المرأة: "لن أنساك ابداً."

في أواخر العام ١٩٨٦ التقيت الرجل الذي سبق لي أن قابلته يوم كنت في العاشرة من عمري وكان هو في الثلاثين. لقد عاد الى الولايات المتحدة ليحتفل بعيد مولده الثالث والتسعين. جلس مستقيماً كشجرة صغيرة كما فعل قبل اثنين وستين عاماً.

تكلّم معي كعم شقيق لوالدي. لقد توفي والدي في العام ١٩٤٥ وهو في السابعة والستين من عمره اثر مرض عضال ألمّ به وهو في رحلة على مركبة ذات عجلتين في أقاصي شمال الصين. سرني جيمي وهو يتكلم عن لطف والدي وعن النعمة التي وهبه الله اياها للتعاطف مع الآخرين. أما أنا فأخبرته عن الامتنان اللامتناهي الذي كان والدي يكنه له على كل ما علمه اياه حول تحريك الفقراء نحو تولي أمورهم الحياتية.

بعد ذلك تحدثنا عن أعماله. سألته أن يلخص لي رسالته الى العالم.

قال: "في فرنسا صُدِمتُ عندما وجدت انساناً جديداً في حمّال منبوذ محتقر. ثلثا سكان العالم الثالث فلاحون، وعلى ظهورهم بنيت ثقافات بلادهم. وفي تاريخ العالم، قليلة هي الدول التي نمّت "القوة المرة" في أبنائها القرويين. وكثيرة هي النظم التي قد تتكلم عن وضع برامج لاغاثة الفقراء." على حين غرة ارتفع صوت ذلك الشاب المتحمس حاداً

وعميقاً وهو يقول: "أريد تحريراً لا اغاثة، أريد أن يضعوا برامجهم هم بأنفسهم."
أجفلني حين لفظ كلمة "بأنفسهم" وهو يضرب الطاولة بيده.
سألته: "ولكن كيف يمكن وضع مثل هذه البرامج مع كل ما هو منتشر في هذه الايام من جشع وأنانية وظلم؟"
مرة ثانية كان صوت الرجل الضعيف قوياً جازماً: "أنا أؤمن بالشعب. علمني والدي عندما كنت في السابعة من عمري جوهر التعاليم الكونفوشية: الشعب أساس الامة، فاذا كان الاساس قوياً تمتعت الامة بالطمأنينة." الفرصة الوحيدة للتغلب على الجشع والظلم في البلاد القروية هي في أن يصبح الشعب واثقاً بنفسه، مدركاً لقوته الذاتية، متعلماً كيف يعمل معاً من أجل النفع العام. حينئذ فقط يمكننا تحقيق المثل الاعلى: "عائلة واحدة."

قلت: "أنت عملت أكثر من ستين عاماً، وطردت من مكان الى آخر، ألم تخمد همتك؟"
"أبداً." وبدأ العجوز البالغ من العمر ثلاثة وتسعين عاماً يتكلم بحرارة عن خططه المستقبلية. "أعطنا خمس سنوات مع هذه الحكومة في الفيليبين الصين منفتحة، وقد تكلمت مع الزعماء الصينيين. ان "المعهد العالمي لاعادة بناء الريف" هو مؤسسة غير سياسية ولي كل الرجاء بأن يجد زعماء الصين برنامجنا متطابقا مع الروح الجديدة في الصين. يجب أن ترى ما بدأناه في الهند. ليس مهماً الّا نكون حققنا فوزاً كاملا في بلد واحد. الفكرة موجودة ومفتوحة لجميع الناس. انها فرصتنا الوحيدة لسلام دائم على الارض: تحرير قوة الرجل العادي."

جون هيرسي

ترجمة السفير هنري أبو فاضل

## بداهة تشرشل

أثناء خطاب طويل وممل ألقاه أحد المعارضين في مجلس العموم البريطاني استرخى رئيس الوزراء ونستون تشرشل في مقعده مغمضاً عينيه. حينذاك صاح الخطيب: "أأنت مضطر الى النوم أثناء كلمتي؟" فرد تشرشل وعيناه ما زالتا مغمضتين: "لا، اني أفعل ذلك بملء ارادتي."

إ.ا.

## رماد الزبائن

كتب في لافتة في محطة للوقود: "اذا كان لا يسعك الا أن تدخن هنا، فدخن. انما نرجوك أن تترك لنا عنوانك كي نعرف الى أين نرسل رمادك."

س.ر.



كتاب الشهر

# محنة طبيب

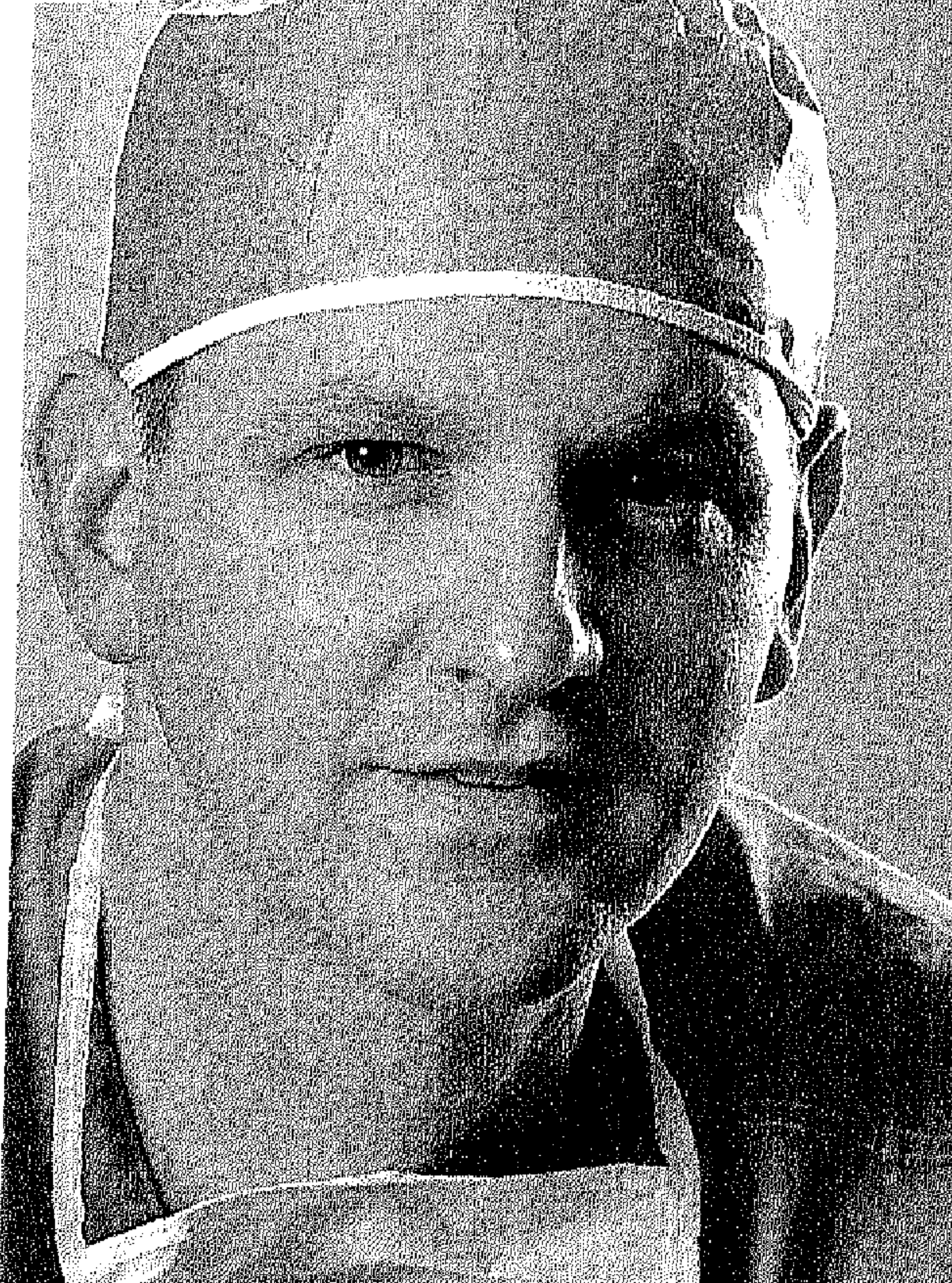
ملخص من كتاب

بقلم الدكتور ج. كنيون ريز

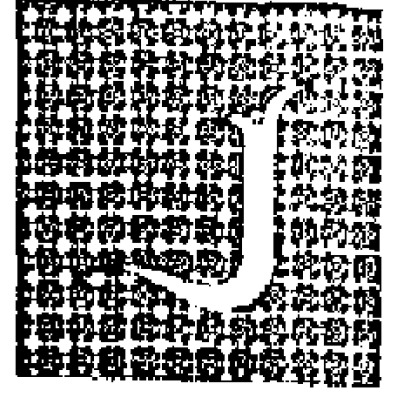
# محنة طبيب

قليلة هي الاختصاصات التي تتطلب سنوات طويلة من الدراسة والتمرين وتفرض مهارات كثيرة وترهق الاحاسيس مثل جراحة الاعصاب. انها تعالج أكثر أجزاء الجسم البشري دقة وغموضاً، الدماغ والنخاع الشوكي حيث تختبىء الاورام الخبيثة وتتمدد الاوعية الدموية وتهدد زلة مبضع بالشلل أو الموت. أما مكافأة هذه المهنة فتكمن في إنقاذ حياة الآخرين، إنما يفترض في جراح الاعصاب تقبل حوادث الموت عندما تخفق جميع الوسائل.

هذه قصة جراح أعصاب واجه مسؤوليات عمله الجليلة والمثيرة منذ أيامه الاولى في كلية الطب مروراً بفترة التدرب في المستشفى فالتخصص فالممارسة الاحترافية. انها أيضاً قصة مؤثرة عن أب وزوج يواجه اختيارات معذبة له ولمرضاه ولعائلته




Illustrations: Alain Reingold



راقبت سيارة الاسعاف وهي تقبل مسرعة عبر موقف السيارات ثم تتوقف عند مدخل الطوارىء. وتهيأت لمعالجة المريض المصاب في رأسه. كنت طبيباً متمرناً في المستشفى العمومي في موبيل بولاية ألاباما ولما أمض سوى ثلاثة أيام من الخبرة في جراحة الاعصاب. تساءلت بانفعال عن سبب غياب جراح متمرس لمعالجة هذا الرجل.

أنزل المسعفون الرجل الفاقد الوعي من سيارة الاسعاف وجررت أنا الحمالة إلى أقرب غرفة. كان مصاباً بسكتة دماغية إلا أن ضغطه الدموي تحسن بفضل الحقن الوريدية. ضغطت الشرايين التي تصب الدم من جرح خلف أذنه اليسرى.

أخبرني أحد المسعفين: "اسمه روبرت سمبسون."

- كيف حصل الحادث؟

"إنحرف الى وسط الطريق واصطدم بسيارة مقبلة نحوه."

- أكان مسرعاً؟ أو ثملاً؟"

"لا."

كشفت الأشعة كسراً في الجمجمة خلف الأذن اليسرى، وبين التصوير الطبقي الموجه بالدماغ الالكتروني(١) جلطة دموية بحجم ليمونة تضغط الدماغ تحت الكسر مباشرة. من الضروري إزالتها لتخفيف الضغط عن دماغ سمبسون إذا كان هناك امكان لانقاذه.

أعدت سمبسون الى غرفة الطوارىء لينقل اليه دم وليحقن مضادات حيوية ولقاحاً ضد الكزاز وليجرى تخطيط لقلبه. وفي حين انشغلت به الممرضات اتصلت بالدكتور كلارك جراح الاعصاب. كان يجري جراحة في أحد المستوصفات.

أمر الدكتور كلارك: "جهز رأسه للجراحة، وأحدث شقاً فوق كسر الجمجمة وباشر إزالة التجلط الدموي. ولكن هل أنت متأكد من أنه ناجم عن الحادث؟ أحياناً تنفجر أنورسما (٢) وتسبب جلطة."

أجبته: "الجلطة تحت الكسر تماماً. اني متأكد من أنها نتجت من الاصطدام."

- هل أجريت تخطيطاً شريانياً لتتأكد من أن الانورسما غير واردة؟

"لا يا سيدي. أعتقد أن الجريح صدم رأسه بالحاجب الزجاجي."

- حسناً. أراك بعد ٣٠ دقيقة.

شعرت بأني وحيد داخل غرفة العمليات. هناك ممرضتان وطبيب تخدير، لكني الجراح الوحيد. حلقت رأس سمبسون ومسحته بالكحول ونشرت ملاءات جراحية على المريض. ماطلت ١٥ دقيقة منتظراً الدكتور كلارك، بعد ذلك لم يعد هناك مفر من إجراء الجراحة.

أعطتني الممرضة المبضع اللامع البارد، فمددت الشق خلف أذن سمبسون نحو جبينه حوالى ثمانية سنتيمترات. شعرت بطرف الكسر القاسي تحت فروة رأسه وأخذت انتزع الشظايا عن سطح الدماغ. تصبب العرق تحت ردائي وأنا

ملاحظة من التحرير: أبدلت أسماء الاطباء والمرضى حفاظاً على خصوصياتهم.

(١) Computerized Axial Tomography «CAT»

(٢) الانورسما «aneurysm» تمدد الاوعية الدموية.

أحدق الى التجلط الاسود الكثيف تحت أجزاء الجمجمة المحطمة.

صرخ الدكتور كلارك: "توقف." رفعت بصري فرأيته يتفحص نتائج التصوير الطبقي المعلقة على صندوق العرض. قال: "معظم هذه الجلطة داخل الدماغ، وقليل منها على السطح حيث يفترض أن تكون إذا نجمت عن الحادث. لقد أصيب هذا الرجل بانفجار أنورسما. لا تسحب الجلطة الآن لأنها مثل قشرة فوق الانورسما، واذا أزلتها الآن فسوف ينزف حتى الموت على الطاولة."

غسل الدكتور كلارك يديه وذراعيه بصابون مطهر وارتدى ثوب الجراحة واقترب. أراني طريقة نشر عظمة الجبين بواسطة ثاقب آلي ورفعها عن بقية الجمجمة. ثم قطع بمقصه الغشاء الاخير المغلف للدماغ بالمقص وكشف الموضع المتورم الملطخ.

قال الدكتور كلارك معلقاً على اللون الاحمر بدلا من الاصفر الطبيعي: "إنه دماغ غاضب." وطلب مني إنهاء سحب الجلطة فيما هو يضغط بإحكام الشريان الرئيسي الذي يقود الى الانورسما.

في أسفل الحفرة التي أحدثتها الجلطة ظهرت الانورسما بحجم بلة (كلة) زجاجية. لقد انتفخ موقع واهن في جدار أحد الشرايين مثل رقعة ضعيفة في إطار سيارة. وحين سحبت بقايا الجلطة انفجرت الانورسما وتدفق الدم وغمر حافة الجمجمة.

"مشبك أنورسما،" قال الدكتور كلارك بهدوء بينما كنت أحاول إزالة الدم. تناول المشبك من يد الممرضة وأنزله في الدماغ وأقفله على الجذع الرئيسي للشريان الذي يغذي الانورسما.

قال: "نحن ملزمون الآن. حدد الوقت. لدينا نحو أربع دقائق ونصف دقيقة لشبك الانورسما وفتح الشريان الرئيسي والا أصيب الرجل بسكتة دائمة." أخذ مني أنبوباً ماصاً وسحب بسرعة كل الدم عن الدماغ.

قالت ممرضة: "ثلاثون ثانية."

تابع الدكتور كلارك عمله. أمكن الآن رؤية الانورسما النابضة بكاملها متفرعة من الشريان.

"دقيقتان."

حاول الدكتور كلارك استخدام مشبك مستقيم. لكنه في كل مرة ضغط عنق الانورسما ضيق على الشريان أيضاً. فقال: "لنحاول استعمال مشبك منحن الى أسفل." أقحمه فوق الانورسما، فانطبق على نحو ملائم.

"ثلاث دقائق ونصف دقيقة."

– أعطيني نازع المشبك. يجب رفع المشبك الموقت عن جذع الشريان.

ناولته الممرضة آلة.

قال الطبيب بهدوء: "ليس هذا النازع الصحيح."

شهقت الممرضة وأوقعت الآلة على الارض.

قال الطبيب: "لا بأس. لدينا وقت."

"أربع دقائق."

تفحصت الممرضة آلاتها. أمسكت واحدة من أربع آلات أمامها لنزع المشابك، وترددت ثم رفعت نظرها. هز الطبيب رأسه موافقاً وغمزها، فأعطته الآلة. إنسلت يده في الدماغ وأزالت

المشبك الموقت عن الشريان الرئيسي.
قالت الممرضة: "أربع دقائق و١٥ ثانية."
فرد الدكتور كلارك: "سينجو هذا المريض."
جامل الدكتور كلارك الممرضة ثم عاونني في إغلاق الغشاء الدماغي وإعادة جزء الجمجمة فوق جبين السيد سمبسون ثم خياطة فروة الرأس.
في السادسة صباحاً، بعد خمس ساعات من الجراحة، مشيت والدكتور كلارك في جولتنا الصباحية على المرضى. وبعد فحص سمبسون طمأنني الطبيب: "نتيجة ممتازة."
قلت: "في المرة المقبلة سأتنبه إلى مسبب الجلطة الدموية."
فرد الطبيب: "تذكر ما كتب أبقراط(٣): العلم هو أن تعرف، أما أن تكتفي بالاعتداد بمعرفتك فهذا جهل مطبق."

## "إنه ميت"

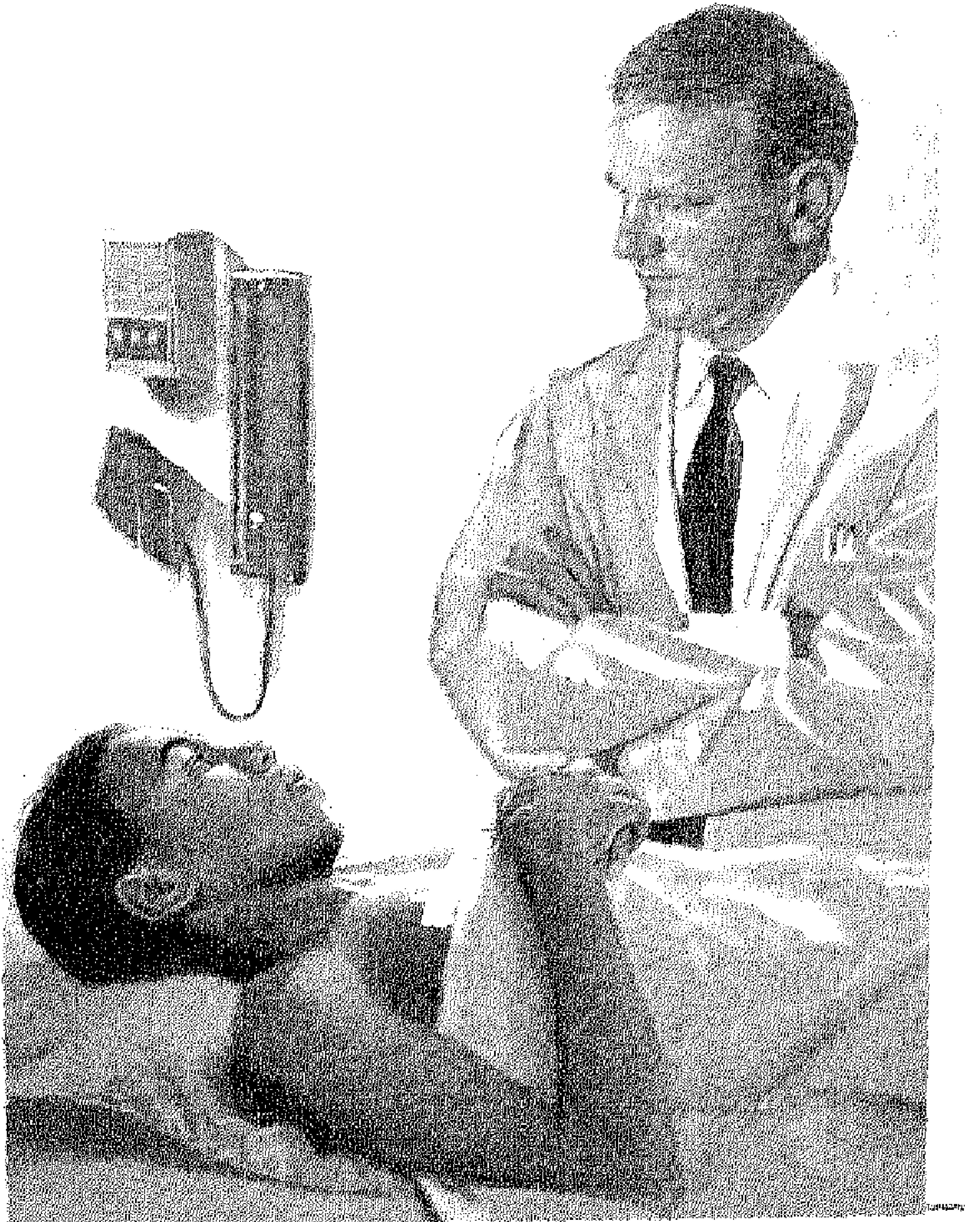
بدأت سنواتي الست عشرة التمرينية في جراحة الاعصاب في كلية الطب بجامعة ألاباما في برمنغهام. في الصباح كنا نصغي الى محاضرات في تعقيدات الكيمياء الحيوية، ثم نتجمع فوق المجاهر لدراسة علم الأنسجة وهندسة الخلايا في الجسم. وبعد الظهر ننكب على تشريح الجثث.
تطلبت امتحانات التشريح جهداً كبيراً. باللمس فقط كان علينا تسمية العظام المخبأة داخل أكياس ورقية، والتعرف الى العضلات والشرايين والاعصاب المنتزعة خلال العمليات.
في السنة الثانية ازدادت الدروس الكتابية عن علم وظائف الاعضاء وعلم الامراض وعلم الاحياء المجهرية وعلم العقاقير. وأخيراً حانت سنوات الطب السريري والانهماك في الطب الداخلي والجراحة وطب الاطفال وغيرها من الحقول. تعلمنا ذاك القول المأثور القديم: "الطبيب المتمرن يعلم كل شيء ولا يفعل شيئاً، الطبيب الجراح لا يعلم شيئاً ويفعل كل شيء، الاختصاصي بعلم الامراض يعلم كل شيء ويفعل كل شيء ولكن بعد فوات الأوان."
بعد أربع سنوات أصبحت "كتاباً طبياً" كامل البرمجة. في وقت وجيز سأغدو طبيباً، لكن أحداً لم يعلمني الفرق بين الحياة والموت.
قبل التخرج ببضعة أيام كنت أعمل في إحدى غرف الطوارىء في الجامعة. كنت أتحدث مع الدكتور بيل واكر عن احدى الحالات عندما أسرعت ممرضة نحونا: "طعنة في القلب، الفتى فاقد الوعي."
قال لي بيل: "باشر، سأوافيك بعد دقائق."
بدا الصبي الأسود في غرفة الطوارىء في عامه الثاني عشر. مدد عارياً على النقالة وسيل رقيق من الدم ينساب من يسار صدره. لم يشر مرقاب القلب إلى أي خفقة. أما جلده فكان بارداً، وبؤبؤا عينيه لم يتأثرا بالضوء مما يدل على توقف دماغه عن العمل. قاست الممرضة

(٣) طبيب يوناني (٤٦٠ ق.م. - ٣٧٠ ق.م.) يلقب "أبا الطب."

تركها السكين الطاعن في جدار القلب، وأغلقها بيده اليسرى كابساً القلب بيده اليمنى محافظاً على خفقانه إلى حين وصول جراحي القلب لنقل الصبي الى غرفة العمليات. وقبل مغادرته غرفة الطوارىء كان الصبي يتمتم ويحرك ذراعيه ورجليه.

غادرت الغرفة وتجولت في القاعة وقد أثبطت همتي. لقد أعلنت وفاة الصبي الذي أنقذ بعد ثوان أمام ناظري. لحق بي بيل واكر وربت كتفي.

تمتمت: "اللعنة يا بيل. سأصبح طبيباً بعد أيام قليلة وأنا لا أفرق بين الميت والحي."



أجاب: "لا تقلق بهذا الشأن. ولكن من الآن فصاعداً لا تتردد أو تخش الاقدام على عمل. فالجراح الذي لا يثق بنفسه خطر."

كان يوم التخرج في مايو (أيار) ١٩٧٥ حاراً ورطباً. تقدم ١١٨ متخرجاً داخل قاعدة البلدية وسط تصفيق الاهالي والزوجات. جلست خطيبتي جولي ديلوتش مع والدي. بدت مثلما التقيتها في الجامعة للمرة الاولى: ناحلة وشعرها الاسود منسدل على كتفيها وعيناها العسليتان تبرقان في وجه باسم ذي غمازة كبيرة في الخد الأيمن. ابتسمت بفخر وغمزتني لدى مروري.

ضغطه الدموي. لم يكن من ضغط. حاولت البحث عن نبضة. لا شيء.

قلت: "إنه ميت."

دخل بيل بينما كنت أطلب من الممرضة إيقاف المرقاب. تلمس الجرح فوق القلب، ومن دون كلام تناول إبرة عن الرف وغرزها في صدر الصبي وصولا الى الدم في الكيس الشغافي حول القلب. وسحب الدم بمحقنة، مما خفف الضغط حول القلب فعاد يخفق.

بعد ذلك أخذ سكيناً وفتح شقاً في صدر الصبي وفصل الاضلاع بمبعِّدة فولاذية وكشف القلب. عثر على الفجوة التي

بعد الجوائز والخطابات وتسليم الشهادات اختتم الاحتفال بإقسام "يمين أبقراط":

"أقسم بمقدساتي... أن أعيش حياتي وأمارس مهنتي باستقامة وأمانة... بعيداً من الخطأ...

"أعد بهذه الامور، وبمقدار التزامي هذا القسم لتغمر حياتي السعادة والصيت الحسن."

في الصباح التالي مررت بخطيبتي لأودعها قبل مغادرتي برمنغهام الى موبيل في الفترة التمرينية. قررنا إرجاء الزواج سنة أخرى ريثما تنال هي شهادة الماجستير في التعليم من جامعة ألاباما في برمنغهام وأنجز أنا سنة التمرين القاسية.

ودعتني بحرارة. وما زلت أتذكرها تلوح عند المدخل وأنا أنطلق بسيارتي.

## ٤٣ ساعة يومياً!

يرتفع المستشفى الميثودي ١٣ طبقة في وسط ممفيس بولاية تنيسي. يتألف من سبعة أجنحة منفصلة، وفيه ٦٤ غرفة عمليات وألف سرير. وبعد انتهاء الفترة التمرينية كان هذا مقر فترة التخصص التي تستمر أربع سنوات.

وقفت أمام المدخل الرئيسي أقرأ من جديد الرسالة التي تسلمتها قبل شهرين: "تم تعيينك طبيباً مقيماً مساعداً في جراحة الاعصاب ابتداء من أول يوليو (تموز) ١٩٧٦. إتصل بالطبيب المقيم الاول الدكتور بيتر بون..."

بحثت عن بيتر بون في جناح جراحة الاعصاب. كان طوله ١٨٣ سنتيمتراً، مثلي تماماً لكنه أنحف. استقبلني مرحاً: "يسعدني انضمامك الينا. سأعرفك الى مريض على وشك الخضوع لجراحة."

قادني بيت الى غرفة بأربعة أسرة حيث كانت إمرأة تحوك كنزة صوف. قال بيت: "مرحباً يا ليولا."

تركت ليولا حياكتها وردت: "طبيبي المفضل! أراهن أنك جئت تخبرني عن نتائج فحوصي."

جلس بيت على السرير الى جانبها وقال: "أجل. تظهر صور الأشعة ورماً في الدماغ وعلينا استئصاله."

سألت ليولا: "وماذا يحدث إن لم أخضع للجراحة؟"

– الورم في حجم الليمونة الآن. سينمو اكثر ويسبب المزيد من ألم الرأس والدوار والغثيان. ثم تقعين في غيبوبة وتموتين.

"حسناً! متى ستجرى الجراحة؟"

– الاولى بعد الظهر.

خارج الغرفة سألني بيت إن كنت تفقدت المنطقة، فأجبته: "ليس بعد، ممفيس مدينة كبيرة."

ضحك بيت: "عنيت المستشفى. أنت لن ترى المدينة أبداً."

تجولنا لثلاث ساعات وتفقدنا ٦٠ مريضاً يزورهم بيت بون كل يوم. راجع جداولهم وأمر بالأدوية وصور الأشعة. لم يبد عليه التعب.

سألني أخيراً: "هل أنت جاهز للغداء؟"

– بالتأكيد. لنتوجه الى المطعم.

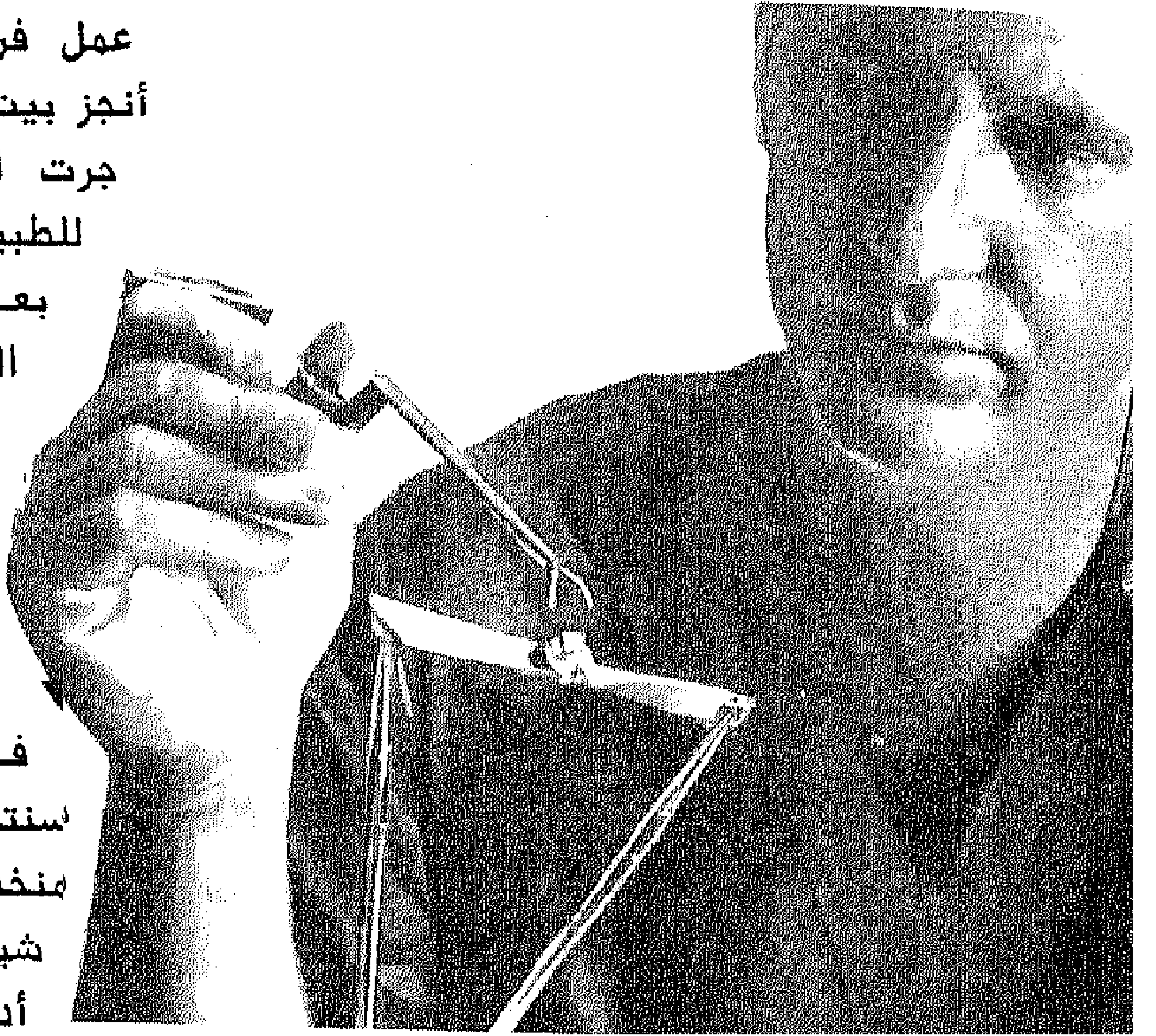
"ليس لدينا متسع من الوقت يا صاحبي. اسأل الممرضة هل حصلت حوادث

وفاة في هذه الطبقة الليلة الماضية."
- لماذا؟
"لنعرف أي أطباق نختار من عربة غداء المرضى."
بعد الغداء دخلنا إحدى غرف العمليات فيما الطبيب المخدر يهيىء ليولا.
بعد حلاقة القسم الخلفي من رأسها بعناية غرز بيت في جمجمتها دبابيس فولاذية لمسند معدني من أجل تثبيت رأسها. أخيرا، حين باتت في الوضع الصحيح، بدت ليولا كأنها جالسة في مقعد وهي مغفية مرتاحة ويداها مطويتان في حضنها.
نظفنا أيدينا. ثم فتح بيت جرحاً مستقيماً بطول ٢٠ سنتيمتراً خلف أذن ليولا وداخل فروة رأسها. أعطاني كماشة العظم. وبدأت باعتناء أنزع فتات العظام عن دماغ ليولا. واتسعت الفجوة في جمجمتها تدريجاً.
حين أصبح اتساع الفتحة كافياً قطع بيت الغشاء المغلف للدماغ ونزعه كالبرقع كاشفاً الدماغ. ثم بدأ البحث عن الورم.
سألته: "كيف تجد الوقت لكل هذا العمل؟"
أجاب: "في السنتين الاخيرتين اتبعت برنامجاً ناجحاً أثناء الخدمة: أقوم بجولات مجانية في الرابعة والنصف صباحاً، تليها جولات مراسية مع الجراحين من الخامسة والنصف الى السابعة، قبل الذهاب الى غرفة العمليات في السابعة والنصف. في العادة أخرج من العمليات قرابة الثالثة فأعد بعض البيانات والعلاجات قبل ذهابي الى اجتماع الساعة الخامسة.
أتناول العشاء بين الخامسة والنصف والسادسة، ثم أتوجه الى غرفة الطوارىء لمعاينة المرضى الذين انتظروني خلال النهار. في الثامنة أنهي إعداد البيانات الباقية، وقرابة العاشرة أذهب في جولات مسائية وأفحص الذين أخضعوا حديثاً للجراحة. بين منتصف الليل والاولى صباحاً أدون وصفات للمرضى الذين سيخضعون لجراحة أو تصوير للنخاع الشوكي والاوردة في اليوم التالي. أعود إلى غرفة الطوارىء لأتحقق من المرضى، ثم أحاول أن أنام بين الثانية والرابعة قبل بدء نهار جديد."
- إنه يوم كامل. هل أنت متزوج؟
"نعم، منذ ثمانية أعوام، وقد رزقنا أربعة أطفال. وأنت؟"
- منذ عشرة أيام. تزوجت جولي فور انتهاء الفترة التمرينية في موبيل. ألغينا شهر العسل وتوجهنا الى ممفيس لنكسب مزيداً من الوقت من أجل ترتيب بيتنا الجديد، لكنه كان أسبوعاً ممتعاً. خرجنا لتناول العشاء وشاهدنا بعض الافلام السينمائية واحتسينا المشروبات اللذيذة.
"إني سعيد لسماع ذلك، هذه فرصتك الاخيرة. آه، هاك الورم!"
بعد فحصه تحت مجهر مطهر بدأ بيت استئصاله. كان العمل مجهداً وتوالت الساعات. أخيراً، في الاولى صباحاً بعد ١٢ ساعة من بداية الجراحة، انتزع بيت بقايا الورم من الدماغ وناوله الممرضة قائلا: "استأصلته بكامله."
سألته: "هل بقي هناك ما نفعله؟"

أجاب: "علي تفقد المرضى الذين أخضعوا للجراحة حديثا وكتابة تقارير للذين سيخضعون لها غداً."

"امنحني فرصة!"

ساعدت بيت في جولاته وتبعته إلى وحدة العناية الفائقة لتفحص وضع ليولا.



كانت مترنحة لكنها واعية. فحصها بيت وطمأنها الى أن الورم غير خطر. بعد ذلك تحدث إلى ممرضات الليل. كانت عيناه منتفختين لكن وجهه باسم ومعنوياته مرتفعة. انه مستيقظ منذ ٣٤ ساعة وعليه العمل ١٨ ساعة أخرى قبل الخلود الى النوم.

سألته: "بيت، لماذا أنت سعيد؟"

أجاب: "لأن أمامنا نهاراً جيداً، هناك جراحتان ممتعتان للدماغ. وما زالت الساعة الرابعة، لذا سأنجز جولاتي خلال ثلاثين دقيقة."

كنت وجولي نتحين الفرص للمشي معاً في الجوار. في الطقس البارد أو الممطر كنا نعمل داخل البيت فنطلي الجدران ونجهز غرفة لطفلنا المقبل.

ولكن في ديسمبر (كانون الاول) حدث جدل بيني وبين بيت أخل بسلاسة عمل فريق الدماغ. فطوال أشهر أنجز بيت كل الجراحات الصعبة، إذ جرت العادة أن تكون الافضلية للطبيب المقيم الاول. وذات ليلة بعدما انتهينا من العمل اليومي انفجرت غاضباً: "امنحني فرصة! لقد حان الوقت لاستخدام يدي في عمل غير نحت العظام ومسك الماصة."

مشيت نحو بيت ووقفت في وجهه وبيننا بضعة سنتيمترات وقلت بصوت رتيب منخفض: "سأجري جراحة شيرلي روبرتس. رأيتها حين أدخلت غرفة الطوارىء شاكية من ألم في الرأس، وأعطيتها إذن الدخول وشخصت تمدد الأوعية الدموية. ليس عدلا أن تجري أنت الجراحة."

رد بيت: "بلى، ذلك عدل، لأنني أعرف كيف تجرى جراحة الانورسما وأنت لا تعرف ذلك."

- إنها تثق بي يا بيت ولا تعرفك.

"حسناً، نفذ العملية. ولكن لا تقتلها والا تسببت في طردنا. لننزل الى المكتبة ونراجع تفاصيل الجراحة."

بينما كنت أراجع الكتب عن جراحة الانورسما ذهب بيت الى غرفة العمليات وأتى بطبق معدني عليه مئات المشابك التي تستعمل لفصل الانورسما عن الشريان الذي يغذيها. قطع شريطاً من المطاط وعقده في وسطه مقلداً الانورسما. وعلمني قائلا: "تمرن على وضع المشبك على العقدة من دون المس بشريط المطاط."

سبق أن رأيت الدكتور كلارك يضع مشابك الانورسما في موبيل، لكني لم أفعل ذلك مرة. أمسكت المشبك وكبسته وجعلته ينغلق على العقدة في شريط المطاط. قلت: "ليس ذلك صعباً."

تأمل بيت شريط المطاط، وبعد ثوان "وثب" المشبك منفصلا. فقال: "لقد وضعت المشبك بعيداً عن العقدة، يجب أن يكون أقرب الى شريط المطاط."

حاولت من جديد. وفي هذه المرة انطبق المشبك على العقدة وعلى شريط المطاط معاً.

قالت بيت: "هذا سيىء. تذكر أن شريط المطاط يمثل الشريان الرئيسي الذي يغذي الدماغ، والعقدة هي الانورسما. اذا كبس المشبك على الشريان أصيبت المريضة بسكتة دماغية. واذا انفصل المشبك عن الانورسما نزفت المريضة حتى الموت. ثابر على التمرين."

انهمكت ساعتين أفتح المشابك المئة وأغلقها على شريط المطاط. كبست العقدة من مسافة ذراع واحد مائلا بيدي من زوايا مختلفة لاختبر امساك المشبك بطرق عدة. وتمرنت على شبك شريط المطاط داخل وعاء زجاجي يمثل الفتحة الضيقة في الدماغ التي تقود الى الانورسما.

في السابعة صباحاً، بعد الانتهاء من جولة غرفة الطوارىء، دخلت غرفة العمليات الرئيسية لجراحة الأعصاب. كان طبيب التخدير يحضر شيرلي روبرتس.

بعدما نظفنا أيدينا أمسك بيت المبضع وأحدث جرحاً راداً الجميل الذي أديته له طوال ثلاثة أشهر. تنحى جانباً وقال: "إنها لك."

كانت جراحتي الحقيقية الاولى صعبة لكنها ناجحة. وبعد أسبوع غادرت شيرلي المستشفى.

سألتني شيرلي بينما كنت أزيل قطبها: "هل من تعليمات يا دكتور؟"

قلت: "لا تجهدي نفسك إلى أن يشفى دماغك. هذا يعني الابتعاد عن الاعمال المنزلية والقيادة والجنس الى أن أراك بعد شهر."

## خمس في أربع

في إحدى أمسيات فبراير (شباط) طلب الدكتور ريتشارد هاركنس، رئيس برنامج جراحة الاعصاب في خمسة مستشفيات في ممفيس، التحدث إلي.

قال بفظاظة: "قررت أن تمكث سنة أخرى. لقد مددت فترة تخصصك خمس سنوات بدلا من أربع."

رددت بحدة: "لا يا سيدي. عند التحاقي وعدتني بأربع سنوات. ليس عدلا تغيير ذلك الآن."

قال الدكتور هاركنس بانفعال: "لا

يهمني ما تعتبره عدلا. ستبقى خمس سنوات. يمكنك المغادرة إما في العام ١٩٨١ واما الليلة."

في وقت مبكر من الصباح التالي، بعدما أنهى بيت جولاته على المرضى الجدد، وافاني الى جناح النوم. أخبرته عن عزمي مغادرة ممفيس اذا أصر الدكتور هاركنس على إبقائي خمس سنوات، وأضفت: "لا تزعجني فكرة السنوات الخمس، بل إنه المبدأ. لو كنت أحتاج الى هذه السنوات لأصبح جراحا كفياً لرضخت للأمر. لكنه يريد ابقائي لأنه يحتاج الى أطباء مقيمين."

قالت بيت: "نعم، نحن في حاجة الى مقيمين. لكن الدكتور هاركنس يهتم لتخريج جراحي أعصاب متفوقين. اني على ثقة من تقديره أنك ستكون جراحاً أفضل اذا أمضيت سنة اضافية من التمرين."

– أتظنني في حاجة إلى سنة أخرى؟

"لا. لديك القدرة الطبيعية واللمسة الحساسة داخل الدماغ. أرغمه على الوفاء بوعده وإلا فانتقل الى مركز تخصص آخر."

– حسناً يا بيت. سأفكر في الأمر.

بعد عشرة أيام كفلت التخصص في مستشفى في سانت لويس بولاية ميسوري. دخلت مكتب الدكتور هاركنس ذاك المساء مشمئزاً من اعلان قراري. وبعدما أطلعته على خطتي انحنى الى الامام في كرسيه وحدق إلي ضارباً كومة من وصفات المرضى بمطرقة مطاطية وسألني: "أتعلم أن أستاذي أبقاني سنة إضافية في فترة تخصصي؟"

– لا يا سيدي.

"قررت أن أسمح لك بانهاء مدتك خلال أربع سنوات اذا كانت هذه رغبتك. لكني سأكثف السنوات الخمس في أربع. من الأفضل أن تتوجه إلى المستشفى اذا كنت راغباً في البقاء حياً."

– حاضر يا سيدي.

### حياة جديدة

في يونيو (حزيران) أنبأني الدكتور هاركنس بأن مناوبتي التالية كانت ستة أشهر في علم الاعصاب في مستشفى ادارة قدماء المحاربين بمدينة ممفيس. وكان بيت عُيّن هناك كبير الاطباء المقيمين.

قلت لبيت: "سأضجر من دون اجراء جراحات طوال هذه المدة."

فردّ: "إستغل الفرصة. من المستحسن الاطلاع على بعض أمراض الجهاز العصبي كالشلل الرعاشي والانحلال والتهاب السحايا والسكتات الدماغية وغيرها. ستصبح متمكناً من جراحة الاعصاب إن كنت طبيباً كفياً للأمراض العصبية."

خلال هذه الفترة تسنى لي من وقت الى آخر تمضية المساء في المنزل. فأتناول العشاء مع جولي ونركّز حديثنا على مهنتها في تدريس مادة تربية الاطفال في جامعة ممفيس. كنا نحلم ونخطط لانجاب أطفال.

في إحدى أمسيات الخريف الباردة بدت جولي سعيدة أثناء نزهتنا في الجوار. فجأة استدارت ونظرت إلي. لمعت الدموع في عينيها وعانقتني بحرارة ثم همست في أذني أنها حامل.

غمرتني الدهشة: "رائع! ترى متى حدث ذلك؟"

أجابت ضاحكة: "لدي فكرة واضحة. أنتَ لم تأوِ الى المنزل سوى مرة واحدة خلال الاسابيع الستة الاخيرة."

في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٨ أكملت مناوبتي في دراسة الامراض العصبية في المستشفى وفرحت لانتهائي من هذا العرض المكثف للأمراض المستعصية. كنت متشوقاً للعودة الى عملي في جراحة الاعصاب حيث يمكنني أن أخبر المرضى كيف تمكن مساعدتهم بدلا من اخبارهم كيف سيموتون. ومع أن الدكتور هاركنس طلب مني تمضية ثلاثة أشهر في مختبر للابحاث حيث تبتكر تجارب لدراسة السكتات، الا أن المشروع أخفق سريعاً اذ تبين أنني أشكو من حساسية لفرو الحيوانات الاختبارية. وأعيد تعييني في المستشفى المعمداني التذكاري.

في ٢٧ مارس (آذار) ١٩٧٨ تمام الاولى والنصف بعد منتصف الليل وبعد ساعتين من المخاض، ولدت جولي طفلنا الأول: ابنة معافاة سوداء الشعر والعينين وتزن ٣،٦ كيلوغرامات. سميناها لورا بيج. قبلتهما ثم حملت لورا وحاولت إزالة علامات الكلّاب عن وجهها. وعندما غطت جولي في النوم حملت كتاباً وبدأت الدرس، اذ كانت تفصلني ثلاثة أيام عن الامتحان الكتابي للهيئة الامريكية لجراحة الاعصاب.

بعد ستة أسابيع بلغني نبأ نجاحي. ما زالت هناك سنتان من التخصص وكثير من ليالي السهر وعشرات الجراحات. ولكن في ذاك النهار الربيعي قررت صرف الذهن عن كل هذه الامور لبضع ساعات.

سألت طبيباً مقيماً آخر أن يحل مكاني وأسرعت الى المنزل للخروج مع جولي ولورا لتناول العشاء.

## ورم خفي

عندما أتم بيت بون فترة تخصصه في يوليو (تموز) ١٩٧٨ وبدأ الممارسة الفعلية أصبحت أنا الطبيب المقيم الاول في جراحة الاعصاب في المستشفى المعمداني التذكاري. فسنة التخصص الثالثة هي انتقال من سنوات المراقبة المستمرة والمساعدة في الجراحة الى سنة من التطبيق التام لكل الجراحات، وحيداً في معظم الاحيان. وكان الطبيب المقيم الاول في المستشفى المعمداني يعين دائماً لمساعدة الدكتور هاركنس الذي يعالج في المستشفى ما يراوح بين ٣٥ و٤٠ مريضاً.

وتعتبر دورة الستة الاشهر في خدمة الدكتور هاركنس الأصعب في فترة التخصص التمرينية. ولا يصبح المتخصص كبير الاطباء المقيمين الا برضا الدكتور هاركنس عن انجازاته، عندئذ ينحصر عالم المتخصص في غرفة الطوارىء وغرفة العمليات وأجنحة المستشفى. ما من حاجة الى ثياب صيفية وثياب شتوية. كنت أراقب تبدل الفصول من نوافذ المستشفى وأتابع نمو لورا من خلال الصور التي تلتقطها جولي.

في السابعة صباح كل خميس كان الدكتور هاركنس يباشر برنامج جراحات مرهقاً. وكثيراً ما أمضي طوال ١٣ أو ١٤

ساعة في غرفة العمليات، لكنه لم يتذمر من التعب قط. ولاقى كل مريض العناية نفسها. كان جراحاً بارعاً، لكنه سريع الغضب وقليل الصبر. وكان يصب نقمته دائماً على مساعده، الطبيب المقيم الاول.

وفي حين كانت الساعات الاثنتا عشرة من الجراحة مع الدكتور هاركنس يوم الخميس شاقة جداً، فان الساعة الوحيدة معه في مؤتمر ليلة الاثنين هي الاسوأ، اذ يقف عندها الطبيب المقيم الاول على منصة قاعة الاجتماعات في المستشفى ليدافع عن أساليبه في معالجة المرضى في القسم المجاني. وفي مؤتمري الرابع ذات ليلة اثنين، مارس الدكتور هاركنس ضغطه المؤلم.

بدأت عرض حالة سادي واتسون، وهي مريضة كهلة شخّص الاطباء، خطأ، أنها مصابة بداء "ألزهايمر" الشبيه بالخرف مما أدى الى احتجازها في دار للعجزة مدة ١٢ سنة.

قلت: "يكشف التصوير الطبقي ورماً غير خطر في النصف الايسر للدماغ. وقد أجريت لها البارحة جراحة دامت ثلاث ساعات، وهي الآن بخير. إنها لا تتكلم، لكنها تبدو أقل اضطراباً."

دقق الدكتور هاركنس في صور الأشعة ثم تفحص تخطيط الشرايين.

سألني: "كم استغرق استئصال هذا الورم؟"

أجبت مسروراً بهذه الفرصة لاثبات براعتي الجراحية: "ثلاث ساعات."

صرخ الدكتور هاركنس: "اذاً، أنت لم تستأصله بكامله!"

غرقت القاعة في صمت رهيب فيما وقف هاركنس أمامي على المنصة غاضباً: "لا أحد يستطيع إزالة ورم كهذا في ثلاث ساعات فقط!" وأمر باجراء تصوير طبقي بعد الجراحة واعتبر علاجي "غير مقبول" واندفع خارجاً من القاعة.

جمعت صور الاشعة فيما تقدم الطبيب المقيم راوول بيريز من المنصة. قلت له: "كنا معاً يا راوول! لقد استأصلت ذلك الورم بكامله!"

رد راوول: "أعرف ذلك، إهدأ الآن. أحضر صور الفحص الطبقي وأثبت له أن الورم أزيل تماماً، ثم انسَ الأمر. أراك في ما بعد."

في الجناح المجاني شرحت لأولاد سادي أن الدكتور هاركنس طلب فحصاً بعد الجراحة للتأكد من استئصال الورم تماماً. وبعد إجراء الفحص وضعت الصورة في إطار المعاينة وأضأت الانوار. غمرتني موجة من الغثيان. لقد استأصلت نصف الورم فقط. وبقي الجزء الآخر، وهو بحجم كرة مضرب، في فلقة أخرى من الدماغ. أوقفت الاستئصال عند "العنق" الذي يصل الكرتين.

"يا إلهي! ماذا ستفعل؟"

نظرت الى الخلف فرأيت راوول يتأمل الصورة. قلت: "سأستأصل بقية الورم. الآن."

"حسناً، إذا كنت ستفعل ذلك الليلة فسأبقى لأساعدك."

بدأنا في تمام الثامنة والنصف مساء. راقبت بالمجهر خطاً رفيعاً من ورم رمادي تسلل في قناة شقها أثناء نموه في الدماغ، وبعد عمق عشرة سنتيمترات

انتشر ليشكّل كتلة مميتة. كانت مهمتي استئصال الورم من دون تمزيق نسيج الشرايين حوله. في الثانية والربع صباحاً أنهيت إزالة الكتلة بأجمعها. كان الورم بحجم دراقة ويوزنها.

قال راوول: "عظيم! لا شك في أنه أزيل نهائياً الآن."

– آمل أن تعود الى وعيها.

أطبق راوول الرأس وعدت الى حجرة الطوارىء واستلقيت ساعة على سرير خالٍ في انتظار استيقاظ سادي من تأثير المخدر. وفي الرابعة صباحاً أيقظتني الممرضة لتخبرني أن سادي استعادت وعيها. وقفت إلى جانب سريرها وطمأنتها الى نجاح العملية.

همست: "أشعر بالبرد."

إنها تتكلم للمرة الاولى منذ ست سنوات!

في الخامسة صباحاً لحقت بالدكتور هاركنس اثناء جولاته الصباحية.

واجهني بفظاظة: "ماذا نتج من التصوير الطبقي لمريضتك ذات الورم الدماغي؟"

– أظهر أن قسماً كبيراً من الورم لم يُستأصل.

"ومتى ستعيد إجراء الجراحة؟"

– أجريتها أنا وراوول الليلة الماضية.

"وهل هي تتكلم الآن؟"

– أجل يا سيدي.

"أحسنت." ومنذ ذلك الحين لم يذكر تلك الحالة قط.

في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩ عدت الى مستشفى ممفيس لانهاء دورة من ستة أشهر في التخصص العالي. إنها مثل العودة الى البيت. فالجراحون هناك يعرفونني أكثر من أولئك في المستشفى المعمداني، وفي وسعي اجراء جراحات أكبر وأهم. وبعد انتهاء الاشهر الستة كنت أجريت جراحات أنورسما أكثر من جميع المتخصصين الذين سبقوني في البرنامج.

في شهر يونيو (حزيران) أثناء مؤتمر عام لجميع جراحي الاعصاب في ممفيس، كنت أعرض مشكلة جراحية صعبة حين أعلن الدكتور هاركنس فجأة أني سأكون كبير الاطباء المقيمين في السنة التالية. أشرق وجهي. وبعد انتهاء الجلسة كان عدد من الاطباء المقيمين ينتظرونني في الردهة. وزعوا السيجار احتفاء وهنأوني.

قلت: "أشكركم جميعاً. لكن هذا ليس بالحدث العظيم."

قال راوول مبتسماً: "بلى إنه كذلك. لقد رزقت صبياً يزن أربعة كيلوغرامات."

لقدْ ولدت جولي طفلنا الثاني: جون كنيون الابن. أشعل راوول سيجاراً لي وابتسم مادّاً ذراعه ورافعاً كفّه. دسست جهاز الارسال في يده وأسرعت نحو المصعد وتوجهت الى مستشفى التوليد.

## "لا نستسلم"

كان مستشفى جون غاستون، حيث تمرنت على معالجة اصابات الحوادث، يحتوي على ٥٤٣ سريراً لضحايا البؤس: مرضى مصابون بطلقات نارية وطعنات خناجر وحوادث سير وذات الرئة وضعف الكلى وداء الزهري والسرطان. وكان المستشفى يعاني عجزاً مالياً وطبياً. كانت الساعات مرهقة.

على أي حال، تميزت أيام الاثنين بالهدوء بعد نهاية اسبوع حافلة بالاصابات. خلال هذا الهدوء الموقت كنا نبحث عن المصابين بأورام الدماغ وجلطات الدم الذين عجزنا عن التعرف اليها بسبب اعراض مضللة.

في إحدى أمسيات الاثنين كنت أراجع بعض الصور الطبقية لمرضى نفسانيين. كانت إحداها إيجابية: إمرأة في الخامسة والخمسين تدعى ميلدرد فارمر تعاني التهاباً سحائياً كبيراً، وهذا ورم في الدماغ قابل للمعالجة. وشخّص مرضها، خطأ، على أنه داء ألزهايمر وهو مرض شبيه بالخرف.

حين قابلت ميلدرد فارمر كانت مسترخية في كرسي ذي عجلات تحك رأسها بكلتا يديها. وعلى رغم انها لم تتكلم فقد كان واضحاً أن رأسها يؤلمها.

وحين فحصتها تبين لي أنها تعاني ضغطاً شديداً داخل الدماغ. تلك الليلة باشرت علاجاً مكثفاً من الكورتيزون لتخفيف التضخم في الدماغ. وصباح الاربعاء نقلتها الى غرفة العمليات.

كان موقع الورم في الجهاز البطيني، وهو الفجوة التي تحوي السائل الشوكي في وسط الدماغ. والوسيلة الفضلى للوصول اليه فتح أعلى رأسها وفصل نصفي الدماغ. أمضيت ثماني ساعات أفتت طريقي نحو الورم. وبواسطة الملقط الكهربائي في يدي اليسرى رحت أكوي الشرايين التي تغذي الورم ثم أمصّ - أو أقطع - أجزاء منه بيدي اليمنى.

أخيراً وصلت الى الجزء الاخير، في حجم كلّة (بلّة)، المتبقي من الورم الذي بلغ حجمه الاجمالي قبضة اليد. لقد تأكّل في مؤخر الجهاز البطيني والتصق بجذع الدماغ. كنت على يقين من أني لن ألام اذا تركته، لأن إزالته تعرّض حياة المريضة لخطر شديد. لكني اذا استطعت استئصال بقاياه من جذع الدماغ، فستعيش مريضتي ثلاثين سنة أخرى بدلا من عشر. قررت المحاولة.

ببطء ودقة بدأت أنزع جزيئات الورم عن جذع الدماغ. فجأة ومن دون إنذار أخذ الدماغ ينتفخ بشدة حتى اني اضطررت الى إمساكه بكفّي لأبقيه داخل رأسها. لم يكن سبب الانتفاخ واضحاً، ولكن من المؤكد أن ميلدرد ستموت خلال ثلاث دقائق أو أربع إن لم تُعكس العملية.

صرخت للطبيب المخدر: "أخفض ضغط الدم حالا! لا أستطيع إبقاء دماغها في الداخل."

- الضغط لا ينخفض، وقد حقنتها جميع العقاقير الممكنة.

"إرفع رأسها إذاً. ربما خفف ذلك من الضغط."

أمسك الطبيب المخدر رأس ميلدرد ورفعه، ثم وضع وسادتين تحت عنقها. الا أن الدماغ استمر في الانتفاخ مثل بالون يمتلىء تحت حنفية (صنبور).

قلت للطبيب المخدر: "لدي ثلاث دقائق بعد، ثم ينفجر الدماغ. تفحص كل الأنابيب والحقن الوريدية."

- جميع الانابيب في مواضعها الصحيحة. هل هي تنزف من الورم؟

"لا، اللعنة! ألا تظن أني كنت سأرى الدم يتدفق من دماغها لو كانت مصابة بنزف؟"

– نبضات القلب تخف. سوف تموت!
"لا تستسلم! يمكننا انقاذها. أعطها المزيد من الأوكسيجين!"
– لا أستطيع ذلك. إني أضغط الكيس بشدة لكن الهواء لا يدخل رئتيها.
"إفحص الانبوب في القصبة الهوائية." بينما كان الطبيب المخدر يفحص الانبوب وضعت كلتا راحتيّ على سطح الدماغ ودفعته داخل الرأس.
صرخ الطبيب المخدر: "يا إلهي! الانبوب مفتول في قصبتها الهوائية!"
"قوّمه! ما زالت لدينا فرصة لانقاذ هذا الدماغ!"
بعد ثلاثين ثانية خمد انتفاخ الدماغ وعاد سريعاً الى حجمه الطبيعي وبدأ ينبض وتراجع الى داخل الرأس. نزعت بقية الورم وأطبقت رأس ميلدرد وانتظرت معها في حجرة التماثل. استعادت وعيها بسرعة وعادت تتكلم بوضوح وشفيت من الشلل بعدما تخطت أصعب جراحة للورم الدماغي.
عندئذ فهمت ملاحظة وجهها إلي ذات يوم جراح أعصاب في المستشفى الميثودي: "الجراح البارع يعرف كيف يتخطى المشاكل، والجراح الابرع يعرف كيف يتجنبها."

## أربع ساعات بعيداً

على رغم العمل الشاق في مستشفى جون غاستون، اتخذت قراراً بالتعطيل يوماً واحداً من وقت الى آخر. أذكر صباح يوم أحد، بعد وقت قصير من التحاقي بالمستشفى، حين بدأت العمل في الثالثة صباحاً لكي أعود الى البيت باكراً.



إنما في الساعة التاسعة أرسل في طلبي الى غرفة الطوارىء لمعالجة مصاب بطلق ناري. تمتمت: "كيف تُطلق النار على المرء صباح يوم أحد؟"
عدت إلى المنزل في الرابعة بعد الظهر. كانت لورا في شهرها السابع عشر وجون في شهره الثاني. وضعت لورا في عربتها الحمراء ومشينا على الرصيف فيما دفعت جولي عربة جون. وبعد جولة في المتنزه عدنا الى البيت، فأطعمت جولي الولدين وغسلتهما فيما توليت أنا شيّ قطع اللحم خارجاً. قرابة الثامنة غفوت في مكتبي وصحني ما زال على حضني. قادتني جولي الى غرفة النوم وساعدتني على انتزاع ثيابي وغطتني في السرير. ثم قبلتني على خدي وهمست: "شكراً، كان نهاراً رائعاً."

فكرت وأنا استسلم للنـوم: أربع ساعات فقط، إنها لا تطلب الكثير.

في إحدى أمسيات ديسمبر (كانون الأول) رفعت سماعة الهاتف لأتحدث إلى جولي لكني لم أستطع تذكر رقم بيتنا. أخيراً وجدته مدوناً على رخصة القيادة. وحين ردت جولي بدا صوتها تعباً وسمعت بكاء لورا وجون. حاولت أن أتكلم إلاّ أن جولي كانت مرهقة من عملها في التعليم وعنايتها بالطفلين. ردّت على أسئلتي لكنها لم تركّز على الحديث. ودّعتها وسألتني كالعادة: "هل تريد مني شيئاً؟"

كانت صادقة في سؤالها، لكننا كلانا كنا ندرك الحقيقة. فهي لا تستطيع مساعدتي كما أني لا أستطيع مساعدتها. في ليلة الميلاد دعا الدكتور هاركنس جميع جراحي الأعصاب والاطباء المقيمين إلى حفلة في منزله. عيّنت وراوول موعداً لجراحة طويلة كي نعتذر عن عدم الحضور. وفي الاسبوع التالي بعد مؤتمر ليلة الاثنين طلب الدكتور هاركنس من جميع الاطباء المقيمين المكوث لعقد اجتماع.

صرخ في الحاضرين: "مقيم واحد حضر حفلتي ليلة الميلاد! هذا منتهى اللؤم والفظـاظة! أنتم لا تملكـون الحس الاجتماعي، وقد وضح لي الآن أن ثمانية أو عشرة منكم منفصلون أو مطلقون. لن أجيز ذلك. أريد جراحين جياداً ورجالا جياداً أيضاً." ثم استدار نحوي: "متى كانت زيارتك الاخيرة للبيت؟"

أجبت: "قبل أسبوعين. كان الجميع نياماً لدى عودتي في الحادية عشرة ليلا ولم يستيقظوا قبل مغادرتي في الرابعة صباحاً. لا مبرر للذهاب الى البيت."

قال: "ليس من السهل أن تصبح جراح أعصاب، وليس من حيلة في شأن ثقل العمل." وفي وقت لاحق أضاف هاركنس طبيبين مقيمين إلى فريقنا وطلب مني ومن راوول التأكد من منح كل مقيم عطلة أسبوعين في السنة.

في يونيو (حزيران) قبل ثلاثة أيام من إنهائنا فترة التخصص، دعانا الدكتور هاركنس إلى العشاء مع عدة جراحي أعصاب وزوجاتهم. ذهبنا بمفردنا. فقد غادرت زوجة راوول الى مكسيكو قبل ثلاثة أيام، وكانت جولي تمضي عطلة مع والديها في أتلنتا ومعها طفلانا. لم يتوقع أحد دعوة عشاء من الدكتور هاركنس.

كنا ١٢ شخصاً وتمتعنا بعشاء شهي على ضوء الشموع. وبعد الحلوى قدم الدكتور هاركنس الى كل منا هدية ملفوفة. وكنت مازحت راوول في شأن الحصول على ٥٠ ألف دولار علاوة حين نتم فترة التمرين. لم يبدُ ذلك كثيـراً بالمقارنة مع الارباح التي وفرنـاها بإنجازنا أعمالا مختلفة، من تصوير النخاع الشوكي الى اجراء جراحات بدلا من الجراحين الكبار في المستشفى. فتحنا الهدايا وأخرجنا منهـا ربطتي عنق زرقاوين ثمن الواحدة ٣٠ دولاراً وعليها شارة الطب السريري. تكلفنا الابتسام امتناناً.

قال الدكتور هاركنس: "حين اخترتكما للتخصص قبل أربع سنوات كنت واثقاً بأنكما رجلان مخلصان. وأثبتت السنوات صحة ذلك. سلّما بما لا تعرفانه أو تعجزان عنه واطلبا المساعدة. تذكرا، متى كان

الطبيب مخلصاً تحسنت نوعية الطب وأفاد المريض."

بعد ثلاثة أيام انتهت فترة تخصصنا. شعرنا بفخر مدهش ونحن نضع ربطتي العنق الجديدتين قبل أن نتوجه الى ادارة المستشفى لتسليم بطاقتي الموقف وجهازي الاتصال والمفاتيح. في الاول من يوليو (تموز) ١٩٨٠ تمام العاشرة صباحاً غادرنا المدخل الرئيسي لمستشفى جون غاستون. سألت راوول: "ماذا تريد أن تفعل؟"

لم يجب. لكني عرفت ما كان يفكر فيه. أسرعنا الى المستشفى المعمداني وصعدنا السلم الى غرفة العمليات ووقفنا بهدوء في إحدى الزوايا نراقب الدكتور هاركنس يستأصل ورماً خبيثاً في الدماغ.

## غرف فارغة

قررت ممارسة الطب في ممفيس. وانضممت الى مجموعة من خمسة أطباء في المستشفى الميثودي برئاسة الدكتور شلتون، وهو جراح أعصاب في عامه الثاني والخمسين أدى دوراً مهماً في فترة تخصصي. ورفعت الممارسة الخاصة دخلي السنوي من ١٤ ألف دولار أثناء التخصص إلى ٧٥ ألف دولار الآن. كما اني أعالج المرضى بحرية من دون إشراف أعلى دقيق. لكني ذهلت لطريقة عمل الطبيب المتمرس.

كان كل جراح يعالج نحو ٢٥ مريضاً في عدة مستشفيات، ويفحص عشرين حالة مرضية أسبوعياً في خمس أو ست عيادات، ويجري جراحات لعشرة مرضى أسبوعياً، ويقوم بجولات في ثلاثة أو أربعة مستشفيات مركزية يومياً. يبدأ يوم العمل قبل السادسة صباحاً وينتهي قرابة السابعة مساء. وهناك أيام العطلة، لكن الابتعاد عن العمل صعب جداً.

في عيد الميلاد تلك السنة بينما كنت أجهز نفسي لمغادرة ممفيس إلى أتلنتا في عطلة تدوم أسبوعاً، أجريت جراحة لمريض يعاني أنورسما متفجرة. كانت الجراحة مباشرة وغير معقدة، إلّا ان تشارلي لاندون استغرق وقتاً طويلا ليستعيد وعيه. ولم يكن يقظاً ونشطاً كما يجب. وأظهر التصوير الطبقي ورماً في دماغه. ليس عدلا تركه في عهدة جراح آخر، كذلك ليس عدلا أن تفوتني عطلة الميلاد مع عائلتي. بدا الخياران ظالمين.

ذاك المساء جلست أمام الموقد في مكتبي وقرأت عدة مقالات حول معالجة الورم الخطر في دماغ تشارلي لاندون. وفي التاسعة نزلت لورا لتقبلني قبل النوم. ضمتني وأمسكت يدي واضعة كفها على كفي مقارنة حجميهما.

ثم همست وهي تنزلق عن حضني: "تصبح على خير." لم أرد على الطفلة، فتفكيري مركز على الرجل الذي يجاهد ليشفى من جراحة دماغه.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنت أفحص تشارلي في جناح العناية الفائقة. كانت حاله مستقرة لكنها لا تخلو من الخطر. أعطيت الممرضة وصفة بالادوية اللازمة وتوجهت الى حجرة الانتظار لاتحدث الى زوجته. كان واضحاً أنها تتمنى بقائي للعناية بزوجها. اتخذت قراري عفواً وأنا أربت ذراعها مؤكدا أملي بشفاء تشارلي.

قدمت أعذاراً عدة لتغيبي عن العطلة، لكن جولي والولدين عجزوا عن اخفاء خيبتهم. يبدو أن مرضاي دائماً يتقدمون عائلتي. بعد الظهر ساعدت جولي في توضيب الامتعة ولوحت مودعاً فيما توارت سيارتها. بعد ذلك أكلت شطيرة وأويت الى الفراش. وفيما أنا أبسط الاغطية وجدت بطاقة من لورا على وسادتي. كان داخلها رسم لشكل يدها ورسالة جاء فيها: "هذا لتذكير أبي عندما أصبح كبيرة وطويلة أني كنت مرة فتاة صغيرة يداها صغيرتان جداً."

تساءلت: هل سأرى لحياتي قيمة بعد سنوات اذا قلّبتُ ماضيَّ ولم أذكر فيه سوى مئات المرضى الذين أنقذتهم ونسيت لمسة يد لورا؟

خلال أسبوع تلاشى الورم في دماغ تشارلي لاندون واستعاد نشاطه وعاد الى منزله.

مع الوقت ازداد ثقل عملي. وفي العام ١٩٨٢ رُشحت للامتحانات الشفهية في الهيئة الامريكية لجراحة الاعصاب. واحتوى طلبي على أكثر من ٤٠٠ إصابة في النخاع الشوكي و٢٠٠ إصابة في الجمجمة.

كانت شهادة الهيئة العقبة الاخيرة لأي اختصاصي. من متطلباتها التخرج في كلية طب معترف بها، وأربع سنوات (خمس في وقت لاحق) من التخصص في جراحة الاعصاب في الولايات المتحدة أو كندا، واجتياز الامتحانات الخطية، وسنتان (الآن سنة واحدة) من ممارسة جراحة الاعصاب مدعومة بالوثائق، والنجاح في الامتحان الشفهي.

كل صباح خلال الاشهر الثلاثة التي سبقت الامتحان كنت أستيقظ في الرابعة لأقرأ بعناية كتاب "جراحة يومن للاعصاب"(٤) بمجلداته الاربعة وصفحاته الاربعة آلاف. كنت أكب على الدرس كل ليلة بعد العشاء والى منتصف الليل. وكان الدكتور هاركنس وغيره من الاطباء يطرحون علي أسئلة شفهية هازئة. أخيراً في الخريف توجهت إلى "عيادة مايو" في روشستر بولاية مينيسوتا لأخضع للامتحان.

عندما تسلمت نتيجة الامتحان بواسطة البريد المضمون فتحت الرسالة وقرأت الاخبار السعيدة بمفردي. لقد انفصلنا، أنا وجولي، وأنهينا زواجاً دام ست سنوات. لم أمنحها السند والاستقرار اللذين تحتاج اليهما. انتقلَتْ مع طفلينا الى أتلنتا وهي تبحث عن عمل هناك.

ما زلت أذكر يوم الفراق. أرادت جولي الانطلاق باكراً لأن الرحلة طويلة. وكان جون ولورا مغفيين داخل كيسي نوم أمام الموقد في غرفة المكتب. نقلنا الاثاث الى الشاحنة. وانحنيت على لورا وجون وقبلتهما على جبينيهما.

تململ جون لكنه بقي نائماً. نحن لم نخرج معاً إلا بضع مرات، بما فيها نزهة الى مخزن بقالة بعد ظهر يوم خريف بارد. ليس هناك الكثير أتذكره، كما أن جون لن يتذكر شيئاً. ألقيت برنس الحمام الازرق على كتفيه واستدرت مبتعداً بسرعة.

استيقظت لورا وقالت: "نحن ذاهبون الى أتلنتا يا أبي. متى ستلحق بنا؟"

كانت لورا في سنها الرابعة وجون في

(٤) Youman's Neurological Surgery

الثالثة. لم يدركا ما كان يجري. كانا يعتبرانه مغامرة.

أجبت: "لست أدري يا حبيبتي. لكني سأزوركم قريباً."

إنهمكت في العمل الى وقت متقدم ذلك اليوم، ولكن لا مفر من العودة الى البيت في النهاية. كان البيت بارداً والغرف فارغة والصوت يصدر صدى. بحثت في غرفة لورا، وأخيراً وجدت قطعة معدنية من إحدى لعبها في زاوية خزانتها. وعثرت في غرفة جون على قطعة من مكعباته الخشبية وكرة مضرب. وضعت القطعتين على التلفزيون ودحرجت الكرة الى وسط الغرفة لأتوهم أن ولديّ ما زالا يلعبان.

ثم استلقيت في فراشي مرهقاً.

## وقت للموت

الرفيق الوحيد الثابت لجرّاح الاعصاب هو الموت. فالسكتات والاورام الدماغية والانورسما والنزف وجلطات الدم تتحدى قدرة الجراح على إنقاذ المرضى. ولكن لا يمكن هزم الموت في الحقيقة، بل تجنبه فقط. فعلى رغم أن الطب أطال فعلا مدة حياة المرء، فإن معدل الوفيات لم يتغير أبداً. يبقى المعدل وفاة واحد لكل امرىء، لكن أساليب الموت تختلف.

حين التقيت بوبي هوبر للمرة الاولى بدا مثل سائر المرضى. كان شاباً لطيفاً في السابعة والعشرين، قصير القامة قوي البنية يعمل في تفريغ حمولة الشاحنات. بعد سنتين من معرفتي به أصبحنا صديقين. قد يكون ذلك خطأ مني، لأنه على طريق الموت مذ التقيته.

يدرب الاطباء أنفسهم على التحفظ والتجرد، هذا الكبت العاطفي ضرورة ماسة عند معالجة مرضى على شفير الموت. إنما أثناء معالجتي بوبي ضعف دفاعي.

عانى بوبي آلاماً حادة في الرأس وصعوبة في التنسيق بسبب ورم خبيث في الدماغ. كان الورم الخطير ينمو بسرعة ويضغط الجزء الخلفي من الدماغ. وعندما علم بوبي بنتيجة التشخيص كان رد فعله الاول الاهتمام بمصلحة زوجته بعد وفاته. لم تبدُ عليه أمارات شفقة على نفسه.

نجحت جراحته الاولى. استأصلت ثلاثة أرباع الورم الواقع في المخيخ. لم أتمكن منه كله. وانتشر قسم من الورم في جذع الدماغ، وسحبه قد يسبب سكتة قلبية. كنت آمل أن تتقلص بقية الورم بفعل أشعة كوبالت وتمنح بوبي فترة أطول من الحياة.

بعد ذلك بدأنا نلعب الشطرنج لأساعده على تمضية الوقت. خلال تلك الساعات أصغيت الى آراء شاب يعاني سكرات الموت بالسرطان. تحدث كثيراً عن قدرة الاطباء على الشفاء بعون الله. كان مؤمناً بذلك من كل قلبه. لكن مرضه لم يزل في بدايته.

بعد بضعة أشهر من مغادرة بوبي المستشفى الميثودي عاد اليه بسبب ازدياد آلام رأسه. أثبت التصوير الطبقي تراكم السائل الشوكي في الدماغ، وأجريت جراحة لسحبه. تحسنت حال بوبي وعدنا نتبادل الاحاديث بعمق أكبر. تحدث عن الموت، لكنه نظر اليه كامتداد للحياة.

أحزنه ابتعاده الموقت عن عائلته لكنه لم يرهب الموت قط.

وذات يوم فيما كنت أتأمل طاولة الشطرنج أجهش بوبي في البكاء. لم يسبق أن شعر بالأسف على نفسه، فحيرتني رؤيته حزيناً.

سألته: "ما الامر؟"

دفع الي ورقة مجعدة وقال: "أنظر ما قرأت في الصحيفة اليوم."

قرأت في القصاصة عبارة للكاتب والمصور والتر رندر: "نحن نأتي الى الارض بمفردنا ونغادرها بمفردنا، فهذا الوقت الذي يسمونه الحياة هو فرصة للمشاركة."

نظر بوبي الي وقال: "كنت آمل أن أشارك في الحياة أكثر مما فعلت."

حدقت خارج نافذة المستشفى مفكراً في لورا وجون وهما يعيشان الآن في أتلنتا. لم أرهما الاّ قليلا. وعلى رغم صمتي أدرك بوبي أني فهمت قصده.

ذات صباح حين أتيت المستشفى بدا لي واضحاً أن بوبي يعاني سكرات الموت. تعذر عليه تركيز عينيه، وكان تنفسه متثاقلا. فكرت في وخز إبرة في دماغه لسحب مزيد من السائل لتخفيف الضغط. لكني أدركت أن من غير المجدي محاربة القدر المحتوم. تأملت كلمات الصحافي الامريكي ستيوارت ألسوب في "إرجاء الاعدام" الذي كتبه وهو ينازع الموت من داء ابيضاض الدم (اللوكيميا): "المنازع يحتاج الى الموت مثلما يحتاج النعسان الى النوم، ويحين الوقت عندما تصبح المقاومة خطأ وغير مجدية."

راقبت بوبي يلفظ أنفاسه قبل فجر اليوم التالي. كانت زوجته ووالداه الى جانبه وعملوا على تعزيته.

## أسرار عائلية

في مساء صيفي في يونيو (حزيران) ١٩٨٤ رحلت عن ممفيس بعد ثماني سنوات من المكوث هناك. وبينما كنت أراقب أضواء المدينة تتلاشى في مرآة سيارتي تدفقت الذكريات الى رأسي: سنوات زواجي الاولى السعيدة، لورا وجون، ٢٤ ساعة يومياً من العمل، طلاقي، جراحات ناجحة. توجهت جنوباً نحو أوبرن في ألاباما حيث ولدت وبدأت دراستي وصممت أن أصبح طبيباً. لقد قايضت عملي في ممفيس التي يبلغ عدد سكانها مليون نسمة بمزاولة خاصة للطب في أوبرن وهي بلدة لا يتجاوز عدد سكانها العشرين ألفاً. كذلك سأصبح رئيس قسم الجراحة في المركز الطبي لشرق ألاباما.

وصلت في السابعة صباحاً، وكان السير خفيفاً في الشوارع. مررت بالبيت القرميد الجميل حيث نشأت وترعرعت. بدا متينا بعد ترميمه. لقد تأكل مثلي مع السنين.

في بداية مزاولتي الجديدة التقيت مزارعاً يدعى تشارلي هندرسون. كان في عامه الثامن والسبعين لكنه بدا في الستين. توفي والده وهو في السادسة عشرة فتسلم أعمال المزرعة والماشية. في الثامنة عشرة تزوج روث لانكستون ابنة الطبيب البيطري في المنطقة. رزقا ثلاثة أولاد: ابناً غادر البلدة لاحقاً، وآخر توفي بداء السل، وابنة مطلّقة.

أخبرني كل هذه الامور وغيرها أثناء

اقامته ثلاثة أسابيع في المستشفى حيث كان يتعافى من سكتة دماغية. كذلك بحثنا في موضوع طلاقي وولديّ المقيمين في أتلنتا. لمَ هذا الاهتمام بي؟ هل بسبب افتقاده أولاداً يتحدث اليهم؟ أم انها نصائح لم يستطع تقديمها الى أحد؟ ربما. كان ينهي حديثنا دائماً بابتسامة وغمزة قائلا: "سأخبرك يوماً سر الزواج السعيد."

صفر حزام ضغط الدم بينما كنت أنفخه وقرأت القياس: ٨٠/٥٠. إنه منخفض جداً. لقد شلّت السكتة الجزء الأيسر من جسمه وغشّت نظره لكنها لم تؤثر في ضغط دمه. كما انه لا يشكو ألماً في صدره أو معدته. أخذت عينة من دمه لفحصها في المختبر، لكن دمه كان طبيعياً مما يدل على انه لا يعاني نزفاً داخلياً. لا بد من مسبب آخر للضغط المنخفض. رجعت الى غرفته لافحصه بدقة أشد.

من المدخل الخارجي رأيت روث هندرسون تساعده على الجلوس في السرير. ولدى انتصابه أسند جسمه بذراعه اليمنى السليمة، وهو رجل طويل القامة (١٩٣ سنتيمتراً) وقوي الذراعين. بدأت روث تدلّك ظهره عندما انحنى رأسه فجأة وهوى على الارض. أسرعت لأساعدها على حمله الى الفراش. ثم طلبت من ممرضة أن تأتيني بالسائل الوريدي وآلة تخطيط القلب. وضعت القطب الكهربائي على صدره وانتظرت.

أذهلتني النتيجة. أظهرت الصورة البيانية إصابته بنوبة قلبية حادة من نوع غريب صامت لا يرافقه ألم في الصدر. فهمت الآن سبب انخفاض ضغطه. لقد أتلفت النوبة عضلات كثيرة في القلب مما جعله عاجزاً عن ضخ الدم.

كذلك أدركت أن تشارلي سيموت.

جلست على طرف السرير وأخبرته أنه تعرض لنوبة قلبية وعليه البقاء في الفراش مدة أطول.

سألني: "الامر أسوأ من ذلك، أليس كذلك؟"

"بلى."

"كم من الوقت؟"

"بضع ساعات،" أجبت برقة.

مدّ هندرسون ذراعه اليمنى ووضعها حول عنق زوجته وضمها اليه. حقنت عقار "دوبامين" في السائل الوريدي لأقوي نبضات القلب وأرفع ضغط الدم.

راقبني تشارلي وقال: "لا تحاول وسائل مستحيلة."

"حسناً يا سيدي."

استمر هندرسون معانقاً زوجته يلاعب شعرها الابيض بأصابعه الكثيرة العقد. ثم لمس خديها وشفتيها.

وعندما انهمرت دموعها على صدره مسح عينيها بيده، تلك اليد الخشنة العاملة الرقيقة بلمساتها.

"لقد أمضينا معاً ٦٠ عاماً سعيداً يا روثي، أليس كذلك؟"

– بالتأكيد.

"كنت دائما أجمل فتاة في الجوار."

– في العام ١٩٣٠ يا تشارلي كنت الفتاة الوحيدة في الجوار.

"حسنا ما زلت الأجمل." كان يرتعش وبدأت البرودة تشتد في جسمه لانخفاض ضغطه. وفي وقت وجيز لاذ بالصمت ولم أعد ألاحظ سوى تحركات أصابعه في شعر



زوجته. ثم رأيت يده تسقط إلى جانبه.

أخذت روث خارج الغرفة إلى حجرة الانتظار. كانت ابنتها هناك وحاولت روث تعزيتها قائلة: "أمضينا معاً حياة رائعة يا عزيزتي، وحبنا سيبقينا معاً على رغم افتراقنا."

قلت بهدوء: "يا سيدة هندرسون، أتسمحين لي بسؤال: لقد اعتاد السيد هندرسون أن يقول لي انه سيخبرني يوماً سر الزواج السعيد. لكنه لم يفعل أبداً. أيمكنك أن تخبريني ما كان سيقول؟"

أجابت: "لا أعرف بالتأكيد. لكني أعلم أنه عاش حبه كل يوم ولم يخف أبداً من إظهار عواطفه نحوي."

– فهمت.

"وسأخبرك أمراً آخر، ولا أظن أن تشارلي قد يمانع. معظم الليالي كنت آوي الى الفراش قبله. وعندما يأتي هو كنت أغلق كتابي وأطفىء النور وأمسك يده. كان يقبلني قبل النوم ثم يهمس في أذني: "روثي، هذا أفضل جزء من يومي."

ذات يوم صيفي حار عدت الى البيت في السابعة مساء. بقيت لي ساعة متبقية من نور النهار. وجدت رسالة في علبة البريد وميزت خط ابنتي المخربش.

كالمعتاد وجهت رسالتها الى "والدي رينر." قعدت على السلم وبدأت القراءة مستمتعاً بكل كلمة.

"والدي العزيز، أفتقدك كثيراً. ذهبت للسباحة اليوم. أستطيع القفز من اللوح العالي. أرجوك، تعال حالا. أحبك. لورا."

داخل المنزل بحثت عن منديل لأجفف دموعي ثم توجهت الى مكتبي. عليّ أن أعلم لورا كم أحبها. يجب أن أعيش حبي كما فعل تشارلي هندرسون.

كتبت: "عزيزتي لورا،" لكن رنين الهاتف قاطعني. إنها ممرضة تتصل بي من غرفة الطوارىء.

"لدينا مريض مصاب بطلق ناري في رأسه، وطبيب غرفة الطوارىء يحتاج اليك، بسرعة."

سأصل حالا.

قفزت من مكاني ووقفت بجانب طاولتي أنظر الى الرسالة التي بدأتها.

ثم فكرت: غداً. سأكتب الى لورا وجون في الغد.

**الدكتور ج. كنيون رينر**

ترجمة أسنسيون فيصل